

بَيَانُ الْهَدْيِ مِنَ الضَّلَالَةِ

فِي الرَّدِّ عَلَى صَاحِبِ الْأَغْلَالِ

تَأَلَّفَ لِي

الْعَلَّامَةُ الْمُحَقِّقُ الشَّيْخُ

أَبْرَاهِيمَ بْنَ عَبْدِ الْغَيْزِ السَّيُوحِ النَّجْدِيِّ

الْقَضَايُ الشَّرْعِي

وَرِئِيسُ مَحَاكِمِ الْمَقَاظِمَةِ الشَّمَالِيَّةِ (فِي الْعِلَالَةِ وَتَبْوَكْ وَمُلْحَقَاتِهَا)

الْجُزْءُ الْأَوَّلُ

حَقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

١٣٦٨

الْمَطْبَعَةُ عِبْرَتُ الْبَيْتِ الْفَنِيِّ - وَمَكْتَبَتُهَا

٢١ شارع الفتح - بحزيرة الروضة (القاهرة)

تَبَارَكَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أُنْشِئَ لَهُ فَاوْزَنُ مِثْقَلِ ذَرَّةٍ فَلَنَجْزِيَنَّهُ

حَيَاةً طَيِّبَةً، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ حَسَنًا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

النحل ٩٧

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلَّهِ مَنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ

المنافقون ٨

لَا يَعْلَمُونَ﴾

﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ، إِنْ اللَّهُ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ

الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّا لَهُمُ الْأَرْضَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ

وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، اللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾

الحج ٤٠ - ٤١

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْغَبُ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِّي

ذَكَرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾

١٢٣ - ١٢٤

القرآن الحكيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك الحق المبين ، وأشهد أن محمداً
عبده ورسوله الصادق الأمين ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه ومن
تبعهم بإحسان الى يوم الدين

أما بعد فإني وقفت على كتاب الفقه عبد الله بن علي القصيمي (١) سماه
(هذى هي الاغلال) . ووجه تسميته بهذا الاسم - على زعمه - أنه نظر الى
ما أصاب المسلمين من التأخر والضعف ، ففهم أن ذلك إنما نشأ عن ارتكاب
أموار أوثقت المسلمين عن العمل ، وعاقبتهم عن اللحق بمن سبقهم من الأمم
الغريبة ، فكانت هذه الامور التي ارتكبوها كالأغلال التي تعوق الإنسان عن
السير الى غايته ، وقد ضل في هذه التسمية كما زل في موضوع مسماه

وقد ذكر في أول كتابه هذا أنه بذل جهده في البحث عن الأسباب التي
أخرت المسلمين الى هذه الحالة ، وسأل كثيراً ممن اجتمع به عن أسباب هذا
التأخر ، وما وجد أحداً عنده معرفة تكفي في بيان الحقيقة . وليته طالع كتاب
جمعية أم القرى (٢) وأمثاله ليقنع به ويسلم من التعب ان كان صادقا ، ولكنه
- ويا للأسف - ذكر أنه وجد سبب هذا التأخر وعرفه حتى لم يكن لديه أدنى
شك فيه ، فوهم هذا الوهم الخاطئ الذي أبرزه في هذا الكتاب . وحاصله (أن
التمسك بالدين هو الذي أخر المسلمين) فظفر بعد التعب بهذا الوهم المقلوب

(١) هو الذي لقب نفسه بهذا اللقب ، وإلا فلا يعرف له نسب من جهة أيه
في القصيم

(٢) ويسمى أم القرى ايضا ، للعلامة المصاح السيد عبد الرحمن الكواكبي
الحلي رحمه الله . وكتبه محمد نصيف

الذى وجهه الى الوراء وتصوره هو الحقيقة التى لا مرية فيها ، فسقط منتكسا على أم رأسه فى هاوية عميقة من أجل هذا الوهم المقلوب والتصور المعكوس ، ثم ادعى أن ما صنعه هو الدواء الوحيد الناجح ، فضرب بذلك عقدة مشومة على تلك العقد التى أراد حلها ، وزاد المريض وهنا على وهن والمصيبة بلاء على بلاء . وهكذا كل من أراد أن يصنع دواء وهو لا يعرف كيفية الداء وتشخيصه ولا يعرف الدواء وتركيب مفرداته ، فانه ولا بد أن يكون دواؤه مضرا إن لم يكن ساما قاتلا

إن من أعظم فساد التصور عكس الحقيقة الواضحة التى لا شك فيها عند جميع العقلاء وتغييرها عن حالتها الوضعية ، وهذا التصور المعكوس قد تطور ظهوره فى كثير من ذوى العقول الضعيفة المعجبين بأنفسهم من العصرين الذين لم يستضيئوا بنور الوحي ولم تفهم قلوبهم تعاليم الديانة الصحيحة ، والقلب إن لم يستمد حياته من نور النبوة فانه إن يفلح بل يكون مظالبا مريضا ، فتكون آراؤه وتصوراتها كلها مظالة مريضه لأنها صادرة عن تفكيره واراذه

وهذا الضرب فى الناس تجدهم بمجرد ما يبدو لهم أدنى لامع من لواضع المخترعات العصرية يقذفون بأنفسهم عليه كالفراس الذى يقذف بنفسه على ضوء المصباح الضئيل ، فيعشقونه ويظنون دائرين حوله دوران الفرش على مصباحه فلا ينزعهم عنه نازع ولا يردم عنه رادّ مهما حاول واجتهد ، ما دام هذا اللامع الضئيل مضيئا ، حتى يحرقهم أو يطفأ ضوءه . أما نور الشمس الواضح فانهم لا يرونه إلا صدفة أو كرها ، وإن قابلوه كاد أن يذهب بأبصارهم فتجدهم ينفرون منه ويهربون الى كل نفق وملجأ

لسنا بحاجة هنا الى الاستدلال على فساد تصور هذا الرجل وكثرة تقلب آرائه ، فان مضادة كتابه هذا لكتبه السابقة فى كل شيء أمر لا يخفى على كل من تدبر ذلك . وقد أشار فى كتابه هذا الى أنه قضى عصرا من حياته وهو معتقد خلاف هذه الآراء التى نشرها فى هذا الكتاب . ولا شك أن اضطراب الرأى وتناقض الاعتقاد فى الأصول الضرورية الثابتة القطعية من أظهر

الدلائل على فساد التصور ، ولا سيما مع دعواه في كل من هذه الكتب المتضادة بأن ما اعتقده وقرره فيها مبنى على براهين ثابتة صحيحة . ومعلوم أن البراهين الثابتة لا تتناقض ، وهذا بخلاف الآراء الجزئية التي تبنى على الظنون والقرائن وامثال ذلك

لقد استغرب الناس انقلاب هذا الرجل بهذه السرعة ، وانسلاخه من آيات الله التي تظاهر بنصرها من قبل ، فذهبوا يتساءلون عن الأسباب التي أحدثت هذا الانهيار الخلقى والانقلاب المفاجيء الغريب والانسلاخ البلعامى المنكر ، لأن هذا الرجل كان يتظاهر قبلا بنصر السنة وقد ألف في ذلك كتباً معروفة طريقتة فيها - كما قلنا - نقيض طريقتة في هذا الكتاب ، فكان كتابه هذا هدماً لها من أساسها ، كالتى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً ، فساءت لذلك فيه الظنون ، وذهبوا يعللون هذا التراجع والتقهقر تعليقات شتى بحسب ما يظهر من القرائن ، فعلى كثير بأنه ارتشى من بعض الدعايات المخاربة للأديان واستدلوا على ذلك بأمر كثيرة ستبين أكثرها في ثنايا هذا الكتاب ، ثم هو ليس بمن عرف بالتقوى والديانة المتينة التي تحجزه عن الدخول في هذه المزالق الخطرة ، فإن من سبر حاله علم أن به زهواً وعجباً بنفسه غير قليل ، ينبىء عن ذلك قوله من قصيدة له (١) :

لو أنصفوا كنتُ المقدم في الأمر	ولم يطلبوا غيرى لدى الحادث النكر
ولم يرغبوا إلا إلى إذا ابتغوا	رشادا وحزماً يعزبان عن الفكر
ولم يذكروا غيرى متى ذكر الذكا	ولم يبصروا غيرى لدى غيبة البدر
فأنا إلا الشمس في غير برجها	وما أنا إلا الدرّ في ليج البحر . . .
أعجل نفسى بالأكاذيب والمنى	وقد ينفع الكذاب في ساعة الشر .
فلولا رجسائى والرجاء مخادعى	لعدت بشر لا يضيق به صدرى

(١) في أول الفصل الخامس

وقال في أخرى :

حتى جريت فكل الناس في أثرى وإن وقفت فما في الناس من يجرى
وخلق بمن هذا عقله ورأيه أن يشتري الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة
وأن تكون عاقبته غير حميدة

إن من الغباوة الشديدة والبلادة المحققة أن ننخدع بتلك التموهيات التي
خادع بها في بعض كلامه في كونه ما يريد الا الاحسان ، وأنه مؤمن بالله
واليوم الآخر ، فكلا وهيات وأنى ذلك ، بل هذه الدعوى جريمة فوق جريمة
فكيف يجتمع الايمان بالله واليوم الآخر مع محاربة الدين وسبه وتشويهه
ورفضه ، وكيف يصرح الانسان بقول واعتقاد أو يعمل عملاً ثم يدعى أنه
يريد خلاف ما يقول ويعمل ، فان هذا غير مقبول لا شرعاً ولا عقلاً ولا
عرفاً ، فالمنافقون الذين قالوا للرسول ﴿ نشهد إنك لرسول الله ﴾ كاذبون في
شهادتهم بشهادة الله تعالى عليهم ، كما أن الذين بنوا مسجد الضرار وحلفوا أنهم
ما أرادوا الا الحسنى كاذبون في هذه الدعوى بشهادته تعالى عليهم أيضاً ، لأن
كلام من هؤلاء فعلوا ما يضاد أقوالهم وادعاءهم ، فأصل النفاق مضادة القول
للفعل ، ولو أن رجلاً أهان المصحف أو سعى في هدم الكعبة ثم ادعى أنه
يريد بذلك التعظيم والاحسان لقطع الناس بكذبه ، وكما لو أن رجلاً حارب
نظاماً محترماً من الأنظمة المعمول بها وبذل جهده في ازالته وتشويهه وخلعه
ورفضه ثم ادعى مع ذلك أنه مؤمن به ومعظم له فلا شك عند العقلاء أنه
كاذب متلاعب وأن دعواه هذه مكر وخادعة ، وقد حذرنا الله سبحانه عن
الاغترار بمثل هذا القول من فعل هذا الفعل بقوله تعالى ﴿ ومن الناس من
يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما
يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ الى آخر الآيات . وقال تعالى ﴿ اتخنوا
أيمانهم مجنة فصدوا عن سبيل الله انهم ساء ما كانوا يعملون ، ذلك بأنهم
آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ والآيات في هذا كثيرة

واضح . وقد صادف هذا الخداع البسيط المموء قلوبا خلفا ليس لها نصيب من البصيرة في معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله ، فبقيت مضطربة في أمره تتعبط في ظلمات الجهل والريب ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ إن أعظم جرم يجره الإنسان على نفسه وعلى أمته أن يذهب إلى الكمالات السامية والمبادئ الأساسية العادلة العالية التي شهدت العقول السليمة بكمالها الكمال الذي لا نهاية فوقه ، واتضح ذلك اتضاحا لا يمكن جحده ، فيفهم من هذه الكمالات خلاف حقائقها وخلاف أوضاعها المعقولة ، فيظل مندفعاً بلا أدنى هوادة إلى قلب صورتها وتحويلها إلى ضدها سواء كان ذلك جهلاً أو تجاهلاً ، ثم يدعي مع ذلك أنه بفعله هذا صنع إحساناً إلى قومه ، فيكون ممن زين له سوء عمله فرآه حسناً ، وهذا غاية الضلال والبعد عن سواء السبيل

إن من تأمل ما في هذا الكتاب المنكر علم بلا أدنى شك أنه دعاية خبيثة . مقصود بها هدم الإسلام والمروق منه بتشويه أوضاعه ومحاسنه بالكذب والتزوير والبهت والنفاق ، فيجب على كل ذى علم وصلاح وغيره على ديانتته أن يقوم ضده ويبدل غاية جهده في محاربته والتحذير منه ، فإن فيه خطراً كبيراً على كثير من الناس لما فيه من النفاق العميق وليس الحق بالباطل بالدعاوى المزخرفة ، وفتنة للذين في قلوبهم مرض من الطبقات المتطرفة الذين لم ترسخ علوم الشريعة في قلوبهم ، ولم يفهموها فهماً صحيحاً ، والقلوب الفارغة أسرع قبولاً للباطل من الحق ، فإن القلب إن لم يكن مشغولاً بمعرفة الديانة الصحيحة مستمداً حياته من نورها كما ذكرنا فإنه يكون عرضة لتأثير الأوهام والخرافات المزخرفة بصوغ العبارات وبهرجة الاستدلال عليها

ولما كان هذا الرجل مصروفاً عن الحق والهدى ، قد انصرف إلى نصر دعايته التي هي غاية الجهل والردى ، بأقصى ما لديه وبكل ما يعول عليه ، ورأى أن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية كلها واقفة في رده ما يرمى إليه وضد ما يدهو إليه أسهب في تطويل المجادلة وأطنب في إخفاء الحقائق بالمغالطة في

كل كتابه في هذا الغرض ، محاولا صرف النصوص الشرعية عن مدلولاتها الى ما يوافق هواه ولو خرج عن الحدود اللغوية فضلا عن الحدود الشرعية ، فبعضا حرفه ، وقسما كذب به ، ونوعا آخر أعرض عنه ، فكان حاصل مقاله وحاله التكذيب بالكتاب وبما أرسل الله به رسله والجدال الطويل في ذلك ، بتقدير دخوله فيمن قال الله فيهم ﴿ ألم تر الى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون ، الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسنا فسوف يعلمون ، اذ الاغلال في اعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم في النار يسجرون ﴾ فكتابه هذا سلسلة أغلال صنعتها يد شقاوته لنفسه لما اختار العمى على الهدى وآثر الحياة الدنيا ، وما من شك لدينا أن له قصدا سيئا في ابراز هذا الكتاب الشنيع ، فثله لا يحفل ما فيه من صرائح الكفر وقبائح الالحاد ، فان كلامه في هذه الأمور واضح كالشمس لا يخفى الا على أعمى البصيرة كما سوف ترى ووضح ذلك فيما يأتى مفصلا

وقد عمد هذا الرجل الى كل ما كتبه الملاحدة من أعداء الدين وزنادقة الكتائب الذين بذلوا وسعهم لتشويه الأديان لدى العامة ليلبسوا عليهم دينهم متذرعين بذلك الى نقلهم عنه تدريجيا الى الاباحية التي هي نهاية الكفر والالحاد ، فاخذ هذا الرجل عصارة تلك الآراء المسمومة ونشرها في هذا الكتاب وموه عليها بشيء من النصوص التي ظن أنها توافق هواه ، فخلط الحق بالباطل وتروى لقصده الخبيث ومكره السوء ﴿ ولا يحق المكر السوء الا بأهله ﴾ . وقد جعل كتابه هذا عشرة مباحث وخلاصة ، وكل بحث يشتمل على مقالة ذكر فيها أنها من الأسباب التي أخرجت المسلمين ، وذكر في الخلاصة حاصل ما ذكره في كتابه كله وسماها المشكلة التي لم تحل ، وأبان فيها صريحا مقصوده وما يرمى اليه ، وهو أن الإيمان بالله وتصرفه في العالم هو سبب التأخر ، وأن التدين مضاد للرقى

وفي مباحث سلسلة هذه الأغلال من الجنون والتخليط والجريمة الحادة

على الدين والاستهزاء به وبأهله والوقاحة والتهكم بأصوله وفضائله ما لا نعلم أحدا من الكافرين والمنافقين سبقه إلى مثله ، حتى أنه تصرف في النصوص المقدسة طبق ما يوافق هواه من المعاني ، فما خالفه حرفه أو كذب به ، وما ظن أنه موافق له قبله وصدقه واحتج به بكل حال ، وقد أدخل مع ذلك في هذه المباحث من البهرجة والنفاق والتلبيس وإخراج الباطل في قالب الحق شيئا كثيرا جدا يتبين من ذلك أنه من أعظم الدعايات إلى الكفر والألحاد

وقد رأينا أن نسلك في هذا الرد عليه مسلكا متوسطا مقبولا فنتكلم على تلك المباحث ونجيب عن كل ما اعتمد عليه في الانتقاد على الدين والمتدينين ، كما نجيب عن كل ما ادعاه ونسبه إلى الدين من الأمور الباطلة التي أضافها إليه بعد نقل كلامه بحروفه في هذه الأمور ، ونحذف ما هو مكرر أو ما لا حاجة ضرورية إلى الرد عليه غالبا ، ونشير إلى المحذوف أحيانا إذ تتبع كلامه يستدعي تطويلا قليل الفائدة ، وكلامه كله يدور على أصلين أحدهما الحث على رفض الأديان ، والثاني الانهماك في تعلم نواميس الطبيعة والاعتماد الكلي عليها لأن ذلك عنده هو سبب التقدم والمجد المنشود

فصل

وها هنا إحدى عشرة ملاحظة تطلعك على أصول كلامه التي يدور عليها ، وتعرف بها كيفية ردنا عليه فيها ، وتسهل لك حل بعض مباحثه المعقدة :

(الملاحظة الأولى) أن تعلم أن طريقتنا في رد ما في هذا الكتاب هي طريقة من يريد بيان الحق وإزالة الباطل بالطريق الصحيحة الشرعية والعقلية المقنعة لكل منصف عارف يميز الحق من الباطل تمييزا صحيحا ، ليست بطريقة من يحاول اقناع خصمه فقط ، فإن سلوك هذه الطريقة لا يفيد مع مثل هذا الرجل ، لأنه اعتقد اعتقادا شادا وحصر الحق فيه وحده ، ولبس أحيانا في تعمية قصده وإرادته : تارة بالتجاهل ، وحيناً بالمغالطة ، ومرة بالعناد

والمكابرة ، فإنه رفض امرأ وخاربه باطنا وظاهرا ، ثم ادعى أحيانا في الظاهر أنه يراه ويعمل به ، فكان قوله لاضطراب حالته وقصده معقدا ملتبسا متناقضا لا يستقر على حالة ثابتة ، ومثل من هذه حاله لا يمكن اقناعه بجميع الوسائل الميينة للحقيقة ، لأن قصده الحقيقي اتباع هواه ورأيه الشاذ لا الحق ، ولهذا فإننا نستدل بالنصوص الشرعية حقيقة كما استدل بها هو في كتابه مخادعة ، ونستدل بالمعقولات الصريحة والهرعد الثابتة والضرورة المحققة لأننا نتكلم بلسان المتدين الصادق كما أنه تكلم بلسان الملحد المنافق ، وقد وضع كتابه في الحط على المتدينين فكان الرد عليه بلسان أحدهم ^(١) ولا يحسن أحد أننا لا نعتمد على دلالة العقل مطلقا ، بل إننا نعتمد ذلك ونرى أن من الأدلة العقلية ما يفيد اليقين ، ونعلم من حيث الجملة أنه ليس في الشريعة المطهرة ما يخالف المعقول الثابت في نفس الأمر أبدا ، وما يزعمه البعض من وجود التعارض في بعض الأشياء فليس لذلك حقيقة ، بل هو فساد في فهم من زعم ذلك ، فإنه اما غلط في فهم المنقول أو في نظرية المعقول أو فساد في إحدى مقدمات أحدهما ، وعند تحقيق البحث في ذلك تبين العلة وأنها خارجة عن حقيقة المعقول والمنقول كما بين ذلك الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب العقل والنقل بالبراهين القاطعة الواضحة

(الملاحظة الثانية) اعلم أن روح كتابه وموضوعه هو الحث على رفض الدين بل الأديان كلها ، ودعوى أن الاتحاد هو أساس الرقي والتقدم كما صرح بذلك فيما يأتي في مواضع لا تحصر . وقد جره هذا المغزى الخبيث الى ما ادعاه إخوانه من ملاحظة العصر حيث ادعى أن الناس لا بد من أن يكونوا على ثلاث حالات : إما على دين صحيح ، وإما على دين باطل ، وإما على غير دين

(١) ولو أنه سلك مسلك الملاحظة المحض الذين لم يدخلوا في الاتحاد نفاقا وخداعا لساكننا في الرد عليه مسلكا آخر يبطل جميع ما يعتمد عليه من الباطل بآداة عقلية خضعة

بل على الحاد محض . اما الدين الصحيح فقد صرح بأنه لا يعرف ، وأن الناس عاجزون عن معرفته ، فقد سد هذا الباب سدا محكما ولكنه استثنى النادر غداة ، ومعلوم أن النادر لا حكم له فوجوده كعدمه ، فعنده أن الله كلف الناس ما لا يطيقون حيث صرح بأنهم عاجزون عن معرفته فقد كلفهم ما هم عاجزون عنه . وأما الحالة الثانية فانه اجتهد غاية جهده في أن يعزو الى الدين من القبائح والفساد وسوء السمعة ما لا يوجد فيه أبدا ، وتوصل الى ذلك ببعض كلمات للاتحادية من الصوفية ونحوهم وعزاها الى المسلمين ليثبت بذلك أن الدين قد فسد وأن الناس على دين باطل ، ليسهل لهم الطريق الى رفضه حيث صرح بأن الدين الباطل آلة ضعف وانحطاط ، وان الاتحاد المحض لا يقف في وجه الرقي والتقدم ، فحصر التقدم والرقي في الدين الصحيح أو الاتحاد الصريح ، والتأخر في الدين الباطل ، ثم نفى معرفة الأول أى الدين الصحيح وأثبت وجود الحالة الثانية لتترك ، وسهل الوصول الى الحالة الثالثة أى الاتحاد المحض لتسلك بل اوجب ذلك لأن الأولى غير معروفة ، والثانية لا يمكن الإقامة عليها ، والثالثة متيسرة والظروف تقتضيها . وسر المسئلة أنه ادعى أنه وضع كتابه للبحث على التقدم وجعل التقدم محصورا في حالتين إما في الدين الصحيح أو في الاتحاد المحض ، ثم سد باب الحالة الأولى وادعى أن ذلك لا يكاد يعرف أو يوجد ، فاقضى أن يكون الكتاب في الحث على اعتناق الاتحاد المحض بضرورة التقسيم ، لانه لم يبق الا حالة الدين الباطل وقد قرر أنها توجب التأخر فهو لا يريد لها على دعوى وضع الكتاب ، بل جعلها وسيلة الى رفض ما عليه الناس اليوم لأنه قرر أنه دين محرف واهم فلا بد من رفضه أى هو دين باطل فيجب خلعها ، فتأمل هذا يزل هناك تلبيس كثير مما خادع به ضعفاء البصائر . وستأتى مناقشته في هذه الدعوى العريضة تفصيلا (١) ، ويبان ان

(١) في المشكلة التي لم تحل في آخر الكتاب

هذا التقسيم باطل من أصله ، وأن التفريع عليه ساقط سقوطا بينا
وقد حملته غلوه واسرافه في تشويه سمعة الاسلام وإفساده لاجل رفضه
على أن يخترع وهما كاذبا خاطئا في أول كل بحث من مباحث هذه الاغلال ،
فيدعى أن الناس والمسلمين على هذا الاعتقاد أو هذا الرأي أو العمل ، وأنهم
يدينون ، به ولا يخص طائفة دون طائفة ولا قوما دون قوم ، ثم يستشهد لهذه
الدعوى الكاذبة الخاطئة إما بحكاية عن صوفي أو بحديث باطل أو ضعيف لا
أصل له أو صحيح لكن يجعل معناه على وفق هواه - وإن كان المسلمون كلهم
مخالفين هذا الرأي - ثم اذا اخترع هذا الكذب وسبكه على ما تقتضيه إرادته
وشهوته وهواه ربح به المسلمين واضافه اليهم وجعله رأيا ومعتقدا لهم ، ثم
أخذ في الرد والتشنيع عليهم والتشتم والاستهزاء والسخرية بهم فيما نسبة اليهم
زورا وجورا . وهذه القاعدة المنكرة أصل كبير في كتابه بنى عليها أكثر ضلاله
وفرع عليها غالب أقواله ، وهى من أعظم العوامل التى تنفر عن الاسلام
وتسئ السمعة وتشتم به الأعداء . وقد اقتبس هذه العملية من دعاية المبشرين
من أزداد الاسلام وأعدائه للتفجير منه ، وهى من أعظم ما يرجح صواب
قول من قال انه خدم بكتابه بعض الدعايات اللادينية لغرض دنيوى كما سلف
(الملاحظة الثالثة) يجب أن يعلم أنه لحرصه على التلبيس وخطأ الحق
بالباطل ومزجه به مكر وخداعا أنه كثيرا ما يعطف الجمل الكفرية والجمل
المشبهة والمسائل المباحة والصحيحة بعضها على بعض ثم يجعل الحكم عليها
حكما واحدا من غير تفصيل ، فتارة يذكرها مضافة الى المسلمين ويدعى أن
حكمها لديهم واحد ، وتارة يذكرها عنهم ويحكم عليها حكما واحدا بلا فرق ،
وهذا التلبيس والمراوغة كثيرا ما ينتج عنها فى مضائق كتابه فى مواضع لا تحصر
كقوله ص ٢٨ ، إن رقاب كل هؤلاء تخضع وهامهم تنحنى أمام المشكلات
الإنسانية الكبرى كشكلة الفقر ومشكلة المرض ومشكلة البطالة ومشكلة الجذب
ومشكلة الجهل ومشكلة الأخلاق ومشكلة الاستقلال والسيادة الوطنية وكل

مشكلة ، ويرون أنهم ليسوا أهلاً لحل مشكلة من هذه المشاكل ، بل وأنهم غير مخاطبين بحلها ، بل وأن محاولة حلها وعلاجها من التناول على الله ومن محاولة الوثوب على مقام الألوهية المقدس . وما عليهم إلا أن ينتظروا من الله أن يصنعها لهم كما يشاؤون ويشتهون الخ ، فبالله عليك تأمل ما في هذا الكلام من الخلط الفاحش والخطأ المدهش والبهت والفجور العظيم في دعواه أن المسلمين يرون أن حل مشكلة الجهل والبطالة من التناول على الله والوثوب على مقام الألوهية وأنهم يرون أنهم غير مخاطبين بحل ذلك ، فجعلهم يرون التعليم وبناء المدارس من الكفر والشرك ومحاربة الله تعالى ، فإن العقول ؟ ثم انظر إلى خلطه مشكلة الجذب مع مشكلة الجهل ، وأدنى رجل من المسلمين يفرق بين هذه المسائل فيرى أن انزال المطر لا يقدر عليه إلا الله ، وأن الجهل يجب على صاحبه أن يتعلم ، وأمثال هذه المواضع كثير جداً كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى (١)

(الملاحظة الرابعة) يجب أن تعلم أن من أعظم أصوله أن كل حديث يخالف رأيه وهو باطل فله باطل لا صحة له ولو اتفق المسلمون على صحته ، وكل تفسير يخالف فكرته وعقله فهو باطل سواء كان له أصل من كلام السلف أو لم يكن له أصل ، وكذلك كل قول أو رأى للفقهاء في أى مسألة كانت فهو رأى يضرب به عرض الحائط إذا كان لا يوافق هواه ولو أجمعوا كلهم عليه . ولهذا ادعى في البحث الثامن أن الناس منذ عشرة قرون ضالون ، وأن إجماعهم على تقديم السلف إجماع باطل ، وأقر بأنهم غالطون جميعاً ، وأنه يخالف لهم كلهم ولهذا هجم على كتب الدين كلها من غير استثناء وادعى بأنها كتب جهل وضلال

(١) ونظير هذه الجملة المتقدمة ما ذكر في ص ٦٨ في قوله أن من السخط المبين أن يظل خطبائنا ووعاظنا ورجال الدين وغير رجال الدين ينشدوننا الأناشيد ويتدفقوننا بالخطب تلو الخطب مؤكدين لنا أن الإنسان ما خلق ليكون عالماً ولا ليكون شيئاً كبيراً ولا ليغالب الطبيعة ولا لينازع الله في علمه وقوته وقدرته الخ !

ولم يمدح كتابا واحدا من كتب علماء المسلمين على كثرتها وتنوعها ، كما انه لم
 يثن في أصل كتابه على علم واحد من علماء المسلمين على كثرتهم بل رماهم كلهم
 عن قوس واحدة بالجهل وعدم الفهم ، ولهذا كان من أعظم تليسه في قلب
 الحقائق أن العلم والثقافة والتقدم والرقى والحياة كل ذلك هو علم الطبيعة والمادة
 وعلوم الاحاد والعلوم الدنيوية المحضة وما يتعلق بذلك ، وليس عنده ما يسمى
 علما وحياة وتقدما وثقافة غير هذه العلوم ولو احقها ، أما علم أصول الدين من
 التفسير والحديث والفقه وجميع الدين فليست عنده بعلم ولا يقيم لها أدنى وزن
 بل هي الجهل بعينه كما سوف نتقف على ذلك . ولهذا أكثر من السخرية
 والاستهزاء والازدراء بها ، وقد صرح بأن الدعاة ملهاة ومصرف خبيث وقد
 قال في بعض عباراته في الخط على الفقهاء وأقوالهم (ص ٦٥) : « والأسلام
 لا يقبل شهادة الأطفال ، ونحن نفهم أنه انما رد شهادتهم لما جبلوا عليه من
 الكذب والتزوير والظلم والأخلاق الرديئة والجهالة العمياء ، أما قول بعض
 الفقهاء أوقولهم كلهم إنه رد شهادتهم لأمر أخرى ذكروها فهو من جملة أقوالهم
 الكثيرة التي تموج بها الكتب من غير أن يكون لها قيمة علمية ولا عقلية ولا
 دينية » انتهى . فأقوال الفقهاء كلهم ليس لها قيمة في العلم والعقل والدين عنده
 كما ترى . اذا فهمت هذا فاعلم أنه اذا أطلق العلم في هذا الكتاب وأثنى عليه
 بالثناء الطويل العريض وذم الجهل كذلك فاعلم أنه يريد بالعلم ما ذكرنا تعريفه
 وبالجهل ما شرعنا حقيقته ، وكذلك اذا ذكر الحياة والثقافة والتقدم فانه يريد
 بذلك هذا الذي ذكرنا ، فافهم هذا ولا حظ في جميع فصول هذا الكتاب تجده
 صحيحا . ولقد بلغ به التعصب والغلو في متابعة الهوى ولجاجة الخصومة والعناد
 الى حد أن حاول سلب اسم العلم والعلماء من علماء الدين ومنحه بطيب نفس
 للملاحدة ، ولم يكتف بذلك حتى كابر وادعى أن علماء الملاحدة هم العلماء
 الممدوحون في القرآن كما يأتي ، وحاول أيضا سلب مسمى العقل والعقلاء من
 علماء الأمة وعقلائها وإعطاهم علماء الملاحدة الذين لهم معرفة في أمور الطبيعة

ونحوها أو لهم معرفة في بعض الأمور المحرمة ، فهو لاء عنده هم أهل العلم والعقل والحياة الصحيحة والثقافة والسعادة ، ومن خالفهم من أئمة الدين فهم أهل الجهل والغناء والجنون والشقاء وكل وصف ذميم ، فلي نظر العاقل المنصف هذا الخوض التام والاستسلام الكامل والخدمة الصادقة للملاحة ومروجيهم وهذا البغض المنكر والمقت الشديد لعلماء الملة ، ولي نظر ماذا يراد من وراء هذا وما هو الدافع إليه ، فانه أمر لا ينبغي السكوت والأغضاء عنه

﴿ الملاحظة الخامسة ﴾ ينظر ما هي الأسباب التي دفعته الى هذا الحد البعيد في التشنيع على المسلمين بتكرار الخطب أيام الجمع وترغيبهم في العبادة والتقوى . ويدعى أن هذه الدعاية مخدرة عن العمل ، ثم ينظر الى سكوته الطويل عن جميع الدعايات الوقحة المزخرفة المرغبة في الأحاد والفجور والفواحش وحضور مواضع اللهو من الرقص والغناء ونحو ذلك ، وقد ذكرت احدى مجلات (أم درمان) وغيرها ان عدد الذاهبين الى بيوت السيئنا أكثر من عدد الذاهبين الى المدارس في الاحصاء ، هذا في المدارس فكيف بالمساجد ، فرجل يدعى أنه يقصد الحث على العمل كيف يشنع على خطباء الدين أيام الجمع وعلى الذاهبين الى المساجد أوقات الصلوات ، ويسكت كانه أخرس على كثرة الدعايات الطويلة المتنوعة في الحث على الفجور والأحاد وعن كثرة الذاهبين الى مواضع اللهو ونحوها واستغراق أكثر أوقاتهم في ذلك ، لا شك أنه ماجن مستهتر منافق متلاعب في دعايته ، فقد علم العقلاء كلهم أنه لا اشد ولا أعظم في التخدير والتثييط عن الأعمال النافعة من الاشتغال بأعمال اللهو والغرام والتعلق بالعشق واليهام والفتنة بحب الصور ، بل هذا بمنزلة السكر لا بمنزلة التخدير ، فانك لا تجد أعجز ولا أوهن ولا أكسل من المنهمكين في الملاهي والمفتونين بالعشق والتعلق بالصور الفتانة ، ثم أي تخدير في الخطب التي تحذر من الكسل ومن فتنة الدنيا والوقوع في الأخلاق الرديئة . بل هي الدافع القوي لاثارة المواطنين الدينية الباعثة على الأعمال النافعة ؛ لانها تلهي

الآيمان والدين الصحيح والفطرة المستقيمة الكامنة وتوقظها ، فان الدين الصحيح من لوازمه العمل لأعزاز الحق وحماية الفضائل وطلب مرضاة الله بالجهد في سبيله والفوز بجنته والنجاة من ناره ، فأين حالة هذا من حالة من فتن بصورة جميلة الهندام لا يهيمه ولا يشغل قلبه من هذه الدنيا كلها الا الحصول عليها والانسجام معها وقضاء الوطر منها ، فأى الفريقين أشغل عن العمل وأحرى بالتخدير ، فليُنظر المنصف ما هى الأسباب التى دفعته الى ما ذكر مع ما تقدم

(الملاحظة السادسة) يجب أن يعلم أننا من أعظم الناس دعاية إلى الحث على العلم والعمل الدينى والدنيوى ، وأننا نرى أن التجارات والثراء المالى وتعلم الصناعات كلها من أعظم العوامل التى لها الأثر فى التقدم والتأخر ، وأنه يجب تعلم مبادئ هذه الامور بقدر الحاجة ، فلسنا ننكر شيئا من ذلك ، كما أنه ليس فى المسلمين من يعتدّ بقوله من ينكر ذلك ، بل المسلمون يقولون إن الواجب تعلم جميع الوسائل التى بها يحصل عز الاسلام وتقدمه ، وقد صرح غير واحد من علماء الملة أن تعلم الصناعات ونحوها بما به قوام الامة فرض من فروض الكفاية . ومن القواعد المعروفة فى كتب الأصول المعمول بها أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وقد نوه القرآن العزيز بهذا الأصل تنويعها موجزا كافيا لم يبق وراءه مطلب لاحد قال الله تعالى ﴿ واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ وهذا يتناول جميع صور القوى ، ويتناول جميع ما فى استطاعتنا منها وما نستطيع أن نعمله ، فهو سبحانه أمرنا بالاستعداد بجميع ما نملكه من قوة وجهد ، ومعلوم أن هذا لا يحصل الا بمعرفة الوسائل التى تمكن من ذلك وتسهله . وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم ﴾ وهذا أمر لنا بالحزم والاستعداد التام والتيقظ الدائم وسوء الظن بمقاصدهم المجهولة . ولكن علينا أن نعلم ونعتقد أن تحصيل هذه الامور من صناعات وغيرها لا يحصل به النفع الناجح المستقيم المطلوب إلا اذا أقيمت على الدين الملتين ، وإذن فالواجب علينا أن نؤسس هذه الاعمال ونحوها كلها على الدين ،

وتأسيسه الصحيح هو الاجتهاد في تطبيقه على ما كان عليه السلف الصالح أي
 الاخذ بالاخلاق الدينية الاولى وهو العمل بالكتاب والسنة ، وذلك سهل
 يسير والله الحمد الاعلى القلوب المظلمة الخبيثة كما قال تعالى (فمن يرد الله أن
 يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا
 كأنما يصعد في السماء) . ويجب أن يعلم أنه لا تنافي بين الاخذ بعلوم الدين
 والعمل بالعلوم الصناعية والتجارية والمادية والاقتصادية ونحو ذلك ، فليس
 في الدين حرف واحد ينهي عن الاخذ بهذه الامور ، وانما يدعى عسكهم
 إمكان التوفيق بينهما زنادقة الملاحمة والمنافقون الذين لم يفهموا الدين على
 حقيقته ، ولهم مقاصد سيئة في الصد عن سبيل الله فيتحذرون ذلك فريضة الى
 الانحلال والشك فيه والمروق منه كما فعل هذا الرجل في هذه الاغلال

(الملاحظة السابعة) اعلم أن هدفه الاكبر الذي وجه اليه جميع اللوم
 والذم والخط الشديد في هذا الكتاب هم أولئك الذين أيقظوا فكرة المسلمين
 بأن طريق المجد الاسلامي والقوى ينحصر في العمل بالكتاب والسنة في
 أصول الدين وما يتعلق به ، ثم بالأخذ بالاسباب المشروعة فيما يلزم الأمة ،
 وقد ذكرهم في صدر كتابه في دعواه أنه « يوجد جماعات عظيمة الشأن من
 حيث العدد والحاسة يرون أن طريق المجد الاسلامي المنشود ينحصر في
 الرجوع الى الاخذ بالاخلاق الدينية الاولى وفي تنفيذ الحدود الشرعية وفي
 أداء الزكاة وفي إقامة سائر الفروض اليومية والسنوية والاعلان بالله
 والجهاد الديني في سبيله ، ، هكذا ذكر عنهم ، ثم انه خالفهم فادعى أن المجد
 القوي ينحصر في الاخلاق الصناعية والتجارية والاقتصادية والمادية والعلمية ،
 ثم ذكر أن الاخلاق الدينية لها نتائج أخرى أي غير نتائج المجد ، ولهذا فسر ما
 في الموضوع الآخر بأنها ملهات وتعميق ومصرف خبيث ، فجميع ما في كتابه
 من سب وخط يوجه الى الجاحدين والجاهلين والهدامين والرجعيين والمغفلين
 والبائسين والخرافيين وامثال ذلك فكله موجه الى هذا السلف وهم هؤلاء

الجماعات الذين ذكرهم وذكر رأيهم ، وجميع ما يوجد في كلامه من مسبة
المجود والرجوع إلى الوراء والحماقة والبؤس والشقاء والاهام والخرافات
والباطيل وأمثال ذلك فهو موجه إلى مقالتهم التي قالوها وهي الاخذ بالاخلاق
السلفية والعمل بالكتاب والسنة على ما كان عليه السلف الصالح كما قال الامام
مالك « لا يصلح آخر هذه الامة إلا ما أصلح أولها » . والسبب الوحيد الذي
دفعه إلى هذه الجراءة النكران هو أنه رأى هؤلاء الجماعات العظيمة . يرض الله
وجوههم . واقفين في وجه دعايته وأقوالهم مضادة لما يحاوله ويجمع اليه في
الحث على المروق من الدين والاخذ بأخلاق العصرين الملاحدة كما سجله في
كتابه ، لهذا خرج صدره وضاق بهم ذرعا فلم يجد بدا من الطعن فيهم والخط
عليهم وإساءة أقوالهم وآرائهم بهذا الهراء المنكر ليخلو له الطريق ، ولكن
ما زاده هذا الصنيع إلا رجسا إلى رجسه وعاد سهمه في نحره ، ويأبى الله إلا
ان يتم نوره ولو كره الكافرون

(الملاحظة الثامنة) اعلم أن قاعدته التي يعتمد عليها ونقطة دائرته التي
يدور حولها في دعايته أن التقدم كله والرقى والسيادة العالمية كلها وملوك ناصية
الوجود كله محصور في معرفة شيء واحد ، وهذا الشيء الواحد هو معرفة قوى
الطبيعة ونواميسها كما صرح بذلك ، وهذه عبارته بحروفها في ص ٨٢ : « وإن
ضعف المسلمين وتأخرهم وفقدتهم كل انواع الاستقلال والسيادة لا يعود إلى
فساد في الاخلاق ولا إلى خلاف في الرأي والقلوب ^(١) ولا إلى شيء مما يحسبه
الجاهلون ، إنما يعود إلى شيء واحد فقط ، يعود إلى الجهل بما به قوة الآخرين
أي الجهل بقوة الطبيعة ونواميسها » انتهت عبارته . وهي إحدى سجداته العمياء
للطبيعة ونواميسها ، فالمصيبة عنده والبلاء الذي أصاب المسلمين هو جهلهم
بقوى الطبيعة ونواميسها ، والعلم والقوة والسيادة العالمية وناصية الوجود كله
(١) كلامه صريح في أنه لا يرى فساد الاخلاق ولا الخلاف في الرأي ونحوه

صانعا عن التقدم

بيد العارفين بقوة الطبيعة ونواميسها ، أما الاشراق الدينية كلها من توسيد وغيره فكل ذلك بمعزل عن التقدم ، بل هو أوهام وملهاة وجهل وخرافات لها نتائج أخرى وهى التأخر والانحطاط ، وعلى هذه القاعدة المنكرة بنى جميع دعايته وجعل الدين مضادا لها وحض على رفضه ، فقد أطال فى تكرار هذه القاعدة فى كل صحيفة وجملة إلا ما ندر تكريزا ميملا بمغالة زائدة ومجازفة حادة وأساليب متنوعة ، وكتابه كله يدور على هذا الغرض مع دعواه فيه بأنه حاول به فهم الدين ، فيكون قد فهم أن علم الطبيعة ونواميسها هو أصل الدين عنده ، فيكون الدين هو فهم الطبيعة ونواميسها ، فيكون الله خلقهم لذلك ويكون معنى ﴿ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ﴾ أى ليفهموا الطبيعة ونواميسها ، وهذا من آيات الله فيمن خرج عن نور كتابه المبين (١)

﴿ الملاحظة التاسعة ﴾ إذا علمت أن أصل دعايته وأساسها الذى يدور عليه كلامه كله هو الحث على معرفة الطبيعة ونواميسها ، فاعلم أنه سهل الحصول على ذلك فجعل معرفة هذا الاصل الكبير عنده موقوفة على شيء واحد ولا سبيل إلى الوصول إليه إلا بهذا السبب الوحيد ، وهذا السبب هو الاعتماد الحكى على الأسباب المادية والاعتقاد بأنها فاعلة بطبيعتها حتما ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها ، ولا يمكن الحصول على هذا الاعتقاد أيضا إلا من طريق واحد وهو الكفر بمشيئة الله وتدييره لهذا العالم وتصرفه فيه بجميع أسبابه بالقطع والوصل والاعطاء والمنع ، فاذا كفر بهذه المشيئة المطلقة كان سبيبا محضا والنجاح محتوم له ، ولا يمكن أن ينجح إلا إذا كان سبيبا محضا ، فطريقة

(١) هذا مع أنه تناقض قادعى أن طريق المجد والسيادة محصور أيضا فى شيء واحد وهو تعليم المرأة ، حيث ادعى فى قوله « علوا المرأة ثم املاوا أنفسكم بالثقة والامل ، ولا تخشوا بعد تعليمها شيئا ، فجعل روح الرقى كله والتقدم بحذافيه فى تعليم المرأة ، فسبحان الخاق

الحصول على النجاح هي أن يكون الانسان سببيا محضا ، ولا يمكن أن يكون سببيا محضا إذا آمن أن الله يتصرف في خلقه بما اقتضاه عليه ورحمته وحكمته تصرفا مطلقا بقوة قاهرة جبارة مهيمنة على كل أسباب الوجود تتحكم في نهاياته وغاياته ، ثم انه تجاوز ذلك إلى ما هو أكبر منه ^(١) فأشار إلى أن الحصول على الكفر بالمشيئة موقوف على الكفر بوجوده تعالى ، فانه صرح بأنه لا إله بلا فعل ، وأن نفي فعله نفي له . ثم ادعى أن الايمان بفعله يوجب عدم النجاح وهو خلاف المطلوب كما يأتي . وإنما طول هذه الطريق وجعلها ملتوية غمضة وتليسا على الجبال وضعفاء البصائر ومن ضرب الله قلبه بالطمس والاقفال والعشى ، ولهذا بالغ هذا الملحد في الغلو بالاعتماد على الأسباب والتعلق بها وحدها وصرح بأن تأثيرها لذاتها لا لشيئة الله وإرادته ، وادعى بأنه يجب الجزم بأن الله لا قدرة له على تغييرها عن سبيلها فلا يمكن بحال أن يغيرها الله فيجعلها إن شاء أسبابا وإن شاء جعلها غير أسباب ، أو أنه يفعل بدون الأسباب ، فان هذا عنده هو السفه والفوضى التي لا ضابط لها . وقد كرر هذا الأصل مرار كثيرة ، قال في بحث التوكل (ص ٢٦٨) : « لست أقول ان التوكل هو الأخذ بالأسباب مع الاعتقاد بأن الله يدخل فيها ^(٢) فيجعلها إن شاء أسبابا ويجعلها إن شاء غير أسباب ، أو مع الاعتقاد بأنه تعالى قد يفعل من غير الأسباب ، فان هذا هو السفه والفوضى التي لا ضابط لها » انتهى . فتأمل هذا فانه لم يجعل الأخذ بالأسباب والاعتماد على الله في حصول النتيجة كافيًا في نجاح العمل ، بل لا بد عند الأخذ بها من الكفر بقدرة الله على تغييرها ، فلا يمكن بحال أن

(١) ولكنه لما وصل الى هذه المرتبة أشار ولوح وحمم وغمغم وجعل ذلك مشكلة لم تحل

(٢) انظر الى دقة الحاده ، فانه جعل لفظ « يدخل » بدل « يتصرف » تشويها لسمعة المشيئة ، فانه الله ما أخبثه

يغيرها الله ابدًا ، فانه جعل الاسباب مع الاعتقاد بأن الله له قدرة على تغييرها وقلبها أوله قدرة على أن يفعل بغيرها فرضي وسفها لا ضابط له كما يقول ، وقد صرح بهذا في المشكلة التي لم نحل كما سيأتى . ولا شك أن هذا يبطل جميع الثبوتات (١) لأن النبوة لم تثبت إلا بالمعجزة والمعجزة هي خرق للأسباب العادية أو قلب لها وإلا لم تكن معجزة ، وهذا يبطل جميع الأديان ولهذا كان روح الكتاب هو رفض الأديان . فبين لك أن هذا الأصل الحقيقى الوحيد الذى هو مفتاح الطريق إلى الوصول إلى تلك القاعدة التى اعتمدها هو جحد قدرة الله ومشيتته العامة بل وربوبيته . ومغزى هذا وغواه إنكار وجود الرب جل جلاله ، أو على الأقل جحد كماله ، لأن الرب الذى لا يدبر ملكه ولا يتصرف فيه بالقطع والوصل على ما تقتضيه إرادته ورحمته وحكمته إما معدوم أو عاجز كالاصنام ، والمعدوم لا شيء ، والعاجز لا يكون إله يستحق العبادة ولا الدعاء ، ولهذا صرح فيما يأتى بأن الدعاء لا فائدة فيه بعد أن قرر أنه عبادة ، فجعل دعاء الله كدعاء المعدوم أو الاصنام الذى لا فائدة فيه ، فهذا حل لغز هذا الكتاب المظلم وفك طلسمه المعقد ، وبه تعرف أن حقيقته الكفر بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء القدر

(الملاحظة العاشرة) إذا علمت أن كلامه يدور على المغالاة فى التعلق بالأسباب المادية وتأثيرها بطبيعتها ، فيجب أن تعلم أننا لا ننكر تأثير الأسباب وارتباطها بالنتائج ، وأن تأثيرها بالقوة التى أودعها الله فيها ، فالماء عندنا يروى بنفسه ، والسكين تقطع بنفسها ، والنار تحرق بنفسها ، وهكذا جميع الأسباب مربوطة بنتائجها ، فهى عندنا كما هى عند جماهير المسلمين من أهل السنة وأصحاب الحديث مؤثرة بنفسها بالقوة التى أودعها الله فيها بمشيئته وقدرته ، ولا نقول

(١) بل ويبطل الاعتراف بالربوبية إذ الرب الذى لا يتصرف فى ملكه تصرفا مطلقا ليس بكامل ، بل هو ناقص مقهور

أن الأسباب لا تؤثر بنفسها أو بالقوة المودعة فيها ، وإنما ذلك التأثير بفعل الله عند اقتران السبب بالمسبب كما هو مذهب طائفة من المنتسبين إلى السنة ، فإن هذا القول مرجوح وليس بصحيح كما سوف يحىء بيانه في بحث الأسباب . وليعلم أن النزاع بيننا وبينه في الأسباب إنما هو في إمكان تغييرها عن طبعها وصرفها عن وجهتها بقطع أو وصل كخلق أسباب تعارضها أو تفسدها ، فهو يدعى أن الله لا يغير فيها أبدا فلا يجعلها إن شاء أسايا وإن شاء جعلها غير أسباب ، بل هي عنده مطبوعة طبعاً مؤبداً ليس لقوة من القوى صرفها عن سبيلها ، فلا يمكن أن يغيرها الله أو يغير فيها شيئاً . ونحن ننازعه في هذا فنقول : إن الله خلقها وأبدعها من العدم إلى الوجود ، فهي ملكه وتحت تصرفه ، فله القدرة الكاملة والمشيئة المطلقة عليها ، فهي بنتائجها تحت سيطرة المشيئة الإلهية والقدرة الربانية ، فلا تجرى إلا على مقتضى مشيئته وإرادته ، فإن شاء جعلها أسباباً موصلة إلى نتائجها كما هي العادة الأغلبية وإن شاء قطعها أو غيرها فجعلها غير أسباب نافعة بل قد يحولها إلى ضدها كما وقع كثيراً ، وقد حول الله النار برداً وسلاماً بعد أن كانت حرارة محرقة ، ونظائر ذلك من المعجزات ، بل كون النتائج تتخلف عن الأسباب أمر معروف لدى الخاص والعام بالضرورة والحس ، بل ليس في الدنيا سبب واحد مستقل بنتيجته بدون سبب آخر ، كما أنه ليس في الدنيا سبب لا يبطئه سبب آخر أو يفسده أو يغيره . وينبغي أن يعلم أننا إذا أطلقنا الأديان فنريد بذلك الإسلام ودين أهل الكتاب خاصة دون غيرهم من أهل النحل الأخرى ، لأنها لا تسمى أدياناً إلا مضافة إلى أهلها . وإذا أطلقنا الدين الصحيح فهو ما كان عليه السلف الصالح الأول والقرون المفضلة في أصول الدين وإثبات الصفات دون تحريفها الذي يسميه المتأخرون تأويلاً ، وإذا أطلقنا الإسلام فالمراد به ما كان عليه السلف الصالح ومن اتبعهم ، ويدخل في ذلك تبعاً في الجملة البدع التي لا تخرج من الملة دون الجهمية المحضة والاتحادية وأمثالهم فإن هؤلاء كفار مرتدون

﴿ الملاحظة الحادية عشرة ﴾ ينبغي أن يعلم أن أهم ما قصدناه في موضوع كتابنا هذا هو بيان مضادة كتابه الشيعة الإسلامية بل وغيرها من الشرائع السماوية ، وأنه مضاد لها من كل وجه ، ثلاثا : روج كلامه الذي خيادع به فيه على من لم يعرف حقيقة أمره ، ولا سيما فإنه لما أسقط في يده وارتكس في هذا المأزق الخرج حاول الخروج والتخلص منه فأكثر من اللجاجة والمغالطة والخذاع في مخاطباته ومكاتباته ، مدعيا أنه ليس في كلامه ما يخالف الدين ، وأنه ما قال غير الحق ، وأن الناس لم يفهموا كلامه . فأردنا أن ننبيه على هذا الأهم ، وإن كان في كتابنا ما يتضمن مباحث أخرى متعلقة بهذا الأصل . ولعمدنا القارئ الكريم مما يراه في بعض الكلمات من الشدة . فإننا لم نعامله أكثر مما اعتدى به علينا وعلى ديننا العظيم ، ولا بد من أن يكون الجواب مناسبا لكلامه ، ومن الواجب في مثل هذا أن ينزل منزلته اللاتقة به التي اختارها لنفسه ، ويكال له بالصاع الذي كال به لغيره . ولقد كان من الممكن له أن يبدي رأيه - كغيره - بدون بهت وسخرية وتهكم واستهزاء وكذب وافتراء لا طائل تحته ولا فائدة فيه ، وبدون أن يرتكب هذا الأمر الكبير ويقتحم هذا الشيء الخطير ، ومعاملة الإنسان بحسن عمله من العدل ، وليس من العدل أن يحترم من لم يحترم شرع الله ونظامه ، فلا كرامة لمثل هذا ، وصنيعه في كتابه صنيع المتهم المتحدى لا صنيع العاقل المستدل المرشد ، فلا بد من الإجابة بما يليق به وبكتابه ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل

مقدمة

وقبل البدء في تقصص مباحثه نذكر قاعدة مهمة لابد من ذكرها لتكون
 كالأساس لما يأتي في عدم جميع ما اعتمد عليه ، فنقول :
 من المعلوم أن لكل مخلوق بقاية ونهاية وغاية ، وأن المقصود من إيجاد
 غايته التي هي الغاية المطلوبة منه ، فإن الله لم يخلق خلقه عبثاً ، وكل مخلوق
 صفاته تكون بحسب قدره في العظمة أو الصغر وغير ذلك . ولما كان الإنسان
 هو أرق هذه الموجودات المشاهدة وأشرفها وأبدعها كانت الغاية المرادة منه
 هي الغاية في الشرف والعظمة لشرف مآلها ونتيجتها ، فكان من الواجب أن
 يعرف الإنسان الغاية المطلوبة منه . وقد كان من حسن حظه أن الذي خلقه
 وأبدعه من العدم وأعطاه كل ما يحتاج إليه من النعم هو الذي بين له الغاية
 بكلامه بنفسه بأوضح بيان وأجله وأجله فقال تعالى ﴿ وما خلقت الجن
 والانس الا ليعبدون ﴾ فنص أنه خلقه لعبادته نصاً صريحاً . وقد بين سبحانه
 هذه الغاية الجليلة وفضلها في كتابه تفصيلاً واضحاً جليلاً أعظمها وأجلها بل
 قطبها وروحها قصده بالدعاء والتضرع وما يتضمن ذلك من الأحوال الفعلية
 من التوجه والافتقار والاعتماد الكلي عليه في كل مهمة ومقصد . وتفصيل هذا
 الأصل العظيم الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له مبسوط في النصوص
 لئلا يصدد تفصيلها هنا ، وإنما نبين الأصل الذي هو الغاية المقصودة من إيجاد
 هذا المخلوق البديع ليعلم الإنسان المراد من إيجاد فيتين له أن ما أصابه من
 سوء إنما هو لتفريطه وإهماله لنفسه لعدم إتيانه بما طلب منه إما إعراضاً وإما
 قصيراً . ويجب عليه مع هذا أن يعلم أن الله سبحانه غنى عنه وعن عبادته ،
 وإنما أمره بذلك لحكم عظيمة من أعظمها تركيته وتطهيره وتقويته وتقديسه
 بالعبادة ليكون متأهلاً لجوارته تعالى في المقامات العالية المقدسة في الدار
 الآخرة مع ما يناله في الدنيا من روح العبادة ونورها ولذتها وفرحها وعزتها

وكل هذه التكاليف الدينية السهلة اليسيرة المفروضة عليه والمعلقة بها سعاده لا تستفرغ معشار حياة الإنسان ، وتلك من مظاهر وآثار رحمته وفضله وإكرامه فلا بد من ظهور آثار أسماحه الحسى المشتقة من صفاته العليا في هذا الوجود ولما كان الإنسان خلق ضعيفا جهولا معذوبا به بين هذا العالم المظلم المملوء بالطغيان والظلم والجهل والعدوان ، وهو عرضة للتلف والمصادمات القاسية ، فلا يمكن بحال كما هو الواقع أن يرشد نفسه بنفسه وأن يمنعها من شر تعيره . فاقضت رحمة من خلقه ورباه أن ينزل إليه في هذه الظلمة نورا ساطعا كالشمس ويجعل له عقلا كالبصر يبصر به هذا النور المبين البنى هو الكتاب والسنة وهما أصل الدين ، فأعطى هذا النظام العظيم المقدس الذى هو فى غاية الإحكام والاتقان ليشمى على ضوئه فيعدل ظلمه ويميز جهله ويسلك به الطريق البقى فيها خلاصه من كل سوء ومكروه ، فهو المصباح المنير والحرز الكبير والجنة الواقية ، وقد وعده - ومن اصدق من الله قليلا - بالسلامة والتوفيق والهداية والتمكين متى اعتصم بهذا النظام المحكم وعرض عليه بالتواجد ، وأعلمه أن رشده وهزه وتمكينه وحفظه موقوف على المحافظة عليه ، وأنه إن أعرض عنه فقد تلف لا محالة ، وأن التباب والخسار والدمار والهلاك المحتوم فى تركه والاعراض عنه فسماء نورا ، فإن من فقد النور فهو فى معرض العطب ، وسماء روحا لأن من فقد الروح فهو فى حكم الميت ، والنور والروح هما أصل القوى كلها ، كما سماه ايضا برهانا وبينه وحقا وهنى وصراطا مستقيما ، فإن من فقد هذه الأمور فهو على باطل وفساد وجور وفوضى ، ومن حظى بهذه النعم فاز بالحياة الصحيحة النافعة المستمرة ، قال تعالى ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما ﴾ وقال تعالى ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الله

الذي له ما في السموات وما في الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور) . وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ ، وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقال تعالى ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وقال تعالى ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ، اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ^(١) وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ، الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَمْنَعُونَهَا عَوْجًا أَوْ اِثْكَالًا فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ وقال تعالى ﴿ قَالَ اهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا يَا تِيزُكُم مَنِ هَدَىٰ فَمَنِ اتَّبَعَ هَدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ، وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْنَى ﴾ وقال تعالى ﴿ وَلْيَنْصِرَنَّ اللَّهُ مَنِ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ أَنْزَلْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ والآيات في هذا المعنى كثيرة شهيرة . وعن علي رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : **انها ستكون فتن . قلت : فما المخرج منها يا رسول الله .** قال : **كتاب الله فيه نبيأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس**

(١) كثيرا ما يذكر الله سبحانه ملكه للسموات والأرض بعد الأمر بالاعتصام بكتابه ومدحه . وفي ذلك سر بديع وهو ارتباط سننه الكونية بسننه الشرعية وأن من اتبع سننه الدينية التي شرعها خلائق أن يتفجع بخيرات هذه السموات والأرض تفعا صحيحا مستمرا . وفيه إشارة إلى عظمته فإنه إذا كان مالك هذه السموات والأرض فيكون لا أعظم منه فيكون لا أعظم من تأثيره فإن عظمة الرسالة تكون على قدر عظمة المرسل .

بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو جبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسن ، ولا يحلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يشبع منه العلماء ، وفي رواية « ولا تختلف به الآراء » هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشd ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم » رواه الترمذى وغيره . والاحاديث فى هذا كثيرة معروفة . فكل من تمسك بهذا الدين العظيم واعتصم به فقد سار على نور وبصيرة مستمسكا بأسباب قوته ، ومن خرج عن هذا الدين أو تساهل فى الأخذ به فقد بعد عن هذا النور والروح والهداية والأمان بقدر خروجه وبعده وتساهله ولا يظلم ربك أحدا .

فاذا عرفت أن الله خلق الخلق لهذه الغاية الجليلة وأنه بين لهم الطريق التى توصلهم اليه وإلى ما خلقوا له فاعلم أنه سبحانه مكنهم فى الأرض وسخر لهم جميع ما فيها وأباح لهم من الطيبات وفعل الأسباب ما لا يدخل تحت حصر ليتم نعمته عليهم بذلك وليتقوا به ويستعينوا به على عبادته وجهاد أعدائه ، فهذان أمران يجب ملاحظتهما : أحدهما أنه خلق الخلق لعبادته ، وثانيهما أنه سخر لهم ما فى الأرض جميعا ومكنهم فيها ودلهم على فعل الأسباب الممكنة النافعة ، كل ذلك لأجل العبادة بأنواعها . فالأمر الأول هو الغاية والثانى وسيلة إليها . وبهذا يتبين لك أن ما نال المسلمين من الوهن والضعف ليس ناشئا عن التدين بالدين ، وإنما نشأ عن اضعافه والتقصير فى القيام به كما يجب ، فانهم لم يقوموا به على الوجه المطلوب ، بل منهم من أضعاع ومنهم من قصر ، فلو طبقت التعاليم الدينية الصحيحة على أحوال غالب المسلمين أو من ينتسب الى الإسلام اليوم لوجد اختلاف كثير وخلل كبير ، فمالهم من التأخر إنما هو بسبب عدم المحافظة عليه والتضييع له . هذا هو أصل التأخر وأساسه ، فكيف

ينسب تأخرهم ووهنهم إلى التمسك بالدين وهم لم يتمسكوا به لا في عبادة الله ولا في فروعها كفعل الأسباب النافذة التي أرشدتهم الله إلى فصلها فقصروا في الأمرين جميعا ، فنتج عن هذا التقصير العظيم قصورهم عن غيرهم من فعل أكثر الأمر الثاني ، وإلا فلو فطروا الأمرين لتجسروا حتما ، فمن الحال أن يوجد شعب أو أمة حافظت على دينها كما ينبغي فخالها الضعف والوهن أبدا ، ولو أن هذه الشعوب الراقية في الأسباب الصناعية ونحوها أضافت إلى ذلك ديننا صحيحا لازدادوا قوة إلى قوتهم وحياة صحيحة إلى حياتهم المتكددة المهددة ، ولكن ذلك أعظم عاصم لهم من الأنهار العظيم المتوقع ، ومن التورط في أسبابه التي عسر حلها وخشى كل عاقبة أمرها . وما يبين لك بالبرهان الواضح القاطع أن الاعتصام بالدين ملازم للنصر والتقدم والتمكين أن الجاهلية الأولى التي كانت قبل النبوة لما كان الدين معدوما لديهم كانت العرب في أسوأ حالة من الحالات المزرية الوضيعة جدا فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه أفواجا فأخذوا يتخاليه ومبادئه المقدسة على حالته الجديدة كان أولئك العرب الذين كانوا على تلك الحالة أعظم الناس استقامة في أخلاقهم وأرواحهم وآرائهم ، فآثر فيهم هذا الدين القوى القويم انقلابا عجيبا عظيما في أسرع وقت تمكن حتى غلبوا على قلوبهم وفقرهم أعظم دولتين على وجه الأرض ، ونالوا من العز ما لم تنله أمة قبلهم ولا بعدهم في أقصر وقت عرف ، وما زال المسلمون في تقدم ورفق واتساع ملك عزيزين مستقيمين على تلك الحالة الصحيحة الطيبة حتى خرجت صدور أعدائهم من زنادقة اليهود والفرس وأمثالهم من سلبوا ملكهم لما دخلوا أنه لا طاقة لهم بحربه بالأسباب المادية ، فدخلوا في الإسلام كيتلة ولا هله ، فتأفقوا وخادعوا وأدخلوا على أصوله وتعاليمه السامية ما يتناقضها من الدسائس الغربية الخبيثة التي لا تناسبه بل تناقضه ، وادعوا أنها من أصول الدين ، فلبسوا على من قل نصيبه من العقل والدين ، فبدلوا قواعده وأصوله الثابتة بقواعد وأصول واهية ، كما بدلوا علوه تعالى فوق العرش بأنه لا داخل العالم

ولا خارجه ، وبدلوا كلامه لموسى وكلامه بالقرآن بأنه خلق كلاما في غيره فكلم
 عنه وأمثال ذلك من تحريف الصفات حتى خبروه ، وما زال هذا الهلام يزيده
 وينتشر في صميم الاسلام حتى تناثرت أجزاؤه وتبدعت أركانه
 ومن المعلوم أنه من عهد الخلفاء الراشدين الى عهد المأمون والاسلام في
 عز منيع وقوة قاهرة واتساع باهر ، فلما ظلمت الجهمية على عقل المأمون
 فأدخلوا عليه العلوم الخبيثة التي هي علوم الزنادقة وهي طريقة الجهمية النافين
 لعلم الله على خلقه فوق عرشه القائلين ان كلامه مخلوق أو أنه لم يتكلمه بحروفه
 ومعانيه ، وطريقة الرافضة التي مضمونها القدح في الاسلام وأهله ، فحسنت
 الجهمية له القول بخلق القرآن وأنه تعالى ليس فوق العرش ، وأنكروا رؤيته في
 الآخرة ، ونفوا كثيرا من الصفات حتى شغف المأمون بهذا الوباء الفاتك
 وأكره الناس على الدخول في تلك التعاليم المنكرة الخبيثة وقتل وحبس وعذب
 كل من لم يدخل في ذلك وجعل هذه القواعد الكفرية ديناً يدين الله به بدلا
 عن قواعده الشرعية الثابتة فبدل قولا غير الذي قيل له : بدل قواعد الاسلام
 بقواعد الكفر ، واجبر الناس باتباعها قهرا واضطارا ، فاضطرب الاسلام
 لذلك وتغيرت حالته فاخذ في النقص والتدهور ونزل من أعلى قمة وصلها من
 وقت المأمون الى هذا الوقت الحاضر ﴿ ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما
 بأنفسهم ﴾ وكل هذا بسبب آراء الجهمية الزنادقة التي ارتكزت على قوة هذا
 الخليفة الضال الظالم الذي لا يعظمه الا جاهل لا خلاق له ، فانه أول خليفة
 سعى في هدم الاسلام ، ثم لم تنزل هذه العلل الخبيثة مصاحبة له سارية فيه تارة
 تضعف وحيثا تقوى فان قويت ضعف وإن ضعفت قوى بحسب العوامل
 والظروف المقارنة له ، ولكنها كلها بعد العهد عن زمن الرسالة قويت هذه
 العلل فيتبعها الضعف ، ولهذا لما اجتمع التجهم والرفض وفروعها في وقت
 المستعصم بسبب تمكن دعاة هذه المذاهب من مقام الخلافة وتلاشي مذهب
 أهل الحديث والسنة في العراق وما والاها جرى على تلك الاقطار ما هو معروف

من فتنة التتار الشنيعة ، فكان اجتماع هذه المذاهب الخبيثة في أهلها كاجتماع
الجذام والبرص في الجسم ، وأنى يحيى جسم عمه هذا البلاء . فأكبر دهلين دخل
منه الملاحدة وأعداء الدين على الاسلام دهلين التجهم والرفض ، وأعظم
اعتقاد جرّ الى الاتحاد اعتقاد التجهم والرفض ولم يستول الا جانب على الاقطار
الاسلامية الا لما فشت فيها هذه المذاهب . ولا شك عند كل عارف بدينه أنها
يصاد أن الاسلام أعظم مضادة وأن من أدخلها فيه فهو لا يعرف دين
الاسلام بمحدوده الشرعية ، فمن أكبر الخطأ اذن إلصاق أعمال هاتين الطائفتين
بدين الاسلام وهما أعظم أعدائه وأضداده ، ومجرد الانتساب بالدعوى لا
يغنى في الحقائق شيئاً

إذا تقرر هذا فدين الاسلام هو النور والروح والحق والبرهان والهدى ،
وهو دين الحكمة والعدل والعلم والعقل والعز والتقدم والقوة الصارمة التي لا يقف
في وجهها شيء من أى قوة كانت ، فان مبناه على صلاح الأرواح وتقويتها
وثباتها ، فليس في الدنيا خير إلا والدين كفيل به ، وليس في الدنيا شر إلا
والدين كفيل ببيانه والتحذير منه ، فانه ينهى عن عبادة المخلوقات بأنواعها
والخضوع المرذول والتعلق لها ، وعن جميع الفواحش والمنكرات كالكذب
والبهت والخيانة والتميمة والغش والنفاق والخداع والظلم وجميع الاخلاق
الممقوته ، كما أنه يأمر بالمساواة في الحقوق البشرية وانه لا فضل لأحد على
أحد الا بالتقوى ، وهذه القاعدة الكبرى هي أصل العدالة والنظام في الحقوق
البشرية ، ويأمر بنصر المظلوم وإغاثة الملهوف والضعيف والبر والصلة والرفق
بالضعفاء والبهائم ، ويأمر بالشجاعة والكرم والصبر والثبات والنصح في الأعمال
والصدق في الاقوال والبعد عن الرذائل وأمثال ذلك ، وهذه هي اسس النعمات
العلوية والعملية كلها ، وما دخل الناس الفشل إلا بسبب إهمالها أو إهمال أكثرها
فما من خصلة حميدة إلا قد أمر بها وما من خصلة ذميمة الا وقد نهى عنها .
والحث على هذه الأمور مشهور في نصوص الكتاب والسنة ، فمن جعل هذه

الخصال أغلالا فقد عكس الحقائق عكسا شديداً ، وإنما جعلها هؤلاء أغلالا لأنهم وجدوها أغلالا تغل الإنسان عما يحاوله ويجمع اليه من الانحدار في ذركات الإلحاد والغى واللبو والفسوق والفجور التي تضاد هذه الخصال من كل وجه ، فلو لا أخلاق الدين السامية لم يكن بين الإنسان وبين الحيوانات المنطلقة وراء شهواتها أدنى فرق إلا بمجرد الصورة الجسمية لا غيرها

وينبغي أن يعلم أننا لا نريد بالعبادة المذكورة هنا لزوم المساجد والزوايا والعكوف فيها دواما ومتابعة الصيام والانقطاع عن جميع الأعمال الدنيوية وأمثال ذلك مما يظنه الجاهلون ، وإنما نعى بالعبادة اتساع أوامر الله سبحانه وتعالى التي أنزلها في كتابه ، وهي والله الحمد سهلة يسيرة على من باشر قلبه بالإيمان ، وكل عمل يكون يسره وعسره بحسب ما في قلب صاحبه من الإقبال عليه والرغبة فيه وجهه لذلك العمل ، والله سبحانه وتعالى يقول ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ وفروض الشرع كلها يسيرة معروفة اعتقاداتها وأعمالها وأقوالها . ومن المعلوم أن هؤلاء الذين يتركون الأوامر الدينية يبتلون بأغلال القوانين القاسية وبالذهاب إلى أعمال واشغال لا تنفع فيها من ملأه وخلاعة وغيرها وهي تعطل عن العمل الديني والدنيوي النافع ، فهم كما لا يتقيدون بأوامر الشرع فلا بد أن يكونوا مقيدين بقوانين ضيقة عسيرة ، فإن الإنسان مهما بلغ في الرقي لا يمكن أن يترك بلا نظام يمسك عنان أغراضه وشهواته . وعلى كل حال فإن الله سبحانه وتعالى قد ضمن لكل من قام بشرعه أن ييسر له أمره ويجعل له فرجا وأن يعطيه من الفرح والسرور والراحة والطمأنينة ما يوجب أن تكون حياته سعيدة صحيحة ، وأن من رفض شرعه فلا بد أن يعاقب بقوانين ونظم كالأغلال والقيود الضيقة العسيرة ستوصله إلى أضفاد وأغلال جهنمية مستمرة وبيلة . والعاقل يختار لنفسه ما يخلصها ويسعدها ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

وكما أن الدين هو أساس كل خير ونهوض وفلاح ونجاح وهو مصدره

ومنبه كما ذكرنا فإن الاتحاد ورفض الأديان هو أصل كل شر في الدنيا وخصمه
وعلمته ، فلا يوجد في الدنيا مصيبة وعناء وشر وبلاء الا وهي نتيجة الكفر
وفروعه وأثره . وأنت اذا تأملت كل شر ونقمة وبلاء ومحنة حدثت في الدنيا
من أولها الى آخرها وجدت أن أصل ذلك عدم التدين أو البعد عن الدين .
فالهلاك الذي أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وأمثالهم ما هو الا
بسبب رفض الأديان التي جاءتهم بها رسلهم . ولما كان قوم لوط هم أشد الخلق
انغماسا في الإباحية وانطلاقا في اتباع شهواتهم كانت عقوبتهم أشنع عقوبة
وأفظعها فتاسب أن تكون عقوبتهم كجرمتهم ، وكذلك الأمم التي جاءت بعد
تلك الأمم الى هذا الوقت الحاضر فإن للعقوبات المتنوعة لا تزال متتابعة عليهم
فهذه المجازر الواسعة النطاق والحروب الطاحنة المتصلة حلقها ما هي إلا نتيجة
الكفر والاتحاد ، وكل أمة من هذه الأمم فانها تصاب بقدر ما معها من
الاتحاد والكفر . ولما ذكر الله سبحانه وتعالى تلك الأمم السابقة وذكر ما
حل بهم من العقوبات ذكر أن من سلك سبيلهم فيحل به ما حل بهم فقال
تعالى ﴿ فان الذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون ﴾ وقال
تعالى ﴿ أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله
عليهم والكافرين أمثالها ﴾ وقال تعالى ﴿ قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم
ما قد سلف وان يعودوا فقد مضت سنة الاولين ﴾ وقد اخبرنا بسنته في الاولين
أنه الهلاك لا محالة لكل في خالف الرسل ، وقال تعالى ﴿ فاذا مس الانسان
ضر دعانا ثم اذا خوّلناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم ، بل هي فتنة وليكن
أكثرهم لا يعلمون . قد قال الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون .
فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا
وما هم بمعجزين ﴾ فتأمل هاتين الآيتين وما فيها من العبر ، فقله ﴿ ثم اذا
خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم ﴾ فانه اذا استحصل على ما استحصل
عليه من نعمة الدنيا قلت أو كثرت أسند ذلك الى نفسه وعمله وقوته وطبيعته

واستعداده ومواهبه لمعرفة ذلك . وحقيقة هذا أنه استحصل على هذا بعلمه الذى به استعمل الاسباب المحصلة له ذلك (١) ولم يقل هذا بفضل من الله وتوفيقه ، فقال الله تعالى ردا عليه ﴿ بل هي ﴾ اى هذه النعمة إنما أوتيتها ﴿ فتنة ﴾ لك لتنظر كيف تعمل فيها ، فاما أن تعمل بالطاعة فهي متاع حسن الى حين ، وإما أن تكفر بها فتجازى بسلبها منك وتعاقب بها كأسلاكك . فلا يد من أحد الأمرين . ثم أخبر تعالى بان هذه القولة ﴿ قد قالها الذين من قبلهم ﴾ أى من قبل هذا الانسان القائل بتلك المقالة الجائرة ، قال تعالى فى أولئك ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ أى فما أغنى عنهم ما كسبوه من الاسباب التى اعتمدوها وهى هذه النعمة التى ادعوا أنهم أتوها على علم فلم يغن عنهم ما معهم من تلك الاسباب وغيرها شيئا ، بل ﴿ أصحابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء ﴾ القائلين بمقاتلتهم ﴿ سيصيبهم ﴾ مثل ما أصاب أولئك ﴿ سيئات ما كسبوا ﴾ فانها سنة الله فى هذا النوع . بأنه يصاب بسيئات ما كسب حتما وما هم بمعجزه سبحانه وتعالى

والمقصود أن من تأمل هذه الحروب الفظيعة المشتملة على المحن والمصائب المتنوعة وجدتها عقوبات محضة من جنس العقوبات السابقة ، لما سلك هؤلاء سبيل أولئك وقالوا مقاتلتهم إنما أتوه على علم ، وقد قال تعالى ﴿ وان من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيمة أو معذبوها عذابا شديدا كان ذلك فى الكتاب مسطورا ﴾ وقال تعالى ﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله خاسينها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا ﴾ وقد وقع كل هذا الذى أخبر الله به عز وجل ووعد به الملحدون الظالمين ، فهذه المواضع التى طحنتها الحروب وترددت عليها كرة بعد كرة حتى سحقتهما سحقا شنيعا هى التى يبت فيها عناصر الاتحاد وهى التى نبتت فيها أصوله ورسخ فيها وبأوه ، وأكثره مستمد من هذه المواضع ، ففيها الحظ الوافر من العتو عن

أمر ربها فلماذا أذهبت الحظ الوافر من البطش الشديد والفتك المفزع والعذاب
الفظيع . والحكمة في أن عذاب هؤلاء المتأخرين ليس كعذاب الأمم السابقين
في الصفة المتحدة بل كان متنوعا هو أن كفر أولئك كان متحدا جلوسا فكل
أمة منهم كفرها نوعا واحدا فكان عذاب كل أمة نوعا واحدا بخلاف الأمم
التأخرة فإن كفرهم كان متنوعا فمنهم الوثني المشابه لقوم نوح وامثالهم ومنهم
الإباحي كاللوطي ومنهم عباد الطبيعة كقوم ابراهيم ومنهم على غير ذلك فكان
كفر هؤلاء متنزجا من كفر أولئك فكان عذابهم مختزجا من جنس عذاب
أولئك كما امتزج كفرهم بكفرهم قال تعالى في الأمم السابقة ﴿ فكلنا أخذنا بذنبه
فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به
الأرض ومنهم من أغرقنا ﴾ وهكذا كان عذاب الأمم التأخرة على هذه الصفة
وايضا فإن كفر الأمم التأخرة كان أكثر أسبابه الاقتتان بالطبيعة وجماعها
ومظاهرها وموادها فكان عذابهم بهذا الشيء الذي قتلوا به وتوجهوا اليه
وشغفوا بحبه والتعلق عليه والامل فيه والطبيعة مظلة عاتية وهم لكفرهم وبعدهم
عن نور الدين كانوا مظلمين عاتين مناسيين لها في الطبيعة فصدمتهم واصطدموا
بها فجرعتهم من علقم مرارتها اضعاف ماذاقوه من حلاوة عسلها . وايضا
فإن كفرهم كان بسبب الدعايات والذات التي نالوها من هذه الانتاجات
والصناعات المستخدمة فكان من الحكمة الالهية ان ياتيهم العذاب من الجهة التي
جاءتهم منها الدعايات ونالوا منها الذات وان يكون هلاكهم بجنس الآلات
التي استخدموها وجعلوها سببا للحياة فانقلبت عليهم هذه الاسباب فصارت
قصة يعد أن حسبوها نعمة . وتأمل بعين البصيرة كيف كثرت آلات الفتك
والقتل لما كثرت دعايات الكفر والالحاد ورفض الاديان ، وكلما توسعت
دائرة الالحاد توسعت بازائها دائرة عوامل الهلاك والفتك والحن والمصائب ولما
فشت وتوسعت مذاهب الاباحية واللا دينية ظهرت بازائها مخترعات القتل والفناء
العام كالطاقة الذرية ونحوها فجنس هؤلاء الذين بشوا دعايات الالحاد ورفض

الاديان قد هينوا بازائها للملحدين من الكيد والمكر والاستعداد اسباباً من جنس اسباب تلك الدعايات تقضى بهلاكهم وتكدير لذاتهم قهراً كما أنهم يصنعون لهم من جانب آلات للذات فهم يعملون لهم من الجانب الآخر عوامل هلاك ودمار ومصائب وبلاء ومحن . وها نحن أولاء لا نزال نرى هولاء العاتين في كل وقت وحين تصيبهم بما صنعوا قارعة تلو قارعة وقارعة قد حلت قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله ان الله لا يخلف الميعاد .

وبالجملة فكل سبب يعتمد عليه الانسان اعتماداً كلياً غير ملتفت الى ربه الذي خلقه وخلق سببه بل يتخذ هذا السبب لها من دون الله يتعلق به ويعتمد عليه وينسى الله وراة فان سببه هذا سيكون وبالاً عليه وسيعاقب به ولا بد ، وإن تأخر زمننا أو فترة فلا بد من وقوع سوء عقابه ، فقد يتأخر عذاب الملحدين وعقوبتهم زمننا أو فترة كما تأخر عذاب الامم السابقة ولكن لا يمكن بحال ان يتركوا بحالتهم مستمرين في غيهم او ظاهرين على غيرهم من المتدينين فان سنه الله في خلقه تأتي هذا كما انه لم يقع ابداً

فما أسفه رأى من ظن أن رفض الدين هو سبب الحياة والتقدم وهو يرى ما اثبتته التاريخ والأبصار والبصائر من أن رفض الدين هو سبب الدمار والهلاك الأبدى ، كما أنه لا أضل رأياً ولا سعيّاً ممن ظن أن الله يخلق خلقاً لعبادته وقصده والتوجه اليه والاعتماد عليه ثم يرفضون ذلك فيتركون هملاً يتمتعون وبأكلون كما تأكل الأنعام ثم لا ينتقم منهم كما انتقم من أسلافهم وهو يقول في كتابه العزيز ﴿ قل ما يعبا بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما ﴾ ويقول ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾

إذا عرف هذا كله فعلينا إذن من الواجب المحتم أن نعرف طريق المجد والنهوض والخلاص معرفة صحيحة محققة . نعم انها هي هذه الطريق الثيرة الواضحة ، هي طريقة الدين ، هي الطريقة السلفية ، هي التمسك بالاخلاق الدينية

الاولى في أصول الدين . يجب ان نعلم ونعتقد أن نهوض المسلمين ومجدهم واستقلالهم وخلاصهم كل ذلك معلق بهذا الحبل السماوى ، معلق بالقيام بهذا الدين المتين قياما صحيحا صادقا صارما ونفى الشكوك والأوهام الملصقة به وابعاده عن مضايق التأويلات والتحريفات والتعسفات المزيفة المولدة من المحاماة للذاهب والأنساب والاسلاف ، فالقيام بهذا أعظم كفيل لتقدمهم ونجاحهم ولا يمكن لهم تقدم ولا نجاح مهما حاولوا وفعلوا بدون ذلك أبدا ، فان هذه الدولة الاسلامية لم توجد وتتكون إلا على روح الدين ، فبوجود روحه وقوتها يعظم ويقوى ، وبعدم روحه أو ضعفها يضعف ويتأخر ، وكل هذه الاحزاب والتعصبات القومية الثائرة الهائجة الطائشة فألها الفشل والهبوط ما لم تكن روحها عصبية دينية اسلامية ، وبهذا السلاح الجبار وبهذا النور الساطع وبهذه الروح الصارمة الوثابة المستهبة يكتب لنا النصر والمجد المنشود ان شاء الله تعالى وبه الثقة والاعتماد

الكلام على اسم كتابه (هذى هي الأغلال)

من عجيب أمر هذا الرجل أن الله لما قلب قلبه وعكس بصيرته تصور ما جعله الله نوراً وروحاً وفرحاً وسروراً من تعاليم الدين الخفيف أغلالاً وخرافات وأوهاماً ، فسمى كتابه (هذى هي الأغلال) ، ولهذا أطال في تكرار ذكر الأغلال والخرافات والأوهام ، فرمى المسلمين بدائه ، وضرجهم بدمائه . وباليات هذا الاحتمال فكر في نفسه ليعلم أنه هو الذى أصيب بهذه الأدوية ، وأنه هو الذى غلت بها عنقه ويداه فالأولى له أن ينعى نفسه ولا يرمى ببلائه غيره ، وفى المثل « رمتنى بدائها وانسلت » فلقد كان من عظيم قدرة الله تعالى القاهرة وأنه يحول بين المرم وقلبه أنه لما طمس على بصيرة هذا الرجل وخسف بقلبه جعله يسمى كتابه (هذى هي الأغلال) . وهذا من عجائب قدرته تعالى ، ولو لم يسمه بهذا الاسم لسميناه نحن به ، ذلك أن الناس كلهم اذا صنف أحد منهم مصنفاً فإنه يسميه بما يتضمنه من الفوائد التى يحث عليها ذلك الكتاب فيختار له الاسم الحسن الذى يطابق مسماه كما يقال الشفاء والمصباح والمنهاج والدليل والأفراح وهكذا ، لأن الاسم عنوان على ما يتضمنه الكتاب ويحث عليه ، لا على ما يحذر منه ، ولهذا لا تكاد تجد رجلاً يسمى كتابه هذى هي السموم أو الضلال أو الظلام أو القيود أو الأغلال إلا اذا كان يريد أن يحث على ذلك ويدعو اليه ، ثم انه لعظم شقائه أكده بقوله « هذى هي الأغلال » لئلا يظن ظان أنه يريد بيان الأغلال أو يكون المحذوف شيئاً يصرف ما يفهم ظاهر هذا الاسم ، فدفع بهذا التأكيده هذا الاحتمال وبين بأوضح بيان أن كتابه هو الأغلال التى لا شك فيها كما لو أن ظرفاً مملوءاً بالسموم فيكتب عليه عنواناً « هذى هي السموم » فلا يفهم أحد من هذا العنوان أن داخله دواء للسموم وهو مكتوب عليه ذلك ، فهكذا قوله « هذى هي الأغلال » فإنه ينبغي أن يكون

المراد بيان إزالة الأغلال . ولو أن كتابا كتب عليه هذا هو التوحيد فليس المراد منه إلا الحث على التوحيد لا نفي التوحيد ، ولهذا لا تكتب على الكتب التي يحض فيها على التوحيد « هذا هو الشرك » ، ولو كان فيها التحذير من الشرك لأن المقصود هو الحث على التوحيد . نعم لو قيل بيان الشرك ونحو ذلك لكان له وجه كما لو أن هذا قال بيان الأغلال أو كسر الأغلال وأمثال ذلك فقد يكون له وجه أيضا ولكنه لحماية بصره أكده باسم الإشارة والضمير دفعا لإزالة هذا الاحتمال البعيد . وطرد هذا أن الإنسان الذي عنده ظروف فيها سموم وأدوية وأغلال مرصودة فإنه يكتب عليها هذى هي السموم وهذى هي الأدوية وهذى هي الأغلال فيعرف أن داخلها هذه السميات ، وكل عاقل يعرف أن هذه الأشياء صنعت لأمرها الخاصة ، فلو أن رجلا وجد ظرفا مكتوبا عليه هذى هي السموم ثم أخذ ما في داخله فأكله فعمط لكان قد جر على نفسه البلاء ، ولو ظن أن داخله دواء للسموم لم يكن معذورا بل يكون فاسد الفهم والذهن عند جميع العقلاء ، فلا أسخف عقلا وذهنا وفهما من يرى كتابا مكتوبا عليه « هذى هي الأغلال » ، ثم يفتن فيأخذ أغلاله فيجعلها في عنقه ويديه ثم مع ذلك يظن - لحماية بصيرته وبصره - أن الناس مثله ، فإن هذا غاية الضلال .

لقد ذكر الله سبحانه وتعالى الأغلال في مواضع من كتابه العزيز كلها إذا تأملها الإنسان وجد هذا الرجل متصفاً بصفات من استحقوها . منها قوله تعالى ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم إذا كنا تراباً أإنا في خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ فأخبر تعالى عن هؤلاء الكفرة المكذبين بالبعث الكافرين بربهم أن في أعناقهم أغلالاً . ومعلوم أنهم إنما كفروا بآيات ربهم وكذبوا بالبعث لأنهم تصوروا كما تصور هذا الرجل أن الأيمان والأعمال الصالحة ومتابعة الرسول وتصديقه بالبعث أغلال تعوقهم عن التهادي فيما ألقوه من الأغراض والآهواء

والغى والضلال ، فكان هذا رأى الذى رأوه هو فى الحقيقة الأغلال التى غلوا بها فى أعناقهم ، ولأنهم لشدة كراهتهم الحق وعدم الانقياد اليه كانوا كسب سلسلوا بالأغلال فلا يستطيعون المضى الى ما ينفعهم من الأعمال الصالحة والمتابعة للرسول . وهذا الرجل كفر بالله تعالى حيث رفض دينه ودعا الى رفضه وادعى أن عبادته ملهية ومصرف خبيث وكذب بالبحث فإنه ذكر (١) ضرر الايمان بالنعيم الاخرى وأنه عامل من عوامل التأخر لأن المؤمن يأمل النعيم الاخرى فيشغله أمله وعمله لهذا النعيم عن العمل لهذه الحياة ، فيكون أمله عائقا عن التقدم ، وكتابه فى الحث على التقدم ، فهو حث على التكذيب بالبحث كما هو ظاهر

ومنها قوله تعالى ﴿ وقال الذين كفروا لن تؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه ﴾ الى قوله ﴿ وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يحزون ألا ما كانوا يعملون ﴾ فهؤلاء الكفار الذين قالوا لن تؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه إنما قالوا ذلك لأنهم رأوا كما رأى هذا الرجل وكما رأى جميع الملاحدة والكفرة أن الايمان بالقرآن وبما بين يديه أغلال تمنعهم عن بلوغ ما يريدونه ويرونه نافعا لهم أو غير نافع ، فلماذا قالوا هذا القول وخالفوا القرآن لظنهم انه أغلال ، فجعل الله فى أعناقهم أغلالا حقيقية جزاء لهم على هذه الآراء التى هى الأغلال الحقيقية ، فافروا منه بنظرهم المطموس ورأيهم المعكوس وقعوا فيه ، ولهذا كانت حالتهم كحالة العصاة المعتدين الذين أوقفوا لدى الحاكم العدل فى معاقبة بعضهم بعضا ومنازعة بعضهم بعضا ، فان الله تعالى يقول بعد قولهم ﴿ ان تؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه ﴾ : ﴿ ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا الذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم

محرمين . وقال الذين استضعفوا الذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمرونا ان نكفر بالله ونجعل له اندادا ، وأسرو الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في اعناق الذين كفروا ، هل يجزون الا ما كانوا يعملون ﴿ فتأمل هذه المنازعة والعتاب الشديد بينهم في هذه الحالة الدلية تجدد الامر كما ذكر . وما أجل قوله تعالى آخر الآية ﴿ هل يجزون الا ما كانوا يعملون ﴾ فانهم عملوا أعمالا هي الأغلال الحقيقية خوفا من الأفراح التي تصوروها أغلالا فكانت هذه الأغلال التي عملوها موصلة لهم الى الأغلال الجهنمية التي هي مسيئاتها ونتائجها ، وهكذا كل مبطل يجازى من جنس عمله

ومنها قوله تعالى ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي الى الاذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يصرون ﴾ الى قوله ﴿ انما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب ﴾ فدل على أن كفرهم بالله ورفض الايمان والأعمال الصالحة هو الأغلال الحقيقية ، فان الله تعالى وصفهم بهذا الوصف الذي هو ضد الايمان والعمل الصالح ، ودل على أن من اتبع الذكر فهو سالم من الأغلال ، ومن رفض الذكر فقد جعل الله في عنقه أغلالا مستمرة . وهذا الرجل رفض الذكر وعاداه وجعله ملهة ومصرفا خبيثا ونكبة وشرا وخرافات وأوهاما وأغلالا عاتقة عن التقدم فلم يخش الرحمن مطلقا . ومنها قوله تعالى ﴿ ألم تر الى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون ، الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون اذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الجحيم ثم في النار يسجرون ﴾ . فأخبر أن هؤلاء الذين يجادلون في آيات الله مصروفون عن الحق وانهم كذبوا بالكتاب وبما أرسل الله به رسله ، ومعلوم أنهم ما فعلوا ذلك الا من أجل أنهم فكروا كما فكر هذا الرجل وأمثاله من الملاحدة والزنادقة فرأوا أن التصديق بالكتاب وبما أرسل الله به رسله واتباع ذلك أغلال تعوقهم عن التقدم والاستمرار فنيما يريدونه ويهرونه كما قالوا ﴿ ان تتبع الهدى معك

تختطف في أرضنا) أي تكون ضعفاء أذلاء مغلولين عن مكافحة أعدائنا بالقوة كما يقول أتباعهم ، وهذا الرجل كل كتابه في هذا الغرض في التكذيب بالكتاب وما أرسل الله به رسوله والجدال والعناد والمكابرة في ذلك ، فقد اتصف بهذه الصفات كلها حتى قلب الله قلبه فأخبر عما تصوره في تعاليم الدين بأنها أغلال فسمى كتابه (هذى هي الأغلال) . فليس هو ببدع من إخوانه الكفار والمنافقين في هذا التصور الذي تصوره في الأخلاق الدينية من الإيمان والعمل الصالح ، بل هذه هي سجية كل كافر ومنافق ، فلهذا تبع سلفه في هذا التصور كما تبع سلفه في معاداة هذه الأخلاق ، تشابهت قلوبهم ، فقلوه (هذى هي الأغلال) نقول « نعم هذى هي الأغلال التي في عنقك » فهلا راجعت نفسك أو استرشدت من غيرك حتى تسمى أو يسعى لك في الانفكاك منها ، لكنك رأيت صورتك في غيرك فشنت عليه توهما وضلالا في تصورك

قيح من الإنسان ينسى عيوبه ويزعم عيباً في أخيه قد اُحْتَقِ
فلو كان ذا عقل لما عاب غيره وفيه عيوب لو رآها به اكتفى

هذا مع ملاحظة أنه كان قبل ذلك فيما يزعم في هدوء وراحة وطمأنينة نفس ، فلما انسلخ والعياذ بالله وطفء نوره غل بهذه الأغلال ، فأخبر عن حالته التي رسمها في كتابه بما تضمنه هذا الاسم الواضح الصريح . نسأل الله السلامة بمنه تعالى وكرمه

(الكلام على فاتحة كتابه)

اعلم أن هذا الرجل لم يبتدىء كتابه ببسمة ولا حمدة ، لأن ذلك عند من القديم الذي يجب هجره ورفضه ، ولا يناسب الابتداء به موضوع كتابه فان موضوعه رفض هذه الأمور الاعتقادية الدينية . وأيضا فان كتابه لا يناسب الرحمة بل يناسب الغضب واللعة والطرذ والابعاد ، فكان من حكمة الله أن صرفه عن الابتداء بها ، وقد ذكر جملة في أول كتابه مستفتحا بها ومعجبا

بها ومستعصا بها عن البسمة والتحميد والشهادتين والصلاة على النبي ﷺ كما يفعل المسلمون في مصنفاتهم ، فنذكر هذه الجملة عوضا عن ذلك ، ونحن ننقلها برمتها ونحجب عليها بما يبين مقدارها ، ونبين أنه لو لم يكن في هذا الكتاب من الأدلة على فساد إلا هذه الجملة لكني ، فكيف وفيه من السخافات الكثيرة ما لا يدخل تحت حصر كما ستقف عليه ان شاء الله تعالى

قال : ان الجهل الاعتقادي قد ضرب على قومنا عقدا فوق عقد ، وان أفضل ما يفعله المراء أن يحل عقدة من هذه العقد . إن للوهم الواحد في الحياة ثلاث نتائج : أولاها أن يهوى عن السير الى الغاية المنشودة ، وثانيها أن يوجه الى جهة أخرى مضادة وهذا فيه ابعاد عن الغاية وضياع الجهد المبذول سدى ، وثالثها افساد العقل فإن الأوهام تأكل العقول وكل وهم يأخذ من العقل بقدره ولا تزال الأوهام تتوالى عليه حتى يصبح عاجزا عن التمييز ويتخلى في النهاية عن وظيفته . إن ما في هذا الكتاب هو من الحقائق الأزلية الأبدية التي تفقدناها أمة قتهوى لأنها فقدت حقيقة من حقائقها الطبيعية وتأخذ بها أمة أخرى فتهمض لأنها قابلت الطبيعة الكاملة بطبيعتها الكاملة ولن يوجد مسلم واحد بين الأربعائة المليون المسلم يستغنى عن هذه الأفكار إذا اريدت له حياة صحيحة طبيعية .

وهذه الجملة ابتدأ بها كتابه في أول ورقة منه ، وقد أعجب بها جدا حتى أنه أعاد بعضها حرفيا في وسط كتابه ، وهي جملة فاسدة من أولها الى آخرها . قدعواه : أن الجهل الاعتقادي قد ضرب على قومه عقدا فوق عقد ، وأن أفضل ما يفعله المراء أن يحل عقدة من هذه العقد « دعوى في إمكان كل أحد أن يدعيها من محق ومبطل ، وانما الشأن في بيان هذا الجهل الاعتقادي المشار اليه وبيان العقد ماهي وبيان الحل الذي يراد به حل هذه العقد ما هو ، فهو يريد بالجهل ما عليه المسلمون من الاعتقادات الدينية ، والعقد عقائدهم الدينية وحلها ازالة ذلك . هذا هو مراده على ما قرره في كتابه . ومعلوم أن كل رجل يريد أن يتكلم في مثل هذه الأمور في امكانه ان يدعي بمثل هذه الدعوى بأن

يسمى ما يضاد رأيه جهلا وما يخالف اعتقاده عقدا وما يقرره حلا لهما
 والمتدين لا يعسر عليه أن يعكس هذه الدعوى عليه فيقول ما ادعيت به جهلا
 فهو العلم ، وما ادعيت به من الخلل فهو العقد بعينه ، وليس قبول قولك بأول من
 قبول قولنا لأن ما ذكرته مجرد دعوى تقليل بمثالها ، وما ذكرته من الأدلة
 فنحن معك في نقضه بالبراهين الواضحة ، بل كل كتابنا في حل عقيدك التي
 عقدتها على عقول الأغبياء وضعفاء البصائر . وقوله «ان للوهم الواحد في الحياة
 ثلاث نتائج ، الى آخره ، فيقال : هذا التقسيم باطل كما ان المعنى الذي يريد
 فاسد ايضا فان عني أن للوهم الذي هو تصور الشيء على خلاف ما هو عليه في
 نفس الأمر ، ثلاث نتائج فليس بصحيح بل اللوهم المطلق يختلف نتائجها كثيرا
 باختلاف مصادقاته وبواعثه فقد يكون للوهم الواحد نتيجة واحدة ونتيجتان
 وثلاث وأكثر من ذلك بحسب كثرة متعلقات اللوهم وقتلها وضعفه وقوته ، وان
 عني بالتقسيم أن اللوهم الواحد الذي هو تصور غير الحقيقة بقطع النظر عن
 متعلقاته له ثلاث نتائج فالتقسيم باطل أيضا ، فالتقسيم المعقول أن يقال ان
 للوهم الواحد نتيجة ضارة وهي تأثيره في العقل بالنقص أو الفساد ، فاما أن
 يعوق عن السير أو يوجه الى جهة أخرى مضادة ، وذلك بحسب تأثيره في
 ضعف العقل وافساده ، فان أضعفه نشأ عنه ضعف السير أو وهنه أو الوقوف
 وإن أفسده نشأ عنه انقلاب السير الى الجهة الأخرى المضادة أو المنحرفة ، أو
 يقال بعبارة أخرى ان للوهم الواحد - بالنظر الى كونه وهما محققا - نتيجة
 مفسدة للعقل او منقصة له ، وهما درجات إما تعطيل السير أو تضعيفه عن
 الوصول الى الغاية المطلوبة ، واما التوجيه الى الجهة المضادة او الانحراف عن
 الجهة المطلوبة بحسب قوة اللوهم ، فان الأوهام تختلف اختلافا لا ينحصر كما
 تقدم ، فالتقسيم الذي ذكره مدخول فإن النتيجة الناشئة هي أصل النتيجتين
 الأوليين فهما فرعان لها فكيف تكون قسما ثالثا . ثم ان تخصيص النتيجة الثانية
 بقوله « وهذا فيه ابعاد عن الغاية وضياع الجهد المبذول سدى ، خطأ في خطأ

فان هذا الضرر شامل للنتائج الثلاث على حسب تقسيمه الفاسد ، بل هو في النتيجة الثالثة أظهر ، فلو أتى بهذه الجملة بعد الثلاث لتشملها جميعا لأنها تترتب عليها كلها ، او لو أنه خصص كل نتيجة بجملة مثلها لكان أولى على حسب تقسيمه الباطل ، أما تخصيص النتيجة الثانية بهذه الجملة والأتان بها في هذا المحل الذي أعجب به ففساد ظاهر في تركيب العبارة لا سيما في هذا المقام

وأما بطلانه من جهة المعنى فمن وجهين : أحدهما أنه تناقض في هذه الدعوى فانه ادعى هنا أن الوهم الواحد ثلاث نتائج ، وحاصلها أنه ضرر بكل حال ، ثم نقض هذه الدعوى فذكر في صحيفة ٢٨ عن بعض المسيحيين كلاما يتضمن أن الوهم الباطل يفيد ، واستحسن نتيجته مع دعواه بأنه باطل في حقيقته فقال « ومن غريب الاستدلال الباطل في حقيقته العجيب في مرماه أني قرأت في كتاب مطبوع لأحد المسيحيين ما خلاصته : إن القول في ألوهية المسيح وان كان باطلا في نفسه الا أنه مفيد في نتيجته ، وذلك أننا اذا أفهمنا الدائنين بالنصرانية ففهموا أن بشرا في مظهره ومولده وحياته وكل صفاته استطاع أن يترقى حتى صار إلهاً يفعل فعل الآلهة ويعلم عليهم ويخضع الأمم والشعوب الى أن تدن له بالآلوهية والربوبية وتعبدوه فقد فتحنا مجالا للتسامي والرقى لا حد له يأخذ بالهمم والآمال ، فتتسامى هذا التسامى وتطمح بأبصارها الى هذا المرتقى العظيم ، وفي هذا من الحفز للهمة والأعراء بالوثوب ما يمجز عن وصفه الواصفون . ولهذا فان الفرق في عظمة الآمال واتساع المطامع عظيم بين الامم المسيحية وغيرها ، ثم قال « هذا خلاصة قول هذا المدافع عن تأليه المسيح . وليس بخاف ما في هذا القول من محاولة التسامى بالمواهب الانسانية والحقيقة الانسانية . وكمن الفرق بين هذه الروح التي أملت هذا الكلام وبين تلك الروح التي أملت قولهم : ما للتراب والعلوم الى آخره . لقد عظم الفرق في التوجيه والاتجاه ، فعظم الفرق في النتيجة والغاية انتهى . فانظر الى سياق هذه الجملة وكلامه بعدها ، مستدلا بذلك على أن الوهم وان كان باطلا في حقيقته

الا انه مفيد في نتيجته لان فيه محاولة للتسامي بالمواهب الانسانية . ولا شك أن محاولة التسامي بالمواهب الحقيقية الانسانية نتيجة نافعة مفيدة مطلوبة ، وهذا تصريح بأن الوهم وان كان باطلا فقد تكون نتيجته مفيدة ، فانه صرح بأن هذا الوهم باطل في حقيقته وصرح بأنه مفيد وبأن فيه محاولة للتسامي بالمواهب الانسانية والحقيقة الانسانية ، فكيف يدعى أن الوهم يفسد العقل وهنا يدعى أنه مفيد مع أن هذا الوهم كثر صريح ، ثم ان القول الذي حكاه عن المسيحي - ان صدق في حكايته - ينقض أصله ، لأن المسيح لم يبلغ هذه الغاية التي ادعاها - لو صحت - الا بالعبادة المحضة والتقشف والزهد في الدنيا ، لم يبلغها بالاخلاق الصناعية والتجارية والاقتصادية ونحوها ، فهذا النقل حجة عليه لا له

الوجه الثاني أن يقال : ما هو الوهم الذي تريده ، فانه يجب عليك بيانه بصراحة وتفصيل ، لأن الوهم الذي نتاجه هذه النتائج السيئة لا بد من ايضاحه ليجنب ، فان الوهم في ألسنة الناس اليوم لا ضابط له ، فكل أهل ملّة أو بدعة تدعى أن ما اعتقدته هو الحقيقة وما اعتقده مخالفها وهم لا حقيقة له ، كما حكى الله سبحانه وتعالى عن أهل الكتاب في قوله تعالى ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ، وهم يتلون الكتاب ، كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾ الآية . فجرد رميك لمخالفك بأن ما هو عليه من الاعتقاد وهم أو أوهام في امكانه أن يقابلك بمثل دعواك عليه بل في امكانه إقامة البراهين على أن ما تدعو اليه في هذا الكتاب أو أكثره أوهام لا حقيقة لها . ويكفيه برهانا على ذلك أنك معترف في هذا الكتاب بأن هذه الأفكار لم تسبق اليها وانما هي شيء رأيته وحدك بعقلك وتفكيرك حتى ادعيت أن هذا الرأي قد يكون لسوء حظك ، فاذا كان هذا شيئا قد اعترفت أنك منفرد به عن جميع الناس ولا سيما وهو في أصل الدين فالحكم عليك بانك واهم أولى في جميع العقول السليمة من أن ترمى جميع أهل الملل

بالوهم فيه وخصوصا اذا كنت معترفا بأن هذا الرأي مخالف لما كنت معتقدا
من قبل مع أنك قد أفتت البراهين على اعتقادك الاول ، وهذا يتضمن أنك
لست على بصيرة من أمرك وأنت في شك منه ، والشك في الاسباب عنده
من أعظم ما يصاب به الانسان في علمه وعمله ، لان منشأه ضعف اليقين .
وقد ختمت كتابك هذا أيضا بأن حاصله مشكلة لم يوجد لها حل الى اليوم ،
فكان خلاصة كلامك كله وقوع في الإشكال باعترافك صريحا ، فتبين بهذا أن
ما ذكرته في هذا الكتاب الشاذ أو هام لا حقيقة لها ، فما ذكرته من نتائج الوهم
فإنك أنت المتصف به ، وقد ظهرت صفته عليك في مظهرك وأخلاقك
وأقوالك ومجموع أحوالك وأغلاك ، فان هذه الاوهام قد أفسدت عقلك
أو أكلته - كما تقول - حتى أصبح عقلك عاجزا عن التمييز حتى بين المسلم والكافر
فإنك سويت بينهما صريحا فيما يأتي (١) فصار عقلك متخليا عن وظيفته التي بها
يدرك الاشياء على حقائقها ، ولا أبين في الدلالة على تخلي العقل عن وظيفته
من أن يعجز عن تمييز المسلم من الكافر ، فن خفي عليه هذا فهو كمن خفي عليه
التمييز بين الشمس والظلام والسماء والارض والنار والتلج ونحو ذلك من
الاشياء المتضادة

وأما قوله « إن ما في هذا الكتاب هو من الحقائق الأزلية الأبدية التي
تفقدتها أمة فتوى لأنها فقدت حقيقة من حقائقها الطبيعية ، وتأخذها أمة
أخرى فتنهض لأنها قابلت الطبيعة الكاملة بطبيعتها الكاملة ، ولن يوجد مسلم
واحد بين الاربعة المليون المسلم يستغنى عن هذه الافكار اذا أريدت له حياة
صحيحة طبيعية »

(١) أى في الاسباب المادية في تناولها حيث جعل سبب الكون وما فيه من
الحوادث كالمسألة الرياضية لا يختلف في حلها المسلم والكافر ، أما العلم والمعرفة فانه
يفضل للكافر على المسلم بكثير

فيقال من تأمل هذا الكلام حقيقة التأمل فهم منه ان هذا الرجل يحاول به وبغيره من الدسائس التي أدخلها في مطاوي هذا الكتاب وغيره أن يكون بمنزلة الإله ، وأن يحل كتابه هذا محل الكتب السماوية ، فانه وصفه بوصف لا ينطبق إلا عليها ، وهذه الجملة الشنيعة نزهة افقلت من سجاياها السكامة العريضة التي يفكر بها أحيانا حين يغلب على شعوره الكبر والاعجاب والزهو والاختيال كقوله :

لو أنصفوا كنت المقدم في الأمر ولم يطلبوا غيري لدى الحادث النكر
ولم يرغبوا إلا إلى اذا ابتغوا رشاداً وحزماً يعزبان عن الفكر
ولم يذكروا غيري متى ذكر الذكا ولم يصروا غيري لدى غيبة البدر
أضف الى ذلك قوله :

اذا قلت قولاً أمن الدهر واستحيا وهاب مقال أن ينازعه الدربا
وأضف الى ذلك قوله أيضا :

متى جريت فكل الناس في أثرى وان وقعت فما في الناس من يجري
وأضف الى ذلك قوله أيضا :

نثرى شفاء للنفوس وللحجى وردى شعري معجز الشعراء
وأضف الى ذلك ما كتبه تحت اسم كتابه حيث قال « سيقول مؤرخو
الفكر انه بهذا الكتاب بدأت الامم العربية تبصر طريق العقل ، الى أمثال
هذه الدسائس التي لا تعد ولا تحصى ، فالامة المحمدية منذ وقت محمد ﷺ
وأصحابه الى هذا الوقت الذي هو سنة ١٣٦٣ في ظلمات الجهل والخفلة فالرسول
ﷺ ما أخرج الامة العربية وغيرها من الظلمات الى النور حتى أبصرت
طريق العقل ، وجميع القرون المفضلة كذلك لم يصروا طريق العقل والنور
وكذلك من بعدهم حتى جاء بلعام زمانه فصنع هذه الاغلال فأخرج الناس بها
من ظلمات الجهل الى أن عرفوا بها طريق العقل ، فياسبحان الله كيف العقول
التي تروج عليها مثل هذه السخافات والمخاوي التي هي في غاية الوضوح . فهذه

الجملة التي قالها في هذا الكتاب متولدة عن هذه الفكرة الخبيثة ونزعة منها ،
فالناس على مقتضى هذه الجملة وهذه الايات ان ينصفوا ويسلكوا طريق
القسط والعدالة الا اذا قدموه في الامر ولم يطلبوا غيره ولم يرغبوا الا اليه ،
فتقديمه وإفراده بالطلب والرغبة فرض لازم على الناس ، لان الإنصاف هو
أعظم واجبات الامور لانه هو العدل ، وان لم يفعلوا ذلك فليسوا منصفين
وليس لهم من الانصاف نصيب ، فالمنصفون اليوم هم الذين يقدمونه في الامر
الآخذون بحقائقه الازلية الابدية التي لن يستغنى عنها مسلم ، والجائرون هم
الذين تركوا ذلك خالفوه ولم يقبلوا كلامه . وهذا المسلك الذي سلكه هذا
الملحد أخبث من المسلك الذي سلكه القادياني الهندي الذي ادعى النبوة
واخرج كتابا من عنده وادعى أن الحق فيه وأنه يجب الأخذ به على كل مسلم
فلا شك أن هذا الرجل أشنع حالة منه ، فان هذا الهندي لم يحصر الطلب
والرغبة فيه ولم يقدح في الاديان ويدعى أن خطب الجمعة إحدى النكبات ، بل
هو يدعى تعظيم الاديان وتعظيم الانبياء ، ويدعى انه وإن كان نبيا فان نبوته
تابعة لنبوة محمد ﷺ ، أما هذا الملحد فانه هجم على الاديان السماوية هجوما
عنيفا لم يسبق له نظير ، وقدح في الانبياء وجميع أتباعهم ، وادعى أنهم لم يهبوا
الحياة شيئا جديدا ولا كانوا فيها مخلوقات متألفة ، وحصر الحق في كتابه
وجعل النهوض موقوفا على الأخذ به ، والسقوط موقوفا على تركه . وأن كل
فرد من افراد المسلمين لن يستغنى عنه ، وطلب لنفسه مع ذلك التقديم في كل
أمر ، وأن تصرف اليه الرغبات والطلبات . فاين هذا الملحد من القادياني في
الكفر وسوء الاعتقاد !

عمد هذا المختال الدجال فأخرج للناس هذا الكتاب الهزيل بدلا عن
التنزيل ، فادعى في فاتحته قبل كل شيء عوضا عن ذكر الله تعالى بالبسملة
والتحميد والشهادة أن ما في هذا الكتاب هو من الحقائق الازلية الابدية
التي تفقدها أمة فتهوى وتأخذ بها أمة فتنهض ، وإن يستغنى عنه مسلم واحد

بين الاربعمائة المليون المسلم . ومعلوم أن هذا الوصف الذى وصف به كتابه لا ينطبق إلا على القرآن العزيز ، قال تعالى ﴿ قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ ولا شك أن الذى لا يضل ولا يشقى هو الذى نهض النهوض الصحيح ، والذى كانت معيشته ضنكا هو الذى ضل وهوى . وحسبك دليلا على فساد هذه الدعوى المرذولة أنه ذكر فى نحو خمس صحائف فى هذا الكتاب ما جرى له مع وزارة التموين المصرية وأقذع فى ثلبها ونقدها لما لم تساعده على بيع ورق ، فهل نقده وزارة التموين المصرية من الحقائق الأزلية الأبدية التى تفقدها الأمة فتهى وتأخذ بها أمة فتنهض ولن يستغنى عنها مسلم واحد بين الاربعمائة المليون المسلم اذا أريدت له حياة صحيحة ، وكذلك ما ذكره من الأشياء الكثيرة أمثال هذه الرعونات الساقطة . فالحقائق الأزلية الأبدية لا تنطبق إلا على الكتب السماوية ، فإنها هى الحقائق الأزلية لأنها ثابتة فى نفس الامر ليس لأحد أن يغيرها أو يبدل فيها . فكونها أزلية يقتضى أن تكون قديمة النوع ، والأبدية هى الدائمة الخالدة التى لا يدخلها نسخ ولا تبديل ولا تعديل ، والذى يدخله هذا بعد انقضاء الوحي لا يسمى أبديا ككلام المخلوقين فإنه ليس بأزلى ولا أبدي وليس فى المسلمين بل ولا فى العقلاء من يتجاسر على أن يصف كتابه بهذا الوصف ، لأن الكلام الذى هو الأزلى الأبدى المعلق على الأخذ به النهوض وتركه السقوط هو الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وتصريحه بانه لا يوجد مسلم واحد يستغنى عن هذه الافكار وصف ثالث مؤكدا لما قبله فى وجوب التمسك والاعتصام به . ولهذا قال : إذا اريدت له حياة صحيحة طبيعية ومعلوم أن كل فرد من الناس إنما يريد الحياة الصحيحة لا السقيمة ، ولكن كيف تكون صحيحة وهى طبيعية لا دينية ، فإن هذا مبنى على وجود الحياة الصحيحة بدون أخلاق دينية ، وهذا لا يمكن . قال تعالى ﴿ من

عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة ﴿ وقال تعالى
﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ﴾ الآية . ثم على قوله هذا
انه يجب على المسلمين ذكرهم وأنثاهم صغيرهم وكبيرهم من كل مكلف أن يحفظوا
هذا الكتاب ويدرسوه ويطيعوه وينشروه ، فهو بمنزلة القرآن العظيم ، بل هو
أولى ، لأنه قد يقول كما قال أمثاله من الملاحدة انه دخله التأويل واختلاف
المفسرين ، أما هذا الكتاب الجديد ففيه الحقائق الازلية الأبدية وصاحبه
حتى سوى معروف مكانه ففي الامكان مراجعته في ما أشكل من المعاني
والحقائق . وهذا صريح كلامه كما هو ظاهر ، فيجب أن نعرف أن سبب تأخر
المسلمين كلهم في هذه العصور هو عدم وجود هذا الكتاب عندهم ، فلقد حرم
المسلمون منذ ثلاثة عشر قرنا من وجود هذا الكتاب لديهم ولم يتمتعوا برؤيته
ويسرحوا أبصارهم وبصائرهم في صفحاته وحقائقه

مضت هذه القرون الطويلة كلها وهي محرومة من ثمرات هذا الكتاب
وقطوفه الدانية وأنهاره المتدفقة ، فلذلك هووا وأصيبوا بهذا الاندحار والدمار
العام ، وصاروا على هذه الحالة المزرية من الشقاء والجهل والعناء ، فجميع ما
أصاب المسلمين من التأخر والانحطاط في القرون الماضية الى اليوم هو من أجل
شيء واحد ، هذا الشيء الواحد هو عدم وجود هذا الرجل فيهم لارشادهم أو
عدم وجود حقائقه بين أيديهم ليأخذوا بما فيها من الحقائق الازلية الابدية
التي لن يستغنى عنها مسلم . فالطريقة الوحيدة اذن لأنقاذ المسلمين من هذه
الورطات وتخليصهم من شباك العدو أمر واحد هو أن يأخذوا بهذه الحقائق
وأن يعتصموا بها جميعا ولا يتفرقوا ، فاذا حصل هذا حصل النهوض التام
والاخلاص الكامل ، وان أعرضوا عن هذا هووا في دركات الويل والشبور
فلا خلاص ولا نجاة ولا مفر ولا محيد عن ما هم فيه ، لأنه علق النهوض على
الآخذ بما في كتابه ، والسقوط على ترك ما فيه . وليس العجب ممن كتب هذه
الآراء الجنونية ، فانها كتبت حين كتبت بمداد الأغراض والآهواء والشهوات

انما العجب ممن يدعى الاسلام أو المعرفة ثم تخفى عليه هذه الترهات الخزية التي لا يقولها الا معتوه ، أو من يرى الناس كالمعتوهين لا يعلمون شيئا فيحقرهم ويلبس عليهم فيريد أن يؤمنوا به فيعظموه ويعزروه ويوقروه ويقدموه بل ويعبدوه . فليتنبه المسلمون ولينظروا ماذا يراد بهم وبدينهم من هذا البلاء الممين في هذا الكتاب الشنيع ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ، وإن الله لسميع عليم

ولعل من أصيب بداء المعاكسة والجهالة العمياء يستبعد ويستغرب ما أجبتا به على كلامه هذا ، لشدة شناعته وفضاعته ، ويزعم أن ذلك ليس بلازم من قوله . فاذا اعترض معترض بهذا قلنا : يظهر الجواب عن هذا الاعتراض بثلاثة أمور : أحدها أنه انما يستغرب ما ذكره فيمن كان معروفا بخلاف ما ذكر عنه ، إما بديانته وتقواه ، وإما بوجود كلام يكذب ذلك تكذيبا صريحا غير متناقض ، أو يكون كلامه في هذا مشتبها ليس صريحا ، وكل هذه الأمور منتفية عنه ، فإن من أحاط علما بما تضمنه هذا الكتاب من صرائح الكفر وسب الأديان السماوية وأهلها وبهتهم والتهم والاستهزاء والسخرية بهم وعرف مغزاه وممراته في ذلك فانه لا يستغرب هذا ولا يهولنه ما قلناه ويكنى في ذلك أن نحيل القارئ الى ما قاله هذا الملحد على آيات الزمخشري « العلم للرحمن جل جلاله » الى آخره كيف ناقشه تلك المناقشة وألزمه باوازم فضيحة مستبعدة ، وسيأتى كلامه ، ونحن ننقل لك شيئا قليلا من فضائحه الكثيرة الآتية وسيأتى جوابها المفصل في مواضعها لتعرف جرأته على الدين وأهله وإلزامهم ما لم يقولوه ولأله أصل في كلامهم بل يكفرون من ادعاء . فمن ذلك قوله ص ٣٢٥ : « ومن الواجب أن نعرف سبب هذا الاستسلام والضعف الفكري لدى هؤلاء المتدينين . والذي يظهر لنا كثيرا أن من أسبابه أنهم ينكرون أن يكون بين أحداث هذا الوجود ترابط عقلي وتعليل ثابت ، بل يرون أن الوجود كله بما فيه من حوادث وأحداث محكوم بقوة مجنونة أو هي كالمجنونة

في أفعالها وتصرفاتها ، ولهذا فلا قوانين ولا ضوابط للمعجزات والخوارق
فكل شيء جائز وكل شيء مستحيل ، انتهى . فانظر الى هذا البهت العظيم
للمتدينين بأنهم يرون أن هذا العالم محكوم بقوة مجنونة أو كالمجنونة . فهل في
الدنيا مذهب معروف من مذاهب المتدينين يوجب هذا أو يعتقده أو يتفوه
به . ففى أى كتاب وجده ومن هو الذى أشار اليه . وأدنى رجل من المسلمين
من عالم وعامى وبليد وعجوز لا يعلم أن الله عالم حكيم فى صنعه وحكمه وقضائه .
ثم ما هو الاعتقاد الذى يلزم منه هذا الذى ادعاه حتى يحكم على المتدينين بهذا
الحكم الخبيث الجائر المزور الذى لا أساس له البتة ، بل هم يكفرون من يدعيه .
ومن ذلك قوله ص ٢١٦ : « وجهة أخرى هى أن المتدينين عجزوا عن أن
يتصوروا إلههم تصورا يسمو كثيرا على ما يعرفون ويشاهدون من القادرين
الآخرين ، فآله فى تقديرهم وتصويرهم . وان اختلفوا فى هذا وتخالفوا كثيرا
لا يعدو أن يكون فى أفعاله وقضائه وقضاياه وحكمه على الآخرين وعلى سائر
عبيده ورعاياه بشرا مقننرا كالذين يعرفونهم ويفكرون تفكيرهم ، ولهذا فانه
- أى الاله - يغضب عندهم ويرضى وينتقم ويثيب ويحازى ويعامل على مقتضى
انفعالاته وعواطفه ويلجأ الى المحسوية والى الاعطاء والمنع على الشفاعة ،
ويتحكم فى هذا العالم كله على ما تشير به هذه الانفعالات والتطورات عنده ،
وعلى مقتضى تطورها وتغيرها ، لا على مقتضى نواميس شاملة ثابتة . فاذا بلغوا
هذا المكان من الايمان هبوا يلتمسون رضا هذا الاله على ما تصوروا ، وهبوا
يتملقونه وينافقونه ويصنعون ما يحسبون أنه ينيلهم رضاه وعطفه ، انتهى
كلامه ، وهو سب صريح وقدر عظيم فى الله تعالى وفى أديانه وفى الدائنين بها
فيا صاحب الأغلال غلت يدك ، من الذى تصور هذا فى ربه من المسلمين ،
وفى أى دين وفى أى مذهب معتبر وجدت هذا حتى تحكم وتعمم فتدعى أن
دين المتدينين ولو اختلفوا ^(١) لا يعدو ان يكون الله فى تصورهم بشرا مقننرا

(١) قوله « ولو اختلفوا ، صريح فى أن جميع المتدينين على هذا الاعتقاد

لا يسمو كثيراً على ما يعرفون ، وأنه يلجأ إلى المحسوية ، وأن هذه صفاته على ما ادعيتها ووصفته . وانت قد قررت في كتابك الصراع وغيره صرحت الله تعالى - أن اعتقاد المسلمين في الله تعالى وصفاته أنه ليس كمثل شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، والمسلمون وإن ذكروا أنه يغضب ويرضى وينتقم على ما ورد في النصوص فهم لا يقولون إن رضاه وغضبه وسائر صفاته كسائر صفات المخلوقين ، بل صفاته كذاته ، كما أن ذاته موجودة وليست تشبه ذوات المخلوقين فكذلك صفاته لا تشبه صفات خلقه . فالقول في الصفات كالقول في الذات . والآن لما انقلبت على عقبك انقلبت إلى هذا البهت والفجور ، ولعلك كنت تعتقد هذا باطناً في ربك فيما سبق فكان سبباً في ردتك وانتكاسك ، وإلا فأى ملة أو نخلة معروقة هذا دينها فأتاك الله ، وهل هذا إلا من أعظم الجرم على الله تعالى وعلى دينه وعباده المؤمنين . وكلامه على هذا النحو في الأديان ومن دان بها كثير جداً يأتي الكلام عليه في مواضع ثم انه لم يذكر الملاحدة ولا أنظمتهم ولا أفعالهم وأخلاقهم الخبيثة بشيء يعابون به ، بل حث على الأخذ بأرائهم ولقتفاء آثارهم كما يأتي ، فمن يتجاسر على هذه الخبائث الظاهرة والعظائم الكفرية كيف يستغرب منه ما ذكرنا (الأمر الثاني) أن هذا الذي ذكرنا هو صريح كلامه ، ومطلوه الظاهر الواضح منه ليس كله من لوازمه ، أفليس أنه قال بصراحة إن ما في هذا الكتاب هو من الحقائق الأزلية الأبدية ، ومعلوم أنه يريد ما تضمنه كتابه من الأمور التي يدعو إليها ، وقد كان معلوماً حكم الحقائق الأزلية الأبدية ووجوب الأخذ بها وإتباعها واعتمادها ولا سيما إذا صرح بأن تركها يوجب السقوط وأن الأخذ بها يوجب النهوض ، فانه قال بصراحة « تفقدها أمة فتبهوى » ، وتأخذ بها أمة فتنهض » ومعلوم أن النهوض من أوجب ما يطلبه الإنسان ، والانحطاط من أوجب ما يحذر الإنسان ويحذر أسبابه ، وقد جعل أسبابه عدم الأخذ بكتابه ، أو ليس أنه قال بصراحة « ولن يوجد مسلم واحد

من الأربعائة المليون المسلم يستغنى عن هذه الافكار اذا أرادت له حياة صحيحة ، فهذا تصريح بأن الحقائق هي هذه الافكار التي فكرها ورصدها في هذا الكتاب ، فهو تصريح أيضا بان كل فرد من أفراد المسلمين مفتقر الى هذا الكتاب ^(١) ومعرفة ما فيه وحفظه والعمل به ، لأن كل مسلم يجب عليه إرادة الحياة الصحيحة لا الحياة المريضة السقيمة . ولو أن هذا المختال ظفر يمثل هذه التصريحات لأحد علماء الدين لولد عليها من الالزامات والمسائل الشنيعة ما لا يمكن حصره ، فانه يولد إلزامات على أوهام لا حقيقة لها يخرعها هو بنفسه مع علمه أن العلماء مصرحون بنفيها ، فكيف لو وجد لأحدهم مثل هذا القول ، فلقد ألزم المسلمين بأنهم اعتقدوا أن العلم حجاب وأن الجهالة أم الفضائل ، حتى راح يجعل لذلك بحثا خاصا ويولد عليه من المسائل والالزامات المنكرة ما لا يعد ولا يحصى ، وادعى أن الناس على هذا الاعتقاد مع أنه عجز عن أن ينسب هذا القول الى شخص معين ، وميع عليه بأن أدنى كتاب من كتب المسلمين يتناوله الانسان فيفتحه يجد مملوءا بمدح العلم وذم الجهل ، ثم مع هذا أقدم على بهتهم ورميهم بأنهم يدعون أن العلم حجاب وأن الجهالة أم الفضائل ، وولد على ذلك من الالزامات ما هو أبعد شيء عن معتقدهم بمجرد قول عزاه الى مجهول لا يعرف . ولقد شنع على الزمخشري والرازي وغيرهما ورماهم بالفظائع والجرائم الكبرى حين قال الزمخشري :

العلم للرحمن جل جلاله وسواه في غمراته يتقمقم الخ
وادعى عليه بأنه رمى البشرية بالدواهي والعظائم ، ثم ناقشه أعظم المناقشة كما يأتي ، وكل ذى مسكة من عقل يعلم الفرق بين آيات أولئك وآيات هذا الملحد المتقدمة ، فكيف يلزمهم بأشياء لعلها لم تكن تخطر على بالهم وينسى ما في آياته من صرائح الكفر ودعوى الألوهية ، وما في كلامه من مدح كتابه

(١) قد صرح في بعض مقالاته بذلك أى بوجوب الأخذ به ودراسته والاعتماد عليه

وتنزيله منزلة القرآن العزيز في وجوب الأخذ به والتحذير من تركه ، وهذا ظاهر لا خفاء به

(الامر الثالث) أنه لو سلم على فرض التنزل أن ما ذكرناه من لازم قوله لا من صريحه فلا يشك من له أدنى علم أن هذا اللازم هو مقتضى كلامه وأنه إن لم يكن صريحه فهو لازم له لزوماً بيناً وأن إلزاماته التي ادّعاها على المسلمين أبعد منه - لو فرض أنها لازمة - فهو إما أن يتنازل عن الاحتجاج بلازم القول مطلقاً فينقض تشييعه الذي شنع به على المتدينين كلهم ، وإما أن يلتزم بالاحتجاج باللازم الذي ادّعاه مع بعده واستحالته ، فيخفق بغله ، ويعامل بما عامل به غيره ، على فرض أن يكون ما ذكرناه من لازم قوله ، وإلا فقد ثبت ثبوتنا كالشمس أنه صريحه ومقتضاه كما سبق

أما تعليل إفادة كتابه وحقائقه بأنه موافق للطبيعة الكاملة فنأخذ به فقد قابل طبيعته الكاملة بطبيعة كاملة ، ومن فقدته فقد حقيقته من حقائق طبيعته ، فهذا التعليل هو العلة التي أصابت فؤاده ، وهو مبنى على ضلالات ومقدمات كلها باطلة : أحدها أن الواجب على كل من أراد النهوض أن يقابل طبيعته بما يوافقها ، ولا يجوز له أن يعاكس طبيعته بل ينسجم معها انسجاماً كاملاً في كل ما تريده وتصبو إليه ^(١) وهذا في غاية الفساد كما هو في غاية الضلال ، وكما هو في غاية الاستحالة . فان من دعا الناس إلى اتباع أهوائهم أو طباعهم مطلقاً فقد ضل ضللاً بعيداً ، كما أنه مستحيل الوقوع في كل فرد وشعب ، فانه يقع في الفوضى والهلاك ، فان شهوات النفوس وطبائعها لا تنضبط بمحدود وقيود . الثانية أن طبائع جنس الانسان كلها متحدة فطبيعة الكافر كطبيعة المسلم لا فرق بينهما في شيء ، وهذا فاسد أيضاً كما هو معلوم . الثالثة أن جنس الانسان من

(١) هذا مع أنه قرر أن طبيعة الانسان هي الشر والخبث والظلم ، فعلى هذا يقابل طبيعته بالشر والخبث والظلم

حيث النظر العام ليس له إلا طبيعة واحدة ، وهذا فاسد أيضا فان الانسان له طبيعتان أو بعبارة أخرى له نفسان : عقلية فطرية عالية وثابة تطلب معالي الامور وشريفها وتكره سفاسفها ورذائلها ، ونفس أو طبيعة بيسمية جشعة مكتسبة وهى عكس الاولى تحب النجى والفساد وقضاء الشهوات النفسانية ، وهذا أمر موجود فى كل إنسان يحده من نفسه ، فان الانسان له دافعان : دافع حب للمكارم ومعالي الامور ، ودافع عكسه . ولهذا كان كثير من الناس يسترون من فعل المعاصى وهم يفعلونها ويعيبون من يفعلها ويصلون قبحها ويكرهون اطلاع الناس عليهم فى ذلك ، ولا شك أن هذا من أثر الدافعين المذكورين ، وقد ورد فى الشرع المظهر مدح النفس المظمتة وذم النفس الامارة ، كما ورد ذم متابعة الهوى ومدح نهى النفس عن الهوى ، وهذا ظاهر اذا علمت هذا فاعلم أن الاديان وما فيها من المواعظ والتقييدات موافقة للطبيعة الاولى أى الفطرة الصحيحة الكامنة فى النفس ، فتعاليم الاديان السماوية كلها تلبيها وتثيرها وتمدها بالحياة ، وهى معا كسة للنفس أو الطبيعة الثانية لانها تعقلها وتمنعها من الانطلاق فى ميدان أغراضها ، فانها سفلية تنحدر فى مطالبها السفلية النفسانية فتفسد السجايى الطيبة الفطرية . وهذا الرجل يريد بالطبيعة هذه الثانية ، فانه شنّ الغارة على الخطب والخطباء ، وادعى أن الناس يخدرون بها ، ولم يلاحظ أن الناس يشجعون بها بالنظر الى موافقتها للطبيعة الاولى التى هى الفطرة فان الانسان خلق حنيفيا مستعداً لقبول الدين باستعداد فطرته كما قال تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ﴾ فأخبر أن فطرته التى فطر الناس عليها هى الحنيفة ، وهى إقامة الوجه للدين ، أى الاخلاص الذى هو التوحيد ، وذكر أن هذا هو الدين القيم ، كما قال عليه الصلاة والسلام فى الحديث الصحيح فى حديث قدسى « إني خلقت عبادى حنفاء ، فاجتالهم الشياطين عن دينهم ، فالاديان السماوية بما فيها من المواعظ والتقييدات موافقة للفطرة وهى الطبيعة

عنده - وقد صرح الائمة بأن الأديان الصحيحة موافقة للظفرة المستقيمة، بل قد صرح بذلك غيرهم من أهل الأديان الأخرى قالوا : ان الشرائع السماوية قد سارت على المبدأ الطيعى السلىق . فقد علمت أن هذا التخليل الغليل المورث العلل القائلة مبنى على هذه المقدمات والضلالات الباطلة وان الصصحى خلاف ما ادّعاه . ثم من أين له أن كتابه موافق للطبيعة الكاملة ، بل هو معاكس لها فان هذا لا يعلم الا بالوحى ، أو على فرض التزل بالتجربة ، وهى لم توجد ولن توجد ، فالدعوى ساقطة على كل احتمال وتقدير . فقد ظهر لك بالأدلة الواضحة بطلان فاتحة كتابه التى أعجب بها مع العلم بأنها هى امثل كلام قرره فى كتابه ولذلك صدره بها ، قال الشاعر :

أحسن ما فى سالم وجهه ووجهه الغاية فى القبح

وما ينبغى ملاحظته هنا أن نعرف الأسباب التى رغبت بعض الجهلاء والاشقياء فى هذه الأغلال مع ما فيها من هذه الفضائح الظاهرة والضلال ، ذلك أن صاحبه لما كفر بعد اسلامه ، وهم بما لم ينل وان ينال أبدا ، أقام دعائه هذه الخبيثة على اساس للترغيب فى الشهوات العاجلة ، وأنه سبب فى حصول المطالب الكبيرة المؤلمة ، وهذا هو مسلك ملاحدة العصر الذين خدعوا الاغبياء وأفسدوا عليهم عقولهم ، فان النفس البسيطة الطموح الجاهلة تكون دائما بين أملين : أمل التمتع بالشهوة العاجلة بانغماس وراحة وأمل الحصول على الامانى الطويلة العريضة المتسلسلة ، فهى دائما تسرع فى الاندفاع الى ما يلائم غرضها العاجل ويحقق آمالها العريضة المتجددة . لهذا فاننا نجد بعض الجماهير المبتهلين بالمرقوق بالأخلاق والدين يندفعون الى كل من يغمسه فى الشهوات العاجلة ، ويعدهم وينهم بالمستحيلات الآجلة ، فيضرب لهم على وتر الآمال الكاذبة التى يتمنونها ويغنى لهم بأناشيد الشهوات التى يحصلونها . فاذا رأينا بعضا من هذه الجماهير الجاهلة مسرعة فى الطلب الى ما يلائم غرضها وآملها معتقدة أن تظهر بكل ما تريد عاجلا ، وأن تحصل على كل ما تأمله

أجلا بهذه الوعود الرخيصة ، متعلقة بهذه الخيوط العنكبوتية التي نسجها وبسجلها هذا المغرور في هذا الكتاب الهزيل ، ووصفها بما يستحيل وجوده - فانه معدود أحد الناعقين للجهار الضالة ، وليس هو بأول أفاك أو دجال نعق وهذا بهذه الهذيان الباردة ، حتى انخدع له بعض البسطاء المغفلين فدفعهم في مهامه التلف ، حاسبين أن سراه ماء يبل أكبادهم ويطفى حراتها المتوهجة ، وما هي إلا الهلاك المحتوم - يجب أن لا نعد شيوع هذه الاقاويل المزورة أو الفتنة بها دليلا على صحتها ، أو أن لها أدنى قيمة علمية أو عقلية ، بل يجب أن نعد أن صاحب هذه الآراء المزيفة عرف ناحية الضعف والغباء في هؤلاء الجملاء الأشقياء فأراد أن يركز دعايته الجوفاء فيه لاستثمار أغراضه وآماله منها ، وأن نعد هذه الأقاويل الفاسدة وافقت أمانى النفس الفارغة الجاهلة المنحطة المؤلمة حصول حاجاتها من غير أبوابها الطبيعية بل من الأبواب المفتوحة بمفاتيح الوعود الكاذبة الخداعة

ليس من شك في أن هؤلاء المصابين بالانبيار في أديانهم وعقولهم هم أسرع الناس إجابة لهذا التلويح بهذه الدعايات المزيفة التي توافق شهواتهم ، ولا سيما اذا اقترن بذلك أن في هذه الدعايات وجود كل ما يؤملونه ويتمنونه ، فيجتمع لهم داعي الشهوة الحاضرة وداعى الأمل العريض الذى يتلهفون لطلبه ويتعطشون اليه ، ولهذا كان هذا الرجل مؤسسا دعايته على هذين الغرضين المذكورين ، فوجد هؤلاء الاغبياء والسفهاء والحمقى والنوكى فيه مجالا واسعا لما يريدونه ويؤملونه ، فكانت هذه الطبقات المتطرفة مفتونة فيه لأنه صادف أغراضها وأهواءها وآمالها

لقد عرف أن هناك بعضا من هذا الضرب الذى ضرب عليه البؤس والشقاء الطويل الثقيل من جرّاء ما اجتريه من تمرّده وتطرفه في دينه ومحاولة التملص والتخلص منه حتى أصابه من أجل ذلك من الوباء والبلاء والقروح والجروح والأحوال والاهوال المذهلة المزججة ما حطه من مقامه الأعلى الى حضضه الأدنى

حتى صار أسيرا لبلائه ونعالا لاعدائه ، فكلما أراد النهوض تعثر وتعذر
وسقط لوجه لما به من هذه الادواء الفظيعة .

يريد هؤلاء الأغبياء المنكودون أن يعزوا هذا الكتاب الوضع ، وأن
يجعلوا أغلاله في أعناقهم ، وأن يضعوا سمومه ووباءه في طعمة المعافين منها .
يريد هؤلاء الاشقياء المضروبون بهذه الذلة والمسكنة أن يضعوا سموم هذا
الكتاب على قرواحهم وجروحهم بل وعلى أسماعهم وأبصارهم ليستشفوا به
من أسقامهم وأمراضهم فيذوقوا بذلك عذابا فوق العذاب ، وكلما أرادوا أن
يخرجوا من غم أعيدوا فيه ، لا شك أنهم بهذا يريدون الموت الأبدى ، وقد
حق ذلك عليهم ولا محالة كما فعل بأشياهم من قبل ، انهم كانوا في شك مريب

الكلام على المبحث الأول

عنوانه في كتابه : (قبل البدء)

وحاصل هذا المبحث أنه ادعى فيه أن قضية تأخر المسلمين أهملت وأهمل التفكير فيها ، وأنه وحده فكر فيها تفكيراً لم يسبق إليه ، وهو ما قرره في هذا الكتاب ، وذكر فيه أنه عرف العوائق التي منعت المسلمين من التقدم ، وعرف كيفية علاجها ، وعرف الطريق التي بها يمكنهم أن يتقدموا على غيرهم وهو بمنزلة المقدمة لكتابه فقال : (قبل البدء)

« لست أعلم قضية أهملت وأهمل التفكير فيها والعناية بها - بينما هي أولى القضايا بالتفكير والعناية والبحث - من هذه القضية . وذلك أن جموعاً بشرية هائلة قيل إن أعدادها تبلغ أربعائة مليون منتشرة في سهول فسيحة واسعة من أفريقيا وآسيا وأوربا أيضاً تدين بدين مبادئه السليمة الأولى هي أسمى ما يتصوره العقل البشري من القوة والحك على مواصلة السير في سبيل المجد والكمال ، عاجزة منذ مئات السنين عن اللحاق بالركب الانساني المغذ الخطأ الى هذه الحياة التي تتفجر كل يوم عن ينبوع دفاق بالمثل الانسانية العلية التي من ملكها فقد ملك ناصية الوجود واحتكم فيه وفيمن فيه من حيوان وجماد ونبات » قلت : إن عنيت بأن قضية المسلمين أهملت وأهمل التفكير فيها والعناية بها أن علماء المسلمين لم يفكروا فيها ويعتوا بها كتفكيرك وعنايتك التي سجلتها في أغلايك هذه فنعم ، وقد صانهم الله عن ذلك ، وهم أجل وأكبر من أن يرضوا لأنفسهم ودينهم ما رضىته لنفسك ودينك من هذه المخازي الممقوتة والآراء الخبيثة ، وليتك أهملتها وأهملت التفكير فيها والعناية بها ولم تتعرض لها بهذا التعرض الذي زادها ظلمة واستغلاقاً وتعقيداً . وإن عنيت أن علماء المسلمين لم يفكروا فيها ويعتوا بها التفكير المجدى والعناية الصحيحة النافعة فنقول : من أين لك أنهم لم يفكروا فيها ولم يعتوا بها ، وهذه كتبهم مشهورة مشهودة ،

وقضايهم الهامة مدونة معروفة ، وكونك لم تعلم بذلك - لو صدقت - لا يدل على عدم وقوعه ، فإن عدم العلم ليس علما بالعدم ، فلا يجوز لك الحكم على ما لم تعلمه ، وقد قام في هذه القضية من العلماء العظام من يعسر حصرهم ، فهذه قضية الامام أحمد ومن في عصره من الأئمة وعلماء الأمة لمحاول أعداء الاسلام من الجهمية - وغيرهم من أسسوا مبادئ الالحاد في الأمة - قلب أصوله وتغييرها عن أوضاعها الشرعية فقاموا في ذلك قياما عظيما مبرورا مشكورا ، ثم قام بعد هؤلاء من أئمة الدين امثالهم كشيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم والذهبي حين أظلم الجو من الشبهات والشكوك والالوهام التي اختلقها الزنادقة والمنافقون من الجهمية والرافضة ، وفشا الالحاد ، وشغف بهذه الالوهام التي يدعونها حقائق علماء الكلام ، وادعوها تجديدا وتوفيقا بين الدين والفلسفة . ثم قام بعد هؤلاء حين كثرت الخرافات الوثنية والعقائد الشريكة شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب وأتباعه فرفعوا راية الدين الصحيح حتى اتضح ذلك واستبان لمن أراد الله هدايته وعرف الحق معرفة واضحة كالشمس . وقد خلف هؤلاء العلماء في موضوع هذه القضية من الميراث العلمي النافع ما هو كفيلا باعادة مجدهم واسترداده بأقرب الوسائل وأسهلها ، وكتبهم في هذا الموضوع كثيرة شهيرة . وهذا كتاب (جمعية أم القرى) للسيد عبد الرحمن الكواكبي كله في موضوع هذه القضية ، وفيه من العناية بها والتفكير فيها ما فيه مقتنع في الجملة ، وهو موجود بكثرة ، فكيف يقال ان قضية المسلمين أهملت وأهمل التفكير فيها والعناية بها ، وآلاف الكتب المتنوعة بل والمجلات والجرائد طافحة بالتفكير فيها والعناية بها ، ولكن انما أردت المعنى الاول وهو أنه لم يفكر فيها أحد كتفكيرك وعنايتك ، وقصدك من ذلك توجيه النظر الى كتابك وترك ما سواه كما أشرت الى ذلك في دعواك أنه حقائق أزلية أبدية تتركها أمة فتهاوى وتأخذ بها أمة فتنهض . وقد ذكرت في نبذتك الهزيلة (كيف ذل المسلمون) أن الناس قد كتبوا في هذه القضية وبحثوا فيها كثيرا ،

وهذا يناقض دعواك هنا إلا على قصدك الذي أشرنا إليه وهو ساقط بلا ريب ودعواه أن هذا العدد يدين بدين الاسلام دعوى تأتي مناقشته عليها في آخر الكتاب عند دعواه أن المتدينين على اختلاف أجناسهم عجزوا أن يهبوا الحياة شيئاً جديداً الخ . ودعواه أن هذه الجموع عاجزة منذ مئات السنين الخ يقال له ماذا تريد بدعواك أنها عاجزة عن التقدم والحق بالركب الانساني ، أتريد أنها عاجزة عن التقدم على غيرها في الصناعات ونحوها ، أم تريد أنها عاجزة عن مباراة هذه الدول فيما وصلت اليه في جميع تقدمها . فيقال نحن هنا لا نتكلم في مسئلة عجزها عن الحق ، إنما نتكلم معك في الأسباب التي أوجبت هذا العجز الذين تدعيه ، فالعجز عن الحصول على الشيء إما أن يكون لعلل ملازمة لنفس العاجز كالجود والفتور والكسل ونحوه ، وإما أن يكون لعوارض وعلل خارجية كالاشتغال بمقاومة ضد أو جنس ، فان أردت المعنى الأول فغير مسلم على هذا الاطلاق ، بل فيه مناقشة تفهم بما يأتي . وإن أردت الثاني فصحيح ، لكن لا يفيدك شيئاً ، فأكثر المسلمين اشتغلوا عن أسباب النهوض بالمصادمات الداخلية الكثيرة المتنوعة ، فانها صدمتهم عن التقدم وصدتهم عن استعمال ما يجب من القيام ، وكلا الأمرين منشؤهما ضعف التمسك بالدين الصحيح على ما ينبغي كما تقدم تفصيله . ودعواه أن هذه المثل الانسانية العلية من ملكها فقد ملك ناصية الوجود واحتكم فيه وبمن فيه دعوى أقل ما يقال في بطلانها أنها مخالفة للدين والعقل والحس ، فان ناصية الوجود بيد خالقه ومدبره الذي له ملك السموات والأرض كما قال تعالى ﴿ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ﴾ وهذا المسكين المغرور جعل من عرف شيئاً تافهاً من هذه الصناعات التي كان أكثرها وبالا على أهلها لما تعلقوا عليها فقد ملك ناصية الوجود من حيوان وجماد ونبات ، مع أنه لم يملك ناصية نفسه فيديرها على كل ما يشاء ويريد ، فكيف اذن يكون تدبير الله للملكه وعباده إذا كانت ناصية الوجود بيد غيره يعمل به كيف شاء ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

فصل

ثم قال «وقد غلبت هذه الجموع على أمرها في كل معنى من معانيها وضرب من ضروب حياتها ، فهي من الناحية السياسية خاضعة بل خاضع ما تحت أقدامها إما بالعقل وإما بالقوة - كما يقول المنطقة - للسلطان الأجنبي ، ومن الناحية العلمية عاجزة عن أن تقدم للتراث العلمي شيئا يمكن أن ينسب إليها ، وعاجزة عن أن تستغنى عن الآخرين في أمر من أمورها الدقيقة والجليلة . وهي من الناحية الصناعية عاجزة عن إيجاد ملاعق لأفواهها وإبر لأثوابها ، ومن الناحية الزراعية عاجزة - لولا الآخرون - عن الانتفاع الصحيح بغزارة مياهها وخصب أراضيها . أما من الناحية التجارية فإن أكبر عاصمة من عواصمها عاجزة عن أن يكون لأحد أبنائها متجر واحد يضارع أحد متاجر هؤلاء الغزاة أو يغنى عنه ، وهكذا هي في كل وجه من وجوه حياتها وغرض من أغراض وجودها ،

قلت : كل هذه الأمور التي ذكرها ونسبها الى جملة المسلمين مجازفات لا حقيقة لها ، بل هي باطلة بالضرورة والمشاهدة ، كقوله انها عاجزة عن أن تستغنى عن الآخرين في أمر من أمورها الدقيقة والجليلة ، فأين عاشت الأمة الاسلامية مئات السنين قبل دخول هؤلاء الأجانب منذ مائتي سنة تقريبا ، وما هي حالتها في تلك القرون المتقدمة بالنسبة الى غيرها . ولا شك أنه يقصد من وراء هذه المبالغة أغراضا خبيثة في تحقيرهم وتصغير شأنهم في أعين أعدائهم والا ففى إمكانه الاقتصار على الحث على الاعمال وبيان منافعها بدون هذه الشناعات التي لا أصل لها ولا طائل تحتها ، وليست معيشة المسلمين ولا حياتهم متوقفة اليوم وقبل اليوم على ما يأتهم من هؤلاء الأجانب ، ولو تركوهم وبلاדם لما احتاجوا اليهم في شيء ضروري ، ولو قدر احتياجهم اليهم في شيء من الأمور فهم محتاجون الى المسلمين في أشياء أخرى أشد من حاجتنا لهم ،

وما زالت الامم والشعوب يحتاج بعضهم الى بعضهم في بعض الأشياء على اختلاف مذاهبهم ، ولم يكن ذلك عيبا تعاب به الأمم اذا لم يكن من الأمور الضرورية ، وهذا جعل هذه الأمور كلها عيوباً كبرى في المسلمين مع أنها لم تختص بهم وحدهم ، فما ذكره من عدم الاستغناء عنهم وأن حياتنا بيد هؤلاء تشنيع محض لا فائدة فيه

ثم ذكر أن جموع المسلمين عاجزة أمامها - كما هي عاجزة أفراداً - وإن التفاوت بيننا وبين الغربيين في التقدم الصناعي أمر معلوم ، وهذا لا نزاع فيه ، إنما النزاع في الأسباب والنتائج التي أوجبت التقدم والتأخر ، ثم إن تقدمها هذا إنما هو تقدم صناعي لا غير كما اعترف بذلك في نبذته (الثورة الوهاية) وليس هذا بأول زمان تقدم فيه الكافر على المسلم ، فإن الله قد حكى في كتابه العزيز عن تقدم الكافرين أعظم مما هو موجود الآن ، فليس تقدم الكفار على المسلمين وقتاً أو برهة من الزمن دليلاً على كونهم على حق وصواب دون المسلمين ، وأن من واجبتنا أن نرفض ديننا من أجل هذا ، فإن هذا لا يقوله من له أدنى مسكة من عقل ودين ، ونحن لم ندخل دين الاسلام بحجة التقدم والتأخر ، بل دخلناه عن بينة من ربنا وبصيرة من أمرنا بأنا على هدى من الله ، فلو أمطرت عليهم السماء ذهباً وأنبت لهم الأرض أولوا لم ننظر الى ذلك ولم يؤثر في اعتقادنا ، لأن ذلك لا يدل على استقامتهم ، كما لا يدل تأخرنا على أننا على غير هدى وصراط مستقيم . فمن يحتج بالتقدم والتأخر على الحق والباطل فهو مدخول في عقله ولا يمكنه طرد هذا الدليل ، وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « عرضت على الأمم ، فرأيت النبي ومعه الرهط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد » الى آخر الحديث ، فدل على أن الله بعث الانبياء الى الأمم فكذبوا ولم يجيبهم احد ، ومنهم من اجابه القليل كنوح عليه السلام ، ومع هذا فكل هؤلاء الذين خالفوا الرسل على الباطل وان بلغوا ما بلغوا من متاع الدنيا ، والذين اجابوا الرسل على حق وان بلغوا ما بلغوا

من التأخر في اسباب المعيشة ، ولكن لا بد ان تكون الماقبة والنصر لاتباع الرسل كما قال تعالى ﴿ كُتِبَ اللَّهُ لِلْأَغْلِبِينَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أما التأخر حيناً وزمناً فإنه يقع تمحيصاً وابتلاء ، وقد يقع بسبب التقصير في متابعة الرسل ، وهذا هو الغالب لكن لا بد أن يكون لصاحب الحق تقدم بحسب ما معه من الديانة الصحيحة بخلاف الكافر والملحد المحض فلا بد من أن تكون عاقبته أسوأ عاقبة

ثم ذكر أنه اجتمع بأناس بارزين من ظن أن لديهم معرفة من أهل الحجاز وغيرهم وسألهم عن أسباب التأخر ، وأنه لم يجد عند احد منهم معرفة كافية ، وحق له ذلك فإنه منعكس رايه لأنه رأى شيئاً وهم يرون شيئاً يضاد رأيه وقصده ، فلهذا لم يوافقهم ولم يوافقوه ، وكل هذا حجة عليه لأنه لم يوافقهم احد وليس معه دليل مقنع

ثم ذكر انه يوجد اناس يعللون التأخر بسبب سفور المرأة واختلاطها بالرجل ، ثم رد هذا التعليل . ونحن نقول : ليس هذا هو السبب كله للتأخر ، بل هو سبب من اسباب كثيرة مذكورة فيما شرحناه في هذا الكتاب ، وكلها ترجع الى مخالفة الدين الصحيح ، وقد نسي هذا الرجل انه ادعى في بحث قضية المرأة ان سبب تأخرنا هو عدم تعليم المرأة فقط ، فأين هذه الدعوى مما ادعاه هنا وسيأتى كلامه في موضعه

فصل

قال : « ويوجد الى جانب هؤلاء جماعات اخرى عظيمة الشأن من حيث العدد والحاسة تكاد في هذه الأيام تقيم الدنيا وتقعدها ، وانا اعني - كما لا يخفى - دنيانا فقط لا دنيا الأعداء ، مبشرة برسالة روحية خلقية استأقت في طريقها جماهير الشباب ، واوشكت تصيب في معظمهم بنوع من جنون الفكرة والتقي

البار او الجنون المقدس (١). خلاصة هذه الرسالة ان طريق المجد الاسلامي المنشود ينحصر في الرجوع الى الاخلاق الدينية الاولى وفي تنفيذ الحدود الشرعية وفي اداء الزكاة وفي اقامة سائر الفروض اليومية والشهرية والسنوية ، ثم في الايمان بالله والجهاد في سبيله . وقد انطلقوا في كل مكان يبشرون بهذه الرسالة ، واخذوا بأساليب قوية بارعة نشيطة لنشرها والدعوة اليها حتى كثر المؤمنون بها والمعجبون والمثنون ،

قلت : هذا الذي نقله عن هؤلاء الجماعات العظيمة الشأن هو الحق الذي لا مرية فيه ، وهو الدين الصحيح الذي ندعو اليه ، فهو الدواء الوحيد الناجح لهذه الأمراض والعلل القاتلة التي قضت على المسلمين بالانحلال ، واوهنتهم واهلكت كثيرا منهم ، فليس لهم دواء غير هذا ، لأن الدولة الاسلامية لم تكون إلا على هذه الروح وهي روح القرآن والسنة . واعلم ان كتابه كله من اوله الى آخره يدور على رد ما ذكره عن هؤلاء الجماعات والحل عليهم وعلى آراهم ، حتى انه لشدة عدوانه لهم وحققه عليهم افرد لزمهم مقالة خاصة في آخر الكتاب عنوانها (امامنا لا اورامنا) ، ورماهم بكل ما خطر على باله من زور وجور ، وهيبات وما كيد الكافرين الا في ضلال

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها واوهى قرنه الوعل
وكتابنا هذا كله في نصر هذه الدعاية الدينية المحضة الخالصة الجبارة الصارمة التي لا يقف في وجهه من عمل بها احد ، وانما جاءنا الوهن والضعف من تفرطنا فيها واهمالنا لاكثرها . ثم ان هذا المخدول لما ساق هذه الجملة التي ذكرها عن هذه الجماعات السكريمة لم يرض بهذه الطريقة التي اختاروها ولم تطب بها نفسه ولم تملأ عينه ، بل شتمخ بأنفه عنها واختار طريقة اخرى ، اختار العمى على الهدى والثوم والبصل على المن والسلوى ، وهكذا يكون كل من آثر الحياة

(١) تأمل هذا ، فانه جعل الفرح بفضل الله ورحمته جنونا مقدسا استهزاء

الدنيا، إذ لو كانت هذه الطريقة الدينية قد ملأت نفسه لما حصر المجد في غيرها
ققال :

« ويا ليت هؤلاء يعرفون ان الاخلاق الدينية المحض وكل ما يدعون اليه
ويبشرون به من الفضائل هو سينا بلا شك الى دخول ملكوت الله والى
امتلاء انفسنا بالجمال والرضا والثقة ،

فيقال : ويا ليتك تعلم ان هؤلاء العلماء العظام النبلاء لم ينكروا مالا بد من
الاخذ به من الأسباب الصناعية والتجارية والاقتصادية ونحوها ، بل حثوا على
استعمالها والاخذ بها في جميع كتبهم ودعائياتهم ، فلا معنى للاعتراض عليهم
والاقتصار على قولك هذا الذى هو الدخول في ملكوت الله تعالى وامتلاء
النفس بالجمال والرضا والثقة فقط ، فاعتراضك عليهم ثم اقتصارك على هذه
الاخلاق دون ذكر التقدم والمجد والاستقلال فساد في العقل وإعراض عن
الشرع ، فانك جعلت الاخلاق الدينية انما تفيد فيما يتعلق بالنفس من القناعة
والرضا والثقة لا غير ذلك ، وهذه هي نظرية الملاحدة في تعاليم الدين ، وقد
حصر المجد والتقدم في غير هذه الاخلاق الدينية كما يأتى . ولا ندرى عن
مقصوده بملكوت الله والدخول فيه ، فان ملكوت الله ملكه كما قال تعالى
(قل من بيده ملكوت كل شيء) وقال جل وعلا (فسبحان من بيده
ملكوت كل شيء واليه ترجعون) . فيكون معنى كلامه على هذا هو دخولنا
في ملك الله ، وهذا لا مانع منه ، فأنا في ملك الله لا نخرج منه منذ خلقنا ،
وانما جاء بهذه العبارة تمكماً واستهزاء ، ثم قال بعد عبارته السابقة :

« لكن السبيل الى المجد القوي المطلوب ينحصر في اشياء اخرى ، في
الاخلاق الصناعية والتجارية والاقتصادية والمادية والعلمية ،

وقد علم من هذا التصريح ان هذا الرجل لم يقتنع بالطريقة الاولى التي
مضمونها العمل بالاخلاق الدينية - كما ينبغي - اصلاً وفرعاً ، بل اختار انحصار
المجد في هذه الاخلاق التي ذكرها ، وهو يريد بعدم اقتناعه بالاولى واختياره

لثانية وحصر المجد فيها عدم إمكان اتفاقهما ، وهذه المحاولة والقصد هو محور كلامه الذى يدور عليه ، وحقيقته عدم إمكان التدين والتقدم كما صرح بذلك مراراً لأن طريقة التدين هى الأخذ بالأخلاق الدينية الأولى ، وطريقة التقدم والمجد هى الأخذ بالأخلاق الثانية ، وهو قد حصر المجد فى الثانية ولو كان يرى إمكان اتفاقهما لم يحصر المجد فى الثانية ويدعى فيما يأتى ان الأخلاق الدينية لها نتائج أخرى لما ذكر ان الأخلاق الصناعية هى التى تعزّ الشعوب وتبلغها الذروة فادعى بعدها ان الأخلاق الدينية لها نتائج أخرى ، وهذا صريح فى انه يرى ان الأخلاق الدينية آلة ضعف وانحطاط كما استشهد بذلك فى طرّة كتابه حيث نقل عن بعض مجهول اسمه من فلاسفة الغرب ان الدين اذا فسد صار آلة ضعف وانحطاط ، وهو قد صرح فى آخر الكتاب ان ما عليه المسلمون اليوم دين محرف واهم (يعنى باطل) فيكون آلة ضعف يجب رفضه ، ولو انه يرى إمكان اتفاق الأخذ بالأخلاق الدينية والأخذ بالأخلاق الصناعية ونحوها التى هى عنده سبيل للمجد لكان فى إمكانه ان يقول هذا حق وصحيح ولكن يجب ان تعاضد هذه الروح وهذه الأخلاق اشياء أخرى لا بد منها هى الأخلاق الصناعية الى آخره او ما هذا معناه ، وكلامه فى « المشكلة التى لم تحل » آخر الكتاب صريح جداً فى كونه يرى عدم اتفاق التدين والتقدم

اذا تبين هذا فاعلم ان كتابه كله قائم على رفض الدين ، لانه بزعمه لا يتفق مع هذه الأخلاق التى حصر المجد فيها . ونحن سلكنّا فى كتابنا هذا مسلك الحق والإنصاف ، فنصرنا طريقة الأخلاق الدينية الأولى وجعلنا الطريقة الثانية لا تتخالفها ، بل هى فرع للطريقة الأولى بالقصد ، فالأخلاق الصناعية والتجارية والمادية ونحوها لا تنافى الأخلاق الدينية أبداً ولا تضادها بل تشايعها وتزويدها لأنها من فروعها ، والقاعدة عند المسلمين أن « ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب » وكل المعاملات والصناعات والتجارات ونحوها مباحة فى أصل الشرع ولا يحرم منها الا ما دل النص على حظره والمنع منه ، ولا يوجد نص

يحرم الأخذ بهذه الأمور في الجملة ، لكن قد يقع أشياء في أفرادها يظن أنها نافعة فيكون هذا الظن خطأ ، فتكون ضرراً محضاً أو يكون ضرراً أكثر من نفعها فتمنع من أجل هذا . فالأخلاق الصناعية والمادية ونحوها لا تخالف أصول الدين أبداً ، فلا يظن الظان أننا نمنع الأخذ بالأخلاق الصناعية والتجارية ونحوها وندعى أنها متنافية للأخلاق الدينية ، فإن هذا لا يقوله أحد من المسلمين ممن يعتبر قوله ورأيه ، ولا يوجد في شيء من الكتب المعتمدة ما يؤيده ، بل تعاليم الدين الصحيحة تحت على تحصيل هذه الأمور النافعة وترغب في طلبها ، فكيف تكون مضادة له وهي بالقصد تكون من فروعه . وهذا المسلك الذين سلكه الملحد في التفريق بين الأخلاق الدينية والصناعية في عدم اتفاقها هو مسلك بعض ملاحدة العصر الذين اتخذوا أمثال هذه الدعاية الخبيثة أعظم آلة لهم في هدم الأديان والتحلل منها ، فهذا الرجل سلك هذه الطريقة الملتوية المظلمة ، واجتهد في توسيعها وترميمها وتسهيلها لغيره ، والله متم نوره ولو كره الكافرون

فصل

ثم قال « وإذا كان لا أمل لنا في أن يخرج صيام غاندى الانجليز من الهند فانه كذلك لا أمل لنا أن نخرجهم هم وسواهم من الغاصبين بصلاتنا وصيامنا وإيماننا المجرد وبأخلاقنا الدينية الصرف »

قلت : هذا لا يصح دليلاً على ما ذكرته إلا على اعتقادك أنت ومن على شاكلتك ممن يرون صيام من عبد البقر من جنس صيام من عبد رب العالمين ، وإلا فكيف يقاس صيام المسلمين على صيام الوثنيين ، وإذا كان لا أمل لك أن تخرج عبادتنا الدينية وإيماننا هؤلاء الغاصبين فإن أملنا وثقتنا بالله تعالى أن ذلك هو الذي يخرجهم كما أخرجهم من قبل ، وأنه لا يمكن بحال من الأحوال أن نخرجهم إلا بإيماننا وإخلاصنا لله تعالى ، فلي عملنا بالأخلاق الدينية التي

حجتها فعل ما يجب فعله من الاسباب المشروعة فان ذلك هو الطريق الوحيد
لاخراجهم فانهم لم يدخلوا علينا إلا من هذا الثغر الذى هو التفريط فى القيام
بالدين كما يجب ، فانا لما كننا محافظين فيما سبق على هذا الأصل لم يدخلوا علينا
فالاخلاق الدينية هى التى ترفع الشعوب وتحلها الذروة العليا ، والاحقاد هو
الذى يهوى بها فى الهاوية التى مالها من قرار ، ولو أنها تماسكت قليلا ونصحت
برهة فلا بد من سقوطها وإصابتها بالكوارث المدمرة كما علم ذلك بالدلائل
اليقينية التى لا ريب فيها

ثم قال « فالأخلاق الصناعية الاقتصادية العلمية المادية هى التى تعز الشعوب
وتحلها الذروة ، وسوفنا أننا لانزال محتاجين الى فهم هذه الحقيقة والى تفهيم
الآخرين إياها ، أما الاخلاق الدينية المحض فتلك أشياء أخرى لها نتائج أخرى ،
قلت : هكذا ادعى هذا الرجل أن الاخلاق الصناعية ونحوها هى التى تعز
الشعوب وتحلها الذروة ، ثم ادعى أن الاخلاق الدينية أشياء أخرى لها نتائج
أخرى ، فهى لا تعز الشعوب ولا تحلها الذروة . وقد سبق قوله ان المجد ينحصر
فى الاخلاق الصناعية ونحوها فحصر المجد فيها وادعى أنها تعز الشعوب وأن
للأخلاق الدينية نتائج أخرى ، وهذا صريح فى أن الاخلاق الدينية آلة ضعف
ولآخر ، وقد صرح بهذا فى مواضع من أغلاله هذه ، فقد فسر هذه النتائج
الأخرى فى الكلام على الدعاء فى المبحث الثانى الآتى ، فانه صرح أن الدعاء
ملهاة وتعميق ومصرف خبيث ، ومعلوم أن الدعاء قطب العبادة وقطب
الاخلاق الدينية التى تدور عليه كما اعترف بذلك فى كتبه كما يأتى ، كما قال عليه السلام
« الدعاء هو العبادة » فكانت نتائج الاخلاق الدينية التعويق والملهاة والصرف
الخبيث لأنها عنده تلهى عن العمل وتعوق عنه وتصد عن قضاء الشهوات
النفسية ، وليس هناك من يجيب من دعاة ، بل هى الطبيعة تتفاعل بتفاعلها
المستمر فلا حاجة الى الدعاء ، هذا روح دعايته كلها وكلامه يدور على هذا
الأصل الخبيث الذى ليس ورائه كفر وزندقة ، وحقيقتها الخث على رفض

الأديان والاقبال على هذه الاخلاق الدنيوية فقط . ثم مع هذا يقوله دويوسفينا
 أننا لا نزال محتاجين الى فهم هذه الحقيقة والى تفهيم الآخرين إياها ، فيقال
 له لا حاجة الى الأسف فالمسلمون أجل من أن يفتروا بهذا . وأكبر من أن
 يرضوا لانفسهم ذلك ، فهم يتيقنون أنه لا نجاة ولا نجاح لهم إلا بحبل الله
 المتين والسير على مقتضى صراطه المستقيم ، وذلك يتضمن الأخذ بأصول الدين
 وفعل ما يجب فعله من الأسباب المادية المشروعة ، وأن الاعتماد على الاخلاق
 المادية وحدها ليس كافيا في نيل استقلالهم وخلصهم من امتيلاء العسود ،
 ودعواه . أن الاخلاق الدينية لها نتائج أخرى ، صريح في أنها لا ترفع ولا
 تكسب المجد ، فانه حصر المجد في الاخلاق الصناعية ونحوها وذكر أنها تحمل
 الشعوب الذروة والعز ، ثم ذكر أن الاخلاق الدينية لها نتائج أخرى ، ومعلوم
 أنه لا واسطة بين المجد والعز والانحطاط والضعف ، وكتابه كله يدور على هذا
 المحور الخيث ، فانه صرح في مواضع لا تحصى بأن الأخذ بالاخلاق الدينية
 لا نفع فيه بل هو ضرر محض ، لانها عنده تشغل عن اتباع السموات والنظر
 في العلوم المادية التي هي أساس التقدم ، ولم يلتفت الى فساد الاخلاق كلها وأثره
 في التعويق والتثييط بل جعل المصائب في الاخلاق الدينية . فانظر الى هذا
 التحامل الزائد على الأعمال الصالحة والايان بالله تعالى . وقد تقدم نحو هذا
 قريبا لكن أوصحناه هنا لشدة الحاجة اليه . والحق الذي لا شك فيه ولا عرية
 وهو واضح كالشمس أن المجد والتقدم منوط كله بالاخلاق الدينية الصحيحة ،
 فانها متى صححت وصلحت دفعت الى العمل المادى ، وبقدر الاستهانة وضعف
 الأخذ بالاخلاق الدينية في الاسلام يكون الضعف والوهن ، لان هذا مقتضى
 روح الاسلام ، أما وجود التقدم في بعض الأمم التي لا دين لها أو غالبها
 الملحاد فان ذلك انما يكون تقدما على جنسها أو الذين دونها في أخلاقها ، ولأن
 الروح التي نهأت عليها غير روح دينية صحيحة طيبة ، بخلاف الاسلام فان
 روحه التي تكون عليها وقام صرحه روح سماوية دينية زكية فلا يمكنه أن يصع

أو يتقدم الا بالأعمال التي تناسب روحه وأصله ، والا كان عليلا ضعيفا ، لان الاخلاق الحبيثة لا تناسب روحه الطيبة فلا ينمو ولا يقوى عليها أبدا . ثم ان تقدم اولئك تقدم مؤقت لا بد أن ينهار كما تقوم بعض الأشياء على غير أساس صحيح ويكون قيامها وتقدمها على بعض الشعوب التي معها أخلاق دينية ضعيفة نوع ابتلاء وامتحان للصادق وللكاذب فيمن كان دينه على شفا جرف ولأن في ذلك ايقاظا وتنبيه لمن له عقل كما قال تعالى ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب فاستكانوا لرهبهم وما يتضرعون ﴾ الى غير ذلك ، وتقدم الملاحدة على جنسهم وأمثالهم لسننا بصدد البحث فيه لأن الكلام في الاخلاق الدينية وكونها آلة رقى وتقدم ، وكلامه يدور على نقطة واحدة وهي أن الدين آلة ضعف وانحطاط ، وان غمض أحيانا وخادع ولبس فبهات أن يظن بنا الغباوة ثم قصدته في ظنه فتكون كالأنعام بل أضل سبيلا

فصل

ثم قاله وان المستعمرين والغاصبين والمنافسين وغيرهم من ضروب الاعداء لا يرهبون هذه الأخلاق ولا يخشون أصحابها ولا يؤلمهم كثرتهم وكثرتها . بل لعلهم يعملون على أن تكون الشعوب التي يريدون افتراسها أو بقاءها تحت سلطانهم وعدوانهم متدنية مسرفة في تدينها محافظة على كل فضائلها الدينية ، فيقال لهذا الزائع : هذا مخالف لما تدعيه في مقالاتك السابقة في مناظرتك مع من ترميهم بالاحاد فتدعي أنهم آلات للمستعمرين في افساد الأخلاق الدينية فهو تصریح منك أولا بان الأخلاق الدينية هي أعظم ما يضرهم ويؤلمهم ويسوءهم لشدة عاقبة ذلك لانه انما ينبعث من قوة الايمان التي هي الأصل في التحرر والقيام ضد الاعداء . ثم يقال على فرض التنزل هنا : وهل رأيك هذا - لو صح - يكون حجة على أن الاخلاق الدينية لا ترفع أهلها ، أو هل يجوز لنا أن تعاديهم ونرفض ديننا عناداً لهم اذا كانت هذه الاخلاق لا تهمهم

وهل تشير أو توجب علينا أن نتترك كل مالا يؤذيهم حسدا لهم ، وهل هذا الاستدلال إلا من مهازل الدعايات المزدولة ، فان عدم اهتمامهم بالأمور الثابتة في ديننا لا علاقة له بتقدم ولا تأخر ولا صحة ولا فساد ، هذا لو سلم صدق ما ادعاه ، وإلا فالدهاة من ملاحدة المستعمرين يعلمون أن هذه الأخلاق الدينية هي أعظم سلاح يشهر في وجوههم وكلامهم في هذا كثير جدا ، ولهذا فانهم دائما يسعون في تشويه الأخلاق الدينية الصحيحة وافسادها ومعاكسة من قام بها ودعا إليها . وأما كونهم يخشون الأخلاق الصناعية والمادية ونحوها فهذا لا ينافي عدم خشيتهم للأخلاق الدينية كما لا يدل على وجوب الاعتماد على الأخلاق المادية وحدها ، ومجرد خشيتهم الشيء وعدمها ليس بدليل عند المسلمين بل ولا عند العقلاء على صحة الاعتماد على الشيء وتركه ، وإنما يستدل على صحة الشيء وفساده ببراهين الصحة والفساد وباتفاق العقلاء

فصل

قال « ومن الواضح المستغنى عن كل بيان أن ألمانيا واليابان وأشياعهم انما انتصروا في بداية هذه الحرب المنتهية بصناعاتهم وجيوشهم المزودة بالقنابل والطائرات والمدافع والدبابات الكثيرة المتفوقة ، وأن خصومهم انما انتصروا في آخر الجولة بهذه الامور نفسها ، وان الفضائل والأخلاق الدينية وأشباهاها لم تتدخل لافي البداية ولا في النهاية »

فيقال : هذا حجة عليك ، فان عنت أنه ليس معها أخلاق دينية مطلقا لا صحيحة ولا فاسدة فهذا ممنوع ، فانك ذكرت في آخر الكتاب أن الدين الباطل سبب في التأخر ، ومعلوم أن معها أديانا باطلة ، وهذه الدول المتقاتلة كلها دول كافرة ضرب الله بعضها ببعض انتقاما منها وعقوبة لها بنفس ما اعتمدت عليه . وعلى فرض أن لا يكون معها دين مطلقا فانها تكون سواء ، فانتصرت إحدى القوتين على الأخرى ، وهذا لا نزاع فيه ، انما النزاع في كون الأخلاق

الدينية آلة ضحف ، وأنها لا تقدم أهلها ، وهذا الذى قلته خارج عن هذا ، فان حاصل ما معها قوتان مخرجتان ، فانتصرت إحداها على الأخرى بمشيئة الله ونحن لم ننكر قط تأثير زيادة القوة المادية على ما يقابلها من جنسها من الصناعية المحض كهذه المسألة ، إنما ننكر تأثير زيادة القوة المادية فى القوة المادية المقابلة لها اذا أسست على دين صحيح لا يخرج الى دائرة الكفر فتنتصر عليها انتصارا نهائيا ، وهذه الدول ليس معها أخلاق دينية صحيحة كاخلاقنا حتى يصح قولك ان الفضائل والأخلاق الدينية وأشباهها لم تتدخل لا فى البداية ولا فى النهاية ، فان هذا القول لا محل له ، إنما يصح هذا لو كانت إحدى هذه الدول المهزومة معها دين صحيح وهذا لم يوجد ، فالدعوى ساقطة جداً لا محل لها ، فان هذه الدول ان كان لها ديانة متقاربة وهى باطلة وان لم يكن لها ديانة فكذلك ما عدا البابان ، وقد عرف ما لها مع انك هددت فى آخر الكتاب ديانتها وهى المهزومة ، أما روسيا فأتى الكلام فيها وفى ديانتها فى محله ^(١) . وقد قدمنا أن الأخلاق الدينية الصحيحة المحض توجب وجود ما به تستقيم حالتها من الأخلاق الصناعية ، فان الأخلاق الدينية المحض تحت على الاستعداد والعمل وأخذ الحذر والحيلة كما تقدم ، ولا بد أن الله سبحانه يوفق من قام بدينه الى تحصيل ما ينفعه من الأسباب المادية كما وفقه الى الأسباب الدينية الصحيحة ، فان هذا من سنته التى لا تبدل لها ولا تحويل ، وإنما أتى النقص فى الأسباب المادية من حيث جاء النقص فى الأسباب الدينية فانه الأصل والاساس ، فمن أقام دينه واستقام عليه فلا بد أن تستقيم حالته فى الأخلاق الصناعية ولا عكس كما يأتى

ثم قال : وأمريكا اليوم مثلاً هى أقوى منا مع الفروق المخجلة بلا شك ، قالى ماذا ترجع قوتها وتفوقها علينا ، وبماذا يرجع ضعفنا وعجزنا . من الجلى

المفروغ منه أن أمريكا لم تتفوق علينا بسبب إيمانها بالله أو بسبب أخلاقها الدينية والروحية ، وإنما نالت هذا التفوق بأخلاقها الصناعية والاقتصادية والعلمية ، وإنما أعجزنا من اللحاق بها لعجزنا عن اللحاق بأخلاقها هذه لا بعجز في روحانياتها أو في إيماننا بالله أو في فضائلنا الدينية ، انتهى

وهذا القول الذي قاله تهور وهذان لا قيمة له ، فلا حجة فيه على مراده فإنه من الواضح الجلي أن أمريكا لم تتفوق علينا بسبب رفضها الأديان وبعدها عن أخلاقها حتى يصح الاحتجاج بهذا فإن هناك دولا مخالفة لها في الأخلاق والديانة وهي تقاربها في القوة وإنما تفوقها بالأخلاق الصناعية والمادية وغير ذلك ، وهذه الأخلاق ليست برفض للأديان ومعاداة لها ، وقد بينا أن هذه الأخلاق لا تنافي للديانة الصحيحة . بل تلائمها ، ولو كان مع هذه الدول ديانة صحيحة لازدادت قوة إلى قوتها هذه قطعا

ودعواه أن تأخرنا عنها ليس لقصور في إيماننا وفضائلنا الدينية دعوى في غاية السقوط ، قد نقضها في آخر الكتاب حيث ادّعى أن الناس اليوم على دين محرف وأهم ، فكيف يدعى هنا أنه غير ناقص ، هذا تناقض صريح اضطرت له الحاجة واللحاجة إلى السقوط فيه ، بل إن تأخرنا إنما هو لعجز في إيماننا وفضائلنا الدينية ، وتقصيرنا في ذلك تقصير واضح لا شك فيه ولا يلزم من تقصيرنا أن يكون ديننا محرفا فإن الدين المحرف هو الدين الباطل المخرج عن الملة ، ولهذا يطلق علماء المسلمين على دين أهل الكتاب بأنه دين محرف أما دين المسلمين فلم يقل أحد منهم أنه دين محرف ، ولا يلزم من التقصير في طاعة الله أن نكون على عبادة محرقة فالفرق واضح . وبالجملة فدعواه أن تأخرنا ليس عجزا في ديننا كلام باطل ، كما أنه نقضه نقضا صريحا كما تقدم ، فإن كثيرا من المسلمين قصرُوا في معرفة الأصل ، ثم العمل به ، وذلك في تأويل صفات الباري ، وفي دعوة الأنبياء والصالحين والاستغاثة بهم في الشدائد عند قبورهم وغيرها ، ثم في وضع ما يحل محل الأحكام الشرعية ، ثم في فساد الأخلاق

كالكذب والفجور والفسوق والخيانات وغير ذلك ، ثم في عدم القيام بالأسباب
المادية كالأموال الصناعية والتجارية ونحوها ، فصار قصورنا من كل ناحية ، ثم
مع ذلك لا بد من أسباب أخرى في تفوقها علينا ككثرة عددها وزيادة
ثروتها المادية وموقعها الطبيعي وغير ذلك ، مع ملاحظة أنه قد مضى عليها في
القدم مئات السنين أو آلاف السنين وهي في غاية الانحطاط والخلول ، على حين
قوة ورق عظيم مطرد في الشرق الأوسط وتفوق كبير عليها ، وقد جعل الله
الدنيا دولا كما قال تعالى ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ إذ كلهم عبده
وملكه ، فلا بد أن تنال حظا من آثار الرحمة العامة سواء كان حظها دينيا أو
دنيريا فتصيب من جنس ما أصاب غيرها من متاع الدنيا أسوة بأمثالها وحجة
عليها . ولقائل أن يعارضه أيضا ويقول : فلم تفوق العرب عليها وعلى غيرها
في القرون الأولى . وماذا يرجع ضعفها هي وعجزها في تلك القرون حين وجود
الدين الصحيح النقي . من الواضح الجلي أن تفوق العرب عليها أو على غيرها في
ذلك الوقت ليس بكثرة عدد ولا قوة صناعية ولا بكثرة إنتاج ، بل إنما هو
بالأخلاق الدينية فقط ، هذا أمر مفروغ منه ، ولا نحتاج في تقرير هذا إلى
أن نقع في تناقض كما وقع ، بل هي دعوى صحيحة كالشمس ، فلما أن انتشر
على الشرق بلاؤها هي وأمثالها من دسائس الاتحاد وفساد الأخلاق ضعفت
كالجسم الذي يفقد غذاءه الملائم له ويستبدل عنه غذاء آخر غريبا خبيثا لا يلائم
روحه ، فإنه يضعف بقدر ما يبعد عما يلائم روحه . وكل ذى عقل ومعرفة يعلم أن
الاندلس لم يسقط حتى دخله مذهب الجهمية في انكار الصفات كالمعلو ومذهب
غلاة عباد القبور وأمثالهم ، ويدل على هذا كتبهم المتأخرة ، فمن طالع كتب
ابن عبد البر وكتب من جاء بعده في القرن الثامن وما بعده علم الفرق في
تحول علوم الأندلس وهبوط علوم الدين فيه هبوطا عظيما ، فلذلك هبطوا
لأنهم لم يرتفعوا إلا به ، والحكم يدور مع علته ﴿ أن الله لا يغير ما بقوم
حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ ﴿ ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا ﴾

وقوله « وإنما نالت هذا التفوق بإخلاصها الصناعية » يقال بهذه وبغيرها لا برفض الأديان وعداوتها ، ولو رفضت الأديان وتركت هذه الأخلاق لم تنل شيئا . وقد بينا أن هذه الأخلاق لا تنافي الدين ، وهذا الملحد لم يبحث على هذه الأخلاق فقط ويترك الأمور الدينية حتى يصح له الاحتجاج ، ونزاعنا معه ليس في نفع هذه وضررها ، بل جدالنا في كون الأخلاق الدينية آلة ضعف كما زعم ، حيث ادعى هذا وادعى أيضا أن الدعاء لا فائدة فيه ، وأنه مصرف خبيث وملهأ وتعويق . هذا محل النزاع ، وجميع خصومه من علماء الدين يحثون على الأخلاق الصناعية ونحوها فلا حاجة إلى الاستدلال عليهم بكونها تنفع ، فإن هذا الاستدلال لا محل له ، بل حثهم عليها أعظم من حثه هو ، فإن معظم كتابه شتم في الأديان لا حث على الأعمال كما سنبينه ، وكون أولئك تقدموا بهذه الأسباب لا يدل على أن أسباب الدين لا تقدم أهلها ، فإن ثبوت تقدم الأديان أظهر من ثبوت تقدم هذه الأسباب ، لأن هذه الأسباب كثيرا ما تكون تكة على أهلها ، وقد تقدم تارة وتؤخر أخرى ، وقد يعارضها أسباب أكبر منها . أما الأخلاق الدينية فلا يعرف أنها أخرت أهلها أبدا ، ولم يتقدم على أهلها أحد من يضاد أخلاقهم إلا إذا كانت ضعيفة جدا ، فقد يقع ذلك تمحيضا ، ولا بد أن يعود الحق إلى نصابه . فهذه الدول الغربية لو اعتمدت على دين صحيح لازدادت قوة إلى قوتها كما قال هود عليه السلام ﴿ وباقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ﴾ فدل هذا على أن لديهم قوة مع كفرهم ومخالفتهم لمسولهم ، ودل على أن القوة الدينية لا تنافي القوة المادية بل تزيدها ، فلماذا أرشدهم هود عليه الصلاة والسلام إلى أن الإيمان لا ينافي قوتهم بل يزيدها ، ولكنهم كفروا بذلك لأنهم ظنوا - كما ظن هذا الرجل وكما ظن جميع الملاحدة - أن الإيمان به واتباعه ينافي القوة المادية التي استحصلوها عليها ، وأن ذلك ملهأ وتعويق وأغلال تعوقهم عن الاستمرار في هذه القوة وتطورها ، لهذا

عصوه واستكبروا عن اتباعه فرحين بما عندهم من العلم بهذه القوة التي تحصلوا عليها ، فلماذا حرمهم الله ثمرة هذه القوة فانهارت عليهم فجاءتهم قوة أعظم من قوتهم ودمروا تدميرا فظيما كما دمر أمثالهم عن ظن كما ظنوا ، وسيدمر من اتبعهم في ذلك الى يوم الدين . ولا شك أن كثيرا من هذه الدول والحكومات التي حاقت بها السكوارث إنما تركت الايمان الصحيح لظنها أن التدين يضعف قوتها ويحرمها من الرقي والتقدم الذي تؤمله وتسعى اليه . وأعظم الاسباب في ذلك أنها لا تعرف حقيقة الدين الصحيح ، ولكن ليس هذا عذرا سائغا لها فانها دائما تبذل أقصى ما لديها في التنقيب والبحث عن كل ما فيه نفع دنيوى لها كما تفعل في مكافحة الامراض بالاجتهاد في العثور على الادوية القاطعة للأمراض الفتالة ، وكما تفعل في المعادن وغيرها ، فكان من الواجب أن تتعب وتكون هيئات وجمعيات عظيمة للبحث والتنقيب والنظر في العقائد والاديان النافعة ، ولو فعلت هذا لكان من المحتم أن يتبين لها الدين الصحيح الذي يعيش به العالم كله بسلام ، فهو الذي تطمئن اليه النفوس والقطرة المستقيمة كما هو موضح في كتب الامام ابن تيمية وأمثاله . فمن طالع كتاب العقل والنقل له وغيره من كتبه وكتب تلميذه ابن القيم تبين له أصل الدين بيانا كالشمس . فهل فعلت شيئا من ذلك . انها لم تفعله فهي اذن لم تعلمه علما صحيحا ، وذلك لضعف الداعي لا لعدم القدرة ، فان وجود القدرة والارادة الجازمة وقوة الداعي يوجب وقوع الفعل . وبالجمله فقد أخبر الله أنه يسر القرآن للذكر فهل من مدكر ، فكان التفريط وعدم التذكر هو السبب في عدم معرفة الحق ، لا عسر في معرفة الحق في نفسه

وما يجب التنبيه عليه والتفطن له أن تقدم الكافر على المسلم في الدنيا بالامور الصناعية والتجارية ونحوها لا يقتضى أنه سيستمر ، أو أن الكافر على صواب في أخلاقه ونظامه ، بل إن ذلك يقع ولكنه لا يستمر ، فلا بد من وجود النكبة . ان قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم ابراهيم وكثيرا من الانبياء

وأتباعهم قد تقدم عليهم قومهم وغير قومهم من الكفار في هذه الامور ولم يرحمهم ذلك عن ايمانهم ، ولم يفتنهم هذا التقدم ، فان الله يمتحن عياده ، فمن رسخ الايمان في قلبه علم أن الحق حق لا يتغير بمثل هذه الامور ، فان الحق حق في نفس الامر سواء تقدم أهله في الدنيا أو تأخروا ، وليس برهان الحق هو التقدم والتأخر حتى يزول بزواله ، وانما يزيغ قلب من يعبد الله على حرف ، فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتته انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ، اذ لو لا التأخر لم يميز الصادق من الكاذب والراسخ في ايمانه من هو على شفا جرف ، قال الله تعالى ﴿ وما أرسلنا في قرية من نبي الا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون . ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغيته وهم لا يشعرون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا الى أم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ، فلو لا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون ، فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ، حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ وقال تعالى ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسرا عليها يتكئون وزخرفا وأن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين ﴾ . فتأمل هذه الآيات وما فيها من العبر الباهرة والدلالة الظاهرة على أن الكفار قد يتقدمون أحيانا على أهل الدين في الامور المادية وأن وجود هذا التقدم المادى متاع دنيوى وامتحان وتمحيص للصادق في ايمانه من الكاذب ، ولا يلبث هذا التقدم أن يتقلب وينهار لانه عارض من العوارض المقصودة لغيرها فلا يد من انبهاره وسوء عقباه ، وان ذلك سنة من سننه تعالى في هذا الكون ، وإنه مطرد في الامم المتقدمة والمتأخرة ، فهو تقدم يشبه الطغور المؤقت الذى

لا بد من فشله وهبوطه ، كما فشل وهبط تقدم أعداء الرسل وأعداء الانبياء كفرعون وقومه بالنسبة الى بنى اسرائيل وأمثالهم ، فلا عجب أن حصل على المسلمين تأخر ما فى وقت قليل لما غير أكثرهم دينه ، وقد تقووا قرونا كثيرة جدا فلم يكن فى هذا التأخر عبرة لهم وأن يكون داعيا لهم الى معرفة مضرة ترك الدين والتقصير فيه ، وحفزا لهم على جمع أمرهم ومعرفة طريقهم الحقيق فمن احتج بتقديم الغربيين على المسلمين فى هذا الوقت الحاضر على أنهم أكمل عقولا وأهدى سبيلا فهو من جنس فرعون حين احتج على موسى بهذه الحجة نفسها حين قال فيما حكاه الله تعالى عنه ﴿ ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ، أم انا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ، فلولا ألقى عليه أسورة أو جاء معه الملائكة مقرنين ﴾ فتأمل هذه الحجة الفرعونية تجدها بعينها هى حجة هذا الرجل فى هذه الاغلال كلها^(١) ولما كان قوم فرعون يومئذ أغبياء سخفاء عقول لم ينظروا الى الحقائق الثابتة بل نظروا الى المظاهر السطحية الدنيوية التى نظر اليها هذا الرجل ومن على شاكلته ، فنظروا الى تقدم هذا وتأخر هذا فى الملك والمظهر والتجارة ونحوها ، قال تعالى فيهم ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه أنهم كانوا قوما فاسقين . فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين ﴾ وهكذا وقع ، فانهم كانوا سلفا لمن فصل فعلهم ومثلا لهم من الآخرين ممن نكبوا بهذه النكبات المتتابعة . وهذه سنة مطردة وقاعدة معروفة مشى عليها جميع الكفار من أولهم الى آخرهم فى احتجاجهم بالتقدم

(١) فانه احتج عليه بتقدمه فى الملك والتجارة والآبهة والمظهر السطحي . ومن حق حبسه أنه عرض بنقص ابانة موسى للكلام ، يعنى أنه ناقص حتى من ناحية الكلام ، فذكر الاهانة معبراً عنها بعدم الملك والاضعف الخارجى ، وذكر ضعف الابانة للضعف الجسمى ، وهذه هى حجة الملاحدة والزنادقة كهذا المعارض

فى الحياة على الصحة والصواب والتأخر على خلاف ذلك ، ولهذا قال جل من قائل ﴿ واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفرقين خير مقاما وأحسن نديا ﴾ وهذا عين ما يحتج به هذا المارق كما هو ظاهر ، ثم يقال لهذا الملحد أيضا : هل التقدم فى الامور المادية من صناعة أو تجارة أو غيرها دليل على الحق ، وإن التأخر فى هذه الامور دليل على الباطل ، أم ليس ذلك بدليل . فان قلت بالاول بأنه دليل فصرح بذلك ولا تتناقض وتغتمض تارة وتلوح تارة أخرى وتأتى بأقويك فى هذا ملتوية أحيانا وصريحة أحيانا أخرى ، وقل لهم على الحق وإن المسلمين على الباطل . وإن قلت بالثانى وانهم ليسوا على الحق . وما أكبر هذا عليك . فواجه هذه المناقضة والمخادعة والمراوغة المنكرة ، فان هذا يبطل تهويلك وتطويلك فى هذه الامور

فصل

ثم قال : لا أحد يستطيع أن يمارى فى هذه الحقائق بعد أن ظفرت روسيا وجيوشها بأعظم نصر عرفه البشر ، مع أن هؤلاء سلبون من هذه الناحية تماما ،

فيقال : كل أحد من العقلاء يستطيع أن يدفع هذه الاوهام التى ادعيتها حقائق كما أوضحناه . وكل هذا الذى وقع فى هذه الحرب حجة عليك ، فانها كوارث ساحقة حلت بمواضع الاتحاد وحقت على رموس الملاحدة المعاكدين الذين نبذوا النصوص السماوية وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون . فليست ألمانيا ولا اليابان ولا إيطاليا بدول معتمدة على الايمان والاعمال الصالحة فانصرفت عليها هذه الدول الملحدة كما تزعم حتى يكون هذا حجة لك وحقائق تعتمد عليها فى أن الايمان بالله والاخلاق الدينية لا تضر أهلها بل تفيدهم التأخر ، وهذا هو محز النزاع الذى نجادلك فيه ، فكيف تدعى أنه حقائق لا يمارى فيها وهى لم توجد البتة ونحن لم نذكر قط أن الدول الكافرة ينتصر بعضها على بعض

ثم انه قد علم أن هذه الاسباب التي تحت عليها في أغلالك وتعلق النصر عليها مطلقا قد نفعت من وجه وأضرت من وجوه كثيرة ، فان كانت نفعت روسيا فقد أضرت ألمانيا . وأما الأخلاق الدينية التي صرحت بأنها لا فائدة فيها وأنها مصرف خبيث فقد نفعت أهلها ولم تضرهم قط ، بل ربما أنها لو لم توجد لديهم لحل بهم ما حل بغيرهم ولا سيما مع ضعف أهلها من ناحية الاسباب المادية مع أنهم لم يأتوا بها الا ضعيفة

ودعوا ان نصر روسيا أعظم نصر عرفه البشر فهي دعوى تم عن خبيث كامن عميق إذ هي مكابرة واضحة ، فأدنى عاقل يعلم أن روسيا لم تنفرد بحرب ألمانيا ، وأنها لم تستغن عن مساعدات غيرها لها بأنواع الوسائل الحربية ، وأمريكا أيضا تدعى أنها هي التي هزمت ألمانيا ، وكذلك الانجليز . فالنصر هذا انما وجد من الكل بلا ريب ، على أن نصر روسيا هذا لا حجة له فيه كما تقدم مرارا ، فانها منتصرة على دولة من جنسها في أكثر المبادئ والبعد عن الدين الصحيح من هم سلبيون من الدين ، حقيقة هذا - لو سلم - أن تكون منتصرة على جنسها في أعظم مبادئها عقوبة لها ، وهذا خارج عن محل النزاع ، بل هو حجة عليه فانه يدعى أن الانحلال من الأديان هو طريق المجد والتقدم فاذا كان نصر روسيا من حيث كونها سلبية من ناحية الدين فعدوها المنهزم كذلك على زعمه ، لأنه يدعى أن أكثر هذه الدول ملاحدة ، فان كان الانحلال سببا للنصر فقد صار أيضا سببا للهزيمة والدمار والوبال على أهله ، وان لم يكن سببا بطل احتجاجة . على أنه ينبغي أن يعرف أن روسيا ليست كلها سلبية كما يدعى ، بل فيها مذاهب وشيع مختلفة ، وقد غيرت كثيرا من مبادئها البلشفية في الاتحاد قبل الحرب لما عرفته من تأثير الفساد في شبابها ، وهي بكل حال مضطربة في أمر الديانات فليست بسلبية تماما من هذه الناحية الدينية كما زعم . وبما لا شك فيه أن أكثر هذه الأفكار التي يدعو اليها في أغلاله هي من أعظم الاسباب التي حاقت بألمانيا حتى أوقعها فيما وقعت فيه ، هذا

وهي دولة عظيمة قوية ، فكيف اذا كان يدعو دولا ضعيفة بالنسبة الى غيرها الى هذا المبدأ الهدام ، فلا حجة لما ادعاه في نصر روسيا مطلقا فانها لم تنصر على أخلاق دينية محضة حتى يكون حجة له ، وروسيا نفسها لم تدع بهذه الدعوى ولم تدع أيضا أنها مستقلة بالنصر دون غيرها كما ادعاه لها هذا المكابر . ثم هذه الحرب التي دخلتها روسيا كانت صدمة عظيمة في روحها وشبابها سيبقى لها الأثر الى أمد طويل ، ولو لم تدخل الحرب لكان أولى بها وأقوى لها ، فانها ما استعاضت في انتصارها مقدار ما فاتها لو لم تدخل الحرب ولا مقدار خسارتها في حروبها ، فهذه الحرب والتي قبلها كلها صارت على رأسها هي وألمانيا ومن معهم فن شغفوا بهذه التعاليم الاتحادية فكلموا خرجوا من شقاء دخلوا في آخر ولا سيما بعد أن كثر الاتحاد وتوسعت دائرته فيهم ، وهذا المستقبل ينذر بشر أدهى وأمر على هؤلاء ومن أعجب بهم وسحر بأرائهم ، فكيف يصح أن يقال إن نصر روسيا أعظم نصر عرفه البشر والحال المعروفة عند كل عاقل هي ما ذكرنا وقد شاهده الناس ، وهو أمر ظاهر لا تنكره روسيا نفسها ، فهو حقائق لا يمارى فيها لوضوحها ، ولكن « لهوى النفوس سريرة لا تعلم » .

فصل

ثم قال : « فطريق المجد القومي إذن يجب أن يكون معروفا واضحا متفقاً عليه ، ويجب أن يعلم أنه غير ما يدعو اليه هؤلاء الصالحون اذا كان هؤلاء الاخوان يعرفون هذا الطريق ولكنهم انما يدورون حولها الآن اضطرابا وانهم بعد أن حشدوا الحشود سيتعرفون الى طريقهم الحقيقي ، قلت : قد صرح هنا - كما ترى - بأن طريق المجد القومي هو غير ما يشير اليه هؤلاء الاخوان الصالحون الذين حصروا المجد في الأخلاق الدينية الأولى . وفي تنفيذ الحدود الشرعية الى آخر العبارة السابقة . وقد علمت أنه ليس فيها نفي للأخذ بالأسباب المادية بأنواعها مما فيه استعداد للعدو ، بل هم قد صرحوا

بان ذلك من أهم واجبات الدين وذلك موجود في كتبهم ومقالاتهم الكثيرة الشهيرة في المجالات والجرائد وغيرها فادعى هذا الملحد أن المجد في غير ما يدعون إليه ، بل صرح في مواضع أخرى بان هذه الطريق لا تفيد شيئاً في التقدم بل هي أسباب للتأخر ، فادعى أنها أغلال تعوق عن الرقي ، وصرح في البحث الثاني بأنها ملهاة ومصرف خبيث وتعوق للبشر . ثم قوله « فطريق المجد يجب أن يكون معروفاً الخ ، يقال : قد عرفناه معرفة أوضح من الشمس في نصف النهار ليس دونها أدنى حجاب بأنه الأخذ بالأخلاق الدينية ، ولكن أنت لم تعرفه لعماء بصرك فلماذا كنت أعظم الموغلين في الضلال في معرفته ، فمن عني بصره فلم ير عين الشمس على شدة وضوحها لم يحز له أن يحكم على غيره بأنه لا يراها . ومن عظيم اغفالك في الضلال وانعكاس الرأي أنك جعلت أسباب التقدم أسباباً للتأخر وجعلت أسباب التأخر هي أسباب التقدم ، فقلبت الحقائق اليقينية لما انقلب قلبك كالمرضى الذي يتصور الأشياء على غير حقائقها فيحكم عليها بما يراه في حالته المختلة . قال الشاعر :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم
وقولك ويجب أن يعلم أنه غير ما يشير به هؤلاء الصالحون فنقول بل يجب أن يعلم أنه هو ما يبشر به هؤلاء العلماء المظفرون ، وأنه غير ما تدعو إليه أنت وأضرابك الهدّامون ، وقد تقدم أن الأخلاق الصناعية المادية لا تنافي الأخلاق الدينية بوجه من الوجوه ، وتقدم أن هؤلاء الإخوان الصالحون لم ينفوا هذه الأخلاق المادية فانها إن كانت داخلة في مسمى الجهاد وأنها من وسائله فهم قد ذكروها كما نقله عنهم صريحاً فلا معنى لاعتراضه عليهم ورده لكلامهم ، وإن لم تكن داخلة فهم لم ينفوها في كلامهم الماضي وقد ذكروها صريحاً في المواضع الأخرى ، وإذا كان يرى أن هذه الأخلاق مضادة للدين فلا معنى للحث عليها وإطالة الجدال والترغيب في الاعتماد عليها وانتسابه مع ذلك إلى الدين ومحاولة التوفيق بينها وبين الدين على ما يزعم فإن المتضادات لا

يمكن الجمع بينها بحال ، فما ذكره تهور ساقط لا أساس له البتة
وقوله : « ان كان هذا هو الامر الذى ينوون فما أبعد ما ذهبوا بأنفسهم
وبأتباعهم ، فيقال : لقاتل أن يقول لك وما أبعد ما تذهب اليه أنت ومن على
شاكتك بأنفسكم وبأتباعكم - ان كان لكم اتباع - فان هذا مجرد دعوى فتقابل بمثله
وقوله « ونظنه غمظنا جدا من حاول أن يقوى نظره بقراءة الحروف
الصغيرة تحت النور الضئيل » . يقال : هذا المثل هو منطبق عليك تماما ، فانك
سلكت فى دعايتك هذه مسلكا لا أخفى ولا أفسد منه ، لانك جعلت الانحلال
من الاديان واعطاء النفس شهواتها حتى ترجع الى طور الحيوانية والطفولية
سببا فى حصول المجد والرق وحصول الآمال الكبار ^(١) فهذه الدعاية الهوجاء
انما ينطبق عليها هذا المثل الأهوج المناسب لها ، فان حصول الرقى والمجد باتباع
الاهواء وفساد الاخلاق لا يمكن أن يفهم من هذا ، فلا أخفى ولا أغمض منه
ان لم يكن مستحيلا

فصل

ثم قال : « كم تستولى على شتى العواطف اذا رأيت هؤلاء الشبان المخلصين ،
المتوقدين حمية وغيره يقادون بهذه الأفكار دون أن يدروا من أمرها سوى
أنها تسوف فى إعطائهم الوعود السخية السكرية الرخيصة ، وسوى أنها تؤكد
بلوغهم كل ما يرجون ويحبون من آمال بأضعف الأسباب وأصغرها . اننى
لا هتف أحيانا كثيرة اذا رأيت هؤلاء المؤمنين كما كان يهتف أحد ادباء فرنسا
اذا رأى أمثالهم : بالسذاجة المقدسة ، وباللايمان المخدوع ! »

(١) والعجب أنك ادعيت فى بحث المرأة أنها اذا تعلت فلن نخشى شيئا بعد
ذلك أبدا ، فجعلت رأس السياسة كلها والنهوض والمجد والاستقلال فى تعاليم المرأة
فأى انسان يقوى نظره حتى يستطيع أن ينظر حروف هذه السياسة الدقيقة فى
هذه الظلمة الحالكة

قلت : لا يخفى مما مر أن هذه الأفكار التي أشار إليها هنا وهي التي يقاد بها هؤلاء الشبان المخلصون أنها هي ما ذكره عن أولئك الجماعات العظيمة الشأن في تعريف طريقة المجد المنشود ، وقد عرفت أنها الأخذ بالأخلاق الدينية وفعل ما يجب فعله من الأسباب المشروعة المادية ، فكان هذا الرجل حسب ما زعم تستولى عليه شتى العواطف وشدة الأسف عندما يرى هؤلاء الشبان المخلصين يقادون بهذه الأفكار الدينية . وذكر أن هذه الأفكار أضعف الأسباب وأصغرها في تحصيل آمالهم ، وقد صرح بأنهم مؤمنون ، ثم ذكر أنه يهتف أحيانا إذا رأى هؤلاء المؤمنين على هذه الحالة الدينية يتوقدون حمية وغيرة كما كان يهتف هذا الفرنسي قائلا « باللسذاجة ، وبالأيمان المخدوع ! » فصار ما دعا إليه أولئك الجماعات الصالحون سذاجة وإيمانا مخدوعا . وقد نقلنا ما ذكره عن أولئك الجماعات الصالحين أن حقيقته الأخذ بالأخلاق الدينية الأولى في الأصل والقرع ، أى الأخذ بالطريقة السلفية في أصول الدين ثم فعل ما يجب فعله من الأسباب المشروعة ، فكانت هذه الأمور هي السذاجة والأيمان المخدوع عنده ، وحق له أن يهتف بذلك لأنه كما أصيب بداء النفاق والزندقة اتبع سلفه في هذا الهتاف ، فهذا الأثر إنما تسلسل إليه في أسلافه أولئك المنافقين الذين في قلوبهم مرض فأنهم يهتفون بجنس هذا الهتاف حينما يرون المؤمنين في زمانهم ساعين جادين متوقدين حمية وغيرة على الحق ، فإنهم يظنون هاتفين أحيانا قائلين « غرّ هؤلاء دينهم » وتارة يهتفون قائلين « ان هؤلاء لضالون » فلو أن هذا المنافق اتبع أسلافه من منافقي العرب لكان أولى به من أن يتبع هذا الفرنسي ، لا سيما إذا كان يدعى أنه من العرب وأنه مضاد لفرنسا . ولكن إبعاله في النفاق تجاوز به إلى هذا الحد في الشقاق . قال الله جل من قائل ﴿ إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غرّ هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ وقال سبحانه وتعالى ﴿ ان الذين أخرجوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، وإذا مروا بهم يتغامزون ، وإذا

انقلبوا الى أهلهم لئلقبوا فكهين ، واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون . وقال الله تعالى ﴿ زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة ﴾ الآية . فما ذكره هذا المؤلف هو من جنس ما حكاه الله عن أسلافه الكافرين والمنافقين من عيب دين المؤمنين والاستهزاء بهم ، ولكل قوم وارث . ثم هو انتقاد واستهزاء محض ليس من الحجة في شيء ، وقد سبق اليه من هو على شاكلته عن طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم . وقوله « بأضعف الأسباب وأصغرها » فيقال كلا بل هي أقوى الأسباب وأعظمها ، وانما كانت ضعيفة صغيرة عندك لضعف بصيرتك وبعدك عنها ، فضعف البصيرة والبعد عن الشيء القوي الكبير يصوره صغيراً ضعيفاً وليس لك أن تحكم على الأشياء القوية العظيمة - التي شهدت الشرائع والعقول السليمة بقوتها وعظمتها - بنظرك الضعيف المعكوس مع بعدك عنها ، فإن هذا قلب للحقائق وضلال بعيد .

فصل

ثم قال : « يقال ان النعاة ينجحون كثيراً ويلقون المؤمنين الكثيرين بهم بين الشعوب الاتكالية التي يعتمد أفرادها على الآخرين في تحقيق آمالهم وعجزهم عن تحقيقها ، فأمثال هؤلاء يسارعون الى تصديق كل من جاءهم بفكرة ومبدأ أو دين أو مذهب زاعماً أنه سيعطيهم كل شيء اذا ما اتبعوه وآمنوا به وأخلصوا في ايمانهم ويسارعون الى التنازل لمتبوعهم أو قائدهم أو زعيمهم أو مرشدهم عن كل شيء فيهم » فيقال : لعل هذا هو الذي دفعك الى هذه السخافات التي سجلتها في هذه الاغلال ، اذ ظننت أن كل من جاء بفكرة أو مبدأ أو دين أو مذهب جديد وعلق النجاح على الايمان به أنه ينجح ، فلا عجب أن جئت بهذه الفكرة المردولة فسجلت هذه المخازي الويلة ، وادعيت أنها « من الحقائق الأزلية الأبدية التي تأخذ بها أمة فتنهض وتتركها أمة فتتهوى

ولن يوجد مسلم واحد بين الأربعةائة المليون المسلم يستغنى عن هذه الأفكار .
ثم بنيت هذه الدعوى على اتباع الشهوات وفساد الأخلاق وأنها سبب للتقدم
والنجاح ، ثم ذهبت تعلق على الكتاب قولك المضحك : « سيقول مؤرخ
الفكر أنه بهذا الكتاب قد بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل » . فليت
شعري متى كانت الأمم العربية مجانين أو معتوهين حتى رقيت جنونهم بهذا
الهديان والبراء والصديد والقيح الذى قذفته فى هذا الكتاب

يا صاحب الحقائق الأزلية الابدية إن من كان على هدى من أولئك الدعاة
لم يدعوا الناس الى ما دعوتهم اليه من رفض الايمان واتباع الشهوات ، أو
يدعون أن تحصيل آمالهم موقوف على الاخذ بأقوالهم التى سجلوها وكتبوها
كما ادّعت ، إنما دعوا الناس الى أوثق العرى وأثبت الأصول ، ودعواهم الى
النور المبين والروح التى لا تقهر ، دعواهم الى صراط العزيز الحميد الذى له ما فى
السموات وما فى الارض ، دعواهم الى إصلاح أخلاقهم التى هى الأساس
الأول لجميع الأعمال والنهضات كلها ، فبإصلاح الأخلاق يصلح كل شئ . وبفسادها
يفسد كل شئ . وإنما الأمم الاخلاق ، كما يقال ، فالأعمال المادية كلها ونتائجها
إنما تصدر عن الأفكار الصحيحة ، فلا يمكن صدور أى سبب أو نتيجة من
صناعة أو زراعة أو غيرها حتى يتصورها الفكر أولاً ، ولا يمكن أن يتصورها
الفكر تصوراً صحيحاً حتى تكون معارفه وأخلاقه صحيحة نيرة . يا هذا ان الدعاة
الصالحين لم يرفضوا العقل والشرع كما رفضته ، بل علموا ودينوا أنه ليس بين
الدين الصحيح والعقل السليم أدنى تباين ، بل هما أخوان ، فالأصل الدين
والعقل تابع له ، فان العقل إن كان قد صدّق بالدين فيجب أن يتبعه ، والا
كل ذلك قدحا فى تصديقه له لأنه قد صدّقه فكيف يصدّقه ثم يشك فيما أخبر
به ودعا اليه ، وان كان العقل يصدقه مطلقاً فبأى شئ يصدّق ، أيريد أن
يصدق عقله وحده أم عقول طائفة أو أمة أو شعب أو جماعة مع تباين
العقول وتضاد نظرياتنا ، ولا شك أن هذا يوقع فى التناقض والفساد والفوضى

التي لا تنضبط ، ثم إن هؤلاء الدعاة الدينيين لم يدعوا الى اتباع آرائهم ولا لكل ما يقولونه ، فهم أعقل من أن يدعوا أن ما في كتبهم « حقائق أزلية أبدية » ، وإنها تأخذ بها أمة فتنهض وتركها أمة فتهدى ولن يستغنى عنها مسلم ، فهم أجل وأكبر من ذلك ، إنما دعوا الى تعظيم الرب وعبادته واتباع أوامره على السنة رسله ، فاذا نجحوا فإن نجاحهم من أعظم البراهين على صحة دعايتهم ، لأنهم لم يدعوا الى أنفسهم ولا الى كل ما يوافق الطبيعة والشهوات حتى يكون ذلك مرغبا في قبول دعايتهم ، بل دعوا الى الحق وهو ثقیل كبير على أكثر النفوس ، فاتباعهم دليل على وضوح برهان دعايتهم ، بخلاف من اتبع ما يوافق هواه فإنه قد يكون إنما اتبعه لموافقة هواه لا لصدقه وصحته في نفس الامر ، وهذا ظاهر جلي . فإأورده وادعاه على الدعاة والعلماء الصالحين فهو حجة عليه فلا وجه لتشنيعه واستهزائه ، وقد كرر هذا القول مرارا في غضون هذا الكتاب ، وقد علت فسادة فلا حاجة الى تكرار الكلام عليه

فصل

قال : « ولا أجد مفرا من أن أذكر هؤلاء الأخوان أن الروح الدينية كثيرا ما تكون سلبية تجاه الحياة وعطلا في أصحابها إن لم يشايعها روح متوتبة من المادية الواقعية الصارمة ومن الترية العالية ، وفي الحق إنهم قليلون جدا إن لم يكونوا غير موجودين أولئك الذين استطاعوا أن يجمعوا بين التدين وبين الابداع في الحياة والنهوض بها ، ولهذا فإنه ليكاد يعجز الباحث ان يجد متدينا حريا استطاع أن يكون في الحياة شيئا مذكورا ، وأن يتقدم بها ويعطيها ما ليس عندها . ونجد كل الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها العلوم والاساليب المبكرة العظيمة هم من أولئك الموصوفين بالانحراف عن الدين وبالتحلل منه ، قلت : خلیق بمن هذه حاله وهذا رأيه ، ان لا يجد مفرا من أن ينفك هذا الشر الكامن في قلبه ، لأن هذا القبح المنضغظ في صدره لا بد من خروجه

والا قتله فلا مفر من نفسه والقول به لكي يعافى منه ، لانه حيث قاتل اجتمع
وتكون من الشك والريب وفساد العقيدة والقلق وانعكاس الرأى . هذه حقيقته
فما ذكره من أن الروح الدينية كثيرا ما تكون سلبية تجاه الحياة . . الى آخره
كذب ظاهر فإن الروح الدينية المحض روح فعالة قوية وثابة صارمة تدفع
بمقتضياتها الى التربية العالية فانها توجب بتعاليمها تحصيل الاسباب المادية التى بها
قوام الدين وليس هناك روح دينية تنافى الروح المادية بل روح الدين الصحيح
توجب تحصيل ما يؤيدها من الاسباب المادية من الاستعداد للاعداد وجمع
الكلمة وازالة العوائق التى فى سبيل ذلك . ولكن كلامه يدور على عدم اتفاق
الدين واسباب التقدم ، بل روح الكتاب كله يدور على تضاد الدين والتقدم ،
ولهذا ادعى هنا انه يعجز الباحث ان يجد متدينا استطاع ان يكون فى الحياة
شيئا مذكورا ، وصرح بأن الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها العلوم هم المنحرفون
عن الدين والمتحللون منه ، وهذا نص صريح فى الدعاية الى رفض الدين
وتصريح بان الدين اعظم حجاب عن النهوض والتقدم لأن أهله - على كثرتهم -
لم يتوصلوا على صنع الحياة وايجاد العلوم لها وانما تحصل على ذلك من تخلل
من الدين . وای قدح فى الدين وسب له اعظم من هذا . وقد كرر هذا المعنى
مرارا كثيرة جدا وهو كفر صريح لانه قدح ظاهر فى الاديان لان مضمونه
ان الله ارصد للبشر ديناً يمنعهم عن التقدم والنهوض فى حياتهم وان الانبياء
سعوا فى هدم الحياة والى حث الناس على الانحطاط والدمار فلو تركوهم
ومواهبهم واستعداداتهم الكامنة لتقدموا . هذا مقتضى كلامه بل صريحه وقد
صادم قول الله تعالى ﴿ كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور ﴾
الآية الى غير ذلك من الآيات التى لا تحصى كما تقدم بيانها . وقد نسى هذا الملحد
ان الذين هدموا الحياة وجروا على الانسانية الويلات والانات الطويلة والدمار
الفظيع والفناء المتتابع وامانة الاخلاق العالية هم المنحرفون عن الاديان
المتحللون منها ، وقد صرح فى آخر الكتاب بمثل ما صرح به هنا حيث ذكر أن

المتدينين على اختلاف ديارهم وأزمانهم وأنبيائهم وأمر جتهم واجناسهم عجزوا عن أن يهبوا الحياة شيئا جديدا وان يكونوا فيها مخلوقات متألفة ، انتهى . فالكتب السماوية كلها ، وتعاليم الانبياء المقدسة التي سار على ضوئها الوجود كله وآراء فحول اهل الاديان كلها ، ليس بشيء فلم يهبوا الحياة ولم يصنعوا لها شيئا جديدا ، وأما أغلاله التي من أطول آياتها أو سوزها مسبته وزارة التموين المصرية حيث لم تبعه ورقا على الفور هو الشيء الذي يهب الحياة وهو الشيء الذي يكون به المخلوق متألفا ، ثم مع هذا يصرح بان ذلك كله لسادته من الملاحظة والزنادقة فقط . ونحن نتحداه ببيان شيء واحد جديد صنعه الملاحظة استقلالا بدون المتدينين وبدون شيء من مبادئهم فانه لا يمكن بحال أن يجد هذا ابدا ، كما نتحداه ان يوجد لنا ملحدا اوزنديقا أو متحلا كان في الحياة شيئا مذكورا ولم يكن في المتدينين من هو ارفع منه قدرا واطهر منه ذكرا ، ولعله لم يتحلل من دينه ويرتد بعد اسلامه الا من اجل ان يكون مثلهم فيهب الحياة شيئا جديدا ويكون فيها مخلوقا متألفا ، ولكن الله عامله بنقيض قصده

ما اقدر الله ان يحزى خلقه - ولا يصدق قوما في الذي زعموا وما هي الحياة الصحيحة التي اختص بها الملحد المتحلل دون اتباع الانبياء . بل الذي نقوله انه لا يوجد في الدنيا شيء جديد نافع سواء كان ماديا أو عليا الا وأصل ابداعه أو اولياته من المتدينين ، ولا يوجد ملحد في الحياة صار مخلوقا متألفا أبدا ولو بلغ ما بلغ ، فلا بد ان تنغص عليه حياته . قال تعالى ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾ فالحياة الطيبة انما يختص بها من عمل صالحا فقط ومن حرم من العمل الصالح فقد فقد من الحياة الطيبة بقدر حرمانه . وهذا أمر لا يشك فيه الا من في قلبه ريبة ولم يسبر الامور وينظر اليها بعين البصيرة . ثم التالقي ما هو أهور ركوب الطائرات وغيرها من سائر المركوبات المتنوعة الحادثة أو أكل المأكولات اللذيذة ونحوها فان هذا كله قد اشترك فيه المتدينون والملحدون والكلاب والخنازير

وغيرها من أكثر المخلوقات وان كان شيئا آخر فليدنه حتى نعرفه ونحبب عنه

فصل

ثم قال : « والعيب بلا ريب عندنا ليس عيب الدين ، ولكنه عيب المتدين العاجز عن التوفيق بينه وبين مطالب الحياة ،

قلت : قد أصبت في قولك منافقة ، عندنا ، حيث أضفت هذا الرأى الى نفسك ، لان العقلاء كلهم يتحاشون عن هذا الرأى ، فان عيب المتدين إنما ينشأ عن عيب دينه بلا شك ، فكل متدين بدين فلا بد أن تظهر أخلاقه عليه ، ومن عاب أخلاقه التي بها يدين فقد عاب دينه ، فان الدين ليس شيئا قائما بنفسه إنما هو أعمال واعتقادات وأقوال تقوم بالمتدين ، فن عاب المتدين لدينه فقد عاب دينه بلا شك ، وإذا قيل إنه لم يعمل بالاخلاق الدينية المطابقة لحقيقة الدين قيل هذا يحتاج أولا الى بيان ، ومتى ثبت خروجه عن العمل به كما ينبغي ثبت التفريق بين الدين والمتدين ، ولا يثبت التفريق بمجرد الاجمال والدعوى ثم اذا ثبت التفريق زال اسم المتدين المطابق لمسماه إما في الجملة وإما في الغالب ، والا فمحاولة التفريق بين القدح في المتدين ومدح الدين محاولة خداع ونفاق ، فان هذا يفضى الى سب الأديان وشتمها والقدح فيها بمجرد هذا العذر البسيط الذى لا يصبر على أحد ادعاؤه ، واحترام الأديان وتعظيمها من أعظم أركان الملة فيمنع القدح في المتدين حتى تظهر مخالفته للدين ، ثم بعد ظهورها يقدح فيه بأفعاله مقرونة بالقدح ، فلا يجوز سب المتدين بلفظ الاطلاق حتى يعرف خروجه عن ديانتة ووجه القدح فيه ، كما يمنع سب المصلى والمزكى والمتصدق والموحد والعابد والمسلم ونحو ذلك حتى يتبين مخالفته لأفعاله بيانا واضحا ، ثم بعد البيان يقدح فيه ، لا باسم الدين بل باسم فعله الذى أوجب القدح فيه . ومن اعظم الواجب ان يبين من قام بالدين الصحيح ومن قام بما يخالفه حتى يصح مدح الدين على وجه الاطلاق ويصح مدح من قام به ، أما الدين الذى

لا يدري ما هو ولا من قام به فمن أين يعلم صحته وفساده ، ومن أين علم المدعى صحة الدين وهو قد ذكر في آخر الكتاب أن البشر عاجزون عن فهم الدين الصحيح وتصوره على وجه نافع مفيد إلا فيما ندر ، فمن أين يعلم هذا النادر وهو لم يبينه ولم يشر إليه إلا في دعواه أنه ما تضمنه هذا الكتاب الذى هو الاغلال ، فكيف يدعي ويدعى أن العيب ليس عيبه اذن ، وإنما قصد بذلك الخداع ، ثم اذا كان العيب ليس بعيب الدين مع خفاء الدين على ما يدعى فما هذا الحط الشديد على أهله مع عدم تحقيق مخالفتهم له ، وهذا أمر يجب التفطن له فانه طالما كرهه وخادع به ، ثم اذا كان جميع المتدينين على اختلاف أجناسهم وديارهم وأنبيائهم وأمرجتهم وأزمانهم كلهم قد عجزوا عن أن يهبوا الحياة شيئا جديدا لأنهم عجزوا عن التوفيق بين الدين وبين مطالب الحياة فكيف لا يكون العيب عيب الدين ، اللهم إلا أن يكون دماغك الذى هو أكبر دماغ فى العالم - على مقتضى رأيك - يريد أن يوفق بين الدين وبين مطالب الحياة فى هذا الكتاب المظلم او فى هذه الاغلال المحكمة ، حينئذ يحصل لنا الرجل القادر على التوفيق بين الدين وبين مطالب الحياة كما يحصل لنا معرفة الدين الذى لا يعاب وهو ما تضمنه هذا الكتاب ، ويكون اذن ليس العيب عيب الدين بل عيب الأنبياء وأتباعهم على اختلاف أجناسهم وديارهم وأزمانهم وأمرجتهم ، لأنهم لم يقدرُوا على التوفيق بين الدين وبين مطالب الحياة ، اذ لو كانوا قادرين لو هبوا الحياة شيئا جديدا ، ولصنعوا لها العلوم المبتكرة ، ولكانوا فيها مخلوقات متألقة . ومن كان عاجزا عن هذا فانه لم يوفق بين الدين وبين مطالب الحياة ، فيكون متدينا تدينا باطلا ، لأن من لم يوفق بينهما فهو كذلك كما ادعاه غير مرة ، وهو واضح فلا حاجة الى المخادعة .

فصل

قال : « وقد أدرك هذه الحقيقة القدماء ، ويروى أن زيادا ذلك القائل »

الدهاية العربي المشهور قال : أما عبد الله بن عمر فقد قعدت به تقواه ، يعنى عن النهوض الى السيادة والمجد . وقال المتنبي يصف الرجل الذى سيكون عونه فى انتزاع الملك :

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج فى الحرم
يريد أنه غير متدين لأنه يرى المتدينين غير أهل لما يطلب ويراد منه ،
ولما قال أحد الشعراء يمدح المأمون :

أمسى امام الهدى المأمون مشغلا بالدين والناس بالدين مشاغلا
غضب وقال : « مازدت أن جعلتنى عجوزاً عاجزة عن الحياة ،

قلت : استدلاله بهذه الأمور مما يدل على رسوخه فى الغباوة وسقوط
الرأى ، ولا عجب فالمضطرب يأكل الجيف ، وإلا فلو كان له أدنى مسكة من
عقل وحياء لم يسجل على نفسه هذه الفضائح المخزية مع أنها حجة عليه . وليس
فى هذه الأقوال على سذاجتها ما يدل على أن الذين صنعوا الحياة هم المتحللون
من الأديان حتى تكون مطابقة لقوله ، وقد أدرك هذه الحقيقة القدماء ، فليس
هولاء هم القدماء مع أنه ادعى أن القدماء رجعيون لا يؤخذ بأقوالهم . أما
ما ذكره عن زياد فادنى رجل من عقلاء المسلمين يعلم أن ابن عمر أشرف
وأجل وأعظم من زياد ديناً وعقلاً ورأياً ، بل لا نسبة بينهما فى الفضيلة
والشرف ، هذا لو قدر أن زياداً هذا الظالم المعروف بالظلم انتقد على ابن عمر
وسيرة زياد هذا وظلمه لا يخفى على من له أدنى خبرة بأيام الناس ، وكم لزياد
هذا من الأقوال والأفعال ما يعاند رأى هذا الملحد ، ولكنه لم يعشق من
قوله إلا هذه الكلمة ، وهى - لو صحت - فليس له فيها حجة بوجه من الوجوه
فإن قوله « أما عبد الله بن عمر فقد قعدت به تقواه » فهذا مدح له لا ذم ، فانه
ليس فيه أنه قعدت به تقواه عن السيادة والمجد والقيام بما يجب كما زعم هذا
الضال ، ولا فيه ما يشير الى هذا ، وزياد أعقل من أن يقدح فى ابن عمر وهو
يعرف حالته وحالة ابن عمر عند الناس ، وليس ابن عمر بعدو له حتى يتكلم

فيه بما يشينه ، فليس هناك باعث لا من عصبية ولا دين ، وإنما أراد بهذه الكلمة - إن كان قائلها - أن تقواه فعدت به عن الدخول في الفتنة وسفك الدماء وطلب ما لا طائل تحته ولا فائدة فيه ويستبعد حصوله ، فإن التقوى هي التي تقعد عن هذا ، لا تقعد به عن طلب السيادة والمجد المشروع ، بل هي تبعث على ذلك ، فمن أين لهذا الزائع أن زيادا نوى هذا الذي ادعاه ، ومعلوم أن ليس في ظاهر كلامه ما يشير إليه ألبته ، وليس له أن يحرف كلام زياد ويؤوله على رأيه فيقول ما لم يقل ويظلم ابن عمر بضعف الهمة ويجزم بذلك بدون تردد ، بل يجعله حجة يحتج بها ، فإن ما ذكرنا هو المعقول من حالة ابن عمر ، فإنه لم يكن مع على في تلك الحروب ولا مع معاوية ، بل اعتزل هذا وهذا ، فإن هذه الحرب حرب فتنة لم يحصل للمسلمين منها طائل ، ولهذا لم يدخل فيها كثير من رؤساء الصحابة وبكل حال فلا حجة له في كلام زياد هذا بل هو حجة عليه ، وقد كان زياد هذا معروفا بقتل الزنادقة والملاحدة فهلا احتج بما فعله في ذلك كسائر أفعاله .

وأما استدلاله بقول المتنبي فن أغرب الاستدلال أيضا ، والعجب أنه استحسّن هذا القول الخبيث المنكر حيث كان ملائما لطبيعته الخبيثة :

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج في الحرم
وجعل هذا القول دليلا على ضعف رجال الدين وضعف همّهم ، ونسي هذا الملحد أنه قال في كتابه (الفصل الحاسم) ص ٨٠ في اعتراضه على الدجوى لما استدل بقول المتنبي ، فقال هذا الملحد ما نصه « ولا يحتاج بكلام المتنبي على إيمانه إلا من يصدّقه في ادعائه أنه رسول الله ، وإلا فأي إنسان يستدل بقول شاعر فاسق متهور متناقض على عقيدته ، اعتبروا ياقوم وانصفونا ، هذا يكفرنا إذا احتججنا بكتساب الله وبكلام رسوله على أن لا يدعى إلا الله ، وهو يحتاج بشعر رجل يتصلصل الأحاد والفسوق في شعره تخلصا ، يكفرنا إذا آمنّا برّبنا واحتججنا به على صفاته ، وهو يستدل بكلام الشعراء ، اللهم

اهد قومي قانهم لا يعلمون ، ولماذا يحتج بقوله هذا ولا يحتج بقوله :
من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إسلام ،
انتهى كلامه بحروفه . فنحن نخنقه بغله الذي صنعه يده ، ونقول له كما
قال لعدوه :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إسلام
ومع هذا فالبيت الذي استشهد به لا حجة له فيه ، والمتنبى لم يرد ما ادعاه
هذا الملحد من أنه يمدح هذا الشيخ بل هو ذم له في التحقيق لا مدح له ، ومن
أين له أنه يريد مدحه ، فلو فرض أنه يريد عونا له على انتزاع الملك كما يدعى
قبو لم يظفر بذلك وقد يحتاج الانسان الى اعانة الفاجر كما يحتاج الى اعانة
الكلب ونحوه على بعض شئونه ، فليس في بيته مدح أو شرف ، ثم قوله « لانه
يرى أن المتدين غير أهل لما يطلب ويراد منه » يقال : ان كان يرى هذا فهو
يرى أنه غير أهل لما يطلب منه من الاعانة على الفجور والمنكر والظلم والنفاق
والقيادة ونحو ذلك ^(١) فهذا أولى ما يحمل عليه كلامه لانه مدح أناسا كثيرين
من الملوك والأمراء وأثنى عليهم بالدين وأنهم أهل للملك بذلك ، فاما أن
يجمع بين كلامه كما ذكرنا ولا يكون متناقضا فيسقط ويكون لا حجة له فيه
على كل تقدير ، والعجب أنه حمل قول المتنبى على هذا الرأي الذي اخترعه على
هواه ، ثم فرّغ عليه فجعل هذا الرأي الذي رآه المتنبى أعظم من رأى الصجاجة
وأئمة المسلمين الذين اختاروا أبا بكر وعمر وعثمان واعتمدوا في ذلك على
فضائلهم الدينية ، وتبعهم الأئمة على ذلك فقرروا أنه يجب تولية الأئمة فالأئمة
في الدين وجعلوا الدين من أركان الولاية ، وأن الكافر لا صحة لولايته ، فلو
كان عدم التدين هو المطلوب للرأسه وأن المتدينين غير أهل لما يطلب ويراد

(١) وهو هنا إنما أراد أن يكون عونا له على نقض العهد وسفك الدماء وإثارة
الفتنة ، وهذا ليس بمدح على التحقيق إلا عند الزنديق .

منهم في القيام بالأمور الهامة لكان اعظم من وقع في هذا الغلط ثم الصلابة والقرون المفضلة ، وكلامه يتضمن القدح في الأمة بلا شك اذا استعملت به وتقريره عليه ظاهر في ذلك . ثم ان في شعر الخنزي في الايات الكثيرة السبيرة التي يطول ذكرها في مدح الملوك والأمراء وغيرهم على فعل الطاعات والقيام بالدين مالا يخفى على عارف ، وكل ذلك لم يملأ نفسه وانما ملاءها هذا البيت الخبيث الساقط المذمت ، فلماذا أخذه وحفظه وكتبه وتمسك به واحتج به وعرض عليه بالنواجذ ، وهذا هو اللائق بمن انسلخ من آيات الله وأخذ الى الارض وتابع هواه

وأما احتجاجه بمعارضة المأمون لذلك الشاعر فما استلذه من استدلال ، فهو لو صح فلا دليل فيه كما هو ظاهر ، فان المأمون إنما انكر وصفه بالاقتطاع في العبادة لكونه خليفة واضاعة امور الناس . لأن النظر في امور الناس بمن هو مثل المأمون او دونه محتم فيكون تركه تقيصة لا يجوز المدخ عليها ، وهو لم ينتقده إلا في وصفه بالاقتطاع ، لا بالعبادة في الجملة ، بدليل صريح انكاره ولا شك ان الواجب فعل الطاعات المفروضة وما يتبعها والقيام بما يجب من امور الناس حسب الطاقة وما سوى ذلك فمستحب ومباح فأى حجة في هذا ، ولو انه احتج بأفعال المأمون واقواله المتكررة الخبيثة الشنيعة في تعذيب الأئمة والقول بخلق القرآن وانكار العلو والرؤية وتحريفه لصفات رب العالمين لكان من جنس احتجاجه بهذا ، والحمد لله إنه لم يجد ما يحتج به على الخادة وترويح دعايته وتنقيصه للعقديين الا بمثل هذه الاقاويل السخيفة التي لا تليق الا بالعقول الضعيفة ، وإنما ناقشناه هنا بهذه المناقشة الطويلة لأن هذه هي أكبر البراهين عنده في احتجاجه على الطعن في اهل الدين ، فانه هو غاية ما قدر عليه

فصل

ثم قال : فطبيعة المتدين : غالباً - طبيعة فائرة فاقدة للحرارة المولدة للحركة

المولدة للابداع ، ومن ثمة فانك غير واجد اعجز ولا اوهم من هؤلاء الذين
يربطون مصيرهم بالجمعيات الدينية ،

قلت : هذه دعوى مجردة من عدو على عدوه ، فتقابل بالرد على من
قالها ، بل تعكس عليه عكسا صحيحا ، لأن ذلك هو الحق بلا شك ، فان طبيعة
الملحد طبيعة جامدة فاقدة لحرارة الايمان المولدة للحركة الصحيحة المولدة
للاتنتاج الناجح المفيد ، ولهذا فانه لا يوجد أكسل ولا اعجز ولا اوهم ممن
وقض دينه واتبع هواه ، وهذا أمر قد عرف بالحس والاستقراء لا بمجرد
التخرص والمجازفة والدعوى ، ويكفي دليلا على هذا انك لا تجد ادين ولا اتقى
من الصحابة رضي الله تعالى عنهم واهل القرون المفضلة ، ومع ذلك فلا تجد
اقوى حركة ونشاطا ولا ادم صبرا ولا اثبت قلوبا منهم ، وقد كانت نتائج
حركاتهم اعظم النتائج واحمدها واصلاحها وادومها ، ولقد قضوا حياتهم او
اكثرها في الغزوات النافعة الشديدة والسديدة واصلاح شئون البشرية حتى
دخل الناس في دين الله افواجا ووجدوا عز الحياة وراحة اليقين والطمانينة
بعد ان ذاقوا من ويلات الكفر وعدم الدين والفوضى ما لا حديث له ، ولما
ضعفت الديانة فيمن جاء بعدهم ضعفت الحركة والحرارة فيهم بقدر ضعف
الديانة ، فكانت القوة والحرارة دائرة مع الدين ، وهكذا كانت الحالة في كل
من كان اشد صلابة في دينه في كل القرون ، فانه يكون اشد حرارة واحسن
آثارا ، فكل من كان اشد تمسكا بما كان عليه اهل القرون المفضلة كان اشد قوة
وصلابة في كل شئونه واعماله ، وقد كان معروفا لدى الخاصة والعامة انه بعد
القرون المفضلة لم يكن اشد صلابة في دينهم في القرون الوسطى من امثال
السلطان محمود بن زنكي الشهيد وصلاح الدين الأيوبي والسلطان محمود بن
سبكتكين واولاده وقد عرف قوة شكيمة هؤلاء وحركاتهم ونتائجها ، بخلاف
آل بويه والفاطميين العبيديين وامثالهم من البعداء عن الدين فقد عرف ضعف
حركاتهم وفساد نتائجها ، فقد اصيب المسلمون في زمانهم بالضعف الشديد

لبعدهم عن الدين ، وقد هرف واستفاض لدى العالم ما أبدته الدولة السعودية من البسالة النادرة والشجاعة المدهشة في حركاتها كلها من أول ظهورها الى هذا الوقت حتى ظهر لها من النتائج الحسنة في العالم ما لا ينكره إلا مكابر ، هذا مع قتلها وقلة ما لديها من العدة والعدد سوى دافع الدين الصحيح والايان القوي المتين . او ما علم هذا الاحق انه بهذا الكلام قد صرح بثلب حكومته التي ينسب نفسه اليها كما سب سائر المسلمين ، وكل عارف بحال هذا الزائع يعلم انه من اول عمره الى آخره إنما يعيش ويتمتع بما ناله من حركة المتدينين في مدخله ومخرجه وما كله ومشربه وملبسه وكل شئونه بانسابه الى المتدينين . ولا يخفى على كثير من الناس ما ابداه من شدة المنافقة والخداع والتملق الزائد اولا وآخرا في استحصال ما يستمده من عندهم ، فلما حصل له شئ من هذه النعمة كفر بها وقابلها بالجحود والتمرد ، وقد قيل في الحكمة : ابت النفس الخبيثة ان تخرج من الدنيا إلا وقد اساءت الى من احسن اليها . وبالجمل فادنى عاقل يعلم ان طبيعة المتدين الذي تدفعه حرارة الايمان بالله واليوم الآخر وحب الله وطلب رضاه وما يري جوه من النعيم الاخروي ويخشاه من العذاب الاخروي اعظم من حرارة من لا يدفعه الى عمله غير شهوات بطنه وفرجه وامثال ذلك من الامور التافهة الضئيلة التي حاصلها تمتع كتمتع الوحوش او الانعام ، ولهذا تجد هؤلاء في حركاتهم ومقاصدهم كالوحوش في معاملاتهم مع غيرهم ، وكالانعام في شهواتهم النفسانية ، فلا تعدوا ان تكون حركاتهم لمصالحهم الخاصة فقط

ثم قال : « ونرجع فكرر مرة أخرى أن الدين نفسه لا ذنب له ، ولكن الذنب ذنب النفس البشرية التي لم تستطع أن توجد التعادل بين الكفتين والتوفيق بين الروحين : روح الدين ، وروح العمل للحياة . وسيكون عملنا هو محاولة التوفيق » انتهى

قلت : هذه هي سيجته دائما في المراوغة المنكرة ، فهو كما قال فيه الاستاذ

السيد قطب : هذا رجل يناقش يريد أن يطمئن الطعنة في صميم الدين خاصة ، ثم يتوارى ويتحصن في الدين وينكر ما قد يفهمه القارىء من بعض النصوص ومن روح الكتاب كله وراء النصوص ، انتهى . وقد صدق فإن عمله هذا عمل من يريد أن يظهر شيئا فيمنعه مقصد آخر ، فهو تارة يصرح به وتارة يأتى بما يظن أنه يعنى مراده . وقد علمت من كلامه هذا أنه ادعى أن كتابه هذا هو التوفيق بين روح الدين وروح العمل ، وأنه قدر على ما لم يقدر عليه أحد غيره ، لأنه قرر أن الابداع وصنع الحياة إنما يقدر عليه من وفق بين روح الدين وروح العمل ، وقد ذكر أن المتدينين على اختلاف اجناسهم وديارهم وأنبيائهم وأزمنتهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ، فعلى هذا فهم لم يقدرُوا على التوفيق بين الروحين ، والافلو قدروا لوهبوا الحياة شيئا جديدا ، فهذا الرجل قدر على ما لم يقدرُوا عليه كلهم ، مع أنه ادعى فيما سبق قريبا أن الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها العلوم والاساليب المبتكرة هم من أولئك الموصوفين بالانحراف عن الدين وبالتجلل منه ، فيكون التوفيق الذى حاوله فى هذا الكتاب هو الانحراف عن الدين والتجلل منه ، وهذا التحلل والانحراف هو التوفيق بين روح الدين وروح العمل للحياة ، فقد صرح بالكفر الظاهر ، وان كتابه كفر صريح لان مضمونه - بمقتضى كلامه المتناقض المتعاكس - هو الانحراف عن الدين والتجلل منه ، بل هو الواقع الذى لا شك فيه

فصل

ثم قال : « وان مما يؤلم ويتعجب منه حقا أن هذا الانهيار الشامل لم يكن وقفا على الشعوب الاسلامية فحسب ، بل شملها وشمل الشعوب المؤلفة من المسلمين وغير المسلمين »

فيقال : وهذا ايضا حجة عليك ، فانه دليل على أن ضعف المسلمين لا بسبب دينهم الذى صنعت هذه الاغلال لرفضه ، فأننا نرى كثيرا من هذه

الشعوب اللادينية والوثنية المحضة قد اجتاحتها هذا الضعف والاندحار ، بل هو فيها أعظم من الشعوب المتدينة بالاسلام ، فلو كانت طبيعة المثلدين كما تزعم طبيعة فاترة ، وأن المنحرف عن الدين المتخلل منه هو المستطيع لصنع الحياة ، لوجدت الحضارة والمدنية في الشعوب الملتحدة العريقة في الاتحاد والوثنية المحضة (١) ، فلما كان الانحطاط في هذه الشعوب الملتحدة ملازما لها سائرا معها الى اليوم علم أن الانحراف والاتحاد الذي تدعيه وتدعو اليه ضرر محض وتأخر ظاهر . ثم أخذ يعيد ما تقدم بأن أمريكا وأوربا تقدمت علينا بصناعاتها وتجارتها وغيرها ، وقد سبق الكلام على هذا قريبا فراجعه .

ثم قال : « أن المطابع تخرج لكبار الكتاب واصغارهم كل عام ما يصعب عدّه من الاسفار المؤلفة في الآداب ونحوها ، ولكن أى كتاب أخرجته في هذه القضية بل أى كاتب فكر فيها ، (٢) »

قلت : قد أخرجت المطابع كثيرا من الكتب المتنوعة كل عام في هذه القضية مما لا يعد ولا يحصى ، ومن تتبع الكتب الدينية والادبية والتاريخية وغيرها من المجلات والجرائد علم ذلك يقينا ، وهذا تفسير المنار والوحي المحمدى وأم القرى وغير ذلك من الكتب القديمة والحديثة مما يصعب حصره كل ذلك كما تقدم ، ولكن لما كانت هذه الكتب كلها على خلاف ما تريده عميت عنها ونسيتها وأبصرت وحفظت كتاب الملحد جستاف لوبون المسمى (الآراء والمعتقدات) فانه لما كان هذا الكتاب يوافق رأيك ومزاجك ومعتقدك - وكتابك هذا كله على حنوه في الحادة - حفظته وجعلت مؤلفه فيلسوفا عظيما ، ونقلت منه هذه الجملة الخبيثة التي هي « ان الايمان بالله وحده

(١) كشعوب جنوب أفريقيا وغيرها

(٢) هذا يناقض ما ادعاه في نبذته . كيف ذل المسلمون ، من أن هذه القضية كتب فيها كثيرون

كان نكبة على البشر ، وجعلتها هي روح كتابك كله ، وقولك : أى كاتب فكر فيها ، فنقول لك أما على تفكيرك فنعم ، فمن هو الذى أوقى مثل ما أوتيته من عظمة العقل وكبر الدماغ والاختيال والغطرسة ، فلقد جمعت المتدينين على اختلاف ديارهم وأجناسهم وأزمانهم وأنبيائهم وأمزجتهم فى صعيد واحد وجعلتهم كلهم من أولهم الى آخرهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ولم يكونوا فيها مخلوقات متألفة لأنهم لم يستطيعوا ان يوفقوا بين روح الدين والعمل ، وأنت وحدك استطعت ذلك فأودعته فى هذه الاغلال وادعيت أن ما فيها حقائق ازلية أبدية لا تأخذ بها أمة إلا نهضت ولا تتركها أمة الا هوت ولن يستغنى عنها مسلم واحد بين الاربعمائة المليون المسلم ، فمن هو الذى يفكر هذا التفكير الواسع ، وأين الدماغ الذى يحمله . فتياً لك ما أسخف عقلك ، وهذه سنة الله فيمن رفض دينه ولم يرد إلا الحياة الدنيا أن يكون هذا مبلغه من العلم ثم ذكر أن الشعوب اذا مرضت أمراضا اجتماعية ضعف شعورها ، وهذا لا حجة له فيه ، لأن كلامنا معه فى هذه الامراض وعللها لا فى وقوعها ، فهو يريد أن يحمل أسبابها أخلاق الدين ، ونحن نحقق أن أسبابها البعد عن الدين أو التطرف فيه

ثم استطرد بأن الناس قد ألفوا ما هم فيه من الاستعباد ولم ينهضوا ولم يفكروا فى النهوض ، وأنهم فى أسوأ حالة ، وهذا لا نزاع فيه فى الجملة ، ولكن لا علاقة له بالاستهزاء بالمتدينين والخط عليهم والسخرية بهم وأن الدين آلة ضعف ، وهذا هو أعظم ما تنازعه فيه ، وكلامه كله يدور على أن الدين هو الذى أضعف المسلمين ، ونحن نقول : بل عدم الدين والتقصير فيه هو السبب المتأخر ، والبرهان على هذا إجمالا أمران :

أحدهما الواقع المشاهد ، فان المسلمين منذ عهد القرون المفضلة لما كانوا متمسكين بالدين على وجه الصحيح كانوا فى أعظم عز وأرقى أمة ، وكلما بعدوا عن التمسك بعدوا عن العز والتقدم بمقدار بعدهم عن التمسك ، وهذا ظاهر

والأمر الثاني النصوص الصحيحة الكثيرة التي لا تخص في الدلالة على وجوب الاعتصام بالدين والتمسك به، وأن النجاح والتقيد والعزم المستمر الصحيح الطيب معلق به، فمن تمسك به فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وقد قدمنا الشواهد من النصوص على ذلك في أول هذا الكتاب، فتأخرهم ليس إلا نتائج تأخرهم عن التمسك به وعدم الأخذ الصحيح به والمحافظة عليه والتعظيم له، وما دخل على الناس هذا الدل إلا لما أدخلوا في أصوله ما أدخلوه من البدع المعروفة واتبعوا أهواءهم وانقادوا لشهواتهم وقطعوا أوقاتهم في مواضع اللعب والملاهي وتصنيف المقالات التافهة التي لا نفع فيها، وتهالكوا على الدنيا ومحبتها حتى لا تكاد تجدد إلا من شاء الله من يوثق به في النصيح بالقيام بعله ووظيفته، والأغلب إنما يتبع مصالح نفسه الخاصة، وكل ذلك ناشئ عن ضعف الأخذ بالدين الذي أساسه قوة الإيمان وصحته، فما ذكره حجة عليه إلا له. والله اعلم

فصل

قال: «أما أنا - وقد يكون هذا لسوء حظي^(١) - فلقد فكرت في هذه المسألة تفكيراً شاقاً مفضنياً، وما زلت منذ ست سنوات ورأى يلتهب بالتفكير فيها التهاباً، مقلبا لها على كل الوجوه، محاولاً إنضاجها في معمل الفكر، ومما فتنت كل هذه الأعوام أنير مع الأصدقاء ومن يظن بهم الفهم والعلم حولها المعارك الكلامية والحروب الجدلية بغية الإحاطة بها من كل أطرافها والالمام بأسبابها، حتى لقد ظننت بها شبه مريض أشقى إذا تحدثت فيها، وأمراض إذا سكنت عنها. وقد اجتهدت أن أدرس القضية درسا دقيقا من كل وجوها واحتمالاتها فدرستها في الكشف التي ظننتها مصدر الداء، ودرستها في التاريخ

(١) ما في ذلك شك

الخاص والعام ، ودرستها وهذا ابلغ الدرس - في نفوس المسلمين : في نفوس
الخاصة والعامة ، المتعلمين والجاهلين ، الآخذين معارفهم عن الشرق أو الغرب .
قلت : ذكر هنا سبب تأليفه لهذه الاغلال والله اعلم بحقيقة الحال ، ولسنا
بصدد التعرض للبحث عن صدقه في هذا أو كذبه ، ولكن الذي لا شك
فيه أن له قصداً سيئاً في تأليفه ، فثله لا يحل ما تضمنه من صرائح التكفر
المخالف للأديان السماوية كلها ، ولا شك أن تأليفه لهذه الآراء من سوء حظه
دينا ودينا ، وقضية المسلمين لم تهمل - كما زعم - والله الحمد ، وسبب تأخيرهم
ليس هو ما ذكره ، بل السبب الوحيد لذلك هو تقصيرهم في التمسك بأصل
دينهم واعتمادهم والرجوع اليه ، ثم في الاخذ بالأسباب المادية النافعة والاستعداد
التام للعدو ، ثم في تفرقهم شيعا بسبب المحاماة للمذاهب والتعصب للأنساب
حتى نتج عن هذين السببين تلك الحروب والثورات المتتابعة بينهم ، فصار
بعضهم يكفر بعضا ويشتم بعضهم بعضا ، فاشتغل بعضهم بالايقاع ببعض
الآخر والكيد له . هذا هو السبب الذي لا شك فيه ، فن يحمل عهدة التأخر
على التمسك بالدين فهو مصاب في دينه وعقله ، وقد علم بلا شك أن تقدم
المسلمين في القرون الأولى إنما هو بالتمسك بالدين ، ولذلك كانوا بسبب تمسكهم
أعز دولة على وجه الأرض ولم يتغير عزمهم وتقدمهم حتى غيروا أصل دينهم
بتحريف الصفات وعبادة المخلوقات ، ونحو ذلك . ومعلوم أن انتاجهم
ولابداعهم في الأسباب المادية في تلك القرون بالنسبة الى غيرهم من دول الحضارة
لا يعد شيئا مذكورا ، وإنما نالوا ذلك كله بقوة الدين والتمسك به والسير على
مقتضى الأوامر السماوية ، وهذا هو الانتاج المعنوي الصحيح النافع ، والأسباب
المادية فرع عنه فهي تابعة له ، ولو أن هذا المختال الفخور درس هذه القضية
وعلمها في الكتاب العزيز والسنة المطهرة لوجد ذلك ولوجد حقيقة الأسباب
يقينا لا شك فيه ، ولا حاجة الى هذا الضجيج والتعب والنصب واللجاجة
والخصومة ، قال تعالى ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان

في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴿ فلا أيبين ولا أكبر ولا أعظم من قوله جل من قائل ﴾ ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيمة أعمى ، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك اتتك آياتنا فسيتها ، وكذلك اليوم تنسى ﴾ وقال تعالى ﴿ يا بنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ وقال تعالى ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام « انى تارك فيكم ما ان تمسكنم به لن تضلوا كتاب الله ، وقال عليه الصلاة والسلام « تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدى الالهالك ، والآيات والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة جدا . ولكنه لم ير هذه الطريق الصحيحة شيئا كبيرا نافعا يكتفى به ، بل فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر ، فلم تملأ نفسه هذه المراجع الكبيرة العظيمة فاستصغرها واحقرها وشمخ بانفه عنها ، وذهب يلتمس العلل فى غيرها - كما زعم - فباء بالخيبة والعللة القاتلة بأن اخسله الى الارض واتبع بهواه ، فلذلك اصاب بما أصيب به أمثاله من المنسلخين ، فكانت طريقته فى هذا الكتاب اللث على الدنيا بشدة غريبة ، وجشع ماله من نظير فى الحق على أسبابها واكتسابها من جميع الطرق المتباينة ، ونهذ ما يخالف ذلك من ديانة وقناعة ، وهذا ظاهر على حاله عند كل من عرفه وعرف مقاله

فصل

ثم ذكر أنه قد خيل اليه أن قد صدر فى هذه الدراسة عن نتيجة طيبة كاملة فقال « وقد خيل إلى أنى قد صدرت فى هذه الدراسة والبحث عن نتيجة طيبة كاملة بل نتيجة صحيحة لا شك فيها عندي ، فبحثت أعرضها هنا عرض مؤمن

بها وأجملها تسجيل مؤمن بما سجل ،

فيقال : كلا بل صدرت عن نتيجة خبيثة مششومة ، وداء عضال لا شفاء منه ، فلا شك في بطلان ما ذكرته وبطلته عند كل عاقل يميز الحق من الباطل ، فان هذه الجرائم الخبيثة التي قذفها في هذا الكتاب هي من المواد القذرة التي شربتها من آراء الزنادقة وخبيثاء الملاحدة ، وخلق بمن صدر عن هذه الموارد القذرة ملوؤا قلبه من عسارتها أن يقذف هذا الوباء الخبيث . وكونها صحيحة عندك وأنتك مؤمن بها لا يدل على صحتها في نفسها ، فكل حيوان يستطيع ريقه وان كان خبيثا ، وقد قال تعالى في المنافقين ﴿ ويحسبون أنهم على شيء ، ألا أنهم هم الكاذبون . استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، أولئك حزب الشيطان ألا ان حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ ثم ذكر أن التفاوت الذي بيننا وبين الغربيين في التقدم ليس سببه تفاوتنا في أصل الخلقة أو صدقة من الصدق وإنما سببه أنهم فهموا الحياة وسنن الوجود وما بين الأسباب والمسببات من الارتباط ، ونحن جهلنا ذلك ، يعني أنهم علموا قوانين الطبيعة ونواميسها ، ونحن لم نعلم ذلك كما ذكر في المواضع الأخرى الآتية ، فعلمهم بذلك هو الذي قدمهم ، وجهلنا به هو الذي أخرنا . وهذا الذي ادعاه غير مسلم على إطلاقه ، فليس هذا هو السبب ، بل فيه مؤاخذات ومناقشات يأتي الكلام فيها ، ثم انه ضرب مثلا أهوج يثبت به ما ادعاه في الفرق بيننا وبينهم ، لأنهم تقدموا بفهم قوانين الطبيعة ونحن تأخرنا حيث جهلنا ذلك فقال :

« شعبان هبطا هذا الكوكب الارضى الواسع الارجاع الكثير الاخطار ، أحدهما فكر في نواميس هذا الكوكب الذي هبطه وفي قوانينه ونظمه وفي نواميس أهله وقوانينهم ونظمهم تفكير فاحص ، فاهتدى الى كل شيء بما يتصل بذلك ، فسارت تحت ضهان معرفته في قوة لا يكبو ولا يضل ، فاستغل واستغل وثبت أقدامه وقواعده على العلم والغرفان . وشعب آخر هبط غريبا في هذا الكوكب جاهلا نوااميسه وقوانينه ونواميس من فيه وما فيه وقوانينه ، بل

جاهلا نواميس نفسه ونواميس وجوده فلم يدرك كيف يدع ولا كيف يسير
ويتهجه ، ولم يعرف ما يقوده الى النجاح والفوز ولا ما يؤدي به الى الفشل
والدمار . هذان شعبان ، فاذا عسى ان تكون النتيجة لاجتماعهما ، ليس هناك
أدنى ريب في أن الغلبة ستكون للعلم والعرفان ، وقد كان حقاً وليس هناك أقل
تردد في هزيمة الجاهل اذا ما اصطدم بالعالم وقد حقت بلا صعوبة ، انتهى
قلت : هذا المثل الذي ذكره غير مطابق لما ادّعاه وقصده ، ومع عدم
مطابقته فهو فاسد في معناه ، فانه مبني على مقدمات كلها باطلة أحدها أن جنس
بني آدم من عنصرين اثنين مختلفين في النظر والتفكير ، ولا ندري كيف جعلهم
شعبين ولم يجعلهم أكثر من ذلك مع كثرة الشيع وتباين النحل ومع اختلاف
الالسن والألوان والأفكار وغير ذلك ، اذا كان يرى أن التقسيم من أجل
اختلاف النظر والتفكير ، ومعلوم تفاوت الناس في ذلك ، ولا شك ان هذه
المقدمة باطلة فان الانسان من حيث النظر العام جنس واحد في عنصره
وكفاءته وفيما يطلب منه كما دلت عليه الشرائع والعقول ، ومبني أيضاً على أنهما
هبطا موكولين الى عقولهما ومعرفتهما في جميع ما يسيران عليه ويعملانه ،
فليس لهذا الكوكب مالك يدبره وينظر من يهبط فيه وماذا يصنع فيه ، وأيضاً
فليس هناك عناية غيبية تلاحظهما وتتصرف فيهما على مقتضى ناموس العدل
والرحمة والحكمة فتجازي كل عامل على قدر عمله من دقيق وجليل ، ومبني على
أن ليس فيهما أو في أحدهما من يحمل رسالة من رب هذا الكوكب تتضمن
هذه الرسالة نظاماً عيشان عليه ويسيران على ضوئه : من تمسك به نجا وتحصل
على الغاية النافعة ، ومن رفضه تلف لا محالة ، فهو مبني على هذه المقدمات
الباطلة كما رأيت . أما فساد معناه فظاهر ، فقلوله أحدهما فكر في نواميس هذا
الكوكب الى قوله فساد تحت ضمان معرفته في قوة لا يكبو ولا يضل ، فهذا
قول ساقط بالمرّة ، فمن هو الشعب الذي هبط منذ هبط الى اليوم فسار في قوة
لا يكبو ولا يضل ، ان هذا لا يوجد ولم يوجد في شعوب الارض كلها . ثم

قوله وشعب آخر هبط غريبا في هذا الكوكب جاهلا نواميسه وقوانينه الى آخره قول كالذي قبله في السقوط ، فكيف يكون هذا الشعب غريبا دون الآخر فانه جعله غريبا ولم يذكر في الاول انه غريب ، مع انه قال اول الخلقة شعبان هبطا هذا الكوكب ، فلا ندري لم اختص الثاني بالغربة دون الاول وهما هبطا جميعا ، ثم انه لم يذكر اسبابا لعدم معرفة الثاني لنواميس هبطا الكوكب وقوانينه مع أن في امكانه التفكير الذي هو السبب لمعرفة الشعب الآخر ، فلو كان التفكير وحده كافيا - كما يدعى - في الشعب الاول لكان الثاني مثله أيضا لانهما سواء في الخلقة والاصل والعنصر والمواهب والاستعدادات الكامنة ، وكل ما يمكن أن يقال من الموانع في الثاني يمكن تجويز وجوده في الاول لضرورة التساوي من كل وجه وعدم وجود المرحح الخارجي ، فما هو السبب الذي عاق الشعب الثاني عن التفكير ومعلوم أن طبيعة التفكير موجودة في الآخر على حد سواء لانه قرر أنه ليس هناك تفاوت في أصل الخلقة فهما سواء من كل وجه حين هبطا ، فهو لم يذكر سببا أوليا خارجيا ولا داخليا معقولا لوجود التراجع ، فالمثل الذي ضربه ساقط لا يعتد به لانه غير قائم على تفكير صحيح فلم يطابق لما ادعاه في دعواه الفاسدة ، فهو فاسد مبني على ما هو أفسد منه ، فانه كله يرمى الى حقيقة الاتحاد كما لا يخفى

فصل

ونحن نذكر مثلا صحيحا مطابقا لما ندعیه مقابلا لمثله الباطل في بيان حالة الناس وأسبابهم ، وما ينتج عن ذلك من التقدم والتأخر في الأمم والشعوب فنقول : شعب هبط غريبا في جزيرة كبيرة متحدة ولا بد له من المسكن فيها وقتا محدودا ثم يعبر متزوذا منها الى بلاده ومقره . وصل هذا الشعب الى هذه الجزيرة العجيبة فرأى فيها من الحيوانات المختلفة والنباتات المتنوعة والمعادن المتباينة والألوان والطعوم والزواجر المختلفة ما لا يعد ولا يحصى ، وفيها من

الاشباح والخيالات والحقائق والأوهام والمظاهر الالامعة والسموم الضيائية
والقاتله والأدوية الشافية الطيبة والملاذات والافراح والهموم والغموم والآلام
والمصائب مالا يمكن حصره . ومن المعلوم أن الغريب اذا وصل الى مثل هذه
الجزيرة ورأى هذه الأمور المدهشة فلا بد له من أحد أمرين في معرفة تمييز
هذه الأشياء وتناولها نفعاً وضرراً ، إما التجربة ، وإما السير على مقتضى علم
خارجي صادر عن وحى صحيح من عالم بها وبما فيها ، لأن هذه الأشياء الموجودة
الكثيرة المتنوعة لا بد لها من مالك وفاعل لها بالبداهة . أما التجربة فالاعتماد
عليها لا يكفي في كل شيء ولو تكررت ، لأنها خطيرة ، اذ ليس كل شيء يمكن
تجربته من كل وجه كالسم ، ثم التجارب كلها - ولو تكررت - ترجع الى حكم
العقل والتفكير ، ومن المعلوم الواقع أن العقول والآفكار تختلف اختلافاً
كثيراً كبيراً لا ينضبط ، وهذا الاختلاف لا يزال مستمرّاً في كل نواحيه ،
وجميع الحروب والفوضى ما هي الا نتائج أخطاء العقول المختلفة ، فلو كانت
التجارب المتكررة كافية لم يوجد هذا الاختلاف الواسع النطاق ، ولو اعتمد
الناس على عقولهم وتفكيرهم لوقعوا في الفوضى التي لا ضابط لها ، وذلك هو
سبب الهلاك ، وكل فساد حدث في الدنيا من أولها الى آخرها إنما جاء من
الاعتماد على العقل المخالف للعدل الذي جاءت به الشرائع السماوية . ومن المعلوم
الذي لا ريب فيه أن التجارب لم تزل على كثرة تطورها وتقلبها مستمرة فما
كانت على طول هذه الأزمنة السحيقة عاصمة للناس عن الوقوع في الأخطاء
والأغلاط التي نتج عنها الخراب والدمار والفوضى والفساد الشامل في كثير
من الاحيان ، وكما هو مشاهد الآن

الامر الثاني الذي لا بد منه لهذا الشعب هو ألا هلك كله لا محالة - هو العلم
المبنى على الايمان الخارجي الصادق ، فهذا قد حصل لهذا الشعب على أكمل
الوجوه الممكنة ، فقد أعطى رسالة صادقة من مالك هذه الجزيرة الحكيم
الخبير بها المتصرف فيها المحيط علماً بما فيها ، وهي مطابقة للعقل الصحيح لا

للعقول كلها ، لتكون مرجعا لحل الخلاف الناشئ عن اختلاف العقول الناقصة المتباينة ، وفي هذه الرسالة من القواعد والاصول الكلية والنظام الباهر بيان ما ينفع وما يضر ، وما هو خيال وأوهام وما هو حقيقة وصدق ، وفيها من التحذير عن تناول بعض الأشياء الجميل منظرها القبيح مخبرها ، وفيها عكس ذلك . وفيها ايضا الحث على أشياء جميل منظرها ومخبرها ، وقد تكررت فيها الوصاية بالتمسك بها والاعتصام بها بتأكيدات صارمة ، وعلق الفلاح والفوز على العمل بما فيها ، وعلقت الخسارة والهلاك على التفريط فيها وتركها ، وقد جرب العمل بهذه الرسالة مع صدقها فوجدت في غاية الصحة والنفع ، فانفرد برهان التجربة الواقعي وبرهان الخبر المنشود وهذا أعظم برهان يجب الأخذ به ، فافترق هذا الشعب فرقا شتى : فريق كذب بالرسالة ولم يرفع بها رأسا مطلقا فاحتقرها واعتمد على عقله وتفكيره وهواه وذوقه ، لانه تصور أن ما في هذه الرسالة يخالف أغراضه وأهواه وأذواقه ومعقولاته ، فلهذا رفضها وتبع فكرته وعقله وهواه ، فأخذ يخلط ويخبط ويتناول ما لذ له وطاب عنده بشره زائد وسير أعمر بدون حدود وقيود إلا ما حدث له عقله وتفكيره وتجاربه فاذا تكون عاقبة هذا . لا شك أنه هالك لا محالة ، إما نجاة بأمر فطيع وهو الأخرى ، وأما بعلل وأمراض فانك مدمرة . وفريق ثان علم صدق هذه الرسالة وعلم أن النجاة والحياة في العمل بها ، فاجتهد غاية الجهد في معرفتها وفهمها ، فدرسها درسا دقيقا بصدق وإخلاص ^(١) حتى فهمها فهما صحيحا ، فعلم أنها موافقة للعقل الصحيح والدوق السليم والفكر المستقيم ، فسار في هذه الجزيرة على نور وبصيرة بمقتضى هذا النظام الباهر في أعماله كلها من تناول حاجاته وأخذ وإعطائه ، واستعمل الأسباب القوية البارعة التي أرشدت إليها إما بحكم الإباحة في الأصل وإما بالإشارة والإرشاد ، فثبت أقدامه على عملها ونظامها

(١) ومن اجتهد في أمر يمكن بصدق وإخلاص فلا بد أن يدركه ويفهمه

وقواعدها ، وبذلك عرف أمور أهلها وآراءهم وسعيهم ومعاشهم ، كما عرف ما فيها من منافع ومضار ، فأصبح يسعى وعمله ويميزان الحق والعدل فشيئا عالما قويا في روحه وعقله وجسمه وجميع آرائه ، ففي إمكانه حماية نفسه واستقلالها ما دام موجودا في هذه الجزيرة ، ثم في وصوله إلى مقره سالما صحيحا قويا متزودا كل ما يحتاجه . وفريق ثالث وهو نوعان : نوع خالف الرسالة ورفضها باطنا وحرّفها وحملها على ما يوافق هواه وشهوته ظاهرا ، والا فهو لا يعتقد أنها في نفس الأمر شيئا كبيرا نافعا ، وإنما قل هذا ليسلك مع هذه الفرق المتباينة ويحصل على غرضه الدنيوى ، ففصل مذبذبا بين الفرق يتلون معها على كل ألوانها لتحصل مقاصده عندها . فهذا النوع لا شك في هلاكه ، ولا بد أن يكون عليلا في حياته ، لأن خلطه وخبث ضميره سيوقعه في الأمراض القاتلة بكل حال . وأما النوع الثانى من هذا الفريق الثالث فإنه أخذ بهذه الرسالة أخذًا ضعيفا فلم يفهمها فهما شديداً لأنه لم يحرص كل الحرص على ذلك ، فأخذها بفتور ورداءة همة فصار يخلط في عمله وعمله ، تارة يتبع هوى نفسه ويتناول ما لذ له وطاب ، وتارة يتبع لامع السراب ، وحينئذ ينقاد لنظام هذه الرسالة فيتقيد بها ويستشفى بها من آثار خلطه ، وكلما عوفي عاد يخلط لقوة شهوته وضعف الإرادة الحاضرة له ، فأصبح عليلا ضعيفا علته وضعفه بقدر خلطه واستشفائه . وهذا النوع درجات متفاوتة كل بحسب عمله بالرسالة وعمله بها في القوة والضعف والحكم ، للذى يغلب عليه من المادتين . وبكل حال فهذا النوع أحسن حالا من غيره ما عدا الفريق الثانى ، والحكم واضح في الفرق بين هذه الأقسام ونتائجها في الحال والمآل من التقدم والتأخر والله اعلم

فصل

قال : فهمتنا إذن في هذا الكتاب - بل مهمتنا العامة - أن نعمل على

دلالة قومنا بأن الله جعلت قدرته وضع لهذا الوجود سننا لا تبديل ولا تحويل لها ، وإن هذه السنن تسير وفق حكمته وعدله سيرا دقيقا موزونا مقدورا لا تشويش فيه ولا اضطراب ، كأنه مسألة رياضية لا يختلف في حلها العلماء ولا تختلف نتيجتها لاختلاف العلماء الحاليين لها ، فالنتيجة هي واحدة سواء أقام بحلها المسلم أم قام بحلها الكافر ، وسواء حلها الشرقي أو حلها الغربي ، فإن الحقائق المجردة لا تتغير لاختلاف المتناولين لها ، أو لاختلاف أديانهم ومبادئهم ، قلت : هذه الجملة التي ذكرها هنا هي أصل كلامه فيما يختص بالأسباب والنتائج ، وقد كررها مرارا عديدة وأفرد لها فصولا خاصة يأتي الكلام عليها هناك مفصلا ، ونحن نتكلم عليها هنا إجمالا بما يناسب المقام ، وحيث أنه جعل هذه الجملة المدخولة المموهة هي الأساس لموضوع كلامه كله وقد أتى بها بهذا التعبير الملبس الغامض المشتبه فنحن ننقل شيئا من كلامه الذي هو بمعناها ليتبين لكل منصف مراده بهذه الجملة ، فإن كلامه يفسر بعضه بعضا ، وإن كان يتناقض غالبا ، لأن هذا شأن كل مخادع

قال في موضع من كتابه (ص ٢٢٥) في هذا المعنى : « والذي نريد أن نقوله هنا أنه لا محابة ولا نسب بين الله وبين أحد من خلقه ، وقد وضع نواميس وسننا وقوانين تحكم هذا العالم على وفق حكمته العليا وعدله الشامل ، فمن وفق لاستخدام هذه النواميس والسنن والقوانين وسار معها بلا اصطدام ولا خروج فقد نال ما يبغي ، ومن عاند هذه النواميس والقوانين وعارضها وحاول الخروج عنها فقد هلك ولا محالة ، وإن ينفعه أن يقول أنه مسلم وأنه يصوم ويصلي ويكثر من ذكر الله بلسانه » انتهى . فهذه الجملة كالجملة التي ذكرها وهي توضح مقصوده ومغزاه ، وسيأتي الكلام عليها مفصلا في موضعها

وننقل هنا أيضا اعتقاده في خلق هذا العالم وتصرفه وتدييره لكي يتبين لك منه معنى القوانين والنواميس والسنن والنظام والقدرة والعدل والحكمة التي أشار إليها ، لتعرف معنى هذه الالفاظ عنده ، وأنه يريد بذلك تقاعل

الطبيعة لذاتها، فالطبيعة على ما يرى ولدت النواميس، ثم هذه النواميس حكمتها
أى حكمت الطبيعة، فالنواميس أولاد الطبيعة وهى حاكمتها، والطبيعة الأم
المحكومة، فهذا العالم يحكم نفسه بنفسه. وهذا صريح الالحاد.

وقال فى ص ٢٨٧ : « من الحقائق التى ترتفع اليوم عن متناول النزاع أن
هذا العالم كله حيوانه ونباته وجماده لم يزل دارجا فى طريق التطور منتقلا من
طور الى طور أفضل ومن حالة الى حالة هى أدنى الى الكمال بطريقة منظمة
دائبة لا يعرفونها توقف. وعند العلماء ^(١) أن شيئا من هذا العالم لم يوجد بحالة
ثابتة دائمة ولا بحالة فيها الاستعداد والرجوع الى الوراء ولا الانتقال من
الكمال الى النقص، بل ثبت لديهم ثبوت الحقائق أن هذا الوجود قد وجد بدايا
وأنه قد ظل ينتقل من وجود الى وجود ومن شكل الى شكل، وأنه قد ظل فى
عملية هذا التنقل ملايين الملايين من الاعوام حتى بلغ الحالة التى تصلح لوجود
الحياة : علم الكون أول ما علم فى حالة غازية منتشرة فى الفضاء انتشارا
متناسبا متسقاً مثل أن تبخر مقداراً من الماء فى غرفة تساوى فيها ضغط الهواء،
أو مثل أن تنثر مقداراً من الدقائق فى مكان نثراً متساوياً، وقد بقى كذلك
ملايين السنين أو ملايين الملايين حتى استطاع بتفاعله المستمر ^(٢) أن يقلت
من هذه الحالة الغازية أو السديمية الى حالة التكتل والتقلص، فأصبح كتلة
واحدة هائلة أو ذرة كونية ضخمة اجتمع فيها الوجود أجمع، فبقى على هذه
الحالة ملايين السنين أو ملايين الملايين وهو يتفاعل فى حقيقته تفاعلاً مستمراً
استعداداً للانتقال الى وجود آخر أفضل وأكمل، وبعد التفاعل اللازم
المقدور انفجر هذا الكون المحشود فى ذراته انفجاراً فجائياً فى الظاهر مؤقتاً
معلوماً مقدوراً فى الباطن مثل ما تنفجر قنبلة مملوءة بالمواد المتفجرة فتطيرت

(١) أى ملاحظة علماء الطبيعة، اعتمد كلامهم ونبد نصوص الدين المخالفة لهم

(٢) هذا تصريح بعدم خلق الله له كما هو ظاهر

منه الدقائق والذرات تطايراً قائماً على الحساب الدقيق فنفرق في الفضاء كتلاً هائلة غازية ، فبقيت هذه الكتل المتفرقة تتفاعل وتجتمع وتكتل ملايين السنين أو ملايين الملايين حتى أصبحت نجومًا وشموساً ، ثم أخذت هذه النجوم والشموس بالتفاعل نفسه وبالاستعداد الخبوء فيها للتطور تنقسم على نفسها وتنفصل عنها النجوم والسيارات والتوابع ليكون من كل شمس من هذه الشمس مجموعة متماسكة من هذه المجموعات التي يدعونها اليوم المجموعات الشمسية أو المجموعات النجمية التي إحداها مجموعتنا الشمسية التي نحن من رعاياها ، وقد راحت هذه السيارات التابعة لغيرها تنقسم على نفسها أيضاً وتنفصل عنها الأتباع وتلد الأقمار لتكون - أي الأقمار - من حولها كما كانت هي من حول شمسها ، وهذه العمليات الانفصالية أو التوالدية تشبه عمليات التوالد والانقسامات بين الأحياء التي يكون الغرض منها إيجاد مجموعات أو فصائل حيوانية أو نباتية تتعاقب وتتوالد خضوعاً لسنة هذا الوجود ، والموجودات الموصوفة بالكائنات الحية ليست الانسل المادة الجامدة ، والنواميس التي تحكمها أي تحكم الكائنات الحية إنما ورثتها من أصلها الذي هو المادة (١) فلا غرابة إذن في كون القوانين واحدة متفقة في الحي وفي الجماد . وبعد هذا التوزيع وهذه الانقسامات في ذرة الكون الأولى الكبرى لم يكن شيء منها صالحاً للحياة والاستقرار ، بل لقد قدر العلماء أن عمر الشمس قبل أن توجد الحياة في الأرض وهي منفصلة عنها بنحو خمسة ملايين مليون سنة وقدروا عمر الأرض بنحو ألفي مليون سنة ، وأن الحياة لم توجد فيها إلا في نحو ثلاثمائة مليون سنة ، أي أنها ظلت حوالى ألف وسبعائة مليون سنة تنهياً لتكون صالحة لظهور الحياة عليها ، وقدروا عمر الإنسان في الأرض بثلاثمائة

(١) قف وتأمل هذه النقطة السوداء ، فقد صرح بأن النواميس مولودة عن المادة وأنها هي التي تحكم هذه الكائنات الحية ، فالعالم يحكم نفسه بنفسه

ألف سنة ، وهذا أحد التقديرات كما هو معلوم (١) ومعنى هذا أن الأرض بقيت ما يقرب من ثلاثمائة مليون سنة صالحة لوجود الحياة فيها قبل أن تصبح لوجود حياة الإنسان الذي هو أرقى الموجودات فيها ، أى أنها تهيأت لوجود حياة الإنسان المحدود كائناً راقياً ، وما من شيء في هذا الوجود وصل الى حالته التي هو عليها الا بعد أن سلك هذا السبيل ، سبيل التطور المنظم البطيء فما جاءت الشمس ولا السيارات ولا الأقمار والنجوم ولا كل هذه العوالم إلا من هذا الطريق . وهذه الأرض التي نعيش عليها ونجد فيها كل ما نحتاجه وكل ما يلزم لحياتنا ولسعادتنا ماذا فعل بها هذا التطور ، انه لولاه لما وجدت ولا وجد فيها ما وجد ، ولما صلحت لظهور الحياة عليها ، ولما وجدنا فيها ، ولو وجدنا لما بقينا أحياء ، ولو بقينا أحياء لما وجدنا ما نحتاج اليه وما يلزم لوجودنا ولصناعاتنا ولزراعاتنا . انه بهذا الناموس تحلت الأرض عن عبودها الجلدية وعن عبودها النارية الى عهد الاعتدال الذي نبض معه حياة النبات والحيوان الذي منه الإنسان ، وبهذا الناموس تمهدت الأرض وتهذبت ، وارتفعت فيها الجبال ونهضت الآكام ووجدت السهول والسهوب والأودية وانشقت الأنهار وغاضت البحار وانحسرت عن الجزائر وعن هذه اليابسة التي عليها نحن ، وبهذا التطور أيضاً وجدت أصناف النباتات والحيوانات والمعادن المختلفة ، ووجدت التربة الخصبة التي تنبت لنا كل ما نشاء ، ووجدت كل هذه العناصر التي لا بد منها لبناء أجسامنا ولأخصاب أرضنا ولتركيب كل ما لا بد لنا منه صناعياً وطبيعياً . انتهى

وإذا تأملت هذا الكلام والذي قلبه ظهر لك معنى الجملة الأولى التي جعلتها كحجر الزاوية لكلامه ، وتبين لك معنى السنن والنواميس والقوانين التي طالما كررها في كلامه ، وأنها تفاعل الطبيعة يعنى حركاتها العادية ، فانه قرر كما ترى

(١) كما هو معلوم عند من ؟

أن النواميس مولودة من الطبيعة التي هي المادة ، وقرر أنها هي الحاكمة عليها ، فالسنن هي التفاعل والطبيعة أى المادة هي موضوع التفاعل ، واذن فلا غرابة على هذا الاعتقاد أن يبطل بذلك تأثير الأعمال الصالحة التي منها الدعاء ، لأن الداعي لاحظ له إلا العناية ما دام أن هذا الوجود يجرى على هذه السنن التي هي تفاعل الطبيعة ، ولهذا فإنه ادعى أن الدعاء ملهاة ومصرف خبيث . ولا شك أنه على هذا الاعتقاد لا فائدة فيه

إذا عرفت هذا الأصل الخبيث الذي بنى عليه زيغه وضلاله فاعلم أنه إذا أطلق السنن والنوانيس والقوانين فإنه يريد ما ذكرناه كما هو صريح كلامه ، ولهذا لا يوجد في كلامه أن هذا العالم يسير على مقتضى مشيئة الله وإرادته أو رحمته ، أو أن هذه النواميس والقوانين تسير على وفق مشيئته ورحمته ، بل لم يذكر المشيئة قط أو الإرادة إلا في معرض الذم ، وأما الرحمة الربانية التي شمات هذا العالم فلا تكاد تجد لها ذكر أبداً ، حتى انه رفض البسملة لما فيها من ذكر الرحمة ولأنها من القديم ، ولهذا قال هنا « تسير على وفق حكمته وعدله » ولم يقل وفق مشيئته ورحمته وعدله ، أو إرادته المقتضية لعدله وحكمته وقد فسر الحكمة بالعدل وفسر العدل بتفاعل الطبيعة بنفسها الذي معناه وحقيقته سلب المشيئة ونسبة الجور والظلم اليه تعالى .

ونحن ننقل لك كلامه في تفسير القدرة والعدل والحكمة ليتبين لك معنى هذه الألفاظ المكررة التي موه بها على هذا الأصل الخبيث مكرات ونفاقاً ، وانها كلمات حق أراد بها أشنع ضروب الباطل . قال في بحث التوكل : « ولكن التوكل هو الإيمان بقدرة الله وبعده وبحكمته وبأخباره ، والإيمان بقدرته يوجب الإيمان بأن ما جعله سبباً لشيء فسيبقى كذلك ولن تبطل سببيته بحال ولن يوصل الى ذلك الشيء شيء غيره ، ويوجب الإيمان بأن ذلك الشيء الذي جعله مسبباً عنه ان يوصل اليه بدونه ، فيوجد السبب يوجد المسبب ويفقده لا يوجد » انتهى . فهذا تفسير القدرة ، فقد فسرهما بضدهما وهو العجز ،

فلايمان بالقدرة عنده أن تعتقد أن الله لا يقدر على تغيير شيء من الأسباب المادية ، فلا يغير سبباً عن طبيعته المطبوع عليها أبداً ، ولهذا قال « فلن تبطل سببته بحال ، وحقيقة هذا أن تعتقد أن الله عاجز عن تغيير شيء من الأسباب عن طبعه ، وهذا كفر صريح ، وتكذيب لمعجزات الانبياء فانها تغيير وخوارق للأسباب عن طبيعتها المطبوعة عليها ، والا فلماذا كانت معجزة ، ولهذا بطلت سببية حرارة النار واحراقها حين دخلها الخليل عليه الصلاة والسلام وانقلبت الى برد وسلام ، والبحر بطل سيلانه الذي طبع عليه لما ضربه موسى عليه السلام بعصاه وبطلت سببية الموت في أهل السكف ويونس في بطن الحوت ، بل هذه الأسباب المشاهدة التي هي سبب للحياة كثيرا ما تكون سببا للموت ، ولو أن الأسباب لم تتغير لكان الحي حيا والميت ميتا والجماد جمادا والمتحرك متحركا والساكن ساكنا دائما أبداً ، فان أصول المادة كلها هي هي ، فلماذا تنقلب العناصر الى أضدادها كما قال تعالى ﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا انتم توقدون ﴾ . وهذه الحجة بعينها احتج بها المشركون الذين أنكروا البعث ، فانهم كفروا بالبعث لأنه تغيير لحقائق الأشياء وقلب لها من الموت واليوسة الى الحياة والحركة ، فان ذلك المشرك الذي قال الله عنه ﴿ وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ﴾ وقد ورد أنه أخذ عظما قد أرم ففهمه وقال : من يحيي هذا . ومعلوم أنه انما اعتمد على ما اعتمد عليه هذا الملح من أن هذا يناقض مقتضى عقله ، اذ كيف ينقلب الضد الى ضده فينقلب الساكن الى الميت الهامد الى حي متحرك مرید متصرف ، فان هذا تغيير وقلب للأسباب الى ضدها ، وهذا السحاب المشاهد بعد أن كان أجزاء لطيفة خفيفة تطلب الصعود بطبعها انقلب الى أجسام كثيفة ثقيلة تطلب الهبوط بطبعها ، ولهذا قال تعالى ﴿ ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث

فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون) فان هذه كلها تقلبات وتغييرات متطورة متحولة منعكسة مطردة بمشيئة الله تعالى ، ولهذا ختم الآية بقوله (لآيات لقوم يعقلون) فدخل على أن من لم تكفه هذه الآيات فهو لا يعقل . وقد طرد الملاحدة هذا الأصل فأنكروا البعث كما أنكره أعداء الرسل ، لأن أصولهم الكفرية تقتضيه واضطربوا في هذه الاسباب فلا أكثر من اختلاف هؤلاء الملاحدة الذين لا يؤمنون الا بالمادة في هذه الأمور . والذي اتفقوا عليه كله لا ينافي النصوص بل هو يعرف بمقتضى العقل واكثر أصناف الملاحدة على كفرهم أحسن حالا من هذا الملحد صاحب الأغلال لأنهم لا يوجبون على الناس الكفر بما يخالف آراءهم مطلقا كآراء أهل الدين ، ولا يأخذون نصوص رب العالمين فيقلبونها دلائل لهم ، غاية ما في ذلك أنهم يتوقفون فيما لم يعلموه ، ويظهرون آراءهم فقط ولا يتعرضون للنصوص الشرعية بقلبها أدلة لهم ، فإن الكفر بها أسهل من قلبها الى ضدها لما في ذلك من احتقارها واللعب والتضليل بها ، وهؤلاء بلا شك من أكفر خلق الله ، ولكن المنافقين أكفر منهم ، فقد جعلهم الله تحت أصناف الكفار في جهنم لأنهم أعظم ايعالا في دركات الكفر ، فكانوا في الدرك الاسفل من النار ، ويعلم الله أننا لا نعلم أحدا من الأولين والآخرين وصل من الكفر والزندقه والنفاق والالحاد الى ما وصل اليه صاحب هذه الأغلال . ومن درس كتابه وفهمه حقيقة الفهم علم أنه شتم للشريعة الغرام وأهلها وأنه لم يوضع الا لغرض القذح في الشرائع السماوية وفي العالمين بها والمقصود أن ما ادعاه في تفسير القدرة باطل لا شك فيه ، ولا ريب أن من اعتقد أن الله لا يغير في الاسباب فقد اعتقد بطلان الربوبية ، فالرب الذي لا يتصرف في ملكه ولا يديره إما عاجز أو معدوم بلا شك ، وهو انما قصد بها إبطال المعجزات لأنها اذا بطلت بطلت النبوات وبطلانها تبطل الأديان . وكلامه كله يدور على ابطال الأديان كما نبهنا على هذا غير مرة . وقوله

« ولن يوصل الى ذلك الشيء شيء غيره ، ويوجب الايمان بان ذلك الشيء الذي جعله مسببا عنه ان يوصل اليه بدونه ، فوجود السبب يوجد المسبب وبفقده لا يوجد » . فيقال : وهذا ايضا تصرح آخر مؤكدا لما قبله في محدد القدرة والكفر بها . ومعلوم أن الولد مسبب عن الرجل والابن جديهما بحكم العادة ، وقد وجب هذا المسبب بدون سببه في آدم وعيسى بن مريم وحواء عليهم السلام ، فانه وصل الى وجودهم وحصل كل واحد منهم بدون هذا السبب العادى المطرد ، وكل واحد منهم وصل اليه بتغيير خاص ، والايمان بهذه القضية التى ذكرها يبطل الايمان بوجود هؤلاء على ما ورد به الشرع بل والعقل ، وكذلك وجود زيادة الماء الذى ينبع بين أصابع النبي ﷺ فأروى الجموع الكثيرة من إناء واحد صغير جدا من دون مادة . وكذلك انشقاق القمر وأمثال ذلك كثير ، مع أنه يناقض ما ذكره ايضا في نفس النقل الذى ذكرناه عنه ، فانه ذكر أن هذا العالم وجد بدائيا على تلك الحالة ، فاما أن يدعى أنه لم يزل قديما وهو عليها فيبطل قوله في التطور لانه حينئذ يبقى أزمنة طويلة وهو ثابت على حالته البدائية ، وهو قد ذكر أنه لم يكن في وقت من الاوقات على حالة ثابتة فيبطل قوله هذا ^(١) وإما أن يقر بانه وجد من العدم المحض بعد أن لم يوجد فما سبب إيجاده اذن فيكون موجودا بدون سبب مادمى وهو يناقض ما ادعاه هنا . وبالجملة فكلامه في الايمان بالقدرة معناه الكفر بها ، فان هذا الايمان الذى ادعاه معناه أن يؤمن الانسان أن الله لا يغير في الأسباب أبدا فلا تتغير بل تجرى على طبيعتها ، وهذا الايمان قد آمن به الكفار ، فان الذين كفروا بالمعجزات وجحدوا بها انما كفروا بها لانها خالفت العادة فكذبوا بها ، وهذا الرجل يدعو الناس الى التكذيب بكل ما يخالف العادة ويدعى أن هذا هو الايمان . وإياك أن تفهم من كلامنا هذا أننا نقول انه لا

(١) ويكون حينئذ قائلا بقديم العالم مع الله وهو كفر

ترابط بين الأسباب والمسببات والنتائج مطلقاً - كما هو مذهب طائفة من أهل العلم - بل مذهبنا كما هو مذهب أهل السنة وأصحاب الحديث أن بين الأسباب والمسببات ترابطاً وثيقاً ، وأن كل مسبب فهو لازم لسببه ، لكن هذا الترابط غير خارج عن المشيئة والقدرة بل هو داخل تحت قدرة الله ومشيئته العامة ، فإذا شاء قطع الترابط كما في المعجزات ، ونحن إنما ننازعه في إنكاره كون الله لا يغير في الأسباب مطلقاً ، وأن ذلك سفيه وفوضى من دون استثناء كما صرح بذلك في قوله : « لست أريد أن أقول إن التوكل هو الأخذ بالأسباب مع الاعتقاد بأن الله قد يدخل فيها ^(١) فيجعلها إن شاء أسباباً ويجعلها إن شاء غير أسباب ، أو مع الاعتقاد بأنه تعالى قد يفعل من غير أسباب ، فإن هذا هو السفيه والفوضى التي لا ضابط لها ، انتهى . فقد علمت أنه صرح بأن تغيير الله للأسباب وجعلها أسباباً تارة وتارة غير أسباب سفيه وفوضى ، فتصرف الله في ملكه كيف شاء بتغيير الأسباب سفيه وفوضى ، وسبحان من طبع على قلبه فهو يريد أن يحجر على الله في التصرف في ملكه كيف شاء ، فالله سبحانه هو الذي خلق الأسباب ومسبباتها فهو القادر على تغييرها كما وقع ذلك بالضرورة والتواتر والمشاهدة والحس ، فقطع ترابطها أحياناً من سنن الله في خلقه لأنه سبحانه قدره وخلقها كما أخبر به ، فما أخبر به وجب التصديق به وبأنه من سننه التي لا تبدل لها ولا تحوّل ، فمن أخرج هذا الترابط الذي بين الأسباب ونتائجها ومسبباتها عن قدرته جل وعلا كيف يكون مؤمناً بالقدرة ، بل كيف يكون مؤمناً بالله ، بل إيمان هذا كإيمان عبدة الأصنام الجامدة التي لا قدرة لها على تغيير شيء من سير هذا الكون ، وإنما هي واسطة يزعم عابديها ، بل هؤلاء أحسن حالا ، فإنهم لم يذكروا تصرفه تعالى . بل إيمانه كإيمان الدهرية الذين يقولون (إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر

(١) يعني « يتصرف » ، أبداً يتصرف بيتدخل تشويهاً لسمعة المشيئة

وما لهم بذلك من علم . ثم انه فسر عدل الله الذي يدعيه فقال في بحث التوكل : « والايان بعدله يوجب الايمان بالتسوية بين الآخذين بالاسباب بدون نظر الى الاشياء التي لا تتصل بذلك وبدون نظر الى أديانهم ومذاهبهم فمن أخذ بالسبب بلغ مسيبه وإلا فلا ، تلك هي العدالة الشاملة ، انتهى . فهذا هو الايمان بالعدل عنده ، فهذا التفسير الذي فسر به العدل كالتفسير الذي فسر به القدرة ، فانه فسر به بضده وهو الكفر بالعدل ، فانه فسر به بالتسوية بين الآخذين بالاسباب بدون نظر الى أديانهم ومذاهبهم ، فمن أخذ بالسبب من مسلم أو كافر بلغ مسيبه وإلا فلا . وكلامه في الاسباب المادية كما لا يخفى . فالمسلم كالكافر عنده في كل نتائج الاسباب الكونية ، فلا تأثير للطاعة كما لا تأثير للمعصية ، فدعاء الله تعالى واستمداد النصر منه وطلب الاعانة على العدو والاعانة لإنزال المطر ودفع البلاء بالصدقة والصلاة ونحو ذلك لا أثر له ، كما أن عصيان الله والتمرد عليه ومعاندته وسب كتبه وأنبيائه وأوليائه لا تأثير له أيضا ، لأن هذه كلها عنده أمور معنوية لا تتصل بذلك فوجودها كعدمها كما ادعى بان دعاء الله ليس بوسيلة وليس له من فائدة سوى أنه ملهامة ومصرف خبيث وتعويق ، فالأنبياء عنده كالطواغيت في نتائج هذه الاسباب المادية ، لأنه جعل تناول الناس للاسباب الكونية كمسائل الرياضة ، فلم يفرق بين ما يشرع له الدعاء ويستجلب بالطاعة كالامطار والنصر على الاعداد ونزول الخيرات والبركات ، وما ليس كذلك كسير الافلاك والمسائل الرياضية كمسائل الحساية ونحوها ، هذا هو العدل عند هذا المغرور كما هو صريح كلامه ، فتأمل . فانه قال : الايمان بالتسوية بين الآخذين بالاسباب بدون نظر الى الاشياء التي لا تتصل بذلك ، وقد علمت بما مر أنه قال : إن الاخلاق الدينية أشياء أخرى لها نتائج أخرى فهي لا تتصل بذلك ، ولهذا قال : وبدون نظر الى أديانهم ومذاهبهم ، يعنى فلا ينظر الى دين هذا ودين هذا فلا أثر لذلك لان الدين له نتائج أخرى فلهذا قال « فمن أخذ بالسبب بلغ مسيبه وإلا فلا ، يعنى والا

يأخذ بالسبب فلا يبلغ مسببه سواء في ذلك كل من الكافر والمسلم ، فلو تقاتل
فئتان مسلمون وكفار فالغلبة لمن هو أقوى سلاحا أو أكثر قوة مادية منهما
قطعا ، ولهذا ادعى فيما يأتي أنه اذا تقاتل اثنان فالثق مع اقواهما ، فجعل الله مع
القوى منهما . انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثما مبينا . ولو
دعا الله المسلم وعبدته وصدق ونصح معه فكما لو دعا وصدق ونصح مع صنم
فانه لن ينفعه ذلك في الدنيا أبدا لان الخلق الديني لا يتصل بذلك بل له نتيجة
أخرى هي الملهة والمصرف الخبيث والتعويق كما صرح به فيما يأتي ، فيكون
زيادة ضرر ، فلا يعان المؤمن من قبل العناية الربانية لآيمانه وعمله الصالح
وتقواه ونصحه مع رب العالمين ، بل ينال بهذا كله الخيبة والفشل وسوء العاقبة
حتى يكون سلاحه المادى مقابلا لسلاح أ كفر موجود على وجه الارض ولو
كان ذلك الكافر محاربا لله ورسوله ولأديانه وللدائنين بها ، فان هذا لا يضره
شيء أبدا الا اذا نقص سلاحه المادى ، لان خلق الكفر لا يتصل بذلك ،
هذه هي العدالة الشاملة عنده ، وهذا هو عدل رب العالمين وأرحم الراحمين
ومجيب دعوة المضطرين عند هذا الملحد كما يقول ، لأن الفعل انما هو لنواميس
الطبيعة فهم التي تحكم هذا العالم على مقتضى هذا العدل الذي ذكره ، فلو كانت
عصا موسى مع فرعون لكانت هي هي لا تختلف ، لأنها سبب مادي والطاعة
والمعصية ليس لهما اتصال بذلك ، ولان نواميس الطبيعة هي التي تحكم هذا العالم
على مقتضى التسوية بين الآخذين بالأسباب من المسلم والكافر كما هو صريح
كلامه ، وكذلك بساط سليمان لو ركبته غيره لطار به ، لأن كلا من هذه المسائل
أسباب مادية والأسباب المادية لا تعلق للطاعة والمعصية فيها بشيء كالمسائل
الرياضية التي لا تختلف نتائجها باختلاف الحالين لها لاجل أديانهم ومبادئهم ،
لأن الحكم للنواميس التي تسير على مقتضى التسوية بين الذين آمنوا وعملوا ،
الصالحين والمفسدين في الارض ، وأمثال هذا كثير ، وكلامه كما لا يخفى في
الأسباب المادية كما صرح بذلك والا فلا أسباب الدينية عندهم مبتورة من

حسبياتها ونتائجها ، فمن فعل السبب الذي لم يبلغ مسببه أبداً ولا ينال الا الحية والحسرة ، لانه قال : ان الدعاء ليس بوسيلة وليس له من فائدة ، هذا لفظه كما يأتي ، فجعل من أتى بهذا السبب الأعظم الذي شمل أثره الوجود كله وهو أقوى سبب في الوجود اذا عمل به على وجه النافع وسلم من المعارض ، جعل من أتى به لا يحصل له مسببه وليس بسبب وليس له من فائدة ، فالتسوية عنده والعدالة الشاملة كون المسلم كالمجرم ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض ، والمتقين كالفيجار في تحصيل نتائج هذه الأسباب المادية الكونية ، فانه جعلها كالمسألة الرياضية وجعل تغيير الله لها ونفع المسلم واعانته دون الكافر تشويشا واضطرابا ، فجعل قدرته وأفعاله في خلقه بما تقتضيه الحكمة الربانية اضطرابا وتشويشا وتسويها لسمعة المشيئة العليا ، والله يعلم من فوق عرشه أننا لم نطلبه في هذا وقد خاب من افترى ، ومن الخجب أنه لم يفرق بين المسائل الرياضية وبين غيرها ، فان المسائل الرياضية أمور أكثرها يجمع عليه بين الناس لا علاقة له بالطاعة والمعصية لانها أمور مباحة مشتركة ، بخلاف الطاعات والمعاصي فان الجزاء مرتب عليها في الدنيا والآخرة ، ومعلوم أن سير الكون يختلف ، فليس سير الأفلاك المضبوط الذي لا يختلف أبداً في الحساب كاتيان المطر ووجود الأمراض العامة فأن سير الأفلاك والمسائل الرياضية تعرف بالدرس والحساب ، بخلاف اتيان المطر والأمراض فانها لا تعرف بذلك أبداً ، والمطر - وكذلك المرض - وان عرفت المادة التي ينشأ منها فانه لا يعرف وقت مجئه بالتحديد كما لا يعرف مقداره بالكم والكيف ، فحاطت هذه المسائل بعضها ببعض وجعلها كمسألة رياضية كذب ظاهر وتحويل السنة الله في خلقه ، وقد جمل الله سبحانه لجلب بغضه وتحصيله أسباباً بالطاعات ولم يجعل لتحصيل أو تفسير بعضه أسباباً بها ، وجعل لبعضه آثارا بسبب المعصية كالقحط ، وبعضه ليس كذلك ، فكون الدعاء والصدقة وأمثالها من الطاعات له أثر في جريان هذه السنن الكونية أمر معروف ثبوته بالادلة

اليقينية الاضطرابية التي لا تدفع ، ومما علم بالضرورة أنه مما جاءت به الشرائع السماوية بمحملتها ، وقد ثبت وقوعه بالضرورة والحس والمشاهدة والاستقراء ، فمحاولة نقضه كمحاولة نقض الشرائع بآجمعها والسفسطة في المعقولات ، فان الدعاء ركن العبادة الاعظم فانه اعظم من الصلاة فانه روحها ، وان الصلاة لا تصح بدون الاتيان به فيها ويأتي في غيرها ، بل يتأتى في جميع الأعمال القولية والفعلية والمالية ، فهو السبب الأكبر بين الله وعباده ، فمن جعله مصرفاً خبيثاً فقد حارب الله ورسوله ودينه جهاراً بلا ريب ، فالسنن الدينية كلها تدور على الدعاء ، فهو قطبها وروحها

والسنن الكونية بمحملتها تدور على السنن الدينية وكلاهما مرتبط ببعضه ببعض بدون انفكاك ، فمن أخذ بهذه السنن كلها جميعاً على وضعها الديني الكوني نال ما ينبغي وحصل له مقصوده ، ومن رفض السنن الدينية وقطعها وصادمها لم ينتفع بالسنن الكونية نفعا صحيحاً ، ولم يحصل له إلا نقض قصده ، لأنه صادم السنن وقلبها وأتى الشيء من غير بابها ، ولهذا كانت عاقبة كل هؤلاء الذين صادموا سننهم الدينية من الأولين والآخرين أن صدمتهم سننهم الكونية وعذبوا بها ، لانهم قطعوا الأسباب فتقطعت بهم الأسباب ، لأنها اذا لم تكن مربوطة في عرى التقوي فيهي واهية لا تماسك كما قال تعالى ﴿ ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى الى الله عاقبة الأمور ﴾ فهذا الرجل كل عناده وجداله في مناقضة هذا الأصل وعكسه للسنن فهو ضد السنن الدينية ويلج في الحيل عليها ، والاسراف والمغالاة في الحث على الأخذ ببعض السنن المادية والاعتماد عليها حتى جعل بين هذه السنن أعظم التضاد والتباين ففصل سنن الله الشرعية من سننهم الكونية وفرق بينهما ، وغرضه الأكبر من هذا التفريق والفصل والتباين كون الأعمال الدينية كاللعمامة لا أثر له غير مضادة الأعمال المادية فيجب رفضه ، لكن دون هذا خرط الفتاد والعقمة الكشود كما يأتي في المبحث الثاني ، والحق أنه يجب ان نأخذ بسنن الله الدينية كما نأخذ

حسنه الكونية فانها كسنة واحدة في ارتباط بعضها ببعض
فتبين بهذا أن هذا الرجل جعل السفه والفوضى التي لا ضابط لها هو
العدالة الشاملة ، فانه لا شك عند كل عاقل أن من ساوى بين الصادق الناصح
معه المجتهد في اطاعته وامتنال أوامره ، وبين الكاذب المخادع الفاجر الذي
قضى عمره في معصيته والتمرد عليه انه ليس بعادل ولا حكيم ولا رشيد ، وإذا
قال هذا الملحد انهم كلهم خلقه فتجب المساواة بينهم قلنا له اذا كان علة وجوب
المساواة تساويهم في كونهم خلقه فأنت والكلب اذن سواء من هذه الناحية ،
فاحكم على نفسك بهذا وافعل كما يفعل أو كما تفعل سائر البهائم ، ولا تأمر ولا
تنه ولا تطلب التقدم في الأمر على الناس وأنت مثلهم والا كنت متناقضا ،
وهذا ظاهر . فقد اتضح من كلام هذا الرجل أنه فسر عدل الله سبحانه بضده ،
ففسر العدل بالكفر بالعدل ، كما فسر القدرة بالكفر بالقدرة ، ثم انه فسر
الحكمة بالعدل فقال في تفسير الحكمة « والايان بحكمته يوجب الايمان بهذا
أيضا ، يعنى بما فسر به العدل ، وقد علمت كلامه في العدل وجوابنا عليه
ثم قال « اذ لو لم يسر الأمر كذلك لوقع الناس في الفوضى الاعتقادية ،
ولن ينجو بهم من الفوضى إلا إيمانهم بالعدل ، والارتباط بين الاسباب
والمسيبات » انتهى

فيقال له : ما شاء الله يا بلعام زمانه ، لو لم يسر نظام الله على وفق رأيك
الزبل واعتقادك الويل لوقع الناس في الفوضى ولن ينجيهم من هذه الفوضى
إلا هذه الترهات المردولة والرعونات الساقطة والمخازى المضحكة التي سجلتها في
هذه الاغلال ، ويل لك ثم ويل لك ثم ويل لك ، كيف لا ينجيهم إلا الكفر
بقدره الله على تغيير الاسباب وقطع الترابط بينها وبين مسيبتها اذا شاء ،
فتباً لك ما أسخف عقلك وأقل حيائك ، واذن فلا غرابة أن تدعو لنفسك أن
تكون المقدم في الأمر وأن لا يرغب إلا إليك ولا يطلب إلا أنت فانه لا نجاة
لهم على هذا إلا بارشادك وهدايتك وإلا سقطوا في الفوضى التي لا نجاة منها

ثم انه فسر الايمان باخباره تعالى فقال : وكذلك الايمان باخباره فانه اذا
أخبر أن شيئاً سبب لشيء وجب التصديق ووجب التكذيب لما يخالفه ، فيقال
أولاً : أنت كفرت بهذا ، فانه أخبر بأن الدعاء وسيلة الى الاجابة فعما كست
اخباره وقلت انه ليس بوسيلة وليس له من فائدة وقد قال في كتابه العزيز
﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ فقلت في اغلالك : ان الدعاء ليس بوسيلة ، وليس
له من فائدة . وقلت : ان الدعاء ملهاة ومصرف خبيث وتعويق ، فعاندت الله
أعظم المعاندة ، فأين ايمانك باخباره وقد أخبر في مواضع أكثر من أن تحصر
بأنه قطع الأسباب عن مسبباتها ونتائجها كما في المعجزات فانه جعل النار بردا
وسلاما على ابراهيم فقلت انه لا يغير في الأسباب فيجعلها ان شاء أسبابا
ويجعلها ان شاء غير أسباب ، ثم ذكرت أن ذلك فوضى وسفه ، فقد كفرت
باخباره . ثم هذا القول الذي ادعيت في الايمان باخباره قول يحمل قاصر
معروف مرادك به ، بل الايمان باخباره هو الايمان بكتبه وتصديق رسله في
كل ما جاءوا به في الأسباب وغيرها من الأمر والنهي ، والوعد والوعيد ،
والقصص التي تتضمن نجاة من آمن وعمل صالحا ، وهلاك وعقوبة من كفر
وتمرتد ، والايمان بالبعث والجنة والنار وجميع ما في يوم القيمة من الثواب
والعقاب وغير ذلك مما جاء في الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، فانه سبحانه
وتعالى أخبر بهذا كله كما أخبر بأنه كل يوم هو في شأن وأنه يحو ما يشاء
ويثبت وعنده أم الكتاب ويعز من يشاء ويذل من يشاء لا معقب لحكمه ولا
يسأل عما يفعل وهم يسألون ، له الحكمة البالغة والعدل الشامل فهو يثيب المطيع
ويدافع عن الذين آمنوا ويعاقب العاصي الكافر المتمرد ويذيقه وبال أمره ولا
يرد بأسه عن القوم المجرمين وان حزبه هم المفلحون وحزب الشيطان هم
الخاسرون وأنه ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد
ويذل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ، فكل هذا أخبر به وقد وقع بالحس
والعيان فرآه كل مستبصر ، بخلاف من حقت عليهم كلمة الله فانهم لا يؤمنون

ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم . وبالجملة فجميع نصوص الدين من الكتاب والسنة يجب الايمان بها والاستسلام لها ، وهذا الملحد عاكسها وصادمها وعاندها ، فادعى أن الثناء على الله وحمده وتعظيمه في أعظم مظهر اسلامي أسبوعي إحدى التكررات ، وأن المساجد أدت شر ما يؤدي ، وأن الأخلاق الدينية كاللدعاء ملهاة ومصرف خبيث ، وأن الايمان بالله وسيطرته على الأسباب يوجب عدم النجاح ، فأين الايمان ، فليس وراء هذا كفر ، وانما اقتصر على الايمان بالأسباب لأنها هي قصده فاقصر على ما يهواه وأعرض عن ما سواه ، لأن مقصوده بهذا الايمان أن الأسباب تجري بطبيعتها ليس لقوة من القوى أن تقف في سبيلها ، فلا يمكن أن تشملها القوة الالهية ، فتغيرها عن مجراها الطبيعي محال ، فلا معجزة ولا كرامة ، بل ولا غير ذلك من هذه الامور المشهودة في كل وقت ، فالمعجزات عنده كذب لا أصل له وخرافات وأوهام ، هذا هو مقصوده بلا شك كما فسرته بذلك في المواضع الأخرى ، فتفسيره للايمان باخباره كتفسيره للايمان بقدرته وعدله وحكمته فانه فسرته بالكفر باخباره في تفسير الأسباب وابطال نتائجها كما في المعجزات . والمقصود أننا نفتقد أن الله سبحانه وضع لهذا الكون العظيم سننا لا تبدل لها ولا تحويل وان هذه السنن تسير على وفق مشيئته الصادرة عن عليه وحكمته ورحمته ، فما شرعه لنا من الشرائع الدينية التي مدارها التقوى والعمل الصالح فهو من سننه التي لا تبدل لها ولا تحويل ، كما أن ما خلقه وسخره لنا على ما تقتضيه مشيئته القاهرة الصادرة عن عليه وحكمته ورحمته من نتائج هبته الأسباب الكونية المادية فهو من السنن التي لا تبدل لها ولا تحويل ، فقد اتفق شرعه الكوني وشرعه الديني ، فمن حاول أن يقلب سننه الشرعية كما في إثابة المطيع ومعاقبة العاصي فيجعلهما سواء فلا شك أنه محارب لله مصادم لسننه محاول لتبديلها ، ولهذا قال تعالى ﴿ أم حسب الذين اجتروا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ميؤاء مجاهم ومئاتهم ، ساء ما يحكمون ﴾

فأخبر أن هذا الحكم حكم سوء وجور ونظر ساقط من هؤلاء الذين حسبوا أن الله يجعل من آمن وعمل صالحا كمن اجترح السيئات ، فأعطاء كل عامل جزاء عمله هو محض العدل والحكمة والرحمة ، وأما جعل الجزاء واحداً والأعمال متضادة فهو جور وظلم لا يليق بالله ، كما نزه عنه نفسه وجعله ظناً للذين كفروا حيث قال ﴿ ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ وكلام صاحب الاغلال كله يدور على مراعاة هذه النصوص وردّها ومعاكستها بأقبح العبارات وأرذلها وأخبثها وأوقحها عاملة الله بعدله فقد ظهر لك أن دعواه أن تناول الأسباب واستحصاها نتائجها كسأله رياضية كلام ساقط لا يعتدّ به ، فإن المسائل الرياضية يعرفها الناس ويحيطون بها علماً وأكثرها ليس فيه خلاف ، أما سير الكون فليس كذلك ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ فن الذي يحيط بدقائق هذا الكون العظيم ويعلمها ، وقد علم بلا شك أن هؤلاء الذين علموا المسائل الرياضية بل وعلموا من سنن هذا الكون ما لم يعلم به غيرهم إلا من شاء الله هم الذين سقطوا فيما سقطوا فيه من الدمار النهائي ، فلو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب الممين ، فالذين علموا المسائل الرياضية جهلوا نتائج الكون وضلوا فيه أعظم الضلال فكيف يكون سير هذا الكون العظيم وتناول نتائجه كمسائل الرياضية البسيطة ، فقياس مننه الشرعية الدينية وسننه الكونية على المسائل الرياضية من افسد القياس وابطله ، وهذا الرجل نفسه قد تناقض في هذا اظهر التناقض فلم يثبت له فيه قدم كما سوف يحى .

وها هنا قاعدة يجب ملاحظتها في هذا الموضوع وفيما يأتي في بحث الاسباب وهي انه لا يوجد في الموجودات سبب واحد مستقل بايجاد مسببه بدون سبب آخر ايجابي او سلبى أو اسباب أخرى تشترك معه فيه . ثم اذا وجدت الاسباب فلا بد من انتفاء الموانع والعوارض فانه لا يوجد سبب في الموجودات

لا مانع ولا معارض له في الوصول الى نتيجته، وهذا من آيات الله في قطع
علائق الكفر والاحاد من النفوس، فان الفقير الى غيره العاجز عن الوصول
الى نتيجة الاباعة ودفع عنه لا يصلح أن يعتمد عليه وتزال به الفاظ
والحاجات، بل ان ذلك كله انما يستحقه من له المشيئة المستقلة بالتصرف
المطلق ولا مرد لقضائه ابدا

واذا كانت النتائج لا تحصل الا بهذه الامور المذكورة، فهي تختلف أيضا
باختلاف أسبابها، فمنها ما يكون سببه بينا واضحا قليلا، ومنها ما تكون أسبابه
كثيرة خفية، ومنها ما يكون له أسباب قليلة خفية، ومنها ما تكون له أسباب
كثيرة ظاهرة وخفية، ومنها ما تكون أسبابه ظاهرة وخفية. وهذه مراتب
فمنها ما لا يضر ضررا كثيرا تختلف بعض أسبابه، ومنها ما لا بد من وجود
أسبابه كلها كاملة. ثم وجود الأسباب بكاملها في هذه الصور كلها لا يكفي في
حصول النتيجة بل لا بد من انتفاء كل مانع ومعارض. ثم الموانع والعوارض
منها ما هو كثير ظاهر، ومنها ما هو عكسه، ومنها ما يكون بعضه ظاهرا
وبعضه خفيا على حسب الاسباب والنتائج في الكبر والصغر والضعف والقوة
والاهمية وغير ذلك. ثم الاسباب منها ما يكون في طاقة الانسان تحصيله وعمله
أو تحصيل بعضه كآثار الصناعات، ومنها ما هو خارج عن طاقة الانسان
تحصيله وعمله كآثار المطر الذي هو مفتاح لكثير من الحوادث من الخيرات
وغيرها. ثم الاسباب أيضا منها ما هو سبب مباشر بنفسه، ومنها ما هو سببه
بالوساطة. فانزال المطر ونحوه من الأمور الكونية التي لا يقدر عليها الا الله
إنما يستعمل لها الاسباب الدينية، وإيجاد الحيوان والنبات ونحو ذلك وإيجاد
الحواس لا قدرة للانسان على شيء من ذلك أي في خلقه وإيجاده. وكذلك
الموانع منها ما في إمكان البشر انتفاء أسبابه أو بعض أسبابه الظاهرة كحفظ
الزراعة بالبناء والتلقيح والتقليم وأمثال ذلك، ومنها ما ليس في إمكان الانسان
استعمال أي سبب في انتقائه كإرسال البرد والبرد والصواعق والقواصف

والعواصف ونحو ذلك من الآفات السماوية والارضية ، فتتأخر الأسباب كلها لا بد أن تتعلق بشيء من الأمور الغيبية وتتوقف عليها بما ليس في إمكان البشر قهرها وردّها وتحصيلها وتحويلها . ومعلوم أن الأسباب إنما يتصرف فيها ويعمل بحسب الأفكار والمقاصد ، وهما أصلا الاعمال البشرية ، وقد علمت أنها عاجزة عن ايجاد النتائج استقلالاً فلا بد في حصول كل نتيجة من ملاحظة وجود سبب غيبي ، والسبب الغيبي يختلف في تحصيل نتيجة وأثره المسلم والكافر لتفاوت أعمالهما الدينية المرتب عليها حصول نتائج الأسباب الكونية ، فإن النتائج على حسب الأعمال فإنها جزاء عليها وآثار لها . وتبين أيضاً من هذا أن الإنسان عاجز عجزاً ظاهراً ذاتياً عن تحصيل النتائج بقدرته الذاتية ولو أهلك نفسه بالاجتهاد والجد في العمل وأعطى من الوسائل الممكنة ما لا يمكن حصره حتى يؤيد من العناية الربانية الغيبية العليا ويعتمد عليها ويستعمل من الأسباب ما في قدرته وطاقته

على المرء أن يسعى الى الخير جهده وليس عليه أن يتم المقاصد . فقد ظهر من هذا التقرير أن الأسباب ومسبباتها نوعان : نوع عادي بسيط كالأكل والشرب والصناعات والمسائل الرياضية وأمثال ذلك ، فهذه الأمور يتساوى في حلها والّاخذ بها النوع الانساني غالباً من مسلم وغيره ، لأن هذه الأمور خلقها الله لعباده جميعاً ووسائل الى غيرها ليستعملوها لقوام حياتهم ولتقوا بها فتكون حجة عليهم اذ أعطاهم كل ما به يتمكنون من أداء ما خلقوا له من طاعته فهي متاع لهم اختباراً لينظر كيف يعملون ، فكان الناس فيها غالباً سواء .

وأما النوع الثاني وهي الأمور العظيمة كالمعجزات التي هي خوارق للعادة والكرامات والامور الاخرى الخارجة أسبابها عن طاقة البشر كتسخير القلوب والارادات وتقلب الأفكار التي هي من أسباب الهزائم والحروب والانكسارات وأمثال ذلك بما فيه إحقاق الحق وإبطال الباطل أو العقوبة والانتقام فلا بد

أن تكون النتيجة المحمودة الطيبة للمؤمن خاصة دون الكافر ، فلا يكون التقدم والنصر الا في جانب المؤمن أو أتباعه قطعا ولو يخرق عادة أو ابطال سبب فانه إن كان الجند مؤمنا كله ايمانا خالصا ومصادة كافرا كافرا خالصا حصل النصر في جانب المؤمن حتما ، وان كان كل من الجيشين متقاربا في ايمانه فهذا له نظر آخر ، وكذلك اذا كان الجميع كافرا فأكثر ما يقع اليه الباطل فانه نوع انتقام ، وان كان الجيش مؤمنا لكنه مدخول بشيء من النفاق ونحوه فقد تقع فيه الهزيمة أحيانا تمحيصا واختيارا ، وبكل حال فالنصر انما يكون في جانب الايمان فان الحق فوق الباطل سنة قاهرة جبارة في الوجود لأنه أقوى منه والقوة فوق الضعف في الوجود كله ^(١) فلا تبدل هذه السنة ولا تحويل ، فلا بد أن يكون مستصحب الحق المحض فوق صاحب الباطل حين يحصل الامتحان والاصدام الفاصل ، قال تعالى ﴿ ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ وقال تعالى في هود وقومه ﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾ وقال في قصة صالح ﴿ فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾ الآية ، وقال في ابراهيم ﴿ قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم ، فأرادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين ﴾ وقال في لوط وقومه ﴿ فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ وكذلك قصة شعيب وموسى مع فرعون وعيسى عليه السلام حين عرج به الى السماء فوجز أعداؤه عن الوصول اليه ، وانتصارات النبي ﷺ ثم أصحابه على قتلهم وضعفهم في الاسلح المادية وأعدائهم أكثر عدة وعددا وثروة ، ثم كل أهل القرون المفضلة كذلك لما كانوا محافظين على أصل دينهم وروحه متمسكين به في الجملة وكان الحق ظاهرا

(١) والاسباب الدينية أقوى من الاسباب المكونية لأنها الاصل

فيهم ، فلما أن حلّ تعطيل الصفات كالعلو والكلام وغيره تحول عزّ الدين ، وغير الله على من غيره ، وهذا أمر ظاهر تشهد له النصوص والتاريخ المتواتر والحس والضرورة والاستقراء التام ، ولا يمكن بحال أن توجد في الدنيا معركة فاصلة إلا كان أصحاب الحق المحض هم المنصورين ، وما يوجد من بعض الهزائم الجزئية فهي لا توجد الا في جند مدخول إما بذنوب أو غيرها ، وأكثر ما يوجد اذا كان في الجند ملاحدة أو منافقون ، فيكون كالتمحيص والابتلاء وتميز المنافق المخفى ومن في قلبه مرض من المؤمن الصادق كما قال تعالى ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾ أما الامور العظيمة التي يحصل بها انقطاع احدي الفتيين انقطاعا نهائيا فلا يوجد إلا والنصر في جانب المؤمن حتما كما هو الواقع الذي لا شك فيه

فصل

قال : « فاذا ما استطعنا - وذلك ما يجب أن نستطيعه - أن نفهم قومنا ذلك ؟ ، واذا ما استطاعوا هم أن يفهموه حقا - وذلك ما يجب أن يفهموه - كان من اليسير جدا بل ومن المحقق يقينا أن يسيروا سيرا سريعا لا ابطاء فيه ولا تأخير في سيولهم التي خلقهم الله وأعدهم وهياهم وأمرهم للسير فيها أي الى الكمال والحياة القوية . فان الله قد ذرأ خليقته وذرأ فيها بذور الكمال وذرأها مهيأة لان تبلغ أقصى ما في الحياة من قوة ونجاح ، وذلك ان الله خلق الاشياء لتكون كاملة لأنه كامل ، ولتبلغ أشدها في وقت من الاوقات كما قلنا ، فالحيوان وعلى رأسه الانسان طبعاً والنبات والجماد خلقت وفيها عناصر الشوق الطبيعي الآلى والشوق الاختياري الارادى الى الكمال »

قلت : هذا تفريع على ما ذكره من السنن التي هي عنده تفاعل الطبيعة حيث قرر أن النواميس التي تحكم الكائنات الحية انما ورثتها من أصلها المادة على ما

مر تفصيله ، هذا هو الذى يريد أن يفهمه قومه وأن يسيروا عليه مع تلك المحازى الأخرى التى لا تحصى ، والذى نقوله نحن والذى يجب أن نفهمه وأن نفهم كل عاقل مدلوله ومقتضاه صريحا هو السير على مقتضى الأوامر السماوية الدينية طبق ما فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة كما قرره الصدر الاول والقرون المفضلة فى أصول الدين وفروعه وأن يسيروا على ذلك سيرا حثيثا صادقا قويا ، وأن نفهم كل عاقل أن ما خالف هذه الطريقة المستقيمة النيرة الواضحة من الطرائق الملعونة الخبيثة الملتوية الوعرة كطريقة هذه الاغلال فيجب ان تضرب به عرض الحائط ان لم تضرب به وجهه من جاء به . نعم إن الذى يجب أن نحذره وان ننذود قومنا عنه هذه المعاطب المتلفة وهذه الموارد القذرة المسمومة القاتلة ، وأن ندلهم على هذا الكوثر السماوى الطيب الطاهر المشروع الذى شرعه الحكيم العليم وأنزله من فوق عرشه مع أفضل ملائكة السماء على أشرف نفوس بشرية ، وهذا الكوثر الذى فيه الشفاء المضمون ، وتالله ما حل بالمسلمين البلاء والأسقام والأدواء المتنوعة الا لما أعرضوا عنه أو قصرُوا فى الانتفاع منه وذهبوا يطلبون الشفاء من غيره ، فكرعوا فى هذه الامواه الآسنة القلوطة المتسربة من عصارة أفكار الرومان وفرنسا واليهود أو أشباههم ، فن تغذى أو تداوى بعصارة هذه الآراء اليهودية وأمثالها فأتى له الشفاء واتى له الخلاص وأتى له الحياة الصحيحة النافعة

لقد عظم الفرق والتوجيه بين من ذل الناس على كوثر الله ورحيقه وهم أولئك الجماعات الصادقون ، ممن دلهم على هذه الموارد الخبيثة المنتنة القذرة عصارة أفكار اليهود والزنادقة وأشباههم كصاحب هذه الاغلال

لقد عاقب الله بنى اسرائيل حين اختاروا الثوم والعدس والبصل على المن والسلوى ، فضرب عليهم الذلة والمسكنة وقيل لهم أستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، فكيف بمن اختار آراء ورثة هؤلاء الأشقياء من اليهود ممن لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت على النصوص

التساوية الظاهرة الزكية من كلام الله العظيم الحكيم الرؤوف الرحيم ، ولهذا كانت النتيجة في هؤلاء الذين نبذوا هذه النصوص المقدسة أو اخذوا بها أخذاً ضعيفاً متطرفاً ، وتعلقوا بهذه الآراء الخبيثة وعشقوها ، أن عوقبوا بمثل ما عوقب به أمثالهم وأسلافهم ، فضربوا بالذلة والمسكنة فأصبحوا في هذه القيود والأصفاد والأغلال التي كانت عليهم فاقبلت كواهلهم ، فكلما ارادوا النهوض والتخلص منها عجزوا عن ذلك وارتكسوا في قيودهم وأغلالهم جزاء بما كسبت أيديهم برفض ما فرض الله عليهم ، فإن يتخلصوا منها ولن يجحدوا عنها محيصاً حتى يلقوها عن كواهلهم ، وحتى يحرر جوار من أسباياها وعليلها التي اقترفوها ، وحتى يغلبوا أن أسلافهم الأقوياء المظفرين أهل القرون المنقطعة هم الذين عللوا خطرهم وضررها فتباعدوا عنها وحذروا منها وأفهموا قومهم سبيل العز والفلاح وأنه التمسك بهذا الدين الحثين والنور المبين . هذا هو الذي يجب أن نفهم قومنا العمل به وأن يسيروا عليه سيراً خالصاً صادقاً بدون وهن أو وقوف . وبالله العجب ، هل يسوغ في العقل والدين أن نفهم قومنا بأن يسيروا على نحو ما قرره في أغلالك هذه الويلة وادعيت أنه من الحقائق الأزلية الأبدية ولن يستغنى عنه مسلم ، ومن هذه الحقائق أن الرجود والبروق والعواصف تراض كما تراض الوحوش ، وأنه اذا تقابل اثنان فانه مع أقوامها ، وأن أعظم المظاهر الاسلامية كالمنابر التي يخطب عليها يوم الجمعة أدت شر ما يؤدي ، وأن المساجد التي تؤدى فيها الصلوات أدت شر ما يؤدي وأن هذه الخطب أيام الجمع إحدى النكبات ، وأنها كلمات خفيفات مبهيات ، وأن الصلاة حركات يمثلونها أو تمثل بهم ، وأن الدعاء ليس بوسيلة وليس له من فائدة سوى أنه يقوم بعملية تصريف خبيثة ضارة وأنه أيتها ملهة وتغويق ومصرف خبيث ، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يستطيع فراق الطبيعة وإنه ابتدأ رسالته بمناجاة الطبيعة وختمها بمناجاتها أيضاً ، وأن تعليم المرأة أو يجب من تعليم الرجل ، وأن الرواج تحكم في المرأة لا يجوز ، وأن قدرة الله على

تغيير الاسباب فوضى وسفه ، وإن المتهدين على اختلاف ديارهم وأجناسهم
وأنبيائهم وأزمنتهم وأمرجتهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ولم يكونوا فيها
مخلوقات متألفة ، وأن الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها العلوم المتكررة هم
المحتللون من الأديان ، وأن الانسان لن يتنجح حتى يكون سبييا محضا ، ولا
يكون سبييا ما دام مؤمنا بقدره الله الشاملة المتصرف في الاسباب ، وأمثال هذه
الآراء الكثيرة الملعونة ، والرعونات الجنونية والسخافات الباردة . ويل أمك
متى سولت لك نفسك أو عقلك أن المسلمين أو أن العروبة شاء أو لم تصحك
بعقولها حتى تسجل هذه المخازي الويلة ثم تدعى أنهم لن يستغفروا عنها ، وأن
النجاح في العمل بها والسقوط في تركها ، ثم توجب عليهم فهمها وافهامها
والعمل بها ، لقد ضللت إذن وما أنت من المهتمين

أما قوله : « إن الله خلق خلقه للسير الى الكمال والى الحياة القوية » فيقال :
الذى دلت عليه الشرائع والعقول السليمة أن الله خلق خلقه لعبادته ، فالتمسك
بدينه وعبادته هو السبيل الموصل الى الكمال الممكن في حقهم والى الحياة القوية ،
وأرفع الحياة القوية هي الحياة الأخرى في النعيم المقيم ، ولكن أنت جعلت
هذه الطريق لا فائدة فيها فصدت عنها ، وجعلتها عوجا ، لأنك ادعيت أن
طريق المجد ينحصر في الأخلاق الصناعية والتجارية ونحوها ، وجعلت
الأخلاق الدينية لها نتائج أخرى ، وادعيت أيضا أن سبب تأخرنا شيء واحد
هو الجهل بنواميس الطبيعة كما يأتي ، فقد خالفت الطريق الصحيحة الى الكمال
والحياة القوية ، واتخذت طريقا هو جاء مظلمة لا يسلكها أحد الا عطب
بوتلف .

ودعواه أن الله « ذرأ في خليقته بذور الكمال وذرأها مهياة لأن تبلغ أقصى
حما في الحياة من قوة ونجاح » (١) فيقال : لكن أنت لم تقبل الذي ذراه الله

(١) يعني دعواه أن الانسان بطبيعته شرير خبيث ظالم

قيها من البذور الطيبة الطاهرة ، بل عاديته وحاربه ورفضته وجملته ملهامة ومصرفا خبيثا وشرا يؤدى ، وهو الدعاء والثناء على الله والتوجه اليه بعبادته القولية والفعلية ، فانك قررت بأصرح عبارة أن الدعاء هو العبادة بلا خلاف ، ثم قررت أنه لا فائدة فيه بل هو ملهامة ومصرف خبيث ، وقررت أيضا أن الدعاء كالصلاة والحج وغيره من العبادات فجعلت عبادة الله التي انزلها لأجلها الكتب وأرسلت لأجلها الرسل والتي هي بذور الكمال الممكن ليست بشيء غير الضرر والتعويق ، فالتقوى والعمل الصالح والايمان بالله هو بذور الكمال الممكن كما قال تعالى ﴿ واذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴾ فبذر فيهم توحيدهم والاعتراف بربوبيته والوحيته وهم في أصلاب آبائهم ، وجعل حياة ذلك وغذاه بما آتاهم على السنة رسله من النور والروح والهدى والنيات التي هي الايمان والعمل الصالح ، فعمدت الى هذا البذر الطيب وعملت أقصى ما في وسعك لافساده ونحقه عن آخره . وقال تعالى ﴿ يا بنى آدم إما ياتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ فعلق سبحانه عدم الخوف والحزن على التقوى والعمل الصالح ، فدل على أن بذور القوة الصحيحة التي لا يدخلها خوف ولا حزن هي التقوى والاعمال الصالحة ، وأن من فقد هذا اعتقاده من النقص والضعف بقدر ما فقد منه ، وقال تعالى ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى فلنحسبه حياة طيبة ﴾ فعلق الحياة الطيبة على الايمان والعمل الصالح ، وأن من فقد هذا فقد من الحياة الطيبة بقدر ما تركه من الايمان والعمل الصالح ، وقل ان يوجد في الدول الكافرة دولة يمضى عليها في رفاقتها وقت طويل لم تصبها فيه نكبته ، وتلك المدة هي التي يمكن ان يعيش فيها الانسان طول حياته هادئا مطمئنا . وليس في شيء من النصوص أن الكمال والحياة القوية في تعلم الطبيعة هوواميسها ، الا على مذهب الملاحدة ، ومن سحر بأقوالهم من الذين لا يؤمنون

بأنه ولا باليوم الآخر من أصناف المناققين
أما ما ذكره من أن الله خلق الاشياء لتكون كاملة لأنه كامل ، فهذه
الفلسفة الباردة والادعاء المرفول لا يصح ، بل هو باطل ، فإن الله هو المختص
بالكمال الذي لا غاية فوقه ، أما خلقه فيختص المطيع منهم بالكمال الممكن في
حقه كل بحسب تقواه وصلاحه . ومعلوم أنه لو كان الخلق مثله في الكمال لكانوا
أربابا ، وهو باطل بالضرورة ، وتعليله باطل أيضا لأنه مجرد دعوى لا أساس
لها فتقابل بالرد

وقوله « وتبلغ أشدها في وقت من الأوقات » الى آخره فيقال : هذه
دعوى غامضة انما يصح ذلك في أهل الطاعة في وقت القيامة في النعيم المقيم ،
فلا حجة لك في هذا

ويجب أن يعلم وأن يلاحظ أن لهذا الملحد مغزى خبيث في هذا الكلام ،
فانه طالما كرره وردده بعبارات متنوعة مدخولا بشيء من الجمجمة (١) وهو
يرى أن العلوم المادية والمعارف والتفاعل المستمر في الطبيعة سيتطور حتى
يصل الناس الى حالة يقضون فيها على جميع الشقاء من الامراض والاسقام
والموت والهموم وغير ذلك من نقائص الحياة ، وهذا لا يمكن بحال

فصل

ثم قال « وقد حدث العلماء أن هذه الشمس الباهرة الوضاءة وهذه النجوم
المتلألئة وكل هذه الأفلاك التي تزين الظلام في حلجكة الليل الأصم وهذه
الارض التي صارت من كمالها وقوتها تنبت الانسان والحيوان وكل ما فيها مما
يجل عن الحصر والتسمية ومما يسعد الانسان ويهبه الراحة والعيش الهنيء ،

(١) بل صرح فيما يأتي بأنه ينتظر من فتوحات الانسان العلمية أن يقضى على
جميع صنوف الشقاء القضاء التام

حدث العلماء أن كل هذه الموجودات خلقت - أول ما خلقت - لا تصلح لشيء مما هي صالحة له اليوم ، وليست شيئاً له قيمة بالنسبة الى ما صارت اليه اليوم ، ولكنها ظلت لما وضع الخالق فيها من الاستعداد للكمال والتقدم تدرج الى غاياتها وتحبو في طريقها جادة لا يعوقها عائق ولا يصدها صاع ، حتى أصبحت اليوم شمساً ونجوماً وكواكب لامعة ، تغمر الوجود بهجة وبجمالاً وحياة وضياء .

فيقال : هذا برهانه على ما ادعاه في الجملة التي قبلها من بلوغ الناس الى الكمال . ويكفيك دليلاً على فساد هذه الدعوى أنه أعرض عن النصوص الدالة على الوصول الى الحياة الصحيحة القوية والى التقدم والنجاح وتعلق بهذا القول الذي نقله عن بعض ملاحدة أهل الهيئة ، فكره الطيب ومقته ونقر منه وأعرض عنه ، وعشيق الحبيث وأحبه وتعلق به واحتج به ، وهكذا يكون من انسلخ من آيات الله واتبع هواه . وينبغي أن يلاحظ أنه اذا أطلق العلماء فانه لا يريد من له أدنى معرفة في دين الله منها كانت حاله في العلم والمعرفة ، وانما يريد بهذا الاسم اذا أطلقه الملاحدة ومن على شاكلتهم كما نهيئنا على هذا وأعدناه ، لأنه سيتكرر كثيراً ، فينبغي ملاحظته . ثم لو فرض أن هذا الرأي الذي ادعاه صحيح فلا حجة له فيه ، فهل هذه الارض وهذه الموجودات وصلت الى ما وصلت اليه من هذه الحالة بتعلم قوانين الطبيعة ونواميسها فدخلت مدرسة تعلم فيها هذا العلم ، أم وصلت الى ذلك بخلق الله فيها ذلك ، وهل وصلت اضطراراً الى ذلك أو اختياراً ، فلا بد من التفصيل ليطابق هذا الدليل مدلوله .

فصل

ثم قال : « والانسان بلا أدنى ريب وهب من الاستعداد للكمال والوثوب والقدرة على إبراز أجمل ضروب الحياة وأقواها ما لم يوهب مخلوق آخر » قلت : هذا لا حجة له فيه ، لان حاصله ومعناه أن الانسان فيه استعداد

لمعرفة ضروب عظيمة من الصناعات ومخترعاتها ، وهذا لا ننكره ، وليس النزاع فيه ، ولو جعل أغلاله كلها في هذا الموضع لم تعارضه بشيء ، ولما كانت عند آل الأديان فشتما وجاربا ، وهذا هو الذي شأنه فيه ، لكن قوله هنا « وهب من الاستعداد للكمال » فيه ما فيه ، فأنما نمنحه الأخرى من عمل صالحا ويكون حينئذ كماله الممكن بحسب إيمانه وعمله الصالح ، وهذا المعارض لا يقول بهذا فلا حجة له فيه .

ثم قال « ولكن الإنسان لسوء حظه - وقد يكون لحسن حظه - جعل سيره نحو الكمال اختياريا آليا معا لا آليا فقط ، بمعنى أنه من الممكن بالنسبة له السير نحو الكمال والسير أيضا نحو النقص والدمار ، وكلا الأمرين بيده وتحت مشيئته لأن الله شاء له ذلك ،

فيقال : إذا كان سيره اختياريا لا آليا انتقض استشهاده الذي ذكرته عن علمائك في الشمس والنجوم والأرض ، فأنها على زعمهم تسير آليا فقط ، ثم قولك « ولكن الإنسان لسوء حظه وقد يكون لحسن حظه الخ » لا ندرى أيها أولى عندك فلم تبين الأولى ، وكون الإنسان جعل سيره اختياريا فنقول به في الجملة أي أنه مختار ، لكن ذلك بعد مشيئة الله تعالى ، ففعله مخلوق ، وليس الناس سواء في المشيئة ، بل المؤمن يختص بزيادة إيمانه فضلا ونعمة بخلاف الكافر ، وأنت سويت بينهما على مذهب المعتزلة ، بل هو شر منه كما يأتى في بحث القضاء والقدر وفي مواضع أخرى ان شاء الله تعالى .

ثم قال « فكان من اللازم الضروري الملاحظة على خطواته كيلا يزل أو يضل ولكيلا يخرج عن الطريق ، ولا جدال في أن شيئا من الأشياء لا يستطيع أن يصل إلى غايته المرسومة إلا إذا أزيلت عنه العوائق وزحزحت عنه الموانع ثم استعملت المواهب الكاهنة والهيبة استعداداته الطبيعية . ولكن يجب أن يفهم هنا - وهذا له شأن كبير - أن في استعدادات المواهب البشرية وفي طاقتها أن تمضى في سبيلها دون وقوف ، فعلمنا أن نرفع هذه الموانع ثم لا نحتاج بعد

ذلك لأن نلتمس مهمازاً ندفع به الانسان الى العمل بطبيعته ، بل هذا المهماز موجود فيه وفي طبعه ، فارتفعوا هذه الأوهام والخرافات والقيود الذهنية والاخلال الاعتقادية ، ثم انظروا كيف يكون الانسان ،

قلت : لا شك أن المحافظة على الخطوات وعدم الخروج عن الطريق أمر مطلوب ، لكن أنت خالفت ذلك فخرجت عن طريقك الاولى التي أقمت البراهين كما تدعى على أنها حق ، ثم خالفتها ووقفت في الخطل في خطواتك ، حتى رجعت القهقري وانحططت الى الوراء . ثم انه يجب عليك أن تبين هذه الموانع التي تريد ازالتها عن الطريق ، ولا سيما في هذا الموضع فيجب التصريح بها هنا ، ولا تكفى هذه الاشارة . ونحن نعلم أنك تريد بذلك الأخلاق الدينية كما فسرتها في المواضع الأخرى حيث ذكرت أن الدعاء ملهاة وتعويق ومصرف خبيث ، فهذه هي الموانع عندك التي يجب ازالتها مع ما ذكرته في خطب الجمعة وغيرها . ولكن الذى لا شك فيه أن الموانع والاخلال هي أغلاك فتجب إزالتها ، ومن العجب أنه سمي كتابه هذى هي الاغلال وقال هنا فارتفعوا هذه الاغلال ، فنقول صدقت فلنرفض هذه الاغلال رفضاً باتاً قبح الله من عملها ثم دعا اليها ثم دعا الى رفضها ، فسبحان من أخزاه . ولا شك أنها والله أغلال ، ودام عضال ، لمن ربح في ذهنه أو ارتاب في كونها مناقضة للدين ، فليبك على نفسه ، وليعلم أنه لم يعرف دين الاسلام ، فان هذه الاغلال غلت أهلها حتى خنقتهم خنقاً ممتاً كما وقع ذلك بالضرورة والتواتر ، ثم ماذا تريد اذا أزيلت هذه العوائق والموانع التي هي تعاليم الدين ، أتريد أن الناس يستبدلون بها أنظمة الملاحدة ، أم تريد أن يحلوا محلها أفكارك التي عملتها في هذه الاغلال وادعيت أنها حقائق أزلية أبدية تأخذ بها أمة فتنهض وتركها أمة قهوى ولن يستغنى عنها مسلم ، ولعل هذا هو مرادك لتكون المقدم في كل أمر كما تدعى في هذيانك البارد

وقوله : ثم استعملت المواهب الكامنة وألهمت استعداداته الطبيعية ، فهذا

تصريح منه بأن الطبيعة هي التي تدفعه الى الاعمال وتدبره ، فهي التي تهديه وتضله ، وهذا كما أنه يصادم الشرع والعقل فهو يناقض ما ذكره أيضا في بحث الانسان الآتي في دعواه أن الانسان خلق بطبيعته شريراً خبيثاً شيطاناً ، وأنه لولا التعاليم لنشأ على الجهل والظلم والعدوان المطلق الذي لا يعرف القيد والضبط ، فكيف يدعى هنا أن الطبيعة هي التي تلهب استعداده وأن مهامه موجود فيه ، وقد استكبر عن أن يقول : يستعين الله ويستمد منه المعونة والتوفيق ، فشمخ عن ذلك بأنفه المرغم ، ولكن نحن نقول يجب على الانسان أن يستعين الله تعالى ويستمد منه المعونة ويصدق وينصح معه ويعلم أنه الجواد الكريم القادر القاهر الذي لا يخيب من سأله بصدق ونصح وإخلاص ، وليس للمسلم نجاح بدون هذا أبداً ، وإنما يؤتى الانسان من نفسه وسوء معاملته مع الله وجهله بتعظيم دينه واحترامه ، والا فن رسخ الايمان في قلبه دفعته حرارة الايمان الى أصح الاعمال وأنفعها وأرفعها ، فانها حرارة ربانية ، وقوتها وضعفها بحسب قوة الايمان وضعفه ، فلا أنجح من هذه الطريقة ، أى الحرص على ما ينفع والاستعانة بالله كما قال عليه الصلاة والسلام « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز » الحديث

وأما دعواه أن في استعدادات المواهب البشرية وفي طاقتها أن تمضى في سبيلها دون وقوف ، فهذا اشارة الى ما كرره مرارا لا تحصى أن قدرة الانسان لا حد لها بل صرح بأنه لا يقال لشيء من الاشياء مهما بلغ ما بلغ هذا فوق قدرته ، وصرح بأنه يعلم خلق السموات والارض وخلق نفسه وخلق كل شيء ولهذا ادعى هنا أنها تمضى في سبيلها دون وقوف ، اذ لو كان فوق قدرتها شيء لوقفت دونه . ثم انه لحرصه على رفض الاعتقادات والاعمال الدينية وكرهته لها ولأهلها طالب ازالها أولاً ثم طلب رفعها ثانياً فقد أثقلت كاهله كما غمت قلبه وروحه ، فليمت كمداً وليعلم أن أخلاق الدين هي النور والروح وقرّة العين والافراح واللذات والنعيم الذي لا يعادله شيء وحياة القلب التي ما طابت الحياة

إلا بها ، فهي البصائر النيرة التي من سار على نورها ومشى على ضيائها وصل إلى محبوبه وتحصل على مطلوبه ، ومن أعرض عنها هوى في دركات الضلال والظلام ، بل هو كمن خر من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح في مكان سحيق فلا يرجى له حياة ولا خلاص كما ذكره الله ، وهي الحد الفاصل بين الإنسان وشر الحيوان ، فهي الحد الفاصل بين الحياة والموت والنعيم والجحيم ، وسيعلم هذا الملمد أن ما سلكه في محاربة هذه الأخلاق الدينية وجعلها ملهة وأغلالاً وعوائق وأوهاما أن ذلك كله هو ما دعا إليه في كتابه من النفاق والشقاق والحسنة والنذالة والجشع والخبث والذل والسقوط النهائي وقد ذكرنا في أول هذا الكتاب ما يتعلق بالأغلال وأن ما رمى به المسلمين هو أولى به بلا شك ولا أدنى ريب

خلاصة هذا المبحث

قد فهمت - أيها القارى العزيز - أن خلاصة هذا المبحث الذى هو كالمقدمة لهذا الكتاب أن مؤلف الاغلال ادعى أن تأخر المسلمين لم يفهم أحد من جميع الناس سببه ولم يعتن به أحد أو يفكر أو يبحث فيه غيره ، فهو الذى فكر فيه وحده وهو الذى عرف سبب التأخر ، وهو ما وصفه في هذا الكتاب ، وقد عرفت جوابنا عن ذلك ، ولكن نختم هذا المبحث بمعرفة أمور : أحدها أن هذا الرجل له والده كبيرة السن ضعيفة موجودة الآن في قرية من قرى القصيم وهي على قيد الحياة ، وقد غاب عنها ما يزيد على ثلاثين عاماً وقد وصل إلى الحجاز مرات فلم يصل إليها ولم تسمح نفسه أن يكتب لها حرفاً واحداً ، وقد كاتبته مراراً بواسطة العالم الوجه الشيخ محمد حسين نصيف وغيره وأوصلوا رسائلها إليه ونصحوه في ذلك فاستكبر عن الإجابة . ولما قدم الحجاز سنة ثلاث وستين حاولت وصوله إليها وكان في استطاعته اذ ذاك أن يصل إليها بدون مشقة بواسطة المواصلات المتيسرة ، فرفض ذلك ورجع إلى

مصر ولم تسمح نفسه في هذه الحقبة الطويلة أن يرسل إليها ما يساوي درهماً واحداً على شدة ما بها من الحاجة ، بل لم يسئل عليه أن يكتب لهذه الوالدة سطراً واحداً يعادل سطراً من هذا الكتاب الذي مكث في تصنيفه ست سنين لم يقطع منها ست دقائق من الزمن يكتب لها فيها رسالة يسترضيها ويزيل ما ألم بخاطرهما من طول الفراق . فيا لله العجب ، هل يوجد عقل صحيح يصدق بأن رجلاً يبخل عن والدته الكبيرة الضعيفة بأضعف وسيلة توجد على وجه الأرض لترضى عنه ، ويريد مع هذا أن يفيض جوده على المسلمين الذين يقول عنهم أنهم يبلغون أربعمائة مليون بكتاب يخرجهم به من الظلمات إلى النور فيصروا طريق العقل - كما يدعى - وينقذهم من استعمار العدو واستعباده . لا شك أن الإنسان الذي يصدق بهذا إما غبي أحمق مفرط في الغباء والجهل وإما معاند قد غلب على شعوره العناد . (يا شمس التي في غير برجها) إذا كنت عجزت عن أن تصلح شأنك مع أمك بنحو عشر كلمات ، وأبيت إلا أن تقابلها بالعقوق والهجر القبيح تكبرا واختيالا ، فكيف تريد أن تصلح الناس ؟

يا أيها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم
ابداً بنفسك فأنها عن غيبا فإذا انتهت عنه فأنك حكيم
لا تنه عن خلق وتأني مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

لقد عرف الناس كلهم - إلا من شاء الله - أنك امرؤ شغوف متهاك إلى حد بعيد في حب المادة وحب الشهرة الزائدة ، وكفى بك كتبك كلها وما نقلناه في هذا الكتاب دليلاً على ذلك ، ومن كان هذا خلقه فاني يكون صدوقاً نصوحاً

الأمر الثاني - أن جميع العلماء الدينيين الذين اطلعوا على هذى الاغلال ودرسوه وفهموه وهم على بينة من ربهم وبصيرة من أمرهم قد عرفوا حقيقة مغزاه ومزمزه وأنه مضاد للشريعة الغرام مناقض لما خادع به وادعاه في مطاوي كتابه ، وبينوا أنه نفاق ظاهر وخداع بين ، وأن موضوعه دعاية بخينة ضد

الاسلام وروحه ، ولا يخفى هذا إلا على مطموس البصيرة مخسوف القلب لا يعرف حقيقة دين الاسلام ولا حقيقة النفاق والاحاد والكفر ، فإن أصدق صورة ترسم للمنافق صورة هذا الموقف الذى اختاره لنفسه هذا المؤلف فى عملية هذا الكتاب ، وقد نوه العلماء بهذا وكلامهم فيه كثير جدا ، ومن تركه منهم فانما تركه اما احتقارا أو أنه لم يطلع على كلامه ولا أحاط بمرامه ، وعلماء نجد كلهم - لا أستثنى منهم أحدا - لا يشكون فى كفره ومضادته للاسلام ، وكذلك علماء الحجاز الذين عرفناهم ، وقد رد عليه كثير من العلماء بمقالات كثيرة متنوعة مشهورة وكشفوا خداعه وخزيه فى مصر والحجاز وغيرهما ، ولو ذهبنا ننقل كلامهم لطال الكتاب جدا ، ومن نبه على ذلك الاستاذ السيد قطب الكاتب المشهور فى مقالة له نشرت فى مجلة الهدى النبوى عن مجلة السوادى قال السيد قطب :

هذه هى الاغلال

لم اكن أنوى أن أكتب شيئا عن هذا الكتاب ، لا خيرا ولا شرا ، فاعمل صاحبه يصل الى أهدافه الحقيقية : الشر والخير سواء . وللكتاب صاحبه معى قصة ما كنت لأفشيها للناس لولا أنها تكررت مع غيرى ولم تعد سرا : أهدى الى الرجل كتابه ، ومضت فترة لم أكن قد فرغت فيها لقراءته ، ثم تفضل فزارنى مع صديق كريم عزيز أحمل له فى نفسى وذا مكينا ، وأسرى الى الصديق ثم أعلن أنه وافد لى فى مهمة . إن حرية الفكر فى خطر ، فهذا الرجل صاحب الكتاب قد عنت له أفكار وآراء جريئة فأودعها كتابه ، وخصومه من الرجعيين والتفيعيين فى الحجاز يدسون له هناك ، وأنه على وشك أن يستدعى لمحاكمته وربما لشنقه ، وإن على كتابه يقدر رسالة الفكر أن أشارك فى الذود عن حرية الفكر الموشكة على الاختناق . ولم يكن بد من أن أتحمس فى أول الأمر ، فعزيز على صاحب فكر وقلم أن يسمع ويرى خنق

حرية الفكر ولا يتحمس أو يشور ، ووعدت أن أقبل في حدود ما أستطيع .
وجلس الرجل وأخذنا باطراف الحديث في داري ، وشيئا فشيئا بدأت أن
أشتم رائحة في الحديث ، رائحة ليست نظيفة .

هذا رجل يريدني على أن أفهم أن الإنجليز في الشرق قوم مصلحون لا
مستعمرون ، وأن وسائلهم في الشرق أرقى وأكرم من وسائل المسلمين عندما
استعمروا الشعوب ، وليس المسلمون هم الأتراك مثلاً فأجد عذرا ، ولكنهم
أصحاب محمد بن عبد الله وعمر بن الخطاب ، بل القرآن الذي أباح التخريب
والتمثيل ، وكان ذلك كله ردا على ما قلته له من أن الاستعمار لا قلب له ولا
ضمير ، وأن الحضارة الأوروبية الحديثة تستخدم وسائل غير انسانية في
الحروب وغير الحروب (١) : إن المسلمين صنعوا تلك الشناعات وبعد ما صنعوها
جاء القرآن ليبردها لهم ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها
فياذن الله ﴾ ولم يرد أن يستمع الى حديثي عن وصايا النبي ﷺ للقواد ، ولا
الى وصايا خلفائه الانسانية الرحيمة . فليكن . فقد تكون تلك عقيدة يجاهر بها
صاحبها ويتحمل تبعاتها ونتائجها . ثم ماذا . ثم يجب أن ننفي العنصر الاخلاقي
من حياتنا ، فالحياة لا تعرف العناصر الخلقية ولا قيمة لها في الرقي والاستعلاء
هذا والمسلمون لم يكونوا في أى عصر من عصورهم حتى أيام محمد إلا فساقا
فجارا وهم الآن في البلاد المحافظة أفسق وأجف ، ولا عبرة بهذا كله فقد كانوا
أقوياء وهم فساق فجار ، لأنهم آخذون بوسائل الحياة المادية ، وهم ضعفاء اليوم
مع فسقهم وفجورهم لأنهم لا يأخذون بوسائل الحياة المادية ، والمعول على
هذه الوسائل لا على بر أو فجور .

فليكن أيضا ، فقد تكون أيضا تلك عقيدة الرجل ، وأنا مستعد لأن
أستمع لكل عقيدة يجاهر بها صاحبها ويتحمل تبعاتها ونتائجها . وطال الحديث

وأنا بعد هذا كله لا أزال معتز ما أن أقرأ الكتاب ، فإن وجدت فيه حرية
ورأى حقيقية وفكرة ناضجة قوية دافعت عن الرجل ولو خالفته في فكرته كل
المخالفة . ثم عدت الى الكتاب ، وهنا تحول شعوري الى اشتزاز عميق . هذا
رجل يتافق ، يريد أن يطعن الطعنة في صميم الدين خاصة ، ثم يتواري
ويتحصن في الدين وينكر ما قد يفهمه القارئ من بعض النصوص ، ومن
روح الكتاب كله وراء النصوص . ثم هذا رجل يسفسط ولا يأتي بشيء :
(دون كيشوت) جديد يطعن في الهواء ويحارب أفكاراً لم يعد لها وجود منذ
خمسين عاماً على الأقل . ثم هذا رجل يسرق أفكار غيره بالنص ، وينكر أن
يكون قد قرأ شيئاً من هذه الأفكار ، ثم - وهو الأهم - هذا الرجل مرئب :
(١) فطبيعة المتدين - غالباً - طبيعة فاترة فاقدة للحرارة المولدة للحركة ،
المولدة للابداع (ولنرجع ففكر مرة أخرى أن الدين نفسه لا ذنب له ،
ولكن الذنب ذنب النفوس البشرية التي لم تستطع أن توجد التعادل بين
الكفتين ، والتوفيق بين الروحين : روح الدين وروح العمل للحياة) . هكذا
طبيعة المتدين غالباً - طبيعة فاترة فاقدة للحرارة الخ . ثم الدين نفسه لا ذنب
له وأمثاله في كل موضع كثير ، والحديث عن الخلق كالحديث عن الدين ،
فهو دائماً ضد العنصر الأخلاقي ، يراه قيداً معجزاً وضعفاً زرياً ، ثم يتواري
بعد هنيئة وينكر ما تنطق به النصوص

هذا رجل تنقصه الجرأة على أن يقول ما يريد أن يقول ، وإذن فلا حرية
فكر ولا خطر على حرية فكر ، إنما هي دعوة خبيثة ملتوية ضد الدين ، وبخاصة
الاسلام ، وضد الروح الخلقية في النفس والضمير

(٢) من من الشعوب الاسلامية الآن يكتفي في مجاهدة الغربيين بالدعاء
بان يحرق الله بيوتهم ويقيم أطفالهم الخ . قد تكون هذه بعض دعوات المنابر
التقليدية ولكن الشعوب هذه تجاهد وتقاوم وتكافح وتثور وتسيل دماؤها في
كل مكان ، ولكن المخالف لا يرى في المسلمين إلا هؤلاء الداعين على بعض

المنابر ، ويحيى بكتابه ليقول : انكم جميعا أخطأتم الطريق باقتصاركم على هذا الدعاء .

هكذا معظم كفاحه لتصحيح أفكار المسلمين (دون كيشوت) : يطعن في الهواء وينازل الاشباح ويحارب الافكار التي حاربها الزمن منذ خمسين عاما أو تزيد (٣) وفصل ضخيم هو أحسن فصول الكتاب عن الايمان بالانسان ، وهو عنوان كتاب الاستاذ عبد المنعم خلاف ، ولا يشك إنسان أن مؤلف الأغلال انتفع بهذا الكتاب انتفاعا كاملا ، وليس في هذا من حرج ، ولكن الرجل حينما سمع مني اسم الكتاب أبدى أنه لم يسمع به أصلا . لم احترم هذا التجاهل ، لانه ليس سمة الباحثين المخلصين

(٤) « نؤمل اليوم أن تحميينا بريطانيا وأمريكا من هذا الغزو المحيط بالماحق ، الغزو الصهيوني ، مع أنها هما الحصان . اننا ندع أنفسنا كثيرا ونفضلها حينما نظن أن في حولنا - لو تخلت هاتان الدولتان - أن نحمل أنفسنا بقوانا الخاصة من غزو الصهيونية وأخطارها ، فالصهيونيون مسلحون اليوم بأعظم وأحدث القوى العلية والصناعية والمادية والفكرية ، أما نحن فنسكاد نكون مجرد دين من كل ذلك . » واذن فعلينا أن نبدأ في الاستعداد لحماية أنفسنا والى أن نستعد يجب أن نحافظ على بقاء قوة انجلترا بجانبنا لتحميينا من الغزو الصهيوني (هنا رائحة ما)

هذا رجل لا يخاف عليه من اعتقال ولا شق ولا سواهما ، انه رجل يعرف طريقه جدا ، فلا داعي للخوف الشديد ، وعلى أن الاسطوانة التي أديرت على أذني أديرت على آذان الكثيرين ، واستنهضت بها أريحية الكثيرين ، وقد تحمس الاستاذ اسماعيل مظهر فكتب كلمة قوية في الكتلة عن الكتاب (انا واثق انه لم يقرأه الى نهايته ، وإلا فإن تفوت فطنة الاستاذ اسماعيل أن تتبين في ثنايا الكتاب شيئا غير نظيف) . وكنت بعد هذا كله على نية أن أسكت ، لولا أني وجدت بدم ضخمة مفتعلة تعطي الكتاب أكثر من

قيمته ، وتصور المسألة على غير صورتها . ولا بد من أن الأستاذ السوادى وأنا أعرف أريحيته قد تأثر بالأسطوانة المثيرة ففتح صدر جريدته للدفاع عن حرية الرأى المهددة بالشنق . لقد كنت على استعداد أن أدافع عن حرية الرأى المخالف لو وجدت شيئا ذا قيمة ، ولو وجدت ايمانا حقيقيا بفكرة ، ثم لو لم أشم هنا وهناك رائحة بشىء ما ، شىء غير نظيف . انتهى

وقال الشيخ الفاضل الاستاذ محمد عبد الظاهر ابو السمع امام وخطيب الحرم المكي فى كتابه حياة القلوب (ص ٩٣ الطبعة الثانية) : والملاحدون فى كل أمة متدينون دعاة فتنه وقادة همجية ، لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرا ، فهم بلاء الشعوب ووباء الانسانية ومرضها وعلة الاجتماع ، ولا شفاء للأمم منهم إلا بضرب أعناقهم واستئصال شأفتهم ، وملحد الأغلال بزّم فى البهتان ، والكذب على الله والقرآن . فالقرآن يدعو الى الايمان والأعمال الصالحة ، هو الى العلوم والمعارف - الى أن قال - وقد قلنا فيه وفى أمثاله هذه القصيدة :

(الى صاحب الأغلال)

مدحتك يا أخا الأغلال قبلا	بما ألفت من سفر الصراع
وأما الآن فاسمع من قوافى	هجائك مهلكات كالافاعى
تساور مارقا يدعو لكفر	ترددى فى الثرى بعد ارتقاع
عزوت الى الشرائع كل نقص	ومنك النقص فى كل المساعى
وقلت الدين آخر تابعيه	وهذا قول أحق لا يراعى
أتنكر دين خير الخلق طرا	وتاريخنا تواتر بالسماع
أتنكر يا غوىّ قرون صدق	سموا بالدين فى كل البقاع
أما ملكوا الورى فى كل قطر	بدينهم القويم والاتباع
أهذا الدين آخر تابعيه	وهذا الدين من رب مطاع
فقل لى يا أخا الأغلال واصدق	أكذب منك أم قصر اطلاع
جنون منك أن تدعو لكفر	وتؤثره بمنزور المتاع

تبسح الدين بالدنيا غرورا
 أما ذك الصحابة كل عرش
 فسل ان كنت لم تعلم ولا
 أيا بلعام عصرك أى أرض
 وقد بارزت رب العرش جهلا
 فن يحميك من رب غيور
 أما والله ان الدين عز
 وليس الذنب ذنب الدين لكن
 لقد أسرفت فى الأغلال حتى
 وقد والله أشمت الأعادى
 فبين بالأدلة أى غل
 وفى التنزيل أم سنن صحاح
 تحبذ فعل افرنج تولوا
 وتهوى أن تعيش الناس قوضى
 وتدعو للتبرج كل أنثى
 أندعو للجهالة بعد علم
 أيعجبك الفرنج وهم وحوش
 فما يرجون من رب ثوابا
 ويوم الحرب عندهم جحيم
 على الاطفال والضعفاء ترى
 ولولا الشرق فى نوم عميق
 فأبشر يا غوى بكل خزى
 ستندم يوم تجزى كل نفس
 لتشهر بين أوباش رعا
 بهذا الدين من بعد القلاع
 فدار الجهل يابن بنى لكاع
 تقالك والآنم عليك داع
 لكفير فيك أو لؤم الطباع
 شديد البطش ذى أمر مطاع
 لمن والاه حقا باتباع
 ذنوب الجاهلين بالابتداع
 سقطت وكنت طلاع التلاع
 بلا سب لديك ولا دواع
 أقى فى الدين عقل أو سماع
 نهاك الله عن حسن اختراع
 عن الاديان والرب المطاع
 كأنعام تسافد فى المراعى
 بلا خجل لديك ولا ارتداع
 واللفحشاء والنكر المشاع
 وما للخير عندهم دواع
 ولا يخشون كالأبل الرتاع
 تصب على الأكابر والرعاع
 بلارفق أضر من السباع
 لما نعم العلوج بهذا المتاع
 وما تلقاه من صفع السيراع
 بما عملت لدى نشر الرقاع

أنتكر يوم كنت حليف فقر وقال في ثيابك واللفاع (١)
فلما أن حباك الله ما لا لتشكره بقدر المستطاع
بطرت وقت للرحمن حربا بلا خجل لديك ولا قناع
خسرت الدين والدنيا جميعا وما لك في القيامة من دفاع
فتب لله قبل الموت واصلق ودع ما قد نسجت من الخداع
نصحتك أن قبلت اليوم نصحي وان تعرض فاعلان الوداع
ويوم الحشر يندم كل باغ ويلقى ما جرى صاعا بصاع
وان متعت أياما قصارا فما الدنيا الغرور سوى متاع

وقال أيضا مرفوعة الى الملحد الدجال :

قولوا لهذا الملحد الدجال أحبطت ما قدمت من أعمال
وسيت دين الله يا شر الوري وأطعت كل مضلل دجال
وتقول ان الدين آخر أهله ثكلتك أمك من جهول قال
أو لم تر الاسلام قدّم أهله في سنالف الأزمان والأجيال
وشهادة التاريخ والسير التي تتلى وما تخفى على الأطفال
وكتابه الشافي لكل جهالة يدعو الى الاحسان والاعمال
ويبصر العميان اذ يهدي الى سبل الحياة بأبلغ الاقوال
يا عائب الدين الخفيف بجعله وبأنه كسلاسل الاغلال

(١) مقصوده من هذا التذكير أنه قد كان من الواجب عليك أن تشكر الله على نعمه التي متعك بها بعد أن كنت على تلك الحالة طريدا شريدا ، وتبذل جهدك في الدعوة اليه والى دينه ، ولكن عكست ذلك فبدلت نعمة الله كفرا . والتذكير بهذا أمر مشروع كما في الآيات والأحاديث ، وما أحسن ما قيل في مثله :

فان تكن الدنيا أنالتك ثروة فأصيححت ذايسر وقد كنت ذا عسر
لقد كشف الأثرام عنك مساويا من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

هات الأدلة يا جهول بنصها واذكر لنا دعواك بالأمثال
الدين قال الله قال رسوله لا قول مبتدع وفعل ضلال
ما أنت إلا ناقل ومقلد للملحدين شراة في المال
قد بعث دينك تبغى الدنيا به وستبلى بالفقر والاذلال
ومن الغباوة والضلالة زعمه أن الآلى فضحوه في الاغلال
حسدوه ما ادرى لآى فضيلة لأنه أربى على الضلال (١)
وأنى بما أعجى الأوائل قبله من كل سخف مضحك وخبال
الى أن قال :

فأربأ بنفسك أن تحارب قادرا يرميك في النيران بالأغلال
وارجع الى الاسلام والعرب الآلى نصروه بالأرواح والأموال
ولم الكسالى ان أردت ملامة فالذنب ذنبهم بغير جدال
شهدت له الافرنج عن علم به من بعد بحث دائم وسؤال
دين يحث على الفضيلة والتقى وعلى العلوم ونيل كل كمال
يرميه بالبهتان أخرج أحق أعمى جهول خائب الآمال
حقا لقد هزلت وقام يسومها نذل غبي غافل متغال
أرضيتم يا مسهلون بسبكم وبسب دينكم القويم الغالى
أين الشهامة والشجاعة أين غي رتكم على الاسلام فى ذى الحال
وقد رد عليه كثير من العلماء نظما ونثرا (٢) وكلامهم فى ذلك كثير مشهور

(١) لما انكشف أمره وقام العلماء ضده ادعى أنهم حسدوه كما قال أسلافه من
المنافقين (بل تحسدونا) ولم لم يحسدوك على كتبك السابقة وهى أكبر منه ،
بل مدحوك عايها ، ف هؤلاء الذين تدعى أنهم حسدوك هم الذين قاموا معك فى الدفاع
عنك ومساعدتك فى كل شىء قبل هذا الكتاب

(٢) للشيخ الفاضل محمد حمزة عبد الرزاق مجلد لطيف فى الرد عليه

الامر الثالث : أن من تأمل كتابه حقيقة التأمل علم بلا أدنى ريب أنه ليس فيه دعاية صحيحة نافعة لا قليلة ولا كثيرة ، لا حث على عمل ولا غيره . مع ما فيه من الكفر ومحاربة الأديان ، غاية ما يروج على بعض الناس في بعض كلامه هو ذلك الاسهاب والاطناب في مدح العلم مطلقا بدون تعيين مسماه والثناء عليه وذم الجهل مطلقا والنهي عنه . ومعلوم أن أدنى عامي فضلا عن غيره لا يمدح الجهل ويذم العلم بهذا الاطلاق ولا يقر بان ما هو عليه جهل . وأنه يكره العلم . وليس الشأن في مدح العلم وذم الجهل هنا ، فان هذه قضايا مفروغ منها عند الخاص والعام ، فكل الناس اليوم وقبل اليوم يمدحون العلم ويذمون الجهل ، ولكن الشأن في بيان العلم الممدوح وما يراد به والجهل المذموم وما يراد به ، فان العلوم وموضوعاتها أكثر من أن تحصر ، وكذلك الجهل . وكل ذى عقل يتدبر كلامه يعلم أنه يريد بالعلم الذى يدعو اليه أشنع ضروب الجهل ، ويريد بالجهل الذى يحذر منه أعلى العلوم وأرفعها على الاطلاق . وهو علم أصول الدين كما يأتي تفصيل ذلك . وليس بعجيب أن يعتمد إنسان الى أوراق فارغة مهما بلغت في الضخامة والكثرة فيحشوها من مدح العلم والصحة والعافية والاستقلال والمجد والسيادة والسعادة وحب الجمال ، ويذم فيها الجهالة والمرض والجوع والضعف والخرافات والباطيل والجنون ، فان هذه كلها قضايا كلية قد عرف الناس كلهم ما يمدح منها وما يذم ، فلو أنه أضاف الى ذلك بيان أن الشمس ساطعة مشرقة وأن الليل أسود حالك وأن النار حارة يابسة والماء بارد رطب وأن السماء فوق الأرض وأطال في ذلك لكان من جنس ما قرره في تلك القضايا سواء بسواء ، فان معرفة الأساس بضرر الجوع والمرض وحسن الصحة والعافية ونحو ذلك من جنس معرفتهم بضيام النهار وظلمة الليل ، انما الشيء المطلوب الذى يجب معرفته وإيضاحه هو بيان الطرق العملية الصحيحة النيرة التى يتوصل بها الى المطالب الصحيحة المقصودة والاهداف الغائية ، وبيان العوارض والموانع التى تعترض فيها فتنسدها أو

تعميها ، بمقدمات صادقة وبراهين معقولة ، ثم عرض ذلك على العقول لتعرفها وتحكم فيها . أما حشو الكتب بالتهكم والاستهزاء والسخرية والسباب والاتهام والترهات والرعونات التي لا تخصي فليس ذلك من التحقيق في شيء ، بل هو دليل واضح على ضعف عقلية من سلك هذه الطريق ، ولولا الضجة التي قامت حول هذا الكتاب لكان كاحدى تلك الآراء الأخرى المنبوذة المجهولة ولم يلتفت إليه أحد لظهور هيجته وقبحاته ، ولكن صارت شناعته وإشاعته وشذوذه ومخالفته سببا في انتشاره والإطلاع عليه على حد قول القائل « خالف لتذكر » . والناس في أمره أصناف منهم من يعلم أنه دعاية الحادية لا ريب فيها ، ولكن لا يهमे ذلك ^(١) . وصنف كذلك يراه دعاية ضد الدين في الحث على رفضه ، ولكن يؤسفهم ذلك أشد الأسف . وصنف آخر وهو الأهم وهؤلاء منهم من اذا كان راضيا على الانسان موافقا له في شيء ما من أمور الدنيا لم يعبأ بما يصدر عن هذا الانسان مما يمس بالدين ولم يبحث عن ذلك سواء فهمه أو لم يفهمه ، بل ربما كلف نفسه العاية والتغافل عن هذه الأمور الدينية مرتبيا أن ذلك أسلم له . وفريق من هؤلاء يتشأون في بيئة ويئة من أمراض الشكوك والشبهات والشهوات ، فلكثرة احتكاكهم بأهل هذه الأمراض المتنوعة المختلفة وتأثرهم بهذه العال ضعف احساسهم وشعورهم الديني فأصيبوا بضعف البصيرة والبلادة المنكرة فنشأ عن ذلك ذهاب عظمة الدين من قلوبهم واحترامه وإجلاله ، والبعد كل البعد عن كل لفظ يمس أدنى ناحية من شرفه ، بل صار الدين عند هؤلاء ليس له قيمة كبيرة بالنسبة الى بعض الأمور الدنيوية سواء كانت كبيرة أو صغيرة ، بل متى وجدوا كلاما يقدح فيه التمسوا لقائله تلك المعاذير الواهية وارتكبوا في تأويل كلامه ما هو أشد المحال . ومن العجب أن بعض هؤلاء لو وجد أحد منهم رجلا - ولو كان عفيفا - في بيته أو مع أهله في حالة منكرة جدا فادعى هذا الرجل أنه ما دخل البيت الا ليصلح أمور البيت أو من في البيت لكذبه ولم يقبل منه أى

(١) لأنه لا يهमे من أمر الدين شيء

عذر أو تأويل ، ولم يلتفت إلى ذلك بل يحزم بكذبه بل يرى أن تصديقه عين الغباوة والعار الشنيع والجنون لأن ادعائه يناقض ظاهر الحال ، ومع ذلك تجده يرى رجلا يهجم على حرمة الدين ويكتب النصوص الواضحة التي لو كتبها أ كفر يهودي ثم اعتذر عنها لضحك الناس من عذره ، فينتهك حرمة دين الله ثم يصدقه في خداعه أو يشك في صدقه . لماذا فعل هذا هنا وتركه هناك ، فعله من أجل أن حرمة الدين ليست بأمر كبير عنده تساوى متاع بيته أو حرمة بيته أو جاهه أو شرفه ، فغيرته على دينه قد انطقت في تلك البيئة الفاسدة أو غيرها حتى ضعف شعوره وإحساسه بما يجرح دينه ويقدح فيه ^(١) . أو فريق من هؤلاء يأتى بأعذار متناقضة لا يعمل بمقتضاها ، فيقول مثلا ان التكفير والتضليل أمر ليس بالسهل ولا بالأمر الهين ، فلا يمكن الوصول إليه الا بكيت وكيت . ويا ليت هؤلاء صدقوا في هذا الادعاء وتركوا التكفير تدينا محضا ولم يتناقضوا فيه ، فنحن نقول لهم الأمر أعظم والله عما ذكرتم ، ولكن لو أنكم عرفتم عظمة الدين وعظمة احترامه وجلالته وجلالة منزله ومنزلاته وأنه شرع الله ونظامه الذى قامت عليه السموات والارض وخلق لاجله الوجود وأرسل من أجله الرسل وأنزل من أجله الكتب ، ووازتم بين عظمته في نفسه وعظمته عند الله وبين تكفيركم لمن قدح فيه وسبه لعلمتم حينئذ حكم التكفير ، ولكنكم حكمتهم بعظمة التكفير من غير أن تعرفوا حدود موضوعات ما حكمت فيه ، وبمقدار ما خف أمره في قلوبكم ثقل عليكم تكفير من تعرض له ، ولو علمتم أن قوما من الذين غزوا الروم مع النبي ﷺ كفروا بسبب كلمات قالوها على وجه المزح واللعب كما قال تعالى ﴿وائن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون . لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ الآية لعرفتم مقدار فكرتكم هذه . ثم اننا قد رأيناكم أعظم الناس ثورة وهياجا حينما ينال أحدا منكم شيء في أعراضكم أو

(١) وليست الخيانة في الدين بأقل من الخيانة في المحارم أو الوطن ، بل هي أشنع منها ، فما باله تساهل هنا واشتد هناك ، أليس ذلك من ضعف حرمة الدين في قلبه

سياستكم أو أموالكم أو محارمكم فتشتمون وتلعنون بل وتكفرون وتفعلون من المجازفات في الألفاظ والرسائل والاحكام مالا يسوغ في العقل والدين ، أما حق الله في دينه فانه دون ذلك لديكم . ثم ان عدم التكفير في العظمة والخطورة والحرمة من جنس التكفير سواء في الاثم ، فان من لم يكفر الكافر فهو كافر بالنص والاجماع ، وقد قال العلامة المحقق عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن ^(١) « اعلم أن من تصوّر حقيقة أى شىء على ما هو عليه في الخارج وعرف ما هيته بأوصافها الخاصة عرف ضرورة ما يناقضه ويضاده ، وانما يقع الخفاء بلبس احدى الحقيقتين أو بجهل كلا الماهيتين ، ومع انتفاء ذلك وحصول التصور التام لهما لا يخفى ولا يلبس أحدهما بالآخر ، وكم هلك بسبب قصور العلم وعدم معرفة الحدود والحقائق من أمة » انتهى . ولا شك أن من لم تحل عظمة الدين واحترامه قلبه ولم يتصوره تصوراً صحيحاً فانه لا يعرف مضاده . ويجب أن يعلم أن القلوب تمرض كما تمرض الأبدان سواء بسواء ، فنسبة أمراض الأبدان واختلافها بالخفة والشدة كنسبة أمراض القلوب بالخفة والشدة ، فالاحاد للقلب كالجذام للبدن ، وهكذا الامراض فكما أنها تضر بالبدن وتعدى وأكثر ما يكون تأثيرها في الاجساد الرديئة الضعيفة المزاج لعدم قوة الحياة المادية المقاومة لها فكذلك أمراض الاحاد والكفر أكثر ما يكون تأثيرها في القلوب التي ضعف حياتها الدينية الصحيحة القوية التي تضاد هذه الأمراض وتدفعها دفعا عنيفا . ومعلوم أنه بقدر ما يكون في القلب من حب الدين والشرع يكون فيه من الحياة والصحة والقوة الدافعة لما يضادها ، وبمقدار ما يكون من ضعفها فيه يكون مقدار تأثير تلك الأمراض فيه . واذا عرفت هذه القاعدة هان عليك معرفة سرعة اذبار الدين وهان عليك معرفة سرعة سريان الاحاد والفلسفة في الأمر التي ليس معها دين صحيح فان سريان أمراض الوباء الخبيث في الاجسام القابلة له أعظم من انتشار الصحة فيها ، وهذا ظاهر لمن تأمله

الكلام على المبحث الثاني

قال الملحد :

« لقد كمروا بالانسان - الايمان به أول

وسواه في غمراته يتقهم
يسمى ليعلم أنه لا يعلم
(الرخمرى)

وأكثر سعى العالمين ضلال
سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
(الرازى المفسر)

حار أمرى وانقضى عمري
رجحت الا أذى السفر
أنك المعروف بالنظر
خارج عن طاقة البشر
(ابن أبي الحديد المعتزلى)

وسيرت طرفى بين تلك المعالم
على ذقن أو قارعاً سنّ نادم
(الآمدى المتفلسف)

العلم للرحمن جلّ جلاله
ما للتراب والعلوم وإنما

نهاية إقدام العقول عُقال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا

فيك يا أغلوطة الفكر
سافرت فيك العقول فما
فلحى الله الألى زعموا
كذبوا إن الذى ذكروا

لعمري لقد طفت المعاهد كلها
فلم أر إلا واضعاً كف حائر

بعثت إحدى الشركات الكبرى بخبرائها الفنيين الى مكان ما فى دولة ما
للقيام بالبحث عن النفط ، وبعد القيام بالاختبارات اللازمة الأولية نقصوا
أيديهم قائلين انه لا يوجد نفط فى ذلك المكان ، وان وجد فقادير ضئيلة لا
توازى التكاليف والتنفقات ، فتخلت الشركة عن هذه الثروة المرتجاء . ولكن
شركة أخرى أرسلت خبراءها الى المكان نفسه للغرض نفسه فى الدولة نفسها
فجاءت النتيجة مقررّة وجود ما يشهدون ، فأسرعت تلك الشركة الى شراء تلك

الكنوز المخبوءة المجهولة المقادير من أهل تلك البلاد ، ووضعت لها ولهم شروطا اتفقوا عليها ، فبدأت اعمالها وأخرجت الكنوز ، فأفادت هي وأفادت البلاد وازدادت بذلك الثروة العالمية العامة ، والتفت العالم لذلك المكان وحسبوا له الحساب بعد ان كان في حساب النسيان والاهمال

هذه حادثة سقناها لنقول : إن الانسانية في نظرها الى نفسها والى مواهبها الكامنة وكنوزها الذاتية المخبوءة تشبه خبراء الشركتين في اختلاف رأيهم في وجود النفط وفي اختلاف النتائج التي تلزم كلا من الرأيين والنظرين ، فقريق من الانسانية بل أمم وشعوب ينظرون الى أنفسهم نظر خبراء الشركة الاولى اليائسين من الحصول على النفط في ذلك الموضع ، أى ينظرون الى أنفسهم كخبرات اليأس والقنوط من أن يكون فيها مواهب نادرة ، واستعدادات طيبة يكمن وراءها النبوغ والعبقرية والكنوز الذاتية ، بل يرون أنهم خلقوا ضعفاء مجدين وسيبقون كذلك كضعفاء مجدين ما بقوا ، ويرون أنهم خلقوا من الضعف للضعف فلن يسوا طورهم ولن يقدموا نقطا ولا غيره ، فلا يحاولون القيام بعمل ما لاستخراج ما لم يؤمنوا بوجوده ، فيظلون كما يظل ذلك المكان مئات الألوف من السنين لا يأتون بشيء ، ولا يلفقون نظر أحد ولا يفيدون الانسانية ، ولا يضيفون الى ثرواتها المختلفة قليلا ولا كثيرا . أما الافراد الآخرون وشعوب أخرى فينظرون الى أنفسهم نظر خبراء الشركة الاخيرة المؤمنين بوجود النفط وبوجوب استنباطه ، فيرون وهم ينظرون الى أنفسهم أنهم حريون بالاستثمار والاستغلال ، وأن مواهبهم الطبيعية حرة بان تخرج وتصدر النبوغ والعبقرية ، فينشطون الى العمل ، ويأخذون بكل الوسائل فيصبحون ما شاءوا مجددا وضخامة شأن ، ويصيرون أعظم مصدر للحضارة البشرية وأكبر مولد للقوى العلية » انتهى

والجواب أن يقال : أما الآيات التي ساقها أول هذا المبحث فيأتى الاعتراض عليه عند اعتراضه عليها ، وأما هذه الجملة التمثيلية التي ذكرها

مصدراً بها هذا المبحث فهي جملة لا تنطبق على ما يقصده وما يريد ، فلا التمثيل مطابق لما قصده ، ولا التفريع عليه مستقيم على ما أراده ، كما يظهر ذلك من وجوه :

أحدها أنه مثل وجود المواهب في جنس الانسان بوجود النفط في جنس الارض ، ثم حث على وجوب الجزم والاعتقاد على وجودها في جميع جنس الانسان ، ومعلوم أن هذا من أفسد التمثيل ، فإن كثيراً من الأرض لا يوجد فيه نفط ، وأكثر المواضع الموجود فيها قليل لا يوازى النفقات ، ولو أن رجلاً حث الناس على الجزم بوجود النفط في جميع بقاع الارض ، وأفهمهم أن يعتقدوا أن كل موضع فيه نفط بلا تردد وأن عليهم أن يستخرجوه لعدّة من أضل الناس وأسفهم رأياً ، ولو أن له عقلاً لعلم أن هذا المثل منعكس عليه ، فإن النفط لا يخرج الا القادر عليه العالم به من موضع منفصل عنه لا من نفسه ، ولا تخرجه الارض بنفسها وذاتها بل يخرجها من هو منفصل عنها مستقل بنفسه ، ولا يخرجها أيضاً العاجز عن معرفته بل يطلب العالم به أن يعمله وأن يعينه على استخراجها كما لا يطلب من الارض أن تستخرجها بنفسها ولا يعتمد على نفسه في استخراجها بدون تعلم من هو عالم به

الوجه الثاني أن تشبيه المواهب والاستعدادات بمعادن الارض كلها أولى من تشبيهها بالنفط فقط ، لتشمل القلة والكثرة والطيب والخبيث والجيد والردى والنفيس والوضيع ، فإن هذا أقرب الى الواقع ، فإن الذهب والفضة والفحم الحجري والكبريت والنحاس وسائر المعادن من جنسه وكلها تختلف بالقلة والكثرة والطيب والخبيث وسهولة الاستخراج وصعوبته فما وجه التخصص بالنفط مع وجود غيره ، وهل يقول ان المواهب كذلك في كل الامم والشعوب أو في أمة دون أمة (١)

(١) وهذا يحتاج الى تفصيل آخر

الوجه الثالث أن المسلمين لم ينكروا وجود المواهب والاستعدادات على ما يقتضيه العقل والشرع ، ولكن ينكرون ما يدعيه هو وأمثاله أن فيهم مواهب واستعدادا للكمال المطلق ، وأن مواهبهم متفقه حتما كما في التمثيل الرابع أنه تناقض في هذا التمثيل نفسه فانه مدح الأفراد والأم التي تجزم بوجود المواهب والاستعداد وتتمتع عليها وتجزم بوجود النفط ، وذكر في هذا المثل أن الخبراء الأولين لم يجزموا بأن في هذا الموضع نفطا ، وان وجد فقادير ضئيلة ، ومعلوم أن هؤلاء الخبراء من الأمم الراقية المؤمنة بوجود المواهب والاستعدادات في الانسان ، ولكنهم علموا أن المجازفة في هذا الايمان خطأ ، وأنه لا يجوز الاقدام على الجزم حتى تظهر علامات صحيحة توجهه في النوع المعين لا في الجنس العام ، كما لا يجب الجزم بوجود الذهب والفضة وغيرها في كل مكان مالم تدل على ذلك دلالات صادقة بالكم والكيف الخامس أنه نقض هذه الدعوى كلها برمتها أيضا في هذا المبحث نفسه ، فانه ادعى في ما يأتي أن الانسان بطبعه شرير خبيث ظالم لو ترك وطبعه بدون تعلم لنشأ على الظلم والخبث والعدوان المطلق ، فكيف يدعى هنا صريحا أنه بطبعه مستعد للمواهب والاستعدادات الطيبة التي هي العلم والعبقريّة ، وهناك يدعى أنه بطبعه وسجيته ولد على الخبث والظلم والشر والعدوان المطلق الذي لا يعرف القيد ولا الضبط

السادس أن المواهب والاستعدادات في الانسان كثيرة فروعها ، فبعض من الناس مستعد لعلوم شتى وبعضهم لمعرفة شيء دون شيء ، لهذا تفرقوا في العلوم والمعارف الدينية والدنيوية على كثرة فنونها . ولو أن انسانا مثل بوجود هذا النفط بالفطرة واستعدادها للدين ، وأن في الانسان قدرة واستعدادا تاما لمعرفة الدين والقيام به ، وأن وجود الدين الذي هو النور الساطع القوى بين الناس كوجود هذا النفط الذي يصدر منه نور وقوة ، وأن غفلاتهم وجهلهم به كجهلهم بوجوده في هذه الأرض ، فبعض من الناس ينظرون

الى أنفسهم نظرات اليأس والقنوط في معرفته والاخذ به على وجهه فيظنون أنه ليس ثم دين صحيح يكمن فيه النبوغ والعبقرية والكنوز النفيسة التي لا تنفذ ، بل يرون كما يرى هذا الرجل وغيره من الملاحدة أنهم خلقوا بمجدين من هذه الكنوز السماوية ، مجدين من هذه الناحية الدينية ، فلا دين صحيح يوجد في الارض ولا نفوس قابلة للاخذ به واعتماده ، ولا شك أن هؤلاء سيديقون كذلك مجدين ، وقد بقوا كما ظنوا فقراء مجدين منه فلن يغبوا حظهم ، فقطنهم هو الذي أرداهم فأصبحوا خاسرين ، فانهم لم يحاولوا عملاً مما لاستخراج ما لم يؤمنوا بوجوده فلا يأتون بشيء في هذا العمل ولا يرشدون غيرهم للتوجيه اليه والحرص على اخراجه ، بل يصدون عنه ويزرعون اليأس والقنوط في نفوس غيرهم منه ، فيقفون في وجه الانسانية عن الوصول الى هذا النور والروح الكفيلين بالنجاح والنجاة . وهؤلاء بخلاف البعض الآخر - كالصدر الأول - فانهم نظروا الى هذه الكنوز السماوية التي هي مصدر النور والروح فحرصوا على استعمالها والعمل بها ، فكانوا كما شاءوا عزاً وارتفاعاً وسيادة . لو أن أحداً مثل بهذا لم يكن قوله بهيميد من الصواب ، ولم يكن عند هذا المعارض ما يبطله

فتبين لك من هذه الوجوه المسفرة عن هذه الفروق الواضحة أن ما ذكره في هذه الجملة المطالبة باطل لا يصح في النظر والعقل أن يبني عليه في هذه المسألة ، فانه يريد أن يبني على هذا التمثيل أن جنس الانسان مستعد للكمال كما صرح بذلك ، وأن هذا الاستعداد كامن في طبيعته كمن هذا النفط في هذه الارض ، وأن الناس في معرفة هذا الاستعداد كهؤلاء الخبراء في الاختلاف في الرأي ، وأن الذين جزموا بوجود النفط في هذه الأرض أصابوا فيجب أن يصيب من جزم بأن في جنس الانسان استعداداً للكمال . وقد ظهر لك بطلان هذا التمثيل الأهوج ، وبطلانه يظهر بطلان القياس الذي ادعاه عليه ، فان غاية ما في ذلك أن هؤلاء الخبراء الأولين الذين نقضوا أيديهم غلطوا في

حكمة مقداره في الكفاءة فظنوا أنه كان قليلا لا يوازي تكاليف النفقات ،
والآخرون أصاب ظنهم فيه ، وليس هذا خاصا بالنفط دون غيره من سائر
المعادن وغيرها ، فان هذه الأشياء ليس كل من خاطر فيها يصيب نجاحا ، ولو
كان ذلك كذلك لخاطر الخبراء الأولون وغيرهم في كل معدن ، وهذا باطل لا
يقول به احد . ثم ان هذا النفط الذي يشير اليه قد حفظه الله تعالى للوقت
الذي يناسب بعثه فيه لأقرب الناس اليوم تمسكا بالأخلاق الدينية في أخرج
وقت وأشد حاجة اليه (١) لما علم الله سبحانه أن بهم قصورا في الاعمال المادية
وكان معهم بعض الأعمال الدينية الصحيحة فأخرج لهم هذا تعويضا لما فاتهم
من ذلك القصور ، وليكون اعانة لهم على اقامة دينهم حيث كانوا من الناحية
الدينية مستمسكين بأصولها ، فانه سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملا -
وقد قلنا فيما سبق إن الله سبحانه يخر ما في السموات وما في الارض لعباده
ليعملوا بطاعته التي هي الأعمال الصالحة ، فمن عمل بذلك استثمر منافع هذا
الكون بأعماله الدينية وما يتفرع عنها من الأعمال الدنيوية ، ومن رفض
الأعمال الصالحة وقطع ما أمر الله به أن يوصل من الطرق الشرعية ، فأتى
الامر معكوسا من غير باب عكس قصده ، حرم هذه المنافع إما بتاتا وإما عقبا
صحيحا مستمرا ، وهذا ظاهر ، فيكون ما ادعاه حجة عليه

أما الكمال الذي يدعيه ويريد به فأن نقول ان للانسان الذي عمل صالحا
النصيب الوافر منه على حسب عمله ، وهو الكمال الممكن في حق الانسان ، لا
الكمال المطلق ، فان الله سبحانه وتعالى هو المختص بالكمال المطلق الذي لا غاية
خوفا ، أما عباده فإن نقصهم عن الكمال نقص ذاتي طبيعي ملازم لهم مشاهد
محسوس فان كل واحد منهم مفتقر في كل لحظة الى شيء خارج عن ذاته (٢)

(١) يتبين هذا متى تصور الانسان ان لو وجد قبل هذا الوقت ، أو لم يوجد في

هذا الوقت

(٢) كالنفس فانه افتقار الى الهواء

فهو مفتقر الى غيره ، والقول في غيره من المخلوقات كالتقول فيه لان كل فرد فيها مفتقر الى غيره ، وهكذا جميع أفراد المخلوقات فانها مفتقرة افتقاراً ذاتياً محسوساً ، ولا بد أن ينتهى هذا الافتقار الى امور غيبية فوق قدرة البشر لعجز الجملة عن تكميل بعضها ببعض العجز المشاهد المحسوس ، وجملة العالم هى الهيئة الاجتماعية ، فتكون هذه الجملة مفتقرة الى الأفراد لأنها مركبة منها فهى مفتقرة الى مفتقر ، لأن الأفراد كما ذكرنا مفتقرة افتقاراً مشاهداً محسوساً ، فكان الافتقار من الكل ثابتاً بالضرورة الى ما هو خارج عن الجملة المجموعة من الافراد ، ويجب ان يكون ذلك الغير غنياً لذاته كاملاً لذاته من كل الوجوه مخالفاً للجملة من كل وجه ، اذ لو لم يكن كذلك فالتقول فيه كالتقول فيها فيلزم التسلسل الى غير نهاية وهو باطل ببداهة العقل والاتفاق ، واذا كان مخالفاً لها من كل الوجوه لزم أن يخالفها في الكمال ، ولزم أن يخالفها في التعليل ، فلا يعلى وجوده بشئ اذ التعليل فرع عن الافتقار وفرع عن وجود النقص ومعرفة ، فلو علل لكان مثلها ، فلما خالفها من كل وجه لزم أن يخالفها في التعليل لانه من جملة الوجوه التى نشأت من معرفة النقص ، فالوضع الذاتى للجملة على هذا الوجه برهان على تعليلها ، وتعليلها برهان على أن لا يعلى هو ، أى برهان على بطلان تعليل وجوده والا لزم الدور والتسلسل وهو باطل ، ولو لم يبطل لزم فساد العقل والفسفسطة لان العقل له حد ينتهى اليه من الضرورة والبداهة ، والخروج وراء هذا يوقع فى السفسطة فلا يعتد به باتفاق ، فالحق سبحانه هو المختص بصفات الكمال المطلق فى جميع صفاته وأفعاله ، وأما خلقه فالتقص عن الكمال أمر لازم لهم ، فانهم مخلوقون مربوبون ، والمخلوق المربوب لا بد أن يكون ناقصاً عن خلقه وأبدعه ، والله سبحانه وتعالى قسم عباده الى صالح وطالح ، فالطالح قد فسد طبعه أى فطرته فساداً نهائياً ، فكان غير قابل للصلاحية أصلاً كما قال تعالى ﴿ ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم

عذاب عظيم ﴿ وقال تعالى ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً ألا سئعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ فالكافر والمنافق الذى كتب عليه الشقاء الأبدى قد فسد استعدادة للهداية وموجباتها من السعادة والنعيم لأنه باختياره لفسد فطرته بترك ما جاءه من النور السماوى الذى يصلحها ويزكيها ويقوّيها باعطائها الحياة الصحيحة ، فهو الذى جرّ على نفسه البلاء باختياره فعوقب بالختم والطبع والأغلال والأقفال كما قال تعالى ﴿ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم ﴾ فالكافر والمنافق خبيث باطنًا وظاهرًا ، ومعلوم أن الخبيث ضد الطيب فلا يمكن أن يلائمه إلا ما يناسبه من كل شيء ، وأما الصالح فآله سبحانه قد جعل نفسه طيبة وأخلاقه طيبة وآراءه وأفكاره طيبة فهو طيب باطنًا وظاهرًا ، ففطرته التى هى المواهب والاستعدادات ثابتة قوية على أصلها ، وقد استمد بها من الدين أى الإيمان والعمل الصالح ما جعلها قوية صحيحة ، فكان على نور من ربه ، فهو كالارض الطيبة التى كلها خير وبركة

وعما ينبغى معرفته هنا أن يعلم أن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الوجود كله من العدم فهو ناقص مظلم ، قافاض عليهم أثرا من آثار رحمته الكريمة التى وسعت كل شيء ، فكل موجود لا بد أن يصيبه نصيبه من هذا الأثر ، فجميع ما فى العالم من فرح وسرور ولذة ونعمة وعلم وعدل وحكمة فهو من آثار رحمته ، وجميع ما يصيبه من الشر فهو من نفسه الناقصة بالأصل ^(١) فقد حصل لكل مخلوق من هذه المخلوقات قسطه من هذه الرحمة كما حصل له قسطه من النقص الذى هو الشر بعينه فالتقائص سلوب والفضائل كاليات أنعم الله بها على عباده ، فمنهم من يكون حظه من الرحمة فى دينه ونصيبه من النقص فى دنياء ، إما فى خصلة واحدة أو فى خصال كثيرة ، ومنهم من يكون نصيبه

(١) كما قال تعالى ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن

بالعكس ومنهم من يكون نصيبه من الرحمة في ماله ومنهم من يكون نصيبه في حاله أو في صوته أو في صورته أو في حواسه أو في كلامه ، ويكون النقص في أخلاق أخرى ، ومنهم من يكون نصيبه موزعا في أخلاقه ولكن لا بد أن يكون له نصيب في شيء ما ، وإذا اشتد النقص في خصلة فلا بد أن يكون هناك ما يقابلها غالبا من نصيب الرحمة . ومن لطفه سبحانه أنه لم يحرم نوعا واحدا من جميع مخلوقاته من هذا الاثر العظيم ، فكلها قد شملها هذا الفضل الالهي ، فمن ذلك أنك تجد كل مخلوق من هذه الحيوانات قد أعطى من هذا الاثر خلقين خلق يستحصل به لذته وسعاده وخلق يتقى به الضرر من عدوه غالبا ، إما في ذاته كالوحش أو خارجا عنها كالانعام . ثم انه سبحانه جدد هذا الاثر العظيم الذي هو من مصادر كاله بأثر آخر أعظم وأخص لأنه سبحانه جعله كتهويض لهم عما نقص في أيام أعمارهم ولذاتهم وكتكامل لما بقي من الأول مع من حافظ عليه بالتزام حقوقه - ليستفيدوا به أياما خيرا من أيامهم ولذات أعظم من لذاتهم التي انقرضت أو فانت . وهذا الاثر أعظم وأخص من الاول ، اذ الاول أثر موقت فهو كوسيلة الى استحصال الثاني . وهذا الاثر العظيم هو ما أنزله من الكتب السماوية وأرشد اليه من الآثار النبوية التي هي النور والروح والهدى ، فمن استمد من هذه المصادر الصحيحة القوية الطيبة إيمانه وعمله الصالح بقي متمتعا محتفظا بالنور الاول الشامل ، مجددا له من النور الأخير الخاص ، مستمدا منه حياته ، متزودا منه الى ما بعد مماته بقدر ما معه من الايمان ، ومن أعرض عن هذا الدين بقي معه ما استحصل عليه من الاثر الاول الديني يتمتع به كما تتمتع بعض الانعام ، وربما عظم النقص الملازم له فطغى عليه وأعدمه فكان من الهالكين^(١) فذهب ما معه من الاول ولم يبق معه من النور الخاص أى نور الدين شيء يستمتع به في حياته

(١) فان الذنوب كلها نقائص تؤثر في الكالات وتضعفها بل تعدمها كثيرا

استماتا صحيحا ، وانقطع عنه الأول بعد عاتة فبقى في الظلمات الحقيقة والنقص والعذاب السرمدي كما دل على هذا سورة التين وسورة العصر ، وفي الأثر ، ان الله خلق خلقه في ظلمة والتي عليهم من نوره ، فمن أصابه هذا النور اهتدى ومن أخطأه ضل ، وقد سمي سبحانه كتابه نورا وروحا وهدى وبيانا ، فمن أخذ به واستمد إيمانه منه أخذ نورا وروحا ينتفع بها فيمشي بنور لا يطفأ ويحيي بروح لا تموت ، ومن أعرض عنه فقد قطع عن نفسه النور الذي يبصر به والروح الصحيحة التي يحيا بها فبقى في الظلمات الموحشة ليس بخارج منها فهو كيت لا روح فيه ، والميت الذي لا روح فيه يعبث به كل شيء حتى الكلاب وأشباهها فتستولى عليه ، لانه لا يمكنه أن يتمتع عنها لعدم وجود تلك الروح وسلامتها بل يبقى في العذاب الاليم والظلمة الطبيعية

فاذا عرفت أنه لا حجة له في هذه الحملة التمثيلية التي صدر بها هذا المبحث فقد سقط التفريع عليها لبطلان الاساس . ونحن نذكر هنا قولاً عاماً شاملاً للانسان من حيث علمه وجهله وتقدمه وتأخره يتضمن ما موه به في هذا المبحث كله فنقول : قد بين الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز حقيقة وجود الانسان وقدره وحياته ومآله من خير وشر أعظم بيان وأوضحه وأجمله وأشمله وأجزه فقال جل من قائل ﴿ والعصر ، ان الانسان لفي خسر ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ وقال جل وعلا ﴿ لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم اجر غير ممنون ﴾ فبين سبحانه في هذا القول الكريم حقيقة حال جنس الانسان وحياته الحقيقية وتطوره وتحوله فيها فقسمه الى نوعين بعد ان كان نوعاً واحداً ، فنوع تحول ورد الى اسفل سافلين ، لانه لم يستمد من النور والروح ما يسكه عن السقوط الى اسفل سافلين التي هي حالته العدمية الاصلية ، فعثر لعدم النور وسقط لعدم الروح ، لان النور يريه الطريق والروح ترفعه وتدفعه ، ومن المعلوم أن الذي رد الى اسفل

سافلين لا خير فيه بالكلية فانه في غاية الانحطاط والرذيلة ، ولهذا كان مصحوبا في حياته كلها بالصفات المنحطة الناقصة ، ولو ارتفع أحيانا فآله الى الانحطاط والنقص ، وكل ما لديه من المعارف الدنيوية حاصلها يرجع الى أنه عارف كيف يعيش المعيشة الحيوانية ، وهذا المقدار من المعرفة يشاركه فيه كثير من الحيوانات العجم على كثرة أنواعها ، فانها تعرف كيف تعيش بدهاء ومكر ومعرفة دقيقة قد يعجز عن بعضها كثير من بنى آدم . وكونه سبحانه استثنى من المردودين الى أسفل سافلين الذين آمنوا وعملوا الصالحات دليل على أن المردودين أصناف كثيرة فاستثنى القسم الناجي لانه نوع واحد وهو الموصوف بالايمان والعمل الصالح ، فان الاخلاق الدينية ترفع صاحبها فيطور بها وتقويه وتزكى نفسه فيكون مرتفعا متمسكا في مستوى الفطرة الذى هو أحسن التقويم الذى خلقه الله فيه ، أما أولئك الذين حرموا من الايمان والعمل الصالح فانهم لما بعدوا عن مهابط الوحي الذى هو النور والروح اللذان بهما جميع القوى وأنالهم الله ما تولوا من النقص والظلمة انحطوا الى أسفل سافلين . وكذلك سورة العصر فانها كهذه السورة فان من رفض الايمان والعمل الصالح فقد خسر ، فانه لم يقتبس من النور ما يستعيض به عما فات من أيامه المنقرضة أياما غيرها أحسن منها فصار من الخاسرين . وأما المؤمن الذى آمن وعمل صالحا وتواصى بالحق والصبر فقد ربح أيامه وحصل على ثمرتها المقصودة فكان من الراجحين الفائزين .

فظهر من هذا أن الانسان نوعان زكى طاهر القلب قوى النفس والارادة صحيح الذهن والفكر ، ونوع ساقط مرذول مظلم القلب مريضه مدفوع دائما الى ما يوافق هواه من الشهوات والشبهات ، فما وافق هواه وشهوته اتبعه واعتمده وما خالف هواه وشهوته وفكرته تركه ورفضه ، فهو في الحقيقة عبد شهوته وفكرته وهواه ، فحركاته كلها دقيقةا وجليلها تدور على مقتضى ما يلائم هواه وتفكيره التابع لشهوته وشبهته ، ومعلوم عند كل عاقل أن ارادة الأول الذى

لا يخشى إلا الله ولا يهيمه إلا إقامة الحق وإزالة الباطل والظلم أقوى من إرادة
من لا يهيمه إلا قضاء شهوته وتنفيذ فكرته أو فكرة جنسه ، وقد تكون المصلحة
تغييره من عدو أو غيره ، فإن الأول دافعه القوة الإيمانية لجاذبها ودافعها
الإيمان النقي القوي والرغبة والرغبة الإلهية ، والثاني دافعه قوة الشهوة
والشبهة ، فإذا عرضنا على العقل السليم أن إنسانا له دافع إيمان اعتقادي عامله
حب الله تعالى وخوفه ورجاؤه والتعلق عليه ومقت أعدائه وملاحظة جنته
وناره ، وإنسان له دافع هوى وشهوة سواء أ كان ذلك الدافع اعتقاد
الكفاءة الذاتية فيه بأنه قادر على بلوغ غرضه الديوى أو كان عامل ذلك
حب المال أو الجاه أو المنكح أو الوطن ونحوه فاعتقاد الكفاءة في العمل قد
يكون موجودا في المؤمن والكافر إنما الفرق بينهما أن المؤمن يعتقد أن في
كفاءته تحقيق مقصوده إذا نصح مع الله وآمن به وتوكل عليه فكان اعتقاد
كفاءته بواسطة القوة الجبارة المألكة للوجود ، وأما الكافر فهو يعتقد كفاءته
في ذاته التي يراها وينظر إلى عجزها بالحس ولكنه يغالط الحقائق ، فإذا عرضنا
هذين الإنسانين وعرضنا عملهما على العقل الصحيح فلا شك أنه سيحكم بأن
دافع الإنسان الأول الذي دافعه الدين والإيمان أعظم وأقوى لأن أهدافه
أكبر وأعظم ووسائله أعظم وأشرف ، فأمة أو شعب يكون عامله اعتقاد
الإنسان الأول بلا أدنى شبهة ولا تردد أن حركته وقوته وإبداعه وإنتاجه
سيكون متفوقا على حركة وإبداع وإنتاج الأمة أو الشعب الذي يكون دافعه
الامر الثاني الذي يرجع إلى الهوى وشهوة النفس أو الإجبار القسري ،
وأكثر عمال هذه الشعوب الملحدة إنما يعملون قهرا لأن الدافع الحقيقي
الصحيح موجود في أهل المصالح الخاصة وهم الرؤساء والزعماء فهم الذين
يدفعون أكثر الأفراد إلى الأعمال دفعا قسريا لأن في الأفراد دافعا من
ذوات أنفسهم ، لأن العوامل الذاتية غير موجودة فيهم لفساد التربية والتعليم
وكل عاقل يعلم أن القوة العامة التي توجد في الفرد كما توجد في الجميع من

خصائص المتدينين الذين لهم أصل عريق في الديانات - وإن لم يكن بعضهم الآن متدينا فإن العوامل الدينية الأولية هي التي هيأت فيهم الاستعدادات والمواهب التي بها استحصلوا على قوة الانتاج والابداع فانها أى الاستعدادات قد كانت موجودة فيهم في زمن التدين ، أما الأمم العريقة في الوثنية المحضه والاحاد المحض ، البعيدون عن الاديان السماوية في الازمنة القديمة ، فانهم أبعد الناس عن الانتاج والابداع لبعدهم عن العلوم الدينية لانها أصل العلوم كلها كما أنها أصل تنور الأفهام والأخلاق ، وتلك الصناعات ونحوها من قروعا ، ولولا شيوع الوثنية كعبادة القبور وشيوع الاحاد كانكار أكثر الصفات من العلو وغيره في كثير من أقطار الاسلام في هذه الازمنة الاخيرة لما ضعف الانتاج والابداع . فالعلوم الدينية هي الأساس الأول لجميع أمور الحضارة والمدنية فانها ملازمة لهم في الزمن السابق الى اليوم وهو ظاهر لا يخفى به . وبهذا يظهر الفرق بين أفراد الانسان من حيث العلوم الدينية والدينية ومن حيث الاستعدادات والمواهب ، كما يظهر الجواب عن معنى الكفر بالانسان والايمان به ، وأن ما ادعاه على المسلمين بأنهم كفروا بالانسان حيث وصفوه بالضعف والعجز دعوى لا صحة لها ، فهم لم يؤمنوا به الايمان الذي يريد هو ، وهو الايمان بأنه يعلم كل شيء ويقدر على كل شيء وأن في استطاعته أن يصل الى غاية الكمال ، ولم يكفروا به على حسب ما زعمه من أنهم اعتقدوا أنه في غاية العجز والضعف في كل شيء من جميع العلوم فان هذه الدعاوى كلها مجازفة لا أصل لها وهي غير معقولة ، وقد تناقض في ذلك أيضا أعظم المناقضة كما يأتي مفصلا

فصل

قال : « ان الشعوب الراقية تمتاز بالايمان بالثراء الطبيعي ، ولهذا تحاول أنظفر بكل شيء والوصول الى كل شيء والتغلب على كل شيء ، ففسير الى

الامام بالمدينة وتسير بالحياة خطوات واسعة وتدفع في سبيلها كل عناصر الحضارة ،

فيقال : أولا هذا يناقض قولك فيما تقدم قريبا في الخبراء الأولين أنهم نقضوا أيديهم عن مكان النفط قائلين انه لا يوجد فيه نفط وان وجد فقادير ضئيلة الخ ، ومعلوم أن هؤلاء الخبراء من أولئك الذين يؤمنون بالثراء الطبيعي فإلهم لم يؤمنوا بهذا الثراء الطبيعي استرسالا مع إيمانهم الذي تدعيه ، وأمثال هؤلاء كثيرون

ثانيا قولك انها تحاول الظفر بكل شيء والوصول الى كل شيء الخ ، يقال ان كانت كل هذه الشعوب تحاول الظفر بكل شيء والوصول الى كل شيء فهي لم تدرك ذلك - بل بعضها أدرك الشيء القليل من الذي يمكن ادراكه ، وبعضها تداركة البلاء وحل به الشقاء حيث حاول ما هو مستحيل ادراكه ، فليس علينا أن نقتدي بها في كل ما تحاوله ، بل يجب أن ننظر الطرق الصحيحة لاستحصال ما يمكن استحصاله بالعلم والثبات والحساب الدقيق ، فانه من المعلوم أن الدول التي دمرت نفسها انما انزلت الى ذلك بسبب هذا الايمان نفسه فلم يحصل لها الا عكس ما آمنت به ، ولو آمنت بالله كهذا الايمان لبلغت كل ما تريده من الممكن لها

ثالثا ان ما ادعاه هنا كذب ظاهر ، فان الشعوب الراقية تغير وتبدل دائما موافقها في هذه السياسة ، ولو أنها تؤمن هذا الايمان الذي يدعيه لفعلت ما تشاء ، وهي انما أحجمت عن كثير مما تريده مع اضطرابها اليه لانها تعلم أنها عاجزة عن تعدي هذه الحدود التي رسمتها لنفسها سواء أكان ذلك في الوقت الحاضر أو الى غير أمد ، انما المقصود أنها لم تؤمن بأن في امكانها الوصول الى كل شيء والحصول عليه والتغلب على كل شيء والظفر بكل شيء ، بل هي بوقوفها ومصانعتها لأعدائها معترفة بمجزها كرها بلاريب . وكل الأمم الراقية لم تصل الى ما وصلت اليه من الرقي بهذا الايمان ، إنما وصلت بامور أخرى

أكثرها عكس هذا الايمان وهى التؤدة والثبات والحيطة وإعطاء كل شيء حسابه ، ولو ان هذا الايمان ينفع من آمن به واعتمده لنفع كل الأمم التى تخاطر به من الأمم الأولين والآخرين ، بل فرعون لم يحارب موسى وقومه إلا لأنه يؤمن بهذا الايمان ، وأن فيه هو وقومه كفاءة ذاتية فى أنفسهم للقضاء على موسى ، ولهذا قال ان هؤلاء لشر ذمة قليلون وانهم لنا لغائظون وانا لجميع حركاتهم حاذرون ، وهذا أقصى ما يبلغه الايمان بالذات ، أما موسى فانه اعتقد أن به كفاءة فى القضاء على فرعون بايمانه بالله لا بنفسه ، فقاتل بهذا الايمان القوى العظيم الذى فلق له البحر لقوته ، فحصل على كل شيء مما يطلبه ، بخلاف عدوه فانه لما كان ايمانه ضد ايمان موسى كانت النتيجة ضد تلك النتيجة . وكذلك كفار قريش لم يقاتلوا المسلمين الا بهذا الايمان نفسه الذى يدعو اليه هذا الملاحد ، والمسلمون قاتلوه بالايمان بالله وبأن فى أنفسهم كفاءة اذا اعتصموا بالله ، ونحن لا نقول انه يجب اليأس والقنوط حتى يكثّر من هذه السفسطة والدجل الذى لا طائل تحته بل يجب العزم والحزم واعتقاد الكفاءة بالله تعالى ، فهذا الايمان هو الذى ينفع ونتيجته لا بد ان تكون نتيجة صحيحة ، أما الايمان بما ذكره فانه يوجب الطيش والجنون وفساد الذهن وسوء الرأى والقلق ، فلا بد من التنبصر فى الامور كلها ، وان يحسب لكل شيء حسابه بحسب واجتهاد وقوة وانتظام

وظاهر كلام هذا فى قوله « والظفر بكل شيء » ، والوصول الى كل شيء ، والتغلب على كل شيء » أنه يجب الايمان بأن فى امكان هؤلاء أن يصلوا الى تدمير السموات والارض وقلب نظامهما ، ويكون أيضا الذى حاج ابراهيم فى ربه لم يأت مستحيلا لانه يؤمن بهذا الايمان ﴿ اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا احيى وأميت ، قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر ﴾ فعلى هذا فهؤلاء يؤمنون بمقدرة البشر على الاتيان بالشمس من المغرب الى المشرق عكس مجراها

الطبيعي ، ولا شك أن قاعدة هذا الرجل تقتضي هذا كما صرح بأمثاله مرارا
فيما يأتي ، وإذا عاكس هذا المعكوس وشمخ بأنفه وقال هذا لا يلزم من قولي
عكسنا عليه أغلاله وقلنا له مهلا لا تعجل قد ألزمت الدجوى بدون ما ألزمتك
به مع أنه لم يقل إلا دون ما قلته ، وهذا كلامك معه في نبذتك (الفصل
الحاسم) ص ٧٥ فقلت مانصه : « الفضيحة الثانية زعم ^(١) أن البشر قادرون
على كل شيء حتى على أن يقبلوه فرسا أو ما شاء من أنواع المخلوقات . وهاك
عبارة بحرفها (على أن لنا أن نقول أن كل شيء مقدور للبشر بالدعاء فما لا
يقدر عليه بالذات يستطيعه بالدعاء) الله اكبر ، هل رأيتم أعجب من ذلك ،
هل رأيتم أعجب من قوله أن البشر على كل شيء قادرون ، نعوذ بوجه الله .
أليست هذه صفة الرب الخالق القاهر ، ألا تظنون الشيخ ممن يتألهون ، أهو
يستطيع أن يقلب السماء أرضا والأرض سماء ، أهو يدعى لنفسه أنه يقدر
أن يحيي ميتا أو يميت حيا ، أترونه يظن أنه قادر على اخراج الانجليز من
مصر وفرنسا من سوريا وانقاذ جميع البلاد الاسلامية من ورطة الاستعمار ،
لأن البشر على كل شيء قادرون ^(٢) وهو من البشر ولا شك ، نعم من البشر
على رغم أنف المخالفين : أبشروا أيها المسلمون ، أبشروا أيها المظلومون
قولانا الشيخ الدجوى على كل شيء قادر ، قادر أن ينجيكم وأن ينصفكم
فاطمثوا الى ذلك ، نعوذ بالله ، ماسمعنا بأعجب من هذا ، وما سمعت القرون
المظلمة أعجب منه ^(٣) فنحن في القرن العشرين قرن العلم والنور والتفكير كما

(١) يعني الدجوى

(٢) كل هذا تحامل فان الدجوى لم ينسب هذا الى نفسه بل الى البشر بواسطة

الدعاء

(٣) لكن الآن سمعت أعظم وأعجب وأطم وأشنع منه ، وفي الحديث « من غير

أخاه بذنب لم يمت حتى يفعله » فليس كلامه على الدجوى بقصد اظهار الدين وقبح
الباطل ، بل على وجه الماراة والفحة والمقاصد الاخرى

يقولون ، بل قرن القدرة على كل شيء فالبشر على كل شيء قادرون . أين أوربا وأين مخترعوها وأين قدرتها ، فنحن عندنا معشر الشرقيين من يقدر على كل شيء من يقدر على تخريبكم وتخريب محترعاتكم وآلاتكم الحربية بشيء بسيط ، بكلامه ، بأن يدعو عليكم فقط ، انتهى بحروفه . ولا أظن القسارى الكريم لهذا يريد أن نسهب فى التعليق على هذه الثثرة والقحظة الزائدة فإن تعليقها فى عنقه كاف عن التعليق عليها ، لكن يحسن أن نذكر هنا جملة واحدة ينبغى أن يقابل بها هذه الجملة التى ذكرها عن الدجوى وصاح عليه بها وهى قوله فى أغلاله هذه ص ٥٤ « ومن كان الله سمعه وبصره ويده ورجله - وهذا بلا ريب على غير ظاهره - فلا بد أن يكون بصره نافذاً وسمعه واعياً وعمله موافقاً قوياً ، ولا بد أن يكون له من القوى والأعمال ما لم يعهد الناس وما لم يعرف الناس ، ولا بد أن لا يكون هناك حدود تحده ولا قيود تقيده اذا شاء أن يعلم وأن يعمل وأن يرى ويسمع ، ولا بد أن يكون مستطيعاً أن يصنع ما يشبه أن يكون خارجاً عن الطاقة البشرية المعروفة وما يكاد يضاف الى قسم المعجزات ، ولا بد ان تبقى مواهبه العاقلة متجددة متوثبة لا يمنعها مانع ولا يهرب منها هارب ولا يقال شيء من الأشياء كائناً ما كان ان هذا فوقها أو أنه بعيد عن متناولها أو أنه ليس بما يدين لها » انتهى كلامه . فلنقابل هذا بكلام الدجوى الذى نقله عنه ، مع أن الدجوى انما ذكر ذلك بواسطة الدعاء . ومعلوم أن الله قادر على كل شيء ، وأما هذا فإنه أضاف هذه القدرة الى الانسان^(١) وسأبقى قوله أى شيء عجز عنه هذا المخلوق الصغير العجيب ، وينبغى

(١) ولعل موضع الانتقاد على الدجوى والتحامل عليه هو انه جعل ذلك بواسطة الدعاء ، فهذا هو ذنب الدجوى ، والا فلو جعل ذلك للانسان نفسه لما كان له ذنب بل كان من أعظم الفضائل ، لان هذا المجدد قرر أن الدعاء لا فائدة فيه كما يأتى وأن ليس فرق قدرة الانسان شيء .

أن تلاحظ أنه صرح بأن الدجوى يدعى أنه على كل شيء قدير إلزاما له على تلك الجملة ، مع أن الدجوى ذكر أن ذلك بالدعاء ، فقد ادعى عليه بأنه يقول ان الانسان على كل شيء قدير ، فهذا الذى ألزمه الدجوى يجب ان يعامل به لانه صرح بمقتضاه تصريحاً ظاهراً كما سيأتى ، والعجب أنه جعل ما ذكره الدجوى فضيحة ، فيكون ما ذكره فضيحة هو الفضيحة القبيحة التى لا تستر

فصل

ومن أعظم الكاذبيه قوله فى استطراد هذا البحث : « وكل أصحاب النظريات العلمية والدعوات الاصلاحية التى سيطرت على مصير التاريخ وغيروا مسيره كانوا بمدودين بهذا الايمان الذى لا يتضعضع » ،
فيقال : هذا ليس بصحيح ، بل باطل ، بل مكابرة ظاهرة . ونحن نطالبه بفرد واحد معروف أو شعب واحد حصل على التقدم بهذا الايمان وحده ، بل لقائل أن يعكس عليه دعواه فيقول وكل أمة هوت واندكت عروشها واختفت فى عالم الوجود لم يكن سببها الا هذا الايمان ، فانها لما نشأت على هذه الترية وتغلغل فيها هذا الايمان الباطل ولم يتضعضع حاولت بقوتها الضعيفة أن تصدم القوة الكبرى فتلاشت فيها وذابت وذهبت عن آخرها كما هو الواقع . فما ذكره كلام ساقط لا يعتد به

فصل

ومن فظائمه وفضائحه فى هذا المبحث ما ادعاه على المسلمين زورا وفجورا فى قوله : ان رقاب كل هؤلاء تخضع وهامهم تنحنى أمام المشكلات الانسانية الكبرى كشكلة الفقر ومشكلة المرض ومشكلة الجذب ومشكلة الجهل ومشكلة الاخلاق ومشكلة الاستقلال والسيادة الوطنية وكل مشكلة ، ويرون أنهم ليسوا أهلا لحل كل مشكلة من هذه المشاكل ، بل وانهم غير مخاطبين بحلها ،

بل وإن محاولة حلها وعلاجها من التطاول على الله والوثوب على مقام الألوهية المقدس ، انتهى فليتنظر العاقل المنصف الى هذا الفجور الذي ليس وراءه فجور كيف يدعى أن المسلمين يرون أن التعليم الذي هو حل مشكلة الجهل من التطاول على الله والوثوب على مقام الألوهية المقدس وأنهم يرون أنهم غير مخاطبين بذلك ، فهل اجترأ أكفر يهودى وأكبر عدو للاسلام والمسلمين من أصناف الكفرة أن يرمى المسلمين بهذه الوصمة الكبرى بدون حياء ولا خجل ، وصرح هذا أنهم يرون التعليم وبناء المدارس والتداوى والمطالبة بالاستقلال كل ذلك كفر عظيم وخروج من ملة الاسلام وقدح في الربوبية . أيها المسلمون . أيها المسلمون تدبروا كلام هذا المنافق الدعى فيكم وأنصفونا وأنصفوا أنفسكم . وأكبر من هذا أنه جعل العمل الذي هو ضد البطالة كفر أعظيما وخروجا من حظيرة الاسلام كما هو صريح كلامه . ومن عمق خبثه ونفاقه خلطه مشكلة الجذب مع مشكلة الجهل والبطالة ، وأدنى عاقل من العامة وغيرهم يفرق بين هذه المشاكل ، وإنما قصد بهذا لبس الحق بالباطل ، فانزال الغيث وازالة الجذب من الأمور الكونية الغيبية التي لا يقدر عليها الا الله تعالى ، وقد شرع لنا سببا لنستحصل ذلك به فنندفع به الجذب وهو الصلاة والدعاء والصدقة والتوبة ونحو ذلك ، وقد فرق المسلمون بين هذه الأمور فجعلوا للجذب المساجد وللجهل والبطالة والاخلاق ونحوها المدارس ، وقد علم المسلمون على اختلاف مذاهبهم أنهم مأمورون بالتعلم والعمل والدعاء من مكملات ذلك . وحاصل هذه الدعوى المنكرة ان المسلمين على غاية من الغياب والجهل أو هم كالانعام بل هم أضل ، لأن من لم يفرق بين هذه المسائل ويرى أن التعليم والعمل وطلب الاستقلال كفر فهو كذلك ثم قال : وما عليهم إلا أن ينتظروا من الله أن يصنعها لهم كما يشاءون ويشتهون ، كما يجب عليهم في هذه الحالة أن يطيلوا الدعاء والبكاء ، وأن يصدقوا الضراعة والمسكنة وأن يحملوا الانتظار ،

قلت : غرضه من هذا الضجيج والتهويل تركيز بغض الدعاء والعبادة في قلوب الناس ، ليسهل عليهم رفض الدين ، فقد علم أن الدعاء هو روح الدين كما أقر بذلك فيما يأتي صريحا ، وإلا فكل عاقل يعلم أن هذا فجور ظاهر مبني على الزور الذي قبله ، فمن هو الشعب المسلم الذي ينتظر من الله أن يعطيه ويصنع له ما يشاء ويستهي بدون عمل أو معالجة لهذه المشاكل ، بل بمجرد الدعاء والبكاء ، إلا في مسألة الجذب ، وليس الامر كما زعم أيضا بل يطلبون ذلك بعمل شرعي خاص والدعاء من جملة ، وجميع المسلمين يأمرون بالتعلم والعمل وبناء المدارس ويتمسون التداوى ومنهم من يرى وجوبه ، بل جماهير المسلمين أو كلهم يرون أن الاعراض عن التعلم كليا كفر وخروج من الاسلام فكيف يدعى عليهم أنهم يرون فعله كفرا وشركا في الربوبية ، وهكذا قوله بعد هذا « وهكذا تمر الايام والشهور والسنون بل والقرون وهم يؤملون وينتظرون ما لم ينالوا » فكل هذا كذب لا صحة له البتة واشتغال الاكثر بالملاهي والشهوات والامور الالحادية ونحوها هو الذي صدهم عن العلم والعمل بل أفسد اخلاقهم حتى عسر عليها الاشتغال بالامور النافعة وقوله « لأن الله لا يفعل لمن لا يفعل لنفسه ولا ينصر من لا ينصرها ، كما قال القرآن ان تنصروا الله ينصركم ، وفي الانجيل ان الله يعين عبدا يعين نفسه » . فيقال : كل هذا حجة عليك فان الله تعالى اذا كان لا يفعل لمن لا يفعل لنفسه فلم غضضت طرفك عن هذه الجماهير العاطلة عن الاعمال المنغمسة في مواضع اللهو والخلاعة والرقص والغناء وسائر أنواع الملاهي فلم تتكلم فيهم بكلمة واحدة ، أما الاقلون الذين صدقوا الله وتوجهوا اليه في الدعاء والصلاة فوجهت اليهم جميع اللوم وجملتهم كل مصيبة ، وهؤلاء هم الذين يفعلون لأنفسهم وقومهم ما ينفعهم ، فانه لا يعلم أن احدا صادق الاخلاص في العبادة الا وهو جرىء على العمل ، بخلاف المنافقين وأهل الفسوق وأمثالهم ولان الله سبحانه ذكر أن الذي ينصر نفسه هو الذي يستحق النصر من عنده فقال

في هذه الآية التي استدلت بها هذا المعارض وهي حجة عليه ﴿ ان تنصروا الله
ينصركم ﴾ وقد فسر سبحانه نصرته في آية أخرى مثل هذه الآية بطاعته
ودعائه والقيام بأوامره والصلاة والدعاء فقال تعالى ﴿ ولينصرن الله من ينصره
ان الله لقوى عزيز ، الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة وآتوا
الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الامور ﴾ فبين في هذه
الآيات الكريمات أن نصره الذي طلبه منا هو اقامة الصلاة الى آخره ، فالآية
حجة صريحة عليه لانه يرى ما دعت اليه الآية لا فائدة فيه ، ولكن هو
أطمع من أشعب يأخذ حجج خصومه عليه ويحتج بها فيكذب على الله تعالى
كما يكذب على عباده المؤمنين . ولا بد للنفاق أن يكون هكذا فانه لا بد أن
يكون متقلبا في أموره وأقواله وأعماله في الخداع والمكر والمراوغة ، والالم
يكن لولا هذا منافقا بل يكون له وصف آخر

فصل

قال « اما الآخرون المؤمنون بالانسانية وبأنفسهم فيهبون لعلاج كل
مشكلة ، وينهضون لحل كل عبء ، فيصيبون مرة ويفشلون أخرى ، الى أن
يصيبوا في النهاية النجاح الحقيقي الأكبر ، قلت : اذا كان هذا حال المؤمنين
بالانسانية وبأنفسهم فحال المؤمنين بالله وحده أنهم يهبون لعلاج كل مشكلة
بما شرع لها فيزنون الأعمال بميزان موضوعاتها ويحسبون لكل شيء حسابه
ويعتصمون على الله وحده ويبرون بذلك أن فيهم الكفاءة التامة بالله اذا
صدقوا معه لانهم يعلمون ان الله يعين من استعان به وتوكل عليه ، فيعالجون
المشاكل بوسائلها الدينية والمادية ، فلا يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض
شأن الملاحدة الذين يؤمنون بالوسائل المادية ويكفرون بما وراءها من
الوسائل الدينية فينهضون لحل كل ثقل على مقتضى ما يحتاجه بالحزم والعزم
والصبر والثبات حتى يستحصلوا على النجاح الحقيقي فلا يفشلون ابدا الا اذا

كان فيهم شيء من خصال الذين يؤمنون بأنفسهم بالمعنى الذي يريد منسفة
 الهالك ومن على شاكلته فقد يفشلون وهو الأكثر ، وقد يصيبون إصابة
 مدخولة ، وقد قال تعالى ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وآتاكم أثلة ﴾ فأخبر أن الله
 نصرهم حين اعتصموا على الله وحده وآمنوا به وحده فلم يلتفتوا لأنفسهم ، فلما
 جاء يوم حنين وكانوا كثيرين فداخل بعضهم شيء من النظر إلى أنفسهم لم
 يغن عنهم ذلك شيئاً بل كان ذلك سبباً في الهزيمة كما قال تعالى ﴿ ولقد نصركم
 الله في موطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتكم أنفسكم فلم تغن عنكم شيئاً
 وضائق عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾ فنص تعالى على أن
 إعجابهم بأنفسهم هو سبب الفشل والهزيمة مع كثرتهم عما كانوا عليه من
 قبل ، وقد حصلوا إذ ذاك - على النجاح لما لم يداخلهم الإعجاب الذي منه
 الإيمان بالنفس ، أما نجاح بعض من يؤمنون بأنفسهم في بعض المواطن فهذا
 إنما يكون على من كان مثلهم من المؤمنين بأنفسهم أو فيه شيء من هذا الإيمان
 من قدم آراءهم على أوامر الله السالوية وشرعه المطهر ، فهم الذين قدموا
 عدوهم على أنفسهم لأنهم قدموا أفكارهم وعاداتهم وأمثالهم على النصوص
 الدينية ، لهذا ولاهم الله ما تولوا واختاروه لأنفسهم وما ربك بظلام للعبيد

فصل

قال : « إن أولئك يرون كل شيء من السماء ^(١) ومن الآلهة المتعددة
 الأخرى ، أما هؤلاء فيعلمون أن عليهم أن يرجعوا إلى أنفسهم وأن يعولوا
 عليها وأن يطلبوا منها كل شيء وأن في استطاعتها أن تبهم ما فقدوا وما
 احتاجوا إليه فيبدعون في الأعمال ويسيروا في الطريق ، أما أولئك فقصاراهم
 التحجب والدعاء المذل ثم الانتظار الطويل الممل ، ثم القلي والانتقال بذلك

(١) أي أهل التوحيد

كله عن العمل وعن اقتحام الصعاب ،

قلت : هذا الرجل قسم الناس هنا الى قسمين قسم يعتمدون على أنفسهم فقط وقسم يعتمدون على غير أنفسهم ، فمن هؤلاء من يعتمد على الله وحده ، ومنهم من يعتمد على الآلهة المتعددة الأخرى من المخلوقات ، فجعل هؤلاء الآخرين قسما واحدا فسوى بين الموحدين والمشركون في النتيجة كما سوى بين الله والاصنام في عدم الافادة والنفع في الدنيا ، ولهذا استطرد بان الدعاء ليس له من فائدة كما ياتي قريبا ، وقد ذم هذا القسم جميعا فلم يفرق بين من يعتمد على الله ومن يعتمد على الآلهة الأخرى ، ومدح القسم الذي يعتمد على نفسه ويرجع اليها وهم الملاحدة فان الناس في الجملة قسبان إما معترف بالربوبية وإما منكر لها ، والأول نوعان إما موحد وإما مشرك فالأول هو الملحد الذي لا يعتمد الا على نفسه . ومن عظيم خبثه ومكابرتة أنه ادعى على المسلمين فورا وفجورا أنهم يقتصرون على الدعاء والنحيب والانتظار فقط ، وكأنه أعمى عن هذه الدماء التي تراق في هذا السبيل ، وهذه الاعمال الجليلة التي تبذل في هذا الشأن ، وهذا القيام والقيود والثورات على الاستعمار التي لا تحصى . وإنما قصد من هذا الخط من الدعاء وسبه وتركيز بغضه في قلوب الناس لكي يرفضوه وسلكوا سبيل الاحاد ، لأن من ترك الدعاء فهو ملحد ، فان الحسد الفاصل بين الملحد والمتدين هو الدعاء ، لأن هذا اعتقد ربا قادرا كاملا فدعاه ، وذلك بعكسه فترك الدعاء لعدم وجود متعلقه في اعتقاده

ثم قال « ان أبشع صورة لهذه الحالة النكراء هؤلاء الخطباء ^(١) الذين يقرعون مسامعنا كل يوم جمعة بهذه الضراعات الكاذبة والابتهالات الوقحة

(١) بل أبشع واشنع صورة صورتك الظاهرة والباطنة ، فلو مسخت معنويك على هذه الحالة المرسومة في هذه الاعلال لكان من المؤكد أن تكون أقبح صورة في العالم كله

الذيلة سائلين الله أن يسقط عليهم السماء أو يخسف بهم الارض أو يجعلها عليهم نارا وأن يدمرهم وأن يجعلهم هم وأموالهم ونساءهم وذرياتهم غنيمة باردة لهم ولا مثا لهم من المسلمين العاجزين عن الحياة . ولكن الله لا يصنع ذلك أبدا ، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ، وان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم حتى لا تمتد ألسنتهم بالسوء والسياب وتفيض قلوبهم بالحقد على المتفوقين العاملين والحسد لهم ، انتهى

قلت : بين هنا ما يفعله المسلمون من الأمور المنكرة عنده ، ومثل بذلك هذه الخطب الأسبوعية التي تقام على المنابر يوم الجمعة ، وجعل هذا المظهر الاسلامي الاسبوعي المقدس حالة بشعة نكراء ، وذلك لأنه علم أن ما يليق به الخطباء من حمد الله والثناء عليه والوصية بتقواه أمر ينافي الاحساد الذي هو مقصوده والذي يدعو اليه ، وينافي ما قرره في أغلاله الخبيثة ، فلماذا هجم على الخطب والخطباء هنا ، ولم يكف بهذا التشنيع ولم يشف قلبه هذا المقدار حتى أعاد الخط عليهم في المبحث الخامس وأفرغ جميع ما يحمله في صدره من غل عليهم هناك ، وسترى لطمه ومناقشته هناك . والعجب أنه مثل أمور المسلمين المنكرة عنده بهذه الخطب ، أما غيرها من الدعايات الاحادية والاستهتار بالفضائل والاخلاق والاشتغال بالملاهي والشهوات فضرب عنه صفحا ولم يحرجه ويضيق صدره إلا حمد الله والثناء عليه والدعاء على الأعداء ، ومن عمق خبثه وتلبسه دعواه على هؤلاء الخطباء أنهم يسألون الله أن يسقط على أعدائهم السماء أو يخسف بهم الارض ، ومعلوم أن هذا الدعاء لا يكاد يوجد ، ولا هو في الخطب المشهورة المدونة ، وإنما قصد بهذا تشويه سمعة الخطب والخطباء في هذا المظهر الديني المقدس ، ولو قدر أن أحدا من بعض العامة خطب بهذا فأى شيء فيه ، وهل المسلمون اقتصروا عليه بدون عمل وفعل كبير ، أو هو محرم حتى يجعله حالة نكراء . ولو أن هؤلاء الخطباء خطبوا بحقائقه الازلية الابدية التي تتركها امة فتبوى وتأخذ بها امة فتهمض

لما أنكروا عليهم بل لجعلهم أهدي الناس سبيلا ، مع أن أكثرها سخافات لا تليق إلا بالقلوب المقفلات

فصل

ثم إن هذا الملحد أتى بطامة كبرى وداهية دهياء ، فذكر أن دعاء الله جل وعلا ليس بوسيلة وليس له من فائدة ، وإنما هو مصرف خبيث أي عمل خبيث ، فقال وهذا لفظه بحروفه : « ومعلوم أن الدعاء أضعف وسيلة يلتقي بها عدو عدوه ، بل إنه ليس بوسيلة وليس له من فائدة سوى أنه يقوم بعملية تعويض وتصريف خبيثة ضارة » انتهت عبارته . فجعل عبادة الله التي خلق الخلق لأجلها وروح الدين وروح الايمان ليس بوسيلة وليس له من فائدة سوى الخبيث . وسيأتى قوله قريبا « والدعاء هو المصرف الخبيث والمملوءة والمفسدة المعوقة للبشر » فقد عرفت أن هذا الرجل جعل عبادة الله ليست بوسيلة ولا فائدة فيها ، وإنما هي مفسدة ومهلكة ومصرف خبيث صريحاً لا شك فيه ، فهو لم يكتشف بنفي كونها وسيلة حتى نفي الفائدة ، ثم لم يكتشف بنفي الفائدة حتى جعلها خبيثاً وفساداً ، هذا مع أنه معترف بأن الدعاء عبادة بلا خلاف وبلا أدنى ممارسة ، قال في نبذته (البروق) ص ٩٣ : « فن دعاء الله واستغاث به أو صلى أو حج أو صام أو ذبح أو نذر أو خضع لله فقد عبد الله ، هذا إما لا ريب فيه » انتهى . فقد عرفت أنه قرر أن الدعاء عبادة كالصلاة والحج والصوم ، فلو أن قائلًا قال ومعلوم أن الصلاة ليست بوسيلة وليس لها من فائدة وأنها مهلكة ومفسدة ومصرف خبيث لكان من جنس قوله سواء ، فإنه حكم على نفسه بأن الدعاء كالصلاة والصوم والحج إلى آخره ، فقد صرح بأن هذه كلها عبادات لله ، ومعلوم أن عبادة الله هي شرعه المطهر ، وهي دينه الذي أنزله على ألسنة رسله ، فمن جعل الدين أو ركنًا من أركان الدين لا فائدة فيه وإنما هو مفسدة وتعويق ومهلكة وخبيث فكيف يدعي الإسلام أم

كيف يشك في كفره ، وقد رأيت أيضا أنه قرر أن ذلك أى كونه عبادة عما لا ريب فيه . وقال أيضا في ص ٩٧ من البروق « فالذين قال لنا لا تعبدوا الا الله ، فأقادنا أن الدعاء والاستغاثه عبادة » انتهى . فقد رأيت أنه صرح بأن الدعاء عبادة ، وأن ذلك بما قاله الدين ، فتكون العبادة لا فائدة فيها بل هى ملهاة ومفسدة وخبت معوق للبشر كما هو صريح كلامه . وقال في نبذته الأخرى (الفصل الحاسم) ردأ على الدجوى في قوله « من دعا غير الله لم يلزم تكفيره » فقال هذا الملحد معارضا له ص ٨٩ : « هذا يقتضى أن دعاء الله ليس عبادة له ، وهو باطل بالاجماع » فقد رأيت أنه صرح بأن الدعاء عبادة بالاجماع . وقال أيضا فيه ص ٨٩ و ٩٠ « معلوم من أوليات الدين أن الدعاء داخل في مادة (عبد) و (دان) وأن من دعا الله فقد عبده ودان له ، وفي الحديث الصحيح أن رسول الله عليه السلام قال « الدعاء هو العبادة » وفي رواية « الدعاء حج العبادة » وفي حديث آخر صحيح أن رسول الله عليه السلام قال « الدعاء هو العبادة » ثم قال « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » ففسر عليه السلام العبادة بالدعاء ، ولا إخال أحدا يمانع أن دعاء الله عبادة له ، ومعلوم بعد ذلك أن العبادة كلها لله وأن الدين كله له ، وأن صرف شيء منها لفغير الله مفارقة للإسلام » انتهى كلامه بحروفه ، وأمثاله كثير يقرر أن الدعاء عبادة ، ولهذا قال ولا إخال أحدا يمانع في أن دعاء الله عبادة له ، وقال هذا بما لا ريب فيه وادعى أن ذلك بالاجماع . فاذا كان معترفا بأن الدعاء عبادة لله كالصلاة بالاجماع ، فكيف يكون مسئلا من يدعى أن عبادة الله مصرف خبيث ومفسدة وأنها ليست بوسيلة وأنها لا فائدة فيها . اذا عرف هذا كله فنقول لهذا الملحد متى كان الدعاء ليس بوسيلة وأنه ليس له من فائدة وأنه ية قوم بعملية خبيثة ، فان هذا لا يعرف الا عند الملاحدة فقط الذين لا يعترفون بالربوبية ، فان هذا لا يوافق غير اعتقادهم لان دعاء المعدم ليس له من فائدة وإنما هو

مفسدة وتعويق ، أما من اعتقد أن الله سميع عليم له السكال المطلق الذى لا غاية فوقه فيسمع من دعاه ويجيبه ، وأنه القادر المدبر لأمر السموات والارض المروف الرحيم فانه يعلم ويعتقد أن الدعاء أكبر وسيلة بل كل وسيلة تخلو منه ولا يقارنها فانها لا تؤثر الا فى جنس مثلها . وجميع أهل الأديان الذين يقرون بالله سبحانه يعلمون أن الدعاء من أعظم الوسائل ، ولم يخالف فى ذلك الا الملاحدة الدهرية ، بل المشركون الذين يقرون بالخالق تعالى يدعونه فى الشدة ، لأنهم يعلمون أن الدعاء هو أعظم الوسائل ، ولهذا يتركون دعاء آلهتهم فى أخرج وقت لانهم يعلمون أن دعاء الله هو الذى ينفع وحده فى الشدة كما قال تعالى ﴿ واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾ الآية . ومع ذلك فهم كفار ، فكيف بمن أنكر إفادة الدعاء مطلقا ، وهذا الملاحدة لما كان دهريا خبيثا يعتقد ان هذا الكون انما يجرى على نواميس الطبيعة حيث ذكر فيما تقدم أن النواميس المولودة من المادة هى التى تحكم هذا العالم ، فالحوادث كلها ترجع الى تفاعل طبيعى مرتبط ببعضه ببعض ، فليس هناك رب له هيمنة عامة على الأسباب ومسبباتها وهى تجرى على مقتضى المشيئة فيجيب من دعاه وينفع من استغاث به ولجأ اليه واستعان به ويعاقب من عصاه اذا شاء ولو جمع من الاسباب ما لا يحصر ، لما كان يعتقد هذا الاعتقاد الذى هو كفر ظاهر بى عليه هذا القول الذى هو كفر واضح ، ولا شك على هذا الاعتقاد أن الدعاء لا فائدة فيه ، فإن هذا القول مناسب لذلك الاعتقاد .

عمد هذا الملاحدة إلى أعظم مظهر من مظاهر دين الاسلام وعبادة الله التى خلق الخلق لأجلها فادعى أن ذلك مصرف خبيث أى عمل خبيث وأنه مفسدة ومهلكة ومعوق لا فائدة فيه بين أمم تدعى الاسلام ثم مع ذلك يقول ويدعى أنه وفق بين روح الدين وروح العمل ، بل يدعى أنه انما قال ذلك لأجل أن يكون ايمانه كإيمان عمر بن الخطاب ، وأن هذه حقائق لا يستغنى عنها مسلم ، فيها سبحان الله أين العقول .

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلالها وحتى سامها كل مفلس
وهذا الذى ادعاه هنا هو تفسير قوله فى المبحث الاول ان الاخلاق
الدينية المحض لها نتائج أخرى ، يعنى بهذه النتائج الأخرى هذه الخبائث التى
ذكرها هنا وهى المفسدة والخبث والمهابة والتعويق وعدم الفائدة ، هذى هى
النتائج الأخرى وهذى هى الأغلال النكراء ، ولا شك أنها لا تفيد المجد
المنشود ، فانه لما ذكر أن سبيل المجد المنشود ينحصر فى الاخلاق الصناعية
فذكر أنها هى التى تمز الشعوب ، ثم ذكر أن الاخلاق الدينية لها نتائج أخرى
فذكرها هنا وهى هذه الاخلاق المشار اليها كما ترى ﴿ أم حسب الذين فى
قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ﴾

ولم نعلم أحدا من الكفار من الأولين والآخرين اجترأ على التفوه بهذا
المقال ، وكل من له دين وعقل صحيح يعلم بلا أدنى شك أن هذا الرجل ملحد
زندى لا يعتقد خالقا ، وانما يحتج ببعض الآيات قصدا لإفسادها وتشكيكها
فى القرآن ومكرا وخداعا وتمويهها على الاغبياء من أضله الله على علم وختم على
سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة . وكيف يخفى على من عرف دين الاسلام
أن هذا كفر صريح واضح لا ريب فيه ، وكيف يخفى كفر من ادعى أن عبادة
الله التى هى دينه مفسدة ومهابة وخبث لا فائدة فيه ، وكيف يخفى على من عرف
الاسلام كفر من ساوى بين الله وبين المعدومات أو الاوثان التى لا فائدة فى
دعائها وانما هو مهابة ومفسدة ، هذا لو لم يكن فى هذه الأغلال إلا هذا الغل ،
فكيف وأكثره كذلك كما يأتى ، وفى الحديث الصحيح عن النعمان بن بشير أن
رسول الله ﷺ قال «الدعاء هو العبادة» وفى حديث أنس «الدعاء مخ العبادة»
وقال تعالى ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ، ان الذين يستكبرون عن
عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ وانما كان الدعاء هو العبادة لانه أعظم
مظاهرها فانه روحها السارى فيها ، لانه يتأتى فى جميع الاعمال الشرعية القولية
والفعلية والمالية ، فهو نور العبادة وروحها ولبها الذى تدور عليه ، ولهذا وجه

هذا الملمد الحثيث جهده في محاربة هذا المظهر الأكبر فانه أعظم من الصلاة ، فانها لا تصح إلا به وهو يصح بدونها ، فهو توجه وافترقا حالى قولى مناسب للفقر الذائق الانسانى ، وقد جعله هذا الملمد مضادا للايمان بالانسان ، وهو كذلك فانه مضاد للايمان بالانسان الذى يوجب الكفر بالله ، مناسب للايمان بالانسان على الوجه المشروع ، فان الانسان محتاج دائما فهو فقير الى حالته الغنى بالذات ، فاقصاله بخالقه بواسطة الدعاء هو الذى يقويه ويزكيه ، فاقصال الانسان بخالقه أمر ضرورى لا بد له منه بهذا السبب ^(١) فهو السبب الأكبر لأوحيد بين العبد وبين ربه ، فأراد هذا الملمد المغرور قرضه وقطعه ، وهيبات يتسا سولت له نفسه ، وانما كان ساريا فى العبادات لان حقيقتها توجه حالى قلى فيتناسب مع التوجه القولى ، ولأن الاعمال العقلية والمالية تحققة وتصدقه وتقويه ، وقد قال تعالى ﴿ قل ما يعبا بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لؤاما ﴾ أى ما يكثر بكم ربى لولا دعاؤكم اياه فى الشدائد ، فعبر عن العبادة هنا بالدعاء لانه ركنها الأكبر كما قال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ﴾ وهنا قال ﴿ قل ما يعبا بكم ربى لولا دعاؤكم ﴾ أى عبادتكم كما تقسم فى الحديث ، الدعاء هو العبادة ، فقد كذبتم رسله فكان تكذيب الرسل ملازمة لانكار أفراد الخالق بالدعاء أو انكار فائدة الدعاء مطلقا ، ومن صدقهم فن لازمه أن يستعمل دعاء الله وحده بكل حال ، فؤلام الملاحظة لما كانوا مكذبين الرسل ولا يرون أنهم أتوا بشىء جديد ينفع الناس فلم يهبوا الحياة شيئا جديدا وانما صنع الحياة المتحللون من الأديان أنكروا منفعة الدعاء لانه من أعظم الاسباب التى جاءوا بها ، وكفى به سببا صحيحا لو أعطى حقه ، فن لازم تصديق الرسل استعمال الدعاء واعتقاد نفعه ، ومن لازم تكذيبهم ترك الدعاء واعتقاد أنه لا فائدة فيه أو التشكيك فيه قال تعالى ﴿ فسوف يكون

(١) كما قال تعالى ﴿ يا ايها الناس أقمم الفقراء الى الله ، والله هو الغنى الحميد ﴾

لزاماً) وهذا صريح في أن كل من كذب الرسل واستكبر عن دعائه أن
 سيلزمه العذاب ويعامل بنقيض قصده ، ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿ وما
 خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ﴾ فانه عبر في واحدة بان الحكمة في إيجاد
 الخلق حصول الدعاء وفي الثانية العبادة ، وقرن بينهما في قوله تعالى ﴿ وقال
 ربكم ادعوني أستجب لكم ، ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم
 داخرين ﴾ فربط الدعاء بالعبادة لانه محها وروحها . فكل هؤلاء الحبيث الذين
 شتموا بانوفهم المرغمة المأفونة انما تركوا الدعاء استكباراً وقد اخبر انهم
 سيدخلون جهنم داخرين أى صاغرين ، وقال تعالى ﴿ أم من يحجب المضطر
 اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض ، أالله مع الله ، قليلاً ما
 تذكرون ﴾ ومن يقول انه لا فائدة فيه وانه مفسدة وملهية يقول لا يجب
 المضطر وليس بكفء لان يدعى فلا يكشف السوء فليس له من فائدة ، وقال
 تعالى ﴿ واذا سألك عبادى عنى فأنى قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعانى
 فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾ ومن يقول ان الدعاء ليس
 بوسيلة وليس له من فائدة وانه مصرف خيى يعاند هذه الآية ويعاكسها
 ويقول لا يجب دعوة الداعى لانه ليس بوسيلة اذ لو كان وسيلة أو فيه فائدة
 لأجاب دعوة الداعى ، إذ الاجابه أكبر فائدة ، فمن يقول انه لا فائدة فيه
 يقول لا يجب دعوة الداعى وانما دعوته مفسدة وملهية ومصرف خيى فلا
 يحصل له الا عكس دعائه ورده لانه إنما يدعو معدوماً أو عاجزاً ليس بكفء
 للدعاء ، اذ القادر الحكيم العالم الرحيم الرؤوف العظيم هو الذى يجب دعوة
 الداعى . ولا شك أن كلام هذا الملحد معاكس للنصوص الدينية ولا سيما فى
 الأصول ، فانه يقصد أعظم أصل فى الدين فلا يكتفى بالقدح فيه فى موضع
 واحد بل كلما قدح فيه وأبعد هنية رجع اليه ثانياً وهكذا ومعلوم أن الرسول
 ﷺ كان يستعمل الدعاء فى الأوقات الحرجة عند مقابلة عدوه كما قال تعالى
 ﴿ اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم ﴾ فانه يوم بدر قام عليه السلام يصلى

ويدعو كل الليل ، فاستعمل هذا السلاح الجبار على وجهه فحصل النجاح الكامل ، ولو كان الدعاء لا فائدة فيه وأنه مفسدة وملهية لزم أن يكون ذنباً ويكون الرسول ارتكب هذا الذنب العظيم وأمر الناس كلهم بذلك ، وهذا عكس صريح للدين ، بل هو تسفيه للانبياء وجميع أهل الأديان ، وهو قد بين هذا حيث ذكر أنهم لم يأتوا بشيء جديد ينفع الناس ، فقبح الله من يخفى عليه كفر قائل هذا الكلام

ولم تزل الأمة المحمدية الاسلامية وقبلها الامم المتدينة تدعو ربها وتساله وتعبدته وتستغيث به حتى جاء هذا العبي الدعي الذي قضى أول عمره (١) في أمور معروفة لا داعي الى شرحها ، جاء هذا الملحد الزنديق فزقا بهذه المقالة الملعونة التي يستحى كثير من الكفار من التفوه بها ، ثم يقول مع ذلك انه يريد بهذا أن يكون إيمانه كإيمان عمر بن الخطاب المشهود له بالجنة

أمور تضحك السفهاء منها ويبيكى من عواقبها اللبيب

وما يبين لك أن هذا الملحد مخسوف القلب مطموس البصيرة أنه قرن السباب والالتهام بالدعاء في قوله الآتي قريباً حيث قال « أما السباب والدعاء والالتهام فهو المصرف الخبيث والملة المفسدة المعوقة للبشر » فجعل حكم هذه الأمور واحداً على السواء ، جعل ركن العبادة كالقذف واللعن المحرم شرعاً ، جعل العبادة التي اعترف بأنها عبادة بلا ريب ولا خلاف مثل السباب والالتهام الذي هو أقوال محرمة أو مكروهة شرعاً ، فهذا برهان على أنه لا يرى عبادة رب العالمين شيئاً معتبراً ، ولا يفرق بين العبادات والمعاصي ، ولا يفرق بين الله والاصنام والأوثان والالوهام التي لا حقيقة لها ، فالجميع لا فائدة في دعائها وليس بوسيلة بل هو ملهية وتعويق ومفسدة ومصرف خبيث ، فهو لا يرى العبادات الا من جنس المعاصي والمعاصي لا يراها الا من جنس

غيرها من الكلام ، كلمات خفيفات مبهيات كما صرح بذلك ، وكل هذا إنما يتأتى على أصل الاتحاد ، فمن المحال أن يصدر هذا عن قلب يقر بالربوبية ويعلم أنه مسئول عن هذا ، وقد طرد هذا الأصل الخبيث فيما يأتي فادعى أن الخطب التي تتلى على المنابر لأنها تتضمن الدعاء والذكر وتعظيم الرب لا فائدة فيها بل هي شر ، وكذلك المساجد لم تؤد إلا الشر ، فانه قال في المنابر والمساجد قد أدت شر ما يؤدى ، وهنا يدعى أن الدعاء لا فائدة فيه ، بل دعوى أنه ملهاة ومفسدة ومصرف خبيث كدعوى أنه شر يؤدى أو أعظم من ذلك ، ثم مع هذا يقرنه بالسب والالتهام فجعل الشتم والقذف الذى هو السب ونحو ذلك من جنس الدعاء الذى هو ذكر الله تعالى وعبادة له ، ولعله لما رأى الجميع حروفاً وأصواتاً جعل الحكم فى ذلك واحداً بالقياس ، ولكنه لم يطرده فى كتابه لأنه كلام أيضاً بل جعل الأمة إنما تبصر طريق العقل به ، وجعل النهوض موقوفاً على الأخذ به ، والسقوط على تركه واضاعته ، فسبحان من طبع على قلبه

واذا عكس هذا المعكوس وقال أننا نرى كثيراً يدعون فلا يعطون ما طلبوا ، قلنا نعكس عليك رجسك ونقول أنت ادعيت فى هذه الأغلال كما يأتى أن كثيراً من الناس يبذلون أسباباً كثيرة ولا ينجحون ، ثم أجبنا عن هذا دفاعاً عن الأسباب المادية بأنهم يبذلونها ويفعلونها قاصرة شاكن فيها وفى أنفسهم غير جازمين بالنجاح ، فلم يعملوا عمل من يحزم بالنجاح فلماذا لم ينجحوا ، وإلا فلو عملوا بها غير شاكن فيها وفى أنفسهم لنجحوا ، وحينئذ نقول لك فى هذا السبب الدينى كما قلته فى الأسباب المادية سواء بسواء ، وحبوط الأسباب المادية التى تجرى عن غير وجهها أو ضعيفة أكثر فى المشاهد من عدم حصول المطلوب فى الدعاء ، ونقول إن أكبر سبب مادية فى الوجود لا يمكن تأثيره وحصول نتيجته إلا بوجود شروطه وانتفاء موانعه ، وليس فى الوجود كله سبب مستقل بنتيجته حتماً بدون شروطه وانتفاء موانعه إلا

مشيئة الله تعالى ، فهو لاء الداعون الذين لم يشججوا أحيانا لم يأتوا بهذا السبب على وجه صحيحا نقيا ، بل يأتون به ضعيفا أو مقرونا بما يبطله ، أو يعملون أفعالا تضاد مقتضاه ونتيجته ، فلا تكون نتيجته الا ضعيفة جدا كالسبب المادى الذى يقارنه ما يضعفه ، بل الدعاء لا بد له من نتيجة فلا يذهب سدى أبدا ، ولو أن الداعى أتى بالدعاء على وجهه كما أمر بذلك لحصل له مقصوده بلا ريب ، كما تقول أنت فى الأسباب المادية سواء بسواء ، والله سبحانه أمر عباده بالدعاء ووعدهم أن يستجيب لهم ، وأمرهم مع ذلك أن يستجيبوا له كما قال ﴿ واذا سألك عبادى عني فاني قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ﴾ فبين فى هذه الآية الشروط التى تترتب عليها الاجابة أنها الاجابة له والايمان به ، فمن آمن بالله واستجاب له استجاب الله دعاءه ومن تمرد واستكبر وأعرض ونبذ أمر الله ورأه ظهريا أو تساهل فيه فان شاء الله استجاب له وان شاء لم يستجب له عدلا ، وهذا الملحد نفسه قد غلا فى الأسباب المادية غلوا تجاوز به الى حد الجنون ، وأسرف فى تسفيه الأسباب الدينية إسرافا تجاوز به الى حد الكفر ، فنقول له من المعلوم أن أكبر سبب فى الوجود عندك هو معرفة قوانين الطبيعة وثوابيسها ، وليس فى هذه الارض أعلم من ألمانيا بهذا الشأن ، وعندها من الأسباب المادية والصناعية والكيميائية ما قد عرفه العالم كله ، ومع هذا فقد حبطت أسبابها وعادت عليها نكبة عظيمة ولم تحصل على نتيجتها التى طلبتها بهذه الأسباب ، فما رأيك تدم سببا واحدا من هذه الاسباب مع كثرتها ووضوح تخلف نتائجها وبطلانها كثيرا بل وفسادها وحصول ضدها فى بعض الاحيان ، وغاية ما تعتذر به عن ألمانيا وغيرها من الدول التى سقطت فى هذه الحروب وغيرها بأن أسبابها هذه عارضتها أسباب أكبر منها وأن أهلها وقعوا فى أغلاط أفسدت تأثيرها ، فيقال لك حينئذ : وهكذا نقول فى الأسباب الدينية كاللجوء فان أهله عملوا معه أعظم مما عملته ألمانيا فى أسبابها ، ثم نقول أيضا : ان

اعترافك بأنها أسباب قوية مؤثرة ومع ذلك بطل تأثيرها كاف في بطلان حجتك ، لأن حجتك دائرة على وجوب وجود النتيجة من السبب حتما ، فهي هنا لم توجد مع هذا السبب الاكبر عنذك ، فكيف يدونه ، وأنت هنا نفيت كون الدعاء سببا لأنك قلت ليس بوسيلة وليس له من فائدة ، فلم تكثف بنفي النتيجة حتى نفيت السببية فيه أيضا مع النتيجة ، فيلزمك أن تنفي سببية هذه الأمور الصناعية والكيميائية لأن السبب الذي نفيت به سببية الدعاء ونتيجته موجود في الأمور الصناعية والكيميائية وغيرها وهو عدم حصول المطلوب الذي بذل له هذا السبب كالانتصار في الأسباب المادية ، والاجابة في الأسباب الدينية كاللجوء لأن تلك الأسباب المادية لم تفعل ونهيا إلا للانتصار والدفاع فلم يحصل كل منها ، والدعاء بذل للاجابة فيما ينتفع به الانسان في الأمور المباحة والمشروعة ، فلو قدر أن المطلوب لم يحصل فضده لم يحصل أى لم يحصل ضرر منه ، فكان من هذه الناحية أولى بالاعتراف بسببيته ، وأنت عاكست الحقيقة فعمدت الى أسباب قد علم بالحس والمشاهدة بطلان نتائجها وحصول ما يضاد ما بذلت له فغلوت فيها ، وبذلت جهدك في الحث عليها والاعتماد عليها واعتقاد أنها موجبة حصول نتائجها بذاتها حتما ، ثم عمدت الى أكبر سبب في الوجود وأجمعت عليه الأديان السماوية كلها وعرف تأثيره بالشرع والعقل والضرورة والحس والاستقراء ، ولم تثبت فيه ضرر بالكلية ، فادعيت أنه ليس بوسيلة ، فنفيت كونه سببا ، ولم تكثف بذلك حتى قلت وليس له من فائدة ، فنفيت النتيجة ، ولم تكثف أيضا بذلك حتى قلت هو المنصرف الخبيث والمهلكة والمفسدة ، فجعلته ضررا محضا مع اعترافك بأنه مفيدة ، ومع اعترافك بأن الخلق خلقوا للعبادة ، أليس هذا كله مما كسبه للدين ومعاينة الرب العالمين ثم اذا كانت هذه الأسباب المادية التي لم تحصل نتائجها بل حصل ضدها لم تنف عنها السببية فكيف تنفي عن الدعاء ، ونحن نعلم كما يعلم غيرنا أن هذه الأمصار الإسلامية قد بذلت أسبابا عظيمة مادية لا تعد ولا تحصى في طلب

الاستقلال وطلب أمور أخرى ، وكثير منها ذهب هواء ولم يحصل مسيبه ،
فإذا قال القائل انهم يدعون ولا يستجاب لهم قيل ويبذلون أسبابا مادية كبرى
ولم يحصل مسيبتها ، ولم يوجب ذلك الطعن فيها فكيف يوجب الطعن في الدعاء
مع أننا نعلم ونشهد شهادة الحق اذا شهد أعداؤنا شهادة الزور بأن الدعاء لو
كان يبذل ويعمل به في الجد والاجتهاد كما يعمل بهذه الأسباب المادية لحصلت
النتيجة بلا ريب ، ومن هو الذي يعلم أن هذه الأمصار الاسلامية لولا هذه
الدعوات لكان لها شأن آخر ، وهام يفرحون ويمرحون ويتقلبون في نعم
لا تعد ولا تحصى بينما كثير ممن هم أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأولادا
أصبحوا يتقلبون في أنواع البؤس والشقاء والعناء والعذاب الفظيع ، انه لا
يوجد انسان رشيد صحيح العقل يعطى ولده الصغير كل ما طلبه واشتهاه مهما
كانت حالته في الرحمة والعطف والحنان ، بل لا يعطيه الا ما يراه صالحا له
لا مفسدة فيه . ومعلوم أن نسبة جهل الانسان الى علم الرب أعظم من جهل
الصغير بالنسبة الى أبيه ، هذا وهو يحبه ، فكيف اذا عانده وتمرد عليه وذهب
يستعمل ما يخل بصحته ويفسد أموره

ان كل ما يبذله هؤلاء الداعون وهؤلاء المصلون وغيرهم يعرف كل أحد
أنه لو استعمل كما تستعمل هذه الأمور الدنيوية التي يجتهد أهلها في تأديتها
والمحافظة عليها وعلى سمعتها وعلى الاتيان بها صحيحة قوية لكان لها أكبر الأثر
فكيف يؤتى بها على حالة شوهام أو بفتور ورداءة همة وضعف وشك وغير
ذلك ثم لا يتخلف بعض نتائجها . إن أكبر شيء اعتمد عليه هذا الملحد
وأطال الجدال والعناد فيه هو أن الناس يشكون في قدرتهم وفي أعمالهم بالذات
ويدعى انه لم يفسدهم ولم يوهنهم إلا هذا الشك ، وإلا فلو عملوا غير شاكين
لحصل لهم مطلوبهم حتما . ومعلوم عند أدنى عاقل أنه لو فرض وجود هذا
الذي يدعيه في الاعمال من الشك فشكهم وفتورهم في العبادات أشنع وأبشع
وأعظم ، فلماذا يتحامل على دعاء الله وديانته والدائنين بها هذا التحامل المنكر

ويقدر فيها هذا القدر العظيم

سبحان الله ، من هو الذى يستطيع أن يحكم على أفراد هذا العالم أن كل من دعا منهم فلا يستجاب له ، وأن دعاءه ملهأه ومصرف خيىث ، مع أنهم كلهم - حاشا ملحد - يدعون ويفزعون الى ربهم سائلين حاجاتهم المختلفة دائما ، وقد وجدوا تأثير ذلك أظهر من أن يكابر فيه ، وليس فيهم أحد يشك أنه سبب من أقوى الأسباب ، انما يشكون فى أنفسهم لما يعرفون من نقصيرهم فى موجبات الإجابة ، ولو قيل لأدنى عامى فضلا من غيره إن دعاءك ليس بسبب ولا له فائدة لا نكر ذلك بفطرته الدينية التى فطره الله عليها ، لأنه يعلم أن ربه ليس بمعدوم ولا كالجادات التى لا تسمع ولا تجيب من يدعوها . فكون الدعاء وسيلة من أعظم الوسائل أمر قد علم بالضرورة كما علم وجود الله سواء ، لأن جميع من أقر بالله وبأنه رب متصرف فى خلقه رحيم ودود عليم حكيم سميع يجب فلا بد أن يدعووه ولا بد أن يعترف بأن الدعاء وسيلة وأن فيه أكبر الفوائد ، بخلاف من لا يعتقد ذلك كالملاحدة وعباد الطوائع لذاتها فانهم لا يدعون الله لأن الدعاء عندهم ليس بوسيلة وليس له من فائدة بل هو مفسدة وتعويق ، قال تعالى ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون ، واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ فأخبر انه لا أضل ممن دعا من لا يستجيب له ، ولا شك ان من ادعى ان الدعاء ليس بوسيلة وليس له من فائدة فقد حكم على الله بأنه جعل من دعاء ضالا فى غاية الضلال

وما يجب أن يعلم أن الله سبحانه ذكر الإجابة بعد الدعاء ، والإجابة لا تتضمن اعطاء الشيء المطلوب من كل وجه ، فقله تعالى ﴿ وإذا سالك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعانى فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلمهم ىرشدون ﴾ وقوله تعالى ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ وغيرها من الآيات

انما دلت على الاجابة وهي أعم من إعطاء السؤال ، فان الداعي أعم من السائل ، وإجابة الداعي أعم من إعطاء السائل ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام « ينزل ربنا كل ليلة الى سماء الدنيا فيقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له » ففرق بين الداعي والسائل وبين الاجابة والاعطاء ، وهو فرق بالعموم والخصوص ، كما اتبع ذلك بالمستغفر فذكر العام ثم الخاص ثم الأخص ، فاذا علم العباد أنه قريب مجيب يجب دعوة الداعي ، وعلوا قربه منهم وتمكنهم من سؤاله ، وعلوا عليه ورحمته وقدرته دعوه دعاء العبادة في حال ، ودعاء المسئلة في حال ، وجمعوا بينهما في حال ، اذ الدعاء يجمع العبادة والاستغاثة والاستعاذه ، فاجابة دعاء السؤال أعم من إعطاء المستول ، كما فسره النبي ﷺ فيما رواه مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال « ما من رجل يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه بها إحدى ثلاث خصال إما أن يعجل له دعوته ، أو يدخر له من الخير مثلاً ، أو يصرف عنه من الشر مثلاً . قالوا : يا رسول الله إذن نكثر . قال الله أكثر » فقد أخبر الصادق المصدوق أنه لا بد في الدعوة الخالية عن العدوان من إعطاء السؤال معجلاً أو مثله من الخير مؤجلاً أو يصرف عنه من السوء مثله . ثم انه من المعلوم عند جميع العقلاء بدون أدنى نزاع أنه ليس لأحد أن يحكم على كل الأشياء بحسب ما يراه ويسمعه ، فيدعو مثلاً فلان يستجاب له ، فيأتي الى سبب اتفق الناس كلهم من جميع أهل الأديان على أنه سبب من أعظم الأسباب ثم ينكره بمجرد أنه لم يستجب له فيما يرى في مسئلة أو مسائل لأجل موانع أو عوارض فيه وفي دعائه ، وكيف ينكر الانسان سبباً مجعاً عليه من أهل الأديان ثم لا يسند إنكاره أيضاً الى حجة ، وغاية ما يدعي أنه فعل ذلك فلم يحصل له مرة أو مرارا ، ثم ماذا يكون ، فهل يتحكم في شرع الله بمجرد ذلك ، وكل عارف يعلم أن عدم العلم بالشئ ليس علماً

بعده (١) وكيف ينكر المسلم الذي يدعى أنه مصدق بما أنزل الله أن الله لا يجيب دعوة الداعي وهذه اجابته لعباده غير انحراف أكثر من أن تحصر وأظهر من أن تذكر ، وليس من شرط إجابته أن يفهمها ويظهرها من طبع الله قلبه وكان في شك من دينه ، وليس من شرط إجابة الدعاء أن تكون الإجابة إعطائه الإنسان على ما يشاء هو ويشتهى ، فإن الله سبحانه يفضل ما يشاء بعده على ما تقتضيه رحمته وعدله وحكمته لا على ما يشتهيه عباده ويتصورون ، فإنه سبحانه أعلم بمصالحهم وأعلم بعواقب الأمور ، كما أنه ليس كمثل شيء في ذاته وصفاته وأفعاله التي منها إجابته ، فليست إجابته كإجابة المخلوقين من كل وجه ، ليس كمثل شيء وهو السميع البصير

هذا وليعلم أن الدعاء ليس سبباً مباشراً كالأسباب المادية من كل وجه ، بل هو سبب ديني أعلى ، وليست الأسباب المباشرة بأقوى من غيرها ، فهذه أسباب الدعائية ليست بسبب مباشر ، وجميع الدول تستعملها بقوة وبراعة ومهارة زائدة وتبذل في سبيلها أموالاً طائلة ، وقد تنجح وقد لا تنجح ، ولو أن انساناً كتب ونشر وادعى أنها ليست بسبب وليس لها من فائدة بمجرد أنها لم تنفع في بعض الأحيان أو أنها ليست بسبب مادي لكذب الناس وحسبوا رأيهم ، هذا مع أنها قد تفيد وقد لا تفيد ، وليس في الشرع نفي لها

(٢) وما نحن نرى هؤلاء الأطباء وهذه المستشفيات ليس كل من دخلها وعالجه الأطباء يحصل له الشفاء مع أنه يسلم نفسه للعلاج والطبيب تسليماً كاملاً ، ولو أن رجلاً أو جماعة دخلوا مستشفى وعالجهم طبيبهم فلم يؤثر ذلك فيهم فكذبوا وناصبوا أن الطب لا فائدة فيه ، وليس بواسطة إلى الصحة لصح الأطباء وغيرهم وشتمهم وسبهم وسفهموا رأيهم ، مع إقرارهم بأنه ليس كل من تداوى يحصل له الشفاء . ومعلوم أن عدم حصول الشفاء أكثر من عدم إجابة الدعاء لمن استعمله استعمال من يعالج . ثم إن المريض لا يعمل مع الطبيب إلا على ما يراه الطبيب نافعا له ، لا على ما يراه المريض بكل حال

أو اثبات بالاجمال ، فكيف بالسبب الذي هو روح الدين والذي عاش بوجوده الوجود أجمع . هذا ولعلم أيضا أننا لسنا نقول أن المشاكل التي شرعت لها الأسباب الدينية والمادية يكفى فيها الدعاء وحده ، فإن الله سبحانه أرشد إلى العمل كما أمر بالدعاء وبين أنه سبب لهذا الشيء ، فلا بد من وجود السبب المادى مع الدين ، فالدين هو السبب الأصل والمادى فرع له فلا بد من وجود الأصل مع الفرع ، وإذا بنى الفرع على غير أصل انهار على من بناه ، والله سبحانه بين مصالح الإنسان وبين الطرق التي بها تستحصل هذه المصالح ، فمن أخذ بهذه الطرق استحصل على المصالح ومن تركها لم يصل إليها ، والطرق هي هذه الدينية والدنيوية ، فالجهل والبطالة ونحو ذلك تستحصل إزالته بالتعليم والتعلم وتيسير وسائل العمل ، ويستعمل مع ذلك الدعاء ، فإن الدعاء للأعمال كلها كالروح والحياة التي تلهمها وتدفعها وتمنعها من الفساد ، وإذا خلا العمل من الدعاء فقد خلا من القوة النافعة ، كالجسم إذا خلا من الروح كان عرضة للوحوش والحشرات وغيرها . وأما الجذب ونحوه فيستعمل في إزالته الدعاء ونحوه من الأعمال الدينية كالصدقة لأنه من الأمور الغيبية ومن خزائنه الكبرى ، فإن وجود المطر مفتاح لخيرات كثيرة ، وقد قال تعالى ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ﴾ أى فليطلب منا . فالحاصل أن الإنسان يجب عليه فعل ما ينفعه دنيا ودينا بفعل الأسباب العادية التي في طاقة البشر ، ويستعين بالله تعالى على انجام قصده ومراده ، كما قال النبي ﷺ « أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، فإن أصابك شيء فلا تقل : لو أنى فعلت كذا لكان كذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان » . ففى هذا الحديث بيان أن الإنسان يجب عليه الحرص على ما ينفعه بفعل الأسباب ، ويستعين الله تعالى فيدعوه ولا يعجز ويكسل ويصير إلى البطالة ، وأن نجاحه تحت مشيئة الله ولكن الله سبحانه كريم رؤوف رحيم يعين من استعان به صادقا مخلصا ، فلا يخيب من التجأ إليه بأخلاص وصدق أبدا ، أما

رفض الدعاء والتكبر عنه فكفر صريح وهلاك وبلاء محتوم ، وأما رفض العمل وعدم فعل السبب فنقص في العقل وسفه في الرأي ، فانه تعالى أرشد الى فعل الأسباب المادية وفرض فعل الأسباب الدينية ، فمن اقتصر على احدهما فقد خالف سنته الدينية والكونية التي شرعها لعباده ، فاذا حصل له نقص في عمله فلأنه قصر فيما أمر به فجاء به منقوصا فنقص له النقص بمقدار ما أتى من النقص في الأمور المشروعة

فصل

ثم قال : « ويبان ذلك أن انسانا ما إذا غضب أو حنق على إنسان آخر أو أمة على أمة أخرى لسبب من الأسباب كالظلم والعدوان والمنافسة والحقد صار هذا الحنق والغضب قوة دافعة من الممكن أو من المؤكد أن تدفع ذلك الحائق الغاضب الى العمل والانتقام والبطش ، ولا محالة في أن تدفع هذه القوة في سبيل ما من سبيل الانتقام ، والسبيل الطبيعي النافع لها أن تدفع في سبيل الانتقام أو البطش أو العمل والانتاج ، أى ينتقم المظلوم من ظالمه أو يعمل وينتج ليلحق ويسبق منافسه الذى أضرم في قلبه نار الغيظ ، ولكن إذا وجدت هذه القوة لها متنفسا أو طريقا آخر غير هذا الطريق الطبيعي انطلقت فيه فألفت في انطلاقها هذا تعويضا ومصرفا على الوجه الآخر ، هذا في كل القوى المندفعة بالضغط أو الدفع ، انتهى

قلت : قد تبين لك من هذا أن مستنده الى دعوى كون الدعاء ليس بوسيلة ولا له فائدة وأنه مصرف خبيث ومفسدة وملهاة الخ هو ما ادعاه هنا في هذه الجملة ، هذا هو برهانه ومستنده على انكار نفع الدعاء ، فاعتقد أن الدعاء يصير متنفسا للغضب والحقد الذى أضرمه حب المنافسة والاحقاد والمطامع ، وهذا الذى قاله هنا إنما يتأتى على ما ذكرناه من الحادى الصريح ، ولهذا فانه لم يذكر أن الذى أضرمه الاستعباد والكفر والظلم وسب الله ودينه وأنبيائه

وأن يكون الدين لله وحده فلا شيء من ذلك ، بل جرى على عادة السفهاء والنوكى والحقى والملاحدة الأشقياء ، لأن كل هؤلاء إنما ينتقمون لأغراضهم وأنفسهم وشهواتهم لا للدين ولا للإنسانية ، فلهذا كانوا ينهارون دائماً إذا حصل ما يسد هذه الحاجات الشخصية ويقمع هذه الأغراض النفسية كالرشوة وغيرها ، فما ذكره من وجوب العمل على الشعوب الخائفة الغاضبة على أعدائها وكون العمل وحده هو النافع للقوى المتدفع بالضغط فهذا لا يصح ، وكل هذا التقرير الذى ادعاه فى هذه الجملة تقرير ساقط بالمرّة ، وذلك أننا نقول إن الدعاء لا ينافى العمل ولا يضعف القوى بل يلمبها ويدفعها إذا كان العامل غير ملحد ، فإن الدعاء هو الذى يقوى العمل ، فإن حرارة الإيمان الذى جزؤه الدعاء هى التى تقوى العامل وتنشطه وتنجح العمل وتكمله ، فإن الدعاء دليل على قوة الإيمان وقوة الاعتقاد ، وذلك دليل على شدة حرارة الإيمان المحرك للعمل ، ومعلوم أن قوة الحركة بقدر قوة الحرارة التى يكون بها قوة العمل وضعفه ، فقوة العمل وضعفه نتيجة الأمل الكبير والإيمان العظيم ، وكلما اشتد الإيمان وعظم الأمل وقوى كثر الدعاء ، فهو كالحرارة الصاعدة التى تصل بنار مضغوطة فلا بد للنار المضغوطة من متنفس مقدر ، وتنفسها هذا مما يقويهسا ويزيد حرارتها كآلات الكبيرة فى المصانع العظيمة فانه لا بد أن يكون لحرارتها متنفس وإلا فسدت فطفت أو خربت ، وبكثرة الدعاء يكون كثرة العمل وقوته ، فالدعاء عنوان على الحرارة المحركة للعمل والانتاج وهى الحرارة الإيمانية والدافعة للفعل فبقدر قوة حرارة الإيمان يكون الدعاء والعمل والانتاج فى الكثرة ، وكلما ضعف الإيمان قل الدعاء وضعفت الحركة فيضعف الانتاج ، فالدعاء عمل ظاهر قولى والإيمان توجه حالى اعتقادى باطنى ، وحركة المؤمن عمل فعلى ، وكل هذه متصل بعضها ببعض ، لأن الدعاء عنوان على الحرارة الدالة على الحركة الدالة على الانتاج ، ومعلوم أن الانتاج إنما يكون بقدر قوة الحركة واعتدال سيرها ، وقوة الحركة واعتدال

سيرها انما يكون بقدر الحرارة التي تدفعها ، وبقدر الوقود تكون الحرارة ، والوقود هو مشاهدة الأوامر الدينية وحب الله ودينه وكتابته وخوفه ورجاؤه ، فالاعمال الصالحة هي الوقود والدعاء هو الذي يلبيها ويذكها ويضرمها ، وعظمته بمقدار عظمة الايمان ، فاذا اجتمعت هذه الشروط التي هي الدعاء والايمان والعمل حصل الانتاج الصحيح وحصل الاستمرار فيه ، واذا اختل الايمان أو الدعاء ضعفت الحركة وبضعفها يضعف الانتاج ولا سيما اذا ضعف الوقود فانها تطفأ وربما يستبدل بوقود غيره اذا كانت العوامل الحادية فيكون الوقود من شئ خبيث ضعيف كالروث فلا بد من فساد نتيجتها وانهارها بحسب ما يعتريها من النقص والاختلال

فصل

ثم قال : « وقد كان المفروض في هذه الشعوب والأفراد الخائفة الغاضبة المحتاجة على من ظلموها أو فاقوها وسبقوها أن تقوم بعمل ما حتمى لتخطيم هذه الحواجز والقيود والاعلال والفروق الظاهرة المخزية تدفعها قوة الحق أو قوة الحسد والمنافسة ،

قلت : وهذا أيضا لا ينافي الدعاء ، لكن اذا كان الدافع هو الحق والحسد والمنافسة ونحو ذلك من الامور النفسانية الدنيوية فقل أن يصحبه الدعاء الخالص النافع ، بل الحق أن يكون الدافع هو الايمان ، وأن تكون كلمة الله هي العليا ، واقامة العدل وازالة الظلم والاستعباد ، فان الدعاء على هذا الوجه يكون من أعظم المكملات لذلك ، وأما الحق والحسد والمنافسة فتلك عوارض نفسانية يمكن إزالتها وفسادها وتبديدها ورددها بالرشوة والوعود والمطامع الأخرى وهي كثيرة ، لأن هذا الدافع كدافع الحيوان الأعجم ، ثم ان هذا المعارض قد نقض هذه الدعوى فادعى أن الحق والحسد يجلب شرورا كثيرة حيث قال في المبحث الخامس في مسألة الزهد : « وأما الحديث

القاتل : انظروا الى من هو دونكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم ، فهو حديث يراد به التخفيف من حالة نفسية طاغية ، ذلك أن الانسان مجبول على الغيرة من الآخرين وعلى الحسد للمنفوقين الناجحين ، والغيرة والحسد قد يجلبان الشر الكثير بأن يتألم ويشقى الحاسد الغائر ويؤذى ويظلم المحسود المنفوس عليه ، وقد يترتب على هذين الامرين شرور كثيرة وآفات اجتماعية شاملة . انتهى . فانظر كيف صرح وادعى هنا بان الحسد والمنافسة تجلب شرورا كثيرة شاملة وآفات اجتماعية ويحث على التخفيف من حالتها ، وفي هذا المبحث يدعى أنها أعظم سلاح للاستقلال وينهى عن التخفيف منها حتى ولو بالدعاء على رأيه ، لان ذلك عنده يبطل قواهما ، ثم يبحث على أن تكون هي العوامل على إثارة الأعمال التي بها يحصل الانتقام ، وقد استكبر وشمخ بأفقه عن أن يقول تدفعها قوة الايمان الصادق والاعتقاد الخالص في إرادة وجه الله والدار الآخرة ومحبة ورضاه ، وأن يكون الدين كله له ، فان هذا هو الاعتقاد النافع الصحيح كما هو الدافع القوى الجبار الذي لا يقف أمامه شيء ، فاستكبر عن هذا وسلك طريقة النوكى والحقى وأشباههم ممن غرضه ودافعه الحسد والغيرة وأمثال ذلك ، وهذه هي دوافع الحيوانات المتقاتلة ^(١) ولهذا كان أصحابها كالأنعام بل هم أضل سبيلا

ثم قال « ولكن هؤلاء ^(٢) سلكوا طريقا آخر لتبديد هذه القوى الذاتية النفسية ، انهم اشتغلوا بالسياب والدعاء والاتهام وسائر ألوان الكلام فوجدوا في ذلك أعظم راحة تخلصهم من تلك القوة المتولدة من احتراق الانفعالات والعواطف المختلفة »

قلت : من يكون إيمانه صادقا واعتقاده قويا فإنه لا يجد راحة بهذه الأمور

(١) فان الديكة ونحوها إنما تتقاتل من أجل الغيرة ونحوها

(٢) يعنى الداعين

التي هي السباب والالتهام ونحو ذلك ، بل لا بد أن يسلك طريقا يتوصل به الى مراده وهدفه فيجد في العمل والنظر ، ويكثر من الدعاء الذي منه الاستعانة بالله القادر الجبار القاهر ، فيستعمل الدعاء ويكثر منه ، لان ذلك يلهب ايمانه ويدفعه الى العمل والاجتهاد ، وليس السباب والالتهام مثل الدعاء ، تغلط بعضها ببعض كخط المسك بالرجيع والطيب بالخبيث ، وهذا الملحد قد تكرر كلامه في خلط الدعاء بالسباب والالتهام ، تغلط عبادته بمعاصيه ، وجعل المعصية مثل الايمان ، فالملوم الداعي الصحيح الايمان لا يسلك طريق صاحب السباب والالتهام ، بل يسير في طريقه حتى يبلغ إحدى الحسنين : إما النجاح ، وإما الشهادة . فإن الايمان الصادق يطلب ما يلائمه وينفر عما يضاده ، فوجود المضاد يبقى دائما ملتبها ، والدعاء يزيد التهايا وحرارة ، ولا يستريح صاحبه بسب ولا اتهام كما لا يستريح بشتم وقذف ورشوة وغيرها ، فالدعاء له شأن آخر غير شأن السباب والالتهام ، لأن الدعاء جزء من الايمان فهو يزداد بزيادة الايمان وينقص بنقصانه ، بخلاف السب والالتهام فانه يكثر مع المعاصي ولا سيما الانانية فان صاحب الانانية شديد السب والالتهام لغيره كصاحب هذه الأغلال فانه شديد الإعجاب بنفسه يرى أنه دائما مظلوم لم يعط ما يستحقه ولا يريد أن يشاركه في الخير أحد الا اذا كان له في ذلك حظ يستفيد به في أموره الشخصية ، فقرن السباب والالتهام بالدعاء جريمة كبرى من أعظم الجرائم بل هي كفر صريح ، فمن قرن ذكر الله وعبادته بالقذف والشتم وسائر أنواع السب وجعل حكمهما واحدا فلا شك في كفره وردته ، ولو أن رجلا دعا في صلاته لكان ذلك من الحسن ، ولو سب أحدا أو قذفه فيها بشيء من السب والالتهام لبطلت صلاته باجماع المسلمين ، وكان ذلك ذنبا من الذنوب فكيف يجعل السباب مثل الدعاء . ومن حذقه في الخبث أنه ذكر الدعاء مع السب والالتهام وجعل لفظ الدعاء بينهما ، مسكين والله مسكين ، كما أنه يخاطب أغناما لا تفهم ، ثم يدعوهم بأنهم يجدون راحة بالسباب والدعاء والالتهام كذب ظاهر ،

بل المؤمن لا يجد راحة بهذه الأمور ، فإنه لا يستريح لشيء من الأغوار كالسب والاثام ، ولا يستريح بالدعاء بدون العمل ، لأن الدعاء وعوامله الباعثة عليه لا بد أن تدفعه الى العمل بالضرورة ، لأن الدعاء يدور مع الايمان ، وأما الباب فأنما يستريح به السفهاء وأهل الرقص والغناء والخلاعة وأمثالهم من سفهاء الأحلام ، وليس الكلام مع هؤلاء لأن هؤلاء إنما تدفعهم أمور دنيوية بسيطة متى حصلت زال ذلك الدافع ، بخلاف الايمان والعمل الصالح والعواطف الدينية فإنها لا تدفع الا بحصول مقتضياتها من العدل وإزالة الظلم وغير ذلك من الأمور الدينية الصحيحة ، فالدعاء قسم مستقل بنفسه ليس بينه وبين الباب أدنى علاقة كما تقدم توضيحه غير مرة .

فصل

ثم قال : هـ انها فروض ثلاثة : إما أن تدفع هذه العواطف الى العمل ، وإما إلى الكلام ، وإما أن تبقى هما مخامرا وغيظا دفينا تحتبس نيرانه المتوهجة في النفس . فيقال : ان كانت العواطف المذكورة أهواء وشهوات وحقد وحدا ونحو ذلك فإن غالبها يقع كذلك وما لها إلى الثاني أى السباب والاثام ، وأكثر ما توجد هذه الأمور في الملاحة لأنهم لما خليت قلوبهم من العواطف الدينية عوضوا بالحقد والحسد والحسرات والهموم والغموم المتوهجة التي لا تمتنع لها الا بالكلام والسب والاثام غالبا ، وأما الدعاء فقد أوضحنا أنه لا يوجد الا مصحوبا بالايمان ، فالمحذ لا يدعو الله بل يحقد ويحسد وينافس ، وكثيرا ما تنهزم هذه الأخلاق بعضها ببعض فتكون وبالا على صاحبها . وأما المؤمن المخلص فيدعو ويعمل بلا ريب ، لأن عواطفه للصحة النقية تدفعه الى ذلك ، وأما المؤمن الذي خلط عملا صالحا وآخر سيئا فيدعو بقدر إيمانه ، ويحقد ويحسد بقدر ما معه من الشهوات والشبهات ، والدعاء فرض رابع مستقل ، فلا بد من تأثيره ، ولا بد أن يكون أثره طيبا .

بجلاف السباب والالتهام فأكثر ما تكون آثارهما وبيلة ما حقة
ثم قال : أما العمل فهو ما يجب أن يكون أثر هذه العواطف ، وبهذا
تصبح نافعة مفيدة حافزة على النجاح والابتداع ، وأما الكلام - أى السباب
والدعاء والالتهام - فهو المصرف الخبيث لها والمهلكة المفسدة المعوقة للبشر عن
الانتاج والعمل النافع ، انتهى

قلت : قد صرح هذا الملحد كما ترى بأن الدعاء مصرف خبيث وملهاة
مفسدة معوقة للبشر ، فأى كفر أظهر من هذا ، وقد سبق كلامه أن الدعاء هو
العبادة فكانت عبادة الله عنده مصرفا خبيثا وملهاة مفسدة نعوذ بالله من مكروهه .
وقد تقدم غير مرة أن العمل الذى عامله غير ايمان صحيح بل عواطف نفسانية
مختلفة ليس بمحتوم له النجاح ولو بلغ ما بلغ ، لكن اذا صادف عملا أو
نتيجة عمل من جنسه فقد يحصل الترجيح والمكافأة به ، وقد لا يحصل الا النكبة
من الجانبين ، وكل هذا يرجع الى التوازن فى الأعمال غالبا ، فلا يصح حكمه
على العواطف بالنجاح والنفع مطلقا ، فان عمل العواطف النفسانية لا يعمل
الا فى مثله أو دونه أو فى ما يقاربه فى الجنس لأنه عمل قاصر لقصور مصدره
عن العمل الفطرى الدينى ، فلا بد فيه من الضعف بالنسبة الى العمل الدينى
الصحيح فانه لا بد أن يكون ناجحا لانه عمل طبيعى فطرى ولأن عامله يسير
بفطرته الصحيحة بين داعى الجمال الكامل ودافع النفرة من القبح التهاى والنذل
الذى لا يطاق ، فما ذكره من التقرير فهو ساقط من أصله

أما دعواه فى هذه الطامة الكبرى بأن دعاء الله هو المصرف الخبيث
والمهلكة المفسدة عن العمل فهذه الدعوى قد تقدم الكلام عليها ، وان هذا القول
انما صدر عن اعتقاد الالحاد ، ولا يمكن أن يصدر هذا القول عن محترم
الأديان أو يرى أنه مسئول عن ذلك ، ولقد بلغ هذا الملحد من الفسق
والفجور والكفر والجزأة على الأديان مبلغا لم يصل اليه أكثر الكفرة ،
ومن يخفى عليه كفر قائل هذا الكلام أو يلتبس عليه كلامه فأنى ينفع فيه

الاسهاب والاطناب في رده ، بل كثير من هؤلاء الخبيثاء الاشقياء يودون ويتمنون بجذع الأنف وبكل ما في جهودهم أن لو ارتموا في أحضان هؤلاء الملاحدة وتمكنوا فيما تمكنوا فيه وانغمسوا فيما انغمسوا فيه ، فهؤلاء ينفرون عن كل ما لا يلائم أهواءهم وميولهم من الأمور الدينية الطيبة كما تنفر الخمر المستنفرة فهم لا يبصرون ولا يسمعون لآي داع يصدّهم عن هذه الغاية التي يريدونها ويتمنونها ، فهؤلاء من جنس أسلافهم الذين قال الله فيهم ﴿ لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ، انا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ . ثم قال تعالى ﴿ انما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب ﴾ الآية . فهؤلاء هم الذين ينتفعون بالأدلة الدينية ، وقد قدمنا اعتراف هذا الملحد بأن الدعاء عبادة بالاجماع ، وزيادة على ما سبق من إقرار هذا الملحد بأنه عبادة لا ريب فيها ننقل عبارته في ذلك من الصراع ص ٢٤٢ ج ١ قال « ولا ريب أن العبادة اذا ما ورد ذكرها في القرآن أو في السنة المطلقة كقوله ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ وقوله ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ﴾ وقوله ﴿ فاعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ وقوله ﴿ عابדות سائحات ثيبات وأبكارا ﴾ وقوله ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ﴾ ، ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ﴾ وقوله ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ﴾ وقوله ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ﴾ ونظائر ذلك من آي الكتاب الحكيم ، فلا ريب أن العبادة اذا أطلقت كما أطلقت هذه الآيات تضمنت الدعاء وغيره من أنواع العبادة كالصلاة والصيام والحج والزكاة والصدقة وسائر الأعمال والاقوال التي يزدلف بها المسلم إلى الله ويلتمس بها رضاه ، ولا يمكن أن تكون هذه الآيات تخص معنى دون معنى من هذه المعاني ، فلا يمكن إلا أن يكون من ضمن العبادة المطلقة في هذه الآيات الصلاة أو الصيام أو الاستغفار أو التضرع أو الخشية

أو الدعاء . كما لا يمكن إلا أن يكون من ضمنها النداء والمناجاة ، بل ذلك كله داخل في معنى العبادة المطلوبة المأمور بها ، ولا يختلف المسلمون في ذلك ولا يقول أحد منهم ان هذه العبادة المطلوبة في القرآن ليس منها الدعاء والمناجاة ، بل علم الناس بأن هذه الأمور منها علم ضروري لا يقبل الخلاف والنزاع ولا يختلف ان من دعا الله وأمعن في دعائه وناداه وأكثر من نذاته فقد أطاع هذه الأوامر بعبادة الله بالجملة ، وان من لم يدع الله تعالى وان قام بجميع الفرائض وآمن به الايمان الصحيح البريء فقد عصى هذه الأوامر بالجملة وترك نوعا من أنواع العبادة ، وهذا أمر لا يمشی اليه خلاف . فالعبادة في الشرع أى في القرآن والسنة وأقوال العلماء هي عند الاطلاق كل ما يحبه الله من الاقوال والافعال وما يقرب اليه تعالى كالمرأبة والخشية والخشوع والخضوع والخوف والرجاء ونظائر ذلك ، ولا يختلف الناس ان من دعا الله فقد قام بحظه من العبادة المأمور بها ، بل ولا يختلفون أن الدعاء من أفضل أجزاء العبادة كما جاء في الحديث الذى ذكره الشيعى وهو قوله وَاللَّهِ « الدعاء مخ العبادة » وفي رواية « الدعاء هو العبادة » وذلك لشرفه وسمو منزلته حتى كأنه خلاصة العبادة وأطيبها ، ولا يختلف الناس أيضا أن الدعاء والنداء كانا من اجزاء عبادة المشركين للاصنام وأنه اذا ما قيل « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم » أو قيل « والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلنى » أو قيل غير ذلك من الآيات والاختيار المصرحة بان المشركين كانوا يعبدون الأصنام والأوثان من دون الله تناول دعوتهم الاصنام بلاخلاف ، وقد ينص القرآن والسنة نصا جليا على أن الدعاء عبادة وحينئذ ينحسم النزاع ، وكذلك قوله تعالى « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » فان هذه الآية نص جلى على أن الدعاء عبادة وعلى أنه من أفضل أجزائها وأشرفها ، وكذلك الحديث القائل « الدعاء مخ العبادة » والقائل في الرواية الاخرى « الدعاء هو العبادة »

انتهى كلامه بحزوه . فقد رأيت أنه صرح تصريحاً لا إشكال فيه أن الدعاء من أجزاء العبادة بل هو من أشرفها وأطيبها ، ونقل الاجماع والضرورة على ذلك وأنه طاعة لله تعالى ، وحينئذ يقال له : وهل يشك مسلم يعرف دين الاسلام في أن من ادعى في جزء العبادة وأشرفها وأطيبها أنه مصرف خبيث في أنه كافر خارج من الملة ، فن ادعى أن الدعاء الذي هو أشرف جزء في عبادة الله ليس بوسيلة فهو كافر كما أن من ادعى أنه لا فائدة فيه فهو كذلك كافر ، ومن ادعى أنه من جنس السباب والاتهام فهو كافر ، لأنه جعل الطاعة معصية فقدح فيه ، ومن ادعى أنه مصرف خبيث فهو كافر ، وكذلك من ادعى أنه ملهاة ومفسدة وتعويق فهو كافر وهذا أمر مجمع عليه بين الأمة (١) لأن من ادعى في جزء من اجزاء العبادة كهذه الدعوى فهو كافر ، وهو قد صرح بأن الدعاء من العبادة بالضرورة والاجماع وما لا يقبل الاختلاف كما تقدم . وقال في الصراع ايضا ص ٢١٦ ما نصه : « فان من قدح في الاسلام أو في الله أو الأنبياء حكم بكفره وردته بظاهر ما قال ، وإن زعم أنه يريد غير ما يفهم الناس من قوله ، بل وإن زعم أنه يحكي وينقل أو ذكر احتمالا من الاحتمالات فلا يمكن أن يقبل شيء من ذلك . وكذلك لو قال قائل ان القرآن ليس فيه ما يعرف العقيدة الصحيحة والدين الحق أو قال انه جاء بالباطل أو أنه مخالف العلوم والواقع أو قال انه متناقض متدافع أو زعم أنه جاء بالشر والفساد أو قال انه رسول الله جاهل مثلاً ونظائر ذلك فن قال شيئاً من ذلك كفر وحكم عليه السامع بالردة وحكم عليه المسلمون بذلك ولم يسألوا عن ضميره وعما عقده في نفسه وعما ينويه ، بل ولم يشكوا أو يتوقفوا أو يختلفوا ، وبهذا ينتظم الامر ويقمع الزيف ويؤاد الاتحاد في صدور الملحدين ويضيق على الشر فلا يجد مناديج وفسحا فلا ينمو أو يشب أو ينتشر ، وبغير ذلك يحتل النظام ويقلق

(١) والملحد جمع هذه الامور كلها

حبل الأمن ويجد الضلال المختار والمواج والمصادر والموارد ويبدى كل
صفحة ويرفع كل عقيرته فيتنفس المجد الحسنة والصال ضلالتة ويقول كل
ما شاء من الكلام الفاسد ومن سوء الأديب مع الله ومع الدين والمؤمنين والدين
ويذهب بكل شيء من ذلك إلى المجاز والتأويل ويفزع صاحبه أن أخذ إلى ذلك
فلا يستطيع أخذه أو مؤاخذته يقول من الأقوال وكلمة من الكلمات فتفسق
النفوس وتشيع الفوضى الاعتقادية ولا محالة ، وهذا ما حصل لبعض الناس
الذاهبين هذا المذهب الفاسد حتى أن من قال « ما في الجنة إلا الله » ومن قال
« سبحان عز شافي » وجد من يؤول له كلامه ويحمل له المحمل الحسن ومن
يحسن الظن به ، وكذلك قال قوم أن كلمة لا اله إلا الله فاسدة وأن الأنبياء لم
يأتوا إلا بالشرك والشر وأن القرآن كله تشويه وتجسيم وأن الأولياء أفضل من
الرسول وقال أحدهم أنا أفضل من جميع الأنبياء والمرسلين وقال بعض المنتسبين
إلى الإسلام أكثر من هذا وأشنع فوجد من أحسن الظن بهذه الأقوال ومن
أولها وفسرها تفاسير جميلة أو مقاربة ومن صدق الدفاع والذيادة عن أصحاب
هذه المقالات حتى رموا من عارضوا قائلها بفساد العقيدة وبالكفر ، وهذا
معلوم مدون في كتب مطبوعة يحسن بها الظن اليوم وقد يحسن بها إلى ما بعد
اليوم إلى ما شاء الله . وهذا البلاء دخل من هذا الباب باب التأويل المبني على
حسن الظن بمن ادعى الإسلام أو ولد من آباء مسلمين أو مدعين للإسلام .
وكلامه في هذه السابقة في تقرير كون الدعاء عبادة بل من أعظمها كثير جدا
وفي الصراع الحكم بتكفير تارك الصلاة لأنها عبادة وقد ادعى أن الدعاء
كالصلاة سواء فليفرض الإنسان أنه قال الصلاة هي المصروف الخبيث والمهلكة
المفسدة المعوقة ولا فائدة فيها بل هو قد ذكر فيما يأتي أن المساجد أدت شر
ما يؤدي ، وأدنى رجل من المسلمين يظلم أن من سب الصلاة فقد سب الإسلام
وكذلك من سب الدعاء فإن الدعاء هو رأس العبادة كما اعترف بذلك ، وإذا
كان هو معترفا بلا ريب أن ترك الصلاة كفر فلا شك أن من دعا إلى تركها

فقد دعا الى الكفر ، وكذلك من دعا الى ترك الدعاء فقد دعا الى الكفر ، ولا يشك المسلمون أن من دعا الى الكفر فهو كافر ، واذا فتح باب القدح في الصلاة والقدح في الدعاء وفي عبادة الله فأى شيء يبقى من الدين ، وما هو الدين إذن ، وهل يتصور أن يعبد الله بدون أن يدعى ويستغاث به ويستعان به ويلجأ اليه في الضرورات والحاجات ، وبكفيك قوله تعالى ﴿ قل ما يعبا بكم ربى لولا دعاؤكم ﴾ فهذا صريح بأنه لولا دعاؤنا إياه لم يعبا بنا ، وصريح بأن الدعاء هو العبادة ومن قدح فيه فقد قدح في العبادة التي هي رأس الاسلام والدين ، وهو واضح والله الحمد ، لا يخفى الا على من لا يعرف حقيقة الاسلام والدين ، وليس لنا حاجة في أن نتبع كلامه كله في كتيبه السابقة لأنه قد أشار الى أنه قد خالف ما فيها مع كونه ادعى فيها أنها مبنية على براهين لا ريب فيها ، ولكنه بعد أن خاب أمه وحبط عمله بعد خروج أغلاله احتاج اليها فأخذ يحتاج بها في خداعه وتنصله ويدعى أنها غير مخالفة ، وأدنى عارف بدينه إذا طالعها عرف الفرق بينها وبين هذا الكتاب ، غير أنه لما صرع بين الجزء الثانى والثالث من الصراع في نفس تلك المقدمة الهوجاء التي هي في الحقيقة مقدمة لهذه الاغلال صارت تلك المقدمة فيها شيء كثير مما في هذا ، كبسده أنه نافع فيها نفاقا كثيرا جدا وكان نفاقه فيها من الأسباب التي جعلت كثيرا من الناس يسكتون عنها ، لكن صار سكوتهم هذا سببا في خروج هذا الوباء الخبيث . وقد احسن بعض الصلحاء حيث كتب له حين أخرج أغلاله هذه قائلا ما معناه : نحمد الله أن جعلك تنفث سمك مرة واحدة لئلا تفسده في كتب أخرى فيغتر بها الناس لما يعرفون من كلامك الأول فيحسنون الظن بك . وبالحمله فكتيبه الاولى كلها تناقض أغلاله هذه ، وهى السبب الذى جعل بعض الناس يشك فيه في أول الأمر لانه انقلب انقلابا فاحشا لم يسبق له نظير . فدعواه هنا أن الدعاء مصرف خبيث وأنه ملهأ مفسدة ومعوقة عن الانتاج مع كون هذه الدعوى كفرا لا ريب فيه فهو في نهاية السقوط ، بل

الملهية هو السب والالتهام والقذف والشتم وأشبه ذلك من الأمور المحرمة الفارغة ، وذلك كله من شأن الملاحدة والفساق وذوى الأنانية والاحقاد الدنيوية ، أما الدعاء فانه من نور الله ورحمته التى رحم بها عباده فأنعم بها عليهم ، فهو روح الحياة والعروة الوثقى التى لا انفصام لها والخيال المتصل بين الله وبين عباده ، فكيف يكون من جنس السب والالتهام ، ان هذا لظلم عظيم وبلاء مبین ، فان الدعاء أعظم دافع قوى ، فانه جزء الايمان الأكبر الذى يدفع الى العمل فكيف يكون جزء الدافع معوقا عن عمله فان جزءه منه يقوى بقوته ويضعف بضعفه فانه السبب الأكبر فى حصول المطالب العالية كلها فى الدنيا والآخرة ، وما نال الناس هذا الذل وهذا الضعف الا لما قصرُوا فيه وفى مقتضاه واعتمدوا على غيره ، وأما السباب والالتهام فتلك نتائج الأهواء والأغراض والضغائن والحسد التى ربما يكون أكثر بواعثها المعاصى ، فكيف يخلط الطيب بالخبيث والنور بالظلمة والحياة بالموت والأعلى بالأدنى ثم يحكم على الجميع حكما واحدا ، فان هذا كقياس الشئ على ضده ، ولكن من خسف الله بقلبه وأصممه وأعمى بصيرته فلا بد أن يكون هذا شأنه ، فان الاعمى المحبول يتخبط ولا يميز بين الأشياء المتضادة ولا سيما اذا كان يمشى فى ظلمات بعضها فوق بعض

ثم قال « وأما الهموم ودفن الاحقاد فى حنايا النفس فهذا قد يكون شر الفروض الثلاثة من الناحية النفسية ، غير أنه لا ريب فى أن هذه العواطف والانفعالات هى من القوى الدافعة الضاغطة كما ذكرنا ، فلا بد أن تنتهى بصاحبها الى أحد الأمرين العمل أو السباب أو التشفى الساذج ، فلنحذر الأخيرين لنصير الى الاول »

قلت : لا شك أن الغيرة على الدين ومقت الكفر والظلم والعسف والاستعباد وحب الله تعالى ودينه من العواطف أيضا ، بل هو العواطف الكبرى الدافعة الضاغطة ، بل هى أعظم القوى الاعتقادية ، واذن فلا بد أن

تنتهي الى العمل والدعاء ، لأن هذه الحرارة القوية لا بد لها من حركة ولا بد لها من حرارة صاعدة تدل عليها وتتصل بها وتمدها بالقوة كالحرارة الصاعدة من احدى الآلات الكبرى فلا بد منها ، كما تقدم بيانه ، وكما تقدم أيضا الكلام على الاحقاد والحسد والمنافسة قريبا وأن هذه قد تدفع للعمل وقد يحصل لها التنفس بالاسباب أو قمعها باحدى المطامع النفسانية فانها عوارض تعرض وتزول لأساس لها ، بخلاف عواطف الدين القوية الثابتة فانها لا تزول إلا بما يلائمها ، وهذا ظاهر . على أن قوله « فلنحذر الاحيرين » يريد بذلك الدعاء والاسباب ودفن الاحقاد ، وقد عبر عن الدعاء بالتشقي الساذج وقد علمت أن قرنها جميعا باطل شرعا وعقلا وحسا ، فالتقسيم باطل من أصله قطعاً ، لأن الدعاء نوع مستقل فإنه ان كان صدر من عاجز عن العمل فهو نوع مستقل فيكون نفعه بحسب حالة صاحبه الدينية فلا بد أن يثاب عليه لأن عبادة ، بخلاف غيره من الاسباب فانها قد تنفع وقد تضر بل تقتل صاحبها ، أما الدعاء فهو خير محض فإنه عبادة وطاعة لرب العالمين ، وطاعة الله الخالصة هي رأس كل خير في الدنيا ومصدره بخلاف السباب والالتهام فقد بينا أنها عوارض نفسانية باعثها الأنانية والأهواء والشهوات ، وأكثر ما تقع محرمة ومعصية فتكون نتائجها كما ذكر تشفيا ساذجا أو تشفيا مضراً ، فلا حجة له في ذلك مع تناقضه ، فقد تبين أن هذا التعليل الذى علل به عدم النفع لتعليل ساقط جاء على حسب اعتقاده وعلى حسب العلة التى أصابت فؤاده في أن الاخلاق الدينية لا تنفع فيها . وقد كررنا الكلام في هذه الفصول استرسالا مع تكريره ، لأن هذه المضائق كثيرا ما يلبس فيها ويحرص أشد الحرص على تعميق أصول الدين فيها بمثل هذا الهديان المزخرف بالكذب والبهتان والتزوير ، فينبغي الحرص على إيضاح ذلك ايضاحا جليا ، وهذا إنما يحصل بالمناقشة ، وذلك ربما يؤدي الى تكرار بعض العبارات . والله الموفق

فصل

قال دولعله بما يبالغ ويضاعف في سرور أعدائنا المحتلين أن ننشق حناجرنا كل أسبوع في مساجدنا بالدعاء عليهم وبلعنهم وقذفهم ، لأنهم يعلمون عواقب ذلك كله وأن المثل الغربي القائل لا تلعنوا الظلام وأوقدوا الشمعة لخير ما يجب أن ينسج على نوله للتربية والتوجيه العاطفي العقلي ،

والجواب أن يقال : يا مسكين ليست أصول الدين مبنية على العناد وما تهوى الانفس ، فإن الدعاء ركن من أركان الشريعة المطهرة ، فهو ركن العبادة الأعظم ، فإن كان حقا وصحيحا في نفس الأمر وأنه عبادة لله فلا يضرتنا سرورهم بذلك ولا غيظهم ، فليس سرور الأعداء برهانا على بطلان عبادة الله كالدعاء والصلاة والخطب حتى نحتج بذلك ، والله لم يأمرنا بأن نعبد بالعتاد بل شرع لنا شريعة نتبعها ولا نتبع أهواء الذين لا يعلمون سواء سرت هذه الشريعة الأغيار أو غاظتهم ، فمن احتج على بطلان الدعاء بسرور الأعداء فهو مصاب في دينه وعقله . مع أن هذه الدعوى أيضا غير مسلبة ، بل الأخلاق الدينية هي التي تغيظهم لأنهم يعرفون شدة أهلها وجلدهم وصبرهم على الأعمال وشجاعتهم في الحروب . ثم إن أكثر الأعداء الدائنين بالاديان الأخرى يستعملونه ، وأكثر عقلاهم يعرفون نفعه ، فهم يستعملونه ويخافون أهله ، فادعاء أنه يسر الأعداء ليس بصحيح ، بل ربما يسر الزنادقة الدهرية الذين يدخلون بين الناس لقصد الاضلال والافساد فقط ، وهؤلاء هم شر الدواب عند الله ، فلا يعتبر سرورهم ولا غيظهم . وقد كرر هذه الدعوى مرارا فهو يحاول ابطال الدين ورفضه بكل ما يملك من قوة وجهد حتى ولو بالعناد

أما ما ذكره من المثل الغربي فلا حجة له فيه ، وليس مطابقا لما يقصده من تزيف الدعاء ونفي قائمته ، فإن قوله لا تلعنوا الظلام ليس فيه مناسبة لا بطلان الدعاء ، بل نحن نقول به ونقول لا تلعنوا الظلام ، وليس في المثل انكم لا

تدعوا لله وأوقدوا الشمعة بل دعاء الله أعظم من إيقاد الشمعة ، بل هو نور الشمعة الحقيقي الذي من سار عليه لم يتعثر ولم يكب ولن يضل ، أما اللعن والسباب والاتهام فانت لا تراه ، بل نذمه ونهيه عنه ، ونأمر بإيقاد الشمعة التي معناها الدعاء والعمل الناجع ، مع أن في النصوص الشرعية ما هو أحسن وأولى وأبدع من هذا المثل ، كقوله عليه الصلاة والسلام « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن » الحديث ، وقوله تعالى ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ وأمثال ذلك من النصوص الكثيرة ، ولكن غرضه من هذا كله محاربة الدعاء لأنه يعلم أن إبطال الدعاء أعظم وسيلة إلى رفض الدين لأنه روح العبادات كلها ، فإذا حصل فقد حصل رفض الدين الذي وضع له هذه الإغلال الخبيثة

« شئشئة نعرفها من أخزم ،

وقد سبق أن الدعاء لا يتنافى مع المدنية والحضارة والتربية العالية والتوجيه العاطفي والعقلي ، بل تعاليمه الصحيحة هي أساس النهضة العلمية والعملية كلها ، فلا حجة فيما ذكره على ما مرّ تقريره غير مرة

فصل

ثم أطال في تعظيم الإنسان ، وهجم على الرازي والزمخشري وابن أبي الحديد والآمدى برحمته مناقشا لهم على تلك الآيات التي صدر بها هذا المبحث ، فقال مناقشا للزمخشري : « إن العلم لله وحده أما ما سواه من المخلوقين فهم في غمرتهم أو غفلاتهم يتفهمون ، وليس لهم أن يطلبوا علما ولو حلوا هذا الطلب لما بلغوا ما طلبوا ، وذلك لأنهم تراب خلقوا من التراب ومصيرهم التراب وما للتراب والعلوم ، إنما خلقوا ليعلموا وليعلم من سواهم أنهم غير قادرين على أن يتعلموا شيئا وأن يكونوا علماء ، وأن يفلتوا من أصناف الجهل ، ما للتراب والعلوم ، وإنما يسعى ليعلم أنه لا يعلم ، فالإنسان عند الزمخشري ما خلق إلا

من أجل التدليل بجهله على أنه جاهل جهلاً طبعياً لا يمكنه التفكك منه ، وهذا بمثابة الحكم بالاعدام على المواهب الانسانية في معانيها . انتهى كلامه على على يبقى الزمخشري

فلينظر المنصف الى هذا التحامل والمناقضة الباردة ، مع أن الزمخشري إنما أثنى على الله تعالى ، ومثل هذا المقام لا بأس بنفى العلم عن المخلوقين فيه كما قال تعالى ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أنجتم قالوا الا علم لنا إنك أنت علام الغيوب ﴾ فنفوا عن أنفسهم العلم - مع أنهم أعلم الناس على الإطلاق - تأديبا مع الله ، لأن علم المخلوق في جانب علم الله كاشيء ، كما في حديث الخضر مع موسى لما جاء عصفور فنقر بمنقاره في حافة السفينة من البحر قال الخضر ما نقص علمي وعلمك من علم الله الا كما نقص هذا العصفور من البحر ، ومعلوم أنه لم ينقص منه شيئا ، فأى ذنب للزمخشري ^(١) حتى يحاسبه هذا الحساب العسير ويرميه بالعظام ، وقد قال تعالى ﴿ قل إنما العلم عند الله ﴾ فأمره تعالى أن يحصر العلم عند الله ، وقال تعالى ﴿ قل لا يعلم من في السماوات والارض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ فإذا كان هذا التحامل كله من أجل حصر العلم في الله ونفى العلم عن الانسان فأمرد على القرآن فانه صرح بأعظم مما قاله الزمخشري ، فان القرآن أتى بصيغة الحصر ، وهذا الملحد قد ادعى فيما يأتي بأن الانسان لم يعجز عن شيء حيث قال « أى شيء عجز عنه هذا المخلوق الصغير » وسيأتى قوله « ان الانسان يعلم كل شيء » وتقدم دعواه أن الذين صنعوا الحياة هم المتحطلون من الأديان المنحرفون عنها ، فهم الذين صنعوا هذه الحياة ، فالكفار هم الذين صنعوا حياتنا ، وأما الزمخشري الذي حصر العلم في رب العالمين فهو الذي حكم على الانسانية بالاعدام فغاظ صاحب الاغلال وأخرج صدره ووقع في مشكلة كبرى وأصابته الحيرة ، كل ذلك من

(١) ان ثبتت هذه الآيات عنه

أجل أن الزمخشري حصر العلم في رب العالمين ، وأما الذين صنعوا الحياة فهم المتجملون من الأديان المنحرفون عنها ، والناس كلهم لم ينصفوا ولم يسلكوا طريق العدل ، لأجل ماذا ، لأجل أنهم لم يقدموه في الامر ^(١) ، ولأجل أنهم ذهبوا يطلبون غيره ويرغبون الى سواه ، فمن أجل هذا كان هذا العالم على آخر الفجور والظلم الذي لا يطاق ، وكيف يطلبون غيره ويرغبون الى سواه وهو بينهم معروف مكانه لا يحول ولا يزول بسفر ولا غيره ، وكيف يذكرون غيره إذا ذكر الذكاء ، إن هذا على صريح ما يقول لظلم عظيم ، بل هذا هو الاصل في جميع هذه الشرور ، لان أكثر شرور هذا العالم إنما تأتي من أجل ترك الانصاف والعدل ، كل هؤلاء الصحفيون وهؤلاء السياسيون جهلاء أغبياء لا يعرفون شيئاً لأنهم ذهبوا كل مذهب يلتمسون الأسباب في التأخر والضد وأخطأوا المذهب الصحيح - على زعمه - وهو عدم تقديمه في الامر فليقدموه في الأمر وليطلبوه وحده لاشريك له ولا يرغبوا اليه ، وإذا ذكر الذكاء حذار حذار أن يذكروا غيره ، فإذا حصل هذا حصل الانصاف الذي هو أساس العدل والنموض ، وقد أكد هذا بقوله :

إذا قلت قولاً أمن الدهر واستحي وهاب مقال أن ينازعه الدربا ^(٢)
فهو إذا قال قولاً فالدهر يؤمن على قوله ويستحي من مخالفته ، فهو إذا أراد شيئاً يقول الدهر كن فيكون كما هو صريح كلامه ، ولهذا قال مؤكداً لهذا القول ^(٣) :

إذا مشيت فكل الناس في أثرى وإن وقفت فما في الناس من يجرى
فهو إذا مشى فجميع الناس يتبعونه مشدوهين في أثره ، لان الدهر أمن

(١) كما صرح بذلك في آياته المتقدمة أول الكتاب

(٢) كذا قال في قصيدة له في أول (البروق)

(٣) وذلك في آخر نبذته (شيوخ الازهر)

على قوله بالأجابة ، أما اذا وقف فما في الناس من تسول له نفسه أن يخالفه فيقف فما في الناس من يجرى ، فهو اذا وقف فمن هو الذي يستطيع أن يجرى والدهر قد أمن على قوله ، ولهذا فانه يقول :

نثرى شفاء للنفوس وللحجي وردى شعري معجز الشعراء^(١)

فقوله دواء وشفاء لنفوس المؤمنين ولعقولهم ، وأما شعره فانه معجز الشعراء . ولهذا فان الامم العربية لم تبصر طريق العقل حتى ظهر كتابه الذي هو الحقائق الازلية الابدية تتركه أمة فتهدى ، وتأخذ به أمة فتنهض ، نسأل الله الكريم من فضله ، ولما ذا كان كذلك ، لانه وافق الطبيعة ، فمن أجل هذا يجب على كل مسلم ومسلمة تعلبه فانه لا يستغنى عنه مسلم واحد اذا اريدت له حياة صحيحة ، وهذا كله صريح كلامه^(٢)

انه لمن العجب العجيب جدا أن يناقش هذا الملحد الزمخشري على قوله « العلم للرحمن جل جلاله » الخ وهو بهذه المثابة ، ولو أن له أدنى مسكة من حياء لوجد طرقا كثيرة في تصحيح ما يدعيه من الحث على العمل دون التعرض للدين ولا حاجة الى مناقشة مثل الزمخشري ، وكل ما يعتذر به هذا عن نفسه فالزمخشري أولى به ، فان الزمخشري صنف الكتب التي لا تعد ولا تحصى على ما في ذلك من مذهب الاعتزال ، ولو لا أن هذا الملحد ناقشه في هذه المسئلة

(١) في آخر (الفصل الخامس)

(٢) وكيف يستغنى عنه مسلم واحد بين اربعائة مليون مسلم وصاحبه بهذه المنزلة .
الله اكبر الله اكبر ، يا لشمس التي في غير برجها ، ، والمصيبة أنها في غير برجها ، ولعلها انما كسفت لاجل انها في غير برجها ، نعم انه الشمس التي في غير برجها وهو الدر الذي في لجج البحر ، ولكن يا أسفا على هذا الذي اخرجته فجعله أغلالا في أعناق الكلاب

وان لسان المرء ما لم يكن له حصة على عوراته لدليل

التي ليس فيها شيء سوى الثناء على رب العالمين لم نناقشه ونبين خزيه أكثر مما
بينه هو نفسه ، وكلم للزخشرى من أغلاط في مسائل الصفات ولكنه لم
يعارضه فيها بشيء وإنما عارضه وحاربه من أجل الثناء على الله رب العالمين .
وكذا اعترضه على الرازى وابن أبى الحديد فهو من جنس اعترضه على
الزخشرى بل أبعد وأشنع

وأعجب من ذا أن يرى عيب غيره عظيما وفي عينيه عن عيبه عمى
قال « وأما الشيخ الرازى فيرى أن أقصى خطوات العقل البشرى أن
يعجز عجزا مطلقا وأن يقع في عقل يمنع التفكير والعمل والتقدم والتأخر ،
ومعنى هذا أن العقول كلها فكرت وعملت وحاولت الاقدام في مجالها ازدادات
خيرة وضللا وضعفا وجهلا وعجزا عن المعرفة ، فمن الخير إذن أن تحجم
وأن لا تقدم ، ومن الخير لها أن تبقى في مكانها لا تبرحه لثلا تضل ولثلا
تذهب بددا ، ثم لا ترجع ابدا »

فيقال : وهذا الاعتراض من جنس الذى قبله في السقوط والفساد ، فإنه
خطل وضلال خارج عن نفس الدعوى ، فإن الرازى لم يتكلم في هذه الآيات
فيما يختص بعلوم المادة والصناعات ، وإنما تكلم في العلوم الالهية وفي صفات
الله وفي أفعاله ، وحيث انه سلك في ذلك طريقة فلاسفة اليونان وغيرهم التي
حشى عليها بعض الجهمية ومن هذا حذوهم من أئمة الكلام في غالب بحوثه
وترك طريقة الكتاب والسنة من إجراء النصوص على ظاهرها على المعنى
اللائق بالله تعالى ، بين في هذه الآيات حاصل ما وصل اليه في ذلك ، وأنه لم
يصل الى يقين يعتمد عليه في مباحثه لأن هذه أمور غيبية عظيمة لا تعرف
إلا بطريق الوحي فقط ، فلماذا أنشد هذه الآيات :

تهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعى العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسوننا وغاية دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ثم قال الرازي بعدها : « لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ،
فما رأيتها تشفى عيلا ، ولا تروى غيلا ، ورأيت أقرب الطرق طريقة
القرآن : اقرأ في الاثبات (الرحمن على العرش استوى) ، (إليه يصعد
الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وقرأ في النفي (ليس كمثله شيء) ،
(ولا يحيطون به علما) ومن جرب مثل تجربتي حرف مثل معرفتي ، هذا
كلام الرازي ، وهو أجنبي عن مراد الملحد ، ولقد أبعد النجعة في الاعتراض
عليه لأن كلامه في المسائل الالهية لا الصناعية ونحوها من العلوم الدنيوية كما
هو ظاهر ، وهذا الملحد يعرف ذلك لكن أراد أن يتجاهل ويغالط الأغبياء
فلهذا جاء بها في هذا الموضع ، ثم اعترض عليها . ولا شك أن هذا الصنيع
خطأ واضح معلوم الفساد ، وهكذا يقال في جوابه على أبيات ابن أبي الحديد
فإن اعتراضه عليه - كاعتراضه على الرازي - ثرثرة لا طائل تحتها ، لأن كلامه
في المسائل الالهية لا المادية فانه قال :

فيك يا أغلوطة الفكر	حار أمرى وانقضى عمرى
سافرت فيك العقول فما	رجحت إلا أذى السفسر
فلحي الله الآلى زعموا	أنك المعروف بالنظر
كذبوا إن الذي ذكروا	خارج عن طبقة البشر

فضمير الخطاب في هذه الايات راجع الى الله تعالى كما هو ظاهر . فقد
علمت فساد ما قصده وما فهمه او تجاهل في فهمه مما تقدم فإن ابن أبي الحديد
سلك مسلك الرازي فتبين له ما تبين له فلماذا اعترف بأنه لم يصل الى حقيقة ،
وهذا صحيح فن هو الذي يصل الى معرفة كنه ذات الباري سبحانه وتعالى ،
بل ذلك خارج طاقة البشر ، فانه سبحانه لا تعرف صفاته وذاته بتحكم العقل
ومجرد الرأي والتفكير ، بل حسب الانسان العاقل أن يتمسك بما جاء في
الوحي من كتاب الله العزيز وسنة الرسول ﷺ في ذلك فيكتفي به ففي ذلك
من الكفاية ما يسعد الانسان فيعرف من حيث الجملة أن كل ما وصف الله به

نفسه ووصفه به رسوله ﷺ فهو حق على حقيقته وهو على ظاهره الذى يلىق بجلال الله وعظمته لا على ما يلىق بعباده ، فالقول فى الصفات كالقول فى الذات فكما أن له ذاتا حقيقة لا تشبه ذات المخلوقين فصفااته كذلك لا تشبه صفات المخلوقين ، وهذه قاعدة مطردة فى جميع الصفات أنها تجرى على ظاهرها ويحرم تحريفها أو تأويلها عما يخالف ظاهرها بالتحكم والتخصص ، بل تجرى - كما قلنا - على ظاهرها من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكيف ولا تمثيل ، ومن غير زيادة ولا نقصان ، هذا هو الحق فى هذا الباب العظيم ، فالاعتراض على ابن أبى الحديد فى هذه الآيات اعتراض ساقط لا حل له ومناقشة له يجاب عليها بما ذكرناه على آيات الزمخشري . وكذلك إتيانه بالبيتين الآخرين اللذين نقلهما وعزاها الى الآمدى المتفلسف فان ذلك خطأ مركب ، فانه أخطأ فى عزوها كما أخطأ فى الاعتراض عليهما ، وهو والعباد بالله مبتلى بسوء الخاتمة حتى فى الجمل النقلية التى يقولها أو ينقلها فانها لا بد أن تكون أسوأ من غيرها ، ولهذا كان أخبث كلامه فى آخر كتابه ، كما أن آخر بحوثه هو أحشأ وهلم جرا . فالبيتان المذكوران ليسا للآمدى ، بل هما للشهرستانى كما ذكر ذلك العلماء الاجلاء منهم الامام شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه فى كتابه التقييس (العقل والنقل) وفى كتابه (المنهاج) أيضا ، وكذلك ذكرهما شارح الطحاوية ، وموضوع البيتين المذكورين ك موضوع آيات الرازى وابن أبى الحديد سواء بسواء ، فانهما فى ما يتعلق بالأمور الدينية الالهية ، ولهذا ذكرهما شيخ الاسلام ابن تيمية فى (الحموية) وغيرها فى مسائل الكلام ، فلا علاقة لهذه الآيات كلها بالعلوم الدنيوية مطلقا ، فالاعتراض عليهما اعتراض باطل فى نهاية السقوط . ثم يقال لهذا الذى غلب على شعوره العجب واليه : هؤلاء الشيوخ قد بينوا ما وصلوا اليه كما بين ذلك غيرهم ، فأى شيء فى هذا ، هؤلاء علماء المادة والهيئة غاية ما عند أحدهم أن يبين مقدار ما أدرك عقله ، وكثيرا ما يقول انه لم يظهر له ما يقطع به ، فما بالك لم تعترض عليهم ،

ثم أنت ما هو الذى وصلت اليه فى هذه العلوم أو غيرها ، هل وصلت الى
 شيء أعظم مما فى هذه الأغلال وما فيها من الهذيان والخيال ، بل أكثرها
 كسر اب ببقية لا يشفى عيلا ولا يروى غيلا ، بل يورد الظمان جحيما وعذابا
 أليما . ثم العجب كل العجب أنك ذهبت تشنع على هؤلاء الشيوخ بأنهم فى
 آخر أمرهم لم يصلوا الى حقيقة فى هذه الأمور بل وقعوا فى الحيرة والاشكال
 ثم سقطت فيما هو أشنع مما انتقدته عليهم ، فقد ختمت أغلالك هذه التى
 أعجبت بها بمشكلة لم تحل الى اليوم بزعمك ، وذكرت أن حاصل ما ذكرته فى
 هذه الأغلال هو هذه الفكرة ، ثم ذكرت أنها مشكلة لم يوجد لها حل الى
 اليوم ، ثم ادعيت فى آخره ثانيا أنها لم تحل ، فكيف تشنع عليهم بهذه الشناعات
 المريعة بسبب وقوعهم فى الاشكال والحيرة ، ثم تسلك مسلكهم مع أنهم فى
 الأمور الالهية الغامضة الخفية ، وأما أنت فأشكل عليك أوضح شيء فى الدنيا
 كلها وهو الايمان بالله والعمل مع ذلك ، وأدنى عجوز جاهلة فضلا عن غيرها
 تؤمن بالله وتعمل مع ذلك ، فكيف بالعلماء ، أفلا يستحى من هذا مبلغه من
 العلم أن يتصدى لمعارضة أهل العلم والدين ويدعى أنه العارف بكل شيء ،
 المقدم فى كل أمر ، المؤمن على قوله الدهر

ثم على فرض التنزل ، لو قدر أن فى هذه الايات ما ينتقد ، لم يكن لنقلها
 ثم الاحتجاج بها فى هذا المحل وجه ، لأن مثل هؤلاء ليسوا بأئمة يقتدى
 المسلمون بأقوالهم ، فان الزمخشري وابن ابى الحديد من المعتزلة ومذهب المعتزلة
 غير معتبر عند جمهور المسلمين ، وأما الرازى والشهرستاني أو الآمدى فهم من
 أئمة أهل الكلام ، وقد عرف اضطرابهم فى الأصول ومخالفتهم للجمهور فى
 نظريات كثيرة فى هذا الباب . فجرد وجود قول لواحد أو فرقة قليلة من
 علماء المسلمين فيه خطأ لا يوجب تخطئة جميع المسلمين والاحتجاج عليهم به ،
 ولا يفعل هذا الا مغرور متبع لهواه مدخول فى دينه وعقله ، وقد أقر هذا
 الملحد فى الصراع بأنه ليس المسلم بالذى يتتبع اخطاء المخطئين وأغلاط

الغالطين ، فكيف جاز له هنا أن يخالف الى ما ينهى عنه ، وهذا كله لو قدر أنه ما قاله هؤلاء هنا خطأ ، كيف وهو عين الصواب الذي لا ريب فيه

فصل

ثم أطال في تعظيم الانسان بزعمه بعبارات طويلة مؤداها أن في الانسان استعدادات كامنة للكمال ومواهب نادرة ، وأن في استطاعته أن يدرك كل أمل ، وأن يقدر على كل ما يحاوله ، وأن من ادعى أن استطاعته محدودة وأنه لا يصل الى كل ما يحاوله فقد كفر بالانسان ، فلا يمكنه الرقي أبدا ، وقد كرر هذا المعنى كما ستراه مع ما تقدم ، ثم قال :

« من الواجب أن نعرف من أين جاء الانسان هذا الكفر بذاته وإنسانيته ، ولماذا كفر بهما . يلوح أنه كفر بهذا لأنه أراد أن يؤمن بالله الايمان الذي تصوره ، فقد تصور أن أساس الايمان بالله قائم على التفريق بين الخالق والمخلوق وبين الله وعباده ، فالتة يجب أن يعتقد أنه كامل في كل شيء قوى في كل شيء ، والعبد يجب أن يعتقد بأنه ناقص في كل شيء ضعيف في كل شيء ، ثم تصور أنه كلما بالغ في تنقيص الانسان والمخلوق وفي تضعيفه فقد بالغ في تعظيم الله وفي الايمان بكالاته » انتهى

قلت : غرضه من هذه الأكاذيب والفجور الظاهر هو الدعوة الى الكفر بالتفريق بين الخالق والمخلوق ، لأنه جعل العلة هي هذا التفريق بين الخالق وخالقه وأن ذلك كله بسبب تعظيم الله ، أى فيجب رفض ذلك ليحصل الايمان بالانسان ، وإلا فإدام مؤمنا بالله وحده ومعظا له وحده ومعتقدا فيه الكمال وحده فلا بد أن يجعل المخلوق دونه ناقصا ، وإذا حصل اعتقاد النقص في الانسان حصل التأخر ، لأن مناطه اعتقاد النقص في الانسان ، واعتقاد الضعف فيه والنقص كفر به ، لأن معنى ذلك أن قدرته محدودة وعليه محدود . هذا ما يرمى اليه من هذه الثرثرة الطويلة ، اذ من المعلوم أنه لا يمكن أن

يكون الخالق والمخلوق كاملين كما لا يمكن اعتقادهما ناقصين ، فلا بد من التفريق ، وهو لم يذكر للتفريق حداً بينا يسعى اليه حتى يقلل منه يقصد كذا وكذا ، بل جعل أصل العلة التفريق ولكنه جرى على عادته في الغمضة وخط الحق بالباطل ، ولهذا أشار بأن في الإنسان كفاءة تامة لاستكمال الكمال باستعداده ومواهبه ، أى فلأى شيء يقر بالخالق ويعظمه ويعتقد فيه الكمال ، لأن المقصود الكفاءة التامة وهي موجودة في الإنسان فلا حاجة الى غيره . وينبغي أن يعلم أن اعتقاد الكفاءة الذاتية في الإنسان ، وأن فيه استعداداً للقدره على بلوغ ما يريد وأن يعلم كل شيء ، أصل من أصول الملاحدة الإلادينية ، فلقد أخذ هذا الملحد وحاول دسه في أصول المسلمين والتقوية عليهم من هذه المخادعات التي نافق بها في هذا البحث وغيره ليجعل الروث مفضضا والكثيف مبيضا ، وهيات ، إنما يخفى هذا على الانعام وأشباهاها من لا بصيرة له في دينه . ثم يقال لهذا الملحد : من أين وجدت هذه القاعدة التي ادعيتها هنا في كون الإنسان يعتقد أنه كلما اعتقد النقص والضعف في المخلوق فقد عظم خالقه وأنه كلما بالغ في تنقيصه فقد بالغ في تعظيم الله ، فان هذا لا يوجد أبداً في كتب المسلمين ممن يعتد بقوله ^(١) ومعلوم عند أكثر العارفين بدينهم أنك ملحد من أعداء الاسلام لا يقبل قولك فيهم ولا في دينهم ، فان الملحد والكافر لا يقبل قوله في دين المسلمين ، فلا بد اذن من النقل من كتاب معروف او عن عالم معروف ، وكتبت السابقة كلها تكذب هذا فانها في محاربة المغالين في المخلوقات ، فما ذكرته هنا مجرد استهزاء وتهكم لا حاصل له ثم قال وصار من الحقائق الثابتة للخاصة والعامة أن الإنسان لا يعدو أن يكون أحد تلك الاشياء النافرة الحقيرة التي لا يرجى منها خير ولا علم ولا قوة

(١) وفي الحديث : المؤمن القوى خير عند الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل

انتهى . فليُنظر المنصف الى هذه المكابرات التي هي أوضح من الشمس ،
ويكفيك دليلا على فساد دعواه هنا وتكذيبه فيها أن كتبه السابقة كلها في
موضوع الرد على الذين غلوا في الانسان حتى ساووه برب العالمين وادعى في
هذه النبد كلها بأن أكثر المسلمين غلوا في بعض المخلوقات حتى جعلوهم أربابا
وآلهة مع الله وأن هذا هو السبب في تأخرهم ، فلما انقلب انقلبت مقالاته
فادعى هنا أن من العقائد الثابتة عند المسلمين أن الانسان لا يعدو أن يكون
أحد تلك الأشياء التافهة الحقيرة الى آخره ، فانظر الى هذا الانقلاب المنكر
والتناقض الفاحش ، وظاهر هذا أنهم يرون جميع الانسان كذلك ، وهذا
يشمل الأنبياء والصالحاء وسائر أصناف الانسان ، وقد قدمنا أن المسلمين في
النظر الى الانسان على صراط مستقيم ، فهم يرون أنبياء الله وأوليائه وحملته
شريعته المطهرة في أعلى المراتب التي يمكن أن يبلغها غيرهم ، وكل من هؤلاء له
مقام معلوم ، وإن كل خير في هذا العالم إنما جاء على أيديهم ، وأنهم في العلم
والقوة وجميع أنواع الخير قد حازوا قصب السبق بخلاف أعدائهم من الزنادقة
والملاحدة والكفار فإن هؤلاء قد حكم الله عليهم حكما صريحا لا مرد له
بأنهم كالانعام بل هم أضل ، وأنهم لا يعقلون ولا يعلمون ولا يفقهون ، وأنهم
رجس وأنهم نجس الى غير ذلك من الأوصاف التي حكم الله عليهم بها ، مع
عليه سبحانه بأن معهم علوما صناعية ومادية وتجارية كما قال تعالى ﴿ فلما جاءتهم
رسلمهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾
لأن غاية هذه المعرفة إنما هي تصور طرق المعيشة فقط ، وهذا أمر قد
استحصل عليه البهائم والحشرات والوحوش وغيرها ، فإن أكثرها معه من
الدهاء والحيلة والمكر والشجاعة ودقة الفكر ما يعجز عنه كثير من بني آدم ،
ولكن كل ذلك إنما هو في استحصال هذه المعيشة فقط ، فمن جادل عن هؤلاء
وعاند في علمهم ومعرفتهم فلا يجادل علماء المسلمين بل يجادل رب العالمين
ويعانده ، فانه هو الذي قال فيهم هذا القول ، ونحن لم نقل أكثر مما قال

القرآن ، بل كثير من الناس رفعهم عن هذه الأوصاف القرآنية بكثير . نعم هذه العلوم اذا أضيفت الى دين سماوى كانت نعمة أخرى ، وهى بالنية والقصد يكون الانسان مأجوراً عليها وتكون فضائل فى حق من عمل بها على هذا الوجه ، لأنها ليست مذمومة فى نفسها بل مذموم العامل الذى لوثها بالأخلاق النجسة ووضعها فى غير موضعها ، فكان هو المذموم من أجل أخلاقه الأخرى لا من أجلها هى بنفسها ، فانها من نعم الله التى أنعم بها على عباده ، ونحن لم نذمها بل نمدحها اذا كانت على وجه مستقيم ، وانما نذم من أفسدها ولم يقدرها حق قدرها ولم يضعها فيما خلقت له وشرعت من أجله ، والله سبحانه ذم أهلها من أجل أفعالهم لأنه سبحانه علم ما سيكون وعلم أنه سيظهر زنادقة وضعفاء عقول يغترون بأهلها من أجلها فيبن أنهم ليسوا على شيء من العلم والعقل والمعرفة ، فسد سبحانه هذا الباب سدا محكما وقطع الشبهة من كل ملحد ومنافق .

فصل

قال : « وصاروا اذا سمعوا ذكر المشكلات والأزمات الاجتماعية والعلمية والاقتصادية والنفسية والخلقية والأدبية ، وسمعوا إمكان تغلب الانسان عليها وحلها ونهوضه بها ، وسمعوا ما ينتظر من وثوب الانسان بالعلوم وكل نواحي الحياة وقهره للأمراض وللجهل وفتوحاته العلمية المرتقبة التى قد تقضى الى القضاء التام على صنوف الشقاء الإنساني ، صاروا إذا سمعوا هذا أو سمعوا شيئاً منه اشمازوا منه ومن قائله واتهموهم بفساد الاعتقاد والزندقة والاحاد ، إذ يرون أن مثل هذه المزاعم تدل على أنه - أى الانسان - ترك غير محدود القوى الذهنية ، وأن له أن يشارك الله فى علمه ، وأن يخرج من نطاق الانسانية للضعيفة الواهنة الى رحاب الألوهية التى تتصرف كيف تشاء وتعلم ما تريد ، وهذا عندهم نهاية الكفر والضلال ، ولكنهم لا يشمتزون الا شمتزاز البالغ

ولا يشورون الثورة الجارحة المحتاجة إلا اذا سمعوا أن علم الانسان قد يتوصل الى ما يظنونه غيبا ، فلو أقيمت لهم كل الدلائل على أن الانسان قد يستطيع بآلاته الدقيقة المحككة وباشعته المختلفة القوية التي هتكت كل حجاب أن يعلم ما في بطن الاتي أذكر هو أم اتى كما يعلم الامراض الباطنة ويراها رأى العين ويعلمها علم اليقين ، وكما يرى المخلوقات الميكروسكوبية التي كانت وراء المادة ومن الاشياء الغيبية قبل صنع الميكروسكوبات وغيرها من الآلات ، وأنه قد يستطيع التوصل الى جعل إخصاب المرأة كما يريد ان شاء ذكرا وإن شاء أنثى كما توصل الى هذا في كثير من النباتات والحيوانات ، بل كما قيل انهم صنعوه في الانسان نفسه - نعم لو أقيمت لهم كل البراهين على أن الانسان قد يستطيع هذا أو إنه قد استطاعه لما آمنوا ، ولو سمعوا من يدعيه ويقول له لكان أقل ما يرمونه به التكفير ، . قلت : أكثر ما ذكره في هذه الجملة كذب ظاهر غرضه من هذا التهكم والاستهزاء والسخرية وأن المسلمين على غاية من الجهالة وضيق العقل وأنهم أناس مغفلون لا بصيرة لهم ولا معرفة ، وخيئت يقال له : ان كنت تريد بذلك أهل العلم منهم - وهذا هو مرادك - فليس بصحيح ، فلا يمكنك أن تنقل ما يصدق هذه الدعوى على هذا الوضع عن واحد منهم أبدا ، وان أردت بذلك العامة فالعامة لا يحتاج بأرائهم في مثل هذه المسائل الا من هو أجهل منهم . ولا شك أن أكثر الملاحدة ينكرون ما هو أظهر من هذه الأمور بالحس والعقل والضرورة ويشتمزون منها ، فتوجيه هذا التهكم والسخرية الى المسلمين قحة وخبيث لا حاصل تحته . وهذه الدعوى التي ادعاهم هنا فيها ضروب من المجازفة والكذب الظاهر ، كدعواه أن في امكان الانسان أن يقضى على الشقاء في المستقبل قضاء تاما ، فهذا لا شك في فساده ، فبأي دليل ساغ له أن يدعى هذه الدعوى ثم يحتاج بها ثم يسفه رأي من يخالفه في ذلك . أيريد أن الناس يصدقونه في كل مايقوله وأن يقدموه في كل أمر ، أم ماذا . يا الله العجب ، يدعى هذا الملاحد المحال ثم يحتاج به ثم

يستعزى به من خالفه ، ولا يرضى من الناس أن يعارضوه في كل ما يقول .
وهل يصدق انسان له مسكة من عقل أن الانسان سيقضى على صنوف الشقاء
في هذه الدنيا قضاء تاما ، فان هذا يشمل الموت ويشمل كل حاجات الانسان
الضرورية ، بل هذا صريح في أنه سيبلغ الكمال في هذه الدنيا ، وهذا هو الذى
أشرنا اليه سابقا في أنه يرمى الى أن الانسان سيبلغ في هذه الدنيا باستمرار
تطور المعارف الى حالة يصل فيها الى الكمال المطلق ، وهذا سخف ظاهر ، فان
الله أخبر بأنه خلق الانسان في كبد وأنهم مردودون الى أسفل سافلين ، إلا
الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فحال أن يكون المردود فى أسفل السافلين له
حظ من الكمال ، وأخبر تعالى أن هذه الحياة الدنيا متاع وأنها دار غرور وان
كل نفس ذائقة الموت ، وأمثال ذلك كثير مما يدل على خيلاف ما ادعاه ،
فالدنيا مطبوعة على الشقاء والبلاء والعناء ، ولو كان فيها كمال لكان أحق الناس
بذلك الأنبياء والرسل كما قال تعالى ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفان
مت فهم الخالدون ﴾ ، بل ليس في هذه الدنيا فرج وسرور وخير الا هو من
آثار الأديان ، وآثار الأعمال الصالحة كالعداء ، ولو لا ذلك لما عاش على
الارض أحد كما جاء في الحديث الصحيح « لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الارض
الله الله ، لأنه حينئذ ينقطع نور السماء وخيرها عنها ويحل عليها الغضب ويزل
منها أثر الرحمة التي هي مرآة كل خير في هذه الدنيا ، وإذا كان ذلك كذلك
فن المعلوم أن الشر يكثر والكفر يزداد ، فكما ازداد الكفر ازداد الشقاء
وبلاء ، لأنه معلوله فلا بد أن يدور مع علته ، فإدام الاتحاد يزداد فلا شك
أن الشر سيزداد ، وها نحن نرى هذه الدول التي حرصت كل الحرص بزعمها
على فرض السلام والطمأنينة ما عملت في ذلك الا تقيض ما قرره ، لأن
ذلك لم يبن على أساس عدل ، وكيف يبنى على أساس عدل وقد أصبح العداء
والموالة والصداق والشقاق راجعا الى المصديات القومية والاحزاب المتحالفة ،
والدين لا دخل له في ذلك البتة ، ومن العجب أنهم فروا من التعصبات

الدينية من أجل ان يصلوا الى اتفاق وتقام صحيح فوقعوا فيما هو أضيق منها وهو التعصب الجنسي والوطني ورفضوا المواصله للدين بتاتا فكيف يحصل السلام وكل أمة تناضل عن نفسها وشخصيتها وجنسياتها لا دينها مطلقا ولا للعدل ، فدعواهم أنهم سيقضون على الشقاء دعوى ساقطة مردولة ، وبكفئك دليلا على سقوطها أن أعظم الشقاء الموجود الآن انما تدور رحاه في الأمم الممتازة في معرفة وسائل الرقي والتقدم الصناعي حين رفضوا الدين طائنين أن الشقاء في اتباعه فوقعوا فيما فروا منه ، مع أنهم قد حاولوا بهذه المعارف التي بها نالوا الشقاء ادراك القضاء على الشقاء فصاروا أشقى الأمم ، فلو كان ما ادعاه ممكنا لكان أبعد الناس عن الشقاء أعرفهم بهذه الأمور الصناعية التي دعا هذا الرجل الى رفض الدين من أجلها . نعم انه لو كان مع هذه المعارف علوم دينية صحيحة لحصل النفع المطلوب الممكن ، وقد قدمنا ان العلوم الدنيوية لا تندم لذاتها وانما منفعتها الصحيحة اذا استست على دين صحيح . وبالجملة فالشقاء أثر الكفر ، فلا بد من وجوده عند وجود مؤثره حتما

ومن العجب أن الله سبحانه وتعالى أنزل الشفاء الذي هو أقصى غاية في القضاء على الشقاء الممكن ازالته وبينه وفصله وسهله ودعا اليه فاني اكثر الناس الا كفورا ونفورا ، قال في كتابه العزيز ﴿ يا بني آدم إنا يا تينكم رسل منكم يقضون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ فأخبر أن عدم الخوف والحزن منوط بالتقوى والصلاح ، فاني أكثر الناس إلا الاستهزاء بهذا وتحقيره والادعاء بأن التقوى والصلاح لا تنفيد الرقي قال سبحانه وتعالى ﴿ يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ فلقد علق الله سبحانه الحياة الصحيحة الطيبة بالتقوى والعمل الصالح ، كما قال تعالى ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ﴾ وقال تعالى ﴿ ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ فبين الله اوضح بيان بأن تقواه والايمان به والقيام بما يحب ويرضى

هو أصل كل فلاح ونجاح ، فأي أكثر الناس إلا أن يعانون ويتهموا ذلك ويشكوا فيه ، ولماذا شكوا فيه لأنهم لم يعلموا حقيقة ، ولماذا لم يفهموا حقيقة ، لأنهم لم يجتهدوا في ذلك ولم يروا الحق في الدين كفاءة تامة لتقدم ونجاحهم . هذا الرجل الغني المشاكس يقول في نحو مائة موضع أو أكثر إن السبب كله في التأخر أن الناس يشكون في الأسباب الطبيعية للمادية ، وأن سبب شكهم فيها هو عدم اعتقاد الكفاءة فيها ، ثم يقول لماذا لم يعتقدوا الكفاءة ، لأنهم يشكون في قدرتهم واستعدادهم للناتج ، فإذا كان هذا كلامه في الأسباب مع الله لا يمكن أن يجد نصا ولا معقولا محييا يؤيد دعواه هذه فنحن نعكسها في الدين ونقول : من المعلوم الذي لا ريب فيه أن النصوص الصحيحة دلت على أن الفلاح والنجاح والرق بل وحصول الثراء الماتلي كل ذلك مربوط بالأعمال الصالحة أعني أنها سبب لهذه الأمور ، لأنها لا توجد إلا بها ، بل قد توجد لكن تضر ، ثم إنه قد علم بالاستقراء والتجربة أن ذلك قد وقع على أكل الوجوه ، فاتفق الشرع والعقل والضرورة على ربط هذا السبب بمسببه وأن ذلك سنة من سنته التي لا تحوّل لها ولا تبدل . وحقيقة نقول له : إن للسبب الوحيد كله لهذا التأخر هو العكس في كفاءة هذا الدين للاستقلال والنهوض والمجد ، والبرهان على هذا ضعف أخذهم به واستعمالهم له ، إذ من المعلوم أن كل من أحب شيئا واعتمد عليه فإنه يحافظ عليه ويرقيه ويحبه ويحترمه احتراماً كبيراً كمثل هذه المبادئ المعروفة ، فلماذا ضعف أخذهم به ، لضعف اعتقادهم في كفاءته في هذه القضية ، والله يعلم من فوق عرشه أنهم لم يعملوا بأسباب الدين ربيع ما يعطون بالأسباب الدنيوية ، فأنهم حافظوا عليها واحترموها ورفعوا أهلها فوق أهل الأسباب الدنيوية . فإذا كانت هذه الأسباب الدنيوية قد حبط أكثرها مع هذا الاجتهاد فيها والاحترام لها والحرص عليها والتعلق بها ، فكيف يقال إن الأسباب الدنيوية لم تنفع جداً مع هذا الاحتقار لها ، قبل عمل بها على وجهها وقدرت حق قدرها وحفظ عليها

حق المحافظة . ومعلوم أن أبسط دواء لا يحصل مفعوله إلا إذا استعمل على وجهه ، فكيف بأشرف دواء وأجله وأجمله وأعظمه ، ثم لو نظرنا الى سبب عدم احترامها والشك في كفاءتها لو جدنا ذلك بسبب غلبة الشهوات والشبهات على نفوس كثير من القادة والزعماء ونحوهم ، وقد يكون من اسباب ذلك سقوط أناس كانوا يستعملوها على غير وجهها وحينئذ فالملاحظة الذين سقطوا بأسبابهم قد اجاب عنهم هذا الملمد في الاسباب المادية وقال انهم لم يستعملوها إلا ضعيفة أو غير كاملة ، ولو أعادوا الكرة لوصلوا الى ما يريدون ، وحينئذ نقول : كل سلاح صحيح قد عرف واشتهر وتواتر قوة فعله ثم اختل مرة أو مرتين أو ثلاثا أو أكثر فانه يجب تقليب النظر فيه والاجتهاد في ذلك وإعادته مرات ، ولا بد أن يبلغ أثره ، لأنه لا سلاح فوقه ، واذا ما نظرنا الى من استعملها ولم ينجح وجدناه قد أدخل فيها مالا يلائمها من الآراء الغريبة التي لا علاقة لها بها فخلط معها من غيرها ما يفسدها فلهاذا لم تنجح ، وكل ذلك سببه شكهم في أنفسهم بأن فيهم كفاءة بالله ، فالانسان فيه كفاءة بالله فعليه العمل معتمدا على الله ، فيجتهد من الجانبين : يجتهد في عمله ، ويعتمد على الله . وهذه كفاءة عظيمة جعلها الانسان في نفسه ، فهو على ضعفه قوى بالله شديد بالله عظيم بالله شجاع بالله ، فهو قوى بالقوة العالية القاهرة الجبارة

أما هذا الرجل فانه جعل فيه كفاءة بذاته ، فسلوكه أخف مسلك على وجه الارض ، وكيف يغالط العاقل الحقائق فيعتقد في نفسه القدرة وهو يرى عجزه الذاتي الذي لا شك فيه ، بخلاف من يعتقد أن فيه الكفاءة بالله تعالى فتى اجتهد في اعماله واعتمد على الله فان الله سبحانه يوفقه ويعينه ويستخر له من الاسباب ما لا يحسب له الحساب ، وهذا ظاهر مشاهد

أما ما ذكره في الجنين والاطلاع عليه بالأشعة ونحو ذلك فهذا - ان قدر ثبوته - فليس من علم الغيب ، لان هذا شيء مشاهد بالعين بواسطة هذه الآلة ، وعلم الغيب هو معرفة ما هو غائب عن الانسان فلا ينظره ببصره ولا يحسه

بشيء من حواسه ولا تظهر له علامات تدل عليه ، هذا هو علم الغيب أما الذى يدرك بشيء من الحواس سواء كان ذلك بواسطة آلة أو بغير واسطة أو تظهر له علامات وقرائن تدل عليه فليس هو من علم الغيب ، ولهذا فإنه ليس فى إمكان هؤلاء معرفة هذه الامور بدون هذه الوسائط ، ومعرفة الشيء الغائب بالوسائط أمر متقدم نوعه قبل هذه العصور كالامارات والعلامات ، بل البينات ما هى الا قرائن تفيد العلم ، بل قد تفيد القطع بالعلم بالشيء الغائب ، وانما توسعت دائرة هذه الاشياء الصناعية فقط أما علم الغيب فهو هو ، فمضى أزيت هذه الوسائط لم يحصل شيء من ذلك أبدا ، ولو أن رجلا شق بطن أنثى ورأى ما فى بطن رحمها بعينه وعلمه لم يكن هذا من علم الغيب لانه زال الحجاب ، وإزالته بهذه الآلة كإزالته بأشياء أخرى تمنع حيلولته ، لانه حينئذ يرى ظاهرا بحاسة البصر ، فلا يظن ظان أن قوله تعالى ﴿ ويعلم ما فى الارحام ﴾ وما ذكر فى الحديث من انفراده سبحانه بعلم ما فى الارحام أنه ينفيه مما وجد من هذه الأمور ، بل المراد أنه سبحانه مختص بعلم ما هو غائب فى الارحام ، وأما ما ظهر فليس داخلا فى ذلك فإنه يعلمه ويعلم به خلقه ، فإنه ليس شيئا غيبيا ، فإنه بوجود ما يزيل هذا الحجاب خرج من الغيب الى الظهور كما لو سقط الى الأرض برحمته فإنه يرى مشاهدا كسائر الاشياء البارزة . والحاصل أن الله هو المختص بعلم الغيب ، والغيب - كما ذكرنا - هو ما لا يرى ولا يحس بشيء من الحواس ولا يعرف بقرائن وأمارات ، وهذا لم يتغير شيء منه ، فالناس فيه الآن وقبل آلاف السنين سواء ؛ غير أن الصناعات والوسائط تنوعت وكثرت ، وهذه أسباب ، وهى لا تزال من أول الدنيا وهى تتغير وتتقلب وتتجدد وتتحول بحسب ما تقتضيه الحكمة والعدل فى كل زمان ومكان ، وكذلك اطلاعهم على بعض الاشياء الذرية الكامنة فى الجسم بالآلة المذكورة فهو من هذا الباب ، فليس هو من علم الغيب ، وليس هو وراء المادة ، بل هو مادة متصلة عادة كسائر الاشياء التى يكون بعضها تحت بعض أو فوقه

فهو شيء يرى بالحاسة ، والذي يرى بها لا يصح عقلا ولا شرعا أن يدعى فيه أنه من علم الغيب ، سواء كان ذلك الشيء مرثيا بواسطة أو بغير واسطة .
 أما ما ذكره في اخصاب المرأة وجعل الولد ان شاء ذكرا وان شاء أنثى فهذا لم يصح ، وهو لم يحزم بوقوعه مع أنه شديد التصديق بما يناسب هذه الأمور وان كان محالا فكيف لم يحزم به هنا ثم يحتاج به ، وأما غير الانسان كالنبات فليس في ذلك كبير أمر ، فان الله جعل لهذا أسبابا في تخير ذلك ، وكثير من عامة الفلاحين يعرف ذلك في بعض الاشجار في صغرها خاصة ، وهذا شيء معروف من قديم ، ولكن ذلك انمسا يكون في الصغر ، وأما الحيوانات غير الانسان فهذا ايضا لم يثبت ثبوتا محققا ، ولو ثبت تفسير الاخصاب الذي هو موضع الحمل فان هذا لا يفعل الا بأسباب توجب تغيره لا تغير الحمل المخلوق ، وذلك بأسباب مادية ، فانه يوجد أسباب كثيرة تقطع الحمل وتقطع الباء ، ولكن لا يوجد أسباب توجب الحمل في العقم الطبيعي لأن قطع الحمل والباء من باب الفساد وتفسير الشيء عن وضعه بالنقص ، بخلاف الاول فانه يجب خلق مادة لم تخلق ، وإياك ان تظن أن الحيوانات كالانسان في هذا الباب ، فان الانسان اختصه الله بأمور كثيرة كما اختصه بالنطق ومعرفة الدين ، وورد في الحديث أنه ينزل اليه الملائكة في الرحم ويقول يارب أذكر أم أنثى وشقي أو سعيد الخ ولم يرد ذلك في البهائم ، ولا يظن أحد أن احدا من المخلوقين يقدر أن يغير الولد في الرحم بعد خلقه وتكوينه فيجعله ان شاء ذكرا وان شاء أنثى - وكلام هذا الملحد يؤم هذا - فان هذا من المحال سواء كان في البهائم أو في الانسان ، غاية ما في ذلك أنه على ما يقال توضع في الرحم أشياء من المواد التي تغير موضع اخصابه إما بحرارة أم برودة قبل وجود النطفة فيه وقبل تكوين الولد ، وهذا يذكر في البهائم خاصة دون الانسان ، وأكثر المتكلمين في هذه الأمور أنكروا وجود هذا بتاتا قطعيا ، ومن ادعى وجوده فذكر أنه نادر ففسد يوافق قضاء وقدوا فيكون فتنه للذين

في قلوبهم مرض لا من أجل العمل ، وإنما كل حال فليس الانسان كالبهايم وليس هذا تحويل صورة الى صورة أخرى أو جنس الى جنس آخر بل هو تغيير لشكل طبيعي بالتقص فقط ، إلا أن الاختصاص بما يقدر عليه الانسان لانه قطع المدة بخلاف ردها فلو وجد خصها العجز الناس كلهم عن إيجاد هذه القوة فيه لان هذا من باب الخلق وذلك من باب الافساد والاعتماد كالتقتل ، فهم يقتلون على القتل بالاسباب ، لكن لا يقتلون على إحياء المقتول لا بأسباب ولا بغيرها ، ولا يقتلون على القتل أيضا بغير أسباب ، بل لا يقتلون على تغيير صورة من قبح الى حسن أو من شكل الى شكل آخر أو زيادة عمر أو بالعكس ، فدعوى هذا المعارض أن في استطاعة الانسان أن يقضى على الشقلم قضاء تاما الى آخره كذب ظاهر معروف بطلانه بالحس والضرورة ، وقد علم أن أبغض شيء الى الانسان هذه المصائب والأمراض المتنوعة والموت ، فهل انقطعت الأمراض والمصائب لديهم ، أو هيل يخرج كل من تداوى ودخل المستشفيات على كثرتها وتنوعها وتوسع معلوماتها ، وهل قدرت أعظم أمة منهم على كثرتها واتفاقها على انقاذ أكبر شيء وأعزهم لديهم من الموت كمرئيس أو غيره ، هذا ما لا يكون أبدا ، وهذا غاية للعجز

ثم ذكر الملحد ما قدمناه في دعواه أن بعض المسيحيين ذكر أن القول في ألوهية المسيح وإن كان باطلا في نفسه إلا أنه مفيد في نتيجته ، وقد تقدم الكلام على ذلك

فصل

قال : ومن الحسن أن يفهم القاري أن هذه الفلسفة التي ذكروها في ضعف الانسان فلسفة باطلة يردّها النظر كما تردّها النصوص الدينية الصحيحة ، فيقال : هذه الفلسفة التي ادّجيتها ونسبتها الى المسلمين في هذا الكتاب كذب وبهت اخترعته لنفسك وعلى شهورتك ، فلا أساس له ولا حاجة الى

الرد عليه ، لانك إنما تردّ على شيء لم يكن ولا أصل له . أما ضعف الانسان الذي يعتقدّه المسلمون فليس هو الذي تعنيه وتدّعيه ، بل هو الذي فهمه السلف والمفسرون وأتباعهم ومضت عليه النصوص الشرعية ، قال تعالى ﴿ وخلق الانسان ضعيفا ﴾ وقال تعالى ﴿ ان الانسان خلق هلوعا ، اذا مسّه الشرّ جزوعا ، واذا مسّه الخير منوعا الا المصلين ﴾ فضعف الانسان وفقره أمر ظاهر بالشرع والضرورة والحسّ ، فانه ضعيف من حيث ذاته ، وضعيف من حيث نفسه ، فانه لا يصبر على النعماء بل يطغى ، ولا الضراء بل يجزع ، كما حكى الله تعالى عنه في الآية المتقدمة . ثم هو ضعيف من حيث اضطرازه الى لباس وقوت خاص بعيد التناول ، والى سلاح خارج عن ذاته يدافع به عن نفسه كثيرا من الحيوانات المعتدية ، ومحتاج الى نفّس في كل لحظة ، والى استقراغ في كل حين ، وهذا ضعف ظاهر لا يقبل الجدل بلا شك ، وهو الذي يعنيه الناس ، وانما قوّته التي يقرّون بها انما هي بتفكيره وعقله ، ثم عقله وتفكيره ان استعملهما في طاعة الله تعالى وفيما ينفعه بما ابيح له من سائر المباحات فقد استقوى بذلك ، وان استعملهما في ضد ذلك لم ينتفع بقوّته نفعا صحيحا مستمرا ، بل لو انتفع به قليلا فلا بد من أن تنهار قوته ويرجع الى الضعف وأن يرد الى أسفل سافلين ، فلا حول للانسان ولا قوّة له الا بالله ، والله لا يكون مع من عصاه وتمرد عليه أبدا ، فان الانسان بالنظر الى مبداه ضعيف ، ولكن الله يعطيه قوة محدودة ، فمنهم من يعرف قدر هذه القوة فيؤدّي حقها فيزداد قوة الى قوته ، ومنهم من يكفر بها فلا بد من ذهاب قوته كما تقدم ، ولهذا قال تعالى عن عبده هود انه قال لقومه ﴿ يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ﴾ فلما أن تولوا مجرمين لم يزدكم الله قوة الى قوتهم ، بل لم ينتفعوا بالقوة التي كانت معهم ، فعوقبوا بقوة أبادت قوتهم عن آخرها ، وحكم من قوة عظيمة جبارة بدّدها الله ودمرها لما عصت وكان أهلها من المعتدين

فهذا هو الرأى المعقول فى القوة والضعف ، لا على ما حكاه وزوره فى مسألة ضعف الانسان على ما تقدم

فصل

ثم قال : « مستدلا بالنظر ، اذ لا ريب من ناحية النظر أن الصانع يعظم كلما عظمت صنعته وعظمت آثار صفاته ويمدح بذلك »

قلت : لا يخفى أنه يريد بالنظر هنا النظر الشرعى على مقتضى تعليله ، وحينئذ يقال له هذه مغالطة ، فإن الحاكمين على الانسان يكون قدرته غير كاملة بل ضعيفة لا يمكن أن تتجاوز حدودها المرسومة لها يقولون : لأن الله أعجزه عن مجاوزة ما وراء هذه الحدود كما أعجزه عن الاستغناء عن القوت والشرب والنفس لعدم صلاحيته لذلك واستحالته عليه لنقصه الذاتى ولانه مخلوق انسانا ولم يكن إلها ، اذ لو كان كامل العلم والقدرة لكان إلها ولم يكن انسانا ، والله سبحانه هو المختص بالقدرة الكاملة والعلم الكامل فلا يمكنهم أن يساوه فى صفاته التى اختص بها ، ولا شك بالبدهاه ان هذا تعظيم له ، وأما من ادعى أن قدرة الانسان غير محدودة وأن فى استطاعته أن يصل الى كل شىء ويتحصل على كل شىء وأن يتغلب على كل شىء فقد صرح بمساواة خلقه له فى صفة القدرة والعلم ، ولا شك أن من ساوى بينه وبين عبادته فى صفة من صفاته ولا سيما للقدرة والعلم اللذين هما من أعظم مظاهر الربوبية فقد شبهه سبا صريحا وتنقصه تنقصا ظاهرا ونفى انفراده بالخلق والتدبير ، وهذا كفر صريح أعظم من كفر مشرك العرب فانهم معترفون بانفراده بالخلق والتدبير ، قال تعالى ﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، أَلَمْ يَعْزِزْكُمْ بِالْأَيِّهِ ﴾ وقال تعالى ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يَدْبِرُ الْأُمُورَ فَيَقُولُونَ اللَّهُ فَعَلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ وقال تعالى مخبرا عن المشركين أنهم يقولون لا إلهتهم

وهم يعذبون (تالله ان كنا لفي ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين) ومعلوم انهم انما سوا بين الله وآلهتهم في العبادة التي هي الدعاء والتوكل والاعتقاد والخوف ، وإلا فهم معترفون بانفراده بالخلق والتدبير والرزق وغير ذلك ، فكيف بمن ساوى بينه وبين خلقه في خصائص الربوبية كالقدرة والعلم ، وهذا ظاهر لا خفاء به ، وتعظيم صنعة الله التي ادعيتها يحصل بدون أن تعظم الانسان حتى نجعله عالما بكل شيء قادرا على كل شيء وأن قدرته لا حدود لها ولا قيود ، فليس هذا من تعظيم الله في شيء بل هو عين التقيص والسب له ، وليست صنعة الله محصورة في جنس الانسان (خلق السموات والارض أكبر من خلق الناس) . ثم اذا كانت العلة في تعظيم الانسان هو كونه صنعة الله فليس هنا من خصائص الانسان ، بل الحيوان والنبات والجماد كل ذلك من صنعة الله ، فاذن يجوز تعظيم الحشرات والنبات وغير ذلك كما عبدها المشركون ، فلا يجوز قتل شيء من ذلك ولا تعذيبه لأن تعظيمه واجب ، فان العلة واحدة في الانسان وغيره ، وإلا فما الفرق ، ولو ثبت الفرق فلهو المسيح الشرعي لهذا دون ذاك . ثم ما هو التعظيم الذي تدعيه وما جدته ، أتريد به كل تعظيم حتى الدعاء والسجود وغيره ، أم تريد به نوعا مخصوصا من التعظيم فلا بد من بيانته . ثم انما ما رأيناك عظمت الانسان بل جعلت الانسان الأول دون طفل اليوم والقرون الأولى كالقردة بل أسوأ حالا منها ، ومع هذا هجمت على المسلمين كلهم وسفقت أحلامهم وطعنت في آرائهم وطمعت جميع ما ملأ الله قلوبهم في كتبهم ليس له قيمة عقلية ولا عليه ولا دينية ، وإن المستدين على اختلاف أجناسهم وأنبيائهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ، وإن كان تعظيمك الذي تدعيه وتدعو اليه محصورا في اللاملاحة والزنادقة وأمثالهم فقط فهو لا يجل تعظيمهم ، وليسوا هم جنس الانسان خاصة ، ومن عظمهم واحقر غيرهم فلا يقال انه عظم الانسان ، فطمعت هذه الدعوى على كل تقدير . ثم قل : والله يتقص اذا نقص الشيء الذي يفعله ويوجده وينم بذلك

فيقال : هذا مردود ، فإننا إذا نقصنا الشيء الناقص الذي أمر الله بتنقيصه فنحن بهذا التنقيص نقول الصدق والحق فنثبت على من خلقه على هذا الوضع فنكون معظمين له لأننا امتثلنا أمره ، وكونه فاعله بمعنى أوجده وأبدعه لا يتنافى ذلك لأنه أوجد كثيرا من الأشياء الناقصة ، ولأنه أوجده لشيء مطلوب منه كالإنسان في العبادة فلم يوجد ما طلب منه من العبادة فكان ناقصا بتنقيصه لنفسه ، وقد سبق قوله ، أنه من الممكن للإنسان أن يهبط إلى النقص والدمار لأن ذلك في يده ، ثم إن وصف الإنسان عما يستحقه ليس تنقيصا له ، بل وضع له في موضعه الذي يستحقه ، ومعلوم أنه لا يستحق الكمال المطلق ، ولا يستحق أن يكون عالما بكل شيء وليس شيء فوق قدرته ، بل نقصه نقص مشاهد محسوس كما سبق ، فوصفنا له بما هو ثابت له متصف به ليس ظلما ولا تنقيصا له عما يستحقه ، وإذا ثبت أن ذلك ليس تنقيصا له لم يكن ذلك تنقيصا لحالقه وذما له على كل تقدير

وأيضا النقص الذي يخص الإنسان نوعان : من ناحية علومه ، ومن ناحية ذاته . أما الأول فكما ذكرنا ، فإنه من المعلوم بالارتباب أن هذه المعارف والمعلومات إنما استفادها استفادة ، فإنه ليس جزءا من عمره لم يعلم شيئا فكانت علومه التي معه كلها إنما استفادها من هذه المعلومات التي اكتسبها بحواسه وانطبعت في نفسه ، ومعلوم أنها محدودة بمحدود بيته ، فإننا لو قدرنا أن عالما كبيرا طال عمره فلا شك أن معلوماته تزيد ، وكلما طال عمره وهو على حاله المستوية فإنه يزداد علوما كثيرة فلو عاش ألف سنة أو أكثر لكان عليه أكثر من عليه حين كان ابن ستين سنة ، فهذا يدل على أن المدة التي يعيشها الإنسان إنما يكتسب فيها مقدارها من العلم ، وهي محدودة فالمقدار محدود ، فهو ناقص بالنسبة إلى ما لو طال عمره ، وهذا يدل أيضا على أنه لا يمكنه الاحاطة بالعلم مهما بلغ ما بلغ من الفهم والذكاء والعقل ، فإذا قلنا أنه لا يعلم كل شيء وأن قدرته لا تتناول كل شيء فقد صدقنا ، ولا يكون صدقنا

تنقيصا لخالفه ولا ذما له كما سبق . وأما نقصه من ناحية الصورة الجسمية فله اعتباران أحدهما أن يكون ناقصا عن جنسه كنقص الأكمة والخنثى ونحوه عن غيرهما ، وهذا لا نظنه يريد ، ولو أراد لم يفده شيئا ، لأنه نقص يدل على مظهر القدرة التي هي من أعلى صفات الكمال المقتضية للتعظيم ، والثاني النقص الوضعي كنقص جسم الإنسان عن جسم البعير ونحوه ، فهذا ليس بنقص حقيق بالنظر الى كونه مخلوقا فانه بالنظر الى خلق الربوبية له ليس بنقص ، لان الحكمة العليا العالمة بحقيقة هذا المخلوق اقتضت أن يكون بهذا الوضع ، وكل وضع صدر عن حكمة واتقان كامل لا يكون نقصا ، فان النقص الحقيقي في المخلوق وجوده على خلاف ما ينبغي أن يوجد ، وهذا وجد على مقتضى ما ينبغي أن يوجد ، فانه وجد على أحسن تقويم ، والذي وجد على احسن تقويم ليس بناقص في وضعه بل الناقص من رده الى أسفل سافلين ، ومجرد تصور بعض الأفكار له بكونه ناقصا لا عبرة به ، لان الأفكار تختلف فلا يعتد بتصور بعضها دون بعض بدون مرجع ، وهكذا سائر الحيوانات فان كل حيوان بالنظر الى خلقته المجلدة وتقاطيعه المفصلة المتنوعة والى ما خلق له ليس بناقص في وضعه ، وانما هو ناقص باعتبار آخر عارض خارجي إضافي وهو نقصه عن غيره في صورة ما ، فاذا وصفنا الانسان بالوصف الذي طبع عليه من هذه الجهات المذكورة لم نكن منقسين له فلم يكن وصفنا هذا ذما لخالفه سبحانه وتعالى

فصل

ثم قال : « فملى حسب الشيء تكون الآثار والافعال ، فالذى يفعل العظيم المحكم البديع الصنعة يكون عظيما ، والذي يصنع الحقير التافه لا يستطيع غيره يكون تافها حقيرا ، وهذه قضية منطقية لا خلاف فيها ، قلت : لكن هي - على تقدير صحتها - حجة عليك ، لانه اذا كانت عظمة

الآثار والأفعال تدل على عظمة فاعليها ومؤثرها فلا شك أن آثار رحمة الله
 وخلقها وفعله لهذا الكون العظيم الهائل الذي حارت في تفاصيله العقول أعظم
 من آثار الانسان ، فان آثار الانسان بالنسبة الى آثار الله تافهة حقيرة ، بل
 هي بالنسبة اليها كالأشياء مع أنها داخلة في آثاره تعالى فانها من آثار آثاره ،
 وحينئذ يكون تعظيمنا للانسان بقدر أثره وتعظيمنا لله بقدر أثره ، فلا يكون
 للانسان إلا أحقر التعظيم بالنسبة الى أثره بل يكون تعظيمه بحسب أثره ،
 ومعلوم اختلاف الانسان في الآثار هذا الاختلاف المتباعد الاطراف ، وأنت
 جعلت الانسان بالنسبة الى استعداده وأثره سواء ، فدعواك اذن فيما يأتي أن
 الانسان عظيم وأنه لا يقال لشيء من الأشياء كائننا ما كان انه فوق قدرته وأنه
 يعلم كل شيء يناقض هذه القضية مناقضة صريحة فتكون حجة عليك ، فانها
 توجب عظمة الفرق بين الله تعالى وبين الانسان ، وأن الانسان في غاية الحقارة
 بالنسبة الى الله لأن آثاره بالنسبة الى آثار الله كالأشياء . ثم ان هذه القضية
 إنما غايتها أن الانسان يكون عظيما إذا عظمت صنعته ، وهذا لا نزاع فيه . كما
 ذكرنا . ولكن عظمته بمقدار أثره من الصنعة ، ومعلوم أن صنعته في غاية
 الضعف والصغر بالنسبة الى صنعة فاطر السموات والأرض وما فيها ،
 والانسان جنس من خلق لا يحصى عبده الا الله ، فعظمته الضئيلة داخلة
 ومستوجبة لعظمة الله بقدر ما لها من الأثر ، ولكن لا تستفاد عظمة الله من
 عظمة الانسان أبدا . وهذا هو مقصوده بهذه القضية . بل عظمته تعالى لا
 تستفاد من شيء من المخلوقات لا من وجود الانسان وعظمته ولا من غير
 ذلك ، فانه عظيم قبل أن يخلق الانسان ، وقبل أن يخلق جميع الخلق ، وليس
 في العقلاء من يثبت من هذه القضية أو يفهم منها أن الله عظيم اذا عظم الانسان
 أو اذا عظمت صنعته ، وحقير اذا حقير الانسان وحقرت صنعته . أي صنعة
 الانسان . أبدا . وهذا هو قصده من القضية ، فهي حجة عليه ، لانه بها ثبتت
 حقارة الانسان بحقارة صنعته بجانب صنعة الله ، وهو قد عكس النتيجة وجعلها

غير ملاءمة لهذه القضية فقال :

« فإذا أثبتنا على الانسان الذى هو مخلوق لله فقد أثبتنا على خالقه ، وإذا
ذمناه فقد كدنا نذم خالقه أو فقد ذمناه من حيث لا ندرى ولا نريد ، انتهى .
فهذه النتيجة الساقطة كما ترى لا تعلق لها بالقضية أصلا ، ثم هي نتيجة باطلة لم
يسبق اليها ولم يتفوه بها أحد قبله لظهور هجنتها وقبحاتها ، فبأى وجه يكون
الثناء على الانسان ثناء على خالقه ، هل من كونه مخلوقا له أم من حيث كونه
إنسانا . فإن عنى الأول الذى هو ظاهر كلامه لأنه قال « الذى هو مخلوق لله »
فيلزم منه الثناء على الحيوانات كلها كالكلاب والحشرات وغيرها لأنها مخلوقة
لله . وأما الثانى فيلزم منه أن تنسب على الكفار وعلى من سرق وزنى وقطع
الطريق كما تنسب على المسلمين بلا فرق فتعكس الله فى ذمهم والنهى عن تعظيمهم ،
لأن العلة هي الانسانية ، والثناء عليها ثناء على الله برحمته ، وأن لا نذمهم لأن
ذمهم ذم لخالقهم كما يقول ، وهذه كلها رجونات لا يحسن سقوطها ، وقد سبق
البيان بأننا لا نذم الانسانية بل نمدح من حافظ على انسانيته ولم يفسدها ، والا
فمن أفسد انسانيته وتحول الى طور الحيوانية الشريرة فكيف يستحق المدح ،
ولو استحقه لم يكن ثم فرق بين المسلم والمجرم والمفسدين فى الارض والمتهين
والفجسار »

فصل

ثم قال : « ولهذا فان الأديان كلها قد دأبت على لفت الانظار والتوجيه
الى المخلوقات الكبيرة العظيمة ، كالشمس والقمر والنجوم والسموات
والارض ، لما فى ذلك من التعظيم لله ، ومن الايانه عن سلطانه وعظمته ،
ومن التدليل على أنه الكبير ، ولهذا أيضا فقد جعل المقرين لديه كالملائكة
والأنبياء والرسل هم أقرب الموجودات الى الكمال وأعظمها علما وذكاء وقوة .
والنظر اذن يرشدنا الى أنه يجب اذا أردنا تعظيم الله أن نعظم مخلوقاته وأن

تعتقد أنها مستعدة للكمال وأنها إذا لم تكمل فهي التي أبت لنفسها هذا الكمال الذي أرادها لها خالقها ، اذ الكامل يخلق الكامل ويريد ، والناقص يخلق الناقص ويريد ، ويميز عن سواه .

فيقال : أما الأديان قانها لم ترشد الى النظر في هذه المخلوقات الا للتفكر والاستدلال على قدرة الصانع ، لا على ما تدعيه من أنها مستعدة للكمال ، فان الأديان لم ترشد الى هذا أبدا . ومن تأمل جميع المواضع التي أمر الله فيها بالتفكر في آياته العلوية والسفلية علم أن المقصود من ذلك الاستدلال على كمال الله وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته وتعظيمه وجلاله وقوته ، فان الآيات الواردة في هذا الشأن تأتي كثيرا في الاحتجاج على المشركين بها وبما فيها من بديع الصنعة وباعترافهم بانها مخلوقة مربية ، أي فيجب تعظيم من خلقها وإفراده بالدعاء وجميع أنواع العبادة ، فكما أنه المنفرد بإيجادها وتديرها فهو المستحق لأن يرضى بالطلب والرغبة والرهبة ، أما كونها مستعدة للكمال أو غير مستعدة فلا تطلق له بذلك أصلا ، وهذه التفسيرات يجمعها شاهدة على ذلك ، وكونه سبحانه جعل المقرين لديه كالملائكة والرسول أقرب الموجودات الى الكمال لا يدل على ما ادعاه ، بل يدل على عكسه ، فان هؤلاء انما نالوا هذه الأقرية والقوة والعلم وغير ذلك بعبادته وجماعته والقيام بأوامره والتقوى وجميع الأعمال الصالحة ، لا بالعلوم التي تدعو اليها حتى يصبح لك الاستدلال ، ثم انه لعلمي قلبه وانطاس بصيرته جعل النظر الى هذه الأشياء دليلا على وجوب تعظيم المخلوق ، ثم لم يكفه هذا الضلال البعيد حتى وكب عليه ضلالا أبعد منه حيث قال « انه يجب اذا أردنا أن نعظم الله أن نعظم مخلوقاته ، فلي هذا اذا أردنا ان نعظم الله بالسجود والدعاء والخضوع فليينا ان نقصد احدى المخلوقات فنسجد لها وندعوها ونخضع لها كما هو صريح كلامه ، وهذا كفر صريح لم يتجاسر كثير من الكفار على التفوه به ، ثم انه لعمق الهوة التي سقط فيها عمى المخلوقات فلم يخص الانسان ولا السموات والأرض بل اطلق المخلوقات ،

وهو صريح في جواز عبادة غير الله من سائر أصناف المخلوقات ، بل ذلك واجب ، لان تعظيم الله واجب فاذا اردنا ان نعظمه فلنعظم مخلوقاته وان نعتقد أنها مستعدة للكمال ، فتعظيم السنابير والحير وسائر الحشرات تعظيم لله لانها مخلوقات له ، ولا سيما أننا يجب علينا مع هذا التعظيم أن نعتقد أنها مستعدة للكمال ، ثم أعجب من هذا وأكبر أنه ركب على هذه الضلالة أشنع منها حيث قال « وأن نعتقد أن هذه المخلوقات خلقت مستعدة للكمال ، وأنها اذا لم تكمل فهي التي أبت لنفسها هذا الكمال الذي أراده لها خالقها ، فبالعلم زمانه ما أدق فطنتك وأغزر بحرك في هذه الفلسفة ، هذه المخلوقات كلها مستعدة للكمال ، وانما هي أبت ذلك ، ما كان ينبغي لها أن تعاند هذا العناد وأن تكون بهذه الغفلة والنوم العميق عن هذه الفضائل الكامنة فيها ، فالنعجة والأرنب والدجاجة والضب والسمكة كل هذه وغيرها مستعدة للكمال إلا أنها لسوء حظها أبت ذلك الذي أراده لها خالقها ، ينبغي بل يجب أن تتبرع لها وأن تبني لها المدارس وأن تعلمها وتلقنها حقائقك الأزلية الابدية لا يقاظها من نومتها وتنبيهها من غفلتها وارشادها الى ما خلقت له ، فان أغلاك هذه لا تأخذ بها أمة الا نهضت ولا تتركها أمة إلا هوت ، فهي فتح كبير لهذه الحيوانات الغافلة المسكينة . ثم العجب الآخر تعليله أن الكامل يخلق الكامل ويريده ، والناقص يخلق الناقص ويريده ، فالمخلوقات إذن كلها كاملة لأن الله كامل وهي خلقه فيجب ان تكون كاملة ، وحيث ثبت كمالها فيجب أن يكون كل ما صنعوه كاملا لأنهم كاملون ، وهكذا يجب تسلسل الكمال في الموجودات الحادثة في المستقبل كما يجب في الماضي لأن الكامل الاول لا يخلق إلا كاملا وأثره وخلقته كثير في الكمال وهلم جرا . وإذن فمن أين جاء النقص الموجود بالشرع والعقل والضرورة والحس ، والنقص انما يكون في الشيء القابل للنقص وفيه استعداد له ، فمن أين جاء النقص اذن ، فهل هذا إلا من أرذل الكلام وأفسده ، بل النقص هو ملازم لكل مخلوق لأن أصله من العدم فهو ناقص طبعاً ، وانما

يكون فيه من الكمال بالقدر الذى يكتسبه من مصدر الكمال الأول وهو الدين وطاعة الله تعالى ، فان اكتسب شيئاً من ذلك بقى معه بقدر ما اكتسبه وإلا انحط الى أصله الطبيعى الناقص المظلم ، والله سبحانه خلق الناقص وخلق الكامل الذى كماله مناسب له ، وجميع النقص فى الدنيا فانها من آثار المخلوق الناقص لأن اثر الناقص بلا شك ناقص ، ولا بد أن يكون نقصه دون نقص مؤثره ولهذا كان البلاء والشقاء ومصائب الوجود كله إنما تأتى دائماً من الاتحاد والنفاق فقط ، فلا يوجد فى جميع العصور على طولها وكثرتها أن الطاعة والتقوى كان لهما أثر فى بلاء أو عناء ، وهذا ظاهر لا خفاء به وأكثره لا يحتاج الى اطناب ولكن لقلة من يعرف الحقائق وكثرة الجهل اختجنا الى شرح مثل هذا لأن لكل ساقطة لاقطة ومن يضل الله فما له من هاد

وقد انتهى استدلاله بطريق النظر فى الرد على القائلين بضعف الانسان بزعمه ثم شرع يرد عليهم بالنصوص ، وينبغى أن تلاحظ أنه انما يرد على شيء اخترعه هو بنفسه لا أصل له ، كما أنه يجب أن تلاحظ أنه لا يعتد بقول فى الآية يخالف رأيه ، بل يفسر الآية طبق هواه مهما كان الأمر ، وغرضه إفساد النصوص والتشكيك فيها ، وهو اذا أراد أن يستدل على شيء من إلحاده بآية من القرآن فانه لا يعسر عليه شيء من ذلك ، بل يتناول ما يراه من آية فيجعلها على طبق ما يريد ، لأنه يوجب على الناس أن يكون معنى الآية هو ما يفسرها به ، ولهذا فانه لا يتقيد أبداً بقول أحد من المفسرين كأننا من كان ، بل صرح فيما يأتى بأنه لا يلزم أن نأخذ بما قاله الشيوخ والعلماء فى تفسير الآيات ، وجميع الآيات التى فسرناها ليس فيها آية واحدة فسرناها على وجهها أو على كلام أحد قبله من المفسرين بل على هواه ، لأن غرضه من ذلك النفاق بكونه يستدل بالقرآن لأجل التشكيك فيه كما سبق

قال « وأما من ناحية النصوص فلنذكر فى هذا المقام ما حكاه الكتاب الكريم عن الانسان الأول اذ قال ﴿ واذ قال ربك للملائكة إني جاعل فى

الأرض خليفة - الى قوله - وعلم آدم الاسماء كلها - الى قوله قال يا آدم أنبئهم
باسمائهم فلما أنبأهم باسمائهم قال ألم أقل لكم اني أعلم غيب السموات والأرض
وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . واذ قلنا للثلاث ان سجودوا لآدم (الآية) .
فأخبر تعالى عن الانسان أنه مستخلفه في الأرض ، ومعلوم أن الخليفة ينوب
عن استخلفه ، ولا يستخلف الحكيم العاقل الا خليفة جديراً بالقيام بالخلافة
قياماً صحيحاً لا يمنع القيام بها كما يجب جهل ولا عجز ولا هوى . ولو كان الله
يعلم أن الانسان مطبوع طبع طبيعة على الجهل الذي لا يمكنه الخلاص منه لما
اختاره خليفة له في أرضه ، فمن كان الله مستخلفه كان ذلك نهاية الشرف
ونهاية الكرم .

فيقال : ليس في هذه الآيات الكريمات التي استدلت بها هنا على مقصوده
ما يفيدُه الله ، بل ألحد في هذه الآيات إلحاداً بينا من ناحيتين : أحدهما أنه
أبدل اسم آدم بالانسان ، والله سبحانه وتعالى لم يقل وعلم الانسان الاسماء كلها ،
وليس اسم الانسان مرادفاً لاسم آدم ، فان هذا اسم خاص وهذا اسم جنس
فكيف يضعه بدله ، وإنما قصد بهذا المغالطة ليصح له الاستدلال بالآيات التي
ذكرها ، وهيئات له ، فانه ليس كل ما أعطيه آدم أعطيه بنوه ، فانه عليه السلام
نبي وبنوه مختلفون فمنهم الصالح ومنهم دون ذلك . وينبغي أن يلاحظ تعبيره
عن آدم بالانسان الاول هنا ، وسيأتي تصريحه بأن أطفال اليوم أحسن حالاً
من الانسان الاول هناك عندما يدخل ميدان الالحاد ، وأما الآن فهو في
ميدان المتافكة والخذاع . وأما الالحاد الثاني فانه جعل آدم هنا خليفة عن الله
تعالى حتى جعله خليفة كما يستخلف الانسان الخليفة في مكانه يقوم مقامه في
كل شيء ، وقد صرح بهذا حيث قال « ومعلوم ان الخليفة في العادة ينوب عن
استخلفه » وهذا من أعظم الضلال والكذب على الله تعالى وعلى كتابه ، فليس
في الآية ما يدل على هذا مطلقاً ، فان الله سبحانه لم يقل اني جاعلك في الأرض
خليفة عني بل قال جاعل في الأرض خليفة يعني خليفة عني قبل آدم كما قال في

الآية الأخرى (وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض) يعنى يخلف بعضهم بعضاً ، فانه سبحانه أجل وأعظم وأكبر من أن يجعل فى الأرض خليفة ينوب عنه فى كل شيء فيتصرف فى عبادة بالنيابة عنه ، فانه سبحانه شاهد لا يغيب ، وهو الحى القيوم القائم على كل نفس بما كسبت ، قال الامام شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى (١) : وأما الرب سبحانه وتعالى فيمتنع أن يفعل أحد مثل فعله ، ويمتنع أن يستخلف أحداً يقوم مقامه فى فعله ، فانه سبحانه وتعالى خالق فعل ذلك الشخص ، وهو سبحانه شاهد لا يغيب . وهذا موضع غلط فيه طائفة من الناس فظنوا أنه سبحانه يستخلف أحداً عن نفسه ، وادعى بعضهم أن آدم خليفة عن الله فى الأرض يقوم مقامه وأنه جمع له أسماء الحسنى ، قالوا وهو معنى تعليمه الأسماء كلها ، وهذا قول أهل الحلول والاتحاد (٢) كابن عربى صاحب الفصوص وأمثاله من أهل الاتحاد ، وهذا جهل وكفر ، فان الله تعالى هو الذى يخلق كل شيء ويدير أمر السماء والأرض ، وهو خالق آدم كما هو خالق سائر المخلوقات ، وهو شاهد لا يغيب ، والمخلوق يستخلف مخلوقاً عن نفسه لعجزه أو جهله أو مغبته ، وأفعال الخليفة عن غيره يفعلها بنفسه لا يحدثها الذى استخلفه ، والله سبحانه على كل شيء قدير ، وهو بكل شيء عليم ، وهو شاهد لا يغيب ، وهو الذى يخلف كل شيء فالعبد يستخلف ربه كما كان النبي ﷺ يقول إذا سافر : اللهم أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى الأهل . اللهم احبنا فى سفرنا واخلقنا فى أهلنا ، فان المقيم عند أهله هو المدبر لأمر بيته فاذا سافر سأل الله أن يخلفه فيهم . وكما سمعوا يوم مات النبي ﷺ قائلاً : « ان فى الله عزاء من كل هالك ، وعرضاً عن كل مصيبة ، وخلفاً عن كل ما فات . فبالله فتقوا ، وإياه فارجوا ، فان المصاب من حرم الثواب .

(١) فى الرد على البكرى ص ١٦٤

(٢) وهو قول هذا المحدث بعينه ، بل اعظم كما هو ظاهر

وكذلك العبد يخلف العبد في أهله كما قال النبي ﷺ « من جهز غازيا فقد غزا ، ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا » وقال ﷺ في قصة ماعز « أوكبا نفرنا في الغزو خلف أحدهم له نبيب كنيب التيس ^(١) يمنح احداهن الكسبة من اللبن ، أن الله امكنني من أحد منهم لأجعلنه نكالا ، ومنه قوله تعالى ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الارض ﴾ أي يخلف بعضهم بعضا ، وكما قال تعالى ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم ﴾ وقوله تعالى ﴿ ثم جعلناكم خلائف في الارض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾ وداود جعله الله خليفة عن كان قبله كما جاءت بذلك الآثار ، ومنه قوله تعالى ﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الارض يخلفون ﴾ وقد قيل ان (من) هنا للبدل أي بدلا منكم كما قالوا في قوله ﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن ﴾ أي بدلا من الرحمن ، وأنشدوا :

فليت لنا من ماء زمزم شربة مبردة باتت على طهيات

وقالوا معناه بدلا من ماء زمزم . وفي حديث أبي سعيد الذي رواه مسلم في صحيحه « ان الدنيا حلوة حاضرة وان الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء » انتهى كلام شيخ الاسلام رضى الله عنه . وكذا قال الحافظ ابن كثير وغيره في تفسير الآية . وقد علمت أن هذا الرجل سلك في تفسير هذه الآية مسلك ملاحدة الاتحادية الصوفية الذين كفروهم الشيخ ، بل كلامه أشنع لانه ألحد فيها من ناحيتين أما قول بعض الناس ان المراد به أنه خليفة عنه في تنفيذ الأحكام الشرعية فهو قول باطل فهو لا يطرد في ذريته فان فيهم المتسلطين الكفرة والمستبدين الفجرة فلا يجوز أن يكونوا خلفاء الله ، وأيضا فان أريد به الذرية لم يصح لما ذكرنا ، وان أريد به آدم نفسه لم

(١) نبيب التيس صوته عند السقاة

(٢) الكسبة القليل في اللبن . والكسبة كل قليل جمعه من طعام أو لبن أو غيره .

يصح له الاستدلال به لانه إنما استدل به من أجل جنس ذريته ، والذين قالوا انه خليفة في تنفيذ الحدود اقتصروا على ذلك لم يدعوا كما ادعاه هذا الملحد وأسلافه من ملاحدة الصوفية الاتحادية ، فان هذا تجاوز الرسوم وتعدى الحدود ورفض كل ما قيل في الآية من كونه خليفة عن قبله وعن كونه ينفذ الأحكام خاصة ، فطبق الآية على الذرية ثم ادعى أن جنس الانسان مستخلفه الله عنه ثم ادعى أنه لا يستخلف من هو مطبوع على الجهل وقد علم بلا ريب أنه يوجد في العصور القديمة والحاضرة رؤساء ومستبدون كفرة ومن هو في غاية الجهل والغباء ، بل هو نفسه ادعى أن أهل العصور القديمة كانوا على غاية الجهل ، بل كانوا لا يستطيعون الكلام ولا يفقهون حديثا كما يأتي تصريحه بذلك فكيف يقول هنا « ان الحكيم العاقل لا يستخلف الا جديرا بالقيام بالخلافة قيما صحيحا » ومعلوم أن هذا لا يوجد الا نادرا في اهل الدين ، وقد قال فيهم هذا الملحد انهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ولا كانوا فيها مخلوقات متألفة ، ثم انه ركب على هذا الاتحاد فجورا آخر في قوله « ولو كان الله يعلم أن الانسان مطبوع طبع طبيعة على الجهل الذي لا يمكن الخلاص منه لما اختاره خليفة ، فركب على هذه الظلمات أن المسلمين يقولون إن الانسان مطبوع على الجهل الذي لا يمكن الخلاص منه مع أن سياق الآية في آدم وليس في المسلمين من يدعى هذه الدعوى ، بل هو قد صرح فيما يأتي بأن الانسان خلق بطبيعته شريرا خبيثا ظالما جاهلا ، وانما قصد بهذا كله المغالطة ، كما أن كلامه هنا في آدم مداهنة ومداجاة وخداع سياق نقضه صريحا من كلامه مما يدل على أنه لا يعتقد أن هناك بشرا بهذه الصفة المذكورة في القرآن ، بل جعل القرون الأولى كلها لا يستطيعون الكلام فضلا عن أن يكونوا عالمين بالاسماء كلها .

فصل

قال : « واما قوله (وعلم آدم الاسماء كلها) فهو تصريح بعلم الانسان كل

شيء ، فقد وكده بقوله « كلها » فإن من علم الأسماء علم المسميات وإلا فلا معنى
لعلمه ولا فائدة فيه ، والقصد المسميات لا الأسماء ، والأسماء لم توضع إلا
لمسمياتها ، فمن عرف اسم الشيء ولم يعرف مسماه كان ذلك لغوا ، وكان ذلك
العرفان جهلا . على أن من عرف اسم أمر من الأمور ولم يعرف ما المراد
به لم يسم عارفا بذلك ، فإن المعرفة والعلم للأشياء لا للأسماء ، ولو أن انسانا
علم لغة من اللغات أسماءها وأفعالها وحروفها ولم يعلم مدلولاتها ولا المراد
بكل لفظ منها لما قيل له انه يعلم اللغة ، وعلى كل حال فإن من المستحيل على
عاقل أن يتعلم الأسماء كلها ثم يبق جاهلا بمسمياتها ، بل اذا علم هذه علم تلك
فيقال : وهذا أيضا من جنس ما قبله في تحريف النصوص وصرفها الى ما
يوافق هواه ، وقد أُلحِد في هذه الآية كالتى قبلها ، فانه أبْدَل اسم آدم هنا باسم
الانسان ليتسنى له غرضه من الاستدلال ، وهيهات ، فان الله لم يقل وعلم
الانسان الأسماء كلها بل أخبرنا أنه علم آدم الأسماء كلها ، وقال في آية أخرى
في الانسان ﴿ انه كان ظلوما جهولا ﴾ فهل يجوز أن يكون هذا هو ذلك ،
وقال ﴿ قتل الانسان ما أكفره ﴾ فهل يصح أن يكون هذا هو ذلك أيضا
أو يكون مراد قائله ، واذا كان آدم هو المختص بمعرفة الأسماء كلها وسواء
كانت بمسمياتها أو لم تكن لم يلزم أن يكون ذلك في ذريته فليس كل ما
اختص به آدم يكون متسلسلا في ذريته دائما ، فانه نبي وليست النبوة مستمرة
فيهم في كل زمان ، كما أن سجود الملائكة الذى اختص به لم يلزم أن يكون
موجودا في ذريته ، فقول « فهو تصرّج بعلم الانسان كل شيء » كذب وفجور
ظاهر بل كفر صريح ، وكيف يعلم الانسان كل شيء ، هذا لا يسوغ عقلا ولا
شرعا ، فليس في الآية تصرّج ولا تلويح لذلك ولا إرشادة ، وقد كان مقتضى
استشهاد واستدلاله الباطل أن يقول « فهو تصرّج بعلم آدم كل شيء » ولكنه
أدخل الانسان مغالطة على من ضرب الله قلبه بالطبع والافتقار فكان خطأ
مركباً . وأما ما ذكره من تلازم علم المسميات لعلم الأسماء وان الانسان علم

كل شيء وأن آدم أعطى من العلوم ما لا حد له وتطويله وتهويله في ذلك فكله تملق ونفاق ظاهر ومداجاة مكشوفة ، فانه نقض هذا كله نقضا صريحا فيما يأتي فانه عبر فيما مضى عن آدم بالانسان الأول وقد قال فيما يأتي (ص ٤٧) وهذا لفظه « على أن من الواجب أن نعتقد أن هناك فرقا عظيما من حيث الاستعداد الكامن بين أطفال اليوم والانسان الأول ، لأن أطفال اليوم يحملون تراث الآباء والأجداد كله ، بخلاف الانسان الأول الذي جاء لا يحمل معه سوى ما ورث من منته ان كان فيه ما يورث . نعم جاء الى الحياة كما يحيى أطفال اليوم من حيث التجرد من كل معرفة ومن كل لباس ، لا يعرف لغة ولا كتابة ولا إشارة ولا دلالة على الكلام ، ولا زراعة ولا صناعة ولا شيئا مما هو ضرورى لذلك ، فهو لا يعرف أن يبنى بيتا يسكنه ولا يأوى اليه انقواء ما تأنى به الطبيعة ، ولا أن ينسج ويخيط له ثوبا يلبسه ولا نازا ينضج عليها ما يأكله وتوفر له الدفء والحرارة ، بل لا يعرف وسيلة من وسائل التفاهم ، انتهى لفظه بحروفه وسيأتى بقية كلامه في هذا الشأن من سب القرون الأولى وجعلهم أخط حالا من البهائم ، فكيف يدعى أنه يعلم كل شيء مناقضة ويوجب في الموضوع الآخر أن نعتقد أن أطفال اليوم أحسن منه ويرميه بالعظام والمقادح الانسانية فيجعلهم لا يعرف لغة ولا كتابة ولا إشارة ولا زراعة ولا صناعة ، بل جعله أجهل من كل جاهل ، وهل هذا إلا عين التلاعب والمراوغة المنكرة .. وهذا الملحد قد تلوثت روحه بكل خبث في سائر فرق العالم فنفت خلاصة ذلك في هذه الأغلال الويلة ، ومع هذا فوصفها بوصف لا ينطبق إلا على الكتاب المجيد ، فسجل هذا المعنوه هذا العقوق المنكر والسب الظاهر لهذا الاب الكريم والنبي العظيم ، وإليس مع كونه عدوه لم يتجاسر على هذه القحة فيدعى بمثل هذه الدعوى ، فهذا الملحد لم يقتصر على عقوق أمه الموجودة وهجرها وتكبره عليها ، بل تجاوز الى الأب الأعلى ، وأما ابوه الأدنى فهو داخل في المتدينين الذين هم عنده أخط من البهائم كما يأتي لأنه متدين وقد مات وإلا

فلو كان حيا لم يكن بأبعد من أمه في هذه المعاملة القبيحة ، وخلق بمن اجترأ على ربه الأعلى الذى أوجده من العدم ورباه بالنعم وأنجاه من بلاء كثير قد أحاط به حتى نسب اليه العظام والسب الذى لم يوجد له نظير ، نعم خليف بمن هذا صنيعه أن يعق آباءه الأولين والآخرين ، وأن يقدر في الانبياء وأتباعهم ، وأن يتخلق بأخلاق اليهود في تحريف الكلم عن مواضعه ، والبهت والجشع الشديد على الدنيا ، وبأخلاق الرافضة في مسبة أولياء الله من السلف الصالح^(١) ، وبأخلاق المنافقين في الاستهزاء بأهل الدين ، وبأخلاق الزنادقة في اختقار الدين وإهانتة ، وبأخلاق المشركين في التعلق على غير الله من الأسباب كالطبيعة وغيرها ، وبأخلاق كل مشرك وكافر ، فكأنه بارتكاب هذه الأخلاق يحاول أن يثبت لنفسه أن استعداداته ومواهبه الكفرية لا حدود لها ولا قيود . نحن لا نقول انه جاهل مغفل لا يدري عن حاله هذه ، بل الذى نفهمه ونعتقد أنه ملحد ذو غل وحقد على الدين وأهله ، وقد كان معروفا لدى العارفين به أنه أنانى حقود حسود متهاك في حب الدنيا ، وقد كان كل هذه المدة الطائلة يحاول استحصال شيء من المناصب ، وقد تعب في ذلك حتى نفذ صبره ، فلما خاب أمله ووجد ما يدفعه الى القبح في الدين أفرغ ما في صدره من غل وخبث وعداوة منكرة في هذه الاغلال التي سيخنق بها وتكون غلا ثقيلا في عنقه ان شاء الله في الدنيا والآخرة ، والا فلما ذا فعل معه حملة الشريعة المطهرة ، لقد تعب أناس كثير في الكفاح عنه وتجاوزوا عن أغلاط كبرى فعلها^(٢) فلماذا انقلب عليهم . ان من الاسباب التي عصفت به الى أن زلت قدمه بعد ثبوتها - ان كان لها ثبوت - شدة ولوعه بحب الدنيا ، وحب

(١) سيأتى قريبا أنه جعلهم لا يبعدون عن طور الحيوانية

(٢) كما في نبذته (لماذا تأخر المسلمون) فان فيها اغلاطا لا تطاق ، ومع ذلك

لم يستحبوا نبذها والبحث معه فيها

آراء الملاحدة الذين يدعون أن أصل الانسان متسلسل عن حيوان آخر إما
قرود أو غيره ، وشدة محبته للرأسة والجاه - كما ذكرناه - فصار لهذا في موقف
متعوج ، فأراد أن يحافظ على ما استحصل عليه من المسادة والمنزلة التي
استصغرها في حقه ، وقد آيس من حصول غيرها ، وأراد أن يكون على آراء
هؤلاء الملحدين الماديين فوق في هذا التناقض الفاحش ، لان هذه العوامل
اضطرت الى هذا الموقف

وعما ينبغي ملاحظته هنا قوله « فهو تصريح بأن الانسان يعلم كل شيء »
فقد فهمت أنه صرح تصريحاً لا إشكال فيه أن الانسان يعلم كل شيء ، وعرفت
أنه استنبط هذه الدعوى العريضة من الآلة ، وعرفت أن الآلة في آدم لا في
الانسان ، فهذا هو مستنده في أن الانسان يعلم كل شيء ، وبهذا وأمثلة يتبين
لك أنه يبنى جميع قواعد دعايته على أوهام وشبهات لا حقيقة لها ، ثم يثبت
الشيء ويعود اليه بعد هنيئة فينقضه ، وهكذا حاله في جميع هذه الأغلال فانه
في شك مريب

فصل

ثم قال : « ومن الآيات المسوقة لبيان هذه المكانة قوله تعالى ﴿ لقد خلقنا
الانسان في أحسن تقويم ﴾ والمراد هنا بالتقويم الذي وصف بأنه أحسن
تقويم هو تكوين الانسان من حيث خلقته العامة ووضع أعضائه وأجزائه
وكل ما فيه وصفاً مبدعاً يؤدي من حيث الأعمال والوظائف الى الابداع
والاحكام ، فالمنخ والرأس والقلب واليدان والرجلان والعينان واللسان
والآذان وكل ما ظهر وبطن منه وصفات هذه الأشياء كلها قد كونت تكويناً
هو الابداع والاحكام ، ولا يمكن ان يقال بصدق وحق أن شيئاً من هذه
الأشياء قد قوّم أحسن تقويم الا اذا كان يستطيع أن يؤدي وظيفته ويؤدي

الغرض المنشود منه أحسن تأدية (١) سواء في ذلك الموجودات الجامدة أو الموجودات الحية النامية ، فالإنسان اذن من ناحية الفهم والعقل والشعور والادراك فيه وآلات العمل كلها قد جاءت في أحسن تقويم وتكوين ، والإنسان اذن قد أعد من الناحية الأدبية والعقلية والخلقية ليكون المثل المقصود الأعلى وان كان هذا لا يحصل الا بالتدرج والبطء كما تقتضي نوااميس التطور نحو الكمال والاستواء ، ذلك التطور الذي يبدو لنا أنه بطيء مسرف في البطء وان كان بالنسبة لعمر العالم سريعاً مسرفاً في السرعة ، وليس في الممكن أن يكون الثناء على الإنسان بحسن التقويم عائداً على صورته الظاهرة ومنظره الخارجى فقط لأن في المخلوقات ما هو أجمل وأحسن منه من هذا الوجه ولأن الله قد ذم حسن الصور المجردة من الفضيلة كما في آيات كثيرة منها قوله تعالى ﴿واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة - الى قوله - قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾ ولأن الله قال بعد ذلك ﴿ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ والذين آمنوا وعملوا الصالحات يردون أيضاً الى أسفل سافلين لو كان المراد بذلك الصور والمظاهر ، انتهى

والجواب أن يقال : جميع كلامه على هذه الآية الكريمة - كما ترى - تخطيط وخط ومغالطة ظاهرة وكل ما ذكره عليها لا يفيد شيئاً لأن النزاع بيننا وبينه ليس هو في استطاعة الإنسان تأدية وظيفته ولا في حسن أخلاقه الظاهرة والباطنة وتفصيلها حتى يسهب في هذه الثثرة ، انما النزاع بيننا وبينه هنا في كون الإنسان يعلم كل شيء وان في استطاعته أن يحصل على كل شيء ويتغلب على كل شيء ، والسورة هذه لا تعلق له فيها بشيء من هذه الدعوى ، ولكن

(١) لكن الغرض المنشود منه هو عبادة الله كالدماء وغيره ، وقد قلت ان ذلك

هو للمصرف الحديث ، فإى شيء ينفعك من هذا التقرير

هذا دأبه متى أراد اثبات شيء كأننا ما كان تناول نصا من القرآن فطبقه على هواه وصادم ما يخالف ذلك بكل حال (لأنه يرى نفسه أنه المقدم في الأمر) وتحريفه لهذه الآية كتجريف اليهود الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، ولأنه كتجريف من فصل قوله تعالى ﴿قويل للمصلين﴾ من قوله ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ فهذا المعارض ذكر أول الآية وحذف ما يصدم قصده ويفسد مراده وهو قوله تعالى ﴿ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ وأتى بها في غير محلها ليعمى المعنى ويكتم المراد منها، والآية الكريمة حجة ظاهرة عليه سواء كان حسن التقويم في معنوية الانسان أو في صورته الظاهرة أو في كليهما، لأن الله سبحانه خص بحسن التقويم الذين بقوا على انسانياتهم فأمنوا وعملوا الصالحات، وأما من انحرف عن ذلك فإن الله صرح بأنه رده من حسن التقويم إلى أسفل سافلين. ولا شك أن هذا المعارض ممن انحرف عن الايمان والعمل الصالح، فلا يكون له حظ من حسن التقويم، بل يكون مردودا إلى أسفل سافلين، ولهذا لما رد وارتد ظهرت عليه آثار هذه الردة فكان يتبع كل سافل وينحدر إلى كل سفلى ويهرب من كل رفيع جميل، فكان من شدة ولعه بالذين هم في أسفل سافلين أن ادعى فيهم أنهم هم الذين صنفوا الحياة، ومن كراهته للمرتفعين الذين هم في أحسن تقويم أن ادعى عليهم بأنهم لم يحبوا الحياة شيئا جديدا. وهذا عكس ظاهر لمعنى السورة لأن الله جعل المتحللين من الأديان مردودين إلى أسفل سافلين والذين آمنوا وعملوا الصالحات وهؤلاء متدينون بلا خلاف فيكونون هم الذين يؤدون وظائفهم وغرضهم المنشود منها وهو الايمان والاعمال الصالحة التي أمرهم الله بها وجعلها سببا لكل خير وفلاح ونجاح. ولو أن الله سبحانه قال ﴿لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم﴾ وسكت لقام من هنا ومن هناك من أصناف الملاحدة والمحاميين عنهم من يحتجون بها في الاستعدادات والكالات، ولكن الله سبحانه عليهم بكل شيء وما كان ربك نسيا، فأخرج

الملاحظة باستثناء قطعي كما استثنى الكفار فأخرجهم من هذه الصفة الجميلة وأخبر أنهم مردودون الى أسفل سافلين ، ثم استثنى القسم الناجي لكونه صنفا واحدا وحكم على غيره بالسقوط كما تقدم تفصيل هذا في أول البحث ، وإن الكفار وإن زعموا أنهم وصلوا الى الكمال والى الغاية التى يريدونها فليس الامر كما ظنوا بل هم مردودون الى أسفل سافلين فى الدنيا والآخرة ، أما الدنيا فبالتنغيص والشكبات وفى الآخرة بالدركات الجهنمية اللاتقة بصفاتهم المنحطة المظلمة . وأما قوله « والذين آمنوا وعملوا الصالحات يردون أيضا الى أسفل سافلين » فيقال هذا كذب ظاهر فبأى وجه يردون الى أسفل سافلين ، فليس الموت ولا الهرم ولا فناء الجسم أيضا يكون ردا الى أسفل سافلين ، بل الرد المذكور فى الآية هو السقوط المعنوى أو المعنوى والجسمى معاً لا الجسمى فقط ، فالرد هنا هو السقوط عن المرتبة الانسانية الصحيحة بحيث تفسد الفطرة فلا ينتفع الانسان بفطرته الدينية الفارقة بينه وبين الحيوانات الشريرة المعتدية فان الفطرة اذا لم تغذى بمادة علوم الدين المناسبة لها فسدت أو ذهبت وانعدمت لعدم ملائمتها لآخلاق الاحاد والفسوق والكفر ، فالاستثناء عام فى الانسانية المعنوية والصور والمظاهر ، فالمرءمون لا يردون الى أسفل سافلين مطلقا ، ولم يفهم أحد من أهل العلم من الآية الصور والمظاهر فقط فلا معنى للمغالطة بهما هنا ، بل الصور والمظاهر تكون غالبا متصلة بالآخلاق الباطنة ، فان الآخلاق تؤثر فى الصور وتتجلى فيها كثيرا وكل إناء بما فيه ينضح ، قال تعالى ﴿ أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ولو نشاء لأريناهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول ﴾ الآية .

فصل

ثم احتج بقوله تعالى ﴿ وفى الارض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ ثم سلك فيها مسلك أمثالها فى التحريف على مقتضى ما يوافق هواه

وهذا أصل كبير يجب التفتن له كما نهشنا عليه سابقا ، وهو أن كل قول في تفسير أى آية لا يوافق هواه فهو قول باطل مضروب به عرض الحائط ولو أجمعت عليه الأمة ، فانه ادعى في المبحث العاشر أن الناس على اختلاف مذاهبهم منذ عشرة قرون ضالون في تقديم السلف على الخلف كما يأتى ، فالتفسير المقبول المعقول عنده هو أن يكون معنى الآية على هواه ولو خالف اللغة وأصول التفسير كلها ، وكذلك الحديث أيضا على ماتقدم بيانه . وأعدنا هذا لانه مما يجب أن يلاحظ وأن يعلم لانه من أعظم قواعد التى يدور عليها كلامه ، وقد قال فى هذه الآية المذكورة : « وقال تعالى ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ﴾ ففى الأرض وفى الانسان آيات للموقنين ، فما هى الآيات التى فى نفس الانسان والتى نعمت الله الانسان الى نفسه من أجلها ودل عليها . أعظم الآيات فى النفس الانسانية هى القوى العلية والادبية والخلقية ، والا لو كان القصد هو البناء المادى المنظور لما كان هناك ما يميزه على المخلوقات الأخرى حتى يستحق به أن يلفت اليه خاصة (١) وان ينبه عليه وحده فى هذه الآية وهو ما فى الأرض من هذه الناحية فلماذا ذكر تخصيصا بعد التعميم ان لم تكن الإشارة الى ميزاته الجليلة لا الى ما يشاركه فيه كل شىء فى الأرض من المخلوقات » انتهى

والجواب أن يقال : أولا هذه الآية حجة عليك فان الله ذكر أنها آيات للموقنين ، ولا يختلف المسلمون ان الملاحظة ليسوا من الموقنين المذكورين هنا كما انهم لا يختلفون فى أن المتحللين من الاديان هم الملاحظة ، وحينئذ فلا حجة لك فى الآية فبطل التقرير من أصله . ثانيا كل هذا الاسهاب والتخطيط لا محل له ولا وجه للاستدلال به ، فان المسلمين لا ينكرون ميزات الانسان الجليلة ولا ينكرون قواه العلية والخلقية حتى تتفلسف وتتكلف هذا التكلف

(١) استعمل كلمة « يلفت » بدل « ينبه » هنا . وهو غلط لغوى قال تعالى

﴿ أَجْمَعْنَا لَلْفَتْنِ ﴾ . أبو السمع

البارد ، بل انت ومن على شاكلتك من الملاحدة أنكرتم هذا فادعيت صريحا
فيما يأتي قريبا أن القرون الاول لا يعرفون شيئا أبدا حتى الكلام بل هم أضل
من الانعام وأنهم مكشوا عصورا طويلة على هذا . ومعلوم أن هؤلاء من
جنس الانسان بل هم انسان ازمنتهم ، فلأى ذنب أخرجتهم من هذه المزايا
وانت لم تعرفهم وهم لم يعرفوك أفليس هذا من أشنع العسفوان المطلق الذي
وصفت به الملاحدة فيما يأتي وقد بينا غير مرة أن النزاع بيننا وبينه في كونه
قادرا على كل شيء ويعلم كل شيء ، وأن الذين صنعوا الحياة هم المتحللون من
الاديان ، وأن المتدينين على اختلاف أجناسهم وأنبيائهم ماوهبوا الحياة شيئا
جدا ، هذا وأمثاله أعظم مانازعه فيه لأن هذا من أعظم أصول الاتحاد ، بل
ملاحدة هذه الأمم يقررون هذه الأصول ويعلمونها في مدارسهم ، لكن هم
معترفون بأنها تخالف دين الاسلام بل تخالف الشرائع كلها ، يصرحون بأن
الأنبياء وأهل الايمان لم يأتوا بشيء كبير ينفع الناس في هذه الحياة لأن
أكثرهم غير محتاج الى التفاف مثل هذا المعرور ولهذا يصرحون بالحقيقة ،
ولكن هذا لما كان قد استمسك بخيوط تتصل بأهل الدين فقال بها شيئا من
هذه المادة خشي من انقطاعها فاحتاج أن يجمع بين الضب والنون والحيث
والطيب فاحتج تارة بالنصوص الشرعية وتارة بالأصول الاتحادية فوقع في
أفحش التناقض وسوء التصرف والخطل الذي لا أشنع منه . وأدنى عاقل
يعرف أن هذه الآية التي استدلل بها ليس فيها ما ينفي ضعف الانسان وأنه
ليس عالما بكل شيء وكل ما استنبطه منها لا محل له ، ومعنى الآية على ما ذكره
المفسرون ودلت عليه قواعد اللغة يرجع الى أن في تركيب الانسان وما
اعطاه الله من الصفات الذاتية والمعنوية آيات للموقنين بصدق الرسول وما
جاء به فانها دالة دلالة ظاهرة على قدرة الله وانفراجه بالخلق والتدبير وأنه
المستحق للعبادة والتوجه والقصد والدعاء . وقد تكلم ابن القيم على هذه الآية
ونحوها كلاما طويلا ليس هذا موضع نقله لطوله ، ولا شك أن هذا الهيكل

العجيب الموضوع على هذا الاتقان والإبداع لا بد له من محدث خالق عالم مرید ، كما أنه يستحيل وجود بيت كامل منظم بدون محدث له وفاعل . فالمحدث على هذا النسق الدقيق الموزون المحكم لا بد له من محدث بحكم الضرورة والوجدان ، لأن وضعه بهذه الصورة برهان على افتقاره الى موجود منفصل عنه ، ثم هذا الموجد له لا بد أن يكون مخالفا له من كل وجه ومن مخالفته له أن يكون غنيا لذاته لأننا علمنا من وجوده الأول ووضعه افتقاره الذاتي الى غيره ، فيجب أن نعلم أن هذا الذي هو مفقر اليه غنى لذاته كامل لذاته مخالف له في جميع صفاته لينقطع السلسل المستحيل بالاتفاق ، ولا يمكن انقطاع الالهذا لانه صريح العقل وهو الذي دلت عليه النصوص كما أشرنا الى هذا سابقا ، ولهذا قال جل من قائل ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ﴾ فيبين سبحانه أنه لا يمكن وجودهم من غير شيء فان افتقار الحدث والمحدث الى فاعل ضروري في طباع الخلق كلهم حتى الحيوان والحشرات فان البهيمة النائمة أو الغافلة في موضع من المواضع لو رميت بحجر أو غيره التفتت الى الجهة التي جاء منها الحادث لتعرف حقيقة هذا الحادث وماذا يكون ، لانها تعلم ان هذا الحادث لا بد له من محدث ومن العجب أن الملاحدة اذا وقف أحدهم على أثر من الآثار القديمة أو وقف على آلة كبيرة أو مصنع كبير أو بيت كبير فانه لا يشك في أن هذا الشيء لا بد له من محدث وأن هذا الأثر لا بد له من مؤثر ، فلو غالطه أحد وقال انه لم يصنع هذا أحد وأوجد من دون فاعل عالم مختار مرید لنسب هذا القائل الى ضعف العقل بل الى الجنون ، لانهم اعظم الناس ايمانا بالاسباب فلا يمكن ان يصدقوا بوجود شيء من هذا بدون مسببه الذي تقتضيه عقولهم ، ومع هذا كله تجدهم فيما يجب عليهم من التوحيد والاقرار بالخالق أفسد عقولا من هذه الحشرات اذ يذهبون الى الالحاد مع ما في ذلك من السخف وفساد العقل ، ثم مع هذا ينسبون أنفسهم الى العلم والعقل والمعرفة ، وبالجمله فكون المحدث غير مفقر الى محدث لا تنقله الفطرة ولا العقل كما سلف ، واذا كان المحدث لا بد له من محدث فاما أن يكون هو بنفسه وهذا مستحيل كما سبق ، فان كون الشيء بوجوده

نفسه بنفسه غير معقول واقتضاه الى غيره ينفي وجوده بنفسه فتعين الثالث في الآية وهو أنهم وجدوا بموجد كامل عالم مختار قادر منفصل عنهم ، وهو المطلوب . فالآية حجة عليه لانه ملحد ، والآية من أبلغ الحجج على الملاحدة ، ولهذا فانه أخذ يراوغ عن معناها الحقيقي ويعدل الى غيره ليفسد معناها لانها سلاح مشهور في وجهه

فصل

ثم احتج بقوله تعالى ﴿ الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان ﴾ وهذا الاستدلال من جنس ما قبله في السقوط ، فليس في ظاهر الآية أن الانسان يعلم كل شيء وأنه لا شيء فوق قدرته إنما فيها أن الله خلق الانسان وعلمه البيان ، وليس البيان هو علم كل شيء ولا يفهم أحد هذا من الآية أبدا الا أن يكون ملحدا منافقا عقله كعقل هذا المغرور ، والبيان المذكور في الآية المراد به النطق والبيان عما في الضمير فان الله تعالى خص الانسان بالكلام من بين سائر الحيوان والآية سبقت لبيان امتنان الله على خلقه وتذكيرهم بنعمه عليهم ، ومعظم السورة في هذا الصدد في تذكير الجن والانس بنعم الله تعالى وآلائه ، ولهذا تكرر فيها قوله تعالى ﴿ فيأى آلام ربكما تكذبان ﴾ أى فأى نعمة من النعم تكذبون بها . وهذا الرجل لما كان معتقدا اعتقادا غريبا سلك فيها مسلكا غريبا أجنبيا عن معناها ، فاستدل بها على أن الانسان يعلم كل شيء فأى دليل فيها على هذا ، بل هى حجة قاصمة ظهره فان فيها أن الله علم الانسان البيان ، وهو قد ادعى فيها يأتى قريبا أن الانسان الأول بل القرون الأولى المتقدمة جدا لا يستطيعون النطق بالكلام بل ولا الاشارة ، والآية دلت دلالة صريحة على أن الله علم الانسان البيان ، ومعلوم أن الانسان الأول والأجيال القديمة كلها من نوع الانسان بل هى انسان أوقاتا ، فما الذى أخرجها من البيان الذى امتن الله به على عباده وكيف ساغ له أن يخرج أولئك منها ، ثم يريد أن

يطبقها على غيرهم بدون حجة ، ولو كان له عقل لتركها كما ترك غيرها لأنها حجة عليه ، كما أن كل آية يحتاج بها فانها حجة عليه ، لانه مبطل والقرآن كله في دحض حجج المبطلين

فصل

قال : ومن الأحاديث التي يحسن إيرادها هنا حديث صحيح مشهور قدسى هو قوله صلى الله عليه وسلم حكاية لما قال الله (ولا يزال عبدي يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشى بها) ، ومن كان الله سمعه وبصره ويده ورجله - وهذا بلا ريب على غير ظاهره - فلا بد أن يكون بصره نافذا وسمعه واعيا وعمله موقفا قويه ، ولا بد أن يكون له من القوى والاعمال ما لم يعهد الناس وما لم يعرف الناس ، ولا بد أن لا يكون هناك حدود تحده ولا قيود تقيد اذ شاء أن يفكر وأن يعلم وأن يعمل وأن يرى ويسمع ، ولا بد أن يكون مستطيعا أن يصنع ما يشبه أن يكون خارجا عن الطاقة البشرية المعروفة وما يكاد يضاف الى قسم المعجزات ، ولا بد أن تبقى مواهبه الماقلة متجددة متوثبة لا يمنعها مانع ولا يهرب منها هارب ، ولا يقال لشيء من الاشياء كائنا ما كان أن هذا فوقها أو انه بعيد عن متناولها أو أنه ليس بما يدين لها »

والجواب أن يقال : الحمد لله حصل المطلوب يا نابغة زمانه يا مجهول القدر يا الدر الذي في لجج البحر . هل الذي ادعيته وعلقته على هذا كاله في جنس الانسان أو فيمن يكون الله سمعه وبصره ويده ورجله كما هو صريح الحديث ، وحينئذ فهو سبحانه خص بهذه الفضيلة أو لياحه الذين صرح بوصفهم بأقامة الفرائض وتكملها بالنوافل بالتقرب اليه ، وهؤلاء هم المتقون الابرار الورعون وأكبر عيب عندك هو التقوى والورع والدعاء ، فانك صرحت فيما مضى بأن الاخلاق الدينية المحض لها نتائج أخرى غير نتائج المجد ، وادعيت أيضا بأن

التسوية بين الآخذين بالأسباب بدون نظر إلى أديانهم ومبادئهم هو العادل ، فكيف هنا تدعى أن هؤلاء الأبرار الاتقياء القائمين بالفرائض والمتقربين إلى الله بالنوافل هم الذين يصلون إلى هذه المنزلة . ثم تنقلب في نفس البحث فتستدل بذلك على جنس الانسان ، والحديث قد فرق بين ولي الله وعدوه وأنت جعلتهما سواء فعاكست الحديث أشد المماكسة فحذفت أول الحديث الذي يبين المراد ويفضحك وهو قوله ﷺ في حديث أبي هريرة : من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها . ولئن سألتني لآعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره إساءته ولا يدله منه . أخرجه البخاري . فهذا الحديث من أوله إلى آخره صريح في أن هذه الفضيلة مهما كانت مما عظم إنما يختص بها المؤمن التقي دون الملحد والكافر فإنه صرح بأنها تحصل للذي يتقرب إلى الله بالفرائض والنوافل ويزداد من ذلك ، وكلما ازداد من هذه الاخلاق الدينية ازداد في الفضيلة ، عكس ما قرره هذا المغرور سابقا ، فجميع ما قرره هنا كما أنه يناقض روح كتابه مناقضة صريحة فهو لو صح إنما يكون للمؤمن خاصة وأما الملحد والمنافق والكافر فهذه الحديث نفسه قد صرح بأنه لا ينال من هذه الفضائل الاخوية والرجوع والدمار ضد ما يحصل للمؤمن ، فإن الحديث نص على ذلك ، قال أول الحديث من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب ، ومعلوم أن من آذنه الله بالمحاربة فقد خاب وخسر وأحاط به البلاء من كل جانب ، ولا والله لا نعلم أحدا في هذا الوقت أعظم عداء وخيلا ومقتلا للمؤمنين وأهل الدين من هذا الملحد ، وكفى بهذا الكتاب شاهدا عليه لأنه هو غاية ما قدر عليه في عدائهم ، ولو قدر على

شيء غيره لأهلك الحرث والنسل ، وانما اقتداره كاقْتدار تلك الحشرة »
 الخبيثة التي أعانت على نفخ نار ابراهيم لأن ذلك هو غاية ما قدرت عليه .
 والعجب أن هذا الملحد المغرور عكس مدلول هذا الحديث عكسا صريحا فجعل
 ما خص الله به من تقرب اليه بعبادته وحافظ عليها الجنس الانسان ، ثم استدرج
 حتى جعله للملاحدة الذين حاربوا الله ورسوله ورفضوا الفرائض وغيرها من
 النوافل ، وجعل من تقرب الى الله بالنوافل والفرائض لم يحصل له الا التأخر
 والضعف ، فجعل للتقرب الى الله بالدعاء والعبادة ملهاة ومصرفا خبيثا ومفسدة
 .وتعويقا ، وادعى صريحا أن المساجد أدت شرما يؤدي ، وهذا هو غاية
 المحاربة لله ودينه ورسله وعباده المؤمنين ، فان هذا الحرب الذي فعله هو أقصى
 ما يقدر عليه كما تقدم « وكل اغتصاب جهد من لاله جهد » . وما يجب ملاحظته
 هنا قوله « ولا بد أن تبقى مواهبه العاقلة متوثبة متجددة لا يمنعها مانع ولا
 يهرب منها هارب ، ولا يقال لشيء من الاشياء كائنا ما كان ان هذا فوقها أو
 انه بعيد عن متناولها أو انه ليس مما يدين لها ، ينبغي ملاحظة هذا مع ما تقدم
 أول البحث في معارضته للدجوى هناك وإلزامه الدجوى بأنه يدعى أن
 الانسان على كل شيء قدير ، وليوازن بين هذه العبارات ليعلم أن هذا الملحد
 يرى نفسه أنه ليس بين أناس عقلاء يعرفون ويفهمون ، وانما يتصور الناس
 على ما يقدره هو ويقيسه بعقله ، وهذا الذي قلناه أبلغ من دعوى أن الانسان
 على كل شيء قدير ، فانه صرح بأنه « لا يقال لشيء من الاشياء كائنا ما كان
 هذا فوق قدرة الانسان ومواهبه أو أنه بعيد عن متناولها أو انه ليس مما يدين
 لها » اللهم إنا نسلك العفو والعافية . ثم انه بنى هذه الدعوى على الاستدلال
 بالحديث واعترف أنه على غير ظاهره ، والحديث كما ترى أيضا دل على أنه

(١) هي الوزغة فانها كانت تنفخ النار على ابراهيم عليه السلام كما في الحديث

الصحيح

تلك الفضيلة للمتقين وهذا حملها على جنس الانسان ، مصائب في مصائب في مصائب ، وكل هذه المجازفات الجنونية ليس فيها شيء من الدعايات الصحيحة المستقيمة التي يجب النظر اليها بل هو جنون ووقاحة لا طائل تحتها ، ولو فسرت القدرة على كل شيء لم يكن لاحد أن يفسرها بأكثر من هذا ، أى لو أن قائلا قال ما معنى كون الله على كل شيء قدير ، لم يفسرها أحد بأكثر من هذا الذى ادعاه الملحد فى قدرة الانسان ، ونحن نعلم أن مراده بذلك هو الدعوة الى رفض الدين ، لانه تصور بعقله الكاسد أنه اذا قرر أن الانسان قادر على كل شيء وعالم بكل شيء فلا حاجة الى رب يعبد ويستمد منه المعونة والتوفيق والسداد لأن هذا كامن فيه وفى طبعه فيطلبه من طبعه ومواهبه واستعداداته ، لا يطلبه من شيء خارج عنه ، وهذا الملحد لما كان سابقا فى غاية الحاجة والفقر والذل وصنف تلك الكتب مزدلفا بها الى أهل الدين ما كان يتجاسر أن يتغوره بهذا القول بل كان يصرح بضده ، قال فى اول نبذة البروق :

يا طالب الميث ما قد ظلت تطلبه وسائل الميث وقع الامر ترهبة
لو كان ذا قدرة ما كان مرتها فى الترب للدود يبله ويركه
نعم لو كان ذا قدرة لم يمت ولم يمرض ولم يمت حبيبه وفلذة كبده ولم يعجز
أن يدفع عن نفسه الذباب وأشباه الذباب ، فكيف يقال لمن لا يملك لنفسه
نقعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، انه لا يقال لشيء من الاشياء
انه فوق قدرته ، سبحانه هذا بهتان عظيم ، وانه لمن أسفه السفه وأجن الجنون.

فصل

قال « فالانسان اذن يجب أن يكون فاهما هذا الوجود مدركا كل ما فيه
ادراكا وفيها تامين صحيحين ، واذا كان كذلك فلا حدود ولا قيود ، ولكن
يجب أن يعلم أن هذا الادراك والفهم هما من حيث الجملة لا من حيث الافراد
فان معارف كل فرد محدودة مقدرة ومعارف الفرد دون معارف الجماعة

ومعارف الجميع ،

فيقال : أولا قولك « ان الانسان يجب أن يكون فاهما هذا الوجود مدركا كل ما فيه ، فهذا غير مسلم ، بل ممنوع باطل ، بل هو تكليف مالا يطاق ، وكيف يفرض على الانسان أن يفهم هذا الوجود ويدرك كل ما فيه ادراكا وفهما تامين صحيحين ، كل هذا مجازفة وهذيان بارد ، فمن هو الذي يقدر على ذلك ، ان هذا الوصف لا يحيط به الا الله ، فهل أنت يا مغرور تستطيع هذا الذي ادعيت ، وهل تعرف أحدا استطاعه ، فاذكره لنا حتى نستفيد منه ويستريح العالم من هذه التخرصات وهذا الخطر المحيط ، واذا كنت لم تستطع هذا ولم تعلم أحدا يستطيعه فكيف تجود بهذه الدعاوى وتفرضها على المسلمين بدون عقل ولا حياء كأنك تخاطب اغبياء لا يفهمون شيئا ولا يعقلون ، وما اشبه هذا المختال بعجوز حى شوهاء نحيفة قبيحة مخبولة لسنة وهذا الحى قد وطئهم الزمان واشتدت عليهم الحوادث حتى تبدد شملهم وضعفت قواهم من التعب والنصب والمكابدة ، فقامت عليهم هذه الشوهاء فى يوم عصب فأخذت فى السباب والعتاب والاغراء والضجيج ، فتارة تأمر وحينما تنهى ووقتا تخبر وطورا ترشد قائلة ما لكم ما تقدمتم ما ارتفعتم ما حاربتم ما كسبتم ، أنتم نيام ، أنتم مغفلون ، أنتم أنتم يجب ان تملكوا ، يجب أن تعلموا ، يجب أن تقدروا ، يجب أن تدركوا كل شيء ، يجب أن تقدروا على كل شيء ، الى امثال هذه الثرثرة والهذيان ، هكذا صفة هذا المغرور ، فانه يكلف الناس ويفرض عليهم أشياء بمجرد ما تخطر على باله ، مع استحالتها ومع أنه أجبن الناس وأقلهم وأعجزهم فى كل شيء ، فبينما نراه يتهدد الرافضة ذلك التهديد الهائل العظيم لم نشعر الا وهو موجه سهمه الى اولئك الجماعات الديتين الذين ذكرهم فجعلهم سبابة المنتدم

أما ما ذكره أن هذا الادراك والفهم هما من حيث الجملة لا من حيث الافراد الخ فليس هذا بصحيح ، فان معارف الجماعة أو معارف الجميع اذا كانت

كلها هيئة اجتماعية موصوفة من أفراد المعارف المحدودة المقدرة فلا شك أنها محدودة مقدرة ولها حدود وقيود ، لان هذه الافراد المحدودة المقدرة محدودة الطرفين فهي محدودة السلسلة في الماضي والمستقبل ، ولا شك أن الافراد التي تكون محدودة سلسلتها في الماضي والمستقبل وهي مقدرة أفرادها ومعارفها أنها ستكون محدودة بلا شك لا سيما وعلومها كلها اكتسابية باقرار الخصم ، فانه ذكر أنها خلقت خبيثة ظلمة شريرة جاهلة وأن ما معها من العلوم فهو مكتسب اكتسابا ، وقد صرح أيضا فيما يأتي قريبا أن أهل العصور القديمة جدا ليس معهم من العلوم شيء البتة ، فكيف يدعى مع هذا أن معارف الجملة التي هذه أفرادها لا حدود لها ولا قيود فان هذا باطل يفهمه كل عاقل . وقد بينا غير مرة أننا لا ننكر معارف الانسان ، وليس النزاع في اثبات معارف الانسان ، فهذا لا نزاع فيه ، فلا جدال في تقدمها في الصناعات ونحوها ولا في امكان رقيها الى حد بعيد وتطورها في ذلك ، ولكن علم الوجود أوسع من ذلك كله ، ولو أنه اقتصر على هذا لم ننازعه فيه لكن لم يثلج صدره إلا بدعوى أن الانسان يعلم كل شيء وأنه لا شيء فوق قدرته وأمثال هذا الهذيان إذا فهمت هذا فليس لنا حاجة في تتبع هذيانه في المغالاة في معارف الانسان وإلى أنه سيبلغ الى الكمال والرشد ونحو ذلك ولكن يجب أن تفهم أن كل هذه المحاولة تدور على ما ذكرنا لك من توجيه النظر اليه دون الله تعالى ، فان الانسان اذا عرف أن فيه كفاءة ذاتية توصله الى كل ما يريد كائنا ما كان استكبر وأعرض عن الله وعن طلب اعانته ، ولهذا يبني عليه انكار منفعة الدعاء ، وغرضه أيضا التشنيع على المسلمين بأنهم ينكرون معارف الانسان وتطوره وأمثال ذلك على ما سبق بيانه

فصل

ثم شرع يعظم الانسان بزعمه ، ولكننه لشدة ما اعتراه من الغلو والحرص

والذهول انقلب دماغه فسيبه غاية المسب ، وانما مدح شذمة قليلة من ملاحظة العصر فقال : « هل الانسان غير عظيم ، لو اهل الانسان يساء به الظن ^(١) ويساء باستعداده الذاتي . إن هذا السؤال لا يمكن ولا يصح أن يجاب عنه بالألفاظ ، وانما يجب أن يكون جوابه بالواقع والحقائق المشاهدة الملبوسة ^(٢) ان للانسان حدين من حيث وجوده ، حد هو وجوده الاول يوم أن رأى ورأته هذه الأرض ، وحد هو تاريخه الموجود الآن الحاضر المشهود أمامنا ، وما بين هذين الحدين والطرفين هو جملة تاريخه وأعماله الواقعية التي يمكن أن تكون له ، ويمكن أن تكون عليه ، ويمكن أن تدل على أنه غير عظيم أو أن تدل على أنه عظيم . لا محالة ان نتصور الانسان في بداية وجوده عاريا من كل معرفة كما كان عاريا من كل لباس ، وعلمنا أن هذا التصور صحيح لا يحتاج الى عناء ولا بحث طويل ^(٣) فأننا لا نزال نشاهد الانسان بعد بلوغه هذه الغاية العظيمة من المعارف والعلوم يأتي الى هذه الدنيا حينما يأتي عاريا من جميع المعارف ، وجاء الى هذه الحياة الدنيا ولا مجال للجدال في كيف جاء ، كما يجيء أطفال اليوم على أحسن تقدير ، على أن من الواجب أن نعتقد أن هناك فرقا عظيما من حيث الاستعداد الكامن بين أطفال اليوم والانسان الأول لأن أطفال اليوم يحملون تراث الآباء والاجداد كله بخلاف الانسان الأول ^(٤) الذي جاء لا

- (١) انت أسأت به الظن حيث جعلت عصورا طويلة لهم لم يفهموا شيئا ولا يعرفون الكلام ، فهل وراء اساءة الظن شيء أعظم من هذا
- (٢) لكن الإجابة تحتاج الى ألفاظ ، بل أنت كتبت هذه الحروف لتؤدي بالألفاظ
- (٣) بل هو تصور باطل بلا ريب . فبأي وجه يكون صحيحا ، هل بمجرد الدعوى أو بالبرهان . أما الدعوى فمنوعه والبرهان غير موجود ، بل البرهان قائم على تكذيب هذا كما في سائر النصوص ومنها (ينزع عنها لباسها) الآية
- (٤) هذا تصریح بأنه لا يعتقد أن الله خلق آدم بيده وفتح فيه من روحه المقدسة فأين من نفع الله فيه من روحه من يحمل تراث الآباء - الذي منه أنواع الخبائث والغل والحسد وغيره - من سلم من هذا كله ، فقياسه ساقط كما أنه كفر صريح

يحمل معه سوى ما ورث من منبته إن كان فيه ما يورث . نعم جاء الى الحياة كما يحىء أطفال اليوم من حيث التجرد من كل معرفة ومن كل لباس ، لا يعرف لغة ولا كتابة ولا إشارة دلالة على الكلام ولا زراعة ولا صناعة ولا شيئاً مما هو ضرورى ، لذلك فهو لا يعرف أن يبني بيتاً يسكنه ويأوى اليه اتقواء ما تأتبه به الطبيعة ، ولا أن ينسج ويخيط له ثوباً يلبسه ولا ناراً ينضج عليها ما يأكله وتوفر له الدفء والحرارة ، بل لا يعرف وسيلة من وسائل التفاهم ، والتفاهم هو أول الخطوات ، فلا يدري ما يحول بخاطر من حوله ، بل لا يدري أن لهم خواطر تجول بالمعاني والأفكار والخطرات ، لا يدرك شيئاً مما يحيط به فيفزع من كل ظاهرة كونية ، يرى البرق فيفزع ويسمع الرعد فيطير لبه هالعا وتهب الريح فيقتسمه الخوف والرعب وينزل المطر فلا يعلم كيف يفعل ولا كيف يفهم ويرى جريان الانهار والمياه فيحسبها تجري بالحياة والارادة مثله ويحسبها قادرة على ايدائه ، بل يرى الظلام فيظنه يتراقص بالاشباح المؤذية الهاجمة وبكل ما يخيف ويذعر ، أما طلوع الشمس وغروبها وكذلك النجوم والكواكب فأعظم ما يملأ جوانحه روعا ، وهكذا كان لا يعلم شيئاً ولا يأمن شيئاً ، انتهى

قلت : فلينظر العاقل المنصف الغيور الى هذه المقادح الشنيعة فى الانسان الاول الذى هو آدم ، فانه نص عليه فى كلامه السابق بأنه الانسان الاول ، وقد أكدته هنا بأن المراد به آدم بقوله لا محالة أن نتصور الانسان فى بداية وجوده ، ومعلوم أنه لم يوجد انسان قبل آدم ، ونحن نعلم بلا ريب أنه لا يعتقد - على مقتضى كلامه هذا - وجود آدم ولا حواء على ما جاء فى النصوص ولا سيجود الملائكة ، ولا أن الله خلقه بيده ، بل لا يعتقد ربا ، وانما يخادع بنقل النصوص الدينية وتحريفها على ما يشاء ضرورة ونفاقا ومكرآ لىروج كلامه وليبقى على مكانته ، واذا كان يعتقد آدم وأنه علم أسماء كل شيء فكيف يكون الانسان الاول والقرون الأولى التى بعده على هذه الحالة ، أليس هو

أباهم وحواء أمهم ، فمن أين جاءهم هذا البكم والجهل العظيم ، فمن المحال الايمان بوجود آدم على ما جاء في النصوص ، واعتقاد أن القرون الاولى لا يستطيعون الكلام ولا الإشارة ولا يفهمون شيئاً البتة ، هذا من أمحل المحال ، لا يمكن الايمان بالنصوص السماوية والنظريات الالحادية ابداً

والله ما استويا ولن يتلاقيا حتى تشيب مفارق الغربان

ولم نعلم أحداً من الكافرين والمنافقين قبل هذا الملحد وأشباهه ادعى أن الانسان الأول عاجز عن الكلام عدة قرون لا يعلم عددها الا الله ، وأنه لا يعرف ولا يفهم شيئاً مطلقاً وحالته أخط حالاً من أدنى الحيوانات . والعجب أنه تصورهم هذا التصور المعكوس ثم أخذ يخبر عنهم كأنه واقف معهم مشاهد لأحوالهم ، بل أخذ يخبر عما يحول في ضمايرهم ، فهو لم يكتب بالاختبار عنهم إخبار من هو سائر معهم في الأكل والشرب والمباشرة وغيرها بل تجاوز الى أن أخبر عما يحول في صدورهم وتوسوس به نفوسهم وضمايرهم بدون استناد الى حجة أو أدنى شبهة . وهذه القنعة والفجور والجسارة لا يقدم عليها إلا من انسلخ من العقل والدين والحياء جملة . نسأل الله التوفيق

ثم قال : « والخوف عادة وليد الجهل فان من يجهل الشيء يخافه ^(١) ، وقد نشأ عن هذا الخوف وعن هذا الجهل أن نمت فيه فكرة العبادة ^(٢) لهذه الظواهر الكونية وهذه الاشياء المتحركة المضطربة فان الخوف يحدث التفكير في دفع ما يخافه وفي اتقائه ، والجاهل الضعيف انما يدفع عن نفسه ويتقى ما يرهب بالملق ، والملق له صور كثيرة احدى هذه الصور البكاء والضراعة كما

(١) هذا غير مسلم ، بل قد يعلم الشيء فيخافه ويجهل الشيء فلا يخافه ولا يعبا به ، وفي الحديث « من كان بالله أعرف كان له أخوف » ،

(٢) هذا من آيات القصيدة المقصودة بالذات

يُجمل الأطفال ، والبكاء والضراعة هما أعظم مظاهر العبادة^(١) فزاح يعبد كل ما يرى ويسمع عبادة ساذجة حقيرة^(٢) فكان الانسان اذ ذاك يختص في شيتين : بالجهل المطلق بكل شيء ، وفي عبادة كل شيء متقلب مضطرب . ونعوذ فقول مرة أخرى ان أحسن وأصدق صورة ترسم للانسان في ذلك العهد هو الطفل من حيث العري من كل لباس على وبدني . والآن ننقل نقلة فكرية ونرجع رجوعاً سريعاً خاطفاً من تلك العهود الموعلة في القدم ولنمر بتاريخ ثلثمائة ألف سنة أو تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً من تاريخ هذا الانسان الطويل البطيء من غير أن نقف على مرحلة من مراحلها حتى نقف وقفة طويلة معنة عند تاريخنا اليوم وعند الانسان في القرن العشرين ، ولنحاول أن ننسى ما بين هذين التاريخين من تاريخ ، ولنأخذ الفرق بين هذين التاريخين أو هذين للعهدين أو هاتين الصورتين ، ولنجعلهُ هو مجموع ما عمله الانسان بفكره أو جسمه : إن أول نظرة الى صورتي الانسان في عهديه وتاريخيه لتمام العين وتملأ القلب^(٣) إعجاباً بهذا الانسان الصغير البدن المحدود بالحدود المادية الضيقة ، ماذا نرى الآن في هذه الحياة التي تموج بأعمال الانسان ، وماذا نرى من القوى المادية والفكرية التي أوجدها هذا المخلوق وجعلها في خدمته ملكاً له حتى استطاع الخروج من تلك الظلمات الازلية حتى وصل الى هذا العصر ، وكيف استطاع الوصول اليه في سيره المتعثر ، واستطاع أن يسدد وقع أقدامه المتحركة في

(١) أقول : ومن صور الملق ضيعة في هذا الكتاب ، ثم اهداؤه للملك . ثم مكائياتك التي تقول في احداها اني اضرع اليك ، فاذا كانت الضراعة أعظم مظاهر العبودية فتد عبده باقرارك على نفسك حيث تملقت وتضرعت فتكون من جنس هؤلاء الذين تشنع عليهم لو قدر انهم وجدوا ، ونحن نعلم أن مرادك من هذا تركيز بعض العبادة وأنها من أفعال الجبلاء الأولين

(٢) مقتضى هذا أن آدم يعبد الأولثان ، لأن كلامه كله في الانسان الأول وفله حصه من القرون القديمة

(٣) تملأ عينك وقلبك خاصة لانها تناسبه

الظلام بدون أن يكون له هاد الا طبيعته ومرشد إلا حاجته ^(١) ونور يبصر به السبيل الا أمه وبدون أن يكون له قبرة دافعة الا استعداداه المولد للطاقة بعد الطاقة بدون عطل وتوقف . لقد بدأ في إيجاد تاريخه وبناء حضارته بداية توجب الرثاء والاعجاب معاً . ففكر في أنه محتاج الى أن يتفاهم أفراداه ، وفي أن هناك حاجات مشتركة يود أن يعملها كل فرد ، أو على الأصح فهم كل فرد في نفسه أنه يريد أن يفهم عن غيره وأن يفهم غيره ما في نفسه وما عنده وما يضطرب في جوانحه ، ولكن ما كان يعرف وسيلة واحدة من وسائل التفاهم ، فراح يحاول أن يخاطب وأن يتفاهم بالاصوات التي لا مقاطع ولا معاني لها كالاطفال سواء حينما يلجئون في طلب حاجاتهم بالبكاء والصراخ الذي هو تصويت فقط ، فظلت هذه وسيلة تخاطبه وتفاهمه الوحيدة أزمانا يعجز التصور عن تحديدها تحديداً دقيقاً ^(٢) . ثم ترقى درجة بقصد أو بغير قصد بأن ذهب يتخذ لنفسه طريقة للتفاهم والتخاطب أفضل من التصويت المبهم ، فذهب يتخاطب بالاشارات والحركات ، وهذه طبعاً أفضل وأوضح من الوسيلة الاولى لأنها أدنى الى التحديد والافهام ، وان الاطفال يتبعون طريقة أسلافهم في التنقل من وسيلة الى وسيلة أخرى محاولين الافهام والافصاح ، فانهم بعد أن يظلوا مدة معينة يتكلمون ويأمرون وينهون ويطلبون بالاصوات المجردة يذهبون بعدها الى الاستعانة بالاشارات والحركات . ومن العجيب أن محاولة الافصاح عن الغرض بالاشارة والحركة والتمثيل البدني لا تزال ملازمة

-
- (١) هذا تصريح ظاهر منه بان الله لم يهد عباده ولم يخرجهم من الظلمات الى النور بانزال الكتب وارسال الرسل ، بل هديهم الطبيعة وأرشدتهم الحاجة ودلهم الامل .
- (٢) ما كان ينبغي لك أن تعترف بالعجز عن تحديدها ، فلو حددتها بما تشاء وتشتهي لكان من جنس هذه الشريرة التي تدعيها هنا ، فليست هي في العقل بأبعد منها كما أن الشرع دل على بطلان الجميع ، هذا مع دعواك أن الانسان يعلم كل شيء .

الانسان اليوم ، ثم غير أحقاباً بعد أحقاب يدأب لنفسه ويكدح لها كدحاً متواصلاً عنيفاً ويصنع التجارب تلو التجارب ويخرج النماذج اثر النماذج مستعينا بوسيلتيه الأوليين الاشارة والحركة حتى ظفر بما لا يمكن تخيله من العناء والمشقة والزمان بما يصح أن يسمى أول لغة انسانية ذات مقاطع وحروف مفهومة ^(١) . وهنا يجب أن يقال بحق وصدق : لقد استطاع الانسان أن يخرج بغنم عظيم ، وأن يمضى أشواطاً هائلة في أهدافه وفي طريق هذه الحضارة التي يتمتع الانسان اليوم بها ، اذ قد استطاع بمعرفته أول لغة أن يضع حداً فاصلاً بين عهود الطفولة - أو الحيوانية على رأى آخرين - وبين العهود الأخرى ^(٢) ويجب أن يسمى هذا العهد أول تاريخ الانسانية ^(٣) وأول نقطة استطاعت الوثوب منها . ولو أن انساناً بقي عاجزاً عن الظفر باللغة لبقى عاجزاً عن بلوغ كل ما بلغه ولبقى عاجزاً عن أن يصنع له تاريخاً يفوق تاريخ الحيوان ، انتهى كلامه في الانسان الأول وما بعده الى تاريخ ما يقارب نحو ثلاثمائة ألف سنة بزعمه . وقد علمت من هذا أن آدم في عهد الطفولة

(١) هذا تصريح ظاهر في تكذيب النصوص الواردة في تعلم آدم الأسماء كلها ومخاطبته تعالى له ومخاطبته للملائكة وحواء في الجنة ثم دعواته حين أخرج منها ، كما أنه تكذيب لقوله تعالى ﴿خلق الانسان علمه البيان﴾ فإن هذه القرون كلها من الانسان ، بل هم انسان زمانهم ، وقال تعالى ﴿وان من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ ومعلوم أن النذير إنما يتمكن من ابلاغ الرسالة بالكلام ، وهذه أم بلا شك

(٢) قد عرفت من هذا ومن تصريحه السابق في الانسان الاول أن آدم ومن بعده من القرون القديمة كانوا في عهد الطفولة أو الحيوانية فهم لا يستطيعون الكلام ولا غيره

(٣) هذا تصريح واضح كالشمس في أن آدم ليس في عهد تاريخ الانسانية بل هو في عهد الحيوانية أو الطفولية ، وهو كفر صريح ، فقيح الله من يروج عليه هذا الهذيان

والحيوانية (١) فهو لا يستطيع الكلام ولا غيره بل هو كسائر الحيوان ، وقد بينا فيما سبق أنه لا يعتقد وجود آدم ولا وجود شيء مما جاءت به النصوص في شأنه في القرآن والسنة ، فانه من المستحيل الجمع بين الايمان بهذا الكلام وبين الايمان بما ذكر الله عنه في النصوص الدينية . وهذه الفلسفة الجنونية الباطلة انما وجدها لبعض ملاحدة الدهرين الذين لا يرون النصوص شيئا معتبرا فنقلها وتصرف فيها ، وهى فلسفة باطلة بطلانا ظاهرا ، وانما يغتر بها إما جاهل غبي أحق لا يعرف من الحقائق الدينية شيئا ، وإما زنديق خبيث ملحد يتبع ما وجد لاخوانه الملاحدة من النظريات المختلفة المختلفة فيصدق بما يجد منها سواء وافق حقا أو باطلا ، وليس كلامنا في مثل هذه الامور مع هذا الملحد في هذه المباحث وغيرها مع من لا يلتفت الى النصوص ولا يصدق بها رأسا ، فان الله سبحانه قد كفانا التكلف في اقناع هذا الضرب حيث قال في كتابه العزيز ﴿ ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ وقال تعالى ﴿ انا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي الى الأذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ، وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ فهذا الضرب كليت أو كالجناد الذئ لا تفيد فيه جميع وسائل الحياة . انما الكلام مع غير هؤلاء . ومعلوم أن جميع الشرائع الدينية والعقول الصحيحة تشهد بطلان هذا الكلام من أوله الى آخره ، أما الشرائع السماوية فان الله سبحانه قد نص على أنه خلق آدم من تراب بيديه ثم نفخ فيه من روحه وخاطبه وأسجد له ملائكته وأسكنه جنته وعلمه أسماء كل شيء وخاطب الملائكة ثم خرج الى الجنة وقال ﴿ ربنا ظلمنا انفسنا ﴾ الآية وتاب الى الله وأناب اليه وقال تعالى ﴿ كان الناس أمة واحدة فاختلفوا ﴾ وقد صح عن ابن عباس أنه قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق ، وقصص القرآن كثير جدا في الامم (١) لأنه جعل أول نقطة استطاعت الانسانية الوثوب منها حين عرفت الكلام ،

وما قبل ذلك فهم في عهد الطفولة ، ومعلوم أن آدم وحواء قبل ذلك

للمتقدمة وكيف كانت حالهم مع رسلهم ومخاطبتهم لهم وردهم عليهم ، وقال تعالى ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ وهذه أمم ، وهذا أمر معروف من الدين بالضرورة . وأما العقل فنحن اذا تتبعنا تاريخ الانسان الصحيح لم نجد بين الانسان الأول فرقا صحيحا جليا يبرهن على وجود هذا التفاوت ، بل الجثث الموجودة منذ آلاف السنين ليس فيها نقص عن هذه الجثث الموجودة اليوم ^(١) ، واذا فرض أنه قد وجد في فرد جثة ونحوها نقص فقد يكون هذا النقص مختصا بهذه الجثة نفسها ولا يلزم أن يكون هذا النقص شاملا لجميع جيلها ، فانه يوجد اليوم بعض أفراد فيهم نقص ذاتي ولم يلزم من هذا أن يكون الجيل كله مشمولا بهذا النقص وقد صح في النصوص المتواترة أن الانسان الأول أكمل صورة من هذا الانسان وأطول عمرا ، فانه ورد في الحديث الصحيح ان طول آدم سبعون ذراعا في السماء ، وقد قال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ﴾ هذا ومن بديع عجائب القرآن وبلاغته وحكمة الله تعالى أن بين للانسان في هذا القرآن كيفية

(١) ولا يظن الظان أن علماء النفس الذين قلدوا هذا الملحد متفقون على هذه النظرية بل كثير منهم مخالف لها ، ومن أشهر هؤلاء المدعو الدكتور شلر قال في نظريته في الانسان : والرجل الحديث ليس احسن من أسلافه القدامى في جوهره وهو لاشك دون الرجل الاغريقي في أحسنه . ان الرجل الحديث من حيث عقليته ومن حيث طباعه واخلاقه لا يفترق كثيرا عن جده الذي اتخذ من الصفوان سكنا . انه لا يزال في جبلته كجده ذاك . وقال هلمدين : ان دراسة النشوء والترقى بالتاكيد لا تكشف ان هناك ميلا عاما للتقدم في أي جنس كان ، بل ان ظواهر التراجع في الخلق اكثر من ظواهر التقدم وأشيع ، انتهى . وكلامهم في هذا كثير ، ونحن قد أخذنا من الله بالنصوص ولكن ذكرنا هذا ليبيان ان هذا الملحد انما تبع نظرية ساقطة من نظريات كثيرة مختلفة ليس عليها اثاره من علم

وجود آدم وما جرى له وبين مقدار عمر نوح لانه علم ما سيكون بسابق علمه
 أنه سيخرج في هذه الامة وغيرها ملاحية وزنادقة يدعون هذه الدعاوى
 الباطلة - التي ساقها هذا الملحد - فسد الله في وجوههم هذه الأبواب الالحادية
 وبين بأوضح بيان أن الأمر على خلاف ما زأوه وادعوه لكن أبى أكثر الناس
 الا كغورا ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وان الله لسميع
 عليم ، فأنزل كتبه وأرسل رسله لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل . ثم انه
 ينبغي أن يعلم أنه ليس لوجود الكتابة واللغة تاريخ صحيح في جيل أو عصر
 معين ، وهذا يدل على أن ذلك من ضرورات حياة الانسان فكانت موجودتين
 بوجوده ، أما اللغة فظاهر في قصة آدم فهذا برهان قاطع على أن اللغة
 موجودة بوجود آدم ، وأما الكتابة فهي تابعة للغة وآدم نبى وكذلك ابنه
 شيث ، وقد ورد أنه أعطى صحفاً ، وبكل حال فالصحف موجودة بوجود
 الأنبياء ولم يثبت أنها موجودة في غير وجودهم ، فالكتابة أثر من آثار الرسالة
 والنبوة فهي تابعة للوحي بالانفاق ولهذا قال تعالى ﴿ اقرأ باسم ربك الذى
 خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم
 الانسان ما لم يعلم ﴾ ففرق بين تعليمه بالقلم وبين خلقه للانسان وتعليمه من
 العلوم ما لم يعلم وفي هذا ايضا بيان انه هو الذى علمه ليس هو الذى علم من نفسه
 بما استعداده ومواهبه كما يقتضيه كلام هذا الملحد ، وكيفيك دليلا عن بطلان قوله
 انه ساق هذه الدعاوى العريضة المهادمة للنصوص غير مستند الى برهان يثبت
 ما ادعاه بل ساق هذه الدعاوى بمجرد التخرص والقياس الباطل والظن الذى
 لا يغنى من الحق شيئا مع كونه خلاف الظاهر ، فهو أولا مطالب بالبراهين
 الصريحة الصحيحة المعقولة على صدق ما ادعاه ، ومعلوم انه لا يجد هذا بحال ،
 اذ لو كان عنده شيء من ذلك لآتى به فانه يتمسك دائما بما هو اوهى من خيط
 العنكبوت في كل دعوى يدعيها ، وقد علمت ان البراهين دلت على خلافه
 والبراهين لا تتناقض ، وغاية ما قدر عليه قياس جملة الانسان على فرد الطفولة

وهذا قياس معلوم الفساد والسقوط لما بينهما من الفروق الكثيرة ، ولو صح القياس هنا لقسنا الانسان الاول بهذا الانسان وطفل الانسان الاول بطفل اليوم فان قياس الطفل على الطفل والرجل على الرجل اقرب من قياس الرجل على الطفل فان الطفل الاول حينئذ يحتاج الى قياس على شيء آخر وهو لم يذكره فاهي حالة الأطفال الاولين إذن ، فمن المعلوم أنهم إن كانوا كالأطفال فلا بد أن يكونوا رجالا لا يبقون أطفالا على حالة واحدة ، وإن لم يكونوا أطفالا فاهي حالتهم ، وإن كان أولئك الرجال كانوا أطفالا من أول أعمارهم الى آخرها فهذا مناقض للمعلوم المعقول ، كما أنه مناقض لما يدعيه من التطور ومن الانتقال ، ومخالف لجميع نواميس الحيوانات كلها ، ويجب عليه أيضا أن يطرد هذا القياس فيدعي أن الاولين لا يتناحون ولا يتوالدون لأن الأطفال الذين لا يبلغون سن الكلام وهو السن الذي قاس عليه كذلك ويطرد عدم وجود الانسان واللحي والشعور بل والمشي لان هذا كله من خصائص الأطفال ولا يقدرّون على تناول الغذاء والهداية اليه ، ومعلوم أنه لو ترك أطفال اليوم صغارا في سن عدم الكلام في جزيرة - وإن كان فيها شيء من الأمور المغذية - لما توالدوا ولم يعيشوا ، فالقياس الذي ذكره ساقط جدا ، هذا لو لم تأت النصوص القطعية على خلافه فكيف والنصوص قاطعة بتكذيبه . وبالجمله فان الطفل طبع على هذا منذ وجد الى الآن لم يختلف ، وسبب عجزه عن الكلام ليس هو الجهل بل هو النقص الذاق لحكمة معرفة نعمة الله عليه ، والجهل أيضا ليس هو علة عدم النطق إلا في رأى هذا الزنديق ، فالمعتوه والمجنون يتكلمان وقد يوجد أخرس وهو على غاية الذكاء والعقل والحكمة ومع هذا يعجز عن النطق ويدل على ضعف عقل هذا المغرور وخفته أنه بمجرد وجوده هذا الظن أو الرأى الذي كان قد رآه بعض الملاحدة الدهريين اعتقده واستسلم له ونقله واحتج به على ما فيه من أباطيل لا تعد ولا تحصى ، ومع كونه قد عارضه كثير من الملاحدة وفيه من المناقشات والاضطراب بينهم مالا حدره ، وأعجب من هذا

وأطم أنه ساقه في مقام تعظيم الانسان حيث قال أول البحث : هل الانسان عظيم أو هل الانسان يساء به الظن ، ثم ساق هذا الكلام الذي نقلنا ، وأنت ترى كيف احتقره ورماه بالمقادح التي لا تبقى ولا تذر وأساء به الظن إساءة لا يعدلها شيء ، ولو أن هؤلاء من قوم الدجوى الذين أخرجوه من الأزهر وعاملوه تلك المعاملة لما فعل معهم هذا الفعل كله وأضاف اليهم هذه المقادح والبهت والزور بمجرد هواه ، ونبد ما يخالف النصوص في كرامة الانسان وتفضيله له على كثير من خلقه ، واذن فلا بد من مجاهدة هذا الملحد والدفاع الصارم الصادق عن الانسان الأول وعن أجدادنا الأولين ، قال تعالى ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات ﴾ فأى تكريم لهم على مقتضى كلام هذا الملحد اذا كانوا أحط حالا من الحيوانات العجم كما ذكره وصرح به . نعم انه مدح طائفة خاصة من انسان هذا العصر وهم الملاحدة فقط لقصد معروف ، أما غيرهم من سائر بني آدم وبخاصة أهل الدين فانهم على ما يقول لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ولا كانوا فيها مخلوقات متألفة ، وانما صنع الحياة المحتللون من الأديان المنحرفون عنها ، فالملاحدة هم الانسان عنده الذي يريد تعظيمه ، ولهذا فانه ما عظم أحدا غيرهم كما تقدم وكما يأتي

فصل

قال « والنفوس كنوز كما قلنا ، مدفونة كما دفنت جميع الكنوز تحتاج الى اخراج واستثمار ، والا بقيت في مدافنها كأنها غير موجودة » فيقال : يريد بالنفوس هنا الاستعداد والمواهب التي يدهيها ، وحينئذ يقال وهي كنوز أيضا في معرفة الدين واستثمار علومه ومعارفه النفيسة التي لا تنفد ، وهي أيضا كنوز مختلفة في العلوم والمعارف ، وقد ينقلب بعضها كنوزا خبيثة متى طغت على فطرتها السليمة أخلاق الشر والخبث كنفس هذا

الملحد ، ونحن قد قدمنا غير مرة أن في فطرة الانسان استعدادا لقبوله ما يقومها ويقويها ويغذيها حتى تصل من العلوم والمعارف الى حد بعيد جدا ، وان هذه الاستعدادات شاملة للعلوم الدينية والمادية والصناعية وغيرها ، وليس في علوم الدين حرف واحد يمنع من اطلاق العقل في المعرفة والتفكير والنظر في جميع العلوم النافعة أبدا ، وهذا هو نظرنا ، وليس في المسلمين من يعتد بقوله من ينكر هذا ، وانما هو اخترع كذبا من كيسه وادعى أن المسلمين ينكرون معارف الانسان واستعداداته ومواهبه ، وهذا بهت وفجور لم يسبقه اليه أحد الى حيلة في من ينم وليس في الكذاب حيلة من كان يخلق ما يقول فليلق فيه قليله ولو أن هذا الملحد اقتصر على كون الانسان مستعدا لمعرفة هذه العلوم الصناعية والمادية ونحوها ولم يتعرض للقدح في الأديان لم نعارضه بشيء ، فاننا من أعظم الناس تقديرا للانسانية ووضعها لها في موضعها الطبيعي اللائق بها كل بحسبه ، فلا حاجة الى التطويل والتهويل ورمى المسلمين بالجهالة والبلادة وعدم تقدير الانسانية

فصل

ثم جاء بنادرة عجيبة مدعياً أن الدول أو الأمم اذا ارتفعت في الرقي والحضارة وسعة الملك فلا يمكن أن تنزل عن مكانتها ، فان ذلك من المستحيل ولو حاول العالم كله ذلك لم يقدروا عليه ، بل لو أرادت ذلك هي بنفسها لم تقدر عليه أيضا فقال وهذا لفظه :

« ومن هذه الأمم التي أصيبت مواهبها وألزمت بالانكاش والكمون الاغريق والرومان والعرب ، ويخشى على احتمال بعيد جدا أن تلحق بهم أمم من أمم هذا العصر الفتية ، غير أن هذا الاحتمال بعيد جدا لان الأمم أو الامة اذا بلغت شأوا معينة من السمو والرفعة فقد يكون من غير الممكن

المحتمل النزول عنه حتى لو أرادت هي بل لو أراد العالم كله لها ذلك ، اذ يكون مثلها في رفعتها وتبوءها مكانها الرفيع كمثل كوكب أفلت من منطقة جذب الى منطقة جذب أخرى حتى أصبح مستحيلا عليه وعلى العالم كله أن ينزل به عن تلك المنطقة أو أن يزحزحه عنها ، ويجب أن يكون معلوما أن للمعاني مناطق جذب وقوة جذب كما للمادة وكما للكواكب والشموس ، والعزة للأقوى الأغلب في المعاني وفي المادة معا ، انتهى

فيقال : ما هم الله يا فيلسوف زمانه ما أغزر بحرك في المهازل والخازي المضحكة ، فمن هي الأمة التي ارتفعت وبقيت على ارتفاعها ولم تنزل ، فإن هذا لم يوجد ، وجميع هذه الدول الكبرى انما تأسست على أنقاض دول قبلها ، وقد عرف ابتداء ملكها وتوسعه قريبا ، ثم هي في غاية الحرص والحذر والشفقة على الاحتراز بقوتها وسياستها عما يزلزلها من أعدائها ، ولو كانت تعلم أن إنزالها أو ازالتها من المحال كما ادعيت لم تداهن وتعاهد وتناق وتخادع وتماطل من أجل المحافظة على موقفها ، بل لو علمت ما تدعيه لا استطالت على غيرها من هو مثلها من أعدائها وقضت شأنها منهم ولم تكثر بهم ، لأنه من المستحيل على للعالم كله ازالها وازالتها ، ومعلوم أن أشد الناس خوفا واحترازا ومحافظة على السياسة هذه الدول الكبرى لعلها بخطورة موقفها - كما ذكرنا - فما ادعاه كلام ساقط وفضول لا يتكلم به الا مخبل العقل ، وقد كان ينبغي له بل يجب عليه أن يبحث بهذا الكلام المعزز بهذا المثل العجيب اليهم ليكونوا في طمأنينة ووثوق تام وفرح وسرور بهذه البشرية العظيمة التي توجب لهم الثقة والياس من استيلاء أعدائهم وبقاء ملكهم أبد الأبد ، فإن هذا شيء عجوز أو غفلوا عنه وظفر هو به بذكائه النادر لعله يفوز بجائزة عظيمة منهم أو يقدّموه في الامر فيقع ما حلم به . وأعجب من هذه الدعوى تشبيهها بالكوكب ، وقد علم أن الكوكب لا يزول عن مكانه بخلاف الدول ، وأعجب من ذلك ما ذكره استطرادا في قوله ويجب أن يكون معلوما أن للمعاني مناطق

جنب وقوة ، فان هذا لا يطابق ما قبله ، إذ كلامه في الأمم وهي ليست بمعاني ، ولو قال للام بدل المعاني لكان هو الأولى ، إلا ان كان يريد أن المعاني كالأمم أيضا فتكون المعاني كالسكواكب أيضا ، ولعل هذا من متشابه حقائقه الأزلية الأبدية التي لا يعلم تأويلها إلا هو أو الراسخون في علمه

فصل

قال : أما معارف الانسان اليوم وشهادتها على عظمتها وعلى ضخامة ما ينتظم من الآيات العلمية الانسانية فأمر من الواجب أن يكون فوق كل خلاف وجدال . لقد كادت الطبيعة أن تستسلم بلا قيد ولا شرط لعلم الانسان وعقله ، وكادت أو قد فعلت أن تضع في يده قيادها ليتصرف فيها كيف شاء وكيف أحب . أى شيء عجز عنه هذا المخلوق الصغير العجيب . لقد هاجم كل شيء في معقله وغزاه في مكنه بانتصار مبین ساحق ، فلقد هاجم أكبر وأقدم أعداء الانسانية بل وغير الانسانية من الحيوانات والنباتات وهو المرض فقهره ، لقد عرف أسباب هذا العدو القديم الشنيع الذي لازم الانسان منذ وجد بل لازم الحياة وعرف وسائل مقاومتها ، عرف كيف نشأ ومم نشأ ، ثم عرف كيف يحاربه ويقضى عليه ،

والجواب ان يقال : كل هذه مجازفات لا قيمة لها ، ولا يخفى بطلانها على أدنى عاقل . فقلوه « لقد كادت الطبيعة أن تستسلم الى قوله - وكادت أو قد فعلت أن تضع في يده قيادها ليتصرف فيها كيف شاء وكيف أحب ، فهذا كله كذب ومكابرة مخالف للعقل والحس ، فجميع الأشياء التي قدر الانسان عليها كخبرة خردل في جانب جبل بالنسبة الى ما لم يقدر عليه ، هذا الموت أعظم عدو لهنولاء الملاحدة والماديين وأمثالهم ممن عرفوا كثيرا من هذه الأمور ، ماذا عملوا في الوقاية منه ، ولم من عالم بهذه الأسباب المادية لم يمت إلا بأسبابه التي عليها وعلم الوقاية منها ، فدعواؤه أنه يتصرف في الطبيعة كيف شاء وكيف

أحب دعوى ساقطة من مأفون لا يبالى بعاقبة ما يقول . وقوله : أى شيء عجز عنه هذا المخلوق الصغير العجيب ، يقال : كل شيء عجز عنه هذا المخلوق الصغير العجيب ، وكفى بعجزه وقوعه قريبا وقع فيه من المشاكل العظيمة التي أوقعته في هذه الكوارث والنكبات والحروب الطاحنة والمنازعات الدائمة ، لقد عجز عن أن يدفع عن نفسه التي هي أحب شيء لديه وعن ولده وفلذة كبده هاجم الموت إذا جاءه وهو ينظره ولو لحظة واحدة ، لقد عجز عن أن يستغنى عن حمل الغائط والبول ومسه يده وتلوئه به يوما واحدا ، وقد عجز عن إيجاد حاسة واحدة من حواسه المفقودة أو عضو من أعضائه أو تغيير صورته الى صورة أخرى أو أن يستقل بالوطن عن عدو يخافه ويدهنه ويصانعه ، لقد عجز عن أن يستغنى لحظة واحدة عن استنشاق الهواء ووجود الغذاء في جسمه ، الى غير ذلك مما لا يعد ولا يحصى ، ما هو محتاج اليه من الأشياء الحقيمة التي هو مفتقر اليها بالذات ، فققر الانسان الذاق وعجزه الذاق أمر مشاهد محسوس ملازم له لا ينفك عنه ولا يمكنه التخلص منه ولو أعطى من العلوم والمعارف ما لا يعد ولا يحصى ، فانه انسان ليس ياله ولو بلغ ما بلغ ، ولو أنه كان لا يعجز عن شيء لم يكن انسانا بل يكون لها كما تقدمت الإشارة اليه فقولك أى شيء عجز عنه هذا المخلوق كلام ساقط يكذبه الشرع كما يكذبه العقل والحس والضرورة والوجدان ، فما عرفه بالنسبة الى ما جهله كالأشياء أو كقطرة من بحر . وكذلك دعواه أنه قهر المرض دعوى كاذبة خاطئة ، فإن الأمراض المتنوعة لا أكثر منها وجودا في كل زمان ومكان ، وإذا قدر أنه هدى الى معرفة ما يضاد بعضها فهذا لا يقال فيه أنه قهر المرض ، فان هذا من باب التطور في التداوى ، وهو من العلوم القديمة التي تترقى شيئا فشيئا لانها مبنية على التجارب المتكررة (١) ، ثم هو يفيد وهو الاغاب في بعض الصور .

(١) لنسبة ضعف الانسان وخوفه

وقد لا يفيد مطلقا ، ولم من مرض لم يعرف له دواء الى الآن ، ثم أيضا قد يحل محل المرض مرض آخر ، وبكل حال فهو لم يقدر على قطع الامراض بل ولا أكثرها ، وإنما خفف منها من ناحية ، ومن ناحية أخرى عمل أسبابا للهلاك والموت أفضح منها ، كما أنه عمل أسبابا لجلبها وبشها . ولا شك ان النفوس البشرية التي ذهبت ضحايا هذه الحروب المنتهية التي من أسبابها إلقاء القنابل والصواريخ وغيرها أكثر عددا من النفوس التي تذهب بسبب الأمراض التي عرفت مقاومتها . ولا شك أن الامراض وإن بلغت ما بلغت على ما عرف من تأثيرها في السنين السابقة فهي أقل خطراً على الانسانية من بعض هذه الصناعات الحديثة التي استخرجت وسيلة للسيطرة والتملك والدفاع كالطاقة الذرية فان العالم أصبح بسببها مهددا بالفناء والدمار العام ، بخلاف تلك الامراض ، فانسان هذا العصر لا شك أن الله قد هداه الى معرفة أمور جليلة من وسائل الراحة والهدوء واللذات ، ولكنه قد صنع ما يقابل هذه من وسائل الويلات والحزب ما يئيف على ذلك أو يكافئه ، وإذا قيل ان هذه الأمور مما يدل على علمه قلنا وهي مما يدل على ضعفه وشدة حاجته ، فان حاجته وضعفه الشديد دفعه الى الحيلة والحيلة دفعته الى التعلم لمعرفة الوقاية من هذه الشرور والشقاء ، ولو لم يكن محتاجا وضعيفا لما وصل الى هذا . ثم ان هذه الوسائل الفظيعة كلما تقدم الزمان اشتدت وتطورت تبعا لتطور الفساد والبعد عن الدين ، ولهذا كان لا يأتي زمان الا والذي بعده شر منه كما ورد في الحديث الصحيح . ثم كون الانسان عرف حقيقة مرض الوباء وأنه على ما قيل ميكروب يفتك في جسم الانسان ، فهذا لا يدل على قدرة الانسان بل يدل على ضعفه لأنه حينئذ يكون كظرف لهذا المخلوق الذرى الصغير ، وأنه محتاج غاية الحاجة الى محاربة هذا الجند الجرثومي الضئيل الداخلي ، وأنه مضطر الى ذلك غاية الاضطرار وإلا قضى على حياته ، فمن هو بهذه الحالة والوضع كيف يعتمد على نفسه وذاته ولا يدعوره الكامل العزيز الجبار ، وكونه

عرف مقاومة هذا المرض أيضا لا يدل على كمال قدرته فان الله ما أنزل داء
الا جعل له دواء فكانت معرفته للوقاية منه كعرفته للوقاية من كثير من
الأمراض الداخلية والخارجية التي كانت مبادئها متقدمة ، فهذا المغرور المصعب
بنفسه مضطر الى محاربة هذا الصغير الضئيل وأمثاله وإلا أفسد عليه ذاته ونكد
عليه حياته وكدر عليه لذاته ، فمن هذه حالته كيف يقال فيه « أى شيء عجز
عنه » ومن هذه حاله كيف يستنكف ويستكبر عن عبادة ربه العظيم المقدس
الكبير المتعال القادر على كل شيء القائم على كل نفس بما كسبت الذى يعز من
يشاء ويذل من يشاء ويده الخير وهو على كل شيء قدير ، فهذا هو الذى
يستحق أن يعتمد عليه ويتوكل عليه وتستمد المعونة منه ويدعى ويتضرع
اليه ، وهو الكريم الجواد الذى لا يخيب من سأله بصدق وإخلاص ، وأما
اقتدار الانسان على استخراج هذه الصناعات المتنوعة الكثيرة المستخدمة فى
قطع المسافات ونحوها ، فهذا لا يصح أن يكون دليلا على أنه يقدر على كل
شيء ويعلم كل شيء وأن ناصية الوجود بيده كما يدعى ، فان هذه الأمور إنما
عرفها الانسان لأنها فى طاقته ليست فوق طاقته ، فانها أمور صناعية وجميع
الأمور الصناعية فى طاقة الانسانية ، بخلاف الأمور الأخرى كاحياء الموتى
وخلق الحياة فى الحيوان والنبات ونحو ذلك فان الانسان عاجز عن ذلك
وسيمتدح عجزه أبدا لأن هذا من خصائص الألوهية . ثم ان هذه المعارف
لم تنزل فى استطاعة الانسان ومواهبه قديما متركزة فيه منذ وجوده ولكن
الله يحددها بحسب حاجة الخلق لها فى الوقت الذى يناسب الحكمة والاتقان
وهى كلها مؤلفة من جمادات متنوعة بالقياس على الحيوان وغيره ، وأصوله
هذه الأمور قد عرفت من قديم ، وأكثرها مستمد من تعاليم الديانات
كالكتابة وصنع السفن والنسيج وغيره ، ومعلوم أن الذهب والفضة
والنحاس وغيرها قد عرف استخراجها من قديم الدهر ومعرفة استخراجها

من أرقى المعارف (١) والله سبحانه هو الذى هدى الى معرفة هذا كله واستخراجه فى الأوقات المناسبة لذلك كما هدى لمعرفة كثير من الأمور المعنوية التى اختص بابتداعها أهل الدين كالنحو والصرف والعروض والقوافى والهندسة وأمثال ذلك ، ولا شك أن معرفة هذه لها دخل كبير فى معرفة أصول الصناعات وابتداع المعانى أعظم من إبتداع الصور لان إبتداع الصور والاجسام متوقف على علم المعانى التى بها تستخرج هذه المعلومات ، وليست صنعة جنس (الراديو) بأعجب من صنعة جنس الكتاب ، فان الراديو وان كان آلة لجلب الاصوات والاقوال المتنوعة وهو يحمل مع الانسان فى كل مكان وزمان ، فكذلك الكتاب فانه ظرف بسيط لحفظ معانى وأقوال وعلوم لا تعد ولا تحصى ، وهو أمين حفيظ وأقل مئونة من (الراديو) ، وهو محمول فى كل مكان وزمان ، فان الانسان يأخذ هذا الشكل البسيط فى جيبه أو غيره فيفتحه فيطلع على علوم لها آلاف السنين ويحذف فيه من علوم الدين والسياسة والأحكام وغير ذلك ما يندش الانسان ويحير لبه وهو غنى عن (الراديو) وليس الراديو يغنى عنه ، ولولا الكتاب لم يستخرج الراديو ، ويستغنى كثير من الناس عن (الراديو) ولا يستغنى أحد عنه ، وهو من الصناعات المتقدمة التى ظهرت على يد المتدينين بالاجماع إما وحيا أو الهاما ، ولكن لما كان الكتاب متقدما صار مبتذلا لم يستغرب (والراديو) لما كان حدوثه متأخرا استغرب وجعل موضع عجب لكون النفس تستغرب الحوادث الجديدة المخالف للعادة أعظم من القديم المبتذل ولو كان أعجب وأبدع منه ، وبهذا يبطل تطويله وتهويله للصناعات الحادثة كلها لغرض الغلو فى الانسان ، وبنيائه على ذلك أن الانسان غير عاجز عن شئ

(١) قال تعالى حاكيا عن فرعون (فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب) الآية ففيه دليل على أن الذهب كان موجودا من قديم ومعلوم أن استخراجه من أدق الصناعات

ومن الجائز أن يكون ذلك من أسباب خروج هذه الصناعات في هذا الوقت ، وتعليل ذلك أنه لما ضعف أمر الإسلام في السنين الأخيرة وانقطعت فتوحاته المستمرة وقلت العناية بنشره والقيام به وبثه في أرجاء الأرض - وقته كان سبحانه وتعالى قد ختم النبوة بمحمد ﷺ فلا رسول بعده ، وأطراف الأرض متباعدة مملوءة بالسكان فهم في حاجة شديدة إما إلى رسول وأما إلى معرفة ما جاء به هذا الرسول الكريم من الدين والكتابات المبين الكافي لهداية الخلق ، أما بعث الرسول فغير ممكن لأن حكمة الله اقتضت أن لا رسالة بعد محمد ﷺ لأن من لم يؤمن به وبما جاء به من الحق الواضح مع كمال شريعته ووضوح معجزاته وكفايتها واستمرارها فلا يمكن أن يؤمن بغيره ، لأن الحق واحد ، فتعين الثاني وهو معرفة هذا الرسول عليه الصلاة والسلام ومعرفة الشريعة الكاملة الكافية التي جاء بها . ومعلوم أنه كالمستحيل معرفة ذلك على جميع أهل الأرض من أمريكيانيين وأستراليين ونحوهم مع وجود الأسباب التي ذكرنا ، وربما أنه لو بلغهم ذلك لم يبلغهم على وجه الصحيح - فكان (١) من الضروري وجود ما به يحصل ابلاغهم لتقوم بذلك الحجة عليهم ، ويعلموا ما جاء به الرسول ، فهو سبحانه قد مكنتهم من الأسباب فيجب عليهم الاجتهاد في البحث والتنقيب والحرص الشديد ، لأن جميع مصلحة ذلك عائدة إليهم ، ولأنهم دائماً يحرصون على البحث والتنقيب والتفكير في كل ما من شأنه أن يفيدهم في التقدم وينفعهم في الدنيا كالمعادن وغيرها من مصادر الخيرات الحفية والبارزة . وعلى هذا فن كان قصده الحق وإتباعه وإثارة على نفسه وولده وماله فلا بد أن يبذل غاية جهده في الحرص على معرفة هذا الدين وفهمه وتحقيقه ، ومن حرص كل الحرص وبذل جهده في أمر ممكن كهذا الأمر عرفة ولا بد ، لأن الله يوفق من يريد الحق ، ومن كانت هذه حاله فهو الذي يمكن أن

(١) هذا جواب د لما ضعف أمر الإسلام ،

يؤمن بالرسول لو وجد ، ومن لم يكن بهذه الحالة فهو لا يؤمن بالرسول لو وجد ، لان الايمان بالرسول ليس بالأمر الهين بل لا بد أن يكون هناك عوارض دنيوية تمنع كل من لم يؤمن به ايمانا خالصا صادقا ، وحينئذ فالانسان المخلص الصادق أو الأمة المخلصة الصادقة اذا بذلت جهدها في معرفة ذلك أدركته ولا بد ، ومن كان له قصد غير هذا قامت عليه الحجة . وبكل حال فهذا كله انما يحصل بوجود هذه الأمور الصناعية المقربة للمسافات البعيدة إما بالنقل وإما بالسماح أو بكليهما ، وقد حصل السبب الاكل لا بلاغ الحجة ، وكان من عناية الله ورحمته بخلقه أن هداهم لمعرفة هذه الأمور في الوقت المناسب لها للحاجة ، وقد ظهر أثر ذلك فكان وجود دين الاسلام معروفا متيسرا في جميع بقاع الارض ، ومن جهله فلم يعرفه على وجهه منهم فلا بد أن يكون لتقصير فيه وتعصب على تقليد أو شيء من الهوى ، فان الله دعا عباده وكرر عليهم مرارا بانه سيسر الذكر لمن قصد التذكر واتباع الحق حيث قال ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ مرارا كثيرة ، ولعل السر في تكرار هذه الآية لقطع العذر وبيان أن من طلب الحق وجده ، وقال ﴿ ولقد فصلنا لهم القول لعلهم يذكرون ﴾ فمن اجتهد في اتباع الحق عرف الحق ولا يد . وبالجملة فقلوا وجود هذه الأمور المقربة - والله أعلم - لم يوجد تيسره وعرفته في هذه الأطراف النائية ، أو لم يعرف على هذا الوجه مع ضعف الاسباب ، وكان من حكمته تعالى أن جعل أكثر مبادئ هذه الاختراعات على أيدي هؤلاء النائيين لان هذا من أسباب مصالحهم التي هم في غاية الحاجة اليها ومن ذلك القدرة على الحج ، وليكون ذلك أبلغ في الحجة عليهم ، وقد كان من المشاهد أن أكثر الصناعات النافعة انما هي في تقريب المسافات وأما غيرها قد دخلت تبعا كسائر الأمور الجليلة فانه بخروجها لا بد أن تخرج معها أمور أخرى لها علاقة بها ولو بعيدة ، والله اعلم

فصل

ثم استطرد في معرفة الإنسان وتطوره في الصناعات حتى ادعى أنه عرف أول هذا الكون الى هذا الوقت الحاضر ، بل صرح بأنه عرف متى تنقضى الدنيا وأنه يعرف عمر هذا العالم وأنه عرف جميع تغيرات هذا الكون وتطوراته في الازمان الماضية السحيقة ، وقد كرر هذه الدعاوى في كتابه مرارا كثيرة ، وقد تقدم تجهيله الانسان ، فانظر الى فقدان عقل هذا الرجل وشدة تحبطه واضطرابه ، وقد تقدم شيء من ذلك . وينبغي أن يعلم أن غرضه من هذا تركيز عظمة انسان هذا العصر في أذهان الناس ليحصل الاقتداء به ورفض ما عليه السلف من أمور الدين لأنهم في زعمه ليسوا على شيء من المعرفة فقال هنا : « لقد قضى على الأبعاد المكانية قضاء حاسما سماعا ورؤية وانتقالا أي أنه صار يرى ويسمع ويتنقل بدون أن يكون للابعد سلطان ، لقد هزمت الأبعاد المكانية اذن ^(١) أما الأبعاد الزمانية فكانت معركتها لا تقل عن معركة الأبعاد المكانية ولا غيرها من المعارك العلية التي اقترح الانسان غمارها روعة وانتصارا ، انه استطاع أن يطير على أجنحة العلم ، وأن يرجع الى الوراء الزماني آلاف الملايين من السنين ، وأن يوجد نفسه قبل أن يوجد ^(٢) بما يفوت الاعداد أو يكاد ، انه راح يولد هذا الوجود ويشهد تكوينه وتوالده ، وذهب يحدث حديث الحاضر الشاهد كيف ولدت هذه الشمس وغيرها من الشمس ، ثم راحت هذه الشمس نفسها تلد الاتباع والبنين ليحيطوا بها وليحفظوا من حولها يدورون ويتحركون ولكن لا يستطيعون الخروج من قبضتها ولا الانفصال عنها أو الابتعاد ولا الاستغناء عن سلطان جذبها ، فكانت بينهم كآب وقور مبجل بين أبناء كرام بررة

(١) هذا غير مسلم على هذا الاطلاق

(٢) كل هذا كذب

يطيفون به ليأتمروا بأمره وليفعلوا ما يحب ويشتهى ، وراحت هي تفيض عليهم بأنوارها وحرارتها وقوتها مثل ما يفيض الأب الحكيم الرحيم على بنيه أنوار الهداية وحرارة الايمان وقوة الرجولة . انظر انه مشهد من مشاهد العلم التي لا يندر على إبصارها والاستمتاع بها الا هذا الانسان ، فياله من مخلوق ما أعظم حظه لو استطاع أن يعلم ذلك أو أن يفيد منه ^(١) . ثم راح يحدث كيف راحت هذه الأتباع وكيف راحت الابناء تصير من الآباء ، فقد ولدت السيارات الأقمار كما ولدت الشمس السيارات فكانت السنة واحدة لا تختلف في الجماد كما هي في النبات كما هي في الحيوان . ثم رجع يشهد كل العصور التي مرت بهؤلاء الآباء والابناء والاحفاد وطفق يحكى حكاية العليم المستنبت الأدوار المتقلبة التي مرت بها والتطور البديع المنظم الذي ظل يسوقها ويدفعها الى الكمال ، ويحكى كيف أخرجها هذا التطور من الحالة الغازية أو السديمية وما قبلها - ان كان لها قبل ^(٢) - الى حالة التكاثر والتكثف ، ومن حالة الاضطراب والقلق الى حالة الاستقرار والهدوء ، ومن العصور الجليدية والثارية الى عصور الاعتدال ، ومن حالة التكتل والفوضى الهندسية التي لا تمكن من سكنها ومن الانتفاع بها الى حالة التشذب والتهذب والتمهد الذي جعل فيها السهول والسهوب والأنهار والجبال والأودية والمرتفعات والمنخفضات وكل ما نشهده اليوم فيروعنا منظرا ونخبرا ، وقد وقف وهو آيب من هذه الرحلة العلمية الطويلة البديعة على عصر وجود الحياة في كوكبنا هذا وقفة غير قصيرة فحضر بشغف واهتمام متزايدين هذا الفصل الشائق من الرواية - وهو فصل

-
- (١) نعم لكن أنت لم تستفد منه ، فانه ما خلق الخلق الا للاستدلال على علمه ووحكمته وصفاته ، وليعبد وحده لا شريك له ، فأى شيء عملته من هذا
- (٢) قولك « ان كان لها قبل ، يفيد الشك ، وهو يناقض دعواك أنه علم أول هذا العالم

ظهور الحياة - وهى اللغز المعقد الذى لا يزال العلم الدائب واقفا أمامه حائرا
دائبا على محاولة حله (١) فحضر وجود الانسان ووجود غيبه من أنواع
الاحياء ، فلزم هذه الموجودات الطريقة وعلى رأسها الانسان ، فتدرج معه
ومعها وهو وهى بحوان فى مدارج الحياة والوجود ، فوصف الانسان ووصف
أيضا غيره منذ وجوده البدائى الشقى الى وجودنا هذا المتحضر المذهب السعيد ،
فكتبه فصلا من أعجب الفصول يصف وصفا يكاد يكون تصويرا لهذا المخلوق
وكل ما شهد وهو ينتقل من طور الى طور ومن حالة الى حالة من حالات
النعم والبأساء حتى صعد هذه القمة الرفيعة من المدنية التى منحت هذه الحياة
هذه الألوان الزاهية (٢) من ألوان السعادة والتترف والعيش الرخى . ثم لم
يقف بعليه عند هذا ، بل ذهب مسرعا يساق هذا الوجود فيسبقه ، وذهب
يخبرنا عما بقى من عمر هذا العالم وعمر هذه الحياة وهذا الوجود (٣) الذى سبق
أن ولده وأن شهد نشوئه وتكوينه ، وعما بقى من عمر هذا الانسان وغيره من
الاحياء ، ويخبر عن الأحداث والحوادث التى لا تزال فى طريق الوجود والتى
لا تزال تترقب لتنب وثبتها . يا للعجب انه قد فرغ من علم الارض وما فيها
وما سيكون فيها (٤) ومن دراستها ودراستهم ثم رنا يبصره الحاد الطموح الى
ما هو أسمى وأعلى موضعا وأوسع وأكبر ، فخرج من كوكبه هذا الذى لم
يشبع رغباته ومطامحه العلية الى رحاب الفضاء بآلته وأرصاده ورياضاته

(١) هذا يناقض دعواك أنه يعلم كل شيء

(٢) لا ندرى كيف أعنى الله قلبه عن تلك الألوان السود والويلات والدمار
الفظيع والجوع والعمرى فى هذه السنين الآخرة فى كثير من بقاع الارض بسبب
الاحاد وأهله

(٣) هذا تصرّح بأن الانسان يعلم متى الساعة ، بل هو تصرّح بأنه علم ما كان
وما سيكون ، وهو يناقض دعواه أنه سيقضى على الشقاء قضاء حاسماً

(٤) تأمل هذه العجائب

وخياله يحويه جوبا ويرود ما فيه رودا يعدد ما فيه من عوالم ويصفه
أوضاعها وهيئاتها ومقاديرها وأبعادها وأعمارها وأنوارها وحرارتها وقوتها
وسيرها وسرعة سيرها ودورانها والتناسب القائم بينها ويميز التابع من المتبوع
والطائف من المطوف حوله والوالد من المولود ، بل يحللها حتى يعرف ما هي
مركبة منه ^(١) وما هي عناصرها وما مادتها وما غير ذلك ، ثم لا يقضى هذا
كله وطره وشهواته العلمية بل يجمع أمره على ما هو أعظم وبعد العدد ويقوم
بالتجارب بعد التجارب ليتصل بهذه السموات العلويات بالرسائل الكلامية
اللاسلكية ، أو بالانتقال إليها على متن سفن سهمية تطلقها قوة العلم ^(٢)
وتوجهها حيث يريدون - نعم هم لم يصلوا حتى اليوم الى هذه الغاية ، لكن
من زعم أنهم لن يصلوا يوما ما فقد أساء الى نفسه ، انتهى كلامه ، وفيه من
التهور والمجازفة والتصديق بالمحال والجنون ما لا يخفى على أدنى عاقل ، وغرضه
من هذه الثثرة الفارغة أن الانسان قد علم كل شيء ، فعلم ما كان وسيكون
ليثبت بذلك أنه يعلم كل شيء كما ادعاه ليحصل الايمان باستعداداته ومواهبه
التي في إمكانها أن توصله الى الكمال ، وأنه لا حاجة الى رب يدعوه ويعبده
ويتوكل عليه ، لأن هذه الصفات الكمالية كلها موجودة في الانسان فلا حاجة
الى الاعتماد على غيره ، وهذه عادته في قبول هذه الاقاويل المدخولة بالباطل
الواضحة ، فانه متى وجد بحثا للمخد من ملاحدة الماديين أو غيره قبله وصدق به
واحتج به وشتم من خالفه ، فهو يقبله قبولا تاما أعشى ويصدق به تصديقا
جازما ، ولا يكتفى بذلك بل يجعله برهانا قاطعا وان كان هناك ملاحدة
آخرون مخالفون له ، لان الشرط الذي هو موافقته لهواه موجود ، ولا يكون

(١) قبحك الله ما أرخص الكذب عندك وأهون القمحة عليك كأنك تخاطب
بهذا أنعاما لا تفهم

(٢) الأولى والأحسن أن تطلقها قوة حقائقك الأزلية الأبدية

موافقا لهواه الا اذا كان مصادما لعلماء الدين ، ففيه شبه قوى من الرفضة الذين يعرفون الباطل بكون أهل السنة يعملون به ويعرفون العكس بالعكس ، فكل ما يوافق هواه فهو الحجة والصدق والبرهان الذى لا ريب فيه ، وكل ما يخالف هواه فهو الكذب والباطل والمحال الذى لا شك فيه ، ذلك لأنه هو المقدم فى كل أمر كما زعم ، ولا حاجة الى تتبع كل ما فى هذا النقل من الأباطيل ومصادمة الشرائع لأن الانسان الذى يصدق به لا يلتفت الى أى حجة ولا يصغى الى أى دليل كائنا ما كان ، فان مصادمة هذا النقل للنصوص الشرعية أمر ظاهر لا غبار عليه ومن يخفى عليه ذلك فهو إما جاهل غبي أحق لا يفهم الحجة ، وإما زنديق لا يقبلها .

فمن خباثته فى هذه الجملة قوله « وذهب يخبرنا عن ما بقى من عمر هذا العالم وعمر هذه الحياة وهذا الوجود » ولا شك أن انقضاء عمر العالم هو قيام الساعة فهو صريح بأن الانسان يعلم متى الساعة التى استأثر الله بعلمها ، وهذا كفر واضح لا يشك فيه . ومن عجائبه دعواه أن الانسان سيصل الى السموات إما بالاسلكى وإما بالانتقال ، وجزمه بذلك ، ثم حكمه على من أنكر هذا أنه مسمى الى نفسه ، وصادم قوله تعالى ﴿ ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط ﴾ الآية ، ثم مع هذا يعترف بأنهم لم يصلوا الى ذلك فيعترف بعدم الوصول اليه والمعرفة به ثم يجزم بوقوعه فى المستقبل ثم يحكم بالاساءة على من أنكر ذلك ، فانظر الى هذه المهازل والمخازى المتتابعة وسفاهة العقل والطيش الذى لاحد له . وفى الحديث « اذا لم تستح فاصنع ما شئت » . ثم ان هذه الامور التى ذكرها ونقلها وجزم بها فى خلق هذا العالم وتفصيل حوادثه وتطوراته ليس هو من أهل المعرفة به وليس هذا الفن ماتعلمه وعرفه ، ومع هذا صدق به مع عدم احاطته بعلمه وقد قال تعالى ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ ولا سيما وهو تقليد فى أمر عظيم خطير وهذا هو عين الاساءة الى النفس بل هو عين الضلاله

والاغلال ، وسيأتى كلامه قريباً وتصرّحه بأن أقوال الفقهاء كلهم ليس لها قيمة علمية ولا عقلية ولا دينية فهو لا يقبل منهم قولاً في آية أو حديث أو مسألة فقهية فليس لهم علم ولا عقل ولا دين - وهذا مع أنه اضطر الى التعلق لهم والمصانعة معهم والانتساب اليهم - أما الملاحدة فهم المتصفون بأكلى الاوصاف وأجملها ، فما قالوه فهو الصدق الذى لا شك فيه وما أنكروه فهو الكذب الذى لا ريب فيه بشرط أن يوافق هواه . اللهم احشره تحت أقدامهم ووله ماتولى انك سميع الدعاء

ومن قبائحه المخزية فى هذا دعواه أن الانسان علم الحوادث المستقبلية وعلم ما سيكون ، فهذه المجاهرة بالقحة والمكابرة بالفجور مما يبين لك أنه يتكلم بكل ما يخطر على باله ولو كان مما يدخل فى حد الجنون ، وإذا كان الانسان يعلم هذا الذى يدعيه فما هذه المصائب والنكبات التى وقع فيها ، أفظنه اختارها لنفسه أم غفل عنها ونسيها . ثم ما بال هذه الدول كل منها محترس وخائف من المستقبل

وأما دعواه بعد هذا ان « من أراد لهذا الانسان أن لا يستمر فى رحلاته الكشفية العلمية فقد أراد بلا ريب سنة الله أن لا تمضى فى سبيلها ، فيقال أولاً : ليست سنة الله هى كون الانسان يصل الى السموات باللاسلكى وأن الملاحدة يدخلونها حتى يلزم هذا الذى ادعيته بل هو تسليع تحت

ويقال ثانياً : من هو الذى أراد ماقلته ، فالمسلمون لم يقولوا هذا ولا يمكنك أن تنقل عن أحد منهم يعتمد قوله أنه ادعى بأن سنة الله لا تمضى فى سبيلها ثالثاً : لا يلزم من استمرار الانسان فى علومه الكشفية وغيرها أن يعلم كل شيء ، ويقدر على كل شيء ، وان يصل الى السموات ، فان موضوعات العلم لا يحصى عددها الا الله غير الوصول الى السموات والقدرة على كل شيء ، واستمراره انما يكون فى طاقته التى جعلها الله فيه ، وهذه الامور ليست فى

طاقته التي جعلها الله فيه ، وهذه الامور ليست في طاقته ، ومن ادعى ذلك فقد كذب ، لان النصوص دلت على خلاف هذا وهي برهان صادق والبراهين الصادقة لا يمكن نقضها

رابعا : نقول ومن اراد لهذا الانسان أن يبلغ الى مساواة الربوبية في العلم والقدرة والابداع فقد جعله ربا وإله ، وحاول تحويل نسبة الله التي قد خلت في عباده فكان من الكافرين

خامسا : نقول لهذا الملحد دعنا من هذه المراوغة والتملص والصباح والجنون والهراء الذي لا طائل تحته ، ها هنا شيء دون هذا كله هو الموت ، فالموت هل قدر الانسان على قهره ، يجب أن يجعل هذا هو أول خطوة في أول السلم ، هذا الموت الذي أرغم أنوف هؤلاء الملحدين ، وهذا الهرم الذي قطع ظهورهم ، لا حاجة يا بلعام زمانه للوصول الى السموات وعلم ما كان وما سيكون وعلم خلق السموات والارض وخلق النفس وعمر العالم ونحو ذلك ، أعظم شيء هذا الموت الذي نكد عليهم الحياة ، الله أكبر عجروا عن دفع الموت وعن إيجاد ذباب واحد ، بل رجل ذباب أو جناح ذباب عجروا عن إيجاد شيء يعلمون بكل شيء ويقدر على كل شيء ، ما أرخص الكذب عندك وأخفه على لسانك

يا بلعام زمانه الانسان هو الانسان في أخلاقه وصورته وأكله وشربه وبوله وغائظه وموابعاته وكذبه وفجوره لم يتغير عن إنسانيته ، هو الانسان لم يزد في ذاته شيء ، دعنا من المغالطة واللياقة والخصومة الفارغة والثثرة والجنون ، كل هذا الذي قلته خروج عن المقصود وتملص عن ملتقى المطرقة والسندان ولا بد من أن توضع بينهما

خذ ماتراه ودع شيئا سمعت به في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل وقد بينا ما يتعلق بهذه الصناعات مع أن هذا الملحد معترف بأن التطور الموجود ليس الا تطورا صناعيا فقط حيث قال في نبذته الثورة الوهاية

ص ١٣٩ « وأما الزعم أن النفوس الانسانية ارتقت فزعم كاذب ، والواقع أكبر دليل على كذبه ، بل الانسانية تتبدل بطفرة من الجهة الخلقية تدليلاً لا يمكن الماراة فيه ولا الخلاف في بعد قراره ، وما يظن أنه أتى على الناس عصر فسقت فيه النفوس وتمردت واستخضبت مرتع الفجور والخروج على شرع الله ونظامه كهذا العصر ، والرقى المزعوم هو رقى صناعى صرف لاحظ للأخلاق ولا للكمال فيه ، والرقى الصناعى إن لم يصاحبه الرقى الخلقى عاد هبوطاً ونكبة على الانسانية وعلى الاخلاق وعلى الصناعة أيضاً وعلى كل شيء وقائل غير هذا غاش أو جاهل ، وما ارتقت الانسانية فى عصر من عصورها ارتقاءها فى عصر الاسلام الاول ، انتهى كلامه بحروفيه . وإذا كان هذا رأيه قد ادعى فيه أنه لا يمكن الماراة فيه وأن قائل خلافه إما غاش أو جاهل لأنه قطعى فهنا يأتى فينقضه من أصله ويتلاعب بعقول الناس فيريد أن يصدقوه فى كل ما شاء من الأفكار المتضادة ، فهذا هذيان وخيال لا يروج ويلتبس الا على من سفه نفسه وهان عليه عقله ودينه

فصل

ولما علم هذا المخذول أنه قد زلت قدمه فيما نقله وتقوه به فى خلق هذا العالم وغيره وعلم أن الناس يستنكرون هذا القول فيرمونه بالكفر والزندقه ، وكان قد تفرس فى كثير من أهل الغباء والجهالة العمياء أنهم سيصدقونه ويغترون بمخادعته متى استدبل بآية أو حديث ، فأراد أن يصدق على هؤلاء ظنه - ذهب يستدل بالآيات ليقال انه يصدق بالقرآن ويحتج به ، وقد صدق على كثير من هؤلاء الاغبياء ظنه فكانوا فى أمر مريب من موقفه والتوقف فى كفره ، وهؤلاء إنما أتوا من حيث بعدهم عن نور الدين وعدم معرفة دين الله الذى اختاره لعباده وعدم عظمتهم وجلالته فى قلوبهم ووجوب تعظيمه واحترامه ، والا فلو قدروه حق قدره وعظموه حق تعظيمه لما توقفوا فى

تكفير من هجم عليه وصنادم نصوصه وأدعى أن عبادة الله التي خلق الخلق لاجلها - وأعظمها الدعاء - ملهاة ومصرف كحديث ، الى غير ذلك مما أشرنا اليه فيما مضى وتأتى بقرينه

ذهب ههنا الملحد كمادته يؤيد ما ذكره من تلك الترهات في خلق السموات والارض وما جرى فيها من الحوادث من أول الدنيا وآخرها بقوله تعالى ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم ﴾ قال بعد سياتى هذه الآية ، فالإنسان حقيقة لم يشهد خلق هذه العوالم الكبرى لالسموية ولا الأرضية ولا لخلق فردة الاول ، لأنه إنما وجد بعد ذلك اذ البيت يوجد قبل الساكن فيه (١) فأنبأ الله بهذه الحقيقة الصحيحة الواضحة ، ولكنه لم يقل ما أعلمهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم بل اختار نفى الاشهاد على نفى الإعلام ، وكأنه إنما أشار بهذا الاختيار الى أن الانسان بمشاركته الفكرية قد يعلم خلق السماوات والارض وخلق نفسه بل وخلق كل شيء (٢) كما علم بذلك سائر العلوم التي علمها والتي صارت حقائق مشهودة غير منظورة ، أما شهوده واشهاد لوجود العوالم التي خلقت قبله فغير ممكن ، والشهود والاشهاد غير العلم والإعلام ، فالاشهاد هنا يراد به الحضور ، ولو أن الله قال ما أعلمهم خلق السموات والارض لنهض أقوام من هنا وهناك يتذعنون في معارف الانسان وينكرونها عليه ويدعون أن القرآن قد أنكرها (٣) فالشهود قد نفى بهذه الآية

والجواب ان يقال أولا : ليس المراد بالضمير في قوله تعالى

(١) هذا غير لازم فقد يوجد الساكن أيضا قبل وجود البيت

(٢) تأمل هذا ، فهو تصریح ظاهر بأن الانسان يعلم خلق كل شيء

(٣) نعم القرآن أنكّر ما ذكرته فإنه ذكر خلق السموات والارض على غير

ما ذكرته

(ما أشهدتهم) جنس الانسان حتى تستدل بالآية على اشهاد الانسان أو عليه بل الضمير عائد الى ابليس وذريته الذين اتخذهم الظالمون أولياء من دون الله ، لأن السياق فيهم ، فالضمير عائد اليهم فان الله تعالى قال ﴿ واذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفستخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ، ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا ﴾ فهذه الضمائر المتسقة كلها في ابليس وذريته ، وهو ظاهر الآية فان الله احتج على المشركين بذلك لكونهم اتخذهم أولياء وهم في الحقيقة عدو لهم فقال ﴿ أفستخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ما أشهدتهم خلق السموات والارض ﴾ أى حتى يكون لهم نوع شبهة في اتخاذهم أولياء فان من يحضره الله أو يشهده خلق السموات والارض فلا بد أن يكون له مكانة جليلة عنده ، ولا بد أن يكون له نوع إعانة اما بالرأى أو غيره ، ولكن الله انفرد بذلك فهو المستحق بأن يتخذ وليا وأن يدعى ويقصد ويعتمد عليه ويتوجه اليه . ثم قال ﴿ وما كنت متخذ المضلين عضدا ﴾ أى ما كنت متخذ ابليس وذريته - فإنهم رموس المضلين - عضدا أى عوناً لى ، بل هو سبحانه الغنى عما سواه الفقير اليه كل ما سواه فلا وجه لاتخاذهم أولياء . وهذا الرجل تبع اسلافه المشركين حيث اتخذ الملاحدة وأمثالهم من الضلال أتباع ابليس أولياء من دون الله ودعا اليهم والى علومهم الكفرية ، ورفض التوجه الى الله والاعتماد عليه ودعاه والاستعانة به فكان له الحظ الوافر من المتابعة والشبه المطابق ، وهذا - أى كون الضمير عائد الى ابليس - هو الذى فهمه جمهور المفسرين ، وحيث فلا حجة له فى الآية لا فى إشهاد ولا فى إعلام ولا غيره ثانياً : لو قدر أن المراد بذلك جنس الانسان فهو قد قال فى آية ﴿ وعلم آدم الاسماء كلها ﴾ : ان من علم الاسماء علم المسميات والا فلا فائدة فى عليه ، فتكيل له بصاعه ونقول : المقصود من الاشهاد الاعلام ، وكل شهود بلا علم

فلا فائدة فيه ، بل قولنا هنا أولى من قوله ، فان الاشهاد بلا اعلام لا فائدة فيه ، لانه كشهود البهائم والمجانين والأطفال ، فالاشهاد الذى بمعنى الرؤية المجردة ليس فيه فائدة البتة ، ويصان كلام الله عن أن يريد بذلك إشهاداً بلا اعلام ، فان هذا هو شهود البهائم واشباهها كما تقدم

ويقال ثالثاً : أنت صادمت الآية نصاً باللفظ ، فصرحت بأنهم شهدوا هذا العالم وأنهم حضروا خلق أنفسهم ، وهذا صريح لفظك المتقدم فصرحت بلفظ الاشهاد لا بلفظ الاعلام ، فدل على أن الاشهاد عندك هو الاعلام فكيف تخالف الى ما نهيت عنه ، فانك قلت « انه راح يولد هذا الوجود ويشهد تكونه وتوالده » ، وذهب يحدث حديث الحاضر الشاهد كيف ولدت مادة الكون ومتى ولدت وكيف ظلت تتفاعل وتتطور الخ ، ثم قلت بعد أسطر « ثم رجع يشهد كل العصور التي مرت بهؤلاء الآباء والأبناء والاحفاد الخ » ، ثم قلت أيضاً بعد قليل « فحضر وجود الانسان ووجود غيره من أنواع الأحياء ، الى آخره فصرحت بلفظ الاشهاد والحضور بأن هؤلاء شهدوا وحضروا خلق هذا العالم وتوالده وخلق أنفسهم . فان قلت مرادى أنهم علموا ، قلنا : اذن اندحرت وهدمت اعتراضك بأن الإشهاد غير الاعلام بانك صرحت بالنص المصادم لنص الآية وألغمت الحجر . ثم استنباطك من الآية اثبات علم الانسان بخلق هذا العالم استنباط ساقط ، فالآية صريحة فى الدلالة على ضد دعواك ، فان الله تعالى لم يقل انى أعلمتهم خلق السموات والارض وخلق أنفسهم وليس فيها ما يشير الى هذا كما أسلفناه فهو استدلال معكوس ، وأيضاً فهذه الامور التي ذكرتها فى خلق السموات والارض أمور غيبية وعلم الغيب عند الله ليس عند احد من الخلق شىء منه الا ما بينه الله تعالى لعباده ، ومثل هذه الأمور لا تعرف صحتها الا بالنص أو البرهان العقلى وكلاهما منتف ، أما النص فقد بين الله سبحانه خلق السموات والارض على خلاف ما تدعيه وليس بينه وبين ما تدعيه أدنى مناسبة ، وأما العقل فان هذه

الأمور التي ذكرها فيها خلاف طويل عريض وكثير من الملاحظة أنفسهم يعارض في هذا ، وليس قبول قول بعضهم بأولى من قبول قول الآخر ، فكيف بعلماء الدين ، فهي أمور مبنية على التخرص والظن ، والظن لا يغني عن الحق شيئا ، وهم معترفون - أي علماء المادة - بأن هذه النظريات ليست بقطعية وكلامهم في هذه الأمور كثير موجود ، وأكثره مخالف لما ذكره ، وقد وصف الله سبحانه خلقه للسموات والارض في كتابه العزيز بأوضح عبارة وأجزلها فمن لم يقبل قلبه ماورد في هذا فلا بد أنه مريض وفيه شيء من الشك والريب ، وإن اذ جاء نهر الله بطل نهر معقل ، قال جل من قائل ﴿ قل أنكم تكفرون بالذي خلق الارض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقوتها في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرا ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ فهذه النصوص الدينية صريحة في مناقضة ماقاله ، ومن المحال أن يجتمع في القلب تصديق ما ادعاه الملهد والتصديق بهذه الآيات فليختر الانسان أيهما فقد تبين الرشد من الغي . وقد يقول من في قلبه مرض عن يريد أن يجمع بين المتضادات ويخلط الحديث بالطيب : لا تنافي بينهما ، لأننا لا نعرف معنى الآيات ، فقد يكون لها احتمالات . فنقول : هذه دسيسة شيطانية . لم أعرف معنى كلام هذا الرجس النجس المعقد وجهات كلام الله الملك القدوس الذي هو في أعلى درجات البلاغة والفصاحة ، إنما الذي حجبك وعم على قلبك هو الشك في تكذيب ما يخالف النص ، فكان هذا الرب هو الذي ران على قلبك في الحيرة فاخذت تتع الخارج البعيدة ، والا فإذا يضرك لو ضربت بكل قول يخالف النص عرض الحائط ، واستسلمت للنصوص استسلاما كاملا ، لأنك تدعى وتعتقد أنك مسلم مصدق لكل ما جاء به الرسول ﷺ ، فكيف تصدقه في كل ما جاء به

واعتقد أنه أعطى من الفصاحة والبلاغة والنصح ما لم يعطه غيره ثم مع هذا تشك فيما أخبر به وهل هذا إلا ضعف في تصديقك والافتقار كان التصديق به والإيمان خالصاً قوياً نقياً للزم وجود مقتضاه وهو الاستسلام الكامل ، ولو حصل منك الاستسلام الكامل لتبين لك نور الدين واليقين الذي لا شك فيه ، وأن كل ما يعارض هذه النصوص الدينية فاسد ، وأنها هي الحق الجلي الذي هو في غاية الصحة كما عرفه الصحابة وأهل القرون المفصلة حيث لم يكن لديهم أدنى شك فيه فكانوا أقوياء أعزة سادة موقنين

فصل

قال الملحد : وأما العلم فقد أثبت بقوله تعالى ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ فالرؤية هنا رؤية العلم ، أو الرؤية البصرية بواسطة العلم . وليس المراد رؤية البصر العادية للأشياء العادية ، لأنهم لم يفقدوا هذه الرؤية حتى يقال أن الله سيريهم إياها ، وآيات الله في الآفاق التي أخبر القرآن أنهم سيرونها هي هذه الكشوف والمخترعات ، أو الآيات الكونية التي يراها الإنسان بوسائله العلمية والتي لو لا هذه الوسائل لما استطاع رؤيتها ، فالجديد هو المرنى ، أو الرؤية هي الجديدة لأمو قديمة ، أو هما معا جديدان المرنىات والرؤيات . ولا بد من القول بأن الآية تشير - أو أن فيها إشارة - إلى العلوم الحديثة وإلى آياتها ، والا لما كان لها معنى مفهوم بيسر . والجواب أن يقال : قد فهمت أن هذا الرجل استدلل بهذه الآية على أن الإنسان يعلم خلق السموات والأرض وخلق نفسه بل وخلق كل شيء كما تقدم كلامه هذا بحروفه ، وأنت ترى أن الآية بينها وبين الدلالة على هذه الدهوى كما بين السماء والأرض ، ولكنه - كما قلنا غير مرة - يريد أن يجعل القرآن دليلاً له على كل ما يشاء ويشتهي ، والله سبحانه وتعالى لم يقل سنعلمهم خلق السموات والأرض وخلق أنفسهم وخلق كل شيء ، بل قال سنريهم آياتنا

في الآفاق وفي أنفسهم ، وليست الرؤية علما بكل حال ، وهذا الملحد مصاب
 بداء التناقض حتى في الجمل القليلة ، فقد سبق قريبا قوله « والاشهاد غير العلم
 والاعلام » وهنا فسر الرؤية بالعلم كما ترى ، ومنع تفسير الاشهاد بالاعلام ،
 فتناقض في ثلاثة أسطر هذا التناقض الفاحش ، فنعكس على هذا المعكوس
 قوله ونقول له كما قال في الاشهاد سواء بسواء ، فانه إن دلت الرؤية على العلم
 سواء أكانت بواسطة البصر أو بدونه فكذلك الاشهاد يدل على العلم ، وقوله
 « وليس المراد رؤية البصر العادية لهذه الاشياء العادية » يقال وكذلك ليس
 المراد بالاشهاد مجرد الرؤية بالبصر العادية للاشياء العادية . ونحن لم نقل أن
 المراد مجرد الرؤية البصرية بدون علم وتفكير حتى يتكلف لهذا النفي ، والآية
 ليس فيها ذكر للسماوات والارض ، بل قال ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق ﴾
 والآيات هي ما يحدثه الله من المظاهر العظيمة الدالة على قدرته وعلى إثبات
 النبوة ونزول القرآن ، لانه قال حتى يتبين لهم أنه الحق والمراد بذلك القرآن ،
 ومعلوم أن هذه الاشياء التي ذكرها في خلق السماوات والارض ليست برهانا
 للحق ، بل هي باطلة فكيف تكون برهانا على صدق القرآن وقريش لم يكونوا
 يعرفونها ، والخطاب موجه اليهم ثم الى من بعدهم ، ثم هي أمور لو قدر صحتها
 فلا يعرفها الا النادر فكيف تكون برهانا على الحق ، أما الكشوفات الحديثة
 فادخالها هنا مغالطة ، فانك قلت على الآية السابقة ان الانسان بمداركة الفكرية
 قد يعلم خلق السماوات والارض وخلق نفسه بل وخلق كل شيء ، ونحن
 ننازحك هنا في هذه الدعوى العريضة ، اما الكشوفات فهي مسألة أخرى
 وليس بينها وبين هذه تلازم ، وليست الكشوفات الغلبية هي خلق السماوات
 والارض وخلق الأنفس وخلق كل شيء ، بل الكشوفات اخص من ذلك فلا
 معنى للمغالطة بها ، ولا شك أنها من آيات الله التي ظهرت أخيرا في الآفاق
 وفي الأنفس ، لكن ليس كل ما ادعى أنه من الكشوفات الغلبية يجب التسليم
 له بمجرد الدعوى حتى يعلم تحققه ، وخلق السماوات والارض على الصفة التي

مذكرها لا يصح أن يكون داخلا في ذلك فهو لم يقم عليه دليلا ، مع كونه من علم الغيب ، وقد علمت أن استشهاده بهذه الآية باطل . ثم الكشوفات المحققة اذا كانت داخلة في هذه الآية فهي حجة عليه ، لان الله يقول ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ وهذا جعلها دليلا على تعميق الحق وطمسه واخفائه ، ولم يجعلها دليلا على بيانه . ولو أنه ممن هدى ورشد لاستدل بها على ثبوت النبوة ونزول القرآن واشتماله على خيرى الدنيا والآخرة ، ولاستدل بها أيضا على محاسن الاسلام ولم يستدل بها على تشويه والدعاية الى خلعه ونبذه . ومن العجب أنه كلما توسع الاحاد والكفر ازداد ظهور الآيات في الآفاق وفي الأنفس ليكون ذلك دليلا على صحة الدين ، ومع هذا عكس الملاحظة هذه النظرية وجعلوا ظهور هذه الكشوفات والآيات في الآفاق وفي الأنفس دليلا على ضد الحق من الاحاد ورفض الأدیان والاغلال منها

وقوله : « ولا بد من أنها تشير - أو ان فيها إشارة - الى العلوم الحديثة والى آياتها والا لما كان لها معنى مفهوم يسر ، فيقال : أما أن فيها إشارة الى ما ذكرته في خلق السموات والارض فباطل ، فليس فيها إشارة الى ذلك البتة ، وأما الكشوفات الحديثة فقد بينا أنها خارجة عن محل النزاع فلا حجة لك فيها . والآية قد نزلت قبل هذه الكشوفات ، وقد فسرهما العلماء وفهموا معناها ولم يكن ذلك بعبير عليهم ، ولم تنزل الآيات الدالة على أن القرآن حق تترى وتتجدد في كل زمان ومكان منذ بعث النبي ﷺ الى هذا الوقت ، ولا شك أن الفتوحات العظيمة التي ظهرت في زمانه عليه الصلاة والسلام وزمان خلفائه من أعظم الآيات في الآفاق وفي الأنفس ، وقد حدث انشقاق القمر وهو من أعظم آيات الله في الآفاق ، وآيات الله في الآفاق غير هذه الكشوفات من الامور الكونية لا يحصى عددها الى الله سبحانه وتعالى ثم قال : « وأما الآيات في الأنفس فهي الحقائق النفسية التي اكتشفها

العلم، وهي أيضا الحقائق التكوينية والتشريحية والمبتكرات العلمية التي انفجرت عنها النفس البشرية وكل ما يتصل بالحياة الانسانية مما كشف عنه العلم وأعان عليه وعالم يعلم الا أخيرا،

فيقال : كل هذا أيضا لا يصح دليلا على ما ذكرته في خلق السموات والارض وخلق الانسان وخلق كل شيء، فعنى الآية الذى هو ظاهر مفهوم منها كما فهمه المفسرون يرجع الى أن الله سيربهم آياته في الانفس من الابتلاء والامتحان كما قال تعالى ﴿ ولقد ارسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ﴾ وقال تعالى ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ﴾ فهو سبحانه يتلى عباده أولا بالبأساء والضراء لكي يرجعوا اليه فيتوبوا ، فمن رجع وتاب هدى وإلا ضرب على قلبه الطبع والاقفال والحتم ، وقد يكون معنى قوله تعالى ﴿ وفي انفسهم ﴾ بمعنى قوله تعالى ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ وقد تقدم الكلام عليها ولا تنافي بين القولين فكلاهما حق ، فان الآيات تشمل هذا وهذا ، فإذكره على الآية تعسف بارد ، وهو لا يفيد شيئا ، فإنا لا ننكر تكوين الانسان وتشيحيه ومبتكرات عليه وتطور علومه ومعارفه الصناعية ونحوها فان هذا كله حق ، وهو قد تناقض فيه ، انما الشأن في تفصيل ذلك والحاقه بما ليس منه

وفصل

ثم انه هجم على القرون المفضلة الذين رفعوا راية الاسلام وأبلوا بلاء حسنا في نصره وعزه حتى فتح الله لهم مشارق الارض ومغاربها ، فرماهم طالحيل والبلادة والغباء وعدم العلم ، وادعى أنهم لا يعرفون شيئا من الحقائق بل كانت رؤيتهم ناقصة فلا يبعدون كثيرا عن طور الحيوانية ، وانما معرفة الحقائق عند هؤلاء المتأخرين من الملاحدة وأمثالهم ، وقد أطل في الخط

التدريج على القرون المفضلة ومن في عصرهم ، فبينما نراه يشهد الرافضة ويتوعدهم بالويل والثبور ، اذا هو منقلب معهم بل زاد عليهم في الحبس والشنآن ، وكأنه يريد أن يمنح كل قرن وطبقة من هذه الامة نصيبها مما اشتمل عليه من العداوة المنكرة والغيط الذي لم يسبقه أحد الى جنسه

فقال « ووصل الانسان وقت نزول القرآن الى طور معين في التدرج نحو الحياة ، ونحو الرشد العقلي ، وكان هذا التطور لا يعدو النظرة السطحية ، والالمام بظواهر الاشياء دون النفوذ الى باطنها ، فكان يرى رؤية قد يضبطها الاستقرار بعض الضبط ، وقد تغفلت من كل ضبط وهو الاكثر الأغلب ، فكانت أحكامه على الأمور وكانت علومه مبنية كلها على هذا الإلمام الظاهري الصادر عن الرؤية الناقصة . وكانت هذه المرحلة من وجود الانسان بمثابة النهاية أو القرب من النهاية لطور لا يبعد جدا عن الطور الحيواني الذي كانت وسائل ادراكه تنحصر في الحواس الخبيطة المجردة ^(١) مع شيء غير كثير من التفكير الصادق والخيال الذي له بعض القيمة ، فأنزل الله في كتابه متحدئا عن هذا الطور قوله تعالى ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ﴾ فعلمهم كلها كانت ظاهرة يرون الظواهر الطبيعية والفلكية والنفسية والاجتماعية وسواها ، ولكن لا يدرون لماذا هي ولا ما هي ، ولا يدرون ما الأسباب وما أسباب الأسباب ^(٢) يرون الشمس والقمر وغيرها معلقة في الفضاء متحركة ذاهبة آتية دائرة سائرة بنظام ومواعيد لا تختلف ولا تتخلف ويرونها تبعث بالحرارة والاشعة ولكن لا يدرون لماذا ولا كيف هذا ، بل

(١) هذا تصريح ظاهر بأن من كان في زمن الرسول من الصحابة وغيرهم لا يبعدون في اخلاقهم وآرائهم عن الحيوانات العجم ، فعلى هذا فهو لاء لا يبعدون عن الوصول الى طور الملكة لان قاعدته في التطور تقتضي هذا

(٢) وهل انت عرفت ان ذن فالك لم تبينها ولم تشرحها ليتفهم بها

لعلهم ما كانوا يفكرون في هذه الظواهر والمشاهدات لماذا لاتقع علينا وعلى الارض ، ما الذى يسببها ويمنعها من الوقوع ، ما الذى يديرها ويحركها ويضبط مواعيد غيابها وطلوعها ، ما الذى يمدّها بهذه الانوار والحرارة التى لاتنفد ، كل هذا لا أسئلة له عند هؤلاء ، وان سألوا فلا أجوبة صحيحة (١) وكل ما يمكن أن يقولوا في هذا أو كل ما يمكن أن يفهموا ان الإله (٢) أو الآلهة هى التى تفعل ذلك أو انها أى الشمس والكواكب هى التى تفعله بنفسها (٣) لأنها آلهة أو لأنها كائنة حية متحركة بالارادة والاختيار ، اذ قد ظل الانسان أحقادا متهادية فى الطول يعتقد أن كل متحرك إما اله وإما حى عاقل ، فكانت الكواكب المتحركة الطالعة الغائبة على حسب ما يرى آلهة فى أزمان عند أقوام وأحياء فى أزمان أخرى عند اقوام آخرين (٤) والطفل كما قلنا غير مرة يعطينا أبدا صورة كاملة لأولئك الأسلاف الماضين ، والاطفال حتى اليوم اذا رأوا شيئا يتحرك ويسير حسب حيوه وحسبوا حركته وسيره بارادته وقصده مثل ما يصنعون هم ، ولا تزال بقايا هذه الانسانية الظاهرية السطحية موجودة ، وكانت الانسانية منذ وجدت ترى التفاحة تسقط على الارض وترى كل مارأى مكتشف قانون الجاذبية ، ولكنها لم تستطع أن تفتن الى ما فطن اليه (نيوتن) فى هذه المسئلة ، وكانت ترى كل مارآه

(١) نحن نسألك عن هذه فما هو جوابك عليها ، وكان من الواجب عليك أن تجيب عنها لانك المقدم فى الامر فيجب أن ترشد الناس

(٢) هذا الجواب لا يكفى عنده بأن الله هو الذى يديرها ولهذا قرنه بالآلهة فلم يفرق بين الله والأوثان

(٣) اذا كانت هى لاتفعله بنفسها وان الله لايفعل ذلك بها والآلهة فلماذا تحركت مع أنه قرر فى مواضع بأن العلم هو الذى يحكم نفسه بنفسه

(٤) كل هذا كذب لاصحة له فأين الدليل عليه

مكتشفو قوة البخار والكهرباء وجميع المكتشفات والمخترعات التي قلبت حياة الإنسان (١) غير انها كانت عاجزة عن أن ترى غير الظواهر وغير ما يرى الأطفال من مظاهر الأشياء ، وهكذا كانوا أمام جميع مظاهر الكون ، وكانوا أيضا يعلمون فتك الأمراض بالأبدان ويعلمون أعراضها ويعلمون أنها تورد موارد العطب ويعلمون شيئا كثيرا من أنواعها على حسب اختلاف أعراضها ولكنهم كانوا جميعا جاهلين بأسبابها ، جاهلين بما وراء الأعراض ، فلا يدرون من عوالم السكروبات شيئا ، فهم لذلك لا يسدرون من وسائل مقاومتها شيئا أيضا ، فكانت هذه الجيوش الخفية القوية تغزوهم فيصرون وقعاتها وفعلاتها لأنها ظاهرة ولا يبصرونها هي لأنها من عالم الحقائق المستورة خلف الظاهر ، فكانت دائما منتصرة عليهم وكانوا أبدا مهزومين أمامها بدون قتال (٢) . وكانوا أيضا يرون كل الظواهر التي تؤيد قانون الوراثة وتشرحه ، والتي تدل على ما كان عليه الإنسان الأول من أخلاق وطبائع وحشية ، والتي تعطى مباحث علم النفس ماشاء من مواد لبثائه وتشبيته ووضع حدوده ، غير أنهم لبثوا أمام هذه الحقائق والظواهر شاخصين بأبصارهم كما يشخص الأطفال إلى القمر ، يرونه كل ليلة يحى ويذهب ويرونه يصغر ويكبر ويحي ويموت ويغمرهم بضياءه الباهر وهم في بيوتهم ومخادعهم ثم لم يفهموا من هذا شيئا سوى هذه المرأتى « انتهى

والجواب أن يقال : هذا رأى هذا الرجل في السلف الصالح والقرون المفضلة وجميع من في عهد نزول القرآن لافرق بين مسلم وكافر ، واكثر هذه الأمور التي ذكرها في مسائل نظرية رياضية وما يتعلق بها ، وقد قرر فيما مضى

(١) وقلبت قلبك ودماغك ودينك أيضا

(٢) ما يزال يكرر مسألة هذا المرض لأنه لم يجد شيئا جديدا عرفوه أكبر منها

وقد بينا ما في ذلك فيما سلف

أن هذه الأمور يشترك في حلها الكافر والمسلم سواء ، فهؤلاء جميعاً عندهم كالأطفال المساكين لا يعلمون شيئاً إلا هذه الظواهر ، فهم في غاية الغباء والتغفل ولهذا صرح بأنهم لا يبعدون جداً عن الطور الحيواني ، فهم قريبون جداً من طور الكلاب والحمر والخنازير والقردة وما أشبه ذلك ، فإذا كانت هذه حالهم وقت نزول القرآن فكيف بحال من في وقت الخليل عليه السلام ، فكيف بوقت نوح عليه السلام ، فكيف بمن هو قريب من عهد آدم ، فلا تسأل عن حال أولئك وصرح كلامه يقتضى أن هؤلاء كلهم كالحيوان وإذا كان ناموس التطور عنده لم يخرج الإنسانية عن طور الحيوان حتى وقت نزول القرآن فحال أولئك كحال أدنى الحيوان . وقد تقدم له نحو هذا . ولا ندرى لماذا أنزل الله عليهم الكتب السابقة والرسل دون الحيوانات . وإذا كان هو قد أقر بأن هؤلاء الذين في وقت نزول القرآن قد وصلوا إلى هذه المرحلة الإنسانية فقد أخبر تعالى صريحاً في القرآن أن من كان قبلهم كانوا أشد منهم قوة وآثارا في الأرض وأنهم عمروها أكثر مما عمروها ، وأنهم أحسن منهم أثاثاً ورتباً ، وإنهم خاطبوا برسلمهم وردوا عليهم كارد هؤلاء على رسولهم ، وفعلوا في معارضتهم كما فعل هؤلاء ، كما قال تعالى ﴿ ما يقال لك إلا كما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ وقال تعالى ﴿ كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقهم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا ﴾ الآية ، بل ربما أن الأولين أعز نفوساً وأقوى مناعة وأصح فكرة من الآخرين الذين عارضوا الرسل ، فإن لوطاً عليه السلام قال لقومه ﴿ أنا أتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ فدل على أن الأولين الذين كانوا قبلهم لم يصل بهم فساد الأخلاق والتدلى فيها إلى هذه الدرجة النهائية من الخبث والشناعة ، وجميع كلام هذا الملحد هنا يصادم النصوص هضامة ظاهرة ، ونحن نعلم أن مقصوده من هذا الهذيان هو ما يحوم حوله من تأسيس كراهة كل قديم ، وتركيز عقيدة التطور في كل شيء .

في أذهان الناس ليحصل له ما يريد من كراهة السلف ورفض آرائهم واعتقادهم
لأن أولئك الجماعات الذين ذكر أقوالهم حصروا المجد في الأخذ بالاخلاق
الدينية السلفية فهذا عاكسهم وأطال فيما يناقض هذا الأصل ، فكان غرضه
وهدفه الذي يرمى إليه هو سب كل قديم يدعى أن أهله على غاية الانحطاط
والجهل والغباء ، وقد طرد هذا الأصل حتى ادعى أن هؤلاء المستعمرين بخير
من الصحابة كما تقدم كلام السيد قطب ، وهو كثيرا ما يتفوه بهذا عنده من
يجمع به وبباحته في ذلك ، وإن الذي يريد يكون كالحنزيير الذي يتبع
النجاسات بشغف زائد ويعرض عن الطيبات ولا يريد لها وينفر منها ، فعند
هذا الملحد أن آباءنا الأولين على اختلاف أجناسهم إنما تمتعوا بهذه الدنيا كما
تمتع الاطفال ، بل كما تتمتع شائر البهائم من الخمر وغيرها ، ولهذا صرح بأن
الطفل يعطى أبدا صورة كاملة لأولئك الاسلاف الماضين ، ثم لم يكفه ذلك
حتى قال والاطفال حتى اليوم اذا رأوا شيئا يتحرك ويسير حسبوه حيا وحسبوا
حركته وسيره بارادته ، فالاسلاف الأولون - على ما ذكر سابقا في تشبيههم
بالاطفال - اذا رأوا حبلًا يسحبه أحد حسبوه حية وهربوا منه واذا رأوا
جلدا كاملا تستاقه الرياح هربوا منه ، واذا رأوا حيوانا ميتا تحركه الريح
حسبوه حيا فلا يميزون بين الحي والميت كما لا يميزون بين الجماد وغيره بل هم
أجهل من الاطفال فان الاطفال لا يفعلون هذا كله فهم دائما يهربون من كل
ما يتحرك - فلا تسأل عن حالتهم أيام كثرة الرياح فان أكثر الأشياء تتراقص
وتتحرك فلعلمهم كانوا اذن يمججون موجا فلا يستقرون أيام الرياح ولا
يهدأون أبدا وقل أن يمر يوم ما فيه رياح ، فعلى هذا تكون حالتهم أحط من
حالة البهائم والحشرات فانها تهدأ غالبا في أوقات الرياح في جحورها ومساكنها
بل ولا تهرب من كل متحرك مع أنه ادعى أنهم يهربون من كل شيء يجهلونه
كما تقدم ، لقد صدق الله العظيم فيما أخبر عن هؤلاء المعرضين عن الدين في
قوله تعالى ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ بِسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ

بل هم أضل سبيلا)

وهنا مشكلة وقع فيها من حيث لا يشعر ، وهي أنه قرر في كلامه الماضي أن الانسان إذ ذاك يتأخص في شيئين : في الجهل المطلق ، وفي عبادة كل شيء متقلب مضطرب ، هذا كلامه بحروفه ، فالانسان الأول جاهل مطلقا وعابد لكل شيء مضطرب ، ثم شبهه بالطفل حيث قال ان أصدق صورة ترسم للانسان في ذلك العهد هو الطفل من حيث العرى من كل لباس على وبدنى ، وكذلك قال هنا ان الطفل - كما قلنا غير مرة - يعطينا أبدا صورة كاملة لأولئك الأسلاف الماضين الخ ، فالمشكلة هي أنه ادعى أن الانسان الأول جاهل مطلقا وأنه عابد لكل متحرك مضطرب ، ثم شبهه بالطفل وجعل الطفل يعطى صورة كاملة عنه فشبهه تشبيها مطابقا بزعمه ، ومعلوم عند ادنى عاقل أن الطفل لا يعبد كل شيء ، بل لا يعبد شيئا مطلقا ، فانتقض تشبيهه وانهدمت دعواه من أصلها وهي التي يدور عليها وقد اطال تكرارها لأنه لم يطابق التشبيه وتناقض تناقضا فاحشا بينا ، فيطالب أولا ببيان السبب الذي اختص به الأولون بعبادة كل شيء لأن العبادة هذه كانت فارقة بينهم وبين الأطفال لكن مقصوده بدعوى العبادة في الأولين وقرنها بالجهل المطلق محاولة إبطال العبادة ليقول انها من أخلاق الجاهلاء الأولين ، ولكن يقال هذا حجة عليك لانك أولا تناقضت وشبهتهم بالأطفال والاطفال لا يعبدون شيئا ، وثانيا أنها تدل على عكس ما تريده ، وذلك أن العبادة تدل على العلم لان خلوها من الاطفال الذين هم في غاية الجهالة وملازماتها للعقلاء والعلماء تدل على أنها من لوازم العلم والعقل ، أما عبادات المشركين فانهم لما كانت عقولهم فاسدة كانت عباداتهم كذلك لأن أكثرها تقاليد على أديان محرفة قد دخلتها الأغراض والآهواء والبغي فأفسدتها ، ولهذا كان أكثر أهل الحضارة في القرون الوسطى وقبلها وبعدها متدينين ، بخلاف البعيدين عن الحضارة كالأمم المتوحشة والبعيدين عن الكتب السماوية فانهم اباحية لا يعبدون شيئا كالاطفال فكانوا منحطين

في جميع عصورهم ، فظهر من هذا أن التمثيل الذي ذكره في الطفل جاء على عكس مراده ، وهو أن الملمحد أشبه شيء بالطفل الذي قرر أن الأولين أشبه شيء به ونسبهم الى غاية الجهل ، فان الطفل لا يعبد شيئا ويرى أن الاشياء الحية المتحركة أنها تتحرك لذاتها وطبيعتها وأنها كاملة لذاتها فهو أعظم الناس إيمانا بالأسباب لأنه يؤمن بها ايمانا صادقا بدون أن تتعلق بمشيئة خارجة عنها فيرى فيها الكفاءة الذاتية ، ولهذا فانه يطلب كل ما يشاؤه ويشتهي من والديه لأنه يرى فيها القدرة على كل شيء ولا يقبل أى عذر منهما مهما كان ، ولهذا فانه يؤكد تأكيده لا مزيد عليه بشدة صراحة تحصيل مراده لأنه يعلم أن الوسيلة الوحيدة لتحصيل حاجته هو الحث المتواصل والتأكيده عليهما بذلك ، ويرى أنها إن لم يقضيا حاجته فهما لم يجتهدا في العمل ، وقد عرف أنها يستأن من بكائه لمحبتهما اياه فيعطياناه حاجته ، فالملمحد والطفل قرينان في كل شيء ان لم يكن الطفل أحسن حالا ، فان الطفل لا يرى العبادات ولا يفهمها ويفهم سرها في التقدم والتأخر لان عقله ناقص وكذلك الملمحد ، والطفل لا يهيمه الا ما يوافق شهوته وطبعه وكذلك الملمحد ، والطفل يرى المخلوق يقدر على كل شيء ويعلم كل شيء وكذلك الملمحد ، والطفل يرى كشف السوءة والاباحية المطلقة وكذلك الملمحد ، والطفل لا يفرق بين الرجل والمرأة في شيء من الحقوق إلا في الصورة الظاهرة الجسمية كالتدين والشعور ونحوها وكذلك الملمحد ، والطفل لا تهمة الخطب ولا الاجتماع لها ولا يراها شيئا مفيدا فلا يعرف منافعتها بل يقف متعجبا ضاحكا اذا رأى خطيبا ومصلين وكذلك الملمحد ، والطفل اذا نابه شيء التفت الى الأسباب المادية واعتمد عليها ورأى فيها الكفاية ولهذا يبذل غاية جهده في تصريفها في غرضه وكذلك الملمحد ، والطفل يرى أن لا شيء موجود وراء المادة المحسوسة يلجأ اليه في كشف الكروب ويدعى ويستعان به وأن الأمور كلها بيديه وكذلك الملمحد ، والطفل يرى الأشياء الحادثة الغريبة الجديدة فتذهب بعقله وتطير بلبه فيتبعها

ويعشقها ويتعلق عليها ويترك ما وآه من كل ما هو قبلها ولو كان أنفع الله وكذلك الملاحد ، والطفل يكره القداحى فلا ينظر الى الشيوخ والكهول فلا يراهم شيئا كبيرا ويخاف من جنسه ومن مثله ويجعلهم أعظم همه فيكره الكهول من أجل أنهم قداحى ويتعلق على الصغار لأنهم من جنسه وكذلك الملاحد ، والطفل يزوج عليه الخداع والنفاق والمراوغة ولا يعرف الحقائق ومقاصد الكلام وكذلك الملاحد ، وبالجمله فأصدق صورة ترسم للملاحد هو الطفل أو الحيوان ، أما المتدين فهو بعكس ذلك كله ، ولهذا لا تجد المتدين يشبه شيئا من الحيوان والاطفال فى خصائصهم حتى فى الأكل والشرب وغير ذلك كالتمخلى والنكاح ، فإن معه فارقا فى هذا كالصوم والوضوء والتزويج ، أما الطفل والملاحد وسائر الحيوانات فليسوا كذلك ، فالدين هو الحد الفاصل بين الطفل والحيوان ، والعقل ان لم يصحبه الدين فسد فلا يعتد به كما نص عليه القرآن ، وبعدم وجود الدين مع الانسان ينحط الى طور الطفولية ويرجع الى الوراء حتى يكون كالحيوان ، وعلومه الدنيوية ان كان الغرض منها الوصول الى الراحة والهدوء ورغد العيش فهذا قد يتحصل عليه الطفل المدلل المكفول فى الجملة كما يتحصل على ذلك الملاحد فى الجملة ^(١) وأما السيطرة ان وجدت فقد شاركة فيها كثير من الحيوانات العادية المسيطرة على الحيوانات التى دونها ، ثم ان أكثر هذه الأمور ليست لذات لذاتها بل هى دفع آلام الحاجة والهموم والغموم ، وقل ملحد أن يسلم من ذلك ، بل كل وقته منغص مهدد معذب ، وهذا بخلاف علوم الدين وما يتبعها من علوم الدنيا من صناعات أو غيرها المؤسسة على الدين فإنها دفع آلام ولذات محققة لأنها تتصل بالروح والنفس ، وهى علوم سماوية مقدسة تزكى الروح وتقويها وتقدهسها وهى تبقى مستمرة لا يشوبها شيء من الخوف والوجل المفسد لجميع اللذات

(١) أى لافى الافراد فى كل من الطفل والملاحد

وبهذا يتبين لك أن الملاحدة هم الذين يرجعون الى الوراثة دائماً في أخلاقهم السيئة ، وأن المتدينين هم المخلقون في سماء التألق كل بقدر ما معه من الدين ، فهم المتقدمون الى الامام في أخلاقهم وآرائهم وعلومهم وفي كل شيء وأن تقدم الملاحدة عليهم أحيانا كارتفاع الزبد وأمثال الزبد على الماء ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾ . وكل ذى عقل يعلم أن هؤلاء الرجعيين الملاحدة الذين يدعون أنهم هم المجددون أبعد الناس عن التجديد الصحيح ، بل هم المجددون لأخلاق الحيوان والفساد والسقوط ، وأنت اذا تأملت كل خصلة خبيثة في الاولين الذين قص الله علينا أقوالهم وأعمالهم من ذمهم الله عليها وجدتها كلها بأسرها في الملاحدة الرجعيين ، وهذا صحيح لا غبار عليه ، فان الموبقات التي من أخلاق الاولين لا أكثر منها في الملاحدة ، والاولون قالوا في الكتب السماوية « هي أساطير الاولين » وهكذا قال هؤلاء الملاحدة ، والاولون قالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وكذلك الملاحدة ، والاولون قالوا لرسلم اننا لفي شك مما تدعونا اليه مريب وكذلك قال الملاحدة ، والاولون اعتمدوا على الأسباب وادعوا أن فيها قدرة ذاتية وان فيهم كفاءة على قتال أعدائهم ولو كانوا مؤمنين فقاتلوهم وحاربوهم اعتمادا على أسبابهم وعلى أنفسهم وكذلك الملاحدة ، والاولون أعظم حجة عندهم على رد الحق ورد تعاليم الدين هو شيء واحد هي الحجة بان الكفار أكثر من المؤمنين وأغنى منهم وأوسع منهم ثراء في التجارة والصناعة وغيرها ، وهذه هي أكبر حجة للملاحدة اليوم ، ولهذا قال الله تعالى عن الاولين ﴿ واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا الذين آمنوا أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ﴾ فأخبر الله أنهم يعرضون عن الآيات التي فيها بيان الحقائق ويذهبون الى شيء آخر وهي الأوهام التي هي الاحتجاج بالتقدم والتأخر بأشياء مادية ، مع أن هذه الامور ليست بحجة لأنها شيء مقصود لغيره ، والناس فيها في الجملة سواء .

وكثيرا ما يكون الانسان فقيرا بعد أن كان غنيا وبالعكس ، وكذلك يكون
صعلوكا بعد أن كان كبيرا ، ولو كانت حقائق ثابتة لم تتغير ، وإنما ذلك في
آيات الله التي جعلها أسبابا للخير والنجاح التام فإن أسباب الخير المطبوعة
أسبابا له لا بد أن تكون أسبابا للخير لأنها سنة الله وتلك هي الأخلاق الدينية
كالدعاء فإن هذه أسباب - من أول الدنيا الى آخرها - لكل فلاح ونجاح فلا
توجد أمة حافظت عليها الا كانت محتفظة بسيادتها ، فاذا أفسدها وغيرتها
فسدت سيادتها وتغيرت ، وأما الأسباب المادية فهي اذا لم تصحبها الأسباب
الدينية عادت نكبة وبلاء إما عاجلا وإما آجلا ولا بد ، ولهذا لا توجد أمة
ملحدة عاشت على الاتحاد ما يقارب ستين سنة مقدار عمر الانسان المتوسط
ولم تحل بها نكبات وكوارث ، وهذا ظاهر ، وبالجملة فجميع هذا الفساد الموجود
في ملاحظة هذا العصر هو خليط من فساد الأولين بعينه فجميع فساد الأولين
المتنوع المختلف كله الآن مجتمع في الملاحظة الموجودين الآن وهذا ظاهر لا
يغالب فيه الامكابر

والمقصود أن جميع الصفات التي أسهب في تطويلها وترديدتها في الأطفال
والجهلاء محاولا الصاقها بالمتدينين ولا سيما السلف الصالح قد اتصف بها هو
وسادته ومن على شاكلته من أصناف الملاحدة وأنه كما قيل في المثل المتقدم
« رمتني بدائها وانسلت » ثم العجب من استدلاله بقوله تعالى ﴿ يعلمون ظاهرا
من الحياة الدنيا ﴾ ثم حملها على القرون المفضلة الموجودة وقت نزول القرآن ،
وهذا الملحد إنما حمل على هذه القصة أنه رأى كثيرا من الناس حتى العامة
يحتجون بهذه الآية على الملاحدة في معرفتهم هذه الامور فأراد بعقله المعكوس
أن يعاكسهم في مدلولها فجعل هذا الملحد خير القرون وأرفعهم وأشجعهم
وأفقههم أعمالا ما كانوا يعرفون الا ظاهرا من الحياة الدنيا ، أما حقائق هذه
الظواهر فلا يعرفها الا سادته أما سادات المسلمين فلا يعرفون من هذه
الحقائق شيئا ، ومن عمق خبثه وإلحاده أنه فصل ما أمر الله به أن يوصل

كعادته ، ولم يأت بالآية كما أمر الله لأنه خشى أن يفتضح لأنها في الملاحظة الذين هم عن الآخرة هم غافلون فإن الله تعالى يقول ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ فالآية صريحة بأن المراد بها الكفكار لأنهم هم الغافلون عن الآخرة ، فانظر الى صنيع هذا الملاحد كيف قلب هذه الآية السكرية ، وكتابه كله على هذا الوضع ، فانه مقلوب الحقائق لأنه صادر عن قلب منقلب ، والا فادنى عاقل يعرف أن الآية دالة على الملاحظة فانهم لا أغفل منهم عن الآخرة ، وصاحب هذه الأغلال كل موضوع دعائه في ما ينسى ويغفل عن الآخرة ويصد عن العمل لها ، بل جعل الايمان بها من العوامل التي تعوق عن التقدم . ومعلوم أيضا عند كل عاقل أن هذا الذي علوه كله ظاهر من الحياة الدنيا ، فانه كله أشياء تدرك بالحواس الظاهرة اما بواسطة أو بغير واسطة فهو ظاهر بكل حال ، فالشيء الذي يدرك وتعرف حقيقته بالحواس ظاهر ليس بباطن ولا خفي ، فالظهور والبطون أمر نسبي إضافي ، فقد يكون الشيء ظاهرا عند قوم وباطنا عنه آخرين ، وذلك بحسب العلوم والادراكات والعلامات والامارات ونحوها ، وهذه الأمور التي عرفوها كلها مدركة إدا زكا ظاهريا حتى أنهم لا يؤمنون الا بالظواهر ، وأمورهم كلها مبنية على الظواهر ، ولهذا كان أكثرهم يكفر بالملكه والأرواح وكل ما لم يكن ظاهرا لهم ، فهم يؤمنون بالظواهر من الماداة كلها ويكفرون بما وراءها ، ومعلوم أن الماداة كلها بانواعها أشياء ظاهرة محققة بالحواس ، فالآية حجة صريحة عليه وعلى ساداته الذين اتخذهم أولياء من دون المؤمنين ، عامله الله بعدله

فكان كعز السوء قامت بظلفها الى مدية تحت التراب تثيرها
أما ما ذكره في مسئلة الأمراض والميكروسكوبات فقد تقدم الجواب عنه
وبينا أن هذه الأشياء قد صارت ظاهرة تدرك بالحواس ، وانما كانت محتفية بعوارض وقد زالت ، أما الأمور التي ليست بظواهر كالأرواح فانها لما كانت

من الأمور الخفية وهي موجودة قريبة عجوزوا عن معرفتها وأمثالها ، وأما
الاجسام فإنها ظواهر سواء كانت صغارا أو كبارا ، على أن في مسئلة هذه
الجرائم التي كشفت بالميكروسكوبات تفصيلا لسنا بصدد شرحه ، وغاية ما في
ذلك أن الأولين جهلوا شيئا موجودا خفيا وهذا ليس بما يقدر في علومهم
فقد علموا ما هو أنفع منه وهؤلاء قد جهلوا أشياء كثيرة نافعة لهم ، وقد
خفي عليهم الآن أكثر مما علموا فجهلوا أشياء موجودة سيظهر وجودها بعد ،
فإننا نرى كل سنة بل كل شهر يكشف عن أشياء لم تكن معلومة من قبل ،
وهذه الأشياء التي وجدت شيئا بعد شيء كلها قد خفيت على كل من لا يعلمها
ويراها ، فليس الجهل ببعض الأشياء الخفية من خصائص الانسان الموجود
وقت نزول القرآن حتى يعاب بذلك ، هذا لا يقوله من يدري ما يقول ، ثم
ان جهل هذه الأمور وعدم المعرفة بها أحسن من المعرفة بأسباب الهلاك
والدمار العام كالطاقة الذرية وما يقاربها ، فان المضرة التي تحصل من هذه
على الانسانية أعظم من مضرة ذلك المرض ، وأيضا هؤلاء الذين جهلوا هذه
الأمور قد عرفوا ما هو خير منها حالا ومآلا ، فإنهم عرفوا أصول الدين
وحقائقه النافعة فتسلحوا بهذا العلم ففتحوا به الفتوحات وسادوا به على غيرهم
ونشروا العدل وأخرجوا الناس من الظلمات الى النور حتى ظهر نور الحق
لكل صغير وكبير وفي كل مكان قريب وبعيد ، بخلاف هذه الأشياء فان أهلها
جهلوا ما هو أهم منها من الأمور الدينية فحلت بهم المثلثات وحاقت بهم النكبات
وصاروا من محنة الى محنة ، وقد عملوا أيضا ما يقابلها من أسباب الأسقام
والأمراض والغازات السامة والقنابل الذرية والأسلحة المدمرة ، فما عملوا مع
الانسانية من أسباب الخير والراحة والهدوء إلا مثل ما هيأوه لها من الشر
 وأنواع البلاء والحن ، ولقد كان معلوما أن كثيرا من هذه الدول قد عرفت
هذه الأمور معرفة فائقة لا يمكن الماراة فيها ، فإذا عملت في نفهم حين جاءهم
أسباب أخرى غير ها ، فقد ماتوا في الطرق بأنواع الأمراض والأسقام

والجوع والعري وغير ذلك ، فضلا عما أصابهم من صدمات الحرب وهيب نارها ، ولو أنهم عرفوا أمور الدين الصحيح كمعرفتهم لهذه الأمور لكان ضمينا لهم عن الوقوع فيما وقعوا فيه بلا ريب ، فعاقبة الأخلاق الدينية لا بد أن تكون حميدة ، ولهذا فانه لا تعرف أبدا أمة حافظت على دينها محافظة تامة ولم تغيره . فبالها ضعف أو نكبة فظيعة ، والشأن كل الشأن في العلوم التي تكون نتائجها طيبة صحيحة نافعة وعاقبتها حميدة ، أما العلوم التي نتائجها الوبال والعذاب والدمار الفظيع فلا خير فيها ، وإن نفعت حيناً من الدهر فهو نفع تافه حقير بالنسبة الى ما بعده ، قال تعالى ﴿ أفأريت إن متعنهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ، ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾ وقال تعالى ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ، إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهر أنفسهم وهم كافرون ﴾ . أما ما ادعاه من كون الاولين يرون الشمس والقمر وغيرهما من النجوم كما يرى الأطفال هذه الأشياء فهذا من كذب الجهال الذين لا يحسنون أن يكذبوا ولا يستحيون من ارتكاب المكابرات المخالفة للبيان والحس ، ويكفيك دليلا على كذبه أنه قد ثبت ثبوتا لا مرية فيه أن خسوف الشمس وكسوف القمر قد عرف أسبابه الاولون وقد عرفوا نقص نور القمر بل قد عرفوا أوقات الكسوف والخسوف معرفة دقيقة بالتقريب حتى نسب هذا الى ارسطو وأتباعه ، وهم قبل نزول القرآن بل قبل المسيح بمئات السنين (١) فكيف يقال انهم ينظرون الى القمر كما ينظر الأطفال ، والمسلمون في صدر الاسلام لم يكونوا يصرفون همهم الى هذه الأمور القليلة الفوائد ، بل جل همهم في نشر الاسلام وبث روحه في العالم وتثبيت قواعد الدين ، وهذه هي الأمور الكبيرة التي يجب الاهتمام لها وصرف الهمم اليها أما ما ذكره من الطباع والأخلاق الوحشية ونسبة ذلك الى الاولين فيقال

(١) كما ذكره الغزالي في تهافت الفلاسفة

له كما قيل في المثل :

وعين الرضا عن كل عيب كيلة كما أن عين السخط تبدى المساويا
أين أفعال هؤلاء في التدمير والخراب والظلم والعسف وإهانة الفضائل
من أفعال المتقدمين التي لا تأتي معشار معشارها ، فقتال يوم واحد في الآخرين
يوازى قتال أيام أو أشهر في الأولين في القتل والخراب والفظائع التي لا تعد
ولا تحصى ، وقد قيل حبك الشيء يعمى ويصم ، ثم ان جميع ما وجد في الزمن
السابق كالقرون الأولى والقرون الوسطى وغيرها من الأخلاق الوحشية
وأثاره الحروب اذا بحث عن سببه ونقب عنه وحقق وجد أنه من مصدر
الحادى دخل معه التفاف ، فالملاحدة والمنافقون هم مصادر البلاء والشقاء
والعناء كما تقدم

فصل

قال : انهم^(١) رأوا كما رأى المتخصص اليوم بدراسة علم النفس أن الاطفال
يولدون وهم يحملون معهم شر الاخلاق وأظلم الطباع ، وأنهم لو تركوا
لسجايهم لما تورعوا عن اثم ولما أنفوا من ظلم ولما فعلوا شيئا حسنا من أجل
أنه حسن أو إن فيهم ما يحفزهم على فعل الحسن ، ورأوا ما يجب أن يعلموا
منه أن الحسنات أو الميل لفعل الحسنات والخير لم يولد مع الاطفال وانما
لقنوه تلقينا وارتاضوا عليه بحكم التقليد والترية والمشاهدة والتعليم بعد
الولادة ، وكان يجب أن يكون لهذا دلالات عديدة عندهم ، وانكسهم بقوا
مع هذا كله يقولون ويعتقدون أن الاطفال بطبيعتهم مجبولون على الخير ، وهذا
يدل على أشياء كثيرة لم يتفطنوا لواحدة منها ، من هذه الدلالات أن الانسان
بطبيعته شرير خبيث ظالم وأن الانسان الأول كان كذلك في كل عهده وأن

(١) يعنى الانسان الأول الموجود وقت نزول القرآن

الأطفال يرثون هذا الشر والخبث والظلم عن أولئك الآباء الأولين الظالمين الأشرار ، أما الخير والاحسان وكل هذه الصفات والألفاظ الجميلة التي يتصف بها الإنسان والتي يدعو إليها ويمتدحها ويأمر بها فهي مكتسبة اكتساباً من الأديان ومن التربية التي كونها الإنسان لنفسه بحكم الضرورة والحاجة والانانية أيضاً ، فإن الخير تدفع إليه الانانية أيضاً كما سيجيء في فصل مقبل ، انتهى

والجواب أن يقال : أما كون الإنسان الأول الموجود وقت نزول القرآن يرى كما يرى هذا المتخصص أن الأطفال يولدون وهم يحملون شر الأخلاق وأظلم الطباع ومع ذلك يرون أنهم ملائكة وانهم مجبولون مجبورون على الخير فهذا كله من الأكاذيب الباردة التي يستحى كثير من الكفار أن يتفوه بها لأنها فجور مكشوف لا شك فيه ، فمن هو الذي قاله وأدعاه قبل هذا الملحد ، وأين الدليل عليه والواقع يكذبه كما أن الشرع أيضاً يكذبه ، وفي الحديث كل مولود يولد على الفطرة والفطرة هي قبول الخير كما يأتي ، ولكن هذا شأنه يكتب ما خطر على باله ولو خالف كل شيء من العقل والحس والضرورة

أما دعواه أن الإنسان بطبيعته شرير خبيث ظالم وان الإنسان الأول كان كذلك في كل عهده وأن الأطفال يرثون هذا الشر والخبث والظلم من أولئك الآباء الأولين وأن الواقع أنهم شياطين أشرار فهذه الدعاوى مع كونها من الخيائن والمخازي والمهازل التي لا يتفوه بها إلا من بلغ في القحّة والفجور الغاية التي لا بعدها غاية فهي تنقض جميع ما أصله في هذا المبحث وغيره ، فإن دعواه قائمة - على ما يزعم - في تعظيم الإنسان والخطأ على من لم يعظمه ولا يؤمن به ، بل ادعى أن الإيمان به أول ، وأنت ترى أنه سبه وزماه بأشنع المقادح وأفظمها ، فإن هذه الأوصاف هي أصول الشر كله والرديلة كلها ، ولو أن إنساناً قيل له صف الإنسان بأقبح الأوصاف كلها لم يزد على هذا ، فينبغي أن يعطى هذه الأوصاف التي اعترف بها في الإنسان فيما يختص بنفسه حيث اختارها ، وأما غيره فهو مدعى عليه فلا يقبل قوله فيحكم عليه هو بذلك ،

وجميع ما يدعيه من الاوصاف التي تغاير هذه يطالب باثباتها في نفسه ، وهذا الملحد يتلاعب كيف شاء بدون خجل أو حياء ، فهو أولا يقرر أن الانسان كنز من المواهب والاستعدادات الطيبة التي تدفع الى الكمال والسعادة ثم يجيء مرة أخرى فيقرر أنه ولد بطبيعته شريرا خبيثا شيطانا ظالما جاهلا ثم يقول يجب الايمان به ، ومعلوم عند كل من له عقل صحيح ان الذي طبع على الشر والخبث والظلم والجهل فانه يجب الكفر به ، لان هذه صفة الشيطان الذي امرنا أن نكفر به ، ومعلوم ايضا أنه لا يمكن أن يكون مستعدا للكمال بل يكون مستعدا للنقص ، لأن هذه الأمور نقائص لا كماليات ، وقد قدمنا أن هذا الرجل لا يرى في تناقضه من بأس لأنه لشدة إعجابه بنفسه ورأيه فيها بأنه المفرد العلم الذي لا يعادله أحد في امكانه أن يتخلص من التناقض ويرى أن الناس لا يفهمون التناقض ، وسبب هذا أنه رأى أناسا ممن ضرب الله قلوبهم بالموت والغباء والحماة الاصلية كانوا يجتمعون به فاذا عارضوه بشيء أخذ في اللجاجة والمكر والخداع فيوافقونه على ذلك ، فمن أجل هذا ظن أن الناس كلهم مثل هؤلاء أودونهم ففرض عليهم أن يكون هو المقدم في الامر ، فلا اعتراض على تناقضه فان له تأويلا قد لا يعليه الا هو أو من رسخ في علمه من فروخ الملاحدة وأشباههم فلا يسأل عما يكتب وهم يسألون

لقد كان من المعلوم أن الاستعدادات والمواهب هي التهيؤ لابرار العناصر الكامنة في الشيء إما بورود شيء خارج عليها كمادة الحمل في الرحم ، وإما قبوله فيكون باعثا قويا على نشاطها في الظهور والبروز كالقطرة الطيبة مع الاخلاق الدينية الصحيحة النقية ، وإما بقوة مودعة فيها تظهر شيئا بعد شيء ، فان كل حيوان ونبات فيه استعداد لابرار ما في عنصره فان كان خبيثا خبيث وان طيبا طيب وان خيرا خيرا وان شرا فشر ، فلو كان الانسان بهذه الطبائع التي ذكرها لكان يتقهقر الى الوراء ويتردى في الهاوية السحيقة ، فان هذه الطبائع هي أحط طباع في الوجود ، لأنه حينئذ يتراد في طبع الشر

والحُبث شيئاً فشيئاً حتى يتطور ويدفع ما يرد عليه من الخير بالقوة الطبيعية ، فان الشر ضد الخير والحُبث ضد الطيب والظلم ضد العدل ، فكيف تكون هذه الطباع قابلة لضدها . ثم قوله هذا يناقض أصوله الفاسدة التي هجم بها على الخطب في المساجد وعلى أصول الدين من أن ذلك ملهـاة ومصرف خبيث وأنه تحدير ، فانه هنا أقر بأن الانسان شيطان خبيث ظالم وان هذه الاخلاق الحسنة مكتسبة من الأديان فكان على مقتضى ما صرح به لو تركوا بدون تعاليم من دين لظلوا على طباعهم الخبيثة الظالمة ، ومعلوم أن الملاحظة لا يعرفون تعاليم الدين ولا يتعلمونها ، فتكون هذه الاوصاف ملازمة لهم منذ وجدوا ، وعلى هذا فلا بد من تعليم أصول الدين ولا بد من تكرار الخطب والمواعظ لتعقل هذه الطباع العدوانية لئلا تنطلق في ميادينها ، وقد بينا فيما تقدم أن هذا المغرور مصاب بداء التناقض والاضطراب والقلق الفكري الذي لا مزيد عليه لأنه مسرف مرتاب ، وقد سبق قوله ونجد الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها العلوم المبتكرة هم المنحرفون من الأديان المتحللون منها ، وهنا يدعى أن ما معه من الفضائل والاخلاق الحسنة مكتسب من الديانات الى آخره فسبحان من طبع على قلبه . ثم دعواه أنه مكتسب أيضاً من التربية التي كونها لنفسه ومن الانانية ممنوع ولا يستقيم على هذه المقدمة ، فان المطبوع على الشر والحُبث والظلم يمتنع أن يكون لنفسه تربية حسنة فان التربية الحسنة انما تنتج عن محل فيه قبول لها وعناصر قابلة لها من الخير ، وهي هنا مفقودة أو موجود ضدها ، ولماذا كانت الحيوانات الخبيثة خبيثة دائماً فان غاية ما توصف به في أخلاقها بهذه الاوصاف التي يجعلها هذا المغرور على بنى آدم الذين أكرمهم الله في قوله تعالى ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم ﴾ فيأى شيء كرمهم اذا كانوا مطبوعين على هذه الاوصاف والمتدينون منهم لم يهبوا الحياة شيئاً جديداً والمتحللون من الأديان هم الذين صنعوا الحياة ، ظلمات بعضها فوق بعض ، أما التعاليم الدينية فانها تنطبع في الانسان لما كان فيه قبول لها بفطرته

الخيرية التي هي موضع قبول دواعي الخير والاحسان ويمتنع أن يكون موضع دواعي الخير والاحسان خبيثا شريرا شيطانا وهذا ظاهر ، وقد قلنا فيما سبق أن الانسان خلق حنيفيا فيه سر فطرى لقبول الدين الذي هو مادة الخيرات بأسرها ، ولسنا نقول انه مطبوع على الخير والعدل والظلم بل نقول فيه فطرة مودعة لقبول الخير وان كان بجانبها نقائص كثيرة ، فان البشر لا بد من طبيعة النقص فيه لكن الله تفضل عليه بفطرة يمكنه بها أن يستمد حياته وسعادته من روح ونور الأديان السماوية التي هي الحياة الصحيحة ، والفطرة ليست هي نفس الخير بل هي تهيؤ وطبيعة قابلة للمادة الخير ، وهي محل لقبول ما يرد عليها من دواعي الخير ، لكن يجب أن يعلم أن الناس مختلفون فيها اختلافا كثيرا ، فمنهم من تكون فطرته ضعيفة جدا وتكون طباع النقص المجاورة لها قوية جدا كالعجز والعجب والظلم ونحو ذلك من الاخلاق الأخرى ، ويكون الداعي الذي يرد عليها ضعيفا ركيكا والداعي الذي يرد على تلك الخصال الأخرى قويا بسبب البيئة التي يعيش فيها الانسان ، فمثل هذه سرعان ما تفسد نهائيا كما يفسد اللبن الذي يتلوث بالنجاسات الغليظة فانها تطغى عليه حتى ينعدم الانتفاع به ، أو كما تفسد الحبة القابلة للنبات بورود قوة المعارض ولا سيما اذا كانت حياتها ضعيفة . ومنهم من تكون فطرته بالعكس فتكون قوية نشيطة سريعة القبول ، والداعي قوى ملائم لها ، ومضاداتها ضعيفة كما أن دواعي مضاداتها كذلك ضعيفة فتقوى هذه الطبيعة الخيرية وتكبر حتى تتلاشى فيها الطباع الأخرى . والناس مراتب على هذا التفصيل كل بحسب قوة فطرته وضعفها ، على أنه يجب أن يعرف أن للبيئات في ذلك اثرا عظيما . ثم انه يجب أن يعلم أن علماء النفس من الأولين والآخرين مختلفون في طبيعة الانسان اختلافا كثيرا فمنهم من يقول انه طبع على الشر والظلم ومنهم من يقول طبع على حب الخير والعدل كما أشار الى هذا صاحب كتاب (الوجود) السيد محمود

الفيضى وغيره ، والصحيح هو ما ذكرنا (١) ولكن يعرف أن الذين قالوا انه طبع على الشر والظلم لم يدعوا في الانسان مثل ما يدعى هذا المغرور فان أكثر الكفار ينزه نفسه ويستحي أن يتفوه بمثل ما تفوه به هذا الذى جعلنا مطبوعين على الشر والخبث والظلم ، ولم يكتب بذلك حتى جعلنا شياطين ، فأى فرق بين الانسان والشيطان اذن إلا بالدين وهو قد ذم الآخذ به وادعى أن الذين تركوه هم الذين صنعوا للحياة فتكون الشياطين هى التى صنعت للحياة والمقصود ان هذا الذى ذكره لا حجة له فيه وانما هو حجة عليه سواء أكان الانسان مطبوعا على ما ذكر من الشر والخبث والظلم أو على الفطرة المستقيمة على ما مرّ تقريره

ثم قال : « وعلى هذا فن الجهل الفاضح التلفت الى الوراء بقصد الاقتداء والاحتذاء ، وانما يجب الهروب دائما من الماضى والتطلع الى المستقبل باسم » فيقال : هذا لا يصلح أن يكون تفريعا على ما تقدم ، انما يصلح أن يقال فن الجهل الفاضح التلفت الى ما يخالف الأديان لأن من خالفها ينشأ على الشر والخبث والظلم والعدوان المطلق لانك قررت أن ما مع الانسان من الاحسان انما هو مكتسب من الديانات ، ولو ترك على حاله لظل مصحوبا بهذه الطباع طول حياته ، فيجب أن تفرّع على هذا وجوب الخث على ما يضاد هذه الاخلاق ويطهرها ويذيبها ويذهبها وهى تعاليم الدين التى هى مصادر الحياة والخير والاحسان . ولا معنى لدعواك هنا فى منع التلفت الى الوراء والتطلع للمستقبل مادمت تعتقد أن الانسان مطبوع على هذه الخصال الخبيثة فانه اذا كان مطبوعا عليها فهى ملازمة له فى الماضى والمستقبل والصغر والكبر ما لم

(١) ويدل على ما ذكرناه اختلاف الاطفال المميزين فى الميل الى الخير والعدل والميل الى الشر والظلم والخبث ، والطفل من حين يميز تظهر عليه سجاياه وأخلاقه التى تصاحبه فى حياته غالبا

يعترضها دين فيعدها بقدر قوته ، ولا شك أن آثار الديانات في الماضي أجد وأكثر وأظهر ، وكلما بعد العهد من الديانات كثرت آثار هذه الخصال لضعف مقاومتها ، فاذن يجب على هذا تتبع أثر الديانات الصحيحة وتحصيلها سواء كان من الماضي أو الحاضر أو المستقبل بلافرق . والذي أوقعه في هوة هذا التناقض والاضطراب والقلق الفاحش في هذه الجمل التي نقلناها عنه في طباع الانسان أنه لما وجد تقرير هذا المتخصص من علماء النفس سحر به وكبر عليه مخالفته واستعظم ذلك استعظاما غلب على شعوره وعقله فلم يعبا بالتناقض ، فألقى ما معه من القول الأول في استعدادات الانسان ومواجهه الطيبة الى الكمال والرشد وغمض عينيه وتعلق بركاب هذا المتخصص مقلدا له أينما توجه وكيفما قال ، ولو أن هذا القول قاله فقيه من فقهاء الأمة قد بلغ في العلم والمعرفة ما بلغ لتبذه واستهزأ به وضحك منه ورماه بكل ما خطر على باله ، وهذا هو الذي يليق بمن انسلخ من آيات الله واتبع هواه ، نسأل الله التوفيق بمنه وكرمه

فصل

قال : « ومن هذه الدلالات الايمان بأن الانسان يتقدم ولا يتأخر ، وأنه خلق متطورا من شر الى خير ومن نقص الى كمال »

فيقال : كل هذا كذب وكلام لا وجه له فيقابل بالمنع والرد ، لانه هذيان لا قيمة له كما لا يخفى . ثم قال : « ومن هذه الدلالات أيضا العلم بان ترك الاطفال لطائعتهم بدون تعلم ولا تربية انما هو بمثابة تركهم للوحشية العريقة الغريقة في كل ألوان العدوان وانهم يبنون بقدر ما يخلصون من تلك الطباع الموروثة العادية ويهدمون تهدم أهمهم وشعوبهم بمقدار ما يترك لهم ومعهم من هذه المخلفات الموروثة »

قلت : كل هذا على فرض تسليمه انما يدل على وجوب المحافظة على

الأخلاق الدينية لأنها هي التي تزيل هذه الأخلاق وتطهرها ، فهي الطريق إلى
الرشد والتخلص من هذه الطباع الخبيثة ، وتعاليم الدين تعاليم مقدسة طاهرة
عالية زكية فهي الدواء الوحيد لها . وقوله « ان ترك الاطفال لطباعهم بدون
تعليم ولا تربية » الخ ، يقال : وكذلك ترك غير الاطفال عن نشأوا على هذه
الطباع الخبيثة بلا تعليم دين وخطب تتكرر عليهم تعدل هذه الطباع وتذهبها
إنما هو بمنزلة تركهم للإباحية والفوضى والطباع العدوانية ، لانك قررت أن
ما معهم من الخير فهو مكتسب من الديانات ، فيجب عليك اذن الحث على
معرفة هذا المعارض القوى والعمل به لمحو هذه الطباع وآثارها القاتلة

فصل

ولما كان قول المتخصص في علم النفس له وقع عظيم في نفسه وأنه شيء
كبير عنده ولا يمكن أن يستهان به مهما كان الأمر - وهذا على تقدير ثبوت
ما ذكر عنه ، وإلا فعلماء النفس لم يتفقوا على هذا الذي ادعاه - لهذا أخذ
يعزز رأي هذا المتخصص حين وافقه بالاستدلال بالآيات على تصديق ما
ادعاه ، وقد علمت عما مر أنه يوجب على الناس أن يكون معنى ما يستدل به
من النصوص على طبق هواه بكل حال ولو خالف جميع المفسرين بل ولو
خالف اللغة وقواعد الشرع ، ولهذا استدل بالنصوص على رأيه الأول ، ثم
استدل بها على رأيه الآخر مع وضوح تناقضه في الرأيين ، ومع هذا فإنه لا
يكتفى بدعوى أن الآية تدل على هذا وتشير إليه بل يدعى في كل نص يستدل
به أنه صريح في ما يدعيه وان كان النص في نفس الأمر صريحا في الدلالة على
ضده فقال مستدلا على ما ادعاه في طباع الانسان وهذا لفظه : « يجب التنبيه
هنا على أن الاسلام قد نبه على هذه القضايا كلها تنبيها صريحا ، فنصوصه
الصريحة قوله تعالى ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا ﴾ أى
لاتعلمون شيئا من هذه الاصول المعلومة في الاخلاق وفي التربية وفي الأديان

وفي التعاليم المختلفة ، وهذه الأمور انما تعلم بالتعليم ، فن تركوا بدون تعليم بقوا لا يعلمون شيئا وبقوا أشرارا ظالمين لانهم لا يعلمون الاصول المنافية للشر والظلم الناهية عنها ، فالاطفال ذكورا أو اناثا يكبرون وتكبر معهم هذه الطبايع العدوانية ان لم يعلموا .

والجواب أن يقال : ليس في الآية السكرية ما يدل على ما ادعاه ولا ما يشير اليه ، ودعواه أنها نص صريح بهت ومكابرة ، فان الله لم يقل والله أخرجكم من بطون أمهاتكم اشرارا خبيثاء ظلمة شياطين حتى يكون هذا نصا فيما ادعاه ، وانما قال « لا تعلمون شيئا » وليس كل من لم يعلم شيئا يكون شريرا خبيثا ظلما كالأصم الأعمى الآخرس ، فان مثل هذا الكلام لا يقدم عليه الا مجازف لا يفكر فيما يقول ويدعى ، بل الذي ثبت أنهم خلقوا حنفاء على الفطرة فطرة الدين ، وقد دلت الآيات على عكس ما يدعيه ، وذلك أنه تعالى غرس فيهم استعدادا كاملا لقبول التوحيد كما قال تعالى ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴾ وقد ذكر المفسرون أن الله سبحانه استخرج من ظهر آدم ذريته وأنه أشهدهم على أنفسهم بالتوحيد فشهدوا به ، وهذا هو في معنى الفطرة ولم يرد قط أنه تعالى غرس فيهم أو في طبعهم الشر والخبث والظلم في شيء من الآثار مطلقا ، وقد ادعى هذا الملحد فيما سبق أن الله ذرأ في خليقته بذور الكمال ، فكيف يذرأ في خليقته بذور الكمال والرشد وهو خلقهم مطبوعين على الشر والخبث والظلم ، ومعلوم أن هذه الصفات نقائص لاخير فيها كما اعترف هو بذلك ، فكيف يكون من طبع على صفات النقائص مستعدا للكمال والرشد العقلى ويكون فيه بذور لذلك ، ثم كيف تتفق دعواه أن الاخلاق الخيرية مكتسبة من الديانات والتربية مع قوله فيما مضى اننا لا نحتاج الى مهيار ندفع به الانسان الى العمل ، بل هذا المهيار موجود فيه وفي طبعه ، فسبحان من أخزاه وجعل كلامه ينهار وينقض بعضه بعضا ، وهذه سنة الله في كل مرتاب.

ثم قال ، ومن هذه النصوص قوله تعالى ﴿ وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا ﴾ وقوله ﴿ قتل الانسان ما اكفره ﴾ وقوله ﴿ ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى ﴾ وقوله ﴿ وأحضرت الأنفس الشح ﴾ والآيات في هذا المعنى كثيرة معلومة ،

فيقال : كل هذه الآيات ليس فيها دليل واحد يشير الى ما يدعيه ، وهو لم يبين وجه الدلالة كما في التي قبلها حتى نجيب عنه ، وليس في ظاهر هذه الآيات ما يفهم منه أن الانسان خلق مطبوعا على الشر والخبيث والظلم حتى يستدل بها ، بل هي كلها حجة عليه ، أما قوله تعالى ﴿ وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ فليس فيها ذكر للاطفال وليست عامة جنس الانسان ، فإن الله أخبر أنه عرض الأمانة على السموات والأرض فأبين أن يحملنها وحملها الانسان لجهله وقصور نظره أو لاجتهاده المخطيء ، وهو ظلم في تحمل هذه الأمانة لانه أضعف من السموات والأرض ، وجهول بالعواقب ولهذا جرت عليه هذه الأمانة ما جرت ، ولكن الله سبحانه لم يسكت بعدها بل بين أن هذا الانسان الذي تحمل الأمانة منقسم الى ثلاثة أقسام ^(١) قسم نبذها وضيعها وخالفها ظاهرا وباطنا ، وقسم نبذها باطنا وادعى ظاهرا أنه متحملها ، وقسم اجتهد وأدى ما في استطاعته من حملها لحملها ، فالقسم الأولان معذبان والثالث تصيبه الرحمة والمغفرة وهم الذين استثنى الله من جنس الانسان الظلوم الجاهول لانهم آمنوا وعملوا الصالحات حيث قال بعد قوله ظلوما جهولا ﴿ ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما ﴾ . فهذه الآية كما في سورة التين وسورة العصر ، فالقرآن يصدق بعضه بعضا ، وكذلك قوله تعالى ﴿ قتل الانسان ما اكفره ﴾ فالمراد بذلك الكافر ، فإن الله وصفه بأنه لم يقض ما أمره

(١) كما في أول سورة البقرة

الله به كما دل عليه سياق الآية بعدها فهي كقوله ﴿أيحسب الانسان أن لن
نجمع عظامه﴾ فالآية حجة عليه لان عنده أن من قضى ما أمره الله به من
الأعمال الصالحة وصدق بالبعث فانه لا يتقدم في الحياة ، وكذلك قوله تعالى
﴿كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى﴾ فهي حجة ظاهرة عليه ، لانه أفرد
فصلا كاملا طويلا في الحث على الغنى ولم يعبا بالطغيان ، والله لم يذم هنا إلا
الانسان الطاغى ، لامن آمن وعمل صالحا ثم اهتدى فان الله قد مدحه ، فأى
حجة له في الآية حتى يحتج بها . وأما قوله ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ فلا
ندرى من أين استنبط بفكره الدلالة منها على أن الانسان بطبعه شرير خبيث
ظالم شيطان ، فالآية بمنزلة عن هذا فلا حجة فيما ذكره اصلا ، ودعواه أن هناك
آيات كثيرة معلومة تدل على ما ادعاه كذب ، فليس هناك آيات لا معلومة
ولا محمولة ولا قليلة ولا كثيرة بل الآيات الكثيرة دلت على ضده كما سبق

فصل

قال «وفي الحديث الصحيح المشهور (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه
يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) وقد أكثر شراح الحديث من الكلام على
هذا الحديث كدأ بهم في كل نص يقع بين أيديهم ، ولا التفات الى ما قالوه لانه
غير قائم على أصل من أصول العلم المقررة . والمعنى الذى يجب ان يفهم هو أنهم
يولدون على الفطرة الأولى ، والفطرة الأولى معروفة وهو الجهل بكل التعاليم
الموجودة اليوم عند الانسان سواء أكانت تعاليم دينية أم تعاليم أخرى ، فهم
لا يعلمون شيئا من هذه التعاليم بسجائهم وطباعهم لأنها طباع اكتساب وتلقين
وانما يعلمونها اذا لقنوها وعلموها ، وكل طفل وما يلقن ويعلم ، أى انه يتجه على
حسب التوجيه الذى يصادفه وعلى حسب ما يريده موجهه ، فان كان معلمه
وموجهه ومربيه نصرانيا جاء نصرانيا وان كان يهوديا جاء يهوديا وان كان
مجوسيا فكذلك وان كان مسليا فلا بد أن يكون مسليا كما يشاهد في كل زمان

ومكان ، ومعلوم أن لكل دين من هذه الأديان ولأصحابها طريقة في تعليم الاخلاق والتربية المأخوذة أكثرها من الدين نفسه ، ولو تركوا فلم يعلموا شيئا لا يهودية ولا نصرانية ولا مجوسية ولا إسلامية لبقوا على فطرتهم أي مجردين من كل دين ، وفطرتهم هي العدوان المطلق الذي لا يعرف القيد ولا الضبط ، والفطرة حينما تطلق إطلاقا ليست مدوخة وليست خيرا (١) وإذا قيل الأمم الفطرية كان معنى ذلك تلك التي تركت بعيدة عن التعليم والتهديب فهي جاهلة والفطرة مأخوذة من الفطر وهو الذي ترك خلقته الأولى التي لا أثر للعلم والتعليم فيها وهذا لا خير فيه ، والإسلام لا يقبل شهادة الاطفال ، ونحن نفهم أنه إنما ردّ شهاداتهم لما جبلوا عليه من الكذب والتزوير والظلم والأخلاق الرديئة والجهالة العمياء ، وأما قول بعض الفقهاء - أو قولهم كلهم - انه رد شهاداتهم لأمر أخرى ذكروها فهي من جملة أقوالهم الكثيرة التي تروج بها الكتب موجا من غير أن يكون لها قيمة علمية ولا عقلية ولا دينية . - انتهى كلامه على هذا الحديث

والجواب أن يقال : أولا قد حرف متن الحديث ، فانه حذف ما بين المراد منه ويوضح معناه ، وهو مبتلى بهذه الحرفة اليهودية في التحريف ، والغالب أنه يحرف اللفظ والمعنى جميعا فلا يكتفى بأحدهما ، ولو أنه ساقه بكالـه لظهر المعنى وظهر بطلان تقريره عليه ، ونحن نسوقه بجملة ، فقي الصحيحين عن أبي سـلـة أن أبا هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء . ثم يقول ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ فهذا الحديث - كما ترى - فسر آخره . أولا ، فبين أن المراد بالفطرة قبول الدين القيم ، يوضح هذا ما

(١) سيأتي أنه ينقض هذا من نفسه قريبا

رواه مسلم في صحيحه عن عياض المجاشعي أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته : « ان ربي عز وجل أمرني أن أعلمكم ما جهلتم بما علي في يومى هذا . كل مال نخلته عبادى حلال ، وانى خلقت عبادى حنفاء كلهم وانهم أتتهم الشياطين فأضلّتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا » الى آخر الحديث ، فهذا الخبر الصحيح صريح في أن المراد بالفطرة الاستعداد والميل الى قبول الدين الذى هو أصل كل خير ، وأنها ممدوحة لا مذمومة . ثانيا : ليس في هذا الحديث من الدلالة على ما يدعيه من أن الأطفال طبعوا على الشر والخبث والظلم ، وانما فيه « كل مولود يولد على الفطرة » وليست « الفطرة » هى الظلم والشر والخبث في لغة العرب المعروفة إلا في لغة هذا الملحد بعد أن ارتد ، وإلا فهو قد قرر أن الفطرة هى الخير كما يأتى قريبا ، وهذه كتب اللغة وكتب التفسير وغيرها موجودة في كل مكان من المكاتب ونحوها ليس فيها شيء من ذلك ، بل الذى فهمه العلماء ودلت عليه النصوص أن الفطرة هى الاستعداد لقبول التوحيد والدين كما قال تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ فالآية صريحة في أن المراد بالفطرة التى خلق الناس عليها هى إقامة الوجه للدين ، فانه فسر إقامة الوجه للدين بالفطرة لأن الله أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بإقامة الوجه للدين حال كونه حنيفا أى مائلا عن كل ما سواه ، وهذه هى حقيقة التوحيد ، ولهذا كانت هذه الفطر مركوزة في جميع بنى آدم ماعدا الملاحدة ومن ضارهم من الجهمية الذين هم أصل كل ملاحدة هذه الأمة الذين ينكرون علو الله على العرش فوق العالم وينكرون كثيرا من الصفات كالكلام ، فان الخلق كلهم - عدا من ذكرنا - يقيمون الوجه للدين فيقبلونه مائلين اليه مقرين بالخالق بصفاته ، فتراهم اذا اشتدت بهم الضراء يرفعون أيديهم الى السماء متوجهين بقلوبهم ووجوههم اليها لعلمهم بان الله فوقها ، وقد نص النبي ﷺ في حديث عياض المتقدم نصا

قاطعا بأنه سبحانه خلق عباده خنفاء كلهم فإن الشياطين أتتهم فأضلّتهم عن
فطرتهم التي خلقوا عليها وأضلّتهم عن دينهم الملائم للفطرة ، فالحديث نص
قاطع في المسئلة لا يقبل أى تأويل ، ومعلوم أن الأشرار الخبيثاء الظلمة ليسوا
هم الخنفاء ، كما أنه معلوم بالضرورة أن الشياطين لا تضلّهم عن الشر والخير
والظلم ، ويدل على هذا أيضا أنه قال في نفس الحديث « فأبواه يهودانه أو
ينصرانه أو يمجسانه » ولم يقل في الاسلام كما قال في اليهودية والنصرانية
والمجوسية ، وهذا يدل دلالة صريحة على الفرق بين هذه الأديان وأن الاسلام
بخلاف ذلك ، أى أنه الأصل الذى خلقوا له ، أى لو تركوا هم وفطرتهم
لعرفوا الاسلام لما بهم من القبول والاستعداد الاصلى الملائم لتعاليمه ، ولهذا
مثل النبي ﷺ اليهودية والنصرانية والمجوسية بالجدع ومعلوم ان الجذع على
خلاف الاصل فهو تغيير للخلقة الاصلية فقال « هل تحسون فيها من جدعاء »
فتبين بهذا النص وغيره أن الاطفال خلقوا على الفطرة ، وان الفطرة هى
الاستعداد لقبول الدين استعدادا كاملا بحيث أنها لو تركت لماالت اليه بالطبع
مالم يعترضها معارض يصرفها عن وجهتها ، ولا يلزم أن يكون هذا الاستعداد
متساويا فيهم ، كما أنه لا يلزم من القيام برزقهم وغيره تساويهم في ذلك ، ولو
وجب التساوى في كل خير لم تظهر الحكمة وللزم من ذلك أن يكون الناس
جميعا كالملائكة أو كالانبياء ، حينئذ لا يعرف الخبيث من الطيب والهدى من
الضلال والسعادة من الشقاء والنور من الظلمة وأين محل العفو والصفح
والعقاب والعتاب والرحمة وغير ذلك . وقد قلنا غير مرة ان هذا المغرور
يطبق النصوص على وفق هواه ، فتجده يأخذ النص فيحملة على شهوته وما
يريد ، ثم اذا اختلف رأيه جاء الى هذا النص بعينه فقلبه واحتج به على ضد
ما احتج به في الرأى الأول . وقد يظن بعض الناس أننا نسرف في هذا والله
يعلم أننا لم نطلبه أو ننسب اليه مالم يره ولم يقله ، واليك شيئا من الشواهد على
ما قلناه في نفس هذا الحديث ، فانك قد رأيت هنا أنه صرح بأن الفطرة

ليست ممدوحة وليست خيرا ، وأنه استدل بهذا الحديث على ذلك بأنها غير ممدوحة وأنها شر وخبيث ، وقد ادعى في نبذته (الفصل الحاسم) أن الاجماع قائم على أن الفطرة ممدوحة وأنها مثني عليها بل هي ممدوحة بكل لسان ، وإن تغييرها مذموم بكل لسان ، واليك عبارته بنصها (صحيفة ٥٩) فانه لما استدل بالفطرة على العلو قال « الاول الاخبار مثل قوله ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ فقد أمره بالبقاء على الفطرة ولزومها ، وأخبر أنها الدين القيم وأنها دين الناس ونهى عن تبديلها ، ومثل قوله ﴿ واذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيمة اانا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ فجعل البقاء على الفطرة هو الحق والايمان ، وجعل تبديلها ياتباع الآباء هو الشرك والكفران . وقال رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، والحديث له روايات كثيرة تمدح الفطرة (١) وفي صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ قال « قال الله تعالى : انى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم » الى آخر الحديث ، وفي بعض رواياته : انى خلقت عبادى حنفاء مسلمين . الامر الثانى اجتماع الكلمة على مدح الفطرة والثناء على ما جاء من طريقها ، فالفطرة ممدوحة بكل لسان وتغييرها مذموم بكل لسان ، انتهى كلامه بحروفه ، فانظر الى هذا التناقض الفاحش والانقلاب المنكر فى استدلاله بالحديث على رأيه الاول ثم استدل به على رأيه الثانى مع تضاد النظريتين ، وهذا دأبه ، يتلاعب بالنصوص كيف شاء لانه يرى أنه لا يمكن لأحد أن يساميه

(١) تأمل قوله « تمدح الفطرة » مع قوله فيما سبق والفطرة ليست ممدوحة وليست خيرا

فى العلم ولا فى العقل ولا فى البراعة ولا فى جميع الفضائل ، فهو يقول ما يريد . لا معقب لما يقوله ويحكم به ، فما أجمعها من كلمة حيث قال « لو أنصفوا كنتُ المقدم فى الأمر » ، ولكن الناس تساهلوا فى معناها وغضوا أبصارهم عنها ، وهذه الغفلة هى التى أوجبت هذا التطور أو التحول فيما تم عنه وتدل عليه حتى اتسع الخرق على الراقع

ثم إنه من المحال فى العقل والدين أن يكون المولود المطبوع على الشر والخبث والظلم فيه ميول واستعداد لقبول الدين الذى هو مصدر كل طهارة وزكاة وخيرات ، فان هذه الطباع تضاده من كل وجه ، فهذه هى أصول الشر كله والدين أصل الخير كله ونحن انما أطلنا فى هذا الموضوع الخطر لأن هذا الملاحظ رى هذا الانسان الذى أكرمه الله وفضله على كثير من خلق تفضيلا بأخبث الأوصاف وأشنعها فيجب جهاده والدفاع والنضال عن الانسان المكرم المفضل ، فهذا الأحق تارة يذكر أن الانسان أخطر رتبة من الحيوان لا يستطيع الكلام ولا يعرف شيئا مطلقا ويعبد كل شيء فهو جاهل بكل شيء عابد لكل متحرك مضطرب كما يقول ، وتارة يجعله شريرا خبيثا ظالما شيطانا ، وحينئذ يدعى أنه لم يعجز عن شيء وأنه لا يقال لشيء من الأشياء كائنا ما كان انه فوق قدرته وأنه يعلم كل شيء ، وأحيانا يدعى أنه كنوز مملوءة بالمواهب والاستعدادات ، الى أمثال هذا الهذيان البارد ، مع أن كل ما قاله من التعظيم انما أضافه خاصة الى المتحللين من الأديان لأنهم كما يقول هم الذين صنعوا الحياة ، أما المتدينون على اختلاف أجناسهم وأنبيائهم فانهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ، وبكل حال فلا نعلم أحدا من الأولين والآخرين سلك مسلكه فى مسألة الانسان لان ذلك كله جنون وتلاعب يستحى كل ذى عقل من أن يتفوه به كما أننا أيضا لا نعلم أحدا من الأولين والآخرين سلك مسلكه فى الأديان وشدة العداوة لها ولاهليها مع تلبسه بالنفاق العميق والزندقة الزائفة وقوله « وقد أكثر شراح الحديث من الكلام على هذا الحديث كدأبهم

في كل نص يقع بين أيديهم ، ولا التفات الى ما قالوه لأنه غير قائم على أصل من أصول العلم المقرر ، فهذا تصرّح منه بأن كل نص يقع بين أيديهم يكثرون الكلام عليه بلا فائدة ، وهو يرمى الى أنهم مختلفون في كل شيء فيجب رفض كل ما عندهم لأن الحق لا يختلف ، وقد صرح هنا بأن كل قول يقولونه على نص يقع بين أيديهم فإنه لا يلفت اليه الا اذا كان قائماً على أصول انسان اليوم ، يعنى كهذا المتخصص ، لأنه قال والفطرة الاولى معروفة وهى الجهل بكل التعاليم الموجودة اليوم عند الانسان ، يعنى فالتعاليم التى لا تكون موجودة اليوم عند الانسان مرفوضة ، فقيده بتعاليم اليوم والا لم يكن للقيّد فائدة ، فكل معرفة أو شرح حديث أو تفسير آية يخالف الاصول المقررة اليوم عند الانسان فلا التفات اليه ، وقد كرر هذا المعنى مرارا كثيرة ، ولهذا أكدّه مستطرداً في شهادة الاطفال بأنها انما ردت لهذا المعنى ، ولما كان يعلم أن الفقهاء كلهم مخالفون له في هذا الادعاء وأنهم انما ردّوا شهادة الاطفال لعدم التكليف لان العقل شرط في التكليف كما أنه شرط لصحة كل عبادة وعقد شرعى ولأن الصغير يشهو ويغفل وتشبهه عليه أمور كثيرة تخل بشهادته ، فلهذا سلك هذا المذهب غير سبيل المؤمنين ، يخالف أقوالهم التى أجمعوا عليها وادعى أن ذلك هو بسبب كونهم مطبوعين على الخبث والشر والظلم ، ثم لم يكفه هذا حتى رمى كل من خالفه من الفقهاء بعدم العلم والدين والعقل ، لأنه صرح أن أقوالهم التى تموج بها الكتب موجبات ليس لها قيمة عقلية ولا علمية ولا دينية ، فهم لم يهوا الحياة شيئاً جداً ، وانما الذى صنع الحياة هم المتحللون من الاديان ، فلهذا قدم عليهم كلهم ما أشار اليه هذا المتخصص الذى ربما أنه لم يفهم كلامه في ذلك أو كذب عليه ، فما أرخص علماء الأمة وأخف ميزانهم عنده ، وهو عندهم كذلك بلا ريب

وها هنا نكتة هامة يجب التفطن لها ، وهى أنه أثبت بهذا الكلام أن الملاحظة المتحللين من الاديان كالأطفال أشرار خبيثاء طالبة مشتملون على كل

عدوان مطلق بدون قيد ولا ضبط ، وهذه عبارته التي تقدمت بحروفها فتأملها فإنه قال : ومعلوم أن لكل دين من هذه الأديان ولأصحابها طريقة في تعليم الأخلاق والتربية المأخوذ أكثرها من الدين نفسه ، ولو تركوا لم يعملوا شيئا ليهودية ولا نصرانية ولا مجوسية ولا إسلامية لبقوا على فطرتهم مجردين من كل دين ^(١) وفطرتهم هي العدوان المطلق الذي لا يعرف القيد ولا الضبط ، انتهى . فتأمل هذه العبارة تجددها واضحة في أن المجردين من الأديان يبقون على فطرتهم التي قرر أنها هي الجهل والخبث والظلم والشر والعدوان المطلق الذي لا يعرف القيد ولا الضبط ، فكيف ينسبهم إلى الجهل والشر والخبث وأنهم هم الذين صنعوا الحياة وأنهم هم أهل العلم ، ياليت من أحسن فيه فقطع لسانه ، لقد كان فضيحة على طلبة العلم فإنا لله وإنا إليه راجعون ، فقد رجع سهمه الذي رمى به جميع الفقهاء هنا على نفسه وعلى سادته من حيث لا يشعر ، وهو إنما قال هذا ليمدح الملاحدة ولكنه ذمهم غاية الذم ، وفي المثل : إياك وصحبة الاحمق فإنه يريد أن ينفعلك فيضرك ، وقد نقض في هذه الجملة جميع ما تعب عليه من خلع كل وصف جميل على سادته من الملاحدة والزنادقة وأشباههم من المتحللين من الأديان ، فكيف يصنعون الحياة وهم مجردون من كل دين ، وقد قررت أن المجرد من الدين هو الباقي على خلقته من الجهل والخبث والشر والظلم والعدوان المطلق ، وأطم من هذا وأدهى وأمر أنه ادعى أن المتدينين على اختلاف أجناسهم وأديانهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ، وهو كما ترى قرر أن هذه التعاليم مأخوذة من الدين نفسه وأن المجرد من الأديان يبقى على فطرتهم من الجهل والشر والعدوان المطلق الذي لا يعرف القيد ولا الضبط . أنصفونا يا مسلمون وأنصفوا أنفسكم من هذا المعنوه الذي كان فضيحة عليكم عند الأجانب ، فسبحان من خسف بقلبه

وجعله بهذه الحالة التي يستعيز منها كل عاقل

فصل

قال «وها هنا يجب أن يفتن القارئ أنه لا تناقض بين دعوتنا إلى الإيمان بالإنسان ومواهبه العديدة ، وقولنا هنا على جملة على الظلم والعدوان ، فإنا نريد بالتولين معاً أن الإنسان خلق ناقصاً شريراً ظالماً جاهلاً^(١) ولكن خلق إلى جانب ذلك معداً للتطور والسير نحو الكمال ونحو البلوغ العقلي ، فهو شر بالنسبة للماضي ، خير بالنسبة للآتي ،

فيقال « وفسر الماء بعد الجهد بالماء » كما في المثل ، وأدنى عاقل يعرف أن هذا الجمع في غاية السقوط ، فإنه في بداهة العقل أن يكون الإنسان مطبوعاً على الخبث والشر والظلم والعدوان المطلق ، وإن يكون معداً للكمال والرشد العقلي والخلق ، فإن هذا جمع بين النقيضين ، لأنه إنما يكون معداً للكمال والبلوغ العقلي إذا كان فيه بذور كامنّة لهذا التطور الكمال ، أما إذا كان مطبوعاً على الخبث والشر والظلم والعدوان المطلق فلا يكون إلا معداً للنقص والفساد الذهني ، لأن هذه الصفات نقائص ، وصفات النقائص تناقض صفات الكمال لأنها ضدها ، فكيف تكون هي أساسها وأصلها ، هذا لا يقوله من يدرى ما يقول^(٢) ولكن السر الذي أوجلك إلى دخول هذا الضنك والمضيق العسر وأوقعك في هذا التناقض الفاحش كونك لا تبالي بالتناقض في جانب متابعة المتخصص في علم النفس^(٣) ، فتابعته عندك وتقليده أمر فوق كل شيء سواء تناقضت أو لم تتناقض ، فأى سماء تظلك وأى أرض تقلك لو خالفت ملحداً

(١) كان من حقه أن يصفه بالخبث أيضاً كما وصفه به أولاً

(٢) وأخيت حيوان وأشهره إنما كان كذلك ، لأنه طبع شريراً خبيثاً ظالماً

(٣) أى الذى رأيته ملحداً

واحدا واتبعت متديننا واحدا وأنت قد قررت أن الذين صنعوا الحياة هم المتحللون من الأديان فكيف تخالف واحدا من هؤلاء الذين ادعت أنهم صنعوا الحياة التي منها حيائك وتتبع واحدا من المتدينين الذين قررت وشهدت عليهم بأنهم جميعا لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ، هذا لا ينبغي لك على هذا الاعتقاد ، ولا عبرة لديك إذن بالتناقض في مثل هذه الأشياء ، فإن أمر المخالفة أكبر وأطم وأعظم وأجل من أمر التناقض ، لان المخالفة لديك هي المصيبة الكبرى والعثرة التي لا تقال . وقد بينا أنه حجة عليك ولو لم تتناقض ثم انه استدرك على عادته في المراوغة والخداع كما قال فيه السيد قطب يتوارى هنية فينكر ما تنطق به النصوص ، فاستثنى الأنبياء وقال انهم غير داخلين في هذا الاصل الذي خلق شريرا خبيثا ظالما ، وانما المراد بذلك الانسانية المتروكة لجهالتها . ولا يخفى ما في هذا الاستدراك من السقوط ، لأن كلامه في جنس الانسان الذين هم البشر ، ومعلوم أن الانبياء من جنس البشر كما قال تعالى ﴿ قل انما أنا بشر مثلكم ﴾ فالمقدمة التي أصلها ساقطة ، وهذا الاستدراك أسقط منها ، لأن مقتضاه أن البشر خلقوا من عنصرين اثنين وهذا باطل ، ولو صح هذا لكان حجة عليه أيضا لانه يقال له اذن فالانبياء من عنصر طيب فيكون من تبعهم من المتدينين لهم الحظ الكبير من هذا الخير كل بقدر متابعتة ، ويكون ضدهم من الملاحدة من المنافقين هم الباقين على الخبث والشر والظلم والعدوان المطلق ، واذن كيف يصنعون الحياة وكيف تكون لهم آثار طيبة وعلوم صحيحة ، فان هذا كله يناقض مذهبنا مناقضة صريحة فيكون حجة عليه على كل تقدير

فصل

قال . وكانت الانسانية اذ ذاك (يعنى وقت نزول القرآن) تعلم وترى أن انما تسقط وأما أخرى تقوم ، ولكنها ما كانت تعرف لماذا سقط من سقط

ولماذا ينهض ويسود من يسود ، وكل ما كان يمكن أن تعلق به هذه الظواهر هو زعمها أن الآلهة أو الاله (١) قد غضب على الأمم الساقطة الهاوية خضر لها فأسقطها ورضى أو رضيت - أي الآلهة - على الأمم الأخرى القائمة السائدة فأقامها وسودها ، أما الأسباب الاجتماعية أو النفسية أو غيرها من الأسباب التي صارت اليوم معلومة مدروسة في قيام الأمم وسقوطها فكانت عازبة عنهم ، وكانوا عنها بعيدين ، لأن تطورهم ورشدهم كان حينذاك لم يبلغ هذا المدى ،

والجواب أن يقال : أما كون الأولين يعللون سقوط بعض الأمم ونهوضها بأن الله تعالى أسقط هذه وأقام هذه وأن أكثر الأمم الساقطة كان سقوطها بسبب ذنوبها التي أوجبت غضب الله عليها فهذا مما لا شك فيه ، وإنكار هذا كفر صريح ، فإن الله سبحانه هو الذي يعز الأمم وهو الذي يذلها ، ومجرد وجود أسباب مادية لذلك لا ينفي هذا ، فإنه يعزها ويذلها بهذه الأسباب . ومن بديع حكمته أنه كثيرا ما يعز الأمم بأسباب ، ثم يذلها ويدمرها بتلك الأسباب نفسها وموجباتها ، ليقيم الحجة بأنه المنفرد بالعز والاذلال وحده لا شريك له ، وإنما تلك أسباب مصير منافعها ومضارها بيد مسيبتها وانها محكومة لا حاكمة ، وأما قيام الأمم فقد تقوم برضا الله سبحانه وقد تقوم قياما ليس صحيحا وهي كافرة ولكن لا بد من سقوطها ليقيم الحجة عليها على ما أسلفناه سابقا ، أما سقوطها فلا يكون أبدا إلا بموجب خط الله عليها ، فإذا أراد الله لأمة خيرا وفقها لطاعته وللأسباب المادية التي تكون سببا لنهوضها وتقدمها ، كما أنه إذا أراد بقوم سوءا فلا مرد له ، ولا بد أن تكون لذلك أسباب من الفسوق والمعاصي وذلك لعلة سبحانه بأنهم قد فسدت

(١) انظر كيف قرن الرب الجليل العظيم مع الاوثان في هذه النظرية ، فلم يفرق بين الله وخلقه وأعدائه كالشياطين

خطرهم ولا يكون لبقائهم في الارض الا الشر والفساد كالوباء ، قال تعالى ﴿ واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً . وكما أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً ﴾ وقال عز من قائل ﴿ قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون . فاذا قمهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله خاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً ﴾ وقال تعالى ﴿ وكما قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين ﴾ وقال تعالى ﴿ ثم أرسلنا رسالتنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبيوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فيجد الآقوم لا يؤمنون ﴾ وقال تعالى ﴿ قلنا آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾ وقال تعالى ﴿ وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ وقال تعالى ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ، ونحشره يوم القيمة أعمى ﴾ وقال تعالى ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ وقال تعالى ﴿ ثم ننجى رسالتنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿ ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز ، الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر فوالله عاقبة الامور ﴾ والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً

فن زعم أن سقوط الأمم ونهوضها ليس بإرادة الله ، وأن الطاعة والمعاصى لا دخل لها في ذلك وانما ذلك راجع الى الأسباب الطبيعية المسادية ونواميسها فلا شك في كفره ، بل ولا شك في كفر من لم يكفره ، لان هذا تكذيب صريح للنصوص الصريحة الظاهرة ، ودعواه أن الأولين لا يعرفون الأسباب الاجتماعية والنفسية وغيرها مما يتعلق بالتقدم والتأخر فممنوع ، بل

هو كذب ظاهر يكذبه الشرع وجملة التاريخ المتواتر ، بل الأولون من الملاحدة والمشركين أعظم الناس مغالاة في الإيمان بالأسباب الاجتماعية والنفسية ، ولهذا قاتلوا الرسل وقاوموهم وحشدوا جيوشا عظيمة لقتالهم ، مع اعترافهم باطنا بصدقهم ، لانهم لا يرون للطاعات والمعاصي دخلا في التقدم والتأخر في الدنيا ، فهم معتمدون على هذه الأسباب اعتمادا لا مزيد عليه ، فالاعتماد على الأسباب هو الداء القديم في الملاحدة والمشركين ، فان من المعلوم أن من أعظم الناس كفرا فرعون ، وقد بينا أنه من أعظم الناس تعلقا على الأسباب واعتمادا عليها ، فهو يرى فيها الكفاة التامة ، ولا يرى للطاعات والمعاصي دخلا في تقدم ولا تأخر ، ولهذا فانه عاند موسى وراوغ في فهم كل آية حتى جمع أقصى ماله من سبب في ازالة آية موسى فعجز عن ذلك فجمع قومه وحشهم على قتال قوم موسى وأفهمهم أن فيهم الكفاة اللازمة للقضاء على موسى ، وخطب فيهم بذلك فقال ﴿ ان هؤلاء لشرذمة قليلون ، وانهم لنا لغائظون ، وإننا لجمع حاذرون ﴾ وقد أتى في هذه الكلمات القليلة بجميع أصول الملاحدة في هذا الموضوع ، فوجه نظرهم الى استعدادهم ومواهبهم اللازمة فأخبر أن قوم موسى شرذمة قليلون معنى هذا بيان أنه كان يعتقد أن الكثرة تغلب القلة ولا سيما اذا كانت في شدة الغيظ والحذر (١) فالحذر والصبر والكثرة هي غاية القوة النفسية في الميادين الحربية . وقال في ترتيبهم في القتال ورسم الخطة لهم ﴿ ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطر يقتكم المثل ، فاجمعوا كيدهم ثم انتصاوا ﴾ وقد افلح اليوم من استعمل ﴿ وهذا عين ما يعتمده أكثر الملاحدة في هذا العصر وهو روح ما يدعو اليه هذا بدون نظر الى أن هناك قوة غيبية قادرة على نصر من أطاعه وقهر من عصاه ، أما موسى فانه اخذ بالسبب الديني أصلا ثم بالسبب

(١) وقد تقدم قوله يدفعها قوة الحسد وقوة الغيرة والغیظ

المادى فرعا ، فانه قال فيما قال لقومه ﴿ ويلكم لا تفترؤا على الله كذبا فيسحتكم
بعذاب وقد خاب من افترى ﴾ فحذرهم المعصية التى هى من أسباب الفشل
والهزيمة وأمرهم بالصدق والاخلاص لانها يوجبان الاعتماد على الله وحسن
المعاملة معه وذلك هو سبب النصر ، وقال ايضا ﴿ استعينوا بالله واصبروا
ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ فأمرهم بالاستعانة
بالله واستمداد النصر منه بالدعاء ، وأمرهم مع ذلك بالصبر وبين أن هذا الشيء
الذى بيد فرعون ويبد غيره ليس ملكا له بل هو ملك الله يؤتیه من يشاء من
عباده فليطلب ذلك بطاعته فمن أطاعه فقد فعل السبب الذى به يستحصل ما
ينفعه ، ومن عصاه فهو من الهالكين المسلوبين النعمة فى الدنيا والآخرة ،
ولهذا نفع موسى سببه وحصل له النصر والنجاح مع كونه أقل عددا وأضعف
أسبابا مادية من فرعون فى قومه ، وأما فرعون فذهبت أسبابه وهلك وكان
من الخاسرين . وقد كان من المعلوم أن الفرس والروم قاتلوا الصحابة ومن
بعدهم بأقصى ما عندهم من الأسباب المادية معتمدين عليها ، وأن الصحابة
قاتلهم معتمدين على الله عاملين بالأسباب المادية معتمدين على ربهم ، فكان
ذكر الله لا يفتر من أفواههم ، فهو لاء الروم والفرس ما قاتلهم بهذه الأسباب
إلا لانهم يعتقدون الأسباب الاجتماعية النفسية ، ولو كان الأولون أى
الموجودون وقت نزول القرآن أو من قبلهم لا يرون الأسباب الاجتماعية
والنفسية شيئا فى التقدم والتأخر والسقوط والنهوض لما فعلوا ذلك بل لجلس
المسلمون فى بيوتهم ينتظرون النصر من دون عمل ، وجلس المشركون فى
مساجدهم ينتظرون التقدم بدون قتال ، فكيف يتجاسر من يدعى العقل أن
يتفوه بهذا الهذيان بأن الأولين عازبة عنهم هذه الأمور وأنهم بعيدون عنها
ثم يعمل ذلك بتعليل عليل وهو كونهم لم يبلغوا رشدهم ولم يبعدوا كثيرا عن
طور الحيوانية على مقتضى ناموس التطور ، ثم انه مع هذا قد أقر أن انسان
هذا العصر قد كاد أن يبلغ الرشد وهذه الأمم التى فى غاية الاستواء والنضج

في هذه العلوم - كما يدعى - قد سقطوا ، ومن لم يسقط فهو مهدد بالسقوط وخائف منه

فصل

قال هكذا كانت الانسانية يوم نزول القرآن : ترى ولا تعلم ، أو تنظر ولا تبصر كما جاء في الكتاب الكريم ﴿ وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾ وما أجمل هذا النفي والاثبات مجتمعين ، وما أروعهما متوازيين ، وقد جاءت إشارة الكتاب الكريم الى هذا المعنى في آية أخرى أوضح وأجلى وهي قوله تعالى ﴿ فانها لا تعمى الابصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ وقد كان القرآن ناعيا على الانسان نقصه وحاله حينما قال ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ﴾ لان الله يريد بهذا المخلوق المختار الكمال وبلوغ الرشد ، وهذا لا يكون الا بعلم البواطن والنفوذ الى ادراك الحقائق ، أما الوقوف عند الظواهر فهو شأن الطفولة ، والطفولة بلا ريب ليست هي القصد من الوجود ^(١) وليست غايته ، وانما هي طريقه وبدايته ، وجاء في الكتاب في سورة أخرى ﴿ وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ ^(٢) ولا يمر بالآيات مع الاعراض عنها إلا من لم يستطيعوا تجاوز الطور النظري المجرد ، لان الحاسة العقلية عندهم التي تنفذ في الاشياء متجاوزة مجرد النظر ضعيفة أو مفقودة أو ساكنة سكونا يمنعها تأدية وظيفتها ، ويشترك في هذا النظر الظاهري ثلاثة أصناف على ثلاث درجات : الحيوان ، ثم الاطفال ، ثم الامم البدائية أو الأمم التي أصيب عقولها العام بجمود يشبه الموت «

(١) واذا نفا بالك تدعو الى أخلاق الطفولة التي هي أخلاق الملاحظة كما مر

تقرير

(٢) الآية صريحة في المشركين ، فلا معنى للاتيان بها هنا

والجواب أن يقال : مقصوده بهذا التطويل والتهويل الفارغ والبهت المكشوف في الخط على الانسان الموجود وقت نزول القرآن تصغير شأن الصحابة وكل من في عصرهم والشك فيهم وفي علومهم وأنهم على جهالة وضلالة وعدم اطلاع على الحقائق ، ولهذا ادعى في المبحث العاشر أن الطريقة الوحيدة للشك فيهم وعدم الثقة بهم هو أن يعلم هؤلاء الكفر بهم والشك فيهم وأنهم ليسوا على ما يظن بهم . ولا تنس أيضا أننا قلنا فيما سبق إن هدفه الأكبر الذي هو موضع جميع السب والخط والقذح هم أولئك الجماعات الذين يقولون طريق المجدد هو الأخذ بالأخلاق السلفية الدينية واتباع ما كان عليه السلف الصالح ، فأراد هذا المعكوس أن يعاكسهم في هذه النظرية فأخذ يشوه سمعة السلف ويرميهم بالعظائم التي حاصلها الجهل والغباء والبلادة . ولما كان هذا المجدد يعلم أن تعظيم السلف في قلوب الناس قد رسخ رسوخا عظيما أطال وأسهب في إزالة هذا التعظيم ، وقد أكثر من تكرار ثبوت التطور حتى تجاوز به الغلو إلى أن ادعى صريحا أن الانسان الأول لا يعرف الكلام ولا اللغة ولا الكتابة الخ ما ادعاه كما تقدم ، وادعى هنا أن الانسان الذي كان وقت نزول القرآن لا يتعد كثيرا عن طور الحيوانية ، لأنه اذا قرر هذا الأصل يزعمه الذي هو السير إلى سبيل الرشد والكمال سهل عليه العناية إلى ان هؤلاء العصريين أكل من الصحابة وأقرب إلى الرشد ، لأن هذه على ما يزعم قاعدة التطور الذي أطار عقله ، هذا هو مقصوده من هذا الاسهاب والاطناب وإطالة الكتاب في الخط على الأولين وتعظيم شأن المتأخرين ، فافهم هذا فانه مهم ، وبه تعرف مغزاه ومرماه في جميع ما ادعاه في هذا المبحث وغيره . وليعلم أننا لا ننكر التطور المعقول في نحو الصناعات ، فان الكلام في مسألة التطور طويل عريض ، وليس كل ما يدعيه في التطور مسلما له بل كثير من العارفين بهذه الأمور المادية لا يقولون بقوله ، وقد قدمنا كلامه الذي ادعاه في الثورة الوهاية وتصريحه بأن زعم التطور زعم كاذب بلا ريب ، وإنما

التطور تطور صناعي فقط ، وأما الاخلاق فانها تتدلى تدليا لا يمكن المساراة فيه ولا في بعد قراره ، وان قائل غير هذا إما غاش أو جاهل . هذا كلامه على ما تقدم ، فقد شهد على نفسه بأن القائل بالتطور في غير الصناعات إما غاش وأما جاهل ﴿ ستكتب شهادتهم ويسئلون ﴾ فهذا المسكين مصاب بالقلق والاضطراب والتناقض المنكر في كل أقواله وآرائه ، وذلك نتيجة الريب والشك وانطاس البصيرة

إذا علمت هذا ففي هذا الكلام الذي علقه على هذه الآيات من الخبائث والتحريف ما لا يعد ولا يحصى ، والعجب أنه ألف كتابا في الرد على الرفضة في قدحهم في السلف ، ثم انه توعدهم وتهدهم بأعظم الوعيد والتهديد ، ثم أخرج هذه الاغلال التي شدها في عنقه ويديه وخرّ لوجهه ، فزاد عليهم في هذه الخصلة ، بل وغيرها مما هو أعظم وأطم بلا شك على ما معهم من سخافة الرأي وسوء الاعتقاد

أما قوله « هكذا كانت الانسانية يوم نزول القرآن ، ترى ولا تعلم ، أو تنظر ولا تبصر » واستشهاده على ذلك بقوله تعالى ﴿ وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون ﴾ فهذه الدعوى من أكذب الدعاوى وأجرها ، فكيف يكون الصحابة ينظرون الى النبي ﷺ وهم لا يبصرونه فاذن هم كالأصنام بلا شك ، اذ هذه حالتها بلا فرق . ثم قوله « وما أجمل هذا النفي والاثبات » نقول : وما أقبح تشويه هذا الجميل بالتحريف والكذب ووضع في غير موضعه ، فكأن عليك عهدا أن لا تدع في هذه الشريعة الغراء جميلا إلا شوهته ، ولا مستقيما إلا حرفته ، ولا صحيحا إلا أفسدته في أغلالك التي هي عنوان خيالك . وهذه الآية فيها قولان : أحدهما أن المراد بالضمير في قوله تعالى ﴿ وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون ﴾ الأوثان المعبودة من دون الله تعالى ، فان الله سبحانه يقول ﴿ والذين تدعون من دون الله لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ، وان تدعوهم الى الهدى لا يسمعون ، وتراهم

ينظرون اليك وهم لا يبصرون) لأن في هذه الأوثان التي هي رموز للمعبودين من المخلوقات ما هو مصوّر على صورة ذلك الانسان المعبود ، فهي تنظر ولا تبصر . والقول الثاني أن المراد بذلك الكفار ، لانهم ينظرون الى الرسول نظرا مجردا وهم لا يبصرون ما جاء به من النور والكتاب المبين ، والذي ينظر الى مجرد صورة الشيء ولا يعرف حقيقة ومعناه لا شك أنه جاهل به ، فنظره كمنظر الأصنام أو نظر البهائم ، وهذا منطبق على الملاحظة ، فانهم ينظرون الى هذه الأخلاق الدينية وإلى أهلها ولا يبصرون ما عند أهلها وما فيها من المنافع العظيمة الجليلة التي لا تعد ولا تحصى ، ولهذا كانوا يستخرون منهم ومن عباداتهم وخطيئهم ودعائهم ، لانهم لا يبصرون ، فالكفار الأولون ينظرون الى النبي ﷺ وإلى أصحابه في عباداتهم وأخلاقهم الدينية ولا يبصرون ما في ذلك من الفوائد الجليلة بل يستهزئون بهم ، وهكذا كان ورثتهم من الملاحدة ينظرون الى أهل الدين كما تنظر البهائم والأصنام اليهم ، ولكن لا يبصرون ما عندهم وما في هذه العبادات المقدسة من الفوائد العلية والعملية . وهذا القول الأخير هو الراجح ، وهو لا ينافي الأول ، فهو شامل لكل من ينظر الى الرسول وإلى أتباعه وهو لا يبصر ما لديه من العلم والعمل ، ولهذا شبههم الله سبحانه وتعالى في هذه السورة نفسها بالانعام ^(١) وأما كون الصحابة داخلين فيها فهذا شيء لا يجرؤ عليه إلا من هو في غاية الزندقة والعدوان للدين وأهله ، بل الآية حجة عليه كما تقدم فانه ينظر ولكن لا يبصر الحق ، فهو ينظر الى القرآن وإلى أهله وإلى كتب الدين ولكن لا يبصر ما فيها من الآيات الكونية والعبر العظيمة ، وينظر أيضا الى هذا الوجود ولكن لا يبصر ما فيه من الدلالات الواضحة على قدرة الله وتغييره للأسباب والتحكم في مسياتها

(١) أي في قوله تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها) الى قوله (أولئك كالانعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون)

وتتأجها ، فلا يعرف العبر الدالة على التوحيد والقصد والتوجه الى الله تعالى ودعائه والتضرع اليه وأنه هو المنفرد بحكم هذا العالم دون النواميس الطبيعية ودون المادة ، فهو الذى يحكم العالم بنفسه ويدبر الأمر من السماء الى الأرض والناواميس تجرى بأمره وبمشيئته ، فهي محكومة لا حاككة فى شيء مطلقا ، وهو الذى يعز من أطاعه وينصره ويؤيده ويعين من استعان به وصدق فى معاملته ولجأ اليه ، وهو ولى المؤمنين والمتقين ، وأنه لنعم المولى ونعم النصير ، وهو المنتقم من أعدائه وهو المنكد المنفص عليهم الذى لا يرد بأسه ولا بطشه عن القوم المجرمين ، كل هذا لا ينظر اليه هذا المخلول المعكوس كما لا ينظر اليه الملاحدة المتمردون على أوامر الله تعالى ، فهذا ومن على شاكلته أولى الناس بالدخول فى قوله تعالى ﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ ، كما أنهم أولى الناس بالدخول فى قوله تعالى ﴿ وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾ وفى قوله ﴿ فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ وهذا الملحد لم تعلم أحدا بلغ مبلغه فى العماية والانتكاس والمعاندة للحق ، فهو من أشد خلق الله تكبرا وتمردا واعراضا عن آيات الله كما يدل على هذا كلامه ومراميه

وكذلك استشهاده بقوله تعالى ﴿ فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ فهي حجة عليه كما سبق ، فإن العمى هنا هو عمى البصيرة ، وذلك هو الاعراض عن ذكر الله ، فإن الاعراض عن ذكره هو أوضح برهان على عمى البصيرة كما قال تعالى ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيمة أعمى ﴾ ، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ وهذا المغرور لم يكف بالاعراض عن الذكر إذ جاءه ، بل أعرض عنه وحرّفه وشوّه سمعته ثم دعا الى الاعراض عنه ورفضه ، فيكون ممن أعمى الله قلبه وأضله عن سواء السبيل

وأما دعواه أن النظر الظاهري لثلاثة أصناف إلى آخره ، فقد بينا بالدلائل الصادقة أنه هو وأمثاله من الملاحظة في درجة الحيوان والاطفال ، لما ذكرنا من الاتفاق في التشابه المطابق بين الملحد والملاحد ، ويشترك في ذلك الحيوان ، لا سيما إذا كان الملحد اشتراكيا لا يحصل له من المعيشة الا مقابل تعبته فانه يكون كالبييمة بدون أدنى فرق ، ولهذا وصف الله الملاحدة والمشركين بأنهم شرّ الدواب وأنهم أضل من الأنعام بصريح النص ، وبمسخ من راوغ واحتال ولم يتبع ظاهر النص في النهي - قرودة وخنازير ، وهذا هو الواقع المشاهد ، يعرف ذلك كل ذي عقل سليم ، بخلاف أهل الدين فان الله وجه خطابه كله اليهم في قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ إلا في آية واحدة من القرآن ، ولهذا قال في آيات كثيرة جدا ﴿ ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ ، ﴿ يعقلون ﴾ ، ﴿ للمتقين ﴾ ، ﴿ للمؤمنين ﴾ حتى جعلهم مع الملائكة والأنبياء داخلين في الجملة على حسب أعمالهم ومراتبهم كما في قوله تعالى ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ﴾ ومعلوم أن الكفار والملاحدة غير داخلين في ذلك فأدخل المؤمنين هنا مع الأنبياء في هذه الشهادة وكفى بها فضيلة ، وأما المنافقون وأمثالهم من الكافرين فآخبر أنه لعنهم وأصمهم وأعمى أبصارهم ، وأخبر أنهم ملعونون أينما تقفوا ، وهذا ظاهر لا ريب فيه

فصل

ثم قال : . كان هذا الطور الذي بلغته الانسانية يوم نزول القرآن ، وقد عمل الاسلام ^(١) أعمالا باهرة لا تكفر لنقل الانسانية من طورها هذا الى ما هو أكمل وأفضل ، فكان له من التأثير في هذا النصيح البشري الذي نشاهد

(١) هنا احتياج الى الخداعة ، وبعد هتية يرجع وينكر ما تنطق به النصوص ، وهكذا

اليوم ما هو معروف ، فقد خطت الانسانية بعد ذلك الطور الذى نعلمه
القرآن عليها خطوات فانت فى سرعتها وقوتها كل حساب وظن .

قلت : هكذا حاله ، اذا أسرف فى الكذب والفجور والخروج من العقل
والدين ، وظن أن الناس قد عرفوا مغزاه ومرماه لجأ الى الخداع والمراوغة
والمكر ، لأنه قد عرف أن هناك حميراً تدخل هذه المداجاة عقولها ويروج
هذا عليها لضعف عقولها وبصائرهما . فنقول اذا كان الأمر كما ذكرت فيجب
أن تبين هذه الأعمال التى عملها الاسلام بايضاح وتفصيل ، وتصرف همك
اليها وتحث على العمل بها . وما رأيائك فعلت من هذا شيئاً ، بل جعلت همك
فى محاربة دعاء الله والذين يذكرونه ويسبحونه ويحمدونه على المنابر والذين
يعبدونه فى المساجد ، وادعيت أن ذلك شر ما يؤدى ، فاذا كان هذا عمل
الاسلام عندك فعلى عقلك العفاء وهو كذلك ، واذا كان أيضاً دين الاسلام
قد عمل أعمالاً فى نقل الانسانية من ذلك الطور الى هذا الطور فى النضج
البشرى المشاهد اليوم ، وأن هذا الاسلام قد خطا بالانسانية خطوات فانت
فى سرعتها وقوتها كل حساب وظن فكيف تدعى أن المتدينين على اختلاف
أجناسهم وديارهم وأبنائهم وأمرجتهم لم يهبوا الحياة شيئاً جديداً ولم يكونوا
فيها مخلوقات متألقة ، وأن الذين صنعوا لهذه الانسانية العلوم وصنعوا لها
الحياة هم المتحللون من الاديان المنحرفون منها ، فاهذه المناقفة الظاهرة وما
هذا الخداع الواضح وما هذا المكر السىء وما هذه المراوغات الثعلبية
والتلونات الحربائية ، أفظن أن الامة الاسلامية أنعام لا تفهم شيئاً ولا
تعقل شيئاً حتى تلعب بعقولها وتموه على أبصارها وبصائرهما ، بثما سولت لك
نفسك وبثما ابتعت به دينك ، لقد كنت أشد الناس دخولا فيمن اشتروا
الضلالة بالهدى فاربح تجارتهم وما كانوا مهتدين .

فصل

ثم قال: « فالإنسان اليوم قد خلف وراءه عصر الظواهر وأصبح لا يقنعه ولا يشبع نهمه الا أن يعلم كل شيء علم ظاهر وباطن ، انه لم يكشف بان يعلم كل نواميس هذه الطبيعة ^(١) بل ذهب يتحكم في هذه الحلايا والعناصر والذرات ، انه لم يرض بأن تقدم له مائدة عليها ألوان الطعام الشهى الواهب للجسم كل ما يحتاج اليه ^(٢) بل رأى أنه لا بد أن يعلم العناصر التي يتألف منها هذا الطعام ويعلم نسبها ومقاديرها ، ثم راح يؤلف من هذه العناصر أطعمة صناعية تفوق في جودتها وحسنها وفائدتها ومذاقها الأطعمة الطبيعية ، انه قد حصر كل هذه الموجودات أمامه في عناصر عينها وعددها ، فجاءت حوالى ميتين وتسعين عنصرا ، فكان هذا الانتصار في معركة فاصلة ترتب عليه كل ما يترتب على الانتصار في المعارك الفاصلة ، وقد طفق من أجل ذلك يشارك الطبيعة ويساميتها في كل أفعالها وعجائبها ^(٣) وصار من المعروف المألوف أن يقال هذا طبيعي وهذا صناعي أى طبيعي وانساني ، وأصبح البترول الصناعي والمطاط الصناعي والخشب الصناعي وكل شيء صناعي لا يقل في منظره ومخبره عن أخيه الطبيعي . واننا لنخشى أو نرجو ، وقد تحقق الأيام أى الأمرين أحسن ^(٤) أن يأتى الزمان الذى يقال فيه الانسان الصناعي والحيوان الصناعي ،

(١) هذا تصريح منه بأن الانسان اليوم قد علم نواميس الطبيعة كلها

(٢) كل هذا كذب ، فلماذا اذن يقع الموت

(٣) يعنى يسامى الله تعالى في أفعاله ، ليت شعرى بأى شيء سامى الطبيعة وهو لم يفعل شيئا الا بها ومنها وفيها

(٤) لاشك أنك ترجو وان الرجاء أحسن لتصدق دعواك في كون الانسان يقدر على كل شيء ، فهذا هو الاحسن لديك

وهذا مما لا يزال العلم أمامه حيران عاجزا ، ولكنه لم يصترف بالعجز ولم يفكر في الاستسلام للاخفاق ، بل ما قىء بهاجم ويناضل بعزم من يعلم أنه منتصر لا محالة . ومحاولة صنع المادة الحية أو إيجاد الحياة في المادة لا يزال من المعارك الملتحمة التي لم يكتب للعلم حتى اليوم الظفر بها ، اذ يكاد يكون سر الحياة من أسرار الطبيعة التي لم يرفع عنها العلم الأستار ، ولكن الانسان يقول ^(١) انه قد انتصر في نضال هو أشد من هذا النضال الدائر الحامى من أجل الانتصار على سر الحياة ولغزها ، وعلينا نحن أن ننتظر وان نلزم الحياء حتى نرى لمن يكتب النصر .

والجواب أن يقال : لما فرغ هذا الملحد من سب الانسان الأول ، و اضاف اليه ما شاء من التنقيص والاتهام ، ثم أعقبه بسب الصحابة ومن في عصرهم وقت نزول القرآن ، وأنهم لا يبعدون كثيرا عن الطور الحيوانى ، وأنهم لا يعرفون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، وأنهم ينظرون الى الرسول وهم لا يبصرون ، ورماهم بكل معاني الجهالة والضلالة ، شرع في مدح إنسان هذا العصر لأنه هو المقصود بالذات في الايمان به ، فقد عرفت من هذا الكلام من أوله الى آخره الدعاية الى رفض ما يدعو اليه أولئك الجماعات المذكورون في صدر الكتاب من أن المجد ينحصر في الأخلاق الدينية الأولى والخوالع والاعتماد على آراء ملاحدة هذا العصر ، وأن معنى الايمان بالانسان الايمان بملاحدة هذا العصر ، وإلا فجميع أناسي العصور المتقدمة قد كفر بهم كفرا عظيماً شنيعاً ، وأضاف اليهم أجبث ضروب المقادح الانسانية كما سلف ، وقد تضمن هذا الكلام الذى ذكره هنا من الكذب والافتراء والمجازفة بل والكفر الفظيع ما لا يخفى على من له بصيرة في دينه . ومن العجب أنه لشدة مجازفته في الغلو فيه

(١) هذا من كيسك لم يقله أحد معروف ، فان كنت صادقة فأشر لنا عن واحد معروف قال بهذه الامور

لم يذكر عنه أكثر من معرفتها لصنع الطعام ونحوه ، وقد حاول أرسطو كلب
المكابرة في مسألة خلق الحياة فصنعه الحقيقة والواقع ، فأخذ يتخبط ههنا
لتخبط الزائف ، فمن أكاذيبه وجفوره في هذه الجملة دعواه أن الصنعة الصناعي
في هذه الأمور التي ذكرها يفوق على الصنعة الطبيعي وأن ما عمله من المظالم
والخشب والصوف والؤلؤ لا يقل في حجرة عن الصنعة الطبيعي . فهذا
الكذب البارد والنجور المكشوف لا يتكلم به إلا من يظن أنه يخاطب
أغبياء جهلاء حق ، وإلا فأكثر الناس لا سيما من له دخل في هذه الأشياء
يعرف أن بينها في الخبر وغيره فرقا بعيدا حتى أنهم يحفلون خلطها من الغش
المردود ، وهذا اللؤلؤ الصناعي مع تطوره في دقة تشبيهه بالطبيعي عجزوا عن
مساواته به من كل وجه بحيث يستحيل التمييز بينها ، وكذلك للصوف والخشب
وغيره ، وليس في هذا كبير أمر فأصول الغش في هذه المعادن وغيرها
كالحجار السكرية موجودة من قديم فهذا الباد زهر^(١) يغش ويصنع له جنس
يشارب جنسه الطبيعي من قديم ، وكذلك غيره من الأحجار والعقاقير
الكثيرة ، ولهذا كان كثير من العقاقير توجد مغشوشة فيوجد فيها الصناعي
والطبيعي ، فأصول هذه الأشياء كانت موجودة من قديم وإنما تطورت ،
وإنشاء الأصل أعظم في الدلالة على العلم وقوة التفكير من التفريع عليه
مما توسع فيه ، فهو لاه إنما تطوروا في معرفة هذه الأمور لكثرة التجارب
بمخلاف الإبداع الأول فانه يحتاج الى دقة تفكير وصحة قياس وقوة تطبيق ، ومن
حكمته تعالى أنه جعل بينها فرقا ولو غامضا لئلا يلتبس ما صنعه بقدرته الغيبية
بما صنعه بقدرته على يد عباده ، فانه سبحانه هو الذي خلقهم وما يعملون
تخلقهم وخلق عقولهم وآلاتهم وصنعتهم ، ولا يظن ذو عقل أن هذه الأشياء
الصناعية تشابه خلق الله الذي اختص به ، أو أنهم قدروا أو سيقدرون على

(١) ويسمى الباكوه وهو حجر فيه خواص كثيرة للسموم وغيرها

ما يشابه خلق الله من كل وجه بما انفرد به ، فإن هذا لا يمكن أبداً ، والله سبحانه وتعالى بين ما يمكن صناعته وبين ما لا يقدر عليه الا هو وحده . وهذه الاشياء الصناعية ليس في الشريعة نفي لقدرتهم عليها بل في الشريعة نفي لقدرتهم على احياء الموتي وخلق الحياة والنبات وأمثال ذلك ، وهذا لم يقدروا على أقل جزء منه . ولا شك أن الأمور الصناعية كلها ترجع الى مبادئ أساسية متقدمة والى أصول كامنة خفية موجودة خلقها الله سبحانه وتعالى وانما هدى هؤلاء الى استخراجها في أوقات تناسبها ، فإن من سنة الله في خلقه أن جعل آياته تتعاقب على هذا العالم فيبدل ما شاء ويغير ما شاء ويحول ما شاء ويرفع ما شاء كما قال تعالى ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ وقال تعالى ﴿ يححو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ فكل جيل لا بد أن يظهر له ما يناسبه وتقوم عليه الحاجة به من الآيات المتجددة المصدقة لآيات الله الثابتة الشرعية والكونية ، فأياته مناسبة لحكمته وحاجة خلقه ، ثم هي كلها ترجع الى شيئين الجامع والتفريق ، فالجمع ضم شيء الى شيء آخر مناسب له على قانون ونسق متناسب طبق ما يتصوره الذهن على مقتضى الحاجة المدفوعة بالفقر الذاتي ، فالحاجة الشديدة في الانسان التي يتكون منها الخوف والرجاء هي التي تدفع الانسان الى الحيلة والحيلة تدفعه الى التفكير في طلب الخلاص من الضرر ، والتفكير ينظر الى السبل والطرق التي يمكن بها الخلاص فيصورها بصور كثيرة صحيحة وفاسدة والفاصلة أكثر لكنها بعد تجربتها تُلغى ويؤخذ بالصحيحة ، ثم تتكرر عليها الافكار بالتجديد ، وكل فكر يلقى عليها من التجديد أو التحويل ما في مقدوره واكثر استمدادها بالقياس أو بالوحي ، فالضم هو نقل موجودات مخلوقات الى مثليها ، فليس هو اختراع في الاصل انما هو اختراع في التشكيل أى في كيفية التأليف فيؤلف على حسب الغرض والقصد ، وأما التفريق فهو إزالة عوائق وعوارض غير مناسبة ، وذلك كجمع السفينة من عناصر مختلفة وتأليفها على قانون منظم ، وكنهه البيت فإنه ضم عناصر مختلفة على قياس

منظم فهي تختلف في ثلاثة أشياء : كثرة العناصر والمواد وقلتها ، وكبرها وصغرها ، واختلاف التركيب . فالسفينة شكل جمع من عناصر متنوعة كالخشب والحديد والحبال والقطن والزفت وغير ذلك ، وضم بعضها الى بعض على نسق موزون ، فاجتماع هذه الأمور صارت سفينة قابلة لأن تندفع بالهواء المنحصر ، فانها عرفت أولا بالقياس ، فان اللوح الواحد إذا ألقى في الماء حمله الماء سواء كان كبيرا أو صغيرا ، فجمعت ألواح كثيرة وشد بعضها ببعض فصارت كاللوح الواحد ، وكذلك الطائرة فانها جمعت من عناصر مختلفة كلها أبدعها الله من العدم الى الوجود فركبت على قانون معين بالقياس على الطائرة ، فان الطائرة سواء كان كبيرا أو صغيرا انما يحمله الهواء المكون من حرركته ولهذا لو كسر جناح الطائرة سقط ولم يستطع الطيران ، وكذلك الطائرة فانها بهذا التركيب الهندسى صارت قابلة لأن تتماكب على ظهر الهواء القوى المنفعل عن قوة الحركة المكونة عن قوة الحرارة التي خالصها وروحها النور الذي هو أصل في القوى كلها ، وكل من السفينة والطائرة في امكان الانسان أن يهدمها ويقلبها شكلا أو أشكالا أخرى على صور متعددة ، وهذا بخلاف خلق الله الذي اختص به بقدرته الغيبية فانه خلق شكل بسيط متفاعل يكبر ويصغر بإرادة غيبية فوق الاسباب الكونية كلها ، وبالجمله فالصناعات كلها جمادات مؤلفة على أشكال كثيرة لا يعدها ولا يحصيها الا الله ، ولم تزل أصول هذه الأمور موجودة في السابق من الانسان الأول ، وحيث انها تتجدد بكثرة التجارب ، واكثر التجارب تتجدد أيضا بسبب تجديد الحاجات والضرورات والمصائب المتنوعة ، وبهذا صارت تتجدد شيئا فشيئا لتوارد العقول عليها وعلى موضوعاتها ، وكل عقل لا بد له من ميزة على غيره في شيء ما ، ولا يلزم من تطور الأمور الصناعية تطور غيرها لعلنا أن الأخلاق بحالها ، كما أن الأكل والشرب والهضم والشهوة في النكاح وأمثال ذلك بحاله ، وبالجمله فالله سبحانه هو الذي انفرد بأبداع أصول هذه الأشياء وبتميمتها فأخرجها من

المدم الى الوجود وذراهما بين خلقه لينتفعوا بها ولتقوم عليهم الحجة باكمال نعمته عليهم، ولهذا كان أكثر هذه الصناعات تأتي غالباً في الاوقات المناسبة لمجيئها والمقصود أن المخلوقات نوعان : نوع صناعي وهو مختص بالجمادات وحقيقته تأليف مواد جمادية على أشكال منظمة، فهذا مما جعل الله في الانسان القدرة عليه لحكم كثيرة منها الدلالة على أن المصنوعات تدل على وجوب وجود صانع لها، ولأن في ذلك نوع تكليف اذا حصل معه نية كان في ذلك أجر للعامل كأموال الجهاد ونحوها، ولأن في ذلك أيضاً اظهاراً للفروق بالعلم والمعرفة وامتحان الخلق فيمن يعتمد على الأسباب من يعتمد على مسيئها الى أمثال ذلك، وقد أخبر الله سبحانه بأن هذه الاموال والاولاد (١) فتنة، وأخبر أن زهرة الحياة الدنيا فتنة، فهذا كله فتنة ليتبين المطيع المخلص من المبطل الكاذب، وقد أخبر سبحانه بأن هذا النوع في قدرة الانسان عمله كما في قوله تعالى ﴿ وأوحينا اليه أن اصنع الفلك بأعيننا ﴾ وقال ﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم ﴾ . والنوع الثاني مما اختص الله سبحانه وتعالى بابداعه وخلقته وتأليفه بقدرته الغيبية التي هي فوق جميع الاسباب، وذلك كأبداع أصول المواد كلها وخلق السحاب والمطر وخلق الحيوان وخلق الحياة فيه وخلق بذور النبات واخراج الحب من القصب والثمرات من خشبها، وخلق الأمور المعنوية كالذاكرة والفهم والعقل والشهوة وخلق الحواس كالقوة الباصرة وقوة السمع وهداية القلوب وتقليبها وأمثال ذلك فهذا النوع لا يمكن بحال من الأحوال أن يقدر عليه مخلوق، كما أنه لا يمكن بحال أن يقدر مخلوق على أن يأتي بمثل معجزة واحدة من معجزات الانبياء، وبهذا يتبين لك الفرق بين الصناعي والطبيعي، فالصناعي ليس بأكثر من تأليف المواد المخلوقة أو تفريقها على نظام مخصوص، فهو ينقل مخلوق لمخلوق من موضع الى موضع

(١) وهي داخلة في الاموال

آخر ، والتفريق تمحيضه وتخليصه من شوائبه وعوارضه وما لا يلائمه ،
 فاستخراج البترول ليس هو خلق له بل هو بنفسه موجود سواء كان صناعيا
 أو طبيعيا ، فان الأشياء التي ليس فيها من هذه المادة شيء لا يمكن أن يستخرج
 منها شيء أبدا ، فهو كاستخراج دهن السمسم من بذوره لأنه موجود فيها
 فاستعمل له طريقة يستخرج بها ، وأما الاخشجار والحبوب التي ليست فيها هذه
 المادة فلا يستخرج منها شيء من جنسه ، وكذلك الذهب والفضة والورثيق
 وغيرها فانها لا تستخرج إلا من المواضع الكامنة فيها ، بل آياته سبحانه التي
 يظهرها في الخجاد نفسه لا يمكن لأحد أن يقدر على الاتيان بمثلها كسباط سليمان
 عليه السلام فانه شكل من جنس أشكال كثيرة مصنوعة لا يميز عليها بمادة
 من المواد ولا بتركيب ، وهو جناد جعله الله يطير في الهواء بسبب غيبي غير
 مفهوم ولا معقول ولا محسوس ولا يمكن أن يفهم أو أن يدرك بخال ، وهو
 بخلاف الطائرة فانها شكل من أشكال كثيرة ، فكل من عرف أسباب طيرانها
 أطارها من مسلم أو كافر كالمسئلة الرياضية ، والبساط ليس كذلك فلو ركبته
 غير سليمان لم يطير به ، فكان البساط معجزة لا يمكن أن يقدر على صنع مثلها
 أحد من العالمين لأنه معجزة وسينيق معجزة أبدا الآبدية ، فان معجزات
 الأنبياء لا يمكن أن يأتي بمثلها أحد مهما بلغ ، سنة الله التي لا تبدل ولا تحول ،
 وأثبت تربي على كثرة هذه الصناعات وتطورها قد عجز أهلها كل العجز أن
 يأتوا بمثل معجزة من معجزات الأنبياء من كل وجه على كثرتها كهذا البساط
 وهو في شيء جماع فكيف بالحيوان الذي كان قطرة مائة تنقلب هيكلًا بديعًا
 كاملا في معناه وهيئته الصورية يشبه مملكة كاملة منتظمة بملكها ووزرائه
 وأمرائه وموظفيه وجميع ما يحتاج اليه فيها مدة قيامها ، ثم هذا الهيكل على
 عظمتة في دقة التركيب وحسنه وانسجامه وتناسبه مشتمل على عظام وأعصاب
 وعروق ولحوم ودماء وغيرها ومع هذا يقبل ويدبر بنفسه ويمشي ويجلس
 ويضطجع ويفكر ويعلم ويعقل ويخاف ويرجو ويشتهي ويحزن ويغضب

ويوالى ويعادى ويعاند ويصادق ويحامى ويجهد ويقلد ويدافع عن نفسه ويمكر
ويحتال ويخادع وينافق ويلحد ويوحد ويشرك ويصدق وينصح ويغش ويجادل
ولسمع وبصر ويشير ويعبر عما يوسوس فى نفسه ويخالج ضميره لجنسه ولغير
جنسه ، وله أبواب كل باب له وظيفة خاصة لا يصلح الا لها وفيه أنهار مختلفة
الطعوم والروائح والألوان ، وهو بحملته على ألوان مختلفة من أبيض وأحمر
وأسمر وأصفر وأسود ومختلط الى غير ذلك من الصفات التى هى فى غاية
الاحكام والابداع فتبارك الله أحسن الخالقين ، وأصل هذا كله قطرة ماء
مشاهدة محسوسة ليست شيئا يذكر ، وكل عاقل يعلم بالضرورة من نفسه أن
من عجز أن يمنع الموت من حلول جسم كامل التنظيم والمزاج ، ويعوضه حاسة
واحدة مفقودة من حواسه أى نفس الحاسة المعنوية كالقوة الباصرة فأولى
أن يعجز غاية العجز عن ايجاد أضعف حيوان . وهذه قضايا ثابتة ظاهرة لا
يجادل فيها إلا مكابر مصاب فى دينه وعقله كهذا الرجل ، وبهذا يبطل قوله
« واننا لنخشى أو نرجو وقد تحقق الأيام أى الامرين أحسن أن يأتى الزمان
الذى يقال فيه الانسان الصناعى والحيوان الصناعى » . فلا يخش ولا يرج ،
فلن تحقق الأيام هذا أبدا ، فان حكم الله حق لا معقب لحكمه ولا مبدل
لكلماته ، ونحن نعلم بالضرورة أن من عجز عن خالق حبة شعير تلتب أو حبة
دخن أو أدنى حبة من حبوب الأرض انه عاجز عن خالق ذباب ، فكيف
بالانسان . وقد حكم الله سبحانه بعدم وجود ذلك وعدم قدرة المخلوق عليه قال
تعالى ﴿ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق
كل شيء وهو الواحد القهار ﴾ فاحتج سبحانه على المشركين بأن هؤلاء
المعبودات على اختلاف أجناسها لا يمكنها أن تخلق شيئا يضاهى خلقه بحيث
يتشابه الخلق عليهم ، ثم أخبر أنه هو الواحد القهار ، فهو المنفرد بالخلق الذى
لا يشاركه أحد فى خصائص الألوهية التى منها الخلق والابداع ، اذ لو شاركه
أحد فى هذه الخصائص لكان الها وهو ممتنع ، لأنه اذا كان مثله لم يكن واحدا

قهارا بل يكونان السهين كل منهما قد قهر الآخر فهما مقهوران والمقهوران عاجزان والعاجز لا يصلح للربوبية ، وقال تعالى ﴿ ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ﴾ فقله تعالى ﴿ تدعون من دون الله ﴾ أى غيره ، وهذا شامل لجميع المخلوقات فان فى المشركين من يدعو الملكة والانبياء والجن وغير ذلك ، فاذا كانت الملكة على اختلاف أصنافها وعظمتها وقوتها وطهارتها عاجزة عن أن تخلق ذبابا فكيف بمن يبول الذباب على أنفه ، وفى الحديث الصحيح عن النبي ﷺ انه قال « قال الله تعالى : ومن أظلم من ذهب يخلق كخلقى ، فليخلقوا ذرة وليخلقوا شعيرة » وهذا تحد وتعجيز ظاهر لهم ، لأنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، فقد علم أنهم لا يقدرّون على شيء من ذلك مهما حاولوا وبلغوا ، وهكذا كان الواقع ، فان من عجز عن منع الروح من خروجها فى الجسم الكامل لا شك أنه عاجز عن إيجاد الروح فى الجسم أو إيجاد الروح والجسم معا ، وهذا أبعد ، بل جناح الذباب أو رجله لا يمكن لاي مخلوق أن يخترع عوضا عنها ويجعلها بدلا منها ، وكل هؤلاء الذى عملوا ما شاء الله من الصناعات المدهشة عجزوا غاية العجز عن إبداع حبة من سائر الحبوب تنبت فتكون كخلق الله تعالى ، ومن المحال فى العقل والدين ان يتحدثى الله الناس بشيء وهو يعلم أنهم سيفعلونه ، فان هذا يتنافى عليه بما سيكون ، وهذا كفر ظاهر ، وهذا الذى قاله هذا الملحد صريح فى أن خلق الحيوان غير مستحيل ، فان المستحيل لا يقال فيه نخشى أو نرجو بل يقال نيتس أو نحو ذلك من العبارات ، وانما يقال نخشى أو نرجو فى الشيء الممكن وقوعه الذى يتساوى فيه الوجود وعدمه ، وهذا ظاهر لا غبار عليه . اذا علم هذا فمن اعتقد أن مخلوقا يقدر على إيجاد شيء من الحيوان بعوضة فما فوقها أو من النبات حبة شعير فما فوقها فهو كافر خارج من ملة الاسلام ، لأنه صادم النصوص ، وأشرك بالله فجعل معه إلها يخلق كخلقه .

وفي قوله « وقد تحقق الأيام أى الأمرين أحسن ، يعنى الخشية والرجاء ، وهذا تصريح مؤكد لما قبله فى تجويز ذلك ، وبأن الأيام ستحققه أو يمكن أن تحققه ومعلوم ان الأيام لا تحقق المستحيل أبداً ، وهذا واضح ، ولولا غربة الاسلام لم نحتاج ان نطول الكلام على مثل هذا لوضوح بطلانه . وقوله « وهذا ما لا يزال العلم أمامه حيران عاجزاً ، فيقال : هذا دليل على نقص عقلك وخفته وعلى طيشك وجنونك اذ ادعيت ما لم تحط به علماً ولم يوجد ، وهو من الأمور العظام التى تتعلق بأصل الدين ، فلم لم تسكت وتصبر وتلزم الحياء حتى يتبين لك ما تخشاه أو ترجوه ، ولو كنت مع هذا الاتحاد والنفاق والمخادعة عاقلاً للزمت السكوت واعتصمت بالصبر حتى يظهر لك ما به يمكنك أن تقول به وتصول ، ولكن أبى الله إلا أن يفضح من تعرض لدينه واتبع هواه

فصل

ثم ذكر مسألة تطور السفن وقاس عليها التطور فى الصناعات ، وقد تقدم الكلام على هذا ، ويكفيك اعترافه بأن التطور تطور صناعى فقط ، والذي يقول غير هذا إما غاش أو جاهل كما تقدمت عبارته فى ذلك ، فلا حاجة الى تكرار الجواب ، وقد بنى على هذا أن الانسان عظيم

ثم قال : « إن من السخف المبين أن يظل خطباؤنا ووعاظنا وجميع رجال الدين وغير رجال الدين ينشدوننا الأناشيد ويقذفوننا بالخطب تلو الخطب وبالمقالات إثر المقالات مؤكدين لنا بأن الانسان ما خلق ليكون عالماً ولا ليكون شيئاً كبيراً ولا ليغالب الطبيعة ولا لينازع الله فى علمه وقوته (١) ولا ليخرج من طبيعته ، وإنما خلق عبداً ضعيفاً جاهلاً لئبقى أبداً ضعيفاً جاهلاً ، وإنما خلق من التراب وسبق أبداً فى التراب ، وإنما خلق ليثبت له ويبين أنه

(١) تأمل هذا الكفر الفظيع

لن يستطيع ان يكون عالما كما يقول أحد الشيوخ الذين أوردنا كلامهم أنه ما خلق ليحل المشكلات ولا ليقضى على الآثامات ولا ليدخل التفسير الكبير على شيء من هذا الوجود الجبار الذي منحه الله نظامه ^(١) وان من السخف الميين أيضا أن نطل مخاضعين لهذه الثقافة الميتة علينا وعلى مواهبنا الانسانية بالاعداد من غير أن نحاول التجديد فيها ولا الخروج عليها ولا التبديل في نفسها أو روحها .

قلت : هذا الموضوع من المواضيع التي صرع فيها ، وتخططه الشيطان من المس . ولولا أن المدارس الكبيرة الواسعة الطويلة العريضة والمكاتب التي لا تحصى والمعارف التي هي أشهر من نار على علم ومجالس التدريس التي لا تحصى كل ذلك أشهر من أن يذكر في كل بلاد الاسلام لاحتجنا أن نطول الكلام في تكذيبه وضلاله وعداوته للاسلام ، ولكن وجود هذه الامور وغيرها ورويتها وشهرتها تستغنى عن التطويل في ذلك ، وبالله العجب كيف يدعى هذا المملوح على المسلمين من الخطباء والوعاظ ورجال الدين بل وغير رجال الدين ^(٢) كما يقول انهم يقولون إن الانسان ما خلق ليكون عالما ولا شيئا كبيرا وأنه سيبقى أبدا جاهلا وأنه إنما خلق ليثبت له وبين أنه لا يستطيع أن يكون عالما الخ : أنصفونا يا مسلمون وأنصفوا انفسكم ، أما للدين رجال ، أما في المسلمين رجال . نحن نناشد هذا المجنون المأفون : لماذا أسست الجمعيات في جميع العلوم ولماذا بنيت المدارس ولماذا جمعت المعارف في جميع البلدان الاسلامية ولماذا أفنقت الأموال الطائلة في هذه السبل العلمية اذا كانوا كلهم يقولون ان الانسان ما خلق ليكون عالما وأنه سيبقى أبدا جاهلا . أيها المسلمون ، أيها المسلمون ، ما كنا نظن أن دعيا ملحدا زنديقا يصرخ على رؤوس الأشهاد في وسط أمة

(١) احتاج هنا الى المخادعة

(٢) لا معنى للاتيان بغير رجال الدين هنا

عربية اسلامية يشتمها وينسب اليها أشنع ضروب المقادح فيدعى عليها أن خطباءها ووعاظها ورجال دينها يقذفونها بالخطب تلو الخطب وبالاناشيد تلو الاناشيد وبالمقالات إثر المقالات أن الانسان ما خلق ليكون عالما ، ويدعى أنهم يقولون ويعتقنون أن العلم حجاب وأن الجهالة أم الفضائل ، وأنهم يقولون في وعظهم وفي خطبهم وانشيدهم ان الانسان سيبقى أبدا جاهلا ، وأنه لن يستطيع أن يكون عالما ، وأنه ما خلق ليكون عالما . أيها المسلمون ، ان ترك مثل هذا جنابة كبرى على الدين وعلى الأمة وعلى الأدب وعلى التاريخ وعلى جميع الفضائل . أيها المسلمون ان كان هذا الرجل مجنونا حين رى المسلمين بهذه المقادح التي لا تبقى ولا تذر فليعامل معاملة المجانين ، وان كان ملحدآ زنديقا منافقا عدوآ للإسلام وللعرب وللفضائل كلها فليعامل بما يعامل به جنسه . أيها المسلمون لو أن أكفر يهودى أو أعدى عدو للأمة الاسلامية رى المسلمين بأن خطباءهم ووعاظهم ورجال دينهم يلقون اليهم فى كل مقالة وفى كل موعظة وخطبة أن الانسان ما خلق ليكون عالما وسيبقى أبدا جاهلا ، وان العلم حجاب ، وان الجهالة أم الفضائل هل تسكتون عنه أو هل يعامل بهذا السكوت والتقدير ، افرضوا أن يهوديا فعل هذا فقط فكيف وهذه خطيئة واحدة من فظائع هذه الأغلال . لا شك أنه لو تكلم بهذا يهودى لضج المسلمون من هذا القول ، ولعاملوا قائله بما أمكنهم من المعاملة الصارمة . ولعمري لقد صدق على كثير من الناس ظنه اذ تصورهم حينما عمل هذه الأغلال والداء العضال لا يفهمون الحقائق وأنهم سيحسنون به الظن وأنهم سيقبلون كل ما يقوله من خداع ونفاق ومكر ، وهكذا كان الواقع ، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، ان هم الا كاتنام بل هم أضل سبيلا

يا صاحب الأغلال الويلة والقيود الثقيلة ، من هم هؤلاء الخطباء والوعاظ ورجال الدين وغيرهم من يعتد بأقوالهم فضلا عن علماء المسلمين كلهم وخطبائهم ورجال دينهم وغير رجال دينهم قال فى خطبه ووعظه أو مقالته إن الانسان

ما خلق ليكون علما وسبق أبدأ جهلا . فهذا كنت صادقا فأشر الى طائفة مسلمة من هؤلاء الاصناف المذكورين فصل عن جميع الوعاظ ورجال الدين وغيرهم من يعتمد بقوله ، ولكنك تعرف أنك كاذب متلاعب ، وجدت جورا خاليا فأخذت تقول فيه ما تشاء ، وكيف تقر في صراحك صرعا الله أنه ليس المسلم هو الذي يتبع أغلاط الغالطين وأخطاء الخطئين ، وهنا تجاوزت هذا الى اختراع البهت والكذب في مسبة دين المسلمين وصفات رب العالمين ، بل الصدق الذي لا ريب فيه أن العلماء والوعاظ والخطباء ورجال الدين في خطابهم ومواعظهم ومقالاتهم وغيرها يؤكدون للإنسان أن الخير كل الخير في العلم ، وأن الشر كل الشر في الجهل ، ويبينون أنه يجب على الإنسان أن يتعلم ما ينفعه في دينه ودنياه ، هذا أمر ظاهر يعرفه أدنى العامة ، فأدنى كتاب أو خطبة أو مقالة دينية أو أدبية يجد فيها الإنسان دعاية الى هذا الامر ، وهذا شيء أشهر من الشمس ، ونحن نفهم أنه يشير الى أن جميع علوم الدين وما يتعلق بها من أمور الدنيا ليس من العلم في شيء بل هو الجهل بعينه ، وإنما العلم النافع هو علم الشطرنج والموسيقى والمنطق ونواميس الطبيعة ونحو ذلك كما يأتي تصريحه بذلك في البحث الآتي . ومن أعظم المكابرة في الكذب قوله في هذه الجملة ، وإنما خلق ليثبت له ويبين أنه لن يستطيع أن يكون عالما كما يقول أحد الشيوخ الذين نقلنا كلامهم أنه ما خلق ليحل المشكلات ، فهذا كذب وجور ظاهر ، ما قاله أحد من الشيوخ ولا نقله في كتابه الاغلال أبدا بهذا اللفظ ، والذي نقله عن الزنجشري والرازي وابن أبي الحديد والشهرستاني وغيرهم هو ما أثبتناه برقمته ، وقد رأيت كلامهم وأنه ليس فيه حرف واحد من هذا الذي ادعاه البتة ، وكلامهم يعزل عن هذا الذي يدعيه ، وبينه وبين ما يقصد كما بين السماء والارض كما أوضحناه سابقا بما فيه كفاية . والبلية والمصيبة كونه جعل من السخف الممين قول الخطباء والوعاظ ورجال الدين أنه لا يجوز أن ينازع الله في علمه وقوته وقدرته ، فجهل هذا الزنديق هذا القول الذي هو

من أعظم أصول التوحيد سخفا مبينا ، ثم لم يكفه هذا الكفر حتى جعله ثقافة مية يجب التبديل في نصها أو روحها فعنده أنه يجب وجوبا قطعيا أن ينازع الله في عليه وقوته وقدرته ، لأن السخف المبين يجب اجتنابه ومضادته وجوبا لا مربية فيه ، وهل يخفى ما في هذا من الكفر الغليظ . ولكن من يرد الله فتنه فلن تملك له من الله شيئا

فصل

ثم أخذ في تقرير هذا الأصل الخبيث في ايجاب هدم هذه الآراء التي يقولها الخطباء والوعاظ ورجال الدين بزعمه وأن تنشأ ثقافة بدلها . ولا شك أن تبديلها رفض الدين وخلعه ، لأنه ذكر أن عدم منازعة الله في عليه وقوته وقدرته سخف مبين ، فلا بد إذن من تبديلها بأن ينازع في عليه وقوته وقدرته ، ومعنى هذا أنه ينازع في ربوبيته والهيته ، لأن عليه وقدرته وقوته من أعظم خصائص الربوبية والآلوهية ، فإذا نوزع في ذلك فقد نوزع في الربوبية . قاتله الله ما أجرأه وأجره حيث قال « إن أقل ما يجب أن نفعله الآن أن نشيد ثقافة جديدة كل الجدة ، منتزعة من روحنا المضغوطة تحت هذه الثقافة الخبيثة القاتلة ، انتهى . فقد علمت أنه صرح بأن هذه الثقافة التي منها تحريم منازعة الله في عليه وقوته وقدرته ثقافة خبيثة قاتلة يجب رفضها وتبديلها ، أما نقله عن الخطباء وغيرهم تحريم التعليم ونحوه فقد بينا أنه كذب ، وإنما أدخل هذه المسئلة مع تلك المسائل مغالطة وتلميسا ومخادعة . ثم دعواه أنه يجب أن فنشى ثقافة جديدة بدلا عن هذه الثقافة دعوى قد بينا ما فيها ، وأنه يقصد بذلك رفض ثقافة كون الله لا ينازع في عليه وقوته وقدرته ، لأنه جعل ذلك من السخف المبين . ثم لو سلمت له هذه الدعوى فقد سد طرق الثقافات كلها سدا محكما إلا طريقا واحدا وهو أن تكون هذه الثقافة الجديدة مبنية على الأخذ باغلاله التي يقول إنها حقائق أزلية أبدية ، وقد صرح بأن النهوض

موقوف على الأخذ بها ، والسقوط موقوف على تركها ، وأنه لن يستغنى عنها مسلم ، فكيف نحاول انشاء ثقافة تتضمن ترك ما في هذه الاغلال ، فان ذلك يفضى الى السقوط ، فحالة انشاء ثقافة غيره ضرب من العبث بل ضرب من الجنون والتهور وفساد العقل ، فان الذى يطلب ثقافة جديدة من غير الحقائق الازلية الأبدية ويتخطى ما النهوض معلق على الأخذ به والسقوط معلق على تركه لا شك أنه مجنون متهور فى غاية الحق والجهالة ، ونعوذ بالله من ذلك

وأكبر من هذا وأطم قوله بعد هذا : وأن نقيم قواعد هذه الثقافة على روح الإيمان بالانسان وبمواهبه التى لا تحصى ، ليتسنى لنا بعد هذا الايمان الاتجاه الى استغلال هذه المواهب والى الانتفاع بها . فقد رأيت أنه صرح بأن هذه الثقافة التى يريد انشاءها يجب أن تكون قواعدها مقامة على الإيمان بالانسان وبمواهبه ، لأن الثقافة التى يريد ازلتها كانت مبنية قواعدها على الإيمان بالله وقدرته الكاملة وعلمه الشامل وقوته التى لا مرد لها ، فلا يمكن أن ينازع فى علمه وقوته وقدرته ، فيجب - كما يقول - ابدال هذه الثقافة الدينية التى جعلها بحشه مية بثقافة بدلها وهى ابدال الايمان بالخالق ايماننا بال مخلوق ، فيجب الكفر بالخالق ورفض دينه الذى هو الثقافة الأولى لأن الايمان بذلك صار سدا منيعا وحجابا كشيئا عن الايمان بالانسان واستخراج مواهبه ، فلا يمكن أن يجتمع فى القلب الايمان بالانسان المخلوق بأنه يعلم كل شيء ويقدر على كل شيء والايمان بالخالق كذلك فلا بد من الترجيح لازالة التردد والشك والريب ، وهذا الترجيح بزعمه هو أن نرفض الايمان بالرب العظيم الكبير القهار المتعال المقدس ونؤمن بابن الحىض بأنه على كل شيء قدير وأنه بكل شيء عليم ^(١) ولذا قال « ليتسنى لنا بعد هذا الايمان الاتجاه الى استغلال هذه المواهب والى الانتفاع بها » ، وهذا صريح فى أنه يرى أن الايمان بالله أعظم

مانع للاتجاه الى استغلال هذه المواهب ، فيجب ازالة هذا الحجاب بالايمان
بالانسان فانه لا يزال إلا بذلك ، وهو تصریح ظاهر بأن الايمان بالله وحده
كان نكبة على البشر كما نقله عن بعض الملاحدة كما يأتي ، فصار الايمان بالله على
رأى هذا الملحد هو الذى منعهم عن استغلال مواهبهم ، قلعه الله كما لعن
أحباب السبب ما أجرأه على الله ودينه وعباده المؤمنين

وهذا التعليل الخبيث الذى علل به هذه الدعوى من أن الايمان بالانسان
يوجب الاتجاه الى استغلال المواهب تعليل باطل مضروب به وجهه ، فانا
نقول قولاً صحيحاً معقولاً لا شك فى صحته أنه لا يمكن بحال أن نتجه الى
استغلال المواهب ما دمنا مؤمنين بالانسان وانه يقدر على كل شيء ويعلم كل
شيء ، فان هذا الايمان يوجب القلق والاضطراب والشك والريب ، فان كون
الانسان مخاطب بما لا يعقله وبما لا تقبله فطرته أمر يوجب له هذه الأمور
ويوجب له الوهن العظيم ، فانه لا بد لهذا المخاطب من أمرين : اما أن يكون
بليداً فربما يصدق بهذا ، ومعلوم أن البليد لا يظهر نتيجة صحيحة كبيرة (الحواما
أن يكون ذكياً فلا يمكن أن يؤمن بأن الانسان يعلم كل شيء ويقدر على كل
شيء وهو يرى نفسه وجميع جنسه قد عجزوا عن أشياء فى نفوسهم وأبدانهم
وأولادهم وأموالهم ونفوس غيرهم وأبدانهم وأولادهم وأموالهم لا تعد ولا
تحصى ، كيف يؤمن الاعمى والأعرج والشيخ السكير وأمثالهم بقدرة الانسان
على كل شيء وهو يرى ما هو فيه من العجز والضعف وعدم القدرة ، وكيف
يؤمن الشاب الذكى الذى يتوقد ذكاء والهموم تشتعل اشتعالاً فى قلبه فى طلب

(١) ثم انه لا بد أن يكون هذا الايمان وبالا عليه من ناحية عمله ، فانه يبقى
خائفاً من عدوه لانه اعتقد أن الانسان على كل شيء قدير فربما يضره عدوه فى عقله
أو صورته أو جسمه أو قلبه أو غير ذلك لانه صار معادياً لمن يقدر على كل شيء
ويعلم بكل شيء وليس له رحمة ولا عدل يمنعه من ذلك

معشوق أو دنيا من مال أو جاه أو غير ذلك ، ومع ذلك قد عجز غاية العجز عن حصول شيء من ذلك ، وكل هؤلاء وأمثالهم قد علموا بالضرورة أنهم عاجزون عن إزالة كل ما يحصل لهم في كل وقت وحين من مصائب الدنيا ، وعاجزون عن نيل كل ما يتمنون ، فالإيمان بالإنسان على النجوى الذي يدعو إليه أكثف حجاب وأعظم سد في الحيلولة بين الاتجاه للعلم واستغلال المواهب ، والطريق الوحيد التي لا طريق سواها ولا شك في نجاح الإنسان بها في الاتجاه للعمل واستغلال المواهب هو الإيمان بالله سبحانه وتعالى بأنه قادر على كل شيء وأنه الكريم الجواد الذي لا يخيب من سألته واستعان به وصدق في معاملته واستسلم لما أمر به وأنه خلق هذا المخلوق وسخر له ما في الأرض ، وأنه فتح له الطريق في كل ما يمكن من صناعة وزراعة وتجارة وغيرها ، وأعطاه عقلا مطلقا يتصرف به كيف شاء في هذا الميدان ، وأنه أمر بالعمل الديني والدينى ووعده بالإجابة والاعانة ، وهو سبحانه يقدر على اعانته متى توجه إليه واعتمده ، فانه القادر على كل شيء العالم بكل شيء ، فعلى الإنسان أن يستحصل كل ما في حاجته بواسطة طاعته تعالى وامتناله وأوامره ، فإيمانه بهذا يلهم في قلبه حرارة لا حد لها في القوة والاستقامة على التسابق في الأعمال والمصابرة عليها وتقلب الأفكار والانظار في التجربة والابداع ، ويورث من الشجاعة وثبات النفس والقوة ما لا حد له ، لأنه على آماله العظام الطويلة القوية على رب عظيم قوى كريم رحيم له القدرة الكاملة والقوة الكاملة والكرم والجود والرحمة الكاملة . وأما الإيمان بالإنسان على المعنى الذي ذكره فهو وهم مرذول ساقط لا يقبله إلا مرذول ساقط ، وبهذا كان السقوط والدناءة وضعف الهمة ملازما للمؤمنين بالإنسان ، والشجاعة والثبات والسميت القوى وصحة النظر والفكر ملازمة للمؤمنين بالله إيمانا صادقا مخلصا قويا ، فلا يهدأ أكثر المؤمنين بالإنسان الا كل مشغول بخاصة نفسه وبما يوافق شهوته وهواه ، لأن إيمانه كان ضيقا محصورا في المخلوق ، فيجب أن يسعى فيما يرضى هذا المخلوق ،

الذى آمن به ، فلا توجد الرشوة والخيانة والكذب والفجور والزندقة والاحساد ولا غير ذلك من الأخلاق الرديئة الويلة كالقيادة والديانة وجميع الفواحش الا في المؤمنين بالانسان وبمن يؤمن بهم ، ولا يوجد الورع والعفة والصيانة والصدق والنصح في الأقوال والأعمال والثبات فيها والشجاعة والصرامة وجميع الاخلاق العالية النزيهة إلا في المؤمنين بالله المعتمدين عليه ، وهذا أمر يعرف بالبدهة والواقع لا ينازع فيه إلا مكابر

ثم قال بعد هذا : ثم أن نعد أن هؤلاء الذين يدعوننا الى الكفر بالانسان مجرمون ، لا يستحقون منا إلا مثل ما يستحق أصحاب الدعوات والمبادئ الهدامة ،

فيقال : قد بينا أننا لا نكفر بالانسان ولا نؤمن به على المعنى الذى تريده وتدعو اليه بل ننزله فى منزله الطبيعى الذى وضعه الله فيه ، فقدردناه حق قدره وقلنا انه أكرم المخلوقات على الله ما دام معتصما به ، وانه خلق خفيفا مستقيم الفطرة قابلا للكمال الممكن فى حقه ، وأنه أعطى من المواهب والاستعداد فيما يتعلق بالصناعات ونحوها ما لا يدخل تحت حصر ، ولكن لا يمكن بحال أن يساوى الله فى شيء من خصائصه ، هذا هو اعتقادنا فى الانسان ، وأما أنت فكفرت ببعض الانسان أشنع الكفر وأبشعه ، وآمنت ببعضه أفسد الايمان وأبطله ، فجمعت بين الكفر والايمان ، فكفرت بمن يستحقون الايمان المعقول من السلف الصالح الموجودين وقت نزول القرآن والتابعين لهم ، وآمنت بملاحدة العصر . وأما القرون الأولى فجعلتهم أدنى حالا من البهائم والحشرات بحيث انهم لا يستطيعون الكلام ولا الفهم ولا غيره ، بل يعبدون كل متحرك لذاته ، وهذا أكفر الكفر بالانسان . وهكذا عملت مع كل القرون الاولى الى هذا العصر فلم تؤمن ولا بعشر عشر معشار الانسان ، بل الانسان الذى آمنت به كشجرة بيضاء فى جلد ثور أسود بالنسبة الى من كفرت به بل أقل من ذلك ، ثم ادعيت مع هذا أن الواقع أن الانسان خبيث شرير

ظالم شيطان وليس وراء هذا الكفر بالإنسان والقدر فيه كفر وقدر فكيف تدعى أنه في الواقع شيطان وتدعو إلى الإيمان به ، فأنت إذن تدعو إلى الإيمان بالشياطين الخبيثاء الأشرار الظلمة وتدعو إلى الكفر بالمؤمنين الطيبين الخيرين العدول ، لأنك ادعيت أن المتدينين على اختلاف أجناسهم ما وهبوا الحياة شيئاً جديداً ، ومن العجب أنك قررت أن المجرد من كل دين يبقى كذلك على الشر والخبيث والظلم والجهل ، مع تقريرك بأن المتحلل من الأديان هو الذي صنع الحياة وصنع لها العلوم المبتكرة ، فسيحان واهب العقول . وبالجملة فإن حقيقته مذهبك واعتقادك بمقتضى كلامك هذا وغيره أنك كفرت بالإنسان المؤمن بالله المتدين بدينه وآمنت بالكافر به وبدينه ، ثم رجعت فكفرت بمن آمنت به وبقيت على الكفر به ، فكفرت أولاً بنوع وآمنت بنوع آخر ، ثم رجعت فكفرت بمن آمنت به وآمنت بمن كفرت به ثم رجعت فكفرت بالجميع كما أنك كفرت بالله كذلك في عملية هذه الأغلال وغيرها ، فما أشبهك بمن قال الله فيهم ﴿ ان الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا . بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً ، الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتبعون عندهم العزة فان العزة لله جميعاً ﴾ وهذا هو الواقع من حال هذا المبطل ، فما ادعاه فهو حجة عليه ، فانه من اعظم الهدامين للمبادئ والاسس السليمة القوية ، عامله الله بعدله

فصل

ثم قال « انه لو اعتقد انسان اعتقاداً قائماً على الوهم انه مقيد بقيود لا يستطيع التغلب عليها ولا الخلاص منها لبق قاعداً مستسلماً لهذه القيود الوهمية ولما حاول النهوض ولا المسير ، ولو اعتقد أنه لا يقدر على القيام لظل قاعداً ، ولو وضع في مكان ثم أفهم بأن ذلك المكان مغلق وأنه لا يمكنه الخروج منه

بحيلة من الحيل لألزمه ذلك المكان والاعلاق الوهمي مكانه ولما أمكن أن يلتمس الوسائل للنجاة والافلات ، إلا أن يكون لديه منفذ للأمل يتعلق به ، وكذلك الجماعات والشعوب التي تعتقد خطأ بأن قواها العقلية مقيدة بقيود وهمية أو أنها مقعدة أو أنها موصدة عليها الأبواب تظل خاضعة لهذه الأوهام ما دامت خاضعة للإيمان بها ،

فيقال على وجه النقص : هذا رمي في الهواء ومخاطبة للاشباح التي لا وجود لها ، فانه مبنى على أن المسلمين يقولون ان الانسان عاجز مقعد لا يمكن أن يعلم ولا يمكن أن يفهم أن يعمل ، وأنه لا يستطيع تعلم الصناعات ، وان عقله مقيد بقيود محدودة ليس في امكانه ان يتجاوزها ، بل انه مبنى على أن الانسان لا يستطيع أن يعمل شيئا مطلقا كالمقعد والمقيد ، وكل هذا لم يقل به أحد من المسلمين ولا من المتدينين الذين يؤخذ بأقوالهم ، بل المسلمون يعلمون أن الانسان مأمور بالعلم ومأمور بالعمل ومأمور بأن يطلق عقله اطلاقا كاملا في كل ما هو في استطاعته وفي طوره ومقدراته ، أما اطلاقه فسيما لا يمكن ولا يستطيع فهذا مما يوهنه ويقطع عليه الوقت بل ويضره ، فهو كاطلاق العامل في محاولة مالا يطيقه ويعجز عنه ، فان ذلك ينهك قواه ويفوت عليه امورا لا يمكن استدراكها ، وكل هذا الذي ادعاه قول زائف لا محل له البتة فهو - كما ذكرناه عنه غير مرة - يتوهم أوهاما على حسب ما يتمنى ويريد ، ثم يرمي بهذه الأوهام المسلمين ، ثم يدعى عليهم أنهم يقولونها ويعتقدونها كي يأخذ في التحامل على هذه الأوهام والمخاربة لها ، فهو أشجع الشجعان في محاربة أوهامه التي يتصورها على ما يشاؤه ويشتهي

ونقول على وجه المعارضة انه لو اعتقد انسان اعتقادا جازما قائما على الوهم أن في استطاعته أن يطير في السماء بنفسه وأنه سيطر حيا دائما وأنه يمكنه أن يفنى هذا العالم كله أو يملك هذا العالم كله أو أنه يستطيع التغلب على الموت والخلص منه وأنه لا يمكن أن يحتاج لأكل وشرب أو أنه لا يحتاج الى بول.

واستفراغ وأنه لا شيء فوق قدرته وأنه يعلم بكل شيء - نقول انه لو اعتقد هذا كله أو بعضه أو شيئا منه - لم ينفعه هذا الاعتقاد ولم يثمر سعيه له بمجرد اعتقاده ولم ينفعه كل ما يحاوله فيما لا يقدر عليه كما لا ينفعه أن يحاول أن يكون جسمه اكبر من الجبل وأن يكون أقوى من الحديد ، وكل محاولة يحاولها الانسان فوق استطاعته المحدودة لا بد ان تحبط وأن لا يحصل له الا الخيبة والخسران ، ان محاولة كل مستحيل نقص ظاهر في العقل ، ولو أن انسانا صدم صخرة برأسه معتقدا أن رأسه سيفلق الصخرة حتما لا تكسر رأسه وظهر دماغه مع أذنيه أو منخريه ولم ينفعه اعتقاده شيئا بل يضره غاية الضرر ، ولو أن انسانا ألقى بنفسه من شاهق محاولا بوهمه أنه لن يضره ذلك لم ينفعه هذا الوهم والاعتقاد ، ولو أن انسانا ألقى بنفسه في نار بدون ما يقيه لم ينفعه ذلك ، بل كل هذا ربما يقضى على حياته ، ولذلك كان عاقبة الذين آمنوا بهذه الأوهام السخيفة - بدون قياس وفكر موزون - الدمار والسقوط والهلاك ، لانهم آمنوا بهذا الايمان الذي يدعيه فاعتقدوا أنهم سيحصلون على كل ما شاءوا وأن قدرتهم ستبهم كل شيء وتوصلهم الى كل أمل . ان المسلمين لا يمتنعون السعي وبذل الجهد في سبيل وسائل المجد انما يمتنعون كون اعتقاد الانسان وأمله في كل شيء سيوصله اليه ولو كان مستحيلا ، فان هذا يخالف لضرورة العقل ، فالمستحيل مستحيل والممكن ممكن والواجب واجب والحقائق ثابتة في نفسها ، فمن هو الذي يقدر أن يغير صورته الى صورة أخرى أو جسمه الى جسم آخر أو روحه أو عقله الى روح أو عقل آخر بل أن يغير ضوته الى صوت آخر بحيث يلتبس به ، ولو أن انسانا وضع في مكان مغلق محكم الاغلاق من كل وجه ثم حاول التخلص منه بحيلة واعتقد أنه سيخرج لا محالة لم ينفعه مجرد اعتقاده أبدا انما ينفعه في النادر اذا فكر ثم رأى بفكره أن هذا الشيء غير مستحيل ثم سعى في التخلص بكل ما يقدر عليه من حيث الجهة التي هي ممكنة فقط ، أما اذا كان المحل مغلقا والقفل محكما وليس عنده ولا لديه

أحد فلا يمكنه الخروج أبدا إلا أن يكون بخارق عادة ، وهذا انما يحصل بالطاعات وهي عنده لها نتائج أخرى هي الملهاة والمصرف الخبيث . ولو أن مقعدا حاول النهوض والمشى بمجرد وهمه واعتقاده أنه قادر على ذلك لم ينفعه اعتقاده ووهمه بل يبقى مقعدا على حالته وذهب اعتقاده ومحاولته هباء وبالجملة فجرد اعتقاد الانسان بأنه يصل الى كل شيء وأنه يتغلب على كل شيء لا ينفع أبدا بل يوقع في القلق والاضطراب وفساد الرأى ، وكذلك اليأس لا ينفع انما ينفع بذل الجهد فيما يمكن الوصول اليه ، وهذا هو قولنا ، فما ادعاه هنا وزخرفه بالتقوية والسكند والمجازفة كلام ساقط لا يعتد به كما هو ظاهر

فصل

ثم قال : « وأخيرا لقد زعم هؤلاء ان الرسول الكريم قال « من عرف نفسه فقد عرف ربه » ثم زعموا أن معناه من عرف نفسه متصفة باضداد صفات البارى - أى بالجهل والغباء والحقارة والضاآلة والضعف والافتقار والفقر وبكل الصفات المرذولة - فقد عرف ربه بالعلم والقوه والغنى وكل صفات الكمال ،

والجواب أن يقال : (على نفسها تجنى براقتش) هكذا زعم ساداتك الملاحدة الذين دخلوا فى الاسلام كيداً له ولأهله ليشوهوا سمعته بذلك فان هذا لا يكاد يعرف فى كتاب من كتب المسلمين على اختلاف مذاهبهم ، وانما يقال انه يوجد فى كتب الاتحادية الذى رموا بالاحاد والقدح فى الأديان ، فهؤلاء الملاحدة الاتحادية من الجهمية وغلاة الصوفية انما دخل غلاتهم فى دين المسلمين متربصين بأهله الدوائر باذلين جهودهم فى تشويهه والايقاع بأهله ، واذا سئلوا عما كتبوه من الألفاظ الاتحادية الكفرية فى كتبهم المزخرفة بالتقوية ودعوى أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر أجابوا بأن الناس لم يفهموا كلامهم وأن لهم اصطلاحاً خاصاً وأنهم محسودون عليها ، وذهبوا فى المراوغة

والنفاق والتأويل البعيد كل مذهب ، وقالوا انما نغنى كذا وكذا ، ولكن الناس لم يعلموا المراد الذى نقصده . فمؤلا الزنادقة الهدامون وأمثالهم هم ساداتك وأسلافك في هذه الميادين الاحادية ، فانك اقتضيت آثارهم واتبعت آراءهم ، فما كان ينبغى لك أن تشنع على أئمتك وساداتك الذين مهدوا لك الطريق وسلكت سبيلهم في هذا المضيق ، أما المسلمون فانهم لا يقولون هذا القول ولا يفسرون هذا الحديث بهذا التفسير ، فانهم يفسرونه على تقدير ثبوته بان المراد من عرف نفسه وما فيها من التركيب البديع العجيب والنظام المحكم عرف ربه ، فان المخلوق لا بد له من خالق فافيه من الاحكام دل على العلم والقدرة والحكمة والإرادة ودل أيضا هذا الوضع على أنه سبحانه رحيم رءوف دائم الاحسان ، فمن عرف نفسه عرف ربه لما هو به من هذه النعمة العظيمة الدالة على الاحسان وعلى صفات الكمال ، فعنى هذا الحديث كعنى الآية المتقدمة ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ وقد تقدم الكلام على هذه الآية . أما كون المسلمين يدعون أن معناه على ما ذكره فراء ظاهر لا يشك فيه مسلم ، وقد كان من المعلوم عند المسلمين أنه قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : ان الله كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود ، وانه جميل يحب الجمال ، فهم يحبون الكرم والجود والجمال كما يحبون الرحمة والعدل والحكمة والاحسان والعلم وأمثال ذلك ، وكل هذه الصفات قد وصف الله بها نفسه على ما يليق به ويختص به لا على ما يليق بخلقه ويختص بهم ، فكيف يدعى هذا الملاحد أنهم يوجبون على الانسان أن يتصف بضد صفاته تعالى على ما ذكره . أما التكبر والقهر والتعذيب بالنار ونحو ذلك فانهم لا يميزون للانسان الاتصاف بها لأن ذلك مما ينافي العبودية المطلوبة منهم ولأن ذلك ليس لهم منه منفعة بل مضرة ، وهذا مع العلم بأن العلم والرحمة والحكمة ونحوها مما أمر الله تعالى بالاتصاف به ليست من جنس صفات الله تعالى التي اختص بها ، بل هي صفات تليق بهم بقدر حالتهم ، كما أن صفاته تعالى تليق به مع ثبوت حقائقها في حقه تعالى وتقدس

ثم انه أخذ يتهور في معنى هذا الحديث فحمله على ما يوافق هواه وشهوته فقال أيضا في معناه : والتفسير الصحيح لهذا القول لو كان صحيحا أن المراد من عرف نفسه على حقيقتها عرف مواهبها العديدة الكامنة وخصبها العجيب فاستثمرها عرف ربه معرفة صحيحة الخ

فيقال : لكن الشأن في معرفة المقصود من المواهب والاستعداد ومعرفة الاستثمار ما هو ؟ والله سبحانه قد أوضح ذلك أيضا لا أبين منه ، فأخبر تعالى أن الحكمة في خلق الجن والإنس والغاية المطلوبة منهم عبادته وحده لا شريك له كما قال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس الا ليعبدون ﴾ أخبر أن الدعاء من أعظم أركان العبادة كما قال تعالى ﴿ قل ما يعبدكم ربى لولا دعاؤكم فقد كفرتم فسوف يكون لزاما ﴾ وأنت جعلت هذا لا فائدة فيه ، وأخبر الله ان الفطرة التي فطر الناس عليها هي قبول الدين والعمل به ، وأنت جعلت الفطرة التي هي الاستعداد والمواهب خبثا وشرًا وظلما وجهلا ، فكيف يمكن أن تستثمر من الخبث والشر والظلم الخيرات وطرق الرشد والكمال ، فانت لم تعرف ربك بهذا الاعتبار ولا بغيره أيضا لأنك سلكت في هذه المواهب والاستعدادات مسلكا غير مسلك المسلمين ، بل سلكت مسلك الملحدين ، لأنك دعوت الى خلع الدين ورفضه واتباع سبيل الملحدين وطريق المنافقين فكان المسلك الذى سلكته في هذه المواهب مسلكا خبيثا ملتويا بعيدا مضلا ، لأن حقيقته كما قلنا رفض الدين وجعلت ذلك طريقا الى الترقى في علوم الصناعات والتوسع فيها فصادمت كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وأخذت تتخط في ظلمات الشك والريب كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ، كذلك زين للمسرقين ما كانوا يعملون

الكلام على المبحث الثالث

قال الملحد :

« العلم حجاب - الجهالة أم الفضائل - أكثر أهل الجنة الله - هكذا قالوا -
روى جماعة منهم الحاكم وصححه أن الرسول عليه السلام قال « لا تنزلوا النساء
الغرف ولا تملوهن الكتابات واستعينوا عليهن بالمغزول وسورة النور »
وروي أن علي بن أبي طالب مرّ بامرأة تعلم الكتابة فقال « أفعى تسقى سما »
وروي أن النبي عليه السلام قال « ان البيان والبذاء من النفاق » ، وان العي
والبذاءة من الايمان » وانه قال « ان الله يكره البليغ من الرجال »

والجواب أن يقال : أما دعواه أن المسلمين ^(١) يقولون ويعتقدون أن
العلم حجاب وأن الجهالة أم الفضائل ، فيكفي في رد هذه الدعوى برهان
الضرورة والمشاهدة والحس ، فان هذا أكبر برهان ، وهو وجود الكتب
المتنوعة في كل فن مما لا يمدّه ولا يحصيه الا الله تعالى ، فهذه الكتب قد ملأت
المكاتب ونحوها من المجالات والجرائد وكلها مملوءة بمدح العلم وذم الجهل ، ولو
هلت لأدنى عامي من المسلمين أنت جاهل لم يرض بذلك لأنه يرى الجهل عيبا
والعلم فضيلة ، فوجود هذه الكتب والمجلات والجرائد ووجود المدارس منذ
ثلاثة عشر قرنا في هذه الأمة المحمدية وهذه المدارس في جميع بلاد الاسلام
من أكبر البيوت وأوسعها وأطولها وأحسنها كاف في تكذيب هذه الدعوى .
ولو أن الله أعمى عينيه كما أعمى قلبه وأصم أذنيه كما أصم قلبه لكان له نوع من
العذر ، أما كونه يدخل المدارس ويخرج منها وينظرها وقد دخل الأزهر
وطرد منه وحشا كتبه الأولى كلها مما يخالف هذا فلا حاجة الى الاطالة في
جداله ونقض دعواه . وهذا الجواب وهذا البرهان الحقيقي كاف في ما لو أن

(١) لأن موضوع أغلاله في الأسباب التي أخرت المسلمين خاصة على ما يزعم

أَكْفَرُ يَهُودِيٍّ وَأَعْدَى عَدُوٍّ لِلإِسْلَامِ وَالْعَرَبِ وَادْعَى أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَرَوْنَ
 الْعِلْمَ حِجَابًا وَيَرَوْنَ الْجَهْلَ أَمَ الْفَضَائِلِ فَلَا يَرُدُّ عَلَيْهِ فِي تَكْذِيبِ هَذِهِ الدَّعْوَى
 بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا ، لِأَنَّ الْمَكَابِرَ فِي جَمْعِ هَذِهِ الْحَقَائِقِ سَفْسُطَةٌ وَهَذِيانُ وَجَنُونَ
 وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الْأَذْهَانِ شَيْءٌ إِذَا احتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلٍ
 وَأَمَّا الْأَحَادِيثُ الَّتِي ذَكَرَهَا فَالْجَوَابُ عَنْهَا مِنْ وَجْهَيْنِ مَجْمَلٍ وَمَفْصَلٍ ، أَمَّا
 الْمَجْمَلُ فَنَقُولُ لَا تَخْلُو هَذِهِ الْأَحَادِيثُ مِنْ ثَلَاثَةِ فُرُوضٍ أَمَّا أَنْ تَكُونَ كُلُّهَا صَحِيحَةً
 أَوْ تَكُونَ ضَعِيفَةً أَوْ يَكُونُ بَعْضُهَا صَحِيحًا وَبَعْضُهَا غَيْرَ صَحِيحٍ ، فَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ
 - أَيْ صَحِيحَةً كُلُّهَا - فَلَا حَاجَةَ إِلَى أَنْ يَرُدَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْعَامِلِينَ بِهَا وَيَشْنَعُ عَلَيْهِمْ
 - إِنْ كَانَ قَدْ عَمِلَ بِهَا أَحَدٌ - وَيَذْمُهُمْ ، لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ إِنَّمَا يَرُدُّ عَلَى مَنْ قَالَهَا عَلَيْهِ
 السَّلَامُ ، لِأَنَّ التَّشْنِيعَ بِهَا وَجَعَلَهَا حَلَقَةً مِنْ حُلُقِ أَغْلَالِهِ وَسَبَبًا مِنْ أَسْبَابِ
 التَّأَخُّرِ دَلِيلٌ عَلَى رَدِّهَا وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهَا ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ عَلَى هَذَا
 الْاِفْتِرَاضِ فَهِيَ إِنَّمَا يَرُدُّ عَلَى هَذَا الرَّسُولِ الْكَرِيمِ لَا عَلَى أَتْبَاعِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ،
 لِأَنَّهُ سَاقِ الْأَحَادِيثِ نَصًّا ثُمَّ جَعَلَهَا مَوْضِعَ الْاِنتِقَادِ ، وَإِذَا لَجَأَ إِلَى الْخُذَّاعِ
 وَادْعَى أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَفْهَمُوا مَعْنَاهَا لِأَنَّهُمْ عَنْدَهُ لَا يَفْهَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ
 لِأَنَّ الْعِلْمَ حِجَابٌ عَنْدَهُمْ قِيلَ يَجِبُ عَلَيْكَ أَوَّلًا أَنْ تَبَيِّنَ بِالْبَرَاهِينِ وَجْهَ دَلَالَتِهَا
 عَلَى مَقْتَضَى أَصُولِ اللُّغَةِ وَالشَّرْعِ ثُمَّ تَبَيِّنَ فَهْمَ الْعُلَمَاءِ لَهَا ثُمَّ تَبَيِّنَ فَهْمَكَ أَنْتَ لَهَا
 وَتَرَدَّ مَا يَعَارِضُهُ وَيُخَالِفُهُ بِالْبَرَاهِينِ وَالْأَدْلَالِ الْمَعْقُولَةِ فَتَفْيِضُ فِي شَرْحِهَا كَمَا
 أَفَضْتَ فِي شَرْحِ كَلِمَةِ ذَلِكَ الْمُتَخَصِّصِ فِي عِلْمِ النَّفْسِ ، وَكَأَنَّ أَفَضْتَ فِي شَرْحِ حَالَةِ
 وَزَارَةِ الْقَوَيْنِ الْمَصْرِیَّةِ حَيْثُ لَمْ تَجِبْ طَلْبُكَ عَلَى الْفُورِ فِي بَيْعِ الْوَرَقِ ، فِي نَحْوِ
 خَمْسِ صَحَافٍ ، وَكَأَنَّ أَفَضْتَ فِي شَرْحِ كَلِمَةِ جَسْتَاغٍ الَّذِي نَقَلْتَ عَنْهُ أَنَّهُ يَقُولُ
 إِنْ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَحْدَهُ كَانَ نَكْبَةً عَلَى الْبَشَرِ ، وَأَخَذْتَ تَمَطُّطَ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ وَتَعَلَّقَ
 عَلَيْهَا ذَلِكَ التَّعْلِيقُ الْمُنَاسِبُ لِحَبْثِكَ وَعِدَاوَتِكَ لِلإِسْلَامِ ، فَانْتَ اذْنُ لَمْ تَفْعَلْ
 شَيْئًا مِمَّا ذَكَرْنَا عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ . وَإِذَا كَانَ الْغَرَضُ الثَّانِي وَهُوَ كَوْنُهَا غَيْرَ
 صَحِيحَةٍ فَعَلَيْكَ أَنْ تَبَيِّنَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ مَنْ قَالَ بِهَا مِنَ النَّاسِ ، ثُمَّ تَبَيِّنَ ضَعْفَهَا

وضعف ما بنى عليها وذلك بذكر رجال اسانيدها وما قيل فيهم ، وتذكر كلام
 اهل المعرفة بهذا الفن في بيان ضعفها وعدم الاعتماد عليها ، ولا يكفي مجرد
 الدعوى بالضعف ، وانت إذن لم تفعل شيئا من هذا . واذا كان الغرض الثالث
 فيجب عليك أن تميز الصحيح من الضعيف من الباطل وتعطى كل حديث منها
 حقه من ايضاح الدلالة ، وانت لم تفعل شيئا من هذا أيضا ، فسقط ايرادك
 لها من كل وجه . فرجل يريد أن يهجم على أمة عظيمة يدعى أن عددها يبلغ
 اربعمائة مليون نفس فينسب اليها أمورا باطلة ومقادح شنيعة ويطعن في آرائها
 وعقائدها وعلومها ، ثم يأتي الى أحاديث مكتوبة في بعض كتبها على ما يزعم
 فينقلها ، ثم يضيف الى ذلك رميها بالجهالة والغباوة والحق بدون بيان أصول
 وقواعد ومقدمات صحيحة ثابتة يتمشى عليها في مثل هذه الأحاديث وغيرها ،
 لا شك انه رجل مملوء بالحققد والمقت الشديد للاسلام وأهله ، ولا ريب أنه
 متلاعب مخادع عابث بالدين وباحترام أهله . هذا ما نقوله اجمالا على هذه
 الأحاديث

وأما ما نقوله في الوجه الثاني المفصل ، فالحديث الأول لا حجة له فيه
 سواء كان صحيحا أو ضعيفا لأنه ليس فيه دلالة على ما يقصده من أن العلم
 حجاب وأن الجهالة أم الفضائل عند المسلمين ، بل هو حجة عليه لأنه تضمن
 الأمر بتعليم سورة النور ، ولا شك أن هذه السورة الكريمة العظيمة على
 مقتضى اسمها النور فانها مشتملة على أصول علوم لا حد لها ولا نهاية من
 التوحيد والآداب والعفة والفضائل والحث على العمل وغير ذلك مما لا يعد
 ولا يحصى ولكنه استصغرها واحتقرها ورأى أنها ليست بشيء ، ولهذا
 جعلها موضع الانتقاد ، فمن علم سورة النور فهو على نور من ربه وبصيرة من
 أمره سواء كان رجلا أو امرأة ، مع أن الحديث لم يذكر فيه الا المرأة ، وهو
 استدلل به على جنس الانسان ، فكيف مع هذا يستشهد به على أن العلم حجاب
 وأن الجهالة أم الفضائل ، وهو ينقض هذا الاستشهاد أعظم النقض ، وهل

هذا إلا عكس للحقائق الجليلة . وأما الكتابة فسيأتي الجواب عنها ، مع أن
النهى هنا خاص بالنساء ، وفي الحديث أيضا ما يشير أنه لا مانع من العمل
للنساء - بل وغيرهن بطريق الأولى - لأن المنزل من مبادئ الأعمال
الصناعية الدقيقة ذات الأهمية ، اذ هو من مبادئ أصول النسيج المناسب
لذلك الوقت

وأما الحديث الثاني فهو أولا موقوف والموقوف لا حجة فيه ، وثانيا هو
خاص بالكتابة ، وليس العلم كله في الكتابة ، فان أكثر الناس يلحق علم
الكتابة بالعلوم الصناعية ، فالكتابة نوع من أنواع العلم فهو أوسع منها ، فكم
من عالم لم يكتب ولم يعرف الكتابة ، وقد قال تعالى ﴿ وما كنت تستلو من
قبله من كتاب ولا تحطه يمينك اذ لا رتاب المبطون ، بل هو آيات بينات
في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون ﴾ ولا شك أن
الرسول عليه الصلاة والسلام أفضل البشر ، وما نقص من جلالاته شيء لعدم
معرفة الكتابة ، فالكتابة عمل جليل من ضرورات الدول والشعوب ،
لكن كون العلم محصورا فيها غير صحيح ، بل هي نوع جليل من أنواع العلم ،
وكثير من العلوم أهم منها ، وما رأيالك تحت على شيء منه بل تدمه غاية الذم
كالدعاء وغيره . ثم ان هذا الذي حكاه رواية عن علي ليس فيه ما يفيد العلوم ،
ولعل هذه المرأة كانت تعلم كتابة خاصة فاسدة أو أنه تفرس فيها أن لها قصدا
سيئا في تعليمها ، فهي قضية عين لا عموم لها ، ويدل على هذا دلالة كالمس
أن عليا رضي الله عنه كان يدعو الى العلم والتعليم فقد ثبت عنه في حديث صحيح
أنه قال على منبر الكوفة وهو يخطب « سلوني قبل أن تفقدوني » وهذا غاية
الحث على العلم والتعليم ، فهذا أصح وأصرح من تلك الرواية التي تضمنت
الكتابة خاصة في شخص معين ، فهل يسوغ في العقل والدين أن يقال ان
عدم تعليم امرأة من النساء الكتابة دليل على جهالة الامة كلها ، فالكتابة من
الامور الصناعية الضرورية التي تكون فرضا على مجرم الامة لا على كل فرد منها ،

فانه يوجد كثير من الرجال الذهاة العظام في كثير من الشؤون السياسية وغيرها وهم من أولى الضرر ، ولو أن رجلا حافظ على فروض دينه لم يسأل يوم القيمة عن عدم معرفة الكتابة وانما يسأل عن العلم النافع المنجى ، فليست الكتابة علما دينيا يتقرب به الى الله بذاته ، بل هي بحسب علاقتها بما يقارنها من العمل والقصد والنية فهي فرع على غيرها بالقصد لا بالذات

واما حديث « ان البيان والبذاء من النفاق وان العي والبذاءة من الايمان ، فهذا الحديث على تقدير ثبوته ليس فيه شاهد لما يدعيه على أن العلم حجاب ، فان البذاء ليس بعلم بل هو خلق خبيث كما في الحديث الآخر « ان الله يبغض الفاحش البذيء » فقرنه بالفحش ، ومعلوم أن الفحش ليس بعلم ، الا إن كان عند هذا الرجل فانه ادعى فيما يأتي أن علم الشطرنج من العلوم التي يجب تعلمها . وأما البيان فالمراد به البلاغة المذكورة فيما يأتي . وأما البذاءة فهي عدم التكلف في بعض الأمور الدنيوية كالرثاءة في الثياب ونحوها ، ومعلوم أن الانسان الذي يجعل همه في خدمة جسمه وملبسه دون دينه وأمه أرفع

قاصر النظر ضعيف الهمة لا خير فيه

وأما حديث « ان الله يكره البليغ من الرجال » فهو حديث صحيح ، ولكنه سلط عليه سلاحه في الحرفة اليهودية ، فانها بضاعته في هذه الاغلال ، فقطع نصفه الذي يقطع ظهرة ، فان متن الحديث هكذا « ان الله يكره البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما يتخلل البقرة بلسانها » فبين في هذا الحديث نفسه أن البيان المكروه من الرجال هو الموصوف بهذه الصفة المنكرة بانه الذي يصنع صاحبه كما تصنع البقرة بلسانها ، ومعلوم أن الرجل الذي يبلغ الى هذه الغاية على غاية من ضعف العقل وسوء الأدب لأنه تكلف في نطقه بما لا فائدة فيه ، وهو ينافي حسن الخلق المأمور به شرعا ، فاي حجة له في هذه الأحاديث حتى يأتي بها مستدلا بها على بهته للمسلمين بانهم يرون العلم حجبا والجهالة أم الفضائل . فقد تبين لك من هذا أنه لا تعلق له بشيء من هذه الآثار البتة

والعجب أنه أعرض عن جميع النصوص القرآنية والأحاديث النبوية في الحث على العلم والأمر به والترغيب فيه وتعلق بهذه الآثار الضئيلة الغامضة التي هي عند التحقيق حجة عليه . وهذا من البراهين الظاهرة على أنه ممن زاع قلبه فأخذ يتبع المتشابه والغامض الذي لا حجة له فيه ، ولا عجب فالمضطر يأكل ما وجدته

فصل

قال : ورووا أنه عليه الصلاة والسلام رأى التوراة مع أحد أصحابه فاستشاط غيظا وقال « امتهوكون اتم » الحديث . ونقلوا روايات كثيرة مشهورة جاء فيها أن عمر بن الخطاب كان يمنع من قراءة كتب الأوائل وقراءة التوراة والانجيل ويعاقب على ذلك ، وأنه كان يقول في كل كتاب يحاولون قراءته : أيوافق ما فيه القرآن ، ان كان يوافقه فان القرآن يغنيها ، ولا معنى حينئذ لقراءته ، وان كان يخالفه قال : لا خير في شيء يخالف القرآن . وهناك الرواية المشهورة التي ذكرها بعض هؤلاء مستحسن لها ومفتخرا بها منهم المقرئ ومن لا يقولون عنه وهي الرواية التي قيل فيها ان عمر أمر بتحريق مكتبة الاسكندرية قائلا ان كان ما في المكتبة موافقا للقرآن أغنانا القرآن عنها ولا حاجة بنا اليها ، وان كان مخالفا لها فلن نبقى على شيء يخالف القرآن ، وانها أحرقت ، وقد طار بهذه الحكاية المختلفة بعض من يحملون على العرب والاسلام فرحا ،

والجواب ان يقال : يتبين للقارئ من سياق هذا الرجل لهذه الروايات أن كتب أهل الذمة والملاحدة الأولين هي العلم الذي يراه المسلمون حجبا وأن عدم درسها ومعرفتها والعمل بها هو الجهل الذي هو أم الفضائل أو أبوها الذي عنه في عنوانه السابق . وهذه الروايات التي ذكرها هنا - مع عدم الإفاضة في تمحيصها - لا حجة له فيها ، بل هي من أعظم الحجج عليه ،

ذلك لأنها كلها دلت على الحض على وجوب النسيك بالقرآن وعدم الالتفات إلى ما يخالفه ، ولا شك أن سياقه لهذه الآثار يقتضى أنه لا يرى في مخالفة القرآن من بأس بل يرى أن القرآن ليس فيه شيء من العلم النافع ، وحينئذ فليصرح بهذا هنا ليستريح ويهدأ وليتنازل عن ثقافته في الاحتجاج به وإفساد معانيه . وكل ذى عقل ودين يعلم أن قول عمر هذا ورأيه من أعظم الدعاية إلى العلم النافع وسد الطرق التي تشوش عليه وتدخل الرب فيه ، فإن الشيء الثابت الصحيح القطعي لا يسوغ لعاقل أن يسعى فسيما يوجب الشك فيه والاضطراب في مدلوله ولا سيما وأكثر الناس حدثاء عهد بكفر ، وقد لاحظ هذا الأصل العظيم أمير المؤمنين فاروق هذه الامة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بدهائه ونور بصيرته فنع ورود هذه الجرائم القاتلة على هذا الدواء الجديد الطاهر النقي السماوى ، ورد هذه الشبهات والشكوك على هذا النور الواضح الجلى ، والحق الذى لا ريب فيه ، وأجاب من نازعه في هذه النظرية الصحيحة بالجواب المسكت الموجز المذكور ، فأذعن له المنازع لما ظهرت عليه الحجة . فان قوله « لا خير في شيء يخالف القرآن » قول في غاية الصحة ، فان من اعتقد صدق القرآن وأن فيه الكفاية الشامة يمتنع أن يذهب يتطلب الحق مما يخالفه ^(١) ومن شك فيه فهو كافر وهذا له شأن آخر . وهذا الملحد انتقد على هذا الخليفة الراشد قوله « لا خير في شيء يخالف القرآن » فمضى هذا الانتقاد أن فيه خيرا ويجوز مخالفته ، والا فلماذا انتقده ، ومن أعجب العجبة أن هذا الملحد ادعى فيما تقدم أن أقوال الفقهاء تنوج بها الكتب موجبا من

(١) وينبغي أن يلاحظ قوله « لا خير في شيء يخالف القرآن » ولم يقل لا خير في شيء غير القرآن ، فان المخالفة معناها المضادة ، ومعلوم أن من اتبع القرآن وصدق به يجب عليه أن يعتقد هذا ، بخلاف غير القرآن كالمعلوم الذى تتعاق به فهذه تكون تابعة له فيما صح منها لأنه أرشد إلى ذلك

غير أن يكون لها قيمة علمية ولا عقلية ولا دينية ، وهذا قدح صريح فيها ، ثم زاد الطين بلة في البحث العاشر كما يأتي وهجم على جميع كتب الدين الأولى وادعى أنها ضرر كبير وأنها من أعظم العوامل في التأخر ، فيقال لهذا الزنديق هلا جعلت هذه الكتب التي قيل أنها أحرقت من جنس كتب هؤلاء الفقهاء ونحوهم التي هجمت عليها هجومًا عنيفًا وادعيت أنها ضرر محض ليس لها قيمة علمية ولا عقلية ولا دينية كيف تنتقد على عمر الفاروق وتدعي أن يكون إيمانك مثل إيمانه ثم تهجم على كتب علماء المسلمين وتضيف إليها كل ما خطر على بالك من سب واتهام ، والله أنك لو قدرت عليها لأحرقتها وذريتها في يوم عاصف لمجرد مخالفتها رأيك وأغلاك ، ثم تنتقد على عمر فيما نسب إليه عن كتب لا يدري ماذا اشتملت عليه من الكفر والشرك المنافي للقرآن ، واكبر من هذا وأطم أنك ادعيت أن الإنسان الموجود وقت نزول القرآن لا يبعد كثيرا عن الطور الحيواني فالذين قبله لا شك أنهم في طور الحيوانية فلا بد أن تكون كتبهم مضرّة بكل حال لأن نظرهم قاصرة فلا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا فهي بمقتضى قاعدتك في التطور أشنع من كتب هؤلاء الفقهاء الذين هجمت على كتبهم كلها وجعلتها ليس لها قيمة في العقل والدين والعلم ، أتريد أن تنتقد فاروق الأمة خليفة رسولها في العمل الجليل وتسوغ لنفسك ذلك الرأي الويل ، وقد ظهر الشر الذي خشي عمر وقوعه وهو أن كتب الأوائل هذه لما خرجت في وقت المأمون واندفعت الناس إليها وغيروا في أصول القرآن صار ما صار على المسلمين وتحول الاسلام وقت ظهورها وتعريبها على يد هذا الخليفة ، ومن وقته الى هذا الوقت الحاضر والاسلام يتحول فنزل من تلك القمة الرفيعة في وقته بسبب هذه الكتب التي جرت الى مذهب الجهمية والمعتزلة فكانت أعظم سبب في هدم الاسلام ، وهذا بما يدل دلالة صريحة على صحة نظر عمر رضي الله عنه وأن فعله هذا لم يصبحت الحادثة يعد من محاسنه الكبرى ، ثم ان هذا الخليفة قد نصره الله وسدّد

رأيه ، فكيف ينتقده في هذا العمل الجليل ، ثم يتجاهل ويطعن في الرواية
الاخيرة بدون حجة . ويدل ذلك أيضا دلالة صريحة صحيحة على أن هذا العمل
من عمر من الاعمال السديدة الموقفة أن علوم الأوائل وكذلك التوراة
والانجيل لا تخلو من قسمين اما أن تكون موافقة للقرآن وهذا نوعان أحدهما
أن تكون موافقة له نصا أو ظاهرا كأكثر مسائل أصول الدين ، وثانيهما أن
تكون موافقة له في القاعدة والاصل والقياس كأكثر مسائل المعاملات
والمباحات ويدخل في ذلك الامور الصناعية والتجارية والاقتصادية والمادية
وأمثال ذلك ، وهذا لم يثبته عنه عمر وإنما نهى عما يخالف القرآن فقط وكونه
منع هذه الكتب لأن ضررها وقتئذ أكثر من نفعها والناس اذ ذاك ليسوا
في حاجة اليها لان النصوص الشرعية مفهومة لديهم فهما بينا صحيحا ، فانه
ليس هناك ملاحدة بينهم ولا جهمية يحرفون الكلم عن مواضعه ولا سيما
صفات الله تعالى كعملوه على عرشه فيدعي أن ظاهر القرآن لا يعتد به أو لا
يفيد اليقين بل لا بد من تحريفه الذي يسميه تأويلا بمجرد أن عقله المعكوس
دله على هذا فعارض بعقله كلام الله مع أن عقله هذا فيما يزعم دله على صحة
ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام وأنه لا يقول الا الحق وأنه أعطى كمال
الفصاحة والبلاغة وكمال الصدق والنصح في كل ما بلغ به كما هو دعوى الجهمية
ومن دخل معهم في هذا الباب

والمقصود أن فعل عمر هذا وقوله في غاية السداد ، وها نحن نرى هذم
الدول التي تحافظ على مبادئها التي ليست من الدين في شيء تشدد المراقبة على
الكتب والمجلات والجرائد التي تدخل بلادها فاذا وجدت شيئا يخالف مبادئها
لم تسمح بدخوله مطلقا ، فما باله لا ينتقد هؤلاء بل أعظم ما لديه من السبب
والقدح موجه دائما الى هؤلاء المسلمين ولا سيما أهل العلم والدين
والقسم الثاني أن يكون ما اشتملت عليه هذه الكتب مخالفا للقرآن ، ولا
شك عند كل مسلم أن ما خالف القرآن في النص والظاهر بل والقاعدة فيجب

على كل مسلم اجتنابه لانه لا خير فيه بل هو الشر والخبث بعينه كما دل على ذلك خروج هذه الكتب أيام المأمون فكان ذلك برهانا قاطعا على صحة ما تقدم . وقوله وقد طار بهذه الحكاية المتعلقة ببعض من يحملون على العرب والاسلام فرحا ، فيقال أنت من أعظم الطائرين بها فرحا ، فانك التقطتها وحفظتها وبجملتها في أغلالك التي هي عندك الحقائق الازلية الابدية وجعلتها قاعدة لبحث مستقل في القدح في الاسلام وأن أهله يرون العلم حجابا والجهالة أم الفضائل ، ولم يكفك ذلك حتى انتقدت على الخليفة الملهم رضى الله عنه صنيعة البديع الجليل الجليل فانه رضى الله عنه كان عارفا حكيما في حماية الاسلام وحفظه وابعاد ما يمس طهارته وكرامته

فصل

قاله وقد تكلموا كثيرا في تحريم المنطق والفلسفة وألفوا في ذلك كتباً منها كتاب الاسيوطي المشهور أقوال اهل المشرق في تحريم المنطق وقد حكى في هذا الكتاب الاجماع أو شبه الاجماع على تحريمه ومن العبارات المشهورة عندهم في هذا قولهم من تمنطق فقد تزندق وفي الكتب المدروسة :

(فابن الصلاح والنواوى حرما) (١)

والجواب أن يقال : وهذا أيضا من نمط ما قبله في الانتقاد الذي لا محل له ، وسياقه لهذه الجملة مما يدل على أنه يرى أن العلم أو اعظم فنون العلم علم المنطق ، وقد تقدم في الجملة الاولى ما ذكره في علوم الأوائل وكذلك التوراة والانجيل وسياق إدخاله علم الشطرنج والموسيقى ونحوهما في العلوم التي يشنع على المسلمين بأنهم جهلواها ويدعى عنهم أن العلم حجاب وأن الجهالة أم الفضائل أما القرآن وجميع كتب السنة فضرِبَ عنها صفحا ونبتذها وراءه ظهريا بل

(١) تمام البيت : وقال قوم ينبغي أن يعلموا

أصرح بأن كتب الفقه ليس لها قيمة علمية ولا عقلية ولا دينية وتعليم علم المنطق فيه خلاف مشهور وكثير منهم يرى جوازه ، وقد اعترف هذا الملحد أنه من الكتب المدروسة في الأزهر حيث استشهد لشر البيت الذي فيه ذكر الخلاف ، وقد استعمل فيه الحرفة اليهودية خرفه تحريفا منكرا حيث حذف ما ينقض كلامه مع أن الشر الذي ذكره لم يذكر فيه غير اثنين من العلماء وهو ادعى أن المسلمين كلهم يحرّمونه لأنه أضاف إليهم التحريم ولم يذكر الخلاف ، ولو ذكر الآيات المرتبطة بعضها ببعض لا فتمضح ولم ينل لذة التحريف التي اعتادها ، والآيات هي :

فابن الصلاح والنواوي حرما وقال قوم ينبغي أن يعلموا والقولة المشهورة الصحيحة جوازها لكامل القريحة

فانظر الى ظهور تحريف هذا الملحد في حذف ثلاثة أرباع الجملة المفيدة بوضعها واقتصاره على ربعا وهي مرتبطة بعضها ببعض تمويهها على الناس بأن هذا الشعر المدروس يقتضي أن الناس يحرّمونه وقد علمت من هذه الآيات أن صاحبها عن يحيز تعمله ومع ذلك احتج به على عكس ما يراه الناظم وقد أقّر بأنها مدروسة في الأزهر فكيف يدعى أنهم يحرّمونه وهم يدرسونه في الأزهر جاعلين في دروسهم هذه المنظومة ، وحينئذ يقال إن كان تعليم المنطق جائزا فهو قول لبعضهم أو لجمهورهم وما دام مدروسا في الأزهر فلا معنى للحث عليه ورميهم بالغباء والجهالة والحققة بدعوى أنهم تركوه ، وإن كان تعمله حراما بطل اعتراضك وقد قال به بعضهم والذين قالوا بتحريمه قد بينوا وجه تحريمه فيجب عليك أن تبطل حجة من حرّمه ولا تقتصر على التشنيع فقط فإن هذا ليس فيه فائدة ، وقد قال بعض المحققين في علم المنطق أن تعمله ومعرفة لا تفيد البليد ، وجهه لا يضر الذكي ، وهذا هو الصحيح ، فإن كثيرا من أكابر العلماء والعظماء من أهل الصدر الأول ومن بعدهم لم يعرفوه ولم يضرهم ذلك شيئا ، وكثير من الأغبياء تعلموه وما نفعهم شيء بل قطع

عليهم أوقاتا ثمينة لو صرفوها في غيره من العلوم النافعة لكان خيرا لهم ، فلهذا
كلن الراجع عند المحققين المنع من تعلمه

فصل

قال : وقد شنعوا على الخلفاء العباسيين الذي وجهوا عنايتهم الى تعريب
كتب الاقدمين وعدوا هذه العناية من مثالب بني العباس لأنهم في زعمهم
نقلوا الى المسلمين علم الكفار وساعدوا الزنادقة والاحاد على الانتشار ،
فيقال : أما دعواه أن المسلمين شنعوا على الخلفاء العباسيين الخ فهذا
كذب ظاهر على هذا الوضع ، لأنه يفهم منه أن الخلفاء العباسيين كلهم أو
أكثرهم فعلوا ذلك ، والواقع ليس كذلك بل الواقع أن الذي فعل هذا هو
الخليفة الضال المأمون فهو أول من وجه همته لهذه النظرية الخبيثة التي جرت
على الاسلام الويل والخراب والدمار الذي لم يحصل للمسلمين حياة صحيحة
بعده ، فانه بسبب هذه العلوم كان أول من غير دين الله في هذه الأمة
الاسلامية فأنزلها من أعلى قمة وصل اليها وسعى في هدم الاسلام حتى هدمه
والناس ينظرون ، فانه لا خلاف بين العلماء كلهم بان أرفع ما وصل اليه
الاسلام في الدولة العباسية في الرقي هو في وقت الرشيد فلما تولى المأمون لم
يتغير شيء من حالة الاسلام ، فلما سعى هذا الخليفة في حبس العلماء وضربهم
وتعذيبهم وقتلهم وجد في بث الدعاية الى تحريف الصفات وانكار أن الله تكلم
بالقرآن وأنه ليس على العرش فوق السموات وأنكر كثيرا من الصفات
وسلك طريقة الجهمية والمعتزلة وقرّبهم منه وأبعد أئمة اهل الحديث كالامام
أحمد والبيهقي الشافعي ومحمد بن نوح وغيرهم وعذبهم ونكل بهم ف ضرب
الاسلام في صميمه بهذه السهام الخبيثة وتحول الاسلام في هذا الوقت نفسه
فأخذ يتحول كلما زاد هذا الوباء فيه الى أن وصل الى هذه الحالة الحاضرة ،
وقد قرب هذا الخليفة الضال ملاحدة المعتزلة كالمريسي وابن ابي دواد وغيرهما

واكرمهم ورفع منازلهم وشرّد علماء الدين من أهل الحديث وغيرهم وسامهم
سوء العذاب حتى أخذه الله فكيف لا يشنع ولا يرمى بالضلال والزيف وسوء
الاعتقاد من هذا صنيعه

ونما ينبغي ملاحظته أن هذا الملحد ادعى سابقا أن الأولين ليسوا على
شيء من العلم والمعرفة حتى ادعى أن من في وقت نزول القرآن لا يبعدون
كثيرا عن الطور الحيواني وأن تلك المرحلة هي المرحلة التي وصلت إليها الإنسانية
في ذلك العهد ، فإذا كانت هذه حال هؤلاء الأوائل وأنهم ليسوا على شيء
من العلم والمعرفة فكيف تشنع على من شنع على من أحيا كتبهم وعلمها وتعلمها
واعتمدها وبذل بها قواعد الدين ، وكيف يعيب على المسلمين انتقادهم على
المأمون الذي أخرج كتب هؤلاء الذين وصفهم بأنهم لا يبعدون عن طور
الحيوان بزعمه ، بل كتب الأوائل في عهد طور الحيوان على مقتضى قاعدته
وكلامه ، ومن قواعده رفض القديم والتعلق بالجديد ، فلماذا هدم قاعدته
وتناقض . والعجب كل العجب أن هذا الملحد افرغ أقصى ما لديه من السب
والاتهام على هؤلاء الذين يتعلمون هذه الكتب القديمة كما يأتي في البحث
العاشر وأطال واطنّب وأسهب في هذا الموضوع وجعل من فعل هذا لا عقل
له ولا فهم لديه ، والمأمون قد فعل هذا الفعل نفسه فأخذ كتب الأوائل
وعربها ودعا وقاتل عليها ، فلماذا حامي عنه هذه المحاماة ، ولكنه أراد أن
يعاكس أئمة الدين في كل شيء ولو تناقض ، كما أنه مبتلى بحب كل من أساء
إليه وبغض كل من أحسن إليه لأن نفسه نفس خبيثة تتطلب كل ما يناسبها
من الخبث في الاخلاق والاقوال والأعمال

فصل

ثم قال « وجاء في كتاب مطبوع حديث التأليف أن أحد العلماء
المشهورين جدا قال كل ما يسمى علما بما ليس في الكتاب ولا في السنة وما

ليس من علوم المسلمين فهو لا يخلو من أحد احتمالين أحد الاحتمالين أن يكون
غير علم وأن تكون تسميته بالعلم من تسمية الجبل بالعلم خطأ ، وثانيهما
أن يكون علما حقيقة ولكنه علم ضار فلا يجوز للمسلمين تعلمه ولا قبوله .
والجواب أن يقال : هذا النقل أيضا لا يدل على ما ادعاه من أنهم يرون
العلم حجابا ، ولا فيه ما يتعلق به أصلا ، بل هو حجة عليه ، فإن هذا القائل
ذكر أن ما كان ضارا غير نافع مما ليس في الكتاب والسنة ولا في علوم
المسلمين فلا يجوز للمسلمين تعلمه ولا قبوله ، وهذا هو عين الحق ، وكلام هذا
القائل تضمن أن تعلم الصناعات والأمور الاقتصادية والتجارية والمادية جائز
لأنه قيد ما لا يجوز تعلمه بأن يكون ضارا غير نافع ، وهذه قد ثبت أنها نافعة
إذا أجريت على وجهها الصحيح ، فإن الكتاب والسنة دلا على أن ما كان نافعا
غير ضار فهو مباح فعله واستعماله ، ودلا على أن الأصل في هذه الأمور
الاباحة والجواز الا ما دل الدليل على منعه ، وهو هنا لم يدل دليل على منع
هذه الأمور في الجملة ولم يدع المسلمون أنه يوجد أدلة تمنعه وقد قدمنا أن من
القواعد الأصولية أن ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب ، ومعلوم أن الجهاد
والدفاع عن الاسلام من أوجب الأمور ، وهذا لا يتم الا بتعلم الوسائل
العلمية المادية التي تعين على ذلك ، فأى وجه لانتقاده على هذا النقل الجليل
الجميل ، ولكنه مصاب ببغض كل جميل وكرهته ومقته مبتلى بحب الخبائث
وتبعتها فكما كان القول أشد خبثا كان أشد حبا له وكسا كان القول احسن
تحقيقا وافادة كان أشد كرها له ونفرة منه ، ولهذا كان روح كتابه بغض
القرآن ، وهذا الملحد ادعى أن الدعاء ملهاة ومصرف خبيث ومفسدة
وتعويق ، فأبغض روح العبادة الذي هو الدعاء ، وقد حاسب الزمخشري على
قوله « العلم للرحمن جل جلاله » الى آخره ، وشنع عليه ذلك التشنيع المر
ونقل كلام جستاف الذي قال « ان الايمان بالله وحده كان نكبة على البشر »
واسه تشهد به وانشرح له صدره وعلق عليه وأخذ يشرحه ويدور حوله بل

كانت روح اغلاله هي معنى هذه الكلمة غير أن الفرق بينها أن ذلك غسير محتاج الى التفات مثل هذا فزاد هذا عليه بما أدخله من التفات بمقتضى الحاجة فكان أغلظ منه كفرا كما أنه أحط نفسا وأخبت عقيدة

فصل

ثم قال « وجاء في الكتب الدينية المشهورة المحترمة جدا في معرض تقسيم الأفكار في الصناعات الدقيقة التي لا تنفع بل تضر كالفكر في الشطرنج والموسيقى وأنواع الأشكال والتصورات والفكر في العلوم التي لو كانت صحيحة لم يعط الفكر فيها النفس كالا ولا شرا كالفكر في دقائق المنطق والعلم الرياضي والطبيعي وأكثر علوم الفلسفة التي لو بلغ الانسان غايتها لم يكمل ذلك ولم يزك نفسه - الى أن قال : فكل هذه الأفكار مضرتها أرجح من منفعتها ، وبكى في مضرتها شغلا عن الفكر فيما هو أولى وأعود عليها بالنفع عاجلا وآجلا ، والجواب أن يقال : وهذا النقل أيضا من جنس ما قبله لا حجة له فيه أصلا ، مع أنه نقله ولم يبين من قال به ولا مصدره وقد حذف منه كما اشار اليه ، ومع هذا كله فهو حجة وفضيحة عليه ، فانه أنكر على هذا القائل أن علم الشطرنج والموسيقى وما في معنى ذلك لا ينفع بل يضر ، وبهذا يتبين للقارئ تلك النتيجة التي يدعو اليها هذا الملحد من العلم والحج عليه كما يتبين له معنى الجمل الذي يرمى به المسلمين وهو أن هذا العلم هو علم الشطرنج والموسيقى وما في معنى ذلك من دقائق المنطق والفلسفة وأن الجمل الذي يريده هو الجمل بهذا ، فما أشبه حال هذا المذموم بحال قوم لوط اذ قالوا أخرجو آل لوط من قريبتكم انهم أناس يتطهرون . قال قتادة عابوهم بغير عيب . وهذا الملحد على شدة تعنته وعناده وكده الكدح الذي لا مزيد عليه عجز عن أن يحسد ما يؤيد افتراءه على المسلمين والتنفير عن الاسلام من كون العلم عند أهله حجاب والجهالة أم الفضائل - الا بهذه الاقوال القليلة الضئيلة المجهولة مصادرها ، ومع

ذلك فهي حجة عليه لا له ، وقد تقدم الكلام على المنطق ، وأما الفلسفة فهذا القائل لم ينكر إلا ما كان من دقائقها ، لا منفعته فيه مما يشغل الفكر بلا فائدة ، أما خلاف هذا ففهوم كلامه أنه لا بأس به ، فأى حجة له في هذا النقل حتى يحتاج به

فصل

ثم قال : وكتب ابن عربي والشعراني وغيرهما ملأى بمذمة التعلم والعلم ، ومن الأقوال المشهورة عندهم (العلم حجاب)

فيقال : قد علمت أيها القارئ المنصف أنه اعتمد فيما ادعاه على المسلمين وعنون به هذا المبحث على هذه الكلمة التي ذكرها عن كتب ابن عربي والشعراني ولم يذكر قائلها ولا في أى كتاب هي ، فلم يجد ما يؤيد هذه المقادح إلا هذه الكلمة التي يدعى أنه وجدها في كتبهم مع أن في صحتها عنهم نظراً ولو صحت فهم يريدون بها معنى آخر على ما عرف من اصطلاحهم فهم يستعملونها فيما يتعلق بالالهيات لا في ما يتعلق بغير ذلك ، وبهذا وأمثاله يتبين لك أن هذا الرجل يتذرع بكل وسيلة مهما بلغت في البعد والخفاء والضعف والضلالة إلى القدح في الاسلام وأهله بدون خوف أو حياء ، ودعواه أنها من أقوالهم المشهورة كذب وجور ظاهر ، بل أقوالهم المشهورة الحث على العلم والتعليم وكتب ابن عربي والشعراني وأمثالهما مملوءة بالدعاية إلى العلم وهي موجودة مشهورة ، بل نفس تأليفهم للكتب يدل على الترغيب فيه والأفلاذا ألفوها وحشوا على مطالعتها والاستفادة منها ، وهذا كله لو قدر أن ابن عربي يعتمد بقوله ، والا فقد علم أن كثيرا من العلماء يكفرونه ويرمون به بالزيف والاتحاد حتى قال ابن المقرئ من لم يكفر ابن عربي وطائفته أو شك في كفرهم فهو كافر ، وما كان ينبغي لهذا الرجل أن ينتقد على ابن عربي وأمثاله فانه قد قلدهم في كثير من الخصال الخبيثة فهم سلفه فيها ولهذا شابههم في تلبيس الكلام

وتعمية القصد ودعوى أن الناس لم يفهموا مراده ، وكثير من هؤلاء الاتحادية إنما قصدوا بكتبهم وانتسابهم الى الاسلام هدم الدين وتشويه سمعته فأدخلوا في كتبهم من النفاق والمخادعة وتعمية القصد ما يروج على جهلاء أزمانهم وديارهم ولهذا تبعهم هذا الملحد في هذه الطريقة وسار عليها ، غير أنه زاد عليهم بأنواع الكفر والضلال ، فهم لم يتجاسروا أن يدعوا أن دعاء الله خيث وأن المتحللين من الأديان هم الذين صنعوا الحياة وأن المتدينين ما وهبوا الحياة شيئا جديدا وأن المساجد أدت شر ما يؤدي ، وبما يدلك على أن هذا الملحد موافق لابن عربي وأمثاله فيما يختص بالالحاد أنه لم ينقده في شيء من كلامه في الاتحاد ولا بلفظة واحدة ، ومعلوم أن في كتب ابن عربي كثير آ من صرائح الحاد وكان يجب على كل من يريد أن يتكلم في تصحيح آراء المسلمين في الأمور أن ينبه عليها ، ولكنه أغضى عن هذا كله وتعلق بكلمة مشبهة غامضة وفي كتبهم بما يدل على خلافها ما لا يعد ولا يحصى ، وهل هذا إلا من أعظم الزيغ وأبعد الضلال

فصل

ثم قال « ومن البلاء حقا أنهم لم يقتصروا في امتداح الجهالة ، بل قاموا ببلالة كثيفة يمتدحون الجنون والبسلة والبله والمجانين »
فيقال : ان صح هذا فكله من أخلاق أئمتك في سلوك طريقة الحاد وخطها بالنفاق ، فلا يحق لك أن تعيب المسلمين بأخلاقك وأخلاق ساداتك ، يا صاحب الحقائق الازلية الابدية والدر الذي في لجج البحر لا حاجة الى الخداع فقد علم أن كثيرا منهم إنما أدخلوا في كتبهم بعض النصوص مناقضة ومخادعة ، وإلا فقصدوهم هدم الاسلام وتشويه سمعته ، ومن تأمل كتبهم علم يقينا أن بينها وبين أغلالك هذه أعظم المناسبة في التعمية والتليس والنفاق ، غير أن أغلالك أخبت منها بكثير ، فما كان في هؤلاء من المعاييب

فأنت أولى به كما ذكرنا ، ومن عاب المسلمين بمجرد وجود قول لبعض الملاحدة في كتبهم فهو كمن عابهم وقبح فيهم وادعى أنهم يسبون الصحابة لوجود كلام لبعض الرافضة في كتبهم بمجرد انتسابهم الى الاسلام ، بل ملة ذكره في هذا أشنع وأبشع

ثم قال « فرووا أنه عليه السلام قال : أكثر أهل الجنة البله »

فيقال : هذا الحديث قد رواه البزار في مسنده وأشار السيوطي في الجامع الصغير الى أنه ضعيف ، فعلى هذا فلا حجة له فيه ولا وجه لأيراده وجعله عنوانا لهذا البحث ، وعلى تقدير ثبوته فليس فيه ما ينكر أصلا ، فليس فيه ترغيب وحث على البله كما أنه قد ورد في من عصى بصره أو مات ولده أو أصيب في ماله أو حاله أحاديث كثيرة تتضمن الأجر والثواب ولم يكن ذلك عيبا فيمن تجرى عليه هذه الامور ، وليس فيه حث على العمى وقتل الاولاد فان هذه الاحاديث اخبار لا أمر ، ولما كان البله نقصا طبيعيا يبتلى به بعض الناس كان من رحمة الله واحسانه وكرمه وفضاله بأنه رحم هؤلاء وعفا عنهم فيما جهلوا من الامور الجزئية ، وهذا من محاسن الشريعة الاسلامية ومظهر من مظاهر الرحمة ، فانه تعالى لما خالق عباده وجعل منهم اذكاء ومنهم متوسطين في الذكاء ومنهم من به بله وجعل منهم مجانين كان من رحمته أن رحم هؤلاء الضعفاء من البله الذين أدوا ما في وسعهم ، وهذا غاية الكرم والاحسان ، فحاشا وعفا عنهم ورحمهم ، وهذا عين الانضال والاحسان ، وليس البله مخلقا خبيثا كالنفاق والزندقة والاحاد حتى يعاقبوا عليه ، وانما يعاقب الانسان على الاوامر الشرعية والبله ليس من هذه الامور فلا يعد ذنبا ، ونحن نسأله هل البله ذنب أو غير ذنب ، فان كان ذنبا فأين الدليل عليه ، وإن كان غير ذنب فكيف يكون أهله من أهل النار من غير ذنب ، ومن الجائز أن يكون سبب كونهم أكثر أهل الجنة لانه يوجد فيهم من العفة وسلامة الصدور وعدم الحقد والحب والبغض والنفاق والكبر والعجب والحسد أكثر مما يوجد في

غيرهم ، وقل أن يوجد أبله معجبا بنفسه متكبرا مزهوا ، والكبر والمعجب هو الداء الويل الذى يقضى على صاحبه كما وقع لهذا الرجل ، ولهذا كان كثير من الاذكيا يعتمد على نفسه ويرى أن فيها الكفاءة الذاتية والكمال ، فذلك يصاب بالزيف والضلال ، وهذا بخلاف البله ، والمسلمون لم يقولوا إن البله أفضل من غيرهم ، لكن يقولون انهم ما جورون كما يثاب غيرهم من ابتلى بشيء من النقص فى حاله أو ماله أو ولده ، ولا يقولون ان الاعمال الجليلة تناط بهم وتسند اليهم ، وانما دل الحديث على اثباتهم فقط ، ولكن هذا الملحد أراد أن يحسدهم ويدخل بينهم وبين الله تعالى وينازع الله فى رحمته لهم ، فجعل كونهم من أهل الجنة لا ينبغي ولا يسوغ وليس من المرافق فلم تسمع بذلك نفسه ولم يسعه السكوت والتسليم ^(١) وإلا فلم يشنع بهذا التشنيع البارد ، والظاهر انه لم يكرههم هذه الكراهية ويمقتهم هذا المقت المنكر إلا من أجل أنهم لا يحسنون الشطرنج وعلوم المنطق ودقائق الفلسفة ، وهذا هو أكبر ذنب عنده ، كما تقدم تشنيعه على من أنكر ذلك فلهذا استغرب دخولهم الجنة جدا وهم جهلاء فى هذه الأمور عازبون عنها . وليس وجود البله مضرا فى الدول والشعوب أصلا ، فلا يمكن وجود شعب أو دولة الا وفيها بله كثيرون ، فلو قدر أنهم يجهلون شيئا من الأمور الصناعية والمادية وشحوها فمن الممكن أن تستفح بهم الدولة فى امور أو وظائف أخرى تليق بهم فان حاجات الأمم والشعوب فى الأمور الاقتصادية والزراعية وتنمية الاموال وغيرها أكثر من أن تحصى ، فهذا الحديث الذى جعله هذا الملحد مهزلة وشنع على المسلمين لوجوده فى كتاب من كتبهم - على تقدير ثبوته - ليس فيه ما ينكر ، بل هو عين العدل ، وهو حجة عليه كما هو ظاهر

(١) ولكنه وسعه السكوت عن أهل الفجور والفسوق وفساد الأخلاق التى

فصل

ثم قال : « وأنه قال : المؤمن غرّ كريم ، والمنافق خبّ لئيم ،
فيقال : هذا الحديث رواه أبو داود والترمذي والحاكم ، فإن كان يعتقد
صحة هذا الحديث فهو انما يردّ على من قاله ، وإن كان لا يعتقد فعلية أن يبين
وجه ضعفه ووجه الانتقاد عليه ، وهو لم يذكر شيئا من هذا بل جاء به في
موضع التهم والاستهزاء فحسب ، والحديث ليس فيه ما يدل على ما ادعاه من
كون المسلمين يذمون العلم ويمدحون الجهل ، ولعله استعظم كون المنافق خبا
ئيا لأن النفاق عنده أصل من أصول العلم كما يأتى ، فلهذا استنكر كون صاحبه
موصوفا باللؤم ، وهذا الحديث انما فيه إخبار بان المؤمن غرّ كريم أى سليم
الصدر من الخداع والنفاق فيحمل الناس على بحبته أحيانا فربما يغتر بمن
ظاهره خلاف باطنه ، فأى دليل فى هذا الحديث على مدح الجنون والمجانين
أو مدح الجهل وذم العلم كما ادعاه هذا الكاذب ، وهو أيضا إخبار لا أمر ، فإن
الله تعالى أمر بالخير وأخذ الحيلة التامة وإساءة الظن بمن ظهر منه شيء من
أمارات الخبث والنفاق والخداع والكيد كما قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا
خذوا حذركم ﴾ وفى حديث أنس مرفوعا « المؤمن كيس فطن حذر » (١) وفى
الحديث الآخر « احتسبوا من الناس بسوء الظن » رواه الطبرانى وغيره عن
أنس رضى الله عنه ، وروى الامام أحمد مرفوعا « احذروا كل منافق عليم
اللسان »

فصل

ثم قال : « وأنه قال : إن الله يدخل قوما الجنة كأن قلوبهم الطير ، أى فى
السذاجة والسلامة من السكر والخبث ومن الدهاء والذكاء »

(١) رواه ابن منيع . ١ هـ . جامع صغير

والجواب أن يقال : كأن هذا الملحد يريد بهذه الترهات أن تكون الجنة ملكا له يدخل فيها من يشاء ويحرم منها من يشاء ، فيالله العجب ، أى شيء في هذه الأحاديث التي يذكر فيها أن هؤلاء يدخلون الجنة ، أيريد أنهم لا يدخلونها وأن يلعنهم الله ويغضب عليهم ويطردهم من رحمته ، أم ماذا يريد ، فهل فيها الا الاخبار بأن من هذه صفاتهم فإن الله قد يرحمهم ويدخلهم الجنة ، ولم يقل ان الجنة لهم خاصة بل أخبر عليه الصلاة والسلام أن الله يدخل قوما الجنة على هذه الحالة التي ذكرها من أن قلوبهم كأنها الطير ، فإن كان يرى هذا كفرا فعليه أن يثبت أن من كان هذا حاله فهو كافر حتى يتبين أنه لا يستحق الجنة ، أما كونه يعتمد الى حديث فيه اخبار بان أناسا يدخلون الجنة ثم يعترض به ويشنع على المسلمين به ثم لا يتكلم في سنده ولا في معناه فهذا مما يدل على أنه خبيث متهم بالشريعة الاسلامية وأهلها ، وهو انما يورد هذا الانتقاد على الرسول ﷺ لأنه لم يبين ضعف الحديث ، بل هو انتقاد على الله تعالى اذ كيف يدخل أقواما الجنة وهم قد خليت قلوبهم من المكر والخبث ومن الدهاء والذكاء كما هو صريح كلامه ، فهو يريد بهذا أن هؤلاء لا يدخلونها بل هم في النار لأنهم حرموا من المكر والخبث والدهاء والذكاء ، فالمكر والدهاء عنده من أعظم الفضائل وأصل من أصول العلم ، ولهذا اختارهما كما ترى وقرنهما مع الدهاء والذكاء من جميع الأخلاق وعمل لهما هذه الاغلال ، وهذا مما يدل دلالة صريحة واضحة على أن العلم الذي أطال وأطنب وأسهب في الخث عليه هو المكر والخبث ، وأن الجهالة التي عاند وجادل وغالط في التحذير منها هي جهل أساليب المكر والخبث ، فالمكر والخبث هما جماع السياسة كلها والفضائل كلها وجماع كل تقدم في هذه الدنيا ، وأما الصدق والنصح والثبات التي هي أضداد المكر والخبث فانها عنده جهالات وأوهام مرذولة أضرت بالمسلمين وحملتهم المصائب ، ولهذا جهل سلامة الصدر من المكر والخبث أكبر عيب وأعظم مصيبة يصاب بها الانسان ، بل هي أعظم من الكفر لأنه

لم يشهد الكفر الذى لا يدخل أهله الجنة بل انتقد هذا الحديث الذى تضمنه أن السلامة منها سبب فى دخول الجنة ، ومن أجل هذا كان شديد التمسك بهذين الخلقين اللذين هما المكر والخبث فى كل كتابه ، فهو إذا أخذ فى الاطياب والاسباب فى القدر فى الشرائع السماوية وشمها وشم أهلها وأوغل فى ذلك رجح هنية وجاء بملق واحتجاج يوم ظاهره أنه لا يريد ما يفهم من تلك الكلام الأول ، لأنه لما اعتقد أن المكر والخبث من أرفع الفضائل فلا بد أن يتمسك بهما ، ثم هو متى نوقش فى هذا الكتاب الذى هو الاغلال يدعى أن مراده ليس هو ما يفهم الناس منه بل له معنى آخر فيقول : إن الناس لم يفهموا كلامي ، وأنا لى قصد حسن فى تأليفه ، وإنما أعنى كذا وكذا ، لأنه ما دام يعتقد أن المكر والخبث هو جماع العلم والعقل وأصل كل رقى وتقدم فانه سيلزم عليه ، لكن فاته ان ترك ذكر المكر والخبث هنا على الحديث من المكر والخبث ، لان قريحته المفتوحة أوقعته فى المكر والخبث لأنه مضطرب القلب منكوسه . والحاصل ان انتقاده على هذا الحديث عما ينيل على رسوخه فى الغيابة والجهالة العمياء ، اذ لو كان عنده أدنى مسكة من عقل لتجنب هذه الأمور وحث على العمل بحسب ، اذ لا طائل تحت هذا التهم والاسهزاء والسخرية الفارغة ، ومعنى هذا الحديث كعنى الحديثين اللذين قبله

فصل

ثم قال : وراحوا كالمصروعين ينشدون فى امتداح الجنون والمجانين :
مجانين إلا أنت سرّ جنونهم عظيم على أبوابه يسجد العقل
فيقال ان كان هذا أحد من الاتحادية فهم أسلافك فى هذه الأمور ،
فإن قائل هذا القول اذا سئل عنه قال مرادى غير ما يفهم الناس منه ، هذا له
معنى آخر هو كيت وكيت ، كما تقوله أنت سواء بسواء ، ولهذا شابهتهم
مقتضيت تمدح الخبث والمكر والنفاق والسطارنج والموسيقى بل والاتحادية .

ومعلوم أن مدح الجنون أسهل من مدح هذه الفنون
ثم قال : وجاء في النهاية لابن الأثير تفسير البُله الذين هم أكثر أهل
الجنة : هم الذين غلبت عليهم سلامة الصدور وجسن الظن لأنهم أغفلوا أمر
دينام فجعلوا حذق التصرف فيها وأقبلوا على آخرتهم فشغلوا أنفسهم بها
فاستحقوا أن يكونوا أكثر أهل الجنة ، وهكذا قال غير ابن الأثير ، انتهى
فيقال : فعلى هذا يكون حاصل الكلام أنهم عالمون بدينهم جاهلون بحذق
التصرف في دينهم ، فليسوا جاهلين بالدنيا إنما هم جاهلون بالحذق فقط ، فأى
شئ في هذا ، وهل هذا يعد ذما للعلم ومدحا للجهل ، ومعلوم عند جميع الناس
حاشا الملاحدة أن العالم بدينه الجاهل بديناه أحسن عاقبة وخير عند الله وعند
المؤمنين من خلقه من العالم بديناه الجاهل بدينه ، ثم العلم بالدين كما ينبغي في
الجملة يستلزم العلم ببعض الوسائل التي بها يحصل النفع للدنيا وللإسلام من
صناعة وغيرها ، وفوق كلام الملحد يتضمن أن العالم بدينه الجاهل بديناه لا
يعد عالما بل جاهلا ، وإنما العالم عنده هو عكسه العالم بديناه الجاهل بدينه ،
وهذا هو اللاتق بحاله وأغلاله

فصل

قال : وفي النهاية لابن الأثير أيضا : المؤمن غر كريم ، أى ليس بذى
نكر فهو يتخددع لانتقياده ولينه ، وهو ضد الخبث ، يريد أن المؤمن المحمود
من طبعه الغرارة وقلة الفطنة للشر وترك البحث عنه ، ومنه حديث قول الجنة :
يدخلني غرة الناس أى البُله الذين لم يجربوا الأمور فهم قليلو الشر ينتقادون ،
فإن من أثر الخمول وإصلاح نفسه والتزود لمعادته ونبد أمور الدنيا فليس غرا
فيما قصد له ولا مذموما بنوع من الذم ،

قلت : وهذا أيضا من جنس ما قبله من الانتقاد الذى لا وجه له فليس في
كلام ابن الأثير في تفسير الغر ولا الأبله ما يفيد شيئا فإنه قال : المؤمن غر

كريم اى ليس بنى نكر اى ليس بصاحب منكرو خبيث ، فان النكر هو المنكر والخبث لما جبل عليه من السجايا الحميدة ، فأى انتقاد فى هذا ، ولكنه جرى على قاعدته أن المنكر والخبث أصل من أصول العلم ، وقوله فهو ينخدع لا نقياده ولينه ليس فيه ما يتشبه به ، فانه لم يقل ينخدع بل قال ينخدع ، وفرق ظاهر بين اللغطين ، فان الذى ينخدع قليل الفطنة فرما يؤخذ من غير أن يشعر بخلاف الذى ينخدع فهو الذى يترك ما لنفسه من الاستحقاق فى بعض الأمور الشخصية من الاشياء التافهة من أمور الدنيا ، وهذا من باب السماحة والكرم وحسن الخلق ، وكل هذه أخلاق طيبة مخالفة لأخلاق المنافقين من الشح والهلع والجشع وسوء الملكة ، فالمؤمن ليس بنى جشع ولا هلع ولهك على الدنيا ، ولهذا قال : فهو ضد الخبث ، ومعلوم أن ضد الخبث هو الطيب والعلم والفطنة فان الخبث أصل البلاهة والجهل والعلم النافع انما يكون فى الطيبين الطاهرين ، ولهذا كان الانبياء عليهم الصلاة والسلام أوسع الخلق معرفة وعلماً وكذلك الملكة ، وموضع الانتقاد الذى أخرج صدره قول ابن الأثير هو ضد الخبث فانه أعظم هذا وأكبره وضاق به ذرعاً ، اذ كيف يكون المؤمن الغر ضد الخبث ، لأن الخبث عنده رأس الأمر كله فلماذا عمل أغلاله كلها على الخبث ، ولما أراد أن يؤمن بالانسان ونسبه الى القدرة على كل شىء والعلم بكل شىء ادعى أنه بطبعه خبيث شرير ظالم ، فالخبث عنده هو أكمل الاخلاق التى تقدم أهلها ، وهو عنده العلم الصحيح لا ريب فيه ، وقول ابن الأثير ونبتد أمور الدنيا لا تعلق أيضاً للملحد فيه بشىء ، فان أمور الدنيا المحضة هى بما لا تعلق له بالدين كأموال الشهوات على اختلاف أنواعها مما لا يدخله القصد الدينى ولا فائدة فيها أما ما يجب اتخاذه فهنا واجب دينى بحسب النية والقصد ، ثم ان ابن الأثير ذكر أن مثل هذا ليس بمذموم بنوع من الذم ، وهذا الملحد جعله هو الهدف الاكبر للذم واللوم ، وقد تقدم الحديث الذى فيه « المؤمن كيس فطن حذر » وحديث « احتسبوا من الناس بسوء الظن » وامثال هذه

الآثار والنصوص الكثيرة وقد أعرض عنها وتعلق بما يظن أنه مفيد في قصده
في تشويه سمعة الاسلام وأهله

فصل

إذا علمت أن هذا هو حاصل ما لديه وغاية ما قدر عليه من الأمور التي
اعتمد عليها في تشويه سمعة الاسلام وأهله وأنهم يكرهون العلم ويدعون أنه
حجاب وأن الجهالة أم الفضائل ، فاعلم أن المسلمين كلهم قد حثوا على العلم
ونشروا فضله وزغبوا فيه وأوجبوا تعلمه حتى جعلوا من أقسام الردّة والكفر
الاعراض عن دين الله لا يعلمه ولا يتعلمه ^(١) كما قال تعالى ﴿ ومن أظلم ممن
ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون ﴾ وإي شيء أبلغ من
هذا . وقد رغبوا في جميع العلوم الدينية والدنيوية ، وما من فن من فنون العلم
إلا وفيه مصنفات مشهورة معروفة ، وأدنى كتاب من كتب المسلمين يتناوله
الانسان يحده مملوءاً بما ذكرناه من الترغيب في العلم والتحذير من الجهل فلا
حاجة الى الاطناب في الاستدلال على هذا الموضوع

أما استدلال هذا الملحد وأضرابه من الزنادقة بوجود أخطاء في بعض
الكتب لبعض الناس واستدلاله بذلك على تشويه سمعة الاسلام فهو استدلال
ساقط لا يفعله إلا مفرط في الجهل وسوء النية والقصد ، ويكفي في ابطال هذه
الدعوى ما قرره هو بنفسه حجة عليه الى يوم القيمة حيث قال في كتابه
الصراع ص ٣١٨ ج ٢ ما نصه : « اننا قد قلنا مرات انه ليس كل ما كتب حجة
على المسلم وقلنا أيضاً مرات ان الضلال والخطأ يطبع وينشر ويقرأ ويحفل به
الجماهير والخلق الكثير وان الشيخ الكبير والعلم من العلماء قد يقول ما لا
علم له به وما يعجز أن يقيم عليه الحجة والبرهان . وماذا ينفع الباطل وأهله

(١) كما ذكر ذلك شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب في نواقض الاسلام العشرة

عند أهل الحق وأهله أن يحد الباطل من يقوله وأن يحد من يكتبه وينشره وأن يحد من يطبعه ، وماذا يحدى المخطيء أن يحد له سلفا في الخطأ وشيعة في الباطل ، وماذا يحد به أن يقلد في هذا كله . لا يحدى شيئا ولكن الذى يحدى هو البرهان وأن كان لا قائل به والحجة الظاهرة وأن كانت قليلة الانصار والاعوان ، انتهى

وقال أيضا ص ٣٢٠ : فالمسلم الصحيح الاسلام ليس هو من يتبع اخطاء المخطئين وأغلاط الغالطين ليقاوم بها وحى الله ورسالة نبيه (١) ونصوص كتابه المبين « الى أن قال « ولكن المسلم حقا هو الذى يستمع القول فيأخذ أحسنه ولا أحسن من قول الله ومن قول نبيه عليه الصلاة والسلام » الى ان قال « والذى يعلم أن من ذهب يؤلف لنفسه عقيدة ولعقيدته مذهباً من أغلاط الغالطين وأخطاء المخطئين فقد اختار لنفسه شر العقائد ولعقيدته شر المذاهب ، لانه يقل أن يسلم عالم من أن يغلط ويخطيء ويذهب مذهباً لم يشرعه الله ورسوله ، كما أنه يقل أن يسلم انسان من أن يقارف إحدى المخالفات ويلا مس واحدة من المحرمات لضعفه الجبلى ونقصه المحتوم (٢) ، فمن مذهب على أغلاط العلماء فقد جمع لنفسه الشر والنقصان والجهل (٣) المفرق فى الامم والشعوب ومن أجهل وأنقص حظاً من فعل ذلك (٤) انتهى كلامه . وقد فعل كل هذا الذى نهى عنه وانكب على وجهه فى هذه الأغلال كما ترى انقلاباً كاملاً لا فتية أدنى وأشنع شواذ الغلطات التى رويت عن بعض

(١) هو ذا أنت والله بلا شك

(٢) انظر كيف صرح بان الانسان مجبول على الضعف والنقص وهذا يناقض ما ادعاه فى المبحث السابق

(٣) سنكتب شهادتهم ويستلون

(٤) هو ذا أنت فعلته فى هذه الأغلال

الاتحادية فرمى بها المسلمين وأخذ يسمع عليهم بذلك مع ما أضافه اليه بالبهت والزور ، فلماذا قال بعد أن نقل تلك القول التي أجبتنا عليها :

لقد تبين بهذا أن الفساد الفكري عند هؤلاء فساد عام وكان قسدا أصيلا ، فهم لم يكتفوا بمدح الفقر والمرضى والجوع وكل ألوان الشقاء كما سيأتي بل امتدحوا كما رأى القارئ الجبل والغباء ، ثم لم يكتفوا بهذا أيضا بل امتدحوا الجنون وضعف العقل والعجز عن التصرف في الحياة ، انتهى فلينظر المسلم الى هذا البهت والفجور الزائد ، وقد قلنا فيما سبق ان أدنى كتاب من كتب المسلمين يتصفحه الانسان يجد فيه من مدح العلم والعمل وذم الجهل ما فيه كفاية ، ونحن نسأل هذا الملحد ما هو الذي يقرر في هذه المدارس والجوامع والكتاتيب وغيرها ، هل هو علم أو جهل ، وما هو المقصود من تأسيس ذلك وانفاق الأموال الطائلة في سبيله ، فالتكليف ما أرحص الكتب عندك وأخفه على لسانك ، فسقوط هذه الدعوى أظهر من أن يطالب في ردها ، ولو ادعاها أكفر يهودى لم يحتج المسلمون الى ردها بأكثر من هذا أو ما هو معناه ، ولو أن أدنى عالم قيل له إنك مجنون جاهل غي لم يرض بذلك فكيف بأمر يبلغ عددها على ما يقول اربعمائة مليون ترضى لنفسها ذلك وتراد فضيلة بل أم الفضائل ، وفي الحديث : إذا لم تستح فاصنع ما شئت ، وقد أطال هذا الملحد في التشنيع على المسلمين بأنهم أجروا الجهل وحاربوا العلم كهادته في الانسحاب على ما يخترعه من الكذب والفجور ، وهو يشير الى أن الاتحاد هو العلم الحقيق وأنهم حاربوه ولكنه سماه علما ترويجا لباطله كما سمي الجرمية مذهبهم في الصفات تنزيها وعباد القبور ما يفعلونه من الشرك عندها توسلا ، والأسماء لا تغير الحقائق ، وكل هؤلاء دونه في ما انتهله من الزندقة والاتحاد والنفاق

ثم ذكر أن أوربا لم تتقدم إلا بأن وجهت نظرها الى علوم الفلسفة والرياضة والطبيعة ، ونحن انما تأخرنا لجهلنا بذلك ، وبالنسبة لهذا الملحد يعرف

فأنتما ما ضربنا بهذا التأخر والذل إلا بسبب آثار علوم الفلسفة اليونانية وأمثالها
 مما يخالف أصول الدين ولا سيما ما يضاد صفات الباري سبحانه وتعالى ، فإن
 الأمة الإسلامية ما زالت مستقيمة قوية عزيزة مبنية حتى دخلت فيها جرائمهم
 هذه العلوم الخبيثة كما أشرنا الى ذلك فيما سبق ، أما علوم الطبيعة والفلسفة
 الصحيحة فقد بينا أنه ليس في علماء المسلمين من يعتد بقوله من ينكرها أو
 ينهى عنها ، واكثر العلماء إنما نهى عن علوم الفلسفة فيما يتعلق بأصول الدين
 لأنها أمور مبنية على السمع ، أما غير ذلك مما يتعلق بالأمور الصناعية فقد
 وغب فيه المسلمون وكتب الطب والزراعة وغيرها موجودة بين المسلمين وهي
 مشتملة على كثير من أقوالهم وآرائهم ومدرسة في كل مكان من المدارس
 ونحوها ولم ينكرها أحد من المسلمين ، وإنما أنكروا ما يتعلق بأصول الدين ،
 ومعلوم أنه لا فائدة فيها من هذه الناحية ، فإن الله أغنانا بكتابه العزيز وسنة
 نبيه المطهرة فيما يتعلق بصفاته وعبادته تعالى وتقدس ، فما ذكر فكذب وفجور
 واضح لا يخفى إلا على أحمق مدخول في عقله ودينه ، وهذا مع أنه يناقض
 دعواه في نبذته التي سماها (كيف ذل المسلمون) فإنه هناك اعترف بأن علوم
 أوربا الصناعية ونحوها إنما أخذت عن المسلمين ، فكيف هنا يدعى أن المسلمين
 تركوها وأنها مأخوذة عن الفلاسفة . ومن العجب أنه ذكر أن المسلمين
 تحاموا كتب الفلاسفة المنتسبين الى الاسلام كابى بكر الرازى والحسن بن
 الهيثم وجابر بن حيان والكندى ، وهذا كذب ظاهر بل كلامهم في الطب
 والكيمياء والرياضة ونحو ذلك موجود منقول في الكتب المصنفة في هذا
 الشأن بل رغبة كثير من أنصار المعتزلة ومن نحائهم من الجهمية كالطوسي
 وغيره فيها أعظم من رغبتهم في كتب التوحيد والحديث والتفسير ، وهذه
 كتب ابن سينا وأمثلة موجودة بكثرة مع أنه أقرب منهم الى الالحاد ، ولو
 أن هذا الملحد أراد أن يتكلم بالصدق لعلم أن الدولة التركية وكثيرا ممن تبع
 لأكثر مذاهب الجهمية وغيرهم قد تحاموا كتب شيخ الاسلام ابن تيمية وأمثلة

وهي الكنوز الذهبية والكبريت الأحمر وخليق بمن تحامى كتب هذا الامام
 أن يهوى من حالى وأن يصل الى هذه الحالة المشاهدة ، فأصل تأخر المسلمين
 لم يأت إلا من جهة أمرين أحدهما شيوع مذهب الجهمية والمعتزلة فى العقائد
 وفى الصفات حتى كان ذلك هو المشهور فى كثير من الأمصار بسبب سعى بعض
 الملوك والرؤساء فى تعزيز ذلك ونشره والدعاية اليه ، والأمر الثانى الغلو فى
 الأموات من الصالحين وغيرهم حتى عم ذلك غالب بلاد الاسلام ، فصدر
 الأمر الاول علوم الفلاسفة التى أدخلها المأمون بسبب الجهمية والمعتزلة فى
 أصل الدين ، ومصدر الثانى أى الغلو فى الأموات كان أصله من الرفضية ،
 وقد بين ذلك الاستاذ المحقق عبد العزيز المراغى فى ترجمة الامام ابن تيمية
 وحقق هذه الامور تحقيقا لا مزيد عليه وبين أن هذه من أعظم الأسباب
 التى أخرت المسلمين ، ولقد اجاد فى تلك الترجمة وأفاد ، وهذا الذى قاله صحيح
 بلا ريب ، فان المسلمين لم يتقدموا ويحصلوا هذا العز الا بروح الاسلام ،
 فالدولة الاسلامية كجسم نشأ على روح الدين الطاهرة القوية ، فكما ضعفت
 الروح ضعف الجسم ، وكلما تأثرت تأثر الجسم وبقدر تأثر الروح يتأثر الجسم ،
 وان ذهب ذهاب الجسم كله ، وبهذا يعرف الفرق بين الدولة الاسلامية
 وغيرها من سائر الدول أو الحكومات الاخرى ، فان تلك الحكومات انما
 قامت دولها على تعاليم موجودة فيها اليوم وأنظمة معمول بها بجد واجتهاد
 ومحافظة زائدة ، فليست مؤسسة على أديان أهملت وضعف الأخذ بها ، وأما
 الدول الاسلامية ففهم من ترك هذا المبدأ وليس معه إلا اسمه فقط ومنهم من
 ضعف أخذه به فستقل من ذلك ومستكثر

فصل

ثم أطال فى التشنيع على الذين ينكرون علوم الفلاسفة وذمهم غاية الذم
 وقد بينا التفصيل فى ذلك وأن المسلمين لا يذمون منها الا ما لا يمت الى

الاسلام بصلة مما هو مناقض لأصول الدين ، وأما غير ذلك فأنهم لم يذموا بل كتبهم مشحونة به

ثم قال « ومن الأوهام العظيمة أيضا التي جعلتهم يذمون الاشتغال بالعلوم التي لا تتصل بعلوم الدين والعبادات اعتقادهم أن الانسان إنما خلق لينفق كل جهوده وأعماله وأوقاته في العبادة ، أما ما سوى ذلك فلاشتغال به من الاشتغال بالباطل الذي يؤاخذ الله ويعاقب عليه ، واعتقادهم أن من اشتغل بالعلوم الدنيوية أو التي تفيد الدنيا فقد اشتغل بخدمة الباطل ، والباطل هو الدنيا وكل ما يعمل لها ومن أجلها ، ولا أضل عندهم من عبد خلق لعبادة الله فتركها واشتغل بعبادة الدنيا وعبادة نفسه من طريق الدنيا . فمن أعظم الضلال في رأيهم اتفاق شيء ما من القوة والأوقات والأعمال التي إنما وجدت تصرف كلها في خدمة الله - في خدمة الدنيا أو في خدمة ما يخدم الدنيا ، لهذه الأوهام والأسباب المنكرة أشاع هؤلاء الشناء على الجاهالة وعلى الجنون والبله وضعف العقل وأشاعوا مذمة العلم والذكاء وقوة العقل حتى صار الناس الذين قضى عليهم بقرامة كتبهم والايمان بها ينظرون الى العلوم نظرا هو الخساسة والحذر ، ثم أطال من هذا الهذيان ، وغرضه من هذا البهت والخبث والفجور الزائد هو تركيز كراهية علماء الدين في نفوس الرؤساء الذين لا يعرفون حقيقة ما لدى هؤلاء العلماء من العلم والعقل والدين ، وفي نفوس الأجانب للقضاء عليهم والتنفير منهم ، وفي نفوس الجماهير الجاهلاء من الفساق وأمثالهم الذين لا يعرفون الامور الدينية على وجهها ، وقد قدمنا لك أن هذه الأغللال دعاية خبيثة ملعونة ملتوية ضد روح الأديان وبخاصة روح الاسلام ، وأنها متابذة صريحة وعداوة منكرة لرجال الاسلام وعلمائه ، ونحن نتحدى هذا الزنديق بأن يبرز لنا كلاما لواحد من العلماء الذين يعتد بقولهم أنه قال أن من اشتغل بشيء من علوم الدنيا أو التي تفيد الدنيا فقد اشتغل بخدمة الباطل أو أن أحدا منهم امتدح الجاهالة والجنون ، ولو أن أكفر يهودى ادعى على

المسلمين أنهم يمدحون الجنون والجهل ويذمون العمل فسادا يصنع المسلمون ،
فلا حول ولا قوة الا بالله كيف يفتنى بها في هذا الكلام من الخبث العميق
والعداوة المنكرة للإسلام وأهله ، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى
القلوب التي في الصدور

ومن العجائب بل من المصائب قوله « ولا أضل عندهم من عبد خلق
لعبادة الله فتركها واشتغل لعبادة الدنيا أو لعبادة نفسه عن طريق الدنيا »
فتقول نعم إنه لا أضل من هذا إلا من أنكر ضلاله وهو يشك في ضلال من
ترك عبادة الله وعبد الدنيا وعبد نفسه ، بل وهل يشك مسلم في كفره ، وكيف
يشك في كفر من ترك عبادة الله واشتغل بعبادة الدنيا ، وإذا كان هذا عندك
ليس بضلال فما هو الكفر والضلال ، إذا كان ترك عبادة الله ليس بكفر كما
هو صريح كلامه فهذا الملحد لا يرى أن ترك عبادة الله والاشتغال بعبادة
الدنيا وعبادة النفس لأجل الدنيا كفر ، لانه جعل هذا من الأوهام العظيمة
كما هو صريح أول الجملة ، وجعله من الأسباب المنكرة في آخر الجملة ، فادعى
هذا الملحد صريحا أن من الأوهام العظيمة والأسباب المنكرة عند المسلمين أنهم
يرون أنه لا أضل من عبد خلق لعبادة الله فتركها واشتغل بعبادة الدنيا أو
بعبادة نفسه عن طريق الدنيا ، فهذه الجملة التي قالها صريحة في كفره صراحة لا
تقبل التأويل إلا تأويل اليهود الذي اتخذ له نفقا وملجأ يهرب اليه ، وفي هذه
الدعوى التي قلناها هنا من الخلط والتخليط والفجور ما لا يخفى على أدنى
عافل ، ولا شك أن الله سبحانه خلق عباده ليعبدوه كما قال تعالى ﴿ وما خلقت
الجن والانس الا ليعبدون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن
اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ ولا ينافي عبادة الله الاشتغال بشيء من
أمر الدنيا مما أباحه الله تعالى لعباده ، بل الانسان مأجور على عمله للدنيا إذا
كان يقصد بذلك ما يتعلق بالطاعة كما تقدم ، وأما مدح الجنون والجهل فقد
بيننا أنه فجور لا يقدم عليه إلا من هو مثله ، والله سبحانه بين لعبادة العباد

فقرض فروضا وواجبات وعين صفاتها وأوقاتها وهي لا تستغرق من حياة الانسان إلا أقل القليل ، وبين سننا ومباحات ، وبين أن العبد لا ينبغي له أن ينسى نصيبه من الدنيا ، ولا شك أن الأمور الصناعية والتجارية وما يتعلق بذلك من أمور الجهاد والدفاع عن الدين تكون من الواجب عند الحاجة ، والمسلمون كلهم يفرقون بين الواجب والمستحب والمباح ، وأدنى رجل من المسلمين يعلم بلا أدنى ريب أن تأخر المسلمين ليس سببه كونهم عاكفين في المساجد منهمكين في العبادة متابعين الصوم والصلاة قد رفضوا الدنيا وزهدوا فيها وأنه لا يوجد فيهم من يشتغل بشيء من أمور الدنيا كما صورهم هذا الملحد بهذه الصورة عند من لم يعرف حالتهم فجعل مناط التأخر والذل وعدم الاستقلال كله الأعمال الصالحة والذكر والدعاء والعبادة ، فحمل جميع مصائب الاسلام على عبادة الله ، وهو يعلم أن الواقع الذي لا ريب فيه خلاف هذا ، ومن عمق خبثه والحادة وشدة عداوته للاسلام أنه لم يتعرض لهذه الجماهير المشتغلة في الفسوق بالرقص والغناء والفجور والدعارة والخلاعة والتلصص والنهب وغير ذلك من الأمور القبيحة ، فكل هذا أعرض عنه ولم يتكلم فيه بكلمة واحدة كما أنه لم يتكلم في الأمور الشريكة وتحريف الصفات وأكل أموال الناس بالباطل في هذا السبيل وغيرها وهو يعلم أن هذه الأمور هي أعظم العوامل التي تشغل عن العمل للجهاد والصناعة والتجارة وغير ذلك ، بل جعل همته محاربة هؤلاء الذين يدعون الى الله والى عبادته على ما هم فيه من الحن والمصائب في هذا الوقت العصيب ، ثم لو سلم لهذا الملحد أن أحدا منهم دعا الى عبادة الله ونهى عن الاشتغال بالدنيا فهو بكل حال أحسن حالا من الملاحدة الذين يقولون يجب أن نتفق الجهود في العمل للدنيا وأن الاشتغال بعبادة الله لا نفع فيه بل هو ملهاة ومصرف خبيث ولا نسبة بين من دعا الى الله وعمل صالحا بمن كذب بآيات الله وصدف عنها ، فان هذا كافر قاتل غير الحق ضار أمته بل ضار الانسانية كلها ولن يوفقه الله ابدا بل سيصيبه صغار

عند الله وعذاب شديد بسبب مكره ، وأما ذلك فانه اذا قال مثل هذا القول لم
يضر شيئا في دينه بل ولا في دنياه فانه لا يطاع في مثل هذه الامور الدينية
المحض الا في دون واقل مما أمر به كما هو الواقع

فصل

قال « يجب أن تكون تعاليمنا وثقافتنا كلها قائمة على أنه لا يوجد علم
يضير ولا جهل ينفع ، وأن كل شر انما يرجع الى الجهل ، وكل خير انما يصدر
عن العلم ، والعلم هو العلم المطلق ، العلم بكل شيء ، وانما لا يمكن أن ننال
بالجهل شيئا ولا أن يفوتنا بالعلم شيء ، وانه لا رجاء في الاخلاق ولا في دين
ولا في شيء من الاشياء الجميلة الا بالمعرفة ،

والجواب أن يقال : اما العلم المطلق الصحيح النافع الذي أثنى الله عليه
وعلى أهله فهو علم الدين وما يتعلق به ، ولا يسمى علما مطلقا إلا علم الدين ،
وأما العلوم التي ليس لها اتصال بعلوم الدين فلا تسمى علما الا بالاضافة الى
موضوعاتها ولا يصح ان يطلق على أهلها اسم العلماء كما سيأتي بيانه مفصلا
وقوله انه لا يوجد علم يضير ولا جهل ينفع ممنوع بل باطل ، وهو قد نقض
هذه الدعوى بنفسه فقال في نبذته (البروق) ما نصه ص ٣ « ولكن ما كل
علم محمود ، فرب علم خير منه الجهل ، وبقطة خير منها المنام ، وتذكرة أحسن
منها الغفلة ، وبصر أفضل منه العمى ، وذكاء أجمل منه الغباء ، فكلم من علم
هو بصاحبه في الهوان وأعقبه الذل والخسران وخطئه في العذاب والنيران
وأغضب عليه الرحمن والانسان ، هذا كلامه بحروفه وكأنها رؤيا رآها فكانت
عملية هذه الاغلال تأويلا لها . قال « فاشرف العلوم على الاطلاق ما دل على
الآخرة وبصر بالباقية التي الغبن فيها شر غبن والضلال فيها أقبح الضلال والزلل
في طريقها أقتل زلل والعمى عن سبيلها أصرع عمى لا يقبل فيها استقالة ولا
تنفع وسيلة ولا شفاعة ، إما نار أبدل لا بد من أو جنة عوض العائضين ، فريق

في الجنة وفريق في السعير» انتهى . فإين هذه الروح من تلك ، ولكن لا حول ولا قوة إلا بالله ، ومن طالع نبذته (كيف ذل المسلمون) ونظر آخرها واستنزله لتلك اللعنات ثم نظر الى هذه الاغلال وخروجه بعدها عرف من أين جاءه البلاء نسل الله السلامة بمنه وكرمه

ثم قال : « وان ضعف المسلمين وتأخرهم وفقدهم كل أنواع الاستقلال والسيادة لا يعود الى فساد في الاخلاق ولا الى خلاف في الرأي ولا الى شيء مما يحسبه الجاهلون ، وانما يعود الى شيء واحد فقط ، يعود الى الجهل بما به قوة الآخرين أى الجهل بقوة الطبيعة ونواميسها ،

والجواب أن يقال : لما فرغ من تهجين العبادة وتسفيه آراء الذين يرون أنهم خلقوا لها والتهكم بهم والاستهزاء بعقائدهم أخذ يمدح ما يقصده من عبادة الطبيعة والاعتماد عليها ، فخصر أسباب تأخرنا كلها في شيء واحد وهو الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها ، فالرق والتقدم والعز والتمكين كله منوط بمعرفة هذا الشيء الواحد الذي هو قوى الطبيعة ونواميسها ، وقد صرح بأن فساد الاخلاق والاختلاف في الرأي لا تأثير له في ذلك ، ففساد الاخلاق من الكفر والفواحش والاستمثار بالشرائع والمجون والخلاعة وغير ذلك لا دخل له في التأخر كما أن الخلاف في الرأي الذي هو أساس التفريق والشحناء والبغضاء لا أثر له في تأخرنا وعدم استقلالنا ، وأما الشيء الذي يحسبه الجاهلون فهو ما قاله علماء المسلمين أن ذلك هو سبب تقصيرنا في الأخذ بالدين والعمل بالكتاب والسنة فهذا كله عنده ليس هو السبب في التأخر انما السبب كله عائد الى هذا الشيء الواحد وهو الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها ، وقد تقدم كلامه أن الله خلق خلقه للكمال فيكون خلقهم لمعرفة قوى الطبيعة ونواميسها ، وقد بين الوسيلة التي بها تعرف نواميسها في المشكلة التي لم تحل وهي الاعتقاد بأن الأسباب آلية طبيعية ليس لله ولا لغيره أن يقف في سبيلها أو أن يتحكم في نهايتها وقرر في بحث التوكل أن اعتقاد كون الله

يتصرف في الاسباب فيجعلها ان شاء اسبابا وان شاء جعلها غير اسباب سفه وفوضى لا ضابط لها ، فعرفة قوى الطبيعة ونواميسها موقوف على شيء واحد موقوف على الاعتقاد بأن الله لا يتصرف في الاسباب فيجعلها ان شاء اسبابا وان شاء غير اسباب ، فلا يتحكم في نهاياتها ولا تقف مشيئته في سبيلها ، فلا بد من الكفر بالمشيئة العليا المتصرفه في الكون بالقطع والوصل والعز والذل والرفع والخفض ، وما دام الانسان مؤمنا بهذه المشيئة وأنه كل يوم هو في شان وأنه يحو ما يشاء ويثبت وأنه يعز من يشاء ويذل من يشاء فانه لا يعرف قوانين الطبيعة ونواميسها ، وحينئذ لا يحصل له التقدم بل لا بد أن يتأخر ويضعف ، فالإيمان بالمشيئة هو أصل الضعف والتأخر وهو الجهل الذي أطال وأطنب وأسهب في دمه ، والعلم بقوى الطبيعة هو من أعظم العلم الذي أطنب في مدحه وما سوى ذلك مما لا تعلق لهذا الاصل به من أمور العبادة فهو جهل وخرافات وأوهام ، ولهذا شن الغارة على حملة الشريعة المطهرة من أولهم الى آخرهم ، ورماهم بقوس واحدة بالجهل والبلادة والرجوع الى الوراء لانهم جهلوا قوانين الطبيعة ونواميسها الذي هو مادة الرقي كله ، كما أنهم جهلوا المنكر والحبث وعلم الشطنج والموسيقى الذي هو من توابع هذا الاصل عنده ومدح أعداء الله من الملاحدة والزنادقة وسائر الكفرة عن لهم معرفة بهذه الامور وعنى عن جميع ما حل بأكثرهم من المثلث وأنواع المصائب والعقوبات التي لا تعد ولا تحصى ، ولو أن ربع هذه العقوبات حل بمن يعبد الله لجعل ذلك من أعظم البراهين على أن العبادة والدعاء لا ينفع ، فانه شنع على الدعاء مع تواتر نفعه وخلع على أهل المعرفة بقوى الطبيعة ونواميسها أحسن الالقاب وأعظم الثناء كما أن ما ناله أهل الدين والتقوى من العز والمجد والسيادة في الدنيا لم يغير فكرته في القدح في العبادة والدعاء مع وضوح ذلك كله ثم انه حمل عبدة التأخر كله بأجمعه على رجال الدين ولم يلتفت الى ما معهم من الفضائل وما حصل بسببهم من النور والهدى والى ما حصل على يد غيرهم من هدم الاسلام

والتثيل به وجرّ الولايات المتتابعة على الانسانية بل أخذ أعمالهم الخبيثة و اضافها الى رجال الدين ، وأخذ فضائل رجال الدين و اضافها الى الملاحدة ، وهذا غاية الخبث والزندقة والعداوة للإسلام ، وبالجملة فانه لم يلتفت الى علماء الدين ولم ينظر الى ما فعلوه من الأيادي الجليلة الجميلة في سبيل حماية الأمة بل أعرض عن هذا كله وكفر به وجعلهم موضع السب واللوم والذم ، وأما أولئك الخبيثاء من الملاحدة والمنافقين فانه لم يكتف بمدحهم بالدهاء والمعرفة بل منحهم اسم العلماء والعقلاء لأنهم عرفوا هذا الشيء الذي ادعاه وغض طرفه عن كل ما فعلوه من أعمال فظيعة وفساد في الاخلاق وغير ذلك فإن هذا كله مغفور لهم في جانب توحيده الذي يدعو اليه من معرفة قوانين الطبيعة ونواميسها . ولا بد للمنافق أن تكون حالته هكذا وإلا فما هو النفاق اذن ، فلا يعرف النفاق بغير هذه الصورة ، كما لا تعرف الزندقة الا بها

ثم قال : « كيف نصبر بعد اليوم على قوم يدمون لنا العلوم الرياضية والطبيعية والكيمائية والفلكية والفلسفية »

فيقال أولا : ان علماء المسلمين لم يدموا العلوم النافعة من الفلسفة والطب ولا الكيمياء ولا الرياضية ولا الفلكية ، بل كل ما فيه منفعة للإسلام من هذه العلوم أو منفعته راجحة على مضرتة فقد أمروا بفعله فلا حاجة الى هذا الطيش والجنون واللحاجة الفارغة . ويقال ثانيا ها أنت لم تصبر عليهم بل وجهت اليهم وإلى دينهم أقصى ما لديك من ذم وسب واتهام ، فرميتهم بالبلادة والجهالة والحماقة والغباوة والجنون وغير ذلك ، وهذا غاية ما تقدر عليه ، فانك لا تقدر على غير هذا التباح والصباح انتقاما لآلهتك التي توجهت اليها واعتمدت عليها من قوانين الطبيعة ونواميسها ظنا منك أن هؤلاء يسبوننا فما اشبه حالك بحال من قال الله فيهم ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ﴾ ومن سب الدين واهله فقد سب الله تعالى ، ثم أنك مع هذا صبرت غاية الصبر على الذين يدمون العلوم الدينية من التوحيد

والحديث والتفسير والفقه ولم تدافع عنها بكلمة واحدة بل كنت اعظم عدو
لهذه العلوم وأهلها وأعظم قاذح فيها ومهجن لها من كل كافر . ويقال ثالثا :
إذا أنت لم تصبر على ذم هذه العلوم مع كونها ليست بما أمر الله تعالى به بل
غايبتها أن تكون مباحة في الأصل ، فكيف نصبر نحن على ملاحظة وزنادقة
يذمون لنا العلوم الدينية من التوحيد والحديث والتفسير والأصول والفقه مع
أنها هي التي أمر الله بها ، ويمدحون لنا الشطرنج والموسيقى والخبث والمكر
وأمثال ذلك ، بل الواجب علينا أن نجاهد هؤلاء الجاحدين الخيلاء اعلاء
الله ورسوله ونعاملهم المعاملة اللائقة بهم)) ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما
عليهم من سبيل))

فصل

قال : هـ ان الله جلت قدرته إنما نظم هذا العالم هذا النظام العظيم الرائع ،
وحكمه هذا الحكم الذي لا اختلاف فيه ولا اضطراب ، بالعلم وبنواميسه
وقوانينه وقواه وأسراره ، واننا نحن أبدا لن نحكمه أو نحكم شيئا فيه ولن
ننظمه أو ننظم شيئا فيه الا بهذا العلم أيضا ، وإن أنفسنا ووجودنا منه فلن
نحكمها اذن الا بالعلم الطبيعي أى بعلمها من ناحيتها الطبيعية ،
والجواب أن يقال : الله اكبر (يا الدر الذي في لجج البحر) ما أحد
ذهنك في معرفة القياس وما أدق تحقيقك في صحة الحكم ، ولعل هذه الجملة التي
تكلفتها من أقصى دماغك من أبدع آيات حقائقك الازلية الابدية التي ألقيت
في روعك ، فبعداً لك ما أسخف عقلك ، ونحن نجيبك عن هذا الذي أعجبت
به فنقول اولاً : اطلاق كون الله انما نظم هذا العالم بعلمه به وبنواميسه
وقوانينه وقواه وأسراره فيه من القصور وركاكة التعبير وسوء الأدب ما لا
يخفى على قارى بصير ، فإن العلم بالشئ من جميع نواحيه لا يوجب حكمه ، بل
لا بد من القدرة عليه وعدم المعارض لمن يحكمه ، وهذا مفقود في بني آدم

فانتقض القياس من أصله ، ولا يقال انه نظمته بعلمه بل نظمته بمشيئته الصادرة عن قدرته وعلمه ، فلا بد من اسناد التنظيم الى الارادة أو المشيئة ، ولكن هذا يتفر من المشيئة كما تنفر الحر من القسورة فلم يذكر المشيئة العليا في كل أغلاله إلا على وجه الذم أو في سياق الذم ، وبالله العجب كيف يقيس حكمه تعالى وتنظيمه لهذا العالم بحكم المخلوق ومعرفته لبعض نظام الطبيعة ، ثم كيف يريد منا أن نحكمه وهو يذكر أن الله قد حكمه ، فاما أن يريد أن يكون حكمنا تابعا لحكم الله فيبطل كلامه في مضادة القدر ويكون الانسان لا يشاء الا ما يشاؤه الله ، وإما أن يريد أن يكون حكمنا مضادا لحكم الله وحينئذ يفتضح لأن هذا تشريك في التدبير واستقلال ببعض الملك ، فبطل كلامه على كلا التقديرين . وهذه المقدمة التي ذكرها عن الله في تنظيم العالم انما أراد نتيجتها وهي قوله واننا لن نحكم هذا العالم أو نحكم شيئا فيه ولن ننظمه أو ننظم شيئا فيه الا بهذا العلم أيضا ، وقد فسر به بالعلم الطبيعي ، أما الديني فله نتيجة أخرى فلا دخل له في ذلك ، فالنتيجة الحقيقية في رأيه أنه يجب اذن علينا أن نتعلم نواميس هذه الطبيعة وقوانينها لنكون مثل الله الذي حكم هذا العالم حين علم قوانينه ونواميسه ، وهذه النتيجة ساقطة جدا لانها مبنية على ان في امكاننا أن نعلم كعلم الله وان نقدر كقدرته ونريد كرادته ، فكل هذه المقدمات التي يريدنا منا باطلة لانها تقضى بتكليف ما لا يطاق ، ولأنها تقتضي مساواة العبد بالمعبود والخالق بالمخلوق وهو محال ، ولا تتمشى إلا على قواعده من أن الانسان يقدر على كل شيء ويعلم كل شيء ، وهو مبع كونه كفرا فهو تشبيه يقصده به التعطيل المحض ، ومعلوم أنه سبحانه علم العالم وعلم نظامه وما سيكون فيه قبل أن يخلقه بخلاف المخلوق الذي ما جاء الا بعد أن خالق ونظمه بأبداع النظام التام كله . واذا كنت معترفا بأنه تعالى حكم هذا العالم المحكوم ونظمه بالعلم به فلا شك أننا جزء من هذا العالم المحكوم المبتكر فيمتنع في بداهة العقول أن يكون الجزء الصغير المحكوم حاكما على الكل ، اذ معناه أن

ينقلب الجزء الصغير المحكوم جزءا كبيرا حاكما على كل الجملة ، وهذا قلب للحقائق وسفسطة ظاهرة ، وإذن فالحاكم الأول والجزء الأول هل يكون صغيرا أو عدما أو تساويا مع الأصغر المحكوم ، إنما الصحيح على هذا أن يكون الجزء المحكوم حاكما على مافى دائرة جزئه فقط حاكما مقيدا تابعا لحكم الجزء الأكبر لانه بحكم الوضع والمقدمات الصحيحة محكوم ، والمحكوم الذى هو جزء من مجموع محكومات لا بد أن يكون مقيدا ، ولا بد إذن من أن تكون دائرته صغيرة جدا ، إذ هو جنس واحد داخلا فى جنس واحد ، وكل جنس من هذا وهذا من أجناس لا يحصى عددها إلا الله تعالى ففيا من هو أقوى منه وأعلم فى الجملة منه فتكون دائرته فى غاية الصغر والضآلة بالنسبة إليه كما ذكرنا ، ومع هذا الصغر النهاى لا بد أن تكون داخلة فى حكم الدائرة الكبرى تحت الحكم المطلق ، وإذا ثبت هذا - وهو ثابت بلا ريب - انتكست نتيجته عليه ، لأنه يجب علينا إذن أن نتقيد بنظام الحاكم الأكبر الذى نحن تحت قبضته فأننا جزء محكوم لا يستحصل على شيء إلا بأن يجرى على نظام الحاكم الذى فوقه فنعبث هذا الحكيم العالم الحاكم وتوجه إليه وتدعوم ونطلب منه أن يسخر لنا ما هو فى ملكه بما هو تحت قدرتنا المحكومة لأننا محكومون ، ومن الجسارة والحسابة السرمدية أن نتمرد على هذا الحاكم الأكبر الذى حكمنا وحكم الكل بنظامه وقدرته وعليه ، فنخرج عن نظامه الذى شرعه لنا فنصادم نظامه ونعارضه وتدعى سفسطا أن نظامه ملهية ومصرف خبيث وأنه شر ما يودى ، فنكون مصادمين لهذا النظام والقانون والناموس لأن حركة كل دائرة صغرى لا بد أن تكون مربوطة بحركة دائرة كبرى لا بد فى سلامتها من الدمار وحصول نتيجتها أن تكون حركتها تابعة لحركة الدائرة الكبرى ونظامها غير معاكسة لها ، فانه لو عكست حركتها النظامية أو حاول محكوم أن يعكس حركتها الأصلية التابعة للحركة الكبرى بقوته الضئيلة لفسدت وخربت خرابا نهائيا ما لم يكن بها شيء باق على مجراه الأصلى فتكون حركتها

ضعيفة بمقدار اتباعها وانسجامها مع الحركة الكبرى ، وهكذا من استكبر عن عبادة الله تعالى وعارض شرعه المطهر الذى ربط به سير الكون وخرج عن نظامه مع اقراره بانه محكوم أو لم يقر - فانه فى الواقع محكوم حكما قهريا ، وانما جعل له بعض الاختيار المقيد فى دائرته كما تقدم - فانه حينئذ يكون مصادما لحاكمه معارضا له معا كسا لقانونه ، فلا بد من وقوع دماره وفساده ، فلا بد لمن يريد أن يحكم دائرته حكما منظما أن يكون نظامه موافقا وتابعا للنظام الذى شرعه ونص عليه الحاكم الأكبر الذى حكم الدائرة الكبرى التى هو داخل فيها لكي ينسجم نظامه الأصغر بالنظام الأكبر فيحصل التناسب الكلى وهذا عين النجاح ، فالقوانين العقلية والنواميس العقلية دلت دلالة صريحة على أن من خرج عن نظام الله وتمرد عليه وهو عبد محكوم مقهور فلا بد أن تكون نهايته الدمار والحرب والفساد والفوضى ، وبمقدار ما يكون معه من الاتباع لهذه القوانين والنواميس يكون مقداره من السلامة والحياة الصحيحة والاستقامة فستقل من ذلك ومستكثر ، وما جاء الناس النقص ولا جاء الدمار ولا جاء الموت الشنيع ولا الفوضى الا بخروجهم عن متابعة هذا النظام العادل الجبار القهرى واتباعهم الأمور معكوسة معا كسة لهذا القانون ودخولهم فيها من غير أبوابها ، بل من الأبواب المقلوبة ، واذا فم ذكره وأعجب به فهو حجة عليه بالحقائق المعقولة الواضحة

فصل

ثم شرع يمدح العلم ، واستشهد بقوله تعالى ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى اصحاب السعير ﴾ وبقوله تعالى ﴿ وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا ﴾ ولا حجة له فى ذلك . ومدح العلم أمر معروف عند الخاص والعام ، ليس العلم هو الذى يريده من الشطرنج والمنكر والخبث والموسيقى ودقائق الفلسفة ، ولا هو تعلم الطبيعة ونواميسها ، وليس فى الآيات ما يدل على

هذا ، فمسئلة مدح العلم وذم الجهل مسئلة لا يناع فيها أحد ، لكن الشأن أن هذا الملحد جعل علوم الدين التي هي أساس الخيرات كلها هي الجهل ، فانه جعل ذكر الله على المنابر والصلاة في المساجد شر ما يؤدى وجعل دعاءه ملهاة ومصرفا خبيثا وجعل العلم محصورا في الامور التي ذكرنا

ثم قال مستدلا على مدح العلم وهذا نص كلامه « بل حكى (١) في موضع من مواضع الاشادة بالعلم قوله تعالى ﴿ اِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ فحكم بأن العلماء سيخشون الله لا محالة ، وان من ليسوا علماء فلن يخشوه ، لان تركيب هذه الآية اللفظي يرجع الى (لا يخشى الله الا العلماء) والقرآن بالاجمال قائم على جملتين : الثناء على العقل والعلم ، وذم الجهل وضعف العقل ، انتهى كلامه بحروفيه . فقد رأيت أنه اعترف بأنه لا يخشى الله الا العلماء ، فقرر أن العلماء هم المتصفون بخشية الله تعالى ، ومن لم يخش الله فليس بعالم ، فيكون مقتضى هذا وصريحه أن الملاحدة ليسوا بعلماء وأنهم غير داخلين في مسمى العلماء ، لأن الملاحدة بلا ريب لا يخشون الله مطلقا . فهذه الآية وبهذا الاعتراف والتقرير الصريح الذى ادعاه انفلتت منه ثمرة كتابه انفلت الطائر من يد صائده ، فان ثمرة كله التي اجتهد وحاول تحصيلها أن الملاحدة هم العلماء ليكون من سواهم جهلاء ، لانه اذا ثبت هذا صح له أن يصح دعواه أن المتحللين من الأديان هم أهل العلم الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها العلوم المتكررة ، وأنهم هم المخلوقات المتألقة فيجب تعظيمهم والاقتداء بهم وبغض ما يخالف ذلك من آراء السلف وأتباعهم المضادين لهم من كل وجه ، فكيف هنا يدعى أن العلماء هم الذين يخشون الله ومن لم يخش الله فليس بعالم ، ويصرح فيما مضى بان المتحللين من الأديان هم الذين صنعوا الحياة فكيف يتفق أن يكونوا موصوفين بخشية الله وموصوفين بالعلم المذكور في الآية ويكونون مع

(١) يعنى الله تعالى

ذلك موصوفين بالتحلل من الدين وبالاغراف عنه ، فهل يتفق التحلل من الدين وخشية الله في عقل أدنى عاقل ، وكيف يتفق أيضا دعوى أن العلماء الموصوفين بالعلم هم الذين يخشون الله مع دعواه أن المتدينين على اختلاف أجناسهم وانبيائهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ولم يكونوا فيها مخلوقات متألقة ، ومعلوم أن هؤلاء هم أهل خشية الله ، لأن هؤلاء هم ضد الملاحدة ، فالناس في الجملة إما ملحد دهرى أو متدين فكيف هؤلاء العلماء أهل الخشية لم يهبوا الحياة شيئا جديدا وأنت تقرر أن الذين وهبوا الحياة الشيء الجديد هم العلماء ثم تقرر أن العلماء هم أهل خشية الله ثم تنكب على وجهك فتقرر أن الذين صنعوا الحياة هم المشتملون من الأديان ، يا ويلك من عليك هذه القواعد المنطقية والحقائق الأزلية الابدية ، فسبحان من أخزأك وجعلك بهذه الحالة التي يستعيز كل عاقل منها . والعجب أنه لشدة كراهته ومقته لعلماء الدين ونفوره منهم وحبه ومتابعته للملاحدة أتى بهذه الآية مستدلا بها تمهيدا للنتيجة التي سيقررها قريبا وهي أن اسم العلماء إنما يختص به الملاحدة ومن حذا حذوهم وأنهم أولى بوصف العلم ، ولكنك لخطئه وخطأه وعظم ما أصابه من الحرص غلب عليه الذهول حتى انقلب دماغه فانعكس قصده ومراده فأثبت لعلماء الدين أنهم هم المستحقون لوصف العلم الممدوح في القرآن والسنة ونفى عن سادته وأوليائه الملحدون الذين لا يخشون الله هذا الاسم الجليل الجميل - كما ترى تقريره صريحا - وقد تقدم المثل « إياك وصحبة الاحق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك » فتبين أن هذا الاسم الشريف الجليل الممدوح في القرآن العزيز لا حظ للملاحدة فيه سواء كان هؤلاء الملاحدة من أهل المعرفة بالطبيعة ونواميسها أو من أهل التجارة والصناعة أو الاقتصاد أو الأدب أو غير ذلك ، لأن القيد الضابط للعلماء الممدوحين هو خشية الله فإذا انتفى هذا القيد انتفى موجهه ، وليس كل من عرف شيئا من علوم الطبيعة والمادة يكون ملحدا فان هذا موضع تفصيل ، فمن عرف شيئا من أمور الطبيعة على وجهها

الثابت في نفس الأمر وعمل بواجبه الديني فهو مثاب وهو من العلماء بقدر ما عرفه من أمر دينه وخشي الله به ، لأنه يحكم من أهل الخشية ، وليس علم الطبيعة إلحاداً ولكن الإلحاد فيها هو اسناد الحوادث إليها دون مقبلة الله وقدرته ، فن أسند حدوث الحوادث إلى الطبيعة وتفاعلها واعتمد عليها أو قدم مارآه بعقله فيها على النصوص الدينية فهو ملحد ، ونحن لا نشك في أنه ليس في علم الطبيعة الثابت الصحيح ما يخالف النصوص أبداً وإنما يحصل الغلط من تصور الفكر وجعل الشيء الموهوم حقيقة ثابتة ثم يعارض به ما دل عليه ظاهر النص الشرعي لأنه حينئذ يكون في شك من صحة دلالة النصوص أو في ريب من الدلالة الصريحة بأعنه - أي الرب والشك - عدم الجزم والقطع بطلان ما يخالف مدلول النص أو يكون بأعنه ضعف إرادته في نفيه ما صادم النص مهما كان من أي نظر أو تفكير ، فإن الإنسان متى علم واعتقد اعتقاداً جازماً صادقاً خالصاً بأن النصوص الدينية كافية في بيان الحق والدلالة عليه هان عليه إذن نفيه ما يخالفها ، لأن البراهين العقلية الثابتة لا تتناقض بحال ، فإن الإنسان إذا اعتقد صحة الشيء فلا بد أن يعتقد بطلان ما يضاده فلا يصدق ببرانين متناقضين أبداً ، ولكن إذا ضعف الاعتقاد نشأ عنه الشك في الدلالة وأنها غير كافية في إيضاح هذا الشيء فيقع في التردد والحيرة والقلق فيتزايد ذلك حتى يفسد العقل ويفسد الدين ، ويقع في التناقض بحسب ما في القلب من القلق والشك والريب ، وكثيراً ما يقوى هذا فيكون نفاقاً ، لأنه لا بد إن لم يصدق بأحد الأمرين (١) متبقى معه بقية من الأمر الآخر فيحصل النفاق ، فمن الرب والشك تأتى النكبة ، فالشك والريب من أعظم أمراض القلوب التي ذكر الله سبحانه وتعالى وبين في كتابه بأنه سبب في حرمان النفع بما جاء من النور والكتاب المبين ، وأنه سبب في انقلاب القلب وفساد العقل وسبب في

(١) أي تصديقاً جازماً قوياً

كل ما يحصل على الانسان من بلاء ووباء . فقد عرفت من هذا أن النفاق هو التذبذب بين الشيئين المتضادين أو الاشياء المتضادة وهو اذا أطلق في الشرع في النفاق الاعتقادي فهو التذبذب بين الدين والكفر ^(١) ومنشأه القلق والاضطراب ومنشأهما الشك ، وسببه ضعف اليقين ، وباعث هذا عدم التصديق الجازم القاطع الثابت القوي الذي لا يتزعزع بما جاء في النصوص

اما دعواه أن الله تعالى أثنى على العقل فهذا لا نزاع فيه ، كما لا حجة له فيه ، ونحن لم نقل قط ان الله ذم العقل بل العقل بمدوح كالعلم ، ولكن الشأن في بيان العقل الممدوح من العقل المذموم ، ولا شك أن العقول تختلف اختلافا كثيرا لا يتضبط فهل يظن أن الله أثنى عليها كلها أم أثنى على الصحيح منها ، وحينئذ فالجدال معه في الصحيح ، ونحن والله الحمد وزنا العقل الصحيح بموافقته للنص ، فان النصوص في غاية الصدق والصحة ، ومعلوم أن العقل المطابق للصحيح الصادق هو الصحيح الصادق لان مطابقته دليل على صحته وسلامة فطرته ، واذا خالفه دل على فساد ، وبغير هذا لا يمكن أن يتضبط العقل الصحيح ، فكل أحد في إمكانه أن يدعى أن عقله أصح من عقل غيره ، فلا بد من الميزان الصادق ، لكن الأشياء التي لم يكن فيها نص فالدلالة على صحة العقل فيها مطابقته للواقع إما بالتصريح به وإما بإقامة البراهين الضرورية الحسية التي يكون إنكارها حجة أو مكابرة ، ونحن انما ننازع في المسائل الدينية وما يتعلق بها فاذا اخطأ العقل في بعض الأمور المسائل الدنيوية فهو أهون من غيره لأنه لا بد من وجود من يبين هذا الخطأ ولا بد من وجود من ينشره ويشيعه ويحذر منه ، لان الناس مدفوعون دفعا عنيفا الى المحاماة عن سياساتهم وعن أخطائهم الدنيوية المحضة ، بخلاف الدين فان الدفاع عما يصادم روحه وأصوله ضعيف جدا ولا سيما في هذه الازمنة الاخيرة التي فتحت فيها أبواب

(١) وهذا هو عين ما فعله هذا في أغلاله

حرية الفكر حتى في الاحاد ، وقد فصل الله هذا الامر الأخير أعظم التفصيل وأوضحه وأبينه وكرره في القرآن بأنواع الأساليب الرائعة ، لانه سبحانه علم ما سيكون من تساهل الناس في هذا الامر وحرصهم على الامر الأول اذا تقرر هذا فنقول : ان الأدلة العقلية الصحيحة تفيد اليقين ، وليس في الشريعة المحمدية حرف واحد يخالف صريح العقل أبدا كما تقدم إيضاحه في مواضع كثيرة . وهذا الملحد وأشباهه أبعد الناس عن العقل الصحيح الذي أنشأ الله عليه ، بل هم كما قال الله تعالى في أسلافهم ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ فلا سمع لديهم ولا عقل لديهم ، فان السمع الذي هو العلوم الدينية هم أبعد الناس عنه فان هذا رفضه وانسلخ منه ، ويكفي شاهدا على فساد عقله أغلاله هذه ، ويكفي من أغلاله دعواه في هذا البحث نفسه أن تأخرنا ليس له علة إلا شيء واحد وهو الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها فقط ، وهو يرى أما ودولا عظيمة الشأن عرفت من هذه الأمور ما لم يعرفه غيرها وقد صارت تحت أقدام أعدائهم ممن هم دونهم في معرفة هذا الشيء الواحد الذي يدعيه ، ويكفي شاهدا من هذا البحث نفسه ما ادّعا في هذه الصحيفة نفسها أن العلم هو المعرفة من حيث هي ، أي من دون نظر الى متعلقها ، ثم بنى على هذا أن كل ذي معرفة يسمى عالما ، وان العلماء الممدوحين في النصوص لا يختصون بعلماء الدين بل كل ذي معرفة من حيث هي فهو عالم ، فعلى هذا تكون الكلاب والحمير والقرود والخنازير علماء ، أو من العلماء الممدوحين ، لان كلامنا من هذه الحيوانات وأشباهها معه من المعرفة والحذق والدهاء مما يتعلق بحياته وشهواته ومعيشته مالا يقدر عليه كثير من بني آدم ، فالقرود عالم والضب عالم والديك عالم على مقتضى قواعد الازلية ، هذا هو عقل هذا المختال الفخور ، فما ذكر الله سبحانه في ذم الجهل وضعف العقل صحيح ولكن هو من أعظم الواقعين في هذا الذم لانه من الجهلاء ولا سيما في ما يتعلق بأمر الدين ، وهذا هو الذي ذمه الله أعظم الذم ، كما أنه أيضا واقع فيله

هو أعظم من ذلك من النفاق والخذاع وتولى الظالمين ، وكل ذم في النصوص
فهو موجه الى هذه الاخلاق وأهلها ، وكلها مجتمعة فيه فيكون نصيبه من الذم
أوفر نصيب

فصل

قال : « ومن العبث محاولة اثبات هذه القضية (يعنى قضية مدح العلم وذم
الجهل) بالشواهد ، فانها قضية مسلمة لا خلاف فيها ولا خفاء »
فيقال : قولك لا خلاف فيها ولا خفاء يناقض دعواك أول البحث أن
المسلمين يرون العلم حجابا والجهالة أم الفضائل وغير ذلك مما نسبته اليهم
من كونهم يذمون العلم ويمدحون الجهل والجنون
ثم قال : « ولكن الخلاف قد يقع في المراد بالعلم حيثما يطلقه القرآن ، فقد
يحسب كثيرون ممن انحرفوا عن فهم كل شيء أن المراد به هو العلم الدينى فقط
أى العلم بالنصوص وشروح الشراح وتعليقات المعلقين القائلة هذا حلال
وذاك حرام وهكذا ولكن لا ريب أن هذا المصير في فهم العلم القرآنى خطأ »
فيقال : اذا كان خطأ فأنت اذن ممن انحرفوا عن فهم كل شيء وأخطأوا ،
فانك قررت صريحا أن العلم الممدوح هو علم من يخشى الله فقط كما هو صريح
كلامك الماضى ، ومعلوم أن العلم فى النصوص وشروح الشراح والحبلا
والحرام هو علم الذين يخشون الله لأنهم هم المتدينون فهم علماء الدين ، فيكون
العلم الممدوح هو علمهم وهو العلم الدينى فقط على تعدد أنواعه ، وعلم جميع
الملاحدة ليست بعلم ممدوح لانك قررت أن الخشية شرط فى العلم الممدوح
فتكون علوم الملاحدة كلها مذمومة لا سيما فيما اختصوا به فيكونون مذمومين
هم وعلمهم فلا يمدحون ولا يثنى عليهم بها ، لأن العلم الذى يستحق المدح هو
علم من يخشى الله كما هو صريح كلامك ، فتكون منحرفا عن فهم كل شيء ومخطئا
خطأ فاضحا ، وهكذا كان الواقع فيك طبق ما قررت

ثم قال : بل المراد بالعلم حيث أطلق ما هو أعم وأشمل ، أى يراد به المعرفة من حيث هى بلا نظر الى موضوعها ، بكل معرفة علم ، والقرآن قد أطلق العلم ولم يقيد به بالعلم الدينى ، ومن قيده فقد قيد احلاق الله واطلاق كتابه ، بل ان سياق ألفاظ العلم فى الكتاب ووضعها فى مواضعها صريح فى أن المراد ما هو أعم وأشمل (١) ،

فيقال أولا : ان الله سبحانه قيد العلم الذى أنشئ على أهله بانه علم من يخشون الله تعالى ، وهذا قيد من الله لا من الناس ، فانه هو الذى قيده

وثانيا : انك أنت قيده بقيدتين متناقضتين فقررت فيها سبق أن العلماء هم الذى يخشون الله ، فقيدت العلماء الممدوحين بأنهم هم الذين يخشون الله وهذا قيد صحيح قيدت به نفسك ، ثم قيده فيما يأتى بعلم الملاحدة وأخرجت علماء الدين منه فكان غللا فى عنقك سقطت به وسقط كلامك حيث تناقضت فيه هذا التناقض المتباين ، فكان تقييدك الاول كمن ارتفع ليكون أشنع لسقوطه

ثالثا : قولك ان المراد بالعلم حيث أطلق أنه المعرفة من حيث هى معرفة من غير نظر الى موضوعها ، وان كل معرفة علم ، يقال لك أتريد أن كل ذى معرفة وعلم بشئ يسمى عالما وأن الجماعة من هذه الافراد المتصفة بهذه المعرفة أو العلم تسمى علماء أو أهل علم ، أم تريد أنها ذات معرفة أو علم فى شئونها فقط ولا يطلق عليها اسم العلماء ولا أهل العلم ، فإن عنيت الاول لزمك أن تدخل أكثر الحيوانات أو كلها فى هذا الاسم فتسمى الجماعات منها علماء أو أهل علم والفرديتها تسمى جماعة القردة والكلاب والسنائير أو غيرها علماء أو أهل علم ، لأن هذه الحيوانات لها معرفة بينة ودهاء ومكر وخبث فى كثير من شئونها وفى كثير من الأمور التى يعجز الانسان ولو كان من علماء

(١) لكن لو فرض هذا فانه لا يتناول الملاحدة ، لان الخشية التى هى شرط فى العلم الممدوح متفية عنهم

الطبيعة ونواميسها عن معرفتها والوصول إليها ، فإذا كانت المعرفة من حيث هي بلا نظر إلى موضوعها يكون صاحبها من العلماء وأهل العلم فيطلق عليه اسم عالم والجمع من أفرادها يطلق عليهم اسم العلماء أو أهل العلم لزم أن تكون الجماعات من هذه الحيوانات علماء أو من أهل العلم ولزم أن يكون كل من القرد والكلب والسنور والجرذ وغيرها عالما فاما من حيوان يوجد الاوله معرفة خاصة وحذق في أشياء كثيرة دقيقة مما يتعلق بأمور حياته كأكله وشربه ومسكته ومنكحه وخوفه ورجائه وهربه وطلبه ودفاعه عن نفسه وغير ذلك ، وكل علوم الملاحظة المعيشية راجعة الى هذه الأمور فقط ، وفيها أنواع كثيرة معه من المكر والخبث والدهاء ^(١) والمراوغة والخداع شيء كثير ، وهذا أمر معلوم ، وقد كتب العلماء في هذا الموضوع كتباً خاصة ، وإذا انهمز هذا المبتلى وحاول الانقلاط من هذا الغل المشدود في عنقه وادعى أن ليس كل ذي معرفة يسمى عالما وأنه لا يقال للجمع عن معهم معرفة مطلقة انهم علماء ولا للفرد منهم انه عالم سقط استدلاله وكلامه الذي ادعاه في الجملة المتقدمة من أصله فانه ما ساقها الا تمهيدا لما يريد أن يقوله بأن الملاحظة معهم معرفة في شئونهم وان المعرفة هي العلم فيلزم أن يكونوا من العلماء ويتخلص من هذا القيد الثقيل الذي سيرده الى أسفل سافلين . فإذا عاند هذا الملحد وكابر وقال ان الحيوانات لا تدخل في هذا سقط في حفرة أخرى في التناقض وهي أننا نقول له على فرض التسليم يلزمك على هذا أيضا أن تدعى أن بني آدم كلهم علماء صغيرهم وكبيرهم كافرهم ومسلمهم لأنه ما من آدمي الاوله معرفة وعالم بشيء كثير ، بل كثير من العامة لهم معارف خاصة دقيقة غامضة وموضوعات العلوم الدنيوية لا يحصى عددها إلا الله وما من موضوع من الأعمال سواء أكان دينيا أو دنيويا مباحا كان أو محرما إلا وله أهل عالمون به فيلزم أن

(١) وهذه الامور عندك من أعظم أصول العلم كما تقدم

يكونوا كلهم علماء أو أهل علم فيجب أن يكون بنو آدم كلهم علماء معدوحين في القرآن لأن المعرفة عندك هي العلم ، بلا نظر الى موضوعها ، وأن العلماء ليسوا مختصين بعلماء الدين ، واذن من هم الجهلاء المذمومون ومن هم الذين قال الله فيهم ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالانعام بل هم أضل سبيلا ﴾ هل هم علماء الدين أو مخالفوهم ، يجب أن تجيب على هذا السؤال ، فانك ليست على ضعفاء البضائر بدعواك أن العلم هو المعرفة من حيث هي مطلقا ، وهذا تصريح واضح منك بأن العلماء هم العارفون مطلقا من غير نظر الى موضوع علمهم ومعرفةهم ، فدخل بنو آدم كلهم في تعريفك كما هو ظاهر . وقد قال تعالى ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾ وأمثال ذلك كثير ، ومعلوم أن المراد بنبي العلم هنا عن هؤلاء أنهم جهلوا أمور دينهم ، هذا مع أن هناك فرقا بين إطلاق العلم والمعرفة وأنه ليس كل موضع يطلق فيه العلم يراد به المعرفة ، ففي هذا مناقشات لا حاجة الى ذكرها ، لكن كل هذا على فرض التسليم على أن المعرفة هي العلم كما يقول . فظهر بهذا أن ما ادعاه في العلم والعلماء باطل بطلانا ظاهرا وأن هذا الملحد يتنزع بكل وسيلة منها كانت من الضعف والغموض الى اثبات كون الملاحدة الذين عرفوا شيئا من هذه الصناعات ونحوها هم العلماء وأنهم هم أهل العلم المعدوحون في القرآن وغيره ، فانه لما رأى هذا الاسم الجليل الجميل وهذه الفضيلة العالية حسد أهل الدين عليها فأراد أن يختلسها ويمسحها سادته بسخاء فادر حتى غار عليهم أن يشاركونهم فيها أهل الدين ، وهذه حقيقة الانحياز والتولي ، وهذه النبهة أو الاختلاس أو السرقة المنكرة المبكرة لم نعلم ملاحدا سبقه اليها لظهور هجنتها وقباحتها وقبحها وخيشتها ، ولما كان قلبه مناسبا لها في القبح والخبث وهجنة الرأي حرص عليها لأن قلبه مضطر الى حصول ما يلائمه من الخبث من اعتقاد وسماع وغل وحسد وغير ذلك

إذا عرف هذا فاعلم أن الله سبحانه وتعالى بين في كتابه العزيز بيانا كافيا شافيا بأوضح بيان وأصح برهان أن العلماء وأهل العلم الممدوحين في النصوص هم علماء الدين خاصة وأن من سواهم فليسوا علماء ولا أهل علم ممدوحين ، فالعلم الممنوح هو العلم الديني واسم العلماء أو أهل العلم إذا أطلق في النصوص وكتب الدين فالمراد به علماء الدين فقط ، بخلاف ما إذا قيد مضافا إلى أهله فهذا شيء آخر فهو بحسب ما يضاف إليه ، فإن كان مضافا إلى ممدوح فهو ممدوح والا فهو مذموم ، قال الله تعالى ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملئكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ ومعلوم عند كل عاقل أنه سبحانه إنما أراد علماء الدين ، فإنه من المحال في العقل والدين أن يدخل الملائكة معه ومنه الملائكة في هذه الشهادة العظمى التي هي أصل الأصول فإن الملائكة أعداؤه وإن بلغوا ما بلغوا في المعرفة ، فكيف يدخل معه أعداءه في هذا المقام العظيم ، وهو قد لعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا ، فإن هذا من أحل المحال ، ثم هم لا يشهدون هذه الشهادة لأنهم ملائكة ، وقد شمل هذا اللفظ أى إطلاق العلم الرسل والأنبياء وأتباعهم ، فلا يجوز في العقل أن يقرن معهم أعداءه وأعداءهم وإلا لزم أن يكون إبليس داخلا معهم لأن معه علما ومعرفة في أمور كثيرة ، ولا شك أن أتباعه من الملائكة ونحوهم مثله في ذلك ، وهذا ظاهر لا خفاء به ، وقال تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ فإنه أخبر سبحانه أن العلماء هم الذين يخشونه ، وأن من لم يخشهم فليس بعالم ، ومعلوم أن من كفر به فإنه لم يخشهم وإن أبعد الناس عن الخشية هم الملائكة . وقال تعالى ﴿ أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ﴾ ومعلوم أنه إنما أراد الذين علموا القرآن أو الرسول ، وأنهم إنما علموه بما عندهم من العلم الديني الذي بين أيديهم في التوراة والإنجيل ، وقال تعالى ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ ومعلوم أنه سبحانه قد أخبر أن من لم يؤمن ولم يعمل صالحا فهو مردود إلى أسفل

سافلين فكيف يكون المردود الى أسفل سافلين مرفوعا درجات فإن هذا قلب للحقائق ، وقال تعالى ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق ويهدى الى صراط الحميد ﴾ فآخبر سبحانه أن الذين أوتوا العلم يرون أن ما أنزله الله من القرآن هو الحق ، فمن لم ير النصوص حقا فليس من أهل العلم بنص الآية ، ومعلوم أن الملاحظة لا يرون ذلك بل هذا الملحد نفسه ادعى أن المتدينين على اختلاف أجناسهم وأديانهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ، فهم لم يهبوا حقا ، وأخبر أن الاخلاق الدينية لها نتائج غير نتائج المجد ، وفسرها في الموضوع الآخر بأنها الملهاة والشر كما تقدم وجميع الآيات وجميع الأحاديث التى منها مدح العلم والعلماء فالمراد بذلك علماء الدين ، وجميع أئمة الاسلام إذا أطلقوا العلماء فاعلموا انهم علماء الدين بخلاف ما لو قالوا علماء كذا وكذا مضيفين العلم الى فن أو صنعة أو غير ذلك ، ونحن إنما نتكلم على العلم المطلق والعلماء وأهل العلم بالاطلاق لأن النصوص ليس فيها مدح الاطّولاء وهو أمر أشهر من الشمس

وانما أخذ هذا المارق هذه الدسيسة الخسيسة عن بعض ملاحدة العصر الذين يأخذون الاسماء الجليلة التى شاع مدح أهلها فيضعونها في غير موضوعاتها الشرعية ويذهبون ان كل مدوح بهذه الصفة فهو هذا المسمى ترغيبا لقبول دعايتهم الكاذبة ومذاهبهم وشيعهم الباطلة ، ومن الأسف الشديد أننا نرى من هنا ومن هناك من ينتسبون الى نصر السنة من اشتبه عليه هذا الضلال ، فقد شغف أناس كثيرون بقبول مثل هذه الدعايات المضلة أشباه هذا من سحر بما سحر به من اختيار العمى على الهدى فراج ذلك على من قل نصيبه من العقل والدين فلم يعرف حدود ما أنزل الله على رسوله من الاسماء والمسميات الشرعية فأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل

فصل

ثم أخذ في تقرير ما ادعاه من أن العلماء لا يخصون بعلماء الدين فقال : « وهذا جلى عند من تتبع موارد الآيات ، ولينظر القارئ الى قوله تعالى ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ وليس من الممكن أن يدعى أن العلم هنا هو الدينى بل علم الاجتماع والنفس ، فهو الذى يدل على أن الحروب وان كانت فى ظاهرها وفى أوائلها القربية شرا وبلاء إلا أنها قد تكون فى عواقبها ونتائجها الأخيرة خيرا إذ قد تقدم الانسان وتخدم المعارف والمخترعات التى تبقى فوائدها وقد تكون إصلاحا وتطهيرا لكثير من اخلاق المتحاربين وردعا لمظالمهم ومفيدة لأشياء كثيرة يدرسها علماء النفس والاجتماع والتاريخ وليس يخفى اليوم على أحد من العلماء أن هذه الحرب لم تصب البشرية بحرب أشد منها هولا ^(١) تنطوى على فوائد علمية وخلقية ونفسية وقانونية لا تحصى ، وكذلك كانت الحرب الماضية وكذلك ستكون الحرب المقبلة ^(٢) ومن هنا كان قوله تعالى ﴿ كتب عليكم ﴾ الآية .. من الناحية الاجتماعية العلمية فى غاية من السمو وصدق الدلالة ، وان مما يدخل فى دائرة الإعجاز أن يكتشف مثل هذه النظرية فى الجزيرة العربية منذ ثلاثة عشر قرنا من الزمان ، فلا مفر من الإذعان لمنزله . انتهى كلامه على هذه الآية ، وفيه من الهذيان والخط والتخليط ما لا يخفى إلا على أعمى البصيرة وإنما سقنا كلامه كله على هذه الآية وان كان لا فائدة كبيرة فى نقله لتعلم أن جراته على تحريف النصوص عن مواضعها أعظم من جرأة اليهود وأشنع من جرأة القرامطة

(١) هذا من الأدلة عليك على أن الشر يزيد ، فان الحروب الغير الدينية شر بلا ريب ، وهو يناقض دعاويه السابقة بأن الحروب فى عصور الجاهلية أكثر وأعظم (٢) فاذن يجب متابعة الحروب لزيادة هذه العلوم كما تدعى

وملاحظة الباطنية الذين يحرفونه النصوص على حسب أغراضهم وأهوائهم ،
وجميع ما ذكره على الآية لا يفيد شيئا البته ، أما أولا فلأن القتال المأمور به
في الآية المراد به القتال الشرعي بالاجماع ، فإنه هو المكتوب ليس كل قتال
مكتوبا ، فليس المراد به الكوفي ، هذا لا يقوله أدنى حافل ، وهو انما أراد
به هذا فيلزم على ارادته وجوب الحرب دائما وأن كل قتال فهو محمود العاقبة
وأن ترك القتال في الناس يوجب تأخر المعارف ، ثانيا أن العلم المذكور هنا
علم مطلق ، ونحن لم ننكر وجود لفظ العلم مطلقا في القرآن على غير الدين ،
انما النزاع في كونه ورد في القرآن أو السنة مدح العلم الذي هو غير الدين ،
وقد قدمنا أنه ليس كل من علم شيئا يسمى عالما فلا وجه لاستشهاده بالآية ،
وتطويله وتهويله عليها مع بعدها عما قصده وما أراد ، وهذا ظاهر لا يحتاج
إلى إطناب

فصل

قال : ثم لينظر القارئ الى قوله تعالى من سورة النساء وهو يقسم
المؤاريث ﴿ آباؤكم أو أبناءكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله
ان الله كان عليما حكيما ﴾ ولينظر القارئ ما المراد بالدراية المنفية عنهم هنا ،
وما المراد بالعلم المثبت لله ، لا شك أن المراد بهما دراية وعلم غير الدراية
والعلم الدينيين ،

فيقال : الجواب عن هذا هو الجواب عما قبله ، فإنا لا ننزع في وجود
لفظ الدراية أو لفظ العلم أو المعرفة في القرآن ، وقد بينا أنه ليس كل من علم
شيئا يسمى عالما مدوحا في الشرع ، وليس كل من درى شيئا من الأشياء يسمى
عالما مستحقا للثناء ، فان هدهد سليمان درى عن أشياء لم يطلع عليها كثير من
الناس فقال لسليمان ﴿ أحطت بما لم تحيط به ﴾ ، فهل ترى أن الهدهد بهذه
الدراية يستحق أن يسمى عالما ، وهكذا كثير من الحيوانات بل بنو آدم

ليس فيهم أحد لا يدري شيئا مطلقا ، فاطرد هذا الاصل وقل انهم كلهم علماء
وانف الجهل عنهم مطلقا والا فلا حجة لك في الآية بوجه من الوجوه
ثم قال « وقال تعالى انباء عن يوسف الصديق » قال اجعلني على خزائن
الارض انى حفيظ عليم » وعليم هنا لا يراد به العلم بالحلال والحرام
والواجبات والمستحبات الشرعية ولكن هو العليم بالشئون الاقتصادية والمالية
وبطرق الجباية وتنمية موارد الثروة تجارية وزراعية وصناعية ، بل يمكننا أن
نقول بدون أن نخشى الغلط ان كل مورد ذكر فيه العلم والعقل بمدوحين والجهل
والبله مذمومين في القرآن لا يراد به العلم والعقل في الدين ولا الجهل فيه وانما
يراد به شيء آخر .

فيقال : استدلاله بهذه الآية على غرضه من أعظم المكابرة والبهت المضاد
للحقائق ، فمن أين له أن « عليم » هنا لا يقصد به العلم الدينى كالعلم بالحلال
والحرام ونحو ذلك ، وهذا الملحد لم يحترم مقام النبوة بل جعل علم يوسف
عليه السلام الذى ذكر فى هذه الآية ليس علما دينيا ، فهل يوجد أقبح من هذا
البهت والمكابرة ، والآية صريحة جدا فى أن العلم هنا المراد به علم الدين فانه
من المحال أن يخبر هذا النبى الكريم عن نفسه بانه عليم بأمر الدنيا خاصة
من دون أن يعلم بأمر دينه ، ومعلوم أنه ما طلب ذلك الا تقربا الى الله
بهذا العلم ليشكره به ، وعلوم الانبياء بأمر الدنيا مربوطة بعلوم دينهم ففى
فروع عنها ، لانهم يتصرفون فيها بالوحى وبما فهموه بالوحى الذى أوحى اليهم
من العلم الدينى ، فكيف يقال ان العلم هنا ليس هو العلم الدينى ولهذا قال « انى
حفيظ عليم » فالحفظ احراز المال والعلم معرفة طرق جبايته وتفريقه فى
مواضعه المشروعة ، ومعلوم أن أخذه وتفريقه يحتاج الى معرفة الحلال
والحرام فليس كل جباية حلالا كما أنه ليس كل تفريق واعطاء حلالا ،
وتصريف المال يتناول مقادير الزكاة التى هى أحد أركان الدين وكيفية أخذها
ومعرفة مقدار ما تجب فيه وأجرة العامل والناقل والحافظ وغيرهم وكذلك

تفريقه ووضعته يحتاج الى معرفة المستحق ووجه الاستحقاق وغير ذلك ، وهذا هو عين فن الفقه الذى هو من أجل علوم الدين ، فكيف يدعى أن علم الصديق عليه السلام هنا ليس علما دينيا ولا يقصد به الحلال والحرام ، ولعل سبب ضلاله فى معرفة معنى هذه الآية أنه ظن أن الشئون الاقتصادية والتجارية وتنمية موارد الثروة ونحو ذلك لا يدخل فيها حلال ولا حرام ولا يحتاج من يباشرها الى معرفة الحلال والحرام ثم ركب على هذا أنها لا يمكن أن تدخل تبعا للأموال الدينية ، وهذا مقدار عقله ، وإلا فعلوم أن الشئون الاقتصادية والمالية ان كانت مباحة فهى محتاجة الى إجرائها على الوجه الشرعى من الحلال والحرام ، وهذا علم ديني ، وان لم تكن مباحة فالانبياء منزهون عن الدخول فيها وطلبها ، فما ذكره على هذه الآية هذيان وضلال ظاهر ، والطامة قوله ، بل يمكننا أن نقول بدون أن نخشى الغلط ان كل مورد ذكر فيه العلم والعقل ممدوحين والجهل والبله مذمومين فى القرآن لا يراد به العلم والعقل فى الدين الخ .

فيقال له هذا يمكنك أن تقوله ، وهو سهل يسير عليك ، لان الذى يدعى أن النهوض موقوف على الأخذ بكتابه والسقوط موقوف على ترك كتابه لا يمكن أن يغلط بحال من الأحوال ولا ينبغي له أن يخشى الغلط ، فلا بد اذن من أن يقول هذا القول ولأنه من لوازم الخبث والمكر والنفاق وهى من أقسام العلم عندك ، ولكن الذى لا يمكنك هو تصحيحه على ما ادعيت ، وليس كل من جسر على قول ثم قاله يمكنه أن يصححه ، ولهذا كان قولك مجازفة مجردة لا أساس لها ، وانما كان أساسا كونك لم تخش الغلط ، والسبب فى كونك لم تخش الغلط عدم الخوف والحياء فىك فلهذا غلطت بل وسقطت ، ولو انك تستحي أو تخشى الغلط لما أقدمت على هذا الغلط وكذبت على الله وكتابه ودينه وعباده المؤمنين . والعجب من كذبك على القرآن بمجاهرة بأن فيه ذكر البله ، ففى أى آية أو سورة وجدت ذكر البله ، بل ذكر البله هنا

يرهان على أن غلطك غلط ظاهر فاحش بل دسيسة خبيثة . ودعواك أن كل مورد ذكر فيه العلم والعقل ممدوحين في القرآن لا يراد بها العلم والعقل في الدين ، فيقال وهنا أيضا وقعت في الغلط بل والبهت والزور فلا يمكنك بحال من الاحوال أن تصحح هذه الدعوى ، وغاية ما عندك هي هذه الاستدلالات الواهية وهي حجة عليك لو صحت ، وخلق بمن حاول أن ينزع اسم العلماء الممدوحين في القرآن عن الانبياء وأتباعهم أن يسقط وأن يغلط وأن يفرض في النفي والاحاد والكفر ، وقد ظهر لك مما مر من النصوص السابقة في قوله تعالى ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ﴾ الآية وما بعدها من الآيات أن العلماء الممدوحين في القرآن والنصوص الدينية هم علماء الدين خاصة دون غيرهم ، وهي نصوص قطعية فلا حاجة الى اعادتها والاسباب في هذه المسائل ، وقد علمت أيضا أنه انعكس قصده وذهب يستدل على نفسه فوقع في التناقض كما وقع في التحريف وهتك حرمة النصوص المقدسة

فصل

قال : وما من ريب في أن من يعلم الأشياء بالوسائل العلمية التجريبية أحق بوصف العلم ممن يعلم ذلك من طريق الألفاظ دون فهم ومن يعلم الحلال والحرام الدينين من غير حكمة . أيها أحق بوصف العلم ، الذي يعلم خبث الزنا والربا والخمر وغيرها وأضرارها الصحية والعقلية والاجتماعية والنفسية والقانونية بالوسائل العلمية والتجريبية والاستقرائية أم الذي يعلم ذلك من طريق النص بدون عقل ومن طريق الشروح والجدل الفقهي ،

فيقال : قولك وما من ريب الخ يقال كل الريب فيما ذكرته ، بل الذي يعلم تحريم هذه الأشياء بالنص أعلم من الذي يعلم تحريمها بالتجربة والطرق الصحية بلا أدنى ريب ، فإن من صدق الرسول تصديقا جازما واعتقد أنه لا

يقول إلا الحق فن لازم ذلك أن يدعى مستقلا لما جاء به بدون قيد ولا شرط فلا يجد في نفسه حرجا بما قاله ويسلم تسليها كاملا ، ومن توقف في تصديقه في تحريم شيء أو تحليله حتى يوافق قوله تجربة محجة أو نحوها فإنه لم يصدق تصديق ايمان واذعان بل انما صدقه لأجل شهادة الطبيب أو المادى أو غيره ، ومن كانت هذه حاله فلا يسمى مسلما فضلا عن أن يسمى عالما إلا على أصول هذا الملحد الذى لا يعبأ بالنصوص ، وأما على أصول الشرع فإنه لا يكون الا منافقا زنديقا ، لأنه جعل قول الرسول غير معتبر حتى يشهد لصحة ما قاله طبيب أو غيره فيكون مقدما قول المادى أو الطبيب على قول الرسول عليه الصلاة والسلام . ونقول له أيضا إما أن يكون ورود النص كافيا في تحريم الزنا مثلا أولا يكون كافيا ، فان كان كافيا في إفادة التحريم حصل العلم بتحريمه بالنص وهو المطلوب ، وان لم يكن كافيا إلا بشهادة التمهيص والتجربة له فهذا ليس بعلم ديني ، بل يكون التحريم حينئذ ليس مستفادا من الشرع بل مستفادا من قانون أو غيره . ومثل هذا لا دخل له في الدين فلا يجب اتباعه تدينا ، فلا تكون المسئلة والعلم بها من العلم الديني بل من أمور أخرى ، وهذا شيء خارج عن نفس النزاع هنا ، فإنه في العلم الممدوح في القرآن ، أما العلوم التي ليست بشرعية فقد تقدم الكلام فيها وفي العالمين بها . ونقول أيضا : تحريم الزنا مثلا إما أن يعرف بطريق النص أو بطريق العقل أو بهما جميعا ، فهل العلم بتحريمه بطريق النص يوجب العلم بتحريمه مطلقا بدون توقف أولا يوجب ذلك ، فان قلت بالأول أفاد العلم بتحريمه وهو المطلوب ، وان قلت بالثاني قيل لك فبأى شيء يجب التحريم ، اذا كان بطريق العقل فهل علمنا بطريق العقل مستقل بتحريمه أو تابع لتحريمه بطريق النص ، فان قلت بالاستقلال قيل لك فهل هذا في كل شيء ولو لم يأت بتحريمه نص ، أو في هذا وحده ، فان قلت بالأول لم يمكنك طرد هذه القاعدة ، لأنه حينئذ يكون مناط التحريم هو العقل فهو المحلل والمحرّم وحده ، فاذن من هو عقله الذى يرجع

إليه في هذا الأصل ، فان العقول تختلف اختلافا لا ينضبط ، وقل أن توجد مسألة اتفقت العقول كلها على تحريمها ، بل لا يوجد شيء اتفقت العقول كلها على تحريمه بدون نظر الى دين ، فان هذا غير ممكن فلا يمكن القول به ، وان قلت بالأول وهو أن تحريمه تابع للنص فهو كالمسألة الاولى التي يكتفى فيها بالنص ، وان قلت بالثالث وهو موافقة العقل للنص والعمل بهما جميعا قيل لك متى ثبت الاتفاق فلا مانع من العمل به فانما نكون حينئذ مستفيدين من التحريم بالنص وقد وافقه العقل ، فكان في ذلك زيادة علم وليس علما بأصل التحريم لان الأصل هو العلم بالنص لما تقدم من الترجيح ، وبهذا يبطل قوله ان العلم بالوسائل التجريبية أحق بوصف العلم ، فانه مردود لانه خلاف أصول الدين وخلاف أصول المعقولات الصحيحة ، فانه لا ينضبط ، ولأن الوسائل لا يتحصل عليها في كل مكان ، وأصول الشرع كليات عامة والنص كاف في ذلك ، ولو كانت التجارب هي المرجع لوجب الغاء الدين ولشاعت الفوضى التي لا ضابط لها ، لأن التجارب لم تزل من أول الدنيا ولم يقع اتفاق بسببها مع الحرص عليها ، وأما النصوص فانما وقع مخالفتها من أجل البغي واختيار العمى على الهدى كما قال تعالى ﴿ وما اختلفوا حتى جاءهم العلم بغيا بينهم ﴾ في آيات كثيرة صريحة في أن الشرائع كافية في بيان الهدى ، وانما جاء الاختلاف بسبب البغي كما قال تعالى ﴿ ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين ، وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا حتى جاءهم العلم بغيا بينهم ، ان ربك يقضى بينهم يوم القيمة فيما كانوا فيه يختلفون ، ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ، انهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وان الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين ، هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون . أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ، وخلق الله السموات والارض بالحق

ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون . أفرأيت من اتخذوا الشبه هواه وأضلّه الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون . وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴿ فتأمل هذه الآيات وما فيها من النور والعبر العظيمة ، فإنه سبحانه أخبر أنه آتى بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ، أى آتاهم ما فيه كفاية لارشادهم وحصولهم على الخير كله ورزقهم من الطيبات فأكمل لهم نعمته الدين ونعمة المادة مع شرف المنزلة ولكنهم اختلفوا ، لماذا ، من أجل البغى لا من أجل قصور فيما جاءهم من الله من الحكم والنبوة أو غموض فى الدلالة بل بسبب البغى والاعتداء فكانت عاقبتهم ما كانت ، ثم بين سبحانه أنه أنزل على عبده محمد ﷺ هذه الشريعة الكاملة الكافية الصحيحة العالية ثم أمره باتباعها ففيها الكفاية التامة ، وهكذا وقع ، فإنه لما عمل بها جاءت المكافأة التى أدهشت العالم كله ، فلما أن احتقرت وفرط فيها ولوثت بأراء الجهمية والزنادقة والملاحدة ضعفت كشأن كل قوى عظيم يدخل فيه ما يفسده ويغيره ، فأمره سبحانه أن يتبع هذه الشريعة الغراء ونهاه أن يتبع أهواء الذين لا يعلمون لئلا تكون عاقبتهم عاقبة من قبلهم ، وهذا صريح فإن من خالفها فإنه من الذين لا يعلمون ، فإن الذى ينحرف عن طريق الرشد والهوى ويختار طريقة الغواية والزدى لا شك أنه لا يعلم ، ومجرد وجود شيء معه من العلم فيما يختص بمعيشته كمجرد وجود شيء من العلم مع كثير من البهائم فى أمور معيشتها . ثم بين سبحانه أن هؤلاء الذين لا يتبعون هذه الشريعة لا يعلمون ، وأنهم لن يغنوا عنه من الله شيئا ، لأنهم ليسوا الله ولا هو منهم ولأنهم ضعفاء مقهورون ومن كان كذلك فإنه لن يغنى شيئا فلا داعى الى اتباع مالا يغنى شيئا ، ثم بين أن الظالمين بعضهم أولياء بعض لأنهم من جنسهم ففيه بيان أن من لم يتبع هذه الشريعة فلا بد أن يتبع أهواء الذين لا يعلمون وأنه لا يعلم ولا بد أن يكون ظلما وأنه

سيبتولى عليه ظالمون لانه اتبع أهواءهم واختارها على هذه الشريعة التي لا بد أن يتولى الله من اتبعها وإن الظالمين مع ذلك إن يغنوا عنه من الله شيئا فلا ينفعونه لانهم ظالمون فلا ينال إلا عكس ما قصده من اتباع أهوائهم كقوانينهم ونحوها ، فلهذا قيل :

فما من يد إلا يد الله فوقها ولا ظالم إلا سيبل بظالم

وقد بين سبحانه أنه ولي المتقين وكفى به وليا وكفى به نصيرا . فأين من وليه ظالم طاغ عاجز عن وليه عادل رحيم قادر قهار رءوف رحيم لطيف خبير ونعم المولى ونعم النصير ، ومن التجأ الى غيره واعتمد على نفسه دونه فإنه قد أساء به الظن ولم يرفيه الكفاية ولم ير أنه نعم المولى ونعم النصير ، ثم بين سبحانه أن هذه الشريعة فيها كفاية تامة ونور تام في الهداية تأكيد لما قبله فقال ﴿ هذا بصائر للناس وهدى ورحمة ﴾ ، وهذه هي أصول الخير كله ، فالبصائر هي التي يبصر بها الانسان طريقه في كل شيء من أموره ، والهدى هو الذي يهتدى به فيعصمه من الضلال ، والرحمة هي اللذة والسرور والروح والفرح والحياة الصحيحة ، ومن كان بهذه المنزلة فلا يخشى الا الله ، ولكن من ترك البصائر والهدى والرحمة تخليق أن يسير في ظلمة وأن يضل وأن يشقى بلا ريب ، وبقدر تركه لذلك يحصل له من ذلك بمقدار ما تركه ، ثم أخبر سبحانه أنه ليس بصائر وهدى ورحمة لكل أحد من الناس ، لا بل ذلك إنما يكون لقوم يوقنون ، وأما الذين في قلوبهم شك وريب وقلق وضيق وعدم انشراح له فهو عليهم عى ، أولئك ينادون من مكان بعيد لأن أولئك في قلوبهم مرض ففيها أخلط خبيثة من الشكر والشك والريب . فلا تقبل هذه البصائر ولا هذا الهدى ولا هذه الرحمة ، ثم بين سبحانه وتعالى ما يقطع ظهور جميع الملاحدة وجميع أهواء الذين لا يعملون وجميع ما في قلوب الذين لا يوقنون من الشك والريب بقوله تعالى ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا ورحموا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾

فانه سبحانه علم أن هؤلاء الذين لا يعلمون ولا يؤمنون سيقولون إنه لا فرق بين من عمل الصالحات ومن عمل السيئات في هذه الدنيا بل النتيجة واحدة هي هي سواء قام يحلها المسلم أم قام يحلها الكافر ، وأن الأعمال الصالحة لها نتائج أخرى غير التقدم في الحياة ، وأن التقدم منوط بالأسباب الطبيعية لا دخل للأسباب المادية في ذلك ، فاخبر أن هذا الحكم الجائر الهوج لا يليق بالله بل هو جور وظلم عظيم لا يليق بحكمة الله ، فكيف يجعل الذين آمنوا وصدقوا الله تصديقا جازما لا يداخله ريب ولا شك ، وعملوا الأعمال الصالحة التي أمروا بها ، كمن اجترحوا السيئات فاستكبروا عن الإيمان به ، وشتموا بأنوفهم عن اتباع هذه الشريعة والبصائر والهدى والرحمة ، واتبعوا أهواءهم وأغراضهم وشهواتهم فاجترحوا السيئات ، فإن هذا لا يليق بحكمة أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين ، لأن العدل قائم على مجازاة كل نفس بما كسبت ، فكل نفس تعطى حسابها جزاء وفاقا ، ليس هناك ظلم في أدنى حبة من خردل ، فهو سبحانه قائم بالقسط ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذى أحسنوا بالحسنى ، فلا يجعل من تمرّد عن طاعته وعن عبادته ودعائه كمن اتبع هواه وبدّل نعمة الله كفرا . ثم بين سبحانه أن هذا الكون لم يخلق عبثا ، بل خلق بالحق ، وأن من الحق أن تجزى كل نفس بما كسبت ، وهذا صريح في أنه سبحانه ربط سننه الدينية بسننه الكونية وجعل الكونية تدور على مقتضى الدينية فن اتبع سننه الدينية وسار معها استثمر مصالح سننه الكونية وانتفع بها وصارت نتائجه صحيحة سليمة قوية مستمرة ، وأن من عاكسها وعاندها وصادمها وذهب يتخطى سنن الله الدينية ليأخذ مصالح سننه الكونية فإنه لن ينتفع بذلك بل لا بد أن ينهار ولا بد من أن يتكبد وأن يتنقص وأن لا ينتفع بما استحصل عليه انتفاعا صحيحا قويا . ثم بين سبحانه أن هؤلاء الذين لا يعلمون وهؤلاء الذى لا يوقنون عن أعراضها عن هذه الشريعة التي هي البصائر والهدى والرحمة وجعلوا الذين آمنوا وعملوا الصالحات كمن اجترح السيئات في حكم

العدم قد عوقبوا بأشنع ضروب العقوبات القلبية اللائقة بهم ، فانهم أبوا إلا المعاندة والعمى عن الهدى فقال تعالى ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾ في هذا بيان أن كل من خالف الشريعة فانه لا يعلم شيئا بل هو على غاية الجهالة والضلالة وعمى القلب فلا حظ له من العلم البتة ، فان هذا لم يقبل شريعة الله وبصائره ، بل قبل شريعة هواه ، فانه لما لم يقبل الله إلهه وربه فلم يعتمد عليه ويرى فيه الكفافة التامة اتخذ إلهه هواه فاعتمد على نفسه ورأى أن فيها الاستعدادات والمواهب الكامنة الكاملة وأن في ذاته استعدادا كاملا بأن يقدر على كل شيء ويعلم كل شيء ويحصل على كل شيء ويتغلب على كل شيء فاتخذ هواه الهه الذى يعتمد عليه ، فان الاله هو الذى يعتمد عليه اعتمادا مطلقا وتصرف اليه الرغبة والرغبة مطلقا ، فهو الهه الذى له يعادى وبه يأخذ ويعطى ويتبع ويأمر وينهى وينقاد ، فهو معبوده ، فأضله الله على علم به جل وعلا بانه ساقط خبيث مستحق للطرده والابعاد واللعنة ، لانه لم يقبل الطيب بل هرب منه وانصاع الى ضده ، فلهذا ختم الله على حواسه الصحيحة لانها كانت مفتحة بفطرتها لقبول البصائر والهدى والرحمة التى خلقت لها ولم تقبل ذلك ، فجوزى بالختم عليها لانه اختار هذا العمى على الهدى فختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون . ثم أخبر سبحانه عن حالة هؤلاء بأنهم يقولون ﴿ ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحى ﴾ اى يموت أناس ويحيى بداهم أناس آخرون ﴿ وما يهلكنا الا الدهر ﴾ أى بتعاقبه لانهم يقولون أسباب الموت وكذلك الحياة طبيعية فقط ، ثم قال تعالى ﴿ وما لهم بذلك من علم ﴾ يستندون عليه سوى ما يرونه ويشاهدونه من الإحياء والاماتة ، وأما الحقائق الدينية التى تبين ذلك فانهم فى معزل عنها فليس معهم من العلم غير الظن والتخمين الذى أكثر ما يوجد فى الأوهام والأباطيل كما يتوهم الجاهل أن السراب ماء

فانه يظنه ماء ولا يعلم حقيقته لهذا يبنى على ظنه أنه حقائق ظاهرة وهذا ظاهر
والمقصود أن ما ذكره من أن العمدة على التجارب والطب من إفادة العلم
بالتحليل والتحرير إنما يتمشى على قواعد الملاحظة الذين لا يرون الشرائع
شيئا معتبرا يجب التزامه كما هو رأى هذا الرجل ، ثم قوله وأما الذى يعلم ذلك
من طريق النص بدون عقل ، كلام ساقط ، فانه مبنى على رأى ساقط وهو
رفض النص حتى يشهد له العقل ، وهذا أيضا مبنى على أصل أسقط منه وهو
ثبوت وجود التعارض بين صريح العقل وصحيح النص وأن الشرع حرم ما
يوجب العقل تحليله ، وهذا كله ممنوع بل باطل ، فالمسلمون يعلمون من حيث
الجملة أن ما حرمه الله ورسوله فهو موافق للعقل والفطرة ، فدعواه هنا ساقطة
كما هي مغالطة محضة . وقوله أى الرجلين أقرب الى اجتناب هذه الخبائث
وتركها (لأنه مقتنع بحبها) وأى الناس أولى بنعمت العلم الذين يتركون الشرك
وعبادة الأصنام والمخلوقين لانهم علموا فساد ذلك ومضاره الاجتماعية
والنفسية والعقلية أم الذين لقنوا تحريم ذلك تلقينا مجردا من الادراك الحقيقى ،
فيقال : أما عند العقلاء من المسلمين الذين يعلمون أن النصوص كافية في
التحريم وأنه يجب اتباعها فانهم يعلمون أن الرجل الذى تركها لموجب النص
أعلم وأعقل ، وان الذى لم يتركها إلا لأجل علمه بالوسائل التجريبية ونحوها
أنه ليس بذى علم ولا عقل ولا دين ، لأنه لم يعمل بالنص فى نفس الأمر
وإنما عمل به من أجل شهادة التجربة ونحوها ، ومن لم يعمل بالنصوص ولا
سيما فى أصول الدين كترك الشرك وعبادة الأصنام إلا بشهادة التجارب
ونحوها لها فليس بعالم ولا عاقل ، بل هو جاهل ، بل زنديق كافر ، لأنه لم
يتبع الأصل الذى جاء به الرسول ﷺ ، ولم يؤمن به إيمانا صادقا جازما ،
ويقطع بان ما جاء به هو الحق ، وأنه لا يقول على الله الالحق ، وأن أمره
بالشئ مصلحة لا شك فيها ، وأن اتباع أوامره الشرعية يتضمن الوسائل
التجريبية ويتضمن المصالح الاجتماعية والنفسية وغيرها ، فكل ما أمرنا به

فمنهم تعلم أنه خير محض ، وكل ما نهانا عنه فلا شك أنه شر محض ، وكيف
نصدق الطبيب الذي نعرف فسادَه في نفسه وفي أكثر أموره ونشك بقوله في
أبسط دواء ونشك في ربنا وما لكنا الذي أوجدنا من العدم على هذه الحالة
التي هي أحسن التقويم ، وتابع علينا النعم التي لا تحصى ، وكيف نصدق الطبيب
الذي يعجز عن اجتناب القاذورات مطلقا ونشك في رب الطبيب الذي خلقه
وخلق طبيعه ، وكذلك غير الطبيب من هو مثله أو دونه ، فمن آمن بما جاء به
الرسول بشرط أن توافق أقواله أقوال علماء النفس أو الاجتماع ونحوهم فهو
مرتاب شك وهذا لا شك في كفره كما لا شك في تكفير من لم يكفره ، فكل
من لم يؤمن بالرسول عليه الصلاة والسلام ويصدق بما جاء به تصديقا جازما
لا يتخلجه شك ولا ريب فهو كافر ، لان هذا ليس بمؤمن باجماع المسلمين . ثم
إن ما ذكره من الشرك وعبادة الأصنام ظاهر في أنه لا ينكر ذلك بل لا بد
من علم فساد ذلك ومضاره الاجتماعية والنفسية بالطرق الاجتماعية والنفسية
من جهة أهلها ، والا فالنص لا يكفي عنده كما هو ظاهر كلامه ، فانه لم ير النص
كافيا في ذلك ، ومعلوم ان اقناع الناس بأن الشرك وعبادة الأصنام باطل
بالوسائل التجريبية أو بأقوال أهل المعرفة بعلم النفس والاجتماع أمر لا يمكن
ولا يحصل به نفع البتة ، وهذا الملحد بنفسه قد نقل عن سيده جستاف لوبون
أن البشرية لم تتقدم الا في عهد الوثنية وعبادة الأصنام كما يأتي ، ومعلوم
أيضا أن أنصار هذه الأمور الشريكة يدعون أن هذه الأعمال ليس فيها مضار
ولا مفسد بل هي النفع بعينه عندهم وأنها موافقة للعقول لأغراض وأهواء
كثيرة لا تحصى . هذا ما نقوله عن عقلاء المسلمين وعلمائهم وأما الذين في
قلوبهم مرض فلا شك أنهم يرون أن الذي يتجنب الأمور المحرمة لأجل
شهادة الماديين ونحوهم بحجبتها لا من أجل النص أولى بوصف العلم لأن النص
عندهم ليس بعلم وليس شيئا معتبرا ، فان هذا هو مقتضى أصولهم الخبيثة ،
ولهذا كان للجهمية حظ كبير من هذا الأصل فانهم يقدمون عقولهم على

بعض النصوص فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض فينكرون صفات الله سبحانه وتعالى كالعلو على العرش وكلامه سبحانه ونحو ذلك من الصفات المنصوص عليها من آيات وأحاديث لا تحصى بمجرد أن عقولهم المنكوسة دلت على خلافها فحكوا عقولهم في صفاته تعالى ونبنوا كلام الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون

وقوله : وإيهم أجدر بهذا الوصف الجميل (يعني العلم) أقوم وهبهم الله عقولا كبيرة عبقرية فشحنوها ثم استخدموها في اختراع أشياء عظيمة أسعدت الإنسانية كلها ونجت بها من ويلات كانت تعانيها منذ وجدت وقدمت إليها أموراً كانت محرومة منها أيضاً منذ وجدت ، أم قوم ذوو عقول ضيقة حربية تقليدية عكفوا على زوايا مجهولة متبذرة وراحوا يهزون ويكتبون وليس لهم من سامع ومن مفكر فيهم وفيما يكتبون سوى الغباوة ، وراحوا يكتبون في تكفير من يصنع كيت وكيت وفي تفسير وتضليل من يأتي كذا وكذا وفي تقسيم الأحزاب والأوراد اليومية والشهرية والصباحية والمسائية وتعييدها ،

فيقال في جوابه :

جاء أنت بالحكم الترضى حكومته ولا الأصيل ولا ذى الرأى والجدل أما لو كانت هذه الأوضاع والأوصاف الشرعية واللغوية في يدك وتحت ملكك تعطى من تشاء وتمنع من تشاء فلا بأس أن تجود بهذه الاسماء الجميلة الجليلة وهذه الألقاب العالية السامية لسادتك وأوليائك الملاحدة ، أما إذا كانت هذه الأوصاف والأوضاع لها أهل ولها قوانين وقواعد وفروع وحدود رسمها الله ورسوله فلا يمكن للملحد أن يتعدها ويتخطاها ، فلا شك أن الذين وهبهم الله عقولا عظيمة واسعة نيرة أناروا بها الطريق وأقاموا بها السيل وأسعدوا بها الحياة فأرشدوا إلى أكل سعادة وأصح حياة فأخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ومن الجهل إلى العلم ومن الجور والظلم والفوضى

والمنازعات الخبيثة الى العدل والاحسان والأخوة الطيبة الكريمة وأخرجوهم عما كانوا يعانونه من البأساء والضراء الى النعماء والسرور والهناء والنعيم فأقاموا ميزان العدل والقسط والنظام الصحيح كل ذلك بعلمهم وإيمانهم وسيرهم على الشرائع السماوية والأخلاق الدينية - أولى بالعلم والعقل وكل وصف جميل جليل ، فأين هؤلاء العلناء والكرماء العطاء من قوم لغنهم الله فأصهم وأعمى أبصارهم حتى ضرب بعضهم ببعض وخسف بقلوبهم حتى كانوا ذوى عقول خبيثة مظلمة ضيقة منحطة جرت على الانسانية بل وغير الانسانية من أصناف المخلوقات الأهوال والويلات والجوع والعري والظلم والعسف والقهر المنكر والدمار الفظيع والمنازعات الدائمة وإماتة الفضائل والأخلاق السامية فصار العالم فى اضطراب مزعج وقلق دائم وفناء متوقع فلا سامع لضعيف ولا ناصر منهم لمظلوم ولا معارض لقوى ، أسماء باسم العدالة ومسامها الظلم والاستعباد انما هم أحدهم تقديم مصلحته وتنفيذ ارادته الشخصية ولو فى فيها بعض العالم وما قدمت لها شيئاً من وسائل الراحة واللذة الا اتبعته واضعافه من وسائل الخراب والدمار والازعاج والعذاب والبلاء والمحن ، قدمت للانسانية أشياء تافهة قد استغنت عنها عصور نيرة زاهرة منعمة وما ضرها فقدها ، ولو أنها اقتضرت عليها فلربما كان فى ذلك نوع شبهة ولكنها قدمت لها خلال هذه فظائع وألوانا من العذاب كان سلامة آمنة منها منذ وجدت من القلاع الجوية والغازات السامة وأنواع الأسلحة الواسعة النطاق صارت أكثر أهدافها الأطفال والشيوخ والعجائز وغيرها من الطوائف الانسانية الضعيفة ، فلا كانت الانسانية الأولى فى عهد من عهود الدين الصحيح تترى فى السنين بعد السنين تن تحت انقراض الهدم والخراب ، وما كانت ترى تساق كما تساق البهائم بل كما تساق الحمير ويعمل بها أعمال لا تعملها البهائم والوحوش مع أجناسها الى غير ذلك من الاعمال الخبيثة التى مصدر خباياها الكفر والاحقاد والبعد

عن الأديان السماوية

فاى الفريقين أحق بوصف العلم والعقل ، لا شك عند كل ذى بصيرة من أمره أن علماء الدين هم أولى بوصف العلم والعقل وكل وصف كريم ، وأن الملاحدة أولى بوصف الجهل والغباء والخبث وكل وصف قبيح أما مغالطته بأحوال بعض اتحادية الصوفية فقد بينا أنه هو أحق بكل ما فيهم من انتقاد ، فإن الاتحاد ووحدة الوجود والتجهم وأمثال هذه الطرائق الخبيثة كلها من شعب الاتحاد ، وهى متفرعة من أصله ، فما فيها من خبث فهو مستمد منه ، وعلماء هذه الطرائق ليسوا من علماء الدين بل هم كفار مرتدون كما تقدم بيانه ، وقد نقل الامام أحمد فى رسالته الى مسدد الاجماع على كفر الجهمية كما نقله شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم وعبد الله بن الامام أحمد فى كتاب السنة والدارمى وغيرهم ، فلا يجوز له ولا ينبغى أن يدخل سادته الملاحدة مع المسلمين فيشنع عليهم بما يوجد فيهم من عيوب إخوانه وأوليائه الملاحدة ، فإن هذا لا يفعله الا من هو مثله منسلخ من الدين والعقل وكل فضيلة ، وأما أئمتنا وسادتنا فقد بينا أنهم الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وأئمة أهل القرون المفضلة المعروفون بالدراية والرواية والنيات ومكارم الاخلاق الذين رفعوا راية الاسلام والعدل وانتقموا من أنصار الجور والظلم ، وما كان اليهود لديهم الا كأخس طبقات الناس لأن هذا هو موضعهم اللائق بهم ، وأما فى عهد سادتك وأوليائك الذين أضفت اليهم اسم العلم فقد رأيت ما رأيت من الشرور والمظالم التى لا تحصى ، ونحن نعلم وتيقن أن ما يصيب المسلمين من تقدم اليهود وأمثالهم لا يهلك بل يقرر عينك ، فانك صرحت على رموس الأشهاد بأن المسلمين ضالون فى قتالهم كما يأتى فهم عندك أولى من غيرهم فان شبيه الشئ منجذب اليه كما هو المعروف ، ولأنهم كما قلت أهل عقول كبيرة أسعدوا بها الانسانية ، وقد تقدم ما صرحت به عند الاستاذ قطب وغيره من أن هؤلاء الأجانب قوم مصلحون لا

مستعمرون ، وكل من يعرفك ينقل عنك ما هو أقبح من هذا ، وكفى
بأغلاك هذه شاهدا على خبيثك وعداوتك للإسلام والاديان السماوية كلها
كما هو واضح

فصل

ثم قال « ومن الأحاديث الدالة على أن العلم في إطلاق الشرع غير ما
ذهب إليه هؤلاء قوله عليه السلام في قصة تلقيح النخل « أتم أعلم بأمر
دنياكم » . فيقال ليس في هذا ما يدل على ما ادعيت ، غاية ما فيه إطلاق لفظ
العلم ، ونحن لم نمنع هذا ، إنما نمنع أن يكون كل من علم شيئا يسمى عالما
مدوحا ، والعلم هنا علم مضاف الى الدنيا ، ولهذا لم يقل أتم العلماء أو أهل
العلم ، فدل على أنه يريد أتم أعلم بهذا الامر الدينى ، كما يقال فلان أدرى
من هذا وأعرف وأعلم بهذا الشيء ، وإذا كنت تكتفى بمجرد إطلاق العلم
فقد قال تعالى في الكلاب « تعلمونهم بما علمكم الله » فدل على أنهم يعلمون ، اذ
الذى لا يعلم لا يعلم ، فالتزم هذا وقل ان الكلب عالم وان الكلاب العالمات
بالصيد علماء أو أهل العلم أو من الذين أوثوا العلم والا بطل احتياجك
وتطويلك وتوبيك ، وسيأتى الكلام على ما يتعلق بمعنى الحديث وإنما جاء به
هنا من أجل لفظ العلم وقد رأيت أنه لا حجة له فيه

فصل

قال « وبما يجب التنبيه اليه هنا - لأن الذين ورثوا عن هؤلاء الشيوخ
كراهية المعارف لا يفتأون يغلطون ويخطئون فيه - أن العلم ^(١) لا يمكن أن
يكون شرا ولا أن يكون داعيا الى الشر والفساد والاجرام والطغيان ،
والجواب أن يقال : هذا العلم الذى تريده وتقصده قد بينا أنه الجهل

(١) يريد بالعلم هنا علم الملاحظة كعادته

والظلام ، فقد صار شرا وجرّا الى الاجرام والفساد والطغيان كما وقع ذلك
بالمشاهدة والحس وانكاره مكابرة ، لانه في الحقيقة ليس بعلم ديني نافع وانما
هو جهل مبني على الحقد والحسد والأخلاق البغيضة ، وتسميتك له بالعلم من
باب قلب الحقائق والمسميات الى أصدادها ، وأغلاك هذه كلها مقلوبة تبعا
لقلبك المتقلب ، والاسماء لا تغير الحقائق ، والعلم الذي لا يكون شرا ولا
داعيا الى الشر وهو الخير المحض والحياة الصحيحة ، هو علم الدين ولوازمه وما
يلتحق به ، وأما أصداد ذلك من العلوم فهو الشر والمصائب والبلاء والوباء كما
وقع ذلك بالمشاهدة

ثم قال « وذلك أنهم هبوا وخاصة في هذه الأيام التي تفاقمت فيها ويلات
الحرب يصرخون منادين بسقوط العلم^(١) زاعمين أنه هو الذي يشب الحروب
وهو الذي يقدم لها الوقود ويزداد اضطرامها والتهابها ، وقد نادى كثير من
خطباء المساجد وخطباء الجمعيات في هذه الايام بمقاطعة علم أوربا والبرامة منه
وسألوا الله مخلصين على ما زعموا أن يخلص العالم والانسانية من هذا العلم ومن
أهله ، ثم ختموا دعاءهم وادّعاهم ودعايتهم بمطالبة المسلمين والمخلصين بالرجوع
الى الدين ونبت كل شيء سواه »^(٢)

والجواب أن يقال : يتبين للقارئ هنا بالبرهان الواضح أنه كان عدوا
وخصما لهؤلاء الذين يطالبون المسلمين بالأخذ بالدين ونبت كل شيء سواه كما
هو صريح كلامه ، وبهذا وأمثاله عدوه عدواً للإسلام والمسلمين ، وهو
أمر ظاهر لا شك فيه ، فرجل يردّ على علماء يطالبون بالأخذ بالدين ونبت
ما يخالفه لا شك أنه كافر عدو للإسلام متربص به الدوائر ، وكيف

(١) يثبت لك من هذا أنه يريد علم الاتحاد ، لانهم انما نادوا بسقوطه

(٢) يظهر هنا لنا أنه يريد به علوم البلشفة والاتحاد ، لانها هي التي نودي
بسقوطها اذ ذاك

سأخ لهذا الملحد أن يحاهر بالرد على هؤلاء العلماء وهم لم يقولوا إلا خيراً
وحقاً ويسوق كلام جستاف لوبون الذى يقول ان الايمان بالله وحده كان نكبة
على البشر ثم لا يرده ولا يعارضه بشئ بل يستشهد به بل يصف قائله بأنه
فيلسوف عظيم ، وأما سهل بن عبد الله التستري فيدعى أنه صنم من أصنام
الصوفية بل يرد على الرنخشرى الذى يقول « العلم للرحمن جل جلاله ، الخ .
فلينظر المسلم الغيور على دينه الى هذا التحيز والعداوة المنكرة للدين وأهله
والولاء الخالص للحاد وأهله ، وهؤلاء العلماء العظام لم يقولوا إلا حقاً لأنهم
رأوا بالمشاهدة وعلموا بالضرورة ما فعلت هذه العلوم بأصحابها حين تركوا
علوم الدين الأساسية وازدروا بها وأهلها ماذا أصابهم ، وأكثر هذه العلوم
الاحادية هي ما يدعو اليه هذا الملحد من الاعتماد على النفس والعداوة للدعام
والخطب والصلاة وإنكار القضاء والقدر وكون الله لا يغير في الأسباب وكون
نواميس الطبيعة هي التي تحكم هذا العالم وأمثال هذا الهذيان ، فهذه كلها من
أصول الاحاد ورفض الأديان ، وقد علم هؤلاء الراحنون في العلم أن هذه
العلوم الاحادية هي التي جرت على الانسانية هذه الفظائع الكبرى ، فلم يذ
دعوا وطالبوا المسلمين ببندها والأخذ بطريقة الدين النيرة القوية الصحيحة
الآمنة التي تفيد الانسان ديناً ودنياً فانها تطلق العقل في جميع العلوم الصناعية
والمادية والتجارية والاقتصادية وتقوى الأخلاق وتركي النفس ، فعلوم الدين
هي الأساس القوى الذي من بني عليه أموره نجح بلا ريب ، فما انتقده هذا
المخذول على هؤلاء العلماء الأجلاء انتقاد ساقط لا محل له

ثم قال : فكأن الدعاية ^(١) ضد العلم ^(٢) لا تزال قائمة ولا تزال متصلة
الحلقات منذ كان أولئك الشيوخ هم الطرف الأول وكان هؤلاء الخطباء

(١) أى دعاية الأخذ بالدين وبند ما سواه
(٢) تقدم تصريحه بأنه علم أوربا فهو العلم عنده

والوعاظ هم الطرف الآخر لها ،

فيقال : نعم إن هذه الدعاية الدينية ضد علم الاتحاد ، وقد صرحت بأنه علم أوربا فهو العلم عندك ، لا تزال قائمة متصلة الحلقات - منذ هبطت هذه الشريعة الطاهرة العالية الى أن يرث الله الارض ومن عليها - هؤلاء الشيوخ العظماء الامناء النبلاء يرض الله وجوههم ورفع منازلهم ، ولا تزال هذه الطائفة قائمة على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك . نعم إن هذه الدعاية الناجحة - من هؤلاء الشيوخ الفضلاء ضد الاتحاد والمبادئ الهدامة - لا تزال قائمة ولا تزال متصلة الحلقات منذ كان أولئك الشيوخ الأولون هم الطرف الاول لهذه الحلقات المحكمة وكان هؤلاء الخطباء والوعاظ هم الطرف الآخر لها . فلا تزال هذه السلسلة الجارية المتصلة حلقاتها سلسلة وأغلا لا مشدودة في عنقك لا محيص ولا مخلص لك منها حتى تموت خنقا وحنقا وغبطا بنفاقك وإلحادك ان شاء الله تعالى لانك اخترت ذلك لنفسك ورضيته لها

فصل

قال : والذي يجب أن يقال وأن يعلم ردا على هؤلاء ويباننا للحقيقة أن العلم ليس هو الذي أوقد هذه الحروب ، ولا هو الذي أمر بها ، ولا هو الذي دعا الى إلقاء القنابل على المدن ولا على غيرها ، ولكن الذي أمر بذلك كله هي الاحقاد والمطامع والأنانية والميول الشريرة الموروثة من عصور الجاهلية . فيقال : هذا حجة عليك ونقض لكلامك الماضي في دعواك أن هؤلاء هم الذين صنعوا الحياة وأسعدوا الانسانية كلها وأنجوها من ويلات كانت تعانها فكيف يتفق أن يكون علماء كبيرة عقولهم صنعوا الحياة وأسعدوا الانسانية ومع هذا فقد أذاقوها الويلات والدمار الفظيع ومعهم هذه الخصال الخبيثة الموروثة من عصور الجاهلية من الاحقاد والمطامع والميول الشريرة ، فإين

العلم والحياة والسعادة والنور والصحة وغير ذلك من الأخلاق التي أضفتها اليهم زورا وفجورا ، فما أقبح هذا التناقض ، بل السبب الوحيد أن هؤلاء أرادوا أن يستغنوا بهذه العلوم الالحادية عن علوم الدين في رغد العيش والطمأنينة والراحة واستعظموا عبادة الله واستكبروا عنها ورأوا أنها لا تنفعهم بل تضرهم فانقلبت عليهم هذه العلوم بلاء وعذابا حيث طلبوا منها ضدا ما وقع منها ، فلا نجاة للانسانية أبدا الا بوجود الدين السماوي الصحيح يسرون على ضوئه ويعتمدون عليه ويرتبطون به فيسيروا على نظامه ، فالدين هو العاصم الوحيد من ذلك فانه يحارب هذه الاخلاق الخبيثة من المظالم والانانية والاحقاد والميول الشريرة ، فلا دواء لهذه الادواء القاتلة ولا شفاء منها الا بالاعتماد عليه والافتقار من ضوئه ونوره ، فان تعاليمه الصحيحة المقدسة تزيل هذه الاعراض الخبيثة وتبدها وتبددها ، فتقضى بان يكون الناس كنفس واحدة إخوانا وكالاعضاء في الجسم اذا اشتكى منه عضو تداعى له الجسد كله بالحقى والسهر ، ولا شك أن هذه الادواء الخبيثة عنصرها الالحاد ، كما أن هذا الشفاء مصدره النور والروح السماوية ، وقد تقدمت دعواه أن الانسان خالق بطبعه شريرا خبيثا ظلما وأن ما معه من الأخلاق الحسنة مقتبس من الديانات ، فكيف يتناقض هذا ويشنع على العلماء الذين يطالبون المسلمين بالاخت بالدين ونبذ ما سواه ، فهي موروثه عن الملاحظة واشباههم سواء كانوا في عصور الجاهلية أو غيرها ، فالالحاد هو عين الخبث ونقطة دائرته ، أعادنا الله منه بمنه وكرمه

فصل

قال « ووظيفة العلم والعقل هو إنارة الطريق وفتحته فحسب »

فيقال : هذا كلام غير صحيح ، فقد نقضته أيضا في صحيفة ١٦٩ من هذه الاغلال بقولك « وانكن الناس يعلمون جميعا أن مبدأ الاعمال كلها الاعتقاد

وأن العامل انما يتجه ويسير ويعمل على مقتضى ما يوجبه له معتقده ، فهذا تصريح منك بأن الانسان انما يعمل على ما يوجبه معتقده ، ومعلوم أن المعتقد هو العلم الجازم المتيقن الذى يعتمد عليه الانسان فيعقله ، فاذا كان هذا العلم هو الذى يوجه ويسير ويعمل على مقتضاه فكيف تدعى هنا أنه يسير الطريق فخب وأن الطباع هى التى تعين سلوكه ^(١) ومعلوم أن الانسان انما يتعلم ليعلم فيعمل لانه قد ثبت لديه أن العلم يوجب العمل ويدفع اليه ما لم يوجد معارض ، وكل عمل من مكلف إنما يصدر عن علمه الذى يعقله ويعتقده ، فانه اذا علم الشيء فاعتقده قصده ، والناس انما يتعلمون لاجل أن يعملوا وإلا فلا فائدة فى تعلمهم ، لأن المقصود من معرفة الخير اتباعه ومن علم الشر اجتنابه ، فالاعتقاد الجازم والإرادة الجسامة والقدرة توجب وجود الفعل ما لم يتمتع من ذلك مانع ، ولما كان علم هؤلاء ليس علما دينيا وانما هو علم مضاد لعلوم الدين أساسه الاغراض والأهواء والمنافسة والحقد والمكر والنفاق كانت عاقبته وثمرته هذه الفظائع والعذاب والدمار والخوف والجوع والعري ، لأن كل ثمرة فانها تكون من جنس أصلها الذى تنمخضت منه ، وأصول هذه الثمرة هو هذه العلوم الخبيثة ، ولو كان الاصل هو العلوم الدينية لكانت ثمرتها الحياة السعيدة والعاقبة الحميدة

ثم قال « وهذا كقوله تعالى ﴿ وهديناه النجدين ﴾ أى الطريقين طريق الخير والشر ، وقوله تعالى ﴿ فآلهما فجورهما وتقواها ﴾ وقوله ﴿ انا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾ والعلم والعقل لا يفعلان غير ذلك وطباع الانسان هى التى تعين سلوكه واتجاهه »

فيقال : استشهاد بهذه الآيات على مراده هنا من أكبر الادلة على كثافة حجابة ، اذ قاس الله تعالى على أعراض تقوم بالانسان ، فكيف يقاس القائم

(١) سيأتى لفظه بهذا قريبا

بنفسه والقائم على كل نفس بما اكتسبت على أعراض تقوم بغيرها من المخلوقات ، والآيات لا دلالة فيها إلا على إنبارة الطريق فقط ، فإن الهداية نوعان هداية بيان وإرشاد ، وهداية خلق فعل في الانسان . فالأول كقوله تعالى ﴿وانك لتهدى الى صراط مستقيم﴾ والثاني كقوله تعالى ﴿انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو اعلم بالمهتدين﴾ وجميع الآيات التي استدل بها هي من النوع الثاني ، فقوله تعالى ﴿وهديناه النجدين﴾ أى يبين له وخلقنا فيه الهداية لهذا أو هذا ، وهذا يناقض دعواه في العلم فانه عنده لا تأثير له مع أنه نقضه كما تقدم ، وكذلك قوله تعالى ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾ ففيه دليل على أنه سبحانه هو الذى خلق فيها الالهام فانه أضافه الى نفسه الكريمة فهي تعمل على مقتضى هذا الالهام المخلوق فيها من تقوى أو فجور ، وكذلك قوله تعالى ﴿انا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا﴾ فعنائه كعنى آية ﴿انا هديناه النجدين﴾ فآله سبحانه هو الذى يخلق في العبد الفعل كما يخلق فيسه الاختيار فهو فاعل مختار بمشيئة الله تعالى ، وليس خلق الفعل هو جبره واضطراره الى خلاف ما يريد وخلاف ما يناسب طبعه ويستحقه ، فالاجبار هو قسر الانسان على خلاف ما يريد ويميل اليه ، وأما خلق الفعل فليس كذلك فانه خلق القدرة والارادة والاختيار ، فاذا كان الانسان خبيث الطبع قد فسدت فطرته فانه يميل الى ما يناسبه من الشر ويليق به بمشيئة الله ، فلا يريد الخير ولا يميل اليه ولا يحبه بل يكرهه وينفر منه ، فآله سبحانه أنزل كتبه وأرسل رسله وخلق في الانسان فطرة قابلة لما أنزله وجعل في الانسان طبيعة غريزية في طلب ما يحبه والهرب مما يضره ، فاذا ترك الانسان قبول ما جمعه من الله كان تركه هذا دليلا على عدم رغبته وميوله الى الخير ، فلا يكون الله قد قسره على الشر وهو يريد الخير ، لكن الله تعالى لو علم فيه خيرا لأعانه على نفسه ، واسكنه ترك الانقياد وترك دعاء الله وطلبه واعانتة ، فكان خاليا من قبول الخير فاذا ترك الحق كان تركه هذا باختياره من نفسه وإشارته الباطل

على الحق ، وكل عاقل يمين بين فعل المختار وبين فعل المحبر ، ولو أن رجلا ضرب
 تأديبا من أجل جريمة فعلها لشكر الناس من أدبه ، ولو ضرب من أجل لونه
 أو صورته لكان الذي ضربه ظالما عند جميع الناس من المقر بالقدر والمنكر
 له . فالتفريق بين الفعلين بديهي ، والجدال في ذلك هوس ، وكل إنسان يفرق
 بين من يحسن إليه ومن يسيء إليه وإن كان يقر بالقدر ، وما دام كذلك فلن
 يسوغ له أن يجادل فيه ، وأكثر ما يجيء الخذلان من مخالفة النصوص والجدال
 في ذلك كما قال تعالى ﴿ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله ، فأحبط أعمالهم ﴾ وكما
 قال تعالى ﴿ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴾
 وقال تعالى ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ وقال تعالى ﴿ فأما نود فهديناهم
 فاستجبوا العمى على الهدى ﴾ وقال تعالى ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم
 يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ فتبين بهذا أنه سبحانه يخلق
 فعل العبد الاضلال والهداية ، ولكنه سبحانه لا يخلق الاضلال الا في القلب
 القابل للاضلال المائل اليه المريد له ، لا يخلقه فيمن ليس كذلك ، ويخلق
 الهداية في قلب من يطلبها ويريدها ويميل اليها . وبذلك دلالة صريحة على هذا
 الاصل العظيم وأن من يطلب الهداية بصدق واخلاص يعطاها قوله تعالى
 ﴿ ويهدي اليه من ينيب ﴾ ومعلوم أنه أمر بان تطلب منه وهو لم يأمر بذلك
 إلا ليعطيها من يطلبها بصدق واخلاص ، وأما من استكبر عنها وأعرض فقد
 فسد طبعه ، والله سبحانه عدل لا يضع الهداية إلا في موضعها القابل لها ،
 فالقلب اذا كان محييا حيا كان فيه ميول الى الهداية لأن فطرته تميل الى ما
 يناسبها فلا بد أن يطلبها من مصدرها ولا بد أن يعطاها ، بخلاف من كان
 قلبه مملوا بخلط من الشكوك والشبهات والشهوات والأهواء والأغراض فلا
 بد أن تكون هذه الامراض مؤثرة في صحته وحياته فلا يكون فيه قبول فلا
 يميل بل يعرض فلا ينال شيئا من الهداية الا بقدر طلبه وميوله وحياته ، فالله
 سبحانه أحكم الحاكمين فلا يضع الأشياء إلا في مواضعها الاثقة بها كما قال

تعالى ﴿ لو علم الله فيهم خيراً لآسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾
 فأخبر تعالى أنه ليس فيهم قبول للخير البتة وأنه لو كان فيهم قبول له لأعطاهم
 من هذا السمع الطيب الطاهر ما فيه كفاية ، ولكن لو أعطاهم لتولوا ، فإن
 موضع القبول قد فسد كالعود اليابس أو الجسم الفاسد الذي لا يقبل الدواء
 فلا ينبغي أن يجعل فيه ما ليس قابلاً له لأنه وضع للأشياء في غير مواضعها ،
 ومن كان طبعه غير مستقيم ولا قابل للحياة الصحيحة ولا المصادر الطيبة فلا
 بد أن يكون قابلاً لضدها لأنه لا بد أن يكون هابطاً سفلياً فلا بد له من قبول
 لما يناسبه من الأعمال والأخلاق والأقوال والأفعال . وسأقضى تمة لهذا في
 مبحث القضاء والقدر ، ولكن يجب هنا أن يعلم أن الله سبحانه وتعالى كريم
 جواد رحيم ودود رءوف بالعباد ، فمن صدق معه وأخلص عمله وطلب الهداية
 صادقاً مخلصاً له لا بد أن يعطاها فلا يخيب من سألها ، أما من أعرض عنه
 واستكبر ورأى أن في نفسه الكفاية فقد يكله إلى نفسه ويؤليه ما تولى والله
 بصير بالعباد

وأما قوله « وطباع الإنسان هي التي تعين سلوكه واتجاهه »

فيقال : قد تقدم الكلام على هذا ، وبيننا أن تعاليم الإنسان تؤثر في طبعه
 الذي ينشأ عليه ويتربى عليه ، ولو لا ذلك لما كان في التعليم فائدة ، فالعلم لا بد
 أن يتبين أثره في الأعمال التي تثيرها الغرائز والعواطف ، فإذا كان العلم
 صحيحاً كعلم الدين بان أثره في الهداية والصحة والنتائج الحسنة ، وإذا كان
 بالعكس كان أثره بالعكس ، وهكذا كان الواقع ، فانه لما كان هذا العلم الذي
 يدعيه ليس هو في الحقيقة بعلم بل هو الجهل - فانه آراء معكوسة مظلمة خبيثة
 مبناها على الإطاع والحق والحسد لا على إقامة الدين والعبدل والرحمة
 والحكمة - كانت نتائجها كذلك نتائج معكوسة خبيثة مظلمة ، فانهم مظلومون
 ظالمون في ظلمات بعضها فوق بعض ، والظالمون بعضهم أولياء بعض ، ولهذا
 لما ذكر الله سبحانه أهل دينه وطاعته وبين ما هم فيه من الأنوار المتصلة بعضها

يبيض ذكر الملاحدة ومن شابههم وبين حالتهم وما هم فيه وأنهم في ظلمات بعضها فوق بعض كما قال تعالى ﴿الله نور السموات والارض ، مثل نوره﴾ أى فى قلب المؤمن كما دل عليه السياق فى ضده من الظلمات ﴿كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجه كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء﴾ لأن فطرته قوية صحيحة فى غاية القبول لمادة النور الذى هو الدين السماوى ﴿ولولم تمسسه نار ، نور على نور﴾ أى نور فوق نور ، لأنه أبصر فطرته التى خلق الله فيها من الاستعداد التام لقبول مادة الخيرات كلها وهى معرفة الله تعالى وعبادته ، وقد تقدم أن الله سبحانه أفاض على خلقه أثرا من آثار رحمته التى هى من أعظم الأنوار الالهية ، ثم أنزل عليهم هذا النور الخاص العظيم ، فاذا صادف هذا النور ذلك النور الأول وقابله صار نورا على نور ﴿يهدى الله لنوره من يشاء﴾ فمن هم أهل للهداية ﴿ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شىء عليم . فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال﴾ ذكر الله البيوت التى هى المساجد وذكر ذكره ودعائه وتسبيحه ههنا بعد ذكر النور لكونها هى مهابط النور وهى مواضعه التى يقتبس فيها ويستمد منها ، فمن أراد النور فليحافظ على ذلك ، وهذا الحديث جعل هذه البيوت أدت شر ما يؤدى كما يأتى تصريحه بذلك . ثم ذكر سبحانه أن أكثر من يستحصل على هذا من هذه صفتهم وهى عدم تقديم أمور دنياهم على دينهم ، فى هذا بيان أن المنهى عنه هو الغفلة والاعراض عن ذكر الله بسبب الدنيا لا تركها مطلقا فقال ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ فى هذا بيان أهل هذا النور وأنهم من هذه صفتهم ، وفى هذا بيان أن من هو بهذه المنزلة فلا يخشى الفقر ولا الذل ، بل يزيده الله من فضله ويسخر له من الأسباب ما لا يعلمه ويهيى

له من أمره رشدا ، فلا بد أن يوفق أهل طاعته الى أسباب قوية يتألون بها العز والمجد والسعادة كما قال تعالى ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ فالعزة هؤلاء حكم الهى وسنة لا تبدل لها ولا تحوّل ، وذلك بقدر ما مع الانسان من الايمان ، لكن يجب أن يعرف هذا الايمان ويتبع . ثم بين سبحانه وتعالى حال أعمال أعدائه فقال ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجنده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴾ ففى هذا بيان أعمال هؤلاء المجرمين وأن الجاهلين الظمآنين - وما أكثرهم - يحسبون أعمالهم لها حقيقة كما يحسب الظمآن الى الماء أن السراب ماء ، فكل جاهل لا يشك أن السراب ماء ولا يظنه وهما بل يحزم بأنه حقائق لا شك فيها ، وهكذا كان حال هؤلاء المعجبين بهذه الأمور العصرية الاحادية يظنون أنهم على شيء ولكن أكثر هؤلاء لم يجدوا الا السراب فتقطعت أكبادهم عطشا ، واحترقت أفئدتهم تلهفا ، وهذا فى بيان أعمالهم ، ثم بين جال عقولهم وآرائهم فى مقابل حال أوليائه وما معهم من النور والهدى والبصائر فقال ﴿ أو كظلمات فى بحر لئلى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾ وقد شبه هذا الموج المتلاطم بتلك التقلبات الفكرية والهيان المتدافع فى الشكوك والشبهات ، وأخبر أن هؤلاء فى ظلمات بعضها فوق بعض ، لان الظلمة الاصلية معهم ، فان الفطرة الصحيحة قد فسدت لتتابع الاخلاط الفاسدة والظلمات عليها فطفت وفسدت فبقيت الظلمة الاصلية ثم جاءتهم الالهواء والشكوك فكانت ظلمة فوق ظلمة ، ثم ان أضيف الى ذلك الاحاد ونحوه تمت الخسارة وجاءت النكبة الكبرى . ثم بين سبحانه أن من لم يجعل الله له نورا فما له من نور ، وفيه بيان أنه ليس فى الانسان استعداد ذاتى مستقل بالهداية والوصول الى الخير ، بل ان ذلك موقوف على هبة الله له ذلك ، فيجب طلبه منه ودعاؤه والاستعانة والاستغاثة

يه وبدون ذلك لا يكون فيه كفاية مطلقة إلى الكفاية الصحيحة القوية المستقيمة بالله تعالى (ومن لم يجعل الله له نورا فجعله من نور)

ودعواه أن الطباع هي التي تعين سلوكه دعوى فاسدة ، فإن الطباع غرائز كامنة لا بد لها من محرك يثيرها ، والمحرك فعل لا بد له من فاعل . وأيضا الطباع قد ذكرت أنها الشر والخبث ، والعلم هو الاعتقاد الذي يوجه الانسان ، فاذا كان العلم مناسبا للشر والخبث كان أعظم دافع إلى الشر والخبث ، وإن كانت علومها صحيحة قوية لزم أن تكون قاضية على الطباع الخبيثة مانعة لها عن الانطلاق إلى ما يلائمها إن كانت هي التي تدفع الانسان ، وإن كانت ضعيفة عاجزة عن مقاومتها بطل قولك أنها علوم صحيحة ناضجة وتمظيمها والثناء عليها ، ولا سيما مع تصريحك بأنهم علموا كل شيء ، فإن هذا هو غاية العلم ، ثم دعواك أنها موروثية من هصور الجاهلية يتناقض دعواك أنها أصلية غريزية . وأنهم يولدون بطبيعة الشر والخبث والظلم وإنما الخير مكتسب اكتسابا . ثم قال : بل هما يمينان على تخفيف وتلطيف ما تجره الاحقاد والطباع الظالمة من شقاء وعذاب .

فيقال أما العلم والعقل اللذان تريد هما فدعواك هذه فيها كذب ظاهر مخالف للواقع ، كيف يخففان ما تجره الاحقاد ونحوها وأنت تقرر أنه يجب أن يكون الدافع هو الحق والمنافسة والحسد كما تقدم ، فعلمهم هذه مبنية على ما يوافق الاحقاد ، فإن أكثرها مؤسس على تنفيذ ما توجه هذه الاحقاد فيكونان هما اللذان هيجا الاحقاد وفعل المظالم ، فأنها ليسا بعلم ولا عقل صحيحين بل هما جهل وفساد تصور وأوهام لا شك فيها .

ثم قال : وكم للعلم والعقل من وقاية وحماية وخدمات في هذه الحرب ، ولولا هما لكان الشر أعم وأتم ، فالعلم خير كله ، والجهل لا شيء منه خير . فيقال : هذا إنما يحصل للعلم والعقل الصحيحين ، بخلاف ما تدعو اليه من الجهل وفساد الرأي ، وليست الحماية والوقاية التي ذكرتها إن كانت موجودة .

من العلم ، فانك ذكرت سابقا أنه أى العلم ينير الطريق لحسب ، وهنا أضفت إليه فعل هذه الامور ، فما أكثر تناقضك ، وانما هذه الامور حصلت فى العقل الذى صار فيه بقية من بقايا تعاليم الأديان فسيما يختص بالامور الدنيوية فقط استمسك البشر بها بحكم ضرورة الحاجة اليها فى معاشه واجتماعه ، والا لما كان بينهم وبين البهائم أدنى فرق أى فى أمور المعاش فقط ، ولو أن العقل السليم سلم من هذا الجهل الذى تسميه علما لكانت وقايته أعظم وأجل ، ولكن هذا الجهل أضعفه وأفسد كثيرا من معنويته الصحيحة

وقوله « فالعلم خير كله والجهل لا شىء منه خير »

فيقال أولا : أنت خالفت هذا ، وقد تقدم قولك « ما كل علم محمود ، قرب علم خير منه الجهل ، الى آخره . وثانيا : قد ثبت بالدلائل القطعية أن هذا الذى تدعيه علما هو أشنع الجهل وأعظمه ، وأن هذا الذى تدعيه جهلا هو العلم الصحيح الذى لا ريب فيه ، فانك جعلت المكر والخيث والسطرنج ونحو ذلك من أصول العلم ، وجعلت دعاء الله وعبادته والخطب والصلوات وأخلاق الدين كلها جهلا ، وهذا عكس صريح للحقائق كما تقدم

وينبغى أن يعلم أن أولئك الشيوخ العلماء لم يذموا العلم الذى يصح أن يسمى علما وإنما يذمون علوم الاحساد التى من أصولها دعاية هذا الملاحد فى أغلاله من الاعتماد على الانسان وانكار القضاء والقدر على الوجه الصحيح وانكار كون الله يغير فى الاسباب ، وما يذكره من الخبائث فى قضية المرأة وغير ذلك ، أما الامور الصناعية ونحوها فانهم حثوا عليها ورغبوا فيها وكتبهم ومقالاتهم أكبر شاهد على ذلك

ثم قال « ولو كان العلم هو الذى يشب الخروب لما وجدت فى عصور الجاهلية مع أنها فى تلك العصور أكثر ،

فيقال : كل هذا حجة عليك ، لأن هذا الجهل كان في عصور الجاهلية
كثيراً جداً ، فإن أولئك الذين شبوا الحروب في عصور الجاهلية إنما حمل
أكثرهم عليها اعتقادهم أن فيهم الكفاءة الذاتية ولهذا حاربوا الرسل ولم
يلتفتوا إلى الدين ، وأيضاً كانوا بعيدين عن الأديان التي هي العلوم الصحيحة
القاضية بالتآخي والتصادق والتناصح والمودة ، ولهذا كان هذا القياس مطرداً
فكلما كانوا أبعد عن الأديان كانوا أشد فوضى وهمجية وأكثر حروباً ، فكان
هذا الجهل الذي تدعيه هو الذي يوقع في المنازعات والاحقاد والانانية
والعدوان المطلق ، وكل هذه هي أسباب الحروب ، على أن دعواك أن عصور
الجاهلية أكثر غير مسلم مطلقاً ، ولو ثبت هذا فالحروب الأخيرة أفظح
وأشنع وأعظم هلاكاً ودماراً

الكلام على المبحث الرابع

وهو قضية تعليم المرأة وسفورها

عنوان هذا المبحث في أغلاله (إنسان أم سلعة)

واعلم أن هذا المبحث ليس هو من أهم مقاصد كتابنا هذا ، لأن قضية المرأة فيما يتعلق بتعليمها وسفورها ونحو ذلك قضية طويلة الذيل عريضة المسالك ، لا تزال المعارك فيها بين الكتاب والقراء وغيرهم حامية ، وأكثر الصحف اليومية والشهرية وغيرها لا تخلو من الكلام فيها . وأكثر كلامه هنا خلاصة مقالات أخذها عن غيره ، وقد قبلت بما هو أصح وأكثر منها ، ولكنه جرى على عادته في التحريف والتطيف يذكر ماله وأفيا ، ولا يبين ما عليه كما يجب . ثم إن كلامه في هذه القضية كلام يحمل قد لبس فيه الحق بالباطل ، ولم يقصد الحق والصدق والعدل بل قصد الكذب والتلبس وتشويه سمعة الاسلام على عادته ، لأن الغرض الأكبر من هذه الأغلال هو القضاء التام على أصول الفضائل الدينية وعلى كل المقومات الانسانية وعلى كل عناصر الحياة الدينية والدنيوية ، ولهذا فانه أسهب في هذا المبحث ، لانه يعلم أن العيب بالنساء وإخراجهن من صيانتهم أصل كبير في فساد الأمة ، وقد هجم على المرأة في المبحث وحث حثا متواصلا على إقامتها وقهرها وعسفها وإهلاك كل شيء نفيس فيها حتى جعلها أدهى حالة من السلعة التي تباع وتشترى ، بل جعلها كالآتان التي يجب أن تعمل وتبرز وتفعل ما شاءت شهوتها ، فإن الآتان هكذا يعمل ويخاطب ذكوره إنائه في كل شيء . وقد مشى على طريقته في التزوير والكذب والاثيان بالدعوى غالبا بمجمل ملبسة بالحق والباطل ، فافترى على المسلمين بأنهم يحرمون على المرأة العلم ، وهذا من أجزر الدعوى وأكذبها ، ولا نعلم شعبا ولا أمة موجودة من المسلمين حرمت على نساها العلم والتعليم النافع ، ولكنه أراد بالعلم عليه الذي يدعو اليه وهو الاتحاد وطرق الفساد ،

فإن هذا الملحد لما أراد أن يرتد وينقلب ارتد وانقلب في كل شيء بحيث أنك لو عكست أكثر كلامه لكان هذا الأكثر هو الحق ، فانه تصور جميع أصول الحق باطلا وتصور أكثر أصول الباطل حقا فهو كمن يمشى مكبا على وجهه بعد أن كان يمشى سويا على صراط مستقيم . ونحن نتكلم على هذه القضية كلاما مختصرا مفيدا يناسب المقام وبأقنى على جميع ما افتراه من القواعد الباطلة .

قال أول البحث :

(الإنسان أم سلعة)

فيقال : ما مرادك بهذا العنوان ، أتريد أنها ليست بسلعة وأن الناس جعلوها سلعة ، أم تريد أمرا آخر . فإن أردت الأول فيقال لك : أنت الذى جعلتها سلعة ، فأنتك أعرضت عن كل ما شرعه لها ربها ورسولها من الحقوق الانسانية التى هى غاية العدل والاحسان ، من العقبة والاحضان والصيانة والكرامة والتعليم الصحيح ، وسلكت فيها مسلك السلع المتبدلة فانكرت الزواج صريحا كما يأتى ، وأنكرت تعليم الدين ، وأنكرت إحسانها فى بيتها وخروجها منه لحاجتها ونزوها المباحة ، وادعيت أنه يجب أن تعلم كل شيء من الموسيقى والرقص بل وكل شيء ، وقد تقدم ادعائك أن المكر والخبث داخل فى العلم فتعلم المكر والخبث ، وأن تكون كاحدى البهائم تفرح وتسرح وتنجى وتذهب كالسائمة المهمة كيفما شامت شهواتها ، وهذا هو شأن بعض السلع البهيمية المتبدلة ، فالأخلاق الانسانية كلها قد جردتها منها تجريدا كاملا فلم تدع الى خصلة انسانية واحدة فى هذا المبحث فى حقوق المرأة البتة ، وانما غايتك أن تزور على المسلمين أنهم فعلوا بالمرأة كيت وكيت كذبوا وفجورا غير مستند الى حجة ، ثم تجيب نفسك بنفسك فتدعى لنفسك ثم تشهد لها ثم تحكم لها ، وجميع ما تدعو اليه من تعليمها قد عرفنا مرادك منه ، كما صرحت به كما يأتى من الأخلاق الخبيثة ، أما الأخلاق الدينية وما يتعاق بها فقد علمت أن

المسلمين لا ينكرون ذلك ، وهذه كتب الفقه مملوءة بإيجاب تعليم المرأة وتهذيبها وتأديبها ، ولكن كل أخلاق الدين عندك هي الجهل وهي الظلمات والشقاء والعذاب ، ثم انك مطالب ببيان الفرق بين الانسان والسلعة ، ثم اثبات كون المسلمين عاملوا المرأة كعامللة السلعة ببراہين وأدلة صحيحة ، وأما مجرد الكذب والفجور فكل خبيث وساقط ومنسلخ من الدين لا يعجز عنه ولا يهابه ، بل هو غناء قلبه وروحه

فصل

قال : أما قضية تحريم التعليم على المرأة فهي من أغرب القضايا التي تمر بالتاريخ البشري .

فيقال : اذا كان تحريم تعليم المرأة من أغرب القضايا فلماذا وقفت في طريق تعليمها العلم النافع والأخلاق الطيبة وأطلت الجدل والعناد في الدعاية الى حجابها عن العلم الصحيح والدعوة الى دفعها في ظلمات الجهالة والغي والفضائح المخزية وأنت تعلم بلا ريب أن المسلمين لم يحرموا العلوم الدينية ولا العلوم الدنيوية النافعة كتعليمها أمر دينها من توحيد وصلاة وطهارة ونظافة وغير ذلك وكتعليمها أمور دنيائها النافعة كعشرتها مع زوجها وقيامها بأولادها وتربيتهم تربية صحيحة وقيامها فيما يخص بيتها من الأمور الكثيرة المشروعة ، وكذلك تعليمها كل ما تحتاجه حاجة ضرورية أو قد تحتاج اليه من خياطة ونحوها ، فهذا كله لم يحرمه أحد من المسلمين على المرأة ، ولا يمكن بحال من الاحوال أن تثبته عن امام معتمد قوله أو طائفة معدودة من طوائف المسلمين حقاً . وهذه الأمور كلها لم تعبأ بها وليس هي علما عندك ، وقد أفصحنا عن العلم عندك في البحث الماضي وهو البحث والمكر وتعليم الموسيقى ودقائق الفلسفة ونحو ذلك من أخلاق الغربيين والملحدین خاصة ، وهذا هو الذي تقصده وتريد من تعليمها ، فاذا كان الامر هو هذا كما ادعيت

عقربا قاربت الصدق ، لأن أئمة المسلمين حرموا هذه الامور عليها ولا سيما الشطرنج والموسيقى والرقص والغناء والخلاعة والفجور والدعارة المنكرة والاستهتار الشنيع ، فلا غرابة اذن أن تشنع عليهم في هذا التقصير وتفسب اليهم كل جهل وضلال ، لان الجهل والضلال عندك هي الاخلاق الدينية وما يتعلق بها

إن كل فرد من أفراد المسلمين يعلم حقيقة العلم أنه لا يوجد رجل عن يعتد بقوله منع امرأة من تعلم ما ينفعها في دينها ودنياها ، وهذه عقائد المسلمين يخاطب بها الرجل والمرأة ، وهذه كتب العلم من توحيد وتفسير وفقه وغير ذلك كلها صريحة في الدلالة على وجوب تعليم المرأة ، وهذه المعارف كذلك ، فكيف يدعى هذا الزائع أن الناس حرموا على المرأة التعليم ويجهل بذلك بدون خجل ولا حياء ، والتعليم الديني أو الدنيوي ليس محصورا في طريقة واحدة محدودة جدا شرعيا ، بل كل وسيلة أو طريقة يتحصل عليها الانسان فتعينه دينه ودنياه فهي مشروعة ، لكن المفروض منها تعبدا معروفا ، والمحرم فضا معروفا ، أما ما سوى ذلك فالأصل في الامور الدينية المحضة الاباحة ، ولا يستثنى من ذلك الا ما استثناه الشارع الحكيم ، ههنا في المقاصد ، أما الوسائل فهي تابعة لها ، فكل وسيلة يتوصل بها الى واجب أو مشروع فحكمها حكم مقصدها ، وعكسها كذلك حكمها حكم مقصدها ، فطرق التعليم على حسب الأفكار والانظار ، فما حصلت به الفائدة المطلوبة من العلم فهي كافية بحسب الحال والقدرة والحاجة ، وفوق كل ذى علم علم

واعلم أن هذا الملحد صور المرأة في هذا المبحث في نظر المسلمين صورة مشوهة منكورة مزورة ، فادعى أنها عندهم كالسلعة تباع وتشترى ، وأنها مدفونة في بيتها لا حق لها في الخروج مطلقا ، وأن التعليم عليها حرام ، وأن كلامها مع الاجنبي ولو الحاجة حرام ، وأنها مع الرجل كالمملوكة مع المالك يتصرف فيها كيف شاء وكيف أحب على ما يقتضيه هواه وشهوته وأفانيته وغير ذلك ،

قهي مع الرجل مسلوقة الحقوق من كل ناحية . وهذه الدعوى لو أن أكفر يهودى ادعاه على شعب أو أمة فلا بد أن تعامله معاملة أعدى عدو لها . وقال : وقد استطاع الرجل أن يتحكم فيها تحكما عجيبا ، وأن يثقلها بل أن يقتلها بأحكامه الجارفة الطاغية ، فكان له على حسب ما شرع لنفسه وما شرع له واضعو القوانين وهم من الرجال أن يسرقها وأن يجعلها سلعة تباع وتشترى وتوهب وتستوهب ، وأن يستمتع بها كيف أراد بالزنا القهري أو التراضى عليه بالجعل (١) أو الأجر أو بالزواج أو بما يسميه زواجا وبما لا يعد ولا يحصى من الصور التي كلها لإرغام ، انتهى كلامه بحروفه

فانظر كيف صرح بانكار جميع الصور التي يفعلها الرجل مع المرأة سواء كان ذلك بزواج أو بما يسميه زواجا ولم يستثن من ذلك غير صورة واحدة ، فقد علمت أن هذا الرجل يدعو الى الاباحية المطلقة وذلك أنه لم يجوز للرجل أن يباشر المرأة أو يطأها الا في صورة واحدة وهو أن يطأها بلا زواج بشرط أن لا يكون لها أجرة فان اختل شرط من هذا فانه غير جائز لديه بل هو ظلم لها ، فلو مثلا وطأها بزواج لم يحز لأنه صرح بذلك كما ترى ، ولو أنه وطأها بأجرة برضاها لم يحز - كما ترى - أو وطأها قهرا بالزنا أو غيره لم يحز كما هو صريح كلامه ، فانه أنكر جميع الصور التي تكون بالإرغام ، فلم يبق من الصور التي لا تدخل في صور الإرغام إلا ثلاث صور : إحداها الزواج وقد صرح تصريحاً لا ريب فيه بعدم جوازه ، وفرق بينه وبين ما يسميه الانسان زواجا لان الزواج إما صحيح وإما باطل أو فاسد ، فالزواج الحقيقي أنكره وكذلك أنكر ما يسمى زواجا وليس له حقيقة ، والا لم يكن هنا فرق بين ما يسمى زواجا وزواجا حقيقيا فقد نفى الأمرين كلاهما ، وليس هناك صورة تسمى

(١) ذكره للزنا المتراضى عليه بالجعل هنا صريح في بيان الحالات التي يسوغ فيها

وطء المرأة من غيرها بالتفصيل بالرضا والاكرام

زواجا غير الزواج الحقيقي والزواج الذى يسمى بغير حقيقته ، وهو لم يبين كيفية الزواج الصحيح حتى يقال انه يريد زواجا آخر ، ومعلوم أن الزواج الصحيح هو الزواج المطلق فى عرف الناس فانه يطلق على الزواج الصحيح ، واذا قيل هناك زواج وهناك ما يسمى زواجا عرف الناس أن احدهما صحيح والآخر باطل لعدم وجود القسم الثالث ، ولا سيما اذا لم يذكر له صفة ، فلم يبق إلا صورتان من الصور التى ليست بارغام^(١) وهما إما الزنا المتراضى عليه بالجعل والأجر ، وهذا قد صرح بانكاره تصريحاً ظاهراً ، وإما الزنا المتراضى عليه بدون أجر وهذا لم ينكره كما ترى . ومعلوم أنه لا ينكر وطء المرأة مطلقاً ، واذا كان لا ينكر وطء المرأة مطلقاً^(٢) وجميع الصور التى يمكن أن توطأ بها المرأة قد صرح بانكارها ما عدا هذه الصورة ، فقد علمنا بلا شك أنه يحجزها ولا يجوز غيرها ، وهذا صريح كلامه ، ولا يمكنه التلمص والتخلص منه إلا بالرجوع والتنازل أو استعمال الحرفة اليهودية التى اعتادها وهى التحريف والمكابرة^(٣) ولعل وجه اختياره لهذه الصورة هو أن الوطء على هذه الصورة لا يتأتى إلا من غرام وهيام شديد بالمرأة على هذا الشخص الواطئ ، لانها لا ترضى أن توطأ بجانبها إلا اذا كانت بهذه الضرورة الملجئة ، وهذا من رقة تفكيره ودقة شعوره وعطفه الشديد عليها ورحمته بها وحمايته

(١) والخاصل أنه لا يمكن أن يوطأ الرجل المرأة إلا فى احدى حالتين إما كرها وهو الارغام وهذا قد أنكره كله ، وأما بالرضا وله ثلاث صور اما الزواج واما الزنا بالرضا بالأجر وكلاهما قد أنكره وأما بالزنا بدون أجر ، وهذه الصورة سكنت عنها ومفهوم كلامه جوازها والا للزم تحريم وطء المرأة مطلقاً وهو لا يراه ، فتعين تجويزه بضرورة التقسيم وهو واضح

(٢) ولو أنكره فذلك أشنع وأعظم

(٣) المكابرة فى اليهود أمر معروف ، ولهذا قالوا ﴿ ما أنزل الله على بشر من

شئ ﴾ مع أن التوراة بين أيديهم

عنها ، ولعل هذا من العلوم المستكره التي صنعها المتجملون من الأديان كما يقول ،
فلهذا سجلها في حقائقه الازلية الأبدية . وبهذا وأمثاله من الفضائح يتبين لك
أنه عدو للفضائل كلها كما هو عدو للأديان السماوية . وهذا الملحد كما أنه سلك
في كل خلق أشنع وأفظع وأخبث فهو كذلك يريد أن يسلك في هذا الخلق
أبشعه وأخبثه وأفظعه ، وإياك أن تستغرب هذا منه فإن في أغلاله من
الفظائع والجرأة على مقام الربوبية والنبوة ما هو اعظم من هذا ، فانه لا يعلم
كافر اجترأ على ما اجترأ عليه مع كونه مرتدا منافقا زنديقا متصفا بكل خصلة
من خصال الكفر ، وهذا ظاهر لا ينكره إلا بليد جاهل لا يفهم مغزاه
ومرماه ، أو ذو هوى قد ضرب الله قلبه بالطبع والحتم والاقفال والاغلال
ثم قال : وكان نظره اليها إجمالا وحكمه فيها مثل نظره الى ما يتحصل عليه
بالباع والشراء ، ومثل حكمه فيه ، وكان له أن يفعل كل ما يرضى غرائزه
بدون معارضة وبدون قانون يمانع أو يحاكم أو يعاقب ، فكان من بعض
أحكامه عليها أن تمنع من النظر وأن يوضع على عينيها حجابان كشيْفان
يحولان بينها وبين الابصار خيفة أن تنظر الى رجل آخر ، وهذا يغضب غيره
مالكها وسيدها ^(١) والحجاب الكشيف المتجاوز للحدود الشرعية الموجود
اليوم بقايا ذلك الحجاب وكان أيضا من بعض أحكامه أن يضع رجلها
في القيود طول حياتها أو زمنا طويلا من حياتها وأن يمنعها الخروج منها
كانت الأغراض وأن يحرم عليها الضوء والشمس والسماء وأن لا يباح لها

(١) اذا كان مناط المنع هو اغضاب مالكها وسيدها بزعمك فالزنا كذلك يقضيه
فصرح باباحته هنا . أما الحجاب فليس المقصود منه منع إبصارها فانها ترى معه
ولا يردّها عن شيء مباح أصلا . وأيضا فهو منقوض بنساء كثير من البادية فانه لا
يعرف عندهن الحجاب ويوجد أيضا من بعض النواحي من لا تحتجب المرأة عن
الرجل أصلا ، ومع ذلك فالرجل متفوق عليها في كل شيء .

الكلام ولا الملكية أى ملكية الأموال والعقارات (١) وأن يأبى عليها إبداء
الرأى والتعليم وأن يقضى عليها بأنها ليست انسانا وإنما ان كانت انسانا
فليس لها روح .

والجواب أن يقال كل هذه الأمور التى ذكرها هنا كذب ظاهر وفجور
لا شك فيه يقصد به تشويه سمعة الاسلام ، غير أن فى مسئلة تغطية الوجه
عن الاجنبى على صورة مخصوصة خلاف بين العلماء يأبى الكلام عليه ، على أن
لنا أن نعارض بأن الملاحدة ولا سيما الاشترى يكون فعلوا بها أشنع من هذا
فحرموها الملكية مطلقا وجعلوها من جنس إحدى البهائم التى يعمل عليها
وتعطى علفا بمقدار تعجبها وبمقدار ما يسد جوعها وعراها ، فكلفوها بأنواع
الأعمال المرهقة وجعلوها موضعا لقضاء الحاجة فقهروها وعسفوها وأماتوا
روحها وشرفها وأنسانيتها بل جعلوها كاحدى الصور التى يفعل بها ما شاء
المالك بدون قيد ولا شرط ، بخلاف من صانوها واحترموها وقدروها
وأنالوها شدة المظف والراحة والهدوء والطمأنينة التامة ، ومجرد إحصائها فى
البيت لا يقضى بكونها كالبسطة فان السلع لا تختص بالاحراز فى البيوت بل
أكثر السلع تعرض فى الأسواق والمجامع وفى كل مكان ، بل السلع التى تحرز
أنفس من السلع التى تعرض فى كل محل ، وليس مجرد المعاوضة يوجب التشبيه
بالسلع ، فأكثر العمال على اختلاف أعمالهم الكثيرة المتنوعة يعملون بالأجرة
بعقود معلومة الشروط ، وقد بينا أنه لم يجعل للسلعة حدا معروفا يثبت به
دخول المرأة فيه حتى يصح له ادعاء السلعة ، فما ذكره كلام ساقط لا محل له فى
ثم انه عاد الى بجميته فى الخداع فقال (٢) :

(١) انظر الى هذا الفجور المنكر فى هذه المسائل الواضحة عند أدنى عاى

(٢) أى لما علم أنه قد اسرف فى الكذب والفجور فاحتاج الى الخداع ،
وهكذا دأبه

وقد جاهد الاسلام جهاداً عظيماً في سبيل المرأة لانقاذها من هذه المظالم والنجاة بها من هذا الجبروت الممقوت ، ففرض لها حقوقاً عظيمة ، ورفع عنها آصاراً وأغلالاً ، وعمل أعمالاً جليلة لاعطائها النور والحياة الصحيحة ، وفك عنها تلك القيود وسجل حقوقها الواجبة المشروعة تتلى في الصلوات وفي كل مكان وأمر بتعليمها وتعلمها ، ووجه اليها الخطاب والأمر والنهي كما وجه الى الرجل سواء ، ورفع عنها كل إكراه وقهر في كل صلاتها ورفع عنها إكراه الأب والأخ والاقارب كما رفع إكراه الزوج وأقارب الزوج ، وقد فرض لها الميراث كما فرض للرجل ، وأكثر من وصاياه بها ولها ، وقد صنع لها وفي سبيلها كل شيء جميل طيب ، وكان من النصوص القاضية الفاصلة في هذه القضية قوله تعالى ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ وليس هناك إنصاف وإنقاذ يخطر في التصور أفضل وأكبر من هذا الانصاف والانقاذ اللذين أنزلها الله في كتابه المقدس تخليداً لحقوق المرأة ووضعاً لها في موضعها الطبيعي ،

فيقال : لكنك آبيت أن تقبل هذا الانصاف ، عارضت ذلك الجهاد الذي جاهده الاسلام في سبيلها فلم تطب نفسك بكل حقوقها الشرعية بل رأيتها جوراً وظلماً وحيفاً كبيراً ، فجميع الحقوق التي فرضها الله لها وعليها لم تقبل منه حقاً واحداً بل ضربت به عرض الحائط ، وذلك أن الله فرض عليها الواجبات الدينية قبل كل شيء كما فرض عليها دعاءه وطلبه والاستعانة به ، فأعرضت عن ذلك وادعت أن الدعاء مصرف خبيث لا فائدة فيه ، واجتهدت في الدعاية الى رفض الدين ، فأى حق ديني واحد ذكرته لها في هذا المبحث كله بل في الكتاب كله ، وقال تعالى في حقها ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة﴾ فأخذت نصف هذه الجملة وضربت بنصفها عرض الحائط لأنها لم توافق هواك ، ومعلوم أن هذا الانصاف لم تقبله بل جعلته جوراً وظلماً لأنك رفضته ، ولو أن رجلاً قال ﴿فويل للمصلين﴾ واستدل

بذلك على انكار الصلاة وترك قوله تعالى ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾
 لكان محرّفاً للآية لم يقبل ما قاله الله ، فكذلك من استدل بقوله تعالى ﴿ولهن﴾
 مثل الذي عليهن بالمعروف ﴿وترك﴾ وللرجال عليهن درجة ﴿فأخبر تعالى﴾
 أن للرجال عليهن درجة وأنت ساويتها به فزدت عليه بأن تعليم المرأة أوجب
 من تعليم الرجل وإدعيت أنها مثله في كل شيء وقال تعالى ﴿وليس الذكر﴾
 كالأنثى ﴿وأنت جعلتها مثله في الحقوق صريحاً فأين القبول وأين الانصاف ،﴾
 وفرض الله لها نصف ميراث الرجل وأنت جعلتها مثله بل هي أحق منه ،
 وفرض على زوجها وأقاربها تأديبها فقال تعالى ﴿فاجروهن﴾ في المضاجع
 واضربوهن ﴿وقلت انه رفع الاكراه ولم تفصل ، وأمر أباه وأخاه﴾
 وغيرهما من الأقارب بتأديبها والاخذ على يدها اذا ما أرادت أن تعمل ما
 يخل بدينها وشرفها فعاندت ذلك فذكرت أنه مرفوع عنها الاكراه ولم تفصل ،
 وفرض عليها الزواج وأنت أنكرته صريحاً ، فجميع ما يحل الله لها من الحقوق
 الانسانية عمدت اليه فأفسدته وشوهته ، وجميع ما صنع في سبيلها من الأشياء
 الجميلة كالفقه والصيانة والاكرام والاحترام حاولت تغييره وتبديله بالأمور
 القبيحة المنكرة ، فدعوتها الى المخالطة وهتك عرضها وجعلها كموضع الحاجة
 للرجال ، فما هي الخصلة الحسنة الدينية التي تنفع المرأة وافقت عليها ودعوت
 اليها ، فكل ما يحلله الله من حقوق المرأة نبذته وقبلت ما يحلله الملاحدة في
 قوانينهم أعظم القبول وبالاستسلام الكامل وقدمته على كل شيء ، فدعنا من
 المخادعة

فصل

قال «لو ان قاتلاً قال ان تعليم المرأة أوجب وأفضل من تعليم الرجل من
 أجل ما ذكر ومن أجل ما سواه لما كان قوله باطلاً ولما كان قاتلاً غير الحق ،
 ولو أن قاتلاً ان الأمة التي لا تتعلم نساؤها لا أمل في نهوضها ووثوبها ، أو

قال إن الأمة التي لا تتعلم نساؤها لا رجاء في أن يتعلم رجالها تعلما صحيحا محمديا ، أو قال إن الأمة التي يتعلم نساؤها - ونقصد بلا شك التعليم الصحيح المثمر - فلا محالة أن تدفع رجالها الى التعليم ، وأن تعد شعبا متعلما ، أو قال إن من أظهر الأسباب في انحطاط المسلمين وتأخرهم عن الآخرين وعجزهم في كل الميادين جهل المرأة ، أو قال إن الأمة التي يتعلم نساؤها دون رجالها لأفضل من الأمة التي يتعلم رجالها دون نساؤها ، أو قال علّوا المرأة ثم املاؤا أنفسكم بالثقة والامل ولا تحشوا بعد تعليمها شيئا - لو أن قائلا قال هذا كله أو قال بعضه لما قال له العاقلون أخطأت ،

فيقال : ما شاء الله يا فيلسوف الزمان ، من أين تعلبت هذه الفلاسفة الدقيقة والسياسة العظيمة ، لقد كان الناس يؤلفون المجلدات الضخمة في بيان السياسة وعوامل الرقي والتقدم والمجد ، وأنت اختصرت ذلك كله فقربت كل هذا البعيد وجمعت أطرافه كلها حتى أظهرت مجها وخالصها وروحها في عشرة أسطر ونصف سطر ثم اختصرت هذه الكلمات في سطر واحد هو روح السياسة كلها وهو قولك : علّوا المرأة ثم املاؤا أنفسكم بالثقة والامل ولا تحشوا بعد تعليمها شيئا ، فأى فيلسوف في الدنيا أو سياسي في هذا الزمان قدر على مثل هذا الذي قدرت عليه ، ولعل هذا من آيات أغلاك ومعجزاته

(بالدر الذي في لجج البحر) لو أن قائلا قال هذا كله لما قال له العاقلون أخطأت ، نعم لا يقولون له أخطأت لأن أمره فوق الخطأ ، لأنه شبيه بالهذيان والثرثرة الفارغة التي يستحي من أن يقولها من له عقل وحياء ، وكيف يقول العاقلون لقائل هذا أخطأت ، بل أقل ما يرد على قائله أن يبصق في وجهه ، ولو أنك جعلت أقصى ما لديك في هذه المسئلة معارضة بعض الكتاب الذين عاكسوك في هذا الرأي لكان أولى بك ، فقد قابلك كثيرون من الكتاب وغيرهم بما يضاد رأيك هذا الذي ذكرته في هذا المبحث كله ، وبينوا أن تعليمها التعليم الذي تريده هو أصل الفساد والشر كله ، وأنه ما من أمة

تعلمت نساؤهم هذه الجبهالات التي تدعو إليها إلا كانت عاقبتها الفشل والتقهقر .
ونحن ننقل جملة واحدة للدكتور زكي مبارك واتحداك تحديا لا هوادة فيه أن
تتقضا ان كنت صادقا ، قال في مقالة له ^(١) « وانك كلما فتشت مشاكل الناس
ومصائبهم وجدت امرأة خلف كل مشكلة ومصيبة ، فالجرائم ترتكب بسبب
المرأة ، والبيوت تهدم والابناء تشرذ بسبب المرأة ، بل ان العروش تسقط
والأم تنهار بسبب المرأة ، وإلا فمن كان يصدق أن فرنسا مهد الحربة وعنوان
الحضارة تسقط بعد سبعة عشر يوما من الهجوم عليها في خلال الحرب
الآخيرة ، ولكن فرنسا كانت قد سقطت خلقيا قبل أن تسقط حريا ، ولا
عجب ونساؤها كن مضرب الأمثال في الخلاعة والمجون والفجور . . . » ^(٢)
وكلام الكتاب في هذا كثير جدا ، وهذا الأرعن الأنوك أذل وأصغر
وأحق من أن يبارى هؤلاء في هذه الميادين أو غيرها أو ينقض كلامهم ،
انما شجاعته كلها محصورة في الأخلاق اليهودية وهي البهت والتحريف وسب
الاسلام وأمثال ذلك . ويتبغى ملاحظة قوله هنا في المرأة وتصريحه بأن
سبب تأخر المسلمين في كل الميادين عدم تعليم المرأة وأنها اذا علمناها فلا نخشى
شيئا ، وقد ذكر في المبحث الماضي أن تأخرنا ليس سببه الاشياء واحد وهو
الجهل بقوى الطبيعة وقواميسها ، فانظر الى هذا التناقض والتلون الحرباني ،
كما أنه ينبغي أن يلاحظ أنه ذكر في المبحث الأول أن هناك أناسا يعللون
تأخرنا بسفور المرأة ثم رد ذلك وشنع عليهم أعظم التشنيع ، فكيف يشنع
عليهم حين عللوا ذلك بسفور المرأة وفسادها ويستصغره وهو هنا علق فلاح

(١) مسامرات الجيب العدد ٨٥ : ١٩٤٧

(٢) قد تبين من هذا الملحد ان شناعاته في كتبه السابقة على زكي مبارك ليست
دينا بل لأغراض نفسية ، فانه في أغلاله هذه باح بجميع ما يكتنه من الاحاد
وعداوة الأديان

الأمة ونجاحها بل والوصول الى كل شيء بتعليم المرأة فقط ، وقد عرفناك عن تعليم المرأة ما هو ، إنه يريد بذلك إفسادها وقتلها بالخبث كله ، لأنه يعلم أنه اذا فتح هذا الباب المشؤم حصل الفساد العام والفوضى والسقوط المعنوى ، وهذا هو الغرض الذى وضعت له هذه الأغلال . ولو ان هذا الملحد اقتصر فى هذه المسئلة على نشر المقالات فى المجلات والجرائد ونحوها كما فعل بعض من يرى ذلك مع أن كل من تكلم فى هذه القضية بمن يرى السفور لم يتجاسر أن يصل الى ما وصل اليه هذا من الخبث والجنون والاسفاف المنكر ، ولكن حملة إعجاب به بنفسه وحرصه على رفض الدين على ادخال هذه المسئلة فى هذه الاغلال لتكون حلقة منها ولتكون كاملة فى الخبائث ، ولأنه لما انهيار خلقه الدينى انهارت أخلاقه فى كل فضيلة فاستحالت أخلاقه الى أخلاق فى غاية الخبث والالتن والقذارة والدناءة المتناهية ، لهذا سولت له نفسه المنحطة أن يحرض قومه على أن يهتكوا أعراضهم فيبرزوا نساءهم ويعلبوهن طرائق الفجور والفسوق مؤملا أن يأخذ هو وأخذانه نصيبهم من كل خبث وفساد معين ، فان ما عمله هنا فانه من موجبات مكروه وخبثه ، ولا يحق المكر السيئ الا باهله

ثم ذكر أن أكثر اصابات الأطفال سببه جهل الأمهات وعدم التعليم ، وهذا غير مسلم ، وليس فيه ما يتعلق به ، ولو فرض على وجه الجدل وقوع بعض شيء منه فأننا فى الواقع نوجب تعلم المرأة وتربية اولادها ونحث على ذلك كما تقدم فلا حجة له فى ذلك

ثم ذكر أحاديث تتضمن أن المرأة كانت تكلم الرجال فى زمنه عليه الصلاة والسلام وأنها تخاطبهم أحيانا كالمرأة التى عرضت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم وذكر قصة ابنتي شعيب عليه الصلاة والسلام اللتين سقى لهما موسى عليه الصلاة والسلام وذكر قوله تعالى ﴿ يا أيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ﴾ الآية وكل هذا الذى استدلل به لا حجة له فيه

جل هو حجة قاطعة ظهره ، لان تخصيص هذه المخاطبات وهذه الوقائع دليل على أن المرأة لا تكلم الرجال إلا في مواضع مخصوصة للحاجة فقط ، وهذا هو قولنا كما تقدم شرحه ، فمن أين له أنها كانت كالرجل في ذلك الزمان تحضر المجالس كما يحضرها الرجال وتمتزج معهم وتكلمهم ويكلمونها في كل حال ، وليس في هذه الدلائل المذكورة ما يفيد هذا بل تفيد ما ذكرناه كما هو واضح ، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يجعلهن صفوفا وحدهن في الصلاة ولم يكن يصلين بين الرجال في صف واحد لا في صلاة عيد ولا جمعة ولا غيرها ، ولم يكن يحضرن المجمع التي ليس فيها ذكر الله والشريعة وهكذا كانت جميع الوقائع التي كانت المرأة تجتمع مع الاجانب وتكلمهم فيها فاتها تجمه وتكلم بقدر الحاجة الماسة ، ثم ان الآية التي في الممتحنة دليل على أن المرأة كانت تعلم هذه الاخلاق العالية وتبايع على ذلك وهي ترك الشرك والسرقة والزنا وقتل الأولاد وإتيان البهتان بالافتراء ومعصية الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهذه الآية جامعة لآداب المرأة وهي لا تتفق مع تعاليمه التي يدعو اليها بل تضادها غاية المضادة ، فان تعليم الموسيقى والشطرنج والمسكر والخبث والرقص والغناء ودقائق الفلسفة ونحو ذلك لا يتفق مع هذه الأخلاق ، بل هذه التعاليم تثير الزنا والسرقة وترك التوحيد واقتراف البهت والافتراء ، ولا نجاة لها الا باجتناب هذه الأخلاق الفاسدة والاقتصار على تعاليم الدين وما يلتحق بذلك من تربية الأولاد وعشرة الزوج وأمثال ذلك . ولهذا فانه لم تستطع أنامله نقل الآية كلها لأنها تهدم بناءه . بل نقل قوله تعالى ﴿ يا أيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبایعنك ... ﴾ فاقصر على هذا ، وهذا من دقة إلحاده وحرصه على كتم الحق

فصل

قال « ولقد جهلت وهانت تلك الامة التي تحتاج إزاء الحقائق السافرة

الملبوسة الى براهين دينية تقنعها بفائدتها أو بجوازها وجواز الأخذ بها، وإذا ما رأيت أمة تثير غبار الجدل الديني أمام ما يجد من مبتكرات العقل الانساني مجوزة أو مانعة محالة أو محرمة فاعلم أنها أمة فاشلة مريضة بعقلها وتشكيرها ودينها.

والجواب أن يقال : لقد علمت أن النزاع بيننا وبينك في تقرير ما ادعيته حقائق سافرة ملبوسة ، فان كانت هذه الحقائق السافرة التي ادعيتهام مجعاً عليها معروفة بالضرورة أنها حقائق سافرة فهذا لا ننازعك فيه ولم ينازع فيه أحد من أهل الدين ، لان البراهين الدينية شاهدة لها غير مخالفة ، والمسلمون مقتنعون بها ، فلم يطالبك أحد باقامة البراهين عليها لا أنت ولا غيرك ، أما ان كانت هذه الحقائق التي ادعيت أنها سافرة ملبوسة غير ظاهرة لغيرك ولا سافرة ، ومنازعك يطلب منك البراهين على تحقيق ما ادعيته فيها من الظهور ، فدعواك أن مطالبتة هذه جهل وهوان هي الجهل والهوان ، بل والضلال والكفران ، فان الناس لا يجب عليهم أن يتبعوا كل من ادعى بدعوى في شيء لأن هذا الشيء من الحقائق السافرة الملبوسة ، فلو ساءت هذه الدعوى لادعى كل انسان بأن ما ادعاه فيما يقصده في كل شيء من الحقائق السافرة الملبوسة واكتفى بهذه الدعوى وقبلت منه ، قال الامام مالك ؓ أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما جاءنا به جبريل الى محمد ﷺ لجدل هؤلاء ، وحينئذ يقال لك هذه الدعاوى التي تدعى أنها من الحقائق السافرة الملبوسة لا نوافقك على صحتها ، فيها أنت بنفسك معترف بأن لك فيها مخالفين وهم الاكثر ، ومعلوم أن قولك ليس بأولى بالقبول من قول مخالفك ، فتكون المسئلة محتاجة الى اقامة البراهين عليها لثبوت الخلاف فيها ، ولأنها لم يصدق عليها أن تكون من الحقائق السافرة الملبوسة فلا بد من إقامة الحجة عليها ، ولولا اقامة البراهين على كل ما تدعيه مما لك فيه منازع لم يتبعك على قولك أحد الا أن تريد أن الناس يصدقونك ويتبعونك في كل ما تدعيه ، وأن كل

ما تقوله فهو من الحقائق السافرة والملبوسة وأن تكون المقدم في كل أمر كما تقول وتدعي ، والا فعلوم عند الناس كهم أن كل مدع بدعوى هي محل نزاع وخلاف لا يجوز له أن يقول لخصمه ان هذا الذي قلته حقائق سافرة ملبوسة يجب على الناس قبولها وأن طلب البراهين عليها جهل وهوان وفشل ومرض في العقل والتفكير . فبين ان ما قاله هنا كلام ساقط لا يقوله من يدري ما يقول ولا يقبله إلا كل مخذول

ودعواك بعد هذا " أن الجود شأن من شئون الجماهير الجاهلة ، ، فيقال لك : اذا صحت هذه الدعوى فانت أول الناس دخولا فيها ، فان كان الجود هو الأخذ بالقول حرفيا بدون مخالفة فلا شك على هذا أنك جمدت أعظم الجود ، فانك جمدت على قول بعض ملاحة الطبايعين وبعض أهل البيت في أقوالهم في خلق العالم وفي توالد الشمس والأقمار والنجوم وحدث الأرض والجبال والنبات والحيوان مع أنهم مختلفون في ذلك مضطربون فيه ، فأخذت بقول بعضهم وصدقت به حرفيا واعتقدته واحتججت به مع أنك لست من أهل المعرفة بهذه الفنون العارفين بها ، فكان تقليدك وجودك تقليدا أعمى وجودا لا حذله ، ثم أنك مع شدة هذا الجود تنماح في مخالفة النصوص والتماس من دلالتها الواضحة وتصرفها على هواك ، وأما خصومك الذين ترميهم بالجود فانهم ان كانوا جامدين فهم انما تمسكوا بما قاله ربهم تعالى وتقدس ونبيهم ﷺ امتثالا لأمره ، وتسميتك لهذا جودا لا يضرم شيئا قال تعالى ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون ﴾ وقال تعالى ﴿ ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ وقال تعالى ﴿ واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا ﴾ الى قوله ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكوك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلبوا تسليما ﴾ والآيات في هذا أكثر من أن تحصى ، بل هذا هو المقصود من الرسالة فاين تمسك هؤلاء

- ان كان هذا التمسك يسمى عندك جهودا - من جهودك وتقليدك الملاحدة الضالين الظالمين ومن حدا حذوهم من ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا

فصل

واعلم أنه أطال في مسألة تعليم المرأة ، وقد علمت ما هو التعليم في اصطلاحه ، وهجم على المسلمين في تقصيرهم في تعليمها ، بل ادعى أنهم يحرمون عليها العلم وقد تقدم الجواب عن هذا كله ، وأما مسألة السفور فيراد به أمران : أحدهما عدم تغطية وجه المرأة عن الأجنبي عند مواجهته للحاجة بدون خلوة وهذا فيه خلاف والجمهور على المنع منه ، والثاني اختلاط الرجال بالنساء وأن المرأة يجب أن تكون كالرجل في كل شيء في الخلوة معه والذهاب معه الى كل مكان ومشاركته في كل عمل بدون أى فرق ، والزواج كالأجنبي في ذلك ، وهذا هو الذى يريد به ويسعى في نصره وتأيسده ، وهذا محرم ومنوع عند جميع المسلمين ، ويعرف منعه بالبراهين الصحيحة الواضحة من تأمل سيرة الصحابة والقرون المفضلة وأقوال أئمة الاسلام فى الكتب المعتمدة وهى كثيرة شهيرة لا حاجة الى نقلها كلها لأنها معلومة فى مظانها ، وهو لم يبين بالتفصيل الواضح الطرق التى تعلمها المرأة بدون تلبيس بل اطلق العلم هنا اطلاقا فقط ، وقد بين مراده بالعلم فى المبحث السابق ، وحيث انه لم يبين بالتفصيل الواضح بل جاء بالدعوى بجملة مغمضة فليس لنا حاجة أن نطيل التفصيل بل نجيبه بما يناسب كلامه من الرد الصحيح المختصر ، ولكن نحن هنا ننقل شيئا من كلام بعض الكتاب المشاهير المعاصرين فى هذه المسئلة ، لان جميع ما قاله ونقله هو من بعض كتاب هذا العصر الذى شغفوا بعلوم الغربيين وسحروا بها ، ولكنهم لم يصلوا الى ما وصل اليه فى العداوة الظاهرة للاسلام ولم يتافقوا هذا التناق المردول . لهذا استحسننا أن نقابل نقوله الفاسدة بنقول أصح منها ، وقد

اقتصرنا على نقلين للكاتبين الشهيرين أحدهما عباس محمود العقاد والثاني مصطفى المنفلوطي . قال العقاد :

المرأة (١)

« ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة .. الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم .. للذكر مثل حظ الأنثيين .. انه من كيدكن إن كيدكن عظيم .. وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين »

ميزان العدل الصحيح هو التسوية بين حقوق المرء وواجباته ، فليس من العدل أن تسوى بين اثنين مختلفين فى الحقوق والواجبات ، ذلك هو الظلم بعينه ، بل هو شر من الظلم أيًا كانت العاقبة التى يؤدى إليها ، لانه هو وضع الشيء فى غير موضعه ، وهو الخطأ والاختلال

والتسوية بين الحقوق والواجبات هو العدل الذى فرضته الفلسفة القرآنية للمرأة ، وهو وضع المرأة فى موضعها الصحيح من الطبيعة ومن المجتمع ومن الحياة الفردية ، فمن اللجاجة الفارغة أن يقال إن الرجل والمرأة سواء فى جميع الحقوق وجميع الواجبات لان الطبيعة لا تنشئ جنسين مختلفين لتكون لهما صفات الجنس الواحد ومؤهلاته وأعماله وغايات حياته ، وفى حكم التاريخ الطويل ما يغنى عن الاحتكام الى التقديرات والفروض فيما تتوخاه الطبيعة من الاختلاف بين الذكر والانثى فى نوع الانسان : فلم يكن جنس النساء سواء لجنس الرجال قط فى تاريخ أمة من الأمم التى عاشت فوق هذه الكرة الارضية على اختلاف البيئات والحضارات . وكل ما يقال فى تعليل ذلك يرجع الى علة واحدة وهى تفوق الرجل على المرأة فى القدرة والتأثير على العموم ، فليست

(١) ص ٥٤ الفلسفة القرآنية ، وقد استعمل لفظ الفلسفة بدل الحكمة فى أكثر

المواضع من كتابه

جهالة القرون الأولى سببا صالحا لتعليل هذه الفوارق العقلية بين الرجال والنساء في جميع الأمم لان الجهل كان حظا مشتركا بين الجنسين ولم يكن مفروضا على النساء وحدهن دون الرجال ، ومن زعم أن الرجل فرض الجهل على المرأة فقبلته وأدعنت له فقد قال انه أقدر من المرأة وانه أحوج الى العلم وأحرص عليه منها . وليس الاستبداد في القرون الأولى سببا صالحا لتعليل تلك الفوارق لأن استبداد الحكومات كان يصيب الرجل في الحياة العامة قبل أن يصيب المرأة في حياتها العامة أو حياتها البيتية ، ولم يمنع الاستبداد طائفة من العبيد المسخرين أن ينبغ فيهم العامل الصانع والشاعر اللبق والواعظ الحكيم والأديب الطريف

وليس عجز المرأة عن مجاراة الرجل في الاعمال العامة ناشئا عن قلة المزاولة لتلك الاعمال لانها زاولت أعمال البيت ألوف السنين ولا زال الرجل يبرزها في هذه الاعمال كلما اشتغل بصناعتها فهو أقدر منها في الطهو وفي تفصيل الثياب وفنون التجميل وتركيب الأثاث وكل ما يشتركان فيه من أعمال البيوت . وقد يرجع الأمر الى الخصائص النفسية فيحفظ الرجل فيها بتفوقه على الرغم من استعداد المرأة بتلك الخصائص من أقدم عصور التاريخ ، فالنواح على الموق عادة تفرغت لها المرأة منذ عرف الناس الحداد على الاموات ، ولكن الآداب النسوية لم تخرج لنا يوما قصيدة من قصائد الزناة تضارع ما نظمته الشعراء الرجال سواء منهم الاميون أو المتعلبون ، وقد كان أكثر الشعراء في العهود القديمة من الاميين . بل هناك خاصة نفسية لا تتوقف على العلم ولا على الحرية ولا نوع العمل أو الوظيفة في المجتمعات أو البيوت وهي خاصة الفكاهة وخلق الصور الهزلية والنكات التي يلجأ اليها الناس حين يحال بينهم وبين التعبير الصريح ، وربما كان الاستبداد والضغط الاجتماعي من دواعي تنشيط هذا السلاح النفسى في قرائح المستعبدين والمغلوبين ، لانه السلاح الذى ينتقم به المغلوب لضعفه والمنفذ الذى يفرج به عن ضيقه

هو خوفه ، وقد كان ضغط الرجال على النساء خليقاً أن يغيرهن باستخدام هذا السلاح لتعويض القوة المفقودة والانتقام للحرية المسلوقة ، ولكن الآداب في النواذر لم تسجل لنا فكاكة واحدة أطلقها النساء على الرجال كما فعل الرجال المغلوبون في الأمم الحاكمة أو المحكومة على السواء ، أو كما فعلوا في تصوير رياء المرأة واحتياها على إخفاء رغباتها وتزويق علاقاتها بالرجال . وهذه الملكة - ملكة الفكاكة - خاصة نفسية لم يقتلها من طبائع الرجال ظلم ولا جهل ولا فاقة ولا عجز عن العمل في ميدان الحياة . فمن اللجاجة أن يتجاهل المتجاهلون هذه الفوارق وهي أثبت من كل ما يثبت العلم والعلامة ، وما كان للعلم أن يوجد شيئاً لم يكن له وجود في الوقائع وفي تفكير العقول ، وإنما هو أبداً في مقام التسجيل أو مقام التفسير ، وقد أقام القرآن الفارق بين الجنسين على الأساسين الذين يقيمانه ويقمان كل فارق عاقل من نوعه وهما أساس الاستعداد الطبيعي وأساس التكاليف الاجتماعية (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) فحق القوامية مستمد من التفوق الطبيعي في استعداد الرجل ومستمد كذلك من نهوض الرجل بأعباء المجتمع وتكاليف الحياة البيتية : فهو أقدر من المرأة على كفاح الحياة ولو كانت مثله في القدرة العقلية والجسدية ، لأنها تنصرف عن هذا الكفاح قسراً في فترة الحمل والرضاعة . وهو التكفيل بتدبير معاشها وتوفير الوقت لها في المنزل لتربية الأبناء وتيسير أسباب الراحة والطمانينة البيتية ، وكلاهما فارق ضروري تقضى به وظائف الجنسين ويقضى به توزيع العمل في البيئة الانسانية كلما تقدم الانسان واتسعت في نفسه وفي مجتمعه عوامل العطف وملكات العقل وخصائص الزواج ، ويقضى به اختلاف الحقوق والواجبات ، ذلك اختلاف لم يخلق لالغاء الفوارق بل للاعتراف بها وتوجيهها الى وجهتها المعقولة . ولا نحسب أن المجتمع الانساني يفرغ من مشكلاته المعقدة في سياسة الامة وسياسة البيت وسياسة الحياة الفردية حتى يشوب اليه

هذا التقسيم الطبيعي الذي لا يحصى عنه فيعمل الرجال-عمل الرجال ويعمل النساء عمل النساء ، وتقام دولة المرأة في البيت ودولة الرجل في معترك الحياة فالمجتمع الذي يتزاحم فيه النساء والرجال على عمل واحد في المصانع والأسواق لن يكون مجتمعاً صالحاً مستقيماً على سواء الفطرة مستجمعاً لأسباب الرضى والاستقرار بين بنيه وبناته لأنه مجتمع يبذر جهوده تبذير السرف والخطل على غير طائل ، ويختل فيه نظام المعمل والسوق كما يختل فيه نظام الأسرة والبيت ، فالمرأة لم تزود بالعطف والحنان والرفق بالطفولة والقدرة على فهمها وافهامها والسهر على رعايتها في أطوارها الأولى لتهجر البيت وتلقى بنفسها في غمار الاسواق والدكاكين . وسياسة الدولة كلها ليست بأعظم شأنًا ولا بأخطر عاقبة من سياسة البيت لانهما عدلان متقابلان : عالم العراك والجهاد يقابله عالم السكينة والاطمئنان ، وتدير الجيل الحاضر يقابله تدير الجيل المقبل ، وكلاهما في الزوم وجلالة الخطر سواء . وانما الآفة كلها من حب المحاكاة بغير نظر الى معنى المحاكاة ، فان المرأة يخيل اليها أنها لا ترفع الضعة عن نفسها إلا اذا عملت عمل الرجال وطالبت بحقوق الرجال وقيل إن النساء والرجال سواء في جميع الاعمال والاحوال ، ولولا مركب النقص لكان للمرأة نخر بمملكة البيت وتنشئة المستقبل فيه لا يقل عن نخر الرجال بسياسة الحاضر وحسن القيام على مشكلات المجتمع التي تحتاج الى الجهد والكفاح ، وهي لو رجعت الى سلبقتها لأحست ان زهوها بالامومة أعلى لديها وألصق بطبعها من الزهو بولاية الحكم ورأسه الديوان ، فليس في العواطف الانسانية شعور يملأ فراغ قلب المرأة كما يملأه الشعور بالتوفيق في الزواج والتوفيق في انماء البنين الصالحين والبنات الصالحات . وقد لوحظ هذا الاعتبار في تقسيم الميراث بين الذكور والاناث فأعطى الرجل مثل حظ الانثيين وبنيت هذه القسمة قبل كل شيء على اعتبار واحد وهو أن الرجل يتكفل بمعيشة المرأة وهي مشغولة بأمر البيت ورعاية الأسرة وأنه هو الذي يجمع الثروة ويكدح في طلب المال ، فمن

العدل أن يعطى منه نصيبين : على قدر سعيه في تحصيله ، وعلى قدر حاجاته التي تشتمل على حاجات النساء ومن يعولهم من الزوجات والابناء . ووصف القرآن المرأة بالكيد العظيم ، وهو وصف لا يناقض رجحان الرجال عليها في العقل والتدبير ، لأن سلاحها في هذا الكيد من أسلحة الطبيعة التي تستميل بها الرجل اليها وتغرس في نفسه حب الاجابة لغوايتها ، ولم تنزل الحيلة عوضا عن القدرة ودليلا على نقصها في ناحية من نواحيها ، ومن المشاهدات المحسوسة أن المرأة تصر على طلبتها وتلح في إصرارها ، لأنها تعجز عن صرف الفكرة من رأسها اذا خطرت لها وهجست في ضميرها ، فهي تطرد الفكرة من هنا فتعاودها من هناك ، وهي تعالج الخلاص منها فلا تفلح في علاجها ولا تزال فريسة لهواجسها في يقظتها ومنامها حتى تستريح منها بالانجاز والتنفيذ ، فهي تثابر على الطلب لأنها عاجزة عن الخلاص من الحاجة والتغلب على معاودته ومراجعاته ، وهي تستمد القوة من هذا الضعف الذي يتعقبها فلا يرحمها ولا يريحها فتبدو كالمطاردة وهي طريدة وتترأى كالمغالبية وهي مغلوبة ، فتجمع بين الضعف العظيم وتعتمد على غواية الطبيعة في نجاح كيدها حين يخذلها الضعف ويسلمها للزوة الملحة والوسواس المقيم ، على أن هذه التفرقة بين الجنسين لا تتعدى تكاليف المعيشة وعلاقات المجتمع الى تكاليف العقيدة وفضائل الاخلاق ومطالب الروح ، لأن المرأة تخاطب في القرآن الكريم كما يخاطب الرجل في هذه الأمور ، وتندب لكل ما يندب له من الفرائض والاخلاق التي تجمل بنوى الخير والصالح ، ومن أمثلة ذلك هذه الآية الكريمة من سورة الأحزاب ﴿ ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة واجرا عظيما ﴾ ولهذا كانت المرأة تشهد الصلاة الجامعة في المساجد

وتؤدي في روضة الحج سافرة غير مقنعة وتبايع النبي عليه السلام كما بايعه الرجال
 أما الحجاب الذي كثر فيه اللغط فالقرآن لم يتعرض له الا بمقدار ما يحق لكل
 مجتمع سليم أن يتعرض لحياطة الأخلاق والأعراض ، لان شهوات الجنس
 أخطر من كثير من الاضرار التي تحتاط لها الجماعات البشرية بالحد من الحرية
 في بعض الأحوال ، وقد سمحت القوانين بالحد من الحرية في سبيل تأمين
 الأموال وحراسة الطرق والمواصلات ووقاية السابلة من أخطار المركبات
 والسيارات ، فمن السخف أن يقال ان الفرد يحظر عليه الانطلاق على هواه
 في شئون كهذه ويباح له أن ينطلق في أهواء الشهوة الجنسية بغير ضابط من
 قبيل الحياطة والرقابة التي لا تعوقه عن مباح ، وإذا رجعنا الى نصوص القرآن
 لم نر فيها ما يحرم على المرأة شيئا لا يجب على القانون أن يحرمه في أحدث
 المجتمعات ، فلا يجوز للمرأة أن تتبرج تبرج الجاهلية الاولى ، وفصلت آيات
 الحجاب ذلك في سورة النور فجاء فيها ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن
 ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن
 على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو
 أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو نسائهن أو ما
 ملكت أيمنهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم
 يظهروا على عورات النساء ، ولا يضررن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن
 وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ وخوى ذلك أن المرأة
 لا يجوز لها بزيئة جسدها التصدى للغواية بين الغرباء ، وهي في حل بعد ذلك
 أن تلقى من تشاء ممن تجمعها بهم مجالس الأسرة من الرجال أو النساء . وما
 من عقل سليم يرى أن الشرائع تتخطى حدودها حين تعرض لمنع التبذل
 والغواية على هذا النحو الصريح ، وما من عقل سليم يبدو له أن حراسة
 الأعراض والأخلاق بمثل هذه الحياطة فضول من الشرائع والقوانين أو
 تصرف لا نظير له في المجتمعات البشرية التي تتكفل بحراسة الأموال

والارواح . فلا فائدة للرجل ولا للمرأة ولا للأمة في حملتها من هذا الریاء الذي یجزم باستحالة الاخطار الشهوانية حين تستثار بغواية الزينة المكشوفة ، وهو فی الوقت نفسه لا ینزله النفس البشرية من سرقة الدرهم والسلب إذا عرضت بغير حیطة لكل من یمد الیها یده ، ومن حلول الفقرة بین الأمرین بالفرقة بین الطمع فی الجاد والطمع فی مخلوق الإنسان ، يؤكد ضرورة الحیطة هنا من حیث یرید أن یطلبها أو یضعفها هناك ، لأن الخطر الذي تتلقی فیهِ الرغبة من الجانبین أولى بالحیطة من خطر مقصور على رغبة السارق دون الجاد والمسروق ، ولعل الغربیین قد لمسوا من أضرار الاباحة المطلقة فی مقابلة الجنسین ما یحور بهم الی الصواب فی مسئلة (الحجاب) فیفهمون الحکمة فی الاعتدال بین الاباحة المطلقة والقصر الشدید فی هذه المسئلة التي لا یغنی فیها الریاء عن الحقیقة ، ویدرکون أن أخطار الشهوات الجنسية شیء یحسب له حساب فی الشرائع والآداب ، لانه حساب الاعراض والانساب ، وخیر ما یطلب من الشریعة عدل وصحة تقدر ، ونحن لا نلتزم العدل ولا صحة التقدير حين تتجاوز بالکائن الی طبیعته فی حقوقه وواجباته أو حين نطلب من طبیعة ما لا یستطاع

• • •

وقال الكاتب المنفلوطی فی مقال له فی مسئلة الحجاب (١) :

ذهب فلاں الی أوروبا وما ننکر من أمره شیئا ، فلبث فیها بضع سنین ثم عاد وما بقى عما کنّا نعرف منه شیء : ذهب بوجه کوجه العذراء لیلۃ عرسها ، وعاد بوجه کوجه الصخرة الملساء تحت اللیلة الماطرة . وذهب بقلب نقی طاهر یأنس بالعفو ویستريح الی العذر ، وعاد بقلب ملفف مدخول لا یفارقه السخط علی الأرض وساکنها وعلی السماء وخالقها . وذهب بنفس غضة خاشعة ترى

كل نفس فوقها ، وعاد بنفس ذهابه نزاعة لا ترى شيئا فوقها ولا تلقى نظرة واحدة على ما تحتها . وذهب بنفس مملوءة حكمة ورأيا ، وعاد برأس كرأس التمثال المثقب لا يملأه الا الهواء المتردد . وذهب وما على الأرض أحب اليه من دينه ووطنه ، وعاد وما على وجهها أصغر في عينيه منها . وكنت أرى ان هذه الصور القريبة التي يتراعى بها هؤلاء الضعفاء من الفتيان العائدين من تلك الديار الى أوطانهم انما هي أصباغ مفرغة على أجسامهم إفراغا لا تلبث أن تطلع عليها شمس المشرق حتى تنصل وتتطاير ذراتها في أجواء السماء ، وأن مكان المدينة من نفوسهم مكان الوجه من المرأة اذا انحرف عنها زال خياله منها ، فلم أشأ أن أفارق ذلك الصديق ، فلبسته على علاته ، وفاء بعهده السابق ورجاء لغده المنتظر ، متحملا في سبيل ذلك من حمقه ووسواسه وفساد تصوراتيه وغرابة أطواره مالا طاقة لمثل احتمال مثله ، حتى جاء في ذات ليلة بداهية الدواهي ومصيبة المصائب فكانت آخر عهدي به . دخلت عليه فرأيتة واجما مكنتبا ، خييته فأوما الى بالنجحة إيماء ، فسألته ما باله فقال : ما زلت منذ الليلة من هذه المرأة في عناء لا أعرف السبيل الى الخلاص منه ، ولا أدري مصير أمرى فيه . قلت وأى امرأة تريد . قال تلك التي يسميها الناس زوجتي ، وانا أسميها الصخرة العاتية في طريق مطالبي وآمالى . قلت انك كثير الآمال يا سيدي ففي أى آمالك تحدث ، قال ليس لى في الحياة الا أمل واحد وهو أن اغمض عيني ثم أفتحها فلا أرى برقعا على وجه امرأة في هذا البلد . قلت ذلك مالا تملكه ولا رأى لك فيه . قال ان كثيرا من الناس يرون في الحجاب رأى ويتمنون في أمره ما أتمنى ولا يحول بين نزعه عن وجوه نسائهم وابرأزهن الى الرجال يحالسهم كما يجلس بعضهم الى بعض الا العجز والضعف والهيبة التي لا تزال تلم بنفس الشرقي كلما حاول الاقدام على أمر جديد ، فرأيت أن أكون أول هادم لهذا البناء العادى^(١) القديم الذي وقف سد ادون

سعادة الأمة وارتقاءها دهر اطويلا ، وأن يتم على يدي ما لم يتم على يد أحد
غيري من دعاة الحرية وأشياعها ، فعرضت الأمر على زوجتي فأكبرته
وأعظمته وخيل إليها أنني جتتها باحدى النكبات العظام والرزايا الجسام ،
وزعمت أنها إن برزت للرجال فأنها لا تستطيع أن تبرز الى النساء بعد ذلك
حياء منهن وخجلا ، ولا خجل هناك ولا حياء ولكنه الموت والجود والذل
الذي ضربه الله على هؤلاء النساء في هذا البلد أن يعشن في قبور مظلمة من
خدورهن وخمرهن حتى ياتيهن الموت فينقلن من مقبرة الدنيا الى مقبرة
الآخرة ، فلا بد لي أن أبلغ أمنيته وأن أعالج هذا الرأس القاسي المتحجر
علاجاً ينتهي باحدى الحسنيين إما بكسره وإما بشفائه . فورد على من حديثه
ما ملأ نفسه هما وحزنا ، ونظرت اليه نظرة الراحم الرائي وقلت : أعالم أنت
أيها الصديق ما تقول . قال نعم أقول الحقيقة التي أعتقدها وأدين نفسي بها
واقعة من نفسك ونفوس الناس جميعا حيث وقعت . قلت هل تأذن لي أن
أقول لك أنك عشت فترة طويلة في ديار قوم لا حجاب بين رجالهم ونسائهم ،
فهل تذكر أن نفسك حدثك يوما من الأيام وأنت فيهم بالطمع في شيء مما
لا تملك يمينك من أعراض نسائهم فملت ما تطمع فيه من حيث لا يشعر
مالكه ، قال ربما وقع لي شيء من ذلك ، فاذا تريد . قلت أريد أن أقول لك
أنني أخاف على عرضك أن يلزم به من الناس ما ألم باعراض الناس منك . قال
ان المرأة الشريفة تستطيع أن تعيش بين الرجال وهي من شرفها وعفتها في
حصن حصين لا تمتد اليه المطامع . فداخلي ما لم أملك نفسي معه وقلت له
تلك هي الخدعة التي يخدعكم بها الشيطان أيها الضعفاء ، والثلبة التي يعثر بها في
زواياهم وسكنهم فينحدر منها الى عقولكم ومدارككم فيفسدها عليكم ، فالشرف
كلمة لا وجود لها إلا في قواميس اللغة ومآجها ، فان أردنا أن نفتش عنها في
قلوب الناس وأفئدتهم قلنا نجدتها ، والنفس الانسانية كالغدير الراكد لا يزال
صافيا رائقا حتى يسقط فيه حجر فاذا هو مستنقع كدر ، والعفة لون من الوان

أنفس لا جوهر من جواهرها ، وقلبا تثبت الألوان على أشعة الشمس
 المتساقطة . قال أنتكر وجود العفة بين الناس ، قلت لا أنكرها لأنى أعلم أنها
 موجودة بين البله والضعفاء والمتكلفين ، ولكننى أنكر وجودها عند الرجل
 القادر المختلج والمرأة الحاذقة المترفة إذا سقط بينهما الحجاب وحلا وجه كل
 منهما لصاحبه . فى أى جو من أجواء هذا البلد تريدون أن تبرز نساؤكم
 لرجالكم : فى جو المتعلمين وفيهم من سئل مرة لم لم يتزوج فأجاب نساء البلد
 جميعا نساء ، أم فى جو الطلبة وفيهم من يتوارى عن أعين خلانه وأترابه
 حياء وخجلا إن خلت محفظته يوما من الأيام من صور عشيقاته وخليلاته أو
 اقترنت من رسائل الحب والغرام ، أم فى جو الرعاع والغوغاء وكثير منهم
 يدخل البيت خادما ذليلا ويخرج صهرا كريما . وبعد فها هذا الولع بقصة المرأة
 والتعلق^(١) بحديثها والقيام والقعود بأمرها وأمر حجابها وسفورها وحرمتها
 وأسرها ، كأنما قد قتم بكل واجب للأمة عليكم فى أنفسكم فلم يبق الا أن
 تقيضوا من تلك النعم على غيركم ، هذبوا رجالكم قبل أن تهذبوا نساءكم ، فإن
 عجزتم عن الرجال فاتم عن النساء أعجز . أبواب الفخر أمامكم كثيرة فاطرقوا
 أيها شتم ودعوا هذا الباب موصدا ، فإنكم ان فتحتموه فتحتم على أنفسكم
 وبلا عظيما وشقاء طويلا . أرونى رجلا واحدا منكم يستطيع أن يزعم فى
 نفسه أنه يملك هواه بين يدي امرأة يرضاها فأصدق أن امرأة تستطيع أن
 تملك هواها بين يدي رجل ترضاها . انكم تكلفون المرأة ما تعملون انكم
 تعجزون عنه وتطلبون عندها مالا تعرفونه عند أنفسكم ، فاتم تخاطرون بها
 فى معركة الحياة مخاطرة لا تعملون أن يحوونها من بعدها أم تحسرونها ، وما
 أحسبكم الا خاسرين . ما شكت المرأة اليكم ظلما ، ولا تقدمت اليكم فى أن
 تحلوا قيديا وتطلقوها من أسرها ، فما دخولكم بينها وبين نفسها ، وما تمضغكم

(١) التعلق التصويت باللسان عند استطابة الطعام

ليلكم ونهاركم بقصصها وأحاديثها . أنها لا تشكو الا فضولكم وإسفافكم
ومضايقتكم لها ووقوفكم في وجهها حيثما سارت وأنها حلت ، حتى ضاق بها
وجه الفضاء فلم تجد لها سبيلا الا أن تسجن نفسها بنفسها في بيتها فوق ما يجنها
أهلها ، فأرصدت من دونها بابها وأسبلت أستارها ترمي ما بكم وفرارا من
فضولكم . فواجبا لكم تسجنونها بأيديكم ثم تقفون على باب سجنها تبكونها
وتندبون شقاءها . انكم لا ترثون لها بل ترثون لأنفسكم ، ولا تكون عليها
بل على أيام قضيتموها في ديار يسيل جوها تهرجا وسفورا ويتدفق خلاعة
واستهتارا ، وتودون بجدع الأنف لو ظفرتم هنا بذلك العيش الذي خلفتموه
هناك . لقد كننا وكانت العفة في سقاء من الحجاب موكوء ، فازلتم به تقبون
في جوانبه كل يوم ثوبا ، والعفة تسيل منه قطرة قطرة ، حتى تقبض وتكرش ،
ثم لم يكفكم ذلك منه حتى جتم اليوم تريدون أن تحلوا وكاهه حتى لا تبقى فيه
قطرة واحدة ، عاشت المرأة المصرية حقبة من دهرها هادئة مطمئنة في بيتها
راضية عن نفسها وعن عيشها ، ترى السعادة كل السعادة في واجب تؤديه
لنفسها ، أو وقفة تقفها بين يدي ربها ، أو عطفة تعطفها على ولدها ، أو جلسة
تجلسها الى جارتها تنسأ ذات نفسها وتستشها سريرة قلبها ، وترى الشرف كل
الشرف في خضوعها لآبائها وائتمارها بأمر زوجها ونزولها عند رضاهما ، وكانت
تفهم معنى الحب وتجهل معنى الغرام ، فتحب زوجها لأنه زوجها كما تحب ولدها
لأنه ولدها ، فان رأى غيرها من النساء أن الحب أساس الزواج رأت هي أن
الزواج أساس الحب ، فقلتم لها ان هؤلاء الذين يستبدون بأمرك من أهلك
ليسوا باوفر منك عقلا ولا أفضل رأيا ولا أقدر على النظر لك من النظر
لنفسك ، فلا حق لهم في هذا السلطان الذي يزعمونه لأنفسهم عليك ،
فازدرت أباهها وتمردت على زوجها وأصبح البيت الذي كان بالأمس عرسا
من الاعراس الضاحكة مناحة قائمة لا تبدأ نارها ولا يخبو أوارها . وقلتم لها
لا بد لك أن تختاري زوجك بنفسك حتى لا يخذلك أهلك عن سعادة

مستقبلك فاختارت لنفسها أسوأ مما اختار لها أهلها ، فلم يزد عمر سعادتها عن يوم وليلة ثم الشقاء الطويل بعد ذلك والعذاب الاليم ، وقلتم لها ان الحب أساس الزواج فما زالت تقلب عينيها في وجوه الرجال مصعدة مصوبة حتى شغلها الحب عن الزواج فغنيت به عنه ، وقلتم لها ان سعادة المرأة في حياتها أن يكون زوجها عشيقها وما كانت تعرف الا أن الزوج غير العشيق فاصبحت كل يوم زوجا جديدا يحبي من لوعة الحب ما أمات الزوج القديم فلا قديما استبقت ولا جديدا أفادت ، وقلتم لها لا بد أن تتعلمي لتجسني تربية ولدك والقيام على شئون بيتك فتعلمت كل شيء إلا تربية ولدها والقيام على شئون بيتها ، وقلتم لها نحن لا نتزوج من النساء الا من نحبا ونرضاها وبلائم ذوقها ذوقنا وشعورها شعورنا ، فرأت أن لا بد لها أن تعرف مواقع أهوائكم ومباهج أنظاركم لتتجمل لكم بما تحبون ، فراجعت فهرس حياتكم صفحة صفحة فلم ترفيه غير أسماء الخليعات المستهترات والضاحكات اللاعبات والاعجاب بهن والثناء على ذكائهن وفطنتهن فتخلعت واستهترت لتبلغ رضاكم وتنزل عند محبتكم ، ثم مشت اليكم بهذا الثوب الرقيق الشفاف تعرض نفسها عليكم عرضا كما تعرض الأمة نفسها في سوق الرقيق فأعرضتم عنها ونبوتتم عنها وقلتم لها إنا لا نتزوج النساء العاهرات كأناكم لا تبالون أن يكون نساء الأمة جميعا ساقطات اذا سلمت لكم نساؤكم ، فرجعت أدراجها خائبة منكسرة وقد أبأها الخليع وترفع عنها المحتشم ، فلم تجدد بين يديها غير باب السقوط فسقطت . وكذلك انتشرت الريبة في نفوس الأمة جميعا وتمشت الظنون بين رجالها ونسائها فتعاجز الفريقان وأظلم الفضاء بينهما وأصبحت البيوت كالأديرة ^(١) لا يرى فيها الرائي الا رجالا مترهبين ونساء عانسات ذلك بكاؤكم على المرأة أيها الراحون ، وهذا رثاؤكم لها وعطفكم عليها .

(١) الأديرة جميع دبر

نحن نعلم كما تعلمون أن المرأة في حاجة الى العلم ، فليهبها أبوها وأخوها ،
فانتهزيب أنفع لها من العلم^(١) والى اختيار الزوج العادل الرحيم ، فليحسن
الآباء اختيار الأزواج لبناتهم وليجمل الأزواج عشرة نسائهم ، والى النور
والهواء تبرز اليها وتمتع فيها برؤية الحياة فيأذن لها أولياؤها بذلك وليرافقها
رفيق منهم في غدواتها وروحاتها كما يرافق الشاة راعيها خوفا عليها من الذئاب ،
فان عجزنا أن نأخذ الآباء والاخوة والأزواج بذلك فلننفض أيدينا من الأمة
جميعا نسائها ورجالها فليست المرأة بأقدر على اصلاح نفسها من الرجل على
إصلاحها

أعجب ما أعجب له من شئونكم أنكم تعلمتم كل شيء إلا شيئا واحدا هو أدنى
الى مدارككم أن تعلموه قبل كل شيء وهو أن لكل تربة نباتا ينبت فيها ،
ولكل نبات زمنا ينمو فيه . رأيتم العلماء في أوربا يشتغلون بكاليات العلوم
بين أمم قد فرغت من ضرورياتها فاشتغلتم بها مثلهم في أمة لا يزال سوادها
الاعظم في حاجة الى معرفة حروف الهجاء . . . ورأيتم الرجل الأوربي حرا
مطلقا يفعل ما يشاء ويعيش كما يريد لانه يستطيع أن يملك نفسه وخطواته في
الساعة التي يعلم فيها أنه قد وصل الى حدود الحرية التي رسمها لنفسه فلا
يتخطاها ، فرأيتم أن تمنحوا هذه الحرية نفسها رجلا ضعيف الارادة والعزيمة
يعيش في حياته الأدبية في رأس منحدر زلق إن زلت به قدمه مرة تسدهور
من حيث لا يستطيع أن يستمسك حتى يبلغ الهوة ويتردى في قرارتها ،
ورأيتم الزوج الأوربي الذي أطفأت بيئته غيخته وزالت خشونة نفسه
وحرشتها يستطيع أن يرى زوجته تخاصر من تشاء وتصاب من تشاء وتخلو
بمن تشاء فيقف أمام ذلك المشهد موقف الجامد المتبلد ، فأردتم من الرجل
الشرقي الغيور المتلهب أن يقف موقفه ويستمسك استمساكه ، ورأيتم المرأة

(١) يعنى علم ما لم يكن ضروريا كما بيناه فيما سبق

الأوربية الجرينة المفتية تستطيع في كثير من مواقفها مع الرجال أن تحتفظ بنفسها وكرامتها، فأردتم من المرأة المصرية الضعيفة الساذجة أن تبرز للرجال بروزها وتحتفظ بنفسها احتفاظها، وكل نبات يزرع في أرض غير أرضه أو في ساعة غير ساعته إما أن تأباه الأرض فتأفظه وإما أن يستنبت فيها فيفسدها. انا نضرع اليكم باسم الشرف الوطنى والحرمة الدينية ان تتركوا تلك البقية من نساء الأمة آمانات مطمئنات في بيوتهن، ولا تزعجهن بأحلامكم وآمالكم كما أزعجت من قبلهن، فكل جرح من جروح الأمة له دواء إلا جرح الشرف، فان أيتيم إلا أن تفعلوا فانظروا بانفسكم قليلا ريثما تنتزع الأيام من صدوركم هذه الغيرة التي ورثتموها عن آبائكم وأجدادكم لتستطيعوا أن تعيشوا في حياتكم الجديدة سعداء آمنين

فما زاد الفتى أن ابتسم في وجهى ابتسامة الهزم والسخرية وقال تلك حماقات ما جئنا الا لنعالجها فلنصطبر عليها حتى يقضى الله بيننا وبينها . فقلت له لك أمرك في نفسك وأهلك فاصنع بهما ما تشاء واأذن لى أن أقول لك انى لا أستطيع أن أختلف الى بيتك بعد اليوم إبقاء عليك وعلى نفسى لأن الساعة التي ينفرج لى فيها جانب ستر من أستار بيتك عن وجه امرأة من أهلك تقتلنى حياء وخجلا . ثم انصرفت وكان هذا فراق ما بينى وبينه وما هى إلا أيام قلائل حتى سمعت الناس يتحدثون أن فلانا هتك الستر فى منزله بين نسائه ورجاله ، وأن بيته أصبح مغشيا لا تزال النعال خافقة بابه . فذرفت عيني دمعة لا أعلم هل هى دمعة الغيرة على العرض المذال أو الحزن على الصديق المفقود

مرت على تلك الحادثة ثلاثة أعوام لا أزوره ولا يزورنى ولا ألقاء فى طريقه إلا قليلا فأحبيه تحية الغريب للغريب من حيث لا يحجرى لما كان بيننا ذكر ، ثم أنطلق فى سبيل

وإني لعائد الى منزلي ليلة أمس - وقد مضى الخطر الأول من الليل - إذ
 رأيته خارجا من منزله يمشى مشية الداهل الخائر ، وبجانبه جندي من
 جنود الشرطة كلما هو يحرسه أو يقتاده ، فأهمني أمره ، وذهوت منه فسألته
 عن شأنه فقال لا أعلم لي شيء سوى أن هذا الجندي قد طرق الساعة بابي
 يدعوني الى مخفر الشرطة ولا أعلم لمثل هذه الدعوة في مثل هذه الساعة سببا ،
 وما أنا بالرجل المذنب ولا المريب ، فهل تستطيع أن أرجوك يا صديق بعد
 الذي كان بيني وبينك أن تصحبني الليلة في وجهي على أحتاج الى بعض المعونة
 فيما قد يعرض لي هناك من الشئون . قلت لا أحب الى من ذلك . ومشيت
 معه صامتا لا أحده ولا يقول لي شيئا . ثم شعرت كأنه يزور في نفسه كلاما
 يريد أن يفضي به الى فيمنعه الخجل والحياء ، ففاتحته الحديث وقلت له ألا
 تستطيع أن تذكر لهذه الدعوة سببا . فنظر الى نظرة حائرة وقال إن أخوف
 ما أخافه أن يكون قد حدث لزوجتي الليلة حادث ، فقد رابني من أمرها أنها
 لم تعد الى المنزل حتى الساعة ، وما كان ذلك شأنها من قبل . قلت أما كان
 يصحبها أحد ، قال لا ، قلت ألا تعلم المكان الذي ذهبت اليه ، قال لا ، قلت
 ومم تخاف عليها ، قال لا أخاف شيئا سوى أني أعلم أنها امرأة غيور حقها
 ففعل بعض الناس حاول العبث في طريقها فشرست عليه فوقعت بينهما واقعة
 انتهت أمرها الى مخفر الشرطة . وكنا قد وصلنا الى المخفر فاقترانا الجندي الى
 قاعة المأمور فوقفنا بين يديه فأشار الى جندي أمامه إشارة لم نفهمها ثم استدنى
 الفتى اليه وقال له : يسومني أن أقول لك يا سيدي إن رجال الشرطة قد عثروا
 الليلة في مكان من أمكنة الريية برجل وامرأة في حال غير صالحة ، فاقترادوها
 الى المخفر ، فرعمت المرأة أن لها بك صلة ، فدعوناك لتكشف لنا الحقيقة في
 أمرها ، فإن كانت صادقة أذننا لها بالانصراف معك اكراما لك وإبقاء على
 شرفك ، والا فهي امرأة هاهر لا نجاة لها من عقاب الفاجرات ، وهما هما
 ورامك فانظرهما ، وكان الجندي قد جاء بها من غرفة أخرى ، فالتفت وراءه

فاذا المرأة زوجته ، واذا الرجل أحد اصدقائه ، فصرخ صرخة رجفت لها
جوانب الخفر وملأت نوافذه وأبوابه عيوننا وآذاننا ، ثم سقط مكانه مغشياً
عليه ، فأشرت على المأمور أن يرسل المرأة الى منزل أبيها ففعل ، وأطلق
سيل صاحبها ، ثم حملنا الفتي في مركبة الى منزله
ثم ذكر السيد المنفلوطي رحمه الله آخر القصة ، وحاصلها أن الفتي مات
كداء وحسرة من هذه الفضيحة التي اختتم بها حياته

ومن عجائب هذا الملحد قوله في آخر هذا المبحث ما نصه « وقد تصاغ
هذه الحجة بالأسلوب الآتي : هل العلم خير وفضيلة أم شر ورذيلة ، فان كان
الحق هو الأول فلماذا يحرم على المرأة ، وان كان الحق هو الثاني فلماذا يباح
للرجل ، ولا جواب عن هذا ، انتهى

فيقال له بل الجواب عن هذا أسهل من الردة عليك ، وهو أن يقال : لا
نسلم أن ما تدعو اليه علم وفضيلة ، بل هو جهل ورذيلة ، والعلم الصحيح قد بينا
إيجاب تعليمها إياه . وان أبيت الا أن يكون علماً فأنت قد قررت بانه ما كل
علم محمود ، ورب علم خير منه الجهل كما تقدمت عبارتك بنصها فاذا كنت مقراً
بانه ما كل علم محمود ، وأنه رب علم خير منه الجهل ، فهذا منه ، واذا كان هو
شراً ورذيلة فتحزن لم تجز للرجل أن يتعلم ما تدعو اليه حتى يلزم ما ذكرته ، فان
هذا كله مبني على مقدمات باطلة احداها أن الرجل يجب أن يكون كالمرأة في
كل شيء وهذا باطل شرعاً وحسباً وعقلاً قال تعالى ﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ فانه
لو كان الرجل مثل الانثى لكان أنثى مثلها أو لكانت هي رجلاً فلما كانت مختصة
بالأنوثة وأنها ليست مثله في كل شيء من طبيعتها لزم أن لا تكون مثله في
جميع الأحكام من كل وجه ، فان التسوية بين المختلفين من أكبر الظلم وأعظم
الفساد في العقول ، وقد قال تعالى ﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ،

والرجال عليهن درجة)) وهذا نص في التفريق . والثانية أن هذا الذي تدعو
إليه علم ، وهذا باطل أيضا . والثالثة أن كل علم نافع ، وهذا باطل كذلك ،
فإن تعليم السحر وطرق المعاصي مضر ، وأنت معترف بأنه ليس كل علم محموداً
فهذه الدعوى ساقطة قطعاً ، بل عليك أن تقر أن هذا الذي تدعو إليه علم
بالمعنى الصحيح ثم تقر أن كل علم نافع ثم تبين هذا العلم الذي تدعو إليه
وتصرح بحقيقته ، ثم تقيم البراهين على أنه نافع وأنه داخل في العلم النافع ، ثم
بعد هذا تقيم الأدلة على إيجاب تسوية الرجل بالمرأة في كل شيء وإلا فليس
كل علم نافع للرجل تستحقه المرأة مطلقاً ، وأنت لم تفعل شيئاً من هذا بل
ادعيت إيجاب تعليمها وإيجاب مساواتها بالرجل في كل شيء ، وهذه الدعوى
لا يعسر على أدنى جاهل أن يدعيها لأنها دعوى مجردة فيكتفي في منعها بأن
يقال قد أوجبنا تعليمها النافع ولا يجب مساواتها بالرجل في كل شيء لثبوت
الفارق المعنوي والصوري ، وهذا ظاهر والله اعلم

الكلام على المبحث الخامس

عنوانه في كتابه :

(كراهة الحياة الدنيا - امتداح الجوع والفقر والمرض -
الدعاية الواسعة للزهد المخدر - هل جاء الدين لمحاربة العمران)

وقد اشتمل كلامه هذا على أربعة أمور : أحدها أن المسلمين كلهم رغبوا
في كراهة الحياة الدنيا ، والثاني أنهم امتدحوا الجوع والفقر والمرض ، والثالث
أنهم وسعوا الدعاية للزهد المخدر ، والرابع أنهم نسبوا إلى الدين أنه جاء
لمحاربة العمران

فهذه الأمور الأربعة التي خلط فيها الحق بالباطل قد رمى المسلمين بها ،
وأوهم الأجانب وأعداء الاسلام أن المسلمين يدينون بها ، وأنها من أصول
الاسلام لديهم عاملين بها بدون فرق ، وأنهم على هذه الحالة مستمرين بها
وأنها من الأسباب التي أخرتهم . وقد قلنا غير مرة ان موضوع هذه الأغلال
هو الدعاية ضد الاسلام وتشويه سمعته والتفجير منه ، وغرضه من هذا البهت
أن الدين قد فسد ، وهذا الاسلام ليس بدين يقدم أهله ، فهو يتذرع بكل
بوسيلة إلى رفضه والتحذير من الدخول فيه

ونحن نتكلم عن كل أمر من هذه الأمور التي ذكرها كلاما مجملا ، ثم نذكر
ما اعتمده في هذه الدعوى ، ونجيب عنه مفصلا كما وعدنا بذلك سابقا :
أما الأمر الأول - وهو دعواه أن المسلمين أوجبوا كراهة الحياة الدنيا -
فإما أن يريد أنهم كرهوها وعملوا بالكراهية فرفضوها ولم يسعوا في طلبها ،
وإما أن يريد أنهم كرهوها ولم يعملوا بالكراهية . فان أراد الأول فيمكن في
تكذيبه الواقع والمشاهدة ، ولا أيين من برهان الحس والمشاهدة ، فان هذا
يقضي أنهم رفضوها وجلسوا عاكفين في المساجد والمعابد وعطلوا معاشهم

وحملهم جميع ما فيها من لذة مباحة وغير مباحة ، فان هذه خال من كرامة الدنيا ومقمتها ولم يعمل بها ، ومعلوم أن هذا خلاف الواقع في كل مكان وزمان من ظهور الاسلام الى هذا الوقت ، وأدنى عاقل يعلم أن الناس اليوم متهاكون على الدنيا منهمكون في محبتها انها كاشددا ، وأكثرهم يقدمها على كل شيء من خلق ودين . ومن العجب أن هذا الملحد لما رأى الناس أشد حاجة الى التمسك بالدين حين فسدت أخلاقهم بترك أكثر آدابه وأخلاقه أخذ في التنفير منه والدعوة الى ضده ، وقد كانوا أشد حاجة الى إخراجهم من هذه الوهدة التي وأدت شرفهم وقضت على عفتهم وقلة كرامتهم ورجولتهم في محبة الدنيا . وهذا أخذ في تحذيرهم عن الخروج منها والدعاية الى ارتكاسهم في ذلتها وحسرتها ، وما مثله في هذه الدعوى إلا كمثل من ألقى الى قوم قد أصيبوا بأنواع الامراض والأسقام والأوجاع في أجسادهم وعقولهم من شدة الجشع وكثرة الخلط وتناول الأغذية الكثيرة المتنوعة عند الشهوات ومطالعات الافكار والآراء والمذاهب والمعتقدات المختلفة . فلما رآهم وفكر فيهم قال لهم ما علتكم الا من أهياء قليلة هي شدة الجوع وعدم الأكل ومتابعة الصيام والاقتصار على طعام واحد وعدم التفكير والنظر في العلوم والآداب والفلسفة فلو أنكم أكثرتم الأكل واجتهدتم في ذلك ووسعتم دائرة علومكم في الفلسفة والنظريات ولم تقتصروا على أكل واحد وعلم واحد لكان ذلك هو شفاءكم الذي ليس لكم شفاء غيره ، فهكذا كانت نظرية هذا المغرور في هذه الأضلال ، فانها مقولة منمكة

وان أراد الثاني وهو أنهم كرهوها ولم يعملوا بهذه الكراهة ، بل حضوا عليها بالنواجد وتقاتلوا عليها وتشائموا وتقاطعوا الارحام وعملوا كل ما أمكنهم من الاحتيال على اقتناصها من كل وجه وبكل وسيلة كما هو الواقع ، فقد خالفوا الكراهة وصارت هذه وجودها كعدمها ، فان القول اذا لم يكن له اثر من العمل فوجوده كعدمه ، وان أراد أن بعضهم كرهها وبعضهم لم

يكرهها بل أحبها حبا جما ، قلنا أنت لم تفصل فعممت الدعوى وذكرت ما لم تحط به علما ، ولو قدر ثبوت هذا فإنه لا أثر له في تأخر ، فإما من أمة أو شعب إلا ويوجد فيهم من هذا الاختلاف شيء كثير في طلب المعيشة وغيرها ، . . .
وجميع الناس يعلمون أن جانب الزهد وكرهه الدنيا في النصارى أظهر منه في جانب اليهود منذ العصور القديمة ، ومعلوم الفرق بين تقدم هؤلاء وتأخر هؤلاء من آلاف السنين الطويلة ، فلم يكن حب اليهود للدنيا مفيدا لهم الملك والسلطان بل أفادهم الذل والمسكنة ولم يكن التقصير في ذلك مؤثرا في تقدم النصارى عليهم . وليس الجشع والجنون على الدنيا طريقا للتقدم عند جميع العقلاء ، بل هو طريق الذل والمسكنة ، لأن طالبا لا بد أن يضطر إلى الملق والنفاق والضراعة والتذلل والمكر والخبث وأكل السحت والكذب والتعريف للكلم عن مواضعه ، وهذه هي علل التأخر كلها ، وليس من الممكن أن يتقدم فرد أو شعب أو أمة فيها هذه الخصال أو أكثرها ، بل بقدر ما معها من هذه الخصال سيكون نصيبها من الذل والمسكنة ، فإن العزة كتبها الله للمؤمنين ، وهذه الأخلاق المردولة تضاد أخلاق الإيمان من كل وجه كما هو الواقع

أما الأمر الثاني . وهو دعواه أن المسلمين امتدحوا الجوع والفقر والمرض . . .
فهذه الدعوى كسابقتها التي قبلها في البهت والفجور والمكابرة ، فليس في المسلمين ممن يعتد بقوله من مدح هذه الأمور أبدا ، ولا يمكنه أن يثبت هذه الدعوى على طائفة من المسلمين إلا أن يريد أن يدخل أسلافه من الاتحادية وأضرابهم في المسلمين ، فقد يدعى هذا المشاكس المعاكس أنه يوجد في بعض أقوال الاتحادية الصوفية شيء من ذلك ، ولكن يقال له قد قلت أنه ليس المسلم هو الذي يتبع أخطاء المخطئين وأغلاط المغالطين . وأيضا لا نسلم أن من قال شيئا من ذلك هو من يعتد بقوله ، فعليك أن تثبت أن النبي ادعى بمثل ما قلت من المسلمين وأنه يعتد بقوله وأنه لم يذكر كلاما يخالفه ، وهذا لا يمكنك أن تحمده أبدا . وأيضا فإنه يوجد في كتب الصوفية من الحث على

الدنيا والاستغناء عما في أيدي الناس أكثر مما يوجد فيها من الزهد فلا يجوز لك أن تأخذ منها ما فيه شبهة لك وتترك ما هو حجة عليك . وأيضاً فكتب الصوفية فيها كثير من الشرك وتعطيل الصفات وتحريف الكلم عن مواضعه وتقرير الاتحاد وغير ذلك ، ومعلوم أن هذا أضر على الاسلام وعلى الأمة من كلامهم في الزهد ، لأن هذا قدح في روح الدين ، وذلك كلام لا يتابعهم عليه إلا أقل القليل وهو في أمور فرعية ، فما بالك أعرضت عن ذلك كله وتمسكت بهذه الخصلة اليهودية . أما ما يوجد في كتب بعض الفقهاء من الآثار ونحوها في مدح الفقر خاصة دون الجوع والمرض فليس المراد ما يفهمه هذا الملحد وأضرابه عن أعين الله بصائرهم من أنه كراهة المال ومقته ونبذته وتبذيره وعداوته بالكلية ، فإن هذا لا يقوله ولا يريد به أحد من المسلمين ، بل المراد من ذلك هو الصبر عليه والاحتساب والطمأنينة والثقة بالله تعالى والجد والاجتهاد والثبات والتبصر والنظر فيما يزيله ، والبراهين على هذا كثيرة جداً ، منها أن هؤلاء الذين يمدحون الصبر على الفقر في كتبهم يذكرون في هذه الكتب نفسها الترغيب في الاكتساب والعفاف والجنود والكرم والصدقة وإعانة الضعيف والمملوف ، ومن المعلوم أن هذه الأمور لا توجد مع نبذ المال ورفضه وترك الدنيا وكراهيتها بحال ، ولهذا تجدهم يذكرون في هذه الكتب نفسها النهي عن إضاعة المال وتبذيره والخروج منه بالكلية ، ويوجبون الاكتساب ويجعلونه فرضاً واجباً يحرم على الإنسان تركه . ولما أراد سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن يوصي بماله كله أمره النبي ﷺ بالثلث فقط وقال « الثلث والثلث كثير » وقد أمر بالاكتساب ونهى عن إضاعة المال نهياً شديداً ، وكذلك كان الفقهاء في كتبهم وأهل العلم ، ولو كان المراد بالفقر هو الإعدام من المال بالكلية لأمروا الناس أن يحرقوا أموالهم ويذروها في القفار والبحور ويفسدوها بجميع أنواع الفساد ، ولا حاجة حينئذ إلى كتب الأحكام التي فيها من كتاب البيوع إلى كتاب الاقراء أو كتاب الميراث .

وهذا الملحد يأتي الى أشياء أوضح من الشمس فيغالط فيها ، وإلا فحرص
الناس على الدنيا أمر لا يحتاج الى أن يطالب في الاستدلال عليه ، وليس
حرصهم عليها كحرصهم على الدين ولا عشر معشاره ، ومع ذلك شنع عليهم
بالعمل بالعبادة والدعاء وغيره من أمور الدين ، وشنع عليهم بتقصيرهم في
الحرص على الدنيا ، ونحن نعلم مراده بذلك كله ، وهو أنه يريد أن يقول
شيئا فتمنعه الجرأة والخوف والنفاق من التصريح به مرة واحدة بدون مغالطة :
يريد أن يقول ان الناس لم يعبدوا الدنيا ويكفروا بالآخرة ويرفضوا الدين
رفضاً باتاً ، هذا هو مراده ، ولكنه هاب ذلك ولا معنى لهذه الهيبة فان
أصحابه وجميره الذين تفرس فيهم الغباء والبلادة لو قال هذا لوجدوا له عذراً ،
وأما غير أصحابه ممن يعرف مغزاه ومرماه فانه يعرف أن هذا هو مراده فلا
يخاف ولا يحزن ، فقد وجد جوا خالياً فليعض فيه وليصفر وليقل ما يريد .
ولو أن قائلًا قال له فإ هذا البيع والشراء والوظائف والاجارات والدكاكين
والمعاملات التي لا تعد ولا تحصى لأي شيء هذه هل هي دالة على كراهة الدنيا
أو على غير ذلك لم يكن له جواب على هذا الا المكابرة وأن يقول انهم لم
يحرصوا عليها ، ولو قيل له أثبت لنا كيفية الحرص الذي تريده بمحدوده حتى
تعرف وجهه وهل هم داخلون فيه أم خارجون عنه لم يكن له جواب غير ما
ذكرنا من عبادتها والكفر بكل ما يخالف ذلك . وهذا الملحد يأتي بالظلمات
التي لا تطاق : تارة يدعي أن المسلمين يحرمون العلم ويرونه شركاً في الرواية ،
وتارة يدعي أنهم يكرهون الدنيا ويمقتونها وهو يرى الملائكة والمحكمة
والمشائمه والمقاتلة عليها ، فإى حد يذهبون في محبتها . وكذلك العلم قد
بيننا أن أدنى جاهل لو قلت له انك تكره العلم لم يرض بذلك فكيف بأمة
عظيمة يقول انها تبلغ اربعمائة مليون ، وقد بينا ان هذه هي طريقته في أغلاله
هذه كلها ، فانه يخترع الكذب ثم يرمى به المسلمين ثم يحجب نفسه بنفسه .
وكون العلماء رضى الله عنهم أثبوا على الاكساب وأثبوا مع ذلك على

الاحتساب للفقير والصبر عليه مع بذل الجهد في ابتغاء الرزق مما يدل على محاسن هذه الشريعة الغراء وصحة نظر علمائها ، فان الانسان إذا عمل ما في وسعه في طلب الرزق فقد يوفق وربما تعترضه عوارض وموانع لا قبل له بها فلا يوفق فتصيبه مصائب تؤدي به الى الحاجة والفقير كما هو الواقع ، فان الدنيا مطبوعة على التغير والتكدر وتقلب الاحوال ، فهي بمنزلة خيراتنا بشرونها وسراؤها بضرائها ، فلا بد للانسان أن يناله شيء من مصائبها من الفقر والمرض والجوع ، فكان من رحمة الله ومحاسن شريعته المطهرة أن رغب في الصبر على هذه المصائب والاحتساب عند الله تعالى لأجرها ، وإن لم يكن المرء مأمورا بدخوله فيها ، بل اذا أصابه شيء من ذلك فعليه أن يحتسب أجره عند الله وينزل فاقته وحاجته بربه مع التماس المخرج مما هو فيه إن كان لذلك مخرج ، ويستعين الله على ذلك فيحصل له أجر الصابرين كما يحصل للأغنياء أجر الشاكرين ، فيكون ما عمله من الصبر والاحتساب ثمرا له ثمرة يستعوض بها عما فاتته من المصيبة ، فينقلب حينئذ المصاب فيه خيرا وتكون تلك المصيبة خيرا له ، كما ورد في محبة المؤمن ، كل أمره خير له ، ان أصابته سراء فكسر كان خيرا له ، وان أصابته ضراء فصر كان خيرا له ، وكل هذا من آثار رحمته تبارك وتعالى ولطفه بعباده وأنه بهم رؤوف رحيم ، ولو أن الله سبحانه جعل الفقر والمصائب ذنبا وجراما كما عدّه هذا المارق لاحترق المؤمن خروفا وأسفا وأساء الظن بربه ورأى انه مكلف ما لا يطيق ، وهكذا القبول في الجوع والمرض ، فان الذي مدح الجوع لم يمدح نفس الجوع الذي هو الألم وانما مدح الصبر عليه والاحتساب عند الله اذا وقع . ولهذا كان هؤلاء الذين يمدحون لا يذكرون فضل الجوع بل يذكرون فضل الصبر والاحتساب ونحو ذلك ، ولو حذفوا المضاف فهو جائز أيضا لانهم لم يخاطبوا الزنادقة والمنافقين وانما يخاطبون من هو مثلهم ممن يعرف كلامهم ومرامهم ، لانهم قد ذكروا تحريم الاضرار بالبدن والنفس بالجوع أو غيره ، وفي حديث سلمان « ان

لنفسك عليك حقاً ولزوجك عليك حقاً ، والأخبار في هذا كثيرة . أما ما ذكره عن المرض وادخاله مع الفقر والجوع فهو من دسائسه الخبيثة التي اعتادها في مضائق كلامه ، والا فهو يرى أن المستشفيات والأطباء وما إليهم في جميع مدن الاسلام أكثر من أن تحصر ، وهو يعلم أن الحكومات الاسلامية تنفق على ذلك الأموال الطائلة وتحرص على ذلك غاية الحرص ، وهو يعلم أيضاً أن الكتب مشحونة بالأمم بالتداوى ووجوب اجتناب ما يضر حتى حصلوا من أصول الأشياء المحرمة كون هذا الشيء يضر بالبدن ، فإذا ثبت أنه مضر فيكون محرماً بهذا الاعتبار ، وهذا غاية النهي عن اجتناب وسائل الأمراض ، ولم نعلم أحداً من المسلمين مدح المرض بالمعنى الذي يريده ، وإنما مدحوا الصبر والاحتساب على وقوعه قهراً مع فعل ما يخففه أو يزيله كما أنهم أمروا بالصبر والاحتساب عند موت الأبناء والآباء ، ولم يكن ذلك ترغيباً في قتلهم ، وكما أمروا بالصبر على فقد البصر أو غيره من المصائب البدنية ولم يكن ذلك ترغيباً في العمى ولا أمراً بالعمى ، وأمثال ذلك كثير فكل المصائب التي يصاب بها الانسان بدون اختياره يرغبون في الصبر عليها والاحتساب لأجرها مع كونهم لا يأمرؤن بفعل الوسائل التي تقرب منها كما قال تعالى ﴿ ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ، وأحسنوا ان الله يحب المحسنين ﴾ وقد أوجب كثير من العلماء التداوى واستحبه بعضهم ولم يحرمه أحد من أهل العلم ، فكيف يقال انهم امتدحوا المرض ، ولكن مقصوده هو ما ذكرناه في الأمر الذي قبله وهو كون هذا الدين يأمر بالمرض فهو فاسد ، هذا مقصود هذا المغرور المسكين المحتمل العنيد

فصل

قال « كراهة الحياة الدنيا - امتداح الجوع والفقر والمرض - الدعاية
للواسعة الزهد المخدر - هل جاء الدين لمحاربة العمران

اللهم من آمن بي وصدقني وعلم أن ما جئت به هو الحق من عندك فأقل حاله وولده وحبب إليه لقاءك وعجل إليه القضاء ، ومن لم يؤمن بي ولم يصدقني ولم يعلم أن ما جئت به هو الحق من عندك فأكثر ماله وولده وأطل عمره (زعموه حديثا نبويا صحيحا) (١)

نزل على جبريل بأحسن ما كان يأتيني في صورة فقال ان السلام يقرؤك السلام يا محمد ويقول إني أوحيت الى الدنيا أن تمردي وتنكدي وتضيق وتشددي على أوليائي حتى يحبوا لقائي ، وتوسعي وتسهلي وتطبي لأعدائي حتى يكرهوا لقائي ، فاني جعلتها سجنا لأوليائي وجنة لأعدائي (زعموه حديثا نبويا) جاء رجل فقال يا رسول الله إني لأحبك (ثلاث مرات) فقال ان كنت تحبني فأعد للفقير تحفًا فان الفقر أسرع الى من يحبني من السيل الى منتهاه . وعن أنس قال : جاء رجل النبي فقال : اني أحبك . فقال : استعد للفاقة . وفي حديث آخر اصبر يا أبا سعيد فان الفقر الى من يحبني منكم أسرع من السيل من اعلى الوادي ومن أعلى الجبل الى أسفله (زعموها أحاديث نبوية)

والجواب أن يقال : قد صدر هذا المبحث بهذه الروايات مستدلا بها على تصحيح دعواه بان المسلمين كرهوا الحياة الدنيا وامتدحوا الفقر والجوع والمرض ، وبهذا وبغيره من جميع نصوص أغلاله بل وبروحه أيضا تعرف أنه شديد الولع باتباع كل ما فيه شبهة الى القدح في الدين ، وأنه يتوسل بكل ما في وسعه وبكل ما في قدرته من وسيلة - مهما كانت حالتها من الضعف والناكارة - الى التنفير عن الاسلام وسبه وشتمه وإضافة كل قدح وذم اليه

وهذه الروايات التي استشهد بها لا تفيد شيئا البتة ، فانه إما أن يريد بالاستشهاد بها أن المسلمين رووها وصححوها وعملوا بها ، واما أن يريد أنهم رووها ولم يصححوها ولم يعملوا بها . فان أراد الأول فقد كذب وادعى

(١) هذا تهكم بالمسلمين ، فمن هو الذي زعمه صحيحا

ذورا وفجورا ظاهرا ، وهو لم يستدل على صحة هذه الدعوى إلا بمجرد سياق الروايات على وجه التهمك والاستهزاء ، فتكون دعوى مجردة فتقابل بالمنع والرد ، فعليه أن يقرر أن المسلمين رويوها في كتبهم المعتمدة وصححوها ثم عملوا بها . فلا بد من هذه المقدمات الثلاث حتى تصح دعواه هذه التي قدح في المسلمين بها . والمقدمات الثلاث كلها باطلة فلا يمكنه ان يثبتها وهو لم يذكر الا روايتها على وجه الاستهزاء والسخرية ، وهذا لا يكفي ، فليس كل ما يروى من حديث في كتاب من الكتب يكون صحيحا ، وهو معترف بهذا في ضراعه الذي صرح فيه ، بل ولا يكون معمولا به أيضا ، بل قد توجد أحاديث صحيحة لم يعمل بها ، بل هو نفسه قد كذب بأحاديث صحيحة في أغلاله هذه ، فليجعل هذه الروايات على الأقل مثلها

والحديث الاول الذي ذكر أنهم زعموا أنه صحيح كذب وفجور ، بل أن أكثر اهل العلم على أنه ضعيف لا تقوم به حجة ، فلم يروه إلا ابن ماجه بسند ضعيف ، وكذلك سائر الروايات من جنسه . وهذا الملحد يعلم أنه توجد روايات كثيرة فيها الحث على الشرك والقدح في الصحابة وغير ذلك فلم عندل عنها وجاء بهذه الروايات وتلك أعظم ضررا وأشد خطرا ، وإذا كان يراها صحيحة وأنهم عملوا بها فليس ارادها ورده عليها - بهذا الوجه المنكر من السخرية والاستهزاء مردا على المسلمين ، بل هو رد على من قالها وهو الرسول ﷺ ، فلا حاجة الى الرد على المسلمين لانهم مأمورون بالامثال والسمع والطلعة . وان اراد الثاني وهو أنهم عملوا بها وهي غير صحيحة فهذا أيضا بهتان ظاهر ومكابرة للحس والضرورة على ما شرحناه من قبل ، فان المسلمين قد حثوا على طلب الرزق كما قال تعالى ﴿ فابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ ﴾ وأدنى رجل عامي يرى الناس كلهم ساعين جادين في طلب أرزاقهم ، وكلهم يحبون الله ورسوله ، وهؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم قد كان فيهم أغنياء وهم يحبون الرسول محبة تفوق محبة النفس والولد والمال . وان اراد الثالث

وهو أنهم رووها ولم يعملوا بها فلا وجه لايادها واستشهادها بها ، لأن الروايات التي لم يعمل بها وجودها كعدمها . فثبت أن استشهاد هذه الروايات على القدح في المسلمين محاولة منكرة خبيثة لا حجة له فيها على كل تقدير وهذا الملمح يعلم أن الله سبحانه أمر بطلب الرزق وأباح لعباده من الطيبات ما لا يدخل تحت حصر ، وكل ذلك أعرض عنه المقصد الذي ذكرناه . قال الله تعالى وتقدس ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيمة ﴾ الآية . وهذه الآية أصل عظيم في هذه المسئلة ، فقد بين سبحانه وتعالى أنه أخرج الطيبات من الرزق لعباده المؤمنين وبين أن ذلك لهم في الدنيا ، فيكون غيرهم انمسا دخل تبعا ، ولهذا اذا خلت الأرض من المؤمنين قامت القيمة كما في الحديث ، لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله ، لأن موجبات الرحمة وآثارها قد انعدمت فلا يكون هناك رحمة البتة ، ومتى زال أثر الرحمة حل البلاء والدمار الفظيع . وقد بين الله سبحانه في هذه الآية أنها - أي الطيبات والزينة - خالصة للمؤمنين يوم القيمة لأنها أثر من آثار الرحمة فتتبع مواضعها المتحدة ، لأنهم حينئذ يكونون خالصين من مخالطة الكفار في الدار كما أن أولئك اختصوا بما يليق بهم من الظللة والظرد والابعاد ، لأنهم عبدوا الطبيعة المظلمة المائعة فكانوا في الظلمات والغرور ، لأن جميع الشرور سلبية من مقتضيات الطبيعة كما قال عليه الصلاة والسلام والشر ليس إليك ، فكل اختصاص بما يناسبه فالذين اتبعوا النور والرحمة وآمنوا بالنور والرحمة كانوا في نور ورحمة ، وأولئك الذي استكبروا وكانت أعينهم في غطاء عن النور والرحمة وانحرفوا الى ظلمة الطبيعة فعمدوها واعتمدوها كانوا في ظلماتها وشرورها . وهذا عين العدل والقيام بالقسط . فالآية تقتضي أن المؤمنين هم أهل هذه الحياة الدنيا بما فيها من زينة وجمال وطيبات ، وانما دخل غير المؤمنين تبعا كما أن كثيرا من الحيوانات يحصل لها أكثر مما يحصل للانسان من الراحة ورغد

العيش الذى لا يعدو أن يكون شهوات نفسانية فقط

وينبغي أن يعلم أن الله سبحانه لم يذم الحياة الدنيا مطلقاً ولم يمدحها مطلقاً ، بل ذم من قدمها على الآخرة واستحبها عليها كما هو رأى هذا الضال ، ومدح من أخذ نصيبه منها ولم ينس نصيبه من الآخرة : قال الله تعالى ﴿ ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ وقال تعالى ﴿ ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ، اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين ، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الارض ان الله لا يحب المفسدين . قال انما أوتيته على علم عندى ﴾ يعنى هما فى من الاستعداد والمواهب التى مكنتنى من معرفة طرق المكاسب والتجارة بل بقدرتى الذاتية فلن ينالنى شيء . فانه جواب على كلام أولئك النصحاء . قال الله رداً عليه ﴿ أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ﴾ أى فلا القوة ولا الجمع يغنى عن صاحبه شيئاً فلا ينفعه غير طاعة الله تعالى فانها العروة الوثقى كما قال تعالى ﴿ ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الامور ﴾ فلا ينفع شيء من القوة مهما كانت دون الله سبحانه وتعالى . وقال تعالى ﴿ من كفر بالله من بعد ايمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان . ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم . ذلك بانهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة والله لا يهدي القوم الظالمين . أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون . لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ﴾ وما أخلق هذا الملحد بالدخول فى هذه الآيات ، فانه ارتد مستحباً الحياة الدنيا على الآخرة . نسأل الله السلامة بمنه وكرمه

فصل

ثم قال : كانت العرب في جاهليتهم ولا سيما قريش تنظر الى الحياة الدنيا بعين المشوق المتيم ، وكانوا يحبون المال حبا جما ، ويأكلون التراث أكلًا لما ، كما أخبر القرآن عنهم . وكانوا يحبون الطيبات ويستمتعون بكل ما استطاعوا الاستمتاع به منها . وكانوا يفاخرون ويكاثرون بذلك . وكانوا يمتنون بالفقر والفاقة وكل ألوان الشقاء والعوز ويرونها من النقائص والعيوب والعجز كالبخل والجبن وفقدان المروءة . ومن أمثالهم السائرة في هذا « القبر ولا الفقر » وكانوا من أجل هذه الروح المالية الدنيوية الاستمتاعية تجارا كلهم ولا سيما أشrafهم وساداتهم ، وكانوا يعظمون من شأن التجارة كل التعظيم ، ويرون المهارة فيها والخذق والقدرة برهان الرجولة ودليل الشرف والسيادة . وفي دلائل النبوة : كانت قريش قوما تجارا ، ومن لم يكن تاجرا لديهم فليس بشيء ، حتى لقد قيل : ان كلمة قريش معناها التاجر ،

والجواب أن يقال : اضطرت الحال هذا المخذول الى أن احتج على مقصوده في مدح الحياة الدنيا بأفعال كفار العرب وقريش في جاهليتهم ، وهذا برهان على أنه جاهلي المذهب والنظر والتفكير ، وقد نسي المسكين قوله فيما سبق ان الانسانية كانت في وقت نزول القرآن لا تبعد جدا عن طور الحيوان ، وانهم ما كانوا يعرفون الحقائق انما كانوا يعرفون الظواهر ويحكمون على الامام الظاهري فلا غرابة في كثرة تقلباته وتناقضه واضطرابه فانه منافق مرتاب . ولو أن هذا المارق أضاف الى هذه الدعاوى التي ذكرها ما كانت عليه العرب وقريش في جاهليتها من الخصال الأخرى المذمومة لكان من جنس احتجاجه هذا سواء ، فلو قال وكانت أيضا تاكل الميتة وتقتل البنات وكانت شديدة المحبة لعبادة الاصنام والحمامة عنها ، وكان الفوضى والهمجية والتقليد الأعمى كل ذلك قد ساد وانتشر في زمانها وذكر نحو هذه الخصال مما هو كثير

لكان قد أدى الحقيقة . أما اقتصاره على كونهم يحبون التجارة فهو خلال ظاهر واحتجاج ساقط ، فإن أفعالهم ليست من الحجة في شيء وأفعالهم الأخرى كعبادة الأوثان وأكل الميتة ووأد النبتات أبرز وأظهر من أفعالهم في التجارة ، فإن التجارة ليست من خصائصهم ، أو لو أنه عدل عن الاحتجاج بأفعال العرب في التجارة في جاهليتهم إلى أفعال اليهود في التجارة فإنهم في هذه الخصلة أمهر وأحذق وأقدر ، ولا ندرى كيف صرف هذا المخذول عن الاحتجاج بالآيات البينات ونصوص السنة التي لا تحصى في فضل الغنى والتكسب وإباحة الطيبات كما أشرنا إلى ذلك وذهب يحتج بأفعال الجاهلية ، ولكن هذا هو اللاتق بالقلب المقلوب ، فلا بد أن يكون تفكيره ونظريته مقلوبة ، ولو لم يعلم المسلمون أن اكتساب المال والغنى مما أمرت به الشريعة المظهرة لكان فعل الجاهلية هذا دليلا على كراهته أو تحريمه ، فأننا مأمورون بمخالفة أخلاق الجاهلية فيما اختصوا به ، ولكن المسلمين والله الحمد أغنياء في هذه المسئلة وغيرها عن أن يحتجوا بأفعال الجاهلية فيها ، ومن لم يكن له دليل إلا أفعال الجاهلية فقد خاب وخسر

ويقال له أيضا إذا كانت العرب ولا سيما قريش كما زعمت تجاراً وفيهم حرص شديد على جمع التجارة ، فأى شيء نفعمهم ذلك ، وهل كان ذلك سببا لتقدمهم على غيرهم ، فقد مكثوا سنين متطاولة على هذه التجارة وما نالوا ملكا وسلطانا بها ، غاية ما في ذلك أنهم بقوا على مكانتهم وحرمتهم لا بسبب التجارة بل بسبب البيت الحرام . وقد علم أن الصحابة الذين قاتلهم يوم بدر وغيره كانوا أقل منهم مالا ومع ذلك تقدموا عليهم وقهرهم ، وقد كانت الأمم المجاورة لهم أوسع تجارة وأعرف بكثير من هذه الأمور التجارية والاقتصادية والصناعية فكيف تقتصر على تجارة قريش في هذا الاحتجاج الساقط . ولقد كان من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن هذا التقدم الذي ناله العرب وقريش إنما كان بسبب الدين العظيم والقيام به ، وأن التجارة لا تدخل لها في

ذلك البتة ، فإن الامم التي حاربهم أعظم ملهم تجارة وأكثر عدة وعددا ، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يغزون بعض الغزوات مع النبي ﷺ في حلة معروفة من الفقر والهموز فقد غزوا غزوة تبوك وكان أحدهم لا يناله في هذه الغزوة في اليوم إلا تمر واحدة ، وقد ثبت في الصحيح أنه ﷺ كان يأخذ الشهر والشهرين لا يوقد في بيته نار ، ومن تتبع ما عليه الصحابة من أول وقت النبوة علم يقينا ما هم عليه من عدم التجارة وضيق العيش ، وأنهم إنما نالوا ما نالوه من العز والتمكين والتقدم على غيرهم بإيمانهم القوي وعزيمتهم الصادقة وتزودهم بزيادة التقوى ، ليس ذلك بسبب التجارة ، فإن الكفار الذين قاتلوهم وأخذوا مما لديهم كانوا أوسع تجارة وأحسن أثاثا وزياشا . ولو أن قائلا عارض هذا المخدول واحتج على فضل الفقر بما جرى للصحابة من التقدم والتمكين مع ما هم عليه لم يكن احتجاجة بأضعف من احتجاج هذا الزائع . ونحن نقول إن الواجب بذل الجهد في تحصيل الأسباب الدنيوية والدنيوية واستعمال جميع الوسائل التي بها عز الاسلام والمسلمين ، وأن يؤخذ لكل زمان وحال ما تحتاجه الأمة في قوام دينها ودنياها . ثم انه أخذ يوسع الكلام كماداته في كون قريش والعرب حريصين على جمع التجارة وجمع الأموال والاستمتاع بها ، وقد عرفناك سقوط هذه الحجة ، وأنه لا يحتج بها إلا أعمى البصيرة ، وقد عرفت أن ذلك لم يقدمهم على غيرهم ، وإنما قدمهم الإيمان والاعمال الصالحة ، وعرفت أيضا أن هذا إلى القدح في التجارة أقرب من المدح لها ، وإنما لم نمدح الاكتساب ولا الاستغناء بأعمال الجاهلية ، بل بالدلائل السمعية والعقلية

فصل

ثم شرع يستدل على حب الجمال والتوسع في الاستمتاع به فقال :
« وقد كان حب الجمال دائما هو مبدأ حب الحياة ، ومن الممكن أن يقال

على نحو آخر إن حب الحياة بداية حب الجمال فأنت صادق إن قلت أحب الجمال فأحب الحياة أو قلت أحب الحياة فأحب الجمال ، وقد بلغ العرب في أيام الجاهلية (١) في حب الجمال مبلغاً جعلهم يكادون يصيرونه أى الجمال ويصيرون التغنى به موضوع شعرهم وأدبهم وخیالهم المشبوب ومنطقهم الدفاق ، ثم أطال في توسيع هذا المعنى بان العرب كانوا يحبون الجمال ، وأسهب في الاستدلال عليه ، ولا حاجة الى ذلك فان المسلمين لم ينكروا حب الجمال بل حثوا عليه ورغبوا فيه وأوجبوا حبه ، ولكن الشأن في معرفة هذا الجمال ، فانه جعل الاحلاد وانواع الاخلاق الخبيثة القبيحة هى الجمال ، وجعل الجمال البديع الحقيقى الذى أعلاه عبادة الله ودعاؤه وذكره واتباع شريعته المطهرة وما تتضمنه من العدل والتركية والتربية العالية كل ذلك عنده ليس من الجمال ، بل جعله خبيثاً وقبيحاً قبحه الله ، فانه جعل الدعاء مصرفاً خبيثاً وجعل المنابر والمساجد أدت شرّاً ما يؤدى حيث قال « فأقبح بها من منابر أشاعت الموت والظلام » الى آخره فجعل التسبيح والتقديس ومصدر كل جمال شراً وقبحاً . وهذه هى عادته فى عكس الحقائق ، ولهذا فانه استدل بأفعال الجاهلية وأعرض عن الكتاب والسنة وكلام أئمة المسلمين فى حب الجمال والزينة وبيانها ، والمسلمون والله الحمد على صراط مستقيم فى حب الجمال وغيره ، فهم يحبون الجمال الذى هو الجمال حقيقة كما يحبون الطيبات التى هى الطيبات حقيقة ، فيحبون ما أعطاهم الله من فضله وأباحه لهم من النساء والبنين والأنعام والحرث والأثاث وجميع المتاع ونحو ذلك الحب المشروع المعقول ويغضون ما يناقض ذلك عما يدعى كل زنديق أنه جمال ، وهو فى الحقيقة ليس بجمال بل هو القبح بعينه كأنواع المحرمات من الفواحش وذرائعها كالرقص وسائر الملاهى والخمر وأنواع المسكرات وأمثال ذلك ، فمن ادعى أن المسلمين يكرهون الجمال

(١) نسى المسكين دعواه أنهم لا يبعدون كثيراً عن الطور الحيوانى

مطلقا فقد كابر وباهت ، ويكفى في تكذيبه هذه الأمور المشاهدة في أخلاقهم ولباسهم ومساكنهم وفرشهم وجميع أمتعتهم وغيرها ، ومن ادعى أن كل ما يراه بعقله جمالا فهو جمال من فواحش وغيرها فقد ضل وتناقض ، ولا يمكنه بحال أن تقبل دعواه ، لأن آراء الناس وأذواقهم تختلف وليس كل جمال عند انسان يكون جمالا عند سائر الناس ، بل الجمال الحقيقي هو ما يلائم النفس بما أباحه الله ورسوله من الزينة والطيبات ، والقبح ما يخالف ذلك . قال تعالى ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيمة ﴾ فتضمنت هذه الآية الكريمة أن الجمال كله والطيبات كلها للذين آمنوا في الحياة الدنيا وأنها خالصة لهم يوم القيمة ، وتضمنت أن الملاحدة والمنسلخين من الدين ليس لهم نصيب من الزينة والطيبات مطلقا في الآخرة ، أما في الدنيا فإن ما معهم منه فهو كعارية مستردة أخذوها بسبب المجاورة للمؤمنين لا بالأصالة . ولا شك أنه سيكون حظهم منها على هذا تافها ظاهريا فقط ، فهذا الرجل أبعد الناس عن الجمال والطيبات لأنه ملحد منسلخ لا نصيب له في الإيمان فلا نصيب له في الجمال ، فإن كان قد نال منه شيئا فإن ذلك بسبب ادعائه ومجاورته المؤمنين كالحيوانات التي تدخل تبعا لغيرها فقد يحصل لها شيء من اللذة في الأكل والشرب وغير ذلك ، فالجمال الحقيقي هو أبعد الخلق منه فلا يسوغ له في العقل والدين أن يدعى حب الجمال كما لا يجوز له أن يتشبع بما لم يعطه فالمتشبع بما لم يعطه كلابس ثوبي زور ، ولا يحل لنا أن نقره ونقبل دعواه هذه لمصادمتها للحقائق ، فلا ينبغي السكوت عن هذا الادعاء المنكر فإنه قد ثبت ثبوتا كالشمس ما هو عليه في آرائه وافكاره الباطنة والظاهرة

فصل

ومن عجيب أمره أنه ترك جميع ما ورد في فضل الجمال وحب الزينة المباحة

واستدل على ما ادعاه من فضل المال وفضل الكسب بقول خديجة رضى الله عنها للنبي ﷺ « انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق » وذكر أن رجلاً مشركاً قال لابي بكر مثل ذلك (١) قال « والشاهد في الروايتين قوله تكسب المعدوم أى تكسب النية المعدوم الذى لا يستطيع أحد سواك أن يكسبه لبعده مثاله ، ولأن كسبه يحتاج لوسائل قوية وأعمال بارعة حاذقة وأساليب هى القوة والمهارة ونفس متوثبة طموح ، وهذا يساوى أن يقال : كلا والله لا يخزيك الله أبداً ، انك لرجل تاجر ماهر ، وأن يقال ان مثلك لا يخرج ولا يخرجك الناس (٢) لانك لرجل تفوق الرجال جميعاً فى القدرة على كسب المال وعلى النجاح فى التجارات ، وهذا آية فى أن قريشاً كانت ترى القدرة على كسب المال وعلى الثراء الممتاز من فضائل الرجال النادرة المعدودة ،

والجواب أن يقال قد تقدم الكلام عن مثل هذا ، وأن المسلمين يرون كسب المال وانفاقه فى موضوعاته المشروعة من أفضل الأعمال . ثم كلامه هنا على هذا الحديث غير مستقيم ، فإن دعواه فى قولها تكسب المعدوم أنك تاجر ماهر تفوق الرجال فى القدرة على التجارة دعوى باطلة ، فلم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام بهذه المنزلة حين قالت له خديجة ذلك ، وقد صانه الله عن أن يكون همه وبذل جهده هو جمع التجارة والمهارة والتفوق فيها ، وكذلك أبو بكر فإنه لم يكن معروفاً بهذه الخصلة ، وسيرته مشهورة . ثم كلامه يتضمن أن كل من هو متفوق فى التجارة والقدرة عليها لا يخزيه الله أبداً ، وقد قرر هذا

(١) لم يقتصر على قول خديجة حتى أضاف اليه قول هذا المشرك ليكون أقوى له عنده

(٢) ليس فى الحديث نفي للخروج ، وإنما فيه نفي الخزي ، ولكنه يتخبط تحتظ الأعمى

المخذول في أغلاله هذه أن اليهود أمم الناس في معرفة التجارة وأقدرهم على
تحصيلها فعلى هذا لا يخزيهم الله أبداً ، ومعلوم أن الله قد أخزاهم خزيا عظيماً ،
فهذا الذى ادعاه كما أنه باطل فهو لم يقع وليست المهارة في التجارة مدحوة
مطلقاً ولا مذمومة مطلقاً ، بل إن كان المطلوب من التجارة العفة والتقوى على
طاعة الله وصرفها في وجوهها المشروعة فهي مدحوة ، وإن كان المراد بذلك
عكس هذا كالمفاخرة والرياء والسمة وانفاقها في الحرامات فهي مذمومة ،
وليس المراد بالكسب المعلوم في الحديث المهارة في التجارة والتفوق في طلبها
- كما زعم - فالحديث لم يدل على هذا ولا أشار إليه ، إنما فيه الثناء على كسب
المعذوم ثم انفاقه في وجوهه المشروعة ، والكسب يوجد بدون مهارة بالمهارة
كسب خاص ، ولو كانت خديجة تريد ذلك لوصفت هذا الكسب بالمهارة أو
التفوق ونحو ذلك ، ثم إن خديجة لم تقتصر على نعمته بكونه يكسب المعذوم
فقط بل ذكرت هذه الأوصاف كلها فيها اجتماعها توجد نتيجتها ، أما مجرد كسب
المعذوم فقط فليس في الحديث ما يدل عليه ، ولا فضيلة فيه إلا بقرينة
مشروعة ، وإلا فكيف من كاسب معاقب ومأزور ، فالسارق واللص ونحوهما
يكسبون المعذوم وهم مذمومون . وهذا الرجل اقتصر على ما ظنه موافقاً لهواه
وترك الخصال الأخرى التي تضاد رأيه ودعايته ، فإى حجة له في هذا على ما
يقصد ، بل هو حجة عليه ، لأن دعايته ترى إلى الجشع الشديد والحرص على
كسبه من كل وجه ثم البخل به مطلقاً كما هي بحسبه المعروفة فيه ، وهذا يناق
مقتضى الحديث ، لأن فيه الإعانة على نوائب الحق وصله الرحم وهذا هو الذى
دعى إليه المسلمون من الخث على كسبه وانفاقه في وجوهه النافعة ، وهذا هو
العدل . ثم الحديث أيضاً حجة عليه من ناحية أخرى لأن فيه الترغيب على
صلة الرحم ولا يعرف أحد أشد من هذا الرجل بعداً عن صلة الرحم ، وقد
قدمنا أن له والده موجودة الآن قد غاب عنها ما ينيف عن ثلاثين سنة ولم
يعرفها بشيء من الصلة لا رسالة ولا نفقة ولا غيرها وأما أبوه فقد مات في

صغره ، ولهذا أخزى الله هذا الرجل خزيا ليس وراءه خزى وجعله بالحالة التي ظهر بها في أغلاله

فصل

ثم أطل في مدح اكتساب المال وحب الجمال وأن قريشا كانت حريصة على الكسب وتنمية التجارة ، وتقدم الجواب عن هذا ، ثم ذكر أن العرب كانوا في استعداد تام بسبب التجارة عند ظهور النبوة ، وأن الاماكن المجاورة للجزيرة قد أثقلتها الاديان المحرفة وانهم في حالة سوء ولذلك وصلوا الى ما وصلوا اليه ، وكل هذا كذب وفجور ، وهو يرمى الى قصد خبيث وهو أن العرب انما تقدموا على غيرهم لاستعدادهم في التجارة وفساد ديانة مجاورهم ، لم يتقدموا بسبب الدين الذي جاء به محمد ﷺ ، ولا أشد جرأة وخيما وإلحادا وعنادا من هذه الدعوى نعوذ بالله من الخذلان . وقد سبق الكلام على مثل هذا أول الكتاب وفي مواضع آخر . ثم أخذ في التشنيع على المؤلفين الأولين وادعى أنهم لم يؤلفوا كتبنا نفاعه وأنهم أكثروا من تأليف الكتب المشتملة على امتداح الآلام والعذاب والأمراض والأسقام والجهل والغباء والجنون والخلل ، وقد تقدم الجواب عن هذا كله وبيننا أنه تشنيع بحت يقصد به اشانة الملة الاسلامية الغراء وتكريه بعض العلماء في قلوب الرؤساء وقلوب الجاهلين بأحوالهم ، وقد أكثر من هذه الدعاية الخبيثة في نبذته العجفاء التي سماها (كيف ذل المسلمون) وفيها من الجنون والتخليط والخط والتشكيك في الدين ما يطول وصفه ، ولا تصلح تلك النبذة مقدمة للصراع بل هي مقدمة للصراع الذي صرع فيه في هذه الاغلال وان هذا هو اللاتق بها ، وقد بينا أنه ان كان يريد ان جميع المسلمين صنفوا في هذه الآراء التي ادعاها فقد كذب ، فان الكتب المصنفة في الآداب والتوحيد والطب والنظافة وفضل الاكتساب أكثر من أن تحصر . وان كان يريد أن في المنتسبين الى المسلمين من صنف في

ذلك فيقال وفيهم أيضا من صنف في الألحاد وفي الشرك وعبادة الأصنام وعبادة القبور والصالحين وتعطيل صفات رب العالمين وفي السحر والمجون وأنواع الملاحى ، فإياك أعرضت عن هذا كله وهو أشد ضررا فلم تذكر شيئا من هذه الكتب ولم تشنع على أهلها بل ضربت صفحا عنها ، فإسبب هذا الاعراض والسكوت ، وقد كان الواجب عليك في مثل هذه الأمور أن تبين من دعا الى هذه الأمور التي أنكرتها ثم تبين حجته ثم تبين مخالفته ثم تذكر ما يعتمد عليه ، أما مجرد مجازفتك ورميك المسلمين بهذه المقادح بمجرد الدعوى فهذا مما يدل على سوء سريرتك وخبث طويبتك ، وهذا هو الواقع الذى لا ريب فيه ، وما أحسن ما قال الامام أبو الوفاء بن عقيل فى هؤلاء الذين جعلوا أقصى ما لديهم هو التحسر على الدنيا والغفلة عن الدين وعدم المبالاة بتضييعه حيث قال ^(١) « من عجيب ما نقدت أحوال الناس كثرة ما ناحوا على خراب الديار وموت الأقارب والأسلاف والتحسر على الأرزاق بدم الزمان وأهله وذكر نكد العيش فيه ، وقد رأوا من انهدام الإسلام وتشعث الأديان وموت السنن وظهور البدع وارتكاب المعاصى وتقضى العمر فى الفارغ الذى لا يجدى ، فلا أحد منهم ناح على دينه ولا بكى على فارط عمره ولا تأسى على فائت دهره ، ولا لذلك سبب إلا قلة مبالاتهم بالأديان ، وعظم الدنيا فى عيونهم ضد ما كان عليه السلف الصالح يرضون بالبلاغ وينوحون على الدين » انتهى

ثم قال « وإنى أستطيع أن أقول هنا ، ولست أشك فى صدق ما أريد أن أقول ، اننا لو حشدنا جميع المؤلفات التى تركها هؤلاء (يعنى المؤلفين) ثم جهدنا أن نخرج منها كتابا واحدا أو رسالة واحدة لا تمدح الفقر والشقاء ولا تدم الحياة والجمال لأعوزنا هذا الكتاب ، ولما وجدنا تلك الرسالة . وقد

اطالوا الكلام جدا ولولوا الحجاج والأساليب في الثناء على هذه الآفة ومشتقاتها
- أعنى الفقر - وقد ذكروا أن أعمال الخير كلها تنطوى تحت هذه اللفظة وأنه
- أى الفقر - كل شيء ،

والجواب أن يقال أولا قولك « ولا أشك في صدق ما أريد أن أقول »
يقال ونحن لا نشك في كذب ما قلته ، وإذا كنت لا تشك في صدق نفسك
فهل تريد أن تدعو الناس إلى أن يأتوا بك في ذلك ، أم تريد أن تجعل الناس
كالأنعام ، إذا مشيت فكلهم في أثرك ، وإن وقفت فإلى الناس من يجرى ، كما
تقول . فما هذه الفضول والعنوانات الفارغة ، وسواء كنت صادقا فيما ادعيت
من أنك لا تشك في صدق نفسك أو كاذبا فليس بواجب على أحد من
الناس أن يقبل قولك بمجرد دعواك أنك لا تشك في صدق ما تقول ، كيف
وقد حكى الله سبحانه وتعالى عن بعض خلقه أنهم عملوا أعمالا معتقدين أنهم
على هدى فيها وكانوا على أبعد الضلال ، فقال تعالى ﴿ قل هل أنبئكم
بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون
صنعاً ﴾ ، وقال تعالى ﴿ فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة أنهم اتخذوا
الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ ، وقال تعالى ﴿ أفرأيت
من زين له سوء عمله فرآه حسنا ، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ،
فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن
نقيض له شيطانا فهو له قرين ، وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم
مهتدون ﴾ إلى أمثال ذلك من النصوص الكثيرة الصريحة الدالة على أنه ليس
الكفر والضلال محصورا في معرفة الحق وتركه عنادا ، بل من أعرض عن
طلب الحق ورضى بما هو عليه من رأى أو قدم آراء أسلافه أو غيرهم واتبع
هواه أو أنكر ما عرف بالضرورة من دين الإسلام في أصول الدين فهو
كافر سواء كان ذلك جهلا أو عنادا ، فمن بلغته الحجة بلاغا يمكنه فهمه
بحيث يفهمها جنسه فأعرض عنها ولم يلتفت إليها ، أو فهمها وأعرض عنها فلا

شك في كفره ، ومن رد ما علم بالضرورة من دين الاسلام فهو كافر ، وإلا
لساغ لكل كافر أن يدعى في كل حجة أنها لم تظهر له ، وأصول الدين واضحة
كالشمس ، قال شيخ الاسلام ابن تيمية ^(١) « كل من لم يقر بما جاء به الرسول
فهو كافر ، سواء اعتقد كذبه ، أو استكبر عن الإيمان به ، أو عرض عنه
اتباعا لما يهواه ، أو ارتاب فيما جاء به . فكل مكذب بما جاء به فهو كافر ،
وقد يكون كافرا من لا يكذبه إذا لم يؤمن به ، ولهذا أخرج في غير موضع
من كتابه بالضلال والعذاب لمن ترك اتباع ما أنزله ، وإن كان له نظر جدل
 واجتهاد في عقليات وأمور غير ذلك وجعل ذلك من نعوت الكفار
والمنافقين ، انتهى . وذلك لأن المقصود من الرسالة أمران أحدهما التصديق
الخالص ، والثاني المتابعة والانقياد ، وهو أمر مجمع عليه عند المسلمين كلهم ،
فإن من صدق الرسول ولم يتابعه ويدعن لما جاء به فهو كافر ، فإن فرعون
مصدق برسالة موسى ولكنه أبى أن يتابعه استكبارا كما قال تعالى حاكيا عن
موسى أنه قال ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض
بصائر ، وإنى لأظنك يا فرعون مشبورا ﴾ ومحال أن يقسم موسى على شيء
لم يثبت وقال تعالى ﴿ ووجدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾ وكذلك
كان أكثر كفار قريش أو كلهم علوا صدق الرسول ﷺ فتركوا متابعته
اتباعا لأهوائهم كما قال تعالى ﴿ قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا
يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ فهو لا كلهم مصدقون بالرسالة
ولكنهم كفار لأنهم لم ينقادوا لما جاء به ، فإذا لم تحصل المتابعة لم يحصل
الإيمان ، سواء كان ذلك عنادا أو اعراضا عن طلب الهدى ، وأصول الدين
كلها واضحة كالشمس ، كما قال عليه الصلاة والسلام « تركتكم على المحجة
البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك » وكل ذي عقل يعلم

أن من قصد اتباع الحق واجتهد في ذلك غاية الاجتهاد والحرص فلا بد أن يتبين له الحق بيانا واضحا جليا ، كما قال تعالى ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ وقال تعالى ﴿ الله يحتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب ﴾ فمن أناب الى الله هدام اليه والى ذكره بلا شك ، فالذى يريد الهداية فليسلك طريق الانابة ، والانابة هي الرجوع الى الله وقصده وطلب توفيقه ، وطريق الضلال عدم الانابة عن استكبار وتمرد واتباع للهوى والاسلاف ونحو ذلك . وقد وجد المنافقون والزنادقة - كهذا الملحد - طريقة الخداع والمكر ظلا باردا يلجئون اليه ويستريحون فيه متى عوتبوا على ما يصدر منهم من الأمور الكفرية فان هذا الملحد كثيرا ما يقول لمجالسيه ومعارضيه وفي كل مكتبة لمن يخافهم ويرهبهم : اننى ما قصدت إلا الحق والاحسان ، ولكن الناس لم يفهموا كلامى . وقد أضل بهذه الأعذار البسيطة من طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ، فاخذ بعضهم يعتذر عنه ويقول : قد يكون له قصد حسن ، وما درى هؤلاء أن هذا الاعتذار هو عين اعتذار المنافقين الأولين الذين ذكر الله عنهم أنهم فى الدرك الأسفل من النار ، ان كثيرا من الكفار أيضا يعتذرون بهذه الأعذار نفسها ، حتى فرعون فانه قال لقومه ﴿ ما أرىكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ ، وقال تعالى عن المنافقين ﴿ واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ، ألا انهم هم المفسدون ﴾ الآيات . وقال تعالى ﴿ ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكوا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ، واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله الى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا ، فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا ، أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا ، وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله ، ولو أنهم اذ ظلموا

أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ،
 فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم
 حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً . فليتأمل العاقل ما في هذه الآيات من العبر
 العظيمة ، ولينظر نفسه ودينه بها ليكون على بصيرة من أمره ، فقد بين الله
 فيها صفة المنافقين ببياننا أوضح من الشمس ، وبين فيها حالة المؤمنين حقاً .
 وقال تعالى ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين
 وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله
 يشهد أنهم لكاذبون ﴾ ولو أن المسلمين أطاعوا كل من ترندق وقدهح في
 الإسلام والمسلمين وادعى أنه يريد الإصلاح لفسد الدين ولسادت الفوضى
 فيه وعبث به ولعب كل من شاء من أصناف بني آدم ، فإن الله جعل لكل شيء
 قدراً فجعل للصادق دلالة على صدقه والكاذب كذلك جعل له علامة على كذبه
 فمن هجم على دين الإسلام وأهله وأضاف إليه واليهم كل ما خطر على باله من
 المقادح التي لا تبقى ولا تذر ثم ادعى أنه مجتهد وأنه يريد الإحسان فلا شك
 أن من صدقه فهو مصاب في دينه وعقله ، فعليه أن يبكي على نفسه ، وليعالج
 عقله ، وليعلم أنه لم يعرف دين الإسلام الذي يدين به ربه بمحدوده الشرعية ،
 فإن أكفر يهودي أو غير يهودي لا يعجزه أن يفعل هذا ويقضي غرضه من
 العداوة والمكر والخبث ويدعي كهذه الدعوى ، ونحن لا نشك في أن هذا
 الملحد يعلم حقيقة العلم أن ما صنعه في هذه الأغلال مضاد لشرعية الإسلام
 وغيرها من الأديان مضادة لا ريب فيها ، ولكنه اضطر إلى النفاق والخداعة
 لأمر مفهوم يعرفها أكثر الناس ، وما ذكرناه فهو على فرض أنه لا يعلم
 جدلاً ، والا فنحن نبأه على أنه لا يعلم ذلك ونعوذ بالله أن تبلغ بنا الجهالة
 والحمقة وفساد العقل إلى أن نصدق في خداعه ومكره ، فإن هذا من أعظم
 الضلالة والحماقة والغواية عن سواء السبيل . أما دعواه أنه لو حشد جميع
 المؤلفات لم يجد كتاباً واحداً ولا رسالة واحدة خالية من مدح الفقر والشقاء

وَدَمَ الحَيَاةَ والجَمَالَ ، فيقال له ان أردت أن كتب أهل العلم من أهل السنة
 للمعمول بها موجود فيها هذه الأشياء فإياك أن تحشدها فانك لا تجد في واحد
 منها شيئاً مما ذكرته على ما تريده أبداً بل ولا كلمة ولا نصف كلمة ، وان أردت
 بالمؤلفات مؤلفات أسلافك من الاتحادية وأضرابهم فالمسلمون مخالفون لك
 ولهم في كل ما تقولونه في أصول الدين وقواعد الإسلام وفروعه ، مع أن
 في كتب هؤلاء أشياء أخرى تضاد ما ادعيت ، فلا يصح توجيه هذا البهت
 إلى المسلمين على كل تقدير . وبإلينا نعلم في أي كتاب من كتب أهل السنة
 وجدت مدح الشقاء ، وان كلمة الفقر تنطوي تحتها أعمال الخير ، وان كلمة
 الفقر هي كل شيء ، لو تكلم بهذا الكلام صبي يسيل لعابه على صدره لاستكثر
 الناس منه ذلك فكيف بصاحب الحقائق الأزلية الابدية التي تتركها أمة فتتهوى
 وتأخذ بها أمة فتتهض واذا مشى فكل الناس في أثره واذا وقف فما في الناس
 من يجري

فصل

ثم ذكر روايات يزعم أنها في ذم الغني ومدح الفقر ولم يعزها إلى شيء من
 الكتب ، وليس فيها ما يدل على مراده أبداً ، ومع هذا فادعى أنها مزورة ،
 واذا كان مدعياً تزويرها فالجواب عنها كالجواب عن الروايات التي أوردتها في
 أول البحث ، لكن في هذه أحاديث خرفها كقولها عليه السلام « اللهم أخيني
 مسكيناً وأمتي مسكينة واحشرفي في زمرة المساكين » فادعى أن المساكين هم
 الفقراء البائسون اليائسون ، وادعى أن القرآن يدل على هذا ، وهذا كذب
 وفجور على اللغة وعلى الشرع ، بل المساكين هم من يجردون بعض كفايتهم
 المعيشية فقط كما قرر ذلك الفقهاء ، وهذا لا علاقة له ببؤس ولا بأس ، فكم
 من فقير أشجع وأنشط وأدين وأثبت وأعقل وأعلم من مائة غني أو أكثر ،
 وهل ضر الصحابة الذين غزوا الروم وهم على تلك الحالة المعروفة ما أصابهم

من القلة ، وهل يقال انهم يائسون يائسون ، فالشجاعة والنشاط والدين والهدية
 العالية ليست مربوطة بالدرهم والدينار ، وانما هي مربوطة بالقلوب والأديان ،
 والدرهم والدينار مادة واحدة ضعيفة من مواد كثيرة في حياة الانسان وقوته
 وصحته ونشاطه ، ولا يلزم من ضعف هذه المادة الواحدة ضعف حياة
 الانسان ، فان مادة الدين ودعاء الله وعبادته أعظم مادة للقلوب وحياتها
 الصحيحة ، والفقر من هذا هو الفقر المدقع المميت ، وانما التجارة سبب من
 الاسباب اذا استعملت على وجهها نفعت ، وإلا فقد تكون سببا للموت .
 وكذلك انتقاده على حديث « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها ، فقد خرّفه كعادته
 فانه حذف آخره الذي يبين المراد من الدنيا الملعونة وأنه ليس جميعها فيها
 ملعون فانه قال « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها ، الا ذكر الله تعالى وما والاها ،
 أو عالم أو متعلم ، وليس في هذا ما ينتقد ، فان الامور المباحة والمشروعة اذا
 استعملت على وجهها داخل في قوله عليه السلام « وما والاها ، وأما الامور
 المحرمة فلا شك انها ملعونة وملعون أهلها وملعون من احبها ودعا اليها . ومن
 العجب انتقاده حديث « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى
 كافرا منها شربة ماء » وهو حديث صحيح متفق عليه ، واعلمه استغرب
 واستشكل كونها بهذا الرخص عند الله مع كونها غالية عنده وعند اليهود ،
 فكيف تكون الى هذا الحد في الرخص عند الله بحيث تكون أرخص من
 جناح البعوضة ، فان هذا رخص عظيم جدا لا تطيقه نفسه ولا يمكن أن
 يدخل عقله ، وكيف يبخل عن والدته الشقيقة بادنى رسالة وتكون الدنيا كلها
 من اولها الى آخرها عند الله أرخص من جناح بعوضة مع صغر جناح
 البعوضة وضآلته وضعفه وحقارته ، وبالله لا حظ رخص الآخرة بل والدين
 وأهله في عينه مع عظم هذه الامور وجلالتها ليكون على بصيرة ، ولهذا فانه
 أورد هذا الحديث في التشنيع على المسلمين ظنا منه أنهم يحبونها كحبها ، هذا
 مع كون الحديث لا علاقة له بأمر ولا نهى وانما فيه اخبار عن الله لئلا

يغترون بها ويركنوا اليها ، وليس فيه انكم ايها المسلمون اجعلوا الدنيا عندكم كذلك ، ثم انه عليه السلام برهن على ذلك بقوله ما سقى كافرا منها شربة ماء ، وهذا برهان قاطع اذ كونه سبحانه يعطى أعداءه منها عطاء موفورا مع محاربتهم له ومبارزته بالعظام دليل على أنها ليست بشيء لديه ، وفيه تسلية عظيمة للمؤمن ، وليس فيه منع للتكسب ولا للاجتهاد في العمل والتجارة ، فان الاكتساب للعبة والاستغناء غير الاكتساب للرياء والفجور ، فالؤمن ربما انه اذا رأى الكافر غنيا مع ما هو عليه من المعاصي والكفر يستغرب هذا ، فأخبر بان الدنيا ليست عند الله بشيء ، إنما الشيء العظيم هو الدين والعمل الصالح كما قال تعالى ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ وكما قال تعالى ﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ وقد انتقد أيضا حديث «ما ذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه» رواه أحمد وصححه الترمذی ، وقد أورده هذا الرجل بلفظ «ما ذئبان ضاريان أرسلا في غنم بأسرع فسادا فيها من امرى في دينه يحب الشرف والمال وهذا اللفظ الذي أورده خلاف اللفظ المشهور ، وهو لم يعزه الى شيء من الكتب بل أورده كعادته على وجه التهمك ، وفيه تحريف بشع ، لان الفرق بين هذه الرواية التي ذكرها وبين الرواية التي ذكرناها فرق واضح ، لان الرواية الاولى فيها لفظ الحرص وهذه فيها لفظ الحب وفرق ظاهر بين الحب والحرص فليس كل من أحب شيئا حرص عليه ، وهذا الحديث الذي انتقده المعارض من جوامع الكلم الذي أوتيته صلوات الله وسلامه عليه ، فان هذا الحديث العظيم اشتمل على أمرين عظيمين وهما التحذير من الحرص على الشرف وعلى المال ، وشبه حرص الانسان عليهما بالذئبين الجائعين ، لأن الحرص على المال يوقع في الجشع والخيانة والرشوة والابتذال العرض والسرقة وشهادة الزور ، كما يوقع في النذل والخضوع ودنائة النفس وسقوط المروءة ، بل ربما يوصل

إلى الكفر ، ولا شك أن هذا يفسد الدين . فهو كالذئب الضارى ، لأن
اندفاع الانسان استرسالا مع هذا الحرص كاندفاع الذئب الضارى لهذه الغنم
التي تقتنم وينتفع بها الانسان بأحسن الانتفاع ، فهي كاعمال الدين . وأما
الحرص على الشرف فهو يقع في الفتن وسفك الدماء والفوضى والكبر
والاعجاب وغمط الحق والمكر والاحتيال وكذلك الأعمال التي يوجبها الحرص
على المال فأكثرها مشترك بين الحرص على هذا وهذا . وهذان الخلقان هما
الَّذَانِ ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنِ الْيَهُودِ فِي قَوْلِهِ ﴿ سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ
لِلنَّاسِ ﴾ فالاول في الحرص على الشرف والثاني الحرص على المال ، وهذا
جماع الحرص على حب الشهوات ، كما أن تحريف الكلام هو جماع الانقياد
للشبهات ، ومتى اجتمع حب الشهوات واتباع الشبهات تمت الخسارة وحلت
موجباتها ، ولهذا كان اليهود من أشد الناس تعلقا بهذين الخلقين ، وقد كان
لهذا الملمح الحظ الأكبر من ذلك مع زيادة الردة وعداوة الأديان . ومن
لطف الله أنه لم يقدره على شيء بل ولم يمكنه من أدنى وظيفة والله بعباده خير
بصير . ولا شك أن الحرص الشديد على حب الشرف ربما يؤدي الى الكفر
كما فعل جبلة بن الأيهم وغيره كما قال عليه السلام : لا ترجعوا بعدي كفارا
يضرب بعضكم رقاب بعض ، ولا شك أن هذا الحرص كالذئب الضارى الذي
يفسد الغنم فإن هذه الاخلاق تفسد الدين أعظم من فساد الذئب للغنم ، فالتبى
عليه السلام لم ينكر طلب المال من وجهه واكتسابه من وجهه ، بل رغب في ذلك
وأمر به ، وإنما نهى عن الحرص والجشع الذي يفسد النفس ويذهب المعنوية
الانسانية ، فلا وجه لانتقاده ، مع أنه كان من الواجب عليه اذا أراد أن
يعارض في مثل هذه الأمور أن يتكلم في صحة الحديث أو ضعفه ، ثم يبين ما
اشتمل عليه من المعاني ، ثم يبين مخالفته لما ينبغي ، وهو لم يفعل شيئا من
ذلك ، وما ذكرناه على الحديث زيادة فائدة ، وإلا فجرد مطالبته ببيان وجه
الانتقاد كاف في رده ، وهو إنما يهمه انتقاد الأحاديث فقط ، وسواء

كانت صحيحة أو ضعيفة إنما يهمه نصرة رأيه من غير نظر إلى هتك حرمة الأحاديث ومعاينة من قالها ، فهو يكتب في أغلاله كل ما خطر على باله بما يوافق هواه ولا يبالي ، لأن غرضه الذي يقصده لا يتم في رأيه إلا بذلك ، وقد فقد الخوف والدين والحياء فلم يبق لديه مانع من الفجور والقحة يحجزه ، لأن هذه الموانع قد زالت وحل محلها الاستهتار والقحة وعدم الدين

واعلم أن جميع ما ينتقده على الأحاديث الصحيحة هو من جنس انتقاده هذا ، فنكتفي بمطالبتة في كل حديث يورده على وجه الانتقاد بيان صحته أو ضعفه وبيان معناه وأن المسلمين عملوا به ، وإلا فإيراده والاحتجاج به ممنوع ومضروب به وجهه ، لأنه تهكم واستهزاء لا طائل تحته ، وليس من التحقيق والعلم في شيء لأنه يدل على سوء طوية وقد أعرض عن الأحاديث الكثيرة الصحيحة في مدح التكسب والاستغناء وتحريم البطالة والسؤال لغير حاجة وتمسك بما لا دلالة فيه

إذا عرف هذا فاعلم أن الأحاديث الضعيفة التي يوردها وكذلك ما ينقله عن كتب الصوفية ونحوهم لا تعلق له فيه بشيء ، لأنه لا يرد على المسلمين فإن حكم الحديث الضعيف عندهم معروف وهو عدم الاحتجاج به ، وأما كتب الصوفية أو الاتحادية فقد أجمعوا على عدم العمل بها ومن حسن الظن بهم فإنه يقول لا يجوز الأخذ بظاهرها ، فكان عدم العمل بها متفقا عليه ، وبهذا يندفع جميع ما بناء على هذه الروايات والنقول الصوفية ، على أن ما نقله قليل جدا بالنسبة إلى ما افتراه وزوره ، فإن أكثر كلامه اختراع أو هام لا حقيقة لها ، يخترعها ثم يشرع في الرد عليها بعد أن يرمى بها المسلمين البراء منها ، ومعلوم أن هذا لا يفعله إلا من أصيب في دينه وعقله جميعا ، وهذا هو الواقع في هذا الرجل المسكين المخذول المستكبر

فصل

ثم أخذ على النووى أنه أنشد ثلاثة أبيات في أول كتابه رياض الصالحين في الزهد ، وانتقده وحط عليه وشنع غاية التشنيع من أجلها لأنها في القناعة ولا وجه لانتقاده وتشنيعه لأنها مع كونها ليس فيها مدح للشقاء والجوع ، وأن الخير كله منطوق تحت كلمة الفقر فقد ذكر في نفس الكتاب المذكور باباً في فضل الاكتساب ، وساق فيه أحاديث في ذكر فضل الاستغناء كذلك ، فما باله أعرض عن ذلك وتمسك بالآيات ، والنووى كغيره لم يرد ما عناه هذا الرجل أن الزهد هو التجرد من الدنيا ومن أسباب المعيشة ونحوها ، إنما أراد ما أراده غيره من العلماء على ما شرحناه فيما سبق . وباليك هذا المخذول وازن بين آيات النووى وبين آياته التي سقناها في مطلع هذا الكتاب ليعرف الفرق ، ولو أنه وازن بينه وبين آيات كثيرة للاتحادية وأمثالهم في تحريف الصفات والترغيب في الشرك وغيره من الفجور والفسوق والاستهتار بالديانات لعلم الفرق ولعلم ما ينشأ عن ذلك من الأضرار العظيمة المضرة بالاسلام وأهله ، ولكنه لا يهमे ذلك لأنه لا يرى لفساد الأخلاق دخلاً في تقدم ولا تأخر . ثم ذكر أن ابن أبي الدنيا وضع كتاباً في هذا الغرض في ذم الدنيا فقال : وقد وجدنا كتاباً كاملاً قد وضعت لهذه الأغراض ، فوجدنا ابن أبي الدنيا وهو أحد الحادين بالفقراء يؤلف كتاباً باسمه من غير أن يشعر أنه أخطأ أو أنه يمكن أن يعد مخطئاً ^(١) في ذم الدنيا ووجدنا كتباً كثيرة تسمى كتاب الزهد ^(٢) وهذا كله معلوم لا فائدة في الاطناب فيه ، فيقال : لا حاجة لك في تدبج ابن أبي الدنيا والامام أحمد والنووى

(١) إنما يعد مخطئاً عندك وعند الملاحدة كما انك تعد مخطئاً بل ومرتبداً بما فعلته في هذا

(٢) بشرى الى كتاب الزهد للامام احمد الذي طبع حديثاً

وغيرهم في تخطئتهم في ذم الدنيا فانها اذا كانت الدنيا عندك هي الغاية الغالية وكنت كالمحامي عنها فوجه اللوم اذن الى القرآن الكريم فان الله تعالى ذمها وهؤلاء لم يقولوا في ذمها أعظم مما ورد في النصوص القرآنية والاحاديث النبوية قال الله تعالى ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ وقال تعالى ﴿ ما الحياة الدنيا الا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴾ وقال تعالى ﴿ بل تؤثر الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾ وقال تعالى ﴿ ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وان الله لا يهدي الظالمين ﴾ وقال تعالى ﴿ وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور ﴾ وقال تعالى ﴿ انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هي دار القرار ﴾ الى أمثال ذلك من الآيات التي لا تحصى مما فيه ذم الحياة الدنيا وتقديمها على الآخرة كصنيع هذا الملحد فانه رفض الآخرة رفضا باتا بل ادعى أن الايمان بها عامل تأخر كما يأتي ، وهذا عكس لدعاية القرآن ، كما أن أغلاله كلها كذلك ، وهذا الزائع يذم ابن ابي الدنيا حين وضع كتابا يحذّر فيه من الاغترار بالدنيا ويذكر فيه النصوص الدينية وهو قد صنع هذه الأغلال في ذم الدين والدعوة الى نبذ الآخرة مستدلا على ذلك بأقوال الملاحدة والزنادقة ، فأين من ذم الاغترار بالدنيا عن ذم الدين والآخرة فيكون هو من الحاديين بالملاحدة اذا كان ابن ابي الدنيا من الحاديين بالفقراء ، واذا كان هذا المخذول معترضا على ابن ابي الدنيا وغيره كالإمام أحمد حيث صنف كتاب الزهد المشهور وجعل سهل بن عبد الله التستري أحد أصنام الزهاد فسماها صنما ، فليس هذا كله بعجيب بمن خارب الله ورسوله ودينه ، فان من فعل هذا فلا بد أن يفعل كل ما فيه مضادة للإسلام وأهله . والعجب أنه جعل سهلا التستري صنما بمجرد تحذيره من الاغترار بالدنيا وجعل جستاف لويون فيلسوفا عظيما وهو الذي ادعى أن الايمان بالله وحده كان نكبة على البشر ، فانظر الى هذه العداوة المنكرة لعلماء الدين وشدة الولاء للملاحدة وأضرابهم ، وهذا الملحد قد أعرض عن جميع ما لأئمة المسلمين من

الفضائل العديدة والمواقف الحميدة في نصر الاسلام والجهاد في ذات الله ولم يعترف لهم بحجة خردل من فضيلة ، بل أخذ يتتبع ما وجد لهم من سهو وأخطاء تافهة لا يسلم منها إلا الأنبياء فيأخذ في التشنيع الطويل العريض عليهم ويرميهم بالمقادح السيئة ، ثم مع هذا لم ينتقد ملحدأ واحدا ولا زنديقا ولا أنكر عليهم قولا واحدا مع كثرة ما ينشرونه من القبح في الديانات والاستهزاء والتهمك بها ، بل حمدهم على ذلك وعظمهم واعتمد أقوالهم وتمسك بها بكلتا يديه وجعلها حججا يحتج بها في القدح في دين المسلمين . ثم انه أعجب جدا بكلمة نسبها الى عمرو بن العاص وهي « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا » وهذه الكلمة ان صحت عن عمرو بن العاص فليست مما يمدح عليه ، فان قول النبي ﷺ لعبد الله بن عمر « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، واذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، واذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وخذ من صحتك لسقمك ومن حياتك لموتك ، الحديث - خير من قول عمرو بن العاص وأحسن أثرا وأعظم فائدة . وقد يظن من عميت بصيرته أن حديث ابن عمر هذا يوجب الاعراض عما يجب من الدنيا ، وأنه يوجب التأخر ، وهذا ظن معكوس ، بل هذا الحديث يدل على الحزم والعزم ومواصلة السير في العمل للأمور النافعة في الدنيا والآخرة ، فانه يفيد أن الانسان يجب عليه أن لا يثق بالدنيا ولا يفتربها فان ذلك يوجب الغفلة والتساهل في الاخلاص الى الدن والمسكنة وعدم الأخذ بالحيطه والحذر التام لما ينفعه في دينه ودنياه ، ومعلوم أن الغريب يكون على غاية من الحذر من الناس وعدم الوثوق بمن يحمله ويستعد بما في وسعه بما يقيم حاله ويثق بمن يعرفه بمن هو جنسه ، ولهذا أكد بقوله « وخذ من صحتك لسقمك » وهذا غاية الحث على العمل للدين والدنيا والبعد عن العجز والكسل ، وكذلك قوله « ومن حياتك لموتك » فيكون الانسان قويا نشيطا حازما يقظا ، وأين هذا من هذه القولة التي نقلها عن عمرو بن العاص ان صحت عنه وهي قوله « اعمل الدنيا كأنك تعيش أبدا »

فان هذا قول ساقط فان الذى يرى أنه يعيش أبدا لا يعمل للآخرة بل يرفضها ولا يعمل للدنيا عملا كبيرا بل ينسجم فى الراحة والكسل ويتراخى فى العمل لأنه يسوف نفسه بالعمل من وقت الى وقت آخر لأنه يرى الزمان ممتدا أمامه ، فى إمكانه أن يقضى أمله متى شاء ، ويستمتع بشهواته فينغمس فى الملاهى والخلعة ويقضى شهواته ، وهكذا تذهب به الايام لأنه يرى أنه سيعيش أبدا فلا يعمل عملا كبيرا ، ولهذا كان أكثر المنغمسين فى شهوات أنفسهم لبطونهم وفروجهم هم من أولئك الذين لا يفكرون فى الآخرة والموت وما بعده من الحساب والعقاب ، بخلاف المؤمنين الذين يستعدون للآخرة يأخذون من صحتهم لسقمهم ومن حياتهم لموتهم فانهم أقوى نفوسا وأثبت أفئدة وأكبر وأكثر أعمالا وأصح آراء وأوسع عقولا ، فلهذا حافظوا على كلتا المصلحتين الدينية والدنيوية فاغتنموا أوقاتهم النفيسة الفاضلة

فصل

ثم أطال فى التشنيع على المسلمين بأنهم مدحورا بالفقر والجوع والأمراض ، واخترع ما شاءت شهوته وهواه ، فأخذ يطعن فى الهواء ويحارب الأوهام ويخاطب الاحلام ثم قال ، ولقد تطورت هذه الأعراض الجنونية عند هؤلاء تطورا مخيفا فذهبوا مدفوعين أمام هذه الأعراض والأمراض كل مذهب من طرق السخف والعمالة ، وأطال من هذا الهذيان والقدح فى الاسلام وأهله ، وكل هذا قد تقدم الجواب عنه وأنه فجور وزور وبهتان لا ريب فيه ، وأن الغرض المقصود منه أن الاسلام قد فسد فافرضوه ، وقد تقدم ما نقلناه عنه من الصراع أنه قال « وليس المسلم بالذى يتتبع أخطاء المخطئين وأغلاط الغالطين ، الخ وقد بينا أن العلماء صنفوا فى الطهارة والنظافة وحب العمل والاجتهاد والتكسب ، وحرّموا الاضرار بالنفس والبدن فى كتب أكثر من أن تحصى ، وهى مجلدات معروقة قد ملأت المكاتب ، وقل أن نجد كتابا

ليس فيه النهي عن الاضرار بالنفس أو بخلاف الحث على الطهارة والنظافة
وهذا كتاب (فضل السعي والحركة) مجلد مستقل مطبوع كله في الحث على
العمل ، وأمثاله أكثر من أن يحصر

ثم ذكر عنهم أنهم لم يقيموا عند مدح الفقر والفاقة بل تحسبوا ذلك
وقاموا بمدحون الأمراض والأسقام ، وأطال من هذا ، ثم فكر عن كتاب
(الاحياء) للغزالي أنه نقل فيه قال : جاءت امرأة الى الرسول فقالت يا رسول
الله ان عندي فتاة جميلة أحببت أن أهديها لك زوجة ، فقال قبلتها ، ثم قالت :
يا رسول الله ألا أنها لم تمرض . فقال عليه السلام : أفن لا حاجة لي بها ، ثم
ساق روايات من هذا الجنس ، وذكر أن السيوطي صنف كتابا في هذه
الموضوع . والعجب أنه كثيرا ما يتقل الروايات ثم يقدح فيها ثم يشنع على
المسلمين بوجودها في كتبهم مع علمه بأنهم لم يعملوا بها ، ومع علمه بأنهم لا
يعتقدون أن أهلها معصومون من الخطأ ، ومع علمه بأنه قد يوجد في هذه
الكتب من الشرك وفي الصفات وغيرها أضعاف أضعاف ما يوجد فيها مما
ذكره ، ولكن هذا الملحد سريع الانطلاق الى نقل كل ما يجد فيه رائحة من
القدح في الدين ، والا فهو يعلم حقيقة العلم أن مثل كتب الغزالي وابن عربي
وغيرهم لا يعتمد على كل ما فيها ، بل يعلم أن فيها بدعا تنافي الدين ، وقد كان
من الواجب عليه لو كان يريد الحق انتقادها من هذه الناحية ، وهو يعلم أيضا
أن كتاب الاحياء هذا قد قدح فيه كثير من العلماء ويكنى ما حشاه فيه من
الاحاديث الموضوعية والضعيفة من دون أن ينبذ عليها ، ولقد جرى احراقه
في المغرب برأى جمع عظيم من علماء المسلمين فكيف يتبع هذا الملحد أغلاطه
ويجعلها سباما يرمى بها الاسلام مع أن فيه من الثناء على النظافة وتجنب
الامراض والأسقام وحب الاكتساب شيئا كثيرا ، ولو أن هذا الملحد وجه
هذا التشنيع الذي شنع به على الغزالي الى جنس السبكي وابنه وابن حجر
الهيتمي وأمثالهم من المتعصبين له المغالين فيه لكان أولى به ، أما توجيه التشنيع

يعا فيه هو وأمثاله على المسلمين مع انكارهم له فلا يفعله الا خبيث السريرة .
 مظموس البصيرة ، والله سبحانه قد بين لنا في كتابه العزيز وجوب تجنب
 المضار وسؤاله العافية فقال تعالى ﴿ ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وأحسنوا
 ان الله يحب المحسنين ﴾ وقد أمر عباده أن يقولوا ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة
 وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ وقد قال ﷺ : اللهم انا نسألك الغفو
 والعافية في الدنيا والآخرة ، وأمر بذلك وقال عليه السلام : اسئلو الله العافية .
 وأمر بشيء من مبادئ الطب ، وأباح للمريض والمسافر والمرضع الفطر رفقا
 بهم ، وقال : يسروا ولا تعسروا ، وكتب المسلمين فيها ما لا يعد ولا يحصى من
 بيان الادوية واستحبابها ، وذهب كثير الى وجوب التداوى ، فها هذا
 الارجاف والصياخ والجنون والتحامل المنكر في الدعاية بأن المسلمين يمدحون
 الاسقام والأمراض والجوع والشقاء ، قبحه الله ما أجرأه وأجفاه

فصل

وكذلك دعواه أن المسلمين يحرمون أو يكرهون البناء والعمران ، وأنهم
 يفسبون الى الدين أنه جاء بذلك ، كذب وبهت ظاهر بهذا الاطلاق ، وقد
 حاول أن يؤيد هذه الدعوى الكاذبة المردولة بأن نقل بعض روايات فيها
 أنهى عن البناء ، مع أنه اعترف بانها لم تصح ، فلا تدرى أهذا الملحد يشنع
 على المسلمين بروايتها أو بالعمل بها ، فان كلامه متهافت متناقض ، وأدنى رجل
 من العامة فضلا عن غيره يعلم أن المسلمين لا يحرمون البناء ولا يكرهونه
 وهذه كتب الفقه وغيرها من جميع المذاهب ملوءة بذكر البناء وحكم الجوار
 وأحكام بيع البيوت والدكاكين وغيرها ، فالحس والمشاهدة بالحواس كل ذلك
 يكذبه ، فان مدن الاسلام وقراه كثيرة معروفة

وليس يصح في الاذهان شيء اذا احتاج النهار الى دليل
 وأي فجور أعظم من الادعاء على المسلمين أنهم يكرهون العمران

ويحاربونه ، وهو يرى المسلمين كلهم من أهل القرى حالين في البناء يدخلونه ويخرجون منه ويصاون فيه في كل وقت وحين ، ومن بلغ به الفجور الى هذا الحد فقد بلغ الغاية في الخبث والمكابرة وسوء الاعتقاد . ثم ان هذا الملحد لم يكتف بهذه الدعاوى الخبيثة بل تمادى به البلاء والشقاء وسوء القضاء الى أن أضاف الى المسلمين أنهم يمدحون القذارة والوساخة ونقل بعض روايات مجهولة لا تكاد تعرف وليست عن امام معروف مستدلا بها على هذا التزوير ، وضرب صفحا عن جميع ما قاله ونقله علماء الملة في كتبهم من وجوب الطهارة والنظافة وتحريم مباشرة الأقدار والاوزاخ ، وأدنى كتاب من كتب المسلمين موجود هذا فيه ، فأعرض عن هذا كله وتتبع ما في كتب الاتحادية من الصوفية ونحوهم ، فكأن عليه عهدا وثيقا بينه وبين الملاحدة أن لا يجد رواية أو خصلة في رجل من مجموع من ينسب نفسه للإسلام فيها شيء من النقد والعيب إلا ذكرها وأضافها الى المسلمين ، وقد بينا أن الغرض من وضع هذه الأغلال هو تشويه سمعة الاسلام ، وهيهات وما كيد الكافرين إلا في ضلال . وقد أُلجأت الضرورة هذا المخذول الى أن احتج بأنه يوجد في تذكرة الانطاكي شيء من هذا ، وادعى أنه كثيرا ما يوصى بأكل القمل والحشرات ، وهذا غاية ما قدر عليه هذا الزائع ، ونسى أن في تذكرة الانطاكي صريح الشرك الأكبر ومخاطبة النجوم ودعائها ، وهو يعلم أن المسلمين يكفرون من فعل هذا مع أن الانطاكي هذا نفسه ذكر في تذكرته هذه الحث على استعمال النظافة واجتناب الاوزاخ أكثر مما ذكر عنه ، مع أن هذا النقل كذب بهذا الاطلاق - ثم أطال في ذم الفقر والمرض والجهل على عادته في تكرار العبارات والاسهاب في المعنى الواحد ، وقد سبق الكلام عن هذا مرارا فلا حاجة الى اعادته وذكر أن الجمال يجب أن يحب ، وقد تقدم الكلام عن هذا أيضا . ثم انه ذهب في تفسير الجمال الى غير ما ذكره أهل العلم حيث تكلم على حديث ان الله جميل يحب الجمال فقال : من الأحاديث الطيبة الجميلة في هذا الباب أن رجلا

سأل النبي الكريم قال : ان أحدا يحب أن يكون ثوبه أجمل من ثوب أخيه
ونعله أجمل من نعل أخيه هل في هذا باس أو كبر ، فقال عليه السلام : ان
الله جميل يحب الجمال ، كلمة تقوم على معناها الحضارة الانسانية كلها ، بل التاريخ
أجمع بل الوجود كله . ان جميع ما كتبه علماء الاجتماع والفلسفة وغيرهم في
تجميل الحياة وتجميل العمل وتجميل كل ما يتناوله الانسان لا يبلغ مبلغ هذا
الحديث في القوة وفي الحث والتجريض ، لما اذا خلق الله الشمس والقمر
والنجوم وسائر المجموعات الشمسية ما يرى منها بالعين المجردة وما لا يرى منها
الا بالآلات الدقيقة المقربة وما لا يرى منها البتة ^(١) ، لماذا خلق الله هذه كلها
جميلة بارعة الجمال ، ولماذا خلق الله الليل الجميل والنهار الجميل والألوان الجميلة
والأصوات الجميلة والمناظر الجميلة والانسان الجميل والحيوان الجميل وكل هذا
الوجود الجميل ، خلقه كذلك لانه يحب الجمال ، ولماذا يحب الجمال ، يحبه لانه
تعالى جميل والجميل يحب أن يكون كل شيء جميلا . ثم اطال من هذه الثروة
التي يستحى العاقل من حكايتها ، وقد جعل الوجود كله جميلا ثم جعل الجمال
يحبه الله من أجل أنه جميل ، ثم ركب على هذا بأن الجميل يحب ان يكون كل
شيء جميلا ، فعلى هذا فليس في الوجود شيء قبيح ، وقد قال تعالى ﴿ وأتبعناهم
في هذه الدنيا لعنة ويوم القيمة هم من المقبوحين ﴾ فأخبر عن هؤلاء الملاحظة
المعاندین برسوله أنه أتبعهم في الدنيا لعنة وأنهم في الآخرة من المقبوحين ،
ومعلوم أنهم من هذا الوجود ومن خلق الله ، ولكن لما كانوا ملاحظة كانوا
مقبوحين بسبب ما عملوه من القبائح المضادة لمصادر الجمال التي هي الاعمال
الصالحة . وكل ما ذكره على هذا الحديث تهور مركب ليس عليه إثارة من علم
وهو تكلم في ذات الله وصفاته بلا دليل بل جرأة على الله ، وليس في الحديث
ما يشير الى هذا الذي ادعاه بل الحديث يدل على خلافه فانه قال عليه الصلاة

(١) الذي لا يرى البتة من الذي أخبرك به

والسلام وان الله جميل يحب الجمال، ولم يقل يحب الوجود لانه جميل بل خص
الجمال بالحبه وحده، ومعلوم أن الكفر والنفاق والاحقاد ليس من الجمال في
شيء، بل هو القبح بعينه، وكل قبح في الدنيا فانه منه فانه لا ينجيه لانه قبيح
قال الله تعالى ﴿ والله لا يحب كل خوان كفور ﴾ وقال تعالى ﴿ ولكن كره
الله انبعاثهم ﴾ وقال تعالى ﴿ ان تكفروا فان الله غني عنكم ولا يرضى لعباده
الكفر ﴾ وقال تعالى ﴿ ذلك بانهم اتبعوا ما أحبط الله وكرهوا رضوانه ﴾
ومعلوم أن هذا الذي أسخط الله هو الكفر بأنواعه، وقال تعالى ﴿ والله لا
يحب الظالمين ﴾ فإذا كان سبحانه يحب الجمال فمعلوم أنه إنما يحب ما أمر به من
الأعمال الصالحة ويكره ما يضاد ذلك من الفواحش وأنواع الكفر فيكون
أولى الناس دخولا في هذا الحديث هم أهل الدين الصحيح وأن الملاحدة ليس
لهم حظ منه، وقد فهم الصحابي أن الله لا يحب الوجود كله، والا لو فهم ذلك
لم يسأل، لأنه لا فرق إذن بين أن تكون نعله حسنة أو غير حسنة وكذلك
ثوبه لانه كله محبوب فانه كله من الوجود، وأدنى عاقل يعلم أن الله سبحانه
جميل هذا الوجود من صدين متباينين من جمال وقبح ونور وظلمة وكفر
وايمان، فالإيمان كله وجميع فروعه ومتعلقاته وشعبه جميل، فانه سبحانه يحبه
ويحب أهله، والكفر بجميع أصوله وفروعه ومتعلقاته قبيح فانه يكرهه
ويكره أهله كما أخبر بذلك كما تقدم فإذا كان سبحانه يحب المؤمن وإيمانه ويكره
الكافر وكفره فكيف يدعى أن الوجود كله جميل ثم يذكر النجوم والليل
والنهار فأى علاقة لهذا بهذا، وإن الشهور منها شيء يرى وشيء لا يرى
وأمثال هذا الهذيان، فمن أين له أن الله يحب هذه الأشياء كلها وأن كل ما
خلقه فهو يحبه فانه هذا ممنوع شرعا وعقلا، فكل ما في الوجود من ذواته
وأقوال وأفعال فهي خلقه، ومع ذلك فهو يحب صالحها ويكره ظالمها، ثم الله
لعظم شغفائه فسر الجمال المذكور في الحديث بالجمال المادى فتناقض لأن كلامه
فيما تقدم شامل للجميع فقال: وليعلم أن الجمال المذكور هنا هو المادى، وذلك

لأنه ذكر في جواب السؤال عن جمال النمل والثوب ، فأنه يحب جمال الثراء وجمال البيت وجمال الملابس وجمال الظاهر والباطن وجمال الصناعة والزراعة وجمال الحياة وجمال كل شيء ، هكذا قال ، وهو برهان على شدة جراءة على الله ، والكلام في ذاته بما لا علم له به ، وهو بما يدل على عدم ميالاته بمقام الربوبية والنبوة . فهذا الاطلاق الذي ذكره غير صحيح ولا مقبول ولا معقول ، فان الله سبحانه لا يحب مظاهر هذه الاشياء المادية أعنى صورها وذاتها ، وليس في الحديث دلالة على هذا ، فمن ادعى أن الله تعالى يحب مظاهر هذه الاشياء فقد اجترأ على مقام الربوبية وهو كفر صريح ، وكيف يحب سبحانه مظاهر الصناعات بما فيها من مكايين وأدوات وساعات وسكاكين ولابر وحبال وأفقال وأدهان وزيتون وغير ذلك ، وكيف يحب مظهر جمال الزراعة على اختلاف أنواعها وأشكالها ، وكذلك الثياب ، بل هذا الرجل عمى حب جمال كل شيء ، فمن أين له أن الله يحب مادة جمال كل شيء والرسول ﷺ لم يذكر جمال كل شيء ، وفي الصحيح : ان رسول الله ﷺ قال : ان الله لا ينظر الى صوركم ولا الى أموالكم ، ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم ، وهذا الحديث نص صريح مفيد بمنطوقه أنه سبحانه لا يحب مظاهر هذه الصور المادية كلها ولا ينظر اليها ، وهو شامل لجميع الاموال من الصناعة والزراعة والمأكل والملبس وغير ذلك ، كما أنه شامل لجميع الصور من الآدميين ، والملحد بنى تقريره على ما فهمه بفهمه المعكوس في الحديث المتقدم بأن ذلك مفهوم الحديث ، وهذا الخبر الصحيح أفاد بالمنطوق نفي ما فهمه مطلقا ، ودلالة المنطوق مقدمة على دلالة المفهوم بالاتفاق . فالذي أفاده حديث : ان الله جميل يحب الجمال ، ليس هو ما فهمه الخصم ، بل أفاد أنه سبحانه يحب المتخلق بهذا الخلق الذي هو الجمال ، لا يحب نفس الشيء المتجمل به أى المادة التى يتجمل بها كما فهمه الزائغ ، فانه قرر أن المراد بالجمال الجمال المادى ، وليس كذلك ، بل الجمال هنا هو الجمال الفعلى الخلقى ، فان الصحابي

سأله عن استعمال هذه الأمور ومحبة لهذا الاستعمال ، فاجابه بذلك الجواب ،
فدخل على أن المراد بالمحسوب هو نفس الخلق ، وذلك كالصدقة فانها تطلق على
المال الذى يتصدق به وتطلق على نفس فعل المتصدق ، فالله سبحانه يحب نفس
هذا الفعل الذى يبتغى به وجهه ، لا نفس المال المتصدق به . وهو سبحانه
يحب السر وهو نفس الفعل لا الآلة التى يستر بها ، ويحب الجمال الذى هو
نفس التجميل وليس هو الاشياء المادية التى يتجمل بها ، فانه لو أخذها عاص
قلبسها فهى بحالتها لا محبوبة ولا مكروهة لذاتها كما تقدم . وبالجملة فحديث
« ان الله لا ينظر الى صوركم وأموالكم ولكن ينظر الى قلوبهم وأعمالكم »
صرح فى الدلالة على ما ذكرنا ، فان الجمال الذى هو التجميل من الأعمال التى
ينظر الله اليها بحسب نيات القلوب ، وهذا الحديث دل بمنطوقه أن الذى ينظر
الله اليه الأعمال وما يتعلق بالقلوب لا الى الصور المادية ، ثم من أين له أنه
يحب الزراعة والصناعة وجمال كل شيء وليس فى الحديث ذكر لهذا ، فهل هذا
إلا من مجاوزة الحدود ، وقد سبق قوله « وكل هذا الوجود الجميل ، فعلى هذا
فكل هذه المخلوقات يحبها الله من حيوان ونبات وجاد . والبلية استدلاله على
ذلك بالحديث ، فجمع بين الكذب على الله تعالى والكذب على رسوله عليه
الصلاة والسلام بهذا الهذيان البارد ، والرسول ﷺ لم يقل للصحابى الذى
مأله عن لبسه للعمل الحسن والثوب الحسن ان الله يحب النعال أو الثياب
الحسنة أو يحب هذه الاشياء الحسنة ، بل قال « ان الله جميل يحب الجمال »
لانه عليه الصلاة والسلام فهم أن مقصود الصحابى التجميل بلبسها كما هو ظاهر
كلامه فى سؤاله ، والجمال الدينى نوعان : جمال الباطن بالعمل الصالح والتقوى ،
وجمال الظاهر بالنظافة واللباس المباح الجميل الذى يستره ، فالجمال الباطنى هو
المقصود والظاهر تبع له ، فالله سبحانه يحب من الانسان أن يتجمل بظاهره
وباطنه ، ولهذا ورد فى الحديث « الطهور شطر الايمان » لانه جمال الظاهر ، كما
ورد فى الحديث الآخر فضل من قال « أشهد ان لا اله الا الله وأشهد ان محمداً

رسول الله . اللهم اجعلني من التوايين واجعلني من عبادك المتطهرين ، في آخر
العرض . ليجتمع للانسان جمال الظاهر بالطهارة وجمال الباطن بالشهادة والدعاة
المتضمن للتوحيد ، فكون الانسان يتجمل باللباس والخلق الحسن أمام
الناس ولا سيما في المجمع من الأمور المحبوبة . ولا شك أن جمال الظاهر
كالسمت الحسن يدل على جمال الباطن غالبا ، وهو وسيلة اليه ، وإذا اعتاد
الانسان التجمل بأحدهما اعتاد الآخر ، فتجمل الظاهر لا بد أن يكون له
علاقة بتجمل الباطن ، ولا بد أن يكون بينهما مناسبة وإلا كان رياء فلا بد
أن يفضح صاحبه ، وليس كل جميل في لغة قوم وعرفهم يكون جميلا في
الشرع ولا كل جميل عند طائفة يكون جميلا عند كل الناس ، بل الجمال
الممدوح يجب أن يكون له ضابط يفهم به ، وهو ما شرعه الله ورسوله ووما
كل متعلقا بذلك ، ولكن يجب أن يفهم أن جميع المحرمات وشعب الكفر
كلها قباح ليست من الجمال الممدوح في شيء وإن سماها أهلها جمالا فإن ذلك
يقضى إلى أن كل الأشياء جميلة ممدوحة وهو خلاف الشرع والعقل
والضرورة ولا قائل به ، فما ادعاه على هذا الحديث من الهذيان والثروة الفارغة
هو من مهازله التي اعتادها في الخداع والبهرجة والتقوية على الغوغاء وضعفاء
البصائر

إذا عرفت هذا عرفت سقوط كلامه كله في توسيع العبارات في الجمال والله
مجرد لا حاصل له ، ولم ينكر أحد من المسلمين حب الجمال ، فما ادعاه كلام لا
عمل له البتة . ولا ينبغي لمثله التكلم في الجمال والدخول في موضوعه ، فإنه
مقبوح باطنا وظاهرا فدخوله في ميدان الجمال والتكلم فيه من أكبر الأغلاط
التي وقع فيها فإنه دخل فيما هو أجنبي عنه ، ولهذا كان كلامه فيه متهاوتا متناقضا
متحكسا لأنه دخل في شيء لا يعرفه ولا يفهمه كما أن كل داخل في شيء لا يعرفه
ولا يفهمه ، فتجب مجاهدته ودفاعه والحيولة بينه وبين هذه المباحث الجليظة
الجميلة لكيلا يلوثها بقذارته وقبحه بما يعلقه عليها من هذه الأفكار الخبيثة

فصل

ثم رجع واطال في ذم الفقر والوساخة والبؤس وأكثر من الاستدلال على حب الجمال والانتفاضة ، وكل هذا لا محل له ولا وجه للاطالة فيه ، لان المسلمين لم ينكروا حب الجمال واجتناب الأوساخ وحب العلم والعمل ، وتقدم الكلام عن مثل هذا مرارا . ثم انه بعد أن فرغ من هذه الحاجة فيما علقه على حب الجمال من كونه تعالى يجب الجمال المادى - كما يقول - أخذ يتفلسف في تحليل خلواته ﷻ بربه وعبادته له ، فجمع بين الجراء على الله ورسوله فقال : « ويشهد لذهابه (يعنى النبي عليه السلام) في حب الجمال مذهب الكمال أنه كان دائما يحتضن الطبيعة ويحنو عليها ويعمل على اجتلائها وعلى الخلوة بها ، ها إننى أراه الآن عليه السلام متسللا من مخدعه نصف الليل أو بعده قليلا أو قبله قليلا بعد أن عقد الكرى على الأجنان ، وها هو ذا خارج من حجرته برفق وهون خشية أن يوقظ أهله ، وها هو ذا مسرع الى الخروج من المدينة تاركا وراءه المباني والبيوت ميمما البقيع أو غيره ، ثم هو ذا شاخص ببصره النافذ الى السماء الصافية والى ما انتظم على صفحتها من نجوم متألثة تبعث الهدوء والاشراق الى العقل والى القلب . انه واقف فى الظلام الرائع ، ان النسيم الخفيف اللطيف لير على وجهه المشرق بالأميل والجال فيلامسه ملامسة خفيفة فيخفق قلبه بالسرور والرضا وبالأمل الوضاء . انه فى الصحراء . انه يناجى السكون والظلام والنسيم ^(١) انه يخاطب ما حوله بلغة فوق الحروف والألفاظ ^(٢) . انها لغة تموت عندها الألفاظ والحروف . انه يرى كل شىء جميلا لانه هو جميل . انه يدرك من جمال ذلك بقدر جمال نفسه

(١) من الذى أخبرك أنه يناجى السكون والظلام والنسيم الى آخره

(٢) من الذى عليك اياها حتى درستها وفهمتها ثم ترجمت عنها ، فان مثل هذا

لا يعرف الا بالوحى ، فهل أوحى اليك بذلك

هو مزاجه . انه لا يرى هناك قبيحا لان نفسه ليس فيها قبيح والمرء انما يرى الاشياء بنفسه وطبعه ، فكن جميلا تر الوجود جميلا . انه يرى في الكواكب فوقه الاشراق والارتفاع والنظام والدوام فتمتلىء نفسه الكبيرة بهذه المعاني ويذهب تصوره لها الى أن رسالته يجب أن تشرق اشراقها وترتفع ارتفاعها وتدوم دوامها وتنظم انتظامها . انه يغمره من هذا الاشراق والارتفاع والانتظام والدوام ما يرفع عن نفسه الحدود والقيود والموانع . انه يقفل من هذا المشهد الرائع معتقدا أنه لا شيء يستطيع أن يقف في طريق الجبال الذي تزود به ما شهد ورأى والذي قفل به عن أن يتم وعن أن يأخذ طريقه الى الوجود . انه رأى قرا واحدا وسع نوره الكون وشهد سماء واحدة قد أظلت الوجود ، وانه الآن ليرى قلبا واحدا يستطيع أن يتسع للوجود وأن يملأه ضياء وحرارة . انه يشاهد انسانا واحدا يقدر أن يحمل هذا القلب . ها هو ذا قافل وها هو ذا يدخل المدينة يشرق عليها لتشرق هي على الدنيا . انه لا يستطيع فراق الطبيعة ^(١) لأنه لا يستطيع فراق الجمال ، ان كل شيء فيها يروعه جمالا ، وان الليل والنهار والظلام والضياء والشمس والقمر والكواكب والنجوم والكسوف والخسوف والرعد والبرق والغيم والصحو والرياح والنسائم والجبال والسهول والأنهار ^(٢) والغدران وكل النباتات والحيوانات وكل ساكن ومتحرك ، ان كل شيء من هذا ليأخذ بلبه ويبصره ^(٣)

(١) هنا وصل الهدف ، فالجمال الذي يدعو اليه ويمدحه جمال الطبيعة اى جمال

المادة والافعال الايمان والاعمال ليس عنده بشيء

(٢) ليس في الحجاز ولا في المواضع التي أتاها عليه السلام أنهار البتة

(٣) اذن فالرسول كالطفل دائما في روعة ودهشة ، اذا كانت هذه الموجودات كلها تروعه فليس في الزمان لحظة واحدة تخلو من هذه المظاهر الطبيعية . وقد تقدم ما ذكره عن الانسان الأول أنه يهرب من كل متحرك مضطرب ، وبعد كل متحرك مضطرب ، وهنا ادعى أنه عليه السلام دائما في روعة ودهشة مأخوذ بلبه ويبصره بسبب هذه المظاهر ، أما التوجه الى الله فانه أعرض عنه ولم يلتفت اليه

ويلهمه الجمال ، لقد وسعت روحه الوجود كله ،
والجواب ان يقال : ليتأمل المسلم العاقل هذا الكلام من أوله الى آخره
ولينظر الى هذه القحة والجسارة المردولة التي لم يسبق اليها ، وحسبك دليلا
على بطلانها أن كلامه هذا تضمن أن هذا الرجل علم ما في نفس الرسول ﷺ
وما يخطر على باله وما يخالج ضميره وما توسوس به نفسه ، لأنه أخبر عما
تكنه الضمائر وما يجري في الخواطر ، فان هذه الأمور بما لا يطلع عليه الا
الله كقوله ، انه كان دائما يحتضن الطيبة ويحنو عليها ، فأين دليله على هذه
القول الكاذبة ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا . ولم
نعلم أحدا من كفرة الأولين والآخرين اجترأ على هذه الدعوى فادعى أنه
عليه السلام كان يحتضن الطيبة وأنه لا يستطيع الخروج عنها وأنه يحبها لأنه
يحب الجمال ، وكقوله ، فيخفق قلبه بالسرور والرضا ، وكقوله ، انه يرى كل
شيء جميلا لأنه هو جميل ، انه يدرك جمال ذلك بقدر جمال نفسه ومزاجه ،
لأنه لا يرى هناك قبيحا ، وكقوله ، ان كل شيء فيها يروعه ، الى قوله ، وكل
شيء يأخذ بلبه ويبصره ، فكل هذا بهت الرسول عليه السلام وجرأة على
مقامه الكريم ووقاحة زائدة وفضول لا يتكلم به من له أدنى مسكة من عقل .
وقد عاتب الله الذي يرفعون أصواتهم فوق صوته وأخبر أن ذلك من أسباب
حبوط العمل لأن ذلك دليل على عدم هيئته وتعزيره وتوقيره وتعظيمه
واحترامه ، فكيف بمن يترجم عما في ضميره ويدعى عليه بأنه يحتضن الطيبة
وأن كل شيء يروعه ويأخذ بلبه ولا يستطيع فراق الطيبة ، يقول ذلك
بمجرد ظنونه الخاطئة وأفكاره الفاسدة ، وكل هذا الكلام الذي ذكره هنا
يتضمن أنه عليه الصلاة والسلام كان يعبد الطيبة ويتمشق مظاهرها ويهيم بها
في خلواته وأنه دائما موجه فكركه اليها معلق آماله عليها ، ولهذا قال فيما يأتي
انه بدأ رسالته بالخلوة بالطيبة وبمناجاتها ، الخ وهذا كله صريح الكفر بل
خلواته ﷺ هي في النفس كبر في آيات الله والأنس بربه وذكره وتسيحه

وتقديسه والتوجه اليه ومناجاته ودعائه والتضرع اليه سبحانه وتعالى كما دللت على ذلك الاجاديت الصحيحة في الأذكار وغيرها . وهذه المقالة انما يذهب الى بعضها ملاحظة الاتحادية وأمثالهم من زنادقة الفلاسفة ، وانما اتصلت اليه من طريقهم . والعجب أنه ترك ذكر صلاته في جوف الليل ودعائه وتضرعه الى الله ، مع أن قيامه وصلاته ودعائه بالليل كان معتادا ، بخلاف خروجه الى الصحراء . ولكن لما كانت هذه العبادات تناقض دعوته أعرض عنها وذهب يفلسف ذلك الفلاسف الفارغ لاجل أن يظن أنه بهذا على شيء من التحقيق

فصل

ثم قال : لقد بدأ رسالته بالخلوة بالطبيعة ومناجاتها فوق غار حرام ، وختمها بمناجاتها أيضا وهو في حجرة عائشة بينما كان يجود بانفاسه ، فلقد كان في تلك الساعة شاخصا يبصره الى السماء لا يحوله عنها هول ولا أهل ، ويقول : اللهم في الرفيق الأعلى ،

فيقال : وهذا أيضا من جنس ما قبله في البهت والكذب على الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأنه كان يصرف آماله ويوجه همته دائما الى الطبيعة ، وكل هذا دعاية صريحة الى التعاق على الطبيعة وعبادتها ، فلم يكتف بالدعوة اليها حتى يتجاوز الى نسبة الرسول عليه السلام الى كونه لا يستطيع فراقها وأنه دائما يتأججها ويحاطبها ويتعشقها وأنها تروعه وتأخذ بلبه وتلهمه الجمال . وهنا صرح بأن الرسول عليه الصلاة والسلام ما كان يخلو بربه ولا ابتدأ رسالته بمناجاته ولا كان يتأجج باللهاء والذكر والتسبيح والتكبير والتحميد والاستغفار ، وانما كان كالفيلسوف الطبيعي الذي قصر همته على التفكير في الطبيعة ومظاهرها ، فهو يتأجج الطبيعة ويخلو بها ، وهذا يتضمن أنه كان يعبدها ، لأن العبادة ليست بأكثر من التوجه والمناجاة والخلوة وتطبيق الآمال ونحو ذلك ، فهذا هو روح العبادة ، وليس وراء هذا القول كفر وزندقة . ثم العجب من

دهوله أنه ختم رسالته بمناجاة للطبيعة أيضا ، واستشهد به على ذلك بقوله : اللهم في الرفيق الأعلى ، فهل قال : يا الطبيعة في الرفيق الأعلى ، حتى يكون شاهدا لما ادعاه ، بل هذا يتضمن أن الله تعالى هو الطبيعة بمقتضى استشهاده . ثم من أين لهذا الملحد أن نبي الله ﷺ كان يناجي الطبيعة ، فإن هذا لا يخبر به إلا من حضره وشاهده ورافقه في خلواته أو ثبت ذلك بطرق متواترة فإن ادعاء مثل هذا أمر كبير عظيم في الأمور الدينية لا يحترى عليه إلا من لا يعيا بالديانة ولا يحترمها كهذا الملحد ، فكيف يجوز له أن يتفوه به بمجرد أن خطر على باله بدون نظر إلى ما وراء ذلك من الخطيئة الكبرى دينا ودنيا . ثم قوله : « فوق غار حراء » خطأ آخر مركب على ما قبله ، فالمعروف في الصحاح وغيرها في غار حراء لا فوقه ، وفرق بين هذا وهذا ، وبطلان مثل هذا أشهر من أن يطب في رده

فصل

ثم رجع إلى مدح الجبال المأدى وذم الفقر والمرض والجوع لأنه وجد هذه القشور المنبوذة ترثا رخيصا في إمكانه أن يحس كليله الذي هو أغلاله من هذه البضاعة ، لهذا أخذ يلعب في هذا الميدان الواسع كيف أراد ، وقد نقل هنا عبارات للصوفية أكثرها لم يبين قائلها ، وقد وجد كتب للصوفية ملجأ مستطابا له يلجأ إليه إذا احتاج إلى شبهة يرمي بها الإسلام ، وقد بينا مرارا فيما سبق أن المسلمين برآء من كل ما تقوله الاتحادية وأنه هو أولى بهم ، ولو أن يهوديا احتج علينا بكلام هذا الملحد في الإسلام والمسلمين واستدل به لكان احتجاجه من جنس احتجاج هذا الملحد بكلام الاتحادية بمجرد أن كلا منهما يدعى نفاقا أنه مسلم ، لكن الاتحادية أحسن حالا من هذا بكثير كما نبهنا على هذا فيما تقدم ، وإذا كان نفاقا على هؤلاء الصوفية في دعايتهم هذه ، فمن الواجب عليه أن يفرد لهم تأليفا منفردا ويوجه إليهم الذم ويرد عليهم

بالادلة الصحيحة لا بمجرد الاستهزاء والتهكم ، ولكن هو أحقر وأصغر من أن يرد عليهم ، فانهم أكبر عقولا وأصح آراء منه ومن أمثاله ، وانما غاية أن يشابههم في حثالة فكرة من أفكارهم ، وهم لم يتجاسروا أن يتفوهوا بمثل ما تفوه به ، فان غاية ما يعارضهم به أن يثبت ضرر الجوع وهم في إمكانهم أن يثبتوا ضرر الجشع والطمع والشح على الدنيا والتخبط فيها وأخذها على غير وجهها وأن يستدلوا بالنصوص والاضرار العظيمة التي حصلت بسبب ذلك . وأما المرض فلم يمدحه أحد وفي إمكانهم أن يعارضوه بأنه حث على أسباب الأمراض المعنوية والمادية فان كتابه هذا كله في الحث على الأمراض ولا سيما أمراض القلوب لأن مرضها من أعظم أسباب مرض الأبدان ومرضها هو الضرر الحقيقي وهو الداء العضال ، ونحن قد سلكنا المسلك الأوسط في هذه الأمور على ما بيناه فيما سبق

ثم ذكر أن التعاليم الفاسدة أو الصحيحة إذا تعلمها الصغير فانها تنتقل الى خزانة العقل الباطن وتنطبع انطبعا شديدا جدا فتظل مهيمنة عليه بحيث يكون كالمستحيل عليه الخروج منها ، وهذه الدعوى باطلة على هذا الاطلاق ، فان الله سبحانه أرسل الرسل مبشرين ومنذرين لجميع الناس صغيرهم وكبيرهم ، فلو كانت التعاليم على حسب ما ذكر لم يستجب للرسل أحد من الكبار والشيوخ وأمثالهم ، وهذا خلاف الواقع ، فقد علم بلا أدنى شك أنهم قد استجاب لهم أناس كثيرون من سائر أصناف بني آدم من صغير وكبير إلا من حق عليه القول ، وكذلك الدعايات فانها تؤثر في الكبار كثيرا والتائبون من الكبار لا يعدون ولا يحصيهم الا الله ، وكذلك المرتدون - وهذا الملحد منهم - أكثر من أن يحصوا ، وهذا الرجل مكث ماشاء الله على ما يدعى من أنه تعلم الدين الصحيح في صغره ومكث مدة طويلة ثم انقلب على وجهه هذا الانقلاب المفاجيء المنكر الذي لم نعلم أحدا من العالمين سبقه

الى مثله ، فانه يوجد من ينقلب من بدعة الى بدعة أو من حق الى بدعة أو من ملة الى ملة أخرى كاليهودية والنصرانية ، ويوجد أيضا من يرتد مطلقا ولكن لا يتعرض للأديان ، أما هذا فانه تجاوز هذه الحدود كلها فلم يقتنع بالردة من دين الى آخر ولا بالردة مطلقا بل كفر ونافق وألحد وحارب الله ورسوله والمؤمنين بمحاربة الأديان كلها حربا لم يعملها أحد فيما نعلم من الملحدين الهدامين ، ولهذا كان عند أولى العلم من أعداء الأديان الباذلين ما في وسعهم لازالتها وإماتها وهدمها وبأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. وبالجملة فما ذكره من تأثير التعاليم في حالة الصغر وأن الصغير لا يقدر أن يتخلص بعد ذلك من تعاليمه غير مقبول ولا معقول لما ذكرنا . ونحن لا ننكر تأثير التعاليم في الصغر في نفس الانسان في الجملة ، لكن ننكر حكمه على أن الخروج منها مستحيل او كالمستحيل اقتداء بما زعمه أن سادته عليهم النفس قرروا ذلك فقدم قولهم - لو صدق - على الشرع والعقل والخس والضرورة ، وهذا واضح والله الحمد

فصل

ثم ذكر شيئا عن حالته السابقة قبل أن يعمل أغلاله التي خنق بها ، وقصده وغرضه من هذا تصوير حالة المؤمن القانع بما آتاه الله ، ليوم الأجنبي ومن لم يعرف الدين أن المؤمنين هذه هي حالتهم ليكرهوا الايمان وينفروا منه ويمقتوا أهله ، فهو يتوسل بكل ما يقدر عليه في التنفير عن الاسلام والقدح فيه وفي أهله ولو بالحكاية عن نفسه والقدح فيها فقال :

« ان ذكرى تفيض بالمرارة والحسرة ^(١) تعاودنى كلما مرّ بخاطري عصر مشوم قضيته مسحورا بهذه الآراء ، كنت أفر من الحياة وبما يعلى من قيمة

(١) الآن ذقت المرارة والحسرة والحسرة

الحياة . لقد كنت لا أجد ما يحملنى على أن أرفع قدمى لو هلت أنى إذا
رفعتها تكشف ما تحتها عن أعز ما عليه يتقاتل الاحياء ، وقد ضاعت على من
أجل ذلك فرص كان يمكن الاستفادة منها لا يمكن استرجاعها . كان الغرور
الدينى (١) قد افسد على كل شعور بالوجود وبجماله ، وكنت مؤمنا بأن من
فى المجتمع لو كانوا يرون رأى ويזהدون زهدى لوقفت الاعمال كلها ولما
وجد العالم بدا من أن يخرب (٢) كنت أنظر الى من يهتمون بالحياة وبمن فيها
ومن يعملون لها ويحاملون ويخالقون من أجلها بعين أقل ما فيها الاحتقار
والاستصغار ، وكنت لا أبالى بأحد منها كان عظيما ومنها كان قادرا على النفع
والضرر ، وما كنت أفكر فى أن أجد فرصة للقائه أو للقرب منه أو للاتصال
به (٣) وكنت لا أخالق إنسانا رغبة فيما يتخالق الآخرون من أجله ، وكان
شعارى فى تلك الفترة قول ذلك المغرور المخدوع مثلى :

إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذى فوق التراب تراب
فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر وبينى وبين العالمين خراب
نعم كنت أعتقد أن الكل هين وأن جميع ما فوق التراب وما فى العالم
من جمال وطيبات وحاجات ومن أقوام وأمم وشعوب تراب ، وكنت لا
أبالى أن يحلو شئ من ذلك أو يمر ولا أن يرضى ويفضب ولا أن يعمر
ويخرب كما يقول هذا الشاعر المسكين ، وكنت أرى أنى بذلك أَرْضَى الله
وأنى إذا أَرْضِيته فلن يضرنى شئ ، وكانت الدنيا كلها تدور من حولى من غير

- (١) هنا اعترف بأن حالته الأولى كانت على غرور دينى
(٢) لعلك انما تحللت من دينك لتعمر العالم وتضع الحياة كما تدعى أن المتحللين
من الأديان هم الذين صنعوا الحياة
(٣) هذا مجاهره بالكذب ، فانه فى تلك السنين كان يعمل فى التعلق والقرود على
أبواب الاغنياء وذوى السلطة دائما من أجل أغراضه الدنيوية

أن أدور معها أو أحس دورانها ، وكان يخيل الى والى غرورى الدينى الاعمي
 أنه لا قوة كقوتى لأن الله معى واهب القوى ^(١) فليقو العالم كما شاء وليجمع
 من الأسباب ما طاب له وليحاول من أجل نفسه ما يحاول ، فان ذلك كله لا
 قيمة له ولا خطر بالنسبة الى قوة من استقوى بطاعة الله ، ومن ترك الأسباب
 جملة مستمسكا بأسباب الله وحدها ، وكان يبدو لى أنه بقدر ايمان الانسان
 بذلك وبقدر كراهته العالم والوجود الدنيا والانسانية كلها وبقدر استصغاره
 لها واحتقاره اياها وكفره بها ومغاضبتها ومجانبتها بل سبها ولعنها يكون قربه
 من الله ورضاه عنه ودلاله عليه ، وكانت هذه الاعتقادات أو الخيالات تهبط
 بنى وتعلو وتجعل لى وجودا خاصا وعالما خاصا ودنيا خاصة تدور من أجل
 واحد وتوجد لأجل واحد أيضا ، واحد أرضى الله ووهب له كل معانيه
 فوهب له على حسب ما يظن كل ما يريد ، ولو كان فى جملة ما يريد اعزاز
 الأسم واذلالها ، انتهى

والجواب أن يقال أولا : ان أكثر ما ذكره هنا عن حالته السابقة كذب
 ظاهر تكذبه أفعاله وأقواله الصادرة منه فى ذلك الحين ، وانما قصد به هنا
 تشويه حالة المؤمن القانع عند من لم يعرف الايمان والقناعة ، وحسبك دليلا
 على فجوره فى هذه الدعوى سيرته مع أمه وعقوبه لها وعدم صلتها بشيء لا
 قليل ولا كثير بل ولا رسالة واحدة ما ينيف عن ثلاثين سنة مع أنه أخذ
 مدة طويلة وهو يستلم رواتب وغيرها بل كان مشغوظا متبالكا على حب المادة

(١) ولكن الآن يخيل اليك والى غرورك الالحادى المعكوس أن لا قوة
 كقوتك ، لانتك قدرت بأن فى الانسان استعدادا ذاتيا فى إمكانه أن يصل به الى
 كل شيء وأن يتغلب على كل شيء كما تقدم ، فغرورك معك انما بدلت متعلقه وهو
 الدين كما تزعم بالالحاد . ولعل هذا الخيال بما حدا بك الى تأليف هذا الكتاب
 لتتخذ زعما على الأقل للعروبة

الى حد بعيد عند كل من عرفه ، بل كان معروفا عند كثير من المطلاعين على حالته بانه كان يؤجر نفسه في انشاء المقالات يعرض بها للناس بالنقد والسباب وقد اشتهر ما عمله قبل رده بسنة حين وصوله الى الحجاز من اللجج والتملق والمصانعة الزائدة واستعمال ما أمكنه من الوسائل في التوسط له بادخاله لأحدى الوظائف العلية ، فلما أخفق عمله عمل ما في وسعه في طلب زيادة راتب فعمل من المزاحمة والملق والتذلل ما لا يحتاج الى شرح طويل فان شهرته في ذلك تغنى عن التطويل

ثانيا : على فرض التزل معه نقول أظهر ما ذكر عن نفسه في هذه الجملة القناعة فقط ، ولكنها مدخولة بشيء كثير من العجب وفساد الاعتقاد والزهو . وهذه الآفات كثيرا ما تظهر في ملاحح كتبه ومقالاته كلها ، وقد ازدادت هذه السجاياء في نفسه حتى انفجرت عن هذا البركان الذي تلوثت به ثيابه اللامعة وصحابه وجميع من حوله ومن اتصل به ، فهذه الأغلال هي ثمرة هذه السجاياء الكامنة العريضة فيه ، ولا شك أن نظريته التي ذكرها عن نفسه في هذه نظرية باطلة فالؤمن القوى الايمان يجب أن يكون على حذر من مكر الله ، ويجب عليه أن لا يعتمد إلا على الله سبحانه وتعالى ، وأن يعلم أنه مأمور بفعل الأسباب التي تقيم دينه وديناه ، وأن يعلم أن الله تعالى سيعينه متى صح نيته وأخلص عمله ما لم يكن هناك مانع من جهة العبد ، أما أنه يشتم الدنيا ويلعنها ويمتقد أن في وسعه أن يفعل الله له في هذه الدنيا كما يريد ولو كان من ذلك إعزاز الأمم وإذلالها فهذا لا يعتقده إلا جاهل مغرور مثله ، ولهذا كان مصحوبا بالغرور في حياته كلها ، فهذا الغرور الذي انتقده على نفسه هو معه الآن ، وانما ألقى الأخلاق الدينية فقط (١) وأبدلها بأخلاق إلحادية ، فتلك الأخلاق انعدمت حين لوئها قذارة الغرور والكبر والاعجاب ، وكانت تلك

(١) أى إن كان ثم شيء

الأخلاق الضئيلة المدخوله مسكه له عن السقوط ، فلما ذهبت أثقلت دماغه هذه الاخلاق الباقية معه فسقط منكسا على أم رأسه في هذه الهاوية السحيقة والعياذ بالله . وكذلك ما ذكره أيضا من القناعة ورضاه بالعيش والطمانينة والراحة - لو صح - فهو لأن نفسه كانت مرتفعة بقدر ما معها من الايمان ، فلما ذهب ذلك الايمان انحط وأخلد الى الارض فأصابه ما أصاب الذي يلهث على الدنيا بهذه الشدة الغربية والجشع الفظيع ، فاستعاض عن الايمان بالاحاد ، وعن القناعة باللذات والجشع ، وبقيت معه طبائعه القديمة من الغرور والعجب واسفاف النفس وفساد الاعتقاد ، فازداد رجسا الى رجسه نسأل الله السلامة بمنه وكرمه

فصل

ثم قال ، وكانت الخطب الاسبوعية التي أسمعها والعظات الأخرى المتجددة المتكررة المستمرة والسكتب التي أقرأها لا تدع فرصة لي لتنبعث غريزة أو تنطلق طبيعة من الغرائز والطبائع الكامنة ^(١) في أعماق النفس وفي ثنايا الوجود الانساني التي تدفع الى العمل والى حب الحياة ، وكانت تلك الغرائز والطبائع والمعاني الانسانية عندي معقلة لا تستطيع الانبعاث ولا الانطلاق ولا العمل ، كانت الخطب أيام الجمععات إحدى النكبات ^(٢) وذلك أنها لتكررها كل أسبوع استطاعت أن تجعل تخديرها مستمرا مضمونا متجددا ، فالطبيعة الانسانية تأبى الشقاء والبؤس وتأبى أن تبقى مستذلة راضية ^(٣) مستسيلة لذلك إلا اذا أمكن أن تعقد وأن تمنح القيام بوظيفتها بأن تعمل لها عملية تخدير أو

(١) قد ذكر أنها شريرة خبيثة كما تقدم

(٢) تأمل هذا ، قبل اجترأ أكفر كافر على مثل هذا القول

(٣) نسي دعواه أن الانسان بطبعه شرير خبيث ظالم شيطان جاهل

تنويم صناعى أو شئ آخر من تلك العمليات المبيدة . وكانت خطبة يوم الجمعة من أعظم وأقوى ما يقوم بهذه العملية لأنها لتكررها لا تترك فرصة لا انطلاق معنى طيب من معانى الانسانية ، انتهى

قلت قد تقدم له شئ من الكلام فى سبب الخطب ، ولكنه لم يشف غيظه فأعاده هنا بما به من قلق الخبث والحقد على الدين وأهله ، وقد أطلال الكلام فى سبب هذا المظهر الأعظم الاسلامى ، وأفرغ جميع ما يحمله فى صدره من القبيح والعداوة المنكرة ، وهذا الملحد مصاب - كما قلنا غير مرة - بانقلاب القلب والفكر والرأى والقول والعمل ، ولهذا فانه يأتى الى الأمور التى هى أوضح من الشمس ضحوا فى نصف النهار فينكرها ويكابر فى جحودها ، كمثل ما ذكره فى هذه الحملة الخبيثة من ان الخطب فى المساجد تخدر عن العمل ، وقد علم بالضرورة والمباشرة أنها هى التى توظف الطبائع وتنفع فيها روح القوة والنشاط والحاسة الحادة ، فهؤلاء الذين يصلون الجمعة ويستمعون الخطب أعظم الناس شجاعة وقوة وثباتا وقيامًا بالأعمال وأشدهم مكافأة للأسباب القائمة ضد أعمالهم ، وان أولئك الاباحية الذين لا يحضرون الخطب أيام الجمع هم أعجز الناس وأكسلهم وأوهنهم ، فلا تخدم الا فى مواضع الرقص والخلاعة وأنواع الملاهى ، فلا يعملون أعمالا دينية إلا مدفوعين اليها دفعا ولو تركوا لما عملوا أعمالا نافعة أبدا ، ولهذا لا يوجد التخلف والجبن والوهن والكسل إلا فيهم ، واذا أردت تحقيق ذلك فانظر الى الذين يعتادون المساجد والى الذين يعتادون مواضع اللهو وانظر الى أيها أنشط وأقوى قلوبا وأعز أنفسا . ومن أعجب العجب أن هذا الزنديق قد أبصر ورأى هؤلاء الذين يشربون الخمر وأنواع المسكرات والخدرات فى الفنادق ومواضع اللهو والغناء فلم يتكلم فيهم بشئ ، بل أشار الى الرضا عنهم مع كثرتهم وفسادهم وعموم ضررهم ، وعمد الى هؤلاء الاقوياء النصحاء الاقلين الذين يصلون الجمع ويستمعون الخطب التى تشتمل على ذكر الله ودعائه

وتقديسه تعالى فتوقظ حرارة الايمان وتلهبها وتبعث القوى النفسية فادعى أنها
تخدر ، مع أن هؤلاء هم الذين ينفعون الأمة دائماً في جميع مواقفها ، فهو
ينظر الى الخمر والمخدرات فيسكت عنها ويعمد الى ضدها فيدعى أنها تخدر ،
ولا عجب فليس ينتظر من الملحد الاباحى أن يقول : هؤلاء المسلمون الذين
هم أعظم الناس حضوراً للخطب والاستماع لها هم أشد الناس مناعة وقوة في
جميع الأعمال التي يباشرونها ، بخلاف المارقين فانهم أسأم الناس وأخونهم
في جميع أحوالهم وأعمالهم . ثم ما هو وجه التخدير وما كيفيته ، هل هو
السكوت لاستماع الخطب ، فالسكوت لا بد منه سواء كانت الخطب دينية أو
دنيوية في الجمعة أو غيرها ، بل لا بد لكل سامع كلام من الانصات وإلا فلا
فائدة لكلام المتكلم ، أو هو شيء آخر فلم لم تبينه ، وإنما مرادك التنفير
والتشويه . وإذا كان هذا الملحد قد عرف هذا من نفسه وأن مواعظ الشرع
في منابر المساجد تخدره لأن نفسه سريعة الانحدار الى ما يلائم أخلاقها ،
والخطب تخدر أحاسيس الشر والغرور والاعجاب والزهو ، فليس له أن يقيس
الناس على طبعه ، فإن الناس لو كانوا مثله لكانوا زنادقة ملاحدة إباحية ، ولا
شك أن هذه الاخلاق الخبيثة لا تلائم الخطب بل تمنعها وتعقلها وتمسكها عن
التدهور بصاحبها ، وهذا كما يفعل الصبي الذي ينطلق أمام شهواته فيمنعه
أبوه أو ناصح له فيظن أنه يعقله ويمنعه عن شيء مستحسن ، وهو إنما يمنعه
عن الشر والسقوط ويدفعه الى العمل النافع والآداب الصحيحة

وقوله « كانت الخطب أيام الجمععات إحدى النكبات » هكذا ادعى الملحد
مجاهرة على رموس الأشهاد في وسط هذه الامم التي تقدر هذا المظهر الذي
هو أعظم مظهر ديني إسلامي أسبوعي ، فجعله إحدى النكبات بدون جمعة
ولا تكتم ولا خوف ولا حياء ، فواغوثاه

حقاً لقد هزلت وقام يسومها نذل غنى غافل متغال
وهل هذا إلا من أعظم الأسباب التي أوصلت المسلمين الى هذه الحالة ،

وأي كفر في الدنيا أظهر من هذا الكفر . ولا شك أن الخطب أيام
الجمعات إحدى النكبات عليه وعلى أمثاله من الملاحدة ، فإنها هي التي أخرجت
صدورهم وأذاقتهم عظيم البلاء ومرارة العناء لأنها ضد اعتقادهم وضد مقاصدهم
بل هي حريهم ، فإن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً ،
ويحبون الانطلاق في ميادين الاباحية المطلقة والصد عن سبيل الله ، وهذه
الأمور لا تتفق مع الخطب فهي إحدى النكبات عليها وعلى أصحابها ، ولهذا
كانت حرباً مستمراً متجدداً مضموناً هؤلاء الأغبياء والأشقياء الهدامين
لأنها تحذر عن الاباحية وتحافظ على تقويم الفطرة وتصفيها وصقلها وتحذر
عن الشهوات واتباع الهوى ، فهي الدواء الوحيد لهذه الادواء القاتلة ، ولهذا
شرعها الله تعالى في كل أسبوع لطفاً وحفظاً لعباده وحماية لهم عن السقوط
في دركات الخبائث والرزائل التي يحاول كل زنديق ملحد أن يدفع كل
ضعيف في هاويتها . وحاصل ما ذكره عن التخدير ، وتطويله في ذلك ، أن
الخطب تمنع اندفاع الطبيعة عن قضاء وطرها من عمل وشهوة ، وقد سبق
كلامه أن الانسان خلق شريراً خبيثاً ظالماً وأنه ان لم يعلم نشأ على العدوان
المطلق الذي لا يعرف القيد ولا الضبط ، وأن ما به من الخير والاحسان فهو
مكتسب من الآديان ، وأن المجردين من الآديان ينشأون على الشر والخبث ،
وهنا يدعى أن الخطب تخدر عن انبعاث الطبيعة على العمل ، فانظر الى هذا
التناقض المنكر . وقد بينا فيما سلف أن الانسان له طبيعتان طبيعة عقلية
فطرية حنيفة وثابة تطلب العمل النافع والنشاط فيه ، وتمنع ما يعوقه عن ذلك
من العجز والكسل والشهوات البهيمية التي هي أسباب الوهن والفتور وضعف
الهمة ، فهذه الفطرة موافقة للخطب وهي لها بمنزلة المادة الصحيحة التي تمدّها
عن الفتور وتنشطها وتلهبها وتدفعها الى الأعمال النافعة الناجحة البارعة القوية ،
وأما الطبيعة الثانية فهي مكتسبة متحطة سببها حب الشهوات والتعلق
بالشبهات ، وهي تبعث على المفاسد وحب الراحة والعجز والكسل والجبن

والفتور وقضاء الشهوات النفسانية ، وهي تضاد الطبيعة الأولى وتضاد مقاصد الخطب فلا تتفق معها فهي مسلطة عليها وهي أعظم أعدائها فانها تعقلها وتصادمها وتمنعها عن مقاصدها فهي إحدى النكبات عليها وعلى أصحابها ، وخلق بأهل هذه الطبيعة أن يعادوا الخطب ويعادوا أهلها ومن قام بها ، لأن التباين والتضاد في المقاصد والآراء وغيرها هو أصل المنافرة والمعاداة في كل شيء

فصل

قال : ان القوانين تعاقب من تناول المخدرات مرة في خفية وعلى حذر ، ولكنها تبسح تخدير الآلاف بل مئات الملايين في المساجد والجمعات كل أسبوع بل كل يوم أحيانا ، ثم تحت هؤلاء المخدرين على أن يتخدروا بل وتجازيهم بتوظيفهم وتقطع لهم من أموال الدولة المكافآت الشهرية ^(١) وهذا بلا ريب من أعجب مناقضات القوانين وغرائبها ، انتهى

والجواب أن نقول : اذا كان الحال ما ذكرت فنحن نشك بما هو أعجب مما ذكرته ، ذلك أن القوانين تعاقب أشد العقوبات من يحاول العبث بنظامها ودستورها الذي تمضى عليه أحكامها وتنزل به أفدح العقوبات اذا حاول قلبه رأسا لعقب ، وتعاقب أيضا أشد العقوبات من يقف ازاء مبادئها الأساسية المحترمة ، وتعاقب كذلك من يشتم أديانها ويطعن بجاهرة فيها ، ومع هذا كله فقد ثبت ثبوتنا لا مرية فيه أن هذه الأمور كلها قد اجتمعت فيك وصدرت منك بجاهرة على رموس الاشهاد ، ومع هذا كله تركت وأهملتك وغضت الطرف عنك وعاملتك بخلاف أوضاع قوانينها ودستورها الذي تجرى

(١) هذا برهان على أنها ليست من التخدير في شيء ، وأنه لم يرها تخديرا غيرك ، وان هذا برهان على ضلالتك

أحكامها عليه ، فإن كانت في إكرامها لهؤلاء الذين يذكرون الله ويدعونه على المنابر في بيوته التي أذن أن ترفع ويصلون له فيها ويعبدونه مناقضة مع أنهم أحق الناس كلهم بمال الله الذي تفضل به على عباده فإنه إنما أعطاهم ليعبدوه فهي - أي القوانين في ترك من حارب الله ورسوله والمسلمين وشن الغارة على هذه المبادئ المقدسة - أعظم تناقضا ، وإن لم تكن متناقضة بطلت دعواك . ونحن لا نشك كما لا يشك غيرنا من المسلمين أن المقصود من كلامك هذا هو الحث على محاربة هذه العبادات ومطاردة أهلها ، وإن مغزى هذه الدعوى هو مغزى قول الذين قالوا لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا قال تعالى ﴿ وَفِي خَزَائِنِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنِ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ والمسلمون كلهم على اختلاف مذاهبهم من أولهم إلى آخرهم يعلمون ويعتقدون أن خطب يوم الجمعة من أعظم واجبات الدين كالصلاة بلا فرق وهي من أعظم شعائره وإنها فرض لازم من فروضه وأركانه اللازمة ، فمن قدح في الخطب والخطباء وطلب إزالتها وطردها أهلها وجعلها بمنزلة الخمر أو الخشيش فقد صرح بأنه يجب رفض الدين ومجاهدة أهله وتعذيبهم ، فإن هذا من أعظم مظاهره ولا سيما مع ما تقدم من دعواه أن الدعاء مصرف خبيث ، ومعلوم أن الخطب تحميد وتشهد وصلاة على النبي ﷺ ومواعظ من القرآن والسنة وما يتضمن ذلك ، وهذا كله موجود في القرآن وفي الصلاة وفي جميع العبادات ، وهذه المصاحف قد ملأت أكثر الأمكنة فليطلب تحريقها إذن ، فإن من قدح في هذه المظاهر فلا شك أنه قادح في الإسلام مجاهرة ، وكلامه من أول اغلاله إلى آخرها يدور على هذا القصد الملعون ، وليت شعري كيف تجاهل هذا الخبيث ما في مواضع اللغو من الغناء والاستهتار والفجور والخلاعة وما في بيوت السينما من هذه الأمور التي لا تعد ولا تحصى وما تنشره المجلات والجرائد اليومية والشهرية والاسبوعية من الحث المتواصل على الفسوق والفجور وضروب المفاصد التي تفوت الحصر بصورها ومقالاتها ، لم لم يدع

فيها مثل هذه الدعوى وهو يعلم حقيقة العلم أن الذين شغفوا بهذه الامور أكثر من أهل المساجد والمنابر وأن هذه تستغرق الوقت كله بدون نتيجة مشمرة (١) - نعم ان سكوته عنها بل ترغيبه فيها وتحامله على أهل المساجد والمنابر من أعظم البراهين على خبث طويته وأنه أعدى عدو للاسلام وأهله وأنه عمل هذه الاغلال خدمة لاعداء الدين واتباعا لهواه وشهوته وانحراطا في سلك الملحدين الهدامين المعتدين

فصل

ثم قال : لقد أريد أن تؤدى المنابر والمساجد أعظم المنافع للانسانية ، فأدت شر ما يؤدى ، أريد منها أن تحي فأماتت ، وأن تعز فأذلت ، وأن تهدي فأضلت ، وأن تبعث على العمل فبعثت على الكسل ، وأن تمدح الحياة فامتدحت الموت ، وأن ترفع من شأن الجبال وتحببه فرفعت من شأن الدمامة وحبيتها اليها (٢) وأن تملأ النفوس بالحقائق فلأتتها بالأوهام ، وأن تخلق شعوبا متوثبة فخلقت شعوبا خاملة عاجزة تنتظر وجودها وحياتها من خارجها لا من أنفسها ، معلقة أبصارها دائما بالسماء ، منتظرة أن تمطر عليها الذهب والفضة والسيادة والوجود والعز وكل ما يؤمل ، ولا تنظر الى نفسها والى طبيعتها (٣) فاقبح بها من منابر أشاعت الموت والدمار والظلام والجهل ، فيقال : ايه ، كل هذا عندك ، كل هذا أنت مضمرة من هذه السنين الطويلة ، لقد تكلفت أمرا كبيرا ، وكيف ضم صدرك هذا القبيح كله في هذه

(١) بل تمت أخلاق الرجولة والكرامة والحياة موتا لاهياة بعده صحيحة

(٢) قد علمت بما مر أن الدمامة والجهل والموت هي عنده علوم الدين ، فقمح

الله من يخفى عليه كفر قائل هذا الكلام

(٣) قد تقدم قوله أن الانسان خلق بطبيعته شريرا خبيثا ظالما ، فهل يريد أن

تنظر الى هذه الفرائز . فقبحه الله ما أقدر كلامه

المدة ، فلا عجب اذن ان ذكرت فيما سبق أنك مكثت ست سنين كشبه مريض تشفى اذا حدثت فيها وتمرض اذا سكنت عنها ، فلا بد اذن من إخراج هذا البلاء المضغوط الذى أكل صدرك وقلبك والاقتلاك ، لقد خاب سعيك ولطم وجهك وسامت لك العقبي وأصبحت من الخاسرين ، لقد قذفت من حائق وتدهورت فى أشنع المزالق فلم يشف لك فؤاد ، بل زادك عذابا فوق العذاب ، حتى كنت أحقر من قامة وأقدر من نخامة ، وازددت بذلك رجسا الى رجسك وبلاء على بلائك ، وما أخلقك بدخولك فيمن قال الله فيهم ﴿ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون ﴾ . وقد زاد فى هذه الجملة الخط على المساجد علاوة على المنابر فادعى أنها أدت شر ما يؤدى . ومعلوم أن المساجد لا تؤدى الا الصلاة وقراءة القرآن وذكر الله تعالى ، فانها لم تبين الا لذلك ، وكذلك المنابر فانها لم توضع الا لحمد الله والثناء عليه وتحميده وتمجيده وتقديسه والأمر بتقواه ، فهذا هو شر ما يؤدى عنده ، أما ما يجرى فى مواضع الملاحى من الغناء والرقص وشتى الدين والاستهانة بحرماته والفسوق والفواحش ونحو ذلك فهذا لا باس به أو هو خير ما يؤدى لأنه أشار فيما سبق الى انتقاد من أنكر علم الشطرنج والموسيقى ، ولانه فيما يزعم فى مقام الدعاية فى مقاومة كل معطل عن العمل فلو كان فى ذلك أدنى شر لذكره أو اشار اليه ، وقد تقدمت دعواه أن تأخرنا ليس لفساد فى الاخلاق ، ومعلوم أن استغراق الأوقات فى هذه الأمور أعظم من استغراق أوقات ضئيلة على المنابر وفى المساجد ، وقد بينا فيما سبق أنه يريد بالموت والذل والضلال والكسل والدمامة والاهوام - الاخلاق الدينية ويريد بالحياة والعز والحقائق والعلم والجمال الانعاس فى قضاء الشهوات والانطلاق فى الاباحية وعبادة الطبيعة والمادة ، وخلق بمن هذا معتقده أن يحمل على الخطب فى المساجد هذه الحملات الجنونية لانها ضد دعايته وارادته وأفكاره فى أغلاله ، وقد ظن أنه بهذه الترهات والقحة الزائدة سيغير الخطب أو يزيلها ويشفى

تحيطه منها وأهلها ، وهيبات وما كيد الكافرين إلا في ضلال
 وهل حظ قدر البدر عند طلوعه إذا ما كلاب أنكرته فهرت
 وما أن يضرب البحر أن قام أحق على شطه يرى إليه بصخرة
 وقد بين في هذا وجه انتقاده على المسلمين في خطبهم ، ذلك بأنهم
 يتوجهون إلى الله تعالى ويلجئون إليه في دعائهم ، ومعلوم أن هذا شامل الخطب
 الدينية كلها ، وقد أكد هذا بقوله ينتظر وجودها وحياتها وحاجاتها من
 خارجها لا من أنفسها وطبيعتها ، فكل من لم يطلب حاجته من نفسه وطبيعته
 فهو مؤدثر ما يؤدي وفعل ما ذكر من الشناعات ، وقد صدق فأنهم في الخطب
 والمساجد لا يعبدون أنفسهم ويسبحونها ويقدمونها ويصلون لها ، وإنما
 يطلب المسلمون ذلك من الله ، وقد نسي هذا الملحد دعواه فيما سبق أن
 الإنسان خلق بطبيعته شريرا خبيثا ظالما وأنه شيطان وأنه إذا تركها بدون
 تعليم ينشأ على العدوان المطلق الذي لا يعرف القيد ولا الضبط ، فهو يريد
 بهذه الدعاية الخبيثة أن ينظروا في خطبهم ومساجدهم إلى أنفسهم وطبيعتهم
 التي صرح بأنها شريرة خبيثة ظالمة مطبوعة على العدوان المطلق فيطلبون منها
 الخير والوجود^(١) وكل ما يؤمل ، ويعرضوا عن التوجه إلى الله الذي له الكمال
 المطلق الرحيم الرؤوف القدوس الجواد الكريم . فواغوثاهم كمن تضمن هذا
 الكلام من الخبث والكفر العظيم والدعاية الملتوية التي حقيقتها الدعاية إلى
 الموت والدمار العاجل ، وهذه هي عادته يوجه أحد سهم لديه إلى روح الدين
 وقلبه ، فهو دائما يضاد ويحارب الدعاء والتوجه والافتقار إلى الله والاستعانة
 والاستغاثة به ، وهذا هو روح الدين ، ومع ذلك يصرف كل عنايته إلى
 التوجه إلى ما لا يغني شيئا مع تقريره أنه شيطان شرير خبيث ظالم فسبحان من
 تقاب قلبه وجعله بهذه الحالة الممسوخة خبيثا وقبيحا . وباليك هذا الملحد صدق

(١) ما ندرى ما هذا الوجود

في جملة الناس وأنهم جميعا على هذه الحالة في الاعتماد والتوجه الى الله تعالى والاستعانة به في كل أمورهم محققين ذلك قولا وعملا ، فانهم لو فعلوا ذلك لبلغوا آمالهم ، وانما جاءهم هذا البلاء من أجل ترك غالبهم تحقيق هذا التوجه الى السماء وتقصيرهم في إخلاصه والحفاظة عليه ، اذ تفرقوا شيئا فبعض منهم قصد نجاياه مخلوقات عاجزة عن دفع أضعف شيء عنها ، وقصد بعض آخر نفسه وطبيعته واعتمد عليها اغترارا بأمثال هذه الآراء السخيفة فترك الخطب والمساجد ، وانما في الملاحى وغيرها ، وظن المسكين أن توجهه الى خالقه وفطره الذى بيده ملكوت كل شيء لا ينفعه ولا يجديه شيئا فاستصغر هذا الامر العظيم واحتقره ، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار . وهذا حال كثير من فروخ الملاحدة العصريين الذين شتموا بأنوفهم عن التقيد بالتماليم السماوية فكانت عاقبة هؤلاء أن لعنوا في الدنيا والآخرة ولم يحصلوا شيئا مما راموه ، بل كانوا على أسوأ حالة وأخسر نتيجة وضل عنهم ما كانوا يفترون .

وقوله « فأقبح بها من منابر ، أشاعت الموت والدمار والظلام والجهل » . فيقال : اخسأ يا عدو الله ، ولن تعدو قدرك ، هذه نفثة مقهور وأنة معثور ، موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور ، فان هذه المنابر المنيرة لتكونن شئى في حلقك وقذى في عينك وريبة في قلبك الى أن يقطع الله دابرك . فيالله وياللمسلمين من هذا الوقح الزنديق كيف يقبح أبرز مظهر دينى أسبوعى من مظاهر الأمة الاسلامية في عباداتها مجاهرة ثم لا يرجم كما يرجم أمثاله من المعتدين . تالله لقد عاد الاسلام غريبا كما بدأ ، وتالله لقد أصبحنا بسبب ترك مثل هذا الوزغ شماتة للعدى ، فانا لله وانا اليه راجعون

فصل

ثم قال الملحد « كم ارثى لهؤلاء البائسين المساكين الجائعين العارين حينما

أراهم يوم الجمعة وآذانهم مرهفة وأعينهم مشدودة بذلك الخطيب الذي عبث بجسده الناحل المشوه الجهل والشقاء وكل ضروب الحرمان ، ينتظرون منه أن يطعمهم وأن يكسوهم وأن يهبهم الصحة والعافية وأن يبني لهم المنازل الجميلة وأن يقضى لهم كل حاجة ورغبة وأن يقدم لهم الاستقلال والسيادة كهدية خالصة رخيصة ، وأن يدخلهم أخيرا مع النبيين والصديقين والشهداء في صنوف الأبرار المقربين ، والنمّن لذلك كله لا يعدو كلمات خفيفات مبهات مجهولات يتمتمون بها ، وبعض حركات يمثلونها أو تمثل بهم كما هو الصحيح بدون أن يفقهوا لها معنى أو يدروا لها غرضا وغاية ، وكّم أرثى لهم وأبكى وهم يتأبلون تحت ذلك الخطيب ويهزون رؤوسهم الفارغة ويترنحون بأعطافهم المحطمة تحت تلك الأسمال البالية الممزقة كلما سمعوا وعدا أو وعيدا وكلما سمعوا الآمال الضخمة الرخيصة تزجى اليهم والأهوال المذهلة تصب عليهم ،

والجواب أن يقال : وهذا أيضا من جنس ما قبله تشنيع واستهزاء بحت وتهكم بمظاهر الأديان السماوية ومحاربة لها بدون حجة ، وقد ادعى - على وجه المغالطة - أنهم يطلبون هذه الأمور كلها من الخطيب ، فمرة يقول يطلبونها من السماء وحينئذ يطلبونها من الخطيب ، وادعى أيضا أن المستمعين ينتظرون الإجابة من الخطيب ^(١) وكل هذا تهكم ونباح مرذول لا يتكلم به الا مخبول ، وقد بلغت الوقاحة بهذا الملحد مبلغا لم يصل اليه قبله ملحد ولا بشر كافر ، فقلوله كم أرثى لهؤلاء البائسين المساكين الى قوله كم أرثى لهم وأبكى فيقال له ان كنت ترثى لهم وتبكي سخرية بهم فهم يحمدون الله الذي عافاهم مما ابتلاك به ويرثون لك ويقولون ﴿ ان تسخروا منا فانا نسكر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ وقد سبقك من هو

(١) يفهم من كلامه أن الخطيب يأتي كل يوم جمعة بحزن وعنائم وأقشمة يقسمها على المصلين ، فانظر الى هذه القحة والفجور الزائد

على شاكلك بهذه السخرية والاستهزاء بذكر الله وعبادته كما قال تعالى ﴿واذ
ناديتهم الى الصلاة اتخذوها هزوا ولغيا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ وكما قال
تعالى عن المنافقين انهم يقولون لمن آمن مع النبي ﷺ ﴿غرّ هؤلاء دينهم﴾
وقال تعالى ﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا﴾
وقال تعالى مخبرا عنهم ﴿ان الذين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون﴾
واذا مروا بهم يتغامزون ، واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين ، واذا رأوهم
قالوا ان هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين ﴿فكان عاقبة كل من
هؤلاء وهؤلاء ما ذكره الله تعالى بقوله ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار
يضحكون على الآرائك ينظرون هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون﴾ فانقلب
الحال وأصبح المستهزء هو المستهزاء به ، وأضحى الساخر هو الذى يسخر
منه ، ونحن نقول لهذا المبلى وما أرسلت على هؤلاء المستمعين حافظا
ومسيطرا ورقيبا ، ومجرد ما ذكرته هنا تهكما واستهزاء لا فائدة فيه ولا طائل
تحته ، ولو أنك ناصح فعليك أن تذكر فعلهم وحجتهم ثم تبين خطأهم وترد
حجتهم ثم تثبت طريق الرشد فحسب ، أما هذا التهكم والسخرية بهم فهو برهان
على أنك ذو هوى وعداوة لهم ، لأن هذه العناية ليست بطريق نصح بل
طريق عداوة فخطوك واعتداؤك عليهم ثابت بمجرد هذه الدعوى ونحوها
من أقوالك وأفعالك ، فكان ما تدعيه عليهم باطلا بكل حال لان ذلك دعوى
عدو على عدوه بدون حجة ، مع أن أكثر هؤلاء المستمعين أكبر منك
وأعلى منزلة دينا ودنيا ، وكثير من هؤلاء تقبل يديه وقدميه وتعمل معه من
الملق والذل والضراعة كما شوه ذلك وعرف ، فكيف تستهزئ بهم وأنت
معهم بهذه الحالة ، ولعل هذا من علم الخبث والمكر الذى مدحته فى ما سبق
وقولك «والثمن لذلك كله كدسيات خفيفات مبهمات محمولات يتمتمون
بها» فيقال : قد علم المسلمون أن الخطب مشتملة على حمد الله والشهادتين
والصلاة على النبي ﷺ والأمر بتقوى الله وطاعته ، فاذا كانت هذه لا تجدى

شيئا ولا نفع فيها وقد كان عليه الصلاة والسلام ثم أصحابه بعده والمسلمون إلى هذا الوقت يفعلونها ولا تغنى شيئا غير التعب والنصب وأغلاك هذه هي التي يبصر بها طريق العقل فقد ضل هؤلاء كلهم وكانوا سفهاء وأصبحت أنت وحدك ورثيت هؤلاء من أجل هذا الخطأ ، مع أنك ذكرت في حاصل أغلاك مشكلة لم يوجد لها حل إلى اليوم ، فلا عجب عن هذه حالة أن يستهزئ بعقول رجال الأمة جميعا من أولهم إلى آخرهم . ويقال لك أيضا : إن كان هذا التصغير والتحقير للخطب ، وانكار النفع فيها في قولك : إنها كلييات خفيات مبهمات ، من حيث ما هيها وكونها كلييات أى ألفاظا مشتملة على أصوات وحروف ذات مقاطع ، فيقال لك : هكذا جميع الكلام ^(١) حتى أغلاك هذه التي جعلت السيادة كلها معلقة بها هي كذلك ، وهل شب الحروب إلا الكلام ، ولم تطرد سابقا من الأزهر إلا بالكلييات ، وهل نافقت وحصلت على بعض الشيء من مقاصدك الدنيوية التافهة إلا بالكلييات ، وهل حط قدرك وجعلك مشتوما في كل ناد ومحفل إلا بالكلييات ، ولم يستحل أبوك أمك إلا بالكلييات ، والنكاح والطلاق والعقود والعهود وتعلم نواميس الطبيعة والموسيقى والمكر والخبث والفلسفة كل ذلك لا يمكن علمه إلا بالكلييات ، بل الحياة قائمة بين الناس بالكلييات والحركات ، فالعلة في هذه الأمور واحدة ، فما الذي خصص ذكر الله وعبادته بعدم الفائدة من أجل أنها كلييات وحركات ، وغيرها كذلك وكل الفائدة فيه . فتشيعك هذا تشنيع ساقط بالمرة . وإن كنت تريد بذلك أنها لا فائدة فيها فقط ، عاد النزاع بيننا وبينك إلى نفس الفائدة وهو موضوع البحث ، فيكون تصغيرك وتحقيرك لها حينئذ كفرا وضلالا لأنه

(١) ومعلوم أن سادتك من الملاحدة من أعظم الناس استعمالا للدعاية واعتمادا عليها معتقدين أنها سبب عظيم من أسباب التقدم والنصر ، وهي كذات فقط ، فلم لم تعترض عليها في ذلك

تتمكم واستهزاء بالفاظ دينية محضة ، واذن نقول لك دعواك أنه لا فائدة فيها دعوى مضروب بها وجهك ، وإنما يفيدك ذلك لو أقمت الأدلة على ما ادعيت ، وانت لم تفعل شيئا من ذلك وإنما غايتك في هذه الدعوى أنك شنت بالتهمك والاستهزاء المجرد ، فنحن نعارضك بمثل دعواك أو أصح منها ونقول : لا فائدة في كل كلماتك . ويكفينا دليلا على أنها كلمات ساقطة أنك لم تسبق إليها ولالك فيها سلف ، وأنت مقر ومعترف بأن هذا الذي تدعيه مخالف لما كنت معتقده من قبل مع ادعائك في اعتقادك الأول أنه على براهين وأدلة صحيحة ، ومعلوم أن البراهين لا تتناقض ، وبمجموع هذه الأمور وغيرها برهان على أنك مريب مضطرب في رأيك فلا يعتد به . ونقول : انه منذ ظهر فجر النبوة الى هذا الوقت وهذه الخطب العالية تتلى على المنابر على رموس الاشهاد من الملايين وملايين الملايين من سادات البشر وغيرهم وما عارض فيها أحد بلفظة واحدة من جميع أهل الملل بل عظموها وقدموها . وهذه الصلاة تؤدي في المساجد كل يوم مرارا معروفة من ظهور الاسلام الى هذا الوقت وجميع أهل الأديان يعظمونها ويحترمونها ، وكل هذه المظاهر الدينية مشتملة على أذكار مشروعة كالتحميد والشهادتين وقراءة القرآن والصلاة على النبي ﷺ ، فادنى عقل سليم يعلم بان الفائدة الحاصلة من كلمات الخطباء أعظم وأجل وأكبر من الفائدة الحاصلة من كلمات أغلاك هذه أو غيرها - هذا لو قدر أن فيها فائدة ، كيف وهي الخسارة الأبدية - فبطل كلامك على كل تقدير ، وصار هذا البكاء والرثاء الذي صدر منك - كما تقول - بكاء ورثاء كبكاء الاطفال والمعتوهين والمجانين الذي لا معنى له ، وصارت حالك أحط حالة من البائسين والمساكين ، فالأولى أن تنعى على نفسك ما نعيته على غيرك فانك أولى بذلك وقوله « وبعض حركات يمثلونها أو تمثل بهم كما هو الصحيح ، يعنى أن الصلاة كالخطبة حركات لا معنى لها وأنه يرثى لأهلها ، فغير عن الصلاة بالصفة لا بالاسم ، فكأنه هاب قليلا ، ولا معنى لهذه الهيبة ، فان من عرف

الدين لا تشكل عليه هذه الممغمة مع صرائح الكفر في غيرها . ومن طبع الله على قلبه وأعمى بصيرته فلن يتأثر من ذلك ولو صرح به ، فلو عبر عن الصلاة بالاسم الصريح لاستراح من هذه العقدة النفسية فيما يمكن من هذا الرأي الخبيث المضر ، ولا شك أن من قدح في الخطب قدح في الصلاة ، والخشوع في الصلاة أظهر من السكوت في الخطبة ، وقد صرح بأن المساجد أدت شر ما يؤدي . ثم القول فيما ادعاه في الصلاة من كونها حركات يمثلونها أو تمثل بهم كالقول في الكلمات سواء على ما مر ، لأن أعمال الناس كلهم حركات من خير وشر ، فلا معنى لتخصيص الصلاة بالقدح وعدم الفائدة من أجل ذلك ، فإن هذه العلة يشترك فيها سائر الأعمال ، والحكم يدور مع علته وجودا وعدما .

فصل

قال الملحد : لقد كان من الممكن أن تنطلق شرارة أو تنبث عاصفة من الطاقة الانسانية الأبدية الكامنة في أعماقهم فتضئ لهم الطريق أو ترتفع بهم عن هذه الوهدة وتقلهم من هذا المكان الذليل لو تيسر أن ينقذوا من براثن هؤلاء المخدريين ، ولكن هذا الاجتماع الاسبوعي مفروض فرضا ، وهذه الخطب مفروضة على هذا الاجتماع فرضا ، فإن النجاة وأين الفرار ،

فيقال كيف تنطلق من أعماقهم شرارة تضئ لهم الطريق وأنت قد قررت أن أعماقهم مطبوعة على الخبيث والشر والظلم والجهل ، وأنهم إن لم يعلبوا بقوا على الاخلاق الوحشية وبقوا على العدوان المطلق الذي لا يعرف القيد ولا الضبط كما تقدم ، فلما أن قام هؤلاء العلماء يضيئون لهم الطريق بالانوار السماوية وبيعثون في قلوبهم الحرارة الايمانية الفطرية ويرشدونهم الى سلوك الطريق النافعة الدينية والدنيوية ادعيت أنهم يخدرونهم ، وإنما حملك على هذا البغض والمقت لهم لاغراض أردتها معروفة ، وما دعايتك هذه الا دفعا لهم

في الوهدة المظلمة السحيقة واضلالا لهم عن معرفة الحقيقة ، وكل هذه الدعوى
سب صريح لله تعالى ولاديانه ولدائنين بها ، فانك معترف بان هذا الاجتماع
مفروض فرضا وهذه الخطب كذلك مفروضة فرضا ، فادعيت في هذا الذي
فرضه الله على عباده أنه لا فائدة فيه سوى التخدير والتعويق ومنع اضاءة
الطريق ، وأنه شر وخبيث ، وتركت ما فرضه الملاحدة وأعداء الملل من
الكفر والفجور والفسوق والغناء وإماتة الأرواح المعنوية في الشعوب كلها ،
وقد علمت أن الذي فرض الخطب والاجتماع لها هو الله رب العالمين على
السنة رسله عليهم الصلاة والسلام ، وأن الذين عملوا مواضع الفجور هم
أصناف الملاحدين الظالمين فجعلت هؤلاء الذين أخرجوا الناس من الظلمات
الى النور هم الذين وقفوا للناس في طريق الخلاص والنجاة والنجاح وصدوهم
عن ذلك وحالوا بينهم وبين السعادة والحياة فخدروهم وعقلوهم وصبوا عليهم
الذلة والمسكنة وصفدوهم بالأغلال والقيود ، ولذلك ادعيت أن المتدينين على
اختلاف أجناسهم وأنبيائهم ما وهبوا الحياة شيئا جديدا ، وادعيت أن الذين
صنعوا الحياة هم المتحللون من الأديان المنحرفون عنها ، فأى طعن في الله
وشرعه وأنبيائه أعظم من هذا الطعن ، بل لم نعلم أحدا من الأوائل والآخرين
من جميع الطوائف وأعداء الديانات تجاسر على هذا وبلغ هذا المبالغ ، فلعن
الله من قال هذا الكلام ولعن من رضى به أو راج عليه . وقد بينا فيما سبق أنه
لولا هذه الأذكار والخطب النيرة والدعوات الدينية التي هي وقود حرارة
الايمان في قلوب الناس لما عاش على وجه الأرض أحد ولسقط الناس في
الهلك والدمار والفساد السرمدي ، ولهذا قال النبي ﷺ لا تقوم الساعة حتى
لا يقال في الارض الله الله ، وهذا دليل على أنه اذا خليت الأرض من ذكر
الله حل عليها الغضب واللعنة الماحقة النهائية لروال موجبات الرحمة ، فالأذكار
هي مادة حياة القلوب وحياة الأرواح وسرورها ونعيمها ، وانك لا تكاد تجد
وجلا خاليا من ذكر الله وطاعته الا وهو منكبد العيش منحص الحياة قلت

ضائق عليه الارض بما رحبت كما قال تعالى ﴿ ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ﴾ وقال تعالى ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة ﴾ فالأذكار الدينية هي الاستمداد من مصدر النور والحياة والقوة ، وبقدر هذا الاستمداد يكون مقدار النور والحياة والقوة من زيادة ونقص . وقد بينا فيما سبق أن مادة الدعاء والذكر والعبادة هي التي تبعث القوى الكامنة في أعماق الفطرة ، وهي الدافع القوى للطاقة الانسانية وأعظم ملهب لها ومنير لها الطريق ، وأكبر مصادم للكسل والوهن وضد الهمة ومضايقات النفس ، فان ما تتضمنه من الترغيب والترهيب والحث المتواصل على إقامة العدل والانصاف وتحديد شدة الجشع والهلع ومقت الظلم والاستعباد والجور والعسف والارهاق وأمثال ذلك هو أصل الوسائل التي تتركز عليها جميع خطب الخطباء وحماسة المتحمسين ، ولهذا لا يوجد أشد حماسة وأعظم غيرة وقوة شكيمة ولا أقوى رجولة ولا أشد حبا للعدل والانصاف والاحسان ممن نشأوا في هذه البيئات الدينية وطبعوا بطابع هذه التربية العالية النقية ، وهذا بخلاف أولئك الذين عاشوا في تربية الفجور والاحاد والنفاق وحب الملاهي فلا يوجد أحط أنفسا ولا أخسف آراء ولا أظهر فهاهة منهم ، وهذا ظاهر لا يخفاء به ، ولولا غربة الدين لما احتاج الانسان أن يذبه على كلامه في هذه الأمور لمصادمته الشرائع السماوية مصادمة لا أظهر منها . وهذا الملحد لما كان منكوس القاب معكوس الرأي مطموس البصيرة مركوس السريرة رأى الأشياء كلها على عكس حقائقها كما رى الذى فسد مزاجه فانه يحس الأشياء على خلاف طبائعها ، قال الشاعر :

وما على العنبر الفواح من حرج أن مات من شمه الزبال والجعل
فهو كالجعل الذى اعتاد الخبائث فهو يندفع اليها ويسقط عليها وينثر غاية
النفرة أو يموت من الروائح الطيبة ، فانه لما خبيث قد ملء بغضا للاسلام
من مفرق رأسه الى قدمه ، فاذا فعل معه الخطباء وأهل الدين الذين يعبدون

فله في مساجدهم حتى يوجه اليهم سهام الذم والخط الشديد عليهم ويجعلهم هدفه في كل ما خطر على باله من سياب واتهام وشتم وعداوة على غير ما جرم فعلوه ، بل ما نقم منهم الا أن رفعوه وحموه ونصروه لما حاط به البلاء من كل جانب وطرده من الازهر ولم يجد من يؤويه ، ولكن نفسه نفس خبيثة وفي الحكمة المتقدمة « أبت النفس الخبيثة أن تخرج من الدنيا الا وقد أساءت الى من أحسن اليها » كما أشرنا الى هذا فيما سبق ، ولعل هذا الزنديق ان استراح من هذه الخطب بهذا الشفيق والذيق مما يجد في قلبه من العداوة والحريق ، فما ضر الا نفسه ولا ازداد الا رجسا الى رجسه ، وما مثله في هذا إلا كمثل ذبابة تطن في أذن فيل ، أو بعوضة تعد في التماثيل ، ولا استفاد من هذا الاعتداء والمكر والافتراء الا الصغار والعذاب والبلاء ، قال الله تعالى ﴿ سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ﴾

فصل

قال الملحد « قد يجوز أن يختلف المصلحون في كثير من طرق إصلاحهم ، ولكن ليس مما يجوز الاختلاف فيه أن الواجب الديني والوطني والانساني يلزم باصلاح هؤلاء الخطباء وهذه الخطب ، واما الحيلولة بينهم وبين ضحاياهم ولما شيء آخر ،

فيقال : أنت لم تبين وجه ذنبهم وضرر خطبهم حتى تعرف طرق اصلاحها ، ولم تبين وجه الاصلاح هنا الا بمجرد دعواك أنهم يخدرون بها تعنى أنهم يسكتون عند سماع الخطيب . ومعلوم أن السكوت لا بد منه عند كل خطيب وواعظ ومتكلم بحق أو بباطل ، وهذا لا يمكن اصلاحه بحال . وأما ذنبهم فلم تذكر له وجهها الا بمجرد دعواك أنهم يطلبون حاجاتهم من السماء لا من أنفسهم وطبيعتهم ، وهذا شامل لجميع الخطب الدينية بجميع أنواعها ، فانها كلها في التوجه الى الله والطلب منه لا من النفس والطبيعة على

المنابر ، فان المنابر لم توضع للاعمال انما وضعت للدعاء والذكر والامر بتقوى الله ، هذه هي خطب الدين الاسلامي على المنابر ، وليس من المشروع في خطب الاسلام من عهد الرسالة الى هذا العهد أن المسلمين يطلبون حاجاتهم من أنفسهم وطبيعتهم أتريد منهم أن يردوا أيديهم في أفواههم أو يمدوها الى أنفسهم وطبيعتهم التي قررت أنها خبيثة ظالمة شريرة ، أم تريد أنهم يطلبونك أنت وحدك كما ادعيت ذلك حيث قلت :

لو أنصفوا كنتُ المقدم في الأمر ^(١)

ولم يطلبوا غيري لدى الحادث النكر

الى آخر آياتك القدرة . وحاصل هذا الانتقاد كله أنهم يطلبون من الله حاجاتهم لا يطلبونها من أنفسهم ، فهم يعبدون الله ويدعونه ، لأن التوجه القولي والفعل هو روح العبادة ولها ، ولما كنت معتقدا الاحاد أنكرت هذا لأن العبادة على مقتضى أصلك لا محل لها أو أنه سبحانه لا يستحقها فلا يفتح احدا بطاعته ، فصار مرادك بهذا الاصلاح هو رفض التوجه الى الله والاعتماد إما عليك واما على طبعهم فيصلحون الخطب بالحث على رفض التوجه الى الله وفعل الاعمال الدينية لان لها عندك نتائج أخرى هي الملهاة والمصرف الخبيث ، فيعتمدون على الطبيعة وحدها ويصرفون كل همهم الى الطبيعة ونواميسها ، ومعرفة هذا تتوقف على الكفر بتصرف الله في ملكه وتديره له بقطع السبب عن مسببه أحيانا والتحكم في النتائج والنهايات ، لان الانسان لا يكون سببيا محضا الا بذلك ، وليس النجاح مكتوبا الا للسببي المحض كما صرحت بذلك فيما يأتي ^(٢) ، وهذا لا يمكن الوصول اليه الا بالكفر بالله ،

(١) الشطر الاول من حروف في التفعيلة الاولى وهو قبيح باجماع العروضيين ،

فاجتمع فيه القبح في وزنه ومعناه ولفظه

(٢) أى في المشكلة

لأنك قررت بأنه لا اله إلا الله ، ثم قررت أن الإقرار بالفعل يوجب الإقرار بتغير الأسباب وهذا يوجب التأخر وهو خلاف المطلوب ، ثم ذكرت أن هذه الطريق لا يوصل إليها إلا بشيء واحد وهو مقابلة الطبيعة الكاملة بطبيعتها الكاملة ، ثم أن هذا عندك شيء عزيز الوجود جدا فلا يمكن الوصول إليه أيضا إلا من طريق واحدة لا طريق سواها وهو التمسك بأغلاك هذه ، التمسك بالحقائق الأزلية الأبدية ، التمسك بهذه الأفكار التي لن يستغنى عنها مسلم واحد بين أربعائة مليون مسلم ، التمسك بها والاعتصام بها لأنك قلت تتركها أمة فتهدى وتأخذ بها أمة فتنهض ، فإذا عرج الإنسان إلى سمواتك هذه التي اخترعتها ووصل إلى ملكوت حقانك الأزلية الأبدية استخرج كنوز نواميس الطبيعة وقوانينها منها ، أما بدون ذلك فويل له ثم ويل له ثم ويل له ، لأنك أغلقت الأبواب كلها في وجهه فقلت صريحا " تتركه أمة فتهدى " فلو حاد عن طريق هذه الأغلال هوى ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ولكنه إذا تمسك واعتصم ولم يحد فانه ينهض ، وكل الأمم والأفراد تطلب النهوض ، فيها هو ذا ، فعلى جميع الناس أن يصلحوا خطبهم بأبدالها بهذه الأغلال فيخطب بها على المنابر ، لأن أصلهم كله معقود بناصية الاعتصام بها ، ولأن أربعائة المليون المسلم لن يستغنوا عن معرفته والأخذ به ، وهو حديث عهد فلا يمكن إفاضة تعاليمه على هذه الملايين المتقطعة في الأرض إنما إلا بأن يُنشر ويخطب به على المنابر لتحصل الافادة العامة بذلك ، وبذلك يحصل المقصود وهو الحيلولة بين الناس وبين التوجه إلى ربهم ، كما يحصل تقديمك في الأمر واتخاذك إلها ، أو على الأقل تكون منزلتك في برزخ فويق الرسول ودون المولى . فلقد تجحرت واسعا وطولت الطريق في طلب ما تتمناه ، فلماذا كانت عاقبتك أشنع عاقبة : لقد كان من الواجب المحتم على كل عاقل يريد أن يتكلم في مسألة فرعية من فروع الأحكام في الفقه فيقترح فيها فيشوها ويتكلم بها وبأهلها ، عليه في ذلك شرعا وعقلا ونظرا أن يذكر المسألة بصورتها الواقعية ،

ثم يذكر دليل من فعلها ، ثم يذكر انتقاده عليها ، ثم يذكر دليل انتقاده ، ثم يحجب عن دليلها ويعرضه على الناس بدون تهكم ولا استهزاء واحتراما للدين ولأهله ، فكيف بمن يهجم على أبرز مظهر من مظاهر الدين الخفيف في كل أسبوع ، وكله يشتمل على أصل الدين وروحه وركنه الأكبر ، فيقدح فيه بكل ما خطر على باله من سباب واتهام ، ويقدح في أهله ويتهم ويستهزئ بهم ويسفههم تسفيها لا يقدم عليه من له أدنى عقل وحياء ، فهل هذا كله إلا من الجراء على الله وعلى أديانه وعلى الأمم التي تدين به ، وهل السكوت عنه إلا من ضعف الدين وإدباره ، وذهاب عظمتة واحترامه وتقديسه من قلوب الناس ، وأن أكثرهم نسوا الله ففسههم وأعرضوا عنه فولاهم ما تولوه ، وأن الظالمين بعضهم أولياء بعض . وهذه المواضع الجنونية التي حط فيها على الخطب والصلاة والمساجد والمنابر هي من المواضع التي اقترسه فيها الشيطان وتخططه من المس ، فزاده رجسا إلى رجسه وعلة إلى علة كما اختار لنفسه ذلك ، عافانا الله عما ابتلى به

فصل

ثم قال : وقد أراد جماعة من المتأخرين أن يجددوا في معنى الزهد وأن يجعلوه عصر يا فقالوا ان الزهد محله القلب لا اليد ، يعنون أن القلب هو الذي يجب أن يزهد في الدنيا وأن يكرهها ويعرض عنها ، أما اليد فلا بأس بأن تجمع وتعمل ، وقد ظنوا أنهم بذلك قد وفقوا بين أقوال هؤلاء الشيوخ وبين ما تتطلبه الحياة من عمل ونشاط ،

قلت : ما نسبته إلى هؤلاء العلماء في قولهم ان الزهد محله القلب صحيح ، ولكن تفسيره لكلامهم باطل وضلال ، فانهم قالوا ان الزهد محله القلب لا اليد ، وهو فسر به غير ما يريدون ، فانه قال يعنون أن القلب هو الذي يجب أن يزهد في الدنيا وأن يكرهها ويعرض عنها ، وهذا تفسير غير مطابق ولا

وجه له ولا يفهم أصلا من كلامهم ، فلم يغنوه ، ولا في لفظهم ما يدل عليه ، فهم لم يقولوا ان الزهد بغض القلب للدنيا وكرهته لها وإعراضه عنها ، وإنما قالوا محله القلب لا اليد ، وفرق ظاهر بين قولهم محله القلب وبين ما يدعيه من الكراهة والأعراض ، بل مقصودهم من القول هنا هو اطمئنان القلب فسيما حصل له من الدنيا بدون جشع ولحف عليها ، هذا مقصودهم وهذا هو الزهد الحقيقي لا ما ادعاه ، فاعتراضه اعتراض ساقط لا وجه له البته . قال شيخ الاسلام ابن تيمية في مسألة الزهد في المال (١) : « اذا سلم فيه القلب من الهلع واليد من العدوان كان صاحبه محمودا وان كان معه مال عظيم ، بل قد يكون مع هذا زاهدا أزهد من فقير هلوع ، انتهى . وكلام الأئمة في مسألة الزهد على هذا المعنى ، فالزهد طمأنينة قلب الانسان بما آتاه الله من الدنيا بعد فعل ما يجب استحصاله مما هو من ضرورات الحياة ، وهذا شامل للعمل والنشاط فيه ، لأنه متى كانت الأمة محتاجة الى ذلك وجب السعى فيه لأنه من المصالح الدينية الضرورية ، والاجتهاد في العمل النافع لا ينافي الطمأنينة ، فان الطمأنينة اذا كان المقصود بها أمر ديني فهي موجودة مع العمل والنشاط فيه ، وأما اذا كان العمل مقصودا به منافسة وحقد فهذا لا يحصل فيه طمأنينة قلب سواء اجتهد أو لم يجتهد ، فكم من عاجز كسلان يأكل أنامله غيظا وكدا على عدوه يدون عمل ، وكم من هادئ ثابت الجأش جاد في عمله سائر في طريقه باهتمام وإخلاص وقوة ، فليس بين حب الدنيا والهلع عليها والاجتهاد في العمل ملازمة ، بل قوة العمل والملازمة عليه يرجع الى العوامل الباعثة له ، فان كانت دينية صادرة عن إيمان صادق واعتقاد قوى والعمل ودام النشاط فيه واستمر استمرارا صحيحا ، وان كانت العوامل والبواعث دنيوية محضة فهو بحسب تلك العوامل في القوة والضعف ، فقد يكون قويا وقد يكون ضعيفا »

وهو الأغلب ، ولكن اذا قوى فلا بد أن تكون قوته دون قوة العمل الذى باعته عوامل دينية صرفة ، وأكثر ما يكون ضعيفا اذا كان إجباريا أو كان لمصالح شخصية مؤقتة ، وهذا هو الغالب

ثم قال « وفات هؤلاء أن هذه الفكرة مستحيلة متناقضة ، وذلك أنه من غير الممكن أن يكره المرء الدنيا بقلبه أو لا يحبها بقلبه ثم يعمل لها باهتمام مصابرا على مشقات الطلب والعمل »

قلت : ما فاتهم هذا الذى ذكرته ، ولكنك فهمت من كلامهم ما لم يقصدوه ، وفاتك أن هذا الذى قررته واعتضدت به انما يصح على أصلك الذى فسرت به الزهد القلبي ، أما على أصلهم فلا يرد هذا الذى ادعيته عليه ابدا ، فانك اصلت أصلا من كيسك ، وفرّعت عليه على حسب ما تريده وتواه ، وببطلان الأصل يبطل التفريع عليه

ثم قال « لأن الذى يبعث على ذلك هو حب النتيجة التى يرجو تحصيلها ، والا لما قام بعمل شاق الا أن يكره إكراها ،

فيقال : اذا كان الذى يبعث الانسان هو حب النتيجة التى يرجو تحصيلها فهذا الباعث لا يوجد على أكمل الوجوه إلا فى التقوى والعمل الصالح ، لأن ذلك يتضمن طلب حصول نتيجة العمل وهو سعادة الدارين ، فلا أكبر ولا أجل من هذا الأمل الدنيوى الآخروى ، فان الله تعالى يقول ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه فيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ فالعمل اذن تابع لحب هذه النتيجة العظيمة ، وبقدر محبتها فى القلب يكون العمل فى الضعف والقوة ، وهذا فى الأعمال الاختيارية لأنها المقصودة هنا ، بخلاف الإجبار ، وقد يكون لذلك شأن آخر . ثم ان هذا الأمل العظيم انما يحركه وينميه ويبعثه ويقويه مادته الدينية ، وأعظم هذه المادة هى تكرر الخطب فى الجمع والوعظ فى الجماعات ، فتكون الخطب لذلك هى التى تنير الطريق وتنفع روح القوة والنشاط والاستمرار فيه ، والتوجه

الى الله وعبادته هو نور وهو الروح ، ومعلوم ان كل نتيجة فهي بقدر العمل ، وكل عمل فهو بقدر العلم ، وكل علم فهو بقدر صحة التصور ، وانما يحصل ذلك بتحرير النفس والعقل وطرد كل المؤثرات الفاسدة من الشهوات والشبهات التي تحول بينه وبين ادراك الحقائق ، ولا يمكن أن تحرر النفس والعقل بدون فهم النصوص الدينية والانقياد لها ، لأن من أعرض عن ذلك فلا بد أن يعتقد نصوصا غيرها ولا بد أن تكون فاسدة أو أكثرها فاسد ، وحينئذ إما أن تحصل الحيرة والقلق والاشكالات ويرجع الانسان الى حيث ابتدأ ، وإما أن يقف في عرض الطريق بدون الحصول على حقيقة ، وإما أن يضطر الى تقليد فكرة غيره على غير براهين صادقة ، وكل هذه الأمور الثلاثة لا ينشأ عنها الا الضرر المحض ، أما النصوص الدينية فانها وفق الفطرة ، وهي تنير القلب والعقل ، فتمنع النفس والعقل عن الخروج الى سبل الأوهام والخرافات وتطلقه في السبل الصحيحة الموصلة للحقائق ، فليس في النصوص حرف واحد يمنع عن الأعمال النافعة والتفكير في كل ما به نفع للبشرية . لكن هناك أمور لامة كالسراب قد يظن الجاهل أنها ماء فتمنع عنها لكونها ضررا محضا ، أو لأن ضررها أكثر من نفعها ^(١) . وهذا كله مع من يصدق بالنصوص ، أما من هو خلاف هذا فله شأن آخر ، وقد قال تعالى ﴿ ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الامور ﴾ فعلق النجاة والنجاح على التوجه الصحيح والعمل الصحيح ، فحق حصل التناسب بين التوجه الذي هو طريق العلم ، والعمل المصدق له وهو التوجه الفعلي ، حصل النجاح في الأعمال الأخرى التي لا تتنافى مع هذا ، فالغفلة عن الذكر

(١) ويدل على هذا أنك تجد كل من خالف النصوص من حول النظر وغيرهم على كثرتهم ليس فيهم الا من هو معترف بالحيرة والشك والقلق ، مع ما في كلامهم من التناقض ، ومع ادعائهم أنهم أهل المعقولات الصحيحة

هو الدعاء والعبادة هو المرض الذي لا بد أن يؤدي الى الموت الذي لا حياة صحیحة بعده

ثم قال « بل الذي يمكن في هذه المسألة هو العكس ، أى إنه من الممكن أن يحب قلبه وتزهد يده ، فمن الواقع المشاهد أن تكون محبا للدين واللآل جدا بدون أن يمنعك هذا الحب من الانفاق وصرف مائتى الدرهم المثلوبة أو رجاء أمر آخر أو طاعة لعاطفة نبيلة ، وكل الذين يجودون بأموالهم من هذا النوع ،

قلت : هذا خروج عن المقصود ، فانه في التوفيق بين الزهد والعمل للنتاج المادى ، ليس هو في التوفيق بين الزهد والانفاق . وكلامك هنا في الثانى والمقصود هو الأول ، فانك اذا عكست المسألة - كما تزعم - فعليك أن تقرر أن الزهد فى اليد وحب المال فى القلب يبعث على العمل بالقوة والنشاط عكس الادعاء الأول ، وهذا لا يمكنك أبدا ، ولهذا لما أعجزك عدلت الى المغالطة بأمر آخر وهو وجود الانفاق مع حب المال ، وأولئك العلماء لم يتعرضوا لهذا حتى تدعيه ، انما ادعوا أن حب المال فى القلب لا يتنافى الزهد فليس الزهد عندهم هو بغض القلب للآل وكرهيته - كما تدعى - بل الزهد هو ما ذكرنا تعريفه فيما تقدم ، فالاعتراض هنا ساقط لا محل له

ثم قال « وقد أشار القرآن الى هذا فى قوله ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا عما تحبون ﴾ وقوله ﴿ ولكن البر من آمن بالله - الى قوله - وآتى المال على حبه ذوى القربى ﴾ وقوله ﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾ وهذه الآيات صريحة فى أن المؤمنين الذين يحبهم الله ويشيد بهم وبأوصافهم كتابه هم الذين يحبون المال ،

فيقال : وهذا لا ينفعك شيئا ، بل هو حجة عليك ، لان الآيات الكريمة ليس فيها دليل على أن حب المال بالقلب والزهد باليد باعث على العمل ، لأن هذا هو مقتضى ما ادعيته آنفا ، والآيات انما أفادت بيان حال هؤلاء المنفقين

أموالهم في هذه الأمور الجليلة مع حبهم لها ، وهذا شاهد لقولنا الذي قررناه من أن الزهد ليس هو بغض المال بل حبه لأجل وضعه في موضعه النافع ، فبه لأجل وضعه في طريقه لا يتنافى الزهد ، وإنما الذي يتنافى الزهد هو الحرص والشح كاجتلابه من غير طريقه أو تقديم محبته على واجب ديني ، ثم منع حقوقه أو منعه عن مستحقه . وهذه الآيات فيها مدح هؤلاء لكونهم قدموا محبة الله ودينه واتباع أوامره على محبة المال ، فهذا دليل على أن محبتهم للدين راجعة على محبة المال ، ومعلوم أنه متى تزاحم محبوبان في القلب فلا بد من ميل القلب إلى الأكبر الأقوى ، وهذا بخلاف الجشع والحرص الشديد مع إهمال عمل اليد فإنه لا يحصل به شيء من الإنفاق الخيري ، وكثيرا ما يقدم على فعل الطاعة الواجبة وهذا يتنافى مع الزهد

ودعواه أن هؤلاء المؤمنين الذين يحبهم الله ويشيد بهم وبأوصافهم كتابه هم الذين يحبون المال ، فهذه الدعوى فخور صريح وبهت للقرآن العزيز ومغالطة خبيثة ، فليس في القرآن آية واحدة فيها الشاء على الذين يحبون المال مطلقا ، وإنما أثني على هؤلاء من أجل تقديم حب الطاعة على حب المال وإنفاقهم في طاعة الله مع حبهم لهذه النفقة لا من أجل حب المال ، فذكر حب المال هنا غير مقصود ، بل بيان لكونهم قدموا هذا العمل الديني المالى مع محبتهم لما هم ، لأن هذا يدل على صدق الإيمان والاخلاص وحسن الظن بالله ، وكل هذا يناقض أصوله ، ولهذا رام التخلص بالانحراف إلى تحريف النص والمغالطة في ذلك ، فحب المال بدون إنفاق مشروع ليس بمدح في الشرع أبدا

ثم قال : أما هؤلاء المحرومون الحارمون فيزعمون أن حب الدنيا والمال رأس كل خطيئة ، فالمرء اذن قد يجب المال ثم ينفقه ولكنه لن يكرهه ثم يعمل له .

فيقال : أما أن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، فهو حديث رواه البيهقي ، والواقع يصدقه ، وإنما الذي يمنعه من أن يكون رأس كل خطيئة إذا عمل فيه

بما يوجبه الامر الشرعى ، وحينئذ لا يكون خطيئة لأن العمل به فى الوجوه الشرعية أخرج صاحبه عن أن يكون مخطئا مفتونا به مقدما له على طاعة الله ، فأصل فرض الزكاة وجميع النفقات الواجبة والمستحبة انما شرعت لامتحان العبد بماذا يفعل بهذا المال الذى حل بيده فضلا من الله ونعمة ، فقد خرج العبد الى الدنيا مجردا من كل شئ منها ، ثم خول هذا المال الذى هو مادة الحياة وأكثر الذات كما قال تعالى ﴿ انما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ فمن الخلق من تصل محبته للمال الى سويداء قلبه ، فان عمل بما أوجب الله عليه فيه فقد قدم طاعة الله على محبته لماله ، وخرج عن أن يكون عبدا للدرهم والدينار ، وكان فى دعوى الايمان صادقا ، وان قدم محبة المال علم أن دعواه فى الايمان غير صحيحة بل مدخولة وانما ذلك إما رياء أو لقصد آخر لا ايمانا صادقا خالصا ، فلا يمكن اجتماع الايمان الصادق الخالص ومنع الزكاة أبدا ، كما لا يمكن ذلك مع ترك الصلاة والصوم ، لان الاعمال البدنية والمالية والنفسية تابعة لاعتقاد القلب من صحة وفساد .

وقوله « فالمرء اذن قد يجب المال ثم ينفقه » فنقول : قد يكون ذلك ، ثم ماذا ، فليس فى ذلك حجة لك ، فان خصومك لا ينكرون هذا ، ثم الاتفاق فوعان شرعى وغير شرعى ، فالمحبة الراجحة على حب المال هى التى تدفع الى إنفاقه ، إما الى هذا وإما الى ذاك ، فصاحب المال الذى يحبه لا بد أن ينفق منه شيئا ولا بد أن تكون نفقته له تابعة لجاذبية المحبة الراجحة على محبته إما طاعة واما معصية

وقوله « ولستكنه ان يكرهه ويعمل له » يقال أولا هذا ادعاء لا محل له ، وخصومك لم يتعرضوا له فى مسألة الزهد ألبتة فلا وجه لا يراده . ثانيا ليس من الممتنع أن يكرهه ويعمل له من أجل أمر آخر قد يكون دافعه أرجح من عامل الكراهة ، فان كثيرا من الناس يكره المعاصى ويعمل لها بل يسلك طرق المخاطر فيها مع كراهته لها ، وقد يكره ظلم شخص فيدفعه الطمع

وحب الدنيا الى ظله أو قتله لان هذا العامل الأقوى ترجيح على هذا العامل
الآضعف ، وأمثال هذا كثير

فصل

ثم عاودته بيجته في التناقض ، فذكر هنا كلاما طويلا هدم به جميع ما ذكره
في صدر هذا المبحث في محاربة الزهد والقناعة ، ووجه فيه نظرية الزهد
والقناعة وحسن تأثيرهما ، ننقله هنا لتعلم أن هذا الرجل من الذين يخربون
بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين قال : ه غير أن هذه المسألة قد تدرس على
وجه آخر فيبدو من دراستها على هذا الوجه أن لما يقوله الزهديون وجها ، أو
إنه هو الوجه الصحيح ، ذلك أن في القضايا المتفق عليها أن الاختلاف بين
الناس في وضعهم الاجتماعي وفي تفاوت درجاتهم من حيث الغنى والفقر
والصحة والمرض والقوة والضعف والعز والذل وغير هذه الأمور لا يمكن أن
يقضى عليه ، بل يوجد الى جانب الغنى الواحد عشرات الفقراء أو مئاتهم أو
آلافهم ولو فقراء نسبيا ، كما يوجد تحت أقدام السيد الأعلى عشرات الملايين
أو مئاتهم يهتفون بحياته وباسمه اذا بدا ويخضعون لأوامره اذا غاب ، وهكذا
القول في كل ناحية من نواحي هذه الحياة المحركة التعقيد . وحينئذ فالمسألة
ذات فرضين : أحدهما أن الحياة يجب أن تقوم على التنافس الحر المطلق الذي
لا حدود له ولا قيود ، وأن من عجز عن منافسة الآخرين ومخالبتهم في غرض
من أغراضه أو شهوة من شهواته لزمه أن يعد نفسه مغبوناً محروماً ، ووجب
عليه أن لا يقر له قرار ولا تهدأ له نفس ولا يبطل له مسعى حتى يوفى على
كل شهواته وأغراضه وحتى يرد المنهل الذي ورده الآخرون السابقون
وأسلحته في ذلك اتلاف جسمه وارهاق نفسه . وثاني الفرضين أن الأمر
دون ذلك كله ، وأن الدنيا ما هي الا حاجة قليلة يكفي منها ما أمسك الحياة ،
وأن التفاوت في مظهرها مثل التفاوت في مظهر الموت : يحمل عليها وليس

منها ، ويكون بها ولكن لا يكونها . وان القميص الحريري يلبسه الحى بالنسبة الى القميص القطنى أو لمسا دونه هو ككفن الحرير يلف به الميت بالنسبة لكفن القطن أو لما دونه ، وان المرء ليس الا عقله وفكره وأخلاقه ، أى ليس الا ذاته المخلوقة ، وليس هو ما يتصل به اتصالا بما ليس فيه ذاتيا . اما الفرض الاول فما لا شك فى عنفه على البشرية وقسوته عليها ، فان البشر لا يستغنون فى حال من الأحوال عن القرار والرضا كله أو بعضه بما هم فيه والا هلكوا أو عصفت بهم الحشرات ، وما الرضا والقرار فى هذه الحياة الا كالظل والماء والخشب بالنسبة للصحراء المجردة المشبوبة عليها الشمس المحرقة ، وإن البقاء فى هذه الحياة بدون هذين الأمرين - الرضا والقرار - مستحيل استحالة الحياة فى هذه الصحراء بدون الماء والظل والخشب . ولا شك أن هذا الفرض فى الحياة يتنزع منها أسبابها ، ولن يوجد شيء اذا لم توجد أسبابه ، فاذا قامت الفكرة الانسانية العامة على ان وجودها لا يعدو أن يكون ملحمة مادية قاسية متواصلة وأن حظ كل فرد منها هو ما يغتصبه تحت غبار هذه الملحمة وأن سعادته وشقاؤه منوطان بها ، فلا شك أنها - أى الانسانية - ستحرم حينئذ حرمانا باتنا من السعادة والهدوء والاستقرار ، فان كل انسان بالغ ما بلغ سيجد أمام عينيه من هو فوقه فى شيء أو فى أشياء كثيرة ، وسيجد مجال التطلع والتشوق شاسعا واسعا دائما ، وسيشقيه هذا الفرق وهذه القروق ، وسيمر عليه أحلى ما فى حياته من طيبات ، وسيبقى من هذه الناحية ولاجل هذا الوجه وإن نال أقصى ما يتطالع اليه أكثر النفوس مثل من حرم الحرمان كله ، لأن كلا منهما يرى من هو فوقه ومن هيئ عليه فى أمر من الأمور ، ويصير ما قعدت به عنه قواه ويدها ، وسوف يظل هذا الشعور والاعتبار مبعث آلام لا تنتهى ، ومصدر اعتمادات لا ضابط لها . فان أكثر العدوان الذى يقع بين البشر دائما إنما يقع بالايان العميق بالمادية ، ولا شيء يستطيع القضاء على هذا العدوان المنتشر فى كل زمان ومكان ما لم يتغير النظر الى الحياة .

والى حقيقة الانسان ، وما لم تهذب هذه النظرة المادية الجشعة الطاغية . وعلى هذا فلا منفر من إقرار مبدأ القناعة ، ولا بد من الايمان بالافتراض الثانى ، وفيه وحده شفاء الانسانية المضمون من دام الجشع الذى أشقاها وأشقى معها الوجود كله . ولا ريب أن من أعظم أسباب هذه الحروب الشاملة هو هذا الايمان بالمادية والانتقياد لنزعاتها ونزواتها وشهواتها ، ولو أنها نهبت من هذا الايمان وكفكت من غلوائه لكان فى ذلك بعض النجاة أو كلها . ولهذا فقد قامت الأديان والفلسفات القديمة على هذا الافتراض ، وأمعنت فى تجميله وتحسينه والدعوة الصادقة اليه ، وجاء فى الحديث النهى عن أن ينظر المرء الى من فضل عليه فى الدنيا ، وأمر بان ينظر الى من هو دونه لهذا الغرض نفسه ، وفى الكتاب ﴿ لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجنا منهم وزهرة الحياة الدنيا ﴾ . هما رجلان أحدهما طلعة طمعة ممدودة عيناه وقلبه وآماله الى أبعد الآمال والآمال الى ما لا تستطيع قواه البشرية أن توصله اليه ، يريد كل ما يرى بل وما لا يرى مما قد يخطر بباله ، ويحسد كل محدود ويتأوه غيظا وحسرة ويفور حمدا وألما كلما أبصر نعمة نالها انسان ، وكلما أبصر من هو فوقه فى شىء من الأشياء . وسينبقى هكذا حياته جميعها ولا قرار ولا رضا ولا سرور ولا سعادة ولا غبطة ولا التذاذ بشىء مما يلتذ به الناس ، فأى انسان هذا ، وأية حياة هذه التى يحياها هذا الرجل . ورجل آخر يعيش بجسمه لا بآماله ، ويعمل لحياته لا لأطاعه ، فلا يطلب الا ما طلبته الحياة ، ولا يحتاج الى غير ما يمنحه البقاء والوجود ، مثله كمثل الأزهار أو الأطيوار وهذه المخلوقات اللطيفة الجميلة المبرأة من كل حقد وحسد وطمع وأمل يغصها بالآلام ويقض مضاجعها بالحسرات والآهات ويحلد أعصابها جلدا متواصلا حتى تصاب بما يعز الشفاء منه ويقضى عليها بان تشب هذه الحروب الجهنمية بلا رحمة ولا انسانية إجابة لآمالها وأطاعها ، وتسعد كما تسعد هذه الأزهار والأطيوار والمخلوقات الأخرى الجميلة وبقر قرارها ويبدأ هدوءها ويتناول الحياة مثل

تناولها هي - أى يتناولها بقدر ما يقول له وجوده ويقاؤه تناول ، لا بقدر ما تقول له أطاعه ذلك . فيعيش هو ومن حوله فى سلام أبدي ونعمة مطلقة شاملة ورضا لا ينتهى . وهؤلاء الذين مدحوا الفقر والقناعة وذموا الحرص والجشع والتهالك انما قصدوا هذه المعاني الطاهرة الخيرية ، وقد أرادوا أن يسموا بالانسانية على أطاعها المادية ، وأن يقربوها فى معانيها وأخلاقيها من الملائكة ، وأن يغسلوا من قلوبها الغل والحسد والبغضاء التى يسببها حب المادة والاسراف فى طلب المسادة وما يتصل به . وأرادوا أيضا أن يعزّوها - والانسانية قد تستغنى عن أشياء كثيرة ، ولكن شيئا واحدا لن تجد ما يغنيها عنه ، هذا الشيء هو العزم الذى يخلق لها الرضا . وقد وجد أناس كثيرون فى تنابى التاريخ المختلفة استطاعوا أن يحيوا بهذه المعاني وأن يمجّدوا فيها لذتهم وحاجتهم متأثرين بهذه الدعوة الطيبة متقهمين هذه الروح الخيرة ، فكانوا ملائكة انسانيين ، وكانوا منارا يأوى اليه كل من ضلت سفينته الخلقية فى خضم المطامع والأهواء المفسدة ، وكانوا هدى يجذب كل من جارت به ضلالاته فعمى عن الطريق ، انتهى

والجواب أن يقال : ما ذكره هنا فى توجيه فكرة الزهد حجة عليه ، وأكثره مقتضب من بعض المقالات المؤيدة لهذه الفكرة ، وقد أدخل فيه بعض المجازفات من الجانبين كعادته ، ومع هذا فقد أقر بصحة أكثره رغم تحامله على ضده . ثم انه بعد أخذ يناقش فى بعض أشياء منه ، وقد سبق لك بيان نظريتنا التى هى نظرية المسلمين فى هذه المسألة فى صدر هذا البحث وغيره ، وان مآذينا اليه خلاف ما فهمه وخلاف ما اراده ، فارجع اليه ، فنناقشته لما ذكره هو بنفسه فى هذه الجملة غير واردة على قولنا انما ترد على ما ادعاه لنفسه بنفسه لا على ما أصلناه نحن ، فهى مناقشة ساقطة لا محل لها البتة وقال بعد مباح كلامه الآن فى الذكر و كل هذا يمكن أن يقال ، وكثير منه

صحيح ، ولكن لا تكون نتيجته اثبات فضيلة الفقر (١) والقناعة ، ولن يدل مجموعته على ذلك ، وما تقدم في هذا الفصل يكفي قضاء في هذه القضية ، قلت : قد سبق الكلام في تعريف فضيلة الفقر وبيان المراد به عند من أطلق هذا اللفظ ، وكذلك القناعة ، فلا معنى لاعتراضه هنا البتة . وقوله وما تقدم في هذا الفصل يكفي قضاء في هذه القضية ، يقال قد بينا ما اعتمد عليه هناك وأجيبنا عليه بما فيه كفاية

فصل

ثم أخذ يناقش كلامه السابق في فضيلة الزهد والقناعة ، ولكنه يؤديه أحيانا كعادته في القلق والتناقض فقال « أما أن الانسان ان يستغنى في حياته عن العزاء الذي يهبه الرضا فسألة تجل عن الخلاف ، ولو أن انسانا فقد هذا العنصر النفسى فقد تآما بحيث لم يبق أمامه جانب واحد يرضيه ويعزيه أو جانب واحد يحدث له بعض الرضا وقليل من العزاء لهلك لا محالة إما انتحارا وإما أسى وحسرة ، وكل انسان إنما يعيش بقدر ما له في وجوده من آمال صادقة أو كاذبة تفيض على نفسه المتلطفة ألوانا مختلفة من هذين العنصرين الضروريين للحياة الانسانية »

فيقال : هذا موافق لقولنا لكثك خالفته فيما تقدم ، فان العزاء الذى يهبه الرضا هو نفس القناعة كما سبق

ثم قال . ولكن ليس طريق ذلك هو الفقر والبؤس والشقاء ،

قلت : هذه مراوغة وخروج عن موضوع البحث ، فقد تقدم تعريفنا للفقر ، وهو يرجع الى الرضا والعزاء الذى مدحته ، وأما البؤس والشقاء

(١) لو قال الزهد والقناعة لكان أصوب ، لأن بحثه في الزهد لافى الفقر ، فلا حاجة الى هذه المغالطة

فادخلها هنا مغالطة ظاهرة ، فاننا لم نمدحها قط ، فالاعتراض ساقط من أصله ، بل كان يجب عليك هنا أن تقول ليس طريق ذلك هو الزهد والقناعة ، لأن البحث في هذا ، لكن انحرفت عنه لكونه يندفع أصلك . ثم قال : وانما طريقه أشياء أخرى ، منها رياضة المرء عاطفيا وعقليا على الشعور بالسعادة وعلى الاحتمال الجليل وتلقى المكروه بالصبر والابتسام ومحاولة الخروج منه بالنصر والظفر دون الاستسلام ، وأن يكون مثله مثل الجندي المغوار يشج الموت ويدفعه باليمين والشمال وهو يهزج أهانج الحياة ، فيقال : وهذا أيضا موافق لما ذهبنا اليه في تعريف الزهد والقناعة وبيان الفقر ، وهو يناقض ما ذهب اليه ، وهو من جنس ما ادعاه قريبا ، وانما غير العبارة فقط . وليست العبارات هي المقصودة بل المقصود في مثل هذه الامور هي المعاني لا الالفاظ

فصل

قال : ومنها إعطاؤه الصحة الكاملة والجسم القوى السوى ، فان الاكتاب والياس انحراف في الطبع ، وانحراف الطبع نتيجة طبيعية لانحراف الصحة ، فيقال : وهذا أيضا غير وارد ، فقد سبق قولنا في تحريم التعرض للأمراض وانها لك القوى الجسمية وأن المسلمين لم يمدحوا الأمراض والأسقام بل أمروا بالتداوى والمحافظة على الصحة بكل ممكن . ثم كرر الكلام في مدح الصحة وذم المرض ، وقد سبق الكلام على هذا مرارا فلا فائدة في اعادته . ثم قال : ثم ان الحياة وأهلها ليست وليسوا طوع أهوائنا ، بل هي سائرة وهم سائرون في الطريق شئنا ذلك أم أبيناه ، فاذا نحن رضينا لأنفسنا القناعة واخترناها نصيبا فان الآخرين لن يرضوا لانفسهم هذا الذي رضيناه بل سيسيرون في الطريق الآخر وحينئذ لن يدعونا في هدوتنا وقرارنا وسعادتنا النفسية الحالية ،

فيقال : وهذا أيضا ليس بوارد علينا ، لاننا لم نقل ان القناعة هي السكوت والراحة فقط وترك ما يجب القيام به من أمور الدنيا والدين ، بل قد عرفنا أن القناعة هي الرضا بالقضاء باطمئنان وثبات ، وفعل ما يجب فعله بما فيه قوام الدنيا والدين ، ونحن انما أنكرنا الجشع والهلح على الدنيا ، هذا هو مقصودنا من الاطمئنان والثبات ، وهذا هو المسلك الوسط بين التفريط والافراط ، وحينئذ فلا يرد ما ذكره على ما أردناه .

فصل

قال : وأما القول بأن الجشع المادى هو الذى يوقع فى الحروب والشور والعدوان بين الناس ، فهو قول فيه كثير من سمات الحق والصدق ، غير أنه لا مرأى فى أن الفقر أو خوف الفقر وأن الحاجة أو خوف الحاجة هما اللذان يوقعان بين الخلق أكثر هذه العداوات والاعتداءات ،

فيقال : قد اعترف هنا - كما ترى - بأن الجشع المادى هو الذى يوقع فى الحروب والشور ، ولكن ذكر أن الفقر أو خوف الحاجة يوقعان فى ذلك أيضا ، وهذا قول مدخول متدافع ، فان خوف الفقر أو خوف الحاجة غير الفقر والحاجة ، بل هو كثيرا ما يكون ضربا من الجشع ، فان الجشع ضرورة عدوانية مبدأها اللجاجة والضراوة فى الاعتداء وعدم الصبر والثبات ، ونحن فسرنا الفقر الذى عناه العلماء بغير الاعداء وبغير الحاجة التى يدعيها كما تقدم ، فعلى هذا لا يرد ما ذكره ، فان الفقر ان صحبه أمر دينى حجزه عن الوقوع فى الشور والحروب ، ووجهه الى جهة أخرى لدفع الحاجة والضرورة ، وإن لم يصحبه دين فهو سبب مع غيره من أسباب وعوامل الشر والظلم ، وكثيرا ما ينقلب الى الجشع والعدوان اذا لم يصحبه دين .

ثم قال : واللصوص وأضرابهم من العادين على الأمن العام وأكثرهم - ومن الممكن أن يقال بصدق كلهم - من المفلسين المفلوكين ، وإن الحروب

تقع بين الفقراء كما تقع بين الاغنياء .

فيقال : هذا شاهد لقولنا ، فان الدافع للصوم وأضرابهم على التلصص وغير التلصص ليس هو الفقر ، وانما هو الجشع ، فكأن من فقير لم يتلصص ، وأما الجشع فلا بد أن يحمل صاحبه على التلصص أو السرقة أو قطع الطريق ونحو ذلك من طريق العدوان من السلب والنهب ، وقوله ان الحرب قد تقع بين الفقراء كما تقع بين الاغنياء ، يقال : هذا خروج عن البحث ، فانه في الجشع والقناعة لا في الفقر والغنى ، وعلى فرض التسليم في هذا نقول : اذا كانت تقع بين الفقراء والاعنياء فانما تقع لا لأجل الفقر والغنى بل لأجل الجشع في الفقير والطمع المفرط في الغنى ، وكثيرا ما تأتي من ناحية الطمع ، فان الاعتداء غالبا انما يكون من ناحية القوى ، فالطمع ضرب من الهلع والهف الذي تصاب به القلوب ، ولهذا كانت الحروب العظيمة تأتي من جانب الدول الكبار ، مع كونها ليست فقيرة ، وهذا بالنظر الى عدم وجود دين معها ، أما اذا وجد الايمان الديني الصحيح في أحدهما أو كليهما فانه لا يكاد يقع بينهما حرب ولا شر فيما يختص بالمادة ، بل انما يقع لأجل المبدأ ونحوه . فنظام الدين العادل يرفع المشاكل التي تنتج الحروب أو يخفف من ذلك بحسب قوته في القلوب وضعفه ، وبالجمله فكل خلق سواء اكان فقرا أو غنى أو سعادة أو شقاء أو غير ذلك - يخلو من الاخلاق الدينية فلا بد أن يقع صاحبه في اعتداء وعداوة لا حد لها ، فقد تقدم أن الدين هو الفاصل بين البهائم والانسان ، فاذا فقد غلبت عليه الطبيعة الحيوانية فكان كالوحوش ونحوها التي لا تفتأ تتقاتل وتتصادم في أكثر حياتها . فلاخلاق الدينية هي العاصم الوحيد للشرور كلها ، وفقدانها هو الدخول في المشاكل المتولدة عنها الظلم والظلمات التي من دخلها كان من المهالكين . وهذا المغرور أخذ في تحليل البحث بدون استقامة فبكر ، فلم ينظر الى الدين مطلقا ، فضل وأضل ، ولو جعل الدين معه في كل خلق لعلم أنه هو الذي يهذب الخلق ويمنعه عن خروجه عن حدم

المعتدل الفطرى ، ولكنه نبذه وراءه ظهريا ، والعجب من قوله بعد هذا :
« بل ان عهود القناعة والزهادة الدينية كان يشب الحروب على نطاق
أوسع وأفظع مما تشبه عهود المادية المالية الجشعة ، وكل هذا صحيح لا ريب في
صحته ،

فيقال : بل هو باطل ، ولا شك في بطلانه ، بل هو من المهمـ ازل
والمضحكات التى لا يتكلم بها إلا مسلوب العقل ، فهذه الدعوى مكابرة
ظاهرة ، فما هى عهود القناعة والزهادة الدينية التى شبت الحروب على نطاق
أوسع وأفظع مما تشبه عهود المادية الجشعة ، وفى أى وقت صار هذا ، وأين
وجد ، فلا يمكن لأحد أن يثبت هذا أبدا ، فان الحروب التى فى القرون
الوسطى والتى قبلها وبعدها ليس منشأها القناعة والزهد ، بل منشأها الجشع
والتكالب على الدنيا والمزاحمة فى الرئاسة ، فأى قناعة فى هذا ، وأى زهد
وكونها وقعت فى عهد توجد فيه القناعة لا يغنى شيئا ، إنما الكلام فى كون
القناعة والزهد هى الأسباب فى إثارتها ، ويكفيك دليلا على فساد هذه الدعوى
وجود هذه الحروب الاخيرة فلا أوسع ولا أفظع ولا أشنع منها ، ولا شك
أن الذى شبهها هو الجشع المادى المالى الذى هو ضد القناعة والزهد ، وهذا
أمر معلوم بالضرورة والحس ، فدعواؤه هذه من أقبح الفجور وأسمح الكذب ،
وقد تقدم قوله ان هذه الحرب لم تصب البشرية بحرب أفظع منها ، فهذا
تناقض ظاهر .

وقوله « فالدعوة الى القناعة والزهادة لا تعطى الخير المرجو منها ، ولكنها
تجلب الشر المخشى منها فقط »

فيقال : بل القناعة والزهادة على الوجه الذى شرحناه تعطى الخير المرجو
منها كما يجب ، وإنما الذى يجلب الشر ولا يعطى الخير هو الدعوة الى الجشع
والطمع الجنونى الذى هو ضد الزهد والقناعة ، وقد وقع أثر هذا بالعيان واليقين
ثم قال « فان الانسان مدفوع مسير بغير اثر معينة أصيلة فيه ، فاذا صادفت

دعوات دينية أو غير دينية تكافح في ظاهرها هذه الغرائز الطبيعية كانت النتيجة أن تختفي هذه الغرائز عنها تحت مظاهر أخرى قد تكون أعظم فتكا وإيقاعا بالإنسانية وبأصحابها ،

فيقال هذا الكلام ساقط مرذول لا يقوله من يدري ما يقول ، فها هي هذه الغرائز المعينة الأصلية فيه ، فإن الغرائز تختلف اختلافا كثيرا متباينا ، فإن أردت أن هذه الغرائز فطرية طبيعية خيرية فلا نسلم أن الدعوات الدينية تضغطها حتى تختفي تحتها ، بل تكون الدعوات الدينية عوناً لها وإمداداً لها فيتنفق الداعي الخارجي والغريزة الداخلية فيحصل الخير والعدل والاستقامة التي هي أضداد الشر ، وإن كانت الغرائز خبيثة شريرة كانت الدعوات الدينية تعديلاً لها وتخفيفاً من آثارها وتلطيفاً لها ، وذلك بحسب القوة والضعف من الجانبين ، وهذا مطلوب أيضاً بحسب الإمكان ، وإن كانت الدعوات غير دينية والغرائز كذلك حصل الشر المخشى وتوسعت دائرة الظلم والشرور فكان ما ذكره حجة عليه لأنه لم يجعل للدعوات الدينية تأثيراً في الغرائز مطلقاً بل جعلها مضادة للغرائز الأصلية من كل وجه ، وهذا في نهاية السقوط كما هو ظاهر

فصل

قال : وأما الحديث القائل (انظروا الى من هو دونكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم) فهو حديث يراد به التخفيف من حالة نفسية طاغية ، ذلك أن الإنسان مجبول على الغيرة من الآخرين وعلى الحسد للمتفوقين الناجحين ، والغيرة والحسد قد يجلبان الشر الكثير بأن يتألم ويشقى الحاسد الغائر ويؤذي ويظلم المحسود والمنفوس عليه ، وقد يترتب على هذين الأمرين شرور كثيرة وآفات اجتماعية شاملة ،

فيقال : هذا الكلام مع كونه موافقاً لقولنا في مسألة الزهد والقناعة فهو أيضاً يبطل ما ذكره في ص ٢٩ في تشييعه الأول على الخطباء ودعائهم على

أعدائهم الظالمين حيث قال « حتى تفيض ألسنتهم ^(١) بالسوء والسباب ، وتفيض قلوبهم بالحقد على المتفوقين والحسد لهم ، ثم قال في ص ٣٠ « وقد كان المقروض في هذه الشعوب والأفراد الحائقة الغاضبة المحتاجة على من ظلموها أو فاقوها وسبقوها أن يقوموا بعمل مما مشر لتعطيم هذه الحواجز والقيود والأغلال والفروق الظاهرة الخزية تدفعهم بقوة الحق وقوة الحسد والمنافسة ، انتهى فكيف يشنع هنالك على الخطباء ويأمرهم برفض الخطب والقيام على حقوقهم يدافع قوة الحسد والغيرة والحق ، وهنا يدعى أن الغيرة والحسد يجلبان الشر للكثير بأن يتألم ويشقى الحاسد الغائر . ويدعى هنا أيضا أن هذا الحديث يراد به التخفيف من حالة نفسية طاغية ، ومعلوم أن قوة الحقد والحسد والغيرة حالة نفسية طاغية ، وإنما النافع القوى الذي ليس بحالة نفسية طاغية هو دافع الإيمان وحب الدين ، وقد تقدم كلامه هناك في الحث على إلهاب هذه الحالة النفسية الطاغية وهي الحسد والغيرة والحقد حتى سب الدعاء وجعله مصرفا خيئا من أجلها ، وما هنا انعكس كلامه وادعاه كاه كما ترى ، ولا عجب فهذا حديثه في أغلاله كلها ، ونحن وقفه الحمد على صراط مستقيم نقول انه لا يمكن لنا بحال من الأحوال أن ندرك استقلالنا التام الا اذا بنينا أعمالنا كلها على الإيمان الصادق والاعتقاد القوى الصحيح ، وذلك لا يحصل إلا بالاخذ في الاخلاق الدينية الصحيحة على ما تقدم شرحه مرارا

فصل

قال « ويمكن تصور هذه الاحتمالات متى فكرنا في شعب أو مجتمع كل فرد فيه يغلب غيظا على من هو أرفع منه في شأن من الشؤون ، ثم فكرنا أن هذا الغيظ قد يتطور الى محاولة الكيد والايقاع ما أمكن ، وأقل ما لهذا

(١) اي ألسنة المسلمين

الحالة من احتمال أن يفقد الاخلاص والتعاون والحب والانسجام بين أفراد هذا الشعب ، وعاقبة هذه الآفات لن تكون سوى الانحلال العام الذي لا ريب فيه ، فكان لا بد من وضع علاج لهذا ، وكان من المعلوم أن البشر كلما يتحاسدون ويتفاخرون فانهم يتلاشى بعضهم ببعض وتخفف آلام فريق منهم. آلام الآخرين على حد قولهم المشهور ، اذا عمت المصيبة هانت ، أما الانفراد بالآلم وبالظلم الاجتماعي وبالمصيبة فهذا مما لا يطيقه الانسان ، فكان من الصواب إذن أن يلفت (١) المصاب الى المصابين ويدل المتألم على مكان المتألمين ليهون هذا من شعوره بالزهد ومن احساسه بالبلوى ، فارشده الى أن ينظر الى من هم أشد منه هولاً وخطباً ورزماً ،

فيقال : وهذا أيضا مع ما فيه من الاسباب الفارغ لا حجة له فيه ولا تعلق للحديث به ، وهو في الجملة موافق لما ذكرناه في الزهد والقناعة كما تقدم ، فهو يتناقض ما شنع به على أهل الزهد والقناعة فيما سبق كما هو ظاهر

فصل

قال : وأما قوله تعالى ﴿ ولا تمدن عيذك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا ﴾ فهو في موضع التمهيد عن الحسد (٢) وعن التطمع الى ما هو في حوزة الآخرين ، فان هذا صنيع الأطفال والنساء العاجزات ، وهو صنيع لا يوصل الى غير الآلم والغيظ والحقد ، ولكن العاقل اللبيب يجب عليه أن يطلب لنفسه وأن يسعى لها وأن يبلغها كل آمالها إن استطاع من زهرة الحياة الدنيا وغيرها (٣) بدون أن ياكل أنامله ونفسه تشوقا الى ما متع به

(١) تقدم له نحو هذه العبارة في استعمال « يلفت » في غير محله

(٢) تقدم تحريضه على الحسد ومنافسة الآخرين في المبحث الثاني ، فانظر الى

كلامه هنا كيف نقض به ذلك

(٣) ما ندرى ما المراد من غيرها

غيره من عباد الله ،

قلت : كلامه هذا من جنس ما تقدم ، وقد عرفت ما فيه ، غير أنه أُلْحِدَ في الآية الخادا بينا - كعادته - فانه حذف منها ما يفسد تقريره ، وهو قوله ﴿ لِنَفْتِنِهِمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ فأخر الآية يبطل دعواه من أنه يجب على العاقل أن يبلغ نفسه آماله إن استطاع من زهرة الحياة الدنيا وغيرها ، فهذا يناقض مخوى الآية ، فان الله بين أن ذلك فتنة وابتلاء لا لأجل أن يبلغ الانسان كل آمال نفسه منها ومن غيرها ان استطاع ، ولهذا قال ﴿ وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ ، أى فيجب أن يطلب الذى هو خير وأبقى منها . ومن مدّ عينيه الى ما لغيره من زهرة الحياة الدنيا وطلب إعطاء النفس آمالها فقد عصى الله ، فان الله نهى عن أن يمد الانسان عينيه الى هذه الزهرة ، وبين أن ذلك فتنة ، وأن الأولى للانسان أن يمد عينيه الى الآخرة التى هى خير وأبقى كما قال في الآية الأخرى ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ ومعلوم أن ما قاله يتضمن أن الاهتمام بها أعظم من الاهتمام بالآخرة ، وهو خلاف أمر القرآن المتضمن النهى عن مدّ العين الى ما متع الله به الكفرة من زهرة الحياة الدنيا ، لأن الله انما أعطاهم إياها فتنة ، والا فرزقه سبحانه خيرا من هذه الزهرة التى هى فتنة ومتاع الى حين فلا يغيظ عليها إلا من هو منقوص العقل والدين كما هو الواقع

ثم قال « فالآية فى غير معنى الزهد والقناعة الهابطة بالهمم وبالجهد والأعمال والانتاج الانسانى ، فالواجب علينا أن نشيد ثقافتنا على تحييب الحياة وتحييب العمل من أجلها ، وأن نمقت بكل قوانا أمثال حكمة ذلك السفه القائل « زيادة المرم فى دنياه نقصان » ، وأن نؤمن بذلك القول الجديد الجميل فى تعريف معنى السعادة « انها هى القدرة على العمل » نعم ان السعادة هى القدرة على العمل ، وليست هى العمل بدون القدرة عليه ، وليست أيضا هى البطالة والكسل ذهابا ورام ذلك المخدر القديم الشنيع : الزهادة والقناعة ،

فيقال : بل الآية في معنى الزهد والقناعة بالمعنى الذي قرره المسلمون كما ذكرناه ، لا على ما فسرته بمقتضى شهوتك وأرادتك ، فانك عدو للإسلام فلا يقبل ادعاؤك عليه وعلى أهله ، فانك فسرته ذلك بما يهبط الهمم والجهود لقصد التنفير ، وأذن فالواجب أن نضرب بثقافتك هذه عرض الحائط ونشيد الثقافة على حب الآخرة وإلى ما يقرب منها من أمور الدنيا من مشروع أو مباح ، فنشيدها على حب الدين وحب العمل به وما يعزه ويجله ويحترمه فتعيش في ظله سعاداً آمناً بخلاف من شيد ثقافته على حب الدنيا دون الآخرة ، فانه يصبح خوانياً كفوراً كالكلب دائماً يلث على الدنيا متراحياً في أعماله كلها إلا في شهوته وهواه ، لأنه مدفوع بهما ، فهو دائماً يتطلب ما يرضى شخصيته ونفسه من هذه الحياة ولو أوقد بالبشرية كلها لانضاج خبزته . فتعاليم الدين هي تعاليم الحياة الصحيحة ، وما خالفها وضادها فهو الموت بعينه كما تقدم تقريره وأما اعتراضه على قول القائل وهو أبو الفتح البستي « زيادة المرم في دنياه نقصان » وتسفيهه له فهو من جنس اعتراضاته الأخرى التي لا وجه لها ، لأن مقصود القائل أن زيادة المرم من هذه الدنيا نقص في الحقيقة ، لأن الإنسان دائماً ينقص إلا في طاعة الله كما قال تعالى ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ السورة . فأخبر تعالى أن الإنسان في خسارة إلا من آمن وعمل صالحاً ، ومعلوم أن الخسارة بمعنى النقص ، وهذا القائل الحكيم ذكر أن الإنسان في نقص إلا من ازداد من الخير ، فانه قال :
زيادة المرم في دنياه نقصان وربه غير محض الخير خسران
وكل وجدان حظ لا ثبات له فان معناه في التحقيق فقدان
فهذا القائل استثنى من يكسب في دنياه الخير ، ومعلوم أن الإيمان والعمل الصالح هو رأس الخير ، فمعنى كلام هذا القائل فيه من معنى سورة العصر التي قال فيها الامام الشافعي « لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم » لأنها أخبرت عن الخاسر من الراجح في نوع الإنسان ، وبينت

طريقة الربح كما بينت طريق الخسارة ، وهى المخالفة لطرق الربح على ما بينته فى هذه السورة وسورة التين ، ولهذا عد العلماء هذا القول من الحكم ، وجعلوه فى الأبواب والسكتب التى يذكرون فيها الحكم ، حتى جاء هذا المعكوس فأراد أن يعاكسهم ، وهيهات ، فان البيت فى غاية الصحة والحكمة والبراعة الفائقة وقوله « وأن نؤمن بذلك القول الجديد الجميل فى تعريف معنى السعادة انها هى القدرة على العمل ، فيقال : هذا ليس بشئ » ، فهو قول يحمل ليس فيه جمال ولا جدوة وليس فيه تعريف للسعادة فلا يجب الايمان به ، فالقدرة على العمل ليست بسعادة ولا شقاوة ، انما السعادة هى تحصيل نتيجة العمل المقدر عليه على الوجه المطلوب الصحيح ، هذه هى السعادة ، والا فالقدرة على العمل وسيلة للسعادة وللشقاء ايضا ، وقد تكون ناجحة فى عمل مشر صحيح فتحصل السعادة ، وقد تكون ناجحة فى عمل غير صحيح فتكون وبالاً على صاحبها ، وقد لا تنجح مطلقاً فتكون فاشلة وعملها حابط فيورث الحسرة والندامة فتكون شقاء أيضاً ، فكثير من الناس يقدر على العمل لكن ليس له من قدرته على عمله الا التعب والنصب ، كالاسير الذى يعمل لغيره ، وكالافراد الكثيرة فى الشعوب الاشتراكية المضغوطة التى لا يحصل لها من أعمالها إلا كما يحصل للبيضة مقابل عملها أو دونه ، وثمرته الناضجة لغيرها . فالسعادة تناط بنتيجة العمل فقط . على أنه أيضاً لا يلزم من القدرة على العمل وجود العمل ، فليست القدرة هى الفعل ، ولا بد من العلم بوضعية العمل فليس من قدر على شئ . يعمله ، ولا بد من الإرادة الجازمة معها ، ولا بد من انتفاء المعارض . فالقدرة سبب واحد من أسباب نتيجة واحدة من نتائج كثيرة ، فأين السعادة . فقولك « نعم ان السعادة هى القدرة على العمل » نقول : لا بل السعادة حصول النتيجة الصحيحة من الأمر المطلوب ، والقدرة لا تكفى فى ذلك . وقولك : وليست هى العمل بدون القدرة عليه ، يقال : لا يوجد عمل بدون القدرة عليه ، فهذه ثمرة باردة ، وكأنك تريد أن تقول وليست هى ترك العمل مع القدرة

فخانتك القريحة المقبوحة على مقتضى تفريعك على القناعة ، أما نفي السعادة عن العمل بدون القدرة عليه فلا يصح على هذا القول الذي قلته ، اللهم الا أن يكون من متشابه حقاقتك الازلية الابدية التي لا يعلوها الا أنت أو الراحة أقدامهم في أحوال عليك ، وأما غيرهم فلا معنى له عندهم البتة . وقوله « وليست أيضا هي البطالة والكسل ذهابا وراء ذلك المخدر » فيقال : وليست هي أيضا ذلك اللبث والجشع والتهالك وراء تلك المجازفات الجنونية الطائشة ، وليس هذا الادعاء وارداً على قولنا في الزهد والقناعة على معناهما الشرعي عند المسلمين ، قائما يتأتى على ما اخترعه هو ، ويكفى أنه أنكر لفظ الزهد مطلقاً مع اقرار أئمة المسلمين كالامام أحمد والشافعي وغيرهم حتى صنف الامام أحمد في ذلك كتابا يعرف بهذا الاسم ، ونقل فيه أقوال أئمة المسلمين ، فشمخ هذا الملحد بانفه عن هؤلاء الأئمة وعن رأيهم وعقائدهم ، ولكنه أرغم هذا الأنف الذي شمخ به في نجاسات الملاحظة وخبائثهم ، وطاب له ذلك وهدأت عليه نفسه وغذيت به روحه لانه يناسبها

فصل .

ثم قال « كان الرسول عليه السلام يتهوّد ويقول في تهوّذه : اللهم اني أعوذ بك من الفقر والكفر ، فقالوا : يا رسول الله وهل يكون الفقر عدل الكفر - أي مثله - فقال : هما عدلان . حديث صحيح »

فيقال : بل هو حديث غير صحيح ، بل باطل بهذا اللفظ ، لم يقل النبي ﷺ ان الفقر عدل للكفر ، وهذا الرجل لا يتحاشى في الكذب على الرسول ﷺ ولا يبالى في ذلك ، ويسرق الحديث ولا يعزوه الى شيء من الكتب ، ثم يصححه بمجرد هواه ، ولم يسبقه أحد من أهل العلم الى دعواه في أي كتاب وجد أن النبي ﷺ جعل الفقر عدل للكفر ، وقد أجمع المسلمون أنه لو مات فقير ورثه أقاربه من المسلمين ولو مات كافر لم يرثه أقاربه من المسلمين ، وليس

الكفر عدل من الذنوب ، مع أن الفقر ليس بذنب البتة فكيف يكون عدل الكفر ، هذا لا يسوغ في عقل ولا دين ، قال تعالى ﴿ ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ﴾ فأخبر تعالى أن الكفار شر الدواب عند الله ، وليس الفقراء هم شر الدواب عند الله ، وقد قال تعالى ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ﴾ الى قوله ﴿ وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾ فأثنى عليهم مع أنه فقتهم بأنهم فقراء ، فكيف يثنى عليهم وهم كالكفار على مقتضى قول هذا الملحد ، وقال تعالى ﴿ للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله ﴾ الآية فأثنى عليهم مع وصفهم بالفقر ، بل من ادعى أن الفقر كالكفر عند الله فلا شك أنه كافر فان الكفر جريمة اختيارية بخلاف الفقر ، وقد فرق الله بينهما في كتابه العزيز وأجمع المسلمون على ذلك ، وهذا الملحد يأتي بالطامات التي لا تطاق من الكذب على الله وعلى رسوله وكتابه والمؤمنين فيجعلها أصولا ، ثم يشرع في التفريع عليها . فمن ذلك أنه يأتي الى الأحاديث الباطلة فيقول في بعضها « حديث صحيح » ويأتي الى الأحاديث الصحيحة المتفق عليها أو المروية في الصحاح فيقول « هذه مزورة أو كذب » كما فعل في حديث « لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه » ونحوه من الأحاديث المروية في الصحيحين وغيرها . فهو يريد أن يفرض على المسلمين أن يكون هو المقدم في كل أمر ، هو المقدم في علم الحديث وعلم الفقه والفلسفة والتفسير واللغة والشعر والهيئة وكل العلم ، بل يريد أن يكون العلم كله له فلا يطلب من غيره ولا يرغب الى سواء ، وهو المقدم في أمور الدين والدنيا : جنون وغباوة لا حد لها . وقد سبق الكلام في بيان الفقر عند المسلمين في أول هذا البحث ، فاذا عرفت أن هذا الحديث غير صحيح وأن النبي ﷺ لم يجعل الفقر عدلا للكفر بطل ما فرّعه على الحديث لانه منبى على أصل باطل كعادته في التفريع على أوهامه التي يخترعها ويرمي بها الاسلام ثم يطيل التفريع عليها ، فهو يدعى لنفسه ويشهد لها ويحكم لها .

ومجرد قرن الفقر بالكفر في الاستعانة لا يفيد مساواته به وأن يكون عدلاً له ، فانه قرن معه الكسل والجبن والبنجل وليست هذه الاخلاق كفراً عند جميع المسلمين

فصل

ومن عجائب تناقضه ومخازيه ما قاله في معرض هذا المبحث لما أسرف في بهت المسلمين بأنهم رفضوا الدنيا وكرهوا المال والجمال واعتنقوا الزهد وعرف أن الناس سيعلون بهته وكذبه وفساد دعواه فقد أورد على نفسه اعتراضاً أهوج وأجاب عنه بكلام ساقط ، وقد بينا لك فيما تقدم أنه يرى في نفسه القدرة التامة على الخروج من كل تناقض يقوله أو يدعيه ، ولهذا فانه لا يعاب بما يرد على كلامه من كفر وتناقض وزور وفجور ، لأنه يرى أنه أوتي من العلم والمعرفة والدهاء والمكر والخبث ما لم يؤته أحد غيره فيمكنه بذلك ان يخرج من كل تناقض كما أخبر بذلك عن نفسه في آياته الكثيرة المتقدمة ولا سيما قوله :

ولم يذكرُوا غيْرِي متى ذكر الذكا ولم يبصروا غيْرِي لدى غيبة البدر وقوله :

إذا قلت قولاً أمن الدهر واستحي وهاب مقالى أن ينازعه الدربا الى غير ذلك مما أسلفناه من الشواهد ، فمن تكون هذه منزلته كيف يجوز عليه التناقض أم كيف يليق به الغلط أو الخطأ ، هذا عما لا يكون على زعمه أبداً ، فقال :

فاذا حاول معترض أن يعترض وأن يقول إنه - وإن كان رأيهم وقولهم في الحياة وفي طلب المادة والمال كما ذكر - إلا أن هذه الآراء والاقوال لا تأثير لها في انحطاطهم وعجزهم وضعفهم ، لأنه لا يوجد منهم إنسان واحد يترك الدنيا ويأبى المال رغبة في أن يكون زاهداً وعملاً^(١) بأقويل هؤلاء

(١) كذا بأصله

الشيخ الغابرين ، بل انهم كلهم كما شاهدنا يعبدون المال والمادة ويحاولون كسبها بكل الطرق - حتى الطرق المحرمة كالغش والتزوير والسرقة - وبكل الوسائل ، فلا تأثير لهذه الأفكار والآراء الميتة الموجودة في تلك الكتب الميتة ، كتب أولئك الميتين ، في حالة المسلمين الواهنة الواهية الفقيرة ، انتهى فيالله عليك انظر الى هذا الايراد الأهوج الذي صنعه لنفسه على ما أحب ، كيف يكون رأى المسلمين في الحياة وفي طلب المادة كما ذكره من الزهد ، ومع هذا يعبدون المال والمادة ، هذا من أمحل المحال ، اذ كيف يزهد الانسان في المال دينا ومع هذا يعبده ، لكن هذا الملبد مبتلى بالتناقض . حتى في الايرادات التي يوردها على نفسه ، وقد بينا فيما سبق نظرية أئمة المسلمين في الاكتساب والزهد وحب الحياة في أول البحث

ثم قال مجيبا نفسه بنفسه على هذا الايراد : اذا قال قائل هذا واعترض هذا الاعتراض ، قيل في الجواب : ليس هناك شك في أن المسلمين جماهيرهم وخواصهم يحبون المال والدنيا ، ويحاولون ويتمنون كسبها ونيلها والاستزادة منها بكل الطرق حتى المحرمة منها ، هذا كلامه ، فاعتبروا يا أولى الابصار وأنصفونا : كيف يترجم أول البحث بكراهة الدنيا والزهد المخدر ، ثم يقول هنا ليس هناك شك في أن المسلمين جماهيرهم وخواصهم يحبون المال والدنيا الخ . هناك يدعى أنهم كرهوها ووسعوا الدعاية في الزهد ثم يأخذ في الاستدلال على ذلك حتى صورهم عاكفين في المساجد تاركين الدنيا بالكلية ، وهنا يدعى أنهم يحبونها ويحاولون ويتمنون نيلها بكل الطرق حتى المحرمة ، وأن ذلك ما فيه شك . هذا القائل المستكبر يظن أن الناس كلهم دجويون أو أن المسلمين قوم مغفلون فهو يريد أن يخاطبهم كلهم بمخاطباته للدجوى تلك المخاطبات الساذجة الوقحة التي لا يتكلم بها من له عقل وحياء يا بلعام زمانه ، نظارك رأيت بعضا من الناس يمدحون هذيانك وثرثرتك الفارغة في بعض نبذك الهوجاء فظننت أن المسلمين هم أولئك الذين لعبوا

بعقلك وأغروك على الجنون النهائي . يا بلعام زمانه : ما ندري من عليك هذا
الهديان والسخافات الجنونية التي ليس وراءها سخف وجنون

يا بلعام زمانه ، ما وجدت من الاعتراضات إلا هذا الاعتراض السخيف
ثم هذه الاجابة الهوجاء تأتي فتقول على رموس الاشهاد انهم كرهوا الحياة
واشتغلوا بالزهد والقناعة حتى اثر ذلك فيهم هذا الاندحار العظيم ، ثم تنتكس
رأسا لعقب فتقول ليس هناك شك في أن المسلمين جماهيرهم وخواصهم يحبون
الدنيا والمال ويحاولون ويتمنون كسبها ونيلها والاستراذة منها بكل الطرق حتى
المحرمة منها . لو أصابك الله بالخرس لكان أستر لك ، فلقد والله فضحت
نفسك ولو ثلث العلم ، فوا أسفي على سمعة العلم والدين من أمثال هذا المحتال
المسكين

ثم انه لعظم شقائه أراد أن يفسر الماء بالماء لانه لغزارة يحزه قادر على
أن يجمع بين متضادات أفكاره وآرائه فقال « ولكن يجب تدبر المسألة جيدا
وفهمها من كل وجوهها »

فيقال : نعم اذا صار دماغ الانسان في العظمة مثل دماغك ، وكان عقله
مثل عقلك ، أمكنه حينئذ أن يتدبرها . أما والناس بهذه الحالة :

« اذا مشيت فكل الناس في أثرك » وان وقفت فما في الناس من يجرى ،
فكيف - والحالة هذه - يمكننا أن نتدبرها ونفهمها من كل وجوهها المظلمة
أو لعلك انما تريد بهذا الخطاب أولئك الذين أغروك وغروك واغترؤا
بك ، فان كنت تريد هؤلاء هؤلاء لا يحتاجون الى تدبر مطلقا ، بل هم قد
عرفوا سبيلهم معك ، لانهم ماداموا راضين عنك فسيحملون كل ما تقوله على
الوجه الاحسن منها كان الامر ، وان كرهوك من أجل أمر ديني فانهم
سينبذون كلامك نبذ النواة منها كانت حالته ، لان هؤلاء لا يتبعون الحق
والحقيقة معك وانما يتبعون أهواءهم » ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى
من الله ، ان الله لا يهدي القوم الظالمين

ثم قال الدر الذي في لجج البحر ، ذلك أنهم يحبون الدنيا والمال بغرائزهم وشهواتهم ، ولكنهم يكرهونها ويذمونها بأفكارهم وآرائهم وعقولهم وعقائدهم وأديانهم وأقوالهم ودعاوهم^(١) ، فبالشهوات والغرائز يريدون ذلك ويطلبونه وبالاعتقاد والدين والعقل والرأى يرفضونه وينكرونها ، فتعارض القوى والعوامل فيهم فاذا وجدوا الدنيا والمادة سهلة قريبة لا تحتاج الى عناء ولا عمل أخذوها واحتاشوها بسطان الشهوات والغرائز والطباع^(٢) بالطرق كلها والوسائل أجمع حتى المحرمة ، وهذا في الاغلب ، واذا وجدوها بعيدة المنال حوجة الى الجد والدأب - وهي كذلك في الأوقات والحالات ما خلا النادر الشاذ - تعلقوا باعتقادهم ورأيهم وقولهم وبمذهبهم القائل : ان الحرص على المادة والدنيا جريمة وغواية ، والقائل لهم أيضا : ان الزهد والفقر والقناعة فضيلة وهداية فيكسلون ويكفون ويعجزون عن الطلب وعن الجهاد في سبيل ذلك ، فيخرج من هذا أن يكونوا حريصين على الدنيا التي تؤخذ بالوسائل المحرمة لأنها حيثئذ تكون في الغالب سهلة قليلة الاعناء والعناء بعيدين عنها زاهدين فيها اذا كانت تطلب وتنال بالجلاد والجلادة ، وهذا أعجب شيء ، على أنه هو الواقع الحاصل المشهود ، انتهى نحل هذا الايراد

ونحن لا ندري هل هذا من محكم حقائقه أو من متشابهها ، وقد قدمنا الجواب عن مثل هذا أول البحث ، ولكن نزيد هنا بما يحققه عن آخره ، وذلك من وجوه :

أحدها أن ما ادعيته من كونهم يحبونها بغرائزهم ويكرهونها باعتقادهم دعوى في غاية البطالان ، ولعلك نسيت دعواك في صحيفة ١٦٩ في قولك

(١) كذا بالأصل

(٢) كذا بالأصل

ولسكن الناس يعلمون جميعا أن مبدأ الأعمال كلها الاعتقادات ، وأن العامل إنما يتجه ويسير ويعمل على مقتضى ما يوجه له معتقده ، وكذلك قولك فيما تقدم أن الذى يشب الحروب هى الغرائز والميول الشريرة ، ومعلوم أنها لا تشبها إلا رغبة فى المساعدة ، وعوامل الزهد هنا إن كانت دينية قوية منعت الغرائز المضادة لها ولم يكن ثم حب ولا تمن ولا حرص شديد يوجب أخذها بطرق الحرام ، وإن كانت عوامل الزهد ضعيفة فحصول ما يضادها كاف فى تحصيلها وأخذها بالجد والاجتهاد

الوجه الثانى أن كلامك هذا يحمل ملابس ليس كافيا فى الإجابة على السؤال ، فأننا نتحدك تحديا لا هواة فيه أن تبين لنا الطريق المفيد فى تحصيلها ثم تثبت أن المسلمين تركوا هذا الطريق وأنهم لم يعملوا به من أجل زهدهم وقناعتهم لا لعجزهم ، وهذا لا يمكنك أبدا

الوجه الثالث أنه لا يوجد فى الدنيا طريق واحد سواء كان ذلك الطريق مشروعا أو مباحا أو محرما يمكن تحصيل الدنيا به الا وقد سلكه طوائف من هذه الأمم الاسلامية كما سلكه غيرهم من الدول الأخرى ، ولسكن التوفيق بيد الله ، وحيث أنهم أطاعوا أكثر دينهم لم ينفعهم ذلك ، وأما غيرهم فقد بينا الفارق والسبب فيهم فيما تقدم

الوجه الرابع أن قولك « فاذا وجدوا الدنيا سهلة قريبة لا تحتاج الى عناء ولا عمل أخذوها واحتاشوها » قول ساقط ، فإنهم لم يخصوا هذا الطريق بالاكتمساب ، بل أراقوا دماهم ، ومنهم من خرج من دينه ، ومنهم من غامر بحياته فى هذا السبيل وفى غير ذلك من الأعمال الشاقة ، فمنهم من حصل بعض مقصوده ، ومنهم من عجز عن ذلك . فدعواك أنهم لا يأخذونها إلا بالطرق القريبة كذب ظاهر لا يخفى عن أدنى عاقل

الوجه الخامس أن قولك « واذا وجدوها بعيدة المنال محوجة الى الجهد والدأب - الى قولك - تعلقوا باعتقادهم ورأيهم » قول أسقط من الذى قبله ،

فما هو الطريق الذي يروونه بعيد المنال فلم يأتوه بل تركوه من أجل الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة ، أليس انهم من زمان الخلفاء الى هذا الوقت وهم يتقاتلون عليها ويتشائمون ويتلاعنون ويتقاطعون ، فما هي أسباب الفتن وانقسام المسلمين على أنفسهم هذا الانقسام المتباين ، هل هذا كله من الرغبة في الآخرة أو أكثره من أجل حب الدنيا ، بل كل هذه الفتن وهذه الخيانات وهذا الجلاذ والجهاد والمجالد والمجاهدة والمعاندة والمعارك المتصلة حلقة كلها من أجل الدنيا ، فدعواك أنهم يتركونها إذا وجدوها محوجة الى الجدد والدأب دعوى في نهاية السقوط ، وهي أوضح في بطلانها من أن يسبب فيها

الوجه السادس أن الزهد الحقيقي الآن وقبل الآن من مئات السنين لا يوجد الا اسمه في بطون الكتب فقط ، وأنت تعلم ذلك ، وانما أتيت به هنا تشويها لسمعة المسلمين ، وإلا فبين لنا حكومة واحدة اعتمدت هذا الزهد واعتنقته واتخذته لها دستورا تسير عليه أو دينا تتعبد به ، بل الزهد والقناعة والصبر على الفقر قد كان أكثر في زمان التابعين والصحابه ، وكانوا في غاية العزة والتقدم ، وما ضرهم وجود الزهد فيهم ، وليس بلاء المسلمين الزهد ولا كراهة الحياة الدنيا ، فان هذا لا يوجد أبدا ، وكل ما قلته من أول البحث الى آخره في محاربة الزهد والقناعة والحث على الدنيا وأن الناس كرهوها كله لا أصل له ، وإسهابك هذا وإطنا بك كله لكونك تدور على شيء واحد وهو أنهم لم يكفروا بالآخرة ويرفضوها ، فجعلت عدم كفرهم بالآخرة هو كراهة الدنيا والزهد فيها . فهذه العقدة النفسية هي التي طوحت بك في هذا الميدان الى هذا التطويل والتهويل والدوران المتعاكس الذي لا طائل تحته

الوجه السابع أن اعتراضك هذا ثم اجابتك عنه - على ما فيه من سخافة وغشائة ورثائة - كاف في بطلان جميع ما قررت في هذا المبحث ، لأنك جعلت المسلمين مجردين من العمل والاحتساب والاخذ للدنيا مطلقا وتركها مطلقا ، وهنا اعترفت صريحا بانهم يحبون المال والدنيا ، وأنهم يحاولون ويتمنون

كسبها ونيلها والاستزادة منها ، ثم قلت صريحا ان هذا (بكل الطرق حتى المحرمة منها) ، وهذا تناقض واضح . ثم ان ما يوجد في بعض المسلمين من الفروق والتفاوت في الحرص عليها يوجد مثله في الشعوب الراقية الاخرى ، بل الزهد في النصارى أكثر ، فان حرصهم دون حرص اليهود بكثير باتفاق الناس ، ومع هذا تقدموا عليهم ، بل تكاد تكون الشعوب النصرانية أقل الشعوب في الحرص على كسب المادة من كل وجوها منذ القرون الطويلة ، ومع هذا فقد تقدموا على غيرهم هذا التقدم العظيم . وقد بينا فيما مضى أن الحرص الشديد على الدنيا والتهالك عليها هو أساس الضعف والانحلال لأنه يوقع في الذلة والخيانة وترك الجهاد والجلاد ويجعل صاحبه مخلدا الى الارض راضيا بالارغام والذلة والمسكنة وفساد الخلق والدين ، لانه اذا كان قصده الحقيقي هو المسادة والدنيا لم يتطلب ما وراء ذلك بما قد يكون سببا في فقره وإفلاسه ، فذكره هنا على هذا الاعتراض ليس بشيء ، وانما لجأ اليه خشية افتضاحه فيما زوره من الكذب في الزهد والقناعة ، فأراد أن يمويه به على من قل نصيبه من العقل والفهم والدين ، وهيهات وما أحسن ما قيل في مثله :

ولقد أقول لمن تحرش للهوى عرّضت نفسك للبلأ فاستهدف
واعلم أن مناقشته في مثل هذا الهذيان الكثير والرعونات الساقطة
توجب التطويل والإسهاب وضياح الوقت بدون فائدة كبيرة ، لأن كلامه كله
من هذا النمط ، وحسبنا أن نتبع جميع ما يعتمد منه من أصول كلامه في مضادة
الأديان والهجوم عليها ، لان ذلك هو ما قصدناه ، مع أن أكثر كلامه مكرر ،
كما نبهنا على هذا مرارا ، والله لا يصلح عمل المفسدين

(تم الجزء الاول)

ويليه الجزء الثاني أوله ، الكلام على المبحث السادس ،

عنوان في كتابه (هل في سنن الله محاباة) الخ

فهرس

صفحة

خطبة الكتاب	٣
احدى عشرة ملاحظة تطلعك على أصول كلامه	٩
مقدمة فى قاعدة مهمة كالاساس فى هدم ما اعتمد عليه	٢٤
الكلام على اسم كتابه	٣٧
الكلام على فائحة كتابه	٤١
الكلام على المبحث الاول : قبل البدء	٦٠
زعمه ان المستعمرين لا يرهبون الاخلاق الدينية	٧٢
زعمه أنه لا يكاد يوجد الذين يجمعون بين التدين وبين الابداع فى الحياة	٨٩
زعمه أن طبيعة المتدين - غالبا - فائرة فاقدة للحرارة المبدعة	٩٧
ذكره سبب تأليفه الاغلال	١٠٣
الاصل الذى بنى عليه كلامه فيما يختص بالاسباب والنتائج	١١١
كلامه فى نظرية التطور ، وأن النواميس مولودة عن المادة ، وأنها هى التى تحكم هذه الكائنات الحية	١١٣
حكم العلماء على صاحب الاغلال ، ونموذج مما قالوه فيه	١٤٤
الكلام على المبحث الثانى : الكفر بالانسان ، والايمان به	١٥٦
تعريضه بخطبة الجمعة وأنها ضراعات كاذبة وابتهالات وقحة	١٧٨
قوله ان دعاء الله تعالى ليس بوسيلة ، وإنما هو مصرف خبيث	١٨٠
فى أن المحتلين لا يبالون أن تنشق الحناجر فى المساجد بالدعاء عليهم	٢٠٩
هجومه على الرازى والزمخشري وابن أبى الحديد والآمدى	٢١٠
زعمه أن الانسان سيقهر الأمراض ويقضى على صنوف الشقاء الانسانى	٢٢١
قوله ان الصانع بعظم كلنا عظمت صنفته وعظمت آثار صفاته	٢٣١
تفسيره (وعلم آدم الاسماء كلها) بعلم الانسان كل شىء	٢٤٣
تخليطه فى تفسير (لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم)	٢٤٧
وفى تفسير (وفى الارض آيات للمؤمنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون)	٢٥٠

- ٢٥٤ وآية ﴿ الرحمن ، علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان ﴾
- ٢٦١ قوله « ان للانسان حدين : حد هو وجوده الاول ، وحد هو تاريخه الآن »
- ٢٧١ قوله « النفوس كنوز . . . تحتاج الى اخراج واستثمار »
- ٢٧٢ زعمه أن الدول أو الأمم اذا ارتفعت في الرقي لا يمكن أن تنزل عن مكانتها
- ٢٧٤ مجازات أخرى
- ٢٨١ زعمه أن الانسان عرف أول هذا الكون ومتى تنتقض الدنيا
- ٢٨٨ كلامه على آية ﴿ ما أشهدتهم خلق السماوات والارض ولا خلق أنفسهم ﴾
- ٢٩٣ وآية ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ﴾
- ٢٩٦ هجومه على القرون المفضلة الذين رفعوا راية الاسلام
- ٣١٦ قوله ان الانسان يتقدم ويتطور من شر الى خير
- ٣٢٠ كلامه على حديث « كل مولود يولد على الفطرة ، وتحرى به للحديث
- ٣٢٩ كلامه فيما كانت عليه الانسانية يوم نزل القرآن
- ٣٤١ قوله ان الانسان خلف وراءه عصر الظواهر وطفق يشارك الطبيعة ويسامها
- ٣٥٠ حملته على الوعاظ والخطباء ورجال الدين
- ٣٦٢ كلامه على « من عرف نفسه فقد عرف ربه »
- ٣٦٥ الكلام على المبحث الثالث : العلم والجهالة - الاسلام والنساء
- ٣٧٠ قراءة المسلمين التوراة وكتب الأوائل
- ٣٧٤ حكم تعليم المنطق ، وترجمة كتب الاقدمين
- ٣٨٠ قول الصوفية « العلم حجاب »
- ٣٨٤ قوله في حديث « المؤمن غر كريم ، وأمثاله
- ٣٩٧ قوله « لا يوجد علم يضير ولا جهل ينفع »
- ٤٠١ قوله ان الله نظم العالم بالعلم ونواميسه ، ولن نحكم العالم وننظمه الا بالعلم
- ٤٢٠ قوله ان من يعلم الاشياء بالوسائل التجريبية أحق بوصف العلم من يعلمها بالنصوص
- ٤٣٢ الكلام على مدلول العلم
- ٤٣٦ وظيفة العلم
- ٤٤٦ الكلام على المبحث الرابع : تعليم المرأة وسفورها

- ٤٤٧ الإنسان أم سامة
٤٤٨ ما هو العلم النافع للمرأة
٤٥٠ زعمه أن الرجل تحكم في المرأة وأنقلها بأحكامه الجارفة
٤٥٧ كلمة للدكتور زكي مبارك في المرأة
٤٦٠ قوله في إثارة الجدل الديني أمام ما يحد من المبتكرات
٤٦٢ مسألة السفور يراد بها أمران
٤٦٣ مقال الاستاذ العقاد في المرأة
٤٦٩ مقال للسيد المنفلوطي في مسألة الحجاب
٤٨٠ الكلام على المبحث الخامس : كراهة الدنيا وحبيها
٤٨٦ كلامه في الزهد المخدر ، وفي الاسلام والعمران
٤٩١ نظرة العرب في جاهليتها ولا سيما قریش الى الحياة الدنيا
٤٩٣ حب الجمال والتوسع في الاستمتاع به
٤٩٥ قول السيدة خديجة « انك لتصل الرحم . . . وتكسب المعدوم ،
٥٠٤ روايات يزعم أنها في ذم الفتي
٥٠٩ تشجيعه على الذوى والأئمة في موضوع الزهد
٥١٤ زعمه أن المسلمين يكرهون أو يحرمون البناء والعمران
٥٢٤ زعمه أن النبي ﷺ بدأ رسالته بالخلوة بالطبيعة وبمناجاتها
٥٢٧ ذكره شيئاً عن حالته السابقة
٥٣١ عود الى خطب المساجد وعظاتها وتحريضه على منعها
٥٣٧ زعمه أن المساجد ومنابرها أدت شرّاً ما يؤدى
٥٤٠ وصفه لرواد المساجد وأنهم يقومون فيها بحركات يمثلونها أو تمثل بهم
٥٤٦ قوله يجب الحيلولة بين الوعاظ وبين صحابهم من المسلمين
٥٥١ عود الى الزهد وأن محله القلب لا اليد
٥٦٧ حديث « انظروا لمن هو دونكم ولا تنظروا لمن هو فوقكم ،
٥٦٩ آية (ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجاً . . .)
٥٧١ تفسيره أبا الفتح البستي في قوله « زيادة المرء في دنياه نقصان ،
٥٧٣ زعمه أن الفقر عدل الكفر

بَيَّانُ الْهَدْيِ مِنَ الضَّلَالَةِ

فِي الرَّدِّ عَلَى صَاحِبِ الْأَغْلَالِ

تَأَلَّفَ

العلامة ~~المفتي~~ فضيلة الشيخ

ابراهيم بن عبد العزيز السيوطي النجدي

قاضى المقاطعة الشمالية

الجزء الثاني

حقوق الطبع محفوظة

١٣٦٩

المنشأة بالتأليف - ومكتبتها

٢١ شارع الفتح • بحرية الروضة (القاهرة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين

الكلام على المبحث السادس نواميس الطبيعة

عنوانه في كتابه :

(هل في سنن الله محاباة)

(الجمل بنواميس الحياة مانع من التقدم)

(كيف يجب أن تفهم قوانين الطبيعة)

ومقصوده بهذا العنوان تقرير ما ذكره وكرّره مرارا في أن التقدم كله
منوط بالأسباب المادية فقط ، أى ليس لمشية الله تعالى وإرادته أثر في
الأسباب والمسببات والوسائل والنتائج البتة ، بل هذه الحوادث كلها على اختلاف
أنواعها هي نتائج تفاعل الطبيعة المستمر ، وقد تذرّع بخبثه العميق الى إبطال
خصائص الإيمان والتقوى والعمل الصالح بتسمية ذلك (محاباة) ، فجعل تفضل
الله على من شاء من عباده وجزاه على الإيمان والتقوى محاباة وتشويشا وفوضى
واضطرابا ، ورفض جميع ما علم بالضرورة من دين الاسلام من أنه سبحانه
وتعالى يخلق ما يشاء ويختار ، ويختص برحمته من يشاء ويعزّ من يشاء ويذل
من يشاء ، وأنه يدافع عن الذين آمنوا ، وأنه مع المؤمنين ومع المتقين ومع
المحسنين ، وأنه يرى من المشركين ولا يحب الظالمين ولا يحب كل مختال فخور ،
والآيات في اثبات هذه الأصول كثيرة معلومة يأتى الكلام عليها

واعلم أن المحابة يراد بها أمور : أحدها الاختصاص الذي يختص الله به من يشاء من عباده من التوفيق والهداية والنصر والإعانة وغير ذلك ، وهذه ثابتة بالشرع والعقل والضرورة ، وإنكارها مكابرة للحق وقبح في الأديان ، وكل أحد من الناس مضطر إلى الإقرار بها ، فإن تفاوت الناس - بل المخلوقات - في الخصائص والخصال المتنوعة - كالقوة والضعف ، والعلم والجهل ، والعقل والبصيرة ، والبلادة والذكاء ، والغنى والفقر ، والجمال والقبح ، وأمثال ذلك - أمر معلوم بالحس لا يقبل الجدل ، ولقد كان كثير من المشركين يلجأون إلى هذه الشبهة - أي إنكار الاختصاص - عند ما تخففهم الحجج ولو بالمكابرة ، كما قال تعالى ﴿ وما قدرُوا اللهَ حقَّ قدره إذا قالوا ما أنزل اللهُ على بشرٍ من شيء ﴾ وقال تعالى حاكياً عنهم ﴿ ما هذا إلا بشرٌ مثلكم يَأْكُلُ مما تَأْكُلُونَ منه ويشرب مما تشربون ، ولئن أطعتم بشراً مثلكم لئن أذن لخاسرون ﴾ وقال تعالى مخبراً عنهم إنهم قالوا لرسولهم ﴿ إن أنتم إلا بشرٌ مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ، فأتونا بسُلطانٍ مبين . قالت لهم رسالهم إن نحن إلا بشرٌ مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ﴾ وقال تعالى ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتية من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ وقال تعالى ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ وقال تعالى ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ فبعض المشركين كانوا ينكرون هذا الاختصاص لأنه عندهم محابة ، تخلف من بعدهم ورثتهم من الملاحدة والمنافقين فسيما فضل الله تعالى بالإعانة والتأييد (محابة) توسلاً منهم إلى نبي أصل الدين ، فانه إذا انتفى هذا بطل الدعاء وبطلت العبادة بأنواعها ، ويكون حينئذ ولي الله كعبوده سواء ، فقد علمت أن هذا الأمر في الاختصاص الذي يسميه هو وأمثاله (محابة) ثابت شرعاً وعقلاً وحساً ، وهناك أمر آخر قد يسميه بعضهم محابة وهو إكرام من لا يستحق الكرامة في الحكمة الإلهية ، بل يكرمه الله مراعاة لذكره عليه ، فهذه المحابة - بحسب اصطلاحهم على هذه التسمية - باطلة ، فانه

سيخانه لا يكرم أحدا الا بعمله أو بما شرعه من الامور التي يستحق عليها
الإكرام ، فلا يكرم أبدا من يستحق العقوبة المحتومة مراعاة لكرم عليه من
خلقه كائنا من كان ، فلا يكرمه مخالفة لسنته في إهانة العاصي وإكرام المطيع ،
ولا يشفع عنده أحد الا باذنه ، وقد قال عليه الصلاة والسلام لفاطمة رضى
الله عنها « يا فاطمة بنت محمد ، سليني من مالى ما شئت ، لا أملك لك من الله
شيئا » وقال لعمه أبى طالب « يا عم ، قل لا اله الا الله ، كلمة أحاج لك بها
عند الله » ومع ذلك فلم يقلها ومات على دينه . وكان خليل الرحمن ابراهيم
صلوات الله وسلامه عليه قد حرص كل الحرص على إسلام أبيه فنصحه ودعاه
الى التوحيد بل واستغفر له ، ومع ذلك لم يغن عنه شيئا ، وقد قال تعالى ﴿ انك
لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ فهذه المحاباة - على حسب
هذا الاصطلاح - منفية عن الله تعالى ، وليست من شرعه . وقد روى الامام
أحمد والحاكم وصححه عن أبى بكر مرفوعا من ولى من أمر المسلمين شيئا فأمر
أحدا محاباة فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفا ولا
عدلا حتى يدخله جهنم ، وعن ابن عباس مرفوعا « من استعمل رجلا على
عصاة وفيهم من هو أراضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » زواه
الحاكم وصححه ، ففي هذا بيان أن المحاباة وهى إعطاء الإنسان مالا يستحقه
كقولية من ليس فيه كفاءة للولاية لا ساءته ، أما اذا كان محسنا وكان كفؤا
للولاية فتوليته ليست محاباة ^(١) . ومن يقول إن المسمى كالمحسن وإن الإحسان
والإساءة لا أثر لها فقد قال بالمحاباة بالزوم ، فان إعطاء المسمى ما ليس
يستحقه وخرمان المحسن ما هو حق له محاباة صريحة . فهذا الملعود وأضرابه هم
القائلون بمقتضى أصولهم بالمحاباة كما هو ظاهر ، وقد أكثر هذا المغرور من

(١) اذ لو كانت محاباة لانسد باب الولاية مطلقا ، فان الناس بالنسبة الى الخلق
والاعتراض سواء

التعبير بمثل هذه الألفاظ المشتبهة المجملة في كثير من كلامه ، ولا سيما في المضائق الخبيثة ، وغرضه من ذلك جعلها قابلة لتأويله وتخريفه متى احتاج الى التخلص مما يرد عليه من الألفاظ التي ظاهرها الكفر والالحاد ، وهو هنا توسل بنفي المحاباة بجملة لقصد ما أشرنا اليه في الامر الأول من التخصيص الذي ثبت بالشرع ، فانه أطال في انكار تدخل العبادات أو آثارها وسخط الله ورضاه في شيء من الأسباب والنتائج أو التقدم أو التأخر كما سيأتي . قال المغرور (هل في سنن الله محاباة) ، (الجهل بنواميس الحياة مانع من التقدم)

(كيف يجب أن تفهم قوانين الطبيعة)

ينشئ رجل مسلم متجراً أو مصنّعاً في مكان ما ، ويعرض فيه أنواعاً من أنواع المصنوعات ، فيقضى له سوء تفكيره وتقديره بالكساد ، فيظل يموت جزءاً جزءاً حتى يودع آخر أنفاسه ، أو يبقى عاجزاً عن الموت وعن الحياة بدون أن يحاول في الأكثر الغالب العلاج أو الخلاص ، فاذا ما زرته أو عدته قبل نهايته أو فطنت لحالته وقلت له : لماذا أنت هكذا ، ولماذا خصصت بالكساد دون الآخرين ، ولماذا تصبر على هذا الموت البطيء المحقق ، ولماذا لا تحاول الخروج من هذا المأزق ، ولماذا لا تغير المكان أو النوع أو طريقة العرض . ومن المعلوم أن الأسباب الطبيعية للكساد الصناعي أو التجاري ثلاثة أمور : مكان العرض ، فقد يكون اختيار المكان خطأ . ونوع المعروض ، فقد يكون النوع المعروض غير مطلوب ، وطريقة العرض والمعاملة وتقدير القيم والأسعار فقد تكون الطريقة سقيمة منفرة . اذا ما وجهت هذه الاسئلة أو بعضها الى ذلك الجاهل بسنن الحياة ونظام الكون ، الجاهل بالله ، قال لك وكله ثقة وإيمان بما قال : ان الرزق والنجاح ليسا بالشطارة ولا بالجندارة ولا بالبراعة ولا بالمكان ولا بالأسلوب ولا بالمعروض والعرض ، انما ذلك كله بالحظ وبالقضاء والقدر ، والمقضى المكتوب لك سيأتيك ولو اشتددت هرباً منه ،

جل ولو حاولت بكل الوسائل رده وإقصاءه ، فلا معنى إذن للتغيير والتبديل ،
حولا معنى للنقطة والارتحال ، ثم يستسلم لسنة الحياة الصارمة الباطشة مغمضا
عينيه عما حوله وعن الوجود السائر الدائر فتطويه كما طوت الملايين قبله ، وكما
ستطوى الملايين بعده (١) .

فيقال : قد صدر هذا المبحث بهذه الجملة المنكرة المشتملة على هذا التهور
والفساد الذي لا يحق على أدنى عاقل ، ولا ندرى ماذا يقصد من هذه الجملة ،
أهو يريد أن كل رجل من المسلمين يعمل هذا العمل ، أم يريد أن هذا قد
يفعله بعضهم ، أم يريد شيئا قدره بذهنه أنه كان أو سيكون ، ثم فرّع عليه
ما شاء ، أم يريد أمرا وراء هذا كله . فان أراد أن أكثر المسلمين على هذه
الحالة التي ذكرها فقد جاهر بالكذب والزور ، فان الناس مختلفون في هذه
الأمور اختلافا لا يمكن بحال من الأحوال ضبطه ، ولو فرض وجود مثل
هذا في بعض العامة فهل يسوغ في العقل والدين أن يذكره ويجعله قاعدة عامة
ينبئ عليها كل ما لديه من زيغ وضلال في القدرح في الإسلام وأهله ، وإنما
يفيده هذا التشنيع لو أقام البراهين ونقل من عقائد المسلمين المجمع على العمل
بها ما يصدق دعواه ، أما أنه يتخيل شيئا أو توسوس به نفسه أو يحلم به في
تومة الضحى أو في وقت آخر ثم يسجله وينسبه الى المسلمين ويعدده قدحا وعيبا
فيهم ثم يأخذ في التشنيع والرد عليهم به ، فهذا مخنف وسفاهة ظاهرة

ومن عجيب كذبه في هذه الجملة دعواه بأنهم يقولون « والمقضى المكتوب
لك يا أيك ، الى قوله . ولو حاولت بكل الوسائل رده وإقصاءه » مع قوله
« ينشئ رجل مسلم متجرا » الى آخره . فلم ذا أنشأ هذا المتجر وتعب في جلب

(١) وقد طوت أيضا من عرف سنن الطبيعة طيا أشنع من غيره في الآكثرين ،
وستطوى أمثالهم أيضا ، فالطى هذا سنة عامة شاملة

هذه الأشياء واستعمل البيع والشراء واجتهد في تحصيل ذلك إذا كان يرى ذلك الرأي ويقول ذلك القول ، بل المقصود من احتجاج بعض الناس بالقدر على الوجه المعروف أن إهلاك النفس بالهم والغم والحسرات بعد بذل الجهد وعمل السبب سفه وعذاب ، فإن الرزق مقدر بقضاء وقدر ، فالإنسان مأمور بضل السبب وكل ميسر لما خلق له ، فإذا فعله فتحصيل النتيجة على الوجه المطلوب من عند الله تعالى ، كما قال تعالى ﴿ الله يسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ فمن أنكرك أن تكون الأرزاق بمشيئة الله وقدره وقضائه فقد صادم النصوص الشرعية مصادمة ظاهرة ، وجعل أرزاق العباد بيد الطبيعة ونواميسها ، قال تعالى ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ فاقدر الله تعالى للإنسان من الرزق فانه سيأتيه ، لكنه سبحانه سيدفعه الى أسبابه ويهيء له طرقه ويزين ذلك في قلبه ويهون طريقه عليه فلا يحمله يهرب منه ويحاول رده ، بل يجعله يطلبه ويحرص عليه وهو تعالى يدل عليه . ثم دعواه بأنه يستسلم لسنة الحياة الصارمة الباطشة مغمضا عينه الى آخره هل يريد أن يصادم هذه السنة وهو يدعى أن من عارض هذه السن هناك ولا محالة ومن سار معها بلا اصطدام نال ما ينبغي ، فهذا تناقض منه . أم يريد أن يعاكس هذه السنة ويغالبها ويجعلها على هواه ، فهذا غير ممكن ، فمن هو الذي قدر على ذلك من جميع الخلق

فصل

ثم قال : ومن الطرائف الخفية في هذا الموضوع أنى عاملت مرة إنسانا من هؤلاء ، فوجدت معاملته للناس شاذة قاسية ، فقلت له : كأنتك لست حريصا على أن يعاملك ، وكأنتك لا تريد النجاح ولا الفوز ، فان هذه المعاملة مما يبعد الذين ذاقوها ورأوها وشهدوها عنك . فتعجب من قولي ورآه جدي عاظا ، بل رآني بهذا قد كفرت أو كذبت ، لأنى اعتقدت ان الأرزاق والنجاح

بالأسباب والمعاملات لا بالأقدار والأقضية ، وأخذ يسرد على روايات وفصولا يزعم أنه فعلها بالناس ، وذكر لي فيما ذكر أنه مرة ضرب إنسانا كبيرا جدا عامله وطرده من حانوته وسبه أقذع السب ووجه إليه ضروب الإهانات على مسمع من الجماهير وعلى قارعة الطريق ثم قال لي : ما تظن أن هذا الانسان الكبير قد صنع بعد هذا الهوان المرير . قلت أظنه ذهب ثم لم يرجع . قال انه بعد هذه الحادثة بثلاثة أيام جاء الى متلطفا متخضعا طالبا الغفران والنسيان كأنه المجرم الآثم وكأنى المظلوم المغبون . ثم أردف معلقا : رأيت أن الرزق ليس بالمعاملة ولا بالحسنى ولا بالأسباب ولا بشيء مما تدعى وتحكى . فصرخ بجهله العميم ، وأخمني بسخفه ، فقطعت عليه الحديث وخرجت من عنده مفكرا في عاقبة الجهل والضلال ، وتمعنبا من استعداد الانسان لأن يكون أضل من الانعام .

والجواب أن يقال : ذكره لهذه الحكاية أخف بما ذكره في الجملة السابقة ، فإنه لا يخلو من أحد أمرين إما أن يكون هذا الانسان الذى جاوره عالما أو يكون جاهلا ، فان كان عالما فالذى منعه من أن يتم البحث معه وينهى المناظرة حتى يعرف ظهور الحجة إما له وإما عليه ، فيذكر حجته وإجابته ، فان مقاطعة الحديث وخروجه من عنده قبل استماع آخر الحجة دليل واضح على طيشه وحمقه ، وأنه يريد من الناس كلهم أن يتابعوه ولو خالف الحق والواقع . وهذا الرجل انما تكلم بشيء قد عرفه من نفسه فوقع له وشاهده ومارسه وباشره ، فكان من الواجب على هذا المغرور أن يطلب منه الدليل على ما أخبر به إن كان شاكيا في صدقه أو يتحقق ذلك ، وإما أن يجيب على كلامه بكلام صحيح مطول ويكمل البحث ، وهو لم يفعل شيئا من هذا على مقتضى كلامه ، بل استأز ونفر كما تنفر الحر المستفجرة وأخذته العزة بالآثم ، لما أسند هذا الرجل رزقه الى ربه قاطعه الحديث وخرج غيبر مكترث بالدين والعقل والأدب ، وهذا غاية الجهل والحق والضلال والاستعداد لأن يكون أضل من الانعام .

وان كان ذلك الرجل المخاطب جاهلا فما هو الذى حمله على محاوره الجاهل
أولا ، ثم ما الذى سوغ له أن يذكر محاورته فى أغلاله ويجعلها قاعدة لبحث
مستقل ثم يحتج بها على المسلمين ثم يأخذ فى التشنيع عليهم ، فهذا هو غاية ما
قدر عليه فى تشويه سمعة الاسلام فيما يتعلق برأى المسلمين فى القضاء والقدر فى
معاملة البيع والشراء ، فسبحان من أخزاه

ثم قوله « بل رآنى بهذا قد كفرت » يقال : ان كان رآك بهذا قد كفرت
فقد أصاب ، فانه لا يشك مسلم فى أن من جعل الأزاق ليست بمشيئة الله
وارادته وإنما هى بالطبيعة وبقدرة الانسان فقط ، فهو كافر خارج عن حظيرة
الاسلام ، بل الرزق بالاسباب التى أعطى الله عباده وممكنهم من استعمالها ،
فهو مسبب الأسباب الذى يرزق بها ويتصرف فيها بما شاء وأراد ، وأما
الأسباب بنفسها فهى من جماد وغيره ناقص خاضع لإرادة الله غير مستقل
بإعطاء شئ أو منعه أو وصل شئ أو قطعه . وهذا الرجل الذى ذكره - إن
صدق فى دعواه - رجل عاقل بين له أولا أنه فعل ما أمكنه ، فلما لم يقتنع بين
له الشئ الذى باشره وشاهده ، فلما كذبه وجحد ما لم يحط به علما وحصر
الرزق فى الأسباب بدون تعلق قضاء الله وقدره بها علم أنه زنديق ملحد خبيث
الطوية فلا مانع من تكفيره ، والمسلمون مجمعون على أنه ما شاء الله كان وما
لم يشأ لم يكن ، فما شاء من رزق فلا بد أن يكون ، وما لم يشأ فلن يكون أبدا .

ومن العجب أنه ذكر محاورته لهذا الانسان ، وقد عجز غاية العجز عن الرد
عليه ، وإنما أخذ فى التهمك والاستهزاء فقط . ومعلوم أن هذا ليس بحجة ،
وهذا الذى ذكره هذا الانسان ليس من المحال ، فان غاية ما انتقده فيه أنه
عامل انسانا معاملة سيئة ثم رجع ذلك الذى أسىء اليه واعتذر منه ، وهذا يقع
كثيرا فليس مستغربا ، بل هذا المغرور نفسه قد وقع منه ما هو أشنع من
هذا ، فانه قد كان أولا بينه وبين كثير من معطلة الجهمية وعباد القبور عداوة

بومشاحنات وسباب واتهام كثير ، وبينه وبين السلفين ائتلاف وصداقة حسبا
يتظاهر به ، ثم بعد هذا كله انقلب على وجهه وعمل مع أعدائه الذين عاملوه
باشنع المعاملات القاسية ما لو تمنوه وبدلوا كثيرا من أموالهم فيه لم يحصلوا
عليه ، ولقد أقر في كتبه السابقة (١) أن هؤلاء المستعمرين قد أرهقوا العرب
وظلموهم واستعمروهم وسلبوهم كل شيء وأطال في ذمهم ، ثم رجع عن هذا
كله وأثنى عليهم في هذه الأغلال ولا سيما في المبحث العاشر ، وقد التجأ أخيرا
الى كل أعدائه المعروفين الذين رماهم قبل ذلك بالزندقة والإلحاد وسقط تحت
أقدامهم ، كما قاطع أصدقاءه الذين نفعوه وقاموا معه في أحرج الأوقات
فأضاف الى هؤلاء أقذع السب والاتهام والتجهيل وغير ذلك ، فكيف يستغرب
هذا وهو قد وقع فيما هو نظيره بل أشنع منه ، مع أن هذه هي سجية كل لئيم
- وما أكثر اللئام - فإن اللئيم لا بد أن يعادى من صنع اليه إحسانا وأن
يصاحب ويوالى من عامله بالسوء ، ونحن قد شاهدنا كما شاهد غيرنا أناسا
كثيرين جدا قد عملوا مع من أحسن اليهم أعمالا شنيعة فظيعة ، وعملوا مع
من أساء اليهم أعمالا طيبة حسنة ، ولو ذهبنا نسردهما اطلعنا عليه من ذلك
وشاهدناه وذكره غيرنا ممن يعتبر قوله لطال الكتاب ، فإن هذا أمر معروف ،
وحسبك أن تعلم أن هذا الرب العظيم الكريم الرؤوف الرحيم الذى أفاض على
كل الخليقة خيره ورحمته ونعمه المتنوعة قد كفر به وعاداه أكثر الخلق ،
فبدلوا نعمته بكفرا ، وعبدوا الشيطان الذى هو أعدى عدو لهم ، وقد قال
تعالى ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ [١] وقال
تعالى ﴿ اقتنضونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ﴾ [٢]
ومن عجيب أمر هذا المغرور أنه ذكر في هذا المبحث نفسه حكاية شنيعة
مضحكة ، وهي تبطل معارضته لهذا الانسان في هذه الجملة التى ذكرها من

(١) انظر مقدمة الجزء الثانى من (الصراع)

أصلها فقال ص ٢٠٨ ، وقد كنت أعرف شيخا يكاد يمد من الناحية العلمية في غمرة الجاهلين ، ومن الناحية الذوقية والأدبية والسلوكية في زمرة السفهاء المتوقفين ، وهكذا هو في كل ناحية من نواحيه وجانب من جوانبه ، ولكن كانت تتركز فيه قوة سحرية لا يستطيع - أو لا يكاد يستطيع - أن يتنجس منها ويفلت من عقدها ونفثها لإنسان يتلى بالجلوس بين يديه ، إنه يتصرف فيمن حوله من البشر كما أنهم القطعان ، أو كأنهم مخلوقات خلقهم هو وصاغهم في القالب الذي يريد ، وفي المعنى الذي يبلغ منه بلا عسر كل ما يريد ، إنه فرض عليهم أن يكونوا بين يديه كالأموات بين أيدي الغاسلين لا يتحرك منهم عضو حتى يحركهم هو وحتى يريد منهم هو ، وفرض عليهم أن يخشعوا في خضرته خشوع الصالحين العابدين في صلواتهم أو ذلة المشركين أمام أصنامهم ، وألزمهم أن يدخل بينهم وبين الله في أقرب موقف يقفونه منه تعالى ، ألزمهم أن يضعوا خياله وصورته بينهم وبين الله وبين القبلة حين الصلاة ، وفرض عليهم أكثر مما فرض الله على عباده ، ثم كتب لهم هذه الفروض في كتاب من كتبه التي زورتها يده (١) ثم أمرهم أن يتعلموا هذه الفرائض وأن يستذكروها حفظا من أجل أن يعملوا بها أينما كانوا (٢) وقد امتثلوا هذا كله (٣) ثم قالوا هل من مزيد من هذه العبادات والفروض . فما سر هذه القوة في هذا المخلوق ، إنها أسرار عجيبة وإن أقواها أو من أقواها ما في نظراته وعينيه من سحر خبيث ، انتهى

-
- (١) ليس هو بأشنع من أغلاك هذه ، ولا طلبه من الناس بأشنع من طلبك لنفسك منهم
- (٢) وهكذا صنعت أنت : فادعيت أنه لا يستغنى عن أغلاك مسلم
- (٣) لعل هذا هو الذي جراك على هذا الفعل الشنيع ، إذ ظننت أن الناس سيكونون معك مثل أولئك مع أستاذهم

فبالله عليك أيها المنصف ، وازن بين ما ادعاه هذا المغرور هنا في هذا الشيخ وبين ما انتقده على ذلك الرجل الذي جاوره فيما فصل ترى العجب من التناقض . ولو أن قائلا قال له لعل هذا الرجل الذي جاورته فيه سرّ دقيق من هذه الأسرار العديدة التي ادعيها في هذا الشيخ إما في نظراته أو عينيه وأنها فيه بكل حال لألقمه الحجر ، وهذا شأن هذا المسكين يأتي إلى أشياء واضحة معقولة فينكرها ولا يقبل فيها أدنى دليل ، ويأتي إلى أمور مستحيلة فيدعيها ويوجب على الناس تصديقه فيها وقبولها وحدها والعمل بها ، فما ذكره من الانتقاد على ذلك الانسان انتقاد ساقط سقوطا بينا

وقوله « فغمرني بحمله العميم ، وأجمنى بسخفه » ، فقطعت عليه الحديث وخرجت من عنده ففكرا في عاقبة الجهل والضلال ، فيقال : فعليك هذا وقولك دليل على نقص عقلك وسوء أدبك ، بل خنقك بالحجة وأجلك بالدليل ، فانه أخبرك بشيء واقع شاهده وباشره بنفسه فأنكرت عليه وكذبت به بمجرد كونه لم يوافق رأيك ، ونسبته إلى ما اتصفت به من الجهل والضلال ، ولو ساع لكل من يقوم عليه الحجة أن يقول في جوابه فلان غمرني بحمله العميم لكان من السهل لكل من تقيم عليه الحجة أن يقول ذلك ويكون جوابا كافيا في ردها ، فكيف يفتخر هذا المغرور بهذا الفعل الذي هو نقص فيه وجحة عليه . قال بعض الأدباء في وصف المغرور : هو الذي لا يرى إلا ما يراه ، ولا يعتقد إلا ما يعتقد ، ويظن أن الدنيا كلها تصدقه وتعجب به وتطريه . وهكذا كانت (الشمس التي في غير برجها)

فصل

ثم قال « وليست هذه الحكاية فريدة في هذا الموضوع ، بل سمعنا وسمع القراء المثات والألوف من أمثالها : يقولون كما يقول هذا الرجل ، ويرون كما يرى ، ويفكرون فيما فكر ، ويعاملون معاملة »

فيقال أولا : قد بينا أنك ادعيت من جنسها عما هو أشنع منها فيما ذكرته عن ذلك الشيخ الذي يعامل أصحابه بالاهانة وهم يعبدونه مع ذلك ، فإن كان في كلام هذا الرجل وعمله بعد أو استحالة فقد ادعيت ما هو أبعد في العقل منه ، وإن لم يكن بعيدا بطل اعتراضك

ويقال ثانيا : إن عنيت أن القراء سمعوا أمثال هذه الحكاية أى طبقها في كل شيء فكذب وبهت ، فلم يسمع من واحد من الناس عن يعتد بقوله فضلا عن المئات أو الآلاف ، وأنت لم تنقل إلا عن واحد فقط مع أنك أكذب من سجاح^(١) ، فلو أن القراء سمعوا مثلها أى طبقها لذكروه ونشروه ، وإن عنيت أن الناس أو القراء يسمعون مثلها فيما يتعلق بالقضاء والقدر خاصة أى يدعون ويرون أن الرزق بقضاء الله وقدره ومشيتته وعليه ، وأنه هو مسبب الأسباب وموصل نتائجها ، وأن الأسباب غير مستقلة عنه تعالى بالرزق ، فهذا صحيح وهو اعتقاد المسلمين ، ولكن أنت خالفت هذا الصحيح وذهبت إلى الأول ، لأنك انتقدت عليه لما ذكر القضاء والقدر ، مع أنك قد رأيته قد فعل السبب حيث جلب بضاعته وعرضها واستعمل البيع والشراء ولم يعتكف في مسجده أو يجلس في بيته ينتظر الرزق . ولا شك أن القراء من المسلمين ينكرون استقلال الأسباب من دون الله بالأرزاق وغيرها

وأما قولك هذا رأى الجاهل بالحياة وهذا عمله ، يقال بل هذا رأى الرجل العاقل العالم بالحياة ، لأنه فعل السبب واعتقد أن الرزق بيد الله يؤتیه من يشاء ، وأنه تعالى يرزق عبده بالأسباب ، فانه اشترى بضاعة وعرضها في دكانه ففعل السبب واعتمد على الله في إيصال نتائجه ، وهذا هو مقتضى الشرع والعقل . وأما هذا المغرور فانه اعتقد اعتقاد الاطفال الجاهلاء الذين يرون أن الأسباب

(١) سجاح اسم امرأة مسيلمة التي ادعت النبوة معه

هى التى تفعل بذاتها بدون قوة غيبية تدبرها وتسيطر عليها ، ولهذا فانهم يعتمدون على الأسباب المادية اعتمادا كليا لجهلهم بقدره الله تعالى وعلمه وحكمته

ثم قال : وأما الرجل الآخر الذى عرف سنن الحياة فانه اذا ما أنشأ مصنعا أو متجرا أو قام بعمل من الأعمال فلم يجر أمره على ما يريد ويؤمل فانه يعلم كيف يتلافى أمره ، وكيف يتلافى الخطر قبل وقوعه ، ولا يمكن أن يستسلم للدمار والضياح قائلا ان المسألة مسألة حظ وقضاء وقدر ، ثم لا يلبث أن يخرج منتصرا ، وأن ينجو عما ظنه خطرا مبيدا ،

فيقال : هذا كلام يحمل غير مسلم بهذا الاطلاق ، فان أردت أن هذا الرجل الآخر وهو الذى يكفر بالقضاء والقدر ويعتمد على نفسه - كما هو ظاهر كلامك ومقتضى أصلك - لا بد أن ينتصر وأن ينجو فهذا كذب ظاهر مخالف لما علم بالحس والواقع ، فان كثيرا من الناس يجتهدون ومعهم من الدهاء والمعرفة بهذه الامور ما لم يعرفه كثير ممن نجحوا ومع هذا فلم يحصلوا على ما ذكرته ، وهل هؤلاء الذين سقطوا فى هذه الحروب وغيرها قصرُوا فى معرفة هذه الأمور ، بل هم أعرف الناس بالعلوم المادية والسنن الطبيعية ، وقد علم أيضا أن كثيرا من الناس يعرفون طرق التجارة وقد أهلكوا انفسهم فى طلبها وما نالوا اكثر مما ناله من هم دونهم فى المعرفة . وإن أردت أن الواجب على الانسان أن يفعل الأسباب التى تقيه من الخطر ويستعمل الوسائل التى تروج سلعته أو غيرها مع اعتقاده أنه لا نجاة له عما قدر الله تعالى وقضاء وأن الرزق بيد الله ولكن الله أمره أن يطلب الرزق بالأسباب التى شرعها ، فهذا هو اعتقاد المسلمين فلا حاجة الى التشنيع عليهم فى أمر يرونه ويعتقدونه ويعملون به - ولكن ليس هذا هو مرادك - والدليل على أن هذا هو معتقدهم أنهم يعملون ما فى وسعهم من الحيل والدهاء مقلبين أسبابهم على كل الوجوه التى يرونها نافعة ، فهذه الاعلانات الكثيرة فى الجرائد والمجلات والأسواق

والدعايات الواسعة كلها تدل أعظم دلالة على أنهم مجتهدون غاية الاجتهاد في
تحصيل التجارة وغيرها ، ولكنهم يختلفون في ذلك كما يختلفون في أفكارهم
وقواهم وعلومهم وصورهم وغيرها ، فلا يمكن أن يكون الناس أمة واحدة
متساوين في كل شيء من الأشياء (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا
يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) فلا بد من وجود
الاختلاف الذى هو من سنن الله الكونية في خلقه

ثم قال « واذا تصورنا هذا المثل صحيحا وفكرنا فيما يمكن أن تكون نهاية
الرجلين اللذين ضربناهما مثلا لم يعسر علينا كثيرا أن نفهم لماذا كان الرجل
الأول فقيرا متأخرا ضعيفا صغيرا في كل أمر يتعاطاه ، ولا لماذا كان الرجل
الأخر غنيا قويا كبيرا في كل شيء يتناوله »

فيقال : كل هذا مبنى على أصلك الفاسد ، وهو أن الإنسان بطبعه
واستعداداه في إمكانه أن يتغلب على كل شيء فيكون تاجرا ماهرا في التجارة ،
وغنيا بقدرته الذاتية ، وفي إمكانه أن لا يخسر ولا يفتقر أبدا ، بل في إمكانه
أن يكون سلطانا وأن يقضى على كل شقاء وبؤس ، فليس لمشيئة الله تعالى
تدخل في أمره في رفع وخفض وإحاطة وحفظ ، ولا غير ذلك . وقد مر
فساد هذا الأصل وأنه باطل ، وكل هذه الأصول الآتية في إبطاله ، لانه دائر
على إنكار تصرف الله في خلقه ، وأن الأسباب الطبيعية مستقلة بتدبير أمر
الكون ، وهذا هو اعتقاد الاتحاد المحض

فصل

ثم يقال :

« يعطى ويمنع لا عقلا ولا سفها لكنها خطرات من وساوسه »
وقال آخر في آخر :

ما زال يعجب بالمكارم جامها حتى ظننا أنه مجنون

يريد قائل هذا الشعر أن ذلك الانسان الذى عنناه بشعره يتصرف فيما يملك تصرفا ليس دائما لقانون ولا قائما على حكمة ولا على اشتقاق ، فيعطى من يعطى ويمنع من يمنع ويعز من يعز ويذل من يذل ويكرم من يكرم ويهين من يهين ، يفعل ذلك لا لأن أحدا من هؤلاء خلق بما صنع ، ولا لأنه أتى من الأعمال أو الأسباب ما يستحق عليه ما ناله ، ولكن لأن مشيئته العليا المطلقة رأت أن تفعل ذلك ، ولأن إرادته المجردة من كل عقل ونظام أحببت أن تصنع ما صنعت ، ولأنه قادر ، وماذا يمنع القادر السفيه من أن يتصرف مثل هذا التصرف الذى قيل فيه حتى ظننا أنه مجنون ، وقيل لأنها خطرات من وسوسه . وهؤلاء الجاهلون بالله وبحكمته يرون فى أفعاله وفى تصرفه فى خليقته مثل رأى هؤلاء الشعراء فيمن عنوا بشعرهم ، فيرون أنه تعالى لم يصنع نظاما دقيقا لا فرار منه يلقى كل جزاءه على مقتضاه ، وبأخذ كل على حسب ما يعطى ، ويحصد كل انسان ما زرع ، وينجح كل اذا درس وفهم ، ويسقط اذا هو لم يفهم ذلك ، ويرون أن هذا العالم فى يد الله كعبة فى يد ضئيل يقذف بها ذات اليمين وذات الشمال بلا تفكير ولا تدبير ،

والجواب أن يقال : أنت من أخبت هؤلاء الجاهلين بالله وبحكمته الذين يرون هذا رأى الممقوت ، فأنك أسندت تدبير العالم الى نواميس الطبيعة ، وصرحت تصريحاً لا مربية فيه بأن هذه الموجودات الموصوفة بالكائنات الحية ليست إلا نسل المادة الجامدة ، وأن النواميس هى التى تحكم هذه الكائنات الحية وهى موروثه من أصلها الذى هو المادة ، وهذا غاية التصريح فى أنك جعلت تدبير هذه الكائنات الحية منوطا بنواميس الطبيعة أى تفاعلها ، فكان هذا العالم بمقتضى صريح كلامك موكولا الى الطبيعة ونواميسها ، ومعلوم أن الطبيعة ليس لها عقل ولا علم ولا حكمة ، بل تعطى وتمنع لا عقلا ولا سفهاً

بل بمجرد المصادفات ، كالخطرات التي تؤسوس في صدر من لا عقل له ، فهذا الكون العظيم عندك كالكرة في يد السفه الذي يقذف بها ذات اليمين وذات الشمال يصريح كلامك ، لأن الصبي كالطبيعة إن لم يكن أحسن حالا منها ، لأنه لا عقل له ولا رأى ولا علم ولا تفكير ، وهكذا الطبيعة بهذه الصفة ، وكل من الصبي والطبيعة يجري فعله بحسب المصادفة والدوافع الاضطرارية لا الاختيارية ، فكما أن الصبي لا يفرق بين المحسن والمسيء والمفلس والمصلح والمتقين والفجار فكذلك الطبيعة لا تفرق بين هؤلاء وانما يفرق العدل الحكيم العليم الرحيم اللطيف الخبير ، وهذا التفريق انما يعتقده من يؤمن بالله بصفات كماله ونعوت جلاله ، لا من كفر بالله وقدره وقضائه ومشيته العامة ورحمته فاعتقد أن العالم متروك فوضى ومحكوم بالفوضى ، وكما أن المجنون لا يفرق بين من يطيعه ومن يعصيه والموافق والمخالف ، ولا يحب ولا يبغض ولا ينتقم ولا يثيب على ذلك بل أموره كلها تجري على حسب المصادفات وحسب الدوافع الاضطرارية فهكذا الطبيعة وأسبابها ، فكل ملحد أو زنديق فانه معتقد الفوضى في العالم والكون ، وأما من اعتقد أنه يجري بمشيئة الله العليم الحكيم الرؤوف الرحيم ﴿ ما تسقط من ورقة إلا هو يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين ﴾ وكل عامل يجازى بقدر عمله ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ فلا يجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض ، ولا يجعل المتقين كالقجار ابدا ، فلا بد أن يعتقد أن العالم محكوم بأعظم نظام وأكمل وأحسنه وأفضله . فهذا المغرور لم تطب نفسه بالحكم الالهي ولا بالنظام الالهي ، بل كرهه ومقته وجعله فوضى وسفها ، فجعل من دعا الله وعبدته لم يحصل له الا الخيبة والشر والتعب والنصب ، وجعل من اتبع أفكاره هو وآراءه فلا بد أن ينهض وأن يتقدم ، ومن خالفه فلا بد أن يهوى ، فجعل أفكاره هي النظام الموصل الى النتيجة ، وأما شرع الله ونظامه فبذل جهده واستعمل فكره ومكره .

في إزالته وتشويهه ورفضه ومعاربته ، وهذا عين المحادة والمشاقة الظاهرة لله تعالى ولآديانه والدائنين بها من جميع العالمين

ثم أقال : « فعندهم أن الانسان قد يستوفي كل شروط الغنى أو شروط الصحة اللازمة لأن يكون إنسانا محترما ناجحا في الحياة ، ثم لا يدرك شيئا منها ، بل عندهم ما هو أقبح مما ذكر ، وذلك أنهم يرون أن القاعد العاجز قد يبلغ كل ما يؤمله من الفوز والنجاح ، بينما يهوى الجاد الحازم ،

فيقال : قف ، هكذا الامر عندك (على نفسها تجنى براقش) ، فانك صرحت باعتقاد هذا الامر الذي أنكرته فجعلت العقل من أسباب الفقر ، والجهل من أسباب الرئاسة ، بل ذكرت أن الانسان كلما ازداد في الجهل والكفر ازداد في النعيم والغبطة والجاه ، والعكس بالعكس ، وذكرت أن هذا أمر واقع لا ريب فيه ، فمن ذلك ما ذكرته في قصيدتك الركيكة التي أولها :
لو أنصفوا كنتُ المقدم في الأمر ولم يطلبوا غيري لدى الحادث النكر
فقلت فيها :

ورغبني في الجهل أني رأيتنا يسود لدينا كل من لم يكن يدرى
نواب دهر تترك الحر حاترا وليس بمظلوم لديه سوى الحر
فقد اسندت هذا الأمر الى نواب دهر وجعلتها لا تظلم سوى الحر ،
وصادمت حديث « لا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر » فان الله هو الذي
يصرفه وهو الذي يصرف الليل والنهار وما فيها . ثم قلت :

يرى الجاهل المأفون فيه منعا له الفلك المسعود يجرى بما يجرى
له الناس والدنيا جميعا خوام فهذا له عبد وهذا له مطر
فالناس كلهم خوام للجاهل المأفون ، بل وكذلك الدنيا تخدم من يكون
بهذه الصفة كما هو صريح كلامك . ثم قلت :

يزاد نعيمًا كلما زاد جورُه ويكبر شأنًا كلما زاد من كفر
أطاعت له الأيام حتى لو أنه تأبى طلوع الشمس ما طلعت تجري
هكذا يكون الجاهل المأفون عندك يزداد في النعيم ويكبر في الشأن كلما
زاد في الكفر ، ولعلك ما كفرت وازددت في الكفر إلا ليكبر شأنك
وتزداد نعيمًا وتخدمك الناس والدنيا جميعًا وتطيعك الأيام ، بل الشمس لا تطلع
لو منعها هذا الذى يزداد في الكفر والجهل ، فانها لا تطلع أبدًا ويكون الليل
سرمدا الى يوم القيمة ، ولكن قد تنوب عنها الشمس التى في غير برجها والذى
الذى في لجج البحر بلعانه وضيائه ان أمكن ذلك . ثم قلت :

متى شئت ان تلقى جهولا مرأسا وجدت كثيرا اذا جلال وذاسر
وهذا صريح في أن الجهل من أعظم الأسباب لنيل الرئاسة واليسر ، وأن
العلم بالعكس وإلا لم يكن ثم فارق . الى أن قال :

اذا ما سألت الدهر حق يقول لى تنحّ لها للحر حق لدى الدهر
وان قلت سامنى على الجور قال لى غلظت فاسألت مذكشت من حر
وهذا كالذى قبله صريح في سب الدهر ، ثم قال :

وان قلت سامنى على الجور والغنى يقل لى بنكران الفضائل والنجس
تشك الى ما منه أشكو ومفزع الى ظالمى كيف الخلاص من الأمر (١)
اذا ما نظرت الناس والرزق بينهم تيقنت أن العقل ضرب من الفقر

فالعقل ضرب من الفقر ، فيجب أن ينفر منه ويعادى كما يعادى الفقر لأنه
ضرب منه ، وينصاع الانسان الى الجنون فالجنون والجهل هما من أسباب

(١) تأمل هذا البيت الخبيث ، وخلق من هذه حالته مع الله أن تكون هذه
عاقبته . هذا مع أنه قال في معرض هذه القصيدة :

بلغت بعللى ما يرام من السعلى فما ضرتنى فقد الصوارم والسمى
فلم إذن هذا التشكى

الغنى . وهذه الايات صريحة جدا في أنه يرى أن الانسان قد يستوفي كل شروط الغنى أو الشروط اللازمة لان يكون انسانا محترما ناجحا ولكن لا ينال إلا عكس ما اقتضته هذه الشروط ، وأن الجاد الحازم الحر يهوى بمجده وحزمه ، وان الجاهل ولا سيما اذا كان كافرا فانه ينال الغنى والعز والسيادة . وهذه حقيقة الفوضى ، بل الفوضى أحسن ، فان لم يكن هذا الرأى الذى رام فوضى ودعاية صريحة الى الفوضى فلا ندري ما هى الفوضى والدعاية الى الفوضى ، ولا سيما وهو هنا أسند ذلك الى الدهر ونوائيه وهو يعلم أن الله نهى عن سب الدهر لأن الدهر لا فعل له البتة وانما الفعل للذى يتصرف فيه ويقلبه وهو الله تعالى الذى يقلب الليل والنهار ، انه يدعى أنه يحامى عن الدين ويدافع عنه ويدعو الى أخلاقه ، فما ذكره هنا من تشويه رأى المسلمين من كونهم يرون أن الجاد الحازم يهوى وأن الذى يفعل الأسباب الموصلة الى النجاح لا ينجح كذب على هذا الاطلاق ، وانما هو رأيه وعقيدته ، وهذا شأنه يحمل كل ما فيه وفي إخوانه من الملاحظة من خصلة قبيحة على المسلمين ، ويصف نفسه بالخصال الحميدة الموجودة فيهم

ولا يصح اعتذاره بأن المقصود به المبالغة أو نحو ذلك ، فان مثل هذه الإطلاقات في سب الدهر والتسيخط والمجازفة محرم شرعا ، ثم هو قد ناقش المسلمين وشنع عليهم بأيات الزمخشري وابن أبى الحديد والرازى والآمدي وابن زريق وكعب بن زهير ، مع أنه ليس فى آياتهم شيء ينكر ، وقد بنى عليها أمورا عظيمة ألزم المسلمين بها مع بعد دلالتها عما ادعاه ، بل قد ناقشهم بقول ابن هانئ الاندلسى والبحترى مع علمه أنهم لا يجوزون مثل تلك الأقاويل التى نقلها عنهم ، ثم ان هذه الايات التى ادعاها هى متضمنة لما ورد فى أغلاله ، فان الجميع يدور على أن مناط التقدم والتأخر إنما هى نواميس الطبيعة حيث قرر فيما يأتى أن نواميس الطبيعة هى التى تحكم العالم ، ومعلوم أنها ليست بأكثر من المصادقات القسرية الاضطرابية ، وهذا هو عين الفوضى ، فان كل فعل

يصدر عن غير عدل حكيم مختار فلا بد أن يكون مشتملا على فوضى وفساد ،
وحركات الطبيعة لذاتها هي كذلك

فصل

قال : « ولقد زعم هؤلاء حينما توالى انتصارات ألمانيا في بداءة هذه
الحرب أن هذه الانتصارات إنما حصلت لأن الله يريد أن يهزم أعداء ألمانيا ،
لا أن لديها من الأسلحة والجنود وخطط الهجوم ما ليس عند أعدائها . ثم لما
أن تغير مجرى الحرب وأخذت الهزائم الألمانية تتلاحق ثم هزمت في الخاتمة
الهزيمة النهائية رجعوا يزعمون أن المسألة راجعة الى مجرى القضاء والقدر
والمشيئة الإلهية لا إلى تغيير الأسباب واختلافها ، وقد ألفت في هذا الخطب
والمحاضرات وكتبت المقالات ، وهكذا يحكمون في كل قضية ،

والجواب أن يقال : وهذا أيضا بما يدل على أنه لا يرى لمشيئة الله سبحانه
تدخلا في تدبير العالم ، ولا في النصر والهزيمة ، بل كل ذلك منوط عنده
بالأسباب المادية فقط ، ولهذا أنكر غاية الإنكار على هؤلاء الذين اعترفوا
بأن المشيئة لها تدخل في هزيمة ألمانيا وانتصارها ، فكما أن الاصنام لا تدخل
لها في هذه الهزائم ولا هذه الانتصارات فكذلك الرب العظيم تعالى وتقدس
لا تدخل له في ذلك على رأيه ، وهذه هي قاعدته في كل أغلاله . ومعلوم أن
المسلمين الذين تكلموا في هذه الانتصارات وألقوا الخطب والمحاضرات ليس
فيهم من يقول ان وجود هذه الأسباب وعدمها سواء ، ولم يقولوا انها هزمت
من غير أسباب ، ولا يوجد عنهم في ذلك كلمة واحدة ، وقد بينا أن مذهب
جماهير المسلمين أن الله سبحانه يفعل بالأسباب في النصر والهزيمة ، فهو يهزم
بها وينصر بها ، فان شاء أضعفها بأن أدخل عليها أسبابا أقوى منها تعارضها ،
أو أضعفها بذاتها ، وان شاء قواها كما قال تعالى ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم
ويخزمهم وينصركم عليهم ﴾ وقال تعالى ﴿ ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو

بعضكم ببعض) فأخبر سبحانه أنه يعذب هؤلاء بهؤلاء ، فهو سبحانه أمره بفعل الأسباب ، وأمر بأن يدعى ويستعان به ، لأن الأسباب مفعولة له خاضعة لإرادته فلا تستقل بنصر ولا هزيمة ، وهو سبحانه ينصر بها ويخذله بها . وكون ألمانيا انتصرت أولا ثم هزمت أخيرا ليس فيه كبير أمر فأكثر الحروب هكذا ، فليس هذا خاصا بهذه الحرب وحدها حتى يجعل ذلك برهانا على استقلال الأسباب بالتدبير ، وقد ذكر تعالى في وقعة أحد النصر أولا والهزيمة أخيرا ، وقد أسند ذلك كله الى مشيئته وقدرته ، مع كون ذلك له أسباب مادية ودينية ، فانه لما حصل مقتضى النصر حصل النصر ولما حصل ما يوجب الهزيمة حصل موجبا كما قال تعالى ﴿ ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم ياذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما يحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ فقوله تعالى ﴿ ولقد صدقكم الله وعده ﴾ يعنى بالنصر فان المسلمين هزموا المشركين هزيمة ظاهرة كما تواترت بذلك الروايات الصحيحة ﴿ اذ تحسونهم ياذنه ﴾ أى بمشيئته ، وهذا صريح فى أن النصر حصل بالمشيئة ، مع أن هناك أسبابا مادية ، وقوله تعالى ﴿ حتى اذا فشلتم وتنازعتم وعصيتهم من بعد ما أراكم ما يحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ﴾ فهذا كله دليل على أن هذا الصرف أى الفشل وقع بالمشيئة ، وأن لذلك أسبابا معنوية ومادية ، فانهم لما عصوا وتنازعوا وتركوا بعض الأمر الذى أمروا به حصل ما حصل من الفشل ، وقد أسند صرفهم اليه تعالى صريحا ، لأن ذلك وقع بإرادته ، كما أن النصر وقع بإرادته ، وقد جعل لذلك أسبابا مادية ومعنوية ، فكل نصر وهزيمة فلا بد له من أسباب مادية ومعنوية ، ومشيئة الرب تعالى هى التى تصرف هذه الأسباب ، فيجب على الانسان أن يستعينه ويلتجئ اليه ويعمل ما أمر به من الأسباب ، وهذا هو المطلوب فى حق كل أحد ، ولم يحصل قط فشل الا بحصول خلل فى

أحد هذين الأمرين أو فيها جميعا ، وهذا المغرور صفق وطقطق وجعل حصول النصر ثم الهزيمة في ألمانيا برهانا على كون الأسباب مستقلة بالتدبير ، ونفى أن الله سبحانه هو الذى يصرف الأسباب كيف يشاء ، وأنه لا يجرى فى ملكه ما لا يريد ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن)) وما تشاءون إلا أن يهزم الله رب العالمين)) فانه تعالى لما أراد هزيمتها صرف قلوب زعمائها وآراءهم حتى وقعوا فى تلك الاغلاط التى قضت عليهم بالهزيمة ، وزين فى قلوب أعدائها دخولهم فى الحرب للقضاء عليها . وكونها انتصرت أولا ثم هزمت أخيرا فيه حكم كثيرة ، فان وقوع هذه الحرب عقوبة محضة وانتقام ظاهر ، فلو هزمت فى أول الأمر إلى النهاية لم تدخل إيطاليا ولا روسيا الحرب ، ولم يحصل ذلك الشقاء الطويل والعذاب الممhin على تلك الصفة ، ولو حصل النصر لها لكان فى ضمن ذلك حصول النصر لإيطاليا واشتداد الحرب فى الشرق الأوسط ولتحكمت إيطاليا فيه ، وفى ذلك من المفاسد العظيمة ما لا يخفى ، ولكن وقع على الوجه الذى يحصل به اشد الانتقام ، فكان تكرر النصر ثم الهزيمة حيناً بعد حين كاللذو والجزر يتضمن أشنع العقوبة وافطع العذاب على هذه المواضع الالحادية ، لأنه تعالى صب قوتها على رأسها ، وفى ذلك أيضا مضاعفة الحقد والبغضاء بين المتحاربين ، وطول الحسرات والعذاب بهذه الأسباب التى عصوا الله بها كما قال تعالى ((فلا تعجبك أموالهم وأولادهم ، إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون))

وبالجملة فلا حجة له فى هذا البتة ، فلا معنى للتبجح وجعل هذا من الحقائق الالزمية ، فليس فى هذا أكثر من كونه حصل تقدم لها ثم حصل تأخر ، وأكثر الحروب يقع على هذه الصفة ، فانه سبحانه هو الذى خلق الأسباب وخلق مصادرهما من الآراء والتفكير وتقلب القلوب ، خلقها وخلق العاملين بها ولها ، وهذا كله يرجع مصدره إلى القدرة الربانية والمشيئة الإلهية ، كما تقدم تقرير هذا فى البحث الأول وفى غيره

فصل

قال : ومن الأمثلة للجهل بسنة الحياة أو بسنة الله في الحياة أن الناس يريدون - وهم يعتقدون أنهم سيصلون الى ما يريدون - أن يبلغوا جميع أغراضهم المادية والمعنوية بغير وسائلها الطبيعية ، فهم يريدون أن ينالوا الثراء الوفير والأولاد والصحة والقوة وأن تخصب أرضهم ويزكو زرعهم وتنمو أنعامهم وأن يحصلوا المعارف الغزيرة وأن ينجحوا في الامتحان وأن ينصروا على الأعداء وعلى أسلحتهم وجيوشهم وأموالهم وعلومهم وأن يدركوا كل ما يبغيه ، بماذا ، إنهم يريدون أن يدركوا ذلك كله بالدعاء المجرد تارة وبالبكاء والضراعة تارة وبالصلاة تارات وبالصيام أخريات وبالايمان جينا بلا عمل وبالتقوى أحيانا وبقرأة القرآن أو بترتيب الاذكار والأوراد والاحزاب ، ثم يزعمون أن القرآن والدين قد دلاهم على هذه الحقيقة ، والدين والقرآن بريئان مما يزعمون ،

والجواب أن يقال : هذا من المواضع التي نبهنا عليها في الملاحظة الثالثة ، وغرضه من هذا الهراء أن الذي منع الناس من التقدم اشتغالهم بالأخلاق الدينية ، وهو يعلم حقيقة العلم أن أكثر الناس قد أضاعوا هذه الأخلاق وتركوها واشتغلوا عن هذه الأعمال وغيرها بالأمور المحرمة التي تصد عن الدين والدنيا ، وهذا الملحد له حظ وافر من أخلاق اليهود في المكابرة والبهت ، ولهذا فانه صرح هنا مكابرة على رموس الأشهاد بأن المسلمين يطلبون الأولاد بمجرد الدعاء ونحوه من العبادات بدون تزويج ، فانه صرح بانهم يطلبون الأولاد بهذه الأمور المجردة بدون الأسباب الطبيعية ، وليس وراء هذا البهت والمكابرة بهت ومكابرة ، ونحن اذ نعرض هذا على كل مسلم غيور يعز عليه مبداه ودينه نستغنى عن الاسباب في إبطاله والتعليق عليه ، ولو أن يهوديا ادعى على المسلمين مجاهرة بأنهم يطلبون الأولاد والزراعة ونحو ذلك بمجرد

العبادات من دون فعل أسبابها الطبيعية لعرف كيف يحبيه المسلمون على هذا الادعاء العاقل المفضوح . وقد نهينا فيما سبق على أن هذا الرجل يكذب ويبهت ويحرف ثم يأخذ من كذبه وبهتانه وتحريفه براهين وحججاً له يحتج بها على المسلمين في ذمهم وذم دينهم ، فهو كما ترى لا يكتفى بأن يأتي إلى الأمم الإسلامية فيدعي عليهم بأنهم يكرهون العلم بل يحرمونه ويدعون أنه حجاب ، وأن التعليم خروج من الملة وشرك في الربوبية ، وأن العلم كذلك منازعة لله في ملكه ، حتى يركب على ذلك بأن يدعي عليهم بأنهم يطلبون الأولاد والزراعة وأمثال ذلك بالأخلاق الدينية فقط ، وغرضه من هذا الجنون والهراء والخيال الساقط تركيز بعض الأخلاق الدينية في نفوس المسلمين ولو بالبهت والمكابرة ، وقد ضرب صفحا وتعامى بل وباهت فيما علم بالضرورة والحسن من التزويج والزراعات والمعارف والقتال والثورات وغير ذلك ، وصورهم عاكفين في المساجد زاهدين في الدنيا قد نبذوها ورفضوها فلا بيع لديهم ولا شراء ولا تزويج ولا صناعة ولا زراعة ولا مدارس ولا كتب ولا علم ولا تعليم ولا نزاع ولا قتال ولا شيء من ذلك كله ، دعى الأمور الكفرية والفواحش والمحرمات والتهالك على الدنيا والتكالب عليها ونحو ذلك ، بل جعل كل واحد منهم صائماً الليل قائماً النهار يقرأ القرآن ويدعوه ربه ويتضرع إليه ويبكي طمعا في الجنة وخوفاً من النار وقد رفض الدنيا كلها . لقد سئمتنا وأيم الحق من تطويل الاستدلال على فساد هذه الرعونات وتقنيادعاء هذه الوصمات ، فوالله أنه لم يتجاسر كثير من المبشرين واليهود وأكثر الكفار المعادين للإسلام أن يتفوهوا بهذه الأمور وينسبوها إلى المسلمين ، لأن مثل هذا الادعاء خروج عن العقل والحياء ، ومكابرة واضحة

لقد بلغت الفحمة والاستهتار والتلاعب بدين الإسلام وأهله بهذا الزنديق مبلغاً لم يصل إليه أكفر ملحد ولا شر كافر يحارب الإسلام ، أما كان له سماع يسمع به وبصر يبصر به هذه الكتب التي يدعى أنها كالجبال وهذه المجالات

والجرائد وغيرها في التزويج ووجوبه ، وهذه الأعمال كلها وشروطها ، وهذه كتب الفقه التي يدعى أنها تموج موجا كلها في الأحكام التي هي أعمال المسلمين في معاملاتهم وأنكحهم وزراعاتهم وصناعاتهم وجهادهم وتعليمهم وغير ذلك مما لا يعد ولا يحصى ، وأكبر من هذه وأطم قوله « ثم يزعمون أن القرآن والدين قد دلاهم على هذه الحقيقة ،

فيا بلعام زمانه ومطية شيطانه من هو الذي زعم أن الدين والقرآن دلا على أن الولد يطلب بالدعاء أو بهذه العبادات المجردة من غير سببه الطبيعي ، فانك صرحت بأنهم يطلبون ذلك بدون أسبابها الطبيعية ^(١) . قاتلك الله ما أرخص الكذب عندك وأخفه على لسانك ، لقد وجدت جوا خاليا فأصغرت فيه بكل ما خطر على بالك ، وقد كان من الواجب عليك أن تبين مستند ادعائك عليهم واستدلهم بالقرآن والدين الذي ادعيت ثم ترد ذلك بالبرهان ولا تكتفي بالادعاء فقط ثم الرد عليهم بقولك والدين والقرآن براء من ذلك ، فكل هذا هذيان وترهات مركب بعضها على بعض

ثم انه لشدة شغفه بحب المعاكسة وتأيد خبائثه حاول تصديق ادعائه هذا بعبارة نقلها - حسبما زعم - عن الغزالي في كتابه (منهاج العارفين) ذكر في هذه العبارة أن المؤمن يعيش بعبادة الله من غير طعام ولا شراب ، ثم ذكر أن السيوطي قال في بعض كتبه ان الصوفية يلهمون معرفة الطب ، وهذا غاية ما قدر عليه وهذا مع كونه ليس من الحجة في شيء البتة وانه قد رده بنفسه حيث

(١) والمسلمون وان قالوا ان الطاعات وامثال أمر الله تعالى لها سبب عظيم في حصول البركات ودفع الشرور كما دلت على ذلك النصوص ، لكن لا يقولون ان حصول ذلك بترك الأسباب الطبيعية التي شرعها الله وأمر بها ، بل اتباع أوامره في الاخذ بالاسباب هو من الطاعات التي هي من أسباب الخيرات كما وضحنا ذلك مرارا

ادّعى أنه ليس المسلم بالذى يتتبع أخطاء المخطئين واغلاط الغالطين ليقاوم بها وحى الله ، فهو أيضا لا يفيد ما ادّعاه ، فليس فى كلام الغزالى ولا السيوطى ان الولد يطلب بمجرد الدعاء وأن المعارف والزراعات تطالب بالاخلاق الدينية المجردة من دون أسبابها الطبيعية ، فان هذا الادعاء بهت للغزالى والسيوطى وكذب عليهما ، وكتبهما فى الفقه والاحكام مشهورة كلها تردّ هذا ردا صريحا ، وهما وان كانا من المغالين فى التصوف لكنهما لا يدعيان مثل هذا الهذيان المنكر ، وقد تقدم قول هذا المغرور فى صراعه ^(١) ليس كل ما كتب يكون حجة على المسلم الخ ، فكيف جاز له أن يحتج بما ليس حجة

فصل

قال : ومن أشنع الأوهام أننا سمعنا وسمع كثير من القراء بلا شك خطبة تتلى فى المساجد حينما انطلقت الغارات الجوية على مصر منذ سنوات يندد فيها يجهل من يلجئون حين الغارات الى الخبايا مزعوما فيها أن الخبايا والملاجئ لا تعصم من الموت ، وأن الفرار اليها نقص فى اليقين وجرح فى الايمان بالله ، لان الذى يعصم من ذلك هو ذكر الله ودعاؤه والتوبة اليه والخلاص من الذنوب . فيقال : وهذا أيضا كالذى قبله فى أنه لا يرى للمشيئة العليا تدخلا فى أمور العالم ، فلا يرى للعبادة والذكر والتوبة والخلاص من الذنوب أثرا فى الوقاية ، فن ذكر الله تعالى ودعاه وتاب إليه كمن لم يذكره ولا يدعو ولا يتوب اليه فى العصمة من الهلاك وأسبابه ، وهذه هى قاعدته ، ولهذا أنكر على هؤلاء الذين يرون للمشيئة العليا تدخلا فى الوقاية وعدمها ، هذا مع أنه تناقض فى هذه الدعوى فزعم فيما تقدم أن من يلجأ الى الفرار من هذه الغارات والقنابل وغيرها من الظواهر فهو جاهل بمن فى الغباء والجهل حيث قال فى الصحيفة

١١٠ ومن حاول أن ينجو من خطر الفيضان الذى ترمى به الأنهار ومن خطر الامطار التى تجود بها السماء بالهرب والبعد عن المنطقة كان ممعنا فى الجهل والغباء ، وهو كمن حاول أن ينجو من مخازن البارود والقنابل وسائر المتفجرات بالفرار من الممدن التى توجد فيها هذه المخازن ، والشعوب والأفراد البدائية الجاهلة لا تجد وسيلة للنجاة مما تخاف وترهب من ظواهر هذا الكون : من البروق والرعود والعواصف والقواصف والأعداء المغييرين^(١) ومن اللصوص وغيرهم ومن اختلاط النساء بالرجال ، لا تجد حيلة سوى هذا ، أما الشعوب والأفراد المتعلمون فانهم لا يفرون أمام شيء من هذا ، بل يقفون له ويروضونه ويصرفونه وفق المصلحة والفائدة ، انتهى

فكيف يشنع هنا على الذين ينهون عن الهروب ويرشدون الى طاعة الله تعالى ، ويشنع هنا لك على الذين يهربون من هذه الظواهر التى منها إغارة الأعداء والقنابل وسائر المتفجرات ويتقونها وينهى عن ذلك ، مع أنه شنع على الذين ينهون عن ذلك ، وأبشع من هذا وأشد نكارة دعواه أن المتعلمين يقفون أمام هذه الظواهر من البروق والرعود والعواصف والقواصف لا يفرون منها بل يروضونها ويصرفونها على وفق المصلحة والفائدة ، وليته استطرد فحين كيفية تصريف البروق والرعود والصواعق والقواصف ، وكيفية الوقوف أمامها والاستفادة من مصالحها لينتفع الناس بذلك : وأعجب من ذلك أنه خلط هذه الأمور باختلاط الرجال بالنساء ، فعلى عقله العفاء والسلام

كلام أكثر من ترى ومنظرة مما يشق على الآذان والحدق
ثم ذكر أن من أظهر وأكبر أعمال النبي ﷺ التاريخية أنه حينما اضطر إلى الخروج بدينه من مكة وخاف مطاردة أعدائه المشركين لجأ إلى غار ثور التاريخي المشهور هو وصاحبه الصديق

فيقال : هذا يبطل دعواك السابقة التي نقلناها في قولك ان الشعوب والافراد البدائية الجاهلة لا تجد سبيلا الى النجاة مما تخاف وترهب الا بالهرب ، الى قولك ومن الاعداء المغيرين ، فجعلت النبي ﷺ وصاحبه رضى الله عنه من الافراد البدائية الجاهلة لانك جعلت الذين يهربون من الاعداء المغيرين - سواء كانوا أفرادا أو شعوبا - بدائيين جاهلين ، ومعلوم أنها لم يقفوا لاغارة الاعداء ويصرفاها في المصلحة والفائدة بل خرجا حتى لجأ الى غار ثور واخذوا في الدعاء والتوكل على الله ، فكيف تستدل بهذا وهو حجة عليك ، ثم ادعى أن النبي ﷺ لم يأخذ هو وصاحبه في الدعاء بل أخذوا في سنة الحياة

فيقال : هذه دعوى كاذبة بل المتواتر في الصحاح والمسانيد وغيرها أنه دعا الله تعالى وأكثر من ذلك حتى انه دعا على ذلك المشرك الذي لحقه على فرس حتى رسخت قوائمها في الارض ، فهو ﷺ اعتصم بالدعاء الذي هو رأس الوسائل الدينية كما أنه فعل ما في وسعه من الأسباب الطبيعية وهو الدخول في الغار ونحوه ، ولو لا إحاطة الله تعالى له بالوسائل الدينية لم تنفعه الأسباب المادية ، فان غار ثور صغير جدا ، ومع ذلك وصل اليه المشركون حتى وقفوا على فم الغار وصرف الله أبصارهم وبصائرهم عن دخوله أو النظر فيه ، وهذه معجزة ظاهرة خارقة للأسباب العادية ودليل ظاهر على أن الأسباب الدينية أقوى من الأسباب المادية وأعظم منها ، بل الأسباب المادية تابعة لها ، فانه لو كان مجرد دخول الغار والوصول اليه مفيدا في النجاة لرآهما كفار قريش ، فانه من البعيد جدا إن لم يكن من المستحيل في العادة أن يصل الاعداء المغيرون العارفون بطرق النجاة يلتمسون من هو أعدى عدو لهم وقد حرصوا نهاية الحرص عليه ثم يقفون على هذا الغار البسيط ويحجز أحدهم أن ينظر فيه ليلتمسه فيه ولا سيما مع قلة الملاجىء هنالك . ثم ان مقتضى كلامه فيما سبق أنه يجب أن يقف ولا يلجأ الى الغار ولا غيره ليصرف هذه الاغارة ويروضها على ما تقتضيه المصلحة والفائدة كما تقدم تصريحه بذلك

ثم ادعى بعد هذا أنه عليه السلام فعل ذلك هو وخلفاؤه وأصحابه في حياتهم ولهذا نجحوا ، قال : ولو أنهم كانوا يذهبون مذاهب هؤلاء لأخفقوا ولم يبلغوا من أمرهم شيئا ،

فيقال : هذا بهت صريح فانه قد كان من المعلوم الذى لا جدال فيه أنه عليه السلام وأصحابه من أعظم الخلق اعتمادا على الأسباب الدينية ، فهم أعظم الخلق دعاء وتضرعا وصلاة وصياما ، وانه تعالى ألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ، فهو أتقى الخلق ، وهم أتقى الخلق بعد الأنبياء ، هذا أمر لا يشك فيه مسلم كما لا يشك مسلم أنهم لم يعتمدوا على الأسباب الطبيعية بل استعملوا ما في إمكانهم واعتمدوا على الله وحده في الفوز والنجاح . ثم ان هذا الكلام تناقض منه كما تقدم ، فانه تارة ينكر على من لم يقف للاعداء وتارة ينكر على من ينكر عليهم ، وهؤلاء الخطباء لم يدعوا إلا الحق ، فانهم أرشدوا الى الدعاء الذى هو من أعظم الأسباب والى الاخلاص والى التوبة من الذنوب . فان الذنوب هى البلاء وهى اسباب المصائب كلها فبزوال السبب يزول المسبب وبفعل الوسيلة تحصل النتيجة ، وليس فى الدنيا كلها أعظم وسيلة - للنجاة والحياة والخلاص من كل شر - من طاعة الله تعالى وتقواه والالتجاء اليه والتوكل عليه ، فمن عمل بطاعة الله تعالى فلا بد أن يوفق للأخذ بالأسباب المادية وتيسر له الامور ، ومن عاكس الله ورفض أسبابه الدينية وذهب يطلب مراده من الاسباب المادية وحدها لم يستحصل ذلك غالبا ولو حصل له شيء فى النادر فلا بد أن يعذب به وتصيبه النكبة فيه ويدوق وبال أمره كما وقع ذلك بالعيان على ما تقدم تقريره

فصل

ثم أخذ يتكلم فى الأرواح ، وذكر أن الناس يظنون أن السحاب إنما تسوقه الملكة ، وأن النبات إنما ينبت بقوتها ، وأن البرق والرعد عملان من أعمال

الملئكة ، وأطال من هذا الكلام وأكثر فيه من التهم والاستهزاء ، ولقد كان من واجبه أن يذكر أن هذه الأمور من عقائدهم التي لا بد منها ، ويذكر كلامهم فيها من العقائد ، ويذكر أدلتهم ثم يبطلها ، وهو لم يفعل من ذلك شيئاً بل أخذ في التهم والاستهزاء ، وهذا ليس من الحجة في شيء فنكتفي بمنع الدعوى

ثم ذكر الشياطين والجن ، وأطال في انكار دخول الشياطين أو الجن بدن الانسان ، وذكر أن ملايين المسلمين يزعمون وقوع ذلك ، ثم ذكر أنه جرى بينه وبين أناس محاورات في هذه الأمور ، وكل هذا هذيان لا قيمة له ، فعليه أن يبين كيفية اعتقاداتهم من عقائدهم المعتمدة ثم يذكر دليلهم ثم ينقضه بجميع معقولة ، وحيث أنه لم يفعل شيئاً من ذلك فلا حاجة إلى الإطالة في هذه الأمور ، لأن الكلام فيها مشهور في كتب العلماء ، وكلامه يدور على انكار وجود الملئكة والشياطين ليتسنى له القول بأن الحوادث كلها من تفاعل الطبيعة وتطوراتها اعتماداً على هذا الأصل الخيث . وليس انكاره للملئكة والشياطين باقبح من انكاره للقضاء والقدر وكون الدعاء وسيلة ، ومعاداته للصلوات والخطب والمساجد وأمثال ذلك فإن من اعتقد الاتحاد فلا بد أن يرى هذا الرأي

ثم ذكر مسألة إحضار الأرواح المشهورة ، وذكر أن في صحتها خلافاً ، وادعى أن فريقاً من المحققين - ولا ندرى من هؤلاء المحققون غنده - ينكرون إحضارها ، ثم ذكر حكايات عن شيخ مجهول لم يذكر اسمه في هذا الموضوع . هكذا تكون حججه في القدح في أصول الدين ، مع أنه يقصد في الروايات التي في صحيح البخاري إذا لم توافق رأيه . وحيث أن كلامه كله في هذه الأمور تهم واستهزاء وحكايات من عند نفسه فنكتفي في رده بالمنع . ثم بعد أن أسرف في انكار هذه الأمور لف ودار إلى الخداع فادعى أنه مؤمن بالملئكة (إنها كلمة هو قائلها) فهي كافية باقناع خميرة فأى مضرة عليه بالاثبات بها وهي تتمعه عندهم من الاضلال والتكفير

فصل

قال ، وما يتصل بمسألة الأرواح المعتدية مسألة الاصابة بالعين أو بالنظرة أو ما يسمى عند العامة بالحسد ، فان الحاسد عندهم إنما يصيب بروحه الحيثة . ومسألة الاصابة بالعين مسألة ذات ذبول طويلة وحواش ضافية ، ولاعتقادها أثر جسيم في حياة الكثيرين وفي عقولهم وأفكارهم وتصرفهم العام . ثم أخف يسرد أشياء من اعتقادات العامة في الاصابة بالعين ، ثم ذكر أنهم ينسبون أشياء من هذه الخرافات الى الدين ، وذكر حديث : أكثر من يموت من أمتي بعد قضاء الله وقدره بالعين ، ونصف ما يحضر لامتي من القبور بالعين ، والعين تدخل الرجل القبر والجمل القدر ، وذكر أشياء من هذا القليل على عادته في تتبع مهازل العامة والمخرفين والآثار الساقطة لجعل من ذلك سلاحا للطعن في صميم الدين وأهله ، فهو يتناول ما تيسر مما شاء من حكاية أو أثر مهما كان في الضعف والسقوط ، ثم يكبر ذلك ويمظمه ويزيده بما شاء ، ثم ينسبه الى الاسلام وأهله ويصول في رده ويجول . وقد تقدم الكلام عن مثل هذا مرارا ، على أن دعواه هنا أن لذلك أثرا في حياة الكثيرين وفي عقولهم الخ دعوى مردودة ، فأننا نقول نحن لا نثبت الا ما كان حقا وله حقيقة فقط ، وما كان محتمقا فانكاره مكابرة وجود للحقائق ، فانكاره أعظم أثرا في إفساد العقول والحياة من نفيه ، فان العقول اذا تمرنت على المكابرة وجحد الحقائق فسدت . هذا في غير الامور الشرعية ، أما فيها فهو تكذيب للنصوص الدينية وجحد لها وهذا يناقض الاسلام . وأيضا أنت قررت بأن الانسان يعلم كل شيء ويقدر على كل شيء ، وليس في الدنيا أضر على الحياة وعلى العقل من هسلا الاعتقاد ، فان الانسان اذا اعتقد أن عدوه يعلم كل شيء ويقدر على كل شيء أثر ذلك في عقله وروحه وحياته في الفساد والرعونة والوهن وسوء العمل ، وسيأتي كلامه بأنه يوجد في الناس من يستطيع أن يخضع من حوله ويستعبد

ويصيرون كالأموات بين يديه بمجرد نظرة يرسلها اليهم ، ومعلوم أن اعتقاد هذا أكبر ضرراً وأسوأ عاقبة في حياة الكثيرين وعقولهم وتفكيرهم وتصرفهم العام . ثم ذكر أنهم يعلقون التهام والاحجية المتنوعة من طلائع وألغاز وحروف مقطعة ويحملون النجاسات وقاية عن العين ، وكل هذا كذب ظاهر إن أراد أن أئمة المسلمين يرونه ويأمرون به ، وإن أراد أن بعض جهلاء العامة يفعلون هذا فهم يفعلون أشياء أعظم ضرراً منه كالأمور الشركية وغيرها ، وأئمة المسلمين ينهونهم عن هذا وهذا ، وليس الكلام في أفعال بعض العامة . وهذا المغرور يعلم حقيقة العلم أن كتب الأصول والفقه مملوءة بالنهي عن هذا ما عدا التهام التي من القرآن والسنة ففيها خلاف . وأما حمل النجاسات فهم يحرمون على تحريم ذلك وأنه يبطل الصلاة ما عدا حالات ضرورية ففي ذلك نزاع . وأكثر من أدخل هذه الأمور على الاسلام هم أسلافه من ملاحدة الجهمية ومن نحائهم ، فإن أكثر ما توجد هذه الأمور في كتب الطب ، وقد أثني على هؤلاء الفلاسفة الذين أدخلوا هذه الأمور كالحسن بن الهيثم والكندي وأبي بكر الرازي وأمثالهم ، ثم مجرد وجودها منقولة في بعض الكتب ليس فيه حجة ، فإنها لا تنقل في العقائد المعتمدة وإنما توجد في الكتب التي يوجد فيها تحريف الصفات والاحاد في معانيها والدعوة الى الشرك . ولهذا لا توجد في الكتب الصحيحة النقية ككتب شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم وكتب السلف وأتباعهم ، وقد تقدم كلام هذا الزائف أنه ليس كل ما كتب يكون حجة على المسلم ، وأن الكتب يوجد فيها أخطاء كثيرة ، ولو كان لهذا المغرور أدنى غيرة على الاسلام وأهله لم يحتاج ببعض أفعال جهلة العامة وأمثالهم على المسلمين وينشر ذلك بين أمم في غاية العداوة للاسلام وأهله تشتري كل ما تجد فيه أدنى شبهة في تشويهه وإشانة أهله بأعلى ثمن . وقد علم أن كتب الفقهاء من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة المعتمدة تحرم ذلك ما عدا التهام المشتعلة على النصوص الشرعية فعلى التفصيل الذي ذكرناه .

ثم قال : نعم جاء في الأحاديث التي رواها المحدثون الثقات أن العين حق ، وأنه لو كان شيء سابقا لسبقته العين ، ولكن هل هذه الأحاديث في سبيل من جهل هؤلاء الجاهلين ، وفي صدد مما قالوا . كلا فان كلام النبوة أضخم وأسمى معنى وهدفا وغاية مما يتوهمون ،

فيقال : ولم لا يصير كلام النبوة أضخم وأسمى معنى وهدفا وغاية مما قلته أنت وتوهمته ، ولا سيما مع شهادتك على نفسك بانك جاهل وأنت أسفه من كل سفيه ^(١) وأما علماء الدين فان الله تعالى ألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ، ومن كلمة التقوى فهم النصوص الشرعية وتطبيقها على مدلولاتها ، ومعلوم أن ما فهموه فكله مخالف لما ادعيته ولم يقل بقولك هذا أحد من علماء المسلمين

فقولك بغد هذا فالعين حق ، فان الانسان الشرير يرى بغينه فيحقد ، ويحسد بقلبه ثم يصيب بأعماله ، قول ساقط فليس هذا معنى الحديث ولا هدفه ولا غايته ، بل أسمى وأضخم من ذلك ، فالرسول ﷺ لم يقل العمل حق بل قال : العين حق ، الحديث . فلو كان المراد العمل لم يكن للعين اختصاص ، فان الانسان قد يسمع أيضا فيحقد ويحسد ثم يصيب بأعماله ، والشم واللمس كذلك ، ولم يكن أحد يشك في أن الانسان ينظر أو يسمع ثم يحسد ثم يعمل ، ولو أن رجلا رأى امرأة جميلة ثم راودها عن نفسها حتى عجز عنها ثم قتلها حسدا لم يصح أن يقال إنه أصابها بالعين ، وكذا لو رأى مالا لعدوه حسده فعمل على اتلافه لا يقال انه أصابه بعينه ، بل الاصابه بالعين على الوجه المعروف عند الناس أمر قد كان موجودا في زمن النبي ﷺ وقبله ، ولهذا

(١) كما تقدم - وكما سيأتي - في ادعائه بأن أسفه السفه دعوى كون الانسان بقدر على كل شيء .

قال المفسرون عند قوله تعالى ﴿وَأَن يَكَاذَ الَّذِينَ كَسَبُوا﴾ لِيُقَوِّنَاكَ بِأَبْصَارِهِمْ ﴿أن المراد به الإصابة بالعين ، وكذا قالوا عند قوله تعالى عن يعقوب عليه الصلاة والسلام انه قال ﴿يَا بَنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابِهِ﴾ متفرقة ﴿الآية انه خاف عليهم من العين أى انه خاف عليهم ان يصيبهم أحد بعينه لا أنه ينظر اليهم أحد ثم يحسد ثم يكيد ثم يضربهم أو يقتلهم ، ولا يقال لاحد رأى أحدا فأعجبه ثم حسده فذهب يسرقة أو يضربه أو يقتله انه أصابه بالعين والاصابة بالعين فى كلام أهل اللغة كلهم والمفسرين وغيرهم ليس هذا معناها ، بل كان معناها هو هذا الذى يعرفه الناس ، ولهذا كان لكثرة وقوعه ومعرفة الناس به وكونه قضية مفروغا منها لم يختلف العلماء فى تفسير معناه ، فلما جاء هذا الملمح فخالفهم فى الاعتقاد اضطروا الى مخالفتهم فى المعنى فخرّف الحديث وحمله على مقتضى اعتقاده ، وهذا مكابرة وجود للحقائق الثابتة بالحس والضرورة والشرع والعقل ، وقد أوضحت الأحاديث الكثيرة معنى هذا الحديث وأنه على مقتضى ما يفهمه الناس ، فمن ذلك ما رواه مسلم فى صحيحه عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال « العين حق ، وإذا استغسلتم فأغسلوها ، فهذا الحديث نص صريح فى الدلالة على خلاف ما ذهب اليه ، فالاستغسال لا يجرى فى الإصابة بالعمل وإنما يجرى على الوجه الذى يفهمه الناس من الإصابة بالعين . وعن أبى أمامة أسعد بن سهيل بن حنيف قال مرّ عامر بن ربيعة بسهل بن حنيف وهو يغتسل ، فقال : لم أر كاليوم ولا جلد مخبّأة ، فالتأتأت أن لبط به ، فأقْبى به رسول الله ﷺ فقيل له أدرك سهلا صريعا ، فقال : من تهمون به ، قالوا : عامر بن ربيعة ، قال : علام يقتل أحدكم أخاه ، اذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة . ثم دعا بماء فأمر عامرا أن يتوضأ فيغسل وجهه ويديه الى المرفقين وركبتيه وداخلته إزاره ، وأمره أن يصب عليه . قال سفيان قال معمر عن الزهري : وأمر أن يكفأ الاناء من خلفه . رواه النسائي وابن ماجه باسناد صحيح . وهو نص صريح فى المسألة . والأحاديث فى هذا

كثيرة مشهورة ، وهو أمر معروف قد شاهدنا وقوعه كما شاهدته غيرنا فانكاره جحد للحقائق الثابتة بالشرع والعقل والجس ، ثم هو لم يأت بحجة على إنكاره ، وإذا كان هو لا يعلم ذلك فليس عدم علمه علما بالعدم والمثبت مقدم على النافي . قال العلامة ابن القيم ^(١) أبطلت طائفة من قل نصيبهم من السمع والعقل أمر العين وقالوا إنما ذلك أوهام لاحقيقته لها ، وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل ومن أعظمهم حجابا وأكثفهم طباعا وأبعدهم عن معرفة الأرواح والنفوس وصفاتها وأفعالها وتأثيراتها . ثم ذكر كلاما طويلا رد به على من أنكرك ذلك ، فليراجعه من أراد

فصل

ثم قال « والعين حق ، فان في كثير من العيون قوة آمرة ناهية بل قاتلة آسرة ، وان الرجل الموهوب هذه القوة لينظر أحيانا الى من حوله فيخضعهم بمجرد النظر ، ويسلس لنظرته وعينه أشمس خلق وأعصى طبع ، ويبلغ من أنفسهم أقصى ما يريد وأبعد ما يرجو ، فيصبحون طوع مشيئة ورهن إشارته ، فيصبح بينهم الأمر الناهي المتصرف ، ويصير فيهم الزعيم المعبود أو الشيخ المعبود ، القول قوله والتفكير تفكيره والهوى هواه والدنيا دنياه ^(٢) اننا أحيانا لياخذنا العجب من استعباد شخص لأمة فنذهب نلتبس الأسباب والعلل بعيدا أو قريبا ، مع أن الأسباب قد تكون في عين ذلك الشخص المعبود ونظراته ، وقد تكون في مظهره ، وقد تكون في صوته ونغمته ، انها

(١) في زاد المعاد ص ١١٧ ج ٢ طبعة المصرى

(٢) لو قلت بل هو المقدم في الامر لقاربت الصدق ، فان عمليتك لهذه الاغلال كلها دليل على أنك تريد أن تصل الى هذه المنزلة كما ادعيت ذلك لنفسك ، ولكن هيهات دون ذلك خرط الفتاد

فيه على كل حال ، وان سلطانه معه في ذاته ، فطوبى لمن رزقوا هذه النظرات ،
وهذه العيون الأسرات القاهرة ، وهنينا لهم السيادة الظاهرة والباطنة ،

فيقال : وهنينا لك أيضا معرفة هذه الترهات ، ونشر هذه المخازي
المضحكات - لو أن الغزالي أو السيوطي أو غيرهما من علماء المسلمين ذكروا
هذا الذي ادعيته لنسبتهم الى كل سخف وجهل وضلال . ومن العجب - وكل
أمره عجائب - أنه ينكر تأثير الدعاء والصلاة وسائر العبادات ثم مع هذا يدعي
أن بعض الناس في إمكانه أن يبلغ من نفوس الناس الذين حوله بأن يعبدوه
فيكون فيهم الزعيم المعبود أو الشيخ المعبود ، القول قوله والتفكير تفكيره
بمجرد نظراته ، الى آخر هذيانه . وقوله : فطوبى لمن رزقوا هذه النظرات
وهذه العيون ، فنقول : وطوبى لك لو أرشدتنا الى عشرة أشخاص من جنس
هذا الشخص لنكون منهم أعظم جيش للدفاع عن المسلمين . بشرى لكم أيها
المسلمون لا تخافوا ولا تحزنوا ، هذا عالم الشرق الأوسط ، هذا نابغة الزمان ،
هذا الدر الذي في لجج البحر ، هذا الشمس التي في غير برجها ، هذا الذي بلغ
ما يريد من العلى كما يقول قد وجد لكم ما هو أعظم من الطاقة الذرية وأعظم
من كل سلاح مادي ، فما هي الطاقة الذرية بل وما هي الأسلحة كلها وأين
أمريكا وأين أوروبا وأين علماء الطبيعة والمادة وأمثالهم في جانب هؤلاء الذين
وهبوا هذا السر الغيبي ، السر الذي لا يعلم كيفيته الذاتية الا الله تعالى ، هذا
من كنوز الحقائق الأزلية الأبدية ، فقد عرف صاحبها أناسا يستطيعون أن
يفعلوا بنظراتهم أو غير نظراتهم من الخواص التي هي فيهم ، هي فيهم بكل حال
- إما بنظراتهم وإما بغيرها من الخصائص النفسية والمواهب الذاتية - إخضاع
من حولهم من الناس بمجرد النظر أو غيره وأن يبلغوا من نفوسهم أقصى ما
يريدون وأبعد ما يرجون فيصبحوا طوع مشيئتهم ورهن إشارتهم . لقد نجح
العرب بل نجح المسلمون بهذا السلاح البسيط بجيش النظر أو بجيش النعمة أو

الصوت ، هم ناجحون بكل حال ، وها هو ذا قد أخبرنا بشيخ واحد يعرفه من هؤلاء الشيوخ الذين هم بهذه الصفة فقال :

و كنت أعرف شيخا يكاد يعد من الناحية العلمية في غمرة الجاهلين ، ومن الناحية الذوقية الأدبية السلوكية في زمرة السفهاء المتوقفين ، وهكذا هو في كل ناحية من نواحيه وجانب من جوانبه ، ولكن كانت تتركز فيه قوة سحرية لا يستطيع أولا يكاد يستطيع أن ينجو منها أو يفلت من عقدها ونفثها . إنسان يتلى بالجاوس بين يديه ، انه يتصرف فيمن حوله من البشر كأنهم القطعان أو كأنهم مخلوقات خلقهم هو وصاغهم في القالب الذي يريد وفي المعنى الذي يبلغ منه بلا عسر كل ما يريد ، انه فرض عليهم أن يكونوا بين يديه كالأموات بين أيدي الغاسلين لا يتحرك من أحد منهم عضو حتى يحركهم هو وحتى يريد منهم هو ، وفرض عليهم أن يخشعوا في حضرته خشوع الصالحين العابدين في صلواتهم ، أو ذلة المشركين أمام أصنامهم ، وألزمهم أن يدخل بينهم وبين الله في أقرب موقف يتقونه منه تعالى ، ألزمهم أن يجعلوا خياله وصورته بينهم وبين الله وبين القبلة حين الصلاة ، وفرض عليهم أكثر مما فرضه الله على عباده ، ثم كتب لهم هذه الفروض في كتاب من كتبه التي زورتها يده ، ثم أمرهم أن يتعلموا هذه الفرائض وان يستذكروها حفظا من أجل أن يعملوا بها أينما كانوا ، وقد امتثلوا هذا كله ثم قالوا هل من مزيد من هذه العبادات والفروض . فأسر هذه القوة في هذا المخلوق ^(١) انها أسرار عديدة ، وان أقواها ما في نظراته وعينه من سحر خبيث ، انتهى ما ذكره عن هذا الشيخ المجول ، وليته تفضل على العرب والمسلمين ليبصروا طريق العقل

(١) لو صح شيء من هذا فليس السر فيه هو ، بل السر فيهم هم ، لانهم ابتلوا بما ابتليت به من الطبع على القلب والمعنى في البصيرة ، فليس تعظيمهم لهذا الشيخ بدون تعظيمك للملاحدة الطبائعين وأمثالهم

تصرح باسمه وبين مكانه ، فان ذكر مثل هذا والتعريف به من أفضل ما يفعله المرء فيحل عقدة من هذه العقد المضروبة على قومه ولا سيما في مثل هذا المقام الذي بحث فيه على التقدم ، اللهم إلا أن يكون هذا من الأسرار التي لا يباح بها في هذا الموضوع ، بل يخبر بها أناس دون أناس بطرق سرية

ثم الكلام عليها من وجوه : أحدها أنها حكاية عن مجهول على صورة بعيدة أن لم تكن مستحيلة فلا تقبل في مقام الجدال والاحتجاج

الثاني أنه لو فرض على وجه الجدل وجودها فهي حجة عليه ، لأنها تناقض ما ذكره في صحيفة ١٩٢ من أغلاله في محاورته مع ذلك الرجل الذي أشار عليه فيما يزعم بالرفق في معاملة الناس في البيع والشراء ، ثم احتج عليه الرجل بالقضاء والقدور ، وبين له ما وقع له من ذلك أنه عامل إنسانا بالإهانة ولم تمنعه تلك الإهانة من الابتعاد عنه فلما احتج عليه ذلك الرجل بما عمله بنفسه ورآه وشاهده قال هذا المغرور فغمرني بجهله العميم ، وأخمني بسخفه ، حتى خرجت من عنده مفكرا ، الخ . فكيف يشنع على ذلك الرجل فيما ادعاه بما هو معقول ، وهنا يثبت ما هو أقرب في الاستحالة مما انتقده ومع ذلك يرمى المخبر المباشر بالسخف والجهل فيكون هو على هذا من أجل الخلق وأسخفهم رأيا

الثالث أنه لو ثبت ما ادعاه فهو ينقض كل ما ادعاه ويحتمل من أصله من التلوي في الأسباب المادية وانكار تأثير الأرواح ونحوها

الرابع أن يقال : والعين حق أيضا في إصابتها على الوجه المعروف عند الناس بتكليف نظراتها الخبيثة ، وهذه النظرة أقرب إلى أدنى عقل سليم مما ذكره ، فمن صدق بدعواه هذه مع بعدها أو استحالتها فهو يتصديق وقوع الإصابة بالعين على ما يفهمه الناس أقرب ، ومن أنكر ذلك فهو لما يدهيه أشد إنكارا

الخامس أننا بينا فيما تقدم أن ما يخشى من الخوف من تأثير الأوهام في اعتقاد العين هو أسهل مما ذكره من وقوع هذه الأمور الفظيعة ، فإن القائلين بإصابة العين لا يقولون أنها تسحر الانسان وتفعل به هذا الفعل ، غاية ما في ذلك أنها تؤثر ألما في الجسم أو ضررا في المال ونحوه ، أما أن تصل الى افساد العقل والدين والتفكير وتوقع في الشرك وعبادة غير الله وتغل الانسان وتقيده وتصفده - على ما زعم - فهذا لم يقل به أحد ممن يعتد به ولا يوجد في كتب المسلمين المعتمدة ، هذا مع أنهم يقولون أن إصابتها لا يمكن أن تجرى إلا بالقضاء والقدر ، وأن في إمكان الانسان غالبا أن يتقى هذا بالاستعاذة بالله والدعاء والتوكل والعمل الصالح ، وبذلك يزول الضرر المخشى من الوهم الذي تدعيه ، فكان ما ذكرته أشد ضررا وأوخم عاقبة ، هذا لو قدر وقوعه ، فكيف وهو سخف وهذيان لا يخفى إلا على أشباه الانعام

ثم قال : والعين حق أيضا ، فإن الانسان ينظر بعينه فيشتهي بقلبه فيهاك بعمله وسميه ان لم يمكك بزمام نفسه إمساك قوى غالب ، ولهذا جاء في حديث نبوى : النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، وليس هناك أحق من تلك العيون التي يحمل ضعفها أعظم قوة استبدت بالانسان وسخرته وأذلت كبريائه وساقته الى الخير حيناً والى الشر أحيانا وظللت ذات النفوذ الذي لا يقاوم والسلطان الذي لا ينازع ولا ينزع ،

فيقال : وهذا من جنس ما قبله ، والجواب عنه كالجواب عما قبله ، وما المانع من أن يقال والإصابة بالعين على الوجه المعروف عند الناس حق ففعلها هذا أثر من آثار هذه القوة التي ادعيتها فيها ، فإن أينيت إلا العناد والمكابرة فلخصمك أن يمنع ما ذكرته استغياطا من هذا الحديث ، لان الإصابة بها على الوجه المعروف عند الناس هو موضوع الحديث كما اتفق على ذلك جميع أهل اللغة والتفسير والشروح وغيرهم من علماء الدين ، ولم يخالف في ذلك سوى

بعض ملاحدة الفلاسفة ، ولهذا قال «ولو كان شيء سابقا القدر لسبقته العين»
ومعلوم أن هذا اختصاص عن العمل الحسى وعن نظرة الحب ، لأنها لشدة
مفعولها في الضرر وسرعته تكاد تسبق القدر ، ولكن القدر قوة ربانية لا
يسبقه شيء ، والناس يعبرون بهذا التعبير الشرعى فيقولون قلان أصيب بالعين
وأصابته العين ، فهو شيء معروف متواتر معناه ، وقد تقدمت النصوص
الدالة على ذلك ، بخلاف نظرة الحب ونحوها فإن ذلك غير خاص بالعين بل
الصوت والنغمة تعمل من جنس عمل النظرة ، كما أن هذا أمر آخر لم ينكره
منكر والنصوص دلت على خلافه فإن حديث أبى امامة نص في المسألة لا
يقبل التأويل بحال كما تقدم

فصل

قال «وها هنا مسألة كبرى نشأت أيضا من الجهل بسنة الله وسنة الحياة
وبأن العالم ليس محكوما بالنواميس والقوانين ، ذلك أن الناس ظلوا مئات
السنين يعتقدون أن المسلمين لن يغلبوا لأن دينهم حق والحق يجب أن يكون
أهله منتصرين أبدا وإن قصروا وأهملوا ونسوا أنفسهم ،

فيقال : هذه الدعوى كذب ظاهر وبهت عظيم ، فليس في المسلمين من
يدعى أنهم إذا قصروا ونسوا أنفسهم ينصرون أبدا ، ولا يوجد في كتاب
من كتب المسلمين المعتمدة أنهم لابد أن ينصروا ولو قصروا وأهملوا أنفسهم ،
فهذه الدعوى بهت واضح ، وأما اعتقادهم بأنهم لن يغلبوا لأن دينهم حق
وأصحاب الحق هم الغالبون فهذا صحيح لكن إذا قصروا ونسوا أنفسهم لا
يكونون أصحاب حق فلا يكونون غالبين . وهذا المغرور نفسه قد ادعى بأن
المسلمين على دين محرف ، وأن الدين الصحيح لا يكاد يوجد ، فقولهم أنهم لن
يغلبوا لأن دينهم حق صحيح ولم يأت ما ينقضه ، لكن الشأن في كونهم لم
يقصروا ولم ينسوا أنفسهم ، ومعلوم أن غربة الاسلام اليوم وعدم العمل

عنصوه أمر ظاهر في الأكثرين

وقوله بعد هذا عنهم ، وان الاسلام لن يهزم أمام الأديان الأخرى ، صحيح ، فهل جاء ما ينقض هذا ، لا شك أنه لم يأت ما ينقضه ، وهذا المبرور نفسه معترف بأن الناس على غير دين صحيح ، بل على دين محرف لا يمكن البقاء عليه ، وجميع أئمة الاسلام يقولون ان تقدم المسلمين وانتصارهم بقدر محافظتهم على العمل بدينهم ، فان تمسكوا به وحافظوا عليه عزوا وتقدموا ، وان فرطوا وقصروا نالهم من التأخر والتقهقر بقدر ما قصروا فيه . وكلامهم في هذا كثير جدا كما نبه عليه صاحب المنار في التفسير والوحي المحمدي وغيره . ومن المعلوم أنه كلما تغير الدين وبعد الناس منه وتطرفوا فيه تأخروا وانخطوا بقدر بعدهم وتطرفهم منه ، وهذا أمر معروف بالضرورة والمشاهدة ، لأن الأصل الذي قامت عليه الامم الاسلامية والعربية هو الدين ، فبقدر ما يختل الأصل يختل ما قام عليه ، وهذا بخلاف الأديان الباطلة فانها نقائص لم يقم أهلها على حق حتى يقال انها غيرت دينها وتقدمت كما يأتي توضيحه قريبا . وأكثر الناس في هذه السنين الأخيرة نبذوا كتاب الله وزاء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ، واتبعوا التقاليد الافرنجية ونحوها وعشقوها وشغفوا بها ، واعتقد كثير منهم بأنهم أهدي من الذين آمنوا سيلا ، فان كثيرا من الأنظمة الموجودة الآن التي يعمل بها ويتحاكم اليها في بعض الأمصار مأخوذة من النظام الافرنسي وهو مأخوذ من النظام الروماني ، ومعلوم أن الرومان أمة منكسة مقهورة ، ومع ذلك فهذا النظام الذي قلده وتقلدوه قديم جدا وموضوع في ظروف ليس لها أدنى علاقة بهذه الظروف الحاضرة ، ومع هذا اختاروه على نظام الله ، هذا مع ادعائهم أنهم مجددون وأنهم يكرهون القديم وأن الأخذ بالقديم رجوع الى الوراء وان الذين ياخذون بالقديم هم الرجعيون ، فكانوا هم الرجعيين حقا بمقتضى قولهم وفعلهم ، فكيف يبذل نظام رب العالمين وأرحم الراحمين وأحكم الحاكمين بأراء قوم ضالين ظالمين منحطين

ثم مع ذلك يرجى منه تعالى أن ينصر ويؤيد من هذا فعله مع عدله وحكمته .
 قل بعض العلماء ان الله أغير على نفسه من أن يسعد قوما يزدرونه ويتخذونه
 وراءهم ظهريا فيستكبرون عن اتباع كلامه وكلام رسوله ، ويخضعون لكلام
 أعدائه ويمظنون آراءهم الخبيثة وينقادون لها غاية الانقياد . ولقد فشا هذا
 الوباء العضال والدماء الخبيث المنذر بوقوع آثاره ونتائج الويلة الماحقة التي لا
 بد منها ان لم يتدارك بالأخذ بأسباب الدينية الحكيمة والاعتصام بها ،
 ولكن محبة الدنيا والاغراق في عبادة الاهواء أعمت عن ذلك . وخلق بمن
 بدل نعمة الله كفرا وأحل قومه دار البوار أن يبدل الله عزه ذلا وتقدمه
 تأخرا وأن يضرب بالذلة والمسكنة حيث أخذ بأسباب الذلة والمسكنة وأن
 يعاقب بالهوان كما اختار أسباب الهوان حتى يغير ما بنفسه وعقيدته المقلوبة ،
 لانه في الحقيقة إنما يعاند الله ويحارب الله ويسب الله لأنه لم يثق بالله ولا بدينه
 ولا بكتابه ولا بطاعته بل احتقر ذلك وازدراه وكذب على الله بأنه متبع دينه
 مستحق لأعنته ، وكيف يعاند الله ويريد مع هذا أن ينصره على عدوه

ولهذا لما استيقظ كثير من المسلمين في هذه الأوقات الاخيرة وقام جماعات
 دينية ينشرون الدين الصحيح في الكتب والمجلات وغيرها صارت تنقش
 عنهم هذه الظلمات شيئا فشيئا ، ولكن أبت النفوس المظلمة الظالمة إلا أن
 تسعى جثيثا في إطفاء نور الله وإخفائه بأنواع الخيل والخبث والمكر (ولا
 يحق المكر السوء إلا بأهله ، والله لا يهدي كيد الخائنين)

فصل

ثم ذكر أنه انتشر في الاهوام الاخيرة القليلة جمعيات وهيئات دينية
 كثيرة يتنادون بالأخذ بالاخلاق الدينية الأولى ، ثم أخذ يهجن رأيهم هذا
 ويقنع عليهم فيه بنحو كلامه السابق في المبحث الاول ، وقد مر بطلانه . ثم
 قل في هؤلاء . ولا يجب أن فعجب إذا وجدنا محبولا يهذى ويمنى بالمستحيلات

قد نجح وأخذ برقاب الآلاف والملايين من هذه القطعان البشرية يقودها حيث شاء ، فإنه قد هاجم أضعف جانب فيهم وهو جانب الرجاء والامل فانتصر عليهم بدون عناء ،

فيقال هذا كلامك الأول بعينه (١) وقد تقدم الجواب عنه ، وبيننا أن هذا هو حقيقة حالك ، فانك صرحت بأن تأخرنا ليس من أجل اختلاف في الرأي ولا لفساد في الاخلاق وانما هو لأجل شيء واحد هو الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها . ثم فسرت هذا في الموضع الآخر بان تعليم المرأة هو الذى يضمن التقدم ، فادعيت أن علينا أن نعلم المرأة علم الشطرنج والموسيقى ودقائق الفلسفة ثم لا نخشى شيئا بعد ذلك ، لانك فسرت العلم بهذا فكان النجاح كله فى هذا الشيء البسيط الذى ذكرته ، ثم رجعت الى هذا فنقضته وجعلت السبب الوحيد للتقدم هو الاعتقاد بان الوجود مربوط بأسباب آلية طبيعية ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها ، وأن الله لا يغير فى الأسباب ولا يتصرف فيها فيجعلها ان شاء أسبابا وان شاء غير أسباب ، فان ذلك هو القوضى . ثم رجعت الى هذا فنقضته وادعيت أن التقدم كله مربوط بشيء واحد هو التمسك بأفكارك فن تركها هوى ومن أخذ بها نهض . ثم رجعت الى هذا فنقضته حينما أصابتك الحيرة فادعيت أن حاصل ما ادعيت فى هذه الاغلال مشكلة لم تحل الى اليوم . وهكذا تبني وتنقض (لا عقلا ولا خجلا) فما أوقعك فى هذا الخيال والهذيان الذى سجلته على نفسك إلا ظنك بأنك اذا وعدت المسلمين بهذه المستحيلات ولوحت لهم بهذه الخيالات يحصل لك النجاح فتأخذ برقاب الآلاف أو الملايين من هذه القطعان البشرية ، وما حملك على هذه الدعوى المردولة إلا اعتقادك بأن جانب الرجاء والامل كان ضعيفا فيهم فأردت - بخيالك هذا أو غيره - ان تنتصر عليهم بدون عناء ، وان تأخذ

(١) اى فى قوله ، يقال ان الدعاة الدينيين يشجعون كثيرا ، الخ

برقابهم فتقودهم كيفما شئت (إن الأمانى والأحلام تضليل) ولولا أن هذا هو
اعتقادك وأنه قد رسخ في ذهنك حتى غلب على شعورك لما كتبت على أغلالك
ما ذكرناه بأنه «سقول مؤرخو الفكر العربى انه بهذا الكتاب قد بدأت الأمم
العربية تبصر طريق العقل ، فهذا صريح فى أنك كنت ترى الأمم العربية فى
طور الحيوانية البهيمية أو هم كالحيوانات التى تتبع قائدها بالتلويح بدون عناء ،
إذ أنها لا تبصر طريق العقل ، فالأمم العربية من جنسها بنص كلامك حتى
تغل بهذه الأغلال ، فاذا غلت بها فانها تقفز من هذا الطور الحيوانى الى طور
الانسانية ، حينئذ - حينئذ تبصر طريق العقل ، ولهذا حكمت فيما تقدم أن
من تركه هوى ومن أخذ به نهض . ولا شك أن من لم يبصر طريق العقل
من بنى آدم فانه يهوى ، فلا نجاة له إلا بأن يلتمس الطريق المنيى الذى يبصر
به طريق العقل ، وقد حصرت فى سبيل هذه الأغلال ، فعليه أن يقدمك فى
الامر ، ويتضرع اليك فيطلب رغبته ونجاته عند الحادث النكر منك كما ادعيت ،
وليس العجب منك فى التجاسر على هذه الزهات والفضائح الواضحة ، فانك ما
قصرت فى إظهار خبالك وكفرك ونفاقك وخبث سريرتك وعداوتك للعرب
والمسلمين وتلاعبك بحقول الغوغاء والمغفلين ، انما العجب كل العجب ممن
أوضحت له هذا كله فأبى الا المعاندة والمكابرة فى أمرك واتهامك بخلاف ما
جاهرت به وصرحت به ، وأعظم من هذا وأطم أن فظائعك هذه لم تصغر فى
أعين البعض من الناس إلا من حيث أسرفت فيها وعظمتها وكبرتها ، لأنك
حينما فعلت هذه الفحشاء وارتكبت هذه الحالة النكرام لم تقتصر على نسبة ما
فعلته الى شخص دون شخص أو أمة دون أمة أو مذهب دون مذهب ، بل
وجهت هذا الشتم والسب والاتهام والبهت الى جميع الأديان الساوية والى كل
الدائنين بها جميعا من الأنبياء والخلفاء والملوك والأمراء والوزراء وسائر
الطبقات من الخواص والعوام ، حتى صرحت على رموس الأشهاد بأنه قد
عجز المتدينون على اختلاف ديارهم وأزمانهم وأنيانهم وأمزجتهم وأجناسهم

عن أن يهبوا الحياة شيئا جديدا ، وأن يكونوا فيها مخلوقات متألقة ، وهذا واضح جلي في أن أهل الأديان منحطون ، وأن الرسل وأتباعهم لم ينفجوا للبشر بشيء ، ولا أخرجوهم من الظلمات الى النور ، بل عاقوهم عن التقدم ، وحالوا بينهم وبين الحياة الصحيحة ، ولهذا صرحت بأن الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها العلوم المتبكرة هم المتحللون من الأديان المنحرفون عنها . فأى شيء أصرح من هذا في القدح في الأديان وأهلها والثناء على الإلحاد وأهله ، فعلى قولك أن الزوج وأهل مجاهل افريقيا وغيرهم من الأمم التي لا تعرف عن الأديان شيئا أرقى وأعلم من المسلمين والمسيحيين واليهود بمن لهم أصل عريق في الديانات ، وهذا هو اللائق بعقلك المنكوس . ولقد أكدت هذه الإطلاقات الخبيثة تأكيداً بعد تأكيد فقلت « عجز المتدينون » فأطلقت هذا اللفظ الشامل للمتدينين كلهم ، ثم أكدت تأكيداً صريحاً بأنك تقصدهم كلهم لا أحداً دون أحد فقلت « على اختلاف ديارهم » ثم أكدت تأكيداً ثانياً لئلا يظن ظان أنك تريد أهل زمن دون زمن فيكون هذا غير كاف في التأكيد فقلت « وأزمانهم » ثم أكدت تأكيداً ثالثاً خوفاً من أن يظن بك أنك لا تريد أهل الدين كلهم فيكون هذا غير كاف في التصريح فقلت « وأنبيائهم » فصرحت بأن الأنبياء داخلون في ذلك دفعا لما تخشاه من أن أحداً يستبعد منك أنك لا تريد الأنبياء وأنهم لا يدخلون في هذا الإطلاق ، لأنك تعلم أنه يوجد حمير تذهب بهم الأوهام الى حسن الظن بك فيستبعدون جداً أنك لا تريد الأنبياء في هذا الإطلاق فنفيت هذا الوهم الخاطئ ، ولم تكف بذلك حتى عطف على هذا التأكيد الرابع تأكيداً خامساً فقلت « وأمرجتهم » دفعا لما يظنه من طبع الله على قلبه حتى كان أبعد من الحار ، فربما يظن أنك تريد قوماً دون آخرين من هذه الأجناس المختلفة أمرجتهم فنفيت هذا وأعقبته تأكيداً سادساً فقلت « وأجناسهم » لئلا يكون هنا ذو خيال سخي ف يظن أنك تريد جنساً دون جنس ، وهنا وصلت السكين الى العظم ، فليس هناك

تأكيد يمكن الإتيان به حتى تأتي به ، وليس وراء هذا النص والتصريح نص أوضح منه في تعميم أهل الأديان بهذا السب والشتم الصريح ، لأنه ليس في الدنيا أصرح من هذا التعبير في إرادة العموم ونفي التخصيص ، فقد أطلقت ثم أكدت الاطلاقات بأقصى ما يوجد من التأكيدات التي تنفي إرادة التخصيص ، لأن فائده التأكيدات هي نفي الاحتمالات ، وإلا لم يكن لها فائدة ولا معنى . لقد بلغت حدا لم يصل إليه غيرك من الكفر والزندقة وشتم الأديان ومدح ضدها ، ولكننا - والحق يقال - إذا لاحظنا قولك هذا وقرناه بقولك « إنه بهذا الكتاب قد بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل » علمنا واستنتجنا أنك ما أطلقت هذه الاطلاقات ثم ذهبت تراوغ عنها بعد ذلك إلا في أمة قد تصورتها على هذه الصورة التي ذكرتها فاعتقدت أنها لم تبصر طريق العقل الصحيح ، وإلا فلو أبصرته لم تسمع لدعي غبي ساقط يشتمها ويشتم دينها وقومها على رموس الأشهاد فتغضي عنه وتتساهل في أمره ولا توقع به أقصى العقوبات وتنكل به أقصى التنكيل

فصل

قال « أعلن منذ سنة ونصف تقريبا في الصحف عن خطاب سيلقيه أحد الخطباء في إحدى الجمعيات الكبرى المحترمة ، وكان عنوان المحاضرة (الثقة بالله) ، فذهبت الى تلك الجمعية في اليوم الموعود فوجدت الحشود هائلة ، فقام الخطيب يلقي خطابه ، فكانت خلاصته أن في أيدي المسلمين أمرا سهلا قريبا يستطيعون أن يدركوا به كل ما فانهم وأن يجحدوا به جميع ما فقدوا ، وهو أمر لا يكلفهم شيئا ، هذا الأمر السهل القريب هو أن يدعوا الله موفقين بالإجابة ، فانهم اذا دعوا الله وأيقنوا أنه يجيبهم لا محالة فسيجيبهم وسيعطيهم ما سألوا بدون عناء وبدون عمل ^(١) . ثم ألقى على نفسه اعتراضا مشهورا

(١) قوله « وبدون عمل ، كذب وزيادة من كيسه

مشهورا وهو أن المسلمين ما زالوا يدعون الله تعالى ويسألونه النصر والقوة والاستقلال وإهلاك الأعداء ويسألونه كل خير ، ومع هذا كله فإنهم لم يظفروا بواحد من هذه الأمور ، فأجاب عن هذا الاعتراض قائلا أنهم دعوا الله ولم يوفقوا بالإجابة ، ومن ثمة منعوا وحرموا . ثم قال هذا الملحد معترضا على ما ذكره هذا الخطيب تهكما واستهزاء : « فليجمعوا بين الأمرين ، ثم لينظروا كيف يصنع الله لهم وبهم ، أنه حينئذ سيهبهم كل شيء ، وسيهلك لهم أعداءهم ، وسيقدم لهم صك الاستقلال ملفوفا بجرير مصنوع في السماء تحت إشراف الملكة » . هكذا قال مستهزئا بدعاء الله وإجابته . ثم قال « ثم أخذ - يعني الخطيب - في تلاوة تلك الآيات والأحاديث التي زعمها مصدقة لظنه ، ثم قال « هذا مجمل تلك المحاضرة التي ألقى في تلك الجمعية المحترمة ، وقد كان رئيس الجمعية وهو إنسان ذكي خير حاضرا فسمع المحاضرة كلها ، وقد لاحظت أن الموجودين كلهم استحسنوا ما سمعوا ، واستولت على كثير منهم حى السرور وهزة الإعجاب ، وحسبوا الخطيب قد ارتفع بهم إلى أحد الكنوز السماوية فلم يبق إلا أن يأخذوا ما شاموا ،

والجواب أن يقال : قد سبق غير مرة أن لهذا الملحد حظا وافرا من الخصال اليهودية في البهت والتحريف ، فهو يخترع ما شاء لنفسه بنفسه ويحجب نفسه بنفسه . فقد تصور بفكره المعكوس أن المسلمين والعرب أمم برابرة همجية لا يعلمون من الحقائق شيئا ، ولهذا فانه أضاف اليهم ما شاء وأجابهم بما شاء بدون أدنى مبالاة . ونحن نجيء عن هذا الكلام من وجوه :
أحدها أن هذه الجمعية - على تقدير ثبوتها (١) - جمعية محترمة لها شأن

(١) الظاهر من سياق هذه الدعوى أنها مخترة لا أصل لها ، وبكفيك ما قرأه في تضاعيف هذا الكتاب من الأكاذيب التي جاءت بها مكشوف لا أساس له من الصحة مطلقا . وكيف يقوم خطيب ويدعو الناس إلى ترك العمل وأن يقتصرُوا على الدعاء ويوافقوه كلهم على ذلك

كبير ، فيكون الكلام الملقى فيها له شأن كبير أيضا ، ولا سيما وهو معترف بان جميع الحاضرين قد رضوها وسروا بها ، فلا بد إذن من ذكر الكلام الملقى فيها بحروفه فلا يكتفى بذكر خلاصته ، لانه لم يذكر أنه موجود في كتاب أو مجلة أو جريدة حتى يمكن مراجعته عند الشك في نقله وحكايته ، فتحليله ونقده لا يمكن والحال هذه إلا بالوقوف على صورته ، ولا سيما وهو العدو المبين المتهم الظنين للخطيب وللمستمعين جميعهم ، فانه تهكم واستهزاء بهم ونسبهم الى ضعف العقل مع أنه يحجز عن أن يرد عليهم ، بل اقتصر على السخرية والتشنيع فقط ، وهذا ليس بشيء ، فلا بد من نقل الكلام الملقى في المحاضرة ، وذكر موضع النقد ، والاجابة عليه . ثم ما المانع له من نقلها بحروفها لينظر فيها وتدرس ويحاط بمراميها ، وهو قد أسهب وأطنب في مسبة وزارة التموين المصرية بثرثرة طويلة لا طائل تحتها بمجرد أنها لم تسرع في اجابة طلبه في بيع ورق ، فلا داعي اذن لذكر خلاصة هذه الخطبة التي أعلن عنها وحضرها جمع غفير - على ما يزعم - وترك نصها الذي هو موضوع المناقشة ، هذا مع أنه هو بنفسه لا يرضى بمثل هذا وينكره غاية الانكار ، مع أنه يفعله دائما في معارضاته في الكتب والرسائل كفعله في معارضته للدجوى في (البروق) وكفعله في (الصراع) فلا جرم أنه يريد أن يكون المقدم في كل أمر

الجواب الثاني أن يقال لهذا المتبجح المتميز فخرا واختيالا : قد وقعت في مثل ما ذكرته عن هذا الخطيب في الأسباب المادية ، فانك ادعيت في أغلالك هذه أن فعل الأسباب المادية واعتقاد كونها فاعلة لذاتها حتما يوجب النجاح قطعا ، ثم أجبت عن الأسباب الكثيرة التي تفعل ولا ينجح أهلها قائلا إن أهلها فعلوها شاكين في حصول النجاح فيها ، وإلا فلو فعلوها معتمدين عليها جازمين بالنجاح فيها لنجحوا وتقدموا قطعا ، وقد أكثرت من تكرار هذا الأصل ، فهذا الذي ادعيته هو من جنس ما ادعاه الخطيب في دعاء رب العالمين ،

إنما الفرق بينك وبينه أنه أسند حصول النتيجة الى الرب العظيم القادر جل جلاله وجعل الدعاء من أقوى الأسباب ، وأنت أسندت ذلك الى الأسباب المخلوقة وجعلت ذلك منوطا بها فكان كل منكما تكلم بمقتضى اعتقاده ، فانه لما كان مؤمنا بالله وحده وأنه المتصرف في خلقه المدبر للأمر كله جاءت محاضراته التي ألقاها على مقتضى اعتقاده . وأنت لما كنت وثنيا ملحدا معتمدا على الأسباب وحدها معاكسا له في اعتقاده كل المعاكسة جاءت دعايتك على مقتضى اعتقادك ، فجعلت مناط التقدم عكس ما جعله أصله ومناطه ، فأسندت ذلك الى المخلوق كما أسنده هو الى الخالق ، وحينئذ يقول لك المعارض عن الخطيب : فما دمت تعتقد أن النجاح منوط بالأسباب المادية ، وأن فعلها والاعتماد عليها يوجب النجاح ، فليجمعوا بين الأمرين ثم لينظروا كيف يصنع لهم الشيطان أو تصنع لهم الطبيعة . انهم سيتحصلون على صك يتضمن الحصول على كل شيء والتغلب على كل شيء والعلم بكل شيء ملفوفا بدياج من ديباج المادة تحت إشراف الشياطين ، فلا أسهل من كون الانسان يعمل ويجزم بأن فيه الكفاية أو في أسبابه المادية الكفاية . ولعل هزيمة ألمانيا وإيطاليا وأمثالها وعدم حصولهم على هذا الصك من أجل أنهم لم يعملوا جازمين بالنجاح شاكين في أنفسهم وفي أسبابهم لأن أكثر هؤلاء لا يعرفون الدعاء ولا يعملون بالعبادات الدينية الصحيحة . وأدنى عاقل يعرف أن هذه الدول التي سقطت في ميادين أسبابها بل وكثير من الأفراد الذين سقطوا ما حاربوا وقاوموا وقتلوا إلا لأنهم جازمون بحصول النجاح وأن جزمهم ليس بدون جزم لإخوانهم الذين همزومهم فلم يحصل لهم ما أرادوا ، بل أكثرهم حصل له ضد ما طلب بخلاف الداعين فانه لا يحصل لهم من نفس الدعاء ضد أبدا ، فما باله لم يشنع على هؤلاء الوثنيين الماديين كما شنع على أعدائه المؤمنين فمدح أولئك على فعلهم بل برره ودعا اليه ، وذم هؤلاء الموحدين على طاعتهم ووجه اليهم غاية اللوم والذم ، وكل ما يحجب عنه من الموانع والعوارض في

الاسباب المادية يحجب عنه في الدعاء كما تقدم ، بل قد أخبر النبي ﷺ أن كل الحرام مانع من إجابة الدعاء (١) فكيف بالشرك وتحريف الصفات وترك الصلوات وإضاعة أوامر الله تعالى

الجواب الثالث أن دعواه أن الله لم يجب هؤلاء الداعين ولم يعطهم شيئاً بما طلبوا دعوى لا يخفى ما فيها من الكذب والفجور والجرأة على الله تعالى والهجوم على الغيب بل والمكابرة في الحسيات ، فمن الذى أعطاهم هذه الخيرات المتواصلة والنعم الضافية ودفع عنهم الشرور العظيمة مع ما هم فيه من المعاصي ، بينما أن كثيراً ممن هم أشد منهم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً وعدة وعدداً لم ينالوا مثل ما نالوا ، وكل عاقل يعلم أن حالة أكثر الأمم الإسلامية قد تحسنت تحسناً بيننا ، ولقد صرف الله عنهم شروراً كثيرة في هذه الحروب الأخيرة ، وزادهم الله خيراً الى خير بدون حول منهم ولا قوة . ويعرف هذا الفضل متى تصور الانسان حالتهم قبل الحرب وبعدها على ما مع الناس من الموانع والعوارض والذنوب التي لا تعد ولا تحصى والتقصير الذي لا شك فيه

الجواب الرابع أن مجرد وجود خطيب واحد يلقي خطبة واحدة في مجتمع واحد أو في مجامع لا يسوغ لماعقل أن يحتج بفعله على كل المسلمين ، ولا يفعل هذا إلا مفرط في الجهل والهوى ، فان مثل هذا لا يدل على أن المسلمين كلهم كذلك ، بل هم يعتقدون أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا الأنبياء عليهم السلام ، وليس كل خطبة يجب اعتقاد ما فيها باجماع المسلمين ، وقد تقدم قول هذا المغرور انه ليس كل ما كتب يكون حجة على المسلم ، هذا لو قدر أن فيها خطأ فكيف وهي حق لا ريب فيه

(١) وذلك لأن خبث الحرام يؤثر في الروح والجسم المفذى به . والدعاء الصاعد من ذلك الجسم لا بد أن يكون ملوثاً بالخبث ، والله طيب لا يقبل إلا طيباً ولا يصعد إليه إلا طيب

الجواب الخامس أن المصائب نوعان أحدهما مالا قدرة لأحد على دفعه
 واتقائه وتلافيه عادة من الأسباب التي في طائفة البشر كالحوادث السبائية ،
 والثاني ما كان في قدرة البشر اتقاؤه ودفعه بما جعل الله للسان قدرة على
 استحصاله أو درئه . فالنوع الأول يعالج بالدعاء والتضرع والتوبة والخلاص
 عن الذنوب ، ولا بد أن يفيد ذلك ما لم تستحكم موجباته ، والنوع الثاني يكون
 ألواجب فيه فعل ما في النوع الأول من الدعاء والاستعانة بالله ، ويجب فيه
 أيضا بذل الجهد في عمل الأسباب المادية المشروعة لجليه أو دفعه ، فالعمل
 تستمد فيه القوة من الله تعالى بالدعاء ونحو ذلك من العبادات ، فلا بد من
 وجود السبب الديني مع السبب الطبيعي ، لأن السبب الديني هو الأصل
 والطبيعي فرع عنه ، فإن الله إن لم يشأ حصوله لم يحصل أبدا ، فإشياء كان وما
 لم يشأ لم يكن ، قال تعالى ﴿ ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا
 الذي ينصركم من بعده ﴾ وفي الحديث « احرص على ما ينفعك واستعن بالله
 ولا تعجزن » الحديث . وقال تعالى ﴿ ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في
 السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ فأخبر أن الكنوز المخبوءة
 في الأرض هو الذي يخرجها أي بالأسباب التي هي طوع ارادته ، وقرن
 إخراجها بعبادته تعالى كما قرن السر والعلن والإخراج والخبء لأنها أمور
 مرتبطة بعضها ببعض ، فإن من لم يعبد الله بها ويصرفها في طاعة الله وعبادته لم
 ينتفع بذلك انتفاعا صحيحا بل قد تكون ضارا ونكبة عليه ، فجميع ما في
 السموات والأرض من المنافع إنما خلق لعبادة الله وطاعته ، فالعبادة هي
 الأصل في جلب الخيرات كلها وهي مادة الخيرات كلها كما قال تعالى ﴿ ولو أن
 أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن
 كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولئن شكرتم لازيدنكم
 ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ وقال تعالى ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة
 لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه ﴾ فصول الانتفاع الصحيح بالخيرات المخبوءة

والظاهرة إنما هو بالطاعة والعمل الصالح . ويجب أن يعلم الفرق بين الاستحصال وبين الانتفاع ، فكم من مستحصل شيئاً لم ينتفع به بل قد يكون ضرراً عليه ، فالانتفاع ثمرة الاستحصال ، ولا يظن ظان أن خطيباً مسلماً من عقلاء المسلمين يلقى محاضرة في مثل هذه المجامع المحترمة فينهى الناس فيها عن العمل فيحثمهم على الدعاء وعلى ترك العمل ويستحسن المجتمع كلامه ، فإن مثل هذا الكلام لو نقله الينا مستور الحال لم نصدقه ، فكيف إذا كان الناقل أكفر زنديق ومرتد وأعدى عدو للإسلام وللاديان كلها ، وهو مع ذلك لم يذكر الكلام بنصه ، والواقع والعادة يكذبانه أظهر تكذيب

الجواب السادس أن قول القائل ان المسلمين ما زالوا يدعون ويسألون النصر والاستقلال ونحو ذلك ، ولم يحصل لهم شيء من هذا ، دعوى في نهاية السقوط ، فهي مع كونها جرأة على الله ومجازفة واضحة ، هي كقول القائل ان المسلمين بل وغير المسلمين من الأمم المستعمرة ما زالوا يبذلون أسباباً مادية لا تعد ولا تحصى من الثورات والمنازعات والمعارضات والمفاوضات والنضال والكفاح الشديد ومع ذلك لم يستحصلوا على شيء من هذه الأمور التي أرادوها . وكل عاقل لا يرتاب في أن ما يبذلونه من الأسباب المادية أعظم وأكبر وأضخم مما يبذلونه من الأسباب الدينية من كل وجه ، فكم من ثورات قاموا بها وكم من محاولات لا تحصى فعلوها فما نجح من ذلك شيء ، فلو أن قائلًا قال ان الثورات والمنازعات والمعارضات وجميع الأسباب المادية لا تنفع لأن هؤلاء جربوها فما نفعتهم ، لم يكن قوله أولى بالبطلان من قول القائل انهم يدعون فلا يحصل لهم شيء مما طلبوا ، لأن الدعاء لم يأتوا به ويجهتدوا في مقتضاه عشر معشار اجتهادهم في هذه الأسباب المادية ، ولا يأتون به على وجهه في الصدق والاخلاص وحفظه عن مضاده من الشرك وتحريف الصفات والشك والريب فيه كما يأتون بالأسباب المادية مستقيمة مكبرة معظمة وضخمة محترمة قد بذلت فيها الأموال الطائلة والمهج الغالية ، فأين هذا من هذا ، فما بال

هذا اللاحق المنكود شديد العداء والمضادة لدعاء الله تعالى وطاعته وتقواه ، شديد الغلو في الأسباب المادية واحترامها مع وضوح جبوطها كثيرا واعترافه بذلك . ولكن غرضه الأكبر من هذا كله هو محاربة رب العالمين وتشويه سمعة دينه وعبادته لاغراضه الخبيثة ، ولهذا فانه جعل هدف اسبابه واتهامه دعاء الله ، لأنه يعرف أنه روح العبادة وليها كما قرر ذلك ، وقد تقدم الكلام عن مثل هذا مرارا تبعا لتكرار سبه وهجومه على هذا الأصل العظيم

فصل

ثم ذكر عن شيخ من العلماء ولم يسمه أنه ذكر أن النصارى لا يدخلون دمشق ، وأنه استدلل على ذلك بأنها معقل الاسلام عند الملاحم ، وأن في الحديث ، اذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، ثم ادعى أن الواقع قد أكذب هذا الشيخ ، فذكر أن جيوش فرنسا والانجليز دخلته ، ثم ذكر أن أسباب هذا هو الجهل بنواميس الطبيعة ، وأطال من هذا الهذيان ، فجعل خطأ هذا الشيخ - لو ثبت - حجة على المسلمين ، فهو لم يذكر هذا الشيخ باسمه (١) ، ولم يذكر كلامه ولا في أى موضع وجده ، بل اقتصر على أنه محدث ، وكأنه يرى أن كل محدث معصوم عند المسلمين ، وقد نسي قوله الصريح فيما تقدم أن الشيخ الكبير قد يغلط ، ثم اذا ثبت هذا فهو دليل على أن أسباب هذا هو

(١) لعله يشير الى الحافظ ابن كثير ، فان كان هو المقصود بهذا الانتقاد فليعلم أن ابن كثير ذكر في تاريخه ص ١٨٤ ج ١٢ سنة ٥٩٣ هـ أن الافرنج ملكوا مدينة حلب ، قال : وفيها سارت الفرنج الى مدينة حلب ففتحوها عنوة وملكوها ، الخ . فان كان ذكر ما نقله الملاحد فلعل ابن كثير أراد أنها لا تكون لهم وطنا ولا تستقر لهم مستعمرة اذ من المستبعد أن ينكر ما ذكره وقرره ، وانما أراد ما ذكرنا . وهذا لم يقع فلا حجة لهذا الملاحد فيه ، فانها الآن مستقلة ، وهى وطن عربى ، واستيلاء العدو عليها بركة عقوبة لا يتانى الحديث أصلا

للجبل بدين الله وطاعته ، لأن هؤلاء الذين استولوا على دمشق وغيرها إنما قدروا على ذلك لما ضعف أمر الدين هناك ، وفرط الناس في اتباع سلفهم الصالح ، فانه من المعلوم عند المسلمين أن من فرط في دينه واستكبر عن أمر ربه لا بد أن يكون عرضة للعدو ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ » ، وقال : لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الارض الله الله ، وهذا يدل على عموم الكفر في الشام وغيرها ، وليس في حديث : « اذا هلك قيصر فلا قيصر بعده » ، ما يدل على أن دمشق لا يدخلها الكفار حتى تقوم الساعة ، بل قد ثبت أن يأجوج ومأجوج يبلغ شبه جزيرة العرب وما حولها ، وهم أعدى من اليهود وأمثالهم ، وقد استولى النصارى على بيت المقدس في وقت صلاح الدين الأيوبي ، وإنما المراد من الحديث أنه ما دام الاسلام قائما هناك باستقامة أهله فانه لن يرجع اليهم قيصر ، أما اذا انحرفوا وغيروا فقد بين الله سنته في الأولين أنه لا بد أن يعاقب من غير دينه ، ويسلط عليه عدوه ، كما تقدم شرح هذا مرارا

فصل

قال المغرور : قال أحد القواد العبقرين الذي عركتهم الحروب وعركوها : اذا احترب فريقان كان الله مع أقواهما . وهذه قوله إذا نظرنا إليها بشق واحد من عقولنا (١) ولكنها في الواقع عميقة (٢) منبئة عن حقيقة كبرى في حكمة الله ، واذا استمعنا الى قول الله في كتابه (ان تنصروا الله ينصركم) استطعنا أن ندرك ما في قول هذا القائل من حق وصدق ، فان هذه الآية قد

(١) قد يكون هذا الشق هو الذي كنت تنظر به أولا في كتبك السابقة ، ولكن أصابه الفالج الذي أصاب الثاني

(٢) نعم عميقة في الكفر والاحاد

الكفار الأقوياء ، ولا شك أن هذا شر من الأصنام . فلعنة الله على هذا الزنديق ما أجراه ، وكيف استطاع أن يتجاسر على هذا الرب الكريم العظيم ويسبه هذا السب الذي لم يسبق له نظير فيما نعلم . فان الملاحدة المصرحين بالاحاد لا يقولون بهذا ، والمتدينون يكفرون من يقول به . ولكنهم لعظم كفره وعمق زندقته أراد أن يخط الحق بالباطل ، وأن يلبس على من طبع الله على قلبه فذهب يروج هذه الدعوى باعانة الله أهل القوة فسب الله تعالى ودينه أقبح سب وأشنع

دسائس لا تدري اليهود بعشرها دعاه إليها الخبث والسوء والمكر وأكثر العقلاء يعرفون مغزاه ومرماه من هذه الدسائس الكفرية بأنه يجب موالاته هؤلاء وأن لا ينازعوا ولا يطالبوا ، بل يوالون ويحبون ، فهذه اعانة ودعاية لأوليائه بأن الله معهم لا مع المسلمين . ولم يكفه هذا الزعاف حتى استدل على هذه الدعوى المردولة بالآية الكريمة المقدسة وهي قوله ﴿ ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ وجعلها دليلا له ، فكابر بالبهت ، وقلب الآية واستدل بها على ضد مدلولها ، ففسر نصرنا الله بنصر أنفسنا ، ومعلوم أن الله لم يقل إن تنصروا أنفسكم ينصركم الله أو إن تنصروا نواويس الطبيعة ينصركم الله ، بل قال ﴿ يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ ، والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم ﴾ فالآيتان المتسقتان نص صريح في ردّ دعواه ، فانهما نص في أن الله مع المؤمنين إذا نصروه ، فالخطاب موجه إليهم . ثم قال في الكافرين ﴿ والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم ﴾ فهم ضد أولئك ، فانه تعالى لا ينصرهم ولا يثبت أقدامهم ، بل حظم التعاسة أى العثرة التى هى ضد ثبوت القدم ، والضلال الذى هو سبب الهلاك المضاد للنصر والتأييد على المؤمنين ، فقرن تعالى بين المؤمنين والكافرين في الذكر ، وبين حالة كل من هؤلاء وهؤلاء ، وقد بين سبحانه وتعالى لنا كيفية نصرنا له الذى هو نتيجة نصره لنا بياننا أوضح من الشمس في نصف

النهار فقال تعالى ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز الذين إن
مكنهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمرؤا بالمعروف ونهوا عن
المنكر والله عاقبة الأمور ﴾ فبين تعالى نصرنا له بأنه الاتيان بهذه الاخلاق
الدينية الظاهرة لأنها هي الاصل ، فتي صحت واستقامت تفرع عنها كل موجباتها
من النشاط والقوة المتواصلة على العمل . وهذا الملحد عاكس هذه الاخلاق
التي هي نصرنا لله ، فادعى أن الاخلاق الدينية لها نتائج أخرى غير نتائج المجد ،
بل جعل الدعاء الذي هو روح الاخلاق الدينية لا فائده فيه ، وجعل المساجد
التي تؤدى فيها الصلاة ونحوها أدت شر ما يؤدى . وهذا عين المعاندة للآية
ولينصر الله ، فكابر هذا الملحد وباهت فعمكسها وطبقها على ضد مدلولها وعلى
مقتضى إلحاده ، مع كونها تقطع ظهره بالبرهان الصريح ، وكما أنه صادمها فقد
صادم أصل الدين كله فان الله مع المؤمنين دون الكافرين في جميع الأديان
السماوية ، كما قال تعالى ﴿ ان الله مع المتقين ، إن الله مع الذين اتقوا والذين
هم محسنون ، إن الله برىء من المشركين ، إن الله لا يحب الكافرين ، والله لا
يحب الظالمين ، فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾
فاخبر أنه ينتقم من المجرمين وأنه ينصر المؤمنين ، والمؤمنون الصادقون هم
الذين يعظمون دينه ونظامه ويحكمونه في كل أمورهم دون ما سواه ، وكيف
يسوغ في العقل أن يكون الرب الكريم الرحيم العالم الحكيم مع أعدائه مع
أنه أعداء لهم جهنم وساءت مصيرا ، فقبح الله من يروج عليه هذا الكفر
﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾

ان هي الا دسيسة خبيثة يراد من ورائها تثييط المسلمين عن طلب النهوض
والاستقلال ، فان من أكبر الذنوب أن نحارب الله ونتقوى عليه لأنه - على
ما زعم - مع هؤلاء الأقوياء الذين استولوا على هؤلاء الضعفاء . ولهذا صرح
بعد أن قرر أن اليهود أقوى من المسلمين بأن المسلمين والعرب ضالون في
الدفاع عن فلسطين ومقاومة اليهود ، لأنهم أقوى منهم كما يأتي . ولا ندرى

كيف يقول هذا الزنديق فيما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : انما ترزقون وتنصرون بضعفائكم ، وقد كان ﷺ يستسقى بصعاليك الصحابة أخرجه في الصحيحين (١) وذلك لأن رحمة أرحم الراحمين أقرب الى الضعفاء الاتقياء لما يقوم بقلوبهم من الحشية والخشوع والتعبد الخالص ، بخلاف الفاجر القوي المختال المستكبر فإن الله لا يحب بل يبغضه ، فوقيين بالطرد واللعن والابعاد كما قال تعالى ﴿ إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا ﴾ وقال تعالى ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾ وقد قال تعالى ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾ وقال تعالى ﴿ اذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ فأخبر انه معه هو صاحبه دون الكفار ، ومعلوم أنهم أقوى منها أسبابا مادية كما قال تعالى لموسى وهرون ﴿ اننى معكما أسمع وأرى ﴾ ومعلوم أن فرعون وقومه أقوى من موسى وهرون في الأسباب المادية ، وهذا مما علم بالضرورة من دين الاسلام بأن الله سبحانه لا يكون إلا مع المؤمنين فلا يكون مع الكفار أبدا وليت هذا الزنديق اقتصر على النظر بالشق الواحد الذى نظر به من عقله - كما يقول - ولم ينظر بالشق الآخر الذى أصابه الفجاء والموت من قديم ، فلهذا سرى الى شقه الآخر ، نسأل الله العافية بمنه وكرمه

ثم قال : فهذا هو القانون الشامل ، فمن هلك به فقد هلك بالحق والعدل ، ومن هلك بهما فلا فاصر له ،

هكذا قال ، فعنده أن من هلك بمقاومة هؤلاء المستعمرين الأقوياء مطالباً باستقلال بلاده والدفاع عنها فانما هلك بالحق والعدل ، فجميع قتلى

(١) هذا وأمثاله مما يدل على كرم الله وجوده ورافته ورحمته ، وأن الضعفاء الاتقياء يدفع الله بهم بلاد وشرورا كثيرة ، وأنهم ليسوا كما يتوهم الزنادقة أنهم بلاد ومحنة ، بل هم خير من الفجار الأقوياء ، وإن كان الاتقياء الأقوياء خيرا منهم ، كما قال عليه السلام : المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف وفى كل خير ،

فلسطين ولوار مصر والعراق وسوريا وأمثالهم قتلوا بالحق والعدل ، والذين قتلهم من الإنجليز والفرنسيين وغيرهم إنما قتلهم بالحق والعدل ، فهم محقون في ذلك عادلون لم يتجاوزوا الحق والعدل ، لأن هؤلاء الثائرين لحقهم وأوطانهم ضعفاء بالنسبة إليهم ، وهم أقوياء ، والله مع الأقوياء ، ولهذا أكد بقوله « فهذا هو القانون الشامل ، فمن هلك به فقد هلك بالحق والعدل ، ومن هلك به فلا ناصر له ، فسبحان الله كيف تذهب العقول ، وأين الغيرة على الدين أو الجنس أو الوطن ، إنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور

فصل

ثم شرع يذكر قضية فلسطين ، وادعى إفكا وزورا على المسلمين أنهم يزعمون أنه لن يكون لليهود صولة ولا دولة ولا ملك ولا وطن خاص أبدا ولو فرط المسلمون في دينهم وأضاعوه . وقد أطل في تعظيم أمر اليهود وتحقير شأن المسلمين . فقال :

« هذا ما كان يقوله المسلمون في العصور الخالية في سيادة النصارى وانتصارهم عليهم ^(١) أما اليوم فقد حل محل هذا الوهم وهم آخر ، وصاروا يقولون هذا القول ويؤمنون بهذا الوهم في خطر اليهود وفي ملكهم ومحاولتهم إعادة وطن قومي لهم ، فقد أكثروا من الادعاء بأن اليهود لا خطر ذاتي لهم وأنهم لا يخشى منهم منفردين على المسلمين ولا على الأوطان الإسلامية ، لا على فلسطين ولا على غيرها . ثم زعموا كما زعموا منذ خمسمائة سنة بأن الله قد دفع إليهم بعهد مكتوب بأن اليهود لن يكون لهم ملك وإن يكون لهم وطن خاص . ثم اتهموا كتاب الله بوجود هذا العهد فيه وراحوا يتلون الآيات منزليها في غير موضعها ،

(١) يعنى ما ادعاه عليهم زورا فيما تقدم أنهم يقولون لن يغلبوا ولو قصروا ونسوا أنفسهم

فيقال : عن هذا أجوبة . أحدها أن قد تقدم الجواب عما ذكرته عن المسلمين في رأيهم في النصارى ، وبيننا أن تلك الدعوى كذب ظاهر وبهتان لا أصل له

الجواب الثاني أن دعواك أنهم بدلوا هذا الوهم بوجه آخر حل محله كذب ظاهر مركب على الزور الذي قبله ، وقد تقدم فساد

الجواب الثالث أن هذا الذي حكيته عن المسلمين في أمر اليهود على هذا الوضع ليس بصحيح ، ولا يخفى بطلانه على عاقل . فإن كنت تريد أن علماء المسلمين المعترين - كما هو ظاهر كلامك - يدعون هذه الدعوى فهذا بهت واضح ، ولا يمكنك إثباته . وإن كنت تريد أن بعض العامة يدعى ذلك فاعلم أن هذا ليس من الحجة في شيء . وإن كنت تريد أن بعض من ينتسب إلى العلم ادعى هذا فقد تقدم قولك أن الشيخ الكبير قد يقول ما لا علم له به ، وأنه يقول أن يسلم عالم من أن يغلط ، وأنت إنما أردت الأول لأنك قلت هذا ما كان يقوله المسلمون بهذا الإطلاق

الجواب الرابع أن الفرق ثابت بين اليهود والنصارى شرعا وعقلا في أنهم ليسوا سواء في الوسائل والأخلاق التي تكون أسبابا للتقدم والتأخر ، وأنت جعلتهما سواء ، والله قد فرق بينهما . قال تعالى ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ﴾ وهذا التفريق الثابت يقتضى التباين العظيم الذى لا بد من وجود أثره . وقال تعالى ﴿ وإذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلی ومطهرک من الذین کفروا وجاعل الذین اتبعوک فوق الذین کفروا الی يوم القيمة ﴾ الآية . وقال تعالى في اليهود ﴿ ضربت علیهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ﴾ إلى غير ذلك من الآيات . وليس في القرآن أو السنة ما ينفي

تملك النصرارى وقيام دول لهم وانتصارهم على الكفار أو من ضيع دينه أو احتقره وقصر فيه ، فانهم كانوا فى وقت النبى ﷺ وخلفائه وقبلهم وبعدهم الى هذا الوقت لهم حكومات ودول قائمة . وقد عرفت سيرتهم مع المسلمين فى تلك العصور ، وقد استولوا فى القرون الوسطى سنين معلومة على القدس وفيه سكان مسلمون فعاشوا معهم ، وهذا بخلاف اليهود ، فانه منذ زمن داود النبى عليه السلام وبنيه الى هذا الوقت لم يثبت لهم ملك ولا حكم ولا دولة مستقلة استقلالاً تاماً كاستقلال غيرهم ، وذلك لما انطوا عليه من الخبث والمكر وسقوط الاخلاق ، فانهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق ، ويحرقون الكلم عن مواضعه ، ويكفرون بآيات الله ، وهم سماعون للكذب أكالون للسحت . ومعلوم أن من اتصف بهذه الاخلاق المسخطة لا يمكن أن يتقدم . والنصارى لم يذكر عنهم فى النصوص ولا فى التاريخ المتواتر ما ذكر عن اليهود ، فالفرق بينهما ثابت حساً وشرعاً وعقلاً ، فقياس أحدهما على الآخر قياس فى غاية البطلان لوجود الفروق التى هى فى غاية الوضوح

الجواب السادس أن المسلمين لم يتهموا كتاب الله تعالى بوجود هذا العهد الذى يدعيه ، بل هم يقولون ان الله تعالى قد ضرب على اليهود الذلة والمسكنة كما ورد ، ولا يمكن أن يتقدموا على المسلمين المحافظين على دينهم أبداً ، أما اذا أضيع الدين ونبت أهلُه نصوص الكتاب والسنة واستعاضوا عنها تقاليد اليهود وأمثال اليهود من الرومان وغيرهم ، فمن الجائز أن يعاقبوا وأن تبدل حالتهم الحسنة بحالة سيئة ، حيث بدلوا نعمة الله كفراً واستعاضوا عن نوره ورحمته ظلمة وشر ، بأن يسلط عليهم اليهود أو غير اليهود عن يتولاهم ويستولى عليهم ، فأى وطن من الامطان يشتم فيه الدين على رموس الأشهاد ولا يتعمر فيه وجه أحد ، وان تلك البلاد يوجد فيها أكرثية تنظر الى الأديان السماوية والى أهلها نظرة المحتقر المزدرى المتهم ، ولا يوجد فيها إلا ما ندر من يغار ويغضب لله ولدينه وشرعه ، حرى أن يعاقبوا باستيلاء العدو عليهم

ولا سيما اذا انضم الى ذلك ضعف سلاحهم المادى ، فاذا انتفى السلاح الدينى
والسلاح المادى فأى مانع لمن هذه حالته من أن يكون عرضة لطمع الظالمين
واعتداء المعتدين ، وسواء كانت هذه البلاد التى هذه حالها فى مشارق الأرض
أو مغاربها . وقد ثبت فى الصحيح أن يأجوج ومأجوج - وهم أمة من بنى آدم
كفار أكفر من اليهود - سيظهرون ويتغلبون على أكثر هذه الأقطار
زمتنا قليلا ، فاذا كان هؤلاء مع كونهم كفارا ملاحدة سيتغلبون على هذه
الأقطار على حين مزاوله العمل بالشرائع الدينية فيها فكيف لا يكون من الجائز
أن تتغلب اليهود على بلاد قد فرط أهلها فى دينهم ولم يعملوا بشرائعه ، لأن
العاصم من ذلك هو الدين الصحيح ، ففى زال زال مقتضاه . أما اذا وجد على
الوجه الصحيح فإن تقدر اليهود ولا غير اليهود من الكفار على الحصول عليه
وجعله وطننا خاصا لهم أبدا . ثم لو فرض وجود إقامة ملك لهم فى وطن قومى
مهما كانت العوامل فهذا لا يبنى ضرب الذلة والمسكنة عليهم ، فإن هناك
حكومات لأقوام لهم أوطان قومية وهم على غاية من الذلة والمسكنة لأموالهم
أخرى ، ولا يمكن أن يقوم لهم ملك أو دولة إلا بجبل من الله وجبل من
الناس ، فاذا لم يحصل شيء من هذا فمن المحال أن يستحصلوا على شيء من
ذلك ، كما أنه من المحال أن يستحصلوا على وطن تقام فيه شعائر الإسلام
إقامة صحيحة . فاذا تمسك المسلمون بدينهم الحقيقى ولم يغروه وأخذوا بما أمر
به ووصى به من الاسباب الدينية والدنيوية فلن يتقدم عليهم اليهود ولن
يتغلبوا عليهم ، كما أنهم لم يتقدموا عليهم فى تلك القرون الماضية بل قهرهم
غاية القهر ، أما اذا أخذ المسلمون قوانين اليهود بل أغلال اليهود التى أعظمها
قولهم للكفار ﴿ هؤلاء أهدي من الذين آمنوا سيلا ﴾ ^(١) وحرفوا الكلم

(١) وسواء قالوا ذلك بلسان النطق أو بلسان الحال فإن اختيار قوانينهم
واحترامها دون نظام الله وشرعه دليل على أنهم يرون أنها أهدي سيلا من غيرها.

عن مواضعه كتحريف الصفات والحدود وغيرها وانما عوا في أكل السحت والتسمع للكذب وعصوا الله وتمردوا عن اتباع كتابه واستكبروا عن الأخذ به وشمخوا بأنوفهم عن العمل به ورأوا أنه ليس في اتباعه كفاية وأن التقوى والصالح خمول وانحطاط وأمثال ذلك ، نقول ان الذي يأخذ أغلال اليهود في نبذ النصوص وتحريف الكلم عن مواضعه والخيانة في أكل السحت والفوضى بالتسمع للكذب فيجعل هذه الأغلال في عنقه ويديه ثم يريد مع ذلك أن يقهر اليهود وأن يكافح اليهود وينتصر عليهم وقد صفد نفسه بأغلالهم فقد رجا ما لا يستحقه لأنه إذن مثلهم بل دونهم ، لأنه انتسب الى دين وناقضه وفسده بتخلقه بأخلاق أعداء ذلك الدين ، بخلاف الكافر الأصلي . ومن هذه حاله فلا بد أن يضرب بالذلة والمسكنة ، وبقدر ما يأخذ الفرد أو الجماعة من خصال اليهود يكون له من الذلة والمسكنة نصيب غير منقوص

والحاصل أن قيام دولة لليهود برهة من الزمان على هذا الوضع الراهن ، وعلى هذه الصفة الموجودة الآن ، لا ينافي ما دلت عليه النصوص ، فالنصوص ليس فيها تعرض لقيام دولة كهذه ، وانما دلت على ضرب الذلة عليهم وعلى من فعل فعلهم . وهذه الدولة المزعومة إنما قامت على أغراض وأهواء متناقضة متعاكسة ، ففرضت فرضا بالقوة والإرهاب والقهر ، لا بالعدل والنظر الصحيح كالشأن في الدول الكثيرة الأخرى ، والذين فرضوها إنما فرضوها لأغراضهم الخاصة لا لمنفعتهم هي ، وهي إنما رضيت بذلك من أجل ما لقيته من الإهانات المتلاحقة والاضطهاد المرير . ثم هي مع هذا إنما قامت لما ضعف أمر الدين في نفوس الأكثرين وأصبح الدين لا قيمة له في قلوب أكثر الناس ، بل سحروا بحب المادة والشهوات البهيمية ، فكانت نوعا من أنواع العقوبات . فأمة هذا شأنها وهذا موقفها كيف يصح أن ينقذ عنها ضربه الذلة والمسكنة ، بل نفس قيامها بهذا الوضع دليل على صدق هذه النصوص ،

فإنها لو لم ينلها هذا الذل والمسكنة لما احتاجت الى أن تقف هذا الموقف الخطير ، ولكانت كغيرها ممن لم ينله ما نالها

ان المشكلة الكبرى بل المصيبة العظمى التي أعمت بصائر الأكثرين أنك تنظر الى بعض الشعوب فتجد الشعب كله - إلا من شاء الله - منغمسا في أخلاق اليهود وفي أخلاق المنافقين في تحريف النصوص وإخراج معانيها عن ظاهرها ، ثم رفض العمل بها ، ثم رؤيتها بعين الاستصغار والاحتقار ، ثم مع هذا تجد هذا الشعب مصابا ببلاء فوق هذا أفطع وأشنع ، ذلك أنه يعتقد أو يرى أن السياسة قسيمة الدين السماوي ، بل قد يرى أنها هي الأصل والعمدة ، فيجعلها أول كل شيء وفوق كل شيء ، فما وافقها من نص عمل به - لأنه وافقها ، لا لأنه تنزيل من حكيم حميد - وإن خالفها رفض رفضا باتا ، إما بدعوى أنه مشتبه أو بدعوى استحالة العمل به لمصادمته فيما يظن للسياسة ، ثم مع هذا تجد هذا الشعب كله إلا من شاء الله مبتلى بوباء آخر فوق هذا وهو وباء حب المادة والتهالك عليها وعبادتها حبا يغلب على كل معاني الحياة فيه ، وذلك هو أكل السحت ، ثم مع هذا تجد هذا الشعب كله مضروبا ببلاء آخر هو المحنة بانبياع الهوى فهو يصدق ويستمتع لكل ما يريده ويهواه ، وإن خالف الحقائق وكان كذبا لا ريب فيه ، ويرد ويبغض كل ما يكره ويخالف هواه وإن كان صدقا وحقيقة لا شك فيها ، فيمدح للحب ويذم للبغض لأي شيء لأجل هواه في كل ما يسمع ويرى ، فهو سماع للكذب في غاية الصمم عن الصدق لما به من الانانية المستحكمة على مسالك شعوره ، ثم لا يكتفي هذا الشعب كله بهذه القيود والأغلال اليهودية التي ضربها على نفسه حتى يضم اليها أصفادا وأغلالا أخرى ، فتجده في مجلسه وملبسه ومأكله ومشربه وفي ذهابه وإيابه وفي كل عاداته مقتديا باليهود وأمثال اليهود في كل ذلك ، ثم لا يكتفي هذا الشعب بذلك كله حتى يذهب الى أمر أمر فيرتضى به عقله المعكوس وقلبه

المظموس الى أن يتهم الله تعالى ودينه فيكذب على الله فيدعى أنه مؤمن مسلم
مستحق لما يستحقه المؤمنون من النصر والتأييد والعز والمجد والسيادة والاعانة
والتوفيق ، بل ربما يتهم دين الله ويظن أنه إنما اتته المصيبة من أجل اتباعه
الدين وطاعته لرب العالمين

ان الله جلت عظمتة أجل وأعظم من ان يتلاعب بدينه المتلاعبون أو
أن يخدعه المخدوعون ، فهو أغير على نفسه من ذلك ^(١) . قال أيوب السخيتاني
يخادعون الله كأنما يخادعون الصبيان ، ولو أتوا الامر عيانا كان أهون . ان
الله تعالى وتقدس قد أنزل شريعة كافية كافلة لمن أخذ بها واعتمدها ، فجعلها
نورا وبصائر وهدى ورحمة ، وحكم حكما صارما بأن من اتبع هداه فلا يضل
ولا يشقى ، وأن من أعرض عن ذكره فان له معيشة ضنكا وسيحشره يوم
القيمة أعى ، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم

أعجب ما يعجب منه المسلم أن يرى إنسانا يكره قوما ويبغضهم ويلعنهم
ويعقتهم ثم يختار آراءهم وأخلاقهم على كلام الله ونظامه ورحمته ، وعلى أخلاق
سلفه السادة الأقوياء الطيبين الطاهرين ، مع دعواه محبة هؤلاء والاقتداء
بهم ، فيتعاكس حبه وانقياده وبغضه ومخالفته ، ثم يريد أن يكون مستقيما في
كل أحواله وأعماله ، مستحصلا على أغراضه وآماله ، فيا الله العجب كيف
يحارب قوما ولا يحارب آراءهم وأخلاقهم قبل صورهم وأجسامهم ، كيف
يصاحب أخلاقهم ويحارب صورهم ، أخلاقهم المضادة لأخلاق الدين لا
أخلاق القوة والعمل ، فان هذه هو الآحق بها وأهلها . كيف يدعى محبة الله

(١) أغير على نفسه من أن يجعل دينه وكتابه ونوره وهداه تبعا لسياسة الناس
وأهوائهم فما وافقهم قبلوه وما خالفهم ردوه ثم يعين من فعل ذلك ويوفقه ويحميه
ويتولاه

ويحارب نظامه ، وكيف يحترم أسلافه ويدعى تعظيمهم والافتداء بهم وقد ضرب بأخلاقهم الدينية عرض الحائط وأساء الظن بها واحتقرها . فهو لا إنما يعادون صورهم وأجسامهم فقط ، وأما أخلاقهم وآراؤهم المضادة للدين فهي لديهم مكرمة مرفوعة محترمة

ومن العجب أن هؤلاء الذين يتسللون من الأديان ويمرقون منها جماعات وأفراد - مؤملين الوصول إلى أهدافهم ، طامعين في الحصول على اللحاق بأخوانهم ممن عشقوا مبادئهم وقلدوهم فيها وغبطوهم عليها - لم ينالوا إلا عكس ما قصدوا ونقيض ما أرادوا ، وكلما حاولوا الخروج من هذه الوهاد زلت أقدامهم وهبطوا في دركاتهم ، وكلما أرادوا أن يتخلصوا من غم أعيدوا فيه فالحقائق السافرة والوقائع الصادقة تناديهم بلسان حالها : قد جربتكم وعلمتهم كل ما قدرتم عليه من احتقار الأديان وأهلها وكرهاتها وكرهات أهلها واحترام ما يناقضها من القوانين أو الآراء واحترام أهلها وإكرامها وإكرام أهلها وما فلتتم بما رمتم شيئا بل كانت عاقبة امركم البلاء والوبال وكان بعدكم عما أردتموه مقدار بعدكم عما عاديتموه واحتقرتموه - وهم أمام هذا النداء الصريح والبيان الصحيح جاعلون أصابعهم في آذانهم قد لجوا في طغيانهم يعمهون

فالعبر لا تنظر ، والمواعظ لا تنفع ، والقوارع لا تسمع ، وكل برهان يأتي يذهب سدى ويمر كما جاء ، ﴿ أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون - وكأين من آية في السموات والأرض يمدون عليها وهم عنها معرضون - وما يؤمن أحدكم بالله إلا وهم مشركون - أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ﴾

* * *

وهنا أمر يجب التنبيه عليه وهو أن أئمة الدين قالوا : إن المسلمين إنما تأخروا لما ضعف أمر الدين فيهم ، فانهم لما بعدوا عن دينهم الصحيح وغيره

تأخروا . وهذه قاعدة وأصل معروف عندهم . وهو قول صحيح لا ريب في صحته وقد أورد بعض الزنادقة وضعفاء البصائر على هذا القول اعتراضا باطلا فقالوا : لماذا تأخر المسلمون حين أهملوا دينهم وتركوا العمل به ولم يتأخر غيرهم لما فعلوا ذلك بدينهم . وهذا الاعتراض قد أوردته هذا المغرور في نبذته العجفاء (كيف ذل المسلمون ^(١)) ثم ادعى أنه اعتراض صحيح ظاهر بلا شك . ونحن نقول له : بل هو اعتراض ساقط مردول ليس بشيء ، ويدل على بطلانه وجوه :

أحدها أن قول أئمة المسلمين إن ضعف الدين يوجب التأخر ، وأنهم لم يتأخروا إلا بسبب ضعف دينهم لا يفهم منه أنه لا يتقدم أحد غيرهم من الكفار على من هو مثله أبدا ، بل مقصودهم أن الله تعالى قد أعز أهل هذا الدين بما أنزل عليهم من النور والهدى واليانات والبصائر ، فكثرت بعد القلة وأعزهم بعد الذلة وقواهم بعد الضعف وقدمهم بعد التأخر ، فلما أن غيروا دينهم هذا بالبدع المتنوعة واستصغره بعضهم وحرفه واختلقوا وتحالفوا بغيا بينهم ، فضعف هذا السبب الذي به حصل لهم هذا التقدم وهذا العز وهذا المجد ضعفوا . ومعلوم بالضرورة أن ضعف السبب يوجب ضعف المسبب ، فان كل من تقوى بمادة أو بسلاح وانتصر به وتحصن به فلا بد أن تضعف قوته التي قامت على تلك المادة أو ذلك السلاح بضعفه ، فضعف النتيجة لازم

(١) ذكره في ص ١١٤ منها وهذا لفظه : « وبعض الناس يحمل هذه الأسباب في عبارة موجزة قليلة فيقول : إن المسلمين تأخروا لأنهم بعدوا عن دينهم وأهملوه . ولكن يبقى على هذا سؤال : لماذا تأخر المسلمون حين أهملوا دينهم وتركوا العمل به ولم يتأخر غيرهم لما فعلوا ذلك بدينهم . وهذا سؤال ولا شك صحيح ظاهر ، لأن التقدم لا يلزم أن يكون قائما على الدين والنفوس ،

لضعف الوسيلة بلا ريب ، وهذه كلها حقائق معقولة لا يمكن الماراة فيها ، فان من اعتقد أن عز العرب والمسلمين إنما قام أساسه على هذا الدين فلا بد له من الاعتراف بأن ضعفهم تابع لضعف دينهم طرداً لهذه القاعدة مع قطع النظر عن تقدم ضدهم فان ذلك له شأن آخر

الوجه الثاني أن قولك ولم لم يتأخر غيرهم لما فعلوا ذلك قول باطل ، فهل تريد ذلك قبل ظهور فجر الاسلام أم بعده . فان أردت الأول - ولا نطعنك تريده - فغير مسلم ، بل كل الأمم التي قام تقدمها ومجدها على أديان سماوية كبنى إسرائيل وغيرهم تضعفت وتأخرت لما أن ضعف دينها كالأمم الاسلامية سواء كما أثبت ذلك حملة التاريخ المتواتر . وان أردت الثاني وهو مرادك فهو ممنوع ، فليس هناك دين صحيح غير الاسلام ، فلما أن تأخر وخلعه أهله تقدموا على المسلمين ، أما تقدمهم على من هو مثلهم فهو عبارة عن تقدم مبدأ على جنسه أى تقدم كفر على مثله ، وهذا غير وارد على السؤال ، فان تقدم الكفر على جنسه أو نفسه لا ينافي فيه أحد لأن حقيقته أنه يهدم بعضه بعضاً والله سبحانه وتعالى قد ذكر أنه يولى بعض الظالمين بعضاً ، وهذا يقتضى استيلاء بعضه على بعض

الوجه الثالث أن هذا الاعتراض مبنى على مقدمة باطلة ، وهو قياس دين الاسلام على غيره من الأديان الماضية المنسوخة ، وحقيقة هذا أنه قياس الاسلام على الكفر ، ومعلوم أن هذا من قياس الشيء على ضده وهو بديهي البطلان ، فاذا كانت هذه المقدمة المبنى عليها هذا الاعتراض باطلة بطلت قضيحتها ، لان قول القائل ولم لم يتأخر غيرهم لما بعدوا عن دينهم وغيره يوهم أن دينهم الذى بعدوا عنه وغيره مثل الاسلام ، وكلاهما سواء ، وهذا لا يخفى فساده ، لانه يقال فى جوابه : ان هؤلاء بعدوا عن دين باطل الى دين باطل وغيروا ديناً باطلاً بدين باطل ، وأما المسلمون فانهم بعدوا عن الدين

الصحيح الى دين باطل واستبدل أكثرهم ديننا صحيحا بدين باطل ، وبعضهم قصر في دينه الصحيح ، فأين هذا من هذا . وهذه فروق في غاية الصحة والوضوح ، فلا بد من ظهور أثرها . فقياس بعضها على بعض مع ظهور التفاضل قياس في نهاية السقوط

ووجه آخر وهو أنه تعالى امتنّ على هذه الامة العربية ببعث هذا النبي الكريم الذي هو خاتم الأنبياء وأفضلهم منهم ، وجعل شريعته أكمل الشرائع وأعظمها بعد أن كانوا على أشنع الحالات وأحطها ، فأخرجهم من الظلمات الى النور ومن الموت الى الحياة ومن الدلة الى العز ، كما قال تعالى ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ فأعطاهم هذه النعمة العظمى وبوأهم هذه القمة العليا وتفضل عليهم بهذا السلاح الجبار الذي أدركوا به كل غايتهم لما استعملوه على وجهه . فاذا جحدوا هذه النعمة واستصغروها واحقروها وعيشوا بهذا السلاح ورجعوا القهقري وانحرفوا الى وري كان معنى هذا أنهم لم يقبلوا ما آتاهم الله من الهدى والنور والروح والقوة بل استبدلوا بذلك ما يضاده وينافيه من قوانين أعدها الله وأعدائهم من اليهود والرومان وأمثالهم ورجعوا الى عبادة الأوثان كالتعلق على الأسباب الطبيعية بأي مظهر كان من مظاهرها ، لا شك أنهم إذا فعلوا ذلك أو فعله أكثرهم أنهم يكونون أولى باستحقاق العقوبة من غيرهم وأولى بالتأخر من غيرهم كما قال موسى لقومه لما اختاروا الثوم والبصل على المن والسلوى ﴿ استبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ، اهبطوا مصرا ﴾ الى قوله ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ الآية . فاذا كانت هذه عقوبة من هذا فعله فكيف بمن اختار الظلة على النور والموت على الحياة والكفر على الإيمان . وكذلك المسلمون الذين أقروا بدين الاسلام في الجملة والتمزوا حكم الشهادتين ولم يعملوا بمقتضاها ، بل اتخذوا دينهم لهوا

مولعاً وحر فوا الكلم عن مواضعه في الصفات وغيرها وعملوا بما يضاد الدين من القوانين ورأوا أن ذلك هو طريق المجد وأنه هو الذي يلائم السياسة والدهاء والحكمة، لاشك أن من عمل ذلك فلا بد أن يعاقب بعكس ما قصده ، وتكون عقوبته أولى من عقوبة من جاهر بالكفر ، أو كان مستمسكاً بدين قاسد قبل الاسلام ولم يعترف بالدين ظاهراً ويخالفه باطناً ، ويكون نصيبه من النذل والتأخر بقدر نصيبه من النفاق واحتقار الدين والإعراض عنه ، وهذا ظاهر لا خفاء به . وبهذه الفروق يعرف أن عقوبة من خالف الدين الصحيح أو فرط فيه بعد ما عقله أولى من عقوبة غيره

الوجه الرابع أن نسبة الدين الصحيح الى الدين الباطل أو الاسلام الى الكفر كنسبة النور الى الظلمة والصحة أو العافية الى المرض أو الموت أو الهدى الى الضلال أو الضياء الى الظلام ، فهما ضدان متقابلان تقابل السلب والایجاب ، فزيادة أحدهما نقص في الثاني وارتفاع أحدهما هبوط في الآخر ككفتي الميزان اذا هبطت إحداها فلا بد أن ترتفع الأخرى ، وضعف أحدهما بلا ريب يوجب قوة مضادة ، فاذا قلنا ان المسلمين تأخروا لما ضعف دينهم وبعدوا عنه فهو كقولنا انهم لما بعدوا عن النور دخلوا في الظلمة وبقدر يعدم عن النور يكون دخولهم في الظلمة ، ولما انحرفوا عن الهدى وقعوا في الضلال ، ولما أن اختلت صحتهم وقعوا في الأمراض ، ونسبة شعب الكفر في التفاوت والدركات كنسبة دركات الضلال والظلام وأنواع الأمراض . ومعلوم أن من ضعفت صحته فلا بد أن يكون مريضاً فان النفس وكذا الجسم لا بد لأحدهما من أحد الأمرين في هذه الدنيا ، فاذا قلنا ان المسلمين تأخروا لما ضعف دينهم وبعدوا عنه كقولنا وهنوا ومرضوا لما ضعفت صحتهم ، أو ضلوا لما انحرفوا عن طريق هدايتهم ونحو ذلك . وحينئذ لا يصح أن يقال لم يضل غيرهم لما ضلوا ويمرض غيرهم لما مرضوا ونحو ذلك ، إذ حقيقة الدعوى

أن تغير غيرهم عن حالته كانتقال مريض من مرض الى مرض آخر أو من ضلالة الى ضلالة أو من ظلام الى ظلام ، فإن علة القياس منتفية فالاعتراض به باطل بطلانا ظاهرا ، فأين من انتقل من نور الى ظلمة ممن انتقل من ظلمة الى ظلمة أو من ضلال الى ضلال

الوجه الخامس أن الله تعالى بين الدين الصحيح وبين حكم من اتبعه وتمسك به كما بين حكم من خالفه وأعرض عنه في الدنيا والآخرة بيانا واضحاً كالشمس ، قال تعالى ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم تورا مبينا . فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما ﴾ وقال تعالى ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيمة أعمى ﴾ وقال تعالى ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى فلنجزيه حياة طيبة ﴾ الآية . وقال تعالى ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ فتأمل قوله في الحياة الدنيا تجد الآية نصا صريحا في أن الايمان والعمل الصالح ينفع في الدنيا كما ينفع في الآخرة ، وأن نتيجة الطيبة في النصر وغيره لا بد أن تظهر في الدنيا مع ثواب الآخرة ، وهذا يبطل قول الملاحدة ومنهم هذا المغرور في أن الايمان والعمل الصالح لا ينفع في الدنيا كما صرح بذلك في مواضع ولا سيما في مقدمته (كيف ذل المسلمون) وكذا قوله تعالى ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ نص قاطع على عدم تساوى المسمى والمحسن والمؤمن والمجرم في الدنيا والآخرة ، وقال تعالى ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ﴾ الى أمثال ذلك . وهذه براهين صريحة تنص على أن أهل الدين الصحيح لا بد أن يتقدموا في الدنيا وأن ينصروا على أعدائهم ، فكل من تمسك بالدين والايمان الصحيح - لا الايمان الكاذب الملوث بالنفاق

واحتقار الأديان وجعل السياسات قسيمة لها - فلا بد أن ينصر حتما كما وعد الله بذلك ، فإن الله لا بد أن يسدّد أهله ويوفّقهم ويهديهم الى الأسباب القويّة ويفتح لهم السبل التي بها يتحقّق ما وعدهم به ، فإن الدين بتعاليمه القويّة يدفع الى العمل القوي النافع الصحيح ، وحينئذ فالاعتراض على ذلك السؤال إنما هو اعتراض على النصوص الصريحة التي ذكرنا في هذا الأصل ، واعتراض على ما دلت عليه . فإن كان المعارض من يدعي الاسلام فقد تناقض وسقط اعتراضه ، وإن كان مجاهرا بالاحاد كافرا بالأديان انتقل النزاع معه حينئذ الى أمر وراء ذلك ، وهو في أصل الأديان وصحتها وفساد ضدها ، وهذا مسلك آخر فالاعتراض ساقط على كل احتمال

الوجه السادس أن مسألة التقدم من أجل الدين في الدنيا ليست هي الثمرة المقصودة والنتيجة المطلوبة من الدخول فيه ، بل ذلك أمر آخر تابع للنتيجة وللغاية غالبا في الجملة ، وحينئذ نقول : إما أن يكون الانسان داخلا في الاسلام راغبا فيه حبا وإخلاصا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة ، لا لأجل أن يتقدم في الدنيا ويتألم منها مالا أو جاها ، بل هذا يرجوه تبعاً لرضى الله لا غاية ومقصودا ، فالمسلم بهذا المعنى لا يمكنه أن يغير التقدم والتأخر عقيدته ، ولا يكون تأخره حجة عليه ، بل غايته أن يفعل ما أمر به من فعل الطاعات وأخذ بالأسباب المأمور بها شرعا من الجهاد وما يتعلق به ، فيأخذ بالأسباب الدينية والدنيوية ويسأل الله الاعانة والتوفيق ، فإن وفق فذاك ، وإلا فلن يضيع له أجرا حسنا أبدا . وأما إن كان لم يدخل الدين الا لقصد التقدم في الدنيا ونيل الثراء والحياة ونحو ذلك فيدخل الدين لهذه الغاية أو لهذه والآخرة ويجعل الآخرة تبعا ويجعلها مقصودة مع الدنيا سواء فإن حصل له شيء من الدنيا والا فلن يرضى أو يكون معه شك أو ريب ، فهذا في الحقيقة ليس بمسلم بل هو منافق ، فلا يكون مسلما صحيحا إسلامه حتى يدخل الدين راضيا به

مبتغيا وجه الله لا مقدما عليه ما سواه كما في الحديث الصحيح « نازق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً ، وفيه أيضا » لا يؤمن أحدكم حتى يكون قلبه هواه تبعاً لما جئت به ، وقال تعالى ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾ وقال تعالى ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ﴾ فكل من لم يدخل الإسلام مستسلما لله مخلصا صادقا في إسلامه مبتغيا وجه الله والدار الآخرة ميغضا الكفر كارها له كما يكره أن يلقى في النار فليس بمسلم إسلاما صحيحا

وعلى كلا الأمرين فلا يرد السؤال المذكور ، لأنه مبنى على أن التقدم في الدنيا غاية لا بد منها على كل حال لكل مسلم وإن كان إسلامه مدخولا . ومعلوم أن أئمة الدين لا يرون هذا ، فإن الله تعالى جعل الابتلاء في الدنيا أحيانا لا بد منه لخلقهم ، إذ لو كان أهل الدين مطلقا يتقدمون دائما ولو قصرُوا وبعثوا عن دينهم لدخل الدين أناس كثيرون جدا لقصد الدنيا ، ولحقى كثير من الزنادقة والمنافقين ، ولفانت العبودية والصدق والاخلاص المطلوب من الدخول في الدين ، بل هو الثمرة المقصودة منه ، ولصار المقصود من الدين هو الدنيا فقط لا رضاه الله والرغبة فيما عنده . وهذا يتنافى مع الغاية المطلوبة من الدين ، ولكن الابتلاء والامتحان أحيانا - لا سيما في الأمم المدخولة بالمنافقين ومن في قلوبهم مرض - أمر لا بد منه ، فانه يحص هؤلاء فيميز الكاذب من الصادق والمخلص من الغاش والخبيث من الطيب كما قال تعالى ﴿ ما كان الله لينذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ وقال تعالى ﴿ ولیمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾ وأمثالها من الآيات . ولولا هذا الابتلاء والامتحان لم يقبل المنافقون للمؤمنين ﴿ غورا هؤلاء دينهم ﴾ ، ولم يستهنوا بهم ويظهروا ما يكنونه من البغض والاحتقار .

ولما استبان صدق المخلصين في إيمانهم وصبرهم ومصابرتهم في السراء والضراء فإن الاسلام والدين مبناه على العبودية والصدق والاخلاص ، ولا يظهر هذا إلا في السراء والضراء ، وفي ذلك ايضا ما يوقظ غفلتهم ويبين غلظتهم فيعرفون كيف يتلافون أخطاءهم وأغلاطهم التي ارتكبوها ويعرفون كيف يعالجون الأمراض التي وقعوا فيها ، فكم في التأخر أحيانا - ابتلاء وامتحانا - من فوائد لا يعدها ولا يحصيها إلا الله تعالى ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون

الوجه السابع أننا بينا أن الفرق واضح بين المسلمين وغيرهم ، فالتأخر وإن أصاب بعض المسلمين أحيانا فلا بد أن تكون العاقبة الحميدة لهم ، بخلاف أعدائهم فإنهم وإن تقدموا أحيانا فلا بد من الدمار المحتوم كما أخبر الله بذلك وعلم بالاستقراء التام ، فأين هؤلاء من هؤلاء ، والله سبحانه وتعالى قد فصل في كتابه العزيز كيف تكون حالة هؤلاء وكيف تكون حالة أولئك ، فبين أنه قد يقع التأخر في المؤمنين أحيانا قليلة امتحانا وأن العاقبة الحسنة لهم ، وبين أن الكافرين قد يتقدمون أحيانا في الدنيا وتكون عاقبة السوء لهم فيهلكون ويدمرون وتحمل بهم المصيبة القاضية عليهم ، وكفى بهذه الآيات حكما فاصلا فيهم وهي قوله تعالى ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ، فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ، ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون ، ففقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ وقوله تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ، ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ فقد بين الله في هذه الآيات الكريمة حالة الأمم المخالفة للرسول في الدنيا وما لهم فيها ، وهكذا كان الواقع ، فإن الله تعالى لما بين لهم الحق جعل يقلب عليهم الآيات والعبر فيمتحنهم أولا بالبأساء

والضراء - أى المصائب المتنوعة - لأنها تمحص ما فى القلوب من الحياة والموت ،
فالحياة لا بد أن تظهر معها والموت لا يفيد معه شيء (لعلمهم يضرعون) أى
يرجعون الى الله تعالى ويقبلون عما كانوا فيه من التعلق بغيره من المخلوقات ،
فلما لم يحصل ذلك منهم بل قست قلوبهم فلم تؤثر فيها مواعظ الرسل وآياتهم
وهذه العبر من البأساء والضراء المتتابعة عليهم بدل الله لهم مكان تلك السيئة
أى الابتلاء والامتحان بالبأساء والضراء الحسنة أى النعمة والترف والرفاهية
لتقوم عليهم الحجة باكمال النعمة كما قامت عليهم الحجة بابلاغ الرسالة فتكون
الحجة قائمة عليهم من كل وجه (حتى عفوا) أى انغمسوا فى النعم وغفلوا
عن وقوع ما يزيلها وينزعها عنهم (وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء)
أى قالوا إن حصول الشر تارة والخير تارة وتعاقبهما ليس هو من فعل الله بل
هى سنة أو نواميس من نواميس الحياة أو الطبيعة تارة خيرا وتارة شرا ، وهذا
قد حصل لآبائنا الأولين فليست هى عبرا ولا آيات فلا دخل للأمر الدينية
فيها ، قد مس آباءنا الضراء والسراء فهى عادة الدهر المستمرة فليس لما جاء به
الرسول تأثير فى ذلك ولا لما فعلنا من مخالفة الرسل تأثير فى ذلك فليس لفساد
الاخلاق تأثير فى ذلك قال تعالى (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب
كل شيء) وهذا صريح جلى فى أن الكفار قد يتقدم بعضهم فى الدنيا ويحصل
على ثراء وخير كثير وقوة عظيمة ، ولكن كل ذلك عند ما يقرب زواله
وانقلابه عليهم (حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون)
أى انقلب ما لهم وانعكس قصدهم وتقطعت بهم الأسباب التى اعتمدوها
واتخذوها آلهة من دون الله (وحيل بينهم بين ما يشتهون) فدمرهم الله
وكانت عاقبتهم شر عاقبة

وهذا بخلاف أهل الدين فإنه لا توجد أبدا أمة متدينة بدين صحيح
أهلكها الله أو أصابها بما يصيب به الأمم الكافرة كما قال تعالى (وما كان ربك

ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴿ وقال تعالى ﴿ وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ وكل الفترات التي حصل للإسلام فيها شيء من التأخر هي بالنسبة إلى ما حصل لغيرهم من التأخر والعذاب والتدمير في السنين السابقة منذ طلع فجر الإسلام لا يعد شيئا مذكورا ، فإن الإسلام تقدم قرونة طويلة ، وكان على غاية من العزّ وضخامة الشأن ، بخلاف هذه الأمم فإن تقدمها هذا جاء طفرة واحدة ، وكثير منهم طاش برهة وسقط سقوطا فظيعا مدمرا ، وأكثرهم قد تخلل تقدمه القصير نكبات ومحن عظيمة ، وهذا المستقبل المظلم يتذر بشر أدهى وأمرّ

الوجه الثامن أن الله تعالى قد أنعم على عباده بما أنزله إليهم من الهدى والبيّنات ، وكفل لهم السعادة والسيادة متى اعتصموا بهداه وحافظوا عليه ، وأخبرهم أن من أعرض عنه فقد دخل في أسباب الشقاء والهلاك ، وقد صدق هذا الذي وعد به بالاستقراء الجلي الطويل ، ولم يذكر قط أن الكافر لا يقدم على مثله أولا يتقدم أحيانا على من فرط في دينه ، فهو تعالى أعطى عباده هذا الدواء الناجح وبين أن من استعمله فقد استحصل على الصحة والسلامة ومن أعرض عنه فقد تعرض للهلاك والعطب ، ولو أن طبيبا عظيما مخلصا صادقاً ماهراً أعطى إنسانا دواء وأخبره أن شفاؤه فيه وأنه إن تركه فقد تعرض للعطب وأكد عليه بأن يجتهد في استعماله على وجه مخصوص وحذره عن الوقوع في أشياء بينها له غاية البيان فأخذ هذا الإنسان هذا الدواء بوهل وكسل وبغير همه واستعمله على غير وجهه وتناول ما نهى عنه أو كثيراً منه فضعفت لذلك صحته وازداد به المرض حتى أصبح ضعيفاً مستضعفاً ، فلما أن لا ملامه على صنيعه هذا وتفريطه في أمره باستعمال هذا الدواء فاعترض عليه هذا الضعيف أو غيره مدعياً أن بعض الناس قد عوفي من غير أن يستعمل هذا الدواء وأنه استعمل أشياء مما نهى عنها وقد حصل له الشفاء والعافية لعدم

هذا المعارض من أحق الناس وأجهلهم ولكانت معارضته هذه معارضة باطلة بلا شك عند جميع العقلاء

وكذا لو أن انسانا وصف له طريق واحد وبين له الواصف الناصح غاية البيان أن سلامته ووصوله الى المطلوب مضمون في سلوك هذه الطريق وحدها وكان هنالك طرق كثيرة غيرها بخالف وسلك طريقا غيرها فتلقت أو مرض فلا لامة لائم فعارضه بأنه قد وجد من خالف هذه الطريق فسلم لكنت هذه المعارضة باطلة بلا ريب

فشعب الكفر وطرائقه كثيرة جدا ، والقليل النادر منها قد يحصل فيه شيء من التقدم برهة من الزمن امتحانا وابتلاء وعقوبة على آخرين ، وليس هذا التقدم معلوما في طريقة واحدة معينة ولا في طرائق معدودة ، لأن التقدم الذي قد يوجد في شيء منها ليس تقدما بأصلته وإنما هو تقدم عارض لأمر تعرض لأهله أو تعرض لمقابلتهم . وأما الدين الصحيح فهو طريقة واحدة ، وتقدمه بالأصالة ، وهو - أي التقدم - من لوازمه الثابتة فيه ، فلا بد من حصولها ما لم يمنع من ذلك مانع كوقوع التقصير ودخول النفاق ونحوه ، فإن الله سبحانه وعده من آمن به وعمل صالحا بذلك في الجملة كما قال تعالى ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ^(١) ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الظالمون ﴾ وهذه خاصة في الدين لازمة له فلا بد من وجودها ما لم يمنع من ذلك مانع ، فإن كان هذا المانع ضعيفا فلا بد من زواله فيزول موجهه ، وإن كان قويا

(١) يلاحظ هذا الشرط العظيم وهو قوله تعالى ﴿ يعبدونني لا يشركون بي شيئا ﴾ فهذا شرط في استخلافهم وتمكينهم لا بدال خوفهم أمنا

وازداد زال اسم الدين فلا يبقى هنالك موضع لقبول التقدم بل يحل محله ضده وقد بينا حكم ضده ، وهذا ظاهر . وأصل هذا أن قياس الاسلام على غيره من باب قياس الشيء على مضاده فالاعتراض بما يحصل في ضده على ما يحصل فيه مبني على هذا القياس وهو باطل عند جميع من أقر بالدين ، وأما من لم يقر به فالكلام معه في أصل الأديان لا فيما يلزم منها ومن ضدها ، فالاعتراض ساقط سقوطا بيننا على كل تقدير

ومن أخبث الخبث قوله بعد إيراد هذا الاعتراض ، لأن التقدم لا يلزم أن يكون قائما على الدين والتقوى ، فهذه الدعوى التي ادعاها قائمة على وهمين : أحدهما أن الأخذ بالأسباب ليس من الدين ، وظن أن الدين والتقوى شيء وأن الأخذ بالأسباب المادية شيء آخر لا يتفق معه ، فيكفي في دجره أن يقال له : ليس من الدين والتقوى رفض الأسباب المادية مطلقا ، ولا يمكنك أن تثبت أن أحدا من علماء المسلمين المعتبرين ادعى وجود الدين والتقوى في أمة بدون أخذ بالأسباب المادية التي أمر الله بمباشرتها واستعمالها والعمل بها . وأما الوهم الثاني فهو اعتقاده أن التقدم قائم على الأخذ بالأسباب المادية فقط ، فمن أخذ بها تقدم بدون دين وتقوى ، ومن لم يأخذ بها تأخر ، أي أن التقدم منوط بها على كل حال . ومعلوم أن هذا باطل يعرف بطلانه مما سبق ، فإن الله تعالى قد بين غاية البيان أن من أعرض عن ذكره فإن له معيشة ضنكا ، وأن عاقبته الدمار وإن تقدم برهة استدراجا وامتحانا ، والله سبحانه قد أخبر أن من تمسك بدينه فلا بد أن يتقدم وينصر في الجملة كما تقدمت الشواهد على ذلك من القرآن العزيز كقوله تعالى ﴿ فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما . والله العزة والرسولة وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون . من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة . فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر

عنكم من سيئاتكم) وأمثال ذلك كثير . أما استدلاله بأن بعض الأنبياء والصالحاء قتل فسيأتى جوابه آخر الكتاب في المشكلة التي لم تحل ، وكذلك ما ذكره من تقدم معاوية على علي . وأما ما ذكره بأن أوربا استطاعت أن تغلب على الشرق مع أن الشرق أقرب إلى الله من الغرب وأكثر إيماناً به فهذا من عجائبه في التناقض ، فهو هنا أثبت أن الشرق أقرب إلى الله ، ومعلوم أنه يريد المسلمين ، فإذا كان الأمر كما يقول فكيف يدعى أن المسلمين أضل أهل الأرض ، وهاك عبارته في ص ١٤٠ (١) : « دانه لا يوجد عند أهل مله في الأرض من الخرافات والجهالات المنسوبة إلى الدين مثل ما عند هؤلاء الذين يزعمون أنهم مسلمون ، فلا يوجد عند النصارى ولا عند اليهود بل ولا عند الوثنيين العابدين للأوثان والأصنام من هذه الخرافات كالذي عند المسلمين ، بل لم يكن عند المشركين الأولين الذين جاءهم الاسلام لانقاذهم من شركهم مثل ما عند هؤلاء المسلمين . ووجه ذلك أن هؤلاء المشركين الضالين كلهم إنما ضلوا في ناحية واحدة من نواحيهم أو في نواح عدة ، أما المسلمون فأنهم قد ضلوا وجهلوا وجمعوا جميع الخرافات وسائر صنوف الجهالات ، وما من قبح وفساد وشرك وغى كان عند أهل مله من أهل الملل الضالين إلا وهو عند هؤلاء المسلمين بأقبح صورته ومعانيه ومظاهره ، (٢) ثم أطال الكلام والسب

(١) أى مقدمته كيف ذل المسلمين

(٢) كل ما ذكره من الخرافات التي يدعى وجودها في المسلمين إنما جاءت من الملاحدة والمنافقين الذين يمدحهم ويثنى عليهم ، فالبدع والخرافات كلها وليدة الاتحاد ورفض الأدب ، فلا يمكنه أن يثنى على الأصل ويذم الفرع ، وكل ما ذكره من ذم الخرافات وتأثيرها في العقول وغيرها موجود في الاتحاد والزندقة ، فإن الاتحاد هو أعظم الكفر ومحادثة الله ، وإذا كان ذمه لها لا من أجل الكفر وعداوة الله لم تكن دعايته دعاية دينية إسلامية بل دعاية إلحادية فتكون متناقضة لما يدعى ويقول ، فيقع غيا نهى عنه ، ويسقط كلامه من أصله إذ تكون دعايته ملتوية مفسوشة ليست على وجهها

وجعلهم شرأ من جميع أهل الأرض ، فكيف يقول هذا القول ويدعى هذه الدعوى ويزعم قائلا ، انهم أقرب الى الله من أهل الغرب وأكثر إيمانا به وأناى عن ركوب معاصيه واقتحام محارمه ، وهذا لا ريب فيه ، وهذه هى عادته فى الحبائث والتناقض وإلقاء الدعاوى مجازفة بدون تقدير وحساب ، والاسترسال معه فى كل خباثته التى يبتها فى كتبه أمر يطول ويضيع الوقت بدون فائدة كبرى ، بل حسينا أن ننبه على أصول كلامه وبخاصة ما يتعلق بأصل الدين ، فان هذا المجنون المأفون قد ذهب به غروره الى حد لم يصل اليه أحد مثله ، ويكفيك ما ذكرناه من جعله كتابه بمنزلة القرآن العزيز فى الوصف على ما أوصحناه ، ولم يرد الله أن أطلع على هذه المقدمة الملوثة بهذه النجاسات قبل أن أطلع على أغلاله الخبيثة والا لينا له جنونه وغروره فيها نصب عينه

ولقد كان ظهور مقدمته هذه وإعراض كثير من الناس عنها وسكوت الآخرين عما جاء فيها من الأسباب التى دفعته الى تأليف هذا الكتاب على هذا الصنيع الفظيع ، اذ ظن أن خداعه فيه سيقبل كما قبل خداعه فيها ونفاقه ، وهو انما وضعها تجربة لهذا الكتاب ومقدمة له ، إذ من أبطال الباطل أن تجعل مقدمة للصراع الذى هو رد على الرافضى ، فانه لا مناسبة بينها وبينه مطلقا ، ولم يتكلم على الرافضة فيها بشيء ، ومن تدبرها علم يقينا أنها مقدمة لهذه الأغلال ، وقد أعجب بها كعادته فى نبذه الأولى حتى ذهب يكتب تحت عنوانها ما نصه ، وأنا أرجو كل مصاب بمرض الضعف أو مرض اليأس أو مرض الركود والجود وكل من ليس معدا للسير معنا فى هذه السبيل الشاقة أن لا يكلف نفسه قراءتها ، هكذا ادعى هذا الاحق . يكتب ما يكتب فى شتم الاسلام وسبه ويفعل ما يفعل ويحكم على كل من يخالفه أنه جاهل جامد مريض ، فهو لم يترك نبذة واحدة كتبها من أن ينبه القارئ على مدى غروره

فيها ، وقد بينا فيما سبق ما كتبه على نيذه الأولى ، فهو لا يكتفى بعرض نظره وتحكيم عقول العقلاء فيه ، بل يفرض قبول قوله وكتابه قبل قراءته والاطلاع عليه

العلم للرجل اللبيب زيادة ونقيصة للأحمق الطياش
مثل النهار يزيد أبصار الورى نورا ويعمي أعين الخفاش

فصل

ثم قال : والآيات التي استدلوا بها والتي يمكن أن يستدلوا بها هي قوله في سورة البقرة ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ ثم قوله من آل عمران ﴿ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وبأموأ بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ﴾ ثم قوله من سورة المائدة ﴿ كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ﴾ ثم قوله في الأعراف ﴿ واذ تأذن ربك ليعثن عليهم الى يوم القيمة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم ، وقطعناهم في الارض أما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ﴾ انتهى

هكذا ساق هذه الآيات مدعيا أن المسلمين يحتجون بها على ما ذكره . ثم أخذ يحرفها كعادته فقال :

« وقد حسبوا أن هذه الآيات قواطع في أن اليهود لن تقوم لهم دولة ولن تكون لهم صولة ،

فيقال : قد كذب في دعواه على المسلمين بأنهم حسبوا أن هذه الآيات تفيد بأنه لن يكون لهم صولة ، فان الصولة لا تنافي الذلة والمسكنة ، فقد يصل الفرد أو الشعب لما هو فيه من الذلة والمسكنة فيكون ذلك سببا في ضعفه أو في ارتكاسه في شقائه وذلته ومسكنته ، فادخال الصولة هنا بهت ظاهر

أما الدولة فإن أراد أنهم يدعون أنه لن يكون لهم دولة متحدة مربوطة بحبل من الناس غير مسئولية على دولة غيرها فهذا لم يدعه المسلمون ، والآيات ليست نصا في نفيه بالدلالة القطعية ، فإن الله يقول ﴿ لا يحبل من الله وحبل من الناس ﴾ ^(١) وأما أن يريد أنهم يدعون أنه لن يكون لهم دولة مستقلة استقلالا تاما على أساس صحيح كغيرها من الدول الحقيقية بدون حبل من الناس فهذا حق ولم يأت ما ينقضه ، ولم يقل أحد من المسلمين ممن يعتد بقوله أن الناس إذا فرطوا في دينهم واحتقروه لا يمكن أن يتقدم عليهم اليهود ولن يقاتلوهم على أوطانهم حتى يكون لهم دولة ، فإن هذا مخالف لسنة الله التي قد خلت في عباده

ثم قال « ولكن هذا غير صحيح ، لا بالنظر الى سنة الله ، ولا بالنظر الى كتاب الله . أما سنة الله فإنها قد علمتنا بأن من أخذ بأسباب الملك ناله ، واليهود من أعمال الناس اليوم لهذا الغرض ومن آخذهم بالاسباب ، أما قتلهم فليست بممانعة من ذلك ، فإن هنالك شعوبا أقل منهم عديدا ومع قتلهم ملكوا واستعمروا شعوبا كبيرة ، والمستقبل في هذا العصر ليس للعدد وإنما هو للعلم ، فإن الحروب اليوم وغيرها ، من الوسائل التي يستولى بها على الحياة ، عليه ،

قلت : قوله « لا بالنظر الى سنة الله ، ولا بالنظر الى كتاب الله » يفهم منه أنه ليس بينهما تلازم ، وهذا خطأ تقدم الكلام عليه . ثم يقال له : ان

(١) ولا شك أن هذه الجرثومة المزعومة مربوطة بحبال متوترة من الناس ، ولولا هذه الحبال لم تستقم ساعة واحدة ، ولا بد أن تنقطع هذه الحبال يوما من الأيام . فليفرض الانسان أن هذه الدول الطاغية الظالمة نقلت حيوانات غير انسانية كالقروود مثلا وفرضتها حكومة بالقوة والضغط والقهر لمصالحها الخاصة ، فهل تخرج هذه الحيوانات عن حقيقتها ومنزلتها وطبيعتها في نفس الأمر ، وهل يغير هذا الفعل ما حكم به على هذه الحيوانات طبعها وشرعا وقدرًا

كانت سنة الله علمتك هذا فلا نسلم بأن اليهود آخذون بهذه السنة ، فان معهم من الخصال الخبيثة الممقوتة ما يقضى على ما معهم من الأعمال الأخرى المادية ، ومعلوم أن الأخلاق هي الأصل ، ولم تزل حكومة قط تقدما إلا بقدر أخلاقها القوية وانسجامها مع أسبابها المادية . أما إذا فسدت الأخلاق فلا بد من انهارها ، واليهود ليس معهم من الأسباب غير الثراء المادى ، وهذا السبب لم يزل معهم من قديم ولم ينسألوا به ما طلبوا منذ قرون طويلة ، فلو كان كافيا لحصلوا به ما اجتهدوا في طلبه من قديم . ثم إن سنة الله في كل من تخلق بخلق اليهود أنه لا بد أن يضرب بالذلة والمسكنة ، فانك لا تكاد تجد أكثر في الخبث والشر والظلم والانانية والحقد والحسد والتهاك على الدنيا من اليهود ، وسنة الله فيمن هذا طبعه أن يضرب بالذلة والمسكنة ، وأكثر النفاق والخبث والمكر والزندقة وأمثال ذلك مستمد منهم ، ولهذا شاركهم في ذهم واضطهادهم كل من شاركهم في خصالهم ، فان الحكم يدور مع علمه ، وهذه العلل هي علل البلاء والشقاء منذ كانت الدنيا ، وأكثر الناس يعرف الفرق بين اليهودى والمسيحى في الطبع والخلق ، وقد استطاع كثير من المسلمين ان يعيشوا مع النصرى ، بخلاف اليهود فلا يمكن أن يعيش تحت سيطرتهم من فيه أدنى حياة معنوية ، الا أن يكون قد أصابه من البلاء مثل ما أصابهم ، ولهذا لما حصل لهم أدنى شيء بما أرادوا فعلوا من الوحشية والفظائع والندالة ما لم تقبله أخبث أمة على وجه الأرض ، فكيف لو وجدوا لهم متنفسا وفضاء واسعا ينفثون فيه سمومهم وخبائثهم المضغوطة من قديم

وأما قلتهم فنعم هي من أعظم الموانع ، ليست هي المانع كله ^(١) . وقولك « فان هناك شعوبا أقل منهم عديدا ، ومع قلتهم ملكوا ، بل واستعمروا

(١) وأنت إنما احتججت على انهزام ألمانيا بقلتها وقلة قوتها عن غيرها

شعوبا كثيرة ، يقال أولا : هذا نادر جدا ، وفيمن ليسوا على دين صحيح ،
وانما يوجد مثل هذا غالبا فيمن كانوا على دين صحيح كالعرب في أول الاسلام
وبنى اسرائيل حين هلاك فرعون ، وأمثال هؤلاء وهؤلاء انما يتقدمون
بالاخلاق الدينية الصحيحة لا بغيرها

ويقال ثانيا : ان هذه الدول التي وجدت بهذه الصفة ليس فيها دولة واحدة
متخلقة بأخلاق اليهود ولا بالاحاد المحض ، فلا يوجد دولة صغيرة استولت
على شعوب كبيرة وتلك الدولة ملحدة لاحادا صريحا أو كانت يهودية ، وتلك
الشعوب متدينة ولو بأديان فاسدة

ويقال ثالثا : من المعلوم أن هذه الدول الصغيرة التي توجد في النادر قد
استعمرت شعوبا كبيرة هي (اى هذه الدول) في أمورها الصناعية والتجارية
دون اليهود في ذلك (كهولاندة) ومع ذلك فقد استحصلت على هذا التقدم
مع أن اليهود أعرف منهم بهذه الأسباب منذ آلاف السنين ، وقد بذلوا أقصى
ما لديهم ولم يستحصلوا على شيء من ذلك ، وكلما أرادوا أن يخرجوا من غم
أعيدوا فيه . فلم بهذا أن سنة الله التي ينال بها سعة الملك والاستقلال التام
والتقدم لم تأخذ بها اليهود ، وإنما اعجبوك وملأوا عينك لأنك شابهتهم في
أخلاقهم الخبيثة ، وفي المثل شبيه الشيء منجذب اليه

واما قولك « والمستقبل في هذا العصر ليس للعدد وانما هو للعلم »

يقال : لكن الشأن في تحقيق هذا . فقد بينا اننا لا نسلم أن ما معهم من
العلم الصحيح النافع هو ما به يحصل التقدم والاستقلال التام ، بل الذي معهم من
العلم مغمور بما معهم من الجهل والظلم والخبث وغير ذلك من الأخلاق الويلة
ثم قال « وأما كتاب الله فان هذه الآيات ليست صريحة في صدق هذه
الدعوى : أما ﴿ ضربت عليهم الذلة ﴾ في الآيات كلها فان الذلة عند أكثر

المفسرين هي الجزية ، فيكون تفسير هذه اللفظة أن الجزية قد فرضت وقت نزول القرآن على اليهود ، وفرضها عليهم في وقت من الأوقات لا يلزمه أن تكون مفروضة عليهم كل الأوقات ، بدليل أنها الآن مرفوعة عنهم مع صدق القرآن بأنها قد ضربت عليهم ،

قلت : دعواه أن الذلة هي الجزية عند أكثر المفسرين دعوى غير صحيحة ، بل ذلك عند بعض المفسرين ، والأكثر على خلاف ذلك ، وهو قول مرجوح ، فأكثر المفسرين على أن المراد بذلك الذل والهوان كما رجحه البغوى ، أى أن الذل والهوان مضروب عليهم . قال البغوى : وضربت عليهم جعلت عليهم وألزموا الذلة والهوان . وقيل الجزية . انتهى . ومن فسرهما بالجزية فلا ينافي تفسيره ما ذكر البغوى ، لأن السلف كثيرا ما يفسرون الشيء بآلزامه أو ببعض لوازمه ، وانتفاء بعض اللوازم لا ينفي وجود الملزوم . وأيضا فلو كان المراد بذلك الجزية لم يختص بها اليهود ، وهى مقرونة بقتل الأنبياء الصادر من اليهود ، كما أنها فى سياق الكلام فيهم ، فإن النصارى والمجوس تؤخذ منهم الجزية ولم يذكر عنهم قتل الأنبياء ، كما أنه لم يذكر عنهم كل ما ذكر عن اليهود من الأخلاق الأخرى ، وهى التحريف وأكل السحت والتسمع للكذب وأمثال ذلك ، ومن العجب قوله : أن الجزية قد فرضت وقت نزول القرآن على اليهود ، وفرضها عليهم فى وقت من الأوقات لا يلزمه أن تكون مفروضة عليهم كل الأوقات بدليل أنها الآن مرفوعة عنهم مع صدق القرآن بأنها قد ضربت عليهم ،

فأكثر التلبيس فى هذه الجملة ، فانه عبر عن الضرب بالفرض أول الجملة ثم قال آخرها مع صدق القرآن بأنها قد ضربت عليهم ، والمقام يقتضى التعبير إما بالضرب وإما بالفرض فى هذه المواضع ، فلو قال مع صدق القرآن بأنها قد فرضت عليهم لطابق التعبير الأول ، ولكنه قصد المغالطة وتعمية الحق .

ثم انه ذكر أنه لا يلزم من فرضها وقت نزول القرآن أن تكون مفروضة عليهم دائماً ، فجعل فرض الجزية ليس دائماً عليهم ، وهذا مصادم للنص والاجماع .
 وإذا كان يريد أن أخذها اليوم لم يوجد فهذا أقبح وأشنع ، فانه حينئذ يكون معنى الضرب هو معنى الفرض ، ثم يكون معنى الفرض هو معنى الأخذ ، فيكون ضرب الذلة قد ارتفع عنهم لارتفاع الأخذ ، وهو انما يقصد هذا لكن هاب المجاهرة به دون تلبيس . ثم انه جعل عدم الأخذ يغير الفرض ويغير حكم الله فتكون اليهود على هذا في هذا الوقت غير مضروب عليهم ذلة ولا مسكنة وحكم الله هذا قد بطل ، وهذا من دسائسه الخبيثة

فقد تجاهل ما قد كان يعمله عمدا وباح بسر كان يكتمه

ولو طوب هذا الملحد ببيان الذلة والمسكنة ما هي وما حـدّها ليخرج اليهود منها لم يقدر على ذلك إلا بأن يلجأ الى هذا التلبيس والمراوغة المنكرة ، وهل أظهر من ضرب الذلة والمسكنة على اليهود شيء ، وهل طلبوا الاستقلال وإنشاء وطن قومي لهم ، وبذلوا دماءهم وأموالهم من أجل ذلك إلا بما لا قوه وكبدوه من الاضطهاد الشديد وسوء العذاب في سائر بقاع الأرض ، وقد علم ما عملته حكومات أوروبا في السنين الماضية بل منذ أزمان معهم من التقتيل والطرود والعذاب المتنوع مع كونهم لا يأخذون منهم الجزية على الوجه المعروف ، فعلم أن عدم أخذها لا ينافي ضربها ، كما أن فرضها ليس هو نفس ضرب الذلة فانها مضروبة عليهم منذ آلاف السنين حتى قبل الاسلام ، ولفظ الذلة مبالغة في الذل ، فان الذلة شدة الذل والهوان ، والمسكنة زيادة استكانة وذل أيضا وهوان على وجه أعظم ، ومن ضربه الله بهذا كيف يقال فيه ان معنى ذلك هو أخذ الجزية وأنها الآن مرفوعة عنهم ومع ذلك يقول مع صدق القرآن بانها قد ضربت عليهم . نعم صدق القرآن هو على ما هو عليه ، وهل غلطتهم وعرفت ما هم عليه حتى تنفى عنهم شيئا لم تعلمه . ثم لو قدر أن أحدا

شاركهم في شيء من أخلاقهم فضربت عليه الذلة والمسكنة فإن ذلك لا ينافي ما حكم الله به عليهم ، فليس مساواتهم لمن ساواهم في أخلاقهم رافعا عنهم ضرب الذلة والمسكنة ، كما أنه لو قدر أن أناسا مضروبون بأنواع من الأمراض والأسقام ، وشاركهم في هذه الأمراض أناس آخرون قلوا أو كثروا ، فإن وجود هذه المشاركة لا يكون رافعا عنهم ما بهم من ذلك البلاء الذي أصيبوا به بما قدمت أيديهم ، فصدق القرآن هو على ما هو عليه ، ولو تقدموا زمنا أو فترة قصيرة على وجه الامتحان والاختبار لم يكن ذلك نافيا لضرب الذلة والمسكنة عند كل ذي عقل سليم . وهل أبين من ضرب الذلة والمسكنة عليهم آلاف السنين وهم مشردون مبددون في كل مكان ، وقد عجزوا غاية العجز طوال هذه المدة فلم يستحصلوا على وجود أرض تقوم بحاجتهم ويستقيمون بها ويستقلون فيها استقلالاً تاماً هادئاً كغيرهم على ما معهم من المعرفة والبراعة في التجارة والصناعة والتفوق في كثير من وسائل الحياة المادية ، وهذه خاصة لم توجد في غيرهم من سائر البشر ، وكيف تعادل هذه اللحظة القليلة المضطربة آلاف السنين التي ذاقوا فيها أنواع العذاب والبلاء والشقاء ، ولكن القلوب السخيفة ضعيفة التصور سريعة الانقلاب لضعف إيمانها وإدراكها

ثم قال : « وإذا قدر أن المراد بالذلة في الآيات هو المعنى الأول السابق إلى الأفهام لم يلزم منه صدق هذا الوهم ، وذلك لأن إخبار القرآن بأن اليهود أذلة في وقت نزوله لا يقتضي أن يبقوا أبد الأبدين كذلك ،

فيقال : هذا بهت وكذب على القرآن ، فانه لم يخبر بأنهم أذلة في وقت نزوله ، بل أخبر بأن الذلة والمسكنة مضروبة على اليهود ، وهذا بمثابة الحكم عليهم بالذلة والمسكنة الدائمة ، فهذا الإطلاق الصريح لا يجوز تقييده بوقت نزوله ، وليس لأحد أن يقيد ما أطلقه الله ، وليس في النصوص أن هذا الخاص بوقت دون وقت ، وقد قال هذا المغرور فيما تقدم انه لا يجوز تقييد ما أطلقه

الله ، ثم هنا قيده بوقت نزول القرآن ونفى استمرار ضرب الذلة والمسكنة ، وهذه محاماة صريحة عنهم حشره الله تحت أقدامهم . ومعلوم أن قضاء الله السكوني لا يبدل ولا يغير ، فانه من سنته التي لا تبدل لها ولا تحويل ، وهذا هو الواقع ، والله سبحانه قد ضرب عليهم الذلة والمسكنة بسبب أخلاقهم التي حذر عنها ، وأخبر مع ذلك بحلول الغضب عليهم حيث قال ﴿ وبأموا بغضب من الله ﴾ فما دامت تلك الأخلاق ملازمة لهم وغضبه تعالى ملازم لهم فلا شك أن ضرب الذلة والمسكنة ملازم لهم ، فلا يمكن دعوى رفع هذه الصفات عنهم ما داموا على يهوديتهم وأخلاقهم ، كما لا يمكن دعوى رفع الغضب عنهم وهم كذلك ، لأن هذه كلها من آثار ذلك الغضب الذي سببه هذه الأخلاق فهذا الأثر تابع لذلك المؤثر ، بل كلما اشتدت هذه الخصال واستحكمت فيهم ازدادت مقتضياتها ، وهم قد ازدادوا في الإيغال في تلك الأخلاق ، بل سلك كثير منهم مسلك الملاحدة زيادة على ما فيهم من تلك الخصال الخبيثة ، فكيف يقال انه لا يقتضى أن يبقوا أبد الآبدين أذلة ، فهل هذا إلا معاكسة للنصوص

ثم يقال لهذا المغرور : لماذا خصصت وقت نزول القرآن بالذلة دون غيره ، ونفيت استمرارها عليهم أبد الآبدين ، ومعلوم أنهم مستمررون على يهوديتهم ، بل وقد ضموا اليها أخبث منها من خصال النفاق والإلحاد ، فهل ترى إلحادهم وزيادة النفاق الخبيث يرفع عنهم ضرب الذلة والمسكنة ، أم تريد أنهم في وقت نزوله أعظم في الكفر من هذا الزمان ، أم تريد غير ذلك ، فلا بد من بيان العلة النافية لعدم تاييد الذلة والمسكنة ، وإنما خفيت الذلة والمسكنة فيهم في هذه السنوات الأخيرة عند بعض الناس لأن هؤلاء لم يعرفوا معنى الذلة والمسكنة الحقيقي ، ولأنهم لما كان لهم صولة على بعض من فرط في دينه تمحيصا وامتحانا ، وحصل ما حصل من تأييد بعض الحكومات الكبرى لهم لأغراض سياسية قد دفع اليهود ثمنها نقدا وهم مهددون بعواقبها الوخيمة ظن

بعض الناس أن ذلك ينفي أو يخفف عنهم ضرب الذلة والمسكنة وليس الأمر كذلك ، فمن سبر حالتهم وتحقق أمرهم وعلم ما أصابهم في كل الأزمنة المتتابعة ثم رأى حبوط أعمالهم وآمالهم وفشلها علم معنى الذلة والمسكنة التي ضربت عليهم وألزموها . وقد كتب العلماء على اختلاف مذاهبهم في أمر اليهود كلاما كثيرا ، وبينوا كيف كانت معاملة الشعوب الأوربية والأمريكية وغيرها لهم واحتقارهم واضطهادهم قديما وحديثا بما لا يتسع هذا الموضع لنقله^(١)

ثم قال : « وما من أمة إلا وقد مرت بها عصور ذلة وضعف ، مهما كانت اليوم عزيزة منيعة »

فيقال : لكن هذه الامم التي بهذه الصفة أى التي تقدمت بعد تأخرها أو كانت عزيزة بعد ذلها وضعفها ليس فيها أمة واحدة أخبرنا الله عنها بأنه ضرب عليها الذلة والمسكنة حتى يصح القياس ، فان هذا النص فارق بينها وبين غيرها ، فلا بد من ظهور أثره وصدق دلالاته

ثم قال : وفي الكتاب ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأتم أذلة ﴾

فيقال : هذا من مهازل الاحتجاج ، فان هذا الاحتجاج عكس صريح للحجة ومدلولها ، فان الله تعالى أخبر أنه نصر هؤلاء بعد أن كانوا أذلة ، فأخبر أنه أعطاهم نصرا بعد ذل ، فأين هذا عن أخبر الله عنهم بأنه ضرب عليهم الذلة والمسكنة ، وأنه سيبيعث عليهم الى يوم القيمة من يسومهم سوء العذاب ، فهو سبحانه أخبر عن نصر وقع بعد ذل فقد زال الذل وحصل العز ، وهذا بخلاف من أخبر عنهم بأنه ضرب عليهم الذلة والمسكنة ، وأنهم

(١) نقل الهلال عدد ١٠٣ شعبان سنة ١٣٦٧ مقالا طويلا عميقا لبعض الباحثين المطلعين ، وبين فيه كيف كانت معاملة سائر الملوك لهم ، تلك المعاملة السيئة الى اليوم . وأمثال هذا كثير جدا

بأموا بغضب من الله ، وأنهم كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ، فمن قاس هذا على هذا فهو مصاب في دينه وعقله ، كما أن من قاس اليهود على الصحابة فهو كذلك

ثم قال : « وكل الناس يعلمون اليوم أن الذلة ^(١) مضروبة على المسلمين على أوسع نطاق وأحكمه ، ولكن لا يمكن الزعم بانهم سيقون أذلة أبدا »

فيقال : عن هذا أجوبة أحدها أن قولك « وكل الناس يعلمون ، كذب واضح ، فهذا لا يعلمه من الناس إلا أنت أو من هو على رأيك ، وكيف يعلم عاقل أن المسلمين الذين يستحقون أن يكونوا مسلمين مثل اليهود في ضرب الذلة والمسكنة ، فدعواك أن المسلمين مضروبة عليهم الذلة دعوى مضروب بها وجهك ، لأن ذلك مكابرة في الحسيات ومباهة في الضروريات . أين أمة مشرّدة مبددة في العالم قد خسرت دماءها وأموالها منذ مئات السنين في الاستحصال على أقل موضع تثبت فيه أقدامها وتلجأ إليه من بلائها وشقائها فلم تحصل على ذلك على ما أرادت وتمنت ، بعد أن تعلقت بحبال طويلة مختلفة من الناس - من حكومات عظيمة ذات سيادة وجاه خطير ومكان مرموق وممالك قائمة على أسسها القوية ومستقل أكثرها استقلالاً تاماً ، وعدم وجود استقلال تام في بعض حكوماتها لا يقتضى أن يطبق عليها ضرب الذلة والمسكنة ، فما هي الدول التي لم تحالف دولا أخرى وتضطر إلى مساعدتها ماديا ومعنويا ، فقياس اليهود على المسلمين قياس في نهاية السقوط

(١) لا ندرى لم اقتصر على الذلة دون المسكنة ، ولا ندرى كيف عبر عن الضعف في كل هذا البحث بالذلة ، فهو لا يفرق بين الضعف والذلة ، فكل ضعيف عنده مضروب بالذلة بناء على اعتقاده في أن المادة هي أساس القوة بل هي القوة كلها ، والا فكل عاقل يعرف أنه ليس كل ضعف ذلة ، فالذلة شيء والضعف شيء آخر ، فكم من قوى مضروب بالذلة وكم من ضعيف على غاية من العزة

الجواب الثاني أن دعوى المدعى أن الذلة والمسكنة مضروبة على المسلمين بأوسع نطاق وأحكمه دعوى يستحق قائلها أن يصاحبه ويطالب بتحقيق هذه الدعوى وبيان الأمور التي بها ساووا اليهود حتى استحقوا أن يوصفوا جميعا بما وصف الله به اليهود ، بل هذا القائل جعلهم أدنى حالا من اليهود في ضربه الذلة ، لأنه ادعى أن ذلك على أوسع نطاق وأحكمه ، ولم نعلم أحدا من الزنادقة قبل هذا ادعى أن المسلمين كاليهود قد ضربت عليهم الذلة ، ولو كان لهذا مسكة من عقل أو حياء لم يتكلم بهذا الهراء الذي لا يخفى فسادة إلا على أشباه الانعام

الجواب الثالث أن ما يوجد في بعض البلاد التي تدعى الاسلام من الاضطهاد وضغط العدو ليس موجودا في كل بلدان المسلمين ، فكيف ساغ له أن يطلق على المسلمين الحكم بضرب الذلة عليهم بأوسع نطاق وأحكمه مع شناعة هذا الاطلاق وفيهم حكومات مستقلة استقلالاً حقيقياً من جميع الوجوه ولها من السيادة والعز والتقدم ما ساوت به كثيرا من الحكومات الأخرى التي يمدحها ويثني عليها ويسبح بحمدها بكل تعظيم واحترام

الجواب الرابع أن ما وجد في بعض البلدان من بعض الضعف والهوان فإن ذلك لما في أهلها من الخصال اليهودية ، وبمقدار ما يوجد في كل حكومة وأمة من الخصال اليهودية - التي هي تحريف الكلم عن مواضعه كتحريف نصوص الصفات عن ظواهرها والخيانة وأكل السحت وفساد الرابطة التي هي من أعظمها التسميع للكذب والكفر بآيات الله بعدم التزام الإيمان بها كالتحاكم إلى الطاغوت ورفض النصوص الشرعية - يكون ضرب الذلة والمسكنة ، ولهذا كانت الرافضة وعباد القبور والجهمية محرقة الصفات أكثر الناس نصيبا من الذلة والمسكنة لأنهم أكثرهم نصيبا من الخصال اليهودية ، ومن كان أبعد منهم من هذه الخصال كان أبعد عن مقتضياتها ، وهذا ظاهر لمن

تأمله ، وذلك لان الله سبحانه لم يضرب على اليهود الذلة والمسكنة من أجل
عنصرهم ونسبهم ، تعالى الله وتقدس عن ذلك ، فانهم هم وغيرهم من حيث
التكاليف الشرعية عند الله سواء ، كما قال تعالى ﴿ ليس بأمانيكم ولا أماني أهل
الكتاب ، من يعمل سوءا يجز به ولا يجدر له من دون الله وليا ولا نصيرا ﴾
وانما ضرب عليهم الذلة والمسكنة من أجل ما اختصوا به من الخصائص التي
اعتادوها وتغلغل في طباعهم وطال عليهم الأمد حتى لزمتهم والتزموها ، فكانت
هذه الطباع السيئة التي ذكرها الله عنهم كما أشرنا إليها هي السبب في ضرب الذلة
والمسكنة وقد حذرنا الله من ذلك وبين أنه فعل بهم ذلك عقوبة لهم على هذه
الخصال كما قال في آخر الآية ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون
الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ وأمثالها من الآيات . فمن
شاركهم في خصالهم هذه وزاحمهم فيها أصيب بالداء الذي أصيبوا به بقدر
مشاركته لهم ، ومن باينهم وتباعد من خصالهم حصل له الوقاية من آثارها
ومعلولاتها التي منها الذلة والمسكنة ، ولهذا قال جل وعلا ﴿ إن الذين آمنوا
والذين هادوا والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا
فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ فأخبر تعالى أن من
آمن منهم وعمل صالحا فهو كغيره من الناس ممن آمن وعمل صالحا فلا خوف
عليهم ولا هم يحزنون ، فهو سبحانه العدل القائم على كل نفس بما كسبت يجازي
كل عامل بعمله لا يظلم مثقال ذرة وإن تكن حسنة بضاعفها ويؤت من لدنه
أجرا عظيما

ثم قال : « واما المسكنة عند أشهر المفسرين فهي الفقر ، والمراد هنا
الفقر القلبي لشدة حبه المال ، وقد قال الشاعر :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

وذلك لأن الغرض من الغنى هو أن يسعد صاحبه لا أن يشقيه ، فإذا لم يسعده كان كالفقر المشقى . وقيل ان المسكنة هي ضرب الجزية ، وقيل الخراج ، وكل هذه التفسيرات لا تنافى أن يكون لهم ملك وأن يكونوا يوما ما خطرا مرهوبا ،

ونحن نقول : وهذه التفسيرات التي ذكرتها لا تنافى ضرب الذلة والمسكنة التي هي الذل والهوان ، لأن هذه من لوازم ذلك ، ولا يتنافى ذلك أن يكونوا يوما ما خطرا مرهوبا على من رفض دين الله أو قصر فيه واستكبر عن اتباع شرعه ورأى قوانين الذين كفروا أهدي من نصوص الدين سيلا ، فمن فعل ذلك فقد تعرض لغضب الله ومقته وعقوبته بأن يسلط عليه من عشق قوانينه ويؤليه ما تولى وأن يضرب بالذلة والمسكنة لأنه اختار ذلك لنفسه باتباع هواه وانقياده لجهله وعماه ، وأما من حافظ على دين الله واعتمد على ربه وبذل ما في وسعه من الأسباب فلن يكون اليهود يوما ما خطرا عليه أبدا بل يكون في حصن حصين عنهم وعن غيرهم ، ﴿ ان الله يدافع عن الذين آمنوا ، ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فمن اتقى واصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا ﴾

ثم قال : اما قوله ﴿ كلما اوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ﴾ فالمراد أن دساتيرهم ومكائدهم التي حاكوها باحكام واستمرار للقضاء على الرسول وعلى دعوته قد أخذها الفشل من كل جانب ، وأنهم هزموا في كل حروبهم التي شبوها يريدون القضاء على الاسلام ، وهذا لا يتنافى أن يكونوا خطرا في المستقبل .

فيقال : أولا من المعلوم أن مكائدهم الأولى التي حاكوها باحكام واستمرار للقضاء على الرسول ﷺ وعلى دعوته إنما مزقت وذهبت كلها ، أدراج الرياح بالأخلاق الدينية ، فكمايدهم هي فيهم والأخلاق الدينية هي هي .

فإنها حقائق لا تتغير في ذاتها وإن تغيرت العوارض الطارئة عليها (١) فهي لم تتغير في نفسها ، فمن حافظ على هذه الأخلاق الدينية قضى على كل مكايدهم ، فإن الحق في ذاته يقهر الباطل في ذاته ، سنة لا تبدل لها ولا تحويل ، ومن أضع هذه الأخلاق أو قصر فيها أو لوثرها بأمور غريبة خبيثة لا تلائمها فقد أضع سلاحه أو أفسده أو قصر في استعماله ، ومن فعل ذلك فقد جرد نفسه من القوة التي بها ظفر على عدوه ، وحينئذ فقد جعل نفسه عرضة لاستيلاء عدوه عليه وقهره وتحكمه فيه

ثانيا : هذه الدعوى حجة عليك ، فإن اليهود ما فعلوا هذه المكايده وحاكوها باستمرار وإحكام إلا لأنهم رأوا كما رأيت أن الأخلاق الدينية لا أثر لها أمام الأسباب المادية ، بل لها نتائج أخرى ، ورأوا أن فيهم الكفاءة الذاتية للقضاء على كل قوة حتى قوة الدين ، ولهذا فانهم بذلوا غاية جهدهم في استعمال أسبابهم وقواهم فيما قصدوه من القضاء على هذا الدين ، غير مكترئين بالرسول ولا بما معه من الأسباب الدينية من الإيمان والتقوى ، ومع ذلك كانت النتيجة عكس ما ظنوه واعتقدوه ، فقضى عليهم جانب الدين والتقوى قضاء حاسما ، وما أغنى عنهم كيدهم شيئا وباءوا بالخيبة والخسران

ويقال ثالثا : هذه الدعوى كالتى قبلها حاصلها أنك تريد أن تجعل جميع ما ورد في اليهود إنما هو في وقت خاص ، أى في وقت نزول القرآن فقط ، وأما بعد ذلك فلن تتناولوه هذه الآيات ، وهذا يقتضى إبطال القرآن كله ، فإن هذا يفتح الباب لكل زنديق فيدعى في كل حجة شرعية ترد عليه أن ذلك خاص بوقت نزول القرآن ، وهذا مسلك قد سلكه كثير من زنادقة هذا العصر ،

(١) لأن الحق في نفسه حق ، والباطل في نفسه باطل ، وإنما تختلف طرقه ، وإلا فهما ضدان متقابلان دائما

وهذا إبطال الدين من أصله . ثم إن مثل هذا التفسير باطل بالبداية ، فإنه تعالى يقول ﴿ كلنا أوقدوا نارا للحرب أطفاها الله ﴾ وهذا يفيد الاستمرار ، قال الشاعر :

أو كلنا وردت عنكاظ قبيلة بعثوا إلى عريفهم يتوسم
مع أن الواقع المتواتر يصدق هذا ، أما كون هذا لا يبنى أن يكون لهم
خطر في المستقبل فقد بينا أن هذا صحيح ، لكن إذا فرط الناس في دينهم ،
واستعاضوا عنه قوانين الغريين ، ورأوا أنها أصلح وأحسن من شريعة رب
العالمين ، وانهمكوا مع ذلك في الفواحش والمنكرات واتباع الشهوات ،
واستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة

ثم قال : « وأما بعث الله عليهم من يعدّهم إلى يوم القيمة فإنه لا ينافي الملك
أيضا ، لأنه إذا كانت لهم دولة وبقيت الحروب بينهم وبين الآخرين مستمرة
فان في هذا أشد أنواع العذاب وأشدّ سوء لهم بالعذاب ، ولا ريب أن
المتحاربين كل منهم يسوم الآخر ويصليه العذاب ،

فيقال : اذن فالصحابة ومن بعدهم من المسلمين من حاربوا الكفار حربا
متواصلا قد بعث الله عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيمة ، فلا فرق
بينهم إذن وبين اليهود ، فليس لليهود في هذا ذم ولا اختصاص ، وهذه قرمطة
ظاهرة ، فان هذا المخرور يحاول بأقصى جهده أن يطبق خصال اليهود وما
ذموا به على المسلمين . وانظر إلى دقة خبثه في حذف سياق الآية وعدم إيرادها
بلفظها كما أورد الآيات التي قبلها لظهور منافاتها لما ادعاه في تفسيرها ، والآية
صريحة في أن هذا العذاب الذي وعدوا به سيبقى مستمرا عليهم إلى يوم القيمة
وكذلك من شابههم ، كما أنها صريحة في هدم جميع ما أوله في حمل الآيات التي
قبلها على زمن الرسول ﷺ خاصة ، وكل مسلم يعلم أن الحروب لم تزل بين
الناس في مشارق الأرض ومغاربها من المسلمين والكافرين وغيرهم ، ولم يدع

أحد أن كل دولة من هذه الدول سيبعث الله عليهم الى يوم القيمة من يسومهم سوء العذاب ، بل هذا الذى ادعاه يقتضى أن البشر كلهم من مسلم وكافر قد بعث الله عليهم من يسومهم سوء العذاب الى يوم القيمة ، لأن الدنيا لا تنفك عن القتال بين الناس ، ولم تزل الحروب متواصلة حلقاتها فى أنحاء الارض ، وهذا كله قرمطة صريحة فى القرآن ، ولهذا أجمع المفسرون على أن المراد بذلك اليهود كما دل عليه سياق الآية ونصها ، قال ابن عباس : تأذن قال ربك . وقال عطاء : حكم ربك . ليعتث عليهم الى يوم القيمة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وأنه لغفور رحيم . قال ابن كثير : « وكان (يعنى موسى) أول من ضرب عليهم الخراج ، ثم كانوا فى قهر الملوك من اليونانيين والكلدانيين ، ثم صاروا الى قهر النصارى واذلالهم إياهم وأخذهم منهم الجزية والخراج ، ثم جاء الإسلام ومحمد ﷺ فكانوا تحت قهره وذمته يؤدون الخراج والجزية ، انتهى . ولكن لما تأخر الاسلام فى السنين الأخيرة وكثرت عبادة القبور وتحريف الصفات وسلوك مذهب الجهمية واستبدل كثير من الناس قوانين النصارى ساط الله عليهم من اختاروا قوانينهم حتى أرهقوهم وأفسدوا أخلاقهم وأذلّوهم عقوبة لهم لينتبهوا ويرجعوا الى أصل دينهم ويعضوا عليه بالتواجد ، فان الدول الاسلامية ولا سيما الأمم العربية لم يقم عزها ومجدها إلا على أساس هذا الدين ، فهو أصلها وقوتها وروحها ، فنتى ضعف ضعفت ومتى قوى قوى ، وهذا بخلاف الأمم الكافرة فانها أمت قامت على أصول أخرى وروح أخرى ، وقد حل بها من العقوبات والمكوارث والنكبات ما هو معروف ، فلا خلاص ولا نجاة إلا بالتمسك بهذا الجبل المتين والسير على ضوء هذا الضياء المستبين

ثم قال : وهذا أيضا لا ينافى أن يكون لهم وطن وأن يجتمعوا وأن يكونوا خطرا على من ربطوا عقولهم بالأوهام ، وأطبقوا أجفانهم على الأحلام ،

فيقال : لا شك أنهم هم وغيرهم خطر عظيم على من نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ، واحتقروه ورأوا أنه ليس فيه كفاية وأن التقوى والصالح حول وضعف ، وأن التمرد على الدين والزندقة والاحاد وتحكيم قوانين أعداء الله رقى وتقدم ودهاء وسياسة ، فمن ربط نفسه بهذه الأغلال فقد استحق المقت والغضب والكال ، ولا شك أن من أخذ أغلال اليهود وأمثال اليهود وجعلها في عنقه ويديه ومكن نفسه من عدوه باحتقاره نصوص الدين وطاعة رب العالمين لا شك أنه قد اختار لنفسه البلاء والشقاء والعناء ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ، إن الله يفعل ما يشاء ﴾

فصل

قال ﴿ فالقرآن لم يقدم لنا صكا فيه الضمان والأمان من خطر هذا الشعب الذكي الغني الماكر ، بل قدم لنا الأوامر الصارمة الصريحة بأن نحذر ونتيقظ ونقف ،

فيقال : لكن أنت لم تقبل الأوامر التي قدمها لنا القرآن ، بل جعلتها آلة ضعف وانحطاط ، وجعلت نتائجها غير نتائج المجد ، بل جعلتها ملهاة وشرا وضللا وظلاما ، والله سبحانه لم يخلقنا عبثا ولم يتركنا سدى ، بل بين لنا غاية البيان الطريق النير الواضح الذي يؤدي إلى السلامة والعز والتقدم والسيادة العظيمة فأبى أكثر الناس إلا كفورا ، أنزل إلينا هذا الكتاب وقال لنا ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون ﴾ وقال ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ﴾ وقال ﴿ يا بني آدم إنا يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ^(١) والذين

(١) وأى ضمان أظهر من هذا الضمان أو أوثق منه ، ﴿ فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾

كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿ فقد بين
الله سبحانه طريق النجاة وطريق القوة والسيادة بأوضح بيان ﴾ (ولله العزة
ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون) أبى الناس أن يقبلوا صك
القرآن قبلوا تماما صادقا مخلصا ، بل أكثرهم كذب وبعضهم شك وارتاب
وقليل صدقوا وعملوا صالحا قال تعالى ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾

لقد أكثر الله من الخس على التمسك بكتابه المبين والوصية بتقواه ،
وضمن لمن فضل ذلك بأن ينصره وأن يؤيده ، ولينصرن الله من ينصره إن
الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة
وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، والله عاقبة الأمور) فهل أوضح من هذا
البيان بيان ، وهل أظهر من هذا البرهان برهان . فكل هذه الأمور لم تقبلها
بل جعلت النهوض كله والتقدم كله فى تعليم المرأة أو فى معرفة نوايس الطبيعة ،
وجعلت الأخلاق الدينية لا دخل لها فى التقدم أصلا

فالصك الذى قدمه لنا القرآن لم تقبله ولم تطب به نفسك ، وإنما قبلت ما
صك الله به وجهك وطمس به بصيرتك من الإلحاد والأفكار التى قررها
الملاحدة وأولياء الشيطان من الكفر بالله ومحاربة أديانه والدائنين بها

ثم قال : وجاءت الأحاديث الصحاح بأن حروبا عظيمة ستضطرم بين
المسلمين واليهود ، وقد يكون فى هذا ما يعطى بأن اليهود قد تكون لهم دولة
وجيوش يحاربون بها ودفاعا عنها (١) ،

فيقال : وقد يكون فى هذا أيضا ما يعطى بأنه قد يكثر فى هذه الأمة آخر
الزمان زنادقة وملاحدة يفسدون الأديان ويعادون أهلها ويدعون الاسلام
نفاقا وخداعا حتى تضعف فى الأمة قوة الدين وتدخلهم الذلة فتقطع فيهم

اليهود فتقع الحرب بينهم وبين المسلمين كما جاء في الحديث الصحيح « بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، وقال « لتبعن سنن من كان قبلكم كذبوا القذبة بالقذبة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : فن ؟ ، ومعلوم أن قوة اليهود في البلاد الشرقية وطمعهم فيها إنما يكون بمقدار ما يحدث من تأخر المسلمين والعرب وضعفهم ، وهذا إنما يقع بقدر ضعفهم بالتمسك بالأخلاق الدينية كما علم ذلك بالاستقرار التام والنصوص الصحيحة المتواترة ، فلا حجة في هذه الدعوى بوجه من الوجوه . ثم الأحاديث الواردة في وقوع القتال بينهم لا تدل إلا على وقوع القتال ، ومعلوم أن القتال يقع بدون وجود دولة بل يقع بين العصابات والأفراد والأحزاب وغيرها

ثم قال « وإن أشد ما يفرعنا وأشد ما حملنا على أن كتبنا هذا الذي كتبنا في هذه المسألة هو أننا نخاف أن نبقى متوهمين أنفسنا وبلادنا بمنجاة من هذا الخطر الخفيف الفاعر فاه اليوم كما كنا نظن أننا بمنجاة من الخطر المسيحي حتى قضى القضاء ، وحينئذ لا يمدى الندم كما لم يمد فيها فرغ منه . وقد لاحظنا أن هذا الغرور - وهو خليق بان يسمى غرورا - مستول على تفكير إخواننا المقصودين بهذا الخطر الذين يكاد يحاط بهم ^(١) فهم يرون أنه لو خلى بينهم وبين اليهود - جامعة اليهود ما جمعت من الأموال والقوات ومن العلم والمكر والدهاء - لكانت الغلبة لهم وإن فقدوا هم كل شيء من هذه الأمور التي من ملكها فهو المنتصر ومن فاتته فلا شيء له ،

فيقال : أنت في الحقيقة لم تكتب شيئا ينفع لا في هذه المسألة ولا غيرها ، وأكثر ما ادعيت ههنا تشنيع ومحاماة عن اليهود فقط ، فقد زدت

(١) كذا بالأصل

الطين بلة ، لأن كلامك هذا تخذيل للمسلمين ، وتعظيم لشأن اليهود ، وتطبيق للنصوص الواردة فيهم على من تقدم منهم في وقت نزول القرآن فقط ، فكأن هؤلاء عندك ليسوا من اليهود ، ولو أنك تريد تنبيه المسلمين وحثهم على العمل الذي يصدر مكايد اليهود عنهم لعرفت الطريق أين هو ، ولم تتجاهل وتكتب ما كتبت ، فكل من له عقل يعرف أن ليس في كلامك هذا أدنى فائدة ، بل هو ضرر محض ، لخاصه بيان كون المسلمين ضعفاء جهلاء مخدوعين مضللين في مقاومة اليهود ومنازعتهم ، لأنهم مجردون من كل قوة ، قد ضربت عليهم الذلة بأوسع نطاق وأحكمه ، وأن اليهود أهل العلم والمكر والدهاء والبراعة الفائقة في كل وسائل الحياة . فأى نفع في هذا ؟ ثم أنك مع هذا عمدت إلى الآيات التي في اليهود وحرقتها عن ظاهرها ومدلولها حتى لم تجعل فيها أدنى ذم لهم فكان حاصل كلامك أن المسلمين أخطأوا غاية الخطأ في منازعة اليهود وقتالهم ، لأنه ليس معهم ما يعتمدون عليه لا شرعا ولا عقلا في مقاومة اليهود ، أما الشرع فقد ادعيت أنه لا دليل لهم على ذلك في هذه الآيات بل هم الذين ضربت عليهم الذلة بأوسع نطاق وأحكمه ، وأما العقل فصرت بأنهم أقوى من المسلمين في جميع وسائل القوة كما يأتي نص كلامك ، فأى تخذيل وإرجاف أظهر من هذا . ثم تشبيك اليهود بالنصارى ضلال آخر قد تقدم الكلام عليه

ودعواك بأن المسلمين يعتقدون أنه لو خلى بينهم وبين اليهود لكانت الغلبة عليهم بكل حال - ولو لم يعمل المسلمون - فجور فوق فجور لا يستريب فيه عاقل فان كنت تريد بالمسلمين بعض العامة فهذا تليس ولا حجة لك فيه وإن كنت تريد به العلماء وأئمة الدين ومن يعتد بقوله فهذا بهت ظاهر لا يخفى إلا على أشباه الأنعام

ثم قال : وما يجب الالتفات إليه ههنا أنه لا يحسن منا أن نحكم بأن

القرآن قد جهر بأن اليهود لن يكون لهم ملك في عصر من العصور ، فأننا لو حكمنا هذا الحكم ثم أبطلت الأيام حكمنا هذا لحسينا أن يكون في ذلك شيء من توجيه الاتهام الى القرآن ونصوصه وقضاياه ،

فيقال : يا مسكين إننا لو حكمنا هذا الحكم الذي تدعيه لم يكن هذا حكما من القرآن ، فان القرآن لم يحكم به نصا ، وما كان ربك نسيا ، بل إنما يكون هذا - لو حكمنا به - حكما بما يفهمه بعضنا من القرآن لا أنه نص صريح منه ، فان النص هو ضرب الذلة والمسكنة عليهم إلا بحبل من الله وحبل من الناس الى آخر الآيات المتقدمة ، وهذه النصوص هي على ما هي عليه ، ومدلولها واضح كالشمس ، فاذا قدر أن أحدا شارك اليهود في خصالهم فأنكر صفات الرب وحرفها وسماها حوادث ثم قال هو منزه عن الحوادث وسماها أغراضا وأغراضا وقال هو منزّه عن الأغراض والأغراض فتحيل على نفيها بقلب أسمائها ، وتحاكم الى الطاغوت وادعى أن الذين كفروا أهدى من الذين آمنوا سيلا واستكبر عن عبادة الله وطاعته ورآها ضعفا وأغلا لا ، وأمثال ذلك من خصالهم الخبيثة - فن شاركهم في هذه الخصال أو أكثرها فتقدموا عليه أو انتصروا عليه فأنما ذلك لمشاركته ومزاحمته لهم في أخلاقهم وأغلا لهم التي استحقوا من أجلها ضرب الذلة والمسكنة ، فلا بد حينئذ أن يصيبه ما أصابهم فيضرب بالذلة والمسكنة كما تقدم تقرير هذا ، فانه تعالى أخبرنا بأفعالهم ، ثم أخبرنا بما عاقبهم به من أجل هذه الأفعال ، لئلا نتخذى حذوهم وننشبهم بهم ، فاذا قدر أن بعضا من يدعى الاسلام قد ضربت عليه ذلة ومسكنة فذلك من جراء أفعاله التي هي من مقتضيات الذلة والمسكنة ، وفي حديث ثوبان عن النبي ﷺ قال : يوشك الأمم أن تتداعى عليكم كما تتداعى الأكلة الى قصعتها . فقال قائل : فن قلّة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، وليسزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ،

وليقذف في قلوبكم الوهن . قال قائل : وما الوهن . قال : حب الدنيا وكرهه الموت ^(١) . وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : لتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : فن ؟ . فدل هذا الحديث على أن بعضه عن يدعي الاسلام سيتبع سنن اليهود فيحل به ما حل بهم كما سبق تقريره

ثم لو قدر أن الله سبحانه حكم في القرآن بأنه لن يكون لهم دولة ، فلن يكون لهم دولة أبدا ، فان حكم القرآن لا تغيره الأيام ، لأنه حق ، والحق ثابت لا يتغير ، بل لا بد أن تصدقه الأيام حتما ، أما وجود هذه الجرثومة الخبيثة المزعومة فانه لا يصح أن يطلق عليها « دولة » بالمعنى الصحيح لأمور كثيرة ، فانها آلة صنعها غيرها لنفسه لأغراضه هو ، ولم تصنع هي نفسها على أساس ثابت مستقر ، وقد ربطت استقرارها بحال متعاكسة متخالفة من الناس ، فوجود الاضطراب في متعلق هذه الحبال . ولو أن الذي فعل معها هذا الفعل فعله مع حيوانات أخرى بهذه القوة نفسها لكانت مثلها ، لأنها لم يكن وضعها وضعاً أساسياً عادلاً كسائر الدول الأخرى ، بل هي وسيلة موضوعة لتغيرها ، وستدفع الثمن المطلوب منها مضاعفا عند الحاجة اليه . وينبغي أن يعلم أن وجود مثلها في بعض الأزمات القليلة في ظروف خاصة لا يعد شيئا معتبرا يبنى عليه في مثل هذه الأمور ، ولا يعد تقدما إلا عند الأغبياء ومن لا يعرف من الحقائق شيئا ، فلا يوجه الاتهام إلى القرآن إلا زنديق شك فيه ، أو من في قلبه مرض ، وأما من آمن به إيمانا صادقا مخلصا فلا يمكن أن يتهمه ، بل يتهم نفسه وفهمه ، فالقرآن حق وبرهان لا بد من وجود صدقه ، لكن الزنديق والمنافق يقدر أشياء بفكره وذنه ويلزم بها القرآن

(١) أخرجه أبو داود والبيهقي وغيرهما ، فنأمل هذا الحديث العظيم وطبقه على

حالة الناس تجده مو عين الواقع

فيظن أنها هي مدلوله ومعناه ، ثم يبنى على هذا الظن أمورا ليس لها علاقة بالقرآن ، فإذا جاء الأمر على خلاف ما ظن حصل له ريبة وشك لضعف إيمانه كما قال تعالى ﴿ يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ، وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ وهذا الضرب من الناس هم من قال الله فيهم ﴿ وهو عليهم عمي وأولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ وإلا فالؤمن الصحيح الإيمان الصادق المخلص يعلم حقيقة العلم أن ما أخبر به القرآن والرسول فهو حق على حقيقته ومدلول الحق حق بلا ريب ، فيجب الإيمان بذلك وإن لم تفهمه أو نعقله في بعض الأحيان ، لأننا قد صدقنا وآمننا واعتقدنا بأنه صدق وبرهان ، فإذا رددناه أو شككنا فيه فقد تناقضنا وكذبنا عقولنا التي صدقت به وآمنت به ، إذ من فساد العقل أن نصدق به ثم نكذب مدلوله أو نشك فيه فان هذا تناقض .

فهؤلاء الذين بقوا مذبذبين بين التصديق به تارة والشك فيه أخرى ولم يتهموا لفهامهم التي قد علموا خطأها كثيرا هم قوم لم يؤمنوا حقيقة الإيمان ، بل آمنوا إيمانا مريضا مبنيًا على الشك والريب ، ومن آمن هذا الإيمان المريض المبني على الشك فهو كافر لأنه مراتب في إيمانه فلا يعد إيمانا معتبرا كما قال تعالى ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾ وقال تعالى ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ وحينئذ فلا معنى للاعتذار الذي ادعاه

ويقال أيضا : كلامك على هذه النصوص إن كان تفسيراً صحيحاً حقيقياً فيما ترى وتعتقد فلا حاجة إلى هذا الاعتذار ، فإنه يفهم منه أنك فسرنا الآيات على خلاف ظاهرها وما يفهم منها ، وإن كان تفسيرك هذا لها تحريفاً أو تأويلاً بعيداً لقصد إبعاد التهمة فهذا لا ينفعك شيئاً ، لأن ذلك جرأة على الله وكتابه وهو ضرر محض ، والقرآن حق في نفس الأمر وليس هو محتاجاً إلى أن يصرف عن ظاهره ونصه محاماة عنه ، فإنه في الواقع صدق حق وإن لم يؤمن.

به أحد من البشر ، والله غنى عن العالمين كلهم وعن إيمانهم وعبادتهم ، ولو
كفروا كلهم لم يضروه شيئا

فالحاماة عن القرآن هي إقامة البراهين على ايضاح دلالاته ودفع الشبهات
الباطلة التي ترد عليه ، أما تحريفه وتغيير معناه فهذا لإفساد له لا محاماة عنه ،
فما فعلته اذن هنا فهو ذنب مستقل ، فلا تدفع التهمة بجريمة أقبح منها ، ولكن
سجيتك دائما سجيّة من قيل فيها :

كمطعمة الأيتام من كبد فرجها لك الويل لا تزنى ولا تصدق
هذا هو المناسب لقاعدتك ، فانك بخلت على والدتك الشفيقة الضعيفة
المتألمة على رؤيتك أو كلامك برسالة تتضمن السلام عليها فقط ، وادعيت
أنك مكشّت سنين في معالجة هذه الأفكار التي سجلتها في هذه الأغلال لقصد
ارشاد المسلمين لا اكتساب المجد القومى ، فارتكبت العقوق الذى هو من أكبر
الكبائر وعملت هذه الفضائح التي لا تستر لقصد الشهرة والسمعة ، فما حصلت
على ما قصدته ، ولم تسلم من ذنب ما ارتكبته

فصل

ثم أخذ يتكلم في خطر اليهود وأطال في تعظيم أمرهم وأن لديهم من العلم
والمكر والدهاء والتجارة والصناعة ما ليس عند المسلمين ، وأطال من هذا
الهديان ، ولا غرابة فهم أولياؤه كما قال تعالى في إخوانه ﴿ فترى الذين في قلوبهم
مرض يسارعون فيهم ﴾ وقال تعالى ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا
تخافوهم وخافونى إن كنتم مؤمنين ﴾ قال المفسرون يخوف أولياءه أى يخوفكم
أولياءه ، فاليهود هم أولياء المنافقين في قديم الدهر وحديثه ، ولهذا شاركهم
في ضرب الذلة والمسكنة ، بل كانوا أخط حالا منهم ، وهذا الملاحد نفسه قام
بهذا الدور لتمثيل أخلاق أسلافه الأولين في كل هذه الميادين الخبيثة في

التخذيل والإرجاف والاعتماد على الأسباب المادية والنفور من الأخلاق الدينية وأهلها ومعاداتها ومعاداة أهلها وما كيد الكافرين إلا في ضلال

ثم قال وهو حاصل ما أطال فيه : « نؤمل اليوم ان تحمينا بريطانيا وأمريكا من هذا الغزو المحيط الماحق مع أنها هما الحصان ، إننا نخدع أنفسنا ونضلها حينما نظن أن في حوائلنا - لو تخلت هاتان الدولتان - أن نحمي أنفسنا بقوانا الخاصة من غزو الصهيونية وأخطارها ، فالصهيونيون مسلحون اليوم بأعظم وأحدث القوى العلمية والصناعية والمالية والفكرية والدولية ، أما نحن فنكاد نكون مجردين من كل ذلك ، انتهى كلامه قطع لسانه

فاذن لا حاجة الى منازعة الصهيونية ، لان ذلك ضرب من العبث ، فانهم سيطفرون بما أرادوا لا محالة ، ما داموا كذلك ونحن بهذه الحالة ، ولا سيما وهو قد جعل النصر منوطا بالأسباب المادية ، وهذا ضريح في أنهم سيهزمونا ويتغلبون علينا بلا شك ، إلا إذا تمسكنا واحتفظنا ببقاء الانجليز والامريكان للحماية منهم ، أما إذا تمسكنا بالمحافظة على ديننا وكتاب ربنا فان ذلك لا ينفعنا ، بل له نتائج أخرى هي الملهاة والمصرف الخبيث . وهذا مع كونه معلوم الفساد فهو ينم عن خبث عميق لا يخفى على فطن

فهذه حقيقة حال هذا الذي يدعى أنه يحث على العمل ، فسبحان واهب العقول

وقد تقدم ما علقه السيد قطب على هذه الجملة من كونه يريد أن نحافظ على بقاء هاتين الدولتين حتى نستعد لليهود ، ثم متى نستعد ما داموا هم بهذه الحالة ونحن بالحالة التي وصفها من الضعف والانحطاط

ثم أخذ يتكهن بماذا تفعله بريطانيا في فلسطين إزاء اليهود فقال : « يحسن ان نستطرد هنا وتنبا بما سوف تصنعه وتختاره بريطانيا في هذه القضية - قضية فلسطين والصهيونية : يخيل إلى أن هذه الدولة لن تسمح بحال من

الأحوال بفتح أبواب هذا البلد العربي إطلاقاً لليهود لأمرين اثنين : أحدهما خشيتها من اليهود في المستقبل ،

ثم أطال في التخرص بما قد أبطلته وكذبتة الأيام . وذكر الأمر الثاني وهو كالأول ، وحاصله أن الإنجليز تخشى أن اليهود تقوى في فلسطين حتى تكون خطراً عليهم هم ، فلاجل هذا فهم لا يسمحون بإطلاق فلسطين لليهود . ثم قال في حاصل كلامه « من أجل ما ذكر ، ومن أجل غيره أيضاً ، فأننا نرجح أن السياسة الانجليزية ستختار الوقوف من الوطن اليهودي في فلسطين موقف الممانع المعارض على رغم ما يبدو من مناوراتها ومداوراتها ، انتهى

قلت : قد أسفرت الأيام عن غير ما تنبأ به تماماً ، فإنه لم يتنبأ بأن الانجليز ستلغى انتدابها وتسحب عن فلسطين وتترك حبليها على غاربها تأييداً لليهود لمساعدة للعرب ، فقد أخلف الله ظنه وأبطل ما تنبأ به ، ولو جاء الأمر على وفق ما تنبأ به لطقق وصفق زهوا وإعجاباً وطار فرحاً وعد ذلك من معجزات حقائقه الأزلية الأبدية

إذا تبين لك ما ذكره في مسألة فلسطين وأنه لم يأت بتحقيق مقبول بل أتى بسخف وهذيان مردول ، فليس لنا حاجة في الإطناب في تحليل هذه المسألة لان الكلام فيها كثير قد تناولته أقلام العلماء والكتاب وأحاط به القراء على اختلاف أصنافهم ، وإنما الذي يهمنا هنا هو ما يتعلق بأصل المسألة من الناحية الدينية ، وبالأخص ما يتعلق بالآيات التي حرفها ونفى عن اليهود الذم الشديد فيها وبالغ في تعظيم أمرهم كما بالغ في تحقير المسلمين وتحقير شأنهم وما في تضاعيف ذلك من الدسائس الخبيثة . وقد تقدم الكلام في التنبيه على وجوب الأخذ بالأسباب القوية الدينية والدينية وأخذ الحيلة التامة والاستعداد لمكافحة اليهود . وان الذي يجب اعتقاده في هذه القضية وهو السبيل الوحيدة التي لا سبيل سواها للنصر والعز والتقدم وإخفاق مكائد العدو هو التمسك

ما حصل الدين والتمسك بالأخلاق الدينية السلفية القوية وهي إيمانها ومقتضاها
تجبر للأخذ بالأسباب المادية ، فإن الله سبحانه وعده من آمن به واتقاه النصر
والتمكين والعز والتوفيق في الدنيا والآخرة ، وتوعده من خالف أمره واستكبر
عن طاعته بالذل والشقاء والخذلان وسوء العاقبة في الدنيا والآخرة وما حصل
الذى حصل من هذه الفتنة اليهودية في هذا الوطن العربي إلا بعد أن ضعف
أمر الدين في ذلك الوطن وفي غيره ، ورغب الناس عن العمل بالكتاب
العزیز والسنة المطهرة ، وافتن أكثرهم بالتقاليد الغربية التي لا تمت إلى
الاسلام بصلة وسحروا بها وظنوا أنها ستوصلهم إلى آمالهم المطلوبة فأراهم الله
كيف كانت آثارها وعواقبها تأديبا لهم ليعتبروا وينتفوا عما هم فيه ، وإلا
فمعلوم أن هؤلاء الدخلاء الخبثاء الذين لفظتهم الأرض من كل جوانبها ما
دخلوا عليهم وأفسدوا ما أفسدوا إلا بعد أن حرصوا هم وأعوانهم على أن
يدخلوا على عقولهم وأفكارهم وعقائدهم ما يفسدها ويميت حياتها المعنوية
فما حلت أجسامهم وصورهم الحيثة بهذا الوطن إلا بعد أن تبوأ أفكارهم
وأخلاقهم وأنظمتهم مكانها في ربوعه ، فتجب مجاهدة أفكارهم وأخلاقهم
المعنوية كما تجب مجاهدة صورهم وأجسامهم المادية ، فليس ضرر أخلاقهم بأقل
من ضرر أجسامهم ، أما من يريد أن يفرق بين الأخلاق والأجسام فقد طلب
حالا لا يكون ، وطمع فيما هو مستحيل الحصول

فصل

ثم عاد فأخذ في تكرار أصله الحديث الذي يدور عليه في نوااميس الطبيعة
وقوانينها ، وجعل ذلك هو مناط جميع الحوادث العالمية ، وقد اجترأ على
المقام الاقدس فجعله تعالى متخليا عن خليفته قد وكلهم إلى هذه الطبيعة تحكمهم
على أساس التسوية بين المسئء والمحسن بدون نظر إلى أديانهم ومذاهبهم كما

تقدم كلامه ، ومعلوم عند كل مسلم أن من وكل الناس الى الطبيعة المخلوقة العاجزة ، وجعل تقدمهم وتأخرهم محصورا في استخدامهما والتوجه اليهما والاعتماد عليها فقد وكلهم الى أوثان يعبدونها ويطلبون منها العز والنصر والجاه والحياة والرزق وغيره ، وهذا كله مصادم غاية المصادمة لدين الرسل كلهم ، فانه تعالى أسند الإعطاء والمنع والخفض والرفع والعز والذل والنجاة والهلاك إليه وحده ، وأمر باتخاذ الأسباب المادية دون الاعتماد عليها ، بل جعل الاعتماد والتوجه والوثوق اليه تعالى دون خلقه كما قال تعالى ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ، توجّل الليل في النهار وتوجّل النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ وقال تعالى ﴿ وابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ﴾ وقال تعالى ﴿ قل من يرزقكم من السماء والارض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون ﴾ والآيات في ذلك كثيرة جدا فهو سبحانه الذي يدبر جميع أمور الخلق بالأسباب التي وضعها لهم ، فالأسباب طوع إرادته ، وقد أمر باستعمالها ، وهو يفعل بها ، وهو قادر على ان يفعل بغيرها ، لكن هي بكل نتائجها طوع إرادته ومشيئته ، فليس لها من الحق ما يوجب الالتفات اليها ، وإنما تعتبر لأنهم أسباب مقصودة لنتائجها ، وهي مقهورة تحت القدرة الكاملة الربانية

وقد توصل هذا المغرور الى ابطال هذا الاصل العظيم - الذي تدور عليه الأديان من التفريق بين المسلم والكافر والمحسن والمسيء ، وأنه سبحانه يجازي المحسن بالإحسان والمسيء بالسوء ، وهو القائم على كل نفس بما كسبت - بأن سمى هذا الاصل (محاباة) وقد قدمنا تفسير المحاباة في أول هذا البحث ، وأن المحاباة المنكرة الممنوعة شرعا هي إعطاء الخير لمن لا يستحقه ديننا من أجل

إرضاء شخص آخر . ولا شك أن الله سبحانه منزّه عن ذلك ، فهو سبحانه غنيّ عن خلقه . أما مكافأة الانسان على عمله المحسن بالاحسان والمسيء بالسوء فهذا ليس من المحاباة في شيء ولا يسمى محاباة إلا أن يكون ذلك في لغة الزنادقة الذين يريدون إبطال الشرائع ، وإلا فإن هذا شرعا فضل الله يؤتيه من يشاء ، كما قال تعالى ﴿ يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ ولو كان الخلق كلهم سواء في كل شيء لم يتبين قدر الضر من النفع والخير من الشر وتظهر آثار الأسماء الحسنى كالغفو والمغفرة والرحمة ونحو ذلك ، ولم يعرف الكفر من الإيمان والنور من الظلمة والعلم من الجهل ، ولم تظهر هذه المخلوقات العظيمة المتفاوتة من حيوان ونبات وجماد ، ولم تظهر الأخلاق المتفاوتة وآثارها كالصناعات المختلفة وتفاوت العلم فيها ، الى غير ذلك مما لا يعدّ ولا يحصى ، وتفضيل الله بعض الناس على بعض أمر محسوس بالشرع والحس والضرورة ، وانكاره مكابرة في الحسيات ، فإن الناس فيهم القوي والضعيف والغني والفقير والمؤمن والكافر والظالم والعادل والذكي والبليد والحسن والقبيح ، وهذه فروق ظاهرة محسوسة يمتنع أن تكون مستندة الى الطبيعة ، فإن أصول الكائنات وحقايقها هي لا تختلف في ذاتها ، فلو كانت النتائج المتمخضة عنها هي مغلوطة لها وهي علة كاملة لكانت سواء كالدرهم الخارجة من مصنع واحد فإنها لا تختلف لاتحاد المصدر الذي انطبعت فيه ، بخلاف الإخوة ونحوهم الخارجين من رحم واحد وصلب واحد فلا بد من وجود الاختلاف بينهم في الصورة والخلق وتجد الآلاف من البشر لا يتفق منهم اثنان في صورة واحدة وخلق واحد بحيث لا يمكن التمييز بينهم في شيء من ذلك ، فقد جعل الله لكل مخلوق ميزة عن غيره في صورته وفي فعله أيضا ^(١) ثم إننا نرى أناسا

(١) لقد جعل الله لكل جنس ميزة على غيره من أجناس المخلوقات ، ولكل فرد ميزة عن غيره في كل الافراد

كثيرين فيهم بلادة وغبابة عظيمة ويعملون أعمالا دون أعمال الأذكىاء ، ومع ذلك فقد نالوا أكثر مما ناله الأذكىاء . ومن العجب أنك تجد الإنسان في غاية الفطنة والذكاء والدهاء والعقل ثم تجده مع ذلك مطبوعا على قلبه أبدا من الحمار فيما يختص بدينه وتجد آخر دون ذلك في المعرفة والذكاء والفطنة ولكنه على غاية من المعرفة والذكاء في أمر دينه ، وتجد آخر ذكيا للغاية في أشياء خفية بليدا للغاية في أشياء ظاهرة ، وتجد آخر عكسه ، وتجد آخرين أغبياء في أكثر الأمور وآخرين عكسهم فكل مخلوق لا بد أن يناله نصيبه من النقص الطبيعي ، ويكون له نصيب من فيض الرحمة العامة إما في دينه وإما في دنياءه ، وإما في شيء أو أشياء دون أشياء أخرى . وهذا أمر ظاهر لا يخفى فهمه على كثير من الناس ، فاذا كان الاختصاص ظاهرا موجودا بلا ريب في هذه الصور والمظاهر العامة في الأجسام والعقول وآثارها من المعارف والصناعات وغيرها ، فكيف ينكر وجوده في التقدم في الرزق والجاه والنصر والتوفيق وسائر ميادين الحياة

ثم إن هذا المغرور لشدة حرصه على لبس الحق بالباطل خلط المحاباة بالنسب ، وادعى أنه لا محاباة ولا نسب بين الله وبين خلقه ، وهو يعلم أنه ليس في المسلمين من يدعى أن بين الله وبين أحد من خلقه نسبا حتى يتكلف لهذه الدعوى ، وإنما قصد الإيهام بأن المحاباة التي يحاول نفيها من جنس النسب في الشناعة ، فيجب نفيها ، وهو يريد بذلك اختصاص المسلم بالإعانة دون الكافر كما تقدم

قال « والذي نريد أن نقوله هنا أنه لا محاباة ولا نسب بين الله وبين أحد من خلقه ، وقد وضع نواميس وسنن وقوانين تحكم هذا العالم على وفق حكمته العليا وعدله الشامل ، فمن وفق لاستخدام هذه النواميس والسنن والقوانين وسار معها بلا اضطدام ولا خروج فقد نال ما ينبغي ، ومن عارضها وحاول

الخروج عنها فقد هلك ولا محالة ، ولن ينفعه أن يقول انه مسلم وانه يصلي ويصوم ويكثر من ذكر الله بلسانه ،

قلت : هذا هو الذى يريد أن يقول ، ولكن الذى نريد أن نقوله نحن قبل نقض ما ادعاه : ان الله سبحانه هو المنفرد بالتصرف فى خلقه ، المنفرد بتدبير ملكه فى كل أمور السموات والأرض ، وبيده ملكوت كل شيء ، وقد وضع شريعة كاملة كافية كافلة لمن اتبعها وأخذ بها أن لا يضل ولا يشقى ، وخلق هذا العالم على أتقن نظام وأحكمه ، ثم ربط نظامه الكونى بنظامه الدينى وجعل الكونى يدور على مقتضى الدينى ، فهما كنظام واحد ، فمن سار على نظامه الدينى استثمر منافع النظام الكونى ، ووفق اليه والى العمل به ، وقال ما ينبغي عما يمكن فى حقه ، واستحصل على النجاة والنجاح والحياة الصحيحة المستمرة . ومن تمرّد وشمخ بأنفه وأبى إلا المعاكسة والمشاكسة ، فأراد أن يفرق بين نظام الله الدينى ونظامه الكونى ، فيؤمن ببعض ويكفر ببعض ، ويأتى الأمر مقلوبا معكوسا ، ويصادم السنة الربانية لم ينل إلا الخيبة وانعكاس القصد إما عاجلا أو آجلا ، وإلا تمتع قليلا تمتعا منغصا منكدا وجل به البلاء والدمار ولا بد كما هو الواقع

وقد أدخل هذا المغرور فى هذه الجملة من الخبث والكفر الفظيع ما لا يخفى على من عرف حقيقة دين الاسلام ، فقد صرح هنا بأن الله تعالى ليس هو الذى يحكم هذا العالم وإنما يحكمه الإنسان باستخدام نوااميس الطبيعة ، فهو يدبره على مقدار ما معه من المعرفة والملكة ، ولهذا جعل مناط عزه وتقديره ونيله ما ينبغي بهذا الاستخدام ، وجعل عكس ذلك بيده بهذا الاستخدام نفسه ، فأين فعل الله اذن ، وأين مشيئته وإرادته . وهذا صريح الالحاد . وقد سبق ما نقلناه من تصريحه بأن المسادة المولودة عن الطبيعة هى التى تحكم هذه الكائنات الحية ، وهنا صرح بأن النوااميس هى التى تحكم العالم باستخدام

الانسان لها لا بتدبير الله لها ، ولم يستطع أن يقول ان الله هو الذى يحكم العالم بمشيئته وتصرفه فيه وتدييره لهذا النظام الكونى ، بل جعل ذلك بيد الانسان الذى يستخلم هذه النواميس ، ومعلوم أن النواميس هى حركات الكون ، فهو جعلها تسير وتستحصل ثمراتها بمقدرة الانسان ، والله سبحانه قد أخبر بأنه هو الذى يدبر أمر خلقه ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وان الخير كله بيده ، وان الناس لا يشاءون إلا أن يشاء هو ، وهذا المغرور جعل هذا العالم فى غاية القوضى ، فانه اذا كان تحصيل منافعه ومضاره بمجرد استخدام الانسان ، فقد صار عرضة ونهبة بين المخلوقات ، فمن عرف نواميس الطبيعة واستخدمها فى أغراضه فانه يحصل على ما يريد ، ومن عبد الله تعالى وصلى وصام وكان على غاية من التقوى والصلاح لم يحصل له إلا الحية فى هذه الدنيا ، لأن الاخلاق الدينية أشياء أخرى لها نتائج أخرى . ثم من هو الذى يحيط بمعرفة أمور هذا الكون ويقدر على تصريفه على ما يشاء حتى ينال ما يبغي . ومعلوم أن دولا عظيمة من أعرف الناس بالسنن وهم أخسرهم الآن فى هذه الحياة . ولا شك أن من اعتقد هذا أو اغتر به فهو لا يعرف دين الاسلام ، فان هذا القول كله مداره على الاتحاد المحض ، وأن الله تعالى وتقدس - على هذا الزعم - كالوثن بلا فرق ، لأن الأوثان لا تنفع من أطاعها ولا تضر من عصاها ولا تدبر شيئا من أمر هذا الكون . فانظر ما تحت هذه العبارات من الاتحاد الصريح والكفر الذى لا نهاية له

وقوله « فمن وفق لاستخدام هذه النواميس » الى قوله « نال ما يبغي » صريح فى أن استخدام الطبيعة والسير معها ملازم لادراك الغاية ، سواء فى ذلك المحسن والمسيء . وهذا مع كونه كفرا واضحا فهو كذب ، فلم يحصل لأحد من بني آدم لا من أفرادهم ولا من شعوبهم ، فمن هو الذى استخدم نواميس الكون ونال ما يبغي واستمر على ذلك

وقوله « ومن عند هذه النواميس ، الى قوله « هلك ولا محالة ، تأكيد لما قبله في إناطة الحوادث بالطبيعة وتفاعلها . وقد علمت أن هذا الملحد عند النواميس والسنن الدينية معاندة لم يسبق لها نظير ولم يخف الهلاك ، فجعل عبادة الله لا فائدة فيها ، والمساجد أدت شر ما يؤدي ، فصار الخروج عن هذه السنن عنده أمر لا بد منه ، بل هو الواجب المحتوم ، لانه جعله معوقا للبشر كما تقدم . وأما معاندة نواميس الطبيعة عنده والخروج عليها فهو الهلاك لا محالة ، فعلى هذا يجب على الناس أن يعبدوا هذه النواميس ويكفروا بما وراءها ، لانه علق النجاة بالسير معها والهلاك بمخالفتها ، ولهذا صرح فيما يأتي بأن أوربا لم تصعد بالحياة إلا لما جعلت صناعتها هي آلهتها التي وجدتتها وأبت الاشتراك بها ، ولهذا أكد هذا المغزى الخبيث بقوله « ولن ينفعه أن يقول انه مسلم وانه يصلى ويصوم ويكثر من ذكر الله بلسانه » فهذا تأكيد فوق تأكيد بأن طاعة الله وعبادته لا خير فيها فيجب رفضها والانصراف الى معرفة نواميس الطبيعة التي هي مناط العز والذل ، كما ادعى فيما تقدم أن تأخرنا يعود الى شيء واحد هو الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها ، وكل هذه الفروع الطويلة الكثيرة المتدلية منحدرة عن أصل الإلحاد المحض والزندقة التي لا ريب فيها

ثم انه لعظم شقائه اراد أن يؤيد هذه الدعوى الشنيعة بدعوى سخيفة مضحكة وهي قوله « كما أن هذه الأقوال والدعاوى ان تجدى من ذهب يتجدى سنة الله فترك الطعام والشراب والحفاظة على الصحة والحياة زاعما أنه مسلم وأن المسلم معصوم محفوظ منظور من قبل العناية الربانية »

فيقال : هذا التشبيه غير صحيح ، بل هو حجة عليه ، فان من ترك الطعام والشراب فقد خالف سنة الله الدينية والكونية ، لانه فعل فعلا غير مشروع في الدين ، بل ارتكب ذنبا مستقلا ، فيكون مستحقا للهلاك والعقوبة بسبب مخالفة هذه السنة ، فاذا ترك الانسان الأكل والشرب فلا يكون بهذا متبع

للسنن الدينية ، على أن هناك أمرا آخر ، وهو أن الله جعل هذه الأسباب المادية التي منها الأكل والشرب سببا في حياة الجسم المادى ، وجعل ما أنزله من البينات والهدى والرحمة والبصائر سببا لحياة القلوب والنفوس واستقامتها ، فنسبة هذه الأمور الغذائية للأجسام المادية كنسبة هذه النفحات الروحية الربانية المعنوية للنفوس والقلوب الزكية ، فانه لا خلاف بين أهل البصائر أن القلوب والنفوس تستمد حياتها وقوتها من الأمور المعنوية كما تتغذى الأجسام بالمواد الغذائية . فإذا كانت الأجسام لا يمكن أن تحيا بدون غذائها المادى فكذلك القلوب لا يمكن أن تحيا حياة صحيحة إلا بوجود ما يلائم فطرتها الأولى من المواد الالهية الربانية ، وهذا أمر يعرفه كل ذى عقل وبصيرة ، فان المؤمن يشترق ويرتاح ويأنس بالطاعة ويجد بها من التغذية والحلاوة في قلبه أعظم مما يجد لجسمه من اللذة والحلاوة في تناول غذائه المادى (١) . ولهذا كانت النفوس مضطرة الى أن تتغذى بالأمور المعنوية ، فهى أن لم تتغذى بالطاعات والأمور الدينية فلا بد أن تتغذى بالمعاصى واتباع الشهوات والموسيق ومزاولة مظاهر الشرور والخبث وتلتذذ بها وتتداوى بها (كما يتداوى شارب الخمر بالخير) فتكون عاقبتها الهلاك ولا بد ، لأنها أمور عارضة خبيثة مظلمة منحطة بخلاف الآثار السماوية وتأثيرها في النفوس والارواح . وقد بينا فيما سبق أنه سبحانه ربط سننه الدينية بالسنن الكونية فمن سار على السنن الدينية فلا بد حتما أن يوفق الى ما به يحيا حياة سعيدة ، كما قال تعالى ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ﴾ فإى حجة

(١) لا شك أن المؤمن تتمتعش روحه وتلطف على حصول الطاعات ، ويجد لفقداء أعظم مما يجد لفقد الطعام والشراب . فالطاعات قرة عينه وروحه ، ولهذا قال النبي ﷺ « وجعلت قرة عيني في الصلاة ، أى لما فيها من الفيض الالهى ، والاتصال بمصادر الرحمة والهدى والكمال والبصائر

لهذا المغرور في هذا الهذيان حتى يدعيه ، فان من هلك بترك الأكل والشرب فهو كمن هلك بترك تغذية روحه من الطاعات وفيض الآثار الربانية ، فان الانسان ليس بيهيمة أو حشرة غير مكلفة بأمر دينية بل مقصورة حياتها الروحية والجسمية على الغذاء المادى فقط ، والله سبحانه وتعالى أمر الانسان بأن لا يلقي بنفسه الى التهلكة ، وحرّم عليه أن يقتل نفسه ، فاذا عاند وخالف أمر الله كان من الهالكين

وقوله « زاعما أن المؤمن معصوم .. الخ ، كذب وفجور لا يخفى إلا على من أمسى الله قلبه ، فان المسلمين لا يعتقدون أن كل مسلم معصوم ، بل بينهم خلاف في عصمة الأنبياء في غير ما يبلغونه عن الله ، فكيف بالمسلم ، ولكن ما حمله على الالتجاء الى هذه الخصلة اليهودية الا لما خنقته الحجة الظاهرة ، وقد علم أن النبي ﷺ كان يحرس حتى نزل عليه قوله تعالى ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ فدل على أنه ليس أحد من بني آدم معصوم من شر الحوادث الطبيعية إلا من ورد فيه نص خاص وقد قال تعالى ﴿ لتبلون في أموالكم وأنفسكم وانسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ﴾ وقال تعالى ﴿ ألم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ وقال تعالى ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾

فهذه الدعوى في عصمة المسلم كذب وفرية ظاهرة ، ولولا هذه الحرفة اليهودية التي يلجأ اليها دائما عند الحاجة لما استطاع أن يكتب صحيفة واحدة قائمة على شيء من الصدق والحقيقة ، ولكنه جعلها هي عمدته ونفقته الذي يلجأ إليه

فصل

قال « اخرج الى السماء ^(١) في ليلة صافية ، ثم انظر الى تلك المخلوقات المتلاثلة التي تملأ الفضاء ، والتي تواجهك أينما توجهت ، والتي تكاد تتشابك وتتصادم وتتهاوى ، ولكن شيئا من ذلك لا يحدث ، والتي تكاد تزخر ف بساطا من حبات اللؤلؤ ذات الاشعاع المتوهج المتوقد الدائم الحركة الضوئية ، ثم استسلم الى عقلك وعملك وخيالك قائلا : كم يمكن ان يكون قد مرّ بهذه المخلوقات الجميلة من الاحقاب وهي محافظة على نظامها وسيرها ومداراتها بلا اضطراب ولا اختلال ولا فوضى ولا تصادم ، ثم سل ما الذي يمسكها هكذا كل هذه الدهور - تجب بأن الذي أمسكها ويمسكها هو النظام الالهى المفروض عليها ^(٢) . ثم سل ثانيا قائلا : أرأيت لو أن الجن والانس والملئكة وكل الخلائق أولين وآخرين وقفوا في صعيد واحد ثم سألوا الله جاهدين أن يفسد هذا النظام أو أن يغيره أو أن يتخلى عنه ، أكان من الممكن أن يجب الله هؤلاء الداعين أو يقبل هذا الدعاء ،

فيقال : كل هذا هراء مردول ، وثرثرة فارغة يقصد من ورائها إبطال تأثير الدعاء والعبادة . وتقدم امثاله مرارا . وهذا المثل لا تعلق له بخضراء ولا غبراء ، ولا مناسبة فيه للبحث أصلا

أما أولا فقد قدمنا أن من سأل الله تعالى وتعدّى في سؤاله فقد صادم أو امره الدينية فلا يحصل على طائل ، ولا شك أن من سأله خراب العالم فانه معتد في سؤاله . ولو أن قائلا عارضه وقال : أنت تمدح الاسباب المادية ، بل تدعو الى ما يتضمن عبادتها ، فهل تظن أن الخلق كلهم لو اجتمعوا يقدرّون

(١) تأمل هذه وأمثالها كثير جدا ، ولنا بصدد المناقشة في مثل هذا

(٢) هذا السؤال جعله تمهيدا للثاني ، ولهذا نأفق فيه

على تغيير العالم كله بأسبابهم التي غلوت فيها ودهوت الى ما يتضمن عبادتها ،
فإذا كان مناط عدم النفع هو عدم تغيير العالم وتغييره فالأسباب الدينية
والمادية في ذلك سواء ، بل ربما كانت الأسباب الدينية أقوى كما ورد في أن
الساعة تقوم إذا خلت الارض من ذكر الله وعبادته .

وأيضاً لقائل أن يعارض من وجه آخر فيقول فهل الجن والانس والملوك
وكل الخلائق يقدرّون بذاتهم أو سواهم أن يغيروا شريعة الله ويبدلوا كلامه ،
وهل يمكن أن يجاب دعاء من دعا الله وطلب ذلك ، فالقول في السنن الدينية
هنا كالقول في السنن الكونية ، فان الله تعالى نهانا ان ندعوه بما لا مصلحة لنا
فيه ، وهذا الدعاء الذي ذكره ونحوه مما لم يذكره اعتداء محض وجرأة على مقام
الربوبية ولا مصلحة للداعي فيه . ولو أن رجلاً طلب من ملكه أن يفسد
حكومته ويدمرها ويعبث فيها بلا ضرورة ولا حكمة لعد من أحق الناس وكان
معتدياً في هذا السؤال ، فخلق بأن يعاقب ويجازى بالطرد والحرمان دون
قبول سؤاله ، وإذا كان قبح هذا مستقراً في العقول عند ملوك الدنيا
وسوقتهم - والله المثل الاعلى - فكيف يجوز ذلك بالنسبة الى الرب تعالى

وأما ثانياً فهذا الذي ادعاه تقدير مفروض ، وهو لا يخلو من أمرين إما
أن يكون هذا الدعاء مشروعاً أو غير مشروع ، فان كان مشروعاً فما المانع من
إجابة الداعي به اذ من المحال أن يشرع الله شيئاً ويأمر به عباده وهم لا طاقة
لهم به ولا يمكن حصوله . وان كان غير مشروع وهو محرم فالله سبحانه قد نزه
ملكته ومؤمّن خلقه عن مثل هذا فلا معنى للاتباع به فكيف يسوغ لمؤمن أن
يدعو الله أن يفسد نظامه ويتخلى عن ملكه ، هذه جرأة عليه وكفر ظاهر ،
فكيف يستجاب لمن فعله ، وهو كمن دعاه أن لا يبعث رسلاً أو لا يفرض على
خلق عبادته ولا دعاء ولا يخلق جنة ولا ناراً وأمثال ذلك ، فمن عاند السنن
الدينية حبط عمله ولم يحصل على طائل

فلا حجة لهذا المغرور في هذا الهديان الفارغ، ويكتفى معارضه بأن يقول
 له قولاً أقرب مما تقدم وهو : أرأيت لو أن الجن والانس وما شئت من
 المخلوقات بمن فيهم من علماء الطبيعة ونواميسها أجمعوا أمرهم وبذلوا كل ما في
 وسعهم ، هل في إمكانهم أن يخلقوا ذرة أو يخلقوا شعيرة تنبت أو يخلقوها
 إلى ذرة أو حبة أخرى بجميع ما لديهم من الأسباب والقوى ، فإذا كانوا
 عاجزين عن هذا الشيء الصغير الحقير بجميع أسبابهم ، فلم تغلو فيها وتحارب
 الدعاء بمجرد أنك فرضت شيئاً بذهنك وادعيت أنه لا يؤثر فيه ، وهل هذا إلا
 تحامل عظيم على دعاء الله وعبادته ، ودعوة إلى الوثنية المحضة وهي عبادة
 الطبيعة وأسبابها

فصل

قال : ويجب أن يعلم أن الخلاف الذي قام بين الأنبياء والمصلحين وبين
 جميع أصناف المخالفين هو في أمر واحد تحته أمور كثيرة ، هذا الأمر هو
 أن الأنبياء والمصلحين كافة إنما جاءوا بالنظام وبالدعوة إلى النظام ، والنظام في
 كل شيء : في الاتصال بالخالق ، والاتصال بالمخلوق ، والاتصال بكل شيء ،
 وإلى الإيمان بهذا النظام ،

ونحن نقول : وكذلك الخلاف الذي قام بيننا وبينك هو من أجل هذا
 النظام ، فانك لم تقبل النظام الذي جاء به الأنبياء وقام به المصلحون ، بل ورثت
 خصوم الأنبياء - وبخاصة المنافقين منهم - فذهبت إلى اعتقاد أخبث ضروب
 الفوضى في هذا العالم إذ صرحت على رموس الأشهاد بأن هذه الكائنات
 الموصوفة بالحياة محكومة بالنواميس المولودة من المادة ، وقررت بأن من
 استخدم هذه النواميس نال ما ينبغي ، فصار العالم محكوماً بالنواميس التي
 يستخدمها الإنسان ، وحصول النتائج موقوف على استخدام المستخدمين على
 اختلاف أفكارهم وآرائهم وعقولهم ، وهذا عين الفوضى ، ولهذا صرحت بأن

المساجد أدت شر ما يؤدي ، وأن إنكار منازعة الله في علمه وقوته وقدرته مخف مبين وترية خبيثة ، وأضفت الى هذا ان رضا الله وسخطه لا دخل لها في الأسباب ومسبباتها ، فساويت بينه تعالى - لو كنت مقرا بوجوده - وبين الأصنام ، فكان حاصل كلامك أن العالم يحكم نفسه بنفسه فتحكمه الطبيعة التي لا تعلم ولا ترحم ولا تغضب ولا ترضى ، فتجرى حوادثها على مقتضى طبيعتها لا عقلا ولا سفها بل مصادفة واضطرارا . أما نحن فإنا ندعونا الى نظام الله الديني المطابق لنظامه الكوني الذي أنزله من فوق عرشه مع أفضل ملكوته على أفضل نفس بشرية ، وعلينا أن نظامه الديني مربوط بنظامه الكوني ربطا وثيقا ، فاتبعناه ودعونا اليه ، وعلينا واعتقدنا أن الذي يدبر أمر الكون هو الله وحده لا شريك له ، هو ربه الذي خلقه ، فهو المتصرف فيه بمقتضى علمه ورحمته وعدله وحكمته ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . هذا هو اعتقادنا وهو النظام الذي جاء به الانبياء ، فقد عاديته وحاربه وجعلته أغلالا وأصفادا ، والله سبحانه قد بين رأس هذا النظام بأنه عبادته وحده لا شريك له ، وبين رسوله ﷺ بأن الدعاء هو العبادة وأنه يخها ، وقال تعالى ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ فقد كانت دعوة كل نبي لأمة أن يعبدوا الله ويحتنبوا الطاغوت ، والطاغوت هو كل ما يعبد من دون الله ، مأخوذ من الطغيان وهو مجاوزة الحد ^(١) فمن عبد غير الله فقد جاوز به حده ، وقال تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي اليه انه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ وقال تعالى ﴿ قل ما يعبا بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما ﴾ وهذا صريح في أن الدعاء أشرف أنواع العبادة بل هو نخها

(١) قد قرر هذا الملحد كما يأتي بأن أوربا لم تصعد بالحياة إلا بعد أن وحدث تجارتها وصناعتها وأبت الاشارك بها ، لجعل عبادة الصناعة والتجارة هي سبب التقدم ، فالوثنية هي أسباب التقدم وهذا عكس ظاهر لدعوة جميع الانبياء

وروحها ، لأنه يتأتى في كل أنواعها ، فقد كبر على المشركين ومن هذا حظهم من الملحددين والمنافقين اتباع هذا النظام الجبار والأخذ به كما قال تعالى ﴿ كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يحببني إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾ ولا تزال هذه الفكرة الخبيثة الممقوته المنذرة بشر العواقب موجودة حتى الآن بشيوع مدهش وانتشار هائل في كل نفس ضيقة نجسة ، فتجد هذه النفس المصابة بهذا البلاء تنكش وتستكبر وتنفّر ويحصل لها انزعاج واشتمزار وتضايق متى خوطبت بأنها خلقت لعبادة الله وحده لا شريك له وقصده والتوجه إليه والاعتماد الكلي عليه . تجد هذه النفس المظلمة تستعظم هذا الأمر السماوي ويكبر عليها القيام الصادق به ، بل ترى أن هذا خول وانحطاط ورجوع الى الوراء ، ولكنها مع ذلك لا تأنف — في اتباع أهوائها — من مباشرة أخط الأخلاق وأقذرها وأسقطها ، كما لا تستكف عن أن تخضع أشنع الخضوع وأن تكون على غاية من الذل والهوان والدخول تحت أقدام شر خلق الله وأقذرهم . وقد أثبت التاريخ أنه لا يوجد فرد أو شعب استكبر وابتعد عن عبادة الله إلا عوقب بعبادة أخبث المخلوقات وأسقطها ، إما في رؤسائه بحيث يعبد بعضهم بعضا ، وإما بعبادة شهواته وأهوائه وأغراضه التي تقذف به في أعماق الجحيم ، وفي عبادة أقذر شخص . وقد تقدم تعريف العبادة التي تدعو إليها في مقدمة هذا الكتاب

لقد كبر على المشركين اتباع هذا النظام الجبار الالهي ، واستعمال هذا السلاح القوى الذي لا يغلب ولا يقهر من أول الدنيا الى آخرها ، فالاستكبار عن طاعة الله وتقواه والتمرد عن ذلك هو خلق جميع الأولين المعارضين للرسول ، فالمتبعون لهم هم الرجعيون الذين استمسكوا بخيوط هذا القديم المرذول الذي حاربه الرسول كلهم من أولهم الى آخرهم ، والرجعيون هم هؤلاء الذين اتبعوا أسلافهم في هذه الأخلاق القديمة المشنومة واسترسلوا في الانقياد

كبر على المشركين ومن سار خلفهم ما دعاهم اليه المرسلون من عبادة الله تعالى وإقامة الوجه له والاعتصام بحبله والاعتماد عليه ، ولكن صغر عليهم اتباع قوانين أكفر خلق الله وأجرحهم وأقبحهم والتعبد بها وجعلها أغلالاً في أعناقهم وقيوداً في أرجلهم . صغر ذلك عليهم لان نفوسهم المنحطة انحطت الى هذا الدرك السحيق فهان عليها الهبوط والقنوط بعد أن كبر عليها النجاح والنجاة . فعبادة الله تعالى وحده والاعتماد عليه واتباع نظامه هو أساس كل لذة وفرح وحياة في الدنيا والآخرة

وهذا المغرور لما كان من أعظم المشاكسين لهذا النظام الالهي حرص كل الحرص وبذل جهده في إحياء آثار المشركين الأولين وتحسين أخلاقهم في رفض الأديان والتخلص منها فهو رجعي خبيث صريح الى حد بعيد ، فلهذا حرج صدره من هذه العبادات التي أمرت الشرائع الإلهية بها ، ولا سيما روحها وأصلها وهو الدعاء الذي دعت اليه جميع الرسل ، وسفه رأى من فعله ومن جاء به . ضاق صدره بذلك وتضايق منه حتى ادعى مجاهرة بأنه ليس بوسيلة وليس له من فائدة ، وأنه مصرف خبيث ، بعد أن قرر أنه أشرف أنواع العبادة ، وأن كونه عبادة مما لا خلاف فيه ، ولا يقبل فيه جدال ، فقد ضاق صدره وكبر عليه ما دعت اليه الرسل من اتباع ذلك النظام العظيم فلهذا سخطه ومقته وكرهه أعظم الكراهة والسخط والمقت ، فقام الخلاف بيننا وبينه في ذلك أعظم القيام ، فما أشبه حاله بمن قال الله فيهم ﴿ ان الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سؤل لهم وأملى لهم ذلك بانهم قالوا للذين كرهوا ما أنزل الله سنطيعكم في بعض الامر والله يعلم أسرارهم فكيف إذا توفتهم الملكة يضربون وجوههم وأدبارهم ذلك بأنهم ابتغوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ، أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ﴾ فان هذا المغرور ارتد وكره ما أنزل الله

وعاداه وحاربه وصدّ عنه واتبع ما أسخط الله من الإلحاد والنفاق وكره رضوانه من الدين والإيمان ، وقد حبط عمله الذي سعى فيه وأخرج ضغيثه في بغض الاسلام ومقت أهله ، فكانت دعايته معاكسة لدعاية جميع المرسلين وأتباعهم من المصلحين ، ثم هو مع هذا في غاية الطاعة العمياء والخضوع المرذول للملاحدة واليهود ومن سلك سبيلهم من المنافقين الذين يرون الحوادث كلها منوطة بنواميس الطبيعة ، وأن مشيئة الله وإرادته تعالى لا دخل لها في شيء من ذلك ، ولهذا فانه هجر المشيئة العليا هجرا قبيحا فلم يسند اليها شيئا من الحوادث الخيرية مطلقا ، ولم يذكرها إلا في معرض الذم في أغلاله كلها وبالجمل فجميع ما قرره هو عين ما جادل به خصوم الأنبياء والمصلحين ، وانه هو الذي تبعهم وافقت آثارهم ، ولكل قوم وارث

فصل

قال « فالتاس بل الخلائق كلها في حكم هذه السنن والأوامر والأحكام والعدل والقضاء سواء ، لا محاباة ولا وساطة ولا شفاعة تنفع لديها ، فيقال هذا كلام يحمل قد عرفنا مغزاه فيما شرحناه قريبا ، ومقتضى هذا أن بني آدم والكلاب والخير والحشرات وغيرها سواء في هذه الأحكام ، لانه عمم الخلائق كلها بصريح كلامه ، وقد سبق الكلام في معنى المحاباة ، وأما الوساطة فهو لم يبين مراده بها ، فانها تطلق على ما يقصده المشركون من عبادة الأوثان والقبور والصالحين ، فان عنى هذا فهو حجة عليه ، لان خصومه لا يجوزون هذا ، وهو قد ذهب اليه حينما فارق الاسلام ، لانه جوّز التوكل والاعتماد على الأسباب المادية ودعا الى ذلك وادعى أن كل ما في الوجود هو من هذه الأسباب المادية كما يأتي ، ولانه ادعى فيما سبق بأننا إذا أردنا أن نعظم الله فعلينا أن نعظم مخلوقاته وتعظيمها تعظيم له ، ولأن المشركين ما عبدوا هذه الأسباب المادية إلا لأنهم رأوا فيها مثل رأى هذا فيها بأنها أسباب توصل الى

نتائجها فتوكلوا عليها وعلقوا عليها كل آمالهم إما باعتقاد وساطتها أو لذاتها ،
فهم توجهوا اليها واعتمدوا عليها وهذا هو روح عبادتها . وان عني أنه لاوساطة
بين الخلق والخالق في الرسالة والتبليغ فليصرح به ولا يخضع أحيانا في نفسه ،
وحيث يعرف جوابه . وأما الشفاعة فقد ثبت في الأحاديث الصحيحة المتواترة
شفاعة النبي ﷺ يوم القيمة في الموقف العظيم ، وكذلك قد صح في الأخبار
أن الانبياء والمؤمنين يشفعون لأهل التوحيد ، وكذلك ثبت شفاعة الأطفال ،
وبالجملة فجميع ما يفعله المشركون من خرافات - كالاعتماد على الأسباب المادية
على اختلاف أنواعها من حيوانات وجمادات ، والتوجه اليها ، وتعلق التماس
والطلاس ونحو ذلك - فانه عين ما يدعو اليه ، ولهذا ادعى فيما يأتي في بحث
التوكل أن معناه أى التوكل شرعا هو الاعتماد على الأسباب وطلب العز والمجد
من مواهبها واستعدادها ، ومعلوم أن المشركين الذين يلجأون الى المخلوقات
ويعبدونها لم يفعلوا ذلك عبثا فانهم قاتلوا عنها وأراقوا دماءهم وأتلفوا أموالهم
من أجلها ، وانما فعلوا ما فعلوه من الاعتماد عليها وعبادتها من أجل اعتقادهم
في مواهبها واستعداداتها وأن بها قوى ومواهب توصل الى النتائج المطلوبة
منها ، إما لذاتها وإما بوساطتها كما تقدم ، وسيأتى قوله بأن « كل ما في هذا
الوجود هو من أسباب الله ، والشا كون فيها هم في الحقيقة شا كون في الله الخ »
فصارت هذه الطلاس والتمايم وغيرها من الأسباب ، ومن شك فيها فقد شك
في الله على ما يقول ، ولا سيما فان هؤلاء الذين يستعملون هذه الأمور
يدعون أنهم قد جربوها وعرفوا فائدها ومنفعتيها ، فكان اعتمادهم مبني على
التجارب الطبيعية لا على الدين ، وهكذا كل أفعال الملاحدة في الأسباب
المادية هو مبني على التجارب ، والانسان مجبول على التوجه والطلب من غيره ،
إما إلى خالقه وإما إلى مخلوق ، لضرورة افتقاره . والمخلوق بلا ريب مفقر
مثله ، فلا بد من الانتهاء الى الخالق الغنى عن كل ما سواه ، فالتوجه الى الخالق
هو الموجد والمتوجه الى المخلوق هو المشرك والملحد ومن في معناه ، فانه

الملحد وثني لانه عبد الأسباب الطبيعية وكل هذا يضاد جميع ما دعت اليه الرسل
من أولهم الى آخرهم في قولهم لقومهم ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا
تتقون﴾ وأمثالها من الآيات

فصل

قال : وقد نص الكتاب على هذه المسألة نصا قطع كل خلاف حيث قال
من سورة فاطر ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾ نفى
أن تبدل السنة ، فأمكن أن يقول قائل انها وان كانت لا تبدل - والتبديل هو
التغيير - إلا أنها تحول عن طريقها ، والتحويل هو الصرف عن القصد والجهة ،
فنفي هذه أيضا نفى لا تتغير بل تجرى على وتيرة واحدة أزلا وأبدا ، ولا
تصرف عن سبيلها بل تضي فيها غير مبالية بمن هلك ولا بمن نجا ،

فيقال : هذا حجة عليك أيضا ، لأنك لم ترض بسنة الله هذه التي لن تبدل
ولن تحول ، ولم تطلب نفسك بهذه السنة ولم تقطع خلافاك ، بل بذلت كل ما
في وسعك في الحصول على تبديلها وتحويلها ، ولكن لن تجد لسنة الله تبديلا
وان تجد لسنة الله تحويلا ، فان الكتاب العزيز قد نص على هذه المسألة نصا
قطع لسان كل معاند ومعاكس للدين ، ولكنك أبيت أن تقبل ذلك فأثرت
غبار الجدل والعناد والمشاكسة والمعاكسة في تبديلها وتحويلها ، فان سنة الله
التي قد خلت في عباده أنه تعالى لا يجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات
كالمفسدين في الأرض ولا يجعل المتقين كالفجار ، وأنت عاكست هذه السنة
التي هي أوضح من الشمس ، فادعيت جهارا أن عدل الله هو التسوية بين
الآخذين بالأسباب بدون نظر الى أديانهم ومذاهبهم ، وأن حل نتائج هذا
الكون يستوى فيه المسلم والكافر ، وأنه كالمسألة الرياضية ، وأنه اذا تحارب
اثنان فالله مع أقواهما ، ومن سنة الله التي خلت في عباده أن التقوى والعمل
للمصالح سبب في نيل العز والمجد والتقدم والنصر والسيادة كما قال تعالى ﴿ولو

أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) وقال تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) وقال تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة) ولكن أبيت أن تقبل ذلك فأردت تبديل هذه السنة وتحويلها ، وادعيت أن الاخلاق الدينية لها نتائج أخرى غير نتائج المجد وأنها ليست سببا في التقدم في الدنيا بل هي ضعف وانحطاط ، ومن سنة الله التي لا تبدل ولا تحول أن الدعاء وعبادة الله والمحافظة على الصلوات في المساجد وذكره تعالى كل ذلك له أعظم الأثر في الحصول على خيرات الدنيا والآخرة ، فكرهت ذلك ومقته وسخطه وضاق به نفسك فادعيت أن الدعاء ليس بوسيلة وليس له من فائدة ، وأن المساجد والمنابر أدت شر ما يؤدي ، وأن رضا الله وسخطه لا دخل لهما في الأسباب والمسببات أصلا ، إلى غير ذلك من المعاندة لسنة الله التي لن تبدل ولن تحول

وينبغي أن يعلم أنه ليس المراد بهذه الآية وأمثالها في السنن التي لا تبدل أنها الأسباب الطبيعية المادية ، فان تحويل هذه وتبديلها أمر معلوم بالشرع والعقل والحس والضرورة ، فما التطور والزيادة والنقص وانقلاب العناصر الى عناصر أخرى إلا تحول في الأسباب ، وحديث تأبير النخل صريح واضح في أن علاقه الأسباب بمسبباتها ليست سنة حتمية بل من الجائز أن تبدل وأن تحول ، ولهذا قال عليه السلام « ما أظن ذلك يغني شيئا » فتركوا التلقيح ، فدل هذا على أن هذه الأسباب ليست من السنن التي لا تبدل لها ولا تحويل ، بل إن وقوع ذلك جائز لا محتم ، إذ من المحال أن يخفى على النبي ﷺ حكم هذه السنة بأنها لا تبدل لها ثم يجوز تبديلها وتحويلها ويوافقه هؤلاء الصحابة ، ثم لما ظهر الأمر بخلاف الظن لم يأمرهم بالتوبة والاستغفار ، بل دل ذلك على أن وقوع هذا جائز لا واجب ، والجائز يمكن وجوده وعدمه ، فلهذا وقع أحد الطرفين وهو عدم التخلف ، ووقوع أحد الطرفين لا يقتضى استحالة وقوع

الطرف الآخر ، فعلة الترجيح ليست حتمية ، فكثير من الأشجار لا يؤثر فيه التلقيح ، بل يوجد في النخل نفسه مالا يؤثر فيه التلقيح أصلا كما شاهدناه ، فالوقوع دل على الجواز فقط ، ولكن الذي يجب أن يعلم هو أن المراد بالسنن التي لا تبديل لها ولا تحويل هو أصل نظامه الديني وما يترتب عليه من النظام الكوفي ككون العقوبات لا بد أن تحل بأهل الكفر والمعاصي ، وأن العواقب الحميدة لأهل الدين والتقوى ومجازاة المحسن بالإحسان والمسيء بالسوء ، وأن الذين آمنوا وعمِلُوا الصالحات ليسوا كالمفسدين في الأرض ، وأن المتقين ليسوا كالفجار لا في الدنيا ولا في الآخرة ، بل لا بد أن يظهر جزاء هؤلاء وهؤلاء في الدنيا كما يظهر جزاؤهم في الآخرة ، وهذا ظاهر جدا من سياق هذه الآية ونظائرها ، فإن الله تعالى يذكر هذه السنن بعد ذكره لعقوبة العاصي وإثابة المطيع كما قال تعالى في سورة فاطر في هذه الآية ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا ، استكبارا في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾ فتأمل هذا السياق فإنه تعالى بين أن هؤلاء المكذبين للرسول عليه السلام استكبروا عن اتباعه بعد أن أقسموا أيما إيماننا مؤكدة إن جاءهم نذير ليتبعونه وينقادون له انقيادا تاما ، فلما أن حصل لهم ما أقسموا عليه نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في الدين ونفروا واستكبروا وعملوا ضده مكرًا سيئًا ، ولكن عاد مكرهم عليهم لأنهم فعلوا كما فعل أسلافهم من أعداء الرسل في الاستكبار والنفور والمكر ، كما قال تعالى ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ ولكن هؤلاء ما ينظرون بعد هذا المكر الذي يريدون به إزالة الحق وإطفاء نوره إلا سنة الأولين وهي حلول النقمة بالمكذبين ، وإن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله فينقلب عليهم مكرهم ، وإن هذه السنة في الأولين ستجرى في الآخرين إلى يوم القيمة لأنها سنة لا تبديل لها ولا

تحويل . وكذلك قال في سورة غافر ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما
عندهم من العلم ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا
بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ،
سنة الله التي قد دخلت في عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ فتأمل هذا السياق
فانه تعالى أخبر أن خصوم الرسل لما جاءتهم رسلهم بالبينات أى البراهين
الظاهرة على صدق رسالتهم استكبروا عن اتباعهم وعن قبول البينات التي
جاءوا بها . لماذا . لأنهم عرفوا شيئا من أمور الدنيا فاعجبوا بهذا العلم والمعرفة
التي حصلوا عليها وظنوا أن مواهبهم وأسبابهم المادية ستوصلهم الى كل ما
يريدون . وردوا بينات الرسل لأنهم رأوها تتعارض مع ما عندهم من العلم ،
وأنها لا توصلهم الى آمالهم ، وهذا عين ما عليه ملاحدة اليوم وفروخهم
ونظر اؤهم الذين اعجبوا بهم وبآرائهم المخالفة للأديان معتقدين أنها أكبر وأعظم
وأقوى من علوم الدين ، والآية صريحة جدا في أن أعداء الرسل معهم شيء
من العلم وأنهم مع هذا ليسوا علماء بل يطلق عليهم القول بأنهم لا يعلمون كما
أطلقه الله ورسوله وأولو العلم من خلقه ، ولهذا بين أن عليهم هذا لم ينفعهم بل
هو كالجهل بل أضر ، وقد قيد الله هذا العلم باضافته اليهم ، فقوله بما عندهم من
العلم ، بمنزلة فرحوا بعلمهم أى بهذه المعرفة التي عندهم ، وهى علوم دنيوية
محضة ، وفي هذا أيضا دليل على أن من العلم ما هو ضرر ^(١) وأنه ليس كل علم
نافعا ، بل العلم شيء والانتفاع به شيء آخر ، وقوله تعالى ﴿ وحاق بهم ما كانوا
به يستهزئون ﴾ برهان قاطع على أن أعداء الانبياء كانوا يحتقرون الأمور
الدينية وأهلها ويستهزئون بها ويضحكون منها ويرون أنها خول وضحف وأن
أهلها ضعفاء عقول وآراء وأفكار ، وهذا عين ما يفعله زنادقة هذا العصر

(١) وهو يبطل ما ادعاه فيما سبق مرارا من أنه لا يوجد علم ضار بل كل علم
نافع كما تقدم

وملاحتهم الذين شتموا بأنوفهم المرغمة عن التعاليم السماوية واحتقروها ورأوا أنها ليس فيها كفاية للقيام بجميع المصالح الدينية والدنيوية ، ولهذا حاق بالمستهزئين بالدين ما كانوا به يستهزئون ، كما حاق بأسلافهم استهزاؤهم الويل .

وقوله تعالى ﴿ قلنا رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ الى آخر الآية فيه دليل واضح على أن هؤلاء الذين خالفوا الرسول لم يؤمنوا بالله وحده إيماناً صادقا خالصا ، بل آمنوا بمخلوقات معه - من أسباب مادية وغير مادية - فاعتمدوا عليها وتوجهوا اليها وتحاكموا اليها ، وهذه كقوله تعالى ﴿ واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا . فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله ان أردنا إلا إحسانا وتوفيقا ﴾ فهؤلاء لما أصابتهم المصيبة الماحقة بما قدمت أيديهم من التحاكم الى الطاغوت وعدم الإيمان بالله وحده - إذ الإيمان به وحده يستلزم تحكيم شرعه وحده - قالوا حينما مسهم العذاب ورأوا أن القوة لله جميعا متصلين من علمهم واستهزائهم ﴿ آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ أى تبرأنا من هذا الإشراك به والاستهزاء الذى صدر منا لأنهم علموا أن ذلك العلم الذى كان عندهم هو الذى حملهم على عدم الإيمان بالله وحده ، وحملهم على الاستهزاء بدينه وشرعه ، لأنهم كانوا معجبين به ظانين أن فيه الكفاية ، وأنه حقائق لا بد من التمسك بها . قال تعالى ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم ﴾ هذا لأنه فات وقته ﴿ سنة الله التى قد خلت فى عباده ﴾ أى هذا الذى أصاب هؤلاء من الانتقام بسبب الاستهزاء وعدم قبول الإيمان بعد حلول العذاب سنة الله التى فرضها على عباده ، فلا تبدل لها ولا تحويل ﴿ وخسر هنالك الكافرون ﴾ فكان ذلك العلم الذى فرحوا به وظنوا أن فيه التقدم والعز والرقى والمجد ما حصل منه سوى نقيض ما ظنوه فيه فكان موجبة للخسارة السرمدية والعذاب المقيم

وقال تعالى في سورة الاحزاب ﴿ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا أليما . والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً . يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما . لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا . ملعونون أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا . سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ فنأمل هذه الآيات حق التأمل من أولها لآخرها تجدها في النظام الديني ، وهي الأخبار بأنه تعالى لا بد أن ينتقم من المنافقين والزنادقة الذين يحادون الله ورسوله ويؤذون المؤمنين بأنواع الأذى ويرجفون بهم ويخدلونهم ، فهؤلاء المنافقون الذين على هذه الحالة قد حكم الله عليهم بأنهم ملعونون أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا . وإن هذه اللعنة وهذا العقاب الذي حكم به على هؤلاء المنافقين الذين يؤذون المؤمنين بأنواع الأذى - كالاستهزاء والسخرية والبهت والتزوير وغير ذلك - سنة الله المطردة في الذين خلوا من قبل فلا بد أن تتناول هؤلاء لأنها سنة ماضية لا تبدل ولا تحول ، وأثر هذه السنة القاهرة ظاهر يعرفه كل ذي بصيرة من دينه فلا تجد منافقا - ونعني بالنفاق هنا النفاق الديني الاعتقادي ^(١) - إلا ظهرت عليه آثار هذه اللعنة

(١) ان النفاق الاعتقادي هو الذي نذمه في هذا الكتاب كما هنا ، فأصل الشر والفساد هو المنافق مع الله ، كأن يتظاهر الانسان بالاسلام ولكنه يزدري تعاليم الدين وأهلها ، ويرى أنها ليس فيها كفاءة ، وأن من أخذ بها كان ناقصا ضعيفا ، وأن التحاكم الى القوانين المضادة للدين أقرب الى السياسة وأحسن للمجتمع ، وأمثال هذا ، فهذا شر النفاق لأنه اتهام لله ودينه ، ومحاداة ظاهرة لما أنزله وأمر باتباعه ، وهو ضد الصدق والاخلاص في معاملة الله تعالى ومحبة دينه وما يقرب اليه

فتجده قد قمع الله وأحبط آماله وأعماله وطمع فيه أعدى عدوله ، فتجده
يلتمس وليا ونصيرا فلا يجد وليا ولا نصيرا لانه أساء الظن بالله وسبه غاية
السب ، اذ جعل ظاهر كلامه لا يفيد اليقين ، وحرف صفاته التي وصف بها
نفسه ، وسماها حوادث وأعراضا ، فتحيل عليها بقلب أسمائها من الصفات الى
الحوادث ثم قال هو منزه عن الحوادث أى منزه عن الصفات ، فنفي كلامه
وعلوه على عرشه وحكمته ورحمته وغضبه وغير ذلك ، ثم أساء الظن به فذهب
يعبد معه غيره ، فلم ير أنه أرحم الراحمين : أرحم من الوالدة بولدها ، بل
ذهب يدعو غيره ويستغيث به في الشدائد التي لا يقدر عليها إلا هو ، ويلجأ
الى مخلوقاته في إغاثة اللهفات وسد الحاجات ، ثم ازدري كتابه الذي جعله
نورا وروحا وهدى ورحمة وبصائر واحتقره فرآه ظلمة وخمولا وضعفا
وضلالا بحيث لو اتبعه وانقاد له لكان ضعيفا حاملا متأخرا منحطا لا يمكن
أن يبلغ المجد . لا شك أن من هذه حاله فهو كالجسم الذي أصيب بأنواع
الأمراض والقروح والجروح وسائر الأسقام المستعصية ، فجسم هذه حاله
كيف يستطيع أن يدفع عن نفسه عدوه ، وكيف ينال القوة . وهذه الأسقام
قد وقفت في وجه القوة . جسم هذه حاله أنى له الحياة وأنى له النجاة ، لأن
هذه الأمراض كلها بأسباب الأخلاط والطوارئ الغريبة التي لا تلائم ذلك
الجسم الذي نبت على تلك الروح الطاهرة التي لا يغذى جسمها ويقويه إلا ما
يناسب تلك الروح التي نبت عليها ذلك الجسم ، فهو لاء المنافقون الذين يؤذون
المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا لا بد أن يسلط الله عليهم من هو أقوى
منهم وأقدر فيستضعفهم ويؤذيهم ويضع لهم العراقيل في كل مطالبهم وآمالهم
فلا يستحصلون الا على ضد ما قصدوه ، وقال تعالى ﴿ قل للذين كفروا ان
ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، وان يعودوا فقد مضت سنة الاولين ﴾ وقد بين
سبحانه أن سنته في الاولين هي هلاك كل من خالف الرسل واستكبر عن
طاعة الله تعالى كما قال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاءوهم

باليينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴿ وقال تعالى ﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأديبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً، سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ فأخبر أن النصر لا بد أن يستصحب المؤمنين ، وأن الهزيمة لا بد أن تكون للكافرين ، وأن هذه سنة الله التي قد خلت من قبل وأنها لا تبدل ولا تغير ، ولكن الشأن في تحقيق الايمان وتخليصه من شوائب النفاق وشعب الكفر التي انغمس فيها أكثر الناس ، فالآية صريحة في عدم مساواة المؤمنين والكافرين ، وأن النصر لا بد أن يكون مع الدين والتقوى كما قال ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ فتأمل هذه الآيات كلها وما في معناها هل فيها ما يدل على مسألة الأسباب المصادية وأنها لا تبدل ولا تغير حتى يستدل بها على مقصوده ، وإنما هي كلها حجة عليه كما هو ظاهر ، ولكن هذه هي عادته في قلب الحقائق والخداع والتويه في الاستدلال بها ، وهيئات أنى يتفق الايمان والكفر

شتان بين الحالتين فمن يرد جمعا فما الضدان يجتمعان

فصل

ثم ذكر الكسوف وقوله ﷺ ، ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، ثم قال بعد سياق الحديث : « وهذا رد صريح قوى للقول بأن حوادث هذا الوجود معللة بما يصيب اهل الارض من خير وشر ، وبما يحدث لهم وبما يحدثونهم ،

فنقول : هذا ممنوع بل باطل ، فان النبي ﷺ لم ينف في الحديث إلا التعليل بالموت والحياة فقط ، وليس الموت والحياة كالكفر والمعاصي ، فلا يصح قياس أحدهما على الآخر ، وانت عممت الدعوى فجعلت الحوادث كلها لا أثر لحوادث الخلق فيها من خير وشر ، وهذا كذب على الحديث ورد

لنصوص السنة الكثيرة ، قال تعالى ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ وقال تعالى ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس لينذقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾ ومعلوم بالضرورة في دين الاسلام أن العقوبات التي حلت بالأمم التي أخبر الله عنها أنها بأسباب ذنوبهم كما قال تعالى ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ﴾ وذلك كالعقوبات التي أصابت قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وغيرهم من ذكر الله في كتابه ، فإن تلك العقوبات كلها حوادث كونية سببها مخالفة الأسباب الدينية وعدم الأخذ بها . وقال تعالى ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾ وقال تعالى ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ إلى غير ذلك من النصوص التي لا تحصى . وكذلك الطاعات لها أثر كبير في البركات وحصول الخيرات كما قال تعالى ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ وقال تعالى عن نوح ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾ وأمثال ذلك من النصوص الكثيرة . وقد شرع الله صلاة الاستسقاء سببا لنزول المطر ، ولا يزال أثرها ظاهرا عند كل من لم تعم الشكوك والشبهات قلبه . وكذلك شرع الدعاء والصدقة والصلاة وغيرها وجعلها أسبابا لخيرات كثيرة . ولا يرتاب في ذلك إلا من يرتاب في دينه

ولعل وجه ضلال هذا المسكين هنا هو أنه ظن أن معرفة سبب الكسوف على الوجه المعروف في علم الهيئة ينفي أن يكون معللا بذنوب ونحوها ، وما علم المخروور أن معرفة سبب حدوث الشيء لا يمنع أن يكون حدوث ذلك الشيء منذرا بوقوع بلاء ، فإن المطر يعرف أنه مخلوق في السحاب وقد تعرف مادة السحاب التي يخلق منها ، ومع هذا فقد يقع عقوبة ، لكن من أين يعرف

مقتدار ذلك السحاب وكيفية نزوله وكيفية الحوادث المترتبة عليه ، فلا يمتنع
عن أن يكون حدوث الحوادث المهلكة بسبب الذنوب ، لأن غاية ما لئذ من
ينكر هذا هو ادعاؤه معرفة المادة التي خلق منها فقط ، لكن من أين يعرفه
سبب المادة وسبب سببها بالاحاطة التامة ، فان هذا غير ممكن . وعقوبات
المعاصي أنواع ، منها ما يقع بغتة ، ومنها ما يكون لوقوعه علامات وأمارات
ظاهرة أو خفية ، وهذا يشمل أنواعا كثيرة لا يحصيها الا الله تعالى ، وقد
نص النبي ﷺ في هذا الحديث الذي في الكسوف بأنه من المظاهر التي يخوف
الله بها عباده فقال عليه السلام : ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا
يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فاذا رأيتم ذلك فافزعوا الى الصلاة ، وقال فيه
: يخوف الله بها عباده ، ثم قال : انه لا أحد أغير من الله أيزنى عبده أو تزنى
أمته . يا أمة محمد ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا . .
الحديث . وهذا صريح في أن للكسوف أثرا في الحوادث ، اذ لو لم يكن له
علاقة بعقوبة ونحوها لم يكن للتخويف هنا والوعظ والأمر بالتوبة والفزع
الى الصلاة والذكر والدعاء معنى . وقد ذكر العلماء كلهم من جميع المذاهب أن
ذلك مظهر من مظاهر التخويف التي تنذر بحلول عقوبة . وذكر بعض المحققين
أن ذكر الزنا في هذا الحديث لخاصة فيه وهو أنه يكسف نور البصيرة . ويكون
سببا لظلمة القلب ، وهذا صحيح بالاستقراء ، ويعرف صدق هذا من كراهة
صاحب الزنا لمهابط الوحي وسماع القرآن ونفوره من مجالس الطاعات والأمور
الدينية كالصلاة والذكر والتسبيح والتحميد ، لأن هذه هي مصادر الأنوار
والقوة الروحية ، فظلمة القلب تضادها ، قال تعالى ﴿ ان الصلاة تنهى عن
الفحشاء والمنكر ﴾ ولهذا تجد صاحب هذه الفاحشة شديد الميل الى حب الملاهي
والمنكرات والفواحش فهو يأنس بها ويرتاح اليها ويمجد فيها سروره وشفاه
وراحة ضميره ، فنور الأمور الدينية لا يتفق مع ظلمة هذه الذنوب وظلمة

قلب صاحبها . فهذا المغرور اقتصر على ذكر الموت والحياة في ذكر الحديث وترك ذكر التخويف وذكر الزنا وما بعده ، لأنه يناقض مقصوده ، وهذه هي عادته كما سبق مرارا

والمقصود أن معرفة سبب حدوث شيء من الأمور الكونية لا ينبغي أن يكون حدوث ذلك الشيء عقوبة أو رحمة كما تقدم في السحاب وهو يقع رحمة وقد يقع عقوبة وسببه الذي يتكون منه واحد ، وكذلك الريح وغير ذلك ، بل أكثر الأسباب المادية مشتملة على الخير والشر ، ولا يخفى على مسلم أن غرضه من هذا كله هو جعل الحوادث كلها مستندة الى الطبيعة لا دخل للمشينة الربانية فيها كما تقدم

ثم قال : وقد اذكرني هذا الموقف النبوي الخالد بصدیق تقی يحمل شهادة عالية سمعته يزعم أن البراكين والزلازل التي تحدث في بعض البلاد إنما تحدث من فساد الناس وفسقهم ، قال هذا بمناسبة زلزال شديد أصاب بعض البلاد الإسلامية . فقلت له : هذا يشبه الزعم أن جذب بعض البلاد وشدة الحر والبرد في جهات أخرى وغير ذلك من الفياضانات والصواعق والأمطار الضارة معللة هذا التحليل ومقصود بها هذا الغرض ،

فيقال : لكن لم تذكر ما أجابك به هذا الصديق التقى - إن صدقت - ولم تذكر أنه سكت ، ولعله لما علم أنك زنديق أحق وأن هذه المعارضة التي ذكرتها هراء لا قيمة له خطر على باله قول القائل :

ما كل نطق له جواب جواب ما يكره السكوت

ففضل جانب السكوت لهذا المعنى ، وإلا ففي إمكانه أن يلتصم الحجر ويقول لك على وجه المعارضة : وزعمك أنت أيضا هذا يشبه الزعم بأن الريح العقيم التي أصابت قوم هود والفرق الذي أصاب قوم نوح ، والصيحة التي أصابت قوم صالح ، والخسف الذي أصاب قوم لوط ، وقارون وماله ،

والغرق الذى هلك به فرعون وقومه ، والسجيل الذى أصاب أصحاب الفيل ، وأمثال ذلك ليس هو بسبب كفرهم وفسقهم ومعصية رسلهم ، وإن المعاصى لا أثر لها فى ذلك ، وإنما هى حوادث طبيعية ، فإن كذبت بوقوع هذه الحوادث الكبرى الشهيرة كابرت وكفرت جهرا وخسرت النفاق والخداع والزندقة وهى بضاعتك التى تعيش بها وتلجأ إليها ، وانقطعت حجتك فى ادعائك الاسلام ، وإن أقررت بصدق وقوعها بطل اعتراضك والقمت الحجر وهو أحسن شيء تلقم به

وفى إمكانه أيضا أن يدحرك ويبطل اعتراضك على وجه النقض فيقول : تشبيهك الزلازل بالجذب باطل ، كما أن تشبيهك الزلازل والجذب بالكسوف أبطل منه ، وأبطل من الجميع تشبيهك هذه الأمور بالحر والبرد فى بعض المواضع ، فكل هذا سخف وهذيان بارد ، ولو كان سفيفا مثله لأمكنه أيضا أن يغرقه بسخف وهذيان أكثر منه ، لأن مثل هذا القول لا يعجز عنه كل سفیه ترك العقل جانبا ، فإن الزلازل والجذب والصواعق ونحوها حوادث لا تنضبط أوقاتها وآثارها الناتجة عنها ، وهى تصيب مباشرة ، بخلاف الكسوف ، وأما حصول الحر والبرد فى أماكنها الطبيعية فلا يقال لها حوادث كبرى إلا اذا وجد شيء من ذلك بخلاف العادة المطردة فتكون حوادث نسبية ، فإن الأقاليم الباردة وكذلك المناطق الحارة كالمناطق التى يطول فيها الليل ويقصر فيها النهار على سنة مطردة أو تكون معدومة الثبات لأسباب طبيعية معروفة فمن جعل حوادث الكون سواء فهو مصاب فى عقله

وأما الجذب والزلازل الجاذبة وإصابة الصواعق ونحو ذلك فهذه مع كونها حوادث تقع غالبا من غير أن يشعر بقرب وقتها أحد فتهلك أمتا وأناسا كثيرا ممن فسقوا وطغوا ، وقد علم ذلك علما قطعيا لا ريب فيه ، إذ لو كانت هذه الحوادث مما تعلم أوقات حدوثها لهرب الناس من مواضعها ولم

تقع غالباً فجأة . وقد نص القرآن على أن الله قد أوقع هذه الأمور عقوبة على المعاصي كما قال تعالى ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلمهم يذكرون ﴾ وقال تعالى ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال ﴾ وقال تعالى ﴿ نفسنا به وبداره الأرض ﴾ ، ﴿ آمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ﴾ وقال تعالى ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ وهذه نصوص واضحة

ولعل ضلاله هنا كضلاله السابق ، وهو أنه ظن أن الزلازل إذا كانت لها أسباب معروفة كأنحصار الابخرة النارية في الأرض فهذا يمنع من أن تكون سبباً من أسباب المعاصي ، وهذا مما يدل على طمس قلبه ، وقد قدمنا الجواب عن مثل هذا ، فإن أكثر المصائب والعقوبات لها أسباب معروفة بالمشاهدة ، ولكن الله يعاقب بالأسباب ويعاقب بمسبباتها فيخلق المصيبة بأسبابها ويعذب بها من يشاء ^(١) ومعلوم أن الدول التي تصاب بالانهدام والتقتيل والجوع والعري من أعدائها هي معاقبة بسبب ذنوبها التي منها افتتانهم بهذه الأسباب التي عذبوا بها ^(٢) ولا يقال ولم لم تصب الدول الكافرة التي عذبت غيرها من جنس ما أصيبت به المعذبة ، فإننا نقول هذا السؤال يفضى إلى أن يقال ولم لا يقطع الله

(١) كما أن الموت يحدث بوجود قطع الحلقوم ، أو لإفساد الجسم ، فيحدث بذلك فراق الروح ، وهذا لا يمنع أن يكون هذا الموت مقدراً من الله ، وأن لهذا القتل أسباباً خلقية هي أسبابها الأولية ، فإن الإنسان قد يمضى الله فيسلط عليه من يعذبه أو يقتله ويسلبه ماله ونحو ذلك . ووجود هذا السبب المادي لا يمنع أن يكون مسبباً عن معصية ، فإن المعاصي أشرف جميع الشرور في الدنيا

(٢) كما قال تعالى ﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾

الكفر من الأرض ويفنيه منها ، وهذا سؤال باطل ، فان وجود الكفر أمر لا بد منه ، وقد قال تعالى ﴿ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون ﴾ وقال ﴿ وان الظالمين بعضهم أولياء بعض ﴾ فلا بد من وقوع تصديق هذه الآيات ولأن معاقبة المنحرف باستيلاء الكافر عليه أعظم وأشنع ، لأن في ذلك تعذيبا له بجنس الأسباب التي فتن بها عن دينه ، فان أكثر الكفار إنما كفروا بسبب الأسباب التي أخذوها عن هؤلاء الكفار الذين عذبوا بهم فان أكثرهم قدموا آراءهم وأفكارهم على دين الله ونظامه وأطاعوه واتبعوا أمرهم وعصوا الله وخالفوا أمره ، ولأن استيلاءهم عليهم أعظم شناعة من استيلاء المؤمنين لكونهم أبعد عن الرحمة والعدل فيهم ولأن ذلك مما يجلب البغضاء والعداوة والإحـن الطويلة كما قال تعالى ﴿ فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيمة ﴾ وقد أخبر الله سبحانه أنه سـلط بخت نصر على بني إسرائيل لما أفسدوا في الأرض وأنه سبحانه هو الذي بعث عليهم بسبب فسقهم مع كونه من أكفر الكفار عقوبة لهم ، وهو سبحانه وإن سـلط بعض الكافرين على بعض فلا بد أن ينقم منهم جميعا وكثيرا ما يدل الأمر عليهم فيجعل الغالب مغلوبا ويذيق بعضهم بأس بعض . وبالجملة فالعقوبات بأنواعها لا يحيط بعلمها إلا الله تعالى ، كما أن شعب الكفر والفسوق كذلك متنوعة أنواعا لا تنضب ، فن أبن لهذا الزائغ أن الأبحرة المنحصرة التي قد يحدث منها بعض الزلازل أن الله تعالى لم يخلقها ليعذب بها من شاء ، ومن أين له أنه سبحانه اذا شاء حبسها عن قوم وأطلقها على آخرين ، وإن شاء خففها وإن شاء جعلها نقمة على قوم بأن يهلك بها عدوهم ويجعلها نقمة على آخرين ، فغاية ما لديه أن بعض الناس يعرف سببها المادي فقط ، فأى شيء فيها ، فالقتل والحروب تعرف أسبابها المادية ، وكذلك الجوع وكثير من المصائب ، فعرفة السبب شيء ومعرفة كونها قد تقع عقوبة شيء آخر ، ولو أن انسانا ظلم انسانا آخر فدعا عليه المظلوم فسلط الله على الظالم من يعذبه ويقتله بأفعال صدرت منه لم يكن علم هذا

السبب نافيا لأن يكون ما حل بهذا الظالم عقوبة له ، وقد علم بالضرورة والتاريخ الصادق أن الله تعالى لم يعذب أمة صالحة تقية قط ، ولم يعرف ذلك على كثرة المصائب والقرون الطويلة ، لا بزلزال ولا غيره كما قال تعالى ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ وقال تعالى ﴿ وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ وهذا بخلاف الأمم الكافرة فإن المصائب متتابعة عليهم من أول الدنيا إلى آخرها فلا يخرجون من عقوبة إلا ليدخلوا في عقوبة ، لأنهم لا يخرجون من ظلمة من ظلمات الكفر إلا دخلوا في ظلمة كفر آخر ، فهم في ريبهم وكفرهم يترددون

فما ذكره هذا المغرور في هذا الاعتراض الأهوج على هذا الصديق التقى — كما يقول — إيراد ساقط ، ولو كان عاقلا لتأدب مع صديقه هذا ولم يقابله بهذه القحة والبذاءة ، مع أنه لم يقل إلا الحق مستندا إلى نصوص شرعية ، فهو لم يطلب منه الدليل بل عارضه بهذا الهذيان المنكر ، فهو مبتلى بالمشاكسة والمعاكسة ولا سيما مع أصدقائه ، وأما أعداؤه فهو أطوع لهم من الكلب المعلم . وكل هذه الدعاوى مبنية على أصله الخبيث من أن الطاعات والمعاصي لا أثر لها في الحوادث كلها ، وهو مبني على أصل الالحاد ، وقد تقدم الكلام على مثل هذا مرارا ويأتي الكلام على بقية ما يتعلق به

فصل

قال ومن اللفتات اللطيفة الصريحة إلى هذه النواميس قصة تلقيح النخل ، وذلك أن الرسول لما قدم المدينة ورأى الناس يلقحون النخل قال : ما أظن ذلك يغني شينا ، فتركوا التلقيح ففسد الثمر ، فأخبر ، فأمرهم بالرجوع إلى ما كانوا يفعلون . ولو كان من الممكن الخروج عن السنن لخرج النخل عنها ولو هذه المرة ليكون ظن الرسول صدقا ، ولئلا يوجه إليه الخطأ في مسألة كهذه .

والجواب أن يقال : قد ذكر هذا المذخور قصة تلقيح النخل في كتابه في عدة مواضع ، وغرضه من ذلك الحث على رفض ما جاء به النبي ﷺ ، إذ ظن بعقله الفاسد أن هذا الحديث يفيد أنه عليه السلام لا يعرف سنن الله في خلقه . وهذا الحديث من أبلغ الحجج عليه ، ولو سكنت عنه لكان أستر له ، وذلك من وجوه :

أحدها أن هذا المذخور قرر فيما يأتي في صحيفة ٢٧٩ من أغلاله أن الشاك في أسباب الله هو في الحقيقة شاك في الله ، فقال وهذا لفظه « والشاكون في أسباب الله - وكل ما في هذه الدنيا هو من أسباب الله - هم في الحقيقة شاكون في الله ، فإن هذا الشك معناه الشك في قدرته تعالى أن يجعلها أسبابا موصلة مبلغة ، انتهى . فهذا تصريح جلي منه بأن من شك في سبب من هذه الأسباب الموجودة في هذا الوجود فقد شك في الله ، ولا شك أن الشك في الله كفر وخروج عن حظيرة الاسلام ، وحينئذ يقال لهذا الملاحد : إما أن يكون الرسول ﷺ عارفا بسنة الله في خلقه في مثل هذا وأن التلقيح سبب في صلاح الثمرة أو لا يكون عارفا بذلك ، فإن كان عارفا بأن هذا سبب وسنة من سنن الله فقد جوز كون السبب المادى يتخلف عن نتيجته ، وأن هذا ليس هو من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل ، فهو يرى تغيير هذا السبب جائزا في سنة الله ، وأن الأسباب الطبيعية ليست هي سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل ، وحينئذ فلا حجة لك في كون الأسباب مربوطة بنتائجها ربطا حتميا يستحيل انقطاعه . وإن كان يرى أن ذلك واجب وأنه لا يجوز الاعتقاد بأن الأسباب قد تتخلف عن نتائجها وأن الشك في ذلك شك في الله فقد طعنت في الرسول عليه السلام وأصحابه الذين وافقوه وجعلتهم شاكين في الله ، ولا ريب أن هذا كفر ظاهر . ثم هو لم يأمرهم بالتوبة والاستغفار لما وقع الأمر على خلاف ما ظنوا ، بل الحديث صريح في أن الشك في الأسباب المادية ليس

فيه شيء أصلا بل هو مباح في مثل هذا . ومن أعجب العجب وأكفر الكفر أن يأتي هذا الملمد الى أكبر سبب في الدنيا - وهو الدعاء وعبادة الله - فينفي سببته وفائدته ، فلا يكتفى بالشك بل يحزم بعدم السببية ، ثم يعمد الى الأسباب المادية بمحملتها ويجعل الشك في شيء منها شكا في الله وقدرته . فيا بلعام زمانه هل تظن أن الرسول عليه السلام شك في ربه وقدرته تعالى وتقدس حتى قال لا أظن أن ذلك يغنى شيئا . وإذا قيل انه يحفل ذلك قيل اذن هو جاهل في الله وقدرته والجهل أعظم من الشك ، ثم اذا كان مثله يحمله فكيف يشنع على غيره وينسبهم الى الضلال وفساد العقل . وإذا قيل قد وقع الأمر على خلاف ظنه قيل هذا حجة عليك لان وقوعه دليل على أن ذلك من الجائز الذي يمكن وقوعه ويمكن عدم وقوعه ، فان الظن أكثر ما يتأتى في الجائز ، إذ لو وقع على ما ظن لعدم ذلك معجزة فلا يكون ذلك ممكنا إلا بطريق المعجزة ، فعلمنا أن عدم وقوعه مع ظن الرسول عليه السلام في حيز الامكان لا في حيز الواجب ولا المستحيل ، وهذا ظاهر لا خفاء به كما تقدم التنبيه عليه .

الوجه الثاني أنك قررت فيما مضى أن ضعف المسلمين وتأخرهم راجع الى شيء واحد وهو الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها ، فاذا كان هذا هو علة التأخر عندك فعلى كلامك هذا أن الرسول وأصحابه جهلوا نواميس الطبيعة في هذا الشيء الظاهر في تلقيح النخل ، فكيف بما هو أدق منه . وقد علم أنه هو وأصحابه لم يتأخروا بل تقدموا على من سواهم ممن هم أعلم منهم في بعض هذه الأمور الطبيعية والمادية فيكون الحديث حجة عليك لان الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها ليس هو علة التأخر

الوجه الثالث أن الحديث نص صريح قاطع في أن الرسول عليه السلام كان يرى أن الأسباب الطبيعية كلها تحت المشيئة والقدرة ، وأن النتيجة ليست لازمة للوسيلة لزوما حتميا ولا أن السبب لازم لسببه لزوما حتميا يستحيل

تخلفه ، اذ لو كان يرى رأى بعض ملاحدة الطبائعين الذين يرون أن ربط
الأسباب بمسبباتها لازما ليس في الامكان تخلفه وانفكاكه لم يظن هذا الظن إذ
هو صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يظن بربه ما هو محال في حقه تعالى ، فلو
كان دخول المشيئة العليا بين السبب ومسببه محالا لم يخف على الرسول عليه
السلام ذلك فيظن بالله ما لا يليق به ، وكون ذلك خالف ظنه دليل واضح على
الجواز لان مثل الظن انما يقع على الجائز فوقوعه على خلاف ما ظن بما يبرهن
على جوازه وهو المطلوب كما تقدم بيانه

الوجه الرابع أن الرسول ﷺ لم يأمرهم أمرا قطعيا ، اذ لو أمرهم بذلك
أمر شرعا لوقع الأمر على ما أمر ، فانه لا يوجد في الشريعة أنه أمرهم أمرا
قطعيا فعملوا به واستقر فكانت النتيجة على خلاف ما أمرهم ، بخلاف الظن
أو الرأي الذي ينص على أنه ظن أو رأى منه كما في قصة الصلح الذي أراد أن
يعقده في وقعة الاحزاب فقال : انه رأى منى . وفرق ظاهر بين الأمر وبين
الظن ، فان كلا منهما له حكم يترتب عليه أثره

الوجه الخامس أن الذين رووا هذا الحديث هم من الذين رووا أحاديث
كثير من المعجزات وخوارق العادات كانشقاق القمر وحنين الجذع ونبع
الماء بين أصابع النبي ﷺ حتى أروى الجموع الكثيرة من إناء واحد ونحو
ذلك من الروايات الكثيرة الصحيحة مما فيه تغير الأسباب العادية وقطعها عن
مسبباتها ، وكذلك رووا حديث « لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه » فمن
أراد أن يكفر ببعض هذه الروايات تبعا لهواه ويؤمن بما شاء منها انقيادا
لغرضه وشهوته فلا شك أنه متلاعب بالدين ، وأنه يريد أن يكون شرع الله
على وفق أغراضه وهواه ، وأن يكون هو المقدم في الأمر دون الشارع
الحكيم ، ومثل هذا لا تقبل دعواه ولا يلتفت إليها مطلقا

وينبغي أن يعلم ها هنا أن كثيرا من الزنادقة حينما يحاولون التماس من

نظام الشرع وتحكيمه في الأمور الدينية التي وردت فيها النصوص يجعلون هذا الحديث عذرا لهم في التخلص منها فيقول قائلهم حينما تخنقه الحجة الشرعية ويتضايق من مدلولها بالنص : قد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » وهذا الاحتجاج من جنس من يحتج على جواز تزويج المعتدة وغيرها ممن يحرم تزويجها بقوله تعالى ﴿ فأنكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾ ويعرض عن النصوص الأخرى ، ومثل من يحتج على أكل الربا بقوله تعالى ﴿ وأحل الله البيع ﴾ ويقول هذا بيع ، ومثل من يحتج على تعذيب بعض الحيوانات المستضعفة والعبث بها بما تشتمل منه النفوس وتنكره الفطرة بأنه قد أبيح قتلها ^(١) ويعرض كل من هؤلاء عن النصوص الأخرى التي تنص على تحريم تزويج المحرمات وعلى تحريم الربا وعلى تعذيب الحيوان بغير ما شرع في النصوص الدينية

فقول النبي ﷺ : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » مقصود به الشيء الذي ليس فيه نص ، فإن النص لا ينقض النص ، بل يجب العمل بالنصين جميعا مهما وجدنا لذلك سبيلا ، ففي هذا الحديث بيان أصل كبير وهو أن الأمور الدنيوية

(١) ان من أعظم البلاء ما يفعله كثير من الجهلاء في تعذيب الحيوانات سواء كانت صغيرة أو كبيرة من المواشي أو الطيور أو غيرها في أغراضهم وشهواتهم المطلقة ، فإن الله سبحانه لم يبح قتل حيوان ولا استعماله إلا على وجه مخصوص ، لا على ما يشتهي الانسان ويريد ، فمن تجاوز ما أمر به فقد تعدى حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون . ومن أعظم مظاهر الوحشية والهمجية وضعف الشعور والاحساس أن يتسلط الانسان على ذى روح محترم مستضعف بغير ما أمر الله به ، وفي الحديث الصحيح « من قتل عصفورا من غير حاجة عجز الى الله تعالى وقال : يا رب سل هذا لم قتلني ، وفيه أيضا أن امرأة دخلت النار في هرة ربطتها ، لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض ، وقال : رأيتها وهي تعذب في النار

الإصل فيها الإباحة والعدل المطلق ، هذا هو مفاد الحديث ، لئلا يقول قائل
 في كل أمر دينوي لا بد من دليل على جوازه ، فهذا الحديث نص على أن
 الأصل في ذلك الإباحة ، لكن ما وردت فيه النصوص الخاصة يجب العمل
 بها ، اذ لو كان الحديث يفيد عموم أمور الدنيا كلها لصار هذا الحديث ناسخاً
 لنصوص القرآن والسنة في كل ما يتعلق بالأمور الدنيوية ، وهذا خلاف ما
 علم بالضرورة من دين الاسلام ، وخلاف ما أجمعت عليه الامة . وعن
 المقدم بن معد يكرب الكندي أن رسول الله ﷺ قال : يوشك الرجل
 متكئاً على أريكته يحدث بحديث من حديثي فيقول بيننا وبينكم كتاب الله عز
 وجل فما وجدنا فيه من حلال استحلناه وما وجدنا فيه من حرام حرّمناه .
 ألا وإن ما حرّم رسول الله ﷺ مثل ما حرّم الله ، أخرجه للترمذي وابن
 ماجه ، وباليث هؤلاء الذين يحتجون بهذا الحديث أحياناً مقصودهم الانقياد
 لدلوله والعمل به ، ولكنهم إنما يحتجون به تخلصاً واعتذاراً ومخادعة لله في
 نفس الأمر ، وأكبر برهان على هذا أنهم اذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله وإلى
 ما جاء عن الرسول بما هو أصح من هذا الحديث وبما يقيد مطلق هذا الحديث
 تعرضوا عن ذلك وشمخوا بأنوفهم وأبوا أن يقبلوا هذا الذي يدعون اليه ،
 وهؤلاء في الحقيقة هم من جنس أولئك الذين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم
 بينهم اذا فريق منهم معرضون ، وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين . قال
 تعالى ﴿ ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ وقال تعالى ﴿ وما
 أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله ﴾ وقال تعالى ﴿ فلا وربك لا يؤمنون
 حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلووا
 تسلياً ﴾ وقال تعالى ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو
 يصيبهم عذاب أليم ﴾ قال الامام أحمد : عجبت لقوم عرفوا الاسناد وصحته
 يذهبون الى رأي سفيان ، والله يقول ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن
 تصيبهم فتنة ﴾ ، أتدري ما الفتنة ، الفتنة هي الشرك ، لعله اذا رد قوله يقع في

قلبه شيء من الزيف فيهلك . وقال ابن عباس : يوشك أن تقع عليكم حجارة من السماء ، أقول « قال رسول الله » ، وتقولون « قال أبو بكر وعمر » ،

فهذا قول ابن عباس والامام احمد فيمن أخذ بقول ابى بكر وعمر وسفبان ونحوهم وترك النص ، فكيف بمن أخذ بقوانين الرومان والأفرنج الذين قد أخبرنا الله عنهم بأنه غضب عليهم ولعنهم وأنهم أعداؤه ، وترك نصوص الدين ، ثم ادعى مع ذلك أنه مستحق لأن ينصر وأن يؤيد من العناية الربانية ، ويستنكر المصائب التي أحاطت به من كل جانب ، وإذا خفيت العلة وعظمت فكيف العلاج والصحة وكيف الحياة والنجاة

وقوله « ولئلا يوجه اليه الخطأ في مسألة كهذه » ،

يقال : هذا مما يدل على ضعف عقلك ، فان الرسول ﷺ قد ثبتت رسالته بالبراهين التي هي أوضح من الشمس ، فكل من آمن به إيماناً صادقاً فإنه لا يمكن أن يوجه اليه شيئاً من الخطأ لا في مثل هذه المسألة ولا غيرها ، فان توجيه الخطأ اليه يتنافى مع الايمان بالرسالة ، وليس في هذه المسألة خطأ أصلاً كما شرحناه ، فإنه لم يأمر بترك التلقيح ، بل قال « أظن » ، والظن غير الأمر ، ولأن الظن إنما يتأتى فيما يجوز وقوعه وعدمه ، فلو قدر أنه وجد في مثل هذا خطأ لم يكن من الأمور التي أمر بفعلها ولا التي استقرت في الشريعة ، فتوجيه الخطأ اليه في هذا هو الذى يتنافى مع التصديق برسالته وكونه رسولا ، ولهذا فان أصحابه الذين سمعوا منه هذا وكذا غيرهم ممن اتصلت اليهم هذه الرواية وكانوا مؤمنين به حقاً لم يؤثر هذا في إيمانهم شيئاً ، وأما من كان في قلبه مرض من الريب والشك فقد يكون وقوع مثل هذا في حقه فتنة وامتحاناً ، وقد قال تعالى ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ فمن أثر وقوع مثل هذا الأمر في قلبه فلا شك أن قلبه مريض بالزندقة والتفارق ، فلم يك منقاداً لكل

ما جاء به الرسول ﷺ ، بل قد يحمله زيغه وضلاله على أن يوجه إليه الخطأ في هذه المسألة ، ولا بد إذن أن يوجه إليه الخطأ في غيرها ، فإن الشكوك والشبهات الواردة على القلوب المقفلة لا حدة لها ، والايمان في القلب مثل الصحة في الجسم ، فتي كان الجسم عيلاً عسر علاج الجروح التي فيه ، فاذا كان صحيحاً قوياً قابلاً للشفاء صار ما يصادفه من جروح تافهة قابلة للعلاج الصحيح فينفعها وتستقي به ، فالشبهات القوية الواردة على القلب كالعوارض والأمراض التي تعرض للجسم من العدوى ونحوها ، فاذا كان قوياً مؤمناً إيماناً صادقاً خالصاً لم تعلق فيه الشبهات بل يقاومها وتزول عنه ويبرأ مما علق به منها سريعاً اذا عالجها بالمواد الروحية القوية ، واذا كان الايمان ضعيفاً في القلب أثرت فيه الشبهات تأثيراً بليغاً بقدر ما فيه من الضعف والقوة ، فان كان ضعيفاً جداً فلا بد أن تستولى عليه حتى تهلك وتذهب قواه المقاومة لها . وقد علم أن الانسان متى كان معه شك وتردد في شيء من الأشياء الواضحة فانه إما أن يكون قلقاً مضطرباً ، وإما أن يقع في الوسواس أو الخبل ، وحينئذ تعظم المصيبة فينسلخ إما من العقل أو من الدين أو كليهما ، فالشك في القطعيات فساد في العقل ، كما أن عدم استقامة الحواس فساد في الجسم وكلاهما مآله الهلاك غالباً

فصل

قال « ولن يتصور حساب أدق ولا أعَدل من قوله تعالى ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ والفوضى في الحساب أعظم مخذل لقوى الانسان ، وأعظم واقف في سبيله »

فيقال : اذا كان الحال كما ذكرت فلم جعلت المسمى كالمحسن ، والذين آمنوا وعمِلوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ، حيث ذكرت أن عدل الله هو التسوية بين الآخذين بالأسباب بدون نظر الى أديانهم ومذاهبهم ، وجعلت

المساجد أدت شر ما يؤدي ، وإن من دعا الله لا يحصل له فائدة من دعائه ،
ومعلوم أنه لن يتصور حساب أدق ولا أعبد من قوله تعالى ﴿ أم حسب
الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم
ومماتهم ساء ما يحكمون . وخلق الله السموات والارض بالحق ولتجزى كل
نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ وانت عمدت الى هذه الأصول التي اشتملت
عليها هذه الآيات فبذلك جهدك في هدمها ونقضها ، فجعلت الاخلاق الدينية
لها نتائج أخرى غير نتائج المجد ، ومعلوم أن الله يقول ﴿ فن يعمل مثقال
ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ فجعلت من يعمل مثقال
جبل أو أكبر من ذلك من الدعاء والتقوى والأعمال الصالحة وغيرها من
الاخلاق الدينية لا يحصل له غير الخيبة ، وهذا عين المناقضة للأديان وكيف
يستطيع الانسان أن يتصور أن في إسناد الحوادث الى الطبيعة ونواميسها
شيئا من العدل ، بل إنما يتصور ذلك إذا كانت الأمور كلها تجري بإرادة الحي
القيوم العليم الحكيم الرحيم القائم على كل نفس بما كسبت ، هذا هو
العدل والحكمة ، وكيف يستطيع الزارع أن يزرع والصانع أن يصنع والتاجر
أن يسعى في تجارته والمتعلم أن يوالى درسه وهو يعلم أن ناصيته ومصيره عند
الطبيعة العاتية ونواميسها ، فإن هذا هو الفوضى والشر والظلم الذي لا ريب فيه
أن كل مسلم على بينة من أمره يعلم أن هذا الاستشهاد والاستدلال نفاق
مكشوف وخداع مفضوح فلا يعجز كل من أراد أن يفسد دين الاسلام أن
يقول الكفر ويفعل الكفر ثم يخادع من جنس هذا الخداع اذا كان يتصور
أن المسلمين ليس لهم قلوب يفقهون بها وأعين يبصرون بها وآذان يسمعون
بها وانهم كالانعام ، وإلا فرجل يجاهر بالكفر وسب الأديان ، وأن رضا
الله وسخطه لا دخل لهما في الأسباب ومسبباتها ، وأن نواميس الطبيعة تحكم
العالم باستخدام الانسان لهما ، وأمثال ذلك مما أوضحنه ثم يدعى مع ذلك أنه

لا أدق ولا أعدل من قوله تعالى ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره﴾ الى آخر الآية ، لا شك أنه رجل ماجن مستهتر متلاعب لم يتصور في الناس من يعرف الحق من الباطل ، ولا من يميز الصدق من النفاق ، والنصح من المكر والخداع . وقد سبق الكلام عن مثل هذا مرارا

ثم ذكر أن أكثر الناس صاروا يرون أن الجزاء والمكافئة ليست على قدر الكفاية وإنما يرجع ذلك الى الوساطات والشفاعات والقرابات والى أمور أخرى ، وذكر أن سبب هذا هو الايمان بالفوضى

ونحن نقول له : نعم سبب هذا هو الايمان بالفوضى التي تدعو اليها ، والإعراض عن الاخلاق الدينية الطاهرة . والبرهان على ذلك أن أكثر هؤلاء الذين يقعون في هذه الأمور لا يخرجون من معاهد دينية نزيهة ، بل أكثرهم يخرجون من كليات ومعاهد قد تأثرت بهذا الوباء الذي تدعو اليه من فساد الأخلاق كالعلو في حب المادة وكراهة الأخلاق الدينية المحض (١) وكتلقينهم ان مستند التقدم والرقى أمر يرجع الى الطبيعة ونواميسها لا على حسب أعمال الخير والشر ومعاملة الله تعالى بالصدق والاخلاص ، وأن الأمور كلها تحت مشيئته وارادته ، وأنه يجازى كل عامل بعمله ، ولهذا تجد أعظم المجتمعات فسادا أكثرها زندقة والحادا ، وأقواها وأشدّها تماسكا أقربها الى الأخلاق الدينية كالصدق والعفاف والفطنة والذكاء والأمانة القوية ونحو ذلك

(١) فانهم لما اعتقدوا أن الصلاح والتقوى وخشية الله والاستقامة في الدين خمول وضعف وانحطاط ، وأن الفجور والخبث والمكر دهاء وسياسة ولا يؤثر في التأخر شيئا عملوا بمقتضى هذا الاعتقاد ، فكانوا خبناء فجارا متهاكئين على المادة لأنهم رأوا أكثر الناس يعبدونها

ثم أخذ يستطرد في أن أصل فسادنا هو إيماننا بالفوضى ، وقد بينا لك أن معنى الفوضى عنده هو الايمان بمشيئة الله و ارادته ، وأن العالم يجري كله على مقتضى عليه وحكمته ورحمته ، وبيننا لك أن العدل عنده هو كونه يجري بمقتضى الطبيعة ونواميسها باستخدام الانسان لها ، فلاحظ هذا يزول عنك كثير من خداعه ونفاقه الذى موم به على ضحفاء البصائر والعقول . ولهذا فانه أوضح هنا الفوضى التى يريد بها وبين أن الاعتقاد بأن القضاء والقدر وأن ارادة الله أو رضاه و غضبه و حبه و بغضه له دخل فى الأسباب والمسببات أو الوسائل والنتائج يوقع فى الفوضى ، ففى اعتقد الانسان هذا الاعتقاد فقد اعتقد الفوضى ، أما اذا اعتقد فى الله تعالى أنه ليس لغضبه ولا لرضاه ولا لحبه ولا لبغضه تدخل فى الأسباب ومسبباتها وكذا الوسائل ونتائجها فانه يكون معتقدا العدالة المطلقة ، ولهذا قال وهذا لفظه :

« فالذين يرون أن القضاء والقدر ، أو أن الحظ ، أو أن الشفاعة والوساطة ، أو أن الارادة المطلقة أو أن رضا الله و غضبه و حبه و بغضه : ان شيئا من هذا القليل يدخل بين المرم وعمله وبين السبب ومسببه وبين الوسيلة والنتيجة - أى يرون أن هذه الأشياء تدخل فى مصير الانسان وتحول بينه وبين النتيجة التى يجب أن يوصله اليها عمله - هم قوم لن يجدوا فى أنفسهم ما يعينهم على الاندفاع الى الأعمال الصالحة ، وعلى الانطلاق فى سبيل الحياة القوية ، انتهى

فقد رأيت معنى الفوضى عنده ، فن آمن بأن القضاء والقدر أو إرادة الله المطلقة أو غضبه ورضاه و حبه و بغضه يدخل بين المرم وعمله وبين السبب ومسببه أو بين الوسيلة والنتيجة فقد آمن بالفوضى وصار من الذين لا يجدون ما يعينهم على العمل ، فالله لا يعينهم اذا آمنوا بأن إرادته أو غضبه أو حبه و بغضه يدخل بين المرم وعمله ، وانما يعانون اذا كفروا بهذا الاعتقاد ، فاذا

كفروا به واعتقدوا أن رضاه وغضبه وإرادته وحبه وبغضه وجوده وعدمه سواء ، ولهذا قال فيما تقدم اننا لا نحتاج أن نلتزم مهبازا يندفع به الانسان بل مهبازه فيه وفي طبعه . وقد جرى على عادته في هذه الجملة في التلييس ، فأدخل الوساطة والشفاعة مع الحب والبغض ، وجعل الحكم واحدا ^(١) ، وهذا من المسائل التي نهيئنا عليها في الملاحظة الثالثة في أول الكتاب ، فتأمل هذه المواضع تعلم حقيقة نفاقه العميق وخبثه الذي لا حد له في تلييسه في دعوي الفوضى التي طالمارمى أعداءه بها . ولهذا أدخل الأعمال الصالحة ومراده المادية ، لأن الأعمال الصالحة الدينية قد تقدم قوله فيها بأن لها نتائج أخرى ، ولأنها هي التي لا يدفعها سوى الاعتقاد بأن غضب الله ورضاه وحبه وبغضه له تدخل في ذلك

أما النظام والعدالة التي يدعو إليها فهو عكس ما ذكره هنا ، وهو الكفر بالتفريق بين الإيمان والكفر وبين غضب الله ورضاه وحبه وبغضه والكفر بكونه يغدق على من أحبه وينتقم ممن سخط عليه ، ولهذا فانه أخرج هذا الخبث والكفر الغليظ في قالب العدل فقال وهذا لفظه :

« فالجتماع الذي يرتجى له التبريز في ميدان الأعمال هو الذي يؤمن بالعدالة المطلقة ، في السماء وفي الأرض ، وبالجزء القائم على القوانين العادلة العامة التي لا تعترف بالتفريق ولا بالوساطات ولا بالشفاعات ولا بالانتقام للحقد ولا بالاغداق للحب ، انتهى

فهذا هو النظام عنده ، فهو أن يؤمن الانسان بالعدالة المطلقة ، وقد تقدم تفسيره لها بأنها التسوية بين الأخذير بالأسباب بدون نظر الى أديانهم ومذاهبهم ، فالاديان لا دخل لها في تقدم ولا تأخر ، فالذين آمنوا وعملوا

(١) كما أدخل الدعاء مع السباب والأنهام كما سبق

الصالحات كالمفسدين في الأرض فلا فرق بينهم في الجزاء في الدنيا ، فتي آمن
الانسان بان غضب الله ورضاه وجهه وبغضه لا دخل له في الأسباب ومسئلياتها
ولم يعترف بالتفريق بين الحب والبغض والرضا والغضب فلا ينتقم من أحد
لغضبه عليه ولا يرفع أحدا لرضاه عليه فلا يصدق على أحد خيرا من أجل
حبه له كالمؤمنين مثلا ولا ينتقم من أحد من أجل غضبه أو بغضه له كالمفسدين
مثلا ، متى آمن الانسان بهذا فقد آمن بالنظام والعدالة . وحاصل هذا أنه اذا
ساوى بين الله وبين الأصنام في عدم الافضال والانتقام فقد آمن بالنظام ،
أما اذا اعترف بالتفريق بين المسمى والمحسن والمطيع والعاصي وأن الله فرق
بينهما فيجازى المحسن بالاحسان في الدنيا والآخرة فيصدق على المؤمن لايمانه
وينتقم من الظالم لظلمه في الدنيا والآخرة فقد كفر بهذا النظام ، وهذا هو
روح دعائته المتتوية الخبيثة ، ولا ريب أن حقيقتها هي الدعوة الى الاحاد
الحض وإنكار جميع مظاهر الربوبية . وقد حرص كعاداته في مثل هذه المضايق
على لبس الحق بالباطل

وقوله : في السماء وفي الارض ، كلام ساقط لا محل له هنا ، فأى علاقة
للعادلة في السماء هنا ، والكلام هو في الأسباب المادية ، ولهذا قال صريحا في
بيان العدالة بأن يؤمن الانسان : بالجزاء القائم على القوانين العادلة العامة ،
ثم بينها بقوله : التي لا تعترف بالتفريق ولا بالوساطات ولا بالشفاعات ولا
بالانتقام للحقد ، يعنى الغضب سماه حقدا تشويها لمسامه (١) . ولا بالاغداق
للحب ، وكأنه لم يجد عبارة تنوب عن عبارة الحب أحيانا ليبدلها بها كما بدّل
لفظ الغضب بالحقد ، فقد عرفت أن القوانين العادلة العامة التي طالما دعا اليها

(١) وليس غضب الله كغضب أحد من خلقه حتى يبدل الغضب بالحقد ، فالله
تعالى ليس كمثل شيء . لا في غضبه ورضاه ولا في حبه وبغضه ، هذا اعتقاد المسلمين

هى عدم الاعتراف بالتفريق ، أى الكفر بالتفريق ، ومعلوم أنه يريد بالتفريق هنا بين الأديان والمبادئ والمذاهب كما فسرته فى الموضع الآخر الذى ذكرناه بقوله فى العدل هو التسوية بين الأخذين بالأسباب بدون نظر الى أديانهم ومذاهبهم ، وهنا بين التفريق الذى يريد عدم الاعتراف به وهو الكفر باعتقاد كونه تعالى ينتقم للغضب (١) أو يغدق للحب ، فكما أنه بين أن القوضى هى اعتقاد أن رضى الله وغضبه وجه وبغضه لا تدخل فى الأسباب والمسببات والوسائل والنتائج فقد بين أن اعتقاد ضد هذا هو النظام ، وهو التفريق المذكور بين موجبات الغضب والرضا والحب والبغض (٢) ولهذا ذكر الحق فى مقابلة الغضب وترك الحب بلفظه ، وبين أنه لا بد من نفي هذا التفريق الذى يوجب الانتقام والاغداق ، فانه اذا انتفى التفريق انتفى اعتقاد الاغداق والانتقام ، واذا نفينا هذا حصل الايمان بان هذه الصفات التى هى الحب والبغض والرضا والغضب لا تدخل بين الأسباب والمسببات (٣) وهو صريح فى غاية الوضوح فى أنه ينكر كون الله يغدق على من أحبه وينتقم ممن غضب عليه . ثم انه لحبته وشدة حرصه على لبس الحق بالباطل أدخل العدالة فى السماء وأدخل الوساطة والشفاعة هنا ولا محل لذلك ، أما الوساطة والشفاعة فقد تقدم الكلام عليهما ، وأما السماء فلا مناسبة لادخالها هنا البتة كما سبق

(١) وعبر عنه بالحق

(٢) وقد سبق ادعاؤه بأن فساد الأخلاق لا دخل له فى تأخرنا ، لأن غضب الله المرتب عليه لا أثر له

(٣) وحينئذ يكون مستند الحوادث هى تواميس الطبيعة التى لا تفرق بين المحسن والمسيء ، وليس لها غضب ولا رضا ولا حب ولا بغض ، بل هى تفاعل قسرى مستمر تتأخره المصادفة والاضطرار بحسب تصريف الألسان له

والحاصل أن هذا الزنديق شبه الله تعالى بالأصنام العاجزة التي لا تتدخل في أعمال الناس ، لا بارادة ولا قضاء ولا قدر ، فلا تنفع ولا تضر ولا تغدق ولا تنتقم . وهذه القاعدة المنكرة لها نظائر كثيرة جدا ، وهي في أغلاله كالأصول والقواعد التي يدور عليها ، ولهذا أنكر المحابة لزعمه أن الإثابة والانتقام محابة ، وهجم على الأخلاق الدينية كلها ولم يستثن منها خلقا واحدا ، لأنه لما اعتقد أنه لا ثواب لها فلا إغداق لمن أحبه الله ولا أثر لخطئه ورضاه ، فأى فائدة فيها ، ولهذا جعلها ملهاة وتعويقا ونحو ذلك ، وقد تقدم قوله بأن من استخدم هذه النواميس أى نواميس الطبيعة وسار معها بلا اصطدام نال ما ينبغي فصار النفع والضرر وتصريف الأمور كلها تجرى بالطبع ، فالإنسان هو الذى يستخدم هذا النواميس وهي تجرى باستخدامه ، فينال منها مقدار ما فى ملكته من الاقتدار على الاستخدام ، لا على ما يريد الله ويقضيه ويقدره له بمقتضى عليه وحكمته ورحمته وبما يقوم به الإنسان من الإيمان والدين واتباع أمر الله وأخذه بالأسباب الدينية والمادية التي أمر الله بها . ويجب أن يعلم أن هذا الأصل الذى ادعاه واجتهد فى تقريره هو من أعظم أصول الكفر ، وأكثر ملاحدة العصر توسلوا به الى هدم الأديان ، وهو مناقض لجميع الأديان السماوية ، ومصادم أعظم المصادمة للنصوص التي لا تعد ولا تحصى ، قال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم بما هم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها وزسله فخاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا ﴾ وقال تعالى ﴿ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴾ وقال تعالى ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين فجعلائهم سلفا ومثلا للآخرين ﴾ وقال تعالى ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ﴾ وقال تعالى ﴿ فكلما أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم

من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿ وقال تعالى ﴿ فلما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾ وكذلك قال في صالح وقومه وشعيب وقومه ، وقال تعالى ﴿ ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبثما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون ﴾ وقال تعالى ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون . وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ أفجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون ﴾ وقال تعالى ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ وقال تعالى ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ والآيات في هذا أكثر من أن تحصر ، فمن جحد هذا الأصل فقد ساوى بينه تعالى وبين المخلوقات العاجزة بل المعدومات ، فأى ربوبية لمن لا تدخل لارادته في مخلوقاته ولا أثر لحبه وبغضه ورضاه وسخطه ، وجميع الأمم الذين قص الله علينا ما فعل بهم إنما عاقبهم الله لأجل غضبه عليهم ، وكذلك الأمم التي نصرها الله وأيدها وأنجأها من الهلاك إنما فعل بها ذلك لأجل رضاه تعالى عنها . وإنما قص علينا قصصهم لنعلم بهم ، وقد كان من المعلوم أن فرعون لم يهلك ويحل به الدمار إلا من أجل معصيته وغضب الله عليه ، وأن موسى لم ينتصر هو وقومه ويكونوا خلفاء الأرض من بعده فرعون وقومه إلا من أجل طاعة الله تعالى ورضاه ومحبه . وكذلك جميع الرسل مع أممهم ، وقد قال تعالى ﴿ أنا أرسلنا اليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا الى فرعون رسولا فمضى فرعون الرسول فأخذناه أخذنا وبيللا ﴾ فيبين تعالى أنه أرسل اليها رسولا فان آمنوا به واتبعناه كنا من أطاع هذا الرسول فالذى أرسل الى فرعون وقومه ففاز من أطاعه ونصر وحصل له التأييد

والتكبر والتجاح ، وإن عصيانه كنا كن عصي ذلك الرسول فلا بد من العقوبة ، ولهذا كان عاقبة هؤلاء الذين عصوا هذا الرسول وادعوا اتباعه كعاقبة الذين عصوا موسى وادعوا اتباعه بأن سلط على كل من هؤلاء هؤلاء أعداءهم كلا على قدر معصيته ، وفي الحديث « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : فن ؟ » متفق عليه

فالإيمان بعدم التفريق بين ما يوجب محبة الله ورضاه وما يوجب غضبه وسخطه في التقدم والتأخر يضاد نصوص الدين أعظم المصادمة ويقضي بإبطال الربوبية وهو كفر أعظم من كفر مشركي الجاهلية ، فانهم مقرون باسناد الخلق والتدبير لله تعالى لوضوح ذلك ، وإنما كفروا لأنهم اعتمدوا على بعض المخلوقات وتوكلوا عليها معتقدين أن فيها مواهب واستعدادات تستطيع بها إيصال النفع والضر اليهم إما بذاتها وإما بواسطتها كما أوضحناه ، ومجرد الاقرار بأن الله خالق العالمين لا يدخل في الاسلام كما اعترف بذلك هو في نبذته في (الفصل الحاسم ^(١)) وغيرها

ولا شك أن أعظم مفسد للعقل ومبطل للقوى وواقف في سبيلها هو الاعتقاد بان المسمى كالحسن والظالم كالعادل والمفسد كالمصلح في استحصال النتائج ، وأن ذلك كله منوط باستخدام الانسان لنواميس الطبيعة لا بأعماله التي يلقي عليها جزاءه إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، فتي علم أن فساد الأخلاق وصلاحيها لا تأثير له البتة في تقدم ولا تأخر فكيف يعمل الاحسان وينتهى عن عمل السوء ، بل أكثر من يعتقد هذا الاعتقاد يكون مائعا في اتباع الشهوات ، منهمكا في الغي والبطالة معتمدا هذا العمر القصير لأنه هو رأس ماله

في رأيه فلا حساب ولا عقاب وليس مكلفا — بدافع ضميره — أن يسلك
قواه في مصالح غيره ، وهذا بخلاف من يعتقد أنه إنما يعمل لنفسه وأمه
امتنالا لأمر به الكريم الرحيم العليم الحكيم القائم على كل نفس بما كسبت
الذي له الكمال المطلق من كل وجه ، وأنه هو الذي يعز ويزل ويعين من أطاعه
ويؤيده وينصره ، ويخذل من عانده واستكبر عن طاعته ، فيعمل بهذا
الاعتقاد ، ان مات مات شهيدا حميدا ، وإن عاش عاش سعيدا حميدا ، وكل
خطوة وكل وقت يعمل فيه لله فهو مكتوب له حسنات ويمحو عنه سيئات فلا
يذهب عمره سدى ولا عمله هباء ، والانسان في هذه الدنيا إنما أعطى هذا
العمر القصير عارية ولا بد أن تؤخذ منه طوعا أو كرها وانما له منه ما استفاده
وربحه في استعمال هذا العمر فمن استعمله فيما ينفعه بقى معه هذا الربح وهو
رأس ماله الذي فيه سعادته ومن استعمله فيما يضره أخذت منه العارية وكان
ما استفاده من هذه العارية وبالا عليه ونكبة وغلا في عنقه لا ينفك عنه أبدا ،
قال تعالى ﴿ وكل انسان أئزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيمة كتابا يلقاه
منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا . من اهتدى فانما يهتدى
لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى . وما كنا معذنين
حتى نبعث رسولا . واذا اردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق
عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ الى آخر الخمس الآيات

فصل

ثم ذكر ما جرى بينه وبين وزارة التكوين المصرية التي ذكر أنه كان يتولى
الإشراف عليها طه السباعي باشا وزملاؤه حينما أراد منها شراء ورق لطبع
أغلاله ، فحصل منها تسلكو وأناة في اجابة طلبه الأهوج ، وقد أطنب في
الاقذاع في سبها واتهامها حتى نسبها الى ما يتضمن الكفر والخروج من الملة ،
وغرضه من هذه القمحة الزائدة شفاء غيظه منها وتخويف غيرها من لسانه اذا

لم تحصل له مطالبه ، والعجب أنه ادعى أن هذه الوزارة من المسلمين ثم مع ذلك أطب وأسهب في ذمها والقدح فيها حتى نسب إليها ما يتضمن كفرها ، ثم ذكر أنه تولى بعدها رئيس مسيحي فأنجز طلبه فدحه وأطال في الثناء عليه . وهذا مما يبين لك أن دينه في الدرهم والدينار وأنها قد استعبدها ، فقد سولت لهذا المغرور نفسه وزين له شيطانه ودفعه زهوه واختياله الى فرض طاعته وقضاء طلبه على كل أحد وعلى كل حال ، وهذا مما يفسر قوله :
لو أنصفوا كنت المقدم في الأمر .. الى آخره

فقال : وثبت هنا شيئا يعده الناس مخزاة خلقية ، ونحن نعده مخزاة اعتقادية فكرية ، لأن إثباتها هنا مما يتصل بموضوع هذا الكتاب ، ولأن شرحه مما يكشف الغرض الذي نرى إليه ، ذلك أننا تقدمنا في أوائل شهر أكتوبر سنة ١٩٤٥ تقريبا الى وزارة التكوين نطلب إليها أن تبيع لنا ورقا لطبع هذا الكتاب ، وقد ابتدأ هذا الطلب خط سيره هكذا : مرّ بالسكرتير العام ثم بالوزير ثم بالوكيل ثم ولج غرفة كل موظف له أدنى اختصاص بهذه المسألة — مسألة الورق — ثم بعد أن انتهى الى آخر مطاف يمكن أن ينتهي إليه كمرّ راجعا الى حيث ابتدأ أولا متخذًا الطريق نفسه نازلا من أعلى الى أسفل أو صاعدا من أسفل الى أعلى سالكا خطأ وهميا دائريا ... وقد ضل في هذا الخط وعجز عن أن يجد له نهاية ينتهي عندها أو بداية يصدر عنها ... ولقد أعيانا أن نجد لهذه المسألة حلا بعد أن جربنا كل وسيلة وحيلة ورقيناها بكل رقية ، قلت : أما أولا فقد ثبت ثبوتا لا مرية فيه أن هذا المغرور لا يقبل قوله في مثل هذا الادعاء المجرد ، فانه تكلم بعد ما أقر — بمقتضى تجاهله — بأنه عدو لهذه الوزارة وأنها مسألة شخصية له حظ فيها فالدعوى ساقطة لا يلتفت إليها

(١) نعم لكننا فيك لا في خصمك لو شعرت بذلك (ربما يريد ضره ضربه نفسه)

ثانيا ليس فيما ادعاه وانتقده على هذه الوزارة كبير أمر حتى يسوغ له أن يبدى ما أبدى ويجن جنونه ، غاية ما في ذلك أن إجابة طلبه تأخرت قليلا ، ومعلوم أن مثل هذا يقع كثيرا إذا كان الطلب مشتبها أو كان هناك عوارض من ريب أو شك أو غير ذلك ، وكونها لم تبين له وجه عدم انجاز طلبه لا يدل على أن هذا ملاحظة ، فقد يكون لعوارض لا يسوغ بيانها لمثله ، ومعلوم أنه ليس بواجب على كل دائرة أن تبين لكل طالب سبب تأخر طلبه ، ولا يخفى على فطن أن هذا المغرور كان مزهوا وغفورا الى أقصى حد . فلا يستبعد منه أن يكون قد أبدى من التطاول ما أخر طلبه ريشما يتحقق أمره ، وإذا دار الأمر بين اتهامه بالتطاول وبين اتهام الوزارة بالملاحظة ونحوها فلا شك أن اتهامه أولى وأرجح ، فإن القائم بأعمال هذه الوزارة ورجاله لم يصلوا الى هذه الزتبة إلا نتيجة لحصولهم على شهادات وثقة أمتهم بهم ، ولما هم عليه من مقدرة وكفاية وأهلية للعمل ، وأما هو فهو زنديق مرتد معروف بما يحققه عند كل من له بصيرة

ثالثا يقال : لا حاجة الى أن تعذب في التماس حل مشكلتك هذه ، فإن فعلك هذا وطلبك وقصدك كل ذلك فعل وقصد لكتاب خبيث والله تعالى يقول ﴿ والذي خبت لا يخرج إلا نكدا ﴾ فلا ينبغي لك أن تستغرب هذا العمل من هذه الوزارة وانت بنفسك قد اعترفت بأنك مكثت ست سنين في مكابدة هذا البلاء الذي أرفض عنه صدرك ، مع أن حاصله مشكلة لم تحل ، فأنت باعترافك هذا لم تستطع أن تحل هذه الوسيلة ولا هذه النتيجة ، فكما أن هذه الخبائث المعقدة المستعصية لم تخرج من صدرك إلا نكدا فكذلك لا يمكن أن تخرج في عالم الطباعة إلا نكدة أيضا ، ولا بد أن يتناولها هذا الناموس الشامل . ولهذا لما خرج بعد طبعه سرت رائحته الخبيثة فسرت به نفوس قدرة طبعت على حب الخبائث وتهافتت عليه تهافت آكلات الجيف على

الجيف ، بخلاف الأرواح الطيبة فإنها تتأذى من رائحته وأغراضه المنقنة .
ولقد أتاح لنا فرصة لا بأس بها في معرفة حشرات كانت مجهولة حالها وكانت
كامنة مخفية في ججورها المظلمة القصية

ثم قال : وقد أعيا رجال وزارة القومين أن يتبينوا وجه الحق فيها فيتبعوه
إما رفضا وإما اجابة . وقد شبهت الوزارة ورجالها وهم يدورون ويتحركون
في المسألة يآلة طباعة تدور وتتحرك كما تدور وتتحرك سائر المطابع ، ولكنها
بدل أن تخرج لنا ورقا مطبوعا عليه كلام مفهوم له فائدة ومعنى تخرج ورقا
مخرقا ممزقا أو مطموسا بالسواد الذى لا يستبان له وجه ولا غرض ،

فيقال : هذا التشبيه منعكس عليك ، فان آلة الطباعة إنما تطبع ما جعل
فيها على وفق طبيعتها ونظامها الذى ركبت عليه ، وحيث أن طلبك الذى قدمته
اليها كان فاسدا أهوج لا يستبان له وجه صحيح ، فهو كالورق الفاسد الملوث
بالسواد وغيره فلا بد أن تعمل فيه ما تعمل الآلة على مقتضى ما يتجهله
ويستحقه ، فمثل هذا الورق الردى الفاسد الملوث لا بد اذا دخل الآلة
- مهما كانت في الجودة والاستقامة - أن يخرج مخرقا ممزقا مطموسا بالسواد
 وغيره ، فلا لوم على آلة الطباعة اذن ، فان النظام الذى ركبت عليه يقتضى هذا
ولو كانت في غاية الاعتدال والصحة ، وانما اللوم على الذى أدخل فيها هذا
الورق الفاسد وطلب منها خلاف نظامها الصحيح ، فانه بطلبه وادخله يعد
أحمق جاهلا لا يعرف الطريق التى بها يستحصل على غرضه ناجحا ، بل يريد
من آلة الطباعة أن تجرى على هواه فتخرج له ما يريد . ويشتهيه ولو كان
مخالفا لنظامها الذى صنعت له

ثم أطال في كلامه على هذه الوزارة فادعى بأن الذى حملها على هذا هو
إيمانها بالفوضى ، ولكن الحقيقة هي أن الذى يريد منها خلاف نظامها هو
الذى يؤمن بالفوضى . وأطال في ذلك ، ثم أخذ يلتمس العلة ، ثم ادعى أنه

وجود ذلك بعد أن ادعى أنه لم يجد لها حلا فقال :

« قد يظن أنه ليس في الوزارة ورق ، أو أن رجال الوزارة لا يحبون أنفسهم ، ثم أجاب بأن الورق موجود فيها ، وأن رجال الوزارة يحبون أنفسهم ، وأن هذه ليست هي العقدة ثم قال :

« ولكن العقدة أو الفرق العظيم بين الفريقين (يعني الأجانب والمسلمين^(١)) هو أن قومنا ومنهم وزارة المؤمنين بما فيها من رجال وأعمال^(٢) لا يؤمنون بأن بين الحوادث تلازما طبيعيا ، وأن بين الوسيلة والنتيجة ارتباطا حقيقيا ، وأن بين الأسباب والمسببات تماسكا أزليا أبديا ، فلا يؤمنون بأن عمل السوء يؤدي لا محالة الى نتيجة ضارة ، وأن عمل الخير سوف يؤدي بلا ريب الى نتيجة سارة ، وأن المراوغة في هذه المسألة والمطاولة والكذب وسلوك غير الطريق سيهبط بهم في النهاية على الفضيحة والخزي والعار والسفينة الفاحشة ، وأن ذلك كله يؤدي بهم بدورهم الى الخيبة والى العقاب الصارم وهو حرمانهم من التقدم والنجاح والفوز بالأمال . انهم لا يؤمنون بهذه النتائج لطبيعتهم الأعمال ، ولو أنهم آمنوا بذلك لكان فيه أعظم زاجر لهم وأقوى مصلح مؤدب ، لأنهم ليسوا فقراء من حب النفس والذات ولسكن فقرهم هو فقر المعرفة بما يجلب الخير وبما يجلب الشر^(٣) ، ولكن لماذا لا يؤمنون بهذا

(١) وذلك أنه ذكر أن الوزارة تغيرت وأنه جاء فيها وزير مسيحي فباعه على

بيع ورق وأعطاه طلبه

(٢) انظر كيف عموم بالمسبة مع أنه قد يكون بعضهم لا حيلة له في تقديم ولا

تأخير في طلبه

(٣) ولكنهم أغنى منك ديناً ودنيا . وإذا كنت تعتقد هذا الاعتقاد فإذا

نفعلك . ومعلوم أن كثيرا من الملاحدة يعتقدون هذا الاعتقاد وقد ماتوا فقرا وجوعا وعرياً

الايان . إنهم لا يؤمنون كذلك لأنهم يؤمنون بأن المشيئة المطلقة العليا (١) أو الأحداث الكونية الغالبة هي المهيمنة على كل شيء : على الوسائل والنتائج ، وعلى الأسباب والمسببات ، هيمنة عيام باطشة ، فهي لا تيسر سيرا حرا طبيعيا في طريقها ، ولا تدع تلازمها وتماسكها أمرا مضمونا محققا ، ويرون أن الايمان بذلك هو الايمان بكال الله وبحرية تصرفه ، انتهى

وإنما نقلنا كلامه هنا وإن كان قليل الفائدة لتعلم أن هذا الرجل قد بلغ به الغرور والفجور الى أقصى حده ، فهو لا يكتفى بمسبة كل من لم يوافقه على هواه ، بل يتجاوز الى أن يجعل الذنب كله إنما جاء بسبب الدين واعتقاد تصرف الله المطاق ، ولا ندري كيف سكت عنه رجال هذه الوزارة فلم يطلبوا محاكمته على ما نسب اليهم من أنهم لا يؤمنون بأن عمل السوء لا يؤدي الى نتيجة ضارة ، وأن عمل الخير لا يؤدي الى نتيجة مباركة ، وكيف لا يطالبونه باثبات ما نسب اليهم من أنهم يعتقدون أن المشيئة العليا أو الأحداث الكونية الغالبة على كل شيء هي المهيمنة على كل شيء هيمنة عيام باطشة . ومن المعلوم أن المسلمين كلهم ليس فيهم من يعتقد أن مشيئة الله مشيئة عيام باطشة ، ففج الله من نسب ذلك اليهم بل هم يعتقدون أن من اعتقد ذلك فهو كافر بالله خارج من الملة ، فكيف يدعى أن هذا هو اعتقادهم . ثم أى علاقة بين اجابة طلبه فورا في بيع الورق وبين هذا الاعتقاد ، بل ظاهر الحال يكذبه ، فإنهم لو كانوا يعتقدون هذا الاعتقاد الذي ذكره لم يتعلموا في المدارس ويدأبوا جهدهم في ذلك ثم يحملون شهادات معهم ثم ينخرطون في سلك الموظفين ، فإنهم لم يعملوا هذه الأعمال إلا لعلمهم بأنها وسائل ضرورية طبيعية لا بد أن تكون نتائجها طيبة ، وأن العلم يؤدي الى نتيجة حسنة ، كل ذلك تحت

(١) هذا دأبه ، يجعل كل مصيبة في الدنيا هو الايمان بمشيئة الله تعالى

مشيئة الله وإرادته ، بل نفس معاملتهم لهذا المغرور هذه المعاملة الحسنة
النزيهة دليل على أنهم يؤمنون بالعدل والحكمة ويكفرون بالفوضى ، لأن
طلبه الأھوج كان جورا وظلما مع أنهم يعرفون وقاحته وقباحته وقذارته
لسانه ، فلو كانوا قوما فوضويين ماديّين لأجابوا طلبه خوفا من لسانه ومداهنة
معه وتركوا نظام العدل والأمانة الذي يقضى برفض طلبه حيث أنه لم يكن
له وجه مقبول

ثم ان هذا الادعاء قدح فيه ، لأنه اذا كان يعلم بأنها تؤمن هذا الايمان فما
الذي حمله على طلب الورق منها ثم على مسبتها لما لم يجب طلبه فورا ، فاذا كان
عالما بأن هذا معتقدها فقد دخل معها على بصيرة فيما ستفعله به ، لأنها ستعامله
بمقتضى اعتقادها - كما يقول - فيجب عليه اذن أن يصبر على ما تعامله به
ولا يلومها لأنها اتبعت ما تعتقده واتباع العقائد من النظام المتبوع ، ولا يصح
له أن يدعى أنه لم يعلم بذلك الا بعد أن طلب منها لأنه ذكر فيها شيئا قريبا
أن هذا الاعتقاد يشاركهم فيه جميع رجال الأمة

ويقال أيضا : ان هذا الايمان الذي ادعاه وهذه الفوضى التي يدعيها هي
معتقده بلا ريب . وقد تقدمت الأدلة على ذلك في مواضع كثيرة ، مع أن
هذه دعوى لا مستند لها ، ومعلوم أنه لا يصبر على من قل حياؤه وأبغض
شخصا أو دائرة لم يحصل منها مقصوده أن يدعى بمثل هذه الدعوى وبمثل
هذا الهذيان

ثم قال : وقد يحتاجون لهذا بمثل قوله تعالى ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾
فيقال : نعم هم يحتاجون بهذا وأمثاله ، ونعم الحجة . وأما أنت فتحتاج
بقول غوستاف لوبون وأمثاله ، أو تحرف القرآن ولا تلتزم بقول أحد من
المفسرين كائنا من كان ، ولهذا ادعيت في نفس هذه الصحيفة أن طوائف
الأمة تشارك هذه الوزارة في هذا المعتقد فيكونون إذن هم أعداءك ، فكل من

أسند حوادث الكون ونتائجها الى مشيئة الله تعالى فهو معتقد الفوضى عندك ،
أما اذا أسندها الى نواميس الطبيعة باستخدام الانسان لها فقد اعتقد النظام ،
وحقيقة هذا أن الكفر هو النظام والدين والاسلام هو الفوضى ، ولو أنك
جاهرت بالاحاد وخلعت عنك أغلال الخداع والنفاق لأرحت ضميرك من
هذا البلاء المضغوط فيه ، فلا خوف عليك مما تحذره ، فهذا زمانك وأوانك

يا لك من قبرة بمعمر خلا لك الجو فيضى واصفرى

ولما أن فرغ ونفت ما في صدره من غل وعلة على هذه الوزارة المصرية
قال « تمنى أن لو منحنا الله سلطانه وجبروته القاهر ساعة من الزمان لنتنقم
منهم أو نصلحهم اذا كان في الامكان إصلاحهم »

فيقال : اخساً يا عدو الله ، ان الله لا يولى الفار ملكاً أبداً ، ولو اتبع
الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ، وما كيد الكافرين إلا في ضلال ،
فلظالماتأوهت وتحسرت وسال لعابك على أى رتبة أو لقب لتنال به شيئاً
من الرياسة ، ولكن خاب أملاك وحبط عملك وسامت عقباك فغلك الله عنها
بهذه الأغلال وقيدك بقيود أخرى فلم تصل الى شيء من ذلك ، وهو سبحانه
العليم بذات الصدور

ثم انه أراد أن يهون على هذه الوزارة ما نسبته اليها بأن شارك معها جميع
رجال الأمة فقال :

« وما شكواه من هذه الطائفة تشاركها فيه جميع رجال الأمة ، ، هكذا
ادعى ، لجميع رجال الأمة من جنس وزارة التموين المصرية يعتقدون ما ذكره
عنها في المشيئة ، ويرون أن عمل السوء لا يؤدي الى نتيجة ضارة وأن عمل
الحير لا يؤدي الى نتيجة سارة ، وانه ليس بين الأسباب ومسبباتها ترابط الى
آخر الهذيان ، وهذا كله كذب على طوائف الأمة وكلامهم في الأسباب
ترابطها بمسبباتها معروف ، وليس فيهم من يقول ان العالم محكوم بالفوضى ،

بل جماهير أهل العلم على أن بين الأسباب ومسبباتها ترابطا وثيقا ، وإن السبب مربوط بنتيجة تحت المشيئة والقدرة ليس خارجا عنها ، فمن ادعى أن مشيئة الله قد قهرتها الأسباب ومسبباتها فقد جاهر بالكفر وعزل الله عن ملكه ، ومن نفى تأثير الأسباب فهو يكفر من يدعى الفوضى ويذهب إليها .

قال الامام العلامة ابن القيم في (شفاء العليل) : انه سبحانه ربط الأسباب بمسبباتها شرعا وقدرًا ، وجعل الأسباب محل حكمته في أمره الديني والشرعي وأمره الكوني للقدري ومحل ملكه وتصرفه ، فانكار الأسباب والقوى والطبائع جحد للضروريات وقدح في العقول والفطر ومكابرة للحس وجحد للشرع والجزاء ، فقد جعل سبحانه مصالح العباد في معاشهم ومعادهم والثواب والعقاب والحدود والكفارات والأوامر والنواهي والحل والحرمة كل ذلك مرتبطا بالأسباب قائما بها ، بل العبد نفسه وصفاته وأفعاله سبب لما يصدر عنه ، بل الموجودات كلها أسباب ومسببات ، والمقادير أسباب ومسببات ، والقدر جار عليها متصرف فيها ، فالأسباب محل الشرع والقدر ، والقرآن ملوم من اثبات الأسباب كقوله تعالى ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ ، ﴿ بما كنتم تكسبون ﴾ ، ﴿ ذلك بما قدمت يداك ﴾ ، ﴿ بما كسبت أيديكم ﴾ وسرد آيات كثيرة الى أن قال : وهذا أكثر من أن يستوعب ، وكل موضع تضمن الشرط والجزاء أفاد سببية الشرط والجزاء ، وهو أكثر من أن يستوعب كقوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ﴾ وقوله ﴿ لنن شكرتم لازيدنكم ولنن كفرتم ان عذابى لشديد ﴾ وكل موضع رتب فيه الحكم على ما قبله بحرف أفاد التسبب وقد تقدم ، وكل موضع ذكرت فيه الباء تعليلا لما قبلها بما بعدها أفاد التسبب ، وكل موضع صرح فيه بان كذا جزاء لكذا أفاد التسبب ، فان العلة الغائية علة للعلل الفاعلية ، ولو تتبعنا ما يفيد لإثبات الأسباب من القرآن والسنة لمزاد على عشرة آلاف موضع ، ولم نقل ذلك مبالغة بل حقيقة ، ويكون

شهادة الحس والعقل والفطر ، ولهذا قال من قال من اهل العلم : تكلم قوم في إنكار الأسباب فأضحكوا ذوى العقول على عقولهم وظنوا أنهم بذلك ينصرون التوحيد فشابهوا المعطلة الذين أنكروا صفات الرب ونعوت كماله وعلوه على خلقه واستواءه على عرشه وتكلمه بكسبه وتكليمه للمشكته وعباده ، وظنوا أنهم بذلك ينصرون التوحيد فما أفادهم إلا تكذيب الله ورسله وتنزيهه عن كل كمال ووصفه بصفات المعدم والمستحيل ، ونظير من نزه الله في أفعاله وأن يقوم به فعل البتة وظن أنه ينصر بذلك حدوث العالم وكونه مخلوقا بعد أن لم يكن ، وقد أنكر أصل الفعل والخلق جملة . ثم من أعظم الجناية على الشرائع والنبوات والتوحيد إيهام الناس أن التوحيد لا يتم إلا بإنكار الأسباب فاذا رأى العقلاء أنه لا يمكن إثبات توحيد الرب سبحانه إلا بإبطال الأسباب ساءت ظنونهم بالتوحيد وبمن جاء به ، وأنت لا تجد كتابا من الكتب أعظم إثباتا للأسباب من القرآن . وبالله العجب إذا كان الله خالق السبب والمسبب ، وهو الذى جعل هذا سببا لهذا ، والأسباب والمسببات طوع مشيئته وقدرته ، منقادة لحكمه ان شاء أن يبطل سببية الشيء أبطلها كما أبطل إحراق النار عن خليله ابراهيم وإغراق الماء على كلمه وقومه ، وان شاء أقام لتلك الأسباب موانع تمنع تأثيرها مع بقاء قواها ، وان شاء خلى بينها وبين اقتضائه لآثارها ، فهو سبحانه يفعل هذا وهذا وهذا ، فأى قدح يوجب ذلك في التوحيد ، وأى شرك يترتب على ذلك بوجه من الوجوه ، ولكن ضعفاء العقول اذا سمعوا أن النار لا تحرق والماء لا يغرق والخبز لا يشبع والسيف لا يقطع ولا تأثير لشيء من ذلك البتة ولا هو سبب لهذا الأثر وليس فيه قوة ، وانما الخالق المختار يشاء حصول كل أثر من هذه الآثار عند ملاقاته كذا لكذا ، قالت هذا هو التوحيد وإفراد الرب بالخلق والتأثير ، ولم يدرك هذا القائل أن هذا إسماء ظن بالتوحيد وتسليط الأعداء الرسل على ما جاءوا به كما تراه عيانا في كتبهم ينفرون به الناس عن الايمان ، ولا ريب أن الصديق الجاهل قد يضر مالا

يضره العدو العاقل ، قال تعالى عن ذى القرنين ﴿ وآتيناه من كل شيء سبباً ﴾
ثم ذكر تفسير الآية . انتهى ما نقله عنه الألوسى فى غاية الامانى ص ٢٤١ ج ٢
وأصل بلاء هؤلاء المتناقضين أنهم ظنوا أن الاقرار بالمشيئة العليا والقضاء
والقدر ينافى تأثير الأسباب ، ولو عقلوا حقيقة الأمر لعلموا أن ما فروا منه
قد وقعوا فيما هو شر منه ، فانهم فروا من الاقرار بالمشيئة ظانين أنه يلزم
من ذلك القول بالجبر ونفى تأثير الأسباب والقوى الذى هو فى غاية الظهور ،
وقد وقعوا فى القول بالجبر ونفى قوى الانسان واختياره من حيث جعلوا
للا انسان مسيراً بدافع قوى الطبيعة ونواميسها المختلفة اضطراراً ، ولهذا تجدهم
دائماً إذا ما حز بهم الامر فى معرفة سبب الشيء جعلوا ذلك من فلتات الطبيعة
وقواها التى لا ترد (١) . وقد هدى اللذين آمنوا لما اختلف هؤلاء فيه فاعتقدوا
أن الله سبحانه خلق فى الانسان قوة وقدره على العمل فهو قادر مختار بالقوة
والقدرة التى خلقها الله فيه ولا ينافى هذا كون فعله واقعاً بمشيئة الله تعالى
وقضائه وقدره ، فإنه هو وما فيه من قوة وقدره وعمله ايضاً مخلوق لله فلا يشاء
شيئاً والله لم يشأ فعله أبداً فلا يمكن أن يوقع فعلاً قهراً على الله أو لا يشاؤه
الله ، وهو سبحانه يفعل بالاسباب كما يأتى توضيح ذلك فى بحث القضاء
والقدر والاسباب مفصلاً

(١) من أعجب أمور هؤلاء أنهم اذا خفي عليهم سبب شيء جعلوا وقوعة إما
مصادفة وإما من فلتات الطبيعة ، مع ادعائهم أنهم اهل العلم ، ومعلوم أن اعتراف
الانسان بالعجز كهذه الدعوى سواء

الكلام على المبحث السابع القضاء والقدر

عنوانه في أغلاله :

(كيف فهمها وكيف يجب أن يفهمها)

(وكيف قررا مضاير الشعوب)

يعنى بهما القضاء والقدر ، وحقيقة ما قرره في هذا المبحث هو حاصل ما ذكره في تلك المباحث السابقة من الحث على قطع العلائق الدينية المتصلة بين الله تعالى وبين عباده ، فلا مشيئة ولا إرادة ولا قدر ولا قضاء ، وإنما العالم يحكم بقوى الطبيعة ونواميسها ، وكل تقدم أو تأخر فهو راجع الى قوة استخدام الانسان لهذه القوى أو ضعفه ، فالعالم يجري على هذا الناموس الذى ذكره ، ولا علاقة لمشيئة الله به ، فالدعاء والاستعانة وسائر العبادات لا أثر لها البتة ، لأنه إنما يكون لها أثر إذا كان العالم إنما يجري بمشيئة الله وقدرته وإرادته وتصرفه فيه بمقتضى نظامه الدينى الشرعى الذى من اتبعه تقدم ونجح لا محالة ، ومن خالفه عوقب ودمر ولا محالة ، وقد تقدم ادعاؤه أنه ليس لإرادة الله ولا لقدره وقضائه وجه وبغضه ورضاه وسخطه تدخل فى الأسباب ومسبباتها الخ وهذا عين الاتحاد الذى لا شك فيه ، وتقدم قوله أيضا أننا لا نحتاج الى مهماز ندفع به الانسان ، بل مهمازه فيه وفى طبعه ، وهذا صريح فى أن الله لا يعين من استعان به ولا يؤيده ولا ينفع أحدا من خلقه فى هذه الدنيا بطاعته وامثال أمره

وقد أسهب وأطنب كعادته فى الخساراع اليهت والفجور فى تشويه سمعة الاسلام ، فذكر أكاذيب ونسبها الى المسلمين وادعى أنها هى اعتقادهم فى القضاء

والقدر ، ثم أخذ يرد عليها ، ثم علق عليها بأنها هي سبب التأخر ، فهو لا
يكتمى بالكذب على المسلمين ثم الرد عليهم لذلك ، بل لا بد أن يجعل كل
مصيبة إنما جاءت بسبب اعتقادهم كون الله يدبر ملكه ويتصرف فيه . وهذا
الملحد لما كان يعتقد الإلحاد ولا يستطيع أن يجاهر به بدون خداع أضاف
كل شر وكل بلاء فيما ينافيه من التوحيد لجعل ذلك ذريعة الى كراهته ليحصل
مضاده . وسيأتى الكلام مفصلا ان شاء الله تعالى عما ادعاه على المسلمين من
اعتقاد الجبر ، وأنهم تركوا الأعمال اعتمادا على القضاء والقدر

قال المغرور :

« كيف فيها ، وكيف يجب أن يفهما ، وكيف قررا مصائر الشعوب ،
والسعى للرزق والأرزاق قد قسمت . بغي . ألا إن بغي المرء يصصره
(ابن زريق)

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون
(أحدهم)

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني سعى الفتى وهو مخبوء له القدر
(منسوب لكعب بن زهير)

فيقال في جوابه : ليفهم المسلمون هذا ، وليعرفوا أن ابن زريق و
(أحدهم) وكعب بن زهير هم أئمتهم في أصول الدين كعقيدة القضاء والقدر ،
فان هذا المغرور جاء بأبياتهم هذه وجعلها قاعدة يعتمد عليها فيما نسيه اليهم في
اعتقاد القضاء والقدر اللذين هما من أصول الدين ، أما عقائد المسلمين
الكثيرة المعتمدة فانه ضرب عنها صفحا وتجاهلها وكذلك كتبهم الشهيرة
تركها لانه يعلم أنها تكذبه فيما ادعاه ، فلهذا اضطر الى الاحتجاج بهذه الآيات
وجعلها هي عمدته ، حتى قال بعدها :

« هكذا فهموا القضاء والقدر ، وهكذا اعتقدوا في أنفسهم أنهم لا يعدون أن يكونوا مخلوقات جامدة لا تتحرك وإنما تحرك ولا تنصرف وإنما يتصرف فيها ، وليس عليها أن تحاول العمل ولكن عليها أن تنتظر حتى تكون محلا وظرفا لأعمال الآخرين ، وهكذا فقدوا كل ثقة في أنفسهم وكل أمل بأن يكون لهم حول أو سطوة ذاتية ،

فيقال : قد رأيت أيها المنصف أنه صور المسلمين بهذه الصورة التي ذكرها معتمدا في هذه الدعوى العريضة على تلك الآيات الثلاثة التي نقلها عن ابن زريق وأحمد (أى مجهول) وكعب بن زهير فادعى على المسلمين بأنهم يعتقدون أنهم مخلوقات جامدة لا تتحرك وإنما تحرك ، الى قوله : وانها محل وظرف لأعمال الآخرين . هكذا جاهر وكابر على أمة قد ملأت الكتب على اختلاف أصنافها بالحث على العلم النافع بأنواعه والعمل النافع بأنواعه ، وقد عملت بما علمته من دنياها في كل ناحية وفي كل شأن

تجاهل هذا المغرور كل هذه المعارف وكل هذه الثورات وكل هذه الأسواق المزدهمة بكل من انواع التجارات والصناعات وغيرها ، كل ذلك لم يعبا به ولم يرفع به رأسا ، بل غمض عينيه ولم يفتحها الا أمام ثلاثة آيات لثلاثة من الشعراء ، ولا نظن أن أكفر يهودى يحاول الطعن في الاسلام يستطيع أن يصل الى هذا الحد في البهت والعداوة للاسلام وأهله

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بيمت لإيلام
ثم قال : ليس من الممكن أن يقدم الانسان على العمل إقداما يمكنه من الأخذ بثأصيته ومن قهره لارادته حتى يعلم علما ليس بالظن أنه قادر عليه كقوله ، وأن له قدرة تتركز في ذاته يفعل بها متى شاء ويترك اذا شاء ،

فيقال : هذا رمي في الهوام وتحصيل حاصل ، فان المسلمين كلهم يعتقدون أن الله تعالى جعل في الانسان قدرة على فعله ، فكل أحد يأكل ويشرب ويلبس

وينام ويقوم ويقعد ويمشي ويتكلم ويعلم أن فيه قدرة على أفعاله ، وما رأينا أحدا ولا سمعنا عن أحد منهم أنه ترك الأكل والشرب والقيام والقعود وجميع أفعاله الاختيارية مدعيا أنه ليس فيه قدرة على الفعل والترك ، فاذا ذكره سفسطة وهذيان بارد وهراء لا يقوله إلا معاند

ثم قال : وحتى يعلم علما ليس بالظن أيضا أنه ليس هناك قوة خفية (١) مسلطة على منعه من كلفة بأن تضع العقبات في طريقه تتحكم فيه تحكم القوى الجاهل في الضعيف العاجز دائبة على معاندته كلما حاول أن يقدم وكلما هم أن يحجم منتظرته أحيانا حتى يحرق ويحرق ، فإذا ما أوشك أن يجنى ويحصد عصف بما حرق وزرع وبما كاد يظفر بجناحه ، وتركته محسورا متبورا .

فيقال : وهذا أيضا من نمط ما قبله ، بل هو كلام ساقط من دخول حيث لا محل له البتة ، يقصد من ورائه بغض مشيئة الله وإرادته وتصرفه في خلقه ، وإبطال رحمته وإحسانه وعفوه وإفضاله ، حيث صور المشيئة الربانية عدوة للإنسان ، ولم يفرق بين الفاجر والتقي والمحسن والمسيء ، وقد كذب وافترى لعنه الله على مشيئة رب العالمين وأرحم الراحمين ، فهو يريد أن يجعل كل مصيبة أصابت الناس بمجرد إيمانهم بربهم تعالى ، ويريد أن يجعل المصائب فيما يرون - على ما يدعى - صادرة عن القدرة والمشيئة فقط ، ومعلوم أن الشر ليس إلى الله تعالى بل الشر عليه الذنوب التي هي عدم امتثال أوامر الله تعالى والاعتصام بثورته وطاعته والتحصن بها من كل سوء ، فكل مصيبة في الدنيا يصاب بها الإنسان ما هي إلا نتيجة بعده عن مهابط الرحمة والنور والهدى والبصائر ، وتفريطه فيما أمر به ، فالشر ليس إلى الله ، والخير كله بيديه ،

(١) يعني رب العالمين بمشيئته وإرادته ولو قال : وحتى يكفر بالفناء ، لكن أن خسر وأرجح لضيمه

والمعاصى كلها سلب ونقائص يصاب بها الانسان من حيث فساد فطرته
وبعدده عما يلائمها من مصادر الحياة والصحة التي هي طاعته لله تعالى واستمداد
السعادة منه

يا بلعام زمانه ومطية شيطانه من هو الذى يعتقد هذا الاعتقاد الخبيث
الذى ذكرته ، وأنه هو اعتقاد القضاء والقدر ، فأشر لنا عن عقيدة واحدة
معتبرة من عقائد المسلمين ذكرت هذا عنهم أو أشارت اليه ، وحاصل هذه
الدعوى الخبيثة أن بين الانسان وبين الله تعالى عداوة ، وأنه يتحكم فيه تحكم
القوى الجاهل في الضعيف العاجز مطلقا . قاتلك الله ، أين وجدت أنه تعالى
قوى جاهل ، وأن قدرته دائبة على معاندة الانسان كلها أراد أن يعمل شيئا
وقفت في سبيله . الخ . ألا قاتلك الله ما أعظم جرأتك على مقام الربوبية
العظيم . وهذا القول لا يمكن أن يصدر من يؤمن بالله أبدا ، وكل عاقل يعلم
أن أكثر الناس قد عبثوا بدين ربهم وضربوا به عرض الحائط وقابلوه في كل
لحظة وكل فترة بالفجور والمعاصى والسب والقدح ، ثم هو يدعوهم الى التوبة
والى الاستغفار ، ويتحجب اليهم بالنعم ، ويفيض عليهم الخيرات التي يعصونه
بها ، ويعلمهم ، ويقىم عليها الحجة ، ويبين لهم الطريق ، وهو مع هذا غنى عنهم
وعن عبادتهم ، ولو شاء لا تقم منهم جميعا في لحظة ، ولكنه لا ينتقم إلا من
بعد أن يقيم الحجة ، وقد قال تعالى ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ۚ
وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم
عذاب أليم ، أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه ، والله غفور رحيم ﴾ فهو لا
قد ادعوا عليه أعظم الفرية حتى ساووا بينه وبين عبيد من عباده ، ثم هو
يدعوهم الى التوبة والاستغفار ، وعن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول
الله ﷺ « ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله : يدعون له الولد ثم يعافهم
ويرزقهم ، رواه البخارى . وكل عاقل يعرف أنه لو طبقت نعم الله وآلائه

الموجودة اليوم على أعمال الناس ومعاصيهم وعيشتهم بسياج الشرائع وإفسادها
 واتباع أهوائهم وفسقهم لتبين أن الناس إنما عاقبوا في ظلي عفو الله ورحمته
 بعبادته ، وإلا فهم لا يستحقون إلا الهلاك والانتقام العاجل ، ان كل مؤمن
 يعتقد من صميم فؤاده أن ربه عليم حكيم رموف رحيم ، وقد شمل حله من
 عانده وسبه وحرست صفاته ، بل وأنكر وجوده ، فكيف بمن أطاعه واتبع
 رضاه ، وقد بين على لسان رسوله ﷺ أنه اذا تقرب اليه العبد شبرا تقرب
 ذراعا ، وان أتاه يمشي أتى اليه هرولة ، واذا استعان به أعانه ، وأنه مع المتقين
 ومع المحسنين ومع الصادقين ولا يجب الظالمين ولا يجب كل محتال خفور ، وقال
 تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن
 يتوكل على الله فهو حسبه والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ﴾ فكيف يضع
 العقوبات في سبيل من أحسن عملا ، واذا قلنا أنه يتبلى بعض عباده بشيء من
 حصائب الدنيا فان هذا لا يناقى رحمته به ، فان نسبة ابتلائه في جانب السلطة
 والفرح والخيالة والسعادة التي قد حصلت له وستحصل له كلاً شيء ، واذا ما
 نظر الى هذا البلاء ونسبته الى ما جاءه من العافية في عمره كله في نفسه وأعضائه
 وعيشته وغير ذلك صار هذا الابتلاء ضئيلا جدا ، فكيف اذا كانت عاقبة ذلك
 البلاء السعادة الكبرى التي لا يهادلها شيء ، ثم ان النقض أمر طبيعي لا بد
 للانسان منه ، وكونه يناله شيء من البلاء الطفيف في قليل من ماله أو حالة
 أسهل من أن يناله في دينه أو عقله أو نفسه ، وعقله ونفسه أهون من دينه ،
 وفي الابتلاء من ذل العبودية والافتقار ومعرفة قدر النعمة والعافية من الفوائد
 ما لا يعد ولا يحصى لمن قدر ذلك وعرفه ، ومعلوم أن أهظم الناس حسنا على
 ولده وأرحمهم وأشفقهم به لا بد أن يؤدبه ويربيه ليحصل بذلك ما فيه نفع
 له يتفادى في جانبه ضرر ذلك التأديب ، ولا يعد هذا عداوة ومضارة فكيف
 بالخالق العليم الحكيم الرموف الرحيم ، ولو لا الابتلاء والامتحان لم تظهر

أكثر مظاهر السعادة واللذات والفرح وامثال ذلك
لعمل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الاجساد بالعلل

فصل

ثم قال : وليس من المستطاع الجمع بين اعتقاد المرء في نفسه أنه عاجز عجزاً ذاتياً لازماً عن إتيان العمل وعن إتمام ما يبدأ به من الأعمال ، وبين نجاحه في الحياة وإتيانه بالأعمال باهرة ، وإن الحيوان الأعجم نفسه يسأى أن يقتحم ما يرى أنه عاجز عن اقتحامه ، ولكنه يقتحم ببسر وسهولة ما اعتقده أنه قادر عليه ،

فيقال : كل هذا هراء منه ورعى في الهواء ، فليس في المؤمنين بل ولا في عقلاء المتدينين من يعتقد أنه عاجز عجزاً ذاتياً لازماً عن العمل الخ . وهل رأيت أو رأى أحد من الناس أن انساناً من المسلمين ترك الأكل والشرب وسائر الأعمال الضرورية من أجل اعتقاد القضاء والقدر حتى الغلاة في القضاء والقدر كالجهمية لم يتركوا شيئاً من الأعمال التي يستطيع أن يعملها غيرهم من جنسهم ، بل أكثر الناس الذين يعتقدون القضاء والقدر قد تجاوزوا إلى فعل المعاصي ، بل هلك كثير منهم بسبب الحرص وتحمل ما فوق طاقته من الأعمال فالدعوى ساقطة لا محل لها البتة

وكثير من هؤلاء الذين يعملون في الأمور الصناعية أو المادية أو الاقتصادية أو التجارية من المسلمين يعتقدون القضاء والقدر ، وربما تكون الدائرة الصناعية أو غيرها فيها جميعاً واشعري ومعتزلي وغيرهم ولا يوجد بينهم فرق في العمل من ناحية الاعتقاد ، والمسلمون وإن اعتقدوا أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فهم يعملون أن الله قد أمر عباده بالعمل ، وجعل فيهم قوة وقدرة واختياراً على أعمالهم ، وأن كلا ميسر لما خلق له . ويكفي في

بطلان هذه الدعوى الواقع والمشاهدة ، فان الناس كلهم استطاعوا أن يعملوا وفيهم من أهلك نفسه من الحرص على العمل مع اعتقادهم القضاء والقدر ، وهذا برهان قاطع على أنهم يرون أنفسهم غير عاجزين عن الأعمال التي في طاقتهم اتيانها ، وأن الايمان بها لا يقتضي اعتقاد العجز ، بل بالعكس فان المسلم يرى أن الله أمره بالعمل والاستعانة به ، ووعدته بأن يعينه متى أخلص في عمله وصدق في معاملته ، ومعلوم أن الله لم يأمره بما هو عاجز عنه (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) وهذا واضح على ، فما ادعاه فهو غير وارد ، لأنه ادعاء في غاية الفساد .

وقوله : وان الحيوان الأعجم نفسه ليأبى أن يقتحم ما يرى أنه عاجز عن اقتحامه الخ ، فهذا كالذي قبله ، بل هو حجة عليه ، فان الحيوان يقتحم ما يرى أن فيه قدرة على اقتحامه وقد يأبى أن يقتحم ما فيه قدرة على اقتحامه لما منع أو عارض ، كالجوانات الجائلة التي تتخيل الشيء صلابا وهو غير صلب وقد يقتحم الشيء الذي فيه تلفه وهلاكه لقصور نظره وشهوته ، وأما الأشياء الواضحة التي يرى الحيوان أنه عاجز عنها وأن فيها تلفه لو جازف فيها فانه لا يقتحمها كالتردى من شاهق ونحوه ، وبهذا يكون أحسن حالا من الملاح الذي يرى أن في امكانه أن يصل الى كل شيء وينظمه على كل شيء ، فتفكر الحيوان لا يحتاج به في مثل هذا الأصل فان مسألة القضاء والقدر من أصول الدين التي مناطها التكليف الشرعي فلا محل لهذا الاستدلال ، وقد بينا أن المسلم يرى أن الاقدام على كل أمر ممكن غير ممنوع أصلا ما لم تكن مضرة راجحة على منفعته .

فصل

قال : وأصول التربية الحديثة الموضوعة ماو شاد النفس والاستقرار التام الطويل قائمة اليوم على تعظيم شأن الاجماع الذاتي ، وعلى العمل به ، أى على إقحام كل انسان بأنه قوى قادر على ما يراود منه أن يعمل به ، وعلى أنه يستطيع

أن يأتي من الأعمال بالمعجزات والحوارق ، بل أنه لا معجزات أمام قوته الذاتية وإرادته اللسانية ، وعلى أن معين قدرته لا يمكن أن ينضب ، وعلى أن سلطان هذه القدرة لا حدود له . وعلى أن ما يمكن أن يبدعه من الأعمال — اذا أحسن استخدام مواهبه وأحسن شغلها — لا يقف عند غاية ، ولا يعجز عن بلوغ نهاية . وعلى إفهامه أنه خلق معداً مهيباً لأن يتغلب على كل شيء ، وأن يصارع كل ما يقف في طريقه ، وأن يسمو حتى يلاحق الخيال ، لا بل حتى يسبق الخيال ، وعلى إفهامه الاستقلال في العمل ، وعلى أنه واجب عليه أن يصنع كل ما هو محتاج اليه وحده دون عون^(١) ودون رعاية ، وأن قدرته صالحة لذلك جدرة به أهل له ... وهذا ما يسمونه التربية الاستقلالية وهذه التربية هي أعظم تربية^(٢) والأمة التي تصل إليها وتقدر عليها تضحى أقوى أمة وأعظم أمة .

والجواب أن يقال : هذا الكلام الذي ذكره في هذه الجملة هو من أعظم أصوله التي يدعو إليها ويدور عليها كلامه ، وقد تقدم كثير من معانيها في البحث الأول ، ومتى فهمها المؤمن وأحاط بها علماً ثم فكر فيمن عمل بها وكيف كانت عاقبته وما حل به من المكوارث والتكليات التي لم يسبق لها نظير علم أنها أخصب تربية وأقدرها ، والأمة التي تأخذ بها لا بد أن تصبح أمة

(١) هذا تصريح ظاهر بأنه غير محتاج إلى اعانة الله ، فلا يقول ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ لأنه غير محتاج إلى ذلك ، فيكون هذا القول مملوءاً وتوبيخاً لا فائدة فيه

(٢) أي أنها أعظم من تربية القرآن الذي أرشد إلى الطلب من الله الاعانة والتوفيق ، وأن الإنسان ضعيف عاجز ما لم يوفقه الله ﴿ومن يضل الله فما له من هاد ، ومن يهد الله فما له من مفئل﴾

مضروبا عليها نطاق الذل والقهر والصغار والئكال ، ولا بد أن يريها الله قوتها واستكبارها وتمردا حتى يضعها تحت أعدى عدوها ، وحقيقة هذه التربية الملعونة هي إفهام الانسان الكفر بقضاء الله وقدره ومشيته العامة وانه مستغن عن الله غير محتاج الى اعانه ورعايته وتوفيقه وهدايته ، فلا حاجة لانه يعبد ويدعوه ويتضرع اليه ، وخلق بمن نشأ على هذه التربية أن تحل به اللعنة الماحقة والغضب العاجل ، وأن يضع الله أنفه الذي شمع به عن طاعة ربه وخالفه تحت قدم أخبث خلقه ، ليعرفه كيف قدرته الذاتية وكيف غناه عنه . وقد أرى الله سبحانه كثيرا ممن نشأوا على هذه التربية أو أكثرها كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها . وهذه التربية الجنونية هي التي طاشت بإيطاليا وأمثالها حتى أدخلتهم المجازر والآلام والشقاء والعذاب الطويل ثم الكلام على هذه التربية من وجوه :

أولا انها تربية مخالفة لتربية القرآن بالنص ، فان تربية القرآن تنص على وجوب الاعتماد على الله والتوكل عليه والاستعانة والاستغاثة به والتضرع اليه ، وأن العبد فقير اليه كما قال تعالى ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله ، والله هو الغني الحميد ﴾ وفي الفاتحة المفروضة قراءتها في الصلوات الخمس ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ فالعبد مفتقر في كل لحظة الى استمرار الاستمداد من مصادر الكمال والنور والرحمة ، فقطع هذه الاستمدادات عنه وقذفه في ظلمات الطبيعة يوجب له الهلاك لا محالة ، فقطب الدين وروح العبادة هو الاستمداد من الله الاعانة والتوفيق والهداية والانابة ، فاذا انقطع مدده من هذا فأى حياة تبقى له ، وحينئذ يقال له : ان أصل كلامنا ممك في هذا الموضوع في بيان كون هذه التربية ليست من الدين ، وأنها مضادة له من كل وجه . وأما نفقها وضررها فذاك شيء آخر ، ولو أنك أدعيت أنها أولى من تربية القرآن بالتصريح الظاهر أو ادعيت أنها مخالفة للدين وهي نافعة مع ذلك مجاهرة

بدون خداع لكان لنا معك شأن آخر ، انما البلية أنك أخذت تربية أكفر
 موجود على وجه الأرض ودعوت اليها وذكرت أنك وفقت بين روح الدين
 وروح العمل وأنك أنت الذى فهمت الدين الصحيح ، فان كنت تدعى أن
 هذه التربية مطابقة لتربية القرآن كبرت جهارا وصار معنى هذا أن الدول
 الملحدة التى أخذت بها اتبعت القرآن وأنها على الدين وأن المسلمين الذين
 استعانوا بالله وادعوا أنهم كانوا محتاجين اليه مخطئون فى ذلك ، وقد ادعيت
 قريبا فيما يأتى أن هذه الدول المتحاربة قد أخذتها واعتمدتها ونحن تركناها ،
 فتكون هى التى على الدين والمسلمون على خلافهم ، وان ادعيت أنها مخالفة
 لتربية القرآن ولكنها نافعة — وهذا هو فى الحقيقة مرادك — فقد اخترتها
 على تربية القرآن وعظمتها ودعوت اليها ورفضت تربية القرآن واستصغرتها
 وادعيت مع ذلك أنك مؤمن بالله واليوم الآخر فتكون بهذا زنديقا منافقا لا
 ريب فيك ، لانك كفرت بالله وكتبه باطنا ، ورايت بادعاء الايمان ظاهرا ،
 ثم لو تزلنا معك وفرضنا جدلا أنها نفعت مرتين أو ثلاثا أو مرات كثيرة
 — وهى خلاف القرآن وخلاف الدين — فهل يسوغ لنا بصفقتنا مسلمين أن
 نأخذ بها ونرفض ديننا . وما أشبه حال هذا الملحد بمن قال الله فيهم ﴿ ألم تر
 الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون
 للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ،
 ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا ﴾ فهذا وأمثاله ممن أوتوا نصيبا من الكتاب
 وان كان قليلا بمعنى أنهم عرفوا دعوته وأقروا باتباعه ، ولكنهم فى الحقيقة
 استنكفوا واستكبروا عنه وعن العمل به ، وآمنوا بالتعاليم المضادة له التى هى
 من الجبت والطاغوت ، ولا خلاف بأن كل من آمن بما يخالف الدين فقد
 آمن بالجبت والطاغوت . ثم ان هذا الملحد ادعى بأن هذه التربية الملعونة
 ونظائرها التى تتضمن الايمان بالجبت والطاغوت وأهلها أهدى من الذين
 آمنوا سبيلا

ويقال ثانيا : كل ذى عقل سليم يعلم أن هذه التربية تربية ساقطة مردولة بالمرّة شرعا وعقلا ، فإنها مبنية على الطيش والجنون والمجازفة بدون حساب ، والتهور والتصديق بالمحال والمغالطة في الحقائق . وكل من تنطبع في نفسه هذه الأمور لا بد أن يكون مدفوعا الى ما لا قدرة له عليه فلا بد أن يقع في الحروب والمنازعات والاشتباكات ، وان كان لا قبل له بها ، وهذا يؤدي بلا ريب الى دماره

ويقال ثالثا : قولك « انها قائمة على إفهام كل انسان بأنه قوى قادر على ما يراد منه أن يعمل » الى قولك « وعلى إفهامه أنه خلق معدا مهينا لان يتغلب على كل شيء ، وأن يصارع كل ما يقف في طريقه » الى قولك « وهذه التربية أعظم تربية » كل هذا صريح واضح بأن الانسان قوى قادر على كل شيء وعلى أن يتغلب على كل شيء . فهذا مع كونه كفرا صريحا فهو هذيان وهراء ومكابرة للحس والضرورة ، ها هو ذا أنت قد ادعيت أنك المستحق لأن تكون أنت المقدم في الأمر ، وأنتك المستحق لأن تفرد بالطلب والرغبة ، وأن الدهر يؤمن على كل ما تقول ، وقد بلغت ما يرام من العلا ، فاذا كان الأمر كله كما قلت فأصلح عينك الأخرى فقط ، فان هذا أشد محنة في الدنيا عليك لما بك من الاستكبار والغطرسة وحب المظاهر ، فقد وسماك بهذه السمّة المضادة لما تدعيه ، وما كان ينبغي لك أن تدعى هذه الدعوى العريضة مع وضوح ذلك فيك ، وكيف ساخ لك أن تنتقد خصمك الألد يوسف الدجوى فيما تقدم فيما نقلناه ، إذ قلت فيه « زعم أن البشر قادرون على كل شيء حتى على أن يقبلوه فرسا أو سبعا أو ما شاء من المخلوقات » . وهاك عبارته ^(١) : « على أن لنا أن نقول ان كل شيء مقدور للبشر بالدعاء فما لا يقدر عليه البشر بالذات

يستطيعه بالدعاء . فلما أن قال هذه الكلمات ألزمته بأن يدعى أن البشر قادرون على كل شيء ، ثم ألزمته هو بأنه قادر على كل شيء ، مع أنه لم يدع كدعواك ولم يدع لنفسه ما ادعيته لنفسك ، ثم سخرت منه واستهزأت به غاية السخرية والاستهزاء اذ قلت بعد سياق عبارته هذه : الله أكبر ، هل رأيتم أعجب من ذلك ، هل رأيتم أعجب من قوله ان البشر على كل شيء قادرون ، نعوذ بالله ، أليست هذه صفة الرب الخالق القاهر ، ألا تظنون الشيخ ممن يتألهون ، أهو يستطيع أن يقلب السماء أرضا والأرض سماء - الى آخر هذيانك الطويل المزدول . فعلى هذا يا بلعام زمانه ومطية شيطانه ، يكون الدجوى قادرا على أن يقلبك فرسا أو خنزيرا ، لأن ذلك أحسن عندك وأطيب ، لأنك اخترت لنفسك منزلته في النفور من الطيبات والسقوط على الخبائث . ثم مع ذلك ادعيت في صحيفة ١١٦ من بيدتك (الفصل الحاسم) أن أسفه السفه هو ادعاء الانسان بأن البشر على كل شيء مقتدرون ، بل جعلت هذا سفها ليس فوقه سفه فقلت « أو ليس السفه الذى ليس فوقه سفه الادعاء بأن البشر على كل شيء مقتدرون » هذا كلامك بحروفه ، فقد شهدت على نفسك بأنك أسفه من كل سفه ، وهكذا كان الواقع

ومن العجب أن كل خصلة انتقدها هذا الملحد على خصومه الأولين ورماهم بها قد اقترفها وزاد عليها كخصال الرافضة والجهمية وغيرهم ، وفي الحديث « من غير أخاه بذنب لم يمت حتى يفعله » وهذا مما يدل على أن أكثر مجادلته في تلك التنبذ ليست مبنية على إخلاص ديني متين ، بل الغرض الأكبر منها تشفٍ ولاغراض نفسية ، ولهذا فانه قدح في زكى مبارك قدحا طويلا في مقدمته ^(١) ومدح فيها جستاف لوبون الذى قدح في النبى ﷺ وادعى أن

الايمان بالله وحده كان نكبة على البشر ووصفه بالبراعة الفائقة كما يظهر من كلامه (١) فلاى شىء تشدق بتعظيم شأن هذا الملمحد وقدح فى زكى مبارك اذا كان قدحه فيه من أجل الدين ، وإنما هى سريرة هوى يظنها لا تعلم

ويقال رابعا : قولك « وعلى أنه يستطيع أن يأتى من الأعمال بالمعجزات والخوارق ، بل لا معجزات أمام قوته الذاتية وإرادته الانسانية الخ » ، قول فى غاية المعاندة للأديان ، فهو تكذيب صريح للمعجزات وأنها ليست بخوارق إلهية يختص الله بها من يشاء بمحض الإفضال لا بمحض الاكتساب والصناعات المقدورة للبشر ، ففي دعواه أن فى إمكان الناس أن يأتوا بمثلها ، إذ لا معجزات أمام قوتهم ، أى فى قدرة الانسان أن يخترع من جنسها فلا تكون معجزة ، إذ المعجزة هى التى تعجز كل من أراد أن يأتى بمثلها من النوع الانسانى وتتحداه ، وهذا كله أدهاء مجرد وثرثرة فارغة ومكابرة للحس والضرورة ، فهذه معجزات الانبياء لا تعد ولا تحصى على اختلاف أجناسها ، وقد ترقى الناس فى العلوم الصناعية المادية والطبيعية وغيرها رقىا أخذ بعقلك حتى أذهبه ، فهل قدروا أن يأتوا بمثل واحدة منها من كل وجه ، بل هذا القرآن الكريم قد مضى على نزوله ما ينيف على ثلاثة عشر قرنا وقد عاداه ملايين الملايين من الخلق وحرص كثير منهم على الإتيان بمثله وفيهم من البراعة والبلاغه والفصاحه والتفوق فى كل فن من فنون الأدب ما لا يمكن جحده فهل قدر واحد منهم على الإتيان بمثله فى هذه المدة الطويلة ثلاثة عشر قرنا ، مع أنه كلام ، وقد حاول كثير من الفصحاء أن يأتوا بشىء من مثله فارتبكوا ، وكان ما أتوا به ضحكة للعقول ، فرجعوا خاسئين

ويقال خامسا : قد ثبت ثبوتا لا مرية فيه بالاستقراء التام أن كل أمة

(١) وسيأتى أيضا دعواه فيه أنه فيلسوف عظيم

اعتمدت هذه التربية وارتاضت عليها أصبحت فاشلة هابطة بل مدمرة تدميرا شنيعا ، فان أكثر الأمم من الأولين والآخرين الذين اعتدوا وحاربوا فهزموا ودمروا اذا سبرت أسباب اعتدائهم ثم هزيمتهم وتدميرهم وجدت أن ذلك من هذه التربية أو أكثرها ويكفي برهاننا على ذلك أنها هي تربية ملاحظة أعداء الرسل من أولهم الى آخرهم ، فانهم ما كفروا واستكبروا عن عبادة الله وحده واتباع رسله إلا لأنهم اعتقدوا أنهم غير محتاجين الى الله في الاعانة والرعاية ، وأن في مواهبهم من القدرة والاستعداد ما يكفيهم عن اتباع الدين ، ولهذا قال قوم هود ﴿ من أشد منا قوة ﴾ وقالوا متحدين له ﴿ ائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ﴾

ومعلوم أنهم ما قاتلوا الرسل إلا لأنهم يرون أن فيهم قدرة ذاتية في إمكانها أن تغلب على كل شيء حتى على القوة الدينية وتقضى عليها ، وأنها صالحة لذلك جديرة به ، وأن الأخلاق الدينية عندهم لا قيمة لها ، ولهذا قال إمامهم فرعون^(١) ﴿ سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون ﴾ وهذا صريح في أنه كان يرى أن في امكانه التغلب على موسى وقومه ، وأن القوة الدينية في عينه ليست بالشئ الكبير الذي يهتم له ، فانه لما قال له الملائكة على وجه الإغراء ﴿ أنذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآهلك ﴾ أجابهم بقوله ﴿ سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون ﴾ وخوى هذا أننا سننتصر عليهم لا محالة ونفعل بهم ما شئنا من الاستخدام والتعذيب والتفيل وغيره ، وأما تربية موسى فانها بعكس هذه التربية ، فانه قال لقومه ﴿ استعينوا بالله واصبروا ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ فأخبرهم بأنهم محتاجون الى الله بالاعانة والتوفيق والنصر ، فخلطهم

(١) أى لقومه متوعدا بنى إسرائيل

أن يستمسكوا بهذا الخبل الديني ، وأن يستعينوا بالله ويدعوه ويتقوه ويصبروا فيجمعوا بين أصل السبب الديني والمادى ، وقدم الديني لأنه العمدة ، وأخبرهم أن هذا الملك الذى يفتخر به فرعون ليس هو له بل هو لله الذى يستعان به القادر على ما يريد ، فهو الذى يؤتية من يشاء ، ومن أعظم الأسباب التى يعطى بها الانسان هى التقوى والاستعانة والدعاء وما يتضمن ذلك والصبر والثبات ، فلما بين لهم ذلك قالوا ﴿ أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾ وهذا يدل على شئ من ضعف اليقين فيهم لأنهم استبعدوا هلاك فرعون وتدمير قوته لأنها هائلة عظيمة فى نظرهم وليس معهم من الأسباب المادية ما يكافئها ، وأعظم قوة معهم هى القوة الدينية ، تخافوا أن لا ينصروا عليه فيعودوا الى الحالة الأولى فتكون نكبتهم أعظم من أجل العداوة المتجددة ، فأقنعهم موسى بقوله ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ وهذا تحقيق لكلامه الأول الذى فيه بيان السبب الذى به يستحصل النصر والعاقبة الحميدة ، وهذا فيه بيان وقوع هذا الشئ الذى يتمنونه من خالص أفتدتهم ، فوعدهم بالمآل المحقق ليطمئنوا بذلك ويوقنوا به . قال بعض العلماء (عسى) من الله واجب ، ولهذا وقع ما أخبر به موسى صلوات الله وسلامه عليه كما قال فى نفس سياق هذه القصة ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾ فانظر بين هذه التربية العالية القوية الوثابة العظيمة تربية كلیم الله عليه الصلاة والسلام ومن اتبعه وبين تلك التربية المردولة الخبيثة الملحونة تربية فرعون ومن حذا حذوه من الملاحدة وفروخهم ، مع أن هذه التربية قد ضم إليها هذا الملحد خبثا الى خبثها الويل كشل ما ذكره فى بحث المرأة والقدح فى المشيئة العليا ونحو ذلك ، فهى تربية كل ساقط مجنون مستهتر ، وقد أشرنا فى مقدمة الكتاب الى عظم تربية القرآن وأنها هى التربية

الاساسية الكبرى التي قامت عليها النهضة العلمية والعملية وأن الحضارة الراقية كلها إنما اكتسبت عناصرها الأصلية من تعاليمه القوية المقدسة ، وإن الأمة التي تقوم قوتها على هذه التربية السامية لا يمكن بحال أن تغلب أو تسبق ما لم تغير أو يبدل فيها ، ولا سيما فيما يناقضها ويعاكسها من كل وجه

فصل

قال : ونحن في هذه الحرب نشاهد ساسة المتحاربين يتبارون في تقوية هذا الإيحاء أشد مباراة ، ويعمل كل منهم بكل وسائله وأساليبه على إقناع شعبه بقدرته وكفائته وشخصيته التي لا تغلب ، وإقناعه أنه بهذه القدرة والكفاية سينتصر على كل ما يقف في طريقه ، ويحطم كل العقبات والمشكلات والازمات .

فيقال : هذا هو برهانه الساطع ودليله القاطع على صحة تلك التربية ، فاعتبروا يا أولى الأبصار في هذه الحوادث المتسلسلة ، فهل يجب على المسلمين أن يبنوا عقائدهم على تربية دليلها فعل هؤلاء القادة الطغاة ، مع أن منهم فريقا انتصر وفريقا اندحر ، وعقيدتهم على ما يقول واحدة . لا تدرى كيف سوغ لهذا المغرور عقله بأن يدعو المسلمين إلى أن يجعلوا قادة هؤلاء المتحاربين هم أممتهم وقوتهم في هذه الأصول العظيمة التي هي أساس الدين ^(١) . وتركوا عقائد قادة الصحابة وخير القرون كالحلفاء الأربعة وسعد بن أبي وقاص وخالد ابن الوليد وغيرهم من الصحابة ومن تبعهم من أهل القرون المفضلة الذين هدوا صروح الأمم العظيمة التي هي أكثر منهم عدة وعددا بتربية الدين والتقوى ، بتربية القرآن والسنة ، تلك التربية الجبارة القاهرة ، فإن كانت هذه التربية التي

(١) مع معرفتهم بعداوتهم لهم ولدينهم

دعا إليها قد عرف صحتها من انتصار البعض فقد عرف فسادها من اندحار الفريق الآخر ، بخلاف تربية الصحابة وأتباعهم فإنه لم يوجد فيها من جنس هذا الذي وجد في هؤلاء ، هذا لو لم تكن هذه التربية مصادمة للدين وقدحا في رب العالمين ، فكيف وهى الكفر الذى ليس وراءه كفر ، وبطلانها واضح شرعا وعقلا ، وإقناع الشعوب الراقية ليس هو كله بهذه الأمانى العاطلة التى هى أشبه شيء بالأحلام ، بل إقناعها بتشجيعها بالطرق الصحيحة فى الحث على العمل واستعمال الصبر والتروى فى الأمور ، وأن يحسب لكل شيء حسابه بالتفكير وتقلب رأى وغير ذلك من الطرق المعروفة ، وكل أحد يعلم أن الدعايات وطرق الإقناع فى بعض هذه الشعوب المتحاربة كانت واحدة ، ومع ذلك اختلفت النتيجة اختلافا بعيدا متباينا ، فعلم أن إقناع الشعب بهذه الدعايات والتربية الزائفة لا يجدى شيئا ، لأن النتائج أدل دليل على وسائلها فى الصحة والفساد ، ولو كان لهذا الزائع أدنى مسكة من عقل لم يخرج للمسلمين كتابا يسميه أغلالا ويتكلم فى أصول الدين كالقضاء والقدر ثم يستدل على صحة ما يقول بأراء قادة هذه الحرب من الطليان والألمان وغيرهم ويرفض حكم قادة الاسلام الصحيح الذين كانت لهم المواقف المشكورة ثم لا يملأ أحد منهم عينه ولا يراه شيئا يذكر فيعمى عن الشمس وينظر الى السهى ، وما كنا نعلم عن هذه التربية الخبيثة ثم الاستدلال عليها لولا أن هذا الغراب الأبقع اجتهد فى نشر هذه الخبائث المدفونة فى أماكنها القذرة فأبرزها بين المسلمين مفتخرا بها ومعارضها دينهم

ومن يكن الغراب له دليلا يمر به على جيف الكلاب ثم قال ، وقد كان رئيس الحكومة البريطانية فى هذه الحرب من أقدر الرجال وأعظمهم لبراعته العجيبة وقوته السحرية على إقناعه نفسه وإقناع الشعوب البريطانية بل إقناع كل الشعوب المتحالفة بالقدره على النصر وعلى هزيمة الأعداء ،

فيقال : هذه الدعوى كالتى قبلها فى السقوط ، وهذه البصبة لأن تكون قدحا أقرب من أن تكون مدحا ، فان هذا الرئيس لم يظفر بالنصر بمجرد هذا الاقتناع ، ولو كان لاقتناعه هذا أثر كبير لكان أثره فى الشعب الألمانى والايطالى أكبر ، فليس هتلر ولا موسوليني بدونه فى معرفة إلقاء هذا الاقتناع على شعبيهما ، بل ربما كان هتلر أبرع وشعبه له أطوع زيادة على ذلك ، ولهذا زج بهم فى هذا التيار الملتطم مستمسكا بخيوط هذه العقيدة الواهية التى لقي وبألفها وتبين مآلها ، ولو سلم من هذه العقيدة وحسب لكل شئ حسابه لكان أولى به ، ولكن شيطان هذه النزعة نزغ به كما نزغ بايطاليا وغيرها فألوا الى نتيجة ما اعتقدوه فى هذه التربية المدخولة

والحاصل أن الايحاء الذى يليقه أكثر هؤلاء القادة إنما يقصد به التشجيع والاطمئنان ، وإلا فهم يعلمون أن أثره ليس بكبير بالنسبة الى الأمور الحرية الكبرى ، ونحن لا ننكر أثر التشجيع والحث على الصبر والثبات وحسن العاقبة ، وإنما ننكر ما يدعيه من هذه التربية الخبيثة والاستدلال عليها بهذا الايحاء وتعليق النصر به ، فان هذا ادعاء فى غاية الفساد

فصل

قال « ولا شك أن ألمانيا نفسها إنما استعدت لحرب العالم ، وعبأت قواها الضئيلة المحدودة لهذه الحرب بإيمان وشجاعة تملأ النفوس كلها حتى نفوس أعدائها إعجابا ودهشا وفرقا ، وأنها إنما وقفت — وقد ضربت عليها الحلقة باحكام وتضييق من كل جانب تناضل مواد بشرية وغير بشرية تفوق موادها البشرية وغيرها عشرات المرات نضالا هو أعظم من أن يدعى بطولة أو أن يسمى شجاعة أو أن يقال أنه انتحار الأحرار الأبطال — بهذه الثقة نفسها وبهذا الايمان نفسه »

فيقال هذا المغرور يريد أن يمدح كل من لم يؤمن بالدين سواء كان مهزوماً أو منصوراً ، أما المسلمون من أولهم الى آخرهم فلم يشع عليهم في شيء قط ، مع ما جرى لهم من الصبر والثبات ومكافحة المصائب العظيمة التي لا تطاق والنصر الذي لم يسبق له نظير ، فهذا كله ليس بشيء في عينه ، أما هذه الدول الأخرى فانه أثني على كل واحدة منها سواء كانت ظافرة أو خاسرة ، ولهذا أثني على ألمانيا في طيشها ومجازفتها هذه ، كما أثني على اليابان في آخر الكتاب أيضاً ، ثم هو مع ثنائه عليها ادعى أن قوتها محدودة ضئيلة ، فيقال له : اذا كانت قواها محدودة ضئيلة وأنها في دخولها هذه الحرب انما تحارب العالم كله فهل تكون محمودة في هذه المخاطرة ويثنى عليها بهذا الفعل ذو دين وفكرة وعقل ، مع أنها ليست مضطرة الى دخول الحرب بل دخلتها مختارة ذلك ، أفليس الذي دفعها الى هذا كله هو إيمانها بأصل هذه التربية الطائشة بأن في إمكانها أن تتغلب على كل شيء ، وأن قدرتها لا حدود لها ولا قيود ، وأنها غير محتاجة الى عون ورعاية وأن قدرتها صالحة وجديرة لأن تملك بها الدنيا ، فايما أنها بهذه الثقة هو الذي أوثق في عنقها حبلاً من مسد ربطت به نفسها وجعلته في يد غيرها ، والا فاذ كانت تفهم أنها انما تحارب العالم كله أو أكثره وأن قوتها محدودة ضئيلة بالنسبة الى من ستحاربه فكيف تدخل هذا المأزق الحرج . لا شك أن عمى هذه الثقة وشيطان هذه التربية هو الذي صدها عن السبيل ، ودفعها الى هذا العذاب الويل ، حتى جعلت عدوها يضرب عليها الحلقة بتضييق ليس له مثيل ، ولو أنها ثبتت على مناعتها ووجدت واجتهدت في مضاعفة التسليح الذي فاقت به غيرها ووازنت بين قواها وقوى غيرها وصبرت سنوات قليلة حتى تلقى لها الفرصة لكان من المحتمل أن تدرك مطلوبها ولم تدمر نفسها هذا التدمير الذي جعلها في قيود الأعداء بسبب هذه التربية الفاسدة ، ولا شك ان المجازفة والتهور يفسدان البطولة والشجاعة وينهبان بشمرتها المقصودة ولا يحصل بها إلا الخيبة والخسران كما قيل :

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحلل الثاني

وكذلك القول فى إيطاليا وغيرها كالقول فى ألمانيا ، لكن إيطاليا أقرب الى هذه التربية ولهذا كانت أحط درجة فى أخلاقها ، وكل أمة تنشأ على هذه التربية فلا بد أن تكون أمة طائشة مجازفة بقوتها بدون حساب فلا بد أن تصبح ذليلة خاسرة ، وكل أمة آمنت بهذه التربية قد سقطت ولم ينفعها هذا الايمان لما رأت بأس الله الذى صبه عليها بأيدى أخدانها وأعوانها على الكفر وأعدائها على المادة ، ﴿ سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾

ثم أخذ فى مدح هذه التربية مكررا هذا المعنى . وقد عرفت ما فيه ، وذكر أن المسلمين يرون أنهم لا قدرة لهم على الفعل والعمل ، وأنهم عاجزون ، وأنهم محل لأعمال الآخرين ، وقد عرفت أن هذا كله كذب وفجور وبهتان لا يخفى على عاقل

فصل

ثم شرع بعد هذا ينقل عن المسلمين اعتقادهم فى القضاء والقدر . فنقل عنهم ما شاءت شهرته من الكذب والفجور ، وضرب صفحا عن عقائدهم المعتبرة المشهورة وكتبهم المعتمدة التى لا تعد ولا تحصى . ولقد كان من الواجب المفروض عليه أن ينقل كلامهم الذى يعتمدونه فى هذا الأصل من عقائدهم وكتبهم المعمول بها ، ولكنه يعلم أنه لو فعل هذا لم تساعده النقول على ما يشاء ويشتهى ، بل تكذبه تكذيبا صريحا وتصادم دعايته ولا يمكن أن يستقيم له قدح فى هذا الأصل العظيم ، فلماذا جاد عنه ولجأ الى الحرفة اليهودية وهى البهت والفجور والتحريف المنكر .

فقال : « ما هو القضاء والقدر عند هؤلاء القوم الذين يلقون بهذه التعاليم والأوهام بين المسلمين ، زاعمين لهم أنها مما يوجهه الايمان بهما ؟ يقولون ان معنى القضاء والقدر أشياء : أولها أن الله سبحانه يحل على الانسان منذ الأزل كل أعماله ويربطه بها ربطا لا انفكك منه ، بحيث لا يجدى معه الارشاد ولا النصح ولا محاولة الخروج ،

قلت : هذا الذى ادّعاه على المسلمين فى تفسير القضاء والقدر كذب وفجور ظاهر ، فالمسلمون لا يدّعون هذا ، فلا يقولون فى معناهما ان الله ربط الانسان هذا الربط الذى لا يجدى معه الارشاد والنصح ومحاولة الخروج ، فى أى كتاب وجد هذا التفسير عنهم على هذه الصورة التى ادّعاها ؟ ويكفى فى تكذيبه أنهم يعلنون أن الله أنزل الكتب وأرسل الرسل لهداية الخلق وان الارشاد والنصح اللذين اشتملا عليها قد أثرا فى كثير من الخلق حتى خرجوا من الظلمات الى النور ، فهذه الدعوى التى ذكرها عنهم بهذه الصفة كذب وزور لا ريب فيه ، ولو كانوا يعتقدون ذلك لم يوجبوا الارشاد والنصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعقوبات والتعزيرات بأنواعها ، وهذا كله معروف بالمشاهدة والحس ، فانكاره مكابرة ، وكونه سبحانه علم ما الخلق عاملون وكتب ذلك لا يدل على أنه ربطهم ، فليس العلم بالشئ الذى سيقع ربطا له ، فالربط شئ والعلم به شئ آخر ، فاذا علم الانسان بأمر ستقع من أقوام فلا يقال انه ربط أولئك الأقوام بأفعالهم ربطا لا يحصى لهم عنه

ثم قال « ثانيها - أن الله أوجد فى الانسان الذى يعمل الشر الاستعداد للشر فى أصل خلقته وطبيعته دون الذى يعمل الخير ، فانه تعالى خلق فيه الاستعداد للخير دون الشر ، فقد فرق بينهما فى أصل الخلقة والطبيعة . فلا يستطيع أحدهما أن يخرج مما خلق مستعدا له ، كما لا يستطيع بذر القمح أن يخرج شعيرا أو بذر الشعير أن يخرج قمحا ،

فيقال : وهذا أيضا بهت وفجور كالذى قبله ، فما حكاه هنا على هذه الصورة على المسلمين ليس بصحيح ، ففي أى عقيدة معتمدة وجده ، فإن حاصل هذه الدعوى أنهم يعتقدون أن الله تعالى خالق الخلق من عنصريين متضادين لا يقبل أحدهما ما يقبله الثانى حين مثل ذلك بالقمح والشعير ، فالقمح لا يقبل طبيعة الشعير فلا ينبت شعيرا ، كما لا ينبت الشعير قمحا . وهذا كله من الكذب البارد ، فإن المسلمين يعلمون أن الله تعالى خلق بنى آدم من نفس واحدة وخلقهم خنفاء قابلين بفطرتهم لتعاليم الخير ، ولكن منهم من تفسد فطرته بسبب إغراض صاحبها عما يغذيها من تعاليم الدين ، ومنهم من تزكو فطرته كما تقدم الكلام على حديث الفطرة ، وهم يعلمون أن الله يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، فيخرج الكافر من المسلم والمسلم من الكافر ، وقد يسلّم الكافر فيكون من المتقين ، وقد يرتد المسلم وينسلخ من الدين فيكون من الكافرين أو الملحدين ، وأما القمح والشعير فليس كذلك ، فلا يخرج القمح إلا قمحا ولا الشعير إلا شعيرا ولا ينقلب أحدهما الى طبيعة الثانى ، وكونهم يقولون ان فيهم الكافر والمسلم لا يقتضى أن يكونوا على ما ذكره ، فإن القمح قد يخرج فيه فاسد بالمرة ويخرج منه ما هو طيب صحيح وما هو متوسط ، وكذلك الشعير ، ولكن لا ينتقل أحدهما الى طبع الآخر ، فالدعوى كذب ظاهر لا ريب فيه

ثم قال : ثالثها - أن الله قد أرصد بطرق خفية غامضة فى سبيل كل انسان ما يوجهه بالقوة الى الأعمال التى يعملها ، أو التى تظهر عليه إذا اخترنا التعبير الصحيح ، بأسباب خفية ^(١) وبدون أسباب ، فالجبان العاجز الضعيف مسوق

(١) كثيرا ما يعبر عن المشيئة العليا بالاسباب الخفية إذا أراد أن يقدم فيها ويشوهها ، فليلاحظ ذلك

الى جنبه وعجزه وضعفه بقوة لا يمكنه الخلاص منها ، والشجاع القوى الجرىء مسوق أيضا بنفس هذه الوسيلة والطريقة بحيث يعجز عن المخالفة ، وهكذا كل إنسان بل كل مخلوق ،

فيقال : وهذا أيضا كالذى قبله بهت وفجور ليس له نصيب من الصحة ، فمن هو الذى ادعى هذا على هذه الصفة ، بل المسلمون يقولون ان الله خلق فى العبد قدرة واختيارا و ارادة بها يفعل ويترك ، فان شاء فعل وان شاء ترك ، وهو حرّ فى فعله وتركه غير مجبور ، كما سيأتى كلامهم بهذا النص ، ولكن نحن اذا اخترنا التعبير الصحيح قلنا : هذا هو عين ما تدعيه أنت فى قدرة الانسان وفعله ، فانك قلت فيما تقدم : والموجودات الموصوفة بالكائنات الحية ليست إلا نسل المادة الجامدة ، والنواميس التى تحكمها - أى تحكم الكائنات الحية - إنما ورثتها من أصلها الذى هو المادة ، فلا غرابة اذن فى كون القوانين واحدة متفقة فى الحى وفى الجماد ، هذا كلامك بحروفه ، وهو صريح فى أن النواميس المولودة من المادة الجامدة هى التى تحكم الانسان وغيره من الكائنات الحية ، فهو مربوط ربطا قويا وثيقا بتحكمها لا خلاص له منه أبدا ، فهو إنما يجرى ويعمل ويفعل بحسب ما توجهه اليه قواها الخفية ، لأنها حاكمة حكما طبيعيا فلا بد أن يكون سيره منسجما مع توجيهها القاسر بالضرورة الطبيعية ، فهو يعمل مضطرا مقسورا على فعله ، فهذا الذى ادعيت بهتانا وزورا على المسلمين هو مقتضى نظريتك واعتقادك ودعايتك ، فكيف ترميهم بدائك وتصفهم بعماك ، فعلى دعواك هذه فى نواميس الطبيعة لا بد أن يكون صاحب الشر مربوطا بقوى شريرة ، وصاحب الخير كذلك ، بدون اختيار ، بل بالاضطرار الذى لا حيلة له فى دفعه

ثم قال « رابعها - أن الانسان الذى يريد الخير أو الشر لا يريد شيئا منها بنفسه ، وإنما الله الغلاب هو الذى يخلق إحدى الارادتين فيه لأسباب غير

معلومة (١) أو لأنه يريد أن يضل بعض الناس ويشقيهم ويدخلهم النار بمجرد أنه قادر خالق ! فإذا خلق هذه الإرادة الشريرة في نفس انسان لم يستطع أن يعمل غير الشر ، فيندفع الى الأعمال الشريرة بهذه الإرادة ، فيصير شريرا ولا بد ،

فيقال : وهذا أيضا من نمط ما قبله ، بهت وزور لا صحة له البتة كما يدعى . وانظر الى السر الخبيث في حذفه مقابل ما ادعاه في الضلال ، فان المقام يقتضى أن يقول « واذا أراد أن يهدى بعض الناس فيدخلهم الجنة برحمته خلق هذه الإرادة الخيرية ، الى آخره ، فلم يذكر هذا ، بل اقتصر على قسم الضلال تشويها لسمعة القضاء ، مع أن ما ادعاه في هذه الإرادة على هذا الوجه كذب وفجور فان المسلمين مجمعون على أن الشر ليس الى الله بل الشر طبعى سلبى ، معناه عدم وجود أثر الخير ، فالانسان من حيث طبعه ووجوده غير مهتد وغير مستحصل على خير لولا ما خلق الله فيه من بذور الفطرة الطيبة التى هى موضع قبول الخير ، فنتى أعرض ولم يقل ما به تقوى فطرته وتستشير من مصادر الكمال والقوة والنور كان شريرا ، فلا يمكن أن يريد بطبعه الخير ويريد الله منه الشر أبدا ، بل اذا قدر الله له الاضلال فلا بد أن يكون هو مريدا الضلال (٢) فلا تكون إرادة العبد متضادة مع إرادة الله بأن يمنعه الهداية اذا أرادها أبدا بل هو برحمته يعين العبد على الهداية والإنابة والتوفيق ، ويفرح بتوبة التائب كما وردت بذلك النصوص

وانظر الى فجور هذا الملحد في ادعائه بأنهم يقولون انه يريد أن يضل

(١) بدل قولهم « الحكمة لا يعلمها إلا هو » بقوله « لأسباب غير معلومة » قائله الله ما أحرصه على غمط الحقائق

(٢) كما حققه شيخ الاسلام ابن تيمية في مواضع ، راجع ص ٤٤ العقل والنقل

بعض الناس ويدخلهم النار بمجرد انه خالق قادر ، ألا قبحك الله ما أحرصك على الفجور واختلاق الزور ، فيا بلعام زمانه من هو الذى قال ان الله يضل بعض الناس ويدخلهم النار بمجرد كونه خالقا قادرا ، فانه لو كان هذا هو السبب لكان الناس فى الحكم سواء فان نسبة الخلق الى الخالق والارادة سواء ، والله سبحانه قد بين بأوضح بيان أن دخول النار سببه المعاصى والكفر لا بسبب القدرة والخلق ، فلم عدلت عن كلام الله وكلام رسوله وكلام أهل العلم فى تعليل ذلك وذهبت تحتزع فجورا من رأسك لم تسبق اليه ثم تحمله على المسلمين حرصا على إشانة دينهم الذى أنعم الله عليهم به وجعله هدى ورحمة لقوم يؤمنون

ثم قال : خامسها - أن الانسان ليس عاملا ولا فاعلا فى الحقيقة ، وليس له القدرة على العمل بل على شيء ما ، والانسان عندهم على مقتضى فهمهم القضاء والقدر ليس إلا محلا لأعمال الخلاق ، فكل الأعمال الخيرة والشريرة التى يعملها الانسان فى الظاهر أو تعمل فيه إنما هى أعمال الله وصنعه وحده ، والعبد ليس له فيها الا المحلية ، أى كونه محلا لها ،

فيقال : قبحك الله وقبح من يقترب بكلامك ما أرخص الكذب عندك وأشد عداوتك للدين وأهله . فياعدو الله من أين وجدت أن المسلمين يعتقدون أن الانسان ليس إلا محلا وظرفا لأفعال الله ، وأن الأعمال التى تعمل فى العبد ما هى الا أعمال الله وصنعه وحده (١) ففى أى عقيدة معتبرة وجدت هذا ، ولا عجب فان الزنديق المرتد المملوء قلبه حقدا على الاسلام وأهله لا بد أن يقول هذا ونحوه ، قال تعالى فى المنافقين ﴿ هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله

(١) فاذا كل فجور يعملها الانسان أو يعمل فيه فهم ينسبونه اليه تعالى ، فانتك الله ما أعظم عداك للاسلام

أنى يؤفكون) وليس فى المسلمين من يشك فى أن من ادعى أن كل أفعالهم تعمل فى الإنسان فهى فعل الله ليس للعبد فيها صنع وإنما هو ظرف لها أنه كافر خارج من الدين ، فكيف يكون هذا هو اعتقادهم ، وهم لا يشكون فى كفر من اعتقده ، وسأنى كلام شيخ الاسلام ونقله الاجماع على أن العبد فاعل حقيقة باختياره ، وسأنى قول أئمة الأشاعرة كصاحب العقائد النسفية فإنه ذكر فيها أن العبد فاعل مختار حيث قال « وللعباد أفعال اختيارية يشاؤون بها ويعاقبون عليها ، الخ

ثم الطامة الأخرى قوله بعد هذا « وقد زعموا أن من اعتقد أن الإنسان فاعل حقيقة أو موجد أعماله حقيقة فهو المشرك » انتهى ، فهكذا تصنع الزندقة والعداوة المنكرة للإسلام وأهله بصاحبها ، وكل عاقل يعلم أن جماهير أهل السنة على أن الإنسان فاعل حقيقة كما نقله شيخ الاسلام فى (العقيدة الواسطية) عن أهل السنة والجماعة حيث قال ص ٢٣ « والعباد فاعلون حقيقة » هذا لفظه وسأنى كلامه كله ونقله الامام ابن القيم فى (شفاء العليل) عن أهل السنة ، ونقله شارح الطحاوية وغيرهم ، وأما كون الإنسان محل لأعمال الله وظرف لها فهذا لم يقل به أحد من المسلمين ، بل كلهم يكفرون من يدعى ذلك ، وإنما ينسب القول بالجبر الى الجهمية وقد كفرهم أئمة السلف كما نقله شيخ الاسلام ، ونقل الاجماع على كفرهم الامام أحمد فى رسالته لمسدد^(١) ونقله الامام الدارمى فى الرد على المريسي ، ونقله عبد الله بن أحمد فى كتاب السنة حتى نقل عن الحسن بن عيسى أنه قال : ومن يشك فى كفر الجهمية ، وتكفير الجهمية أمر مشهور . فكيف ينقل هذا الملحد عن المسلمين أنهم يكفرون من يقول ان العبد فاعل مع أنهم يكفرون من يقول بالجبر المحض والأئمة

(١) مختصر طبقات الحنابلة ، وهى أيضا فى المدخل

نقلوا الاجماع على أن العبد فاعل وفي القرآن والسنة من إسناد الافعال الى الانسان مالا يعدّ ولا يحصى من النصوص ، وبعض الأشعرية الذين يعدونهم مغالين في القدر لا يقولون ان الانسان محل وظرف لأفعال الله بل يقولون ان للعبد كسبا حقيقة ويمنعون في إطلاق كونه محلا أو ظرفا ، بل يعدون ذلك مروقا من الدين ، ولهذا قال النسفي كما مرّ ، وللعباد أفعال اختيارية يثابون بها ويعاقبون عليها ، فلينظر العاقل إلى كلام هذا الملحد وإلى أقوال أئمة الاسلام ليعرف أن هذا الملحد لا يبالي بما يفتريه على الدين وأهله من بهت وسب وبغى ثم قال : وقد كفر فريق منهم المعتزلة ، وقال المعتدلون منهم انهم ضلال فقط ، لنهابهم الى أن الانسان موجد أفعاله وأن فيه قدرة على العمل حقيقة لا مجازا . . . وهم يسمون من يقول بقدرة الانسان بالقدرية أى المعطين للانسان قدرة ذاتية ،

فيقال : كأنه يخاطب بهذا الهذيان أمة أجنبية عن معرفة دين الاسلام ومذاهب أهله ، ولهذا قال وهم يسمون من يقول بقدرة الانسان القدرية أى المعطين للانسان قدرة ذاتية . فمن هو الذى توجه اليه هذا القول المزور المكذوب الذى لا يخفى فساده على أدنى مسلم ، وكيف يكفر المسلمون المعتزلة بقولهم ان فيه قدرة على العمل حقيقة لا مجازا ، وهم يجمعون على هذا كما نقله شيخ الاسلام ابن تيمية فى (العقيدة الواسطية) وغيرها ، والذين كفروا المعتزلة لم يكفروهم من أجل نسبة الفعل اليهم حقيقة ، وانما كفروهم لأنهم جعلوا أفعال العباد غير مخلوقة لله أى خارجة عن مخلوقاته ، وبعضهم أنكروا كونه يعلمها وأنه لا يهدى ضالا ولا يقدر على ذلك مع تحريفهم للصفات كإنكار العلو على العرش وإنكار السمع والبصر وادعائهم بأن كلامه تعالى مخلوق ونحو ذلك ، وأما اعتقاد أن العبد فاعل حقيقة لا مجازا وله قدرة على فعله حقيقة فهذا هو قول أهل السنة ، لكن المعتزلة يدعون أنه فاعل بدون المشيئة ،

وحقيقة قولهم أنه يعصى قهرا عنه، فهذا هو الذى أنكره المسلمون عليهم
لا نسبة الفعل الى العبد حقيقة، وقد بينا فيما تقدم أن هذا المغرور أسند أفعال
العباد الى الطبيعة ونواميسها، وصرح بأنها هى التى تحكم العالم، فعلى هذا فالعبد
ليس فاعلا لأفعاله حقيقة بل مجبور عليها بحكم قوانين الطبيعة، فهى التى تدفعه
اضطارا الى الفعل، وهو محل وظرف لأفعالها وأحكامها، وليس له اختيار
وخروج عن مقتضى هذه النواميس الطبيعية. وقد صرح بأن من حاول
الخروج عنها هلك ولا محالة وإن ينفعه أن يقول انه مسلم، ومعلوم أن الطبيعة
ليس لها عقل ولا عدل ولا رحمة ولا حكمة، بل عملها تفاعل اضطرابى
قسرى، فما الظن بمن يتصرف فيه من هذه حقيقة، فصار هذا الملحد أكفر
من غلاة الجهمية وأكفر من المشركين كلهم القائلين بالجبر، لأن أولئك الذين
ادعوا الجبر جعلوا الله هو الفاعل، وأما هذا فقد جعل الطبيعة هى الفاعلة
وهى التى تجبر الناس على أفعالهم، وأما رب العالمين فهو عنده معزول عزلا
تاماً عن ملكه، ولهذا لم يسند اليه شيئا من التصرف فى هذا الكون فى كل
أغلاله، غله الله بها الى يوم يلقاه

ثم قال « ومن قول إحدى العقائد المنظومة المدروسة فى الأزهر الذى
يملى عقائده على أربعائة مليون مسلم - أو الذى يحاول هذا الاملاء ويسلمه له
الملايين - من قول إحدى هذه العقائد فى تجريد الانسان من قواه :

ومن يقل بالقوة المودعة فذاك بدعى فلا تلتفت

أى من يقل بأن فى الانسان قوة على أعماله أودعها الله فيه فهو مبتدع
فى الاسلام لا يلتفت اليه، هذا هو فهمهم للقضاء والقدر، وهذه هى منزلة
الانسان لديهم،

فيقال: كل هذه الدعاوى فى سائر هذه الأقسام كذب وفجور لا يخفى على
من له أدنى إلمام بمعرفة مذاهب المسلمين فى هذه المسألة، وحاصل ما ذكره

عنهم أنهم يقولون بالجبر بل أشنع من الجبر، حيث جعلهم يدعون أن الانسان كالظرف والمحل لعمل غيره ، وانما طول هذه الاقاويل ونوعها ليوم أن المسألة فيها اضطراب واختلاف ونزاع فيجب طرحه ، ومن عمق خبيثه وحبه لكم الحق وغمط الحقيقة أنه ذكر قول غلاة الجبرية من الجمية وقول المعتزلة فقط ، وتجاهل ما عليه جماهير المسلمين الذين كان يدعى سابقا أنهم أهل العلم والدراية وأهل البصيرة في الدين وأنهم أتباع السلف ، وهو مذهب أهل السنة والجماعة الصريح الواضح المدون في كتبهم المقررة قراءته في كثير من أنحاء المسلمين ، فترك هذا الواضح الجلي وضرب عنه صفحا ، وهو أن العبد فاعل فعله حقيقة لا مجازا وله قدرة وإرادة واختيار على الفعل والترك ، ولكنه لا يفعل شيئا قهرا على الله ، بل باذنه . هذا المذهب أعرض عنه كما يأتي كلام أئمة المسلمين في تقريره ، ولو أن هذا الملحد لم يعرف كتب أهل السنة ويقرأ كثيرا منها لكان له شيء من العذر ، ولكنه لا يريد بيان الحق ، وإنما يريد اتباع هواه ، فلهذا عمد الى أشنع قول قيل في هذه المسألة فادعى أن هذا هو اعتقاد المسلمين في هذه المسألة الاصولية ليشوه سمعتها بقصد رفضها ، لأن المقصد الحقيقي هو الرفض فتوصل اليه بالتشويه ، فلو ذكر الحق لم يستقم له ما يريد ، ولهذا انحدر سريعا الى الاستشهاد بهذا البيت واستدل به على الأقوال التي ذكرها بأن الانسان ظرف ومحل لأعمال غيره ، وأنه ليس بفاعل . ومعلوم أن البيت ليس فيه أدنى شاهد لهذه الدعوى ، وليس في البيت ما يدل على أن من ادعى أن العبد فاعل حقيقة فهو كافر كما زعم ، غاية ما فيه أن صاحبه أنكرك أن تكون الأشياء فاعلة بطبيعتها لذاتها أو بقوة فيها ، ولم يتعرض للانسان بل كلامه في القوى التي في الأشياء ، والا فالناظم يعلم أن للانسان اختيارا في أفعاله ، فقد أثبت أن للانسان كسبا وذكر في المنظومة نفسها كثيرا من الواجبات والمحرمات ونهى وأمر ، ولو كان يرى أن الانسان كالظرف ولا قدرة له لم يؤلف العقيدة ويدعو اليها ، فان الظروف والجمادات

والاشجار والحيوانات العجم لا تخاطب بهذه التكاليف ، وما ذاك إلا لأنها لا قدرة لها على هذه الأفعال وفهمها ، فهذا البيت ليس فيه دليل على ما ادعاه يوجهه من الوجوه ، هذا لو سلم أن العمل عليه وأن الملايين الذين ذكرهم يعتقدونه ، وإلا فأدنى عاقل يعلم أن هذه العقيدة فضلا عن هذا البيت من جنس غيرها من العقائد التي يدرسها بعض الطوائف المنتسبة الى السنة وإن كان فيها انحراف عن طريقة السلف بل كثير من العلماء المحققين كالحنابلة وغيرهم من أتباع السلف يعلمون أن هذه العقيدة فيها بدع لا يصح الاعتماد عليها ، وجماهير أهل السنة مخالفون لكثير منها ، فإن الأسباب عندهم تؤثر بالقوة المودعة فيها ، والعبد فاعل مؤثر بالقوة المودعة فيه كما صرح بذلك الامام ابن القيم وغيره كما يأتي (١) وهذه العقيدة وأمثالها هي من أسباب ضلال بعض المتطرفين الذين يقرؤونها هي وأمثالها فيظنون أنها هي عقيدة المسلمين وأن أصل الاسلام هو ما اشتملت عليه ، فاذا قرأ هؤلاء مثل انكار الجهة لقصد إنكار العلو فوق العرش وانكار تأثير القوى ظن أن هذا دين الاسلام ولم يعلم أن الحق عكس ما ادعاه صاحب المنظومة ، حتى ان صاحب العقائد النسفية وهو من أصحاب صاحب هذه المنظومة صرح بأن للعباد أفعالا اختيارية يثابون بها ويعاقبون عليها ، فالالتجاء الى هذا البيت في الاحتجاج دليل على زيف هذا الملحد واتباعه لهواه ، ودعواه أن هذا البيت يدرس في الأزهر لا يدل على أن المسلمين يعملون بمقتضاه ، فإن الأزهر يدرس فيه عقائد كثيرة ، حتى أن هذا الزائع يدعى أن عقائد الرافضة والزيدية تدرس فيه ، فليس وجود عقيدة واحدة تدرس في جانب من جوانب الأزهر أحيانا دليلا على أنها هي عمدة المسلمين ، وإذا كان الأزهر يريد إملاء عقائده على ملايين المسلمين كما

(١) وتقدم أيضا تصريحه بذلك آخر البحث السابق

يدعى فليس إملأؤه هو هذه العقيدة ، بل هو يملأ عليهم عقائد كثيرة^(١) وبعض الأقطار الإسلامية لا يجيزون إملاء هذا البيت ولا القول به لأنه باطل بلا شك مع كونه لا يدل على ما ادعاه البتة

ثم أخذ في الاستهزاء بالأشعرية والسخرية بهم مضيفا اليهم ما لم يقولوا به فقال : « فالإنسان ليس فاعلا وليس له قدرة على الفعل ، ثم اختلفوا بعد هذا^(٢) هل يسمى كاسبا أو يبخل عليه بهذه التسمية وهذا للتشريف . قالت طوائف لا يسمى كاسبا وإنما هو الجبر البحت والظرفية البحت^(٣) والاضطرار المطلق في الظاهر والباطن . وقالت الطائفة التي تدرس آراؤها وعقائدها في سائر المعاهد الإسلامية^(٤) وهي الطائفة المحسوبة على الأشعرى المنسوبة إليه المسماة بأهل السنة^(٥) قالت هذه الطائفة بل نسميه كاسبا ، ثم عادت وأعملت معاول التفسير والتأويل في معنى الكسب والكاسب فردته الى الجبر المحض الذي لا غبار عليه ، فقد قيل لها : هل العبد فاعل حقيقة . قالت لا . قيل لها

(١) وهذا المغرور نفسه قد صنف نبذة سماها (شيوخ الأزهر والزيادة في الإسلام) فادعى أن شيوخ الأزهر زائدين في الإسلام مبتدعين فيه ، وضللهم في ذلك وادعى أنهم مخالفون لأئمة المسلمين في هذه البدع ، فكيف هنا يحتاج بوجود بيت في قصيدة واحدة قد يقرأها بعض الناس في الأزهر كأنها هي التي يعتمد عليها فيه وحدها (٢) هذا صريح في أنهم اتفقوا على أن الإنسان ليس بفاعل وليس له قدرة ، لأنه قال « ثم اختلفوا بعد هذا ،

(٣) من هم هؤلاء الطوائف من المسلمين القائلون بالجبر البحت والظرفية البحت الخ ، قاتلك الله ما أجرأك على الكذب

(٤) هذا كذب وفجور ، بل أكثر المعاهد الإسلامية لا تدرس هذا

(٥) لكن أهل السنة عند الإطلاق ليس هم الأشعرية وحدهم بل أهل السنة هم أتباع السلف وأصحاب الحديث كما في الواسطية

هل هو شريك في الفعل مشاركة حقيقية فقالت لا . فقيل لها هل هو سببه حقيقى في وجود الفعل الواقع فيه . فقالت لا . فقيل لها هل هو موجد له . فقالت لا . فقيل لها فهل يستطيع أن يمتنع من فعل ما وقع عليه من الأعمال ، أى هل هو مختار في حدوث الأفعال الواقعة فيه وفي عدم حدوثها . فقالت لا . فقيل لها ما معنى كونه غير مجبور . فقالت هو أنه كاسب . فقيل لها وما معنى كاسب . قالت هو كونه كاسباً . فقيل لها هذا له خيء . قالت معناه ليست لنا عقول^(١) . فالكسب عند الأشعرية هو الجبر في المعنى عند الجبرية ، والتسمية بكاسب وكسب لا معنى لها ، بل مذهب الجبرية أوضح من هذا المذهب ، انتهى

وكل هذا ثرثرة وهذيان لا طائل تحته ، فانه اخترع ما شاء ، وخاطب نفسه بنفسه ، وقدر أشياء بعقله وادعاها وأجاب عليها ، فهو مطالب ببيان الجبرية من هم ، وهل هم من المسلمين حتى يحتاج على الناس بأقوالهم ، ثم هو مطالب بما نقله عن الأشعرية في تفسير الكسب وهو لم يبين شيئاً من هذا بل ادعى ان الأشعرية يقولون بالجبر إلزاماً لهم مع أنهم نفوه صريحاً^(٢) وهو من أعظم الناس مشاقة ومعاكسة ومعاودة لمن ألزمه بصريح قوله ، بل ألزم الأشاعرة هنا بأنهم يدعون أن لا عقول لهم ، وقد أفصح في هذا وغيره عن

(١) هكذا ادعى ان الأشعرية يذكرون عن أنفسهم أنه ليس لهم عقول . سلاسل خبيثة يتعب الانسان في نقلها والتأنيبه عليها

(٢) وذكر أن الكسب لا معنى له فاكفى بقوله لا معنى له عن إقامة البرهان على وجهه ، ولولا كراهة التطويل لنقلنا تحامله ونهكمه واستهزائه بالدجوى في نبذة (البروق) حينما ادعى الدجوى في كلام ذكره أنه لا معنى له ، فنهكم به هذا وذكر أن كلمة لا معنى له ، لا تكفى ، وأن كل أحد يقدر على أن يقول مثلها وأطال في ذلك ، ولكنه سقط على أم رأسه واضطر هنا إليها وإلى أمثالها بما رعى به اعداءه

السّر الذي طرد من الأزهر بسببه من جنس هذه المخازى، وفتح للناس باب العذر فى أعدائه الذين فصلوه وطردوه بما أباح به فى هذه الاغلال وغيرها

ويكفى القارىء أن يرجع الى كتب الأشعرية التى لا تعد ولا تحصى فيجد تكذيب هذا القول الذى عزاه اليهم صريحا، فانهم صرحوا بان للانسان فعلا اختياريا وقدرة على فعله وأنه غير مجبور، وهذا ادعى عليهم الجبر وأن الانسان ليس له قدرة على عمله . ولا ريب أن من أشهر ما يعتمد عليه الأشاعرة فى العقائد هى (العقيدة النسفية) قال مؤلفها فيها « وللعباد أفعال اختيارية يثابون بها ويعاقبون عليها، والحسن منها يرضى الله تعالى ، والقبيح منها ليس يرضاه تعالى ، والاستطاعة مع الفعل ، وهى حقيقة القدرة التى يكون بها الفعل ، ويقع هذا الاسم على سلامة الأسباب والآلات والجوارح، وصحة التكليف تعتمد هذه الاستطاعة ، ولا يكلف العبد ما ليس فى وسعه ، انتهى . فانظر كيف صرح بأن العباد لهم أفعال اختيارية ، ومعلوم أن الجبر غير مختار ، وكلامهم فى هذا الأصل معروف مشهور وكله يقضى بتكذيبه .

ثم ذكر أن هذا الذى قاله عن الأشعرية فى معنى الكسب « من المذاهب التى يقال مع تجردها من الحقيقة والمعنى ،

فيقال له : لكن عجزت عن الرد عليهم ، وحقيقه كلامك هذا كله سخريه واستهزاء فقط ، وقد كان من الواجب عليك اذا كنت تريد تفنيد رأيهم أن تنقل كلامهم وترده بكلام صحيح معقول بدون تهكم واستهزاء ، وأنت لم تفعل شيئا من هذا ، فنكتفى بمنع ما ادعيت والمطالبة بتصحيح ما نقلته ثم بيان فساد

والعجب كل العجب أنه أطال فى ذم الأشعرية وصار يدور على مذهبهم ، وأعرض عن مذهب جماهير أهل السنة الذى نقله شيخ الاسلام ابن تيمية عن أهل السنة والجماعة ونقله ابن القيم وغيرهما ، وهو يعلم أن عقيدتهم صريحة فى أن الانسان فاعل مختار له قدرة وإرادة وتأثير فى عمله كما سيأتى ، فاقصر

على ذكر مذهب الجبرية والمعتزلة وترك غيرهم ، وهذا عين لبس الحق بالباطل
وكنتم الحق مع العلم به

ثم قال مشنعا على أهل السنة بزعمه بعد كلامه المتقدم : « فأعظم معاني
القدر عند هؤلاء وأظهرها أن الانسان ليس فاعلا ولا عاملا ، وإنما الخالق
هو الموجد الفاعل لكل شيء ، والانسان لا يعدو أن يكون محلا لما يسمى
أفعالا له . والقضاء هو الفراغ من ذلك . فالعبد عندهم مجرد من كل شيء سوى
الظرفية ، فهو عاجز عجزا تاما ، والله لم يخلق له قوة يفعل بها ، ومن قال بهذا
فهو كافر في رأيهم ، وعند المعتدلين منهم فاسق فقط ،

فيقال لهذا الملحد : لا يعجز أ كافر يهودى أن يدعى على المسلمين هذه
الدعاوى الخبيثة كذبا وجورا ، فانه اذا كان مجرد ادعاء الانسان على عدوه
بدون نقل وبدون دين وحيا يقبل فما الفرق بينك وبين اليهودى ، ولقد
تذكرت بهذا ما ذكره بعض المطلعين على حقيقة أمر هذا المغرور قال : جرى
بينى وبينه مناقشة فى مواضع من كتابه ، فقلت له : قد ذكرت أمورا كثيرة
فى كتابك وعزوتها الى المسلمين مما ليس له أصل ، بل قد يكفرون من يقول
بها وأنت تعرف أن العلماء وكثيرا من الطلبة يعرف مذاهب الناس وآراءهم ،
وهذا يقضى بتكذيبك ورد الكتاب كله ور بما قاموا عليك . قال فأجاب قائلا :
كل الذى قلته فى كتابى فى إمكانى أن أخرّج له معنى ولو بعيدا ، والتأويل غير
ممنوع ، وأنا لم أصنف الكتاب للعلماء والطلبة ^(١) بل للزعماء والرؤساء ،
وهؤلاء أكثرهم لا يعرف حقيقة هذه الأمور ولا حقيقة مذاهب الناس فيها ،
وهم الذين بأيديهم أزمة الأمور ، وهم اذا شاءوا تفنيده لا يمكنهم جمع العلماء
وسؤالهم لأن ذلك ضدهم ، وقد يختلفون بينهم فيكون ما قلته موافقا عليه

(١) أى الذين يعرفون مذاهب الناس

بعضهم على الأقل ، لأنه لا يمكن أن يقوم أحد منهم بمناقشتي في هذا ، وقد
تيقنت أن من هنا أناسا موافقين لي في هذا . وذكر كلاما طويلا هذا معناه .
ولا شك أن ما ادعاه هنا يؤيد ما ذكر عنه تأييدا ظاهرا ، فانه يأتي الى أمور
واضحة قد صرح علماء الاسلام بأنها كفر فيدعي أنها مذهبهم وأنهم يكفرون
من فعلها ، ولهذا نسب الأشعرية الى الجبر المحض وأنهم يقولون ان العبد
ليس إلا ظرفا لأعمال الآخرين ، وأنه مجرد من كل شيء سوى الظرفية ، وأنه
عاجز عجزا تاما ، وأنهم يكفرون من يقول ان الله خلق في العبد قوة يفعل
بها ويفسقونه . ومعلوم أن الأشعرية ينكرون هذا وأكثرهم يكفر الجبرية
المحصنة الذين يدعون أن العبد ظرف لأفعال الله وأعمال الآخرين لا قدرة له
على فعله

وقريب من كذبه هذا وبهته ما نقله ونسبه الى فقهاء الشافعية بأنهم
يوجبون على الانسان أن يتوضأ بالبول اذا كان الماء قليلا لا يكفي للوضوء
حيث قال في ص ١٤٦ وهذا لفظه « وما يقرب من هذا وان كان ليس منه
ما ذكره فقهاء الشافعية قالوا اذا وجد جماعة من المسلمين ماء لا يكفيهم للوضوء
لزمهم أن يبولوا فيه ثم يتوضأوا منه » انتهى لفظه بحروفه ، فنسب هذا الفجور
الى فقهاء الشافعية ولم يذكر مصدره ، وقد علم الخاص والعام أن الشافعية
يحكمون بنجاسة الماء اذا كان دون القلتين بمجرد ملاقة النجاسة وان كان لا
يدركها الطرف وأنه يحرم استعماله في الوضوء وغيره ، وكلامهم مشهور في
رد هذا البهت في أدنى كتاب من كتبهم الفقهية ^(١)

(١) وتقدم ادعائه على المسلمين بأنهم يرون الجمالة أم الفضائل ، مع ان شيخ
الاسلام محمد بن عبد الوهاب ذكر في كتاب الكبائر أن الجمالة من الكبائر واستدل
عليها بالنصوص ، وأمثال هذا كثير جدا

ثم قال : « وقد اشتدت المصارعة في العصور الأولى إبان نشوء الفرق والمذاهب وتكونها بين هؤلاء الذين يسمون أهل السنة وبين المعتزلة وتقاتلوا بكل سلاح استطاعوا الحصول عليه ، ولكن كانت الغلبة في النهاية لمن يسمون أهل السنة ، فاندحرت جيوش الاعتزال بل قضى عليها حتى لم يبق لهم اليوم باقية معروفة ، واختفت كتبهم وانقرضت وصارت عقائدهم لا تعرف في الغالب إلا من كتب خصومهم عندما يذكرونها لثلبها وتلبيهم وللتشهير بها وبهم ، فاصبح الناس كلهم إلا من شاء الله من أهل السنة أى من الأشعرية ومن إخوانهم المشابيهين لهم في كل شيء ^(١) .

فيقال : كل هذا حجة عليك ، فانك عللت بأن القول بهذا المذهب يوجب الضعف والتأخر ، وأن مذهب الاعتزال عندك في هذه المسألة أصح ، فلم لم ينفعهم هذا الاعتقاد وقد مكثوا مئات السنين على كثرتهم ولم تقم لهم قائمة ، بل غلبهم هؤلاء الذين تشنع عليهم وتدعى أن مذهبهم في القضاء والقدر لا يمكن أن تتقدم به أمة . ثم دعواك بأن الناس على هذا المذهب دعوى كاذبة ، فقد علم أن القائلين بخلاف مذهب الأشعرية في القدر والقضاء أمم لا يعدهم ولا يحصيهم إلا الله ، بل قد يكونون أكثر منهم في سائر الاقطار الاسلامية . وقد بينا أن مذهب أهل السنة والجماعة هو خلاف مذهب المعتزلة وأقرب الى الاثبات من مذهب الأشعرية كما يأتي في كلام شيخ الاسلام حيث قال في (العقيدة الواسطية) التي ذكر أنها عقيدة أهل السنة والجماعة ، فقال في مسألة القضاء والقدر : « والعباد فاعلون حقيقة ، والله خالقهم وخالق أفعالهم ، والعباد

(١) قبلك الله ما أسرع انحرافك ، وقد ذكرت في كتابك الأولى أن أئمة المسلمين من أهل السنة وأتباع السلف كلهم مخالفون لأكثر أصول الأشعرية ، وهنا تدعى أنهم إخوانهم مشابيهون لهم في كل شيء ، فهل هم مشابيهون لهم في هذه المسألة والكلام والتحسين والتفصيل وكثير من الصفات الخيرية وغيرها

هو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلئ والصائم ، وللعباد قدرة على أعمالهم ، ولهم إرادة ، والله خالقهم وخالق إرادتهم ، فانظر كيف صرح بان للعباد قدرة على أعمالهم وإرادة وأنهم فاعلون حقيقة ، فاعتقاد قدرتهم وإرادتهم واختيارهم في إيقاع أفعالهم لا ينافي كون الله خالقهم وخالق أفعالهم ، فانه سبحانه هو الذى خلق العبد وخلق جوارحه وقدرته ومشئته ، فكله بجسمه وروحه وعقله وإرادته ورأيه مخلوق ، فافعله من أجل هذا مخلوقة لله ، لا أنها فعل لله ، فيجب أن يعرف الفرق بين الفعل والمفعول ، فالعبد هو الآكل الشارب المصلئ ، وأكله وشربه وصلاته مخلوقة من مخلوقات الله ، لا أن الله سبحانه هو الذى فعلها بل العبد هو الذى فعلها حقيقة لا مجازا ، وسيأتى توضيح هذا ، فخلق الشيء المختار المرید ليس دفعا له على فعل ما لم يردده بل يريد تقيضه ، فالخلق شيء وإرادة المختار المرید شيء آخر ، وليس الغرض تقرير هذه المسألة ببراهينها وأدلتها الطويلة فان هذا موضعه كتب الأصول المطولة ، وانما المقصود بيان كذبه وأن ما ادعاه على المسلمين على هذا الوجه كذب ظاهر وبرهان على عداوته لهم وأنه يحاول به إيقاع العداوة بين الزعماء والعلماء وإثارة الفتن لأغراض قد نبهنا عليها فيما سبق

ثم لما فرغ من نقل هذه الأقوال وأضاف إليها ما شاء من البهت والفجور أخذ في التشنيع وحمل التأخر والضعف عليها وعلى العلماء القائلين بها على عادته في محاربة أوهامه التى يتصورها على غير حقيقة ، وقد بينا لك أن ما ادعاه كذب ، وإذا بطل الاصل عرف بطلان الفرع وعرف أن سبب التأخر غير ما يدعى ، ولو لم يكن من ذلك الا أن المعتزلة لا يرونه ومع هذا صاروا أعظم فى التأخر من المثبتين له ، فسبب التأخر هو التقصير فى العمل بالكتاب والسنة ، فهو التقصير بالاستضاءة من نور الله وأخذ القوة من روح الكتاب العزيز الذى جعله الله هدى ونورا وشفاء ورحمة وبصائر لمن آمن به وعمل به

وعني على كل من أعرض عنه وابتغى الهداية من غيره

فصل

قال « ناد في جموع المسلمين منكرا عليهم اختصاصهم بالذل والاستعباد دون العالمين ، فانهم سيجيئونك انه القضاء والقدر . قل لتاجر أو صانع أو زارع : لماذا أنت صغير فقير ، وفلان من الاجانب يملك الضياع والمتاجر والمصانع والاموال العظيمة ^(١) ؟ فسيجيبك أيضا انه القضاء والقدر . كلم من شئت لما شئت منكرا أو معاتبا أو مستفهما ^(٢) فستسمع الجواب أيضا انه القضاء والقدر ، فالقضاء والقدر هما العذر الواضح المقبول ، وهما السبب الظاهر المعقول في كل فشل وفي كل هو ان وعبودية ، وفي كل عجز وضعف وفقر وبؤس ، فيقال : كل هذا كذب وبهتان ، وليس له أساس من الصحة ، ونحن نكتفي في دحر هذه الدعوى بأن نتحداه فنقول له : ان كنت صادقاً في دعواك هذه فادخل أنت في جموع المسلمين وناد بهذا النداء ، فان أجابوك بهذا فأنت صادق ، ولكنك لا تنظر بهذه الإجابة أبداً ، ولا تسمع عاقلاً واحداً يجيبك بهذا الزعم الذي تدعيه . وبالنسبة تجرب هذا لتنظر بالصفع واللعن والبصاق في وجهك وتقع في ورطة لا مخلص لك منها

يا بلعام زمانه ، لو ناديت بهذا النداء لأذاقوك أنواع العذاب والنكال وقالوا لك بعد الفعل بك ما تستحقه : انها الذنوب والمعاصي والإعراض عن الدين والتفرق والاختلاف وفساد الاخلاق وتحكيم الطواغيت في شرع الله . انك لو ناديت ألف مرة أو أكثر فانهم لا يجيبونك إلا بهذا أو ما هو معناه .

(١) يفهم من هذا أن كل مسلم صغير فقير ، وكل كافر كبير تاجر عظيم كما ترى
(٢) فعلى هذا لو لام أحد أحداً على الزنا والسرقة لأجاب أنه القضاء والقدر .
هكذا تكون المجاهرة بالفتنة .

يدل على هذا دلالة واضحة جلية ما هو منشور مشهور في الكتب والمجلات والجرائد المعتدلة وغيرها ، فانها ليس فيها كلها ما تدعيه ، فليس منهم أحد يقتصر اذا ما بحث في أسباب التأخر على القضاء والقدر ، ولا يعرف عاقل تفوه بهذا ، بل كل منهم يتكلم ويعمل بما يراه من الأسباب الأخرى التي حاصلها التفريط والتقصير في الأمور الدينية والدنيوية ، أما أن أحدا منهم — يا بلعام زمانه — يحمل عهدة كل مصيبة على القضاء فقط كما تدعى فغير صحيح ، بل هو من الكذب البارد والهذيان المرذول . ولو أنهم يرون هذا الرأي الذي تدعيه لنشروه واعتمدوه وكان معروفا مشهورا لدى الخاص والعام ، فاذا كان الأمر خلاف هذا فكيف يجهلون من ينادى بهذا النداء بخلاف ما قالوه وكتبوا وصرحوا بخلافه ، فما هذه الثورات والمنازعات والأعمال التي تبذل في سبيل كل مصيبة ، فهل تظن أنهم يثورون وينازعون ويقاومون القضاء والقدر إذا كانوا يحصرون العلة في ذلك كما تقول وتدعى بدون عقل ولا حياء . يا بلعام زمانه ومطية شيطانه ، قل لتاجر أو صانع أو زارع عاقل مؤمن : لماذا أنت صغير فقير في هذه الأمور دون بعض الكفار ، فانه سيحييك بان ذلك بسبب تفريطي وتقصيري في طاعة ربي ، ولجملتي بمعرفة هذه الأمور . فلو قلت له : فلماذا كان الأجنبي أكثر منك ضياعا وأعظم تجارة وهو أشد تفريطا في الطاعة بل لاطاعة له ، فسيقول لك : ليس كل أجنبي أكثر مني ضياعا وأكبر تجارة ، بل يوجد في الأجانب ملايين لا تحصى أقل مني تجارة وضياعا مع ما هم فيه من المصائب المتنوعة ، وإذا وجد فيهم من هو أكثر مني ففي المسلمين من هو أكثر منه ومن كان مثلي منهم ، فما أعطاني الله من حلاوة الإيمان ونشاط الروح وقوة القلب وعزة النفس والأنس به تعالى خير مما أعطاه الله من الزيادة بالنسبة إلى ، ونقصي في التجارة أسهل من نقصه في الدين ، وقد حصلت المساواة بيني وبينه في لوازم الحياة الضرورية ، وأما ما زاد عن ذلك فان يكن زاد على في نوع واحد كالتجارة فقد زدت عليه في أنواع أخرى من ضروب

الحياة ، فبين لى واحدا منهم زاد على فى كل شىء حتى اقتنعك أننى قد زدت عليه من ناحية أخرى ، ولو لم يكن من ذلك إلا عزة الايمان وراحة الضمير ، وغاية ما عندك أن تدعى أن فيهم من قد زاد على فى التجارة ، وليست اللذة كلها محصورة فى التجارة فقط بل كم فى الدنيا من تجارة مريرة قد أهلكت صاحبها ، فأسباب اللذة والنعيم والراحة كثيرة جدا ، والتجارة سبب واحد منها ، فلا يسوغ لى أن أبيع رأس مالى من دينى وغيره من أسباب الملاذ الأخرى بتجارة غير محققة منافعها ولذتها^(١) كما لا يسوغ لك أن تتجاهل وتتعالى عما لدى من فضل الله ورحمته والفرح بذلك وتجعله شيئا صغيرا وتعظم أمر التجارة وتجعل الخير كل الخير فيها ، وأنا أرى غير رأيك وأعرف من نفسى مالا تعرفه أنت . هذا هو الذى سيجيبك به كل مؤمن عاقل ، أو ما هذا معناه ، أما أنه سيجعل مصيبته على القضاء والقدر فقط فهذا لا يفعله مؤمن أبدا ، بل لا يفعله إلا من هو من إخوانك المنافقين الشاكن فى الله ودينه ، فيحتجون بالقضاء والقدر اتباعا لأهوائهم لا إيمانا بهما كما قالوا ﴿ أنظعم من لو يشاء الله أطعمه إن أتمم إلا فى ضلال مبين ﴾ والمسلم اذا ذكر القضاء والقدر أحيانا عند المصائب فانه يقرن ذلك بتعليل معقول صحيح ، فلا يذكرهما مجردين ويجعلهما المصيبة أو هما سبب المصيبة لا لاجل ذنب ونحوه . والعجب من جرأته فى قوله : « فالقضاء والقدر هما العذر الواضح المقبول ، الخ ، فلا ندرى هل هذه رؤيا رآها ، أو وحى من الشيطان أدخله فى روعه ، أم شىء هذى به ولم يعرف معناه ويخشى تبعته ويراقب نتيجته ، أفلا أبصرت عيناه أو عينه وطرق سمعه هذا الكسفاح المتواصل والمنازعات الدائمة والثورات المتتابة ، وكيف لم ير هذه الأعمال المختلفة المتنوعة التى يقوم

(١) أو محقق وجودها على ترك الدين

بها المسلمون من المعارف والعساكر والزراعات والتجارات والصناعات وغير ذلك ، فلاى شيء وضعت ، ولاى شيء بذلت إذا كان القضاء والقدر هما العنود المقبول ، أفلا يستحي قدر مبلغه من العلم أن يتفوه بهذه الترهات المخزية والفضائح المكشوفة . ثم دعواه على المسلمين بأنهم مختصون بالذل والاستعباد دون العالمين زيادة رجس الى رجس وإضافة خبث الى خبث ، متى كان المسلمون مختصين بالذل والاستعباد دون العالمين ، وأنت ترى أمما كثيرة فى مشارق الأرض ومغاربها تتمنى باقضى ما لديها أن لو حصل لها من العز والسيادة مثل ما حصل للمسلمين ، مع أنهم ينكرون القضاء والقدر وقد لا يعرفونها كما يعرفها المسلمون . وقد تقدم ادعاؤك أول الكتاب أن هذا الاستعباد لم يختص به المسلمون بل اجتاحت غيرهم ، فكيف تدعى هنا أنهم اختصوا به من دون العالمين ، وكل مسلم بل كل عاقل يعلم أن الفترات التى فقد المسلمون فيها عزم العظيم ومجدهم الكبير أقل من الفترات التى ضرب بها هؤلاء الغربيون بالذل والاستعباد ، فان أولئك مكشوا آلاف السنين فى أضعف حالة وأذل استعباد ، بخلاف المسلمين فانهم نالوا نهاية المجد وضخامة الشأن وعلو السيادة فوق ألف سنة ، ولم يفقدوا إلا بعض عزمهم فى فترات قصيرة بسبب إعراضهم وتقصيرهم فى اتباع القرآن والسنة اللذين قامت عليها حياتهم ونجاتهم وعزمهم ومجدهم الأصيل

والعجب الآخر من خبثه العميق فى قوله « وهما العذر الواضح المقبول فى كل فشل وهوان وعبودية ، وفى كل عجز وضعف وفقر وبؤس ، وسكت عن ضد ذلك ، وكان عليه أن يقول : وهما الحجة فى كل نصر وعز وتمكين وقوة وغنى وثروة ، فانه من المعلوم أن من يحتج بالقضاء والقدر فى شيء من أموره فانه يحتج بها فى الخير والشر سواء ، ونحن نعرف النكته فى ذلك وهو إيشانة هذا الأصل الدينى بكل وسيلة ، وأن الايمان بها يجر الى الشر دون الخير

ثم رجع فأخذ في تكرير ما سبق بأن المسلمين يرون أن الإنسان الصغير
بفاهل وأنه لا قدرة له على الفعل ، وقد سبق الجواب عن هذا مرارا كثيرة .
ثم لأنه أورد على نفسه اعتراضا أخذ منه بالخشق ، فذكر أنه لا يصح أن
يرفع من شأن عقيدة القضاء والقدر ، ولا أن تحمل كل هذه الأعباء ، لأننا
نرى المسلمين عامة يعملون أو يحاولون أن يعملوا ، ولم نرم تركوا العمل
معتبين بالقضاء والقدر ، فهذه العقيدة على حسب ما ذكر هنا - وإن كانت
باطلة - إلا أن المسلمين لم يفهموا منها ترك العمل أو ترك القيام بالواجبات .
هكذا أورد هذا السؤال الركيك ، وهو وإن كان قد أوردته وصاغه على
حسب هواه وشهوته لا على حسب الواقع فهو يبطل دعواه من أصلها وينقضها
فقطنا بيننا . ثم أنه أجاب عليه جوابا ناقضا خبيثا متفائنا حاصله أنهم لم يعملوا
جائزين بالنجاح ، بل حقيقة جوابه أنهم لم يعملوا كافرين بالقضاء والقدر
والمشيئة ، ولو فعلوا ذلك لنجحوا ، فقال :

« إذا قيل هذا قيل في الجواب : ما أعظم ما تخفى على الإنسان نفسه وتخفى
عليه حقيقة (١) . أجل ، ان المسلمين يأتون شيئا كثيرا من الأعمال الصغيرة ،
تدفعهم اليها في الغالب الغرائز كما تدفع المخلوقات الأخرى ، أو يدفعهم اليها
الغنى القلق المشوش (٢) أو يدفعون اليها زاعمين أنهم مأمورون بها تعبدية
وتكليفية فقط (٣) كما كلفوا بالصلوات والدعوات ، لا لأنها تفيد بذاتها ، أو

(١) يقال هو ذا أنت ، فانها خفيت عليك لما بك من العجب والته والكبر ،
لم تعرف قدرها فوقت فيما وقعت فيه
(٢) هذا منقوض بأن الفكر نفسه لا يدفع أحدا ، بل الدافع متعلق الفكر ، فلا
بد من بيانته

(٣) هذا منقوض بالأفعال الدينية المحض ، ومعلوم أن أكثر الناس لا يفعلونها
تعبدية ، ثم لو فعلوها تعبدية حقيقيا لكان أقوى

يتدفعهم غير ذلك من الأغراض الصغيرة (٢) ، ولكن هل اعتقدوا أن أعمالهم تسعدهم وتشقيهم ، أو تفقرهم وتغنيمهم اعتقاداً جاداً ، أو اعتقدوا أنهم أحزان مختارون فيما يأتون ويندرون ، وأنهم إن شاءوا فعلوا وإلا تركوا ، أو اعتقدوا أنهم فاعلون عاملون حقيقة (٣) ، أو أن فيهم قوة ذاتية ، أو أنه ليس هناك قوة خفية - وهو ما يدعونه بسر القدر - تعمل أبداً على توجيههم غير الجهة التي يقصدون ويريدون ، بلا سبب غير أنهم ضعاف عاجزون ، وأنها هي - أي العوامل (٤) - قادرة قوية ، أو اعتقدوا أن النتيجة تأتي على قدر الوسيلة دائماً جزاء وفاقاً . هل اعتقدوا شيئاً من هذا أو هذا كله اعتقاداً صحيحاً لا يشوبه الشك ولا يرديه الرب . كلا ! إنهم لم يمتقدوا شيئاً من هذا ، فكيف إذن يرجي لهم أن يعملوا أعمالاً تفضي بهم إلى النجاح والظفر الممين ،

قلت : فلي نظر المسلم المنصف الغيور على دينه إلى مافي هذا الجواب من القلق والاضطراب والبهت والكفر والخبائث التي لا تحصى . والذي أولجه الى هذا الفجور والطيش والبهتان العظيم محاولة التخلص من هذا الإراد الذي هو كالغل الذي خنق به نفسه فطاش طيشه ، ولولا أن الله تعالى ذكر عن أعدائه ما نسبوه إليه من العظائم في محكم التنزيل لما استطاعت أناملنا أن تنقل من هذه الكفريات والجرأة العظيمة على مقام الربوبية شيئاً

(١) من أين له أن الأغراض التي تدفعهم صغيرة ، هذه دعوى مجردة الفاهة مجازفة

(٢) قبلك الله على هذا المذيان ، فقيم هذه الأعمال إذن ، كل اطلعت على قلوبهم . لو أنك قلت : هل هم كافرين بالهدى ، لا اختصرت الكلام واسترحت من هذا التطويج والتلويع المريب

(٣) لينظر المسلم الغيور الى هذا الكفر الطامع ، فهل أخذ سب الله تعالى وطرح في مدينته وقدره مثل هذا الرذيق المائع . أين الغيرة الدينية على الاسلام . هل من قال هذا ورضى به

فقلوه « ولكن هل اعتقدوا أن أعمالهم تسعدهم أو تشقيهم ، الى قوله
« أنهم فاعلون عاملون حقيقة » يقال في جوابه :

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار الى دليل

فلاي شيء عملوا هذه الأعمال ، أترام عملوها مصادفة وجنونا وتغفيلًا .
وهؤلاء الذين هلكوا وقتلوا في ثوراتهم وغيرها أترام قصرُوا فيما فعلوا .
لا شك أنهم ما عملوا تلك الأعمال إلا لطلب نتائجها من السعادة والشقاوة ،
معتقدين أنهم فاعلون حقيقة ، فأنت لو تسأل أدنى انسان لم يشك في أن فعله
ليس مجازاً بل هو حقيقة ، بل كل من لم يعرف الفرق بين الحقيقة والمجاز لا
يشك في نفسه أنه فاعل ، فكان يجب عليك أن تبين أن أفعالهم مجاز ، لأن
الأصل الحقيقة وأنت مدّع خلافها . ولكن نحن نعلم أن مرادك أنهم لم يعملوا
كافرين بالقدر ، فنقول حينئذ : لا شك أن أكثرهم لم يعمل كافراً بمشيئة الله
وقدره ، فان كان لا بد من وجود هذا الشرط عندك في النجاح - كما صرحت
به في المواضع الأخرى - فهناك أمم مستعبدة قد عملت من غير أن تعتقد
القضاء والقدر كما اعتقده المسلمون وقد تردت في هاويتها السحيفة وما خرجت
عنها . وما كان ينبغي لمثلك ممن هو على عقيدتك في الاتحاد أن يتكبد هذه
الحسرات ، ويشد نفسه بهذه الأغلال النفاقية ، فيأتي بهذه الدعاوى طويلة
ملتوية ، ومعناها مفهوم عند كل عاقل . وقد بينا أن أئمة المسلمين من أهل
السنة والجماعة مجمعون على أن العبد فاعل وكاسب غير مجبر ، وأنه فاعل حقيقة
كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية في (منهاج السنة) ص ١٢٧ ج ١ « وأما سائر
أهل السنة فيقولون : إن أفعال العباد فعل لهم حقيقة ، وتقدم قوله في (العقيدة
الواسطية) : والعباد فاعلون حقيقة . الى قوله « وللعباد قدرة على أعمالهم
وإراداة ، وتقدم قول النسفي في عقيدته المعتمدة عند الاشاعرة « وللعباد أفعال
اختيارية يشاؤون بها ويعاقبون عليها ، الى آخره وهذه العقيدة تدرس ويعتمد

عليها أهل هذا المذهب المتبوع ، فكان ما أدعيته على المسلمين كذبا وبهتان معلوم الفساد

وقوله « أو أن فيهم قدرة ذاتية » يقال هذا مكرر مع ما قبله ، فإن عُنيت أن فيهم قدرة بالطبع يفعلون بها بدون قدر وقضاء ومشية وإرادة ، بل لو شاء الله منهم فعلا وشاءوا هم فعلا آخر غلبت مشيئتهم مشيئة الله - فهذا لم يعتقدوه ، وقد اعتقدوه بعض الملاحدة فما نفعمهم . وإن أردت أنهم فاعلون بالقوة المودعة فيهم أى فاعلون حقيقة بالمشيئة العليا فقد بينا أن هذا قول أئمة المسلمين فلا حجة لك فيه .

وقوله « أو اعتقدوا أنه ليس هناك عوامل خفية - وهو ما يدعونه بسر القدر - تعمل أبدا على توجيههم غير الجهة التي يقصدون إلخ » ،

يقال : نعم فالمسلمون لم يعتقدوا أن هناك عوامل خفية بهذه الصفة ، وإنما اعتقدوا أن هناك مشيئة عليا مهيمنة على كل الوجود ليس لأحد قدرة على قهرها ومعاداتها والانتصار عليها ، فاعتقدوا أن أعمالهم التي أقدرهم الله على فعلها تحت مشيئة الله العامة ، وأنه سبحانه البر الرحيم الرؤوف الذى هو أرحم بعبده المطيع من الوالدة بولدها ، العليم الحكيم الكريم الذى وسعت رحمته كل شيء فشمل فضله وإنعامه حتى الملحدين الذين بارزوه بالسب والقبح وهم يسرحون ويمرحون فى نعمائه الضافية ، فكل هذه الخيرات والذات الموجودة فى الدنيا التى تتقلب فيها هذه الخلائق المتمردة العاتية إلا القليل فيها أثر رحمته وكرمه وإحسانه . نعم هم علموا أن فوقهم مشيئة الله الذى رضوا به ربا ومولى ، فنعم المولى ونعم النصير ، ولما كنهم لم يعملوا عالمين بعوامل خفية موصوفة بالصفة التى أدعيتها ، اللهم إلا أن يكون هنالك منافقون يرون هذا وأنتك منهم ، فهذا هو الذى يطابقه ما تدعيه وتدعو إليه

يا بلعام زمانه ، أين وجدت أن المسلمين يعتقدون أن بينهم وبين الله

عداوة ، وأن سرّ القدر يعمل أبدا على توجيهم لغير الجهة التي يقصدون ، وأنه يحرمهم ثمرة زرعهم الذي زرعه الى آخر ما هذيت به . ولعلك كنت تعتقد هذا فيما سبق فصار من الأسباب التي أوقعتك في الردة والالحاد ، وقد تقدمت آياتك التي تدعي فيها أن الانسان يزداد نعيما كلما ازداد جورا وكفرا ، وأن الناس والدنيا خوادم لمن كفر وجار ، لا شك أن من اعتقد هذا فقمين أن يعتد الفوضى وأن يرتد بعد اسلامه ، ولا سيما إذا ضم إلى ذلك أن يعتد على وجه الأرض وهو الكفر بالقضاء والقدر الذي يحكم العالم ثم انه زاد خبثا إلى خبثه في قوله : بلا سبب غير أنهم ضعاف عاجزون وأنها - أى العوامل - قادرة قوية ، فجعل هذا الملحد كل عقوبة وبلاء بسبب ضعف الانسان وقوة الله ، وضرب صفحا عن هذا الكفر الغليظ ومبارزة الله ليلا ونهارا بالمعاصي والعداوة ، فلم يجعل العقوبات أثرا لذلك ، بل جعلها بسبب القدر وضعف الانسان ، وليس وراء هذا كفر وزندقة ، وقد نسي هذا الملحد أنه أسند هذا إلى نواميس الطبيعة ، فهي عنده التي تحكم العالم ، وهي العوامل التي تفعل هذه الأفاعيل بمجرد قدرتها ، لأنها لا رحمة لها ولا علم ولا حكمة ، والانسان ضعيف لا قدرة له على مصادقتها وهي لا تسمع ولا تجيب ، وهذا عين الفوضى . وكل مسلم عاقل يعرف أن غرضه من هذا السب والقذف هو تشوية سمعة الأديان ، والتفجير عنها وعن أصولها كالقضاء والقدر ، وأنه تعالى لا يتصرف في ملكه ، فأين الرحمة وأين العدل وأين الحكمة على مقتضى كلامه ، فلم يذكر لله رحمة ولا فضلا على عباده في أغلاله كلها ، بل جعلها كلها بفجوها معاداة لله ، فأنكر دعاءه وتسبيحه وتحميده وتقديسه على المنابر وعبادته في المساجد ، وجعل ذلك شرما يؤدي ومصرفا خبيثا ، ومشيتته جعلها قوى خفية معادية للانسان ، وفي موضع آخر يأتي وصفها بالخبث . ثم قصد إلى التوكل فافسده وقلب معناه فجعل الشرك الصريح توكلا ، الى غير ذلك من الغفائع التي لا تعد ولا تحصى

وحاصل كلامه برسته في الجواب على هذا السؤال الذي أخذ منه بالخطئ
أنهم لم يعلموا جازمين أن نواميس الطبيعة هي التي تحكم العالم ، لا دخل لقضاه
موقدر ومشبهة في سيرها وتفاعلها ، وأنها هي التي تسعد وتشتق وتبهر وتذل
وتتقدم وتؤخر ، لذاتها ، فلو فعلوا ذلك لنجحوا . وقد علمت أنه جواب في
نهاية السقوط ، فإنه يوجد شعوب كثيرة ملحمة مضروب عليها أعظم المذل
وهي لا تعتقد بقدر ولا بقضاء ، وما نفعها هذا الاعتقاد بشيء ، وأقرب الناس
إلى هذه الأمة هم المعتزلة في نفي القضاء والقدر وهم أذلها وأرذلها فلم يتقدموا في
وقت من الأوقات على غيرهم من القائلين بالقضاء والقدر ، فلم أن اعتقاد
القضاء والقدر ليس له أدنى علاقة في التأخر الذي يدهيه

وقد سبق كلام هذا المخرور واستهزأه بذلك الخطيب الذي بحث الناس
في خطبته على الخطأ ، وأن الناس لو دعوا موقنين بالاجابة لأجبروا ولسكنهم
دعوا غير موقنين بالاجابة فلم يجابوا ، فاستهزأ به على هذا وتهكم بكلامه غاية
التهكم كما سبق . وهنا لما اعترض عليه بأن الناس يعملون أعمالاً عظيمة متواصلة
ومع ذلك لم ينجحوا أجاب بهذا الكلام الذي حاصله أنهم لم يعملوا كالمؤمنين بالقدر
جازمين بالنجاح ، فلو فعلوا ذلك لنجحوا . فانظر كيف انقلب على رأسه وافترض
وتناقض ، فإنه من المعلوم الذي لا يستريب فيه عاقل أن أعمال الناس في دنياهم
واجتهادهم في إيمانها والحرص عليها والمحافظة عليها وتوجيه الهمة إليها أعظم بكثير
من اجتهادهم في الدعاء والصدق والاخلاص فيه والبعد عما يضاده وينافيه ، وأن
تناولهم لأعمالهم الدينية أعظم من تأديتهم لأعمالهم الدينية بكثير ، بل لا نسبة
بين هذا وهذا عند عامة الناس إلا القليل ، فإذا كانوا لم ينجحوا في الأعمال
الدينية وقد بذلوا مجهوداً فيها وأعطوها العناية التامة ، فكيف يسيء الظن بأعمالهم
الدينية كاللعمري ويدعى أنه لم يحصل منه نتيجة مع ظهور النتائج الكثيرة ومع
كونهم لم يجتهدوا فيها هذا الاجتهاد ويخلصوا فيها هذا الاخلاص ويأتوا بها على
أحسن وجوها ، فبعضهم يدعو من لا يستطيع أن يقدم نفسه أو يؤخرها

ولا يملك لها موتا ولا حياة ولا نشورا ، وبعضهم يحرف صفات الله وينحيل على قلب مسمياتها ، وبعضهم منغمس في غيه واتباع هواه وشهوة نفسه فيجمع بين التقصير في هذه الأعمال الدينية ثم في الكذب عليها وعلى نتائجها الحسنة ، ولا شك أن أعظم أصول النظام السماوي هو الايمان بأن الجزاء من جنس العمل ، وأنه تعالى يجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، وأنه سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملا ، بل من كرمه وإحسانه أنه يجزى الحسنة بعشر أمثالها والسيئة مثلاً أو يعفو ، وهذا غاية الكرم والاحسان . أما كون الانسان يقصر في حق ربه أو يؤديه بفتور وكسل وضعف همة قد أحاطت به الشكوك والشبهات والشهوات من كل جانب ثم يحرص كل الحرص على حق نفسه وحق جنسه مما قد يكون له فيه مصلحة دنيوية طفيفة فيتقنه ويخلص فيه نهاية الاخلاص ثم يريدون اليه أن ينصره ويؤيده على غيره ويعطيه السيادة والسعادة لأنه مستحق لذلك بمجرد انتسابه الى الدين ، لا للعمل ومطابقة الحقيقة ، فهذا غير معقول - لاشرا ولا عقلا - كما تقدم التنبيه على هذا اذ كلامه يدور على هذه الأصول فلا بد أن يكون الجواب دائرا معه

ثم نقل كلاما عن كتاب لم يبين اسمه في الاعتماد على القضاء والقدر ، وأن صاحب الكتاب قال فيه يجب على الانسان أن يفوض أموره الى الله تعالى ، ولا يتكلف في إرهاب نفسه في طلب ما لم يكتب له ، وأن المختار للانسان أنه يحسن الظن بالله ويفوض أموره اليه . وقد ترك اسم مؤلف الكتاب وقال : طويت اسمه عن هذا المقام ،

فيقال : اذا طويت اسم هذا المؤلف واسم كتابه طويتا الإجابة عنه ، وكان لا بد من بيان اسم القائل ووجه الدلالة من كلامه ، مع أنه لا حجة لك فيما استشهدت به عند المناقشة كما هو ظاهر ، فليس فيه حث على ترك العمل .

وانما فيه إيجاب حسن الظن بالله ، وكرامية ارهاق النفس فيما لا يجب ، فان كان هذا الذنب كبيراً عندك - كما هو اللائق بقلبك الخبيث - فان هذا هو الحق الذى لا شك فيه . ولكن لا حاجة لنا فى مناقشتك هنا فان هذا الأصل العظيم الذى خالفت فيه الأمة كلها لا يكفي فيه الاستدلال بقول يحمل عن كتاب مجهول عن مصنف مجهول ، فان كثيراً من الكتب فيها كفر وشرك وتعطيل للصفات واعتماد على الأسباب وتوكل عليها ودعاية واسعة للفواحش والسر وغير ذلك ، وقد تقدم قولك : انه ليس كل ما يقال وينقل حجة على المسلم ، وانه ليس المسلم الصحيح الاسلام هو الذى يتشعب اخطاء المخطئين وأغلاط الغالطين ، فما الذى سوغ ذلك الاحتجاج بما ليس من الحجة فى شيء ، والمخالفة الى ما نيت عنه . ولكن لو جعلنا قولك :

« لو انصفوا كنت المقدم فى الأمر »

بين أعيننا وعند أذهاننا لعرفنا به كل مقصود ومراد فى مطاوى هذه
الأغلال المظلمة كلها

فصل

ولما كان هذا المغرور يعلم أن عقيدة القضاء والقدر ثابتة فى الكتاب والسنة ثبوتاً واضحاً كالشمس ، وأنها من عقائد المسلمين الراسخة التى لا يمكن جردها ولا زحزحتها من قلوبهم ما داموا يدينون بالاسلام إذ هى من أركان الايمان - بذل جهده وصرف همه الى تحريف معناها لأنه اتخذ النصوص كالمصائل عليه يدفعه بالأسهل فالأسهل ، فان أمكنه جحد اللفظ والمعنى جرده كما جحد كثيراً من الأحاديث الصحيحة ، وان عجز جحد المعنى وحده وحرف الدليل على ما يوافق هواه ، ولو خالف الناس كلهم . وقد طرد هذا الأصل

الحديث هنا فسفه آراء جميع ما قاله أئمة المسلمين في هذه الأصول فجعل معنى القدر شيئاً واحداً وهو خلق هذه المخلوقات المحسوسة على هذا المقدار المشاهد ، فصار معنى التقدير عنده هو خالق الأشياء على مقاديرها في الكم والكيف على هذا الشكل الموجود بدون أن تكون الحوادث متعلقة بالمشيئة والقدرة . وقد أسهب في تطويل المعاكسة والعماد في تقرير ما يدعيه ، وعجز عن أن ينقل نقلاً واحداً عن إمام واحد من أئمة المسلمين أو عقيدة من عقائدهم - على كثرتها وتنوعها - ما يصح دعواه ، سوى أنه نقل أنرا عن عمر رضى الله عنه لا علاقة له بما يدعيه كما يأتي ، ثم هو مع هذا أطال في التشديق والجديان الفارغ وسوء الأدب مع القرآن في هذا المعنى ، فقال في أول استدلاله على أن القدر هو خلق العالم على هذه المقدار المشاهد :

« أما القدر فهو في مادته مأخوذ من التقدير ، أى جعل الشيء ذا مقادير ، أى ذا حدود . يقال هذا الشيء قدر هذا ، أى محدود بمحدوده ، كما قال (فسالت أودية بقدرها) وقال (قد جعل الله لكل شيء قدراً) وقال (ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره) وقال (انا كل شيء خلقتنا بهقدر) وقال (والله يقدر الليل والنهار) وقال (وكل شيء عنده بمقدار) وقال (وخلق كل شيء فقدره تقديراً) وقال (والقمر قدرناه منازل) ويقال : قدرت الثوب أى جعلته على مقياس الجسم ، أى مثله ، أى محدوداً بمحدوده . ويقال : قدر كذا ، كما قال (إنه فكر وقدر ، ففعل كيف قدر) ويراد به التفكير والتروى في الأمر ، وهو راجع أيضاً إلى جعل الحدود للشيء ، ولما كان قد تكون حدوداً مصادية ، وقد تكون معنوية - أى قد يكون المراد تقدير الخطة العقلية وتحديداتها فكراً بحيث تهيء وفاق الأمر المادى . وقد يكون المراد تصور الشيء بمقاييسه المادية وجعله مقبوراً ذا مثل وغياب معلومة . وقال (تعرج الملكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة)

سنة) وقال (ولقد من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم ^(١)) وقال جرير :

جام الخلافة أو كانت له قدرا كما أتى ربه موسى على قدر
أي كانت الخلافة له كفوا وكان هو لها كفوا أيضا ، أي إن الأوصاف
الموجودة فيه هي الأوصاف التي تشتط في الخليفة وتوجد في الخلافة الحق ،
فمن جمع هذه الصفات جاءت به الخلافة فهو خليف بها وهي به خليفة ، كما قال
الآخر في هذا المعنى :

فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها
وكذلك محي موسى ربه أي على مثل ووافق في المعاني والصفات ^(٢) وفي
هذا المعنى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وليس المراد أن الخلافة جامية
الممدوح بمجرد القدر أي بمجرد المشيئة والقدرة ^(٣) من غير استحقاق ^(٤) ولا
أوصاف خاصة ، فإنه حينئذ يكون أقرب إلى الذم منه إلى المدح ، ولكن
المقام هنا مقام مدح ، وقال شاعر آخر :

(١) انتقل من الاستدلال بالآيات إلى كلام الصغراء ، وترك الأحاديث جانباً
لأنها صريحة في رد ما يدعى

(٢) هذا التفسير باطل

(٣) لكن ليس فيه ما ينبغي أنها جاءت بالمشيئة والقدرة ، بل فيه ما يؤكد ذلك
فإنه قد شاء الله ذلك لأنه كفوا لها ، وقد علمت من هذا أنه صرح بأن القدرة المشيئة
والقدرة ، وعلمت قدحه فيما مضى في هذا المعنى وأنه صرح به هنا ولم يقل «قوي
خفية» لأن المقام لا يحتاج إلى خداع ونفاق

(٤) ومن هو الذي قال لك أن المشيئة والقدرة تجري لمن لا يستحق ذلك حتى
تبنى هذا المراء على الهواء

تقفون والفلك المدير سائر وتقدرتون فتضحك الأقدار

أى تضعون لآمالكم ولما سيحدث حدودا وأزمانا ، ولكن الأقدار
المجهولة تبطل عليكم هذه الحدود وتلك الأزمان المعدودة المحدودة ، وتقلب
عليكم الأمر ، لأن الأقدار هى نظام الوجود وهى سر الحياة ، وأنتم لا
تقدرتون ان تغلبوا على كل الحياة والوجود بتقدير انكم وآمالكم ،

قلت : هكذا ساق هذه الآيات واستشهد بهذه الاستشهادات تمهيدا لما
سيقرره فى معنى القدر على ما يذهب هو اليه ، فقال بعد هذا الاستدلال :

« فالقدر بجملة وجهلة استعماله يراد به التقدير ، أى جعل الشيء ذا
مقادير معلومة ، أى يراد به جعل الشيء منظما فى كنهه وكيفه . . . فقدر الله
معناه أن الله جلت قدرته (١) قد أوجد هذا الوجود : السماويات منه
والأرضيات ، مقدرنا بمقادير محكمة هى أدق فى ضبطها ومقاييسها ونسبها من
أعظم مركب كيمائى قام بتركيبه وتقدير عناصره وضبط نسبه أبرع الكيمايين ،
وأدق من أدق صناعة فيها آلاف الآلات التى يبدع فى وضعها أبرع عقل . فما
من شيء فى هذا الوجود سواء أكان معنويا أدبيا (٢) أو ماديا إلا وقد ضبطت
مقاديره وأحكمت نسبه . وهذا الضبط فى التقدير جاء فى الأشياء بالنظر إليها
مستقلة وبالنظر إليها متصلة بغيرها - أى إن ضبطها أجرى عليها على اعتبارها
وحدة مستقلة وعلى اعتبارها جزءا من العالم . فضبطت هى فى نفسها ، وضبطت

(١) يلاحظ أن مثل هذه الكلمة كثيرا ما يستعملها إذا أراد أن يقرر أصلا
حيثما ضد أصل الدين ، ليجعلها خدعة للوغاء وضعفاء البصائر . ولهذا قل أن تجدوها
فى غير هذه المضائق . وهذا الصنيع كصنيع من يستعمل شيئا لذيذا إذا أراد أن يجرع
احدا سما أو شيئا كريها ، فيجعل ذلك سبيلا لاستساغته

(٢) ينظر ما مقصوده من تقييد المعنوى بالأدبى خاصة

مع سواها ، أى إنها مضبوطة مستقلة ومضبوطة مشتركة مع غيرها ، ولهذا جاء هذا العالم منظما صالحا للانتفاع والحياة والاستقرار فيه وعليه . ولولا هذه المقادير والنسب لما كان صالحا لذلك ، انتهى كلامه فى تعريف القدر فسيحان واهب العقول .

ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه
فأى مناسبة لما ساقه من الآيات والشواهد على ما ادعاه هنا ، وكأنه ظن أن المسلمين يرون أن هذا العالم لم يخلق على أتقن صنعة وأحكمها فلهذا أطال فيما هو خارج عن المقصود ، لان الكلام فى أعمال الخلق لافى تركيب العالم وضبطه بنسبه وحدوده ، فان هذا لا خلاف فيه ، وفى كلامه من الظلمة والقلق والاجمال والالتباس ما لا يخفى على فطن ، وسيأتى هدمه قريبا . ثم شرح هذه الجملة المظلمة التى ادعاهها فى معنى القدر فقال :

« وشرح هذا أن العالم مركب من عناصر أحصى منها الآن الشيء الكثير ، وكل شيء من هذه الموجودات آخذ من هذه العناصر نسباً ومقادير مخالفة للنسب والمقادير التى أخذها غيره ، ومن هنا حصل الاختلاف والتباين المقصود المفيد . وهذه النسب والمقادير التى أخذها أو التى أعطيا روعى فيها الدقة والضبط لتكون صالحة للغرض الذى أريد منها . ثم هذا الشيء فى نفسه قد روعى فيه من ناحية الكم مقدار معين ووزن معين لأجل أن يكون اجتماعه مع غيره ممكناً ومفيداً . ولنجعل ثمرة البرتقال مثلاً فنقول : لهذه الثمرة ناحيتان : ناحية الكيف وناحية الكم . أما ناحية الكيف فقد عينت النسب والمقادير فيها من العناصر تعييناً متقناً . وبهذا كانت يرتقلا ، وكانت شبيهة لذينة مستساغة ، وبهذا كانت أيضاً نافعة مغذية . ولو فقدت النسب والمقادير من هذه الثمرة لما أمكن أن تجمع الفوائد التى جمعت . فالقدر هنا هو الذى جعلها بهذا الكيف المحكم . وأما الكم فاتها لو لم تحدد بكم معين أو قريب من

التيين ، وكان من الممكن أن تنمو نموًا مطلقا بحيث تصبح ضخمة جدا ،
لكن كانت غير متناسبة مع شجرتها التي تحملها ، ولا مقدرة بطاقة عيذابها التي تستكها .
والناتج النتيجة حينئذ عجز هذه الشجرة وعجز أغصانها عن حمل ثمرتها ، فتهدى
بها حينئذ الى الارض . ولكن شجرة البرنقال إنما خلقت بأسقة صاعدة لا
متمددة ولا مفروشة على التراب . أما النخلة فأنها لما كانت قوية فإن ثمرها كان
ثقيلًا فكان التناسب صحيحا والتقدير مضبوطا . وأما البطيخ فانه لما خلق متمددا
ملقى كان من التقدير والتناسب المقبول أن يكون ثمره أكبر وأعظم منه لأنه
لا يحمله (١) وهكذا يقال في كل شيء يقع تحت بصرنا وعلينا

والجواب أن يقال : هذا التقرير الذي ادعاه في معنى القدر ليس بصحيح ،
بل هو باطل بهذا المعنى ، فان القسطم والقدر لها مراتب : عليه تعالى بهذه
المخلوقات كلها قبل خلقها ، وكتابتها لها ، ومشيئته ، وخلقها لها . وهو اقصر على

(١) التشبيل الذي ذكره في البرنقال والنخلة والبطيخ غير مطابق لما ادعاه ولا صحيح
في نفسه ، لانه جعل لذته وكونه برنقالا ناعما من أجل تناسبه . وهذا باطل لأن الحظان
متناسب أيضا ، وكل شجرة متناسبة وقد اختلف طعمها . ولكن الحق أن لذتها من
أجل مناسبتها لأرجح الانسان مع تناسبها في نفسها . وأما حملها وكثرتها وثقله فانه من
أجل المنفعة المنبذولة لحياتها ووجودها لتكاثرها وتزيد عليها قليلا لأجل حياتها ، وإلا
فشجر البادية من جنسها ومع ذلك لم يخلق نافع أو معدوم لأنه غير محتاج الى تربية
مثلا . وأما النخلة فإن حملها يعطى صورة عن شكلها ، فان العذق كتخلة مستقلة صغيرة ،
فنسبة البلح في الشجراج في العذق كنسبة الخوص في الجريدة في الساق . وهكذا كل
شجرة ، لأن ثمرة البرنقال تعطى صورة أوراق ملتفة في رأس غصن ، وأما البطيخ
فالأجل تماثله كان ضخما وغير قوى كشجرته في الضعف والقاقة ، عكس النخلة فأنها
قوية وحملها كذلك فاشتمل على مواد قوية (فيقاميشات) وهو يتناسب العمل الذي
يعيش به . وليس الغرض شرح هذه الآفوس وإنما ننبه على فساد تشبيهه هذا

مرتبة الخلق فقط ، وتهور فيها ، ولم يتكلم عن الحوادث المتعاقبة ، بل اقتصر على ذكر المخلوقات المادية في كمها وكيفها بكلام مدخول تخيل غير مستقيم ونهين بطلان ما ذكره من وجوه :

أولا : قد علم أن النزاع بينه وبين خصومه من المؤمنين بالظن إنما هو في أعمال العباد وأفسادهم ، لا في خلق السموات والأرض والآنهار ونحو ذلك ، فليس لذكر هذه المخلوقات المادية هنا مناسبة أصلا فهل ادعى خصومه أو أحد من الكفار أن المخلوقات خلقت على غير نظام ، أو أن خلقها غير متناسب ، أو أنها غير صالحة على هذه الهيئة ، حتى يذهب في التكليف في هذا التعريف الاجنبي عن هذا المقام ويطلب فيه ، وهل كان المختلة والقدرية الموجودون في آخر عهد الصحابة والقرون المفضلة يجادلون في اتفاق خلق هذه الأشياء حتى يتكلم الصحابة ومن بعدهم في القضاء والقدر ويضالوا أو أنك ومن اقتضى بهم ، وإنما قصده التجاهل والتلصص من النصوص الصريحة في تقرير هذا الأصل فعدل الى المراوغة وهيات

ويقال ثانيا : لا مناسبة بين سياقك الآيات والشواهد الأخرى وبين تعريفك للقدر ، فإن الآيات التي استشهدت بها حجة عليك ، فإن الله تعالى يقول ﴿ قد جعل الله لكل شيء قدرا ﴾ وقال تعالى ﴿ إنا كل شيء مخلقا بقدر ﴾ وقال تعالى ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ وقال تعالى ﴿ ونخلق كل شيء فبقدره تقديرا ﴾ فأخبر سبحانه بأصرح بيان وأوضحه أنه خلق كل الأشياء بقدر ، وأنها عنده بمقدار ، وأنت عانيت هذه النصوص فأخرجها أكل الأشياء من خلقه وتصرفه ، فإن الاحتمال والحوادث والمعاني وغيرها كلها داخلة في هذه المخلوقات بلا ريب ، فأنفس الأشياء بل أنفس ما في العالم أعجز اليرسب والأنبياء والملائكة والمؤمنين ، وأنت تريد إخراجها من أن تكون واقعة بمشيئة الله وقدره ، فتجعلها غير مخلوقة ، فلا يهدي من يستعبد ولا يعين من يسقى

به ، فكيف تستدل بالآيات وهى حجة عليك

ويقال ثالثا : دعنا من هذه المراوغة والالتجاء الى الاشجار كالبرتقال والبطيخ والنخل ، فحل النزاع شىء آخر غير هذا الذى هربت اليه ، وهو أعمال الخلاق كلها خيرها وشرها . أخبرنا هل تعترف بأنها من مخلوقاته تعالى التى خلقها ، أم خارجة عنها . فان قلت خارجة عنها فقد صرحت للناس بأنك مجوسى ، مع كونك ملحدنا منافقا حيث أثبت لهذا العالم خالقين خالق للعالم وخالق لغيرها . وان قلت بل هى من مخلوقاته رجعت الى قولنا رغم أنفك وسقط اعتراضك من أساسه ، فانه من المعلوم أنه تعالى لا يخلق شيئا إلا بعلمه وقدرته مشيئته . فان قلت انه خلق فيهم قوة يقدرون بها على الفعل والترك اختيارا فان شاءوا فعلوا وان شاءوا تركوا ، قلنا : هل فعلهم الذى يفعلونه بهذه القوة المخلوقة فيهم يقع قهرا عليه تعالى ومن غير علمه أو باذنه . فان قلت بل فعلهم يقع قهرا عليه ومن غير علمه أو قهرا عليه بعلمه فقد أظهرت للناس أنك شر من المجوس لأنك حكمت على الله بان عبده قهره ، وأنه أحدث فى ملكه مالا يريد ، وأن ارادته غلبت ارادة الله . فان قلت بل فعله بعلم من الله وإذنه قلنا لك : هذا قولنا الذى عاديت ، وبطل اعتراضك من أصله

ويقال رابعا : من المعلوم أن كل موجود - سواء أكان ماديا أو معنويا ، أدبيا أو غير أدبي - كائن بعد أن لم يكن . والعبد - بصفاته كلها - من هذه المخلوقات ، فهو سبحانه الذى خلق العبد سميعا بصيرا متحركا فاعلا مختارا حاقلا ، وكونه يفعل بالقوة التى خلقها الله فيه لا ينفى أن يكون فعله مخلوقا لله ، كما أن ثمرة البرتقال الخارجة من شجرها مخلوقة لله ، فان خروجها باذن الله ولو شاء الله عدم خروجها لم تخرج ، وفعل العبد وقع باذنه ولو شاء الله عدم فعله للأشياء لم يفعل ، قال تعالى ﴿ ولو شاء ربك ما فعلوه ﴾ ، ﴿ ولو شاء الله ما اقتتلوا ﴾ ، ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ فالشجرة بثمرتها

والإنسان بعمله من مخلوقات الله ، فالأعمال والنتائج والأسباب والمسببات - سواء كانت مادية أو معنوية وسواء أكانت اختيارية أو اضطرارية - كلها من مخلوقات الله تعالى ، فالذى يريد أن يجعل فى هذه المخلوقات ما هو مخلوق لله وما هو مخلوق لغيره بلا إذنه فهو مجوسى أو شر منه قال تعالى ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ فان كانت (ما) هنا مصدرية فظاهر ، وإن كانت موصولة فهي دليل أيضا بأن عملهم مخلوق ، فان التأليف والصنعة فعلهم بلا ريب ، بخلاف المادة الأصلية فانهم لم يعملوها فصار عملهم مخلوقا كما قال تعالى ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾ ، ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾

ويجب هنا أن يعلم الفرق بين فعل الله ومفعوله وخلقه ومخلوقه ، وأنه ليس الخلق الذى هو نفس الفعل هو المخلوق الذى هو أثره ، فالأشياء المخلوقة إنما وجدت بفعله لا أنها هي فعله ، فالتكوين شيء والمكون شيء آخر ، هو اثر التكوين ، كما قال تعالى ﴿ إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ فلا يجوز وصفه تعالى بشيء من مخلوقاته الحادثة فى غيره ، فانه اذا خلق فعلا فى محل عاد حكم ذلك الفعل الى ذلك المحل ، فالصلاة فعل قائم بالعبد والعبد هو المصلى وهي مفعولة له بمعنى أنه تعالى هو الذى جعل العبد المصلى ، فهي صفة لغيره ، وهي من مفعولاته التي هي أثر فعله ، لأنه هو الذى خلق الارادة والقدرة والاختيار فى العبد حتى جعله مصليا ، فالفرق بين الفعل والمفعول ثابت ، بل نقل البغوى الاجماع من أهل السنة على أنه ليس الفعل هو عين المفعول كما يأتى تقريره

ويقال خامسا : كما أنك ادعيت أن الأشياء المادية فى كل أفرادها مقدرة بمقادير ونسب وحدود فهكذا نقول : والأعمال والأقوال مقدرة أيضا بمقادير ونسب وحدود ، إما تقدير شرعيا أو كونيا أو شرعيا وكونيا معاً ، فالصلاة وهي أفعال وأقوال مقدرة بتقدير شرعيا من ناحية الحكم والكيف ، بل كل

وكن فيها قوليا أو فعليا - مقدر تقديرا في غاية الضبط والاتقان والمناسبة لحالة المصل والزمان والمكان بصفة لا تقبل الزيادة والنقص ولا التبديل ولا التحويل ، وكذلك يقال في الزكاة والصيام والحج ، فالوقوف بعرفة والطواف كل ذلك مقدر بمقادير لا يمكن لأحد تبديلها وتحويلها ، وكذلك الأفعال الشرعية الأخرى كعمود النكاح والطلاق والجنائيات والحدود والفسق والنقض وغيرها ، وهكذا الأمور العادية من الأكل والشرب والوطء ونحو ذلك مقبلة تقديرا مضبوطا متناسبا مع متعلقه من كل حيوان ، فهذه الأمور كلها مقبلة بحدود وقود ونسب ، فما هو الذي أخرجه عن خالق الله وهشيئته وقدرته ، وإن كنت تعترف بهذا فلا حاجة إلى المغالطة واللجاجة الفارغة

ويقال سادسا : تقدير الله تعالى لهذه المخلوقات على هذه الصفات والحدود والهيئات والتكافؤ والتناسب والانسجام برهان واضح على علمها وقدرته عليها ويمتنع بداهة أن تصدر بغير هشيئته وإرادته ، وهو عالم بها قادر عليها ، فعلمه بها وقدرته عليها وهشيئته لها متقدمة على خالقها ، اذ يمتنع أيضا وجودها على هذا الضبط التام والأحكام الدقيق بدون هذه الأمور ، وفي حديث عبد الله بن عمرو ، أن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء ، رواه مسلم وغيره ، وإذا كانت كلها إنما وجدت بالمشيئة والقدرة والإرادة يقتضي علمه بها وكتابته لها فهذا هو القدر الذي يؤمن به الناس ، فانهم يؤمنون بأن هذه الأمور قبدرها عليهم أي أجراها وخلقتها بمشيئته الصادرة عن قدرته وعلمه وحكمته ، وكتابته لهذه المقادير برهان واضح على أنها في غاية الضبط والأحكام وعدم القوض التي يعتقدونها الملاحدة وأضرابهم حيث أسندوا أمور العالم إلى نواميس الطبيعة ، فلا علم ولا إرادة ولا كتابة ولا خير ذلك ، بل تفاضل وحوادث قسرية تجري على حسب المصادفات وملكة تصرف الإنسان ، وهذا هو عين القرض ، بخلاف الأمور التي تجري على ما ذكر في النصوص فانها غاية النظام المحكم .

قال تعالى ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾ وقال تعالى ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ وقال تعالى ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ إلى غير ذلك من الآيات للكثيرة . وفي صحيح البخاري عن عمران بن حصين قال : دخلت على النبي ﷺ وعقلت ناقى بالباب فأتاه ناس من بني تميم فقالوا : اقبلوا البشري يا بني تميم ، قالوا : قد بشرتنا فأعطينا مرتين . ثم دخل عليه ناس من اليمن فقالوا : اقبلوا البشري يا أهل اليمن ، إذ لم يقبلها بنو تميم ، قالوا : قد قبلنا يا رسول الله ، وقالوا : جئنا لنسألك عن هذا الأمر . قال : كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض ، فتأذى مناد : ذهبت ناقتك يا ابن الحصين . فانطلقت فإذا هي ينقطع دونها السراب ، فوالله لو هددت أني كنت تركتها ولم أقم . وفي حديث عباد بن الصامت : أن أول ما خلق الله القلم فقال : اكتب . فقال : يا رب وما أكتب . قال : أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة ، رواه أبو داود والخصوص في هذا كثيرة ، فدل على أن هذه المخلوقات وما فيها من الحوادث كلها صغيرها وكبيرها خيرها وشرها مقدره بالعلم والكتابة والقدرة والمشيئة ، كما أنها مقدره في كم وكيفها . فلماذا عرضت عن هذا كله مع دلالة النصوص الكثيرة عليه ، وهو النظام الباهر ، فالله آمنوا بالقدرة بهذا المعنى هم الذين في الحقيقة آمنوا بنظام الله في شرعه على السنة وسله ، بخلاف الزنادقة ومن شاكلهم حيث كفروا به ونكروا بالقرآن ، فمن كفر بمشيئة الله وعلمه وقدرته على هذه الحوادث فكيف يكون مؤمنا بنظام العالم

ويقال مناهيا : قد تعارضت النصوص التي لا تعد ولا تحصى بأن حوادث العالم بما في ذلك من أعمال العباد كلها من غير استثناء صادرة عن مشيئة الله

وإرادته وقدرته ، ولم يصدر منها شيء قهرا عليه وخارجا عن علمه وقدرته وإرادته ، والأدلة في ذلك أكثر من أن تحصر ، وقد عدل هذا المفسر عنها وذهب يتفلسف في خلق السموات والأرض والأشجار ، مع علمه بأن المشركين مقرون بذلك ، وأنه لا حاجة إلى بيان ما ادعاه ، فانهم مقرون بتوحيد الربوبية ، وأنه هو الخالق الرازق ، وقد حكاه القرآن عنهم ، وإنما كان الكلام في أمر القدر في أفعال الخلاق بخلاف ذواتها فقرر الكتاب هذا الأصل ، قال تعالى ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا ﴾ وقال تعالى ﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ وقال تعالى ﴿ كذلك زيننا لكل أمة عملهم ﴾ وقال تعالى عن نوح ﴿ ولا نفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون ﴾ وقال تعالى ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ﴾ وقال تعالى ﴿ كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يحتي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾ وقال تعالى ﴿ فآلهمها فجورها وتقواها ﴾ وقال تعالى ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ ، ﴿ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ وقال تعالى ﴿ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ وقال تعالى ﴿ فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة ﴾ والآيات في هذا المعنى أكثر من أن تحصر وهي في غاية الصراحة في أن أعمال العباد واقعة بمشيئة الله وإرادته وأنه لا يمكن أن يجرى شيء من هذه الأعمال في ملكه بخلاف مشيئته وإرادته للسكونية ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وأن كلا ميسر لما خلق له ، قال

الإمام ابن القيم في شفاء العليل (١) الباب الثالث عشر في المرتبة الرابعة من مراتب القضاء والقدر وهي مرتبة خلق الله سبحانه الأعمال وتكوينه وإيجاده لها : وهذا أمر متفق عليه بين الرسل ، وعليه اتفقت جميع الكتب الإلهية والفطر والعقول والاعتبار ، وخالف في ذلك مجوس الأمة فأخرجت طاعات ملائكته وأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين وهي أشرف ما في العالم عن ربوبيته وتكوينه ومشيتته ، بل جعلوهم هم الخالقين لها ولا تعلق لها بمشيئته ولا تدخل تحت قدرته ، وكذلك قالوا في جميع أفعال الحيوانات الاختيارية ، فعندهم أنه سبحانه لا يقدر أن يهدى ضالا ولا يضل مهتديا ولا يقدر أن يجعل المسلم مسلماً والكافر كافراً والمصلئ مصلئاً وإنما ذلك بجعلهم أنفسهم كذلك لا بجعله تعالى ، وقد نادى القرآن بل الكتب السماوية والسنة وأدلة التوحيد وصاح بهم أهل العلم والإيمان من أقطار الأرض ، وصنف حزب الاسلام وعصاية الرسول وعسكره التصانيف في الرد عليهم ، وهي أكثر من أن يحصوها إلا الله تعالى ، ولم تزل أيدي السلف وأئمة السنة في أفتيتهم ونواصيهم تحت أرجلهم ، إذ كانوا يردون باطلهم بالحق المحض ودعتهم بالسنة والسنة لا يقوم لها شيء فكانوا معهم كأهل الذمة مع المسلمين ، إلى أن نبغت نابغة ردوا بدعتهم ببذعة تقابلها ، وقابلوا باطلهم بباطل من جنسه ، وقالوا : العبد مجبور على أفعاله مقهور عليها لا تأثير له في وجودها ولا هي واقعة بإرادته واختياره ، وغلا غلاتهم فقالوا بل هي عين أفعال الله ولا تنسب لهم إلا على المجاز ، والله سبحانه يلوم العبد ويعاقبه ويخلده في النار على ما لم يكن له فيه صنع ولا هو فعله ، بل هو محض فعل الله ، وهذا قول الجبرية ، وهو وإن لم يكن شراً من القدرية فليس هو بدونه في البطلان ، وجماع الرسل واتفاق الكتب الإلهية وأدلة العقول والفطر والعيان تكذب هذا القول وترده ، والطائفتان في عمى

عن الحق القويم والصراط المستقيم . ثم اندفع ابن القيم في الكلام على معنى القدرة والاستطاعة والتأثير وذكر أقوال الطوائف ، ثم ذكر القول المختار الصحيح الذى هو قول أهل السنة والجماعة فقال عنهم : « فانهم يثبتون قدرة الله على جميع الموجودات من الأعيان والأفعال ومشيتته العسامة ، وينزهونه عن أن يكون فى ملكه ما لا يقدر عليه ولا هو واقع تحت مشيئته ، ويثبتون القدر السابق وأن العباد يعملون على ما قدره الله وقضاه وفرغ منه ، وأنهم لا يشاءون إلا أن يشاء الله ، ولا يفعلون إلا من بعد مشيئته ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا تخصيص عندهم فى هاتين القضيتين بوجه من الوجوه ، والقدر عندهم قدرة الله وعلمه ومشيتته وخلقه ، فلا تتحرك ذرة فافوقها إلا بمشيئته وعلمه وقدرته فهم المؤمنون بلا حول ولا قوة إلا بالله على الحقيقة اذا قالها غيرهم على المجاز اذ العالم علويه وسفليه وكل حى يفعل فعلا فان فعله بقوة فيه على الفعل ، وهو فى حول من ترك إلى فعل ومن فعل الى ترك ومن فعل إلى فعل ، وذلك كله بالله تعالى لا بالعبد . ويؤمنون بأن من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ، وأنه هو الذى يجعل المسلم مسلما والكافر كافرا والمصلى مصليا والمتحرك متحركا ، وهو الذى يسير عبده فى البر والبحر ، فهو المسير وعبده السائر ، وهو المحرك والعبد المتحرك ، وهو المقيم وعبده القائم ، وهو الهادى والعبد المهتدى ، وانه المطعم والعبد الطاعم ، وهو المحيى والمحيت والعبد الذى يحيى ويموت . ويثبتون مع ذلك قدرة العبد واراذه واختياره وفعله حقيقة لا مجازا ، وهم متفقون على أن الفعل غير المفعول كما حكاه عنهم البغوى وغيره . لحركاتهم واعتقاداتهم أفعالهم حقيقة ، وهى مفعولة لله سبحانه مخلوقة له حقيقة ، والذى قام بالرب عز وجل علمه وقدرته ومشيتته وتكوينه ، والذى قام بهم هو فعلهم وكسبهم وحركاتهم وسكناتهم ، فهم المسلبون القائمون القاعدون حقيقة ، وهو سبحانه المقدر لهم ذلك القادر عليه الذى شاءه منهم وخلقه لهم ، ومشيتهم وفعلهم بعد مشيئته ، فما يشاءون إلا أن يشاء الله ولا يفعلون إلا أن يشاء الله » انتهى

وقال في شرح الطحاوية ^(١) في العقيدة السلفية ص ٢٦٥ : اختلف الناس في أفعال العباد ، فزعمت الجبرية ورئيسهم الجهم بن صفوان الترمذى أن التدبير في أفعال الخلق كلها لله تعالى ، وهي كلها اضطرارية كحركات المرتعش والعروق النابضة وحركات الأشجار ، وإضافتها الى الخلق مجازوهي على حسب ما يضاف الشيء إلى محله ، وقابلهم المعتزلة فقالوا : ان جميع الأفعال الاختيارية من جميع الحيوانات بخلقها لا تعلق لها بخلق الله تعالى ، واختلفوا فيما بينهم أن الله يقدر على أفعال العباد أم لا ، وقال أهل الحق : أفعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة ، وهي مخلوقة لله ، والحق سبحانه وتعالى منفرد بخلق المخلوقات لا خلق لها سواه . فالجبرية غلوا في إثبات القدر فنفوا صنع العبد أصلاً كما عملت المشبهة في إثبات الصفات فشبهاوا ، والقدرية نفاة القدر جعلوا العباد خالقين مع الله تعالى ، ولهذا كانوا مجوس هذه الأمة بل أردأ من المجوس من حيث أن المجوس أثبتوا خالقين وهم أثبتوا خالقين . وهدى الله المؤمنين أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . فكل دليل صحيح تقيمه الجبرية فائماً يدل على أن الله خالق كل شيء وأنه على كل شيء قدير وأن أفعال العباد من جملة مخلوقاته ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا

(١) حقق الفاضل النبيل الشيخ محمد نصيف : أن شارح الطحاوية هو العلامة على ابن علي بن محمد ابن أبي العز الأذري الحنفي ، وله ترجمة حافلة في (المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي) لابن تقي بردي مخطوط في مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمة بالمدينة المنورة . قال الشيخ محمد نصيف : وقد نقل الزبيدي شارح الاحياء في الجزء الثاني صفحة ١٤٦ سطر ١١ في مبحث كلام الله فصلاً من شرح الطحاوية ص ١١٣ و ١١٤ ، ومنه تأكدت نسبة الشرح الى ابن أبي العز الأذري لأن النسخة المطبوعة في المطبعة السلفية بمكة كانت خالية من ذكر اسم الشارح

يدل على أن العبد ليس بفاعل في الحقيقة ولا مرید ولا مختار ، وأن حركاته الاختيارية بمنزلة حركة المرتعش وهبوب الرياح وحركات الأشجار . وكل دليل صحيح يقيمه القدريه فانما يدل على أن العبد فاعل لفعله حقيقة وأنه مرید له مختار له حقيقة ، وأن إضافته ونسبته اليه إضافة حق ولا يدل على أنه غير مقدور لله تعالى ، وأنه واقع بغير مشيئته وقدرته . فاذا ضمنت ما مع كل طاقة منهما من الحق الى حق الأخرى فانما يدل ذلك على ما دل عليه القرآن وسائر كتب الله المنزلة من عموم قدرة الله ومشيئته لجميع ما في السكون من الأعيان والأفعال ، وأن العباد فاعلون لأفعالهم حقيقة وأنهم يستوجبون عليها المدح والثناء ، وهذا هو الواقع في نفس الأمر ، فان أدلة الحق لا تتعارض والحق يصدق بعضه بعضا ، انتهى

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية ^(١) : وتؤمن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة بالقدر خيره وشره . والایمان بالقدر على درجتين كل درجة تتضمن شيئين : فالدرجة (الأولى) الايمان بأن الله علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلا ، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال ، ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلائق ، فأول ما خلق الله القلم قال له : اكتب . قال : ما أكتب . قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة . فما أصاب الانسان لم يكن ليخطئه ، وما أخطاه لم يكن ليصيبه ، جفت الأقلام وطويت الصحف ، كما قال تعالى ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما أصاب من السموات والأرض ان ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾ وقال ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير ﴾ وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون في

مواضع جملة وتفصيلا ، فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء واذا خلق حينئذ الجنين قبل نفخ الروح فيه يبعث اليه ملكا فيؤمر بأربع كلمات فيقال : اكتب رزقه وأجله وشقى أم سعيد ونحو ذلك ، فهذا القدر قد كان ينكره غلاة القدريّة قديما ومنكروه اليوم قليل . وأما (الدرجة الثانية) فهي مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة والايمان بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه ما في السموات والأرض من حركة وسكون إلا بمشيئة الله تعالى لا يكون في ملكه ما لا يريد ، وأنه سبحانه على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات ، فما من مخلوقات في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه ، ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسوله ونهاهم عن معصيته ، وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ولا يحب الكافرين ولا يرضى عن القوم الفاسقين ولا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر ولا يحب الفساد ، والعباد فاعلون حقيقة والله خالق أفعالهم ، والعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلّي والصائم ، وللعباد قدرة على أعمالهم ، ولهم إرادة ، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم ، وهذه الدرجة من القدر يكذب بها عامة القدريّة الذين سماهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة ، ويغلو فيها قوم من أهل الاثبات حتى سلبوا العبد قدرته واختياره ، ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها ، انتهى . وتقدم قول النسفي « وللعباد أفعال اختيارية يثابون عليها ويعاقبون عليها ، الخ . وكلام أهل العلم في ذلك أكثر من أن يحصر ، فكلهم مجمعون على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ، وأنهم أفعالهم ، فكونها فعلهم لا يقتضي أن تكون خارجة عن مخلوقاته تعالى ، فانه سبحانه لا يعصى قهرا أبدا ، وهل يظن مسلم أن الله يريد شيئا والعبد يريد شيئا آخر وأن إرادة العبد قهرت إرادة الله فوقع مراد العبد ، فان هذا أكفر الكفر ، بل

الله إذا أراد من العبد شيئا فلا بد أن يكون العبد مريداً له مائلاً إليه ، فلا يشاء الله شيئا إلا والعبد قد أراده ، فلا تتعاكس إرادة الله وإرادة العبد في فعل ما ، غير أن الطاعات يعان عليها العبد ، وإن كان مائلاً إلى المعاضى بطبعه ولكنته يكرها بدينه فيعينه الله ويصرفها عنه إذا علم منه الاخلاص في كراهيتها وحب الله تعالى ودينه كما في الحديث : يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستمدوني أهدكم ، فلو لا إعانة الله تعالى لعجز الانسان عن حجب نفسه الأمانة بالسوء عن السوء ، والانسان يحتج فيه الميل إلى الشئ مع كراهيته للوقوع فيه ، وشهوته له مع حبه لعدم إتيانه ، لتضاد اتباع الهوى واتباع الدين .

وينبغي أن يلاحظ في هذا المقام أن إرادة الله نوعان : إرادة قدرية كونية خلقية ، وإرادة دينية أمرية شرعية ، وهذه الأخيرة هي المتضمنة للمحبة والرضا ، وأما الكونية فهي المشيئة العامة لجميع الحوادث ، فهذه كقوله تعالى ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ وقوله ﴿ فن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء ﴾ . وأما الإرادة الشرعية الدينية فكقوله تعالى ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ ، ﴿ يريد الله أن يبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾ إلى قوله ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفاً ﴾ والفرق ثابت بين إرادة المريد أن يفعل وبين إرادته من غيره أن يفعل ، فإذا إراد الفاعل أن يفعل فعلاً فإن هذه الإرادة متعلقة بفعله ، وإذا أراد من غيره أن يفعل فعلاً فهذه الإرادة متعلقة بفعل الغير ، وكلا النوعين معقول للناس ، والأمر الشرعى يستلزم الإرادة الثانية دون الأولى ، فالله تعالى إذا أمر العباد بأمر فقد يريد إعانة المأمور على ما أمر به وقد لا يريد ذلك بل يبين له الرشد فحسب ، فهو سبحانه أمر الخلق على السنة

رسله بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم وأوضح لهم الطريق وبين لهم الأسباب التي
بها تحصل النجاة والعطب ، ولكن منهم من أراد أن يخلق فعله بأن يعينه
في عمله فاعلا لما أمر به بأعانتة له وتوقيفه ، ومنهم من خلق فيه الاستطاعة على
الفعل ولم يخلق فعله ، فجاء خلقه سبحانه لأفعال العباد وظهورها غير جهة أمره
للعبد على جهة الارشاد والبيان لما هو مصلحة للعبد أو مفسدة ، وهو تعالى
إذا أمر فرعون مثلا بالإيمان كان قد بين له ما ينفعه ويصلحه إذا فعله وقد
خلق فيه الاستطاعة على الفعل والترك ، ولا يلزم إذا أمره بهذا وبين له طريق
السعادة أن يعينه ، فإنه قد يكون غير مستحق للإعانة لما قد يترتب على ذلك
من مفسد وفوات مصالح أخرى من حيث كون الإعانة فعلا له تعالى وإعانة
لا من حيث كونه أمرا وإرشادا ، فإنه سبحانه يخلق ما يخلق لحكمة وبأمر بما
يأمر به لحكمة أخرى ، ولا يلزم إذا كان الفعل المأمور به مصلحة للمأمور
إذا فعله أن يكون مصلحة للأمر إذا فعله هو أو جعل الآخر فاعلا له بأعانتة ،
فجهة الخلق غير جهة الأمر ، فالواحد من الناس يأمر غيره وينهاه موصفا له
طريق السعادة مريدا النصيحة والبيان لما ينفعه وإن كان مع ذلك لا يريد أن
يعينه على ذلك الفعل لما قد يترتب على الإعانة من المفاسد من ناحية أخرى
من حيث الإعانة لا من حيث الأمر والنصح والبيان ، إذ ليس كل ما كان
مصلحتك في أن تأمر به غيرك وتنصحه يكون مصلحة لك في أن تعينه أنت
عليه ، بل قد تكون المصلحة في إرادة ما يضره أو وقوع ما يضره ما أمرته به ،
فجهة أمر الإنسان لغيره نصحا وإرشادا وبيانا غير جهة فعله لنفسه ، وإذا أمكن
الفرق في حق المخلوقين فهو في حق الله أولى بالإمكان مع ثبوت هدى الله
وحكمته ورحمته وإحسانه ، فمن أمره وأعانه على فعل المأمور كان ذلك المأمور
به قد تعلق به خلقه وأمره ، أنشأ خلقا ومحبة ، فكان مرادا بجهة الخلق
ومرادا بجهة الأمر ، ومن لم يعنه على فعل المأمور كان ذلك المأمور قد تعلق

به أمره ولم يتعاق به خلقه لعدم الحكمة المقتضية لتعاق الخلق به ، إما لعدم قبول المحل أو لفوات حصول الحكمة المقتضية لخلق ضده أو لهذا وهذا ، ولا شك أن خلق أحد الضدين ينافي خلق الضد الآخر ، فإن خلق المرض ينافي العافية ، كما أن خلق الهداية ينافي وجود ضدها ، ووجود التضاد أمر لا بد منه لما في ذلك من مظاهر الربوبية والاسماء والصفات ومعرفة الشر والخير والباوى والعافية والعلم والجهل وغير ذلك مما لا يعد ولا يحصى ، إذ لو كان الناس أمة واحدة لاختنى وجهل أمور عظيمة في هذا العالم وجهل قدرها .

فالضد يظهر حسنه الضد وبضدها تبين الأشياء

وليس غرضنا هنا بيان وجوه الحكمة في التفاوت والافاضة في بسط هذا الأصل العظيم فإن ذلك يستدعى تطويلا خارجا عن موضوع الكتاب ، وقد بسط الكلام عليه العلامة ابن القيم في شفاء العليل ، فن أراد ذلك فليراجعه ، ويكفى المسلم العاقل أن يعلم أن الله سبحانه رب كل شيء ومليكه وأنه العليم الحكيم الذى له الغاية في العلم والحكمة ، وليس من شرط وجود حكمة الله أن يطلع الناس عليها كلها ، والله سبحانه جعل في العبد قدرة واختيارا على الفعل والترك ، وأنه ينفر عما يكرهه ويضر به ويحب ويميل الى ما ينفعه ، وأنه سبحانه لا يكلف نفسا إلا وسعها ، وأنه يعين من يحب طاعته ويميل اليها ويدعوه بتضرع وصدق وإخلاص ويهديه ويسر له أموره . وأن من ترمد عليه وشمخ بأنفه عن طاعته واتباع رضاه وكاه إلى نفسه وخلى بينه وبينها حتى يضل فيطبع على قلبه ، وليس العاقل بمكلف أن يدخل بين الله وبين عبادته فيشغل نفسه بما لا يعنيه في مثل هذه الأمور الغيبية فيقول مثلاً : لم كان كذا وكذا ، وإذا كان كذا كان كذا وكذا ، في أمور القدر ، فانه يمتنع أن يكون الانسان محسنا الظن بالله ويعتقد من صميم قلبه أنه عليم حكيم وأنه رموف رحيم ثم يذهب يتعنّت في أمور القدر متجاوزا الألفاظ الشرعية ، والفرق واضح لمن

تور الله بصيرته بين قولنا ان الله خالق فيه قدرة واختيارا على الفعل والتزك
وقولنا ان الله خالق فعله وان فعله مخلوق لله وانه لا يفعل إلا ما شاء الله أن
يفعله ، فقد بينا أن الخلق ليس هو عين المخلوق ، وأن الفعل ليس هو عين
المفعول بل هو أثره ، فأفعال الانسان من حيث كونها مفعولة لله داخلة في
خلقه لا أنها فعله ، فهي فعل الانسان ، كما أن الأكل والشرب والقيام والقيود
والصلاة والصيام أفعال للانسان باختياره مضافة اليه حقيقة لا مجازا ، وهي
مفعولة لله بمعنى أنها وقعت باذنه ومشيتته لا قهرا عليه وخفاء عليه ، لكن
الطاعات لا بد أن يكون فيها إعانة من الله تعالى لعبده ، بخلاف المعاصي فان
الله يكرها ويمقتها ولا يعين عليها ، ولا يلزم من خلق القدرة والاختيار
والارادة في الانسان وجود الفعل مطلقا ، فان الاستطاعة التي هي مناط
التكليف في الأمر والنهي لا يلزم أن تكون مقارنة للفعل ، وأما الاستطاعة
التي يجب معها وجود الفعل فهي مقارنة له ، فالأولى كقوله تعالى ﴿ والله على
الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ﴾ وقول النبي ﷺ لعمران بن حصين
« صل قائما ، فان لم تستطع فقاعدا ، فان لم تستطع فعلى جنب » ومعلوم أن
الحج والصلاة تجب على المستطيع سواء فعل أو لم يفعل ، فهذه لا يجب أن
تكون مقارنة للفعل ، وأما الثانية فكقوله تعالى ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع
وما كانوا يبصرون ﴾ ، ﴿ وكانوا لا يستطيعون سمعا ﴾ وهذه حال من صده
هواه أو رأيه الفاسد عن استماع كتب الله المنزل واتباعها واشتغل بضدها ،
فهو لا يشتغاله عنها بضدها وكرهيته لها لا يستطيع ذلك ، وهذه الاستطاعة هي
المقارنة للفعل الموجبة له كما قرره الشيخ تقي الدين وابن القيم وغيرهما (١)

(١) راجع ص ٢١ و ٢٢ ج ١ (العقل والنقل)

فصل

ثم انه أطال في تقرير كون هذه الموجودات المادية مقدره من ناحية الكم والكيف ، وكرر الكلام في ذلك ، وقد بينا لك أن هذا خارج عن محل النزاع ، واستدل بقوله تعالى ﴿ قل انكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة ايام سواء للسائلين . ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ ثم قال : فقوله ﴿ وقدر فيها أقواتها ﴾ وقوله ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ يراد به القدر الذي ضل فيه الناس وصبروه عامل ركود وانحطاط مع أنه هو القوة والثوب والنشاط ، والمراد بتقدير الأقوات جعلها ذات مقادير ونسب كما سبق ، وختم الآيات بقوله ﴿ العزيز العليم ﴾ هو كالتدليل على أن المقصود بالتقدير وضع الأشياء في مواضعها وخلقها متناسبة متكافئة وإعطاء كل شيء ما يستحقه وما يصلحه ويفيده ^(١) فان العزيز هو القوى الغالب والعليم هو الذي يفعل ذلك ويقدر عليه ^(٢) لأن من لا يصنع ذلك فالمانع له إما أن يكون عجزا وإما أن يكون

(١) يوم أن المسلمين يقولون ان هذه المخلوقات غير متكافئة وغير متناسبة وأنه تعالى لا يضع الأشياء في مواضعها ولا يعطي كل شيء ما يستحقه ، وقد بينا لك ان هذا الذي يحاول رمي المسلمين به هو مذهب الملاحدة الذين يستندون الامور الى الطبيعة

(٢) يوم أن المسلمين يقولون ان الله لا يفعل ذلك ولا يقدر عليه ، وأنه ليس بقوى ولا غالب ، وإلا فأى داع الى التكلف فيما هو معروف عند كل عاقل من المسلمين

جهلا ، وهو ليس بعاجز ولا جاهل لانه العزيز العليم ^(١) ولو كان التقدير مما يفهمه العامة من القدر لكان المناسب أن يقال في اختتام الآية ذلك تقدير العزيز السفيه الظالم الشرير ^(٢) تعالى الله عن ذلك وقوله (وبارك فيها) إشارة الى سر القدر وليامه وغايته ^(٣) وقوله (انها طوعا أو كرها) إشارة الى فائدته والى أنه سنة محتومة لا تغير ولا تبدل . وقوله (وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا) إشارة الى قانون الجاذبية العام فانه هو الذي يحفظ هذه المخلوقات من الهوى والتصادم ، وهذا هو الحفظ والتزين . والرواسي هي الجبال ، يعنى أنها ثابتة في أماكنها لا تتأيل ولا تتطاير مع دوران الارض ودورانها هي معها ، وكل هذا يرجع الى قانون الجاذبية .

هذا كلامه بحروفه ، فهو يفسر القرآن كيفما شئت شهوته وهواه ، لانه المقدم في الأمر كما يقول ، وقد سكت عن تفسير اليومين لأنه يضاد ما ذكره في خلقها وأنها مكثت ملايين السنين كما يأتي ، ولو شاء لحرف اليومين وجعلها سنين أو أشهر أو أياما أو غيرها كفعله في غيرها . وقد قال شيخ الاسلام ابن تيمية في الكلام على هذه الأيام الستة (ص ٨٩ القسم الثالث مجموعة رسائل ابن تيمية طبعة المنار) : والرسول أخبرت بخلق الأفلاك وخلق الزمان

(١) لكن سيأتي كلامك أنه حد لنفسه حدودا لا يتعداها وحواجز لا يخرقها ، الى غير ذلك ، وأنه لا يتصرف في الاسباب بقطع ووصل ، وهذا تصریح بعجزه عن تغيير نواميس الطبيعة

(٢) فعلى هذا كل تصرف يفعله الله في خلقه وهو يخالف رأيك في نواميس الطبيعة فهو ظالم وشر وسفه . ولو كنت متيقن أن كل أمهاته تعالى قائمه على العدل والحكمة لم تدع هذا . والعامة الذين تشبه اليهم قد أبنت عن اعتقادهم بأن الله عندهم يتصرف في الاسباب كيف شاء ، فلي هذا عندك هو السفيه والظالم والشر

(٣) هذا هو سر القدر عنده

الذى هو مقدار حركتها مع إخبارها بأنها خلقت من مادة قبل ذلك وفى زمان قبل هذا الزمان ، فانه سبحانه أخبر أنه خلق السموات فى ستة أيام ، وسواء قيل ان تلك الأيام بمقدار هذه الأيام المقدرة بطولوع الشمس وغروبها أو قيل إنها أكبر منها كما قال بعضهم ان كل يوم قدره ألف سنة فلا ريب أن تلك الأيام غير هذه الأيام وغير الزمان الذى هو مقدار حركة هذه الأفلاك ، وتلك الأيام مقدرة بحركة أجسام موجودة قبل خلق السموات والأرض ، انتهى .

والحاصل أن ما ذكره هذا المغرور فكله يدور على أن التقدير المذكور فى هذه الآية هو القدر ، وقد رفض جميع الأحاديث الصريحة التى تخالف ما ادعاه ، وقد عرفت بطلان كلامه فيما سبق .

فصل

قال : وقد جاءت أحاديث وآثار عن السلف تدل على أنهم كانوا يفهمون القدر على ما ذكرناه ، فما جاء فى ذلك حديث رجوع عمر بن الخطاب ومن معه من الصحابة والمسلمين عن الشام لما أن قربوا منها وعلوا أن الطاعون قد وفد إليها ، وقد استشار عمر الناس فى الرجوع فأشار مشيرون بأن يرجع وآخرون بأن يمضى ، فاختر بفطنته الشاقبة وبصيرته النافذة الرجوع ، فقبل له : أفرارا من قدر الله ؟ فقال — وأعجب بما قال — : نفر من قدر الله إلى قدر الله . ثم قال للمعتز : أرايت لو هبطت واديا فيه مكان مخضب ومكان يجذب ، فان رعيت المخضب رعيت بقدر الله ، وان رعيت المجذب رعيت بقدر الله ، ثم حدث عن نهى الرسول عن القدوم على الوباء فسر بذلك ، ثم أخذ يفرع على هذا الأثر على عادته ويتحكم فيه على هواه فقال : وهذا صريح فى أنهم فهموا القدر على خلاف ما فهمه المتأخرون ، الى آخره

فيقال أولاً : قد ذكرت فيما يأتي قريباً الحديث الناصر على أن عمر تبرأ من نسبة هذا إليه ، وردك للحديث مع تصحيح العلماء له مضروب به وجهان لأنه مبني على أنك المتقدم في كل أمر ، وجئت فلا يسوغ لك الاحتجاج بهذا الحديث أصلاً

ويقال ثانياً : قد تقدم ما ذكرته أن عمر كان يمنع من كتب الأولياء والتوراة والإنجيل ويعاقب على ذلك ، ثم جعلت هذا الفصل من المقاصد العظيمة في تأخر المسلمين ، فبصيرته النافذة وفطنته الثاقبة لم تقبلها هناك مع ثبوت ذلك عنه ، وهنا احتججت بما يثبت أنه قد تبرأ منه

ويقال ثالثاً : على فرض ثبوت هذا وأنه لم يتبرأ منه هو في غاية الصراحة في الرد عليك ، فإنه في رد جميع ما قررته في تفسير القدر ، لأن حاصل كلامك أن الحوادث المستحجة وأفعال العباد ليست مخلوقة لله صادرة عن مشيئته وقدرته ، إذ لو كنت تقر بذلك لم تنزع المسلمين المعتقدين هذا ، ظنه عمر رضي الله عنه أثبت أن وقوع الوباء في هذا المكان دون ذلك المكان من قدر الله ، ومعلوم أن وقوع الوباء أمر حادث من الحوادث الكونية ، فهو دليل على أنه تعالى هو الذي أنزله في هذا المكان ، وأن كون الإنسان بأمره إليه من قدر الله وكونه يضر منه من قدر الله ، ومعلوم أن الاتيان والقرار أفعال حادثة فهي من قدر الله . ويوضح هذا أنه مثل الاتيان والقرار بالمرعى في المكان المخصب والمكان المجذب ، ومعلوم أن رعي الأرض فعل حادث فيها عمر قدره ، فأين هذا من كلامك الماضي والآتي في قولك في تصريح القدر والقضاء أن معناه أن الله قد أوجت هذا العالم مقدرًا بمقادير مضبوطة محكما بسنن لا تقبل التغير ، وأنه تعالى قد فرغ من ذلك فراغاً لا يعقبه تبديل ولا تعديل ولا زيادة ولا نقصان ، فهذا صريح في أن الحوادث لا تصدر عن مشيئة الله وإرادته وقدرته ، بل هو خلق هذا العالم وتركه

يتفاعل بنفسه ، وعمر رضى الله عنه أثبت أن فعله من الفرار وإتيان الأرض كرمي الأرض وسمى ذلك قدرا فنيين أن أفعال العباد من الفرار والاتيان والرعى وجميع الأعمال كلها من قدر الله ، كما أن الأسباب المادية ومسبباتها كلها من قدر الله لا تصدر إلا بإرادته ومشئته فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . وقد قلنا فيما مضى : إما أن تلتزم بأن هذه الحوادث كلها من أسباب ومسببات من الأجسام والأقوال والأفعال تجري بمشيئة الله وقدرته وإرادته . وإما أن تدعى أنها خارجة عن مشيئته وقدرته وإرادته . فان التزمت بالأول فلا معنى للمشاكسة والمعاكسة والعناد الطويل كما سبق ، وان ادعيت الثانى فقد أنكرت تصرف الله فى ملكه وتديره له وجعله معزولا عنه ، وهذا أعظم الكفر ، ولا حاجة الى هذا الخداع والتليس والمنافقة الظاهرة .

ولو أن رجلا فر من الطاعون فأتى هل تظن أن الناس المقرين بالقدر يقولون أنه مات من غير قدر ، وهل تظن أنهم يوجبون على الانسان أن يلقى بنفسه الى التهلكة ويقولون هذا هو الايمان بالقدر حتى تستدل بهذا ، بل هم يوجبون على الانسان أن يفعل ما فيه صلاحه وفلاحه وينهونه عما فيه هلاكه ودماره ، ويقولون كل من الصلاح والفلاح والوصول الى ذلك من القدر ، وكذلك الهلاك ، كما فى الحديث ، اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، وكما قال تعالى ﴿ والذى قدر فهدى ﴾ فهو سبحانه إذا قدر للعبد شيئا فلا بد أن يهديه لأسبابه التى توصله الى ما قدر له . وقال تعالى ﴿ الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ فهذا نص فى أنه أعطى الانسان خلقه وهداه لما قدر له كما فى الآية المتقدمة تخلق الانسان على صفته بمقداره وحدوده وهيئته ثم أعطى خلقه من أقوال وأفعال ومعلومات كلها مقدره عليه مخلوقة لله تعالى ليس لأحد فيها خلق البتة

ثم قال ، فذكر ابن حجر العسقلانى فى شرح البخارى قال : أخرج

الطحاوى باسناد صحيح أن عمر قال : اللهم إن الناس نحصلونى ثلاثاً أما أبرأ اليك منهم ، زعموا أنى فررت من الطاعون وأنا أبرأ اليك من ذلك . وساق بقية الثلاثة . وهذا يجب أن لا يكون صحيحاً ، اذ كيف أبرأ عمر من شيء أمر به الرسول ، ومن شيء فعله ووافقت الصحابة عليه واحتج له ذلك الاستحجاج المسكت .

قلت : هكذا ساق الحديث واكتفى فى رده بما ترى فى قوله . يجب أن لا يكون صحيحاً ، بناء على أنه اذا قال قولاً أمن الدهر لقوله ، وأنه هو المقدم فى كل أمر . وحيث أن موافقة الحديث لهواه شرط من شروط صحة فتى وافق هواه فهو صحيح بلا ريب ، ومتى خالفه فهو كذب بلا شك ، فكان هذا الحديث غير صحيح لعدم وجود شرطه فيجب أن لا يكون صحيحاً ، وكيف يكون صحيحاً وهو لم يوافق هواه الذى يستوجب أن يكون المقدم فى الأمر وأن يفرد بالطلب والرغبة والرغبة ، هذا لا يكون على مقتضى قاعدته أبداً ، وإلا فرجل يذكر حديثاً يخرج باسناد صحيح قد صححه أهل العلم يرده بقوله يجب أن لا يكون صحيحاً ولا يذكر العلل التى بها كان غير صحيح . لا شك أنه يرى لنفسه الحق فى إبطال الأحاديث وتصحيحها بمجرد تحكيمه فى شريعة الله ونظامه ، ولو أنه ذكر أن أحداً ضعفه أو أنكره أو جعل فى صحته نظراً ونحو ذلك لكان أسهل ، أما لإيجاب عدم صحته هكذا فطيش وجنون ومجازفة ظاهرة .

ثم ذكر الحديث الذى فيه أنهم سألوا رسول الله ﷺ وقالوا : يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها هل ترد من قدر الله شيئاً . قال : هي من قدر الله . ثم قال : وقدر الله فى الحديث هو ما شرحنا

فيقال : قد تقدم الكلام على ما شرحه وإنه لا حجة له فيه ، بل هذا الحديث يؤيد ما يعتقده المسلمون ، فإن التداوى أفعال والأدوية أكثرها

معمولة مصنوعة حادثة (٢) فإذا كان النبي ﷺ قد جعلها من قدر الله فقد دل على أن أفعال العباد وأعمالهم كلها بما قدر الله ، وأنها كلها من تصرف الله في المتجدد المستمر في ملكه بقدرته ومشيتته ، وهو دليل على أن الأسباب ومسبباتها كلها من القدر الذي هو مربوط بالمشيئة والارادة ، ومعلوم أن بعض الأدوية لا تنفع بل فيها ما يضر ، فالله تعالى هو الذي قدرها أدوية للأمراض ، كما أنه هو الذي قدر الأمراض . وبالجملة فقد بينا لك فيما سبق أن جميع ما في الكون هو تحت قدرة الله وإرادته ومشيتته ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فمن ادعى أنه يكون في ملك الله ما لا يشاؤه فقد عاند الله جهاراً ، فلا حاجة إلى أن يدعى الاسلام ويتحمل عذاب النفاق وذلة الخداع .

فصل

ثم ذكر بيتين للبحرئ وشنع عليه في رأيه في القدر ، ثم ذكر بيت ابن هانئ الذي يقول فيه :

ما شئت لا ما شامت الأقدار فاحكم فأت الواحد القهار
ثم قال : انه ذهب كما ذهب الجميع إلى أن الأقدار هي القوى الخفية الحبيثة الظالمة التي أرسلت على هذا الانسان تسوسه شر سياسة ، وتطلّده وتستبد به بدون أن يلقي غوثاً ، وتزوده عن الوصول إلى أغراضه وعن الاستمتاع بمواهبه وأعماله (٢)

(١) كما قال تعالى (والله خلقكم وما تعملون)

(٢) قاتلك الله ، من الذي جعل الأقدار بهذا الوصف ، ومن الذي أعطاه المواهب يستمتع بها ثم ذاده عنها

فليُنظر المُنصف إلى هذا المُلحد كيف استدل بهذا البيت ثم ركب عليه هذا الخُبح وجعل المسلمين يرون أن القدر هو القوي الخفية الخبيثة ، فخطبها قوي خفية خبيثة حيث ذكر أن الجميع ذهبوا إلى هذا . ولا يدع فيمن عادى الله ورسوله والمؤمنين ومن اجترأ على المقام الأقدس أن يتكلم بهذا . ولو قيل لهذا الزنديق : بين لنا من هم الجميع الذين ذهبوا إلى أن القدر قوي خبيثة لم يجد من المسلمين قسراً واحداً يدعي هذا ، اللهم إلا أن يجد زنديقاً مثله يسميه مسلماً فقد يكون ، والغرض الحقيقي من هذا هو تشويه سمعة هذا الأصل الديني وتركيز كراهيته في النفوس ، وإلا فهو يعلم أن المسلمين لا يشكون في كفر من اعتقد هذا في مشيئة الله تعالى وقدرته وقضائه وقدره ، فأنه ينتقم منه إنه عزيز ذو انتقام .

فصل

ثم سلك في تفسير القضاء مسلكه في تفسير القدر سواء بسواء ، فادعى أن معناه أن هذه المخلوقات قد قضى من خلقها على هذا التكوين الطبيعي ، فكان معنى القضاء والقدر سواء وهو خلق الأشياء المادية وإيجادها على هذا التكوين المحكم ، وقد علمت بما سبق أن مسألة اعتقاد خلق العالم على ما هو عليه من الاتقان والإحكام أمر لا يناقض فيه أحد من المسلمين ، بل المشركون مقرون بهذا كما تقدم بيانه ، وإنما الكلام في الحوادث المشهودة من الأعمال والأفعال وغيرها ، فالمسلمون يقولون كل ذلك بقضاء الله وقدره ومشيتة لها ، واللامية والملاحية ومن سلك سبيلهم يدعون أن ذلك مصادفات من تفاعل الطبيعة لا تتعلق للإرادة والمشيئة العليا به . وكلام هذا المُلحد يقرر هذا في الحقيقة ، وإلا فلا معنى لاعتراضه ونزاعه ، فقال وهو حاصل كلامه في القضاء والقدر :

« فالقضاء والقدر معناهما أن الله قد أوجد هذا العالم مقدرّاً بمقادير

مضبوطة ، محكوما بسنن لا تقبل التغير ، وأنه تعالى قد فرغ من ذلك فراغا لا يعقبه تبديل ولا تعديل ولا زيادة ولا نقصان ، لأن ذلك هو شأن الضعفاء أو الجهلاء أو السفهاء ، وتعالى الله عن ذلك ،

فيقال له : ما معنى التبديل والتعديل والزيادة والنقصان هنا ، أتريد أنه تعالى لما فرغ من خلق العالم عزل نفسه عن التصرف ، وأن هذه الحوادث المشهودة لا تعلق لها بمشيئته وقدرته وإرادته ، أم تريد أنه فرغ من ذلك وكل ما في العالم يجري على مقتضى خلقه وأمره ، أم تريد أمراً آخر ، فإن أردت الأول فقد جاهرت بالكفر وجعلت يده تعالى مغولة عن التصرف في ملكه وأنه معزول عنه ، وإن أردت الثاني فهو قول المسلمين فلا معنى لعداوتهم ورد رأيهم . ونحن نعلم أن هذا ليس هو مرادك ، ولكن هذا على فرض النزول . وإن أردت غير ذلك فلا بد من بيانه فأنك خادعت هنا كثيراً - كما أدت في كثير من هذه الأمور - من أجل الخوف والرهبة وإلا فقصدك معروف . ثم إنكارك التبديل مضاد لقوله تعالى ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسعويات ﴾ وقوله تعالى ﴿ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة ﴾ وكل الحوادث المستحبة ما هي إلا بدل عن حوادث ذاهبة . وأما التعديل فلا بد من بيان مناه ، وحينئذ يظهر الجواب عنه ، وقد علم أن المسلمين لا يقولون إن العالم يحتاج إلى تعديل ، وأما الزيادة فأنت قررت أن العالم كان كتلة واحدة ثم انفجر فتوقا فكان شمساً ، ثم ولدت الشمس السيارات ، وولدت السيارات الأهل على ما مر في كلامك ، وهذا كله زيادة في أصول العالم ، وقد أظلت في تقرير التطور ، ومعلوم أنه زيادة بلا شك . فإن كانت الزيادة التي أنكرتها من هذا الباب فقد تناقضت ، وإن كانت من غيره فلا بد من بيانه ، وكذلك النقص فأنك لم تبين حقيقته هل هو في الكميات أو في الأفراد أو في غير ذلك ، وقد قال تعالى ﴿ أو لم يروا أنا أنقأ الأرض ننقصها من أطرافها ﴾

والتحول المشاهد في أفراد كثير من المخلوقات وأنواعها نقص عكس التطور. والحاصل أن كلامك هذا هذيان ليس من التحقيق في شيء، ومقصودك منه إبطال للقضاء والقدر الذي يعتقده المسلمون، وإلا فقد بينا أنه لا بد لك من أمرين إما الإقرار بتعلق المشيئة بجميع الموجودات، وإما إنكارها، وحينئذ ينكشف خداعك ونفاقك. أما التطويل والتحويل والذبذبة في خلق العالم فهو تملص لا ينفعك ولا يغني من الحق شيئاً ودعواك أن هذا شأن الضعفاء والجهلاء والسفهاء

يقال: قد تحكمت على الله في القدر، فإن هذه أمور غيبية، فمن أين لك أن تصرف الله في ملكه على مقتضى عليه وحكمته هو شأن هؤلاء، ولا يلزم من عدم اطلاع الخلق على حكمة الله أن يكون ذلك سفهاً وجهلاً تعالى وتقدس، بل مقتضى تأصيلك وتقريرك أنه تعالى بهذا الوصف، فأنك جعلته قد وكل عبيده إلى الطبيعة ونواميسها تتحكم فيهم كما أرادت، فهو لمجزه تركه لغيره يتصرف فيه بما شاء، والله لا يعرف كلياتها وجزئياتها، ولأنه لعدم رحمته وحكمته لا يبالي بما يصيبهم، ولا يفرق بين من أطاعه وانتقله وبين من عصاه وتمرد عليه، فالحسن كالسيء سواء، أما من اعتقد أن الله غفور رحيم عدل حكيم قائم على كل نفس بما كسبت قائم بالقسط فلا يجعل من كان مؤمناً كمن كان فاسقاً، بل حكم بأنهم لا يستوون وأنه يدير الأمر، ويده الملك، يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير، وأنه يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب، وأنه كل يوم هم في شأن - من اعتقد هذا فليس معتقداً إلا ما دل عليه نظام الله وشريعته وكتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد

وقد قال هذا الملاحظ في البحث العاشر الآتي وفيما في النصوص أن الوجود كله في تغير وتغيير مستمرين في طريق الكمال الخ، فكيف هنا يقول

إن العالم يحكم بسنن لا تقبل التغيير وإن ذلك هو شأن الضعفاء إلخ . وهذا شأنه في القلق والاضطراب

يوما يحزى ويوما بالعقيق ويا له حذيب يوما ويوما بالخلصاء
وقارة تفتحي نجدا وآونة شعب الغوير وطورا قصر قيعاء

الكلام على المبحث الثامن - في التوكل

عنوانه في أغلاله هكذا :

(التوكل - أخطاء الناس فيه - كيف يجب أن يفهم)

هذا هو عنوان هذا المبحث . ولما كان هذا الملحد مؤسسا كتابه على
هضم أصول الدين وقواعده الأساسية ، موجهها سهامه إلى روحه وقلبه ، وعلم
أن أصل الدين وقاعدته هو توجه الإنسان بقلبه وقالبه إلى ربه تبارك وتعالى
وإعتماده عليه وإنزال الفاقة إليه والاستعانة به في كل مهمة وقصد ، وهذه
الأصول كلها تدور على الدعاء والتوكل . وملاحظة القضاء والقدر - فهي أصول
عبادة - جعل لكل واحد من هذه الأصول وما يتعلق بها من الخطب
والصلاة معولا وسلاحا يحثه من أصله ، ليقطع العلائق الدينية بين الله تعالى
وبين عباده ، وبانقطاعها بزعمه يحصل التوجه إلى الطبيعة ونواميسها ، لأن
معرفة ذلك في رأيه لا يتفق مع الإيمان بالله واليوم الآخر وهذه الأصول
أجدا ، فاجتهد في إزالة هذه الأصول وإبعادها عن طريق دعايته الإلحادية ،
فأفرد للتوكل هذا المبحث ، وسلك فيه مسلك نظائره من أصول الدين التي
حاول هدمها . وقد أوهم الناس من أصداد الإسلام وغيرهم من الجهلاء أن
المسلمين يعتقدون أن التوكل هو ترك العمل بثبات ، والعجز والنوم والكسل ،
وترك القيام بكل ما ينضمهم في معاشهم ودنياهم ، وأنهم فعلوا ذلك فكانوا
خارجين متأخرين . وغرضه من هذا الافتراء هو حمل عبدة كل مصيبة على

الدين وأصوله كالتيوكل ، على عادته في حمل المصائب على الدين وأهله كما تقدم وكل مسلم عاقل يعرف دينه يعلم حقيقة العلم أن هذا الذي ادعاه بهت وبلور ومكابرة واضحة وتزوير على المسلمين ، فلا يمكن له بحال أن يجد ما يصدقه في كتاب من كتبهم المعتمدة وعقائدهم المعتبرة ، وأن التيوكل هو هذا الذي ادعاه . والواقع المشاهد من أحوال الناس خاصتهم وعامتهم خلاف ما ادعاه . فان معاملاتهم وسيرهم وراء رغباتهم الكثيرة المختلفة سيرا حثيثا يناقض ما ادعاه ، فالتناس إنما أتوا من حيث تركوا التيوكل لا من حيث فعلوه ، كما يأتي توضيح ذلك . قال الملحد :

• التيوكل - أخطأ الناس فيه - كيف يجب أن يفهم

أراد أحد سلاطين الأتراك في أواسط القرن الثالث عشر الهجري أن يدخل النظام الجديد الغربي على الجيوش العثمانية ، فهاج الشعب وهاج الانكشارية ، يؤيدهم شيخ الاسلام والصدر الأعظم قائلين : انه لا يجوز أن تكون عساكر الاسلام متشبهة بالكفار ، فأحدثوا شغباً عظيماً في العاصمة وغيرها ، وقاموا يطالبون بقتل السلطان ومن معه من الوزراء الذين يريدون للنظام الجديد ويريدون إفساد طهارة الايمان بأفعالهم الفاسدة ، ونشروا منشوراً فيه أسماء الرجال من عطاء الدولة الذين يطالبون بقتلهم ، وقد ذكر لهم أسماء أولئك الرجال شيخ الاسلام عطاء الله أفندي ، فحدثوا في ذلك حتى قتلوه ، ثم خرجوا في الطرقات ينادون : أيها السلطان الملعون هذه التعاليم نسيت أنك أمير المؤمنين ، وعوضاً عن اتكالك على الله القادر العظيم الذي يبدد في دقيقة واحدة الجيوش الكثيرة أردت أن تشبه الاسلام بالكفار ، وأغضبت الله ، فكيف يسوغ لك أن تكون أمير المؤمنين ومحامياً عن الدين ، فالعساكر المحافظة على كرمك لم يبق لها ثقة بك ، والمملكة أضحت مضطربة ، فيجب عليك أن تلاحظ وأن تفضل على كل شيء شرف الايمان

وسلامة الاسلام ثم أصدروا استفتاء فيه : السلطان الذى يخالف القرآن هل يترك على تحت السلطنة . فكانت الفتوى : كلا . ثم صاحوا : قد صار معلوما عندكم أنه يتحتم عزل السلطان ، فما قولكم الآن ، هل تسلبون له أن يفعل ما يخل بالاسلام . فصاحت العساكر : كلا كلا ، لا نقبله سلطانا ، فليعزل . وفى نهاية الأمر خلعوا هذا السلطان ثم قتلوه وألزموا من جاء بعده برد النظام الجديد الذى أريد إدخاله على جيوش الدولة ، (مصادر التاريخ الاسلامية)

ثم قال : هذه حادثة سقناها لنبدل بها على الهوة السحيفة التى سقط الناس فيها من جراء فهمهم التوكل ، بحيث صار أحد الأمراض الاجتماعية النفسية الاعتقادية التى تألبت عليهم حتى سلبوا الحول والقوة ،

والجواب أن يقال : ونحن إنما نقلنا ما سقته لنبين به مقدار الهوة العميقة التى سقطت فيها من حيث لا تشعر من جراء فهمك لهذه الأصول ، حتى صار الجهل العريض والرسوخ فى الغباوة المحققة خلقا طبعيا ملازما لك ، فما أشبه حالك فى استشهادك بهذه الحادثة بما شبهناك به سابقا بحال إخوانك فى الإباحية حين قالوا (أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون) قال بعض السلف عابوهم بغير عيب . وهذا الملاحظ لما كان يرى أن مخالفة القرآن أمر لا بأس به ، بل ربما يجب ، استدل بهذه القصة ، فنقم على هؤلاء الذين نقموا على هذا السلطان الذى خالف القرآن فى إدخال النظام الجديد الذى خالف فيه القرآن ، ولهذا لم يحجبهم سلطانهم بأنه غير مخالف له بل سياق القصة دليل على أنه معترف بذلك ، ولكنه رأى كما رأى بعض المنكودين المنكوبين أن مخالفة القرآن فى الأمور السياسية لا بأس بها ، بل يسمون المتقيد بأحكام القرآن جامدا خاملا ، ولهذا ضربوا بالجمود والخنول تحت أعدائهم والارتكاس الفظيع ، فهذا الملاحظ عاب على هذا الشيخ وانتقده هو وشعبه الهائجين على هذا النظام الخبيث الغريب الغربى وعدم استسلامهم له مع اعتقادهم أنه مخالف للقرآن .

ثم ان هذا الفعل ليس بمجرد رأى رأى أوه بل هو باستفتاء وفتوى صادرة من أهلها ، ومعلوم أن هذه الدول الملحدة التى قد وهبها هذا الزائع كل ما قدر عليه من إجلال وثناء وتعظيم وتبجيل لو حاول أحد رؤسائها ادخال نظام غريب عليها بمجرد رأى رأى رآه بدون موافقة أولى الرأى أو الشعب لهاج الشعب كله ولبطشوا بالرئيس أو غيره مهما كان الامر ، هذا مع كونهم لا يرون أن هذا النظام الذى يراد تبديله منزل من عند الله الحكيم العليم الرحيم ، وكما حاكمت هذه الدول من وزير أو كبير أراد تحويل أمر واحد من أمورها بمجرد رأيه فقتلته أو حبسته حبسا مؤبدا فضلا عن عزله وطرده ، وما من دولة من هذه الدول الملحدة إلا وقد حاكمت زعيما من زعمائها أو أكثر ، وأوقعت به أشد العقوبات من أجل هذا الأمر مع كون هذا الذى يراد إبداله كفرا مخالفا للأديان ، ومع ذلك فقد أثنى عليها كلها أعظم الثناء وسبح بحمدها وقدمها أعظم التقديس ، بل رفعها إلى حد أن جعلها شريكة الله تعالى فى أخص صفاته وهو العلم بكل شىء والتغلب على كل شىء ، فلما ان حصلت هذه الحادثة التى مضمونها إنكار ما يخالف القرآن والقيام على من حاول ذلك حرج صدره وضاقته عليه الأرض بما رحبت وجعل ذلك مشكلة كبرى ومصيبة عظيمة ومرضا اجتماعيا ففسانينا اعتقاديا قد ألب على الناس حتى سلهم الحول والقوة فصار من الذنوب التى لا تغفر ، بل جعله حجة يحتج بها على المسلمين فى أغلاله المشدودة فى عنقه . يا لله العجيب ، كيف يعيب على دولة تدعى أنها على جند الإسلام والقرآن يأتى إليها أعداؤها بدسائس ملعونة فيروجونها على رئيس من رؤسائها ثم يريد هذا الرئيس أن يقلب نظامها ومبدأها الذى تتعهد الله به ثم لا تعزله أو تقتله . وهذا الزنديق قد مدح مصطفى كمال لما غير دينها واختار أن تكون لا دينية ، وقد أعجب به وبرأيه ^(١) هذا الذى يضاد القرآن ، وليس هذا بكثير

(١) ذكره فى نبذته (كيف ذل المسلمون) ، وسيأتى مدحه له هنا أيضا

من مثله ، فان الزنديق لا بد أن يكون هذا مبدأه ، ولا بد أن يؤمن بالحبس والطاغوت ويقول للذين كفروا (هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) . ثم أى عيب فى قولهم أيها السلطان المخشوش بهذه التعاليم - وهى التعاليم المخالفة للقرآن - نسبت أنك أمير المؤمنين ، وعوضا عن اتكالك على القادر العظيم الذى يبدد فى الدقيقة الواحدة الجيوش الكثيرة . فان هذا كله صحيح ولعله استكثر أن يبدد الله فى دقيقة واحدة الجيوش الكثيرة . وعد هذا مجازفة منهم ولم يعتبر بما فعل بالأمم الماضية المكذبة للرسل كيف أهلكها الله وبيدها ، بل ولم يستكثر ذلك فى الطاقة الذرية التى أخرجها الله على أيدي عباده فى وقت رفض الأديان وشیوع الزندقة والالحاد ، فهذا هو الوقت الملائم لها ، لينقم بها من أعدائه ومن نصرهم وأعجب بهم ، أو لعل موضع انتقاده قولهم ، وعوضا عن اتكالك على القادر العظيم ، يعنى لم قالوا هذا القول لأن الذى يشكل على الله ويتمسك بالقرآن ويترك النظام الجديد الذى يضاده هو عنده جاهل رجى متقهقر بناء على أصله أن الديانة لها نتائج أخرى هى الملهة والتعويق . فإذا كان هذا هو الذى خطر على باله فليعلم أنهم لما ردوا هذا النظام تقدموا تقدما عظيما باهرا ولم يصيبهم تأخر ، وانما أصابهم ما أصابهم حين عادوا فأدخلوا النظام الجديد وأمثاله فغيروا فغير الله عليهم سنة الله التى قد خلت فى عباده أن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، هذا مع ما هم فيه من المخالفة فى أمور أخرى كشیوع مذاهب الجهمية المنكرين لعلو الله على عرشه وعبادة قبور الأنبياء والصالحين والامتناع بهم فى الشدائد والغلو فى كثير من نظريات الصوفية الباطلة

والمقصود أن سياقه لهذه الحادثة مستفتحا بها هذا المبحث منتقدا بها على المسلمين بما يدل على كثافة حجابيه ، لأنه لم ينقم منهم (إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السموات والأرض) وانما ألجأ الى ارتكاب هذه الجهالة العمياء محنته الشديدة وولوعه الأعمى فى حب الأنظمة الجديدة ولا سيما

إذا كانت إلحادية محضة ، ومقتة للأخلاق الدينية الأولى ، فإنه مطبوع على متبع الخبائث وكرهه الطيبات ومقتها والبعد عنها ، وطبعه هذا هو الذي أعماه عما به يستدل ، وهذا كله تنازلا على تقدير ثبوت هذه الحادثة على الصورة التي ذكرها ، والا فالمعروف أنهم قاموا عليه لما أراد مخالفة القرآن صريحا . ثم انه صاغ الدعوى على حسب ما تقتضيه شهوته وإرادته ، واحتج بها فجعل الدعوى هي الحجة ثم بنى عليها هذيانه ، وهذا خطأ مستقل . ثم هي مع هذا كله برمتها تناقض أيضا ما ادعاه على المسلمين في التوكل كما يأتي أنه الاستسلام والكسل وترك العمل . والحادثة تضمنت الجهد والقيام والجهاد وحشد الجيوش فلو كان الأمر كما ذكر لم تجعل لها جيوشا محاربة وأسلحة وعددا عظيمة ، بل استسلت وطلبت من الله ما شامت واشتهت - على زعمك - بدون جيوش ، ولكنه مبتلى بمعنى القلب والبصيرة في كل ناحية من آرائه وأفكاره حتى ملأنا من التنبيه على كثرة تناقضه ونهادم كلامه في كل جملة وصحيفة الامانة

فصل

ثم شرع يبين معنى التوكل الذي يعتقده المسلمون ، ولكنه صنع فيه كما صنع في معنى القضاء والقدر ، فلم يذكر ما يفهمه المسلمون على وجهه من كونه الاعتماد على الله في جميع الأفعال والأقوال المنشروعة من الأسباب الدنيوية والدنيوية ، بل عكس المعنى لأنه يريد أن يطبق أصول الدين على ضده من قواعد الإلحاد ، فيعكس المدلول فيجعل الشرك توحيدا والتوحيد شركا كما جعل العلم جهلا والجهل علما ، فادعى أن التوكل على الله هو الاعتماد على الأسباب وهذا غاية البهت والمكابرة ، فجعل عبادة الله هي عبادة الأوثان ، فإنه لا يختلف المسلمون أن التوكل من أنواع العبادة وأن من توكل على سبب فقد عبده ، كما نقل في الاقناع وشرحه الاجماع على أن من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم ويتوكل عليهم كفر اجماعا ، وبرهنوا على هذا الأصل بأن ذلك

كفعل عابدى الاوثان قائلين ﴿ ما نعبدكم إلا ليقربونا الى الله زلفى ﴾ فجعلوا التوكل من العبادة ، بل هو نفسه قد صرح فى كتبه السابقة أن التوكل من أنواع العبادة^(١) فكيف يبيع صرف هذه العبادة لغير الله ، ولا شك أن الأسباب كلها مخلوقة لله لا تجوز عبادتها ، فمن عبد غير الله كفر ، وسيأتى تصريح شيخ الاسلام بأن الاعتماد على الأسباب شرك محرم ، ولم نعلم أحداً من جميع الكفار والمستهترين بالأديان ادعى أن التوكل على الله هو التوكل على الأسباب سوى دجال هذا العصر هذا الزنديق ، وهذا مع كونه استهتاراً واضحاً بالشرائع السماوية فهو قحة سافرة لا تخفى إلا على بليد كالأنعام

وقد زين له شيطانه أن يقول على الفقهاء أقوالاً لا أساس لها من الصحة ثم يستدل بأقوال مجهولة لبعض الصوفية ليخط الحق بالباطل وليصدق دعواه فيما عزاه إلى المسلمين ، وقد ترك أئمة الاسلام فى معنى التوكل كلام ابن القيم فى شرح المنازل وغيره كما ترك كلام شيخ الاسلام ابن تيمية وغيره من علماء المسلمين فى عقائدهم وكتبهم المعتمدة ، وفسره بما خطر على باله مع مخالفته لكتب الدين كلها واللغة والنحو وغير ذلك ، فإن أدنى كتاب من هذه الكتب يراجعه الانسان يجد فيه أن التوكل على الله هو الاعتماد عليه أو الاستسلام له والثوق به . أما كونه يجد التوكل عليه هو هو الاعتماد على خلقه من أسباب فهذا لا يمكن أن يوجد أبداً لأنه يتضاد مع معناه مضادة صريحة فقال :

« وقد اختلف الصوفية والمتزهدون والفقهاء كماداتهم فى تحديد معنى التوكل

(١) قد نقلنا شيئاً من كلامه فى المبحث الأول ، وسيأتى نص كلامه بأن التوكل

اختلافاً كبيراً (١) وكتبوا فيه كلاماً كثيراً وأوردوا تعريفات لمعنى هذه الكلمة الاصطلاحى لا يمكن حصرها ، ولكن يمكن تلخيصها فى كلمة أو كلمتان :

فعندهم أن من اهتم لشيء فى هذه الدنيا أو عمل له أو اعتقد أن شيئاً فيها يوصل إلى شيء آخر أو أن شيئاً من الأشياء لا يمكن بلوغه إلا بأسبابه أو أنه يستطيع أن ينفع نفسه أو يضرها أو أن أحداً كائناً ما كان يقدر أن ينفعه أو يضره أو أن أمراً متوقفاً وجوده على أمر آخر أو أن أمراً معلل بآخر فقد خرج عن جميع حدود التوكل ومن كل أبوابه .

فيقال : هذا التلخيص الذى ذكره بهت وخبور ظاهر ترده كتب المسلمين المعتمدة كلها كما يرده الحس والضرورة والعيان ، فليس فى المسلمين من يدعى أن هذا هو معنى التوكل ، فلا يمكنه بحال أن يستشهد بنقل عن أحد يعتد بقوله ، وإن كان قال هذا اتحادى أو من لا يعبأ بقوله فلا يجوز له أن ينسب قوله إلى المسلمين ، مع ادعائه أنه ليس المسلم هو الذى يتبع أخطاء المخطئين وأغلاط الغالطين . ثم أقوال اتحادية الصوفية والجهمية ونحوهم لا تعد من أقوال المسلمين ، ولو أن يهودياً ادعى على المسلمين بما تفعله الرافضة من سب الصحابة وكلامهم فى المنتظر بمجرد كون الرافضة تنسب نفسها للإسلام لكان دعوى هذا اليهودى من جنس دعوى هذا الزندىق سواء ، وقد كان يجب عليه

(١) غرضه من ذكر الاختلاف أنه شيء غير منضبط فيجب رفضه ، وقد كذب ، ليس فى أصله اختلاف ، واختلاف التعبير فى حدوده لا يوجب الاختلاف فى أصله ، كالحب فإن الناس يعرفونه وإن اختلفوا فى حده ، وكذلك البغض ، فالتوكل يعرفه أدنى عامى فضلاً عن غيره ، فانه يقول توكلت على الله أى اعتمدت عليه ، وإذا قيل له اعتمد على الله أو توكل عليه فهم من العبارتين معنى واحداً

في مثل هذه الأمور أن ينقل كلام أئمة الدين في معنى التوكل من عقائدهم أو كتبهم المشهورة ثم يجيب عنه ، ولكنه أصغر وأحق من أن يسلك هذا الطريق الصحيح ، وإنما غايته أن يلجأ إلى الخصلة اليهودية ، فهو إذا اضطر إلى ذلك وحز به الأمر وأعوزته الحجة استعمل البهت والتحريف ولبس الحق بالباطل شأن كل منافق هدام . ولكن يجب أن يلاحظ قوله ، أو اعتقد أن شيئاً فيها يوصل إلى شيء آخر ، أو أنه يستطيع أن ينفع نفسه أو يضرها ، إلخ فإنه يقصد باذن الله ، إذ هذا نظر المسلمين ، أما إذا اعتقد حصول ذلك استقلالاً من دون الله ومشيتته فليس هذا خارجاً عن حدود التوكل بل خارج عن حظيرة الاسلام ، فإن من اعتقد أن نفسه أو غيره مستقلة عن مشيئة الله وقدرته ، وأنه يقدر أن يوصل لنفسه نفعاً أو ضرراً قهراً على الله فهو كافر ، أما إذا اعتقد أنه قادر على ذلك بالأسباب التي وضعها الله لذلك بإذنه تعالى ومشيتته فهذا حق وهو الذي يعتقد المسلمون ، قال تعالى لنبيه ﷺ ﴿ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله ﴾ وقال تعالى ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ وقال تعالى ﴿ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾

ثم قال : « وعندهم وعند الذين أخذوا عنهم أن الواجب على المؤمن المتوكل أن يستسلم وأن يطرح أعباءه وأنقاله كلها على الله ، مسلماً نفسه للهدوء والراحة والكسل الذهني والجسدي ، معتقداً أن الله سيفعل كل شيء بأسباب يوجد لها أو بلا أسباب ،

فيقال : وهذا أيضاً بهت ظاهر ، فهو مطالب ببيان الآخذ والمأخوذ عنه الذي قال هذا القول ، وإلا فهي دعوى عندو على عدوه ، بل دعوى زنديق على مؤمن ، فيجب طرحها نهائياً كمنظائرها

ثم قال : « ومن رأيهم أنهم كلما غالوا في هذا الاستسلام وهذا التخلي عن

العمل والتفكير في المصير والعاقبة لله التفت الله اليهم وسارع الى قضاء حاجتهم وإعطائهم ما يشاءون ، وأن ايمان المرء وإسلامه مقيسان مقدران بهذا الاستسلام والتخلي ، فكما تخلى التاجر والزارع والصانع وكل عامل ومفكر عن عمله وتفكيره زاد الله تجارته وصناعته وزراعته وعمله وتفكيره نماء وبركة وسدادا ورشادا ، وعلى حسب اهتمامهم والتفاتهم إلى أعمالهم يكون تخلى الله عنها وعنهم ، وعلى قدر تخلى الله تكون المصيبة والخسران .

فيقال : الجواب عن هذا كالذي قبله ، فانها كلها خبائث اخترعها زنديق ورعى بها المسلمين وطلب من الناس أن يصدقوه فيها بمجرد ادعائه بدون برهان ولا حجة ، فيطالب بالبرهان والا فضروب بها وجهه ، ويكنى في تكذيبها أن أدنى كتاب من كتب المسلمين يحرم البطالة ويوجب العمل ، وأعمال الناس المنظورة بالعيان لا تخفى ، مع أنهم يعتقدون التوكل على الله ، ولكن من يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا .

فصل

ثم قال : وقد ذهبوا الى أن التوكل هنا مأخوذ من الوكالة الموجودة بين الناس ، وهي أن الموكل يذهب الى بيته ويترك لوكيله كل عمل وتفكير في تدبير ما وكل اليه ، وأنه كلما تنحى صاحب الشأن عن الاهتمام بالتفكير في شأنه معتمدا على وكيله وعلى إخلاصه وعمله واجتهاده كان ذلك التنحي أدعى الى رضا الوكيل والى إخلاصه .

فيقال : ومن قال لك ان التوكل على الله هو بمعنى توكيل الناس بعضهم لبعض ، لا بد من اثبات هذا ، مع أنك لما أردت أن تقر معنى التوكل عندك فسرتة بما يقارب هذا التفسير كما يأتي . ثم إن الوكيل لا يقضى حاجة موكله بدون عمل من الموكل وطاعة له واتباعا لكل ما يحتاجه الوكالة ، ولو أن إنسانا عادى إنسانا وعانده ثم طلب منه أن يكون وكلا عنه في كل ما يحتاجه

أو في أمر من الأمور لم يحصل له ذلك ولكان هذا الموكل إما سفيها وإما مجنونا ، ولا سيما إذا كان الوكيل عظيما ، فليس كل توكيل مقبولا حتى في الإنسان ، فالقياس باطل مع كون الدعوى باطلة من أصلها . ثم قال : ونحن هنا ثبت ما ذكرنا من عبارات . فرأى بعضهم أن المتوكل لا يكون متوكلا حتى يفقد التمييز ،

فيقال : من هو هذا البعض الذي قال هذا القول ، فما أسفه رأيك ، فهلا سميت حتى تعرف حاله ومكانته العلمية من العلم والدين والامانة ، وحتى يكون لك في ذلك شيء من الحجة . قالذي يريد أن يطعن في أمم يدعى أنها تبلغ أربعائة مليون ويدعى أن دينها محرف ، لا يكفيه أن يستدل بقوله قال بعضهم وقال أحدهم وهكذا ، بل لعل عقلاء كثير من الكفار يتحاشون من التفوه بهذا الادعاء ، لأن هذا من السخافات والترهات التي هي أوهي من بيت العنكبوت

ثم ساق أقوالا ساقطة كلها يقول مثها : وقال بعضهم ، ورأى بعضهم ، ومن رأى فريق ، ومن قول طائفة أخرى ، وقال أحدهم ونحو ذلك . ومعلوم أن من يريد أن يخلع جلباب الحياء ويرفض العقل والدين في إمكانه أن يكتب مجلدات على هذا النحو والهديان البارد ، ثم تداركه الشقاء فنقل عن أبي يزيد وذو النون المصري وأبي عبد الله القرشي - وكلهم من الصوفية - أقوالا غير منسوبة إلى كتاب ، ولا شك أن حكم هذه حكم قوله « قال بعضهم » ، ثم أدركه البلاء فنقل عن أبي يعقوب الزيات وعبد الله بن الجلاء ^(١) أن المتوكل

(١) ومن هو أبو يعقوب الزيات وعبد الله بن الجلاء في علماء المسلمين . ثم كل هؤلاء قد شرطوا للتوكل شروطا كثيرة معروفة كما قرره الفزالي في الإحياء وغيره . فكيف أعرض عنها

لا يدخر شيئاً ، ونسب ذلك الى الاحياء الخيالي ، وهكذا تكون حال من
انسلخ من الدين واتبع هواه ، ثم انقلب على وجهه فنقل عن أبي سليمان
الداراني وذى النون وسفيان بن عيينة وعنا ذلك الى (تليس إبليس) ، وهو
يعلم أن ابن الجوزي الذي نقل كلامه رده ورد أمثاله ، فرفض كلام ابن
الجوزي في القسح فيما عرى اليهم وهو استدل بها ، فانظر الى هذه المخازي
والفضائح المتتابعة

والعجب أنه نقل عن ابن الأثير أنه قال في شرح غريب الحديث « معنى
كون الله الوكيل أنه هو القسيم الكفيل بأرزاق العباد ، وحقيقته أن يستقل
بأمر الموكل اليه ، هكذا نقل عن ابن الأثير ، وهو حق وصحيح ، قال تعالى
(وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) الآية ، فهذا الملحد يناقض ابن
الأثير في كون الله قائماً بأرزاق عباده ، واذن فلينازع القرآن ، قال تعالى (قل
من يرزقكم من السماء والأرض) الآية وقال تعالى (ألمن هو قائم على كل
نفس بما كسبت) وقال تعالى (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) الآية ،
وهذا كله لا ينافي الأسباب ، فإن الله أمر بفعلها ، وما رأينا أحداً ترك رزقه
اعتماداً على القدر أو التوكل ، وهل يظن عاقل أن أمة أو طائفة من الناس
تركوا أرزاقهم أو غيرها توكلوا على الله أو اعتماداً على القدر من دون فعل
الأسباب ، أنه لا يمكن لما قل أن يدعى هذه الدعوى أبداً لأنها فحّة ومكابرة
لا شك فيها . وليس في كلام ابن الأثير حث على ترك الأسباب حتى يستدل
به . ثم إنه فسره بخلاف ما ادعاه الملحد من أن التوكل على الله هو الاعتماد
على الأسباب ، فقد تبين لك بما ذكرناه أنه لم يجد ما يصدق دعواه فيما عواه
الى المسلمين ، فانه لم يظفر بقول واحد ممن يعتبر قوله يشهد لما ادعاه ، وكتبه
العلماء مشحونة في الحث على العمل وطلب الرزق مع كونهم يوجبون التوكل
لأنهم يعلمون أن التوكل لا ينفيه أبداً ، بل العمل مع التوكل هو العمل
القوى الناجح الصحيح ، بخلاف العمل مع الاحاد والزندقة فانه عمل قاهر ،

فأكثر الشعوب المملوكة إنما يدفع عمالها إلى العمل دفعا قهريا ، وإذا حصلت نتائجها فأكثرها تكون وبالا على أهلها أو على من هم على مبداهم كما قال تعالى ﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم في الحياة الدنيا وتزهر أنفسهم وهم كافرون ﴾

ثم قال « وفي قواميس اللغة : توكل على الله واتكل استسلم ^(١) » .

فيقال : وهل في هذا ما يستنكر أو ما يؤيد ما تدعيه في معنى التوكل كما يأتي ، فليس في هذا إلا بيان معنى التوكل وأنه الاستسلام لله ولعلك تريد أن يكون التوكل معاندة الله ، فإن الاستسلام لله هو الاسلام ، فقد شهدت على نفسك أن قواميس اللغة فسرت التوكل بالاستسلام إلى الله كما هو صريح في قواميس اللغة وغيرها ، فانهم قالوا : توكل على الله واتكل استسلم له . فهل قالوا توكل على الله اعتمد على الأسباب كما ادعيته ، أو هل في هذا نفي للعمل ، فإنه لا يفيد بمفهومه نفي العمل ، وإنما يفيد نفي العمل المستلزم نفي الاستسلام ، وعلى هذا فكل الأمور المشروعة والمباحة لا تنافي الاستسلام ، فإنها استسلام بمعنى أنها امتثال لأمر الله وعمل بما أباحه ، فإن الله لا يبيح ما ينافي التوكل الذي هو استسلام له ، فلا يبيح معاندته : ولا شك أن البطالة وترك العمل أو ترك الأكل والشرب مغل بالاستسلام لأن ذلك مخالفة لما أمر الله به من الأعمال المشروعة . وهذا المغرور استغرب الاستسلام لله واستنكره ، فلهذا ساق هذا الكلام في معرض الانتقاد ، فعلى هذا فهو يريد بالتوكل معاندة الله والخضوع للأسباب المادية ، فقد تقدم ادعاؤه بأن من حاول الخروج عن قواميس الطبيعة هلك ولا محالة ، ومن سار معها نال ما يبغى ، كما تقدم ادعاؤه

(١) الذي في قواميس اللغة : استسلم إليه . وقد حذف « إليه » تحريفا وتعمية

بأنه يجب منازعة الله في عمله وقوته وقدرته الخ فعائدة الله والخضوع للأسباب هي التوكل عنده كما تراه ظاهرا من كلامه ، ولا شك أن من اعتمد على الأسباب وحدها من دون الله فقد عاند الله ولم يره كفوا لإعانة أوليائه وخذلان أعدائه ، بل الأصنام هي التي لا تنفع من اعتمد عليها ، ولا تفرق بين الناصح والغاش والمؤمن والجاحد . وسبب غلطه هذا هو أنه فهم بفهمه الجاحد أن الاستسلام يقيد ترك العمل مطلقا ، وهذا من كثافة حجابيه ، ولو لزم هذا للزم بطلان الأعمال الدينية والدنيوية المشروعة ، وقد بينا أن الأمور الصناعية ونحوها كلها من الأمور التي أمر الله تعالى بها عباده بحسب الحاجة والقصد ، فلا تنافي التوكل ، وإنما ينافية التمرد على الله وعصيانه والاعتماد على النفس والغير من كل الأسباب ، لأن هذا كله ليس باستسلام لله واتكال عليه بل هو اتكال على غيره ، فما ذكره حجة عليه كما هو ظاهر

فصل

ثم انه بعد أن ذكر هذه الأقوال التي قد عرفت ما فيها ، شرع يطعن في الهواء ويحارب الخيال ويجادل الشر والدهر ، وقد أطال وأطنب في التشنيع على المسلمين بأنهم يعتقدون هذه الاعتقادات ، وأنهم يلقون بها بين الناس وأنها تطايرت في الكتب ومرنوا عليها ، فأصبحوا متأخرين ، فلا يمكن أن يتقدموا وهم قد اعتادوها ولقنوها . وأطال من هذا الهراء واللجاجة الفارغة . وقد عرفناك فيما سبق ما عليه المسلمون في هذا الأصل وغيره في التوكل على الله ، وأنه غير ما اخترعه وادعاه ، فهو إنما يرد على الهواء والخيالات التي لا وجود لها أصلا ، فلا طنب في تطويل الرد عليه تكرار لا طائل تحته ، لأنه بناء على غير أصل ، وهو إنما يقصد به رفض التوكل وقطع الصلت بين الله تعالى وبين عباده الضعفاء ، قطع الله عنه علائق الرحمة عند حاجته إليها ، حيث صدّ عن سبيل الله وابتغاهم عوجا . فجميع ما ادعاه هنا إنما يرد على

إخوانه من الملاحدة أو من أخذ إلى العجز والكسل وقطع أوقاته في مواضع اللهو والرقص والخلاعة والفجور لا يعرف صلاة ولا صياما ولا غير ذلك من الأعمال الدينية كما لا يسعى في عمل دنيوى فيما ينفع امته ونفسه ، فإن هؤلاء هم الذين على غاية من الكسل والبطالة وفساد الأخلاق ، وهم لا يعرفون التوكل ولا يرونه شيئا ، فانهم لما جهلوا خالقهم وتعاليم دينهم ولم يعرفوا بذلك رأسا تركوا التوكل وتركوا الدعاء وغفلوا عن ملاحظة القضاء والقدر فقطعوا صلتهم بالله تعالى واستعاضوا عنها صلة البغايا وأمساكن وانغمسوا في شهوات أنفسهم والفساد والفوضى والسرقة والتلصص وأكل أموال الناس بالباطل من الحيل المتنوعة والرشوة وغير ذلك . ومعلوم أن أهل هذه الأخلاق هم أبعد الناس عن التوكل كما أنهم أبعد الناس عن الأعمال الصحيحة النافعة ، وانك لتجد أخبث الناس نفسا وأكثرهم خيانة وأكسلهم وأعجزهم هم البعداء عن الدعاء والتوكل وملاحظة القضاء والقدر وأمثال ذلك من أصول الدين ، وهذا أمر معروف بالحس والعيان ، بل لا توجد الفوضى والاضطرابات إلا في المواضع التى تفقد منها هذه الأصول أو تضعف فيها ضعفا كثيرا . فذهب المسلمين الذى ننصره هنا وهو المذهب الحق فى التوكل هو اعتماد الانسان على ربه تبارك وتعالى فى جميع أعماله المشروعة والمباحة التى يعملها لمعاشه ومعاده ، فيعمل بصدق وإخلاص معتمدا على الله تعالى متوكلا عليه مستعينا به على قصده وإرادته معتقدا أنه لا يضيع أجر من أحسن عملا

فالاتكال على الله هو الاستسلام لله تعالى فى المصائب التى يبتلى بها الانسان ولا حيلة له فى دفعها فيحتسب ويدعو الله ويسأله العفو والعافية ونحو ذلك . هذا فى المصائب ، وأما فى الأعمال فيعتمد على الله فى إيصال النتائج صحيحة نافعة ، ويحدد فى العمل بمباشرة الأسباب ويطلب المعونة والتسديد فى عمله كله ، فالتوكل فى استعمال الأسباب والأعمال كلها كإداة الحياة فى الأشياء الحية والنامية ، فهو النور والروح ، فتدخلت الحياة الأجسام القابلة لها نفعت

بحسب استعجالها ومتى فقدت تلك الروح صارت ميتة أو ضعيفة حياتها . وقد بينا فيما مضى أن الأعمال أنواع : أحدها ما يخص الأمور الغيبية الكونية كتخلف المطر وحصول العاهات الأخرى ، فالإتكال على الله في مثل هذه الأمور أن يستعين بالله ويدعو بما شاء في قضاء حاجته ويستغفره ويثوب إليه وأمثال ذلك ، ويسلم للواقع ، ويعلم أن الله سبحانه حكيم عليم مدبر رحيم بعباده ، وأن ما فعله في خلقه فهو بسبب ذنوب اقترفوها ، وأنهم مستحقون لما هو أعظم من ذلك ، فهو الحكيم العليم العدل الغني الذي لا يظلم مثقال ذرة ، ومهما أصاب الإنسان من بلاء فلو قرنه بما أصابه من السراء والنعمة والفرح والعافية لم يجد إلا أقل القليل مع كثرة الذنوب والخطايا . والنوع الثاني الأمور الدنيوية وهي كثيرة ، مثل أن يظلمه إنسان وهو غير قادر على مقاومتها وليست مقاومتها واجبة شرعا ، فيتكل على الله ويسلم له ، فإن شاء دعا عليه وإن شاء ترك ، والله لا يضع حق أحد على أحد في الدنيا والآخرة . والنوع الثالث الأعمال التي يعملها مثل الجهاد والصناعة والزراعة والتجارة وغير ذلك ، فالتوكل على الله في مثل هذه الأمور أن يقصد الإنسان الطريقة المباحة فيتوكل على الله في عمله فيها ويستمد منه الإعانة والتوفيق ويعمل بجد واجتهاد بحسب الحاجة والقدرة ، ويعتمد على الله في بلوغ النجاح ، ويحسن الظن به في تبليغ مقصوده وتقوية عمله ، ويعلم أنه إن حصل له قصور أو تعويق في هذا العمل فأنما ذلك لخلل في عمله أو لذنوب اقترفها ، فيجمع الإنسان بين العلم والعمل ، فالعلم هو الدين والاستعانة بالله ، والعمل هو مباشرة الأعمال على وجه صحيح ، فهذا هو أصل التوكل الشرعي (١) فمتى عمل به الإنسان فإنه لن ينجب عمله أبدا ، وإنما يؤتى الائتمان من ناحيتين إما من ضعف التوكل

(١) كما قال النبي ﷺ : احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجزن .

والاعجاب بالنفس والعلم والعقل وسوء الظن بالله تعالى ، وإما أن يكون له ذنوب إما في عمله هذا - وهذا أشد خطرا - وإما في غيره . وأما ما كرره الملاحد من دعوى كون النجاح في تلقين الانسان أنه هو الذى يوجد عمله بدون معين (١) ، وأنه موكل الى نفسه ، فهذا مع كونه كفرا وباطلا فليس فيه نجاح ، بل هو عين الوهن ، وقد بينا ذلك فيما سبق فلا حاجة الى اعادته مرارا

فصل

قال : ليتصور من لا يستطيع أن ينفذ الى حقائق علم النفس الكبرى طفلا يولد في بيئة من البيئات ، تأخذ هذه البيئة بتلقين هذا الطفل بأن حوله قوة غالبية عزيزة لا يمتنع عليها شيء ، وأن هذه القوة على استعداد لأن تهيبه كل ما يشتهى في كل وقت وفي كل مكان بدون عناء وبدون عمل ودون ثمن سوى أنه يستسلم لها ويركن اليها ويتوكل عليها ويثق بها - ثم يؤمن هذا الطفل بهذا التعليم إيمانا خالصا - ليتصور منا من لا يستطيع النفوذ الى الحقائق الكبرى حالة هذا الطفل : كيف يمكن أن يكون وكيف يمكن أن يجابه الحياة ؟ هل من الجائز أن يصنع مثل هذا الطفل خيرا أو أن يقوى على شيء ؟ ثم ليعلم أن شرا من ذلك الطفل أو الرجل الذى يعلم هذه التعاليم الاتكالية ويلقن كل هذه الملقنات للاستسلام والانتظار ،

والجواب أن يقال على وجه النقص : كلامك هذا متناقض في نفسه ، فتقولك بدون عناء وبدون عمل وبدون ثمن سوى أنه يستسلم لها ويركن اليها ويتوكل عليها ويثق بها قول ينقض أوله آخره ، فمن قال لك أن الاستسلام والركون والانتكال والوثوق على وجه الصحيح ليس بثمر وليس فيه عناء . أتريد أن يكون هذا مجرد اعتقادات بدون أعمال مطلقا ، أم تريد أن

الأعمال الدينية ليست بضمن - وهذا هو مرادك - ولو أردت الأول قيل لك هذا ممتنع الوجود على الوجه الصحيح ، فإن الاستسلام والركون والوثوق الحقيقى متى قام بقلب فلا بد أن يدفع صاحبه للعمل الذى لا أقوى منه شئ ، ولا بد أن يتناول الأسباب المشروعة تناولا صحيحا ، ولا بد أن تكون نتائجه صحيحة مشمرة لأن الاستسلام هو الاذعان واتباع الأوامر ، وإن أردت أن هذه الأعمال والاعتقادات من الاستسلام والاتكال والوثوق لا تنتج خيرا ولا تقوى على شئ ، قيل لك هذا مصادرة ، فقد جعلت نفس دعواك دليلا لك ، فصارت دعوى ودليلا معا ، فهل النزاع بيننا وبينك إلا فى هذه الأصول . فإن حاصل كلامك أن الاستسلام والتوكل على هذه القوة العزيزة الغالبة والوثوق بها غير نافع ولا مفيد ولا يقوى على شئ ، وهذا ادعاء محض قد تبين فساد ، وبكفى أن يقال لك هنا إذا كانت هذه القوة الغالبة العزيزة ، أى الله القاهر كل الوجود وكله تحت قبضته ومشيتته ، وقد وعد من آمن به وتوكل عليه ووثق به وركن إليه واستسلم له على الوجه الصحيح بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون كما قال تعالى ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ فأى مانع لمن فعل هذا أن يؤيده الله ويحفظه وينصره ويسخر له من الأسباب ما لم يحسب له حسابا وهو بيده ملكوت كل شئ ، فهل فى الدنيا أمة وثقت بالله واستسلمت له وركنت إليه وتوكلت عليه بالمعنى الذى أمر به فلم تأت بخير ولم تقوى على شئ وأنه حصل لها شر ، بل نحن نعلم أن الذين هربوا من هذا الاستسلام والركون والاتكال والوثوق ظانين بالله ظن السوء محتقرين هذه الأصول شائخين بأنوفهم عنها قد تردوا فى دركات سحيقة ودارت عليهم دائرة السوء وعوملوا بالاهانة والذلة فلم يحصلوا خيرا ولم يصلوا إلى ما أرادوا ، ونحن نرى هذه الدول الاسلامية كل من كان منها أقرب الى الوثوق بالله والاستسلام له والركون اليه على المعنى الصحيح صار أعز وأعظم استقلالاً ، وكل من كان أشد بعدا من هذا صار أعظم ذلة

وإهانة ، وهذا ظاهر لا خفاء به ، فدعواك أن الطفل الذي يلحق هذا التلقين لا يصنع خيرا ولا يقوى على شيء قول في نهاية السقوط . وإذا قلت أنا لا أعنى بالاتكال الوثوق على وجه الصحيح سقط كلامك من أصله ، إذ يكون الادعاء لا محل له ، فأننا لم نقل أن ترك العمل مطلوب شرعا . يوضح هذا ما نقوله على وجه المعارضة وهو أن يقال ليتصور الانسان العاقل طفلا يولد في بيئة من البيئات الحبيثة تأخذ هذه البيئة في تلقين هذا الطفل بأنه ليس فوقه قدرة أو رب عزيز قاهر جبار له ملك السموات والأرض عليم حكيم رؤوف رحيم وليس أمامه جنة ولا نار ولا حساب ولا عقاب وإنما أموره كلها في حكم الطبيعة المطالبة العاتية ، فهي التي تعزه وتذله وتقدمه وتؤخره وأن كل ما في الوجود هو من العوامل الطبيعية من آلام ولذات وأفراح ومصائب وغير ذلك ثم يؤمن هذا الطفل بهذا التعليم فيعمل في قلبه كما يعمل الجذام في جسمه ، ليتصور الانسان هذا جيدا ثم ليتصور كيف يخرج هذا الطفل وكيف تكون حالته وكيف تكون نتائجه ، هل من الجائز أن يصدر من هذا المجذوم الخبيث الا الوباء ، وأن كل من قرب منه من ضعيف المزاج فلا بد أن تصيبه العدوى والمرض القاتل ، وهل من الجائز أن يصدر من هذا خير أو أن تقبل نفسه الخير ، بل لا بد أن يخرج أرعن خبيثا زنديقا لا يصدر منه غير الفساد والفواحش منغمسا في الشهوات واللذات في هذه الحياة التي اعتقد أن لا حياة له غيرها ، فأهدق صورة هذا الطفل أن يكون كالكلب الذي غايته أن يلهث ويندفع بجمرة الى قضاء شهواته الحاضرة وان كان قد ينفع صاحبه فقط لا يضطاره ، وإذا قيل قد وجد من خرجوا على غير هذه الحالة مع هذا التلقين ، قيل هذا ممنوع ، فلا بد لمن خرج على خلاف هذا أن يكون في تلقينه شيء من الأخلاق الحسنة الطيبة التي هي من آثار الأنبياء وأهل الدين ، ولهذا كان أكثر الاباحية والفواحش ونحوها في الملاحظة المحض ، ولو قدر خروج نادر فيمكن المعارضة بالآلاف والملايين الذين خرجوا وتقدموا وصاروا على

غاية من العز والسيادة بالوثوق والركون والانكال بمغانيا الصحيحة ، ولكن يجب أن يعلم أن شرا من هذا الطفل الذي بهذه الصورة وأخبت منه هو ذلك الرجل الذي بقي منحسرا على جانبي الرجل الديني المخلص والرجل الملاحد المجاهر الصريح فصار مذبذبا بين هذا وذاك ، ويزداد هذا الرجل تحبشا وشرا فيما اذا كان يأخذ معاني الحقائق الصحيحة المقدسة فيقلبها الى المعاني الخبيثة الباطلة ثم يتقل معاني الباطل والخبث الى معاني الحق والنور ، ويأخذ نصوص الانبياء والأنوار السماوية فيحتج بها حائنا مع اعتناق ظلمات الزندقة والالحاد ، ويأخذ أخلاق أكفر خلق الله فيضيفها الى المسلمين ، ويأخذ أخلاق أولياء الله فيدعيها للملاحدة والمنافقين ، لا شك أن هذا هو شر الثلاثة بل شر العالمين

أما على قولنا واعتقادنا في التوكل فليتصور المسلم العاقل طفلا يولد في بيئة من البيئات تأخذ هذه البيئة بتلقين هذا الطفل وتربيته بأن ربه الله هو الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه المتصف بكمال العلم والحكمة والرحمة والقدرة والرافة واللطف المهيمن على كل ما في السموات والارض ما من ذابة إلا هو أخذ بناصيتها ، قد أمره هذا الرب الكريم الجبار والقهار بأوامر عالية أخبره بها ونهاه عن أمور أخرى بينها له ، فقد علم أن ربه أعلم منه بمصلحه ومضاره علما لا يحتاجه شك ، وبين له بأن ما أمره به مصلحة محضة عائدة اليه وما نهاه عنه شر محض عائد ضرره اليه ، وأنه غنى عنه وعن عبادته ، وإنما أمره بذلك من أجل أن عمله هذا هو الطريقة الوحيدة لتزكية نفسه وتطهيرها وتنويرها من نقائص طبيعتها الاهلية وظلماتها وجهالتها ، لأن حقيقة هذه الاعمال اتصال واستمداد من مصادر الكمال المطلق والروح والنور اللذين هما مادة الحياة ونورها ، فأخبره بأنه لن امثل ذلك فانه سيؤيده وينصره ويعينه ، وإن خالفه فانه سيخلى بينه وبين نفسه وسينقطع عنه هذا السبب الذي به حياته الصحيحة ونوره المستمر ويكون عرضة للطرد والابعاد وسوء العاقبة ، وإن تساهل في

الآخذ بهذا النظام الذى فيه أوامره ونواهيه والعمل به جوزى بقدر طاعته ومعصيته ، فبمقدار ما يقوم به من هذا النظام تكون إعماته ونصره وتوفيقه وتسديده ، وبمقدار إضاعته له وتقصيره فيه يكون طرده وإبعاده ، وإن شك فى هذا النظام أو احتقره واستبدل به غيره فقد أساء الظن به وبمن أنزله ، فلا يمكن أن ينتفع به بحال ، ثم انه سبحانه أمره بأسباب كثيرة خلقها له وعينها وفصلها ، بل من أعظم القواعد التى جاء بها هذا النور تحرير العقل وإطلاقه إطلاقاً حراً كاملاً من الجهالات الموروثة والتقليد الأعمى^(١) وقد أخبره أنه إذا أخذ بهذه الأسباب أخذاً قوياً صادقاً بجد واجتهاد واستعان به أعين ونصر وأيد ، وإن رفض هذه الأسباب أو استعملها على غير وجهها خرى أن لا يحصل على مقصوده ، وإن قصر فيها أو أخذ بها أخذاً ضعيفاً فربما يكون نجاحه ضعيفاً . ثم ان هذا الطفل إن نشأ على هذه التربية السامية والإيمان بها إيماناً قوياً ليتصور الانسان العاقل هذا الطفل وكيف تكون حاله ، هل من الجائز أن يظهر هذا الطفل خبيثاً أو خائناً فى أماناته كلب — زنديقاً أو لصاً أو سارقاً أو

(١) ليس فى الدين حرف واحد يمنع حرية الفكر والنظر الصحيح فى كل ما يتعلق بالأمور الدنيوية النافعة ، ولكنه يمنع الفوضى فى الاعتقادات الدينية لأنها من عالم الغيب التى يستحيل على العقل إدراكها والاحاطة بها على وجهها المطلوب ، وكل ما حرمه الشارع فضرره أكثر من نفعه بل غالبه ضرر محض . ثم إنه لا يوجد فى الدنيا كلها نظام واحد لا يحرم شيئاً ولا يحظر على أهله شيئاً ، وأكثر الملاحدة جامدون مقلدون لرؤسائهم ، والطفل الذى ينشأ فى معاهد الإلحاد يرى أشياء كثيرة لا يسعها العقل ، ولكنه يضطر الى قبولها ، لأنه اذا عارض فيها وتضجر منها نسب الى البلادة والبله والرجوع الى الوراء ، فيقبل ذلك على مضض لئلا تنتحط منزلته بين التلاميذ بالشذوذ وسوء الفهم ، فأمور الإلحاد والزندقة كلها جهالات عميقة قد تخلق بها أعداء الانبياء الأولون وورثها عنهم خلفاؤهم المتأخرون

خائننا أو كسلانا أو جباننا أو سفيها أو رديء أخلاق أو يظهر على غاية من الدهاء والفتنة والرجولة والعقل والمروءة وحب العدل والاحسان والشجاعة والصرامة محافظا على كرامته وإنسانيته ودينه ووطنه وقومه وكل ما يتعلق به ، فترية الدين أعظم تربية وصلت إليها الانسانية على اختلاف أطوارها ، وأنت ترى الشيع والنحل والمبادئ الفاسدة لا تعد ولا تحصى تظهر وتطيش وتزول ولا تثبت زمنا كثيرا بل لا تبرح حتى تقوم مكانها مبادئ أخرى ، بخلاف مبادئ أصول الدين من عبادة الله والتوكل عليه والوثوق به والاستسلام له فإن هذا المبدأ هو من أول الدنيا إلى آخرها لا يزال موجودا ولا تزال أكثر البشرية معترفة بقوته وعظمته وأنه هو الأصلح للبشرية فلمذا كان هو الملجأ الوحيد عند الشدائد وعند انهيار غيره .

ومن أعجب العجب أنه استصغر الوثوق بالله والاستسلام له والتوكل والاعتماد عليه ، وجعل ذلك ثمنا ليس بكبير ولا يوصل إلى غاية عظيمة كما يدل عليه كلامه ، وما علم المسكين أن الايمان بهذا الشيء أكبر شيء وأثقله على أكثر البشرية كما قال تعالى ﴿ كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾ ومعلوم أنه قال ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ ومعلوم أن هذه الأصول تتضمن غاية الاستسلام والوثوق والركون ، فإن الاستسلام هو القبول والاذعان التام لكل ما أمر الله به فالتمرد ينافي الاستسلام ، وقال تعالى ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الامور ﴾ ولو فقتش ذو فكر سليم وجد أن العلة التي أصابت أكثر البشرية هي عدم الاستسلام والركون والوثوق بالله أو النقص من ذلك ، وهذا الملحد نفسه إنما كفر وخلع بركة الاسلام من عنقه لأنه ضاق به ذرعا وثقل عليه الاستسلام والركون والوثوق ، وإلا فلو كان واثقا بالله راكنا إليه متوكلا عليه مستسلما لنظام الله

لكان له شان آخر ، فالرسل كلهم دعوا الناس الى هذا الثمن فاني أكثر الناس
إلا كفورا ، فما أثقل هذا الثمن وما أعظمه على أكثر النفوس ، وما أنفسه
وأجله وأجل أثره لو جئ به على الوجه المطلوب . ان كل شر وشرك بل
والمعاصي بجميع أنواعها إنما هي نقص في الاستسلام لله والركون اليه والثوق
به والاتكال عليه

ثم هل هؤلاء الذين تركوا هذا الاستسلام والركون والتوكل والثوق
استحصلوا على مقاصدهم ومآربهم . لا شك أن أكثرهم باء بسوء العاقبة في
الدنيا والآخرة وسوء أثره في الأكثر الأغلب كاف في فسادهم ، بخلاف من
حقق هذه الأصول واعتمدها فانه ظفر بالحياة الصحيحة في الدنيا والآخرة
كأنجس من الهلاك والدمار كما قال تعالى ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم
وأهلها مصلحون ﴾

وبهذا يتبين لك أى ما ادعاه في جميع هذا المبحث الذى يدور كله على هذه
الجملة كلام ساقط لا محل له ، مع ما فيه من التلبيس وفساد العقيدة ، لأنه يرمى
الى الحث على الاتحاد ورفض الاديان

فصل

ولما كان هذا المخذول يعلم أن التوكل ركن من أركان الدين ، وأن النصوص
القرآنية والأحاديث النبوية صريحة جلية في الأمر به فلا يمكنه جحدده وكتمه
وإنكاره لجأ الى الحرفة اليهودية فاستعملها في تحريف معناه ، فان هذه الحرفة
هى سلاحه عند المضايق فعمل فيه عملا لم يسبقه اليه أكفر كافر في الدنيا - مع
كونه عملا مضحكا مبكيا - ولو أنكره بمجاهرة لكان أسوأ له ، إذ أنه فسر
التوكل على الله بالاعتماد على الأسباب ، ففسر التوكل على الله بقطع النظر الى
الله ، وحققة هذا أن عبادة الأسباب هى عبادة الله ، فلو أن انسانا له كلب
صيد فاعتمد على كلبه في الصيد من دون الله فقد توكل على الله ، لأن الكلب

سبب في صيد الأرنب ونحوه ، ولو أنه طرد هذا الأصل وقال صريحا والصلاة
لأسباب صلاة الله لكان من جنسه ، فان التوكل الذي الاعتقادي عبادة
كالصلاة بلا خلاف ، فمن توكل على الأسباب فاعتمد عليها من دون الله فقد
عبدها ، وقد تقدمت دعواه أننا إذا أردنا أن نعظم الله فتعظم مخلوقاته وتعظيمنا
مخلوقاته تعظيم له ، وبالجلة فادنى عامي فضلا عن غيره يدرك قبح هذا التفسير
وخيبه وسقوطه وأنه مكابرة وعكس ظاهر لمعناه الشرعي والعرفي ، وقد
خالف جميع قوانين اللغة كما خالف جميع كتب الدين في هذا التفسير ، لأنه
المقدم في الأمر فقال : « نعم ، التوكل جاء في أكثر سور القرآن مكررا ،
وجاءت الأديان كلها آمرة به ، واتفق المسلمون على أنه ركن من أركان دينهم .
وليس الخلاف في حسنه ووجوبه ، ولكن في تفسيره ومعناه . فالجواهر من
الخاصة والعامة أخذوه على النحو الذي قدمناه فكانت عاقبتهم ويلة ،

فيقال : قد سبق أن ما ذكره هناك ونسبه إلى الخاصة والعامة كذب ظاهر
وبهت مكشوف ، افتراه ونسبه إليهم وعجز غاية العجز أن ينسبه إلى فقيه من
أئمة المسلمين أو إلى عقيدة واحدة من عقائدهم على كثرتها ، فلا يعتد بما ادعاه
وما نقله عن قواميس اللغة ، فقد بينا أنه حجة عليه لأنه خالف نظريته . وقد
بيننا أنه الاعتماد على الله وتفويض الأمر إليه والاستسلام والركون إليه مع
فعل الأسباب المشروعة التي أمر بالأخذ بها . فعلى الإنسان أن يأخذ
بالأسباب ويعتمد على الله في بلوغ نتائجها ومسبباتها ^(١) ، ففعل الأسباب
لا يتنافى التوكل باتفاق المسلمين كما هو مقرر في كتب الدين المعتمدة

إذا تبين هذا فقد رأيت أيها المنصف أن هذا الرجل اعترف بأن التوكل

(١) فانه تعالى أمر بالأخذ بالأسباب ، وأمر بالاعتماد عليه ، فلا بد من
الانتيان بالأمرين جميعا

من أركان الدين ، وأنه قد جاءت الأديان أمرة به . ومعلوم أن من المحال في العقل والدين أن يخفى هذا الركن العظيم على جميع الأمة في هذه القرون الطويلة ولا يعرف معناه أحد منهم غير هذا الملحد ، فتلقى جميع كتب اللغة والتفسير والأصول وغيرها ثم يخترع هو من رأسه المصدوع معنى هو ضد ما قرره هؤلاء كلهم فيفسره به ثم يوجب على الناس اتباعه . ولهذا عجز غاية العجز أن ينسب هذا الرأي الذي رآه إلى عالم من علماء الأمة كلهم من أولهم إلى آخرهم ، ونحن نتحداه غاية التحدي أن يوجد لنا عالماً واحداً ادعى أن التوكل على الله هو الاعتماد على الأسباب ، فإن هذا لن يجده أبداً . وسنوضح فساد قوله ودلائله التي يدعيها

قال : « أما معناه - على حسب ما رأينا ، وعلى حسب الدلائل المختلفة فهو ما سنذكره ،

قلت : فقد رأيت أنه صرح هنا أن ما سيقوله في معنى التوكل إنما هو على حسب رأيه ، وهذا غريب منه في ترك الفجور والمكابرة . ومعلوم أنه إنما لجأ إلى رأيه في هذا الركن العظيم لعدم وجود ما يؤيده وأن المسلمين على خلافه ، إذ من غير المعقول أن يكون معنى ركن الدين غير معروف عند غيره ولكن لما رأى أن رأيه لا يوافق آراء أهل الدين كلهم في معناه تبسّع رأيه وحده وحق له ذلك ، فانه من غير المعقول أن يطابق رأى الزنديق الملحد رأى الانقياء وأئمة الدين من السلف والخلف ، فلماذا حمل معناه على رأيه الخبيث (١) فقال :

« إذا وكلت وكيلاً لينوب عنك في أمر من أمورك ورضيت بوكالته رضا مطلقاً واعتمدت عليه اعتماداً تاماً بلا شك منك ولا تردد في عمله ، فمعنى هذا

(١) سيأتي خلاصة ما يقرره في قوله « أن الانكال معناه الأخذ بالوسائل مع الاعتماد عليها وعلى نجاحها ، هذا لفظه بحروفه . لجعل الاعتماد على الوسائل والأخذ بها هو التوكل ، لا الاعتماد على الله والأخذ بالوسائل

أنتك معتقد بأن أعمال ذلك الوكيل وما سيقوم به من أسباب وما يصنع من وسائل لانجاح الغاية التي يراد إنجاحها ، أعمال مؤدية الى الغاية ، وأسبابه موصلة الى المسببات ، ووسائل مقربة الى النتائج . وكلما ازدادت اعتقادا بصحة أعماله وأسبابه ووسائله وبتوصيلها الى أهدافها ازدادت عليه توكلًا وبوكلته غبطة ، وازداد هو - أى وكيلك - رضا عنك وسرورا بإيمانك بوكلته ...

فيقال : ما شاء الله (ياالشمس التي في غير برجها) من عليك هذا التفسير الغريب العجيب - ولعله من كنوز حقائقك الأزلية الأبدية - أن هذا التوكل على الله أو هو معنى الوكالة ، والناس كلهم إلا من شاء الله يوكل بعضهم بعضًا ولا يفهمون هذا ولا يعرفونه ، ولو كانوا يعرفونه لينوه ، فهذه وكالات الناس على اختلاف مذاهبهم وتنوع وكالاتهم يوكل بعضهم بعضًا ولم يقل أحد في توكيله لو كيله لا بد من معرفة ربط الأسباب بالمسببات ، والوسائل بالنتائج ، وهذه فرق كثيرة تدعى أن الله يفعل عند الأسباب لا بها ، أفتبطل وكالاتهم حيث لم يعتقدوا هذا . والعجب أن الله أعياه فذهب يفسر الوكالة لا التوكل ، وقد تقدم كلامه في قوله وقد ذهبوا الى أن التوكل مأخوذ من الوكالة الموجودة بين الناس إلخ . ثم شنع عليهم في هذا المأخذ ، وهنا أخذ يفسر التوكل بمعنى الوكالة فتناقض وركب خطأ على أخطاء لا تحصى ، ففسر الوكالة دون التوكل ، ولعله قد خائنه محنته في حب المعاكسة وتحريف النصوص فطفح كياله في المجازفة فراح يفسر الوكالة ليفسر التوكل ، فسبحان من طبع على قلبه ، وقد علم الخاص والعام - من عالم وعامى وبليد - أن الناس يوكل بعضهم بعضًا ، بمعنى أن الموكل يفعل السبب الذي به تحصل الوكالة ويفوض الوكيل في الأمر الذي وكله فيه اذا عرف كفاءته للوكالة ، فيوكله محفوظًا أمره اليه بأن يعمل هذا العمل من غير أن ينظر إلى تعلق الوسائل بالنتائج والأسباب بالمسببات هل هي لذاتها وطبعها أو لقوة فيها أو أن الله يفعل عندها لا بها . ولو ان رجلا وكل وكيلًا وذهب يتعمت عليه في تعلق

الأسباب التي معه وربطها بمسبباتها ويتحكم عليه بأن لا يتصرف فيما تحت يده
ورفى ملكه ولا يغير فيه شيئا بعلمه وحكمته بل تكون الأسباب حاكمة عليه
بطبعها لا حاكما هو عليها بقدرته وقهره وحكمته وعلمه ، لكان هذا الموكل قد
طمع فى الوكيل طمعا ظاهرا وأساء الظن به واحتقره ونسبه إلى الضعف
والقصور وعدم الكفاءة ، ولكان هذا الموكل معدودا من الحق والنوكى
والأغبياء الذين لا يعلمون . والعجب الآخر أن هذا الملاحظ نفسه قد نقل عن
كتب قواميس اللغة معنى التوكل وهو الاستسلام ، ثم تراه هنا صادمها
كلها ، فان ما ذكره ليس باستسلام للوكيل بل تعنت عليه بل اتهام له ، وإنما
هو استسلام للأسباب والمسببات أو الوسائل ونتائجها فقط . ولا شك أن
الذى يتوكل على الله كهذا التوكل الذى ذكره ليس متوكلا عليه بل متوكل على
الأسباب ومسبباتها ، وإلا فلو كان يعتقد فى الله القدرة الكاملة والتصرف
المطلق والعزة فى إيصال النتائج وقطعها وأنه يعين من أطاعه واثقاه وركن إليه
وحافظ على نظامه ويعاقب من عانده وحاربته واستهزأ به وتهكم بنظامه وجعل
حكم الطاعوت أحسن من حكمه - لما اعتمد على أسباب فقيرة الى غيرها وركن
ليها واستسلم لها وتوجه إليها وأعرض عن خالقها ، فأى تفويض واعتماد على
الله تعالى ممن اعتمد على الأسباب وحدها وجعلها هى الفاعلة بطبعها بدون
تعلق مشيئة الله وقدرته بها وأن الله لا يقدر على صرفها وخلق أضعاف تبطلها
وتعوقها وتصرفها عن وجهتها . وقد بينا فيما سبق أن التوكل على الله تفويض
الأمر إليه مع التزام ما أمر به من استعمال الأسباب الدينية والدنيوية بقوة
وإيمان صادق ، فعلى الانسان أن يؤمن إيمانا صادقا بشرع الله ونظامه ويستعين
الله بمجد واجتهاد والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ومن يتوكل على الله فهو
حسبه ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا

ثم قال : « أما اذا شككت فى الوسائل والأسباب والأعمال التى يؤدىها ، أو
شككت فى إيصالها المطلوب ، فان توكلك عليه يضعف ، وإيمانك يهين »

فيقال : هذا مردود ، بل إنما يضعف توكله اذ شككت في إعاقته له وكفائه للوكالة وقدرته على الأسباب ومسبباتها الخاصة له ونظرت الى الأسباب فقط ، فانه — والحال هذه — يضعف توكله عليه . أما اذا أحسنت الظن به واعتقدت فيه الكفاءة مع النصيح معه فان توكله يقوى ولا يهين ، وإنما يضعف ويهين اذا صرفت وجهي الى من دونه ومن هو في قبضته وعلقت آمالي على ذلك دونه واتهمته في عدم القدرة على التصرف فيما تقتضيه رحمته ولم أره كفؤا لأن يعتمد عليه بل الكفؤ هي الأسباب ومسبباتها ، فهذا هو الذي يوجب الوهن والضعف ، بل هذا اسامة ظن بالوكيل ونسبته الى العجز فالتوكل على هذا الوجه توكل ساقط فاسد ، فما ذكره هذيان عار من التحقيق والنتيجة المطلوبة .

ثم قال : وهكذا ننظر الى التوكل على الله ، فالتوكل الصحيح عليه هو أن تثق ثقة مطلقة في أن ما وضعه لعباده من أسباب ووسائل لتبلغهم غاياتهم هي أسباب ووسائل مؤدية الى مسبباتها ونتائجها بلا تخوف ،

فيقال : نعم ، هذا هو التوكل الصحيح في اعتقاد الزنادقة الذين يريدون أن يجمعوا بين الكفر والايمان ، وأن يجعلوا معنى التوكل على الله هو الايمان بالأسباب والاعتماد عليها فيكون معنى الاعتماد على الله هو معنى الاعتماد على الأسباب فهم لا يؤمنون إلا بالأسباب المادية في نفس الأمر ، وسيأتي كلام هذا الملحد في قوله : ان الاتكال معناه الأخذ بالوسائل مع الاعتماد عليها وعلى انجاحها ، وكذلك قوله قريبا : فالتوكل الصحيح إذن هو أن تؤمن بنواميس هذا الوجود ، وان تعتقد بأن الخالق قد وضع لها سندا لا اضطراب فيها ولا محاباة ، وأنه قد ربط بين العلل والمعلولات ، انتهى . فالإنسان اذا عمل عملا واعتمد على الله في إيصال نتيجته فليس بمتوكل على الله في رأيه ، فانه ادعى أن معنى الاتكال الأخذ بالوسائل مع الاعتماد عليها ، وهذا عين ما يفعله

الملاحدة وعين ما فعله جميع أعداء الرسل الذين حاربوهم وقاتلوهم ، بجميع الكفار خصوصا الملاحدة الدهريين يكونون هم أعظم الناس توكلا على الله لأنهم يأخذون بالوسائل ويعتمدون عليها ويجعلونها مربوطة بنتائجها ربطا لا يمكن انفكاكه . أما الأشعرية ومن يرى رأيهم عن يدعى أن الأسباب ليست عللا لمعلولاتها ، وإنما الله يفعل عندها لا بها ، فهو لام عنده شر من الكفار من هذه الناحية فلم يأتوا بركن الدين الذي هو التوكل ، لأنه قرر أن التوكل ركن من أركان الدين ، فهم لم يتوكلوا على الله لأنهم لم يؤمنوا بأن بين العلل والمعلولات ربطا ذاتيا آليا طبيعيا ، وأن كل سبب مؤد إلى مسببه بلا تخلف . وحقيقة هذه الدعوى ومغزاها أن التوكل على الله هو الكفر بقدرته على تغيير الأسباب والحيلولة بينها وبين نتائجها ، فن كفر بقدرته على تغيير الأسباب والحيلولة بينها وبين نتائجها ، فقد توكل عليه ، أى من آمن بالطبيعة ونواميسها وأنها هي المسيطرة على الوجود وهي التى تحكمه باستخدام الانسان لها بمقدرته الذاتية فقد توكل عليه تعالى ، ومن آمن به على أنه مالك الملك يؤقى الملك من يشاء وينزع الملك من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شىء قدير وأنه يحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب وأنه لن يجعل المسلمين كالجحش ولا الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ولا المتقين كالنجر ، فانه - على مقتضى دعواه - لم يكن متوكلا ، بل يكون فوضويا قد اعتقد الاضطراب والمحاباة والتشويش ، لأن تصرف الله فى ملكه على ما تقتضيه حكمته وعلمه ورحمته عند الزنادقة والملاحدة تشويش ومحاباة واضطراب كما كرر هذا الأصل مرارا ، وهو واضح لا غبار عليه وإنما يقرره بألوان من الخداع وضروب من النفاق لما قام بقلبه من عوامل الخوف على منزلته وشغفه بالمبادئ الاحادية ، فأراد أن يجمع بين هذا وهذا كما تقدم بيانه

فان هذا الملحد تبع سلفه الزنادقة من اليهود وأمثالهم فى التحيل على إبطال

الحقائق بقلب مسمياتها وتحريفها عن مواضعها ، وقد علم أن الله سبحانه وتعالى قد مسح من احتال على صيد السمك قردة وخنازير ، فكيف بمن احتال على قلب أعظم مظهر للرؤية وهو تدير الله للعالم وتصرفه فيه بما تقتضيه مشيئته وحكمته فسماه تشويشا واضطرابا ومحاباة . قال الامام أيوب السخيتاني في أصحاب الحيل : يخادعون الله كأنما يخادعون الصبيان ، فلو أتوا الامر عيانا كان أهون ، ولهذا تجد هذا الملاح فيه شبه قوى من الخنزير فانه شديد النفرة من الأشياء الطيبة والمقدسة منصاع الى حد بعيد الى الخبائث وأهلها من الملاحدة والزنادقة وأتباعهم ، يعرف ذلك كل من تدبر كلامه وعرف حاله ، فانه في هذا أراد أن يجمع بين الالحاد والتدين فلم يقدر أن يقول غير هذا الهراء ، لانه كان مضطرا الى الزندقة التي لولاها لفطم عن ثديه الذي كان يهيش به بدعوى الدين .

تكلمت في إبطال شرع مقدس رعى الله منك الثغر بالحجر الصلد
ثم انه شرح هذا التوكل الصحيح عنده فقال :

« فالعلاج الصحيح الموافق من كل وجه للمرض — وهو سبب من الاسباب — مؤد بلا ريب الى الشفاء . ووضع البذر الصحيح السليم في التربة السليمة الصالحة لانبات ذلك البذر ، مؤد بلا ريب الى الإنبات ، ثم الى الإثمار اذا ما سقى وحفظ من الآفات . واختلاط الذكورة القادرة على الإخصاب بالانوثة القادرة كذلك مؤد الى وجود الولد إلا أن يوجد مانع من الموانع الطبيعية . وسلوكك في الحياة سلوكا سليما من العثار والزلل مؤد بك الى النجاح إلا أن يكون هناك عقبة طبيعية . وهكذا القول في كل ما يدعى أسبابا ووسائل . فكلما ازدادت ثقة بهذه الاسباب ^(١) التي جعلها الله كذلك ازدادت

(١) لم يقل : كلما ازدادت ثقة بالله الذي يسببها ازدادت توكلها ، بل جعل الثقة بها نفسها ثقة بالله

توكلا عليه وثقة به وباعماله وتصديقا باخباره حينما أخبر بأن الأسباب موصلة إلى غاياتها ، انتهى

وكأنه ظن هذا البعر تمرا فأكثر منه ، وكلامه - كما ترى - في التمثيل في الأسباب المادية ، أما الأسباب الدينية فقد علمت مما مر أنه كفر بها وحاربها وشتمها فجعلها نكبات وشرا وملهاة وخبثا وتعويقا . فيعارض هنا بأن يقال له : والدعاء من القلب المخلص الصادق مستجاب كما دلت عليه صرائح النصوص والتجارب ، إلا أن يكون هناك موانع وعوارض دينية . فلم كفرت بهذا وأنكرته وجعلت نتيجة الخبث والتعويق والملهاة . فاذن أنت كافر بالتوكل اذا كنت تقرر أن الايمان بكون الأسباب مربوطة بنتائجها بلا تخلف هو التوكل . ومعلوم أنه ليس في النصوص حرف واحد يدل على ما ادعيته ، بخلاف الدعاء والذكر والصلوات فإن النصوص السماوية وأخبار الله تعالى التي لا تحصر دلت على أن ذلك سبب للإجابة والتوفيق . وكذلك التقوى وسائر العبادات من أعظم الأسباب في حصول الخيرات ودرء العقوبات والمحن في الدنيا والآخرة كما قال تعالى ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ فهذا قص صريح في أن الايمان والتقوى سبب لفتح البركات في الدنيا كما هي سبب لها في الآخرة ، وأن الكفر سبب للانتقام والهلاك ، وأمثال هذه الآية كثير جدا ، فلم عاكست هذه النصوص وحاربتها ورفضتها ولجأت إلى إخصاب المرأة وأمثاله من الأمور المادية . وقد علم أن خصومك لم ينكروا هذا قط وأنت أنكرت ما علم بالضرورة من دين الاسلام مع اعترافك به من قبل ، وقد علم أن الكفار والمسلمين يعلمون أن البذر في الأرض ينبت اذا كانت الأرض قابلة والبذر صالحا وحصلت الشروط وانتفت الموانع ، فالتناس اذن كلهم متوكلون على الله بهذا المعنى فلا فرق بين مسلم وكافر ، فأى تخصيص للمسلم

به ، وبأى شيء يكون هذا ركننا من أركان الدين ، بل كثير ممن يشكر الدين والتوكل يؤمنون بهذا أيضا ، بل ربما كانوا أعظم الناس إيمانا بهذا ، فهم إذن أعظم الناس توكلا ، وقد تقدم الكلام في قضية تأييد النخل ، فيكون إذن هؤلاء الكفار أعظم من الرسول وأصحابه توكلا لأنهم أشد اعتمادا على هذه الأسباب ومغالة في ربطها بنتائجها بدون تخلف ، فهل هذا إلا من الهذيان الذى يستجى كثير من الكفار من التفوه به لظهور هجنته وقبحه ونكارتة

ثم قال : « وإذا شككت في الأسباب والطرق التى جعلها الله ، وجوزت أن لا توصل الى شيء فقد نقص توكلك على الله وإيمانك بنظامه وأصيب يقينك بأخباره وأضحيت من الشاكين غير المتوكلين ،

فيقال : أما أولا فقد بينا أنك كفرت بالأسباب الدينية فأنكرت أن تكون أسبابا ووسائل ، وأنكرت وجود نتائجها على ما تقدم .

وثانيا هذا منقوض بما ذكرته من الرواية في تأييد النخل ، فإن الرسول عليه السلام ظن أن التأييد لا ينفع وأنه يوصل الى شيء ، وقد تركه الصحابة وظنوا أنه سبب لا يوصل الى مسيئه ولا الى نتيجه ، فيكون عليه السلام هو وأصحابه إما شاكون في الأسباب وإما جاهلون بها فيكونون شاكين في الله لأنهم شاكون في أسبابه كما تدعى فيما يأتى أو جاهلون به وقد أصيب يقينهم بأخباره فلم يعرفوا أخبار الله تعالى لأنك جعلت الشك في الأسباب والتجوير بأنها لا توصل الى شيء مصيبة في اليقين بأخباره تعالى ، وهذا قدح صريح في الرسول عليه السلام وأصحابه وأن توكلهم ناقص وإيمانهم بنظام الله غير قوى ويقينهم بأخباره قد أصيب فكانوا من الشاكين غير المتوكلين لأنهم جوزوا صلاح الثمر بدون تأييد ، ومع هذا فلم يأمرهم الرسول عليه السلام بالتوبة من هذا الذنب الذى هو الشك وضعف اليقين وعدم الإيمان بالله حين ظهر الأمر بخلاف ما ظنوا وكان الملاحظة ونظراؤهم ومن اقتنى آثارهم من هؤلاء

الزنادقة أعظم منهم توكلأ وأقوى منهم يقينا وأعظم إيماننا بنظام الله لأنهم لم يشكوا في الأسباب ولم يجوزوا أن لا توصل الى شيء كما ادعيت بل اعتقدوا فيها أعظم اعتقاد وأعطوها غاية الثقة واعتمدوا عليها غاية الاعتقاد ، وهذا هو حقيقة ما يقوله هذا الملحد كما هو ظاهر

ويقال ثالثا : ليس في الشك في الأسباب المادية وكونها مربوطة بنتائجها كبير أمر في الدين ، والخلاف في ربطها معروف يأتي الكلام عليه ، وكل ذي علم بدينه يعلم أن الرجل اذا التزم شرائع الاسلام وعاش عمرا طويلا ولم يعرف الربط بين هذه الأسباب ومسبباتها ومات على ذلك أنه لا ينقص من إسلامه شيء ، ولم ينقل عن النبي ﷺ أنه علم الناس كيفية الربط بين الأسباب والمسببات أو نفى عدم تخلف النتائج عن وسائلها الطبيعية ، ولو كان ذلك من عظام الأمور الدينية وأنه نقص في التوكل ونقص في الإيمان بنظام الله وضعف يقين بأخباره وأنه ينافي التوكل لا خبر به قطعا ^(١) وكيف لم يبين لهم هذا الركن الذي هو من أركان الدين بهذه الصفة ويعرفه الملاحدة والكفرة دون المؤمنين ، وهذا بخلاف الأسباب الدينية ومسبباتها ووسائلها ونتائجها وأن كل سبب فهو مربوط بنتيجته ، فالقرآن كله في هذا الاصل كما قال تعالى ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ ، ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾ وقد تقدم كثير من النصوص والبراهين الدالة على ذلك

ثم قال : ولا شك أنك إذا وكلت الى مهندس تصميم منزلك ووكلت الى بناءه القيام بذلك المنزل فقد آمنت بها واعتمدت على عملها ، أما لو ارتبت

(١) وهل يشك عاقل في أن الشك في كون الكلب يصيد الأرنب أو الثعلب اذا علم يندفع في الإيمان وأمثال هذا ، ولكن هذا المخدول لا يستحق ولا يبالي بما يقوله

فيها وفيما يضعان من تصميم وهندسة ومن آلات رفع وأدوات بناء لما وكلت اليها أمر منزلك ، ولما أمكن أن تكون متوكلا عليهما . ولو جوزت أن لا يكون البيت صالحا في النهاية للسكن وجوزت أن يختر بعد الفراغ منه إما خطأ في هندسته وتصميمه وإما لضعف في مواد بنائه لما عددت مؤمنا بهما ولا متوكلا عليهما ولا واكلا اليهما الأمر وكالة صحيحة .

فيقال : وهذا كالذى قبله هذيان بارد ، فقوله فقد آمنت بهما واعتمدت على عملهما كلام في نهاية السقوط ، بل اذا اعتمدت على عملهما كنت معتمدا على الصفات التي قامت بهما من القدرة والعلم والحكمة ، وهذا بخلاف ما لو اعتمدت على الأسباب التي هي موضوع العمل كالآلات ونحوها فإني لا أكون إذن معتمدا عليهما بل متبهما لهما بالعجز وأنها غير قادرين على الخروج عن طبيعة الأسباب ولا تغييرها ، اذ من الممتنع أن أعتمد على أسبابهما وهي تحت تصرفهما ، وإنما أكون معتمدا عليهما وعلى عملهما وحكمتها في التصرف اذا فوضت أمرى اليهما واعتقدت فيهما الكفاءة والقدرة التامة والنصح وأن الأسباب التي تحتها رهن مشيئتهما يتصرفان فيها كيفما أرادا بما يقتضيه عليهما وحكمتها . وهذه حقيقة الاتكال والوكالة . ثم إن البحث في التوكل عليهما لا على أسبابهما ، وحينئذ يقال : هل الانسان يتوكل على الله مفوضا أمره اليه ، أو على فعل الله الذي يسميه بعض الناس عمله ، أو على أسبابه المخلوقة الموضوعة تحت مشيئته وقدرته وتصرفه وإرادته ، فكم نفعت من أقوام وأضرت بآخرين ، وكم أضرت بمن قد نفعتهم ونفعت من أضرت بهم أحيانا أخرى ، وتلك الأيام نداولها بين الناس

وكلام هذا الملحد - كما نرى - قد أدخل فيه من التلبيس ما لا يخفى ، فهو على ما فيه من ركاكة وخداع متناقض ، فانه مثل بائنين^(١) ولا داعى الى التمثيل

(١) أى مهندس وبناء.

بائنين ، فان المسلمين لم يتوكلوا على الهين كل منهما له عمل ، فان المهندس والبناء كل منهما له عمل ، ثم المثل كله معكوس عليه أيضا ، فان الوكيل على البناء اذا وكلته على بناء منزلك معناه فوضت اليه أمر البناء حينما أخذت بأسباب الوكالة فيما تريده في هذا المنزل فاعتقدت بأنه سيتجزه على الوجه المطلوب ، فاذا اعتمدت عليه على هذا الوجه كنت متوكلا عليه انكالا صحيحا ، أما اذا صرفت همتك واعتقادك الى الوسائل والأسباب من الآلات والعمال والخشب والجص والآجر أو الطين مثلا وبجئت عن كيفية ارتباط كل سبب بمسببه هل هو بطبيعته أم لا وذهبت تتعنت في معرفة أكل العمال وشربهم وكيف يعملون وكيف يكون ضرب المسامير في الخشب أو الجدر وعن أسباب ذلك ونتائجه وأمثال ذلك — فانك غير متكل عليه ، بل متهم له مستهزئ بعمله ظان به ظن السوء ، ولكان فملاك هذا واعتقادك دليلا على ضعف عقلك وأنتك سفيه احمق ، ولكان هذا الوكيل حرياً بأن لا ينفعلك ولا يقضى لك أمراً بل يكلك الى ما وجهت همتك اليه لحقق وجهالتك وسفاهتك ، فاذكره من التمثيل غير مطابق لما يريده ، بل هو حجة عليه بلا ريب

ثم قال : وكذلك لو ارتبت فيما وضعه الله من أسباب وما علم من طرق ، وجوزت أن تتخلف النتيجة وأن لا تكون الأسباب موصله ، لكنت من المرتابين في الله وفي أعماله وفي كتبه وأنبيائه الذين جاءوا دالين على الأسباب وعلى ما لها من قيمة ،

فيقال : فالذى حملك إذن على معاندة أنبياء الله ومعاكستهم فيما جاءوا به وأجمعوا على أنه من أعظم الوسائل والأسباب التي لا أكبر من قيمتها ، فأعظم سبب جاءوا به هو الدعاء وحمد الله والثناء عليه وعبادة الله كما قال تعالى ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ فجعلت هذه العبادة التي جاءوا بها ملهامة ومصرفا خبيثا وانها ليست بوسيلة وليس لها من فائدة فصرحت على رموس الاشهاد بأنه لا فائدة فيها بعد أن قررت أن الدعاء هو العبادة بلا

خلاف وعمدت الى أعظم مظهر من مظاهر الايمان بالله والثناء عليه وتقديسه وهو خطب يوم الجمعة فجعلته من النكبات ، ثم عمدت الى بيوت الله (١) التي اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال ﴿ فجعلتها أدت شرما يؤدى وجعلت الاخلاق الدينية لها نتائج أخرى غير نتائج المجد ، فخاربت كتب الله وأنبياءه الدالين على هذه الأسباب التي لا يقدر قيمتها إلا الله تعالى ، بل الحياة كلها فى الدنيا والآخرة دون قيمتها لجعلتها كلها لا قيمة لها لا قليلة ولا كثيرة ، ولم تكثف بذلك بل جعلت قيمتها الشر والخبث والتعويق وجعلت المتدينين كلهم على اختلاف ديارهم وأجناسهم وأنبيائهم لم يهبوا الحياة شيئا ، فجعلت هؤلاء لا قيمة لأسبابهم ، أما المتحللون من الأديان فصرحت بأنهم هم الذين وهبوا الحياة وصنعوا لها العلوم المبتكرة ، فأى محاربة لكتب الله وأنبيائه أعظم من هذه المحاربة ، فان حقيقة هذا أنهم ما جاءوا إلا بالشر لهذا العالم ، ولم يكفك هذا حتى ذهبت تتبع كل مقالة خبيثة لأخبت زنادقة العالم وملاحدتهم والى الكتب المملوءة بمسبة الله وأديانه وأنبيائه (٢) فسلبت تلك المقالات وسرقت أصول هذه الكتب وركبت من الجميع قواعد هذه الأغلال وادعيت بأن النجاح موقوف على الأخذ بها والدمار موقوف على تركها ، ولم تكثف بذلك أيضا حتى طلبت تحكيمك فى الأمر وإفراذك بالرغبة والرغبة ، وهذا عين الجنون والهراء والهذيان ، هذا مع أن كثيرا من الناس يعرفون فهرس حياتك صفحة صفحة مكانا وزمانا ، فدعنا من التعميه والتلاعب والتشبع بما لم تعطه (فعند التناهى يقصر المتناول)

ثم قال : دأما غير المتوكلين حقا فهم أولئك الذين لا يثقون بسنة من

(١) أى المساجد

(٢) ككتاب الآراء والمعتقدات

سنن الله ولا بناموس من نواميسه ، فيجوزون عليهم الاختلاف زاعمين أنه لا ضبط ولا حساب ، ولا حدود ولا رسوم يجرى بان عليها ولا يخرجان عنها ، فيقال : الجواب عن هذا قد تقدم في أمثاله ، فمن هم هؤلاء الذين هم بهذه الصفة ، أما سنة الله الدينية فقد تقدم الجواب عنها في مواضع كثيرة ، وبيننا أنك خالفت جميع أهل الدين فيها ، وأما سنن الطبيعة المادية فقد بينا جوابه فيما ذكرنا على حديث تأييد النخل فيلزم مما ذكرته تجهيل الرسول وأصحابه ، وعليه فلا يكونون متوكلين على الله ، وقد أكثر من التطويل والتهويل في هذا الأصل الحديث في مسألة النواميس والقوانين والنظام والتمويه في ذلك ، وكل عارف بدينه يعلم مقصوده من ذلك وهو توجيه النظر الى الطبيعة ونواميسها دون الله ومشيتته ورحمته والتوجه اليه ، وقد بينا فيما تقدم أن أعرف الناس بهذه الأمور قد عوقبوا ودمروا تدميرا لم يسبق له نظير ، وأن هذا العلم لم يغن عنهم من الله من شيء لما أعرضوا عن الله واعتمدوا على أنفسهم من دونه ، بل لا بد في كل أمر من الأهور الصناعية والمادية وغيرها من فعل الأسباب والاعتماد على الله والتوكل عليه ، وقد بينا أيضا أننا لا ننكر الترابط بين الأسباب والمسببات والوسائل ونتائجها وأن فعل الأسباب أمر لا بد منه ، ولكن كل هذا لا ينفع نفعا صحيحا مستمرا ما لم يكن مؤسسا على دين الله وطاعته والتوجه والاعتماد عليه ، فهو الذى خلق الأسباب ومسبباتها والوسائل ونتائجها ، وهو الذى ربط بعضها ببعض ، وهو الذى يقلبها أحيانا ويقطع ترابطها أحيانا أخرى ، وقطع ترابطها من سننه التى لا تبدل لها ولا تحويل فانه أخبر بذلك فما أخبر به فهو من سننه التى لا تبدل لها ولا تحويل ، وهذا الاكل والشرب من أعظم الأسباب لحياة البدن ، وقد يكون سببا في موت بعض الناس ، وقد يشرق الانسان بالماء البارد ، وهذا المال قد يكون سببا في نيل الجاه والشرف ، وقد يكون سببا في قتل صاحبه وعذابه ، ويكون سببا في مرضه أو سجنه أيضا . وقد يأخذ الانسان سلاحا للمدافعة فيقتل به . وهذا

العلم من أعظم الاسباب في نيل رضا الرب تعالى والشرف في الدنيا وقد يكون سببا في الشقاء والذل في الحياة الدنيا وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾ الآية وفي حكمة الشعر :

ومن العداوة ما ينالك نفعه ومن الصداقة ما يضر ويؤلم

وهذا برهان على أن الله تعالى هو المنفرد بتصريف الأمور فهو الذي يعطي الخير ويدفع الشر وأن كل سبب محكوم مقهور لا يمكن أن يؤثر إلا بشروط وموانع ، والشروط والموانع لا يقدر على حكمها حكما صارما الا الله تعالى

وقد تقدمت آيات هذا الملحد التي ادعى فيها صريحا أن الجهل سبب للسيادة والسعادة ، وأن الناس والدنيا جميعا تخدم صاحب الجهل ، وأن الانسان يزداد كلما زاد جوره وبكبر شأن كلما زاد كفره ، بل وأن الانسان كلما أنكر الفضائل ازداد في نيل الجاه ، وأن العقل ضرب من الفقر ، كل هذا صرح به في آياته المتقدمة ، فهل في الدنيا أحد دعا الى الفوضى أعظم مما دعا اليها هذا الملحد في هذه الايات ، وهل هذا الاعين قلب سنن الله في خلقه ومحاولة تبديلها وتحويلها ، ولكن هو هذا دأبه ، يرمى الناس بدائنه ويفتخر بما ليس له

فصل

قال « وقال عليه السلام : من استرقى أو اکتوى برىء من التوكل رواه الترمذی . وعن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ : يدخل الجنة من أمي سبعون ألفا بغير حساب ، قيل من هم يا رسول الله ، قال الذين لا يكتون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون رواه مسلم . وهذا لأن هذه الأمور ليست من الاسباب الطبيعية فكان الاعتماد عليها رجوعا الى

غير أسباب واعتمادا على غير شيء ، فكان ذلك منافيا للتوكل ، لأن التوكل كما ذكرنا هو الايمان بالأسباب (١) ،

فيقال : فعلى تقريرك هذا يا بلعسام زمانه يكون هؤلاء السبعون الألف إنما دخلوا الجنة لأنهم آمنوا بالأسباب فأمنوا باحصاب المرأة وبأن البذر الصالح ينبت في الأرض المعتدلة وأن الأسباب تفعل بطبعها لا يمكن أن يغيرها الله فيجعلها إن شاء أسبابا وإن شاء غير أسباب ، فالذين آمنوا هذا الايمان هم الذين يدخلون الجنة بغير حساب كما يدعى ، أما الذين شكوا في الأسباب فظنوا أن تأييد النخل لا يفيد ولم يتوبوا ويستغفروا ف هؤلاء لم يؤمنوا بالأسباب بل هم شاكون في الله غير متوكلين فلا يدخلون الجنة كهؤلاء على مقتضى كلامه ، فجميع الملاحدة والزنادقة الذين يؤمنون بالأسباب متوكلون على الله لأنهم يؤمنون بالأسباب ويعتمدون عليها ، أما الذين لا يؤمنون بالأسباب — كالشاعرة الذين يدعون أنه ليس بينها ترابط ذاتي بل الله هو الذى يفعل عند اقران السبب بالمسبب ف هؤلاء قد تركوا ركن الدين . فجميع الملاحدة والزنادقة وكل من آمن بالأسباب الايمان الذى ذكره من الترابط الطبيعى خير من الأشاعرة من هذا الوجه . فقد فهمت من تطويله وتهويله أن التوكل هو الايمان بالأسباب وسيأتى ادعاؤه أن الايمان بالأسباب هو الاعتماد عليها فاذا آمن الانسان بالأسباب فهو متوكل على الله والله حسبه كما قال تعالى ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ فهو حسب جميع من آمن بالأسباب على قول (الشمس التى في غير برجها ، والدر الذى في لجج البحر)

والعجب أنه أخرج الذين لا يكتسبون ولا يتطيرون ولا يسترقون منهم بناء على أصله الفاسد أن التوكل هو الايمان بالأسباب ، وعلل ذلك بهذا

(١) قد علمت أنه صرح بأن التوكل هو الايمان بالأسباب كما ترى

التعليل الفاسد أيضا فبنى فاسدا على ما هو أفسد منه وهو دعواه أن هذه ليست من الأسباب وأنها غير شيء ، ثم هو لم يبين من أى شيء تكون فهو لم يكتف بنفى السبب عن نفي الشيء ، بل نفاه من الأسباب ونفاهها من أن تكون شيئا أيضا ، ولو أنه كوى في هذا اللسان الذى نفى أن يكون الكى شيئا لعلم أنه شيء عظيم وأنه من أعظم الأسباب الطبيعية التى لا يمكن الماراة فيها ولا المكابرة فيها ، فادعاه على هذا الحديث هراء وهذيان في نهاية السقوط ، فان نفى الكى من أن يكون سببا طبيعيا من أفسد ما يقال . وكذلك نفى الرقى ونحوها والنبي ﷺ لم يقل وعلى الأسباب الطبيعية يتوكلون بل قال : « وعلى ربهم يتوكلون ، فحصر التوكل على الله وحده وهم انما يتركون الكى والرقي ونحوها من أجل الاعتماد على الله لما في ذلك من حصر التوجه اليه ولا سيما ترك الطيرة فان الطيرة شرك كما دلت على ذلك الرواية الأخرى لأنها تؤثر في عقيدة ضعيف الايمان ، ولو أن الحال كما ذكر لكان الذين لا يتداوون غير متوكلين أيضا ، ومعلوم أن الحديث لا يفيد هذا لأنه ذكر أن الذى منعهم من فعل الكى ونحوه هو التوكل على الله ، ولما كان أيضا يجب أن يقال وبغير هذه الأمور يتداوون أو ما هذا معناه ، لأن ذلك على زعمه من التوكل الذى هو ركن الايمان فكان لا بد من التنبيه عليه ، ولكن الحديث نفي استعمال هذه وأخير بسبب يوجب نفيها هى وغيرها وهو حصر الاعتماد على الله حيث أخبر بأنهم على ربهم يتوكلون وذلك لقوة ما قام بقلوبهم من الايمان وصدق التوجه ، وكلام علماء المسلمين على هذا الحديث شهير وكلهم فهموا منه نحو ما ذكرنا ولم يدع أحدهم منهم كما ادعاه ، كل كلامهم كله صريح في رد ما ادعاه وان كان هو لا يعيا بقول أحد منهم كائنا ما كن لأنه المقدم فى الأمر وقبوله لقولهم أو قول أحد منهم يتنافى ذلك

فصل

ثم أنه جاء بداهية دهياء فقال :

« لست أريد أن أقول إن التوكل هو الأخذ بالأسباب مع الاعتقاد بأن الله قد يدخل فيها ^(١) فيجعلها إن شاء أسباباً ويجعلها إن شاء غير أسباب أو مع الاعتقاد بأنه تعالى قد يفعل من غير الأسباب ، فإن هذا هو السفه والفوضى التي لا ضابط لها ، انتهى

هكذا صرح هذا الملحد بدون مبالاة بأن السفه والفوضى التي لا ضابط لها هي أن يأخذ الانسان بالأسباب معتقداً أنها تحت تصرف الله ومشيئته إن شاء جعلها أسباباً مبلغة إلى غاياتها ، وإن شاء جعلها غير أسباب . فقد عرفت أيها القارئ العزيز أن هذا الملحد لا يقتنع بالأخذ بالأسباب واستعمالها مع الاعتقاد على الله والاعتقاد بأنه له التصرف فيها بكل ما شاء ، بل لا بد عنده من الأخذ بها والكفر بمشيئة الله وتصرفه فيها والاعتقاد بأنها آليّة طبيعية سائرة إلى نهاياتها ليس لله أن يتصرف فيها بل قوتها فوق كل قوة ، فهذا عنده هو التوكل الذي أطال في تقريره وتحريفه ، فما خالف هذا الذي قاله - كأن يعتقد الانسان أن لله قدرة على الأسباب وتصرفاً فيها إذا أخذ بها - فهذا هو السفه والفوضى التي لا ضابط لها ، وكذلك أيضاً لو اعتقد انسان أنه تعالى يفعل بغير أسباب فإن ذلك سفه وفوضى لا ضابط لها أيضاً ، فلا هو تعالى وتقدس وجلت عظمته يفعل من غير أسباب ولا هو يتصرف في الأسباب ، فعطّله عن ملكه تعطيلاً كاملاً وجعله بمنزلة الصنم بل الصنم خير من إله لا يتصرف في ملكه فلا ينفع من أطاعه ولا يضر من عصاه ، وهذا الملحد لا يعترف في نفس الأمر

(١) قوله « يدخل » ، يعني يتصرف أبدال لفظ يتصرف بـ يدخل تشويهاً لسمعة

تدبير الله لحاقه

بالربوبية ، وانما يلجأ أكثر الأحيان الى هذه المخادعات ترويحاً لبدعائه ، وإنه
تتكم معه مجازاة لظاهر كلامه لبيان بطلانه ، وغاية ما يدعيه في هذه المخادعات
أحيانا كونه تعالى خالق العالم فقط ، ومعلوم أن إبليس معترف بهذا ، وكذلك
سائر الكفار حتى فرعون فانه في الباطن معترف بذلك كما قال تعالى عن موسى
عليه السلام ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر
وانى لأظنك يا فرعون مشهورا ﴾ وهذا الملحد جحد تصرف الله في ملكه الذى
أقر به كثير من الكفار فضلا عن المسلمين ، بل لم نعلم أحدا من الكافرين
جحد تصرف الله في ملكه سوى ما يذكر عن الملاحة المحض ، فالمسلمون اليوم
وقبل اليوم وكذلك أهل الأديان السماوية وكل من يقر بالصانع ويعترف
بتصرف الرب تعالى في ملكه بما شاء كل هؤلاء كفار أعداء الله لأنهم نسبوه
الى السفه والفوضى التى لا ضابط لها — على رأيه — فاعتقدوا أنه يتصرف في
الأسباب فيجعلها إن شاء أسبابا وإن شاء غير أسباب ، وكفر هذا أعظم من
كفر مشركى العرب وغيرهم من أعداء الرسل ، فإن أولئك كانوا مقرين بأنه
تعالى هو الخالق الرازق المدبر للأمر وإن عبدوا بعض المخلوقات معتقدين أن
فيها قدرة ذاتية على الوساطة في تحصيل الشفاعة ونحوها ، وكثير منهم تعلق على
الأسباب المادية وتوجه اليها واعتمد عليها وهذا كفر صريح ، فكل من اعتمد
اعتمادا كلياً على غير الله فقد عبده ، فإن الله أرسل رسله وأنزل كتبه ليتوجه
اليه ويدعى ويستغاث به وتصرف اليه الرغبات والرهبات ، وهذه حقيقة
العبودية التى خلق الله الخلق لأجلها

وهذا الملحد جحد اعظم مظاهر الربوبية وكفر به وهو تصرف الله في
ملكه بمشيئته العامة ، ولم يكفه ذلك حتى وسعها بالفوضى والسفه قبحه الله ،
وهذا أعظم في الشناعة من كفر من قالوا يد الله مغولة غلت أيديهم ، فإن
هذا جعلها مغولة عن التصرف في ملكه فلا ﴿ يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك
عن من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير ﴾

ولا ﴿يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ ، ولا ﴿كل يوم هو في شأن﴾ الى غير ذلك كما هو صريح كلامه ، وقد بين في هذه الجملة السفه والفوضى التي لا ضابط لها وهو تصرف الله في ملكه ، وبهذا يتبين لك معنى السفه والفوضى التي ظالما كررها ورددها وحذر عنها بان ذلك هو تدبير الله لملكه بآل تقتضيه مشيئته العليا وإرادته الكاملة ، تعالى وتقدس عما يقول الظالمون والملمحدون علوا كبيرا . قال شيخ الاسلام ابن تيمية في المشاهج صحيفة ٩٢ ج ٢ . هو (أى الله) مسبب الأسباب وخالق كل شيء بسبب منه ، لكن الأسباب كما قال فيها أبو حامد وأبو الفرج بن الجوزى وغيرهما : الالتفات الى الأسباب شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا تغيير في وجه العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع ، والتوكل معنى يلتزم من التوحيد والعقل والشرع ، فالموحد المتوكل لا يلتفت الى الأسباب بمعنى أنه لا يطمئن اليها ولا يثق بها ولا يرجوها ولا يخافها ، فانه ليس في الوجود سبب يستقل بحكم ، بل كل سبب فهو مفتقر الى أمور أخرى تضم اليه ، وله موانع وعوائق تمنع موجهه ، وما ثم سبب مستقل بالأحداث إلا مشيئة الله وحده فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وما شاء خلقه بالأسباب التي يحدثها ويصرف عنه الموانع ، فلا يجوز التوكل الا عليه كما قال تعالى ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾ ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿ الى ان قال - والعلل التي تنفي نوعان أحدهما أن تعتمد على الأسباب وتوكل عليها وهذا شرك محرم الخ ، وسيأتى بقية كلامه

ثم قال : «ولو أنك رجوت من وكيلك أن يدبر وكالته على هذا النحو لكنت راجيا المحال والظلم» .

فيقال : بل لو رجوت من وكيلي أن يتصرف في الأسباب التي في قبضته وفق مصلحتي حيث وعدني بذلك ويعينني في عملي ويقضى طلبي رحمة منه وكرما

ولاحسانا لرجوت منه الرحمة والاحسان وكنت محسنا الظن به وهو أهل لذلك ،
بل لو اعتمدت على الأسباب التي في قبضته من دونه واعتقدت بأنه عاجز عن
التصرف فيها أو أنه لا يمكن أن يغيرها بل يجعلها لي كما جعلها لعدوه وعدوى
لكنت قادحا فيه ومشبها له بالأصنام التي لا تفرق بين الآخذين بالأسباب في
أديانهم ومذاهبهم فلا تملك لهم نفعا ولا ضرا . انني لو اعتقدت هذا في وكيل
بأنه مكفوف اليد عما في ملكه لكنت معتقدا السفه والفوضى التي لا ضابط لها ،
هذا مع أن تعليله هذا وقياسه فيه ما فيه ، لأنه تشبيه للخالق بالمخلوق والوكالة
بالتوكل ، ومع هذا فهو حجة عليه . ثم ان الله زاده رجسا الى رجسه وعيى
الى عماه ففسر قدرة الله بالعجز عن تغيير الأسباب ، وفسر العدل بمساواة
المسيء بالمحسن والذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمفسدين في الأرض ، وفسر
الحكمة بما فسر به العدل أيضا ، وفسر الايمان بالاخبار بالايمان بالاسباب ،
وقد تقدم الكلام على ذلك في المبحث الأول مبسوطا فراجع ان شئت لان
أكثر كلامه مكرر ، فاننا نقلنا هناك عبارته بحروفها وأجبناه عليها وهي قوله
« ولكن التوكل هو الايمان بقدرة الله وبعده وحكمته وبأخباره الخ » فقد
بيننا هنالك أنه فسر هذه الأمور بضد تفسيرها الحقيقي لأنه حاول تطبيقها على
مبدأ الإلحاد بكون الأسباب هي المتصرفه بذاتها ، وأنه لا فرق بين الناس في
ذلك فلا تأثير للطاعات ولا دخل لرضا الله ولا لغضبه في ذلك أبدا ، وقد بينا
لك أن هذا هو اعتقاد جميع أعداء الرسل وأنهم ما قاتلوا أنبياء الله وحاربوه
إلا لانهم اعتقدوا أن ما معهم من الاخلاق الدينية لا تأثير لها في تقدم ولا
تأخر ، وحقيقة أغلاله التي فرح بها إنما هي جهالات المشركين الاولين كانت
مختفية تحت أنوار العلم والدين وأفرغ هذا الملحد غاية جهده في نبشها وتوجيه
الناس اليها ، وهذا هو غاية التقهقر والرجوع الى الوثنية المحض

فصل

ثم قال : ولا شك أن الاعتقاد بأن الله يدخل (١) في الأسباب ويدخل بينها وبين الآخذين بها : فيجعلها حينا أسبابا لانه راض عن الآخذ بها ، ويجعلها أحيانا أخرى غير أسباب لانه غاضب على الآخذ بها ، ويجعلها في يد فلان أسبابا وفي يد فلان ليست أسبابا ، ويعطي أحيانا بها ويعطي أحيانا بدونها ، وقد يمنع أحيانا أخرى بها ، ويفقدها إنسان ويبلغ كل أماله ، ويأخذ بها إنسان آخر ثم لا يبلغ شيئا من أماله (٢) وهكذا يتصرف نقضا وبناء في نواميسه وخلاتقه - على حسب رضاه وسخطه وكرهيته ، وعلى حسب اختلاف الاديان والمذاهب ، وعلى حسب تغيير مشيئته - نعم إن الاعتقاد بأن الله هكذا يصنع يتنافى التوكل على كل احتمال ، انتهى

فيقال : اذا كان هذا كله يتنافى التوكل فما معنى تدبير الله للملك وتحكمه فيه وكونه يعز من يشاء ويذل من يشاء ويوقى الملك من يشاء وينزع الملك من يشاء ويبيده الخير ، وما معنى ربوبيته وكون عباده لا يشاءون شيئا إلا من بعد مشيئته ، وما هو الذى تريد أن يفعله الله بخلقه اذا كان غضبه لا أثر له في الاسباب ورضاه لا أثر له أيضا ، فأى فرق بينه وبين الوثن الذى لا يملك لمن عبده ضرا ولا نفعا ، وما هى أفعاله تعالى وتقدس التى تطابق التوكل ، فانك لم تجعل له فعلا البتة سوى ما تدعيه أحيانا مخادعة أنه خلق العالم فقط ، ومعلوم أن إبليس وأعداء الرسل لم ينكروا ذلك ، ولكن هذا كله تقرير لما تدعيه من أنهم مستروكون لنواميس الطبيعة وقوانينها تتحكم فيهم ، فهى التى تعز وتذل وتدبر أمر هذا العالم على ما سبق من كلامك ، وهذا إنما يتأتى على أصل

(١) تقدم معنى هذا ، وأنه أبدا لفظ يتصرف بيدخل نفاقا

(٢) هذه الجملة الأخيرة أدخلها مغالطة ، وإلا فهو يعلم أن المسلمين لا يقولون بها

الاحقاد المحض . وهذا الزنديق الملحد قد بلغت به الجرامة والوقاحة الزائدة الى أن قام ينازع الله في تدبيره للملكة ويقول إنه سفيه وفوضى ، وان ذلك يناقض التوكل ، مع أن النصوص الدينية كلها قد قررت ما نفاه كما تقدمت شواهد ذلك غير مرة كما قال تعالى ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ فين تعالى أنه لا يجعل هؤلاء كهؤلاء لافي الحيا ولا في الممات أيضا ، وهذا صريح في أن ثواب الأعمال الصالحة ليس مقصورا على جزاء الآخرة ، بل حتى في الدنيا ، وكذلك قوله تعالى ﴿ أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون ﴾ وهذا الزائع جعلهم سواء حيث قال في تفسير الايمان بعدل الله ، والايمان بعدله يوجب الايمان بالتسوية بين الآخذين بالأسباب بدون نظر الى الأسباب التي لا تتصل بذلك ، وبدون نظر الى أديانهم ومذاهبهم ، فمن أخذ بالسبب بلغ مسيبه وإلا فلا ، تلك هي العدالة الشاملة ، انتهى . فهذه العدالة الشاملة هي التسوية بين الآخذين بالأسباب يعنى المادية لما علمت فيما سبق أن الدعاء عنده ليس بوسيلة وليس له من فائدة ، وأن الأخلاق الدينية لها نتائج أخرى غير نتائج المجد . فالعدالة هي التسوية بين المسلمين والمجرمين والمنافقين والمتقين والمؤمنين والفاسقين ، فمن أخذ من هؤلاء بالسبب بلغ مسيبه وإلا فلا دخل لإعاقته وتسديده وتوقيفه ، ولا ينصر من نصر دينه كما لا يخذل من خذله وخذل دينه ، إنما هي طبيعة من أخذ بها حصل على النتيجة وإلا فلا . والمصيبة أنه جعل هذا هو عدل الله فلم يقتصر على كونه رأيا محضا بل جعله ديناً يدان الله به ، فالطاعة لا دخل لها في الأسباب ، وكذلك المعصية ، وهذا هو محور كلامه ، وهو دعاية صريحة ضد الشعوب الإسلامية التي تدين بالحق وتنيط لهمهمم وعزائمهم ، لأنه إذا صار العز والذل والتقدم والتأخر عند الأسباب المادية فلا شك أن هؤلاء المستعمرين أكثر سلاحا وأقوى فلا فائدة في الثورة عليهم والقيام ضدهم ،

لأن الله مع الأقوى كما يدعى فيما سبق ، أى فلا ينفع هؤلاء إيمانهم ولا هم ينصرون

والحاصل أن هذا الملحد لم يقتصر على أن يطلب لنفسه أن يكون هو المقدم فى الأمر بين الناس بل تجاوز الى أن أراد أن يكون هو المقدم حتى فى تدبير العالم ، فهو يريد أن يتصرف الله على وفق هواه ومشيتته كما ترى كلامه فتأمل فلعنه الله حيا وميتا ما أجرأه وأجره . ومعلوم أن الرب الذى لا يدبر ملكه ويتصرف فيه بمشيئته وقدرته فينصر من أطاعه ويذل من عصاه على وفق ما تقتضيه مشيئته ورحمته غير مكترث بالأسباب ومسبباتها لهو رب عاجز ناقص كالخلاق ، فأى عاقل يرضى لنفسه أن يكون إلهه ومليكه بهذه الصفة ، فالرب الذى له الكمال المطابق هو القادر القهار المتصرف المدير لأمر خلقه بالإعطاء والمنسع والوصل والقطع والعز والذل ، الذى يثب من أخلص له عمله ونصح وصدق معه فى معاملاته ، وينتقم من عصاه وتمرد عليه ، المطلع على السرائر وما تكنه الضمائر ، القائم على كل نفس بما كسبت ، الذى له العلم الشامل والحكمة البالغة التى لا يطلع عليها أحد إلا بما شاء لمن شاء ، ومن ساوى بين عدوه الظالم الخبيث المفسد المتمرد المبالغ فى محاربه وعداوته الصادق عن سبيله القاطع الطريق الذى يحاول قلب نظامه وبين وليه المخلص الصادق فى معاملته الداعى الى سبيله المبالغ فى تنزيهه وتقديسه والدعوة الى سبيله فلا شك أن المخلوق الذى يفعل هذا ليس بعاذل ولا حكيم ، فكيف الرب العظيم الذى أنكر غاية الإنكار على من جعله يساوى بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمفسدين فى الأرض وبين المتقين والفجار ، والله جل وعلا قائم بالقسط بين عباده يوفى كل نفس بما كسبت ويعطى كل مخلوق ما يستحقه ويناسبه جزاء وفاقا بلا سفه ولا فوضى لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها كما منه وإحسانا ، وهو الرءوف الرحيم بعباده ، الحكيم العليم فى أفعاله وصنعه ، لا يعزب عنه مثقال ذرة من ملكه . وهذا الملحد سلك أخبث مسلك

على وجه الارض فيما لا يعد ولا يحصى من كلامه ، ولهذا ذهب في آياته السابقة الى أشنع ضروب الفوضى ، فادعى أن الجهل هو سبب العز والتقدم ، وأنه بمقدار ما يكون الانسان من الجهالة والغباء تكون حالته في الرياسة والجاه والعز والثراء ، وبمقدار ما يكون من العلم تكون حاله من البؤس والشقاء والذلة ، بل العقل عنده ضرب من الفقر ، فتأمل آياته السابقة في المبحث الخامس تجد أنه على غاية من سوء الظن بالله تعالى وأنه فوضى خبيث الى حد بعيد ، فقيح الله من صد عن سبيله وصدف عنها وابتغاها عوجا وجعله عبرة لعباده المؤمنين

ثم قال « وان حكومة تعامل شعبها هذه المعاملة فلا تسوى بينهم على مقتضى الأسباب والأعمال ، بل تفرق بينهم وتفرق بين نتائج أسبابهم وأعمالهم ، لأنها تفرق بينهم في الحب والبغض ، لأن منهم الموافقين ومنهم المخالفين على حسب الأحزاب والمبادئ والأشياء الأخرى - إن حكومة تفعل ذلك معدودة من شر الحكومات ، وهي حكومة لا يصح الاتكال عليها ولا الاعتماد على حكمها ولا الايمان بحكمتها . فكيف يسوغ للعاقل أن يصف الله بهذه الصفة ، انتهى

فيقال : هذه الجملة لا تصلح تفرعاً على الجملة التي قبلها لما فيها من التناقض في نفسها ومع ما قبلها ، وقد جاء بها مشبهاً بتدبير الله لخلقه جرأة على الله تعالى وتسيلاً لرفض دينه ، ثم غلط في آخرها بقوله فكيف يسوغ للعاقل إلخ ، مع أنه هو الذي وصف الله تعالى بها ثم قال فكيف يسوغ للعاقل . فانظر الى هذه المغالطة والتلاعب المنكر ، فمن هو الذي ادعاها قبله حتى يقول هذا القول . وكل عارف يعلم أنه انما اتى بها تعريضاً بأنه تعالى يحكم العالم كهذا الحكم على حد سواء ، والله سبحانه لا تخفى عليه خافية . ولو كان يعتقد الربوبية حقاً لم يتجاسر على مثل هذا القدح الفظيع فيه تعالى ، هذا مع كونه قاسم مخادعة على خلقه فأوجب عليه ما لم يوجبه على نفسه ، وهو تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، وهو سبحانه إنما أوجب على نفسه نصره للمؤمنين كما قال تعالى

﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجمعوا وكان خفا علينا نصر المؤمنين ﴾

على أن للقاتل أن يعكس هذه الدعوى عليه بالمعارضة فيقول : وإن حكومة تعامل شعبها بالنسوية بين المصلح والمفسد والثقة والخائن والمجاهد في سبيلها والمخارب لها والمتبع لأمرها والمتعرد عليها والمخلص الصادق في اتباع نظامها وأوامرها وبين المخالف لها الشاتم لها المفسد لنظامها الباذل جهده في جحد حقوقها وبين الحامد لها المثني عليها الداعي اليها وبين المنقصر عنها الكايد لها - هي حكومة تعد من شر الحكومات ، ولا يمكن أن تستقر هذه الحكومة أو يرضى عنها أحد ، بل هي حكومة فوضوية طاغية سفية ، وهذا الملحد قد وصفه تعالى بهذه الحكومة ، فهو يريد أن لا تفرق هذه الحكومة بين الأسباب والمسببات من أجل التفريق بين الحب والبغض ، فكيف لا تفرق بين من أحبته ومن أبغضته وبين من وافقها وبين من خالفها ، وهل هذا الا من أفسد ما يقال . ذلك مع أنه أثني على هذه الحكومات الطاغية الكافرة وهو يراها تفرق بين رعاياها في الحب والبغض والموافقة والمخالفة ، بل يراهم يحاكون من يحل أو يخالف ما تقتضيه أنظمتهم بل ويشفقون ويسجنون ويطردون كل من آتسوا منه فعل ما يخالف نظمهم ومبادئهم الأساسية ويغدقون ويرفعون كل من سعى في صلاحهم وإصلاح قوانينهم ، فهذا كله فعله مع هؤلاء ورآه أحسن شيء ، وأما الرب الكريم فانه جعل إثابته للمطيع ومحبه له دون العاصي فوضي وسفها ، قبحه الله ما أكثر خباثته

فصل

قال . ومن الإرشادات النبوية اللطيفة الدالة على ما ذكرنا من معنى التوكل ما جاء أنه عليه السلام قضى بقضاء بين رجلين فقال المقضى عليه لما أدبر « حسي الله ونعم الوكيل » فقال عليه السلام « ان الله يلوم على العجز ، ولكن

عليك الكيس ، فاذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل . وعن ابن أمية قال قال رسول الله « ان الله يلوم على العجز ، فابذل من نفسك الجهد فان غلبت فقل توكلت على الله » وعن انس بن مالك قال : جاء رجل الى النبي وترك ناقته على باب المسجد ، فسأله الرسول عنها فقال : اطلقتها وتوكلت على الله ، فقال عليه السلام « اعقلها وتوكل » انتهى

قلت : هكذا ساق هذه الروايات محتجا بها ، وهو لم يعزها ، مع أنه لا يقبل ما في الصحيحين إذا لم يوافق هواه ، ومع أنه قد اتخذ التحريف ذريعة في دفع النصوص القائمة في وجهه فشرع في تحريف هذه الروايات ولواها الى ما يوافق هواه ، وهو بهذه العملية في إمكانه أن يجعل نصوص القرآن والسنة شاهدة لكل ما يقوله ، لأنه يتناول ما شاء من آية أو حديث أو قول عالم فيحرفه على هواه ويوجب على الناس اتباع قوله ويسفه رأى كل من خالفه كائنا ما كان بل ولو خالف اللغة ، وبهذا تكون دلائل النصوص شواهد على كل ما يريد ويشتهى ، فقال في تحريف هذه الروايات التي ذكرها :

« فقول الرجل : حسبي الله ونعم الوكيل بعد هزيمته في القضاء يوم أنه يفهم من كون الله وكيفا أنه يتصرف ويقضى على مقتضى أهواء الناس ومصالحهم وما يريدون لأنفسهم ، لا على مقتضى الأسباب والغواميس التي وضعها وقضى بها على خلقه قضاء لاراد له ،

فيقال له : من أين لك أن الرجل فهم هذا ، بل أو أن أحدا من المسلمين خاصتهم أو عامتهم ممن له عقل يفهم أن الله يتصرف على مقتضى أهواء الناس وما يريدون لأنفسهم ، وليس في الحديث أيضا ما يدل على ما فهمته أنت من أنه تعالى يشير إلى هذا ، وحاشا أن يكون الله سبحانه محكوما بالنواميس والقوانين لا يتحكم هو فيها ويجريها على مقتضى مشيئته وحكمته ، فانه لو كان يتصرف على مقتضى الأسباب لكانت هي الحاكمة عليه لا سببا وهو قد ادعى

ففيما سبق أن الانسان هو الذى يستخدم هذه النواميس والقوانين ويصرفها على مقتضى ما به من القدرة والملكة وهى التى تحكم العالم ، فجعل الانسان هو الذى يتصرف فيها ، وهنا قيد الله تعالى بالتصرف إلا على مقتضاها ، والله أعظم وأجل من ذلك ، بل هى محكومة خاضعة لمشيئته وقدرته وحكمته ، فهو يتصرف فيها بما شاء ، وهى محكومة طوع المشيئة فى القطع والوصل والاعطاء والمنع وحكمته وعدله وقدرته كلها من صفاته المقدسة الداخلة فى مسمى اسمه بخلاف الأسباب المخلوقة فانها ضعيفة أصلها العدم ، وكل ما فيها من قوة إنما هو فيض من آثار رحمته التى وسعت كل شيء ، فالأسباب محكومة طائعة للمشيئة والارادة ، فن استعمل الوسائل الدينية فقد استعمل الأسباب القوية التى وعد الله بالنصر من استعملها ، وهو الكريم الذى لا يخلف الميعاد ، ومن رفضها واعتمد على الأسباب المادية دونها وعاند الله وعاكس واحتقر دينه لم ينل إلا عكس مقصوده ولا بد ، ولا سيما إذا كان منافقا يدعى الدين وهو فى نفس الأمر يحتقر دين الله ويرى أن الذين كفروا أهدي من الذين آمنوا سيلا

ثم قال : « فأرشدته مرشد الانسانية إلى خطئه وأفهمه أن معنى كونه تعالى وكيفا أنه وضع الأسباب والمسببات وربط بينها فلا انفكاك ، فالتوكل عليه يجب أن يكون معناه الالتفات إلى ذلك ^(١) والأخذ به والاعتماد عليه ، وليس هو التوهم أنه يفعل الخوارق والمعجزات ، محطما الحواجز ، غارقا النواميس متجاوزا الحدود التى حدها هو ،

فيقال : فعلى هذا فقد جعل بينه وبين الأسباب والمسببات حواجز وحدودا لا يمكن أن يخرقها أو يحطمها أو يتعدها . قبحك الله ما أخبرت

(١) أى الى الربط وعدم الانفكاك ، هكذا فسر.

كلامك ، فهل الأسباب إلا مخلوقات عاجزة ضعيفة تجري طوع المشيئة والارادة يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وهو الواحد القهار . ثم هل في الحديث ما يشير إلى هذا الهذيان والثرثرة الفارغة التي نزه الله عنها نبيه الكريم ، وهل هذا إلا جراءة ظاهرة على مقام النبوة وتقويل له بما لم يقله ولا يدل عليه كلامه البتة . ولا عجب فلا للملحد الذي يريد إفساد دين الاسلام قول غير هذا وما في معناه ، ومن أين له أنه أفهمه أن معنى كونه وكيلا أنه وضع الأسباب والمسببات وربط بينهما فلا انفكاك ، وأن التوكل عليه يجب أن يكون معناه الالتفات إلى ذلك أى الربط ، وأنه الأخذ به والاعتماد عليه ، فعلى هذا يكون الرسول هو وأصحابه في قصة تأييد النخل قد خالفوا التوكل وضلوا فيه ضلالا بعيدا بحيث لم يلتفتوا إلى هذا الربط ولم يأخذوا به ولم يعتمدوا عليه ، ومع هذا فلم ينقل عنهم أنهم استغفروا من ذلك وتابوا منه ، فكيف يفهم الرسول عليه السلام هذا الانسان بأن التوكل هو الربط بين الأسباب الذي لا انفكاك منه ، وأنه الاعتماد على ذلك والأخذ به ، مع أنه رآه وأخبر أصحابه بذلك فهو إذن قد ترك ركن الدين الذي هو التوكل ، أو كان جاهلا فيه هذا الركن لا يعرفه على زعم هذا ، بل الناس في هذا الأمر على ثلاثة أقوال منهم من يقول ان بينهما ربطا وثيقا ولكن الله تعالى اذا شاء قطع ما بينهما كما وقع ذلك ، ومنهم من يقول بل الفعل لله تعالى وإنما السبب علامة للمسبب فقط ، وليس بينهما ربط بقوة مؤثرة كما يقوله الأشاعرة وغيرهم ، ومنهم من يقول بل بينهما ربط لا ينفك أبدا بل ربط طبيعي أزلي ، وهذا قول الدهرية والملاحدة المحض ، ولكن هؤلاء لا يدعون الاسلام بل يصرحون بالكفر المحض ، وهذا الملحد أراد أن يجمع بين مذهبهم وبين الاسلام فيدعى في الظاهر الاسلام ، ويقرر مقتضى ما يعتقد في الباطن فيجعل الأسباب تفعل بطبعها ليس لقوة من القوى أن تقف في سبيلها أو تتحكم في نهاياتها ، وقد

تقدم كلام شيخ الاسلام ابن تيمية ^(١) في أن «الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا تغيير في وجه العقل، والأعراض عن الأسباب بالسكينة قدح في الشرع، والتوكل يلتزم من التوحيد والعقل والشرع، فالموحد المتوكل لا يلتفت إلى الأسباب بمعنى أنه لا يطمئن إليها ولا يثق بها ولا يرجوها ولا يخافها، فانه ليس في الوجود سبب مستقل بحكم، بل كل سبب فهو مفتقر إلى أمور أخرى تضم إليه، وله موانع وعوائق تمنع موجهه، وما ثم سبب مستقل بالأحداث الا مشيئة الله وحده، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وما شاء خلقه بالأسباب التي يحدثها ويصرف عنه الموانع، فلا يجوز التوكل إلا عليه كما قال تعالى ﴿إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ، وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وما سبق من علمه وحكمه فهو حق، وقد علم وحكم بأن الشيء الفلاني يحدثه هو سبحانه بالسبب الفلاني، فمن نظر إلى علمه وحكمه فليشهد الحدوث بما أحدثه، وإذا نظر إلى الحدوث بلا سبب منه لم يكن شهوده مطابقا لعلمه وحكمه، فمن شهد أن الله تعالى خلق الولد لا من أبوين لسبق علمه وحكمه فهذا شهوده عني بل يشهد أن الله تبارك وتعالى سبق علمه وحكمه بأن يخاق الولد من الأبوين والأبوان سبب في وجوده، فكيف يجوز أن يقال أنه سبق علمه وحكمه بمحدثه بلا سبب، وإذا كان علمه وحكمه قد أثبت السبب فكيف أشهد الأمور بخلاف ما هي عليه في علمه وحكمه، والعلل التي تنفي نوعان: أحدهما أن تعتمد على الأسباب وتتوكل عليها، وهذا شرك محرم، والثاني أن تترك ما أمرت به من الأسباب وهذا أيضا محرم، بل عليك أن تعبد به بفعل ما أمرك به من الأسباب، وعليك أن تتوكل عليه في أن يعطيك على ما أمرك به وأن يفعل هو ما لا تقدر أنت عليه بدون سبب منك، انتهى كلام شيخ

الاسلام . وانظر الى تصريحه بأن الاعتماد على الاسباب شرك محرم ، وهذا الملمح جعل ذلك هو التوكل وادعى أنه ركن الدين وكلام العلماء وأئمة المسلمين كلهم على هذا ، ومن أراد ذلك فليراجع كتب اللغة والتفسير وغير ذلك من كتب الأئمة الاسلامية ، وأى عاقل فانه يعلم أنه لا علاقة بين ما قرر من التعليق على هذا الحديث وبين نص الحديث ، وأن الرسول ﷺ لم يفهم الرجل هذا الربط ولا الالتفات والأخذ والاعتماد على الأسباب ، بل قال له : « ان الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس ، فاذا غلبك أمر فقل : حسبي الله ونعم الوكيل » فاين هذا القول الكريم من هذا التعليق الخبيث بل هو عكس له ومضادة لمعناه ، فانه عليه السلام أمره بالكيس ، ونهاه عن العجز ، ومعلوم أن أبعد الناس عن الاتكال هم أكثر الناس عجزا ، فهؤلاء الذين ذهبت أعمارهم فرطا في مواضع اللهو وعشق الصور وغيرها ، أترام فعلوا ذلك اتكالا أم فعلوه عجزا واتباعا لأهوائهم وشهواتهم واعتقادا بأن الاسباب المادية هي مناط الامور فلا حساب ولا عقاب ، ثم انه أمره عليه السلام بأنه إذا غلب فليقل : « حسبي الله ونعم الوكيل » فقيه حجة لنا على قولنا بوجوب الأخذ بالاسباب المادية والاعتماد على الله في إنجاحها ، فانه المتصرف فيه بمشيئته وقوته وقدرته القاهرة فيجب طلب الاعانة والتوفيق والسداد ، إذ لو لم يكن له تصرف فيها وقدرة القاهرة عليها لم تطلب منه الاعانة والتسديد والهداية والتوكل عليه فيها ، لانها لا بد أن تجرى بطبعها حتما فلا يحصل بمجرد الالتفات اليه والتوجه اليه الا التعويق والمهلالة فلهذا بنى على هذا الاصل جميع جنته وزندقته ، لانه لما اعتقد الاتحاد واحتاج الى الانتساب الى الدين لامر معروف لم يسعه غير الدخول في الزندقة والنفاق الا كبر فكان كذلك بل بلغ في ذلك الى أقصى حده

وكل مؤمن يعلم أن الأخذ بالوسائل والاستعانة به تعالى يوجب الإيمان

به وحيه وتعظيمه وإجلاله لانه هو المتصرف فيها المهيمن عليها ، وهذا يوجب أيضا القوة والشجاعة والمواصلة في السير والعمل ، فلو كان انفكاكها مستحيلا عليه تعالى لكان ذلك خارجا عن قدرته وهو عاجز عنها ، فلا معنى إذن لقوله « حسبنا الله ونعم الوكيل » ، وانما يكون الكافي الحسيب اذا كان قادرا عليها قاهرا لها وهي خاضعة لمشيئته وقدرته فيكون حينئذ معنى « حسبي الله » أى كافيني « ونعم الوكيل » أى المعتمد لانه القهار العزيز الغالب على كل شيء ففيه الكفاية في إعانتى أو تعريضى عما يفوتنى على ما اقتضاه عليه وحكمته ورحمته ودعواه أنه أرشده الى خطئه كذب ظاهر ، فلم يرشده الى خطأ أصلا ، ولا أنكر عليه ذلك ، فلم يقل له أخطأت ولم ينهه عما فعل ولم يقل : لم قلت « حسبي الله ونعم الوكيل » ، وكونه طلبه ورده لا يدل على انكاره بل يدل على أنه استحسن ذلك منه فأراد أن يزيده فائدة أخرى فأوضح له الفائدة في النص نفسه في تقريره لما قال في نفس الحديث كما هو ظاهر وقوله « فالتوكل عليه يجب أن يكون معناه الالتفات الى ذلك والاخذ به والاعتماد عليه ،

يقال : هذا كذب ظاهر بل كفر صريح ، وكيف يكون الشرك هو التوكل ، فهذه جرأة عظيمة على الله ورسوله ، فليس في الحديث ما يدل على هذا بل فيه ما يدل دلالة صريحة على نقيضه كما تقدم ، وكيف يكون التوكل هو الالتفات الى الاسباب وربطها بمسبباتها ربطا لا ينفك وقد علم أن الملاحدة والمشركين الجاحدين للمعجزات إنما جحدوها إيمانا بهذا الربط ، فالمعجزات تنقض الربط المستحيل الانفكاك ، ولهذا كان المشركون والملاحدة ينكرونها ، ومحال أن الرسول ﷺ بعث لتقرير كفر المشركين وجحد المعجزات والتوكل على الاسباب ، فانه بعث لتقرير التوحيد الذى أساسه التوجه الى الله قولا وفعلا ، والاعتصام به والالتجاء اليه فى كل حال فى استعمال الاسباب وغيرها

وقوله « وليس هو التوهم أنه بفعل الخوارق والمعجزات محطاً الحواجز خارقاً النواميس متجاوزاً الحدود التي حدّها هو ،

فيقال : وهذا كله فجور ظاهر لا علاقة للحديث به أصلاً ، وليس فيه ما يدل على أن الصحابي كان يتوهم هذا ، ثم هذا يبين أن الملهد لا يرى أن الله يفعل الخوارق والمعجزات ، وهذا إنكار صريح للمعجزات التي اختص بها من شاء من عباده من الانبياء والمرسلين ، وكذلك الكرامات التي خص بها أتباعهم . وقوله « محطاً الحواجز » تصريح بأن هناك حواجز حجز بها نفسه من الأسباب لا يمكنه أن يتجاوزها . فانظر الى هذا الفجور الظاهر

وقوله « خارقاً النواميس » ، تصريح بأن خالق النواميس لا يمكن أن يخرقها ، وما علم المغرور أن نفس أفعاله وتصرفاته في خلقه على مقتضى علمه وحكمته ورحمته هي النواميس ، وإنما أراد أن يجعل تصرف العالم موكولاً الى نواميس الطبيعة والله محجور عليه فلا يتصرف فيها ولا يغير شيئاً عن طبيعته ، فجعل النواميس حاكمة عليه قاهرة له لا أنه المتصرف فيها المهيمن عليها الذي يدبرها كيف شاء فهو الفعال لما يريد

وقوله « متجاوزاً الحدود التي حدّها هو » ، تصريح آخر بأنه خلق حدوداً لنفسه لا يتجاوزها (١) ، وما علم هذا المبطل أن خلقه كله بما فيه من حدود وقيود ورسوم كله تحت مشيئته وإرادته المطلقة ، فهو الذي يحكم ما يشاء

(١) تقدم تصريح هذا الزائع مراراً كثيرة بأن قدرة الانسان ليس لها حدود وأنها غير محدودة ، وأن مواهبه لا يمكن أن يكون لها حدود أو قيود ، هكذا صرح ، وهنا ادعى أن رب العالمين محدود بحدود لا يمكن أن يتجاوزها وحواجز لا يمكن أن يحطمها و نواميس لا يمكن أن يخرقها ، فرب العالمين عنده مقيد بمحدود وحواجز ، وأما ابن الخبيث فهو الذي له التصرف المطلق الذي ليس له قيد ولا حد . هكذا يقول الزنديق الملهد ، ولكن من يسمع

ويفعل ما يريد ، ثم من أين علم أن الله حد حدودا وحواجز ونواميس لا يمكن أن يتعداها هو ولا يتجاوزها ، فإن حقيقة هذا أنه خلق مخلوقات قاهرة له حاكمة عليه ، وليس وراء هذا كفر وزندقة ، وهذا بخلاف قوله تعالى كتب على نفسه الرحمة وكان حقا علينا نصر المؤمنين فإن هذه صفات له ليست مخلوقة وهي حق أو جبهه على نفسه قد عرف بالنص^(١) حيث أخبرنا به ولم يخبرنا قط أنه حد لنفسه حدودا لا يتجاوزها أو نواميس لا يخرقها أو حواجز لا يحطمها ، فإن هذا قول عليه بلا علم ، بل هو كفر صريح لا يرتاب فيه من عرف دين الاسلام

ثم قال « وقوله عليه السلام » فإذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل ، معناه اذا أعطيت من نفسك المستطاع ثم غلبت وجب عليك أن تعلم أنك انما غلبت بالحق والقوانين التي لا تفرق بين من يقعون تحت طائلتها ويحتكمون اليها ، واذا كان ذلك كذلك وجب عليك الرضا بالحكم وان كان غلبا وهزيمة لأنه عدل ، ووجب عليك الثناء على الحاكم القاضى وان كان قضاؤه عليك لا لك ، لأنه عادل غير محاب ، ولأنه عالم غير جاهل ، ووجب ان تقول : حسبي الله ونعم الوكيل ، ثم وجب أن تخص نفسك باللوم إن كان ثم ما يدعو الى اللوم بعجز أو تقصير ، وهذا بمثابة قولك : نعم القاضى هذا مشيرا الى قاض قضى عليك ولكنك تعرف أنه انما قضى عليك بالحق ،^(٢)

(١) اى فلا مجال للعقل فيه

(٢) لكن الذى يكفى الى نواميس الطبيعة المضلة العاتية التي لا تعلم ولا تعقل وتتحكم في بمجرد تفاعلها لم يقض على بالحق ولم يحكم في بالرحمة والعدل والاحسان ، فكيف ارضى بحكمه الظالم الجائر وإنما ارضى به اذا تحمس كمت الى نظامه الذى شرعه بنفسه أو على أسننه رسله ولأنه حينئذ قد حكم على بالحق ، وأما على تلك الصفة فالتى حكمت في أو ثاب طبيعيا خبيثة

قلت : فهذا تعليقه على هذا الحديث فكأنه يخاطب غوغاء وبرابرة لا يعلمون شيئاً ولا يعقلون ، ولا نظن مسلماً يخفى عليه ما في هذا التفسير من البشاعة وفساد القصد وأنه ليس فيه مناسبة لنص الحديث أصلاً ، فأى مناسبة بين قول حسي الله ونعم الوكيل وبين قوله إنما غلبت بالحق والقوانين التي لا تفرق بين من يقعون تحت طائلتها ويحتكمون إليها ، فإن المناسب لهذا التفسير أن يقول « حسي القوانين » لأنها هي التي حكمت عليه على هذا ، ومشية الله وإرادته لا علاقة لها بذلك ، فإن هذا الملاحظ صرح بأن القوانين هي التي تحكم العالم باستخدام الإنسان لها حيث قال فيها مضي : فمن وفق لاستخدام هذه النواميس - إلى قوله - نال ما ينبغي ، فصارت النواميس تجري على مقتضى إرادة المستخدمين لها لا على مقتضى مشية الله وإرادته ، ولهذا ادعى هنا أنها لا تفرق بين من يقعون تحت طائلتها فإنها لا تفرق بين المسمى والمحسن وولى الله وعدوه ، كالمسائل الرياضية بالنسبة للمسمى والمحسن وكالآلة المستخدمة التي هي تجري على حسب إرادة مستخدميها لا على إرادة نفسها هي لأنها طبيعة عانية مجردة . وحقيقة هذا أن العالم هو الذي يحكم نفسه بنفسه ، والا فآله سبحانه وتعالى قد نص على أنه يفرق بين المسمى والمحسن في الحكم فلا يجعل المسلم كالمجرم في الجزاء بل كل منهم يجازى بمقتضى عمله ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ وكما قال تعالى ﴿ أفجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون ﴾ فأخبر أن هذا الحكم لا يجوز نسبته إليه ولا يليق به بل لا بد من التفريق بينهما ، وكيف يناسب هذا القول الذي ادعاه قوله « حسي الله ونعم الوكيل » ، إنما يناسبه إذا كان الله سبحانه هو المتصرف في خلقه الكريم الزموم الرحيم الذي هو حسب من يثق به ويلجأ إليه ويعتمد عليه ويستعمل من الأسباب التي شرعها ما في وسعه ، فقول ، ان غلبك أمر فقل حسي الله ، يعني إنك إذا استعملت الأسباب على وجهها بما في وسعك ثم غلبت فقل « حسي الله » ، أى أنه كافيني ونعم الكافي .

أى كافئني عن الأسباب التى فاتتني ثمرتها فلا بد أن يعوضنى عنها أو يسدها لى
بغيرها ويجبر مصيبتى . فهذه الرواية كالرواية التى فيها « احرص على ما ينفعك »
واستعن بالله ولا تعجزن ، فإن أصابك شئ فلا تقل لو أنى فعلت كذا وكذا ،
ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان » الحديث .
ولينظر العاقل إلى قوله تعالى ﴿ فان تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه
توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ هل فى معنى هذا اعتماد على نواميس الطبيعة
وما يشير إلى ما ادعاه ، بل معنى الآية يتضمن الاعتماد على الله والوثوق
بوعده فى نصرته رسله والذين آمنوا ، فإن معناها فان تولوا أى تعرضوا عن
قبول رسالة ربي فأنه كافئني وهو المتولى أمرى ، فأنى رسوله وهو القادر على
تأييد رسوله القادر على اتمام نوره الذى جئت به رحمة للعالمين ، وعليه توكلت
أى اعتمدت فى تبليغ ما أمرت به وفى شئونى كلها لأنه هو القادر القهار
المتولى من توكل واعتمد عليه ، وانما أنا رسول مبلغ ، وقد بلغتكم ما أرسلت
به اليكم ، وما على الرسول إلا البلاغ . هذا حاصل ما ذكره المفسرون ، وهو
ظاهر ، فأى دخل لنواميس الطبيعة وقوانينها فى مثل هذه الأمور . وفى
الصحيح عن ابن عباس قال : حسبي الله ونعم الوكيل قالها ابراهيم حين التى فى
النار ، وقالها محمد ﷺ حين قيل له ﴿ ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ﴾
ولا شك أن ابراهيم عليه السلام حين التى فى النار لم يعمل أسبابا مادية أصلا
فضلا عن أن يعتمد عليها ، بل استعمل أعظم سبب فى الوجود وهو
الاخلاص فى التوجه الى الله تعالى بالدعاء والتوكل الذى تضمنته « حسبي الله
ونعم الوكيل » ولهذا كان لهذا السبب الأثر الأكبر فى قلب النار الى ضدها ،
لأنه استعمل هذا السبب الأعظم كاملا من كل وجه . وكذلك نوح لما دعا على
قومه فى قوله ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ الآية صار
للعانة أعظم الأثر فأغرقهم الله كلهم إلا من آمن معه فكان لهذا السبب
المستعمل على وجهه الكامل أكبر الأثر ، وكذلك ذو النون لما استعمله

خرج من ظلمات بطن الحوت والبحر لأنه استعمله على الوجه الكامل وأمثال ذلك كثير ، ومعلوم عند كل عاقل أن تأثير كل سبب بحسب استعماله على وجهه سواء أكان ذلك السبب ماديا أو معنويا ، فأكبر سبب مادي لا يؤثر إلا بقدر استعماله على وجهه ، ولكن لا يمكن بحال أن يبلغ مبلغ السبب الديني لأنه دونه ولأنه تابع له ، وهذا مما يبين لك أن الأسباب الدينية أقوى من الأسباب الطبيعية وأن الطبيعية تابعة لا متبوعة ، فمن استعمل الدينية فلا بد أن يوفق لما به تحصل سعادته ونجاته ، ومن عاكس نظام الله وشرعه والتجأ إلى الأسباب الطبيعية واعتمد عليها وتوكل عليها عكس الله قصده وسلط عليه أسبابه أو أمثاله ودمرته وأذاقته وبال أمره ^(١) كما وقع ذلك للنبي ﷺ لما قيل له ﴿ إن الناس قد جمعوا لكم ﴾ اعتمد على الله واستعمل الدعاء والتوكل الذي تضمنه ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ ولم يقل قد جمعنا لهم كما جمعوا لنا أو ما هذا معناه ، بل استعمل ما في وسعه من الأسباب المادية واعتمد على الله واجتهد في استعمال الأسباب الدينية من التوحيد الذي تتضمنه المتابعة ، ولذلك حصل النجاح التام والسيادة التي لم يحصل لها نظير قط

فصل

قال « وأما قول صاحب الناقة أطلقتها وتوكلت ، فانه يذهب في هذا القول وهذا العمل الى أن معنى التوكل هو الاستسلام وترك الحيلة والعقل ، مؤملا أن يفعل الله له ما يشاء وأن ينزل من أجله وأجل ناقتة جبريل وميكائيل في يد أحدهما خطام وفي الآخر عقال ليحفظا له الناقة من الضياع والحرب ، فرد عليه الرسول هذا قائلا « اعقلها وتوكل ، مبينا له أن الاتكال معناه الأخذ

(١) قال تعالى ﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الحياة الدنيا ﴾ الآية

بالوسائل مع الاعتماد عليها وعلى إنجاحها ، لأنها من خلق الله وشرعه ، وشرع الله وخلق خليفان بأن يؤديا الى النجاح ،

فيقال : وهذا أيضا من جنس ما قبله في الجراءه على تحريف النصوص وهتك حرمتها ، ولا ندرى من أين علم مافى ضمير هذا الصحابي حيث ادعى عليه ما لعله لم يخطر بباله بأنه كان مؤملا أن ينزل جبريل وميكائيل في يده أحدهما خطام وفي الآخر عقال ليحفظا له الناقة ، ولم يبين من هو الذي في يده الخطام بمن في يده العقال منها ، وكان من حقه إذ دخل في هذه الفضول أن يبين ذلك لتكميل هدياته ، فان من علم مافى ضمير الصحابي فلا بد أن يعلم ذلك أيضا ، ولعل هذه الفضول والهذيان من وحى الحقائق الازلية الأبدية أو هي رؤيا رآها آخر الليل ، اذ لو كان له مسكة من عقل أو حياء لاستحيا من التفوه بهذه القحه والفضول التي لا يتكلم بها الا مخذول ، وكيف يتفق أن يكون معنى قول النبي ﷺ اعقلها وتوكل ، أن ذلك هو الأخذ بالوسائل مع الاعتماد عليها وعلى إنجاحها لا على الله وحده ، فلو كان هذا هو المراد من الحديث لقال : اعقلها وعقلك لها هو التوكل ، أو لقال : اعقلها وتوكل على عقلك لها ، لكنه أمره بالعقل والتوكل على الله ففيه بيان أن العقل وحده ليس بكاف بدون الاعتماد على الله . ثم كيف يمكن أن يكون التوكل على الله هو التوكل على الوسائل فان هذا بعينه فعل المشركين فانهم يتوكلون على الوسائل ويعتمدون عليها غاية الاعتماد ، ولهذا توجهوا اليها وعلقوا عليها آمالهم فدعوها والتجأوا اليها على اختلاف أنواعها من أرواح وأشباح وغير ذلك ، وهذا هو شركهم الذي كفرهم الله به ، كما نقل شيخ الاسلام ابن تيمية وغيره من العلماء الاجماع على ذلك ، قال في (الفروع) و (الاقناع) وغيرهما : من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم كفر إجماعا لأن هذا كفعل عابدى الأوثان . وهذا الملحد نفسه قد ذكر فيما يأتي أن أوربا جعلت صناعتها هي

آلهتها التي وحدتها وأبت الاشرار بها ، فلذلك صعدت هذا الصعود . فعنده أن تأليه الصناعة ونحوها من الأسباب المادية هو السبب في النجاح بخلاف توحيد رب العالمين ، ولينظر المسلم العاقل الى قوله تعالى عن نوح عليه السلام ﴿ يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا و أمركم وشركائكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثم اقضوا الى ولا تنظرون ﴾ فهل يظن ذو عقل أن معنى قوله ﴿ فعلى الله توكلت ﴾ اعتمدت على الأسباب وعلى إنجاحها ، بل الآية صريحة في أنه اعتمد على الله وحده ، وقال تعالى عن عبده هود عليه السلام ﴿ قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون ، اني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ﴾ فهل يظن عاقل أنه يريد بقوله ﴿ اني توكلت على الله ربي وربكم ﴾ اعتمدت على الوسائل المادية وعلى إنجاحها ، بل الآية صريحة في أنه اعتمد على الله الذي هو ربه ورب قومه ورب كل شيء الذي هو آخذ بناصية كل دابة ، فهذا تصريح بان كل الأسباب طوع مشيئة وإرادته ، فن هذه صفته هو الذي يجب أن يعتمد عليه ويدعى ويلجأ اليه ، فالخير كل الخير في طاعته والشر كل الشر في معصيته ومخالفة أمره والاعراض عنه والاعتماد على غيره ، وتأمل قوله تعالى عن عبده موسى عليه السلام في قوله ﴿ يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ، فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ فهل في هذا ما يدل على أن التوكل هو الاعتماد على الوسائل المادية ، أم هو صريح في نقض ما ادعاه ، فانه ادعى أن التوكل هو الايمان بالأسباب ، وهنا ادعى أن الاتكال هو الاعتماد على الوسائل وعلى إنجاحها ، وموسى عليه السلام يقول ﴿ ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين ، فقالوا على الله توكلنا ﴾ فهو صريح في أن التوكل هو الاعتماد على الله وحده ، وهذا أمر واضح كالشمس ، قد أجمعت عليه كتب اللغة والتفسير ، بل العامة تعرفه ، ولولا غربة الاسلام وفساد التصور في كثير

من الناس لما احتجنا الى هذا الايضاح كله ، فان أدنى كتاب من كتب اللغة يتناوله الانسان يجد فيه التصريح بأن التوكل على الشيء هو الاعتماد عليه والاستسلام له ، وما ادعاه عكس ظاهر للغة وكلام العلماء كلهم ، بل عكس صريح لموضوع الدين ، فكيف يكون الاتكال على الشيء هو الاعتماد على غيره ، وكيف يكون المتوكل على الله هو المعتمد على الوسائل التي هي من خلقه ، وكيف تكون خلقه وهي شرعه ، ومعلوم أن الأسباب المادية ليست بشرعه بل شرعه هو عبادته التي أشرفها دعاؤه والتوجه اليه ، وهو قد جعله لا فائدة فيه ، فما أنزله من النظام السماوى هو شرعه ، وكله يتضمن طاعته ، أما الأسباب المادية فأنما شرع استعمالها على الوجه الصحيح غير المخالف لشرعه الدينى ، فليست شرعا هي بل هي اذا استعملت على مقتضى الشرع يكون استعمالها مشروعا بالاضافة لا شرعا هي بالاستقلال بل هي شر بالاستقلال خير باستعمالها على نظام الله وشرعه ، وانما أدخل هذه الدعوى مغالطة والا فقد تقدم دعواه بان المنابر والمساجد ادت شر ما يؤدى ، فهذا هو أعظم مظهر مقدس لشرعه فقد جعله شرا وجهلا وظلاما وخرافات ، وجعل نواميس الطبيعة هي الحاكمة للعالم ، وهذا قلب صريح للدين ومحاربة لرب العالمين ، وقد فص العلماء على أن التوكل على الشيء دون الله عبادة له كما تقدم ، فمن توكل على الوسائل وعلى انجاحها دون الله فهو مشرك كافر بالنص والاجماع ، والمحدد نفسه قد اعترف بأن التوكل ركن من أركان الدين ، فكيف يصرفه للأسباب ، وقد تقدم كلام شيخ الاسلام بان الاعتماد على الأسباب شرك محرم ، فالحديث حجة واضحة في الدلالة على نقيض دعواه فانه تضمن الأخذ بالأسباب ، والاعتماد على الله لا عليها ، فلو كان الأخذ بالأسباب كافيا لم يحتج الى الاعتماد على الله لان ذلك يكون ملهاة وتعويقا لا فائدة فيه ، وفيه بيان وجوب الأخذ بالأسباب ، وأن التوكل المجرد لا ينبغي فان الله لم يأمر بذلك كما قررناه سابقا ، وتقدم أن معنى التوكل هو الاعتماد على الله وأن الاعتماد عليه تعالى لا ينافى

الآخذ بالأسباب بل يحض على ذلك ، لأن الأسباب مخلوقة مطيعة لأمره وهو سيده ملكوت كل شيء يتصرف في ملكه كيف يشاء ، وهو العليم الحكيم العزيز القهار الجبار لا راد لأمره ولا معقب لحكمه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون

ثم قال « وميننا له ^(١) أن من سلك الطريق لزمه أن يطمئن ، وأن لا يخشى من وراء الأسباب جورا وعدوانا كأن يهاجم ناقلته المعقولة روح من الأرواح أو عفريت من العفاريت أو شيء آخر خفي من الأشياء الأخرى الخفية فيسرقها أو يضعها أو يحل عقابها كما يظن ضحايا الأرواح ، أو كان الله يصنع بناقلته بعض الأشياء التي يزعمون أنه يصنعها خروجا على السنن والأسباب والعادات بقصد الامتحان أو الابتلاء أو لأنه تعالى يحبه والمحجوب مقصود بالأذى والتجدي كما يزعمون ، وهذا ما يشير إليه قوله « وتوكل ، أي اطمئن واثق بالنتيجة اذا ما أخذت بالحيلة الكاملة ،

قلت : هذا آخر تفسيره وتعليقه على حديث « اعقلها وتوكل ، ولا يخفى على ذي عقل ما اشتمل عليه هذا التحليق من المعاكسة لمعنى الحديث والبهت والفجور وسوء الأدب واتهام الصحابي بما لعله لم يخطر بباله ، وفيه من ضروب المصائب والمعائب ما لا يتسع هذا الموضع لمناقشته ، وقد قدمنا الكلام في السنن وأنه يريد بذلك نوااميس الطبيعة أي تفاعلها على ما مر تفصيله ، وقد بينا لك أن سنن الله هي نظامه الذي هو أمره ونهيه وتقديره وتدبيره ، فأوامره وأقداره الكونية والشرعية كلها سننه ، فقوله خروجا على السنن كلام ساقط ، فإن أفعاله وأقواله هي السنن ، فكيف يخرج عليها ، والأسباب ملكه يتصرف فيها كيف شاء بمقتضى علمه وحكمته فانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد كما بين ذلك في كتابه ، فكيف لا يتصرف في ملكه ويدبره على ما يريد . وقوله بقصده

الامتحان والابتلاء لانه يحبه والمحجوب مقصود بالاذى والتحدى كلام ليس
بصحيح ، بل من يقول هذا يقول لكنته من الجائز أن يتلى الله عبادته
ويعتصمهم لينظر كيف يعملون ، وليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين كما دلت
على ذلك النصوص كقوله تعالى ﴿ ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا
آمنا وهم لا يفتنون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم
والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ وقال تعالى ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما
يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول
الرسول والذين آمنوا معه منى نصر الله ألا أن نصر الله قريب ﴾ وقال تعالى
﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات
وبشر الصابرين ﴾ الى غير ذلك من النصوص التى لا تحصى ، فالابتلاء فى
الدنيا أمر لا بد منه للمؤمن والكافر أيضا ، فالؤمن يزداد إيمانا مع إيمانه
وتطهر عبوديته ويتطهر من خطاياہ وذنوبه (١) وأما الكافر فقد يبتلى أولا
ليحتفظ ويتذكر ، ثم قد يستدرج ويوسع له ثم يصاب بالنكبة التى لا عافية بعدها
كما قال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم
يتضرعون ، فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم
الشيطان ما كانوا يعملون ، فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء
حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون ، فلقطع دابر القوم
الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ وهؤلاء المسلمون لم يقولوا ان المؤمن
المحجوب مقصود بالاذى ، فان هذا كذب ، بل يقولون ان حبه لعبده لا يثنأى

(١) تقدم أن المصائب من حيث هى مسلوقة ونقاىص طبيعية ، وأضدادها أسباب
وجودية وفضل من الله ورحمة ، فكل ما فى العالم من لذة وفرح وسرور فهو فضل من
الله ورحمة ، وما سوى ذلك فسبب البعد من هذا المصدر الإلهى ، وأعظم مبعده عنه
هى الذنوب أو عدم الطاعات ، والشر ليس الى الله ، والخير بيديه

أن يصيبه بشيء من الأذى في دنياه لرفع درجته ولما يحدث له من التوبة والانابة والاستغفار الذي هو من موجبات الرحمة وتكفير الذنوب ، فيكون ما يحصل له بهذا الخير العظيم أضعاف أضعاف ما يصيبه من الأذى التساهل الضئيل بالنسبة إليه كما قيل :

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجساد بالعلل
أما كونه يتقصد عبده المحبوب بالأذى دون غيره من أجل المحبة فقط كما يدل عليه كلام هذا المستهزئ فبغت ظاهر ، ولا ندرى كيف يقول هذا المغرور في المصائب والأذى الذي نال الرسل هل ينكرها ويجعل ذلك من مقتضيات نوااميس الطبيعة والمادة أم ينكر الرسالة أصلاً ، وهذا هو الذي يدل عليه روح كلامه ونصوصه الكثيرة بلا شك

ثم قال : « وإذا ما فهم التوكل كهذا الذي ذكرنا ، كان قوة من أعظم القوى »
وكان مهذا يسوق الانسانية أعنف سوق الى العمل والى فراغ الجهد كله ،

والجواب أن يقال أولاً : ليس لنا أن نفهم معنى لركن من أركان الدين فيها يضاد معناه الشرعي اللغوي ، ثم نطبقه على فهمنا ونلغى المعاني الشرعية اللغوية ، فإنه لو فتح هذا الباب لجاء أناس يفهمون الصلاة والزكاة والصيام وغير ذلك على غير موضوعاتها الشرعية ، ثم يطبقونها على ما فهموه فينسخون بذلك أحكام الدين كلها . ومعلوم أن الحقائق الشرعية ثابتة في نفسها ولوازمها الصحيحة ثابتة معها ، فإن لازم الحق حق أبداً ولازم الباطل باطل أبداً فلا يغير فهم الشيء على خلاف معناه فهم أحد كائناً ما كان ، فالفهم الذي يطابق الحقيقة صحيح وصواب ، والفهم المخالف للحقيقة خطأ وضلال بكل حال ، وهذا مطرد في كل دليل ومدلوله ، وخلاف هذا يوقع في القوضى في فهم الدلائل والمدلولات ، وكل أحد يمكنه أن يدعى فهماً ويحصر الحق فيه ثم يحمل الناس عليه ويلغى كل أفهامهم وهذا عين القوضى

ونقول ثانيا : لا نسلم أن فهم التوكل على ما ادعيته يكون قوة ومهمازا للعمل ، بل لا نسلم أن يكون فيه أدنى باعث على العمل ، بل نحن نعلم علما ضروريا لا ريب فيه أننا لو فهمنا التوكل على النحو الذى فهمته وقررتة وادعيته لكان ما لنا الدمار المحقق الذى لا ريب فيه ولصرنا مضرب الأمثال فى الفوضى والهمجية والعجز والكسل والانهار الخلقى ، وهذا صحيح لا شك فيه ، فان الانسان لن يجتهد فى العمل ولن يعطيه كل ما فى وسعه اذا كان عالما بأنه محكوم بقوة النواميس الفوضوية التى هى مجرد مصادقات ومجرد أعمال يعملها الناس ، فان هذا قد صرح بأن الناس هم الذين يستخدمون النواميس فهى تجرى على استخدامهم ، ومعلوم أن أفكارهم وآراءهم وشهواتهم وأهواءهم مضطربة متعاكسة فيلزم أن تكون النتائج على وفقها ، وهذا يوجب الحيرة والارتباب فيها والقلق والاضطراب وعدم الاطمئنان إلى العمل وإلى النتيجة فالأسباب مخلوقة معلوم فقرها وضعفها ، وأن كل سبب فيها قد قهره سبب آخر واقتقر الى سبب آخر ينضم اليه ، وكل أحد من بنى آدم معه شيء من الأسباب ليست محصورة عند أحد حتى يتصرف فيها كيف شاء ، بل ما من سبب إلا وقد اشترك فيه ملايين الناس ، فكيف يستطيع العامل أن يعمل سواء كان زارعا أو صانعا أو تاجرا أو غيرهم وهو على هذه العقيدة الفاسدة ، فلو عمل وهو على هذا المبدأ لكان عمله فى غاية الفتور والضعف إلا أن يدفع اليه دفعا عنيفا ، ولا يخفى ما فى العمل الاجبارى من القصور ، وهذا بخلاف من أخذ بالأسباب معتمدا على خالقها المهيمن عليها الذى أمره بالأخذ بها والاستعانة به والاعتماد عليه ووعد بالاجابة والاعانة والتأييد والنصر اذا أخلص معه وصدق فى معاملته وأنه رموف بعباده رحيم لطيف بهم له الغاية فى الكمال المطلق من كل وجه ، معتقدا أنه كلما أخذ بالأسباب واجتهد فى الأخذ بها والعمل بها واستعان بالله أعين وأيد ونصر ، وأنه اذا ترك الأسباب واستهان بها فقد فرط فى أمره ، بل لا بد من الأخذ بها والاجتهاد فى عملها

هو الاعتماد على الله والنصح والاخلاص له في عمله هذا ولا سيما إذا لاحظ مع ذلك أنه إذا عاند نظام الله وتمرد عليه أنه سيتعرض للخذلان والمقت والانتقام ، ولا شك أن العقول السليمة تميز بين الدافعين وما يلزمهما من النتائج ، وما أصاب الناس هذا الوهن وهذا الكسل إلا حينما تركوا التوكل واعتمدوا على أنفسهم واتبعوا آراءهم وأهواءهم في الأسباب وغيرها

ثم قال : والتوكل بهذا المعنى روح الانسانية ، ومتى زایلها فقد حانت وفاتها . وهو بهذا المعنى أيضا روح الأديان وروح الاسلام ^(١) . ولهذا جاء ذكره في أكثر سور القرآن مأمورا به ونجبرا عنه ، وقد كان بهذا المعنى إحدى القوى الكبرى التي قدمت للعرب مفاتيح البلدان ، وأخضعت لهم الممالك ، وقهرت بهم الأديان ، ووضعت في أيديهم مقاليد الدنيا - الدنيا التي تعوزها هذه الروح ، والتي كانت اذ ذاك تتصور التوكل على نحو ما يتصور المسلمون اليوم الجمود والاستسلام ورجاء ما لا يكون ^(٢) انتهى

والجواب أن يقال : قد بينا معنى التوكل الصحيح الشرعى الذى هو ركن الأديان الذى به حصل النجاح وبه يعرف أن تأخر المسلمين اليوم هو تقصيرهم فيه ، وإلا فلو كان الأمر كما يقول فلا أعظم من اجتهد الناس اليوم فى الاعتماد على الأسباب الدنيوية ولا أقل من اعتمادهم على الأسباب الدينية وما زادهم هذا الاخسارا . فبالله عليك - يا بلعام زمانه - من هى الدولة الاسلامية التى تركت التقدم والعمل اعتمادا على التوكل ، بل أى حزب أو جماعة تركت أعمالها وتقدمها اعتمادا على التوكل ، فالتوكل والاعتماد على الله ليس له من الأثر أدنى شئ فى ترك العمل ، بل كل من ترك العمل فانما تركه

(١) قبلك الله ما أجزأك كيف تكون عبادة الطبيعة روح الأديان وروح الاسلام

(٢) هذا آخر مبحث التوكل فى كتابه

لمعنى لا بد أن يكون فيه ما ينافى التوكل ، فالتوكل الصحيح والاعتماد على الله هو روح العمل ، فانه يلهب القوة والحرص على استعمال الأسباب على وجهها والعمل بها والاجتهاد فيها . ومعلوم أن المصدر الأول الذين فتحوا الممالك العظيمة لم يكونوا يعتمدون على الأسباب ويرون النصر والهزيمة عندها وأن الله مع الأقوياء ، فان اجتهادهم في الأسباب الدينية أعظم من اجتهادهم في الأسباب المادية ، وتمسكهم بالقرآن والسنة أعظم من تمسكهم بشوااميس الطبيعة . لو قدر أن هناك أدنى تمسك - فأفعالهم عكس أفعال الآخرين اليوم ، فان تمسك هؤلاء بالأسباب المادية أعظم من تمسكهم بالأسباب الدينية ، فهم عكس المصدر الأول ، ولهذا كان ما لهم على عكس ما ل أولئك فاحصلوا على طائل ولن يحصلوا إلا الخزي والدمار ان لم يتمسكوا بالأخلاق الدينية الصحيحة أخلاق السنة والقرآن أخلاق السلف الصالح . ثم أن أدنى كتاب من كتب اللغة والتفسير والحديث شاهد بأن التوكل على الله هو الاعتماد عليه لا الاعتماد على الأسباب ، فان ذلك شرك محرم كما تقدم كلام شيخ الاسلام ابن تيمية وغيره ، بل معرفة هذا أمر مفروغ منه ، وليبانه ووضوحه لم يتجاسر أحد أن يخالفه قبل هذا الملاحد الذى عكس معناه عكسا صريحا واضحا ، فان أدنى عامى فضلا عن غيره يعرف أن التوكل على الله هو الاعتماد عليه ، بل الكفار يعرفون هذا وينكرون أن يكون معنى الاتكال على الله هو الاعتماد على خلقه ، فهم إما عارف معناه تارك له أصلا ، وإما مقرب به مقرب بخالفته ، فأما قلبه وعكسه الى ضده فهو شيء لم يسبق هذا الزنديق اليه أحد من العالمين إلا أن يكون زنديقا مثله ، ففي أى لغة من لغات بنى آدم وجد أن التوكل على الله هو الاعتماد على الأسباب المخلوقة ^(١) أو الايمان بها ، فان هذا

(١) تقدم كلامه بأن كل ما فى الوجود فهو من أسباب الله

توكل عليها بلا ريب لا توكل على الله ، ثم ما هي العبارة التي تفيد الاعتماد على الله بمعنى التوكل عليه ، فان هذا يقتضى أن يكون الاعتماد على الله أيضا هو الاعتماد على الأسباب والاستسلام لله هو الاستسلام للأسباب وهكذا ، وهذا هو قلب الدين ومضادته . والبلية أنه ادعى أن روح الأديان والاسلام على المعنى الذى ادعاه فقبحه الله ما أجرأه ، فيكون معنى روح الأديان هو الاعتماد على الأسباب والايان بها ، وهذا كله إنما يجرى على قاعدة الاتحاد المحض وأنه يجب على الناس أن يتوجهوا الى الطبيعة ونواميسها ويرفضوا أخلاق الدين ، كما قال فيما سبق : ان تأخرنا هو الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها ، فهذه هي روح الأديان والاسلام عنده ، فسبحان الله كيف تذهب العقول وسبحانه تعالى ما أوسع علمه وحله

فصل

خلاصة هذا المبحث أنه فسر التوكل على الله بضد معناه اللغوى والشرهى كعادته فى قلب المسميات الشرعية فى أصول الدين ، فانه فسر التوكل على الله بالاتكال على غيره من الوسائل المادية . ومعلوم أن هذا التفسير قلب صريح لمدلول اسم التوكل لغة وشرعا ، ولو أعرض عنه لكان أستر له من هذه الفضيحة المكشوفة ، فان التوكل على الله هو الاعتماد عليه ، كما أن التوكل على الأسباب هو الاعتماد عليها . ثم اذا كان التوكل على الله هو الاعتماد على الأسباب - كما زعم - فما معنى التوكل على الأسباب إذن أهو الاعتماد عليها أو على الله أو معناهما سواء وعين أحدهما هو عين الآخر كما هو مذهب اتحادية الصوفية . ومن خلع جلباب الحياء واستهتز بالتلاعب بالنصوص فلا حيلة فيه . والذى اضطر هذا المخذول الى هذه القحة السافرة أنه لم يجد للتوكل معنى مشتركا يمكنه حمل ما يريد على ولو بالتأويل البعيد الغامض ، وكان لابد

له من ازالة هذا الأصل العظيم الذى وقف سدا فى طريق دعايته الى الالحاد ،
فمن أجل هذا لجأ الى هذه القرمطة المفضوحة

اذ لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

قال الامام ابن القيم فى معنى قوله تعالى ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم
مؤمنين ﴾ : « جعل التوكل على الله شرطا فى الايمان فدل على انتفاء الايمان
عند انتفائه ، وفى الآية الاخرى قال موسى ﴿ يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه
توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ فجعل دليل صحة الاسلام التوكل ، وكلما قوى
ايمان العبد كان توكله أقوى ، واذا ضعف الايمان ضعف التوكل ، انتهى .
وقال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله « وما رجا أحد مخلوقا ولا توكل عليه
إلا خاب ظنه فيه ، فانه مشرك ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه
الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ، فكل من توكل على غير الله فى
الأمور التى لا يقدر عليها إلا هو فهو كافر مشرك لأنه صرف نوعا من العبادة
لغير الله تعالى

ولا ريب أن حاجة نفس العبد وقلبه الى التوكل على الله أعظم من حاجته
الى الطعام والشراب لأن التوكل مادة الايمان الذى هو مادة حياة القلب
ونعيمه وسعادته الأبدية ، كما أن الطعام والشراب مادة حياة البدن . ولا شك
أن حياة القلب التى بها يحصل فرحه ونشاطه وعزته أعظم من حياة البدن
ولذته . وان كانت حياة البدن هى فى الحقيقة تابعة لحياة القلب - ولهذا إذا
استحكم موت القلب كان مآل البدن الى التلف لا محالة ، واذا مرض فلا بد أن
يمرض البدن ، وهذا عام فى الأفراد والجماعات ، وكل الشعوب الاسلامية
المریضة إنما مرضت لفساد غذائها الدينى المعنوى لما به من الأخلاط الفاسدة
المدخلة عليه فان أكثرها خلط ايمانه الدينى الصحيح بمبادئ إلحادية خبيثة
كتحريف الصفات وعبادة الأموات وتحكيم القوانين المظلمة والظالمة .

تخلطها هذا هو الذى أمرضها هذا المرض المشاهد ، ولهذا فإن البدن الذى يتغذى بالجلبث المحض يكون أمثل من البدن الذى يتغذى بأخلاط متضادة متناقضة ولكنه ينهار أو يموت فجأة غالبا ، وأما البدن الذى يتغذى بالغذاء الصحيح السليم القوى فلا بد أن يكون صحيحا قويا نشيطا .

وليس فى الدنيا أضر على الانسان من اعتماده على نفسه أو على غيره من دون الله ، فإن اعتماده هذا هو قطع الصلة بينه وبين ربه تبارك وتعالى ، ومن انقطعت صلته عن الله فأتى له الحياة والنجاة . فالاعتماد على النفس من دون الله هو الداء القديم العضال ، وهو الذى هدم الامم الملهمة السابقة واللاحقة — وان أطب الجهاد فى تجميله والدعوة إليه ، وجعلوه علامة للدهاء والسياسة (١) — فإن هذا من الاغلاط الكبرى التى وقع فيها من وقع بسبب التقاليد الغربية المنافية للدين . فإن الله سبحانه وتعالى أمر الانسان فى أعظم موقف يقفه بين يديه أن يقول ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم ﴾ فيقول ذلك فى كل صلواته ، وان يعترف باطننا وظاهرنا بان لا حول له ولا قوة إلا بالله فيستمد فى كل عمل يعمل من هذا الإيمان الحار الجبار . والعبادات كلها توجه قوى وفعلية واعتقادية ، واستمداد من الله الإعانة والتوفيق والهداية ، كما قال تعالى ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد ﴾ وفى الحديث الصحيح « يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم » الحديث ، وفى الدعاء المشهور « اللهم لا تكنلى الى نفسى طرفة عين ، وأصلح لى شأنى كله ، ولهذا لا تسكاد تجدد أحدا — سواء أكان فردا أو شعبا — اعتمد على نفسه أو على جنسه من المخلوقات دون الله إلا قد خيب الله أمله وأحبط

(١) فانهم إنما قالوا هذا لقلة معرفتهم بحقيقة الدين وتوحيد الله الذى هو المطلوب منهم . فإن الثقة بالنفس مطلقا تنافى الثقة بالله والاعتماد عليه

عمله وعومل بنقيض قصده حتما ولا بد أن الله يريه كيف عاقبة اعتماده على غيره تعالى ، فانه اعتمد على الطبيعة المظلمة المنحطة وما يتعلق بها ، وأعرض عن الله الحي القيوم القهار الرؤوف الرحيم . ولهذا تجد الكثرة الساحقة في الشعوب الملحدة إلحادا محضا مع رؤسائها أشبه شيء بالحيوانات العجم تساق كما تساق القطعان ، بل هم كالآلات الصماء التي يفعل بها العمال كيف شاءوا . وكلما كانت الأمة أشد إلحادا كان رؤساؤها لأفرادها أشد عذابا ، وهذا أمر معروف لا يمتري فيه إلا جاهل بليد لا يعرف حقائق الأمور . ويكفيك عبرة ما وقع في هذه الدول التي اعتمدت على نفسها وجنسها من دون الله كيف أنزل الله بها بأسه ودمرها بالسكوارث والنكبات بأيديها وأيدي جنسها وبأسبابها التي اعتمدت عليها ، فدمر الله الملحدون بعضهم ببعض وأذاق بعضهم بأس بعض ، وفي الاثر الذي رواه الإمام أحمد عن وهب بن منبه قال : أوحى الله الى داود عليه السلام : يا داود أما وعزتي وعظمي لا يعتصم بي عبد من عبيدي دون خلق أعرف ذلك من نيته فتكيد السموات السبع والارضون السبع إلا جعلت له من يدينه مخرجا . أما وعزتي وعظمي لا يعتصم عبد من عبيدي بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماء من يديه ، وأسخت الأرض من تحت قدميه ، ثم لا أبالي بأى واد هلك ، وشواهد هذا الاثر كثيرة كقوله تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ ، ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ وقوله تعالى ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق ﴾ أى فلا يرجى له خلاص البتة .

والمقصود أن التوكل على الله وحده والاعتصام به هو الطريق الوحيد الأعظم لحصول المقاصد وإدراك النتائج المحمودة ، فهو الذي يمد حرارة الايمان بالوقود القوي المستمر ، فيدفع الى العمل دفعا عنيفا ، فيلهب القوى

البدنية ويجب اليها العمل كما أنه ينشط الروح ويركز في الطاقة الانسانية قوة الى قوتها بتقدم ثابت واستمرار صحيح . ولا شك أن كل من يعمل عملا فلا بد له من استمداد قوة في الصبر والثبات عليه من أمور خارجة عنه وعن من هو في حكمه ، وذلك لا يحصل — بحق — إلا في الايمان بالله والاتكال عليه والاستعانة به وأمل ثوابه وخوف عقابه ، وكل عامل إنما يقصد من عمله ثمرة التي هي نتيجته ، وهي — أى نتيجته — إنما تكون بقدر قوة العمل ، وقوة العمل بقدر قوة الداعي والدافع ، وهذا إنما يكون في القلب وعمل البدن تابع لما يقوم بالقلب من القوة والضعف اللذين مناطهما الحياة والمرض . وقد بينا أن حياة البدن موقوفة على الغذاء المادى ، فان كان مناسباً له صحيحاً قوياً صار البدن به صحيحاً قوياً وإلا ضعف بقدر ضعف غذائه المادى ، بل إنه إن لم يحصل له غذاء موافق له اضطر الى التغذى بالمواد الخبيثة القذرة وحينئذ يأول الى الهلاك حتماً ، وهكذا الروح أو القلب غداؤه الأمور الدينية كالذكر والقراءة والطاعات ، فان حرم من هذا أو انحرف عنه اضطر الى التغذية باضداد ذلك من الخبائث المعنوية كالمعاصى والملاهى والفسوق والفجور ، وإذا طال عليه الأمد ارتاض على ذلك حتى لا يستطيع فراقه إلى أن يشاء الله ، فنسبة غذاء الأبدان الى المادة طيباً وخبثاً كنسبة غذاء القلوب والأرواح الى الأمور المعنوية طيباً وخبثاً ، ولهذا ورد في الحديث الصحيح : ان اهل الجنة يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس ، لان هذا الذكر المقدس القوى الطاهر ملائم لتلك النفوس الطاهرة القوية المقدسة ، فتغذى به فتبقى قوتها مستمرة مخلدة في النعيم المقيم

فقد تبين لك من هذا أن النتائج تابعة للأعمال في العظمة والتفاهة والقوة والضعف ، وأن الاعمال تابعة لما يقوم بالقلوب من القوة والضعف ، وأن القلوب لها غذاء ضرورى كغذاء الأبدان من حيث توقف الحياة والصحة

عليه ، وأن الطاعات لها الأثر الأكبر في الأعمال البدنية ^(١) من قوة وضعف .
وبهذا أيضا يتبين لك سقوط دعوى بعض الملاحدة ^(٢) أنه إذا كان الله غنيا
عن الطاعة فلا فائدة فيها وإن الله لا حاجة له إلى أعمال الخلق ، فإن هذا تلبس
وزندقة ، فإن كون الله تعالى غنيا عن الطاعة لا يقتضى أن يكون الإنسان غنيا
عنها كما أنه تعالى غنى عما يعملها الإنسان في تغذية بدنه ومع ذلك فلم يتركه
الإنسان ، والله سبحانه غنى عن خلق الإنسان بل وخلق السموات والأرض
ومع ذلك خلق هذا كله ، فليست علة مشروعية العمل حاجته تعالى إليه ، بل
هو شرع ما شرع لحكم كثيرة منها رحمته بعبده ، فإن الطاعة هي السبيل الوحيدة
التي لا سبيل سواها إلى سعادة العبد ووصوله إلى غايته ، فهو جعل الطاعة
سبيلا إلى الحصول على السعادة الأبدية كما جعل الأكل والشرب ونحو ذلك
سبيلا إلى التمتع بهذه الحياة البدنية ، وليس هو تعالى محتاجا إلى هذا ولا إلى
هذا ، فقول القائل لا أفعل الطاعة لأنه غير محتاج إليها كقوله لا آكل ولا
أشرب أو أكتسى لأنه غير محتاج إلى ذلك . فعمل العبد مصلحة محضة عائدة
إلى العبد من الجهتين ، فتركه لها أو إحداها ضرر عائد إليه . وهانحن نرى
هؤلاء الملاحدة يتكفون غاية التكلف في تحسين غذائهم المادى ويصبرون على
المشقة - أيا كانت - في تنقيته مما يلوثه مما لا يلائمه ، ويقطعون أوقانا طويلة في
شأنه خوفا من علة تأتي في أجسامهم بسببه ، لأنهم يرون أن صحة البدن متوقفة
عليه ، فهلا فعلوا معشار هذا في غذاء قلوبهم وأرواحهم من الأمور الدينية

(١) فما ذكره هذا المالحد فيما مضى أن الأمور الدينية أشياء أخرى لها نتائج أخرى
غير نتائج المجد في نهاية السقوط ، فإن الاعتقادات هي عوامل الأعمال التي هي أصول
النتائج ، فتكون نتائج أعمال الدين في غاية القوة تبعا لقوة دوافعها
(٢) أى في تضليل العامة والتلبس عليهم في الطاعات وتشكيكهم في الدين ، فقد
كثر مثل هذه الدعاوى في هذه الأزمنة الفاسدة من دعاة الملاحدة المشككين في الأديان

حتى يروا حسن عاقبة ذلك ، وكيف يدعون أنها لم تنفعهم وهم لم يعملوها إما مطلقا وإما على وجهها الصحيح المستقيم كما فعلوا في أمورهم المادية الطبيعية .
وصرف الانسان همته كلها الى شهوات النفس ورغباتها إنما هو خلق خاص بالبهائم والأطفال ، فتي كان الانسان بهذه الحالة فهو في حكم هؤلاء أو هذه فان البهائم لا يهتم بها الا ما ادخلته بطونها وقضت به شهواتها كما قال تعالى ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ ولهذا وصفهم تعالى في كتابه العزيز في غير ما آية بهذا ، بل حكم عليهم بأنهم أضل سبيلا

وينبغي أن يعلم أن هذا الملحد سلك في هذه الأغلال مسالك غلاة الملاحدة وزنادقتهم ، فانه - من حيث أصوله - أسسه على الكفر بالله وكتبه ورسله وملئته واليوم الآخر والقضاء والقدر ، لأن هذه الأصول هي الأسباب المتصلة بين الله وبين خلقه ، وهي الموصلة اليه ، فلهذا بذل غاية جهده في أن يمجتها من أصولها لأنها هي الحد الفاصل بين المتدينين والملحدين في الجملة فتي أزال هذا الحد الأكبر حصل له مقصوده وهو اعتناق الاتحاد ورفض الدين^(١) . ولما كان زنديقا مرتابا خائفا صار تعبيره في محاربة هذه الأصول مناسبا لحاله ، فأق به مجملا مليسا^(٢) ليكون أقبل له ، وليتسنى له التخلص من ظاهر معناه بالتحريف عند الحاجة اليه كعادته في مضايق قواعده الخبيثة . وقد وضع لكل أصل من هذه الأصول التي ذكرنا بحثا خاصا لهدمه وإزالته ، فوضع

(١) والشعوب الملحدة لإحادا محضا تقرر الكفر بهذه الأصول وتعلمه شبابها ، لكن تصرح أنه مضاد للاديان السماوية كلها

(٢) لأن حالة الزنديق المنافق لا بد أن يكون فيها شيء اللبس والتمويه قد تخفى على من يجهل حاله

لأصل الايمان بالله تعالى البحث الثاني (١) وهو الايمان بالانسان وعبر عنه بقوله (لقد كفروا بالانسان . الايمان به أول) ، يعنى أن الايمان بالله يقتضى الكفر بالانسان لأن الايمان بالله مبنى على أنه المتصرف فى الكون كله وأن الكون محكوم بأرادة قهارة وأنه يعلم كل شىء ويقدر على كل شىء ، والايمان بالانسان بأنه يعلم كل شىء ويقدر على كل شىء أو أنه ليس فوق قدرته شىء يصادم هذا ، اذ من المحال أن يجمع الانسان بين الايمان بالخالق والمخلوق بأنها متساويان فى التصرف والعلم والقدرة ، فلا بد من التفريق وهو يقتضى اختصاص الخالق بذلك دون المخلوق ، وهذا التفريق الذى أوجب الاختصاص على أصله - أوجب الكفر بالانسان بكونه يعلم كل شىء ويقدر على كل شىء وليس لعلمه ولا قدرته حدود ولا قيود ، وقد اجتهد غاية الاجتهاد فى إلغاء هذا التفريق (٢) وأطال البحث من أجل ذلك (٣) وجعل الايمان بالله كفرا بالانسان ، ولهذا أكد به قوله (الايمان به أول) أى قبل كل شىء ، فإذا حصل الاعتقاد بأن الايمان به أول حصل الكفر بما يتنافيه وهو الكفر بالله ، وهذا ظاهر لا يخفى إلا على أعمى البصيرة .

وأما الكفر بكتبه تعالى ورسله فانه وضع لذلك المبحث الثالث والرابع ، ولهذا أطال فى بهت المسلمين فيها بأنهم كرهوا العلم وحاربوه وأحبوا الجهالة والخرافات والأوهام ونحو ذلك ، حتى ادعى أنهم حججوا المرأة عن العلم . ثم انه فسر هذا العلم بفهم قوانين الطبيعة ونواميسها والموسيقى ودقائق الفلسفة ونحو ذلك ، وغرضه من هذا أن كتب الدين كلها تسند الامور كلها الى الله لا الى قوانين الطبيعة ونواميسها ، بل جميع الكتب ونصوص الرسل فى محاربة

(١) وهو الأول فى الحقيقة ، وما قبله كالمقدمة كما لا يخفى

(٢) ولهذا صرح بأن عدم منازعة الله فى علمه وقوته وقدرته محض مبين

(٣) لأنه أصل الأصول ، فجعل بحثه والإسهاب فيه أطول بحوثة فى أغلاله كلها

هذا الأصل أى التوجه الى الطبيعة والاعتماد عليها ، بل هى محكومة لا حاكمة تجرى على مقتضى مشيئة الله وإرادته ، كما أن كتب الله ورسله تنص على محاربة فساد الأخلاق التى منها الفواحش والدعارة والفجور ، وأكثر هذه متعلقة بالمرأة اذا أطلقت فى ميدان الفسق والاستهتار والإباحية وأشباه ذلك ، فكان مقتضى ما يحاوله أنه لا يمكن التوجه الى الطبيعة ونواميسها والانهاك فى ذلك والانكباب عليه والانطلاق فى ميدان الشهوات على اختلاف أنواعها المحرمة إلا بالكفر بما يضاد هذه الأمور وهى الأمور الدينية التى جاءت بها الكتب السماوية وأجمع عليها الرسل ، وحيث انه سعى ما يدعو اليه من الإلحاد والخبائث علما لزم من ذلك أن يسمى ما يضاده جهلا ، كما أنه حين حرص كل الحرص على الدعوة الى الايمان بما يدعو إليه فقد حرص كل الحرص على الكفر بما يضاده من كتب الله ورسله ، وهذا ظاهر ، وقد عرفت مما سبق هنالك معنى العلم والجهالة عنده

وأما الكفر باليوم الآخر فانه وضع له المبحث الخامس ، فعبّر عن عدم الكفر بالآخرة (بكرهه الدنيا) يعنى أن إيمان الناس بالآخرة هى كراهة الدنيا ، فجعل كل من آمن بالآخرة فقد كره الدنيا ، وإلا فهو يعلم حقيقة العلم أن الناس لم يكرهوا الدنيا بل صرح بأنهم يحبونها حبا عظيما ويريدون تحصيلها بكل الطرق حتى بالمحرمة منها ، ولكن النقطة هى أنهم لم يكفروا بالآخرة ، فلو كفروا بها لكان كفرهم هو حب الدنيا ، ولهذا أطال فى تمطيط هذا المعنى فى ذلك البحث من أجل هذين العاملين اللذين تنازعا وهما الخوف من التصريح بهذا اللفظ أى الكفر بالآخرة وحب الإلحاد والحرص على الدعوة إليه

وأما الكفر بالملكوت فانه وضع له المبحث السادس وفيه أن (الجهل بنواميس الطبيعة مانع من التقدم) وقد تبين فى هذا البحث أن نواميس الطبيعة

هى التى تحكم هذا العالم ، فصرح بذلك تصريحاً لا إشكال فيه ، وقد أطلال فى إنكار ما يرد على ذلك من اعتقاد تأثير الدعاء والطاعات وإنكار الأرواح ، وأطنب فى إنكار الأرواح ليتسنى له إنكار الملائكة ، وهذا ظاهر لمن تأمل هذا البحث كله

وأما الكفر بالقضاء والقدر فظاهر فى البحث السابع فانه فسر الايمان بالقضاء والقدر بالايمان بالأسباب المادية بأنها مربوطة بنتائجها وأنه تعالى لا يتصرف فيها ، وهذا هو عين إيمان الكفار بالأسباب ، والنتائج كما تقدم ولما كان التوكل على الله تعالى من أعظم أصول الدين وأنه صلة بين العبد وبين ربه ، وهو يتضمن تلك الأصول كلها ، وضع له هذا الملحد بحثاً خاصاً واجتهد غاية الاجتهاد فى إفساده وإزالته وتشويهه حتى حرف معناه جهاراً ، فلهذا أطلنا فى إيضاح هذا الأصل وإبطال كلامه

وأما المباحث الآتية فانها زيادة تأكيد وتأييد لما قرره فى المباحث الأولى ، لأن حقيقة الحث على التوجه الى الطبيعة ونواميسها ومحاربة كتب الدين وعلمائها ، لأن ذلك يعارض ما يدعو إليه . ثم انه - لحاه الله - لم يكتف بتقرير هذه الشناعات والكفریات الواضحة حتى حول أصول الدين فجعلها هى عين أصول الملاحدة ، ففسر الايمان بعديل الله وعلمه وحكمته واخباره بالايمان بتفاعل الطبيعة وأن النواميس هى التى تحكم هذا العالم وأن الله لا يتصرف فى الأسباب فيجعلها إن شاء أسباباً وإن شاء غير أسباب ، بل هذا هو السقف والفوضى ، فجعل ايمان الملاحدة بكون الطبيعة بتفاعلها هى التى تحكم العالم - هو عديل الله وعلمه وحكمته واخباره كما أوضحنا هذا فيما سبق ، ولهذا أكد هذا التقرير الخبيث بأنه هو الدين الصحيح حيث ادعى بأن كتابه هو محاولة فهم الدين وأنه وفق بين روح الدين وروح العمل وجعل ما يضاد هذا الذى ادعاه ديناً باطلاً وأنه هو أصل المزالق ، فالدين الباطل عنده الذى لا يمكن ان يقدم

صاحبه هو ما يخالف ما قرره في هذه الأغلال . وهذه الآراء الشنيعة أكثرها مستمد من ملاحظة القرن الماضي مثل غوستاف لوبون وأمثاله فان غوستاف هذا قرر كثيرا من هذه النظريات لكنه معترف بانها مصادمة لنظريات الأديان لأنه غير محتاج الى النفاق والزندقة كحاجة هذا ، فقد قرر غوستاف أن الكون يجرى على مقتضى تفاعل طبيعي ليس لله تدخل في أسبابه ونهاياته ، وادعى على علماء الدين - إما جهلا أو تجاهلا - أنهم ينكرون أن يكون بين الأسباب ومسبباتها ترابط مطلقا حيث قال ص ١٤٧ (الآراء المتعقدات) :
 • لا أهمية لارتباط الاشياء والحوادث بعضها ببعض عند أولى النفوس الدينية فالارتباط المذكور في نظر هؤلاء إن هو إلا أمر يختص بموجودات علوية .
 نعانى عزائمها فقط ، (١) وقد كذب في هذه الدعوى فقد ذكرنا كلام شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم في نقلها القول بربط الأسباب بمسبباتها وأن الأسباب تؤثر بالقوة المودعة فيها بقدرة الله تعالى وان ذلك هو قول جماهير

(١) ان غوستاف لوبون قد يكون له شيء من العذر في مسألة ترابط الأسباب فقط وان كان ملحدا خبيثا لأنه بين أناس خرافيين من مسيحيين ووثنيين وعباد قبور وجمية ، فهو يظن أن الدين هو ما يعرفه هؤلاء الخرافيون الذين حولوه ، وهذا من أسباب ضلال كثير من الناس اذ يرون أناسا من الجهمية الذين ينكرون علو الله على عرشه وكلامه وكثيرا من صفاته وينكرون أن يكون بين الأسباب ونتائجها ترابط ويدعون الأموات ونحو هذا ، فاذا رأهم هؤلاء الضلال ظنوا أن الدين هو ما عليه هؤلاء ، ولا شك أن هؤلاء فئة للذين كفروا ، فاذا رأهم ازدروا الدين واحتقروه وازدروا أهله واحتقروهم ورموهم بالغباء والجهالة جميعا ، لأنهم يحسبون أن هؤلاء هم أهل الدين . ولكن هذا المعارض الملحد قد عرف كتب شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم وغيرهما التي تشتمل على الدين الصحيح وفيها من نور المعارف ما فيه كفاية لمن أراد الاطلاع على الدين الحق ، فليس هو مثل متبوعه لوبون ، بل هو يعرف الحق معرفة واضحة ، ولكنه كفر استكبارا وعنادا ورغبة في تحصيل أمور أخرى

علماء المسلمين لم يخالف في ذلك إلا طائفة من طوائف الأشعرية ، بل عديم تأثير الأسباب هو في الأصل قول الجهمية الذين كفرهم السلف بسبب انكار الصفات ، وقد نقل ابن رشد الحفيد القول بترابطها عن الجمهور أيضا . وربط الأسباب بمسبباتها لا ينفي تصرف الله فيها ، فانه سبحانه يفعل بالأسباب لأن الأسباب مختلفة ومتضادة فيدمر بعضها ببعض ويقوم بعضها ببعض ويكمل بعضها ببعض فهو سبحانه إذا شاء بطلان أسباب سلط عليها أسبابا من جنسها إما أكبر منها أو مضادة لها في الطبع أو غير فكرة أهلها حتى يوقعهم في الأغلاط التي تفسدها وتبطلها ، فهو سبحانه الحاكم عليها فيغيرها بنفسها تارة وينتاجها تارات وبايدى أهلها أحيانا ، فربطها من تصرفه فيها ، كما أن خلق أضدادها من تصرفه فيها أيضا ، وتقلب قلوب أهلها التي هي من أعظم العوامل فيها من تصرفه فيها ، فالعوامل التي تبطل الأسباب لا يعدها ولا يحصيها إلا الله تعالى ، كما أن كثيرا من الأسباب العظيمة - فضلا عما هو دونها - قد شوهد بطلانها في كل حال وزمان ، بل وشواهد إضرارها بأهلها في كل حال ومكان وزمان

وكذلك قول الملحد غوستاف ص ١٤٨ « لعل أهم ثورة ظهرت في عالم التفكير هي الثورة التي أدى إليها العلم بآثاره أن الحوادث تصدر عن نواحيس معينة لا عن أهواء الآلهة ^(١) الخ . فان هذا الكلام مبني على جهله بالدين وبأهله وقد بينا لك أن أقول علماء الدين كالامام ابن تيمية وابن القيم والذهبي وغيرهم صرحوا بأن الأسباب مربوطة بأسبابها وأنها مؤثرة فيها بالقوة المودعة فيها ، بل نقل ابن القيم هذا عن جماهير المسلمين ^(٢) كما قرره أيضا ابن

(١) هذه الجملة والتي قبلها من كلام جستاف لوبون هي من النقط العامة التي اعتمدها صاحب (الاغلال) وبنى عليها أكثر كلامه في الأسباب ، فهذا هو مشربه ومذهبه

(٢) في كتابه (شفاء العليل) وغيره

ورشد ونقله عن الأئمة ورد - كما ردوا - على من خالف ذلك . فإذا كانت هذه الثورة التي أعجب بها وجعلها أهم ثورة هي التي كانت سببا في الظفر بالعلم المادى والحضارة فقد سبق علماء الدين وأئمة المسلمين إليها غيرهم ، وإن غيرهم من علماء الغرب إنما أخذوها عنهم ، فكيف جازله أن ينقل عنهم نقيضها ، وإن كان المقصود من هذا هو أن الله تعالى لا يدبر هذه الأسباب ولا يتصرف فيها مطلقا فهذا لم يقل به إلا الملاحدة المنكرون للأديان جملة والكلام مع هؤلاء له شان آخر ، ويكفى في بطلان كلامهم مشاهدة بطلان الأسباب القوية قهرا على أهلها وتعذيبهم بها دون من هو دونهم ، كما أنه يكفى في فساد عقولهم لإثباتهم جملة الأسباب بدون مسبب أول وأن الحوادث المنظمة المحكمة تحدث بدون محدث عالم حكيم مريد وإيمانهم بالجزئيات في هذا دون الكليات مع أن الكليات أعظم وأبدع

ومن أوغل الكفر والمكابرة ما قاله في هذا المبحث ، ان الانسانية بمجموعها هي التي أوجدت هذه الحياة وبنت هذا المجتمع وسخرت كل هذه الطبيعة بعقولها وكواهلها دون أن يعينها معين أو يشاركها مشارك ، انتهى فهل أظهر من هذا الكفر كفر حيث صرح بأن الذى أوجد هذه الحياة والمجتمع وسخر الطبيعة هو الانسان بعقله وكاهله ^(١) فجرد الله تعالى من تصرفه في ملكه بل جرده من إيجاد هذه الحياة . وانظر كيف صرح تصريحاً لا إشكال فيه بأن الذى سخر الطبيعة هو الانسان بعقله وكاهله ، ولا ندري كيف يجتمع الايمان بهذا القول والايمان بقوله تعالى ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الارض ﴾ وقوله تعالى ﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه ﴾ الى أمثاله ذلك من الآيات . وهذا الملحد يقول : ان الذى سخر هذه الطبيعة وأوجد

(١) قد فسر هذا الانسان فيما تقدم بأنه المنحرف عن الدين المتحلل منه حيث قال : ونجد الذين صنعوا الحياة هم المتحللون من الأديان المنحرفون عنها

الحياة والمجتمع هو الانسان . ثم أكد هذا بان ذلك كله بعقله وكاهله ونفى أن يكون لله تعالى إعانة في ذلك ، والله سبحانه وتعالى يقول ﴿ هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والارض ﴾ ، ﴿ وما بكم من نعمه فمن الله ﴾ ، ﴿ آمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض ألمه مع الله ﴾ الآية ، وقال تعالى ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد ﴾ وقال تعالى ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾ وفي الحديث الصحيح « يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعموني أطعمكم . يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسونى أكسكم . يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم » الى آخر الحديث . وهذا الملحد يقول : ان الانسانية هى التى أوجدت هذه الحياة والمجتمع ، بل وسخرت هذه الطبيعة بدون أن يعينها معين أو يشاركها مشارك . فض الله فاه ما أجرأه على الزور والفجور ، ثم هو مع كونه كفرا صريحا فهو مكابرة فى الحسيات ومباهة فى الضروريات وسفسطة فى المعقولات ، فانه من المعلوم بالضرورة والوجدان الذى لا يستريب فيه أحد من الناس أن هذه الانسانية كلها إنما تعيش فى هذه الأرض بالآكل والشرب والحر والبرد والهواء ونحو ذلك ، فنقول لهذا الزنديق : من الذى خلق الماء فأنزل من السماء ماء وفجر الأرض عيونا وأنهارا ومن الذى خلق الحيوان والنباتات التى خلق منها الحبوب واللحوم والألبان والادهان ومن الذى خلق العناصر الأصلية كالهواء والتراب والحرارة والبرودة وغير ذلك كالليل والنهار ، هل هو الانسان أو الله رب العالمين ، فإى حجة خردل أوجدها الانسان من هذه الكليات والجزئيات التى قامت عليها الحياة والمجتمع ، فضلا عن أن يكون هو الذى أوجدها وحده بدون إعانة معين أو مشاركة مشارك ، غاية ما فى ذلك أن يكون كالعامل الذى أدخل ملكة أو دارا واسعة

قد جهزها صاحبها بجميع الأجهزة اللازمة التي تحتاجها ، فأمر هذا العامل أن يعمل فيها بآلاتها الكاملة فيها ، ويعيش من عمله فيها ، فهل يسوغ في العقل أن يقال ان هذا العامل هو الذي أوجد هذه المملكة أو الدار بما فيها من حياة بدون أن يعينه معين أو يشاركه مشارك ، وهل هذا إلا هراء لا يقوله من يدري ما يقول ، وخلق بعقل تنجس بقاذورات الاتحاد أن ينحط الى هذه الدرجة النهائية من الزندقة والنفاق ، فان هذا الملحد لما عزم على الكفر اختار أقصى حد يوجد فيه فاعنتقه ، وحيث أن الزندقة وعداوة الأديان وقلب أصول الدين أصولا للكفر هو أقصى حد في الكفر فإنه اختاره واعتنقه واطمأن به ودعا اليه ^(١) نسأل الله العافية بمنه وكرمه

وكل تقريره في هذه الأصول هو من هذا النمط في السفسطة والمكابرة والبهت والنفاق ، ولهذا لم يخف على ذوى البصائر كفره ومحاربتة للدين كما أشرنا الى هذا فيما سبق

وقد اشتهر ما كتبه شيخنا المحقق العلامة محمد بن ابراهيم لما اطلع على أغلاله فكتب في شأنه بأنه حرب صريح للإسلام ودعاية ضده ، وقد سمعته غير مرة يقول فيه إنه ملحد وكفره ظاهر . وقد قدمنا في المبحث الأول بعضا مما يتعلق بهذا . وجميع علماء المسلمين العارفين بدينهم لا يشكون في زندقته ومروقه من الاسلام ، ولو ذهبنا ننقل كلامهم في تفكير هذا الملحد لطال

(١) ولعمق ما في قلبه من جذور النفاق وعداوة الأديان انه شديد الولع والمحبة لكل من كان أشد كفرا ، ولهذا تجده اذا ذكر اليهود والبالشفة ونحوهم انحدروا كالسيل في كيل المديح لهم فيأتى بأضخم عبارات المدح والتعظيم فيكيلها لهم جزافا ، فاذا ذكر المسلمين ولا سيما أهل القرون المفضلة وأهل الحديث انقلب كالكلب العقور وأطال في اللجاجة والشتم والنسب والتهمك والازدراء والفحوة المتناهية

الكتاب جدا كما قال مشايخنا الأجلام عبد الله بن عبد العزيز العنقري ورئيس
القضاة عبد الله بن حسن وأخوه عمر - كيف يشك مسلم في كفره ومحاربه
للدین ، حتى قال رئيس القضاة : أصول دعايته كلها مناقضة لأصول دعاية
القرآن مناقضة صريحة . وكلام جميع علماء الدين العارفين بدينهم يرون فيه هذا
الرأى ^(١) كما شرحناه فيما سلف . ولنعذرنا القارىء فيما يرى من تكرار بعض
العبارات ، فان هذا أمر لا بد منه ، لأن كلامه مكرر معناه ، وإنما يختلف في
التعبير فقط ، ولا بد أن يكون الجواب مناسباً لكلامه . على أن كل موضع فيه
شيء من التكرار لا بد أن فيه زيادة فائدة ، كما أن التكرار في موضع لا بد فيه
منه لا بأس به لايضاحه أو تأكده ، وكتب الرد على أهل الباطل لا تخلو من
هذا ولا سيما في الأصول كما يعلم من تتبعها وكما يعلم من أسلوب الكتاب العزيز
وصنيع أئمة الدين مثل البخارى وأحمد وابن خزيمة وابن تيمية وابن القيم
وغيرهم والله أعلم

(١) وقد طبع مجموعة من القصائد النجدية في الرد عليه كتب عليها الشيخ عبد
العزيز بن باز تقریظاً حسناً و بین أن كفره ظاهر لا ريب فيه

الكلام على المبحث التاسع - في الاسباب

عنوانه في أغلاله هكذا :

(الأسباب - أو هام الناس فيها - كيف يجب أن تفهم)

وحقيقة هذا المبحث هو نفس ما قرره في المباحث السابقة في الطبيعة ونواميسها لا يختلف عنها في شيء سوى زيادة التكرار والمجازفة وتحريف النصوص الدينية . وقد سبق الكلام في نواميس الطبيعة وأسبابها في مواضع كثيرة جدا حتى مللنا من تكرارها ، ولكن نذكر هنا بعض ما يتعلق بهذا البحث زيادة للإيضاح ، ودحضا لباطله الذي شغف به . وقد تقدم كلام شيخ الاسلام في وجوب مراعاة الأسباب شرعا وعقلا وأن الاعتماد عليها شرك محرم ، كما أن عدم الأخذ بها وتركها رأسا محرم أيضا

قال الملحد بعد ذكر العنوان المذكور :

« اقصد الى تربة غنية بالعناصر اللازمة للإنبات والإنباء ، وادفن فيها البذر الصحيح القوى في الوقت المناسب ، ثم اسقها بالماء وفاق أصول الرى العلمية الصحيحة ، ثم انظر كيف تنبت هذه التربة ، وكيف يحى نباتها . انها سوف تنبت وان نباتها سوف يخرج جيدا إلا أن تكون هناك آفة من الآفات الزراعية . فاذا لم تنبت أو لم يكن نباتها قويا صحيحا فلا ريب في وجود مانع إما في الارض وإما في البذر وإما في طريقة الرى وإما في المناخ وأما في أحد الاشياء المعروفة . أما أن تجتمع هذه الأمور وتنبت هذه الموانع ثم لا يخرج النبات - أو يخرج ولا يكون صحيحا - فمحال ،

فيقال : هذا ليس من الحجة في شيء ، بل هو حجة عليه ، فان كلامه هنا يتضمن أن خروج النبات من البذر صحيحا متوقف على اجتماع هذه الاسباب وانتفاء الموانع والعوارض ، فتضمن هذا أن الاسباب كلها ضعيفه لأن كل

واحد منها عاجز عن الاستقلال بالإنبات ، بل لا بد من أن تتعاون ولا بد من أن تكون صحيحة ولا بد أيضا من أن تكون مرتبة ترتيبا طبيعيا على وفق خلق الله لا على ما يريده الإنسان . ثم إذا حصل هذا كله فلا بد أيضا من أن تنضم الى ذلك أمور أخرى وهي انتفاء الموانع والعوارض ، ومعلوم أن الموانع لا يعدها ولا يحصى أنواعها إلا الله تعالى ، وهي أسباب أخرى تضاد هذه الأسباب المذكورة وتقهرها وتغلها ، وهي تتأق في التربة وفي المناخ وفي الري ، وتأق في جميع الأطوار التي يقطعها النبات . ومعلوم أيضا عند كل عاقل أنه ليس في استطاعة أحد من بنى آدم - بل ولا بنى آدم كهم - أن يمنعوا جميع الموانع والعوارض ويوجدوا جميع الأسباب بقدرتهم الذاتية . ومن العجب أنه جعل من الموانع الأشياء المعروفة ، وكل عاقل يعرف أن الأشياء المعروفة عند الناس هي الآفات وأكثرها ليس في قدرة الإنسان منعه وإنما ذلك راجع الى المشيئة العليا والقدرة الربانية ، فإذا أراد الله قطع المنفعة من هذا النبات سلب عليه آفة وسبب من هذه الأسباب الكثيرة التي تحت قهره وطوع مشيئته كأن يتلفها بحيوانات أو برد أو برد أو صاعقة ، ويسلب عليها حيوانات أرضية من السوس أو غيره ، فصارت الأسباب كلها لا تستقل بوجود النتيجة بل لا بد من مراعاة القدرة والمشيئة الربانية ، فالأسباب قاصرة ضعيفة لا تستقل بوجود النتيجة فكيف يجوز أن تعبد وان يصرف الإنسان وجهته اليها من دون الله ، بل عليه أن يستعملها على وجهها باجتهاد ويعتمد ويتوكل على خالقها ويستعين به ، وإعانتته تعالى هي التي تكملها وتركيبها وتنميتها ويحصل منها الانتفاع على الوجه الأكمل المطلوب

وينبغي أن يلاحظ أن النزاع بيننا وبينه ليس هو في تأثير الأسباب بالقوة المودعة فيها بمشيئة الله وقدرته ، إنما النزاع بيننا وبينه في استقلالها بإيجاد نتائجها بدون مشيئته تعالى وإرادته ، وأنه تعالى لا يقدر على تغييرها وقطع سبب عن مسببه ، فافهم هذا جدا لكي يزول عنك تلبسه ، فان خداعه في هذا المبحث

يوهم أننا لا نعتبر الأسباب شيئا وأننا ننفي تأثيرها أو ارتباطها بنتائجها وأن وجودها كعدمها ، وهذا لم نقل به ، ولكنه ممتحن بمجادلة الأوهام التي يصورها هو على ما يريد . ويقال له أيضا : من الذي خلق التربة وخلق الرى وخلق البذر والمناخ والعامل ورتب ذلك على هذا الترتيب الذي لا يستطيع أحد من الخلق تغييره أو تبديله ، ثم خلق لذلك موانع وعوارض أيضا لا تنضبط أنواعها ، أفليس ذلك هو الله وحده ، فلم لا يتصرف فيها وهى ملكه وطوع إرادته ، فإن شاء أصلحها وهذا هو الغالب فإن رحمته غلبت غضبه ، مع أن الذنوب أكثر من الطاعات ، وإن شاء أتلفها عدلا منه وحكمة ، كما أن هذا يقع بالحس والمشاهدة أيضا

وقد تقدم فى المبحث الأول قاعدة فى الأسباب ونتائجها وبيننا أن كل نتيجة فلا بد من أن يتوقف حصولها على أمر غيبى ، فارجع إليها إن شئت فما ذكره هنا حجة عليه

فصل

قال : ثم أقصد الى أرض غير صالحة للإنبات وضع فيها بذرا ، أو صالحة للإنبات ثم لا تسقى بعد وضع البذر فيها مع امتناع الماء عنها ، أو الى أرض صالحة للإنبات واسقى بالماء راجيا أن تنبت بدون أن يكون فيها البذر ، ثم انظر هل من الممكن أن تنبت هذه الأرض مهما دعوت ورجوت ،

فيقال : هذا أيضا كالذى قبله ليس من الحجة فى شيء ، فإن الله وضع لكل شيء قدرا ونظاما بشروط وأركان معينة ليس لأحد من خلقه قدرة على تغييرها وجعل وجود النتيجة متوقفا على ما وضعه هو وجعل الحصول عليها والانتفاع بها ليس محققا يقينا ، وفرق بين الوجود والحصول والانتفاع ، وذلك أن عمل الزراعة عمل مستقل قد وضع الله له سنة مستقلة انفرد بها فلا يمكن لمخلوق

تبديلها ، وهذا من أعظم الحجج على هذا الملحد الذي يدعى أن في إمكان الانسان أن يقدر على كل شيء ويتغلب على كل شيء ، وأنه ليس شيء من الأشياء كائنا ما كان فوق قدرته ، فما باله عجز عن تغيير هذا الترتيب أو تبديل شرط من هذه الشروط ، فما ذكره في الجملة الأولى هو الوضع الذي تكون به الزراعة ، وما ذكره هنا ليس بزراعة ، فان سقى الأرض عن غير وجود بذور فيها ليس بزراعة ولا يسمى زراعة ، اللهم إلا أن يكون في لغة الزنادقة . وكذلك وضع البذر بدون سقى فان هذا محاولة لتبديل وضع الله ، ففيه بيان عجـز الانسان وضعفه وأنه لا يقدر على تغيير هذا الوضع ، فانه سبحانه وضع هذه الأصول والشروط والأركان لهذا العمل الزراعى ، فمن جاء به على هذا الوضع الذى وضعه الله عليه وجد مسبيه وكان وجوده مراعى تحت المشيئة والارادة ، ولهذا فان الزرع وان نبت فهو عرضة للتلف ، وان سلم فهو عرضة لتلف آخر بأن لا يحصله الزارع ، ثم إذا حصله فهو في معرض تلف آخر وهو الحيلولة بينه وبين الانتفاع به فكـم من زارع لم يستحصل على ثمرة زرعه وكـم من مستحصل عليها لم ينتفع بها ، وهذا شيء ظاهر معروف ، ومثل هذه الأوضاع الأوضاع الدينية ، فان الحجج مثلا فرض دينى أى من السنن الدينية فلا يسمى حجا إلا بوجود أركانه وشروطه وانتفاء الموانع والمبطلات ، فبوجود هذا كله يسمى حجا ويرجى منه حصول النتيجة المرتبة عليه ، ولكن الحصول على النتيجة ثم الانتفاع بها أمر وراء ذلك كله ، ولو أن رجلا وقف بعرفات وسعى بين الصفا والمروة ولم يطف لم يحصل له الحجج الدينى مهما دعا ورجا ، فلا بد من الإتيان بالحج على الوضع الدينى . كما أنه لا بد من الأركان والشروط فى مسألة الزراعة ، فكل عمل سواء أكان دينيا أو ماديا قد وضع الله له سنة متحدة ولولا ذلك لاختلطت الأعمال وشاعت الفوضى فيها ، فنسبة الأعمال المادية لنتائجها كنسبة الأعمال الدينية لنتائجها ، وذلك أن الله تعالى وضع السنن المادية وسائل للسنن الدينية ، فان الله سخر لعباده ما فى الأرض جميعا ليعبدوه ويعرفوه

ويتقوه ، فالسنن الدينية هي الغاية الموصلة للسعادة الكبرى في الدنيا والآخرة ،
وسنة الطبيعة وسيلة لها فمن نفي فوائد الأسباب الدينية وأبطل نتائجها فهو أشنع
من نفي فوائد الأسباب المادية ونتائجها ، ومن رجا وجود ذرع بدون أرض
أو بذر أو سقى فهو كمن رجا فائدة حج أو صلاة أو صيام بترك بعض أركانه
فلا ينفعه رجاؤه هذا ولو دعا هنا لكان دعاؤه دعاء اعتداء قد صادم به سقته
الدينية وقد أخبر تعالى أنه لا يحب المعتدين فقال ﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية
انه لا يحب المعتدين ﴾ فينبغي أن يعرف أن أصول الأعمال ثابتة لا تتغير
ولكن نتائجها والحصول عليها تتغير دائما بحسب نية الانسان وقصده وعمله ،
لأن هذه الأمور هي التي يقع عليها الجزاء والثواب والعقاب ، وكلام شيخ
الاسلام صريح في أن الأسباب تراعى شرعا وعقلا ، أى تعتبر عوامل
وموضوعات للنتائج ، وذكر أن التوجه إليها قدح في التوحيد وأن الاعتماد عليها
شرك ، وذلك لأنها لا تستقل بحصول النتيجة وحدها بل بمشيئة الله تعالى ،
فهو المسخر لها فيجب الاعتماد عليه ، وهو المتفرد بالتدبير وحده وإنما وضع
الأسباب محدودة مقدره بحدودها ومقاديرها لطفًا بعباده وامتحانًا لهم ودليلا
على قدرته وكأله ليبتدوا بها وإليها في تحصيل حاجاتهم ، إذ لو كانت الأسباب
مختلطة غير محدودة ومقدرة لتأهوا فيها ولكثر العبث بها ولسادت الفوضى ،
فما ذكره حجة عليه ، فانه اذا كان يرى أن العلة في الاعتماد على الأسباب هو ما
ذكره فكذلك جميع الأسباب الدينية والدنيوية ، واذا كان لا يحكم إلا على
المحسوسات فليترك وجود الأرواح وأمثالها من الروحانيات وهذا مكابرة

فصل

قال د أو اقصد الى كائن حى وامنع عنه الطعام والشراب أو امنع عنه
الهواء أو أفسد فيه أحد الأعضاء التي لا تكون الحياة بدونه ، وانظر هل من
المحتمل أن يبقى حيا ، أو وفر لهذا الكائن الحى ما يلزم له من طعام وشراب

وهواء وادفع عنه الآفات وما تكون به الوفاة وانظر كيف يبقى حياء

فيقال : هذا المسكين يحاول نصر رأيه في هذه الأصول العظيمة بهـذه
السخافات المضحكة والهديان البارد ، وهى كلها حجة عليه كالمسائل المتقدمة .
وهنا طفق يزخرف تمويهه في هذه المسألة فزلت قدمه في قوله وادفع عنه
الآفات وما تكون به الوفاة . يا مسكين من هو الذى يحيط بالآفات وما تكون
به الوفاة ويقدر على ضبطها ودفعها غير الله ، وهل أحد من الخلق يمكنه ذلك ،
فهؤلاء ساداتك من الماديين وغيرهم من الملاحدة قد درسوا كثيرا من معرفة
هذه الآفات فهل أحصوها وعرفوها وهل قدروا على ما عرفوه فضلا عما لم
يعرفوه . فوجود الطعام والشراب والهواء ليس كافيا فى الحياة ، بل لا بد من
وجود أمور أخرى ، ولا بد من انتفاء الموانع والعوارض . ثم لو كان وجود
هذه الأمور وانتفاء موانعها مضبوطة مقدورا عليها من كل وجه لاستمرت
الحياة ، والا فلهرم لا ينفع معه وجود هذه الشروط وانتفاء الموانع لحلول
علل أخرى لا طاقة لأحد بتبديلها وتحويلها ، وهذا كاف فى بطلان كلامه

ثم إنه شرع فى الطعن فى الهواء كمعادته بناء على هذه الجمل التى ساقها وقد
علمت ما فيها ، فذكر أن الأسباب اذا وجدت وافية وجدت المسببات وإلا
فلا . وقد سبق الكلام فى هذا مرارا . ثم شرع فى تشويه سمعة المسلمين بأنهم
تركوا الأسباب ولم يروها شيئا ، وأن ذلك من أسباب تأخيرهم فقال :

• أساء المسلمون الظن بالأسباب ، وأكثروا من القول فى تقليل قيمتها
وأثرها ، بل فى تجريدها من كل قيمة وأثر ، وملأوا الكتب والمنابر والنوادى
والمجالس كتابة وخطابة بان تحصيل السبب وافيا ليس معناه تحصيل المطلوب ،
وأن فقدته ليس معناه فقد المطلوب ،

فيقال : أنت أسأت الظن بالأسباب الدينية بل شتمتها وحاربتها وعاكستها
وأكثرت من القول فى تقليل قيمتها وأثرها ، بل لم تجعل لها قيمة وأثرا بل

جعلتها ضررا محضا حيث قررت أنها ملهاة وتعويق ومصرف خبيث وشر مبدئ
يؤدى ، وملأت الأوراق وأتعبت نفسك فى اللجاجة والخصومة فيها فى الأندية
والمجالس والمحاضرات ، وأما المنابر الدينية فقد صانها الله منك مدعيا بأن العمل
بالسبب الدينى ليس بوسيلة وليس له من فائدة ، والله يعلم أن أغلاك هذه
كلها فى هذا الشأن . ومعلوم أن الكتب السماوية كلها وجميع الرسل إنما كانت
زبدة رسالتهم هى الحث على الأسباب الدينية والقرآن كله من أوله الى آخره
قد علق الفلاح والصلاح والنجاح على الأسباب الدينية ، ولهذا تجد القرآن قد
حصر المجد وجميع الخير فى التقوى والإيمان والعمل الصالح ، وكذلك السنة ،
وليس فيه من الحث على الأسباب المادية سوى شىء يسير جدا بمجمل ، بخلاف
الإيمان والأعمال الصالحة فإنه كرر الآيات فيها وفصلها وعظمها وبينها غاية
البيان وعلق النجاح والسعادة الدائمة عليها ^(١) فبالك عدلت الى ما عظمه الله
تعالى وعلق الخير كله عليه فصادمته وحاربتة وعاندته فجعلته ملهاة وشررا
وتخديرا وجهلا وضلالا الى غير ذلك من السب والشتم الذى لا يحصى وذهبت
الى الأسباب المادية التى أشار اليها إشارة بمحتملة ومحذرا عن الاعتماد عليها
فعاكست الله ورسله وأنبياءه وعباده المؤمنين أعظم معاكسة ، فأهلك
نفسك فى الحث على الاعتماد عليها حثا أخرجك الى حد الجنون ، هذا مع أنك
تعلم أن الناس لا يحتاجون الى مثل هذا الحث على ما هم فيه من الدافع الطبيعى ،
بخلاف الأعمال الدينية فإنهم فى أعظم الحاجة الى ذلك فإن الناس فى الأسباب
المادية لم يقصروا فى الأخذ بها واستعمالها فقد جن بعضهم وقتل بعضهم وسجن
بعضهم وضرب بعضهم وكفر بعضهم كله من أجل الأخذ بها والاعتماد عليها ،
والقليل النادر فيهم الذى فى غاية الكسل عنها قد اتخذ له وسيلة مباحة فى

(١) وذلك لعله سبحانه بما سيكون ، فإن حث الناس وتأكيد الأمر عليهم فى هذا
أعظم من الأمور المادية ، لأن الشهوات والحاجات كافية فى سوقهم اليها كما هو الواقع

تحصيل ما يقوم بكفائته . ثم إنك تعلم أنه لو قدر أن أحدا منهم فرط فيها وتساهل فليس ذلك من أجل اشتغاله بالعبادة بل من أجل اتباع هواه وإصابته بوباء النفاق أو الاحاد لا من أجل الدين . ثم إنك تعلم أيضا حقيقة العلم أن الأسباب الدينية قد أهملت وضيعت وتركت ورفضت إلا أقل القليل ، وهذه مواضع اللهو مملوءة كل وقت والمساجد فارغة إلا أقل الأوقات ، وإذا قيس مواضع اللهو بمواضع العبادات بأنواعها ومقالات الاحاد والاستهتار بمقالات الدين وكتب الاحاد والكفر والشرك بكتب الدين ومجلات الكفر والنفاق والزندقة بمجلات الدين وأمثال ذلك لتبين الفرق الواضح الجلي بين الرغبة في هذا والنفرة من الآخر ، فما بالك عمدت الى أنفس نفيس في الدنيا متروك مهمل مزهود فيه وادعيت أن الناس منهمكون فيه وذهبت الى مضاده وهو التساهل في الدين ونحوه من الأمور التي قد انهمكوا بها وهلكوا فيها فادعيت أنهم تركوه وقصروا فيه وأساءوا الظن به ، أليس هذا كله من قلب الحقائق ومن معاندة الله ودينه وعباده المؤمنين ، فالله يجازيك بعدله أنه سمع بحجب حيث صددت عن سبيله وسعيت حثيثا في إضلال عبادك

فصل

قال : وقد صار الناس في هذه المسألة طائفتين : إحداهما أكبر من الأخرى ضلالا (١) ، طائفة تنكر الأسباب والاختذ بها جملة وتنكر أن يكون لها شيء من الأثر وتطعن في دين من يأخذ بها ومن يراها شيئا ، وزعماء هذه الطائفة كثيرون ، منهم الغزالي في كتاب منهج العابدين ، ثم ذكر كلاما له ولناس من غلاة الصوفية كما هو دأبه في غزو الاسلام بكلام بعض الصوفية

(١) لو قدر أن في هذا ضلال فأين ضلال من أنكر الأسباب المادية والاختذ بها من ضلال من أنكر الأسباب الدينية وادعى أنها ليست بوسيلة وليس لها من فائدة

أما ما نسبته الى الغزالي (١) فليس بصحيح بل تقدم كلام شيخ الاسلام ونقله عنه بأن إنكار الأسباب عن أن تكون أسبابا قدح في الشرع ، وكتبه كلها شاهدة في الحث على الأسباب . أما غلاة الصوفية فقد بينا أنه أقرب لهم في الشبه من المسلمين ، فان كثيرا منهم ملاحدة فعلوا ما فعلوه لأجل إضلال المسلمين بدعوى أنهم مسلمون ، وقد تقدم الكلام في كتبهم وأن إجماع المسلمين منعقد على عدم الأخذ بظاهرها حتى عند الموافقين لهم ، لأنهم يقولون : لهم اصطلاح لا يفهمه إلا من دخل معهم فيما هم فيه من التصوف ، وكثير من أهل العلم يخرجون غلاتهم من الملة ، فكيف يحتاج بأقوالهم ويجعلها سهاماً يرمى بها الاسلام مع أنه يرى رد العلماء عليهم في كتب أئمة المسلمين عما لا يعد ولا يحصى ككتب شيخ الاسلام وتلميذه ابن القيم ، ولكن مقصوده من هذا معروف وهو التوصل بكل ما أمكنه الى إشانة الاسلام والتفجير منه ليقول ان أهله على فساد من الرأي فيجب رفض كتبهم وعقائدهم وإبدا لها بآراء الملاحدة التي قررها في أغلاله غلت بها عنقه ويداه وكان من الخاسرين

ثم ذكر الطائفة الاخرى فقال :

« وأما الطائفة الاخرى فانها لم تنكر الأسباب جملة ، ولكن جردتها من التأثير ، وزعمت أنها مظاهر صورية يؤديها الانسان ، لأن الله أمر بتأديتها ، ولأن الطبيعة البشرية تطمئن اليها لأنها تؤثر أو توصل ،

فيقال : هذا كذب ظاهر على هذه الصورة التي ادعاها ، والتقسيم باطل من أصله ، فان التقسيم الصحيح ما ذكره قريبا من أن الناس ثلاثة أقسام

ثم قال : « وقد ذكروا في توجيه المسألة احتمالين كلاهما عندهم كفر ،

(١) أى التساهل في الأسباب

فيقال : وهذا أيضا بهت وفجور لا شك فيه مع أنه تفريع لا يلتزم مع ما قبله . ثم ذكر الاحتمالين فقال :

و أحدهما الزعم أن الأشياء توصل الى نتائجها بطبيعتها ، وأن الأسباب تؤدي الى مسبباتها بقوتها . وثانيهما الزعم أنها علل تترتب عليها المعاولات . وكلا الأمرين عندهم كفر ، فمن اعتقد أن السيف يقطع بطبعه وأن النار تحرق بطبعها وأن الطعام والشراب يشبع ويروى كذلك وأن الكائنات الحية من طبيعتها النماء والحركة وأن العمل والطلب والذكاء والعلم يوصل الى النجاح ويعصم من الفشل والإملاق ، أو اعتقد أن الأشياء المذكورة علل لما يراد منها ويطلب بها فهو كافر زنديق مشرك بالله على ما زعموا ،

والجواب أن يقال : ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجا . وقد قدمنا أن هذا الملحد فيه شبه قوى من اليهود في البهت والمكابرة والتجريف ومقت الفضائل وغمطها والتستجير منها ، ولم نعلم أحدا حارب المسلمين ودينهم بالزور والفجور والأكاذيب والبهتان مثل هذا الملحد ، فمن أعظم البهت وأجر الفجور دعواه على المسلمين بأنهم يرون أن من اعتقد أن السيف يقطع بطبعه وأن النار تحرق بطبعها أنه كافر زنديق مشرك بالله ، وكذلك ما ذكره في الشبع بالطعام والرى بالشراب فإن هذا من أجر الفجور ، وقد نقل شيخ الاسلام ابن تيمية والامام ابن القيم عن جماهير اهل السنة من المسلمين أنهم يرون هذا الرأي أى أن السيف يقطع بطبعه والنار تحرق بطبعها أى بالقوة التي خلقها الله فيها ، وكذلك الطعام والماء كل منهما يشبع ويروى بالقوة التي جعلها الله فيه ، فكيف يدعى هذا الزنديق أن ذلك عندهم كفر وشرك وزندقة ، قاتله الله ما أرخص الكذب عنده ، وسيأتى كلام ابن تيمية وابن القيم قريبا في هذا

ومن المعلوم أن الناس في هذه المسألة على ثلاثة أقوال كما أشرنا الى هذا

فيما سبق : أحدها من يقول ان الأسباب تفعل بطبيعتها من غير أن يخلق الله فيها قوة على أن تفعل ذلك وانما هي بنفسها هكذا كانت وليس في الامكان أن يغيرها الله بل هي مطبوعة طبعا مؤبدا بدون مشيئة من الله ولا إرادة وليس لقوة من القوى أن تقف في سبيلها ، وهذا قول ملاحدة الدهرية وأمثالهم من الزنادقة ، فلا معجزة عندهم ولا آية ولا كرامة ، لأن ذلك عندهم تغيير في طبيعة الأسباب ، وبنوا على هذا إنكار النبوات لأنها لم تثبت إلا بالمعجزة وليس في الامكان وجود معجزة بهذا الوضع ، على أن منهم فرقا كثيرة يجوزون تغيير الطبيعة وانقطاع النتيجة عن وسيلتها لانهم رأوا هذا وعلوه بالاستقراء ، ولكن يسمون هذا فلتات الطبيعة فلا يعللون ذلك بشيء لا مشيئة ولا غيرها

والقول الثاني أن الأسباب لها قوة في التأثير والفعل خلقها الله فيها ، فهي تفعل وتؤثر بالطبع والقوة التي خلقها الله وأودعها فيها ، فالسكين تقطع بنفسها والنار تحرق بطبع القوة التي خلقت فيها وكذلك الطعام يشبع بالقوة التي فيه والماء يروى كذلك ، وهذا قول جماهير أهل السنة من أصحاب الحديث وغيرهم وهو الذي حققه شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم وغيرهما

قال شيخ الاسلام في رسالته أقوم ما قيل ^(١) : ومن قال ان قدرة العبد وغيرها من الأسباب التي خلق الله تعالى بها المخلوقات ليست أسبابا أو أن وجودها كعدمها وليس هناك إلا مجرد اقتران عادي كاقتران الدليل بالمدلول فقد جحد ما في خلق الله وشرعه من الأسباب والحكم ولم يجعل في العين قوة تمتاز بها عن الخلد تبصر بها ولا في القلب قوة يمتاز بها عن الرجل يعقل بها ولا في النار قوة تمتاز عن التراب تحرق بها ، وهؤلاء ينكرون ما في الأجسام المطبوعة من الطبايع والغرائز ، قال بعض الفضلاء : تكلم قوم من الناس في

إبطال الأسباب والقوى والطبائع فأضحكوا العقلاء على عقولهم ، ثم إن هؤلاء يقولون لا ينبغي للإنسان أن يقول أنه شيع بالخيز وروى بالماء ، بل يقولون شيعت عنده ورويت عنده فآله يخلق الشيع والرى ونحو ذلك من الحوادث عند هذه المقترنات عادة لأبها ، وهذا خلاف الكتاب والسنة ، انتهى . ثم ساق آيات استدلت بها على كون الله يفعل بالأسباب وأن الأسباب فيها قوة مؤثرة بإرادة الله . ثم قال الشيخ : ونظر هؤلاء الذين أبطلوا الأسباب المشروعة في أمر الله كالذين يظنون أن ما يحصل بالدعاء والأعمال الصالحة وغير ذلك من الخيرات إن كان مقدرًا حصل بدون ذلك وإن لم يكن مقدرًا لم يحصل ، ثم رد هذا الرأي ، ثم ذكر أن الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ، ونحو الأسباب أن تكون أسبابًا بتغيير في وجوه العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية يقدح في الشرع ، ونقله عن العلماء على نحو ما تقدم ، وكلامه رحمه الله في هذه الأمور كثير مشهور

وقال الامام ابن القيم في شفاء العليل صيغة (٤) : وزعمت هذه الفرقة (يعنى بعض المغالين في القدر من الجبرية ونحوهم من الجهمية) أنهم بذلك للسنة تاصرون وللقدر مثبتون ولأقوال أهل البدع مبطلون ، هذا وقد طووا بمساطر التكليف وطفقوا في الميزان غاية التطفيف وجملوا ذنوبهم على الأقدار ويرأوا أنفسهم في الحقيقة من فعل الذنوب والأوزار ، وقالوا إنها في الحقيقة فصل الخلائع العليم ، وإذا سمع المنزه لربه هذا قال سبحانه هذا بهتان عظيم ، فالشر ليس إليك والخير كله في يديك . ولقد ظننت هذه الطائفة بالله أسوأ الظن وقسبته إلى أقبح الظلم وقالوا إن أوامر الرب ونواهيه كتكليف العبد أن يرقى في السموات وكتكليف الميت إحياء الأموات ، والله يعذب عباده أشد العذاب على فعل ما لا يقدر على تركه وعلى ترك ما لا يقدر على فعله ، بل يعاقبهم على نفس فعله الذي هو لهم غير مقدور وليس أحد ميسر له بل هو عليه مقهور ، ونرى العارف منهم ينشد مترنما ومن ربه متشكيًا ومتظليًا :

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبطل بالماء

وليس عند القوم في نفس الامر سبب ولا غاية ولا حكمة ولا قوة في
الاجسام ولا طبيعة وغريزة ، فليس في الماء قوة التبريد ولا في النار قوة
التسخين ولا في الاغذية قوة الغذاء ولا في الادوية قوة الدواء ولا في العين
قوة الإبصار ولا في الاذن قوة السماع ولا في الانف قوة الشم ولا في الحيوان
قوة فائلة ولا جاذبة ولا ممسكة ولا دافعة والرب تعالى لم يفعل شيئا بشيء ولا
شيئا لشيء ، فليس في أفعاله باء تسبب ولا لام تعليل ، وما ورد من ذلك
فمحمول على باء المصاحبة ولا م العاقبة ، وزادوا على ذلك أن الافعال لا تنقسم
في نفسها إلى حسن وقبيح ولا فرق في نفس الامر بين الصدق والكذب والبر
والفجور والعدل والظلم والسجود للرحمن والسجود للشيطان والاحسان إلى
الخلق والاساءة اليهم ومسبة الخالق والثناء عليه ، وإنما نعلم الحسن من ذلك من
القيح بمجرد الامر والنهي ، ولذلك يجوز النهي عن كل ما أمر به والامر بكل
ما نهى عنه ، ولو فعل ذلك لكان هذا قبيحا وهذا حسنا ، وزاد بعض محققهم
على هذا أن الاجسام كلها متماثلة فلا فرق في الحقيقة بين جسم النار وجسم الماء
ولا بين جسم الذهب وجسم الخشب ولا بين المسك والرجيع ، وإنما تفرق
بصفات وأعراضها مع تماثلها في الحد والحقيقة . وزادوا على ذلك بان قالوا
الاعراض كلها لا تبقى زمانين ولا تستقر وقتين ، فاذا جمعت بين قولهم بعدم
بقاء الاعراض وقولهم بتماثل الاجسام وبتساوي الافعال وأن العبد لا فعل له
البتة وأنه لا سبب في الوجود ولا قوة ولا غريزة ولا طبيعة ، وقولهم أن الرب
تعالى ليس له فعل يقوم به وفعله غير مفعوله ، وقولهم انه ليس بمباين لخلقه (١)

(١) أى ليس فوق العرش ، فان الجهمية ينكرون أن يكون الله فوق العرش كما

ولا داخل العالم ولا خارجه ولا متصلا به ولا منفصلا عنه ، وقولهم انه لا يتكلم ولا يكلم ولا قال ولا يقول ولا سمع أحد خطابه ولا يسمعه ولا يراه المؤمنون يوم القيمة جرة بابصارهم من فوقهم أنتجت لك هذه الأصول عقلا يعارض السمع ويناقض الوحى ، وقد أوصاك الأشياخ عند التعارض بتقديم هذا المعقول على ما جاء به الرسول

فلو أنى بليت بهاشمى خثولته بنو عبد المدان
لهان على ما ألقى ولكن تعالوا فانظروا بمن ابتلانى

انتهى

وقال ايضا ^(١) الحق الذى لا يحوز غيره هو أنه سبحانه يفعل بمشيئته وقدرته وإرادته ويفعل ما يفعله بأسباب وحكمة وغايات محمودة ، وقد أودع العالم من القوى والطبائع والغرائز والأسباب والمسببات ما به قام الخلق والأمر ، وهذا قول جمهور أهل الاسلام وأكثر طوائف النظار ، وهو قول الفقهاء قاطبة إلا من خلى الفقه ناحية وتكلم بأصول النفاة فعادى فقهه وأصول دينه . انتهى كلام ابن القيم ، وهو صريح فى أن هذا قول جماهير أهل الاسلام ، وقد تقدم كلامه أيضا فى هذا الموضع فى آخر البحث السادس فليراجع

والقول الثالث أن الأسباب لا تؤثر بنفسها ولا بالقوة التى أودعها الله فيها بل الفعل الحادث عند اقتران السبب بالمسبب فعل الله ، فالاحتراق فعل الله والنار علامة له ، وهكذا الأسباب . قالوا وقد جعل الله هذه الأمور علامة على هذه الأفعال ودلالة عليها فلكل نتيجة وفعل علامة لتلا تشبیه طرق المفعولات والنتائج . وهذا القول فى الأصل قول الجهمية وقد سرى فى طائفة من طوائف الأشعرية من المتأخرين وهى من الأمور التى أخذها الأشعرية

عن الجهمية وهو قول مرجوح . قد عرفت كلام ابن القيم وابن تيمية في رده كما رده غيرهما . ولكن ينبغي أن يعلم أنه ليس مذهب الأشعرية هو مذهب الجهمية بل بينهما فروق ، فإن مذهب الأشعرية فيه كثير من مذاهب أهل السنة سوى أمور أخرى كهذه المسألة ومسائل تأويل بعض الصفات ، فإن هذه مأخوذة من مذهب الجهمية والمعتزلة . ثم إن هذا القول في مسألة الاسباب الذى يقوله الأشعرية ليس فيه حجة لهذا المبطل بأنهم معترفون بسببية الاسباب وأن لها نتائج وإنما ينكرون التأثير فقط وإلا فهم يقولون بأن النار سبب للاحراق أى دليل وعلامة له فلا بد منها ، فهم يوجبون استعمال الاسباب ولا يعذرون أحدا بترك الاسباب الضرورية من أجل أنه لا فعل لها بل يجب استعمالها لأنها علامة ، وليس فيهم من يقول إن الزرع يحصل بدون بذر أو سقى أو أرض ونحو ذلك ، بل يوجبون الايمان بالاسباب ويقولون من استعملها على وجهها فقد استعمل السبب الذى به تحصل النتيجة مالم يكن هنالك مانع آخر ، ومن تركها لم يحصل له شيء ، فليس قولهم ملازما لتركها ، فمن نسب اليهم القول بترك الاخذ بالاسباب فقد بالغ في البهت والمكابرة ، وأدنى كتاب من كتبهم شاهد على ذلك ، ومسألة الكلام في تأثيرها وعدمه غير مسألة الاخذ بها ، وقد أورد الغزالي أنه ليس عند المخالفين له في هذه المسألة دليل على كون النتيجة هى بسبب تأثير الوسائل بنفسها لا بفعل الله ، وادعى أنه ليس عندهم إلا كونهم يرون الفعل عند اقتران السبب بالمسبب فقط ، والفعل شيء خفى فمن أين لهم أنه من فعل السبب لا من خلق الفعل عنده ومجرد الاقتران لا يوجب التعليل ، ثم أورد مسألة جذب المغناطيس للحديد فانه شيء غير مدرك بالعقل وأطال في ذلك . وهذا الملحد وأمثاله عاجزون عن معارضته ، غاية ما عنده الاستهزاء والبهت والتحريف بدون حجة . هذه هى عوامله وسلاحه الذى يحارب به المسلمين

فقد تبين لك من هذا أن الناس على ثلاثة أقوال ، وأن المسلمين على

قولين ، فالأكثر قائلون بأن الأسباب مربوطة بمسبباتها والعلل بمعلولاتها وأن الله قد أودع فيها طبيعة وقوة على التأثير ، وأن هذا قول أهل السنة . والقول الثاني من يجعلها أسبابا لكن ينفي تأثيرها بقوتها ويجعل التأثير بفعل الله عندها لا بها وأن هذا قول أكثر الأشاعرة ^(١) فكيف يدعى هذا الزنديق على المسلمين بأنهم يرون أن من اعتقد ما ذكره من تأثير الأسباب في مسبباتها والعلل بمعلولاتها بقوة فيها يكون كافرا زنديقا مشركا بالله ، فهل في الدنيا أعظم من هذا البهت والفجور في هذا الادعاء على المسلمين . والمصيبة أنه عزم المسلمين بهذه الدعوى حيث قال في أول الدعوى : « أساء المسلمون الظن بالأسباب الخ » ومن شنيع خبيثه وتليسه ادخاله الذكاء والعلم والطلب مع مسألة السيف والنار والطعام والشراب بنتائجها ، وكل عاقل يفرق بين تلازم هذه الأشياء ، فإن الذكاء والطلب أعراض وأسباب قاصرة لا تكون لازمة للنجاح كملزمة النار للاحراق والطعام للشبع والشراب للرى ، فإن هذه قوى قوية المفصول في نتائجها بخلاف الذكاء والطلب فلا بد من انضمام أسباب أخرى وموانع كثيرة ، وكل أحد يعرف تفاوت هذه الأمور في النتائج ، بل هو نفسه ادعى في آياته المتقدمة أن الذكاء والعقل سبب للحرمان وأن الجهل سبب للسيادة وأن العقل ضرب من الفقر ، وهذا تصريح منه بأن هذه الأسباب لا تستلزم نتائجها ولا عجب فهكذا كان دأبه في التناقض والاضطراب والقلق والحيرة والعياذ بالله ثم انه زاد الطين بلة فقال :

« وقد نظموا هذا شعرا واستظهروه وأمروا باستظهاره فقالوا في إحدى المنظومات الاعتقادية التي تحفظ وتدرس :

(١) والسبكي وكثير من الأشاعرة يرون أنها مؤثرة بنفسها كما ذكره في شرح الحريدة

ومن يقل بالطبع أو بالعلة فذاك كفر عند أهل الملة
والمسألة اجماعية على هذه العقيدة النظامية ، انتهى

قلت : فليُنظر المنصف الى هذا الفجور والتحريف الخبيث في الاستشهاد
على ما ادعاه ، والمنظومة إنما تضمنت ثلاثة أقوال أشار إليها الناظم بقوله - أي
في القصيدة المسماة بالخريدة :

والفعل في التأثير ليس إلا للواحد القهار جل وعيلا
ومن يقل بالطبع أو بالعلة فذاك كفر عند أهل الملة
ومن يقل بالقوة المودعة فذاك بدعي فلا تلتفت

فصاحب هذه المنظومة وهو أحمد الدردير بين الفرق بين القول بالطبع
والقول بالقوة المودعة ، وهذا الملحد خلطها جميعا وجعل الجميع كفرا وزندقة
وشركا ، والفرق بين القولين ظاهر ، فانه لما ذكر أن التأثير منفرد به الله أردفه
بمضاده وهو قول الدهرية القائلين بأن مستند حركات الكون نواميس الطبيعة
وأن الاشياء تفعل بطبعها لا أن الله خلق فيها طبيعة وقوة على الفعل وهي تحت
مشيئته وقدرته بل هي نفسها لم تزل كذلك فهي علل للمعلولات لذاتها وطبيعتها
نتائج لذاتها ليس لقوة من القوى أن تقف في سبيلها أو تتحكم في نهاياتها ،
وهم ينكرون الربوبية ، ومنهم من يقول بقدم العالم وأنها لم تزل كذلك ليس لله
قدرة على تغييرها ، وهذا كفر صريح لا شك فيه بين المسلمين ، وهو الذي
يذهب اليه هذا الملحد ، وأما القول الثاني فهو قول أهل السنة من يجعل فيها
قوة على الفعل خلقها الله فيها ، فالنار تحرق بقوتها المودعة فيها وكذلك السيف
يقطع بقوته المودعة فيه وكذلك الطعام والشراب كل منهما يؤدي وظيفته
بالقوة المودعة فيه وكل هذه القوى والخصائص تحت المشيئة العليا وأنه ما شاء
الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وهكذا جميع الوسائل مع نتائجها ، وهذا هو الذي
خصره شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وأكابر أهل السنة وأصحاب

الحديث ، والقول الثالث وهو الذى أشار اليه الناظم واختاره لأنه من بعض الاشاعة المنكرين القوى المؤثرة فى الطبائع ولهذا قال فيمن خالف رأيه فذاك بدعى فلا تلفت ، ولم يقل انه كافر مشرك زنديق كما يقول هذا الكاذب ، وهذا الناظم بنى هذا القول على اعتقاده لان معه شيئا من أصول الجهمية كرايه فى تأويل الصفات الخيرية ونفى المبانيئة وانكار الحرف والصوت فى كلام الله ، وهذه الأمور ليست مذهبا للاشعرى بل هو قد صرح فى كتبه كلها كالإبانة وغيرها بخلاف ما ذكره فى هذه المنظومة المسماة بالخريدة ، وكذلك هو مصرح بخلاف ما قاله صاحب الجوهرة والسنوسى وأمثال هؤلاء المتأخرين فى مثل هذه الأمور ، فانه صرح فى كتبه بالاستواء على العرش والمبانيئة وأنكر على من زعم أن استوى بمعنى استولى ورد عليهم وأقر بجميع النصوص الواردة على ظاهرها ، وكذلك كثير من أصحابه من أئمة الاشاعة والشافعية ، فمن طالع عقيدة الامام الصابونى وابن خزيمة والجوينى والد امام الحرمين^(١) وغيرهم علم ان هذه العقائد المتأخرة فيها أشياء مخالفة لهم خلافا ظاهرا ، وهذا الجوينى الملقب امام الحرمين أثبت التأثير فى فعل العيد كما نقله عنه ابن القيم فى شفاء العليل . وليس غرضنا شرح هذه الأمور وإنما الغرض بيان أن ما نقله محتجا به فيه من البهت والتحريف مالا يخفى على عاقل

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه فى فتوى له فى النجوم والكواكب^(٢) ، وهو سبحانه مع ذلك قد جعل فيها منافع لعباده وسخرها لهم كما قال تعالى ﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ﴾ ، ﴿ نسخر لكم الليل والنهار ﴾ وقال تعالى ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾ وقال تعالى ﴿ وسخر لكم مافى السموات وما فى الأرض جميعا منه ﴾ ومن منافعها

(١) له رسالة جلية مطبوعة ضمن المجموعة المنيرية

(٢) المجلد الاول ص ٣٢٤ من مجموعة فتاويه طبعة الكردى

الظاهرة ما يجعله سبحانه بالشمس من الحر والبرد والليل والنهار وإنضاج الثمار وخلق الحيوان والنبات والمعادن ، وكذا ما يجعله بها من الترطيب والتيبس وغير ذلك من الأمور المشهورة ، كما جعل في النهار الاشراق والاحراق وفي الماء التطهير والسقي وأمثال ذلك من نعمه التي يذكرها في كتابه كما قال تعالى ﴿ وأنزّلنا من السماء ماء طهورا لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا ﴾ وقال تعالى ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات ﴾ وكما قال ﴿ وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ﴾ فن قال من أهل الكلام إن الله يفعل هذه الأمور عندها لا بها فعبارة مخالفة لكتاب الله تعالى والأمور المشهورة كن زعم أنها مستقلة بالفعل هو شرك مخالف للعقل والدين ، انتهى

وقال أيضا رحمه الله في كتابه (منهاج السنة) في الرد على الرافضي ص ٢٦٥ ج ١ : د الوجه الثاني أن يقال نقله (يعني الرافضي) عن الأكثر أن العبد لا تأثير له في الكفر والمعاصي نقل باطل ، بل جمهور أهل السنة المثبتة للقدر من جميع الطوائف يقولون أن العبد فاعل حقيقة وإن له قدرة حقيقة وهم لا ينكرون تأثير الأسباب الطبيعية بل يقولون بما دل عليه العقل من أن الله تعالى يخلق السحاب بالرياح وينزل الماء بالسحاب وينبت النبات بالماء ولا يقولون أن قوى الطبائع الموجودة في المخلوقات لا تأثير لها بل يقولون أن لها تأثيرا لفظا ومعنى ، حتى جاء لفظ الأثر في مثل قوله تعالى ﴿ ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ وإن كان التأثير هناك أعم منه في الآية لكن يقولون هذا التأثير هو تأثير الأسباب في مسبباتها والله خالق السبب والمسبب ومع أنه خالق السبب فلا بد له من سبب آخر يشاركه ولا بد له من معارض يمانعه فلا يتم أثره إلا مع خلق الله له لا به بأن يخلق الله تعالى السبب الآخر ويزيل الموانع ، انتهى . فهذا كلام شيخ الاسلام - كما ترى - صريح في أن جماهير الناس من أهل السنة على إثبات

تأثير العبد في فعله ، وأن الأسباب مؤثرة بقوتها في مسيئاتها ، فكيف يدعى هذا الكاذب على المسلمين بأن من ادعى ذلك فهو كافر مشرك زنديق^(١) ولكنه تبع هذا الرافضى الذى ادعى كيدعواه فى التشنيع على أهل السنة بأنهم ينكرون تأثير فعل العبد بغضا ومقتا للمخالفين له فى رفضه وعداوته للصحابة ، كما أن هذا فعله خبيثا وعداوة للمضادين له فى زندقته وإلحاده وعداوته للأديان

وأما قوله تعالى ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ فقال فى شرح الطحاوية ص ٣٦٧ ، فهو دليل عليهم (أى على الجبرية) لأنه تعالى أثبت لرسوله ﷺ رميا بقوله ﴿ إذ رميت ﴾ فلم أن المثبت غير المنفى ، وذلك أن الرمى له ابتداء وانتهاء فابتداءه الحذف وانتهائه الإصابة وكل منهما يسمى رميا ، فالمعنى حينئذ والله أعلم : وما أصبت إذ حذفته ولكن الله أصاب^(٢) ، وإلا فطرد قوهم وما صليت إذ صليت ولكن الله صلى وما صمت إذ صمت وما زينت إذ زينت وما سرقت إذ سرقت ، وفساد هذا ظاهر . انتهى

وقد تقدم الكلام فى الأسباب ونتائجها والربط بينها فى مواضع كثيرة جدا بما يغنى عن إعادته ويأتى له بقية

فصل

ثم استدلل بقصة ذى القرنين على أن الأسباب هى التى تمكن الانسان من

(١) أى فيما سبق فى بحث القدر

(٢) أى لأن الإصابة التى وقعت كانت معجزة فان حفنة التراب التى رمى بها عليه السلام المشركين حتى دخلت أعينهم وانهمزوا ليس فى استطاعته فصل ذلك ولكن الذى فى استطاعته الرمى فقط ، فأثبت له الرمى الذى هو الحذف ، ونفى عنه أثره العظيم الذى ليس فى استطاعته ، فالثبت غير المنفى ، وإلا فلزم هذا للزم ما ذكره الشارح

كل شيء لقوله تعالى ﴿ انا مكنا له في الارض وآييناه من كل شيء سبباً ﴾ فاستدل بهذه الآية وبالقصة ، وهي حجة عليه ، فان الله تعالى أسند تمكنه في الارض اليه تعالى لا الى أسبابه ، وأسند ما استحصل عليه من الأسباب الى إعطائه ذلك فضلاً منه بمشيئته وقدرته ، لانه قال جل وعلا ﴿ انا مكنا له في الارض ﴾ ولم يقل إنه تمكن بما آييناه من الأسباب ، أو ان الأسباب يمكنه ، أو انه مكن بالأسباب ، بل قال ﴿ انا مكنا له في الارض وآييناه من كل شيء سبباً ﴾ فأخبر أنه مكنه وأنه آتاه ، لئلا يظن زنديق أن التمكن بنقيجة الأسباب وحدها . ثم انه ذكر أنه آتاه من كل شيء سبباً ، وإعطاء الأسباب لا يقتضى استحصال النتائج حتماً كما في قصة بلعام ، بل لا بد من حصول الرحمة والمشية وإلا فقد يعطى الانسان أسباباً ليستحصل بها الخير فيستعملها في ضده بل يستعملها في المعاصي فتكون وبالا عليه ^(١) بل قد يستعملها في شيء يضره وهو يراه رأى العين ويقر بأنه ضرر كتعاطى المسكرات ونحوها . فالقصة حجة عليه ، مع أننا لا ننكر تأثير الأسباب ولا الأخذ بها لكن ننكر أن تكون هي الفاعلة لذاتها بدون أن يغيرها الله وأن يكون له قدرة عليها أو أن تكون خارجة عن مشيئته وإرادته . فنحن إنما ننازع في هذه الدعوى العريضة ثم استدل بقوله تعالى ﴿ وتقطع بهم الأسباب ﴾ وهذا أيضاً من عكس

(١) ينعم الله على كثير من الخلق بالمال والجاه ليتقوى به على طاعته فيستعمله في المعاصي ، ويمطى آخر ذكاه وفصاحة وبلاغة لينفع بها ويدعو الى الله وإلى دينه فيستعملها في عكس ذلك في تقرير الالحاد والزندقة والخط على الدين وأهله ، ويعطى الانسان قوة في بدنه فيستعملها في المعاصي . وكذلك يقال في حسن الصورة وسائر الأسباب الحسنة التي خلقها الله في الانسان وللانسان ليسعد بها نفسه فيجعلها سبباً لشقائه ، وذلك برهان على أن وجود السبب ليس كافياً في حصول المطلوب بل لا بد من المشية في ذلك

الاستدلال ، لان هذه الآية من أبلغ الحجج عليه ، فانه تعالى أخبر عن حال هؤلاء أنهم كانوا متعلقين بالأسباب متوجهين اليها فتقطعت بهم وخانتهم أحوج ما كانوا اليها ، فلو أنهم علقوا آمالهم به تعالى وأخذوا بالأسباب كما أمروا لاستمسكوا بالعري الوثيقة كما قال تعالى ﴿ ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى الى الله عاقبة الأمور ﴾ ولكنهم احتقروا هذه العري وذهبوا يلتمسون غيرها ظانين أن فيها الكفاية فتقطعت بهم وسقطوا في الهاوية السحيقة فانقطعت آمالهم وتقطعت قلوبهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ، ولو أن الأسباب لا تتغير وأن نتائجها لازمة لها لزوما ذاتيا ليس لله قدرة على تغييرها لم تنقطع بهم بل تبقى على ما هي عليه مما ظنوه واعتمدوا عليه ، فالآية حجة عليه كما هو ظاهر

فصل

ثم قال ، وما جاء عن الله ولا عن رسوله حرف واحد في ذم الأسباب أو ذم الأخذ بها ، ^(١) فيقال بل كل الذي جاء عن الله وعن رسوله من أوله الى آخره في ذمها وذم الأخذ بها على المعنى الذي تريده وتدعو اليه ، فانك لم تقتنع بالأخذ بها واعتقاد أن الله يصرفها فيجعلها إن شاء أسبابا وإن شاء غير أسباب ، بل جعلت هذا هو السفه والفوضى ، وإنما تدعو الى الأخذ بها والاعتماد عليها ^(٢) والكفر بمشيئة الله بأن يتصرف فيها فيجعلها إن شاء أسبابا وإن شاء غير أسباب . ومعلوم أن هذا وأمثاله مما قررته هو الوثنية المحضنة والزندقة التي لا شك فيها ، وحينئذ فان الله تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله ليعبد

(١) قد عرفت مرارا أننا لم نذمها ولم يذمها أحد من المسلمين على الوجه الصحيح ، وإنما الذم فيما يدعو اليه من الاشرار بها
(٢) كما صرح به في المبحث الماضي وغيره

وحده لا شريك له وأن يتوكل عليه ويعتمد عليه ويركن اليه ويوثق به وأن يتوجه اليه في كل مهمة ومقصد ، فلا يدعى إلا هو ولا يتوكل إلا عليه ولا يلجأ إلا إليه ولا تنزل الفاقات إلا به . ومعلوم أن هذا يضاد دعايتك إلى الأسباب ، فأنك قررت أن الاعتماد على الأسباب والرجوع إليها والتوجه إليها هو أصل كل سيادة والخروج من كل بلاء ، وهذا هو اعتقاد المشركين كما مر تقريره ، فإن الشرك كله ليس إلا الرجوع إلى الأسباب المخلوقة ، والاحاد كله والنفاق كله والزندقة كلها كذلك ليس إلا الاعتماد على الأسباب المادية وتعليق الآمال عليها وطلب الحاجات المختصة بالله منها ، إما قولا وإما فعلا باعتقاد أن فيها الكفاية إما بواسطتها بسر غيبي أو بذاتها ظاهرا وقد أمرنا الله تعالى أن نقول كل وقت في صلاتنا ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ والاعتماد على الأسباب يتناقض هذا أعظم المناقضة ، ولهذا قال بعض العلماء ان الله جمع معاني دعوة القرآن في الفاتحة وجمع ذلك في آية اياك نعبد وإياك نستعين ^(١) فالعبادة تتضمن غاية الحب مع غاية الذل والتعظيم والاجلال ، والاستعانة تتضمن الدعاء والطلب والافتقار واستئزال الرحمة والنصر والتأييد والفيض الرباني الذي هو مصدر القوة كلها ، ومن تأمل القرآن كله علم أنه يدور على هذا الأصل في طلب التوجه إلى الله والالابة اليه وطلب الرزق والنصر وكل شيء من عنده ، بل الأسباب التي جعلها طريقا إلى ذلك قال تعالى ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ فخرائن السموات والأرض بما فيها من الأسباب عنده لا تطلب إلا منه ، فمن أعرض عن

(١) قال ابن تيمية رضى الله عنه في المنهاج ص ٩٨ مجلد ٢ : روى الحسن البصرى رحمه الله أن الله أنزل مائة كتاب وأربعة كتب جمع سرها في الأربعة ، وجمع سر الأربعة في القرآن ، وجمع سر القرآن في الفاتحة ، وجمع سر الفاتحة في هاتين الكلمتين ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾

صاحب الخزائن وذهب الى الخزائن بدون أمره فهو إما سارق تقطع يده * أو لص قاطع طريق فله حكمه أو محارب فكذلك له حكمه مع حرمانه ما أراد فلا يستحصل الا نقيض قصده ، وقال تعالى ﴿ فابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ ﴾ ، فقرن العبادة بابتغاء الرزق لأنها مفتاح خزائنه وطرق تحصيلها ، فمن اعتدى على الخزائن مع علم صاحبها به فلا بد أن يعاقب ، والله سبحانه بين الطريق التي توصل الى خزائنه ورحمته وخيراته كلها أوضح بيان ، فطلب من العباد أن يدعوه ويطلبوا منه وأن يعبدوه ويسيروا على نظامه فيأخذوا بما شرعه من الأسباب الدينية والمادية ، ووعدهم إذا فعلوا ذلك أن ييسر لهم الطريق ويهيئ لهم من الأسباب ويدفع عنهم من الموانع والمعارضات ما لا يقدرون هم على دفعه فينجح لهم العمل ويعينهم عليه . وأعظم الناس غلوا في الأسباب واعتمادا عليها دون الله هم أكفر الناس ، ولهذا كان فرعون ونمرود أعظم الناس غلوا في الاعتماد على الأسباب والايان بها وأنها فاعلة بطبعها ليس لقوة من القوى أن تقف في سبيلها ، وهم أزهد الناس وأحقهم للأسباب الدينية فان فرعون رأى آية العصا واليد وغيرهما واحتقرها واعتمد على القوة الطبيعية وحارب القوة الدينية فقال ﴿ ان هؤلاء لشرذمة قليلون ، وانهم لنا لغائظون ، وإنا لجميع حاذرون ﴾ وهذه أقوى الأسباب الحربية المادية ، فان السكثرة مع الغيظ والحذر مع الاتيان صفا كما في الآية الأخرى — هي القوة الحربية ، ولم يعبأ بالأسباب الدينية كورثته الذين اتبعوه في هذه الفكرة كما أشرنا الى هذا فيما تقدم ، وكذلك نمرود لم يعبأ برسالة الخليل عليه الصلاة والسلام بل قصد أقوى سبب مادي في الضرر والربط بالنتيجة فأوقد النار لأنه معتقد أن النار مطبوعة على الاحراق طبعاً مؤبداً ليس لقوة من القوى أن تقف في سبيلها وتتحكم في نهايتها ولا أشد من ملازمة النار للاحراق ، فلماذا اعتمد على هذا السبب ، وذهب يقذف خليل الله فيها ،

فكان الدعاء وحسبي الله كافيا في قلبها الى ضدها وتحويلها بردا وسلاما ، لأن ذلك الدعاء وذلك التوجه الذي هو أكبر سبب في الوجود استعمل على أكمل الوجوه لما فيه من الاخلاص والصدق الكامل فبطل المسبب عن سببه والوسيلة عن نتيجتها . وهكذا كانت عقيدة كل أعداء الرسل الذين قاتلوهم وقاتلوا أتباعهم انما قاتلوهم معتقدين أن الأسباب فيها كفاية لذاتها ، وأن الأمور الدينية لا تقف في سبيلها أبدا ، ومن المعلوم أيضا أن كلمة التوحيد . لا اله إلا الله ، هي أصل الاسلام ولا شك عند المسلمين أن معناها لا معبود بحق إلا الله ، والمعبود هو المألوه الذي يتوجه اليه ويعتمد عليه في سد الحاجات والرغبات ويلجأ اليه عند الضرورات ، فمن اعتمد على الأسباب ودعا الى الاعتماد عليها وتعلق بها فقد ناقض معناها مناقضة صريحة . وكذلك شهادة أن محمدا رسول الله تستدعي التصديق التام والمتابعة المحققة ، فمن شهد أنه رسول الله فيجب عليه العمل بمقتضى شهادته ، إذ كونه رسولا يوجب التصديق الذي لا يدخله أدنى ريب في كل ما جاء به وتحكيم سننه وكل ما جاء به في كل أمر ووجبت المتابعة الخالصة بدون أدنى تردد ، إذ هو رسول الله فيجب أن يتبع ، فمن كذبه أو ارتاب فيما جاء به واستكبر عن اتباعه أو رأى أن غيره أهدي منه سبيلا من كل مشروع شرعه فهو لم يحقق هذه الشهادة بل ناقضها . ومعلوم أن من تعلق على الأسباب المادية واعتمد عليها ولم يلتفت الى الأسباب الدينية التي وضعها الله ورسوله وضعا كاملا وأخبر أن النجاح متوقف على من اتبعه فيها ، فمن خالفه في ذلك فقد ناقض شهادته وصار منافقا ، فان المنافقين الذين قالوا نشهد أنك لرسول الله انما أكذب الله شهادتهم هذه لانهم لم يعتقدوا مقتضاها من التصديق والاخلاص في المتابعة ، وهكذا يقال في أصول الدين وأركانها كالصلاة والزكاة والصيام والحج كلها مظاهر واعتقادات تحقق معنى الشهادة وتحقق معنى المتابعة ، فانها ترجع الى كمال محبة الله تعالى وتعظيمه والاعتماد عليه والذل والخضوع له وإنزال الحاجات والفاقة به واستئزال الرحمة والاعانة

والتوفيق والسعادة منه ، فالاعتماد على الاسباب والتوجه اليها يصادم ذلك أعظم المصادمة ويناقضه أعظم المناقضة ، وهذا الملحد العنيد لما كان يعلم أن هذه الاصول الدينية تناقض روح دعايته في الاعتماد على الاسباب صرف همته الى الطعن فيها ، بل كل أغلاله في الطعن في صميمها ولا سيما مظاهرها العظيمة كالدعاء والخطب أيام الجمع على المنابر ومواضع العبادات كالمساجد ، فانه جعل ذلك شرا وملهاة وتعويقا الى آخر كلامه ، وقد قال تعالى ﴿ كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقهم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذين خاضوا أو لئسك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ فأخبر سبحانه أن الامم الماضية كان لديها من الاسباب والقوة شيء كثير فان الاموال والاولاد هي الاسباب المادية كلها فانها ترجع الى هذين الشئتين فلما استمتعوا بخلاقهم ولم يعتمدوا على الله بل اعتمدوا على هذه الاسباب التي هي الاموال والاولاد حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة . وتأمل قوله ﴿ في الدنيا ﴾ تجدد أن العقوبات وحبوط الاعمال تتأني في الدنيا كما تتأني في الآخرة وانه ليس ذلك خاصا بالآخرة كما أن إثابة الطاعات تجيء في الدنيا أيضا كما تجيء في الآخرة ، وهذا يناقض فكرة كثير من الزنادقة الذين يدعون أن الجزاء في الطاعات والمعاصي يختص بالآخرة كما ادعاه هذا الملحد^(١) في مواضع كثيرة

وقال تعالى ﴿ ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا يستهزئون ﴾ فأخبر تعالى ان هذه الاسباب التي لها المحل الأعلى عند جميع الأمم وهي الاسماع والابصار والأفئدة ، فان

(١) أى في نبذته (كيف ذل المسلمون)

هذه هي التي تناط بها السياسة ونحوها - لم تغن عن أهلها شيئا ، بل حاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، لأنهم احتقروا الأسباب الدينية واستهزأوا بها ورأوها أوهاما ، وأنه ليس فيها كبير أمر ، وأنه لا يوثق بها كما يدعى جميع الزنادقة إلى اليوم ، سنة متبوعة وطريقة معمودة أتواصوا بها بل هم قوم طاعون أخذوها خلفا عن سلف ، وبذلك تجد كثيرا من هذه البشرية ولا سيما الطبقات المترفة المتطرفة محتمقين الأخلاق الدينية زاهدين فيها ، بل قد زادت المصيبة حتى جعلوا التقوى والصلاح من سياء البله والجهلاء ، وادعوا أن الصلاح والتقوى ينافيان السياسة وسبب هذا الفجور أنهم تصوروا شيئا زريما ضعيفا فظنوا أنه هو التقوى والصلاح ، ثم استرسلوا مع هذا الظن فسموا هذا الحق تقوى وصلاحا ، ثم رتبوا على ذلك هذه النتائج التي تصوروها هم ولم يفهموا معنى التقوى والصلاح بالمعنى الصحيح الذي هو القوة في الأخذ بالأخلاق الدينية والصدق والاخلاص في هذا المبدأ وما يلزمه من الأمور الدنيوية التي سار عليه النبي ﷺ وأصحابه في الجد والاجتهاد والدهام ومعرفة أحوال الزمان وأهله وما يلائمه وأمثال ذلك . والآيات في هذا المعنى كثيرة جدا ، وقد أخبر تعالى عن ابن نوح أنه لجأ إلى السبب المادى من دون الله معتمدا عليه وقت حاجته فقال ﴿ سَأْوَى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾ ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴿ فَاَنْفَعَهُ هَذَا السَّبَبُ الْقَوَى الَّذِي لَجَأَ إِلَيْهِ ﴾ ، وقد أخبره نوح عليه السلام أنه لا عاصم من أمر الله إلا من رحم ، فأنكر عليه أبوه التجاهل إلى هذا السبب المادى في تلك الساعة فانه اذا جاء أمر الله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، ولا يرد أمر الله ولا غيره ، وهو عليه السلام ركب السفينة اقتداء بامر الله ، واستعمل الدعاء فقال بسم الله مجراها ومرساها ، لأن السبب المادى لا يكفي بدون السبب الدينى ، وقال تعالى ﴿ فَاَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ فَاَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ

أفصاراً) الى أمثال ذلك وهذا كله شامل لجميع الأسباب ، فدعوة جميع الرسل من أولهم الى آخرهم هي ضد الاعتماد على كل شيء دون الله عز وجل من جميع الأسباب ، وحصر الاعتماد على الله سبحانه وتعالى فإنه هو الذي يتصرف في الأسباب كيف شاء

ثم قال بعد العبارة السابقة « بل كان التاريخ الاسلامي قبيل أن ترتديه هؤلاء قائماً على الاعتراف بطبائع الأشياء ، ولم ينكر طبيعة من طبائعها »
فيقال : لكنك خالفت التاريخ الاسلامي كله ، فانك تجاوزت حد الاعتراف الى الاعتماد على الطبيعة ونواميسها ، فدعوت الى ذلك ، وليس النزاع في ثبوت الطبائع إنما النزاع في الدعوة الى الاعتماد عليها ، وأن الله لا يغير فيها ولا يتصرف فيها ، ثم إنك مطالب بأثبات ما تدعيه في هذا التاريخ وكونه على النحو الذي تدعو اليه وقد بينا أقوال أئمة الاسلام في ذلك وأن ذلك على خلاف ما تدعيه وتدعو اليه .

فصل

قال « ومن أعظم ما جعلهم يسيئون الظن بالأسباب شيان أحدهما أنهم حسبوا أن الايمان بقدره الله المطلقة في تصرفها وعملها ينافي الايمان بالأسباب وحسبوا أنهم اذا آمنوا بالسبب ^(١) فقد قيدوا الله به وألزموه بأن لا يخرج عنه وأن لا يعمل بدونه ، والله عندهم ^(٢) غير مقيد في فعل من أفعاله ، بل هو يفعل ما يشاء بلا قيد ولا سبب ولا إزام ^(٣) . وثانيهما أنهم وجدوا

(١) قد علمت مما مر أنه لا يكتفى بالايمان بالسبب ، بل لا بد من الاعتماد عليه ، فكان من الواجب عليه أن يقول اذا آمنوا بالسبب واعتمدوا عليه (٢) يلاحظ قوله « عندهم » هنا

(٣) يلاحظ هنا قوله « بلا قيد ولا إزام » فعمده أنه مقيد وملزم ، وأما السبب فقد بينا أنه تعالى يفعل بالأسباب وليس العمل بالأسباب كالقيد والالزام فان القيد والالزام نوعان من القيود والالزام بالأسباب فهو كمال لانه يوجد أن تكون المخلوقات كلها خاضعة لنوع من أنواعها

المسببات كثيرا ما تتخلف عن أسبابها ، ووجدوا أن الانسان قد يؤدي السبب على الوجه الاوفى الاكل فيما يبدو ، ثم لا يصل به ذلك الى غرض منشود ، كما وجدوا أن العكس أيضا صحيح ، أى وجدوا أن المرم قد ينال حاجته وغرضه بدون سبب ^(١) هذان أمران هما أعظم ما صار بالقوم الى هذا المصير فى حكمهم على الأسباب وفى تراخيهن عند الأخذ بها وفى شكهن فيها ، ذلك الحكم والتراخى والشك الذى جعلهم عاجزين عن الاتيان بها بحجة سليمة وافية موصلة الى مسبياتها . . . ومن أخذ بالسبب شاكا فيه متراخيا فى أخذه فلن ينفعه النفع المطلوب الحاسم ^(٢) لأنه لن يتقنه ، ولن يثابر ويصابر عليه ولن يبدع فيه ، بل لا بد من الايمان به مع الاصرار على هذا الايمان وإلا فلا نجاح ، ولا بد من الاتقان والمثابرة والمصابرة على العمل ، وإلا فلا أمل فى فوز حقيقى ، ولا بد من تقليب رأى على كل وجوهه بحثا عما يمكن أن يكون قد دق من خفى الأسباب وضروب الوسائل ،

فيقال : كل هذا الذى ذكرته هنا من الاعتذار عن بلوغ المسببات مع استعمال أسبابها مع ما ادعيته من المثابرة والمصابرة والاجتهاد والاصرار كله قد تقدم معناه مرارا وأجبنا عليه بما تقدم ، فانه معارض بمثله فى مسألة الأسباب الدينية التى حاربها فادعى أنها ليست بوسيلة وليس لها نتائج سوى الشر والتعويق والمهلكة ، فاذا كان معترفا هنا بان المسببات تتخلف عن نتائجها لموانع وعوارض ولتخلف بعض الشروط فكيف يغلو فيها هذا الغلو الذى تجاوز به الى حد الجنون والكفر ولم يكن هذا التخلف مانعا له عن هذا

(١) هذا كذب ظاهر

(٢) يعارض بمثل هذا القول فى الأسباب الدينية كاللدغ وإجابته سواء بسواء ،

فلم عادى هذا وعبد هذا

الاطراء والمغالة الزائدة والاعتماد عليها والاهتمام بها ، وأما دعاء الله والثناء عليه والصلوات في المساجد والايمان والتقوى ونحو ذلك من الأسباب الدينية التي عاش في أثرها الخلق فذهب فيها الى عكس ذهابه في الأسباب المادية فخارها وعاندها وعاكسها أشد المعاكسة والعناد والحرب حتى نفي سببيتها أصلا فلم يجعلها وسيلة ولم يجعل لها فائدة بل حكم عليها بأنواع الضرر والخبث مع عليه بأن الأسباب الدينية لو كانت تستعمل ويجهتد فيها كما يجهتد في الأسباب المادية لما كاد أن يتخلف شيء من نتائجها ألبيته بل هي تستعمل غالبا إما ضعيفة وإما معكوسة أو مقلوبة أو ملوثة بما يفسدها ويضعفها ، بل كثير منها يستعمل مقرونًا بما يضاده ويبطله كالأحزاب التي يخطط فيها ذكر الله ودعاؤه بدعاء غيره من الأموات والغائبين من الانبياء والصالحين والاستغاثة بهم في الشدائد والملمات أو لكشف الضر وهذا كفر واضح

فما أجاب عنه هنا على تخلف الأسباب المادية فهو جوابنا عليه في تخلف بعض نتائج الأسباب الدينية كالأجابة في الدعاء أحيانا . ومعلوم أن كل سبب في الوجود لا يمكن بحال من الأحوال أن تحصل نتيجته إلا على حسب كماله وكمال شروطه وانتفاء موانعه واستعماله على الوجه الصحيح المطلوب منه كما أوضحنا هذا فيما سبق ، سواء كان ذلك السبب ماديا أو كان دينيا فالمغالة في هذا وحصر الخير فيه والمصاداة لنظيره من هذه الجهة ومحاربته والتنفير منه هوس ظاهر وجنون واضح . ثم إن ما ادعاه هنا تخرص وتمحل ليس عليه أثارة من علم ولا نظر صحيح ، فهو دعوى مجردة عن أدنى دليل يصحبها ، وأكثره باطل وكذب . وأما نحن في دعوانا في الأسباب الدينية فقد دلت النصوص الصريحة والاستقراء التام أن للإيمان والعمل الصالح والتمسك بالشريعة المطهرة أكبر الأثر في حصول المطالب العالية ، وأن من استعمل الأسباب المادية وهو على هذه الأخلاق فلا بد أن ينصر ويؤيد وتكون له العاقبة الحميدة كما تقدمت الشواهد على ذلك كقوله تعالى ﴿ فمن آمن وأصلح

فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ، (فاما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى) ولم تتقدم أمة من الأمم قط إلا على أخلاق صحيحة سامية أساسها العدل والاحسان اللذان هما من ثمرات الدين والايمان ، ولم تتأخر إلا بعكس ذلك كالحمجية والوحشية التي هي من نتائج النفاق والاحاد . ثم ان حاصل كلامه أن أسباب فشل الأسباب أحيانا هو كون أهلها لم يعملوا عمل من يحزم بالنجاح ويبذلوا الغاية في الاجتهاد والاصرار ، وإلا فلو فعلوا ذلك لنجحوا . ومعلوم أن هذا اعتذار ساقط ، فانه يقال له هم أعرف منك بأعمالهم وبالأسباب التي باثروها وحرصوا عليها وتخلفت نتائجها فقد بذلوا دماءهم وأموالهم وفعلوا كل ممكن كما أقروا بذلك وكتبوه وسجلوه وهو أمر معروف بالحس والعيان فلا يقبل الجدل حتى جعلوا ذلك من مسائل القدر وكثير من هؤلاء الذين فشلت نتائجهم من أحرص الناس واذكاهم وأدقهم فطنة في معرفة الأسباب ، ومع ذلك فقد سبقهم من هو دونهم ، ممن استعمل أسبابا دون أسبابهم وعمل عملا دون أعمالهم ، وكل هؤلاء معترفون بأنهم لم يستعملوا الأسباب الدينية كما يستعملون الأسباب المادية في الاجتهاد والصدق والاخلاص ، فكلهم إلا من شاء الله يعلم أنه مقصر في ما أمر به من الطاعات ولهذا كانوا يعترفون بالذنوب أكثر مما يعترفون بالتقصير في استعمال الأسباب المادية ، وكمن انسان معه من الأسباب الكثيرة التي تؤهله للتجارة والامارة والسيادة والمناصب الكبرى وقد بذل جهده للوصول الى ذلك فلم يصل الى شيء مما وصل اليه من هو دونه بكثير ممن لم يستعمل غير بعض أسبابه التي عملها للوصول الى ذلك ، وهذا المعارض قد اعترف بذلك في آيياته السابقة حتى ادعى أن العقل ضرب من الفقر ، بل ادعى أن الذكاء والعلم مما يوجب التأخر وأن الجهل سبب للسيادة في الدنيا ويكفي أن يقال له أنت ادعيت لنفسك بانك المستحق للتقديم في كل أمر (١) وقد بذلت أعظم الجهد للوصول الى وظيفة

واحدة أو منصب رسمي فما حصل لك من ذلك شيء ، فما سر هذا وما سببه .
ودعواه أن الاصرار على بلوغ الغاية سبب في بلوغها ليس بصحيح فإن كثيرا
من الدول المغلوبة أصرت غاية الاصرار ولم يفدها ذلك شيئا وكثير من الناس
يصر على بلوغ مراده حتى يكاد أن يموت ولا يحصل على طائل . ثم انك لم
تجيب على العكس الذي ذكرته من أن بعض الناس ينال حاجته من غير سبب
أو بسبب ضعيف ، فما هو السبب في تركك ذلك وهو يبطل كلامك في عكسه

ثم قال : وليس من ريب في أن كثيرين يسقطون دون أغراضهم لانهم
لا يجربون كل الاسباب والوسائل ، بل انهم اذا فشلوا عند تجربة أول سبب
تجربة أولى ألقوا سلاحهم ولم ينهضوا للمقاومة ولا لهجوم ولصقوا بالتراب
والذل والمسكنة حاسمين أنه لم يبق لهم مكان في هذا الوجود وذهبوا بكون
أقذارهم وحظوظهم وبلغنوا أيامهم وأقوامهم ، ولا شك أن نجاحهم كان
مضمونا ومحققا لو أنهم أعادوا الكرة وأصرروا على الوصول الى الغاية ،

فيقال : ينبغي أن تبعت ضمانك هذا الى هذه الدول والحكومات المهزومة ،
فانك ضمنت الضمان المحقق أنهم لو أعادوا الكرة وأصرروا على الوصول الى
الغاية لوصلوا . وهذا الرجل يكتب ما خطر على باله ولو كان في غاية البطلان
فليست إعادة الكرة والاصرار بدون حساب ورأى صحيح إلا مجازفة قد
تؤدي الى الهلاك والدمار ، فإعادة الكرة ليس بالأمر الهين الميسور على كل
من رامه ، ولو كان الأمر كما قال لبادر كل من هزم الى ذلك بدون توقف

ثم قال : ولا ريب أن من أخطأ الهدف في الرمية الأولى سيصيبه اذا كرر
الرميات وعادها مرات ، ومن المعلوم أن بلوغ قصب السبق لا يكون في
الوثبة أو الخطوة الأولى ، إنما يكون في تكرير الخطوات والوثبات ، وفي
معاودة شد الاعصاب والعضلات ،

فيقال : هذا المثل غير مطابق ، فان إصابة الهدف إنما تحصل إذا كان الساعد

سليما والسلاح صحيحا والهدف في مكانه يمكن إصابته ، أما من انكسر ساعده وسلاحه وبعد هدفه فلا يقدر أن يرمى فضلا عن أن يكرر الرميات فضلا عن أن يصيب . وكذلك لو انكسر سلاحه فقط لا يمكنه تكرار الرمي فضلا عن الإصابة . وكذلك لو كان السلاح معيبا عيبا يمنع الرمي فلا بد من جبر الساعد وتصليح السلاح وتحقيق الهدف ، وقد يعجز الانسان عن الجبر وعن تصليح السلاح لكثرة التعثر والموانع والعوارض ، ثم العدو ليس هو كالهدف واقف لكل من يريد رميه كل وقت ، بل العدو اذا رميته مرة وأخطأته فقد يرميك فيصيبك فالطريقة أن تعرف الموازنة بين سلاحك وسلاحه وتثبت في رميته الأولى في القضاء عليه قضاء حاسما ، ولا شك أن من هزم هزيمة شنيعة منكرة أنه يكسر سلاحه بل وساعده فيحتاج الى معالجة طويلة لاعادة ما فقده ، فالقوة الاولى يجب أن تكون موزونة محققة .

وكذلك ما ذكره من السبق فغير مطابق ، فان قصة السبق لا تبرح مكانها ولا تنقلب على من لم يصل اليها ، والعدو ليس كذلك ، فانه اذا استولى على أثر هزيمة شنيعة فقد يضع أغلالا وقودا تمنع من المشى الى الهدف كما تمنع من شد الأعصاب والعضلات ، فيحتاج الى السلامة من هذا كله ، ولكن الذي قد ينفع ويدفع هو أن ينظر من أصيب بالهزيمة فيعرف من أين جاءت ، وما أسبابها ، وما هي الأسباب التي قضت عليه ، وكيف كانت الهزيمة ، وكيف استولى العدو عليه ، فيحسب الحساب ويوازن بين الأسباب ويعالج مرضه بالعلاج الناجح الذي يستطيعه حتى يعرف كيف يمكن أن ترجح كفته اذا هم بالوثوب مرة أخرى . ومعلوم أن أقوى قوة في الوجود هي القوة العليا الجبارة القاهرة فيستمد منها قوته وليصنع من نظامها قوة عظيمة ويعلم أن الله قد وضع بين يديه أسبابا لا تعد ولا تحصى ، وفتح له الباب يدعوه المستمعين به ويعتمد عليه ، فيجب عليه أن يأخذ بهذه القوى الدينية والمادية ثبات وتفكير وبصيرة نافذة ، ويدعو من وضع هذا له ويعلم أنه هو ومن يحاربه تحت قدرته

تعالى ومشيتته ، وأنه محق وأن عدوه مبطل ، وأن الله أمره بالدفاع والقتال بالمعنى الشرعى ، وأنه إنما أمره وأعطاه هذه الأسباب ومكنه منها لينصره ويؤيده ، فإن فاته النصر حصل على السعادة ، فلا بد له من إحدى الحسينين بكل حال ، فإذا أجمع أمره فليتوكل على خالقه وليعتمد عليه والله مع المتقين والعاقبة للمتقين والله ولى المتقين . أما إذا رجعت المسألة الى تنافس وبغى وعناد وحقد ومحاماة عصبية قومية محضة ونحو ذلك فتلك أهور أخرى قل أن يظهر لها نتيجة صالحة فأكبر ما تكون عقوبة على أهلها (ولا ظالم الا سيلى بظالم)

فصل

ثم أجاب عن الأمر الأول ، وهو الايمان بقدرته تعالى على حسب ما ذكره سابقا فقال : أما الايمان بقدره الله المطلقة من القيود والحدود فانه يقتضى الايمان بالسبب لا الكفر به ، لأن الايمان بالسبب هو فى الواقع إيمان بمسببه وصاحبه ، والكفر به كفر به ،

فيقال : ما شاء الله يابلى عام هذا الوقت ما أدق فطنتك ، من أين وجدت أن الايمان بقدره الله ومشيتته هو الايمان بأنه مقيد بأن لا يخرج عما طبعت عليه الأسباب فلا يتصرف فيها بمشيتته وقدرته فلا يدبرها فيجعلها إن شاء أسبابا وإن شاء غير أسباب ، فان ذلك هو السفه والفوضى التى لا ضابط لها . من أين وجدت أن الايمان بالأسباب بأنها آلية طبيعية ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها أو لتتحكم فى نهاياتها ، أن ذلك هو الايمان بقدره الله ، فإذا كان الايمان بقدره الله هو الايمان بعجز الله عن تغيير الأسباب والتصرف فيها عندك فتبأ لك وسحقا كأنك تخاطب بهذا الهذيان أنعاما لا رجالا عقلاء ، ففى أى لغة من اللغات بنى آدم وجدت أن الايمان بالأسباب المادية ايمان بمسببها والى كفر بها كفر به ، فعلى هذا بجميع المسلمين كفار لأنهم لم يؤمنوا بها . هذا

الايان الذى تدعيه ، فقد قلت فيما سبق أسماء المسلمون الظن بالاسباب إلخ ، وقد ذكرت أنهم لم يؤمنوا بالاسباب ، والملاحدة آمنوا بها فهم المسلمون اذن ^(١) . وقد قال تعالى ﴿ سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ فكل من آمن بالاسباب - وكل منافى هذا الوجود هو من اسباب الله كما يقول - فهو عن آمن بالله ورسله فهو فى الجنة ، فالملاحدة والطبايعيون وكل من آمن بالطبايع فهم المؤمنون بالله ورسله ، وأما المسلمون الذين أساءوا الظن بالاسباب وأكثروا من القول بتقليل قيمتها كما يقول فهم لم يؤمنوا بالله ورسله بل أساءوا الظن بالله لأن الايمان بالسبب هو فى الواقع إيمان بالله وإساءة الظن بالسبب إساءة ظن بالله . يا الدر الذى فى لجج البحر ، يا الشمس التى فى غير برجها ، يا عالم الشرق الأوسط ، من آمن بالاسباب فهو فى الواقع مؤمن بالله ، فاهو الفرق بين الايمان بالله والايمان بالسبب ، فمن قال آمنت بالله فقد آمن بالسبب ومن قال آمنت بالسبب فقد آمن بالله . إنه لمن الغريب جدا أن تتكلم فى الاتحادية الصوفية وأن تسفه آراءهم وقد اضطرت الى مثل هذا القول الذى هو فى الاتحاد أظهر مما قالوه بكثير ، بل أكثرهم يحتشم ويستحي من أن يقول مثل هذا القول .

الله أكبر يا بلعام هذا الوقت ، من آمن بأن الكلب يصيد الأرنب بطبيعته وأن الذئب يأكل النعجة بطبيعته فهو مؤمن بالله مؤمن بقدرته ، ومن كفر بذلك فقد كفر بالله ، ومن شك فى ذلك فقد شك فى قدرة الله ، ومن أساء الظن بذلك فقد أساء الظن به ، ومن آمن بأن الذكاء سبب فى الحصول على النجاح والعصمة من الفشل فهو مؤمن بالله تعالى مؤمن بقدرته ومن شك فى ذلك فقد شك فيه وفى قدرته ومن كفر بذلك فقد كفر بالله وهكذا عندك جميع الاسباب المادية ، أما من آمن بأن الدعاء سبب للإجابة وأن ذكر الله على المنابر والثناء عليه سبب فى (١) وقد ذكر فيما سبق أن الشعوب الأخرى إنما تقدمت لأنها آمنت بالاسباب.

نزول الرحمة والنصر والتأييد فهو الضال الجامد الرجعي الجاهل الذي فعل الشر والخبث والظلام والدمار ، فسحقا لك ما أكثر مخازيك وفضائحك ، كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون

ثم قال : والشاكون في أسباب الله - وكل ما في هذه الدنيا هو من أسباب الله - هم في الحقيقة شاكون في الله وفي عمله ، فإن هذا الشك معناه الشك في قدرته تعالى على أن يجعلها موصلة مبلغة ،

فيقال : ﴿ وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها ﴾ هكذا تكون آيات الحقائق الأزلية الأبدية وإلا فلا حاجة إليها . هذه حلقة مفرغة من حلق هذه السلسلة الخاطئة : في بيان الايمان بقدرة الله أنه الايمان بالأسباب . والمصيبة أنه جعل كل ما في الوجود من أسباب الله التي يجب الايمان بها على هذا النحو ، فمن آمن بأن القمل يتولد في جسم الانسان بسبب الوسخ ونحوه فقد آمن بالله وقدرته ، وهكذا جميع الأسباب والمسببات ، فمن آمن بها فقد آمن بالله تعالى ، وكذلك من آمن بهذه الحشرات المتنوعة وطبائعها وكذا غيرها فقد آمن بالله فإن هذه كلها في هذا الوجود - ولو أن الدجوى قال شيئا من هذا القول لقامت قيامة هذا الملحد عليه ، فأما عالم الشرق الأوسط وناطقة القرن الرابع عشر وبحر العلوم الذي لا ساحل له فإنه قرر أن الايمان بالله هو الايمان بالأسباب وكل ما في هذا الوجود هو من أسباب الله فالنبي ﷺ حين قال في تلقيح النخل ما أظن ذلك يغني شيئا فتركوه لذلك لم يؤمن هو وأصحابه بالله تعالى بزعمه بل هم شاكون مراتبون فيه تعالى وفي قدرته ، فانهم لم يعتقدوا بأن هذا السبب مربوط بسببه ربطا لا يمكن انفكاكه أبدا ، وإن ذلك مستحيل وكذلك كل من شك في أن الماء يروي بطبعه والطعام يشبع بطبعه وأن الكلاب تصيد الصيد بطبعها وأن الحمير تنهق بطبعها وأن الضب يستغنى عن شرب الماء بالهواء بطبعه وأن العلم والذكاء يوصل إلى النجاح بالطبع كل من

شك في هذا فقد شك في الله وفي قدرته ولم يؤمن بالله ، لأن الايمان بالاسباب - وكل ما في هذا الوجود من الاسباب - هو في الواقع ايمان بالله ، هكذا يكون نور الشمس التي في غير برجها ، وهكذا يكون لمعان الدر الذي في لجم البحر ، وهذا القول أشنع وأبشع مما يعتقد المشركون في الأصنام والأوثان مدعين أن عبادتها عبادة لله ومدعين انها اسباب للنجاح إما بالوساطة وإما بالذات ، فهم بكل حال مؤمنون بأنها أسباب ، فمنهم من يجعلها واسطة ومنهم من يعتقد فيها بنفسها الكفائية ، وهذا الملحد نفسه قد ادعى أن أوربا قد وجدت صناعتها وأبت الاشرار بها ، فمن التجأ الى الصناعة أو الزراعة أو التجارة أو غيرها معتمدا عليها بأن فيها الكفائية فقد آمن بالله وقدرته على كلام هذا الملحد ، والكفار المشركون على عظم كفرهم لم يصلوا الى هذا الحد فيدعوا أن الايمان بالاسباب هو الايمان بالله ، بل هم يؤمنون بالله تارة وبأسبابهم تارة ويشركون بها ويفرقون بين الاعتماد عليه تعالى والاعتماد على أسبابهم ، فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ولم يدعوا أن إيمانهم بالاسباب هو عين إيمانهم بالله لأنهم لم يصلوا في الزندقة والتفان والكفر والالحاد الى الحد الذي وصل اليه هذا الزنديق الذي حاول قلب شرائع الله والطعن في صميمها . وهذا الملحد قد فقد كل مناعة من عقل ودين وحياة فتكلم بكل ما خطر على باله ، ولو أنه سلم من هذا الجواب لكان أسر له ، ولكنه أراد قلب الحقيقة فانقلب على وجهه وخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين . ثم انه قد تناقض فقد مر أنه كفر بالاسباب الدينية وادعى أنها شر ما يؤدي ، أما الايمان بامثال أو امره الشرعية وكون ذلك سببا في دخول الجنة فليس ذلك هو الايمان بأسباب مخلوقة بل ذلك هو تصديق الله فيما وعده به أوليائه والاعتماد عليه في ذلك ، لأنه سبحانه وعده من آمن وعمل صالحا بالفوز والنجاة كما قال تعالى ﴿ يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقولون عليكم أن أتقوا فأتقوا وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا

وكنذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿١٠﴾ وقال تعالى ﴿ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم﴾ فهذا ايمان به وبأسبابه الدينية والتصديق به حيث أمر بذلك وليس في النصوص حرف واحد يوجب القول بأن من آمن بالأسباب كلها التي في هذا الوجود يكون مؤمنا بالله ومن شك فيها فقد شك في الله وكفر به . وقد تقدم حديث تأييد النخل وهو كاف في بطلان دعواه . ثم اننا لا نجزم على معين بأن عمله سبب في دخول الجنة حتما وأن هذا السبب متحقق مسببه ما لم يكن في ذلك نص خاص ، فالإيمان والتقوى والعمل الصالح هي من الأسباب لدخول الجنة ، لكن الشهادة بكون هذا السبب المعين لا بد من وقوع مسببه لا يمكن ، فقد يكون هنالك موانع وعوارض توجب عدم حصول النتيجة ، بل قد يصحب العمل الصالح إعجاب وكبر وزهو فيبطئه ويقع ضده كما فعل بلعام وغيره من المرتدين ، فامثالنا أوامر الله هو أخذ بالأسباب الدينية التي تقع مسبباتها بحسب سنة الله في خلقه ، ولكن حصول المسببات لا يتحقق في أسباب معينة مجهول ما يصحبها ويعارضها من الموانع ، ونحن انما نؤمن بوقوع مسببات هذه الأسباب وانها حتمية لأن النصوص دلت على ذلك دلالة صريحة ، بخلاف الأسباب المادية فان أكثرها عرف بالعقل وفيها كثير قد دل العقل على تخالف مسبباتها عن أسبابها بل قد تنقلب الى ضدها فتكون واقعة على وجه أخرى غير الوجهة المقصودة ، وليس الايمان بالأسباب الدينية كالإيمان بالأسباب الدنيوية ، فان من آمن بالأسباب الدينية حكم بإيمانه وكان هذا عاصم له في الدنيا ولم يسأل عن الأسباب المادية ، بخلاف ماله آمن بالأسباب المادية فانه لن يدخل في الاسلام حتى يؤمن بالأسباب الدينية ، فالفرق بينهما واضح جلي ، ومن جمع بينهما وجعل أحدهما عين الآخر فهو في غاية الضلال والكفر

ثم قال : والتقييد بالسكال والخير والحكمة والعدل ليس قيئدا إلا في لغة هؤلاء ، فيقال أولا : لا نسلم أن ما ذكرته كمال ونخير وحكمة وعدل ، وقد

عرفنا مرادك بالعدل والحكمة وأنه التسوية بين المسمى والمحسن والمفسد والمصلح ومعلوم أن هذا ليس من العدل والحكمة في شيء بل هو عكس ذلك ونقول ثانيا : ليس لأحد أن يقيد قدرة الله تعالى بتحكمه وهواه ، بل هو سبحانه قد أخبر صريحا بأنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وأنه تعالى يعز من يشاء ويذل من يشاء ويده الخير وهو على كل شيء قدير ، وأنه يحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ، وأنه كل يوم هو في شأن ، وأنه يدبر الأمر ، وأنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . وكل ذى مسكة من عقل يعلم أن ما ذكرته في كل هذا الخداع لا حكمة ولا عدل ولا خير فيه ، بل هو عين الخبث والشر والفوضى والظلم العظيم ، وكيف يكون العدل والحكمة في دعواك أن العالم محكوم بنواميس الطبيعة وأن الانسان هو الذى يستخدم هذه النواميس بعلمه وملكوته وأمثال هذه الترهات الفاحشة ، فمن اعتقد أن أمور العالم كلها تجرى بمقتضى استخدام الانسان لنواميس الطبيعة فقد سلب الله تصرفه ومشيتته وإرادته ، بل اعتقد الفوضى والسفه الذى لا ريب فيه

ودعواه أنه ليس هذا قيذا إلا في لغة هؤلاء ، ولو كان قيذا لكان مدحا فيقال : وليس النقص والفوضى والعجز كما لا إلا في لغتك ، لأن ذلك لا يتأتى إلا على اعتقادك في زندقته وإلحادك .

ثم قال : أما تخلف الأسباب عن المسببات فهذا لا يكون أبدا ،

فيقال : هذا تحكم باطل ورجم بالغيب وتكذيب بما لم تحط به علما . فنفيك له يحتاج الى برهان ، ويكفى في تكذيبه ثبوت المعجزات ، فان انقطاع الاحتراق من النار تخلف مسبب عن سببه الكامل ، وكفلك غير هذه المعجزة بما لا يعد ولا يحصى ، وتأكيدك النفي بالتأيد فجور واضح بل جماهير الملاحدة مقرون بأن المسببات تتخلف عن أسبابها ويسمون ذلك قلبيات الطبيعة ، فقد تبين رد باطلك بما اعترف به سادتك من التخلف كما أشار إلى

ذلك السيد محمد رشيد رضا في الوحي المحمدي وغيره ^(١) بل العامة تعرف ذلك معرفة ترتفع عن الجدال ، ولهذا يحتجون بالقضاء والقدر ويذكرون الحظ الذي تجده في فهم كل إنسان فكيف تنكر شيئا لم تعلمه ، ومعلوم أن عدم العلم ليس علما بالعدم بالاتفاق

فصل

قال دولا يفلت من هذا القانون أمر من الأمور حتى الموت نفسه فانه إنما يقع حيث تجتمع الأسباب وهي إما الأمراض وإما عجز الخلايا بسبب الشيخوخة ، وإما عجز القلب عن تنظيم نبضه وحركته لآفة فيه أو لأمر داهم مفاجيء .

فيقال : هذا كلام لا حاصل له سوى أن الموت إنما يقع اذا وقعت أسبابه ، وهو من جنس كلامك الماضي في البذر أنه يخرج إذا اجتمعت أسبابه ، وكأنك تظن أن خصومك يدعون ان الموت لا يقع بالأسباب ، فان كان هذا ظنك - وما هو على غاوتك ببعيد - فنحن نخبرك بأنهم يقولون انه يقع بأسبابه ، وقد بينا غير مرة أن الله تعالى يفعل بالأسباب ويوجد

(١) قد ذكر الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة في كتاب (الشواهد) كلاما كثيرا لعلماء الطبيعة المشهورين في اعترافهم بتخلف الأسباب عن المسببات وأن هذا أمر معروف عند علماء المادة فنقل عن جيمز الانجلارز مؤلف كتاب (النجوم في مسالكها) وكتاب (الكون الغامض) وهو دكتور في الآداب ودكتور في العلوم وعضو المجمع العلمي البريطاني وقطب من أقطاب العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية فنقل الشيخ عنه كلاما طويلا في الشواهد من ص ٢٦ الى ٣٥ في إثبات تخلف المسببات عن أسبابها وأن النتيجة ليست حتمية ، وأثبت القضاء والقدر ، ونقل عن غيره كلاما كثيرا فليراجع .

بعض الأسباب ببعض ويصرف الأسباب بعضها ببعض وإن الله يرزق بالأسباب ويحيي بالأسباب ويميت بالأسباب ويفقر بالأسباب ويعز بالأسباب وينذل بالأسباب ويؤتي الملك من يشاء بالأسباب وينزع الملك من يشاء بالأسباب قال تعالى ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ﴾ وقال تعالى ﴿ ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾ وكونه يفعل بالأسباب أعظم في القدرة لأن هذا يقضى أن الأسباب كلها في قبضته وطوع مشيئته وإرادته وأنها كلها مقهورة بالمشيئة العليا لا يمكن أن تفلت من حكمها ، وهذا القول لو قيل لمن لا يرى أنه يفعل بالأسباب فربما كان له وجه ، وإذا كان مرادك أن الأسباب نفسها هي علة الموت عاد الكلام في مسألة نواميس الطبيعة وقد تقدم الكلام فيه مرارا وبيننا أن الطبيعة ونواميسها وقواها كلها تجري بإرادته تعالى ومشيئته ، وإذا كنت تريد أن ذلك الفعل هو فيها لذاتها ليس بالمشيئة والارادة - وهذا هو مرادك - فهذا الحاد صريح فلا حاجة الى الخداع وكثرة التناقض والاسباب والاطناب ، فصرح به مجاهرة ودع الخداع والمنافقة جانبا لتعرف عاقبته . ثم يقال لك ما أسباب المرض وما أسباب أسبابه وما أسباب عجز الخلايا في وقت دون وقت وما سبب عجز القلب عن تنظيم نبضه وما سبب الأمر الداهم المفاجيء فهل أحد يحيط بذلك ويمكنه ازالة هذه العلل وجعل البدن مستقيما على الحالة التي بها يعيش ويحيى حياة صالحة ، أليس ذلك كله راجعا الى أمور غيبية ليس للبشر قدرة على الاحاطة بها وإدراك الغاية فيها ، ثم إن الموت قد يحدث فجأة ^(١) وقد يحدث من مرض ضعيف جدا كما أنه قد لا يقع في وجود المرض المخوف فما أسباب هذا التفاوت . ثم انه قد علم أن الأسباب التي يموت بها البشر لا يعدها ولا يحصيها الا الله تعالى ، وهذا واضح جلي في

(١) قد مات كثير من الناس وهو جاحد وفيهم من مات وهو في حالة صحية جدا
فيأتيه الموت فجأة

عجز الانسان عن ضبط الاسباب فكيف بالقدرة على استخدامها كلها في كل ما شاء وأراد

ثم قال : أما الآيات التي تنص على آجال الأفراد والامم وأنهم لا يستأخرون عنها ساعة واحدة ولا يتقدمونها ، فهي كذلك أيضا ، لأن حلول الأجل معناه اجتماع الاسباب واجتماع الاسباب معناه حلول الاجل ،

فيقال : نعم هذا معناه في لغة أغلاك لأنك تريد أن تجعل لك لغة مفردة فيها ، لأنك المقدم في الأمر ، ففي أى لغة من لغات بنى آدم وجدت أن معنى الأجل هو اجتماع الاسباب ، وهذه قواميس لغة العرب لا تعد ولا تحصى ، وهي تكذب هذه الدعوى ، وقد قال تعالى ﴿ ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ﴾ فهل يقول عاقل : ولولا اجتماع الاسباب لجاءهم العذاب . وقال تعالى ﴿ ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ﴾ فهل يقول عاقل إن معنى هذا الأجل هو اجتماع الاسباب ، وهل في لغة العرب أن هذا معنى الأجل ، وفي حديث ابن مسعود المتفق على صحته « فيكتب رزقه وأجله نوحى أم سعيد ، ويقول المسلمون : اذا جاء الأجل المسمى ويذكرونه فيعينون الوقت والزمان المحدود ، ويقول العلماء يصح بيع السلم الى أجل مسمى ، فالأجل في جميع اللغات هو الوقت المحدود المعلوم ليس هو اجتماع الاسباب وهذا الوقت قد تجتمع فيه الاسباب وقد لا تجتمع فانه الوقت الذى تكون فيه مفارقة الروح للجسد ، وقال تعالى ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله كتابا مؤجلا ﴾ فاخبر تعالى أنه لا يمكن لنفس أن تموت إلا باذنه في وقت مؤجل قد كتبه الله وحقيقة كلام هذا الملمحد يقتضى ألا يكون معنى الآية فاذا جاء موتهم لا يستأخرون ساعة عن موتهم ولا يستقدمونها ، وهذا باطل ، وانما يصح المعنى اذا كان الأجل هو الوقت المحدود فانه يصح حينئذ أن يكون المعنى اذا جاء وقت موتهم أو هلاكهم لا يستأخرون عن هذا الوقت المحدود ساعة ولا يستقدمون ، ويدل على هذا أنه ذكر الساعة ، ومعلوم أنها الوقت

المحدود . ثم اجتماع الأسباب يختلف اختلافا لا يحصى ، فقد تجتمع أسباب
وبتأخر الميت ساعات وأكثر من ذلك ، وإذا قيل المراد الأسباب المقتضية
للموت قيل هذا يوجب أن يكون الأجل اسما لأسباب دون أسباب ، وهذا
كثير لا ينضبط ولا يسمى اجلا مطلقا في جميع اللغة كما تقدم
وقوله : « فن صدمة سيارة فقد حل أجله »

يقال : وهذا لا ينفعك شيئا ، فأننا نقول قد تصدمه ولا يموت كما يقع
كثيرا ، لانه حينئذ لم يكن قد حل الوقت الذي هو أجله . ثم إنه إذا كان موته
بصدمة سيارة فأنها لا يمكن أن تصدمه قبل الوقت الذي هو أجله فلا يستقدم
الأجل بصدمة سيارة يموت فيها ولا يستأخر ، فليس نفس الموت بالصدمة هو
الأجل ، بل هو الوقت الذي تكون فيه الصدمة فلا تصدمه إلا حين حلول الأجل
الذي هو الوقت بمشيئته تعالى

ثم ذكر أن بعض الناس يعتقد أن بعض الآم تسقط بدون أسباب ،
وأن أمما أخرى قد تنهض بدون أسباب ، وذكر أن بعض الناس يقول إن
بعض الآم تشيخ كما يشيخ الافراد وأطال من هذا الهذيان ، وقد تقدم الجواب
عن مثل هذا

ثم قال : وهذه الآراء مصدرها كلها هذه الفكرة الباطلة - وهي فكرة إنكار
الأسباب أو التهوين من شأنها أو الاعتقاد بأن الله يفعل بدونها أو يدخل
بينها وبين مسبباتها ويحول بينها وبين نهاياتها ^(١) . وابن خلدون نفسه لم يستطع
أن يخلص من هذه الأغاليط التقليدية حينما نهض لبحث هذه المسائل ودراستها ،

(١) هذا صريح ظاهر في غاية الوضوح والجلالة بأنه يدعى أن الله لا يحول بين
الأسباب ومسبباتها ولا بينها وبين نهاياتها ، وهو كفر صريح واضح ، لانه انكار
لتصرف الله في ملكه كما أنه تكذيب بالمعجزات وإبطال للشرائع ، فأى فعل لله إذا
كان لا يتصرف في الأسباب بقطع أو وصل أو غيره

فيقال : أما إنكار الاسباب والتهوين من شأنها فقد بينا أن هذا كذب ظاهر . وأما اعتقاد أن الله يتصرف فيها بالقطع والوصل ويحول بينها وبين نهاياتها فهذا هو اعتقاد المسلمين بل وأهل الملل كلهم ، من يقر بالخالق تعالى كما تقدم إيضاحه ، فهذا الملحد صرح في هذا بأنه تعالى لا يحول بين الاسباب ومسبباتها ونهاياتها أبدا وهذا تصریح ظاهر في إنكار كونه يتصرف فيها بقطع أو وصل ، وأنت اذا تأملت قوله هذا ونظرت الى قوله في المشكلة التي لم تحل « والانسان لن يكون سببيا إلا إذا آمن بأن هذا الوجود كله مربوط بأسباب آلية طبيعية تسير الى نهاياتها ونتائجها سيرا آليا طبيعيا ليس لقوة من القوى أن تقف في سبيلها أو تتحكم في نهاياتها » علمت أنه يريد أنه ليس لله أن يقف في سبيلها ويتحكم في نهاياتها ، وهذا صريح في ان النجاح لا يمكن إلا لمن كفر يتصرف الله في ملكه وكفر بكونه يحول بين الاسباب والمسببات وبين الوسائل والنتائج ، فإدام الانسان لم يكفر بمشيئة الله بالقطع والوصل فإنه لن ينجح لانه لن يكون سببيا ، وأى كفر في الدنيا أظهر من هذا فقبحه الله ما أخبت كلامه وقبح ما جادل عنه . وهذا كما أنه كفر صريح يقتضى إبطال النبوات وإبطال الكتب السماوية بل إبطال الاديان كلها ، فهو كلام ساقط ، فان أكثر الملاحدة أنفسهم يخالفون في هذا ، فانهم معترفون بوجود انقطاع المسببات عن الاسباب كثيرا ويسمون ذلك فلتات الطبيعة ، وفساد هذا القول في الشرع والعقل والضرورة أمر واضح ، ومن يخفى عليه فساد هذا فهو مصاب في دينه وعقله ، ولهذا أنكر هذا الملحد على ابن خلدون هذه الفكرة وادعى أنها من الاغاليط ، مع أنه عجز عن إثباتها ، فلو طوّل هذا الملحد بيان سبب واحد لم يختلف ولن يختلف لن يجد ذلك أبدا ، وابن خلدون أعقل من أن ينكر تصرف الله في ملكه ، بل تكلم في الاسباب وأثبت المشيئة ، وهو ممن ثبتت الاسباب لكن لا يتجاوز الى حد الاثراك بها وأنه يجب الاعتماد عليها ، وأنه

الله لا سيطرة له عليها ، فان هذا قول الدهرية والزنادقة المقلدين لهم على غير بصيرة

ثم قال : ويحسب بعض الناس - وقد تورعنا عن أن نقول كلمهم (١) - أن أمثال قول الله ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ يدل على ضعف أمر الأسباب ، وعلى أن الأخذ بالحيلة والتحصن من أسباب الموت لا يفيد شيئا ولا يرد آتيا ، لأن الله قد حكم بأن الناس كلهم ستدركهم المنايا - مقدرة لهم ومقدرين - لا محالة ولولزموا البيوت المشيدة . . . والواقع أن الآية تعطى عكس ما فهم الناس منها ، لأنها قضت بأن الناس كلهم مقضى عليهم بالموت مهما حاولوا الفرار منه ،

فيقال : بل الآية نص صريح في عكس ما فهمته منها في العكس الذي ذكرته وفيما قبله ، فان مما لا ريب فيه أن البروج المشيدة من أعظم ما يتحصن به من الموت والوقاية من أسبابه لا سيما وقت الحرب ، وهذه الآية سيقت في هذا الشأن فلا مناسبة لما ذكره عليها ، بل سيقت للمعنى الذي فهمه عامة المفسرين وسائر علماء الدين كما يدل عليه ما قبلها من السياق وما بعدها ، فانه سبحانه أخبر بأن هذا السبب الذي هو عند المنافقين وورثتهم أقوى الأسباب في رد الموت ومقتضياته ولان المنافقين كلهم خلفاء عن سلف كانوا يعتمدون على الأسباب غاية الاعتماد ويؤمنون بها غاية الايمان ولهذا كانوا يلجأون اليها عند الشدائد ويرون أن فيها الكفاية في الوقاية من الموت وأسبابه ، فرد الله عليهم ردا صريحا في هذا الرأي في قوله تعالى ﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلبس عليكم القتال إذا فريق منهم

(١) لا حاجة الى هذا الورع البسيط الزائف في جانب هذا الفجور الفاحش

يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فيلا ، أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴿ الآية فى هذا بيان أنهم فهموا كما فهم أتباعهم أن الآجال هى اجتماع أسباب الموت ولهذا جزعوا غاية الجزع من القتال لأن أسباب الموت تجتمع فيه فقالوا معترضين على ما أمروا به من القتال ﴿ ربنا لم كتب علينا القتال ﴾ فى هذا بيان أنهم معترفون بالربوبية ومع هذا فهم فى الدرك الأسفل من النار ، لأنهم منافقون خالف فعلهم واعتقادهم قولهم ، واتخذوا أيمانهم جنة ، وأفسدوا فى الأرض وقالوا إنما نحن مصلحون ، وخادعوا الله ورسوله والمؤمنين فقالوا ﴿ ربنا لم كتب علينا القتال ﴾ يعنون أن هذا شىء يوجب الموت بحكم العادة فى الأغلب ، فأنهم يسندون الأمور الى الأسباب مطلقا بدون ملاحظة القضاء والقدر والمشيئة وأنه لا يصيبهم شىء إلا ما قدر لهم ، ولهذا قالوا ﴿ لولا ﴾ أى هلا ﴿ أخرتنا الى أجل قريب ﴾ فأنهم جزعوا بالموت فى القتال لأن أسباب الموت تجتمع فيه فلماذا فرقوا منه واعترضوا على الله فى هذا التقدير الذى هو كتب القتال ، ولم يقولوا لولا أخرت أجلنا لانهم لا يرون القضاء بل يرون أن الأسباب هى التى تفعل لذاتها ، فلذا قالوا ﴿ لولا أخرتنا الى أجل قريب ﴾ أى أخرت كتب القتال ^(١) لأنهم نزلوه منزلة القتل المحقق - لشدة القلق والجزع ورسوخ عقيدة استناد الموت الى الأسباب فقط ، فودوا أنه لم يكتب عليهم القتال ، فأنهم أيقنوا بالهلاك فيه ، فرد الله عليهم هذا الوهم وهذا الظن الخبيث أعظم الرد وأبينه فقال ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ متاع الدنيا قليل ﴾ لأن غاية ما تتمنونونه أن تؤخروا وتمتعوا قليلا وهو متاع قليل ، ثم يأتىكم الأجل المحتوم الذى لا بد منه ، فكأنكم لم تؤخروا ولم يحصل لكم شىء من

(١) أى الذى أمرت به أمرا دينيا كقوله ﴿ كتب عليكم الصيام ﴾ ونحو ذلك

المتاع ، فان الفائدة المطلوبة من الحياة أن يكتب فيها عمل صالح وإلا كانت خسارة مرمدية لا عوض عنها ^(١) ﴿والآخرة خير لمن انق﴾ أى فقط ﴿ولا تظلمون فتىلا﴾ بل تجاوزون جزاء ما عملتم ، فلاى شىء هذا الجزع والقلق وطلب التأخير والحال هذه ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت﴾ فلاى شىء هذا الجزع والفرار من القتال وهو أنه إن كان أجلكم فيه فهذا لا يفيدكم بل لا بد أن يدرككم الموت بكل حال ﴿ولو كنتم فى بروج مشيدة﴾ فلا حاجة الى طلب التأخير وكرهه القتال خوفا من الموت وهو واقع لا محالة بكم ولو كنتم متحصنين منه فى بروج مشيدة أى حصينة وهذا أبلغ شىء فى التحرز والبعد عن القتال ، وهذا رد صريح لما يتوهم المنافقون فى الأسباب بأنها مصدر الأعمال دون القضاء والقدر بل الأسباب تجرى على مقتضى القضاء والقدر ، ولو كان التحصين فى البروج يفيد تأخير الأجل لم يحسن الاعتراض عليهم والرد عليهم لانهم لم يدعوا عدم الموت حتى يكون فى الآية اثبات ان الموت مقضى به على كل أحد وإنما طلبوا التأخير فقط فرد عليهم بأن كتب القتال لا يستقدم الأجل ، بل الموت اذا حل أجله جاءهم ولو كانوا فى بروج مشيدة ، فسيان بين موضع القتال والبروج المشيدة فى حلول الأجل أى أنه لا فرق بين الاستجابة لله بالقتال وبين التحصن فى البروج فى حلول الأجل كما يدل عليه قوله تعالى ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله كتابا موجلا﴾ وقوله ﴿والكل أمة أجل ، فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ وكقوله تعالى ﴿قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتال الى مضاجعهم﴾ الآية ، فهذا الملحد قد تبع سلفه فى هذا الرأى كما تبعهم فى كل شئونهم فى النفاق الغليظ وهو مبتلى بالاعتذار عنهم والدفاع والنضال عن أسلافه هؤلاء

(١) أى كما قال تعالى ﴿أفرايت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ، ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾

والتصلب في تقليدهم والاعتداء بهم ولا سيما في الاستمراء بالمؤمنين والتعلق على الأسباب والاعتماد عليها وإنكار القضاء والقدر وإظهار الإسلام أحيانا عند الحاجة والملق ومحبة أعداء الله وموالاتهم وغير ذلك من شئونه حتى صارت حالته أصدق صورة ترسم للمناقق الحقيقي والعياذ بالله تعالى

فصل

قال « أما قوله تعالى ﴿ قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم ﴾ فالمعنى فيه أن هنالك أقواما من أشراف العرب يوجب عليهم شرفهم ومكانهم من قومهم وفي قومهم ، وتوجب عليهم سيادتهم ذات الحقوق المعروفة المرعية ، وظروفهم القاهرة الحاكمة أن يخرجوا للقتال على أى حال حتى ولو كان في هذا الخروج الهلاك المحقق ، اذا ما أهاب بهم داعي المجد - وان لم يدعهم الرسول وأصحابه الى ذلك ، كما هو الشأن في كل الأمم ، وكما هو الشأن في الجاهلية والإسلام . . . وحكم هذه الظروف عليهم المحفوفة بالاطحاط وأسباب الهلاك هو معنى كتب القتل عليهم ، ومعنى بروزهم الى مضاجعهم . وليس معنى هذا أن هنالك قوة خفية تلزم قوما معينين بالخروج لأنهم مرادون للقتل لأغراض لا تعقل ،

انتهى كلامه على هذه الآية فاعتبروا يا أولى الأبصار ، اعتبروا أيها المسلمون ، ان خروج الأشراف الى القتال هو معنى الكتابة ، وكأنه لدقة فطنته تخيل أن الأرض صحيفة وأن أرجلهم أقلام تخط فيها وتنقط ، وذلك هو الكتب حينما يخرجون الى القتال وحق له أن يقول هذا البيت الذي امتدح به نفسه :

ولم يذكرها غيري متى ذكر الذكا ولم يبصروا غيري لدى غيبة البدر
فقد جاء بعض تأويل هذا البيت في تفسير هذه الآية ، فمن هو الذي

يستطيع أن يدرك ذكاؤه أن معنى كتب الله هو خروج الأشراف بداعي الشرف الى القتال ، ومن ذا الذى يكون له غور بعيد فى استخراج هذا الزعاف المتن غير (الدر الذى فى لجج البحر) فالكتابة فى قوله تعالى ﴿ كتب عليهم القتال ﴾ عند صاحب الحقائق الأزلية الأبدية التى تأخذ بها أمة فتنهض وتركها أمة فتهوى هى خروج الأشراف الى القتال ، فيكون معنى الآية قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين برزوا للقتال ، فانه فسر معنى الكتابة بالبروز الى المضاجع ، فيكون معنى كتب الله القتال عليهم خروجهم وبروزهم . وليس من شك عند أدنى عاقل أن هذا مسخ صريح للقرآن ، فلو جاز أن يفسر كتاب الله بهذا المسخ ويتحكم فيه هذا التحكم والهديان لبطل الانتفاع به جملة ، فانه من الممكن لليهودى والمجوسى وكل ملحد وكل مشرك وكافر أن يستدل به على صحة رأيه اذا سلك هذا المسلك ، فانه إذا كان خروج أناس من بيوتهم الى مواضع القتال يسمى كتابة فكل معنى فيه يمكن أيضا أن يسمى كتابة ، فان هذا الزندىق لو وهب عمر نوح لم يجد فى اللغة أن معنى الكتابة هو مشى الأشراف من بيوتهم الى مواضع القتال ، وهو يعلم حقيقة العلم أنه لا يمكنه وجود ما يؤيد هذه الدعوى المردولة لا لغة ولا شرعا ولا عرفا ، ولكنه لا يريد أن يتبع اللغة ولا التفسير ولا أحدا من أهل العلم ، بل لا يريد أن يتبع غير هواه وأن تكون كتابة الله أيضا مطابقة لهواه ، ولو اتبع الحق أهواءهم ففسدت السموات والارض ، ولهذا ادعى بأنه ليس عليه أن يأخذ بما قاله أهل العلم ، بل هو معترف بأن ما سطره فى أغلاله هو رأى رآه ولم يسبق اليه ، فلماذا تحكم فى كلام الرب تعالى بما يشاء ويشتهى بدون حدود ولا قيود ، فقد سولت له نفسه وزين له شيطانه وغره تيهه واختياله أن المسلمين أمة برابرة همجية لا تفهم ولا تعقل ، بل انه ليس فى المسلمين من يفهم كلام الله ويعقله وأنه اذا قال قولا قبل منه وترك جميع ما يخالفه من كلام علماء المسلمين ، وهذا

من آثار اعتقاده في قوله (١)

متى جريت فكل الناس في أثرى وإن وقفت فما في الناس من يجرى
ولهذا فانه أخذ يعث في القرآن والسنة على حسب ما يشاء ويريد غير
متقيد باللغة ولا غيرها من أقوال أهل العلم من أولهم الى آخرهم

ودعوة المرء تطفي نور بهجته هذا الحق فكيف المدعى زللا

ولقد أبعد النجعة في تحريفه لهذه الآية الكريمة ، فليس فيها اختصاص
أهل الشرف أو المكانة من العرب في قومهم ، بل هي في المنافقين سواء
كانوا من أهل الشرف في قومهم أو لم يكن لهم شرف ، فان الله تعالى يقول
أول الآية وذلك في غزوة أحد حين كان فيها أناس من المنافقين ﴿ ثم أنزل
عليكم من بعد الغم أمنة ناعسا يغشى طائفة منكم قد أهمتهم أنفسهم يظنون
بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء ، قل ان
الأمر كله لله ، يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من
الأمر شيء ما قتلناها هنا ، قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم
القتل الى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدورهم وليمحص ما في قلوبهم والله
عليم بذات الصدور ﴾ فتأمل الآية من أولها الى آخرها تجد أنها صريحة في
مناقضة ما ادعاه . فقوله جل من قائل ﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ﴾ يعنى
تعالى بذلك المنافقين ، فانهم ﴿ يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ﴾ وذلك
لحبث بواطنهم وعدم ايمانهم بالله ومحبتهم له وإخلاصهم وصدقهم ،
فانهم لم يحبوه ويعظموه ويشهدوا معاني أسمائه وصفاته وأنه الكامل الذى له
الغاية في الكمال المستحق للحمد والثناء في كل أفعاله وتدييره ، فأفعاله كلها
إما عدل وإما إحسان وكلاهما يستحق عليه الحمد ، فكيف يظنون به تعالى غير

الحق ، وهل هذا إلا من خبث طويتهم وجهلهم به ، ولهذا أسندوا الأمور الى الأسباب وجعلوه غير قادر على ضبطها وتصريفها على مقتضى مشيئته وقدرته ^(١) ﴿ يقولون هل لنا من الأمر من شيء ﴾ أى فى الخروج الى القتال وهذا من شدة ما بهم من القلق والجزع وعدم الثبات والاستسلام والصبر كما هو شأن كل منافق ، فانه شديد اللجاجة والخصومة فيما اذا وقع الأمر على خلاف ما يهوى ويريد ولا سيما اذا ظن أن فى ذلك هلاكه أو خسارته ، قال تعالى ردا عليهم ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ ان الامر كله لله ﴾ فهو الذى أخرجكم وأخرجنا ، وذلك لانهم يلومون المؤمنين فى خروجهم للقتال وينسبون ما أصابهم فى هذه الواقعة اليهم وأنهم لو كان الامر بأيديهم هم لما خرجوا ولما صار شيء من القتل ، والا فلو أنهم اعتقدوا أن الامر كله لله فهو الذى أخرجهم فانه جهاد مشروع ، ثم انه وإن كان مصيبة فى حق البعض فالواجب الصبر عند المصائب والاحتساب كما قال النبي ﷺ ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن ، فان أصابك شيء فلا تقل لو انى فعلت كذا لكان كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ، فان (لو) تفتح عمل الشيطان ، فهو لام استعملوا (لو) فانهم قالوا ﴿ لو كان لنا من الامر من شيء ما قتلنا هاهنا ﴾ ولم يقولوا قدر الله وما شاء فعل ولا صبروا واحتسبوا ، ولا سيما فقد كان النبي ﷺ معهم فيجب أن يستسلموا وينقادوا لما أمر به ويتبعوه وأن لا يعترضوا على ما فعل ، ولكنهم لحبث عقائدهم لم يعبأوا بذلك شيئا وهذا من الاسرار التى تكون سببا فى هزيمة المؤمنين اذا كان فيهم منافقون فانه بذلك يتميز الصادق من الكاذب والمخلص من المنافق كما فى آخر هذه الآية نفسها . فقوله ﴿ قل إن الامر كله لله ﴾ يوجب عليهم أن يستسلموا ويطيعوا ويتركوا الضجر والقلق فانه ربهم الحكيم الغليم الرؤوف الرحيم ، فما

(١) أى فلا يعجز أهل طاعته ولا يذل أهل معصيته

هذا الاعتراض والتمرد الاعدم رضا به وبتيديره وأمره كما في الحديث « ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد نبياً ، والرضا يوجب الانقياد والاستسلام ، ليس هو مجرد الاقرار باللسان فقط فهم مقرون بذلك ، ومع هذا فهم في الدرك الاسفل من النار ، وقوله تعالى ﴿ يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك ﴾ لأنهم اذا جاموا عند الرسول عليه الصلاة والسلام أظهروا الملق والخذاع كما ذكر ذلك عنهم في الآية الأخرى ﴿ واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ، قل موتوا بغيظكم ﴾ فهم يخفون في أنفسهم من عدم الرضا وعدم الاستسلام والقلق والضجر بخلاف ما يبدون له من الخداع والنفاق والايمان الفاجرة ، فانه عليه السلام أشد رهبة في صدورهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون وذلك أنهم ﴿ يقولون ﴾ فيما لا يبدون له ﴿ لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ﴾ وهذا تصرّح بأنهم لا يرون القضاء والقدر شيئاً بل يرون أن الانسان هو الذى يستخدم هذه النواميس فيصرفها بقدر استخدامه ، وذلك أنهم ادعوا أنه لو كان الامر في أيديهم بأن كانوا هم الذين قدموا في الامر لم يشيروا بالخروج الى القتال ولم يخرجوا اليه ولم يجر قتل ، وإنما ذلك كان في مقدرتهم ، وإنما جرى هذا كله بأسباب أنهم لم يكن لهم في الامر شيء وكان الامر في أيدي غيرهم ، قال تعالى ردا عليهم في هذا الزعم الخبيث اذ ليس هذا شيء في مقدورنا ولا مقدورهم وإنما الامر بقضاء وقدر سابق ، فانه أمر كله لله ﴿ لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم ﴾ فان هذا القضاء المحتوم لا بد من نفوذه ، فقولكم ﴿ لو كان لنا من الامر من شيء ما قتلنا ههنا ﴾ قول باطل فانما يفيد هذا لو كان أمر القتل والخروج وغيره ليس لله وإنما هو لكم أو لغيركم ، ولكن الامر هو لله فليس في الاستطاعة دفعه ، فانه قد علمه الله وكتبه في اللوح المحفوظ وفي أم الكتاب ، فلو كنتم في بيوتكم فلن ينفعكم جلوسكم فيها بل

تبرز هؤلاء الذين كتب عليهم القتل في سابق علم الله الى مضاجعهم أى المواضع التى يقتلون فيها ، فانه سبحانه إذا قضى أمراً فلا راد لقضائه إنما يقول له كن فيكون ، فلا بد أن يهيئ لهم من الأسباب ما يخرجهم الى مضاجعهم بقدرته تعالى غالبه ستسوقهم بأسباب أو بغير أسباب الى هذه المضاجع التى قتلوا فيها ، فما هذا الجزع والفرق والإرجاف والاعتراض على الله ورسوله والمؤمنين باللوم وسوء الظن به غير الحق ، وإنما ذلك منشأ ضعف الإيمان واليقين وعدم الاستسلام الكامل . ثم ختم الآية ببيان الحكمة فى هذه الواقعة وغيرها بقوله ﴿ وليبلى الله ما فى صدوركم ﴾ ولیمحص ما فى قلوبكم ﴿ والله عليم بذات الصدور ﴾ فان الله سبحانه لا بد أن يمتحن خلقه بما يبين الصادق من الكاذب والحيث من الطيب لتظهر حكمته وتقوم حجته كما قال تعالى بعد هذه الآيات ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ الآية . وهذا الذى ذكرناه هو ظاهر الآية وكلام المفسرين فى معناها ، فاما ما ذكره هو على الآية فهو قرمطة ظاهرة ، فانه ليس فيها اختصاص أهل الشرف دون غيرهم ، وليس المشى من البيوت والخروج منها الى مواضع القتل هو الكتابة ، وإلا لكان معنى الآية : لبرز الذين برزوا الى مضاجعهم ، أو لبرز الذين خرجوا الى مضاجعهم ، ويصان كلام الله عن هذا الهذيان ، فان المقصود من الآية أنه التوقف عن القتال أو الاعتراض على الرسول والمؤمنين فى الخروج اليه باعتراض على الله وتوقف لا معنى له ، وليس فى الجلوس وقاية من الموت اذا كان الله قد قضى وقدر أن هؤلاء المقتولين سيقتلون فى هذا الوقت ، بل هذا القضاء سينفذ ولو كان هؤلاء المقتولون فى بيوتهم لبرزوا الى هذه المضاجع التى قتلوا فيها . وهذا مشى على قاعدته فى الاحاد وأبى أن تكون قدرة الله ومشيته هى التى تخرجهم فقال : وليس معنى هذا أن هناك قوة خفية تلزم قوما معينين بالخروج . فيقال له : من أين اطلمت على أنه ليس هناك قوة خفية تلزمهم بالخروج ، وليس من شرط هذه القوة أن تطلع عليها ، وعدم اطلاعك عليها

وعليك بها لا يوجب أن لا يكون هناك قوة خفية فكم في الوجود من أشياء لم تطلع عليها ، فاذن احكم على كل ما لم تعلمه وتطلع عليه بالعدم ، فعدم العلم ليس علما بالعدم ، والآية في غاية الصراحة في نقيض ما ادعيت في إنكار إرادة الله ومشيتته تعالى وقضائه قال تعالى ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بأذن الله كتابا مؤجلا ﴾ وكيف يقر هذا الملحد بأن الشرف يوجب عليهم الخروج ويخرجهم مع أنه عرض ويشكر أن يكون الله القادر الجبار القهار الذى له ملك السموات والأرض لا يخرجهم ، وقد عبر عن الله بالقوة الخفية خداعا ونفاقا ، فكأنه هاب من التصريح بالاسم الظاهر ، ولا معنى لهذه الهبة فان كل من له عقل ودين يعرف ذلك ، فهو سبحانه القادر على إخراجهم بأن يزين لهم القتال ويكره اليهم الجلوس ويهيء لهم من الأسباب ما يدفعهم الى الخروج أو يسلط عليهم من يخرجهم بمطامع أو غيرها ، والأسباب التى توجب خروج الانسان من بيته أكثر من أن تحصر ، فانه تعالى كتب عليهم القتل هنا لحكمة ربانية لا يد من إيجاد مقتضاها ، والقتل في ميادين القتال الشرعى فيه مصالح كبيرة ، فانه ان كان في قوم مؤمنين فهو خير لهم ورحمة لهم ليحييهم تعالى حياة طيبة صحيحة سمعية ينسون بها ألم القتل وغيره ، وان كانوا أشقياء رحم العباد والبائس بالآلهم منها والانتقام منهم ونفذ فيهم عدله الذى يستحق به الحمد . والبليّة والمصيبة قوله ، لا أنهم مرادون للقتل لاغراض لا تعقل ، فجعل هذا الزنديق أفعال الله التى ينفذها في خلقه موقوفا تنفيذها على عقله بأن يعقلها هو وإلا فهي مردودة ، فقد أبان في هذا أن الذى حمله على هذه القرمطة والتحريف أنه لم يعقل حكمة الله التى سماها غرضا في هذا القتل ، فكان فعل الله ومشيتته وقدره وقضاؤه مردودا بحجودا مرفوضا رفضا باتا حتى يفهمه ويطلع عليه هذا الزنديق ، فانه علل هذا بأنه لا يعقل ، فجعل كل ما لا يفهمه ولا يعقله لا يمكن أن يقع إلا على ما يريد هو ، ثم رتب على هذا تحريف هذه النصوص ، ثم ركب على هذا أيضا أن الذى قاله هو الذى يجب اتباعه ، ظلمات بعضها فوق

بعض . ومعلوم أن ما ذكره الله في هذه الآية الكريمة في غاية الوضوح ، وهو معقول مقبول معلوم ، فلا أحسن ولا أطيب ولا أبين ولا أوضح منه ، فهو عين الحكمة فإن المقتول إما مستريح أو مستراح منه كما في الحديث ، ثم لو فرض أننا لم نعلقه فن الجنون أن نحرفه أو نرده ، بل نقول : آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب

فصل

ومن عجيب أمره أنه احتج على غلوه في الأسباب وكونها لا تغير باعتقاد المنافيين الموجودين في زمن النبي ﷺ ، مع أن القرآن صرح بالنهي عما فعلوه فقال :

« وما يجب فهمه أن العرب قبل الاسلام كانوا يؤمنون بالأسباب إيماناً عميقاً ، وقد حكى القرآن عنهم قولهم ﴿ يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا ﴾ يعنون ان الأمر لو كان أمرهم - أو لو كانوا مطاعين - لنهوا عن الخروج الى القتال ، ولما عرضوا أنفسهم على الموت ، ولنجوا حينئذ ، لأن القتل انما يقع بالتعرض له ولأسبابه . وفي آية أخرى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لآخوانهم اذا ضربوا في الأرض او كانوا غزاً لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ﴾ وفي آية أخرى ﴿ الذين قالوا لآخوانهم - وقعدوا - لو أطاعونا ما قتلوا ﴾ فهم اذن كانوا يؤمنون بأسباب الموت والقتل وبأسباب النجاة إيماناً برهانه طول التجربة وصدق الاستقراء ، انتهى ولا يخفى على أدنى عاقل مافي هذا الاستدلال من الخاژی المضحكة وكأنه يستهزئ بهذا الاستدلال ويسخر به ، فدعواه أن العرب قبل الاسلام كانوا يؤمنون بالأسباب ثم استدلاله بهذه الآيات دعوى في غاية السقوط ، فإن هذه الآيات سقت لبيان حالة شرذمة قليلة من المنافيين الذين كانوا بين المسلمين^(١)

(١) لأنه تعالى صرح بأن هذا قول طائفة كما تقدم

ليس هي في العرب كلهم ولا أكثرهم ، بل العرب المسلمون على عكس هذا الاعتقاد ، ودعواه أنهم قبل الاسلام ثم استدلاله بالآيات خطأ فوق ضلال ، فإن الآيات صريحة في واقعة أحد وواقعة أحد ليست قبل الاسلام ، ثم استدلاله بأفعالهم هذه كفر فوق خطأ فوق ضلال . وهذا الملحد مبتلى بتركيب الضلالات المترادفة كالظلمات التي في قلبه

ثم يقال : نعم هؤلاء المذكورون في الآيات يؤمنون بالأسباب كالإيمان الذي ذكرته أو قريباً منه ، فهل تعرف هؤلاء أنهم أسلافك وسادتك وأمتك ، هؤلاء هم المنافقون الذين لعنهم الله وأصمهم وأعمى أبصارهم ، وهم الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، وهم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ، وهم الذين يقولون آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون ، وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ، وهم الذين إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً ، كما قلت أنت ذلك في مكاتباتك حين خانك أملك ، وهم الذين يسارعون في موالاته الكافرين ويقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، وهم الذين يقولون للمؤمنين استهزاء وسخرية غر هؤلاء دينهم ، وهم الذين آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ، وهؤلاء هم الذين قالوا لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناها هنا ، وهم الذين قالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزاً لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ، وقالوا أيضاً لإخوانهم - وقعدوا - لو أطاعونا ما قتلوا ، فهؤلاء هم المؤمنون بالأسباب إيماناً عميقاً لا المؤمنون بالقضاء والمشيئة العليا . ولهذا تجدهم في غاية الاعتماد عليها والاعجاب بها واسناد الأمور اليها وفي نهاية السخرية بالأسباب الدينية فلا يرون لها قيمة ، ولهذا يسخرون بأهلها أعظم السخرية ، والله حكم عليهم حكماً صارماً من أول الدنيا

الى آخرها باللعن والطرده والابعاد ، ولهذا فانك لا تجد منافقا إلا وقد كتبه الله وأذله وجعله تحت أعدائه ، ولم تتقدم أمة من الأمم بالنفاق ابداً (١) بل قد يتقدم الكافر الصريح دون المنافق المذبذب . والغريب أنه استدلل بفعلهم - مغالطة للاغبياء وضعفاء البصائر - مع كون الله نهى عن فعلهم صريحا حين قال ﴿ لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لآخوانهم اذا ضربوا فى الارض ﴾ الآية ، فكفرهم ونهى عن الاقتداء بهم . وفى الآية الأخرى رد عليهم بما يبطل قولهم واعتقادهم فى قوله ﴿ قل فادروا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾ أى إنكم تموتون وأنتم فى بيوتكم وإن لم تشيخوا وتهرموا وتخرجوا للقتال وتضربوا فى الأرض ، ورد عليهم فى الآية الأخرى بقوله ﴿ قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم ، وقد أبى هذا الا المشاكسة بهذا البيان الواضح فجعل فعلهم هذا حجة على الايمان بالأسباب مع وضوح الآيات فى رد رأيهم واعتقادهم ، بل يدعى أنه لم ينكر عليهم مع تصريح الآيات بالانكار

ثم لو فرض أن ذلك هو اعتقاد العرب قبل الاسلام فهل يكون فى هذا حجة مع أفعالهم الأخرى المنافية للأديان والأخلاق الانسانية

وقوله « إيماننا برهانه طول التجربة وصدق الاستقراء ، هذا تكملة منه لادعائهم واعانة لهم فى الاحتجاج مع أنها دعوى فى غاية الفساد ، فان حاصل هذا أن بعض الناس يموتون فى القتال وأن التجارب دلت على هذا ، وهذا ليس من الحجة فى شيء ، فأننا لا ننكر تأثير الأسباب والتجارب وكذا حصول المسببات بالأسباب غالبا ، والشرع قد دل على هذا ، لكن من أين هؤلاء أن اجتماع الأسباب ووقوع المسببات ليس من فعل الله ، وإن الله هو الذى رتب

هذا على هذا فن أين هؤلاء أن الله لم يجعل آجالهم بأسباب هذا القتال وبسبب خروجهم إليه ، فانه سبحانه يفعل بالأسباب وهو الذى أمر بهذا القتال ورتب عليه نتائجه ، فلا بد من وجودها ولا بد من وقوع ما قدره فيها . فالتجربة دلت على أن من قرب من أسباب الموت خفى أن يموت ، لكن لم تدل على أنه لا مسبب لهذه الأسباب وأن من كتب عليه الموت بهذه الأسباب أنه يمتنع من ذلك ^(١) وهذا يناقض اعتقادهم ، وكذلك الاستقراء فهم لم يكتفوا بالاعتراف بالأسباب والايان بها ، بل اعتمدوا عليها وجعلوها هى المصدر فى النفع والضرر فقالوا لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا ، أى لو كان الأمر بأيدينا لكان فى استطاعتنا أن ننجو من القتل ، فهم الذين يدبرون أنفسهم استقلالاً بدون قدر ولا قضاء بزعمهم ، ولذلك احتج عليهم تعالى بحكم الكتاب الأول فى القدر والقضاء ولم ينكر الأسباب ، وهذا ظاهر ، والاستقراء الذى دلهم هو التجربة ، وقد بينا أنها لا تفيد ما اعتقده مطلقاً

ثم ذكر أن طبيعة بلاد العرب توحى بالايان بالأسباب ، لأنها قليلة الثروة ، وهذه أيضاً مهزلة أخرى لا حاجة لنا فى ردها لأن مثل هذا ليس من الدين فى شيء ، واستطرد مكرراً ما سبق بأن العرب كانوا فى غاية الايمان بالأسباب وقد تقدم الجواب عن هذا مراراً ، على أن لقائل أن يعارضه بأن مشركى العرب أيضاً كانوا يحتجون بالقدر على أفعالهم الشركية أحياناً كقولهم « لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا . ولا خرمنا من دونه من شيء » وقال تعالى « كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل الا البلاغ المبين » أى ليس عليهم أن يجادلوهم بغير ما بلغوا به فان احتجاجهم هذا تعنت ، ولا فلو قتل أحد منهم أحداً لم يعذروا القاتل بالقدر بل ولا يطيعونه ، فكيف يتركونه فى حقوقهم ويحتجون به فى حق الله تعالى

(١) ولم تدل أيضاً على أن من قرب من أسباب الموت أنه يموت قطعاً بدون مباشرة

فصل

ثم قال : يصادفك وأنت تسير في الأحياء الوطنية الحين بعد الأحياء
هذان البيتان من الشعر الركيك مكتوبين على المتاجر والمصانع :

مالك الملوكة اذا وهب لا تسأل عن السبب
فالله يعطى من يشاء فقف على حد الأدب

وهذا تعبير بليغ صادق عن الروح الشعبية العامة ، وكلهم يشتركون في هذه
العقيدة ، من كتبوا ذلك على متاجرهم ومصانعهم ومن لم يكتبوه ،

فيقال : وهذه بشرى عظيمة وعلامة نيرة قوية من العلامات الصادقة
المبشرة بمستقبل طيب سعيد صحيح ان شاء الله تعالى ، فان كانت هذه مكتوبة
هنالك فهي تدل على روح فيها حياة عليية دينية ، فليس في هذه الآيات غير
الثناء على الله تعالى وتقدس ، وليس فيها ما ينكر ، وكأنه انتقد قوله : فقف
على حد الأدب ، أو قوله : لا تسأل عن السبب ، يعنى أنه لا ينبغي السكوت
والوقوف على حد الأدب ، بل يجب أن يسأل الله عن السبب الذى به أعطى
هذا ومنع به هذا ولم يعطى هذا دون هذا ، فلا يجوز أن يسكت عن عطاء
الله وفضاله وهبته ، فقبحه الله ما أكثر خباثته ، ومن طلب إزالة هذين البيتين
فليطلب إزالة المصحف المتضمن لما يصدقهما ويقطع علائق المنافقين كلها ، قال
تعالى ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ ، وقال تعالى ﴿ قل اللهم مالك الملك
تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك
الخير إنك على كل شئ قدير ﴾ وقال تعالى ﴿ قل ان ربي يبسط الرزق لمن يشاء
ويقدر ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ الله يبسط الرزق لمن
يشاء من عباده ويقدر له ان الله بكل شئ عليم ﴾ الى غير ذلك من الآيات ،
وهذا الملحد يريد أن يدخل بين الله وبين عباده حتى في الثناء عليه وبطالهم
بان لا يتأدبوا في ترك التفتيش والسؤال عن مشيئته وحكمته في تقسيم أرزاقه

بين عبادهم ، ولهذا غافلت هذه الآيات غيظا عظيما وتضايق منها وأخرجته صدره ووقع منها في مشكلة فكانت ريبة في صدره وقذى في عينه كلما مر في طريق صادقته وكانت له بالمرصاد لما فيها من تعظيم الله وعدم سؤاله عن تصرفه في الرزق والوقوف على حد الأدب في ذلك ، أما تلك الصور القبيحة والمظاهر المخزية والمتكررات التي لا تعد ولا تحصى والمشائمة والملاعنة والنشيد الخبيث الموجود في كثير من الأندية فذلك كله لا يهمه ولا يحزنه فهو لم يتعرض له بل هو غذاء قلبه وروحه ، ولهذا خصص بحثا يدعو فيه لافساد المرأة ، وأنكر على من أنكر عليها تعلم الموسيقى والشطرنج ودقائق الفلسفة ، فكل هذه الأمور الخبيثة هي التي تناسبه ، فإن القلوب والأرواح الخبيثة إنما تتغذى بما يناسبها وتنفر غاية النفرة عما لا يلائمها من الأمور الطيبة الطاهرة كمثل ما قدضت هذه الآيات ، ولهذا جعلها شعرا ركيكا ، وكل ذي ذوق سليم يعلم أنها في غاية القوة والسلاسة وحسن التعبير وإن آياتها التي قدمنا بعضها في غاية الزكاة والفهاة وفساد التصور والتركيب

ثم قال : فلهذا إذا أعطى أحدا مالا أو جاها أو مجدا أو نجاحا لم يصح السؤال عن تلك الهبات ولا عن أسبابها ، لأن الله وهو ملك الملوك لا يعطى على السبب ، ولا على قدر السبب ^(١) وإنما يعطى على المشيئة وعلى قدر المشيئة وقدر صاحبها ، فالسؤال عن ذلك اذن خروج على الأدب وضلال في جانب الله ، لأنه اعتقاد بأنه تعلى إنما يهب جزاء ومكافأة ، وبقيود وحدود وأسباب ، لا مشيئة وقدرة وإرادة وإطلاقا . وهذا اتهام لذاته وصفاته وأفعاله . والأدب ^(٢) هو الاعتقاد بأن الأسباب لا شأن لها لافي نجاح ولا

(١) هذا استهزاء وتقريع على البيت

(٢) أى عدم

إخفاق ، فإذا رأينا ناجحاً لم يجوز الاعتقاد بأن لنجاحه أسباباً وموازين وعلا
تدرس وتفهم ويقاس عليها ، وإذا وجدنا مخفقا فكذلك لم يجوز التعايل والتسبب .
قلت : هكذا علق على هذين البيتين اللذين تضمننا الثناء على الله والآدب
معه ، وهذه محادة صريحة لله تعالى ، وليس في البيتين ما يدل على هذا كله ، بل
مضمونها أن الله تعالى لا يسأل عما يفعل من الاعطاء والمنع والخفض
والرفع ، ولو أن رجلاً أخذ يتعنت على ملك من ملوك الدنيا - والله المثل
الأعلى - لم أعطيت فلانا ومنعت فلانا ولم هيات لفلان أسباباً وتركت فلانا ،
مع علمه بأن فيهم المطيع والعاصي وأنه عليهم بهم خير بأحوالهم وما يليق
بكل أحد منهم - لكان في غاية المشاقة والمحادة له ، ولمقته وبطش به ، ولمقته
الناس أيضاً وتحامقوه ، فكيف بالله عز وجل الذي لا يخلو موجود من آثار
رحمته وفضله وإحسانه وأنه المعروف بالكرم والجود والعلم والحكمة والكمال
الذي لا غاية فوقه فهو الذي يضع الأمور في مواضعها اللائقة بها ، وكيف
يجوز أن يسأله سائل ويتعنت عليه في أفعاله التي أخبرنا بأنها صادرة عن علم
وحكمة وعدل وإحسان ، وهل هذا إلا من الزندقة والخبث العميق والنفاق
الفضيع . ولم يرد صاحب الآيات أن الناس لا يسأل بعضهم بعضاً عن الأسباب
والأمور التي يحتاجون إليها ، ولم يفهم الناس ذلك منها ، والبرهان على هذا أن
هؤلاء الذين يعلقونها أو يكتبونها على متاجرهم ومصانعهم يسأل بعضهم بعضه
ويناقش بعضهم بعضاً في كل أمورهم التي بينهم ، وقد تقدم البيان بأننا لا ننكر
تأثير الأسباب ، والله سبحانه يفعل بها ، وأكثر هؤلاء الذين يعلقون هذه
الآيات وأمثالها يعرفون هذا ، لأنهم يباشرون الأمور التجارية والصناعية
وغيرها ، فهم معترفون بأنها أسباب وأن لها نتائج ، وسواء كان ذلك بالقوة
المودعة فيها أو بفعل الله عندها فهم بكل حال عاملون بها مجتهدين في ذلك
معترفين بأنها أسباب ، فلا معنى لهذه القحة والهرام الذي هو أشبه بنباح
الكلاب

ثم قال هذا الملمد ، وهذا من شر ما تبلى الأفراد والجماعات بالايان به . فيقال لهذا الملمد : ألا فأتلك الله ، أى شرّ فى هذين البيتين وقد تضمنا الثناء على الله والأمر بالأدب عن سؤاله . ولكن هذا دأبه إزاء المظاهر المتضمنة لتعظيم الله وإجلاله ، كما ذكر أن المنابر والمساجد أدت شر مؤدى ، لأن كلا منهما مظهر من مظاهر الايمان بالله تعالى ، وهو قد جمل الايمان به نكبة على الناس متبعاً صنمه غوستاف فى هذه الدعوى ، وكأنه لم ير فى هذه الأمصار منكرات وجفورا وخبائث والحاداً وشركاً لا يحصى ، وقد تركها كلها وقصد ذكر الله وتعظيمه وإجلاله . وجمله السب والشتم والعداوة الزائدة . ان الانسان ليعجب كيف عاش هذا الملمد بين هؤلاء المسلمين المتحمسين لدينهم ومبداهم المقدس ، وكيف ذهبت الغيرة الدينية من النفوس الى هذا الحد البعيد .

ثم قال : ولا ريب أن هذين البيتين اللذين يحتلان وجوه المتاجر والمصانع شر فى دلالتها ونتيجتهما من ميثات الجيوش الغازية التى تحتل البلاد اغتصاباً واقتداراً (١) .

قلت هكذا صرح هذا الزنديق بأن ما اشتمل عليه هذان البيتان من تعظيم الله تعالى وعدم سؤاله ولزوم الأدب معه شر عظيم ينوب عن ميثات الجيوش الغازية التى تحتل البلاد اغتصاباً واقتداراً ، فليستظر المسلم المعافى من هذا البلاء وليحمد الله تعالى . وقد بينا أن من انتقد هذه الايات فليستقد القرآن كله وليدع فيه ما ادعى فيها ، فإنه اشتمل على الايمان بالله وتعظيمه والثناء عليه وعدم الاعتراض على حكمه فى خلقه ولزوم الأدب معه ، قال تعالى ﴿ والذين

(١) نعم هما شر منها بالنسبة اليك ، لانك زنديق قد أحرق قلبك بغض الاديان وأهلها . وجيوش الالحاد الغازية هى لذة فؤادك وسروره ، فهم من هذه الناحية نقمة عليك وشر من الجيوش الزاحفة اليك

يحتاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهن داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ﴿ وقال تعالى ﴿ ان الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير ﴾ فآخبر تعالى أن هؤلاء الكفرة والمنافقين الذين يجادلون في آياته سبحانه مع ظهورها ووضوحها ودلائلها على الحق إنما حملهم على ذلك الكبر والإعجاب بأنفسهم وأن لديهم من العلم والمعرفة ما هو فوق ذلك ^(١) وما أجمل قوله تعالى ﴿ فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير ﴾ فإنه سبحانه سميع بصير بما يقولون ويفعلون فيجب الاستعاذة به من فعلهم ، فإن الشيطان قد نفخ في أنوفهم وأزهم عن معرفة الحق واتباعه أزا ، نعوذ بالله السميع البصير

لم يؤذ هذا الملحد من هذه المناظر غير هذا الثناء على الله وتعظيمه وتقديسه ولزوم الادب معه فجعل ذلك شرا ينوب عن مئات الجيوش المحتلة ، ثم مع ذلك يدعى أنه مؤمن بالله وأن إيمانه كإيمان عمر بن الخطاب ، لا نظنه يتصور المسلمين إذ خاطبهم بهذا الهذيان رجالا لهم عقول يفرقون بها بين الكفر والاسلام ، بل تصورهم غوغاء نوكتي ليسوا على شيء من العقل والفهم والدين ، فكأنه لم يعلم بأن هذه الدول والحكومات التي احتلتها جيوش أعدائها شر احتلال لم تكن هذه الآيات تعلق على متاجرها ومضائنها ، وما نفعها ذلك شيئا ، بل نحن نشهد بالله أن وجود مثل هذه الآيات بين الأمم من أعظم المنافع لها ومن أعظم ما يدفع الله به عنها ، بل ان وجود ما تتضمنه كجيش محافظ ، فإنها كما قال تعبير بليغ صادق عن وجود الايمان بالله في تلك الأماكن ، ولم يدفع الله بمثل هذه وما في معناها عن أهلها من بلاء وشر ، وقد علم أن من هي موجودة لديهم في نعم لا تعد ولا تحصى ، مع ما هم فيه من

(١) كما قال عنهم في الآية الأخرى ﴿ فرحوا بما عندهم من العلم ﴾

ذنوب لا تعد ولا تحصى^(١)، ثم هي ليس فيها تعرض للأسباب ولا نفي لها البتة ولا يفهم منها ذلك أبداً ما لم يكن زنديقا مبالغاً في الدعوة إلى الزندقة والنفاق، فأين فيها نفي للأسباب، بل الذي فيها الثناء على الله وأنه ملك الملوك وأنه يعطي من يشاء ولا يجوز سؤاله عن الأسباب التي بها أعطى، وليس فيها أنه يجب على الناس أن يطلبوا أرزاقهم من غير أسباب أو يرفضوا الأسباب، ولكن لعظيم ما رسخ في ذهنه من بغض المظاهر الدينية والشغف بالأسباب المادية والاعتماد عليها صار يحارب بكل ما أمكنه ما فيه دعوة للدين، ويحتج بكل ما له علاقة بفعل الأسباب، ولهذا احتج بفعل المنافقين مع ظهور بطلان حجتهم وإن الله نهى عن فعلهم وحذر منهم غاية التحذير ورد عليهم أبغ الرّد، وقد تقدم الكلام في الأخذ بالأسباب وأنها تراعى وتعتبر ولا يعتمد عليها من دون الله وتجعل هي علة كل فوز ونجاح وهبوط وقنوط، بل الله سبحانه هو الذي يسخرها وهو الذي بيده ملكوت كل شيء فيجب التوكل والاعتماد عليه واتباع نظامه وشرعه في الأسباب الدينية والمادية، وذلك هو الطريق لتحصيل كل خير في الدنيا والآخرة

انه لمن العجب جداً أن يحارب الإنسان هذه المظاهر الدينية هذه المحاربة المكشوفة، ثم مع ذلك يدعى أنه متدين وأنه ما قال غير الحق، بل أنه وفق بين الدين والعمل، وحقيقة هذا استهزاء بعقول الناس وسخرية بهم، فإن من فعل هذا الفعل وادعى ما يضاده وطلب تصديقه في ذلك فقد ظن بمن خاطبه الجهالة والبلادة والغباء المتناهية

(١) ملاحظة: ينبغي صون الآيات القرآنية وكذا الأحاديث النبوية عن التعليق في نحو الأمكنة التي لا تليق بها من المنازل والأسواق وغيرها، وكذلك ما يجري مجرى هذا من ذكر الله تعالى، لأن صونه عن ذلك احترام له، وجعله في غير موضعه إهانة له، وقد أشار إلى هذا كثير من العلماء في كتب الأصول وغيرها

ولقد تكلم كثير من العلماء على ما في هذا الكتاب من الخداع والتعويه
ووينوا أنه دليل على ضعف عقل مؤلفه، فعكسوا عليه ظنه، وأوضحوا
مناقضته للدين والعقل أيضا وقد تقدم ما قاله السيد قطب وغيره

ولهذا قال الاستاذ محمد أحمد الغمراوي (١) في مقدمة كتاب (الشواهد)
لما قرأ الأغلال: «وجدت كتابا ينبض بالضعف، ويفيض بالفساد في
الاسلام وأهله، فقد نقض صاحبه ما وصلت اليه يده من كتب المتقدمين،
حتى اذا وقف على بعض أقوال لا يقول بها أحد يعتد به اليوم - ولا يخلو من
مثلها تاريخ أمة حتى في هذا العهد الحديث - اتخذ تلك الأقوال ذريعة الى
الطعن في المسلمين أجمعين في عشرة القرون الأخيرة من تاريخ الاسلام،
مؤكدًا للقارئ وللناس أن المسلمين جميعا عاشوا طوال تلك الحقبة لا يرون
الاخذ بالأسباب، معتقدين أن التوكل على الله معناه النوم وترك التدبير
اتكالا على أن الله سيرزقهم من غير سعي ولا عمل، ويحميهم من غير إعداد
عدة ولا جهاد، واكتفاء في ذلك بالدعاء والانقطاع لعبادة الله من نحو صوم
أو صلاة، فتأخروا في زعمه عن ركب الانسانية ألف عام ناموها وسارها
غيرهم من مختلف الشعوب والأديان، ولو اقتصر الأمر على مثل هذا الزعم
لحان على شناعته، فكل عارف بتاريخ الاسلام يعلم أن المسلمين لم يكونوا كلهم
أومجلهم يعتقدون ذلك يوما من الأيام، ولعل فترات عزهم في ألف عام
الأخيرة كانت أكثر من فترات ذلهم، بعكس الغربيين الذين يسبح صاحب
الأغلال بحمدهم وحمد مدنياتهم ويقدم لها ولهم، وعلى فرض أن المسلمين
كانوا كما وصف طوال تلك القرون العشرة فليسوا هم كذلك الآن، فكلهم
يريد الإخذ بالأسباب والنهوض والعزة وان اختلفوا في الأسباب ذاتها
اختلاف أي أمة ناهضة أو شعب في كل عصر وعلى الأخص في هذا العصر

(١) العالم الشهير صاحب كتابي (النقد التحليلي) و (سنن الله الكونية)

فقيم الهمز واللهم والطعن والذم والاستهزاء والسخرية وقد انقضى سببها
 المزعوم ان كان قد وجد يوما من الأيام ، أليس من الحق والغباوة أو من
 الغرور وتلمس شهوة المال والشهرة من أسوأ طريق أن يفترض صاحب
 الاغلال وجود ما لم يوجد أو استمرار ما قد انقطع وانقضى ليجاهده وينازله
 كما كان (دون كيشوت في كتاب سرفنتس) يحادل وينازل
 طواحين الهواء يظنها مرردة وعماليق تقطع على الناس الطريق . ثم أليس من
 الغرور والحق معا أن يعتقد صاحب الاغلال أن الاربعمائة المليون المسلم
 - على حد تعبيره - خاضعة اليوم لسلطان تلك الخرافات التي يزعم ، ثم يطمع
 أن يزحزحها هو عن ذلك بسفاهته وبذاته التي بثها في كتابه والتي تصد عنه
 كل من يقترب منه كما تصد الرائحة الخبيثة عن مكان الجيفة ، فلو أن انسانا
 أحسن الدعوة من وجهها وجاء الى المسلمين يدعوهم ليقودهم بزمام دينهم
 - والاسلام كله مقاد الى الخير والعز والفلاح - لكان عجبا مع ذلك أن يطمع
 بمفرده في تحريك العالم الاسلامي ، وقد قعد العمل بالاسلام ، طالت مدة
 القعود أو قصرت ، فكيف بهذا المغرور الضال الذي لا يرى سبيلا الى نهوض
 المسلمين إلا - أن يكفروا بماضيهم كله وينزلوا عن ميراثهم كله ويحتقروا كل
 ما ألف في ألف سنة في أي علم أو فن لانه صورة من كتاب واحد ألف في
 علمه أو فنه قبل أن تبدأ الألف أو بعد أن بدأت الألف ، وأن ينزلوا أي
 رواية أو رأي يجمع عليه أو عليها مؤلفو تلك الكتب الكثيرة منزلة رواية
 الفرد الواحد ورأي الشخص الواحد ، هكذا يدعى ، والى ذلك يدعو هذا
 المغرور المفتون في إعادة وتكرار ومبالغة وتوكيد . وأقرأ له إن شئت لترى
 الى أي مدى يذهب الغرور بصاحبه ، ولتحكم أعن عقل يصدر في كلامه أم
 عن تخليط . قال في ص ٣٠٦ من كتابه (والخطوط من عندنا) ^(١) ، انا نعد
 في علم التاريخ مئات الكتب وألوفها وكذا في الحديث والفقه والتفسير وفي

(١) أي الخطوط العرضية من عند صاحب المقدمة للملاحظة النقط التي هي أساس
 النقد من المغرور

كل علم ، ولكننا عند التحقيق لا نجد إلا كتابا واحدا ، فانسان ألف منذ ألف سنة مثلا مؤلفا في علم من هذه العلوم وأودع فيه ما أودع من أباطيل وأكاذيب وغيرها فاذا جاء بعده ألف مؤلف في هذا العلم فانهم جميعا سيأخذون علومهم وحقائقهم عنه وعن كتابه بلا نظر أو تفكير ، وهذا هو الشأن في جميع المؤلفات التي تغص بها المكتبات والفهارس العامة اليوم والتي يفوت إحصاؤها وعلى هذا فن الخطأ الذي يقع فيه الجميع أن نجد رواية أو رأيا في مئات الكتب لمئات المؤلفين فنزعم أن تلك الرواية أو ذلك الرأي قد قال به ورواه هذا العدد العديد ، والصحيح أن نقول أنها أو انه رواية أو رأى إنسان واحد في مؤلف واحد نقله هؤلاء الجاهلون المقلدون بلا بحث وبلا عقل فلا ننخدع ونخدع بالكثرة ونقول كيف لا تكون تلك الحكاية أو الرواية صحيحة وقد رواها وصدقها عشرات العلماء أو مئاتهم ، وكيف تكون كذبا ثم يخفى حالها على كل هؤلاء ، ان من السهل على الانسان أن لا يثق برواية إنسان واحد ويرأيه ولكن من العسير عليه أن يشك في رواية العشرات ورأيهم ولا سيما ان كانوا ممن يحل ويحترم (١) .

دعوى يلقيها هذا الاحق كأنه قرأ تلك الآلاف المؤلفة في جميع العلوم في عشرة قرون فجاء يعلن بنتيجة بحثه ويزين له شيطانه أن سيسمع له الناس . والحق والغرور الظاهران من هذه الفقرة التي نقلناها لك من كتاب الاغلال هما الطابع الذي طبع به على الكتاب كله لا يكاد يخلو من أماراتها صفحة من صفحاته ، فأنت إذا تناولت الكتاب وجدت ذلك الطابع على غلافه الخارجي اذ تقرأ ، سيقول مؤرخو الفكر إنه بهذا الكتاب قد بدأت الامم العربية تبصر طريق العقل ، كأن الامم العربية عامية عن العقل وطريقه وستبدأ تبصرهما ، ولكن على يد صاحب الاغلال - إلى أن قال - ثم هو يرى أن ضعف المسلمين ليس هو من تركهم الدين ، ولكن من اتباعهم إياه ، فهو لذلك

يحارب الدين ويستهزئ بقوانينه التي وضعها للناس كلها وجسد الى الاستهزاء
سيلا ، أى كلها أمن عواقب الاستهزاء ، فان لم يأمن وطن أن رأيه الذي
يعتقد ويود لو اتبعه الناس يعرضه لخطمهم ولرميهم إياه بما هم لابد راموه به
من الزندقة والاحاد أو ما هو أكبر منها لف ودار وقرر رأيه بجميع الصور
ثم تبرأ بالهامش أو في الصاب أن يكون قصد كفرا أو إلحادا ، ولكنه قصد
تقرير الحقيقة ، أو أنه فعل ما فعل وأورد ما أورد للاعتبار . ولا نجد شيئا
لإسلاميا سلم من سلاطة هذا الرجل وبذاته لا الدهماء ولا العلماء ، لا الفقراء
ولا الأغنياء ، لا الملوك ولا السوق ، لا الأمم ولا الأفراد ، لا العرب ولا
العجم ، لا معاهد العلم ولا جهود المسلمين في سبيله في الماضي والحاضر ، لا شيء
من ذلك للإسلام يلقى من صاحب الأغلال إلا الغل والضغن ، كأن ذلك كله
حال في الماضي ويحول في الحاضر بين صاحب الأغلال وبين ما يبتغيه من جاه
وقوة وثراء . ولو كان هذا الرجل ينبض قلبه بشيء من الحب للإسلام وأهله
لكان سبيله في تنبيههم غير سبيل تجاهل المحاسن وتلئس المساوىء والمعائب
الموجود منها والموهوم واتخاذها وسيلة للتحقير والتسفيه والزراية والتشهير ،
ولدعاهم الى ما دعاهم بهم اليه من العمل بدينه كما في كتاب الله وسنة رسوله بدلا
من ان يحاول صرف ذلك كله عن وجهه وصرفهم عنه - الى أن قال - ولو
قرأت كتابه لرأيت سحق ما انقلب اليه ، تقرأ له فتقول دهري يتكلم ، ثم
تقرأ فتقول صهيوني يتكلم ، ثم تقرأ فتقول شيوعي يتكلم ، ولعل في هذا ما
يفسر طلبه الدنيا عن طريق مناصبته الاسلام العداوة ومباغته في ذلك ، حتى
ليخيل اليك أنك ازام كلب أو ذئب عقور يحاول أن يعقر من الاسلام كل
ما يرى ، لولا أنك ترى أحيانا من خداعه وختله ودورانه ولفسه ما يندرك
أنك تجاه عدو يكيد ولكن كيد مفتون مغرور ، هذا كلام الاستاذ الغمراوي
المصري ، وهو طويل اقتصرنا على هذا منه اختصارا ، كما تركنا كثيرا من
المقالات التي هي بمعناه لكثرتها وشهرتها

الكلام على المبحث العاشر في الاخلاق السلفية

عنوانه في كتابه هكذا :

أما منا لا وراءنا

ومضمون هذا المبحث هو الحظ الشديد على السلف الصالح ، والصدور الأول من الصحابة والتابعين ، والقدح في آرائهم وأخلاقهم ، وأنهم ليسوا على شيء من العلم والفهم ، وإنما هؤلاء المتأخرون من الملاحدة وأمثالهم من الغربيين هم العلماء العارفون المحققون الذين يجب تعظيمهم والافتداء بهم . وقد خادع - كعادته - في التليس بالتعبير عن السلف بالقدماء ، ولكن غايته محنته فوصفهم بالوصف الذي لا ينطبق إلا على الصحابة والتابعين ، حيث ذكر في وصفهم بأن جميع فرق المسلمين على اختلاف مذاهبهم معظمون لهم مقدمون لآرائهم ، ومعلوم أن هذا الوصف لا ينطبق إلا عليهم . وغرضه الأكبر من هذا المبحث هو الرد على أولئك الجماعات الذين عارضوه في دعايته الاتحادية وهم الذين نقل عنهم أنهم يرون المجد الاسلامي المنشود ينحصر في الأخذ بالأخلاق الدينية الأولى وإقامة الفرائض إلخ ما ذكره . وقد علم أن كثيرا من هذه الجماعات يرون أن الأساس الوحيد لاعادة مجد الاسلام هو الأخذ بما كان عليه السلف الصالح كما قال الامام مالك « لا يصلح آخر هذه الامة الا ما أصلح أولها ، ولما كان يعلم أن من طالع كتابه هذا وتأمله حقيقة التأمل جزم بلا أدنى ريب أنه مضاد لدعاية القرآن ولما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه وأهل القرون المفضلة وأنه دعوة صريحة لتقليد الملاحدة والمنافقين العصريين ، ومعاكسة ظاهرة لما قرره المسلمون في كتبهم المعتمدة ، لا سيما كتب السلف الصالح والصالحين والمسانيد ونحوهما في الأصول والفروع ، ولا شك أن وجود تعظيم السلف

وجود هذه الكتب والايان بها يضاد غاية المضادة اتباع أغلاله والأخذ بها واعتبارها ، فكان لا بد له من ازالة هذا العائق الكبير ، فانه من المستحيل أن يجمع الانسان بين الايمان بكتابه وكتب الدين كما أشار الى هذا في دعواه بأنه يجب تعليم الناس الكفر بالأولين وإفهامهم بأنهم ليسوا على شيء من الفهم والعلم كما يأتي ، فمن أجل هذا - ومن أجل ما ذكرناه من الأمور الأخرى - خصص هذا المبحث لهذا الغرض نفسه زيادة وإيضاحا لما أدخله في تضاعيف المباحث المتقدمة . وقد نفث كل ما بصدرة من غل وخبث وعداوة للدين وأهله في هذا وأظهر من المحادة والمشاقة لله ولرسوله وللمؤمنين ما لم يتجاسر على مثله أكفر كافر ولا شر زنديق

إذا تقرر هذا فاعلم أنه جرى على عادته من اختراع الكذب ثم البناء عليه ، فهو فارس مغوار في حرب أوهامه والرد على أكاذيبه المزورة ، فقد أوهم الجهلاء ومن لا يعرف عن الاسلام والمسلمين شيئا أن المسلمين على جانب عظيم من الغباء والجهل وفساد العقل ، وأنهم يوجبون تقليد جميع المتقدمين في كل شيء ، وأنهم يدعون أن الخير كله في كل متقدم ، وأن الشر كله في كل متأخر ، وأن كل المتقدمين هم أهل الدين والعلم وأن جميع المتأخرين بعكس ذلك ، ثم ركب على هذا تشنيعه واستهزائه ووقاحته وهذيانه الطويل المتناقض ، وأى عاقل من المسلمين يعلم أن هذا كله كذب وبهت وفرية وفجور لا صحة له أصلا بهذا الاطلاق ، ولكنهم يقولون إن الواجب المفروض اتباعهم فيما أوجب الله من الأمور الدينية التعبدية بأن يؤخذ بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه وأهل القرون المفضلة على حسب ما رتبته الله ورسوله في الايجاب وغيره ، واجتناب ما يخالف ذلك . أما الأمور الدنيوية المحض كالأمور الصناعية والتجارية ونحو ذلك فهذه ليست بأمور تعبدية بمجرد ما بل هي أمور عادية دنيوية يتبع فيها ما كان فيه صلاح للأمة أفرادا وشعوبا ، وجميع النصوص إنما دلت على اتباع السلف الصالح في الأمور الدينية ، وأما الدنيوية

التي لا نص فيها فالأصل فيها الإباحة ، وهي بالقصد والنية إذا أسست على دين
وهدى صارت خيرا وقوة مضافة الى قوة يثاب الانسان عليها ، وكل ما فيه نفع
دينى فالمؤمن أحق به وأولى به كما قال النبي ﷺ ، الحكمة ضالة المؤمن اذا
وجدتها فهو أحق بها ، ولم يأت نص يمنع من تعاطى هذه الأمور ، وانما
جاءت نصوص تمنع من أشياء معينة لوضوح ضررها ، أو لأن ضررها أكثر
من نفعها كالربا ونحوه ، وهذا عزم الدعوى فى المتقدمين والمتأخرين بالاطلاق
لقصد التلبس وتشويه سمعة الاسلام . ومعلوم أن المسلمين يتكرون غاية
الانكار على من يقتدى بأعمال الجاهلية الأولى وهم من المتقدمين فكيف يسوغ
أن يقال إنهم يعظمون كل متقدم ويأمرون بالافتداء به ، ويتكرون على كل
متأخر ، وهذا أمر ظاهر يعرفه أى عامى ، ولكن هذا شأنه لا يهاب من
مكابرة ولا بهت ولا فجور قال :

(أماننا لا وراءنا)

لا يأتى زمان الا والذي بعده شر منه (زعموه حديثا نبويا)^(١)

أمس خير من اليوم واليوم خير من غد وهكذا حتى قيام الساعة

(زعموه من كلام ابن مسعود)

لا يزداد الأمر إلا شدة ولا الناس إلا شحا ولا تقوم الساعة إلا على

شرار الخلق (زعموه أيضا حديثا)

كل شئ ينقص إلا الشر فانه يزيد (حديث أيضا على ما زعموا)

وكل خير فى اتباع من سلف وكل شر فى اتباع من خلف^(٢)

كتب العقائد المقررة

(١) هذا الملحد بنفسه بمن زعمه وصححه واحتج به كما يأتى

(٢) المشهور ، فى ابتداع من خاف ،

قلت : هكذا ساق هذه الروايات مصدرا بها هذا المبحث ، وعرضه من ذلك أن المسلمين يعتقدونها وأنها دالة على أن كل القدماء خير من كل المتأخرين ، وهذا لا يفيد شيئا لأمور :

أولا : أن هناك روايات كثيرة أخرى في معناها تؤيدها وتوضح معناها المراد منها ، وأن المراد أن الخير في التمسك بأصول الدين كما في الحديث الصحيح في صفة الفرقة الناجية أنها من كان على مثل ما هو عليه وأصحابه كما سيأتي بيان الروايات في هذا الشأن

وثانيا : أنه ليس في هذه الروايات ما يشهد لما ادعاه من التعميم كما سيأتي إيضاحا

وثالثا : أن هناك روايات أخرى صريحة في بيان المتقدمين والمتأخرين والمراد بهم كما ستراء

أما حديث « لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه » فهو حديث صحيح رواه البخاري في صحيحه ، ورواه أهل الكتب المعتمدة كالسنن والمسند ، وقد صححه هذا نفسه واحتج به على مشايخ الأزهر في نبذته (شيوخ الأزهر) فقولوه هنا « زعموه حديثا نبويا » مهزلة مضحكة . فانه ثابت في الصحيح التي اعتمدها المسلمون ، ثم هو نفسه من زعم ذلك واحتج به على من خالفه ، وقد حاول هذا الملاحد الفرار والتخلص منه هنا بالطعن في صحته وتحريف معناه ، وهيئات وما كيد الكافرين إلا في ضلال ، وسيأتي كلامه بنصه ، وأما الأثر الذي نسبته الى ابن مسعود فلا نعرفه بهذا اللفظ ، فمن الواجب عليه أن ينسبه الى مصدر معين ، وهو لم يفعل فلا يعتد بقوله لشبوت كذبه وخيائته ، ولكن المروى في السنن عنه أنه قال : من كان مستنبا بمن قد مات ، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد كانوا أفضل هذه الأمة : أبرها قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا . اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه . فاعرفوا

فضلهم ، واتبعوه على الأثر ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم فانهم كانوا على الهدى المستقيم . وعن حذيفة رضى الله عنه قال : كل عبادة لا يتعبد بها أصحاب محمد فلا تعبدوها فان الأول لم يدع للآخر مقالا ، فانتقوا الله يا معشر القراء وخذوا طريق من كان قبلكم . رواه أبو داود . فتبين من هذا أن المراد بذلك أمور العبادة . وهذا هو الذى فهمه المسلمون واعتمدوه واعتقدوه وقرروه

وأما الرواية الثالثة : فقد عزاها السيوطى فى (الجامع الصغير) الى أحمد والطبرانى وأشار الى تحسين اسنادها ، والكلام فى معناها يأتى أيضا

وأما البيت الذى ذكره فانما عنى صاحبه بقوله « وكل خير فى اتباع من سلف ، أى السلف الصالح فى أصول الدين والأمور التعبدية كما بين ذلك الشراح وكما عنى ذلك غيره وهو الذى لا يفهم أحد من المسلمين غيره بل نفس العقيدة تدل على هذا فانها فيما يختص بعقيدة الدين لا فى غيرها ، فانها لم توضع للأمور الصناعية ونحوها ، ولهذا قال « وكل شر فى ابتداع من خلف ، ومعلوم ان الابتداع هو فى أمر الدين فى اصطلاح علماء الدين وهذا حرفه فنقل « اتباع » بدل « ابتداع » ، وبكل حال فلا حجة له فيه سواء كان بهذا أو هذا .

ثم انه ترك ما نقله العلماء الأئمة فى عقائدهم المشهورة فى هذا الشأن وتفصيلهم فى ذلك ، واكتفى بهذا البيت الذى لا حجة له فيه كما هو ظاهر

ثم قال « من الحقائق التى ترتفع اليوم على متناول النزاع أن هذا العالم كله - حيوانه ونباته وجماده - لم يزل دارجا فى طريق التطور ، متوقفا من طور الى طور أفضل ، ومن حالة الى حالة هى أدنى الى الكمال بطريقة منظمة دائية لا يعرفونها توقف ،

فيقال أولا : أنت خالفت هذا ونازعت فيه أشد المنازعة فلم يرتفع عن متناول نزاعك ، فعاكست فيما ادعيت ههنا حقائق ، وادعيت أن معاكستك

هذه هي الحقائق التي لا يمكن الخلاف فيها ولا الماراة ، فقلت في نبذتك
 (الثورة الوهاية) صحيفة ١٣٩ ما نصه : « وأما الزعم أن النفوس الانسانية
 ارتقت فزعم كاذب ، والواقع أكبر دليل على كذبه ، بل الانسانية تتدلى
 بطفرة من الجهة الخلقية تدليا لا تمكن المماراة فيه ولا الخلاف في بعد قراره ،
 وما يظن أنه أتى على الناس عصر فسقت فيه النفوس وتمردت واستخضبت
 مرتع الفجور والخروج على شرع الله ونظامه كهذا العصر ، والرق المزعوم
 إنما هو رقى صناعى صرف لا حظ للاخلاق ولا للكمال فيه ، والرق الصناعى
 إن لم يصاحبه الرقى الخلقى عاد هبوطا ونكبة على الانسانية وعلى الاخلاق
 وعلى الصناعة أيضا وعلى كل شيء ، وقائل غير هذا إما غاش أو جاهل ، انتهى
 كلامك بحرفه . وهو صريح في نقض ما ذكرته هنا ، وقد حصرت الرقى بأنه في
 الصناعة فقط وأن ذلك أيضا لا ينفع ان لم يصحبه الرقى الخلقى ، وصرحت
 أيضا بأن قائل غيره إما غاش وإما جاهل ، وصرحت بأن هذا الرأى مما لا يقبل
 الماراة ولا الخلاف في صدقه . وهذه الحقيقة التي قلتها هنا إنما رأيتها في الحين
 الذى استوقدت فيه النار فأضأت ما حولك ، فلما أن ذهب الله بنورك
 ذهبت تنكرها وتخطت في ظلمات الشكوك والشبهات . وهذه الجملة كافية في
 الشهادة عليك بطلان ما ذكرته في هذا المبحث ، بل في أغلالك كلها في
 الاطناب والاسهاب في تركيز عقيدة التطور وتبئته وكون التطور عاما في كل
 شيء حتى ادعيت في العلوم الصحيحة كلها ، وقصدت بذلك التنفير من حب
 السلف الصالح والبعد عن الاقتداء بهم ، فهذا الغل المحكم الذى عملته يداك يشد
 في عنقك وتحنق به فلا يمكنك الخلاص منه أبدا ، لأن غاية ما تعتذر به عنه
 بأنك ادعيت ذلك قبل أن تكفر بعد إيمانك ، فاذا اعتذرت بهذا قيل : واذا
 كفرت فلا يقبل قولك في دين المسلمين ، فان الكافر مردود قوله في دين
 المسلمين ومذاهبهم ، وهذا يبطل الكتاب كله ولا يمكنك أن تتنصل منه بأن
 ذلك نظرية قد بان لك خلافها بعد ، فانك صرحت فيها بأن هذا شيء ضرورى

واقعى من الحقائق ، وصرحت بأن ذلك لا يمكن الخلاف ولا المماراة فيه ، وحكمت بأن قائل غيره (إما غاش وإما جاهل) ، وهذا صريح فى أن هذه الدعوى من أعظم الضروريات . ثم أنك هنا فى أغلالك هذه ذكرت ضد ما ادعيته هنالك ^(١) وادعيت أن حقائقك ترتفع عن متناول النزاع . وبلى أمك خباى حقائقك تريد أن يأخذ الناس ، تأتى الى الآراء الغامضة المتضادة ثم تدعى أنها حقائق ، وتارة تقول فيه أنه يرتفع عن متناول النزاع ، وهنا تقول أنه لا يمكن المماراة ولا الخلاف فيه ، وإن قائل غيره إما جاهل وإما غاش ، ثم تريد أن يأخذ الناس بقولك ، فمن أين تعلمت هذه الترهات والرعونات والجنون الظاهر ، ألا قبحك الله ما أقبحك وأقبح كلامك . لقد أصبحت عورة لا يسترها حجاب ، ويكفى العاقل أن يحكم عليك بالحكم الذى حكمت به على نفسك فى هذه الجملة نفسها ، وهى أنك إما غاش وإما جاهل ، أو غاش وجاهل معا .

ويقال ثانيا دعواك هنا أن التطور فى هذه الأمور شىء يرتفع عن متناول النزاع دعوى كاذبة خاطئة ، بل كثير من أهل المعرفة فى هذه الأمور من علماء النفس وغيرهم ينازعون فى ذلك ، وهذا أحد علماء النفس عندهم المدعو (شيلر ^(٢)) منكر استمرار التطور . وكذلك (هلدن) وهو من أشهر مشاهير

(١) سيأتى تصريحه بأن التطور شامل حتى للأخلاق .

(٢) شيلر من العلماء المشاهير الألمان وهو استاذ بجامعة بون قال فى كلام له : لم يطرأ أى تحسين على النوع البشرى منذ مدة طويلة من السنين ، وهذا ثابت بالتأرجح التشرىحية للجسم والمنح ، فإن عقل الانسان فى القرن العشرين لا يختلف وعقل الانسان منذ فجر التاريخ . إلى أن قال : وإذا كان الانسان قد توصل الى عدد من الاكتشافات والاختراعات العظيمة خلال القرنين الأخيرين فليس يعنى ذلك أن عقله قد ارتقى أو تطور ، بل يرجع ذلك الى المصادفة فى غالب الاحيان ، والى تراكم المعلومات التى توارثها الانسان فى العصر الحديث عن آباءه وأجداده خلال مئات السنين الماضية =

علماء النفس منكر ذلك أيضا، وقد نقلنا شيئا من كلامها في انكار استمرار التطور، بل ادعى (هلدين) بأن الظاهر العكس^(١) وأكثر من علماء النفس منكرون ذلك فضلا عن غيرهم من علماء الدين فانهم مجمعون على أن التطور في الأخلاق الفاضلة غير صحيح

وإذا كان علماء النفس أنفسهم مختلفين في ذلك وكلامهم متضادا علم أن ذلك أمر غير محقق لديهم فكيف بغيرهم، والنصوص صريحة في بطلانه في الأخلاق. والكلام في مسألة التطور طويل عريض، ونحن لا ننكر وجود التطور في بعض الأمور، لكن هذا التطور الذي يدعيه باطل، وقد حقق الكلام السيد محمود الفيض في (كتاب الوجود) في مسألة التطور كما حققه غيره

فصل

ثم قال: وعند العلماء أن شيئا من هذا العالم لم يوجد بحالة ثابتة دائمة، ولا بحالة فيها استعداد للرجوع إلى الوراء، ولا للانتقال من الكمال إلى النقص، بل ثبت لديهم ثبوت الحقائق أن هذا الوجود قد وجد بدائيا، وأنه قد ظل يتنقل من وجود إلى وجود ومن شكل إلى شكل، وأنه قد ظل في عملية هذا التنقل ملايين الملايين من الأعوام حتى بلغ الحالة التي تصلح لوجود الحياة فيه،

فيقال: قد علم أنك لست من أهل هذه العلوم ولا خبرة لك بها، وغاية ما لديك أن تقلد فيها بعض أهلها، وإذا كان الأمر كذلك فلم تسفه آراء علماء

== بدأت الجماعات تهوى وتتحل خلقيا، والخلق هو رباط المجتمع السليم، وليس أدل على ذلك من إنشاء دور الرقص والملاهي المبتذلة وتشوي الآراء المتطرفة المادية، وفي هذا دليل على ثورة الجنس البشري على الأوضاع التي فرضتها الأديان. انتهى من

(الشواهد) ص ٥٥ ر ٥٦

(١) راجع مجلة الهلال شعبان ١٣٦٦

الدين من أهل الحديث والتفسير والفقه وترميمهم بالجهالة والتقليد وعدم الفهم في علومهم التي يعرفوها وعلّموا حقائقها حتى كانت لديهم ضرورة كالشمس ، ثم لا تكتفي بتجهيلهم حتى تعاكسهم في أقوالهم وتحكم بالجهالة والبلادة حين خالفوك في مثل هذه الأمور الغامضة المضادة لبراهين القرآن والسنة ، ثم تقلد فيها بعض من يدعى معرفتها تقليداً أعمى ، وتدعى بأن ذلك ثابت بثبوت الحقائق ، ثم تحتج بذلك على المسلمين ، ثم تسفه رأى من يتوقف فيها أو يكذب بها ، ثم تنقلب على عقبك مرة أخرى فتدعى أن الإنسان لا يمكن أن يفهم حتى يشك ، والذي لا يعرف أن يشك لا يعرف أن يفهم ، وأن الشك والفهم شرطان في تحصيل العلم ، هكذا تقول ، وهكذا تفعل ، فلم لا تشك في هذه العلوم الغامضة الدقيقة وأنت لست من أهلها ، مع العلم بأن أكثر أهلها ممن عرف بالحيث والكفر ومعاداة الأديان والعداوة لها . ثم مع هذا كنت في غاية الشك والريب في كثير من النصوص الدينية ، بل أكثرها ولا سيما أصول الدين فأنك في غاية الإنكار لها فضلاً عن الشك فيها ، أما كتب علوم الدين فهي عندك كما قلت فيها ليس لها أدنى قيمة علمية ولا عقلية ولا دينية ، فكيف تقدر في علوم المسلمين وتكرها ثم تحتج عليهم بعلوم أعدائهم وتوجب عليهم تصديقها وتدعى أنها ثبتت بثبوت الحقائق ، ثم تركب عليها أمراً آخر وهو الاحتجاج بثبوت التطور ، ثم تركب على ذلك ما هو أدهى وأمرّ وهو أن المتأخرين من هؤلاء الملاحدة أعلم من المتقدمين وأفضل منهم وأوسع علوماً وعقولاً ، ثم تدعى أن هذا من الحقائق الازلية الأبدية التي لا يستغنى عنها مسلم ، وكل عاقل يعلم أن هذه الدعاوى التي افتريتها باطلة بالشرع والعقل والحس ، فإن الأخلاق الفاسدة الموجودة في الزمان القديم منذ آلاف السنين تتطور زيادتها في الأزمنة الأخيرة تطوراً مدهشاً لا ينكر ، هذا مع اتفاق العقول كلها على أنها تأخر وفساد في الفطرة وضرر ظاهر في الشعوب والأفراد مثل الخيانات والكذب والبهت واللواط والزنا والظلم والعدوان والحروب

العدائية والاحقاد والضغائن وأمثال ذلك فهذه الأخلاق وأمثالها قد عمت ووطئت فلا يستطيع أن تنتشل منها قريبك الذى تشفق عليه ، بل هى تزداد بالرغم من كثرة التعليم وتطور الأفكار فى الأمور الأدبية والصناعية ، وهذا برهان على أن النفوس تزداد انحطاطا فى اتباع أهوائها وشهواتها ، واتباع الأهواء والشهوات هو أصل أكثر الفساد . ومعلوم أن صلاح الأخلاق وتقويمها وتنويرها إنما يحصل بالعلوم الدينية الصحيحة ، فكما كثرت العلوم الدينية فى أمة تحسنت أخلاقها وكثر فيها العدل والاحسان ، فارتفعت نفوسها وقويت وعظمت ، وكما بعدت عن الدين وعلومه تدهورت وانحطت الى الوحشية والهمجية ، وكل ما يوجد فى الأمم المتمدنة الغربية وغيرها من أخلاق راقية فإنها مأخوذة من الأديان نفسها ، ولهذا كانت تعاليم الأديان هى الكفيل الوحيد لصلاح النفوس وشفائها وتقويتها وترقيتها ، وفقدانها هو العامل الوحيد لهدمها وفسادها ورجوعها الى الأخلاق الوحشية الهمجية من الظلم والعدوان والفحشاء والمنكر ، وهذا هو الواقع الذى لا يستريب فيه من له عقل وبصيرة (١)

فصل

ثم ذكر العبارة الطويلة التى نقلناها فى المبحث الأول التى أولها قوله : « علم السكون - أول ما علم - فى حالة غازية منتشرة فى الفضاء انتشارا متناسبا متنسقا - الى قوله - إن أنفس شئ الدنيا كاللآلى » مثلا لا يمكن الحصول عليه لولا

(١) ثم الصناعة من حيث النظر اليها بالجملة لا يمكن أن يحكم عليها بأنها جاءت بخير للبشر ، فمن الذى يستطيع أن يقول ان الغاز الخافق وما استنتجه علماء البكتريا من ميكروبات أو ان القنبلة الذرية كل هذه جاءت تحمل الخير والراحة للشعوب ، بل أكثر المفسرين يرون أن ضررها فى الجملة أكثر من نفعها ، فنبوت مطلق الخير فى تطورها للبشر جملة ممنوع فيحتاج الى تحقيق ونظر

خضوعه لهذه العملية، أى عملية التطور، وهذه العبارة تتضمن كيفية تخلق هذا العالم، وأن الشموس ولدت السيارات والسيارات ولدت الأقار حتى قال فيها : « والموجودات الموصوفة بالكائنات الحية ليست إلا نسل المادة الجامدة ، والنواميس التى تحكمها أى تحكم الكائنات الحية إنما ورثتها من أصلها التى هى المادة الجامدة . فلا غرابة إذن فى كون القوانين واحدة متفقة فى الحى وفى الجماد ، الى آخر عبارته المتضمنة بأن العالم يحكم نفسه بنفسه لا بمشيئة الله وقدرته . ونحن فسوق عبارته برمتها إيضاحا للحقيقة ، وإن كانت قد تقدمت ، لمناسبة الإتيان بها هنا فقال :

« علم الكون - أول ما علم - فى حالة غازية منتشرة فى الفضاء انتشارا متناسبا متسقا ، مثل أن تبخر مقدارا من الماء فى غرفة تساوى فيها ضغط الهواء ، أو مثل أن تنثر مقدارا من الدقائق فى مكان نثرا متساويا . وقد بقى كذلك ملايين السنين أو ملايين الملايين حتى استطاع بتفاعله المستمر (١) أن يفلت من هذه الحالة الغازية أو السديمية الى حالة التكتل والتقلص ، فأصبح كتلة واحدة هائلة ، أو ذرة كونية ضخمة اجتمع فيها الوجود أجمع . فبقى على هذه الحالة ملايين السنين أو ملايين الملايين ، وهو يتفاعل فى حقيقته تفاعلا مستمرا استعدادا للانتقال الى وجود آخر أفضل وأكمل . وبعد التفاعل اللازم المقدور انفجر هذا الكون المحشوك المحشود فى ذرته انفجارا فجائيا فى الظاهر ، موقتا معلوما مقدورا فى الباطن ، مثل ما تنفجر قبيلة مملومة بالمواد المتفجرة . فتطايرت منه الدقائق والذرات تطائرا قائما على الحساب الدقيق ، فتنفرق فى الفضاء كتلا هائلة غازية ، فبقيت هذه الكتل المنفرقة تتفاعل وتجتمع وتتكامل ملايين السنين أو ملايين الملايين ، حتى أصبحت نجوما وشموسا . ثم أخذت هذه النجوم والشموس بالتفاعل نفسه والاستعداد

(١) انظر كيف أسند استطاعته الى نفسه فى هذا الأمر العظيم على حد قوله

الخبوء فيها للتطور تنقسم على نفسها وتنفصل عنها النجوم والسيارات والتوابع ليكون من كل شمس من هذه الشمس مجموعة متماسكة من هذه المجموعات التي يدعونها اليوم المجموعات الشمسية أو المجموعات النجمية التي إحداها مجموعتنا الشمسية التي نحن إحدى رعاياها... وقد راحت هذه السيارات التابعة لغيرها تنقسم على نفسها أيضا وتنفصل عنها الاتباع وتلد الأقار لتكون - أى الأقار - من حولها كما كانت هي من حول شمسها ، وهذه العمليات الانفصالية أو التوالدية تشبه عمليات التوالد والانقسامات بين الأحياء التي يكون الغرض منها إيجاد مجموعات أو فصائل حيوانية أو نباتية تتعاقب وتتوالد خضوعا لسنة هذا الوجود ، والموجودات الموصوفة بالكائنات الحية ليست إلا نسل المادة الجامدة ، والنواميس التي تحكمها - أى تحكم الكائنات الحية - إنما ورثتها من أصلها الذي هو المادة الجامدة . فلا غرابة إذن في كون القوانين واحدة متفقة في الحى وفي الجماد . وبعد هذا التوزع وهذه الانقسامات في ذرة الكون الأولى الكبرى لم يكن شيء منه صالحا للحياة أو للاستقرار بل لقد قدر العلماء عمر الشمس قبل أن توجد الحياة في الأرض - وهى منفصلة عنها - بنحو خمسة ملايين مليون سنة ، وقدروا عمر الأرض بنحو ألفى مليون سنة ، وأن الحياة لم توجد فيها إلا من نحو ثلاثمائة مليون سنة ^(١) أى إنها ظلت حوالى ألف وسبعمائة مليون سنة تنهبا لتكون صالحة لظهور الحياة عليها ، وقدروا عمر الإنسان في الأرض بثلاثمائة ألف سنة ، وهذا أحد التقديرات كما هو معلوم ، ومعنى هذا أن الأرض بقيت ما يقرب من ثلاثمائة مليون سنة صالحة لوجود الحياة فيها قبل أن تصلح لوجود حياة الإنسان الذى هو أرقى الموجودات

(١) قال (لو كنت دى نوى) مؤلف كتاب (مهيد الإنسان) ومن أشهر مشاهير علماء الطبيعة : لقد استحال علينا حتى اليوم أن نعرف معرفة دقيقة كيف بدأت الحياة ، ذكره في (الشواهد)

خبيا ، أى انها تهيأت لوجود حياة الكائنات الدنيا فيها قبل أن تنهيا لوجود حياة الانسان المعتقد كائنات راقيا . وما من شيء فى هذا الوجود وصل الى حالة التى هو عليها إلا بعد أن سلك هذا السبيل - سبيل التطور المنظم البطيء - فنا جاءت الشمس ولا السيارات ولا الأقمار ولا النجوم ولا كل هذه العوالم إلا من هذا الطريق ،

قلت : فهذا برهانه على مسألة التطور ، وهذا برهانه على القدر فى السلف الصالح ، وأن ملاحظة هذا العصر أعلم منهم وأفهم . وانظر الى النقطة الحثيثة فى قوله « والموجودات الموصوفة بالكائنات الحية ليست إلا نسل المادة الجامدة ، والنواميس التى تحكمها - أى تحكم الكائنات الحية - إنما ورثتها من أصلها الذى هو المادة الجامدة ، تجد هذه العبارة صريحة جدا فى أن النواميس من المخلوقات المولودة وأنها هى التى تحكمنا وتحكم غيرنا من الكائنات الحية ، فصار العالم يحكم نفسه بنفسه ، ولم يجعل الله حكما لافى هذا الموضع ولا فى غيره ، فعزل الله تعالى عن ملكه عز لا تاما ، فالمشيئة العليا عنده لا دخل لها فى التصرف فى هذا العالم ، وكون القوانين واحدة برهان على نقيض قوله ، فانه اذا كان الامر كذلك فى القوانين فهى آية من آياته وأنه المتصرف فيها ، وأن النواميس محكومة تحت المشيئة ، اذ من المحال أن تنسجم القوانين أو ينسجم شيء من الأشياء انسجاما صحيحا كاملا من غير أن يكون انسجامه صادرا عن حكمة واتقان وعلم وإرادة ، فان أمور الفوضى كلها متناقضة مضطربة ، بخلاف أمور الحكمة والعلم والإرادة والاتقان . ثم المصيبة العظمى أنه ذكر ما ذكره فى خلق العالم واعتمد عليه ودعا اليه وادعى أنه حقائق بل وجعله برهانا وقاعدة لهذا المبحث الحثيث كله فى معارضة أهل الأديان كلهم ، وقد علم كل من له أدنى إلمام بعلم الهيئة أن أهل الهيئة أنفسهم مضطربون فى هذه المسألة اضطرابا كثيرا لا ينضبط ، وأن هذا القول الذى ادعاه ساقط لا يعتد به الآن عندهم فضلا

عن غيرهم^(١) وليس غرضنا هنا ذكر كلامهم فإن النصوص كافية لمن يؤمن بها في إبطال ما ادعاه من أصله ، فإن الله سبحانه قد أخبرنا عن خلق السموات والأرض وخلق الإنسان بأحسن كلام وأجله وأجله كما هو مذكور في سورة فصلت وفي سورة النازعات وغيرها ، وقد كرر تعالى ما ذكره في خلق آدم في عدة سور لأنه تعالى قد علم ما سيكون فبين هذه الأصول بأوضح بيان لعلبه أنه سيكون في هذه الأزمنة زنادقة وملاحدة يشبهون على الناس ويشككونهم في معرفة الحق ودلائله ، وقد قدمنا سياق الآيات كما قدمنا كلام أهل العلم في هذه الأصول مثل كلام الشيخ تقي الدين بن تيمية . ثم إن نفس هذه الدعوى تبطل مقصوده في التطور ، فإنه ادعى أنه وجد بدايا ، ومعلوم أنه إذ ذاك لا يخلو من ثلاثة أمور : إما أن يعترف أنه كان في الأزل كذلك على حالته ، وهذا يوجب أن يكون ثابتا أزمانا حقيقة ، وينتقض قوله في عدم الثبوت ووجود التطور المستمر . وإما أن يكون مستحيلا عن حالة غير الغازية والسديمية ، فإن كان عن حالة أكبر وأعظم منها صار متحولا ، وهو ضد التطور ، وإن كان عن حالة دونها فلا بد أن ينتهي الى مبدأ يقف التطور عليه وتنقض دعوى ازلية التطور وأبديته أيضا كما تنقض دعواه أنه لا يوجد شيء من غير سبب مادي يخالف نواميس الطبيعة كما تقدم مرارا . وبالجملة فدخوله هنا في هذا العلم الغيبي ، ثم جزمه بما ادعاه بدون برهان ، ثم احتجاجه به مع مصادمته للنصوص دليل على ضعف عقله وطيشه . ومسألة التطور مسألة طويلة عريضة وكلام الناس فيها كثيرا جدا ، وقد قبلها واحتج بها بحذافيرها مع

(١) قد أشار الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة في كتابه (الشواهد والنصوص) صفحة ٥٣ الى ضعف هذه النظرية التي هي نظرية (لابلاس) عند أهل الهيئة ، وأشار الى ما ذكره شيلر وجيمس وهما من أشهر مشاهير علماء هذه البحوث وأنها قررا خلاف هذا ، فراجع

أنه ليس من أهل المعرفة بهذه الأمور ، وإنما هو مقلد لغيره جامد على قول مهجور ليس عليه إثارة من علم ، بل هو باطل شرعا وعقلا ، وبطلانه لا يخفى على من عرف حقيقة دين الاسلام ، فلا نطيل في رده زيادة على ما تقدم في المبحث الأول

فصل

ثم أخذ يبرهن على ما ادعاه في التطور فقال :

« إننا نزرع الأرض حتى نرهقها بالاستغلال ، وحتى نسرف في امتصاصها وامتصاص قواها الى أن تعجز عن إعطائنا ما نطلب منها ، وإلى أن تكاد تضعف عن القيام بوظيفتها - كما يفعل أحدنا إذا أرهقت قواه بالأعمال الشاقة - فنتركها لا تعطينا ولا نأخذ منها . ثم نرجع إليها مرة أخرى بعد مدة من الزمان فإذا بها قد استرجعت قواها وعادت قادرة على أن تعطي بسخاء . فكيف حصل هذا . إن يد التطور ويد الاستعداد للنمو والتحسين قد امتدت الى هذه الأرض فرجعت إليها ما فقدت وصيرتها قادرة على تأدية عملها . إننا نعمد الى الشجرة فنشذب أوراقها ونجور على أغصانها فنقطعها عارية ، ولكن نرجع إليها بعد مدة فنجدها قد اكنست بأوراق وأغصان أخرى . فلماذا هذا . إنه الاستعداد الطبيعي للتطور ، ولولاه لبقيت كما تركت عارية جرداء ، انتهى

فهذه براهينه على اثبات التطور الذي أطار عقله فاستببط به وجوب الاقتداء بأفعال المتأخرين ورفض آراء السلف وأخلاقهم من المتقدمين . وهذا الذي ذكره هذيان بارد ليس فيه شيء من التحقيق أصلا . أما الأرض فما ذكره فيها فنقوض بالأراضي التي لا تختلف زراعتها مهما زرعت في كل وقت وهي كثيرة كالأراضي تهامة باليمن فانا شاهدنا ذلك في أكثرها ، إنها تزرع كل وقت صيفا وشتاء ولا تختلف زراعتها مع عدم استعمال أى شيء من الأسمدة أو

غيرها (١) ويقال أيضا هذه الأرض التي تزرعها على الصفة التي ذكرتها ليس في ذلك ما يدل على التطور ، فان غاية ما ذكرته أنها استردت قوتها الممتصة لا أنها زادت شيئا فوق القوة الأصلية المأخوذة منها ، وهذا ليس بتطور ، فانها قد كانت متوفرة فيها مواد نمو الزراعة وأضعفها امتصاص الزرع فنقصت لذلك وتحولت من القوة الى الضعف ، فلما تركت عادت اليها تلك القوة المفقودة إما لأجل مواد وأردة عليها بسبب السيول والرياح أو لأجل تأكل العروق الموجودة فيها أو غير ذلك ، وعلى كل حال فالقوة المسترجعة لا تكون أكثر من القوة الأصلية الموجودة قبل الزراعة ، فان العناصر الأصلية على ما هي عليه ، إنما الزيادة والنقص في المواد ، وهي تارة تضعف وتارة تقوى ، وهذا ليس بتطور حقيقى ، فان التطور هو الزيادة شيئا فشيئا في الكم والكيف لا استرجاع قوة فائقة ، فان هذا إعادة مفقود الى محله الاصلى . ومعنى هذا كله أن هذه الأرض عادت على ما كانت عليه من قبل ، لا أنها زادت عما كانت عليه قبل ذلك . ومعلوم أن هذا لا يسمى تطورا ولا يفهم أحد منه معنى التطور الحقيقى ، أما الشجرة فانها إذا شذبت أوراقها أو شيء من أغصانها ثم عاد على ما كان عليه فهو جبر نقص حادث لا أنها زادت تطورا فزادت على ما كانت من قبل ، فانه لو كان الأمر كذلك لزادت الشجرة زيادة مستمرة بهذا الفعل وهو خلاف المشاهدة فانها لا بد أن تقف على مستوى الشكل الطبيعى لها ، وسبب هذا فى الأرض وفى الشجر وفى الحيوان أيضا أن الله تعالى خلق هذا الفرد على شكل معين متناسب متنسق غاية الاتساق والاتزان ، فاذا حدث فيه نقص لا يذهب شيئا من العنصر الاصلى فانه يعود الى هيئته الأصلية والى مستواه الطبيعى لأن عناصر النمو التي بها حدث تكوينه قائمة حية ،

(١) أى لا ينقل الناس اليها شيئا كغيرها بل يكتفى بعضها بالرياح ، وبعضها بالسيول ، أو بما يحترق مما بقى من تلك المواد التي زرعت بها . ولماذا لا تتطور الأرض السبخة فتنبت الأشجار أو تنقلب عن حالتها بدون تبدل أو تغير

أما إذا ضعفت فإنه يضعف استعدادُه لتكميل ما نقص به بمقدار ضعف العنصر الأصلي ، وهذا يتفاوت كثيرا في الأنواع ، فإن النخلة إذا شذبت جريدتها الخضراء الكاملة في البلوغ لم تعد كالعضو في الإنسان ، لكن النخلة تستعص عن ما شذب منها بخروج جريدة أخرى بدلا عنها سواء شذبت أو لم تشذب لأن النخلة تنمو من جهة وتتحول من جهة أخرى ، بخلاف الإنسان فإنه إذا قطع منه عضو أصلي فإنه لا يعود على حالته وإنما يعود ما كان قابلا للعودة ، كما إذا مرض وضعف ثم عوفي أو جرح جرحا لا يتلف شيئا من عنصره الأصلي الذي لا يسترد ، فما ذكره لا يصح دليلا على التطور ، بل لو ادعى مدع العكس ، أى أن ذلك يدل على التحول لكأن دعواه أقرب إلى الصحة من قول هذا ، وذلك أنه إذا توبع في الشجرة على الشذب في الأغصان أو الأوراق فإنها تضعف وربما تتلف ، ثم إنها إذا تركت فلا بد أن تتحول إلى النقص شيئا فشيئا ثم إلى التلف . فالنبات ومثله الحيوان له ثلاث حالات : الحالة الأولى الضعف البدائي ، ثم يأخذ في النمو الجسمي وما يتبعه ، حتى يصل المستوى وهي الغاية التي ينتهي إليها في حدود وجوده الطبيعي ، ثم يرجع إلى مبدئه متحولا ضد حالته الأولى إلى أن يكاد أن يصل إلى حالته الأولى في الضعف حتى ينعدم وهكذا ، فإذا احتج بتطور نحو الشجرة أو الحيوان من هذه الناحية أمكن لمعارضه أن يحتج عليه بالعكس في التحول ، قال تعالى ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ، يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾ فجميع النباتات والحيوانات على هذا المقياس ، لأن إيجادها على هذه الصورة ثم إحالتها ثانيا من أبداع مظاهر القدرة والعلم والحكمة والدلالة على البعث والنشور ، كما أن ذلك أيضا برهان واضح على ضعفها وعجزها وعدم قيامها بنفسها ، وأن وجودها ونموها وتلفها راجع إلى أمور غيبية ، فإن العناصر والقواهل الأصلية الكلية هي ثابتة ، فلو كانت هي الموجدة لها بالذات والطبع لدامت بدوامها ، فإن العلة الكاملة يجب وجود

معلولها ودوامه بدوامها ، هذا مع اختلاف أجسامها وأنواعها وألوانها
وأعمارها وما فيها من بديع الصنعة والحكمة وحسن الاتقان ، فبارك الله
أحسن الخالقين

ثم قال : إن كل شيء أمامنا يقوم بهذه العملية قياما بديعا منظما ، ولولاها
لما حصل شيء جديد ولا صورة جديدة فكل ما يحدث مما يحدد الصور والمظاهر
والألوان ، وبما يعيد ما فقد ، ما هو إلا تطور وقيام بعملية ،

فيقال : هذا ممنوع يعرف منعه بما تقدم ، فإن الصور المتجددة عوض عن
صور متحولة ذاهبة ، فهي صور تصور وجود أمهاتها السابقة فهي مثلها ،
فالتطور والتحول متعاقبان - في الصور والمظاهر - كتعاقب الأيام والليالي مع
أنهما ليس فيهما تطور والحكمة تجدد آيات الله على كل متجدد وتكررها على كل
متعاقب ، والعبرة بها والتفكير فيها والاستدلال بها على قدرته ومشيشته وإرادته
وعلمه وحكمته ورحمته ، فهي صور تخرج لصور عن صور منعدمة متحولة ،
وهذا ليس بتطور حقيقي ، فالتطور هو الزيادة العامة في الأصول والفروع
والكليات والأفراد ، وهذا الذي ادعيته ليس من هذا بل هو في الأفراد خاصة
مع كونه باطلا ومع كونه خارجا عن محل النزاع ، فإن محل النزاع هو في تطور
الأخلاق والعلوم الدينية ، وأما العلوم الصناعية فتطورها ناشئة عن التجارب
والضعف والحاجة والضرورة ، فإن الضعف والحاجة والضرورة سبل إلى شدة
الخوف والرجاء وذلك يبعث على التفكير والتماس النجاة ، وذلك يبعث على
العمل والرياضة فيه وكثرة التجارب وتقلب الأفكار ، مع أن كل جيل لا بد
أن يكون له فكر متجدد على حسب ضعفه وحاجته وفساد خلقه ، فلا بد أن
يكون له زيادة عمل فيما يناسب خلقه ^(١) ولهذا كانت الأخلاق الصحيحة لا

(١) لأن كل فرد له ميزة عن غير في النظر والتفكير إما قوة أو ضعفا ، فيستحصل من
المجموع أفكار متنوعة يؤخذ منها ما يحتاج إليه بحكم الضرورة المتزايدة فينفق مع =

تتجدد وإنما يتجدد ضدها ، فالخروب مكروهة عند أكثر البشر ومع ذلك تزداد ، وزيادتها دليل على فساد الأخلاق ، وكذلك الظلم والارهاق . على أن تطور الصناعات ليس خيرا كله ، بل ربما يكون أكثره شرا ، ثم هو تطور جزئي قليل بالنسبة الى غيره ، وهذا الرجل نفسه قد ادعى فيها مر أنه إن لم يصحبه الرقي الخلقى عاد هبوطا ونكبة كما تقدم . وأتباع السلف لم ينكروا تطور الصناعات كما سبق بيان هذا ، فإدام معترفا بأن تطورها ليس بتطور في الأخلاق مطلقا فلا حاجة الى تطويل الاستدلال على ذلك ، لأن اعتراف الخصم بغنى عن إقامة الدليل عليه

ثم قال : ان دفن الحبة في التراب أو ركر الغصن فيه ، ثم خروج تلك الحبة أو ذلك الغصن وارتفاعه في الفضاء ، ثم تقسمه الى أغصان وأوراق وسيقان وأزهار وثمار ما هو إلا لون من ألوان التطور ،

فيقال : هذا مردود أيضا ، مع أنه في الأفراد خاصة ، وهو بديهي البطلان ، فإن كل فرد من هذه يتحول حتى ينعدم فإن خروج الحبة أو الغصن على هذه الحالة ما هو إلا ظهور صورة متجددة عن صورة متحولة أو ذاهبة ، أو ما هو في حكمهما ، اذ لولا ذلك لانقطع النوع ، ولكن الله سبحانه أراد بقاءه ، فهو جل وعلا جعل الحبة والنواة أداة لايجاد النوع وإبقائه بحيث كلما ذهب نوع بأفة أو غيرها استعويض بدله وكان الحب أو الغصن يقوم مقام أبيه لحكم كثيرة منها تيسر نقله وغرسه واستعماله ولأنه أبعد في مظهر القدرة كما نبه على ذلك في القرآن العزيز ، ولهذا كانت حبة القمح مثلا تخرج مثل أمها لا

=زيادة الحاجات وزيادة الأفكار ، وهذا هو سبب التطور الصناعي ، بخلاف الخلق فهو بعكسه لان الترف الحاصل من تطور الصناعات يدفع الى حب الشهوات والفساد ، وهذا الحب يدفع الى فساد الأخلاق فانهلال الأخلاق وفسادها نتيجة الترف والترف نتيجة حصول شهوات النفس ومطالبها بسبب الصناعات المقتضية لذلك

أكبر منها ولا أصغر ، والنخلة أو غيرها كذلك ، وكون الحبة تأتي بحبات متعددة لأمر : أولا أن أمها الأصلية كذلك وهي إنما تعطى صورتها وتؤدي رسالتها الصادقة . وثانيا أن الحبات الزائدة كالوقاية عن فناء النوع ، فانه لو كانت الحبة لا تخرج إلا حبة واحدة لا تقطع النوع ، لان الآفات والعوارض كثيرة في الائتلاف ولا سيما في مثل الحبوب المأكولة ، وهذا يوجب الانقطاع . ثالثا أن الحب الزائد بمنزلة النفقة على بقاء الأصل ، فانه لو كانت الحبة لا تنبت إلا حبة مثلها مع كونها تستنبت وتحتاج الى عمل كبير - لم تزرع وتستنبت لعدم الفائدة ، والله سبحانه جعله غذاء باقيا نوعه ، فالزراع إنما يزرع ليكتسب فائدة عمله فيكون الزائد في مقابلة العمل والنفقة على إيجاد النوع ، وهذا مطرد في النبات الزراعى وكذلك الحيوان أيضا كاللدجاج وكالجراد أيضا فانه لما كان حيوانا مستضعفا تطمع فيه أكثر الحيوانات على اختلاف أجناسها وأنواعها كثر نسله ليبقى نوعه ، وكذلك الشجر الذى لا ثمر له وينتفع به فان خشبه يقام مقام ثمرة ، وأما شجر البادية فلقلقة نفاسته قلت مؤنته إلا إذا كان نفيسا مرغوبا فيه فلا بد أن يكون الحصول عليه شاقا أو يكون قليلا غالبا كما لا يخفى على من تتبع ذلك

ثم قال : لقد ثبت أن كل شيء فى الحياة يتحسن اذا لم يوجد ما يفوقه ، وأن طبيعة كل شيء دائبة على عملية التحسين المستمر الدائب ، وثبت أن الأحياء الثلاثة - كما ثبت ذلك للجناد - فى عملية متواصلة فى سبيل التحسن وللتحسين ،

ونحن نعارضه بمنع الثبوت ، ويكفى أنه بنفسه قد منعه فى كلامه المتقدم ، فكل هذه دعاوى لا مستند لها فلا تقبل ، على أن قوله : اذا لم يجد ما يفوقه ، كاف فى فساد دعواه ، فاننا نقول وجد ما يفوقه عن التطور الكلى وهو النقص الطبيعى ، فان المخلوق ناقص بالطبع ، فقولك ان كل شيء فى الحياة يتحسن اذا

لم يجد ما يعوقه كقول الآخر كل شيء كامل اذا لم يوجد ما يمنعه من الكمال
وأمثال ذلك ، فهذا العائق أصلي طبيعي لا بد من وجوده

ثم قال : اما الانسان فليس هناك شك في أنه كان منذ ثلاثمائة سنة - دع
أكثر من ذلك - أضعف منه اليوم أجساما وعقولا ومعارف ، وليس هناك
من يرتاب في أنه في هذه الثلاث المائة السنة قد تحسن من ناحية الصورة ومن
ناحية التفكير ومن ناحية القوة البدنية تحسنا عظيما ،

فيقال : نعم قد يكون ليس هناك من الزنادقة ممن يرى رأيك من يرتاب
في هذا الذي ادعيته لأنه ليس هناك من له مسكة من عقل ودين يشك في
بطلان ما ذكرته ، ويكنى في بطلان هذه الدعوى أنك قد صادمتها وادعيت
نقيضها فيما نقلناه عنك في إبطال دعوى التطور في غير الصناعات . ويحك
كيف يشك مسلم أن هذه الثلاثة القرون المتأخرة خير من الذين قبلهم ، بل
خير من القرون التي اثني عليها النبي ﷺ بقوله : خير القرون قرني ثم الذين
يلونهم ثم الذين يلونهم ، وقد صرح في هذه الطامة المردولة بأن القرون الأولى
التي قبل هذه القرون الأخيرة الثلاثة أضعف عقولا ومعارف وأفكارا من
هؤلاء المتأخرين ، وأكبر من ذلك وأطم دعواه أنه ليس هناك من يشك أو
يرتاب في هذه الدعوى ، ونسى هذا الملحد أنه ادعى في هذا المبحث نفسه ما
ينقض هذا حيث قال في صحيفة ٣٠٣ ما نصه : ولقد يعجب المرء اذا ما أدار
نظرة حوله فوجد أن أكبر جامعة اسلامية قد بلغت من العمر أكثر مما بلغه
نوح عليه السلام قد عثمت في عددها العديد وعمرها المديد عن أن تلد مولودا
واحدا ، (١) انتهى . ومراده بهذا أن هذه الجامعة قد بلغ عمرها من الطولي

(١) المقصود من تناقضه هنا أنه معترف بأن عمر نوح طويل جدا سواء كان
حوالي ألف سنة أو قريبا منها ، وهو هنا يعلم أنه ليس في القرون الثلاثة من بلغ
عمره قريبا من هذا ، فأين التطور والتحسن في القوة البدنية ونحوها ، فكيف تتفق
دعواه هنا وهناك

أكثر من عمر نوح أى فوق ألف سنة تقريبا ، فهذه الجامعة الاسلامية التى بلغت هذا المبلغ عجزت عن أن تلد واحدا ينفعها نفعا صحيحا ، فقد أقر بطول عمر نوح وبلوغه هذا المبلغ وإلا لم يكن لضرب المثل بعمره فائدة ، وهو يريد أنه هو المولود الوحيد فى هذه الجامعة فانه طلب أن يكون هو المقدم فى الأمر الى غير ذلك مما أسلفناه فى ادعائه لنفسه ، وانما يحصل هذا الادعاء لمن فيه نوع من هذه المزية ، وقد ترك جميع ما مدح به شيخ الاسلام ابن تيمية فى الصراع وجعله الامام الوحيد بعد القرون المفضلة الخ ما مدحه به ، وقد قال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فليث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾ وهذا صريح فى أن نوحا بلغ من العمر ما ينيف عن ألف سنة ، فاذا كان معترفا بذلك فكيف يدعى أن هؤلاء المتأخرين فى القرون الثلاثة أقوى أجساما الخ ، ثم هذا صريح أيضا فى نقض دعواه فى التطور فى القوة البدنية ، وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أن طول آدم ستون ذراعا فى السماء ، والآثار الصحيحة فى هذا أكثر من أن تحصر ، ومن تأمل أفعال الأولين فى آثارهم الباقية وأفعالهم وأقوالهم ومكرم علم أنهم أدهى من المتأخرين فى هذه الأزمنة ، وقد قال لوط عليه السلام لقومه ﴿ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ وهذا يدل على أن فساد الأخلاق فى الزمان الأول أقل ، فان اللواط أعظم فساد خلقى كما قال الخليفة الوليد بن عبد الملك « لولا أن الله ذكر اللواط فى كتابه ما ظننت أن احدا يفعله » أى لنفور الفطرة منه . ثم إن هذا القول الذى قاله مجرد دعوى مصادمة للشرع والحس والتاريخ المتواتر ، فيكتفى فى ردها بالمنع ، فن أين له أن المتأخرين أكمل عقولا ومعارف وأفكارا من الأولين وأنهم أحسن صورا وأبدانا منهم ، ومعلوم أن مثل هذه الدعاوى العارية من الحجة لا يعجز كل مدع أن يدعى مثلها

ثم قال : وليس تطور الحضارة إلا تعبيراً عن تطور الانسانية ، فلو أن الإنسان لا يتطور في وجوده العام لما أمكن أن تتطور حضارته ، وليس ثمة شيء يرجع الى الوراء ويتقدم القهقري ، بل كل ما فيها لا يعرف إلا طريقاً واحداً تؤدي به الى الأمام وإلى الأمام دائماً ،

فيقال : هذا ليس بصحيح ، إنما هو تعبير عن تطور الصناعة فقط ، وهذا عما لا خلاف فيه ، ولا يلزم منه تطور حسن الصور ولا الأفكار ولا العقول ولا الأجسام لما تقدم ، وهانحن نرى أناساً نشأوا في الحضارة ولهم فيها أصول عريضة وليسوا في صورهم بل ولا اجسامهم بأحسن من غيرهم ممن نشأوا في البادية الساذجة ، بل يوجد كثير من الجمال البارع والصور البديعة في كثير من البوادي مالا يوجد مثله في أناس من المتمدنين

وكذلك يقال في الاجسام والأفكار وصحة التصور كالشعر وغيره ، يخلاف الصناعات لان أكثرها أموراً كنسائية بالتعليم ، ولهذا اذا علم أن هؤلاء الذين ليس لهم أصل عريق في الحضارة لم يكادوا يقصرون عن غيرهم في الفطنة والذكاء وقبول التعليم ، فعلم أنه لا يلزم من تطور الحضارة وجود التطور في كل شيء ، بل ذلك راجع الى الأمور الصناعية وما يتعلق بها ، هذا مع أن كلامك الماضي ينقض هذا نقضاً بيننا كما تقدم . ثم أي علاقة في هذا بأن المتأخرين أصح آراء من الأولين في كل شيء ، ومعلوم أن أكثر أصول هذه الحضارة مأخوذة عن الأولين فهي موروثه عنهم ، وإنما غير فيها الآخرون حسناً وقبحاً أيضاً ، وقد بينا فيما مضى أن الإلحاد رجوع الى الوراء بلا شك وهو في المتأخرين في هذه العصور أكثر ، كما أن فساد الأخلاق فيهم أعم

ثم قال : وكما دل على هذا العلم فقد دلت عليه أيضاً نصوص الدين ، فقد جاء بأن هذا الوجود كله كان دخاناً كما قال في الآية السابقة ﴿ ثم استوى الى السماء وهي دخان ﴾ ومن هذا الدخان أو الغاز أو السديم خلقت الشمس

والسيارات والارض وكل شيء فيها .

فيقال : لكن الذي أخبرنا بأنه استوى الى السماء وهي دخان وأنه خلق السموات والارض هو الذي أخبرنا بأن نوحا مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، وأخبرنا رسوله بأن طول آدم ستون ذراعا في السماء وأخبرنا بأنه لا يأتي زحان الا والذي بعده شر منه ، الى غير ذلك من النصوص الواضحة في الدلالة على أن الانسان يتأخر في الجملة لا يتقدم ، فالعلم العقلي الصحيح دل على أن الانسان يتأخر ويضعف في أموره كلها وكذلك النصوص التي لا تعد ولا تحصى ، فمن هو الذي يبلغ الآن في العمر ما بلغ نوح أو قريبه منه ، وهذا كاف في بطلان ما تدعيه . ثم النصوص انما دلت على خلق السموات والارض على تفصيل يناقض تفصيلك كما دلت على أن الانسان الأول أكبر وأقوى أجساما وأطول أعمارا ، ثم قوله تعالى ﴿ ثم استوى الى السماء وهي دخان ﴾ الآية صريحة في أنه خلق الارض قبل السموات ، وأنت عكست الدعوى فجعلت الارض مخلوقة بعد السماء بملايين السنين ، فانها من السيارات المولودة من الشمس ، وأيضا النص دل على أن السماء حين خلق الارض دخان ، وأنت عكست مدلوله فقلت ومن هذا الدخان أو الغاز أو السديم خلقت الشمس والسيارات والارض وكل شيء فيها وهذا يناقض الآية مناقضة صريحة ، فانه أخبر بخلق الارض في يومين وقدر أقواتها وبارك فيها في يومين ، ثم ذكر بعد ذلك أنه استوى الى السماء وهي دخان . وكل مسلم عاقل يعرف أن النصوص لا تنطبق على ما ذكرت أبدا ، فكيف تحتج بما هو حجة عليك ، ولكن هذا شأن المنافق يريد أن يجمع بين الدين والكفر والايمان والضيق كما هو شأنك في هذه الأغلال ، وكما هو شأنك في الذبذبة دائما بين الاصناف المتباينة

يوما يمان إذا ما جئت ذا يمن وإن لقيت معديا فعذنانى

ثم قال : وجاء في النصوص أن الوجود كله في تغير وتغير مستمرين في طريق الكمال ، ففي الكتاب الكريم ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ وهذا يوم القيامة ،

فيقال : قد ذكرت فيما مضى أن هذا العالم محكوم بسنن لا تقبل التغير ولا التبديل ولا الزيادة ولا النقصان ، فها هذا القلب والمراوغة المنكرة . وليس النزاع في التغير والتبديل مطلقا ، فإن الرجوع والتقهقر تغير وتغير أيضا فلم لم تقبله ، إنما النزاع في وجود التطور في العلوم الصحيحة وأن المتأخرين خير من السلف الصالح ، وفرارك الى تطور العالم وتبديله يوم القيامة لا يفيدك شيئا فهو مع كونه خداعا لا يخفى على مسلم فهو خروج عن محل النزاع ، فإن كلامك في التطور الديني والنزاع فيه ، ولم ينكر أحد من أتباع السلف في وجوده يوم القيمة فلا حاجة الى هذه المداجاة والخداع الظاهر

ثم قال : وفي الكتاب ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا ﴾ وليس من اللازم علينا أن نلتزم ما قاله بعض الشيوخ في تفسير الأطوار ، وإنما اللازم أن نطلق ما أطلقه الله وأن نحمله على أحسن الوجوه والمعاني ،

فيقال : هذا تناقض ظاهر ، كيف تدعى أنك تطلق ما أطلقه الله ثم تدعى أنك تحمله على أحسن الوجوه والمعاني . ومعلوم أن حمله على هذه الوجوه ضد إطلاقه ، مع أنك حملته على أقبح الوجوه وأكرهها وأفسد المعاني وأخبثها . ثم أنك تناقضت أيضا من وجه آخر حيث ادعيت أنك لا تلتزم ما قاله بعض الشيوخ في تفسير الأطوار ثم التزمت ما قاله بعض الشيوخ الخبيثاء من هو مثلك ورفضت ما قاله جميع شيوخ الملة والدين ، ولعل مرادك أنك لا يمكن أن تلتزم بأقوال شيوخ الدين وتلتزم ما قاله بعض شيوخ الملاحدة ، أو لعلى السبب أنك أنت المقدم في كل أمر ، ومن هو كذلك فليس من اللازم أن يلتزم ما قاله بعض الشيوخ أو كلهم كما ادعيت في الموضوع الآخر ، لأن ذلك

ينافى التقديم^(١) والذي يوافقه هو حمله على مقتضى ما يوافق هواك وإرادتك وتدعى أنه أحسن الوجوه والمعانى لكونه صدر من الشمس التى فى غير برجها والدر الذى فى لجج البحر ، فيجب أن يكون إذن على أحسن الوجوه والمعانى طبعاً

فصل

ولما كان هذا المغرور يعلم أن كل فرد من أفراد هذا العالم له بداية وغاية ونهاية ، وأن ثبوت التحول فيه بعد التطور بديهى لا يمكن جرده أطلال فى المراوغة واللجاجة فى التملص من ذلك وهيات ، فقال :

« أما الشيخوخة والموت اللذان قد يحسبان من الرجوع الى الوراء فهما مظهران من المظاهر المؤذنة بانقضاء دور من الأدوار التى تقوم المادة والعالم كله دائماً بتمثيلها ، لتأخذ بتمثيل دور آخر من أدوار الرواية العالمية الإلهية المستمرة ، فإن العالم كله يشبه رواية ذات فصول يناسب عددها ضخامة الرواية وضخامة الغرض ، لكل فصل من فصولها مظاهر ومواقف مختلفة كثيرة ، لكل مظهر وموقف معنى ومغزى يؤديه . وكل فصول الرواية ومواقفها ومشاهدها مقصودة لأنها متممة للأغراض العامة التى رعى إليها ، وليس فى فصل من فصولها ولا فى مشهد من مشاهدها ما يصح أن يعد دليلاً على الخروج عن السبيل المرسومة وعن الغاية المنشودة ،

قلت : لا يخفى على عاقل ضعف هذا القول بل بطلانه ، فانه مغالطة محضنة وعذر بارد لا يخرج عن ما وقع فيه من الحجة القاطعة ، فان كل عاقل صحيح

(١) يتبين لك ان ايراده للآيات القرآنية احياناً كما هنا انه اعتبر القرآن تاريخاً لارسالة من الله ، فهو يأخذ منه - ليستدل به على ما يريد ان يذهب اليه - وجهاً مخالفاً ولا يتوقف عند نصوصه وكله اذا كان سياق بحثه يقتضى ذلك ، وهذا غاية الايقال فى الخبث (خ .)

الذهن يعرف أن ذبول الشجرة وأخذها في التقص حتى تفتي ، وضعف الحيوان شيئا فشيئا حتى ينتهي الى الفناء والى الحالة التي ابتداء منها برهان قاطع لا يقبل المعارضة ، فلا أوضح من هذا على وجود التحول والضعف الذي هو ضد التطور ، وقد بينا أن الصور المتولدة هي حلق من سلسلة الموجودات التي اختفت في عالم الفناء ، وأن التطور الأول ما هو إلا بروز مظاهر مسبقة بأنواع مثلها ، لا يزيد الأخير عن الأول شيئا في الجملة أبدا ، وقد جعلت هذه الصور التي تتبادل وتتعاقب آيات وعبرا ومنافع ينتفع بها مادة ومعنى ، كما قال تعالى ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ﴾ وقال تعالى ﴿ ما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه ، إن في ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾ ففي هذا دلالات وعلامات متعاقبة تبعا لتعاقب الأفراد المنتفعة بها ، فأى حجة في هذا على التطور . وقد أطال العناد في التخلص من هذه الحجة ، وحسبك دليلا على فساد دعواه أنه هو بنفسه قد أنكر ذلك إنكارا باتا كما تقدم كلامه ، فكيف بغيره ، فلو اقتصرنا على خنقه بأغلاله ونقض ادعائه بأقواله لكان ذلك رأيا حميدا ومسلكا سديدا ، فانه قطع لسانه بسانه ، وهذه عادة الله في كل من خرج عن دينه واتبع هواه

فصل

إذا عرفت ما تقدم ، وعلمت أن هذا الرجل تكلم بما تكلم به في مسألة وجود هذا العالم واحتج بما لم يحط به علما مستندا على بعض أقوال قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ، فآخذ ما ذكره مع عليه باختلافهم في ذلك اختلافا متباعدا ، ومع عليه أنه مصادم للنصوص الدينية مصادمة واضحة لا تقبل الشك ، ومع عليه بأنه ليس من أهل هذه العلوم ولا دراية له بها ، ومع هذا كله استسلم لما قاله بعضهم استسلاما كاملا ووقلدهم تقليدا أعشى بلا أدنى قيد أو شرط ، فانظر الى كلامه هنا في علماء الملة

الاسلامية من الصحابة والتابعين لهم باحسان من أهل القرون المفضلة ومن بعدهم وطبق فطره هذا على فعل أسلافه من منافقة اليهود إذ قالوا للمشركين ﴿هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾ قال وهذا لفظه :

« أما هؤلاء الذين قلبوا الزعامة الدينية ، واختيروا لقيادة الفكر الاسلامي في أحوال سيئة قاسية ولأسباب ينكرها الدين والعلم ، فقد عصفت بهم نوبة من نوبات الفساد الذهني وموجة من موجات العماية الأصلية ، واجتاحهم إعصار من أعاصير الجهل التليد البليد فقاموا - وهم يترنحون من الغباوة ويتمايلون على أنغام الشيطان - ليقعوا على أكذوبة علمية ^(١) من أعظم وأشهر الأكاذيب العلمية في التاريخ ... فقد زعم هؤلاء - بين هتاف الغباء المتواصل - في كل كتاب كتبوه وقول قالوه أن سعادة الانسان وطريق تقدمه وراه لا أمامه ، وأن عليه أن يتلفت خلفه أبداً وألا يمد بصره بين يديه أبداً ، وأن يرجع القهقري وينكص الى الوراء ما استطاع الى ذلك سبيلاً ، ليظفر بالسعادة وبالعلم وبالعقل وبالأخلاق وبالعدالة وبالنظام الاجتماعي المبرأ من العيوب والنقائص ^(٢) . . . وزعموا أن كل خير في أعمال الماضين ، وكل شر في أعمال المتأخرين ، وأن كل خير في اتباع من سلف ، وكل شر في اتباع من خلف ^(٣) وأن كل ما يمكن تصوره في الخير فقد مضى ، وكل ما يمكن تصوره من الشر

(١) هي تفضيل صدر هذه الامة على المتأخرين ، وحديث « لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه » وقد صححه هو واحتج به ، ولكنه راوغ في التصريح بذلك خوفاً ورهبة شأن الزنديق

(٢) لقد غنم في بيان الحقيقة ، وهي أن أئمة المسلمين مجمعون على أن السلف حازوا قصب السبق في الأخلاق الفاضلة الدينية ، ولكن هذا الماحد جرىء على السب غير جرىء على بيان الحقيقة والتصريح بها للخوف والرعب الذي في قلبه ، كما قال فيه السيد قطب : « هو رجل تنقصه الجرأة أن يقول ما يريد أن يقوله » .

(٣) المشهور في البيت « في ابتداء من خلف »

فقد بقي ، وأن كل ما لم يستطع عمله الأولون وكل ما لم يعملوه ويرتضوه من الأعمال والعلوم والأخلاق فهو شر وجبل وفساد ، وأنه اذا كان خيرا وعجزوا عنه فلا بد أن يعجز عنه الآخر . . .

قلت : هذا الموضوع هو من تلك المواضع التي اختبل فيها وتخططه الشيطان من المس ، وكل هذا الهراء الذي قاله نفثة مقهور ، وأنه معثور ، وما ضر السحاب نبج الكلاب ، وبهذا وأمثاله تعلم أنه إهاب مليء خبثا وبغضا ومقتا للسلام وأهله من قدمه الى مفرق رأسه ، ولو أن هذا المأفون لم يتملق لهؤلاء الذين ذكر أنهم يقدمون السلف على الخلف ويتضرع اليهم ويخضع لهم خضوعا لا نظير له ويعمل معهم كما يعمل الكلب مع صاحبه لكان له شيء من العذر ، أما والحالة هذه ثم يريد أن ينقم عليهم ويكيل لهم السباب كيلا فصفاقة وسقوط لاحد لها

أضحى يسد فم الأفي بأصبعه يكفيه ما قد تلاقى منه إصبعه
إن هذا الزنديق لما سئل عن هذا الادعاء : من أين وجدت أن أئمة المسلمين الذين قلدوا الزعامة الدينية قالوا هذا القول الذي ادعيته ، وفي أى كتاب أو عقيدة معتبرة وجدته ، وعن أى عالم سمعته ، أخذه الرعب وتنصل من ظاهره ولم يقدر أن يجاهر بما يفهمه الناس منه ، بل لجأ الى التفاف والزندقة والتأويل المضاد لنص كلامه كعادته فى المكابرة والتفاف الذى لا حد له

ليت شعرى ، من هو الذى قال من أئمة المسلمين أن سعادة الانسان وطريق تقدمه وراءه لا أمامه ، وأن عليه أن يتلفت خلفه أبدا وأن لا يمد بصره بين يديه أبدا الخ ، قائلك الله ما أرخص الكذب عندك وأسهله عليك وأخفه على لسانك ، وقصده من هذا الافتراء أن المسلمين يقولون كما قال الامام مالك ، لا يصلح آخر هذه الأمة الا ما أصلح أولها ، وانهم متفقون على أن خير هذه الأمة هم الصحابة وأهل القرون المفضلة ، وأنه يجب اتباعهم فى الاخلاق الدينية . هذا هو مقصوده ، وإلا فهو يعلم أنهم لم يقولوا انه يجب على

الانسان أن ينكص الى الوراء ولا يمد بصره بين يديه أبدا ، فان هذا الادعاء بهت وفجور لا يخفى على عاقل ، ولكنه لما كان فيه شبه قوى من اليهود بدل قول لا غير الذى قيل له : بدل قول المسلمين ، لا يصلح آخر هذه الامة إلا ما أصلح أولها ، بدعواهم أنهم يدعون أن تقدمه ورائه لا أمامه ، وأن عليه أن يلتفت خلفه أبدا وأن لا يمد بصره بين يديه . فانظر كيف شابه اليهود هذه المشابهة التى قل أن توجد فى غيره ، لانه لما شابههم فى الاعتقاد والاخلاق شابههم فى البهت والتحريف وإبدال القول بقول غير الذى قيل له

يا صاحب الاغلال ، غلت يدك كما غلت أيدى إخوانك وساداتك ، فى أى كتاب وجدت هذه الأقوال التى ادعيتها على هذه الصفة وعلى هذا اللفظ ، وعن أى عالم سمعت ذلك ، وكيف تهجم على أمة عظيمة اسلامية منتشرة فى مشارق الارض ومغاربها فتنسب اليها هذه الأمور التى لو سألت عنها مسلما واحدا يعرف دينه لأنكرها ، فكيف بمن قلدوا الزعامة الدينية كما تدعى ، بل فكيف بسائر أهل الدين على اختلاف مذاهبهم كما صرحت بذلك فيما يأتى . تالله لقد عاد الاسلام غريبا ، ولا عجب اذا قامت هذه الحالة اليهودية تتحدى المسلمين أو العرب وتطمع فى بعض أوطانهم اذ كان مثل هذا يشتم أمة هذه الامة وهو فى وسطها بكل ما خطر على باله غير مبال بما يأتى وما يذر ، وهل هذا الا من إدبار الدين وضعف احترامه فى نفوس الأكثرين ، فان الله وإنذ اليه راجعون

ثم قال « وقد حاولوا - والبلاهة تحذو لهم - أن يعزوا هذه الدعاوى بروايات وأخبار نسبوها الى الرسول عليه السلام وإلى اصحابه وإلى الأئمة المقلدين ، وجدوا فى نشر هذه الأخبار والروايات والآراء وفى ترويجها حتى أمكن لهم أن يصيروا لهم من هذه الخرافات ثقافة عامة يلتقى عليها وينضوى اليها أربعمائة مليون من الاجناس المختلفة المتباينة الآخذة بأعظم دين جام

لايجاد إنسانية مهذبة عاملة على الترقى المستمر^(١) وقد استسلم لهذه الثقافة او لهذه الخرافة كل الطوائف ، فالأدباء والشعراء والمؤرخون آمنوا بها ونشروها وشهروها في شعرهم وأدبهم وتاريخهم ، كما آمن بها الفقهاء والمفسرون والمحدثون والمتصوفون بل والفلاسفة وكل من تعاطى الكلام في الدين أو في الأخلاق أو في الوعظ . وقد غيروا زمانا قد يزيد على العشرة القرون وهم جادون ماضون في تركيزها في النفوس وفي المعتقدات ، حتى قام عليها من الاجماع بين الخواص والعوام ما لم يقيم على قضية أخرى ، وحتى أصبح اعتقادها والتصديق بها عما يتسامى على الخلاف والجدل ولو ان قائلا قال إنه لم يدر على خاطر انسان الشك فيها وفي صحتها كل هذه القرون لما كان قائلا باطلا ، ولو أننا سألنا عن أكبر غلطة نهض عليها الاجماع الحقيقي أكبر مدة من الزمن لذكرنا هذه القضية أول ما نذكر . انتهى

فيقال : نعم هذه القضية هي كما ذكرت وكما علمت في الاجماع عليها من جميع طوائف المسلمين على رغم أنفك . وهذه شهادة سجلتها على نفسك في الخروج عن طريقة المسلمين ، والمناظرة لهم ، وأنت متبع غير سبيل المؤمنين . فانك هنا اعترفت صريحا بثبوت الاجماع الحقيقي عن جميع فرق الاسلام أزيد من عشرة قرون وخالفتهم وادعيت بعد أن صرحت باجماعهم بانهم غالطون في هذا الاجماع المحقق ، ومخالفة الاجماع المحقق كفر صريح عند جميع المسلمين ولا سيما في المسائل الاصولية ، فانك اعترفت بان الاجماع الحقيقي من الفقهاء والمحدثين والمفسرين والمتصوفين والفلاسفة وكل من تعاطى الكلام في الدين - قائم بالايان بهذه الثقافة ، ومعلوم قطعا أن هؤلاء لم يتفقوا إلا على تقديم الصحابة والقرون المفضلة في الأخلاق الدينية ، وأنهم أفضل الناس بعد الانبياء في

(١) احتاج في هذا المضيق الشائك إلى الخداع ، فهو هكذا يرتفع ثم يرمى بنفسه .

ذلك ، وأنهم هم الذين على الهدى والمرشد والخير ، وأما الرافضة فأنت قد
أخرجتهم من الملة في كتبك السابقة فأنت لا تعتد بهم ، ومع هذا فقد زاحمتهم
في هذه الرذيلة ، بل زدت عليهم فلم تستثن أحدا دون أحد ، فهذه الوثيقة التي
حكمت بها على نفسك شاهدة عليك بأنك مخالف للأمة كلها ، مارق من سبيلها
في هذا بل وغيره ، فلا بد من أن يصك بها وجهك وأن تعلق في الأغلال التي
في عنقك كالجريمة التي تعلق في عنق المتهم ولو لم يكن في كتابك هذا من الشهادة
على بطلانه وفساده ومضادته للإسلام وأهله إلا هذا الاعتراف لكفى ، فانك
صرحت تصريحاً واضحاً بأنك مخالف لسائر هذه الفرق الإسلامية أزيد من
عشرة قرون في هذه القضية . ومن المعلوم أنها من أكبر أصول الدين فانها اذا
لم تثبت وحصل الطعن في أولئك بطل الدين من أصله ، فانهم هم الذين دونوا
القرآن ونقلوا لنا الأحاديث الصحيحة كما أنهم هم الذين أخذت عنهم جميع
العبادات من الصلاة والزكاة والصيام والحج وتفاصيل ذلك ، فاذا طرقت الطعن
فيهم لم يصح لأحد أن يحتج بشيء من الدين ، لأنه كله أصوله وفروعه مأخوذ
عنهم ، ونحن نعلم أنك إنما طعنت فيهم هذا الطعن تذرعا الى الوصول الى هذه
الغاية . ولكن احسأ يا عدو الله ، أما علمت أن الله يقول في كتابه العزيز
﴿ ان الذين يحادون الله ورسوله كتبوا كما كتب الذين من قبلهم ﴾ . وقال
﴿ ان الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الآذنين ﴾ الآية . فلا بد إن شاء
الله إن يطبق عليك هذا النظام الالهى . ويلك ثم ويلك ، أما وجدت لدعائتك
الحيثية غير هذه الزندقة المفضوحة . كيف تحكم على أزيد من عشرة قرون في هذه
الامة المحمدية . فهل كل هؤلاء عندك ضالون وأنت وحدك اهتديت . فالحمد
لله الذى أخزاك وجعلك من الذين يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ،
فانهم هم إخوانك تشابهت قلوبكم ، ثم مع هذا تقول بدون حجة ولا حياء
• ولو أننا سئلنا عن أكبر غلظة نهض عليها الاجماع الحقيقى أكبر مدة من
الزمان لذكرنا هذه القضية في أول ما نذكر ، فهذا اعتراف في غاية الصراحة

بأنه قد قام على هذه القضية الإجماع الحقيقي ، وتصريح منك بأن هذا الإجماع غلط وأنت مخالف له وأن الصواب معك وحدك بمجرد دعواك ، مع أنك لم تذكر دليلهم ولم تحتج على دعائيتك ، بل غلطتهم بمجرد الدعوى وصوبت نفسك بمجرد ما أيضا ، ومع أنك معترف قبل ذلك بصواب ما رأوه ومقيم البراهين عليه ومدع بأنه أمر لا شك في صدقه ، ومع أنك معترف أيضا بأن ما ادعيت أنه أمر مشكل لم يوجد له حل إلى اليوم ، ومع أنك معترف أيضا في آخر كتابك بأنك قد تكون أخطأت ، ومع أنك معترف أيضا بأن هذه الأغلال حقائق أزلية أبدية تركها أمة فتهاوى ، وتأخذ بها أمة فتتهض ، ولن يستغنى عنها مسلم وإياك ، من لقنك هذه الخبائث والمخازى المتسلسلة ، قطع الله لسانك ما أقدرك وأقدر كلامك وأقدر من يقبله ومن يروج عليه

من يهن يسهل الهوان عليه ما الجرح بميت إيلام

أي رجل له مسكة من عقل أو دين أو حياء يتجاسر أن يسجل على نفسه هذا الضلال فيرضى على نفسه أن يغلط هذه الأمة كلها أزيد من عشرة قرون ، ويدعى أن هدايتها وأتمتها ومصابيحها ضالون غالطون منحرفون ، ثم يصوب رأيه ، إلا من هو قد خلع جلباب الحياء والعقل والدين وكان من العاقلين

والذى دفعه إلى هذا الهراء والاستهتار والعناد أنه لما علم أن دعاية هؤلاء الأئمة على اختلاف مذاهبهم من أولهم إلى آخرهم معاكسة لدعايته مضادة لقواعد أغلاله من كل وجه لم يجد طريقا لإزالة ذلك إلا بأن سفهمهم وغلطهم وادعى أن الصواب معه والسادد في رأيه وكتابه ، ولكن خاتمة قريحته وأقر بأنهم يجمعون إجماعا حقيقيا على خلافه ، وكما أنه قد شابه اليهود في كل خباثتهم فهو كذلك يريد أن يضيف إلى هذه المشابهة مشابهة غلاة الروافض في تضليل السلف ، بل فاقهم في هذا حيث لم يستثن أحدا دون أحد في الذم والسباب والاتهام

من كان محل الشمس موضعه فليس يرفعه شيء ولا يضعه

فصل

قال : من هذه الروايات الرواية التي أوردناها في مطلع البحث وهي ، لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه ، وهذه الرواية مخالفة للرواية الأخرى الصحيحة القائلة ، لا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر ، لأن نسبة الشر الى الزمان سب صريح له ، والزمان يقينا لا يفعل خيرا ولا شرا ، ولكن أهله هم الذين يفعلون فأني ينسب اليه الشر ،

فيقال أولا : طعنك في هذا الحديث بالشبهة والتحكم مضروب به وجهك فانه قد ثبت في صحيح البخارى وغيره من الكتب المعتمدة ، وأنت بنفسك قد ادعيت أنه صحيح واحتججت به على أعدائك من شيوخ الأزهر . فقلت : في صحيفة ٢٤ من نبذاتك (شيوخ الأزهر) ما نصه : وفي الحديث الصحيح أنه ﷺ قال : لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه ، هكذا نقلته مصححا . فله محتججا به على علماء الأزهر ، فكيف تصححه وتدعى أنه صحيح وتحتج به ثم تنقلب ظهر البطن وتظعن فيه ، أتريد أن تتحكم في شريعة الله وتلاعب بها تارة تحتج بها وتارة تظعن فيها وتريد أن الناس يقدمونك في كل أمر (١) فالحديث في غاية الصحة ولم ينزع أحد من المسلمين في صحة هذا الحديث بل قبلوه وقبلوه وشرحوه واحتجوا به ولم يشكك على أحد منهم ، وكلام عامة الشراح والمعلقين عليه مشهور في الكتب ، وقد رواه الإمام أحمد في مسنده

(١) من طرائفه الخزية المضحكة دعواه أن مقتضى هذا الحديث يكذبه الدين والحس والعقل والتاريخ وأن الأديان كلها لا تخرج عن أن تكون بجماعتها تكذيبية لهذه الدعوى ، ثم مع هذا - كما ترى - قد صححه وقبله واحتج به على علماء الأزهر وجعله برهانا له عليهم . وهذه عادته قبحه الله في إلقاء الكلام مجازفة بدون حساب ولا تقدير لانه المقدم في الأمر

وابن ماجه وغيرهما من طرق كثيرة كلها صحيحة ، وقد نقله أيضا الفقهاء والمفسرون وأهل اللغة وفهموا معناه ولم يدع واحد منهم أنه يعارض حديث « لا تسبوا الدهر » لأنهم لم يتلقوه بقلوب مثل قلب هذا الملحد الذي يحاول قلب الدين ، وأدنى عاى يسمعه لا يفهم منه مناقضة لحديث « لا تسبوا الدهر » ولا علاقة لأحدهما بالثاني إلا بمجرد أن الزمان فى كل واحد منهما ، فأى مناسبة للتناقض ، فان هذا تضمن أن كل أهل زمان فى الجملة خير من بعدهم كما فى الروايات الأخرى لأنه ورد فى قصة ، وهو أنهم أتوا الى أنس يشكون من الحجاج فقال : اصبروا فانه لا يأتى عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه ، وفى رواية لا يأتى عليكم زمان ولا يوم ، فقد فهم المسلمون منه أنه سيأتى بعد الحجاج أزمنة يكون الشر فيها أكثر بسبب ضعف الدين ، لأنه كلما بعد العهد من آثار الرسالة كثر الجهل والظلم فيكثر الشر لأنه أثره المرتب عليه . وأما حديث « لا تسبوا الدهر » فالمقصود منه أن أهل الجاهلية كان من عاداتهم نسبة النوازل والقحط ونحوه الى الدهر فيسبون ، فيقولون أصابهم الدهر وأبادهم الدهر ، فاذا أسندوا مثل هذه المصائب الى الدهر كان حقيقة قولهم سببا لله لأنه هو الذى يصرفه ، لأن الدهر بنفسه غير مكاف ولا فعل له ، فهذا نهى عن فعل مناف للتسليم والتوكل على الله والاعتماد عليه والتوبة والتصل من الذنوب ، وحديث « لا يأتى زمان » خبر بأن هذا سيكون ، فهذا خبر وذاك إنشاء ، ثم إنه يوجب التسليم والتوبة والتضرع الى الله ، لا التسخط والجزع الذى هو سبب السب ، فقوله « لا يأتى زمان إلا والذي بعده شر منه » يوجب التسلية ويوجب التوبة والاستغفار ، وليس فيه أمر بالسب حتى يقال انه يخالف الحديث الثانى ، فانه انما يخالفه إذا كان فيه أمر بأن يسب الدهر أو الزمان ، وذاك فيه نهى عن سب الدهر أما اذا كان هذا خبرا يتضمن التسلية والصبر والاحتساب والدعاء بأن يكشف الله الضر ، فأين المناقضة ، وعليه الأمة على اختلاف مشاربهم الذين تلقوه وشرحوه وفسروه لم يتأملوه بقلوب

كقلب هذا الملحد حتى يفهموا منه مثل ما فهمه ، كما أن أنس بن مالك رضى الله عنه لم يخاطب بذلك زنادقة يحاولون قلب الدين ، اذ لو كان يخاطبهم لقالوا هذا يخالف حديث النهي عن سب الدهر ، ولو أن هذا المغرور مثل هؤلاء العلماء الأخيار في صحة الفكر وطهارة القلب لفهم منه مثل ما فهموا ، ولكن لما كان قلبه مشابها لقلوب الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم من الزنادقة والملاحدة فهم كما فهموا

ويقال ثانيا : هذا الحديث يصدقه الواقع أظهر تصديق ، ويكفى في تصديقه الحس والعيان ، فلا شيء أبين من تصديقه اليوم ، فانه كلما تأخر الزمان زاد البلاء والحن وفسدت الأخلاق ، فان كان تأخر الاسلام والمسلمين شرا فهذا دليل ظاهر ، وان كان تأخر الاسلام والمسلمين ليس بشر عند بل هو محض خير فهذا كفر ظاهر فلا حاجة الى الكلام في الحديث

ويقال ثالثا : لا حاجة الى التفتت والجدال في رد هذا الحديث وحده ، فلو فرض أنه ضعيف أو لم يرو بالكلية فان في معناه أحاديث كثيرة في غاية الصحة والصراحة على معناه ، وهي متواترة لا يمكن إنكارها والمكابرة في ردها ، وهي أغلال في عنقك لا يحصى لك من التخلص منها ، ونحن نذكر بعضها لتكون قذى في عينك وريبة في قلبك ، أخرج البخارى في صحيحه عن مرداس الاسلمى قال : قال رسول الله ﷺ : يذهب الصالحون الأول فالأول وتبقى حفالة كحفالة الشعير أو التمر لا يباليهم الله بالله ، رواه الامام أحمد وغيره . وهذا نص صريح في المسألة لا يمكن تحريفه ولا الطعن فيه . وفي الصحيحين عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : خير أمتى قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، قال عمران فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثا . وفي الصحيحين أيضا عن ابن مسعود مرفوعا : خير الناس قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم . ثم يحى أقوام تسبق شهادة أحدهم

يمينه ويمينه شهادته « وفي صحيح مسلم عن عائشة مرفوعا أيضا « خير الناس قرني الذين أنا فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » رواه الطبراني . وعن جعدة ابن هبيرة مرفوعا « خير الناس قرني الذين أنا فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم والآخرون أراذل » رواه البخاري وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء ، وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « يأتي على الناس زمان الصابر فيه على دينه كالقابض على الجمر ، رواه الترمذي وحسنه . وعن ابن عمر مرفوعا قال « ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل ، حتى لو كان فيهم من يأتي أمه لكان في أمتي من يصنع ذلك . وان بني إسرائيل افترقت على اثنتين وسبعين ملة وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة . قالوا : من هي يا رسول الله . قال : ما أنا عليه وأصحابي ، وفي السنن الأربعة نحوه من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح قال « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، الحديث وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال « كل شيء ينقص إلا الشر فإنه يزداد فيه ، رواه أحمد والطبراني وغيرهما : والنصوص في ذلك كثيرة جدا ، وكلها في غاية الصحة والصرامة قاطعة لظهره هو وأمثاله ، فلا حاجة إلى التعنت في رد حديث « لا يأتي عليكم عام إلا والذي بعده شر منه ، فإن فعله في تحريفه وتضعيفه يوم أنه ليس ثمة حجة غيره ، وهو حديث واحد من أحاديث لا تحصى كلها بمعناه . وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله » وفيه أيضا . قال عليه الصلاة والسلام « ان من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد ، ولا شك أن الذي يدعي أن الخير يزيد والشر ينقص معاكس لمداول هذه الأحاديث والواقع معاكسة صريحة ، مع أنه لا يمكنه أن يجد أثرا واحدا لا صحيحا ولا ضعيفا يؤيد كلامه . وكذلك الآثار عن الصحابة والتابعين في هذا المعنى أكثر من أن تحصى . وقد

روى أبو داود وغيره عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : كل عبادة لا يتعبدها أصحاب محمد فلا تعبدوها ، فإن الأول لم يدع للآخر شيئا ، فاتقوا الله يامعشر القراء وخذوا من كان قبلكم . وقد تقدم الأثر الذى ذكرناه عن ابن مسعود وفيه : أولئك أصحاب محمد كانوا أفضل هذه الأمة ، أبرها قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا . اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ولاقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم على الأثر ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم . والآثار فى ذلك كثيرة جدا . وكذلك التابعون فإن المروى عنهم فى ذلك لا يعد ولا يحصى ، وقد اشتهر قول الامام مالك : لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها . وبالجملة فالأحاديث والآثار وإجماع الأمة متفقة على هذا مع تصديق الضرورى من الدين والواقع . والملحد نفسه معترف بالاجماع المحقق ، لكن يزعم أنهم كلهم غالطون ، ولا شك أن من اعتقد اعتقاده فلا بد أن يرى ما رآه من الغلط ، فانه من المحال أن يجمع الانسان بين تصديق الملاحدة والتمسك بأرائهم والايان بالسلف الصالح وتصديقهم واعتقاد الصديق والخير فيهم ، ولهذا ادعى أن الطريقة الى اخراج الناس من هذا الاعتقاد أن يعلوا الكفر بهؤلاء الأولين كما يأتى ، فمن هذا اعتقاده خلق بأن يدعى أن الناس غالطون أزيد من عشرة قرون ، ولو لم يكن فى هذه القضية إلا الواقع مصدقا لها لكفى ، فإن أدنى رجل مسلم يعرف أن الشرور بأنواعها كلها تزيد على المسلمين ، وما اجترأت هذه الحشالة اليهودية على فلسطين وتحدث الأمم الاسلامية على ذلك إلا فى هذا الزمن الذى مدحه هذا المغرور ، وما تجاسر هذا الملحد على إخراج كتاب يشتم فيه الأديان السماوية وأهلها شتما لم يسبق له نظير ، حتى ادعى أن المتدينين على اختلاف أجناسهم وديارهم وأنبيائهم وأمزجتهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ولم يكونوا فيها مخلوقات متألقة ، وأن الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها

العلوم هم المتجملون من الأديان المنحرفون عنها . إلخ هذيانه وبطيل ويسميه
في رفض الأديان . ويقلب نصوص شرع الله ونظامه فيجعلها دلائل لعبادة
الطبيعة ونواميسها ، وأنها هي التي تحكم هذا العالم باستخدام الإنسان لها ،
ولا يكفيه ذلك حتى يدعى أن النهوض موقوف على الأخذ به والهلاك موقوف
على تركه ، إلا في هذه الأزمان الأخيرة المملوءة بالشر والطغيان ، وهذا
أمر ظاهر لا يجادل فيه إلا جاهل أو ذو هوى . ومن العجب أنه ادعى أن
حديث « لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه » يفهم منه أن هذا يتناول
الأزمان التي قبل الرسول عليه السلام ، وهو يريد بهذا إفساد معنى الحديث ،
وكل عاقل من المسلمين لا يفهم منه هذا أبدا ، بل نفس الحديث يرده ، فإن
قوله « لا يأتي عليكم زمان » فيه بيان أنه لا يأتي على هؤلاء المخاطبين بهذا
الخطاب الذين هم الصحابة وأمة الاجابة ، وهو لم يقل كل زمان يأتي بل قال لا
يأتي عليكم ، فهذا معناه واضح جلي ، فكيف يتناول من قبلهم ، ولهذا كان الواقع
مصدقا له مطابقا له غاية المطابقة ، وقد شاهد تصديقه الصحابي أنس بن مالك
فاحتج به ، فانه أدرك من زمن الرسول الى خلافة عبد الملك بن مروان ، فابن
زمان أبي بكر وعمر من زمن يزيد وعبد الملك بن مروان . وقد فهم العلماء كلهم
منه هذا المراد ، ولذلك كان معناه عندهم واضحا جليا . والملحد يعلم ذلك ،
ولهذا احتج به لما كان محتاجا اليه كما اسلفناه ، وانما أراد ان يغالط الاغبياء
ومن طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم

ثم إنه بعد أن ضعف حديث « لا يأتي عليكم زمان » حكم على غيره من
سائر الروايات التي في معناه بالتكذيب بمجرد الدعوى ، لأنها تخالف هواه
فقال :

« فهذه الرواية وغيرها من الروايات المسوقة في أول هذا المبحث وسواها
من النقول الأخرى ، المزعوم فيها أن الانسانية تترد الى الوراء ، وأن القدماء

أبدا خير من الذين يجيئون بعدهم ، وأن الشر والفساد أبدا في ازدياد ، وأن كل شيء ينقص إلا الشر فانه يزيد - روايات من أصر على نسبتها للإسلام وللرسول فقد أصر على التثقيص والانهام ،

هكذا قال بدون حجة ، وقد كان من الواجب عليه أن يذكر هذه الروايات بطرقها وينقضاها على أساس معقول كصنيعه مع الرافضة في (الصراع) ولكنه يعلم أنه ليست حجج أئمة الدين كحجج الرافضة ، فنحن نكتفي برد ما زعمه من التكذيب لها بأن أئمة المسلمين الذين نقلوا هذه الشريعة المطهرة قد نقلوها وصححوها وقبلوها ، وهو نفسه قد احتج بأكثرها لما كان محتاجا إليه ، وليس له أن يتحكم في شريعة الله فيكذبها حيناً ويصدق بها أحيانا ، ويحتج بها على أعدائه ويكذب بها إذا احتج بها عليه أحد ، فإن هذا العمل لا يفعله إلا ماجن متلاعب بالشريعة الغرام قد انساخ من الدين والعقل والحياء ، وقد بينا أن الواقع يصدقها تصديقا أوضح من الشمس في رابعة النهار

وعما يجب أن يتفطن له أن أساس هذه الدعايات الخبيثة في عداوة الأخلاق الدينية السلفية وشيوع هذه الأقاويل والأكاذيب في تهجينها والدعوة الى حب الأخلاق الاحادية المشتملة على الكفر والفسوق والعصيان وسائر الرذائل التي لا تعد ولا تحصى بحجة الجديد أو التجديد أو التمدن والحضارة والرقى والتطور وأمثال ذلك ، كل هذا من عمل أيدي السياسات المستعمرة الاجنبية سعية وراء إقناع الشعوب المستعبدة ، وإماتة الروح الحية فيها والحيولة بينها وبين إيقاظ الشعور الديني والقوى المستمد من الدين ، ومن ذكرى أخلاق السلف الأولين ، لتلاينفروا من هؤلاء المستعبدين ، ومن أفعالهم الغريبة الخبيثة المنافية للرجولة ، والمحافظة على الكرامة والمناعة الموجودة في الأخلاق السلفية الدينية ، وهذا أمر لا يستريب فيه من له عقل وبصيرة نافذة كما نبه عليه غير واحد من عقلاء المسلمين ودهاتهم

فصل

ثم أخذ يبحث عن سبب هذه الفكرة التي هي تقديم السلف على الخلف في الفضائل ، وهو يعلم أن مستندها النصوص والحقائق الواقعية ، ولكن أراد أن يغالط الأغبياء فقال : « كيف جاءت هذه الفكرة - فكرة اعتقاد الخير في الأولين والشر في الآخرين ؟ يغلب على الظن أنها إحدى الفكر الباقية من عهد الطفولة العقلية الانسانية . ولا تزال الفكرة برمتها مستولية على تصرف الاطفال وعلى حياتهم ومشاعرهم واتجاههم العام ، فانهم يرون أن من هم أقدم منهم سنا أكبر منهم عقولا وأضخم اقتدارا ،

فيقال : هذا الذي غلب ظنك بل وعقلك خطأ معلوم الفساد لأمور : أولا أن هذه الفكرة مستندها النصوص الصحيحة الصريحة المطابقة للواقع وللعقول السليمة

ثانيا أن هذه النصوص مؤيدة بالاستقراء الصادق كما شرحناه ، فانه لا يشك مسلم في أن أول هذه الأمة خير من آخرها ، وأن الخير في أولها أكثر منه في آخرها ، وأن أولئك الأولين كانوا أكبر عقولا وأقوى ديانة وقلوبا وأحسن أخلاقا من آخرها ، وأنها لم تبلغ تلك الذروة العالية إلا بأخلاقها الدينية الصحيحة ، وأنها ما تدهورت في آخرها إلا من أجل بعدها عن هذه الأخلاق والعلوم نفسها وعن تلك الروح القوية الحية ، وأن تقدمها وتأخرها من حين نشأتها الى هذا الوقت تابع لقيامها بدينها أو ضعفها في هذا القيام ، فيقدر تمسكها يحصل تقدمها وبقدر تقصيرها ومخالفتها يكون تأخرها :

ثالثا أن ما ذكرته من نظرية الاطفال ليس بصحيح ، بل هو حجة عليك ، فإن الاطفال إذا كبروا اختلفت نظرياتهم وتقليدهم وتفكيرهم حتى لو كانوا ناشئين في منزل واحد أو مدرسة واحدة ، ثم إنهم قلما يتركون على نظرهم البدائي ، ولو أن الاطفال ينشأون على تقليد كبارهم مطلقا لكان كل الناس سواء ، لأنهم كلهم قد كانوا أطفالا ، أنت قد اعترفت بأن جميع فرق المسلمين

على اختلاف مذاهبهم وتباينهم في النظريات متفقون وجمعون إجماعا قطعيا على تقديم هؤلاء الأولين على الآخرين ، فكان ما ذكرته صحيحا وانه حجة عليك ، لأنه قد ثبت ثبوتا لا يقبل الجدل بأن الأطفال يعشقون الجديد ويندفعون اليه اندفاعا مدهشا وينفرون من القديم ويكرهونه ويسأمون منه ، فهم إذا وجدوا صناعة جديدة أو حيوانا غريبا جديدة رؤيته أو شيئا من الجمادات حديثا قبلوه وتركوا ما قبله وان كان أقوى وأحسن منه ، فهم يكرهون القديم من أجل قدمه ويحبون الجديد من أجل جدته لا لشيء آخر ، وهذا شيء مغرور في طبيعة أكثر الأطفال ، ولهذا كان أهلهم يعرفون ذلك منهم فيأتونهم بالاشياء الجديدة ولو كانت صوراً جوفاء لا فائدة فيها ، ولهذا تجدد الطفل يفرح ويلهو بالصورة الفارغة التي لا روح فيها فيلهو بها أكثر مما يلهو بأخيه وقريبه وغيرهما من هم دائما عنده أو معه لأنه يرى هذه الصورة شيئا جديدا غريبا ، وهؤلاء منذ نشأته وهو يراهم وهم بهذه الحالة ، فهم قدماء بالنسبة الى الصورة التي أعجب بها ، وهذا أمر معروف فيهم في تعشق كل جديد وحديث ، وكراهة كل قديم ، ولا تكاد تجد طفلا يميل الى الشيوخ والكهول حتى والديه الا عند الحاجة والضرورة ، بخلاف الصور المستجدة فان لم توجد مال الى الأطفال ومن في سنه لأنهم أقرب الى الجدة من أولئك ، فهو لا يرتاح إلا معهم ولا يقبل إلا كلا منهم ، فهو يحب كل جديد بالجملة في أكله ولباسه وفي شئونه كلها . فما ذكره فهو حجة عليه لا له

فصل

ثم أخذ على عادته في الطعن في الهوام ، والتفريع على أوهامه وأكاذيبه التي يخترعها من كون المسلمين يفضلون كل قديم مطلقا على كل شيء متأخر ، وقد مرّ لك بطلان كلامه وأنه ادعاء كاذب وافتراء صرف ، فأركبه عليه من التفريع فكلام لا محل له لأنه فرع أكاذيب على أصول افتراها بمجرد النشئ والهوى وسوء القصد ، فقال :

« كانت العقيدة التي حكمت على هؤلاء كل هذه القرون قائمة على أمرين كما تقدم : أحدهما أن كل ما عجز عنه الأوائل فلن يستطيعه الأواخر ، وثانيها أن الأوائل قد فعلوا كل خير وبلغوا كل كمال ،

فيقال : كل هذا كذب لا صحة له ، وقد بينا أن المسلمين لا يقولون هذا القول ولا يرون هذا الرأي على إطلاقه ، بل يقولون إن السلف الصالح من الصحابة والتابعين قد بلغوا الغاية في الأخلاق الدينية فلا يجوز أن نشرع في دين الله شيئا لم يقولوا به . أما الأمور الدنيوية المحضة بما لا نص فيه فهي تتغير بتغير الأزمنة كالصناعات ونحوها ، ولم يقل أحد من المسلمين إن ما عجز عنه الأوائل من الأمور الدنيوية فلن يستطيعه الأواخر ، وقد قدمنا كلام حذيفة رضي الله عنه في قوله : كل عبادة لا يتعبد بها أصحاب محمد فلا تعبدوها . فكلامهم إنما هو في الأخلاق الدينية ، فإن السلف بلغوا فيها غاية الكمال . وفي الحديث الصحيح « الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها » فكل حكمة فالتؤمن أحق بها بنص الحديث

ثم قال « أما الأمر الأول فقد ترتب عليه أن وقف التفكير في التجديد والابتكار وقوفا تاما وأن عدل نهائيا - على حسب ما ظنوا - عن محاولة التجربة ومحاولة مواصلة السير ،

فيقال : هذا التفريع مبنى على ما اخترعه فيما سبق ، وهو كذب ظاهر ، بل إنما وقف التفكير من أجل البعد عن اقتفاء آثار السلف ، والانحراف إلى تقليد الجمالدين المتأخرين ، وبيان هذا أن مذهب السلف ليس فيه شيء من البدع أصلا كتحرير الصفات (١) وعبادة الموق وكون الأسباب ليس فيها قوى

(١) مثل علو على العرش والكلام وسائر الصفات الخيرية ، بل يجرونها على ظاهرها اللائق بالله تعالى كما ذكره عنهم الذهبي وابن القيم وابن خزيمة وغيرهم

طبيعية وأمثال ذلك ، وأنه يجب اتباع المعقول اذا خالف المنقول وأمثال هذه الأقاويل الباطلة ، ولهذا تجد أكثر العقائد ولا سيما المتأخرة مشتملة على هذا وكلها من آثار المتأخرين الذين انغمسوا في آراء المتفلسفة وخلطوا بها علوم الدين ، ولهذا تجد كتب السبكي وابنه وابن حجر الهيتمي والرازي وأمثال هؤلاء مشحونة بالتعصب لهذه الآراء الكاسدة ، أما كتب السلف الأولى واتباعهم مثل شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم والذهبي وابن كثير والعيني ومحمد بن عبد الوهاب وأمثالهم فهي أكبر العوامل في تحرير الأفكار وتنويرها وإطلاقها في محاولة التجديد في الابتكار في كل ما فيه نفع للإنسانية مما لا يتعارض مع أصول الدين . ثم إنه لما استولى هؤلاء الأجانب على أكثر الأقطار الاسلامية ونفثوا فيها سمومهم القتالة في إماتة الأخلاق وقتل الحرية الصحيحة باتباع الأهواء والشهوات وكرهية الأخلاق الفاضلة وعشق الخرافات فزادت الأغلال ووقف التفكير الصحيح وقوفا تاما ، لأنهم سدوا عليهم باب الفضائل التي بها تعرف قيمة الحياة وقيمة العز والذل فيها . وقد علم أعداؤهم قيمة هذا فصدومهم عن ذلك كله ، وشغلواهم بالانغماس في الفجور والنهي والارتكاس في الذل والهوان ، فصار وقف الفكر إنما جاء من كراهة السلف وعدم الاقتداء والاحتذاء بأخلاقهم الدينية الفاضلة ، ولهذا أجمع الباحثون على أن أكثر مبادئ الأمور الصناعية إنما أخذت من الاسلام ومن المسلمين أنفسهم باختلاطهم مع الغربيين في أوروبا كأسبانيا وغيرها وانتقال كتب هؤلاء الأولين بين أيديهم ، فكان دخول تلك الكتب عاملا من أعظم العوامل التي تدفع إلى العمل وإلى التجديد والابتكار في كل ما ينفع الناس ويمكث في الأرض . ومن الأسباب الكبرى في تأخر الصناعات وأمثالها التعصب للأنساب والمذاهب ، ومعلوم بالضرورة التي لا مرية فيها أن السلف أبعد الناس عن هذين الخلقين ، فصار أثر هذين الخلقين يتبعهما لانهما في المتأخرين أكثر ، فان أغلب الحروب والعداوات والضغائن تنتج عنهما ،

وذلك مما يشغل القلب والجوارح عن العلم والعمل للدين والدنيا . وقد بينا غير مرة أن الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح كل ذلك ليس فيه ما يمنع الأخذ بالأخلاق الصناعية والتجارية والمادية وغيرها ، بل هذا كله ما دلت الشريعة على الأخذ به ، وليس التجديد الصحيح هو رفض العقائد الصحيحة ، بل العمل بها هو التجديد الصحيح ، وتركها هو الرجوع إلى الورا ، لأن الجاهلية الأولى والقرون المتقدمة التي هي في غاية الجهالة كانت لا تعمل بهذه العقائد ، فعدم العمل بها رجوع إلى أخلاق هؤلاء ، فإن الإنسان في أحد أمرين : إما أن يتبع السلف ، وإما أن يتبع الجاهلية الأولى التي قبلهم بقرون طويلة ، فبخلاف السلف رجوع صريح إلى الورا . انظر إلى هؤلاء الذين يحكمون قوانين الرومان وفرنسا وأمثالهم ويدعون أحكام القرآن والسنة هل خرجوا إلى تجديد ، بل خرجوا إلى أقدم من الكتاب والسنة ، فإن قانون الرومان وفرنسا أقدم من شريعة الإسلام في الزمان ، فكيف يقال أنهم مجددون وإنما هم متجردون ، وهل هذا إلا رجوع صريح إلى الورا ، ونحن نعلم كما يعلم غيرنا أن هذا المغرور إنما يدعو إلى رفض الكتاب والسنة والأخذ بقوانين الملاحدة ، وقوانينهم كلها - إلا ما ندر - قديم جدا مبنى على نظريات هي بعينها نظريات الجاهلية الأولى الذين حاربوا الرسل وبادوا عن آخرهم ، وكانوا على غاية من الجهل والغباء ، وهو نفسه لما تكلم في نبذته (الثورة الوهاية) تكلم بما يناقض كلامه هنا مناقضة صريحة ، وادعى أن الأخذ بأخلاق القرن الثاني هو الطريقة إلى الرقي والتقدم ، حتى رد على الشيخ المراغي شيخ الأزهر بكلام طويل فهم منه أن شيخ الأزهر يدعو إلى التجديد ، وأكثر ما فهمه خطأ ظاهر . ولولا طاب الاختصار لنقلنا كلامه فليراجع . ومن العجيب أنه لم تطب نفسه بكلام واحد من علماء الأمة كلهم على كثرتهم ، كما لم تطب أيضا جماع واحد منهم ارتضاه في أغلاله هذه ، بل هجم عليهم كلهم كما هجم على كتبهم ، ثم قال :

• انظر ، ان الكتب التي ألفت منذ مئات السنين - بل منذ ألف عام تقريبا - في الفقه أو في التفسير أو في الحديث أو في العقائد أو في التاريخ أو في الأدب أو في النحو أو الصرف أو في اللغة ، بل أو في الطب ، إن كان هناك طب ، كتذكرة داود وأماليها ، أو في الفلسفة أو في التربية - إن كان ثمة تربية - إن الكتب التي ألفت منذ ذاك التاريخ في هذه العلوم وسواها لا تزال حتى اليوم هي المرجع . وهي تدرس وتطبع وتنشر وتعرف ويسرع الى قراءتها واقتنائها في العالم الاسلامي كله . . . وان وجد شيء ضئيل من التجديد والتغيير فهو لا يعدو أن يكون نقلا مشوشا ونسخا ممسوخا من هذه الكتب المعمرة ذات الألف وذات المئين من السنين ، حتى ان المجلات الدينية ^(١) التي تكاثرت في السنين الاخيرة لا يخرج مجموع ما فيها من تفسير للقرآن أو شرح للحديث وتعميد وتقسيم للمعتقدات وسرد لما يحل ولما يحرم في الفقه ولما اختلف الفقهاء فيه ولما اتفقوا عليه ، إن كان قد وجد اتفاق - إن مجموع ذلك لا يخرج عن أن يكون فتانا متناثرا من تلك الموائد التي قام الاكلون عنها منذ ألف عام . ولقد يعجب المرء اذا ما أدار نظره حوله فوجد أن أكبر جامعة اسلامية قد بلغت من العمر أكثر مما بلغه نوح عليه السلام ، قد عقمتم في عمرها العديد ، وعمرها المديد ، عن أن تلد مولودا واحدا حتى ضرب المثل بعقمها . . .

قلت : هذا نظره الى علماء المسلمين ، وذا رأيه في كتبهم ، فلم يستثن عالما واحدا ولا كتابا واحدا على كثرتهم وكثرتها ، بل صرح بأن هذه الجامعة الاسلامية التي بلغت هذا المبالغ الطويل من العمر عجزت عن أن تلد مولودا ، يعني يحدد لها وينفعا ، فلم يألأ عينه أحد منهم ، كما لم يألأ عينه كتاب من كتبهم

(١) يقال له وكذلك المجلات الداعية الى الالحاد لا يخرج ما فيها عن نظرية متقدمة في الدعوة الى اخلاق الجاهلية الاولى في محاربة الرسل وما جاءوا به ودعوى انه أساطير الاولين

فلا غرابة على هذا أن يدعى لنفسه أنه الخلق بأن يقدم في الأمر وأن تجعل أفكاره هذه هي النظام الجديد الذي تركه أمة فتوى ، وتأخذ به أمة فتنهض الخ . ثم انه لشدة شقائه صرح بازدرأ ما سماه الفتات المتناثر ، يعني كتب السلف - اذ صرح بأنه قام عنه آكلوه منذ ألف عام ، ومعلوم أن كتب السلف هي التي مضى عليها هذا العمر - فانتقد على المسلمين أخذهم بها وعدم التجديد بتركها ، لأن الفتات يجب أن يترك . ولم يبين وجه التجديد بياناً واضحاً غير ما مدح به كتابه على الوصف الذي ذكرناه ، وكان من الواجب عليه في مثل هذه الأمور أن يبين الكتب بأسمائها ووجه الانتقاد بدليله ، ثم يبين وجه التجديد ببراهين وتفصيل واضح ، فإن من يريد أن يتكلم في مثل هذه الأمور العظام لا يكتفى فيها بالمنافقة والغمغة والتبليس الذي لا طائل تحته ، فإن كل عاقل يعرف دينه يعرف مراده وما يرتضيه ، ومن كان جاهلاً مخدوعاً لا ينفعه مثل هذا الكلام . والحاصل أنه يقصد بهذا إبدال هذه الكتب بكتابه والاعتماد عليه . وحقيقة هذا كله هو طلب إبدال الدين بمبدأ الإلحاد ، فإن هذه الكتب التي يشنع على أهلها إما تفسير للقرآن وبيان لمعانيه ، أو أحاديث مجموعة بأسانيدها ، أو شروح وتعليقات عليها ، كما صرح بذلك ، وهذا غاية ما يفعله المسلمون الذين يعتقدون أن الله أكمل لهم دينهم وأتم عليهم نعمته ورضى لهم الاسلام ديناً ، وأن الشريعة كاملة لا تحتاج الى زيادة ولا نقص ولا تبديل ولا تغيير في أصلها ونظامها . أما لو كانوا يعتقدون خلاف هذا ، وأن الأديان كالسياسات ، لا يمكن أن يتقدمهم بعدم التعديل والتبديل والتغيير ، لأنها قابلة لذلك . ولا ينسى القارئ العزيز أن هذا الملحد نفسه قد انتقد المسلمين حينما ذكر أن عمر رضي الله عنه نهى عن قراءة كتب الأوائل ، وذكر فيما ذكر في المبحث الثالث أن عمر أمر بتحريق مكتبة الاسكندرية ، ثم شنع على المسلمين في ذلك بل شنع على عمر في نفس الامر وأطال الهذيان وادعى أن هذه جهالة وأنهم يرون بذلك أن العلم حجاب ، وأن الجهالة أم الفضائل ، فرماهم كلهم

بالغباوة والبلادة والجهالة والرجوع الى الوراء بنفس ما ادعاه هو في هذا البحث في كتب القدماء ، هذا مع علمه أن تلك الكتب القديمة لما خرج أكثرها على وقت المأمون كان ذلك سببا في تدهور الاسلام وانهاره ، ومع ادعائه أيضا بأن تلك الكتب ألقت في العصور التي ذكر أنها في طور الحيوان أو قريبا من الطور الحيوانى ، ثم هو كما ترى عاد الى مثل هذا الذى نقم على المسلمين به ، فأخذ يسفه آراءهم ويرميهم بالجهالة والسفاهة وفساد الرأى . فى تمسكهم بالكتب التى ألقت قبل ألف عام ، هذا مع علمه بأن أولئك الذين كانوا فى تلك القرون على غاية من الدهاء والشجاعة ونزاهة الأخلاق وصحة الرأى ، ومع علمه بأن المسلمين كلهم معظمون لهم ، ومع علمه بأن بين هذه الكتب وبين تلك الكتب التى نهى عمر عن قراءتها فرقا واضحا ، فان تلك الكتب قد نسخت وجاءت خلاصة ما فيها من الصدق والخير فى هذه الشريعة ، بخلاف هذه الكتب التى يدعو الى إلزالتها ورفضها ، وهو لو قدر عليها لآتلفها بأسرع ما يمكن ، ولكن الله أعجزه كما أعجز تلك الحيوانات (١) التى عملت على إضرام نار الخليل فما صنعت شيئا ، وكيدته ومكره فى هذه المحاولة ككيد تلك الحيوانات ومكرها سواء بسواء

ثم يقال له من وجه آخر : غاية ما نقمته على هؤلاء هو تفسير الشريعة وشرحها والتعليق عليها ، فبأى شىء تريد أن يعملوا غير هذه اذا لم ترد رفضها وابدالها بمبدأ آخر . وهذا الذى انتقدته على هؤلاء المسلمين هو من جنس ما يفعله الملاحدة والمنافقون — وانت منهم — فى كتب أسلافهم ، فانه لا يعدو أن يكون تفسيراً أو شرحاً أو تعليقا متنوعا ، وبرهان هذا أن هؤلاء الذين حكموا الطواغيت دون شريعة الله إنما تمسكوا بأصل القانون الرومانى أو ما هو فى معناه ، وجميع ما عدلوه وغيروه إما شرح أو تعليق أو مافى معناه ، مع أن

(١) يعنى الوزغ وما شابهه

هذا التغيير الذى غيروه أو جددوه ضئيل جدا . ثم ان أغللاك المشدودة في عنقك كلها جهالات الزنادقة القدماء وملاحدتهم ، وهى كلها على ما فيها من خبث وقذارة لا تعدو أن تكون إما تفسيرا أو شرحا لها أو تعليقا عليها ، فان من تدبر أغللاك هذه علم بلا أدنى شك أنها تدور على ما قرره غوستاف لوبون الملحد في كتابه الآراء والمعتقدات ^(١) ولا سيما في قوله ان الايمان بالله وحده كان نكبة على البشر ، فكل كتابك تعليق على هذا ، ولهذا ادعيت أن الخطب وایام الجمعات هى إحدى الشكبات لأنها تحت على الايمان بالله واليوم الآخر ، وقد بينا فيما سلف أن جميع أعداء الرسل من الملاحدة والمشرکین ذهبوا الى جنس ما قررته في هذا الكتاب كفرعون نفسه في معاندته ومكابرته وإلحاده ، وسخريته بموسى ومن معه من المؤمنين ، واعتماده على نفسه ، وإيمانه بالاسباب . وقد استأنست بكلام سيدك هذا غوستاف لوبون حين نقلت عنه تلك الجملة الملعونة ، واخذت شوطا تفسر كلامه وتعلق عليه وتؤوله وتخرج له الوجوه القبيحة ، فهذا الصنيع الذى نقمت به على هؤلاء المسلمين في كتب أسلافهم الطيبين الطاهرين قد صنعت جنسه في كتب ساداتك الملاحدة وأعداء الرسل . ونحن هنا نكتفى عن المناقشة فيما هذبت به - وان كانت من أسهل شىء علينا - بأن نطالبك ببيان الكتب التى نقمت منها وتسميتها باسمائها وتعيين مواضع الانتقاد ووجهه ، وأن المسلمين كلهم فعلوا ما ادعيت ، وأن فعلهم هذا هو السبب في تأخرهم . وحيث انك لم تفعل شيئا من ذلك بل جئت بها هوجاء مغمجمة مدخولة بالزور والهت والفجور ، فنكتفى فيها بالرد ونحيل القارىء على ما ذكرته في نبذك الأولى في (الثورة الوهابية) حينما انتقدت المراغى في نفس

(١) وغيره من كتبه الخبيثة . وقد علم أنه من أعداء الاسلام المناوئين له ، حتى انه سب النبي ﷺ وقد ادعى بانه متهمس ، فهل يقد هذا من فيه غيره على الدين أو العرب على الأقل

ما تنصره الآن ، وكلامك في شيوخ الأزهر ، وادعائك هنالك بأن ما ذكرته في تلك النظرية الأولى هو الحق الذي لا ريب فيه وهنا نقضته وادعيت أنه حقائق أزيلت أبدية ، فلا أحسن من أن تخنق بأغلالك وتحمل بأثقالك ، ليجعل الله ذلك حسرة في قلبك ، والله لا يهدي كيد الخائنين

يا ناطح الجبل العالى ليكلمه ارفق على الرأس لا ترفق على الجبل

فصل

قال « واما الأمر الثانى - وهو الاعتقاد بأن الأولين قد فعلوا الخير كله وبلغوا الكمال المطلق ، وأن أفعالهم كلها أفعال يقتدى بها - فقد تترتب عليه أيضا نتائج . فان هؤلاء الذين اعتقدوا هذه العقيدة قد صرفوا كل قواهم وأوقاتهم وعنايتهم الى محاولة الاقتداء بأولئك الكاملين الخيرين ، ومحاولة الأخذ عنهم والتشبه بهم ، بل محاولة إعادتهم ونشرهم لو كان ذلك مستطاعا ،

فيقال أولا : كل ما تدعيه في المسلمين المحاردين للاقتداء بأسلافهم والتشبه بهم وما يترتب على ذلك يعارض عنه بما فعله الملاحدة مع أسلافهم ، فانهم أعظم في المخالفة فيهم والاحتذاء حذوهم ، وأما المسلمون فكثير منهم خالفوا أسلافهم بل ناقضوا كثيرا عما ذهبوا اليه ، فكل ما يمكن أن يترتب على التقليد الذى تدعيه في هؤلاء يمكن أن يترتب على أولئك في تقليد أسلافهم ، ومعلوم الفرق الواضح بين أسلاف هؤلاء وأسلاف هؤلاء ، هذا مع أن ما ادعيته هنا على هذه الصفة بهتان ظاهر ، فان المدعين بأن السلف قد فعلوا الخير وبلغوا الكمال فيه لا يعنون ما تعنيه ، يقولون ان ذلك فى الاخلاق الدينية والفضائل الانسانية خاصة ، لافى الصناعات والتجارات ونحوها ، فانهم فرقوا بين هذا وهذا فى كل كتبهم المشهورة المعمول بها ، فدعوا على وجه الاجمال كذب ظاهر . ثم ما ذكره من كونهم فعلوا ذلك فصرفوا أوقاتهم وعنايتهم الى الاقتداء بهم كذب آخر لا يرتاب فيه مسلم ، وباليته صدق فى هذه الدعوى ، بل ان عكس الدعوى

أصح ، فإن أكثرهم أهمل الطريقة السلفية فجاءت النكبة من الإهمال لا من الاقتداء ، ولهذا تجد المخالفة للسلف شاملة لأصول الدين وفروعه فضلا عن آدابه وما يتعاقب بذلك ، بل ادعى كثير منهم بأن مذهب الخلف أعلم ومذهب السلف أسلم ، فتبعوا الأعم بزعمهم ، وكثير من العقائد المنتشرة المدروسة اليوم وقبل اليوم فيها كثير مخالف لطريقة السلف كالسنوسية والجوهرية والخريذة وأمثال ذلك ، ففي هذه العقائد مسائل مخالفة لاجماع السلف كسألة علو الله على عرشه ، وقد يعبر بعضهم عن ذلك بنى الجسة ، وكإنكار الصفات الخبرية كالحب والرضا والغضب وغير ذلك ويؤولونها ، وكإنكار حقيقة الكلام ويدعون أن ذلك هو المعنى النفسى ، فكل هذا مخالف لعقائد السلف كما بين ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية بالبراهين الواضحة فى كتبه كلها ولا سيما كتاب (العقل والنقل ^(١)) وابن القيم والذهبي وغيرهم فالعقائد الصحيحة المبينة على الطريقة السلفية المحضة هى مثل (كتاب التوحيد) للإمام ابن خزيمة الشافعى وعقيدة الصابونى الشافعى وابن عبد البر المالكى وشيخ الاسلام ابن تيمية فى العقيدة الواسطة المشهورة وغيرهم وهذا فى أصول الدين فكيف بغيره . ولا يخفى على أدنى مسلم اليوم أن كثيرا من المنظمات مخالفة للدين ولما كان عليه السلف ولا تمت الى ذلك بأى صلة ، فهؤلاء الذين خالفوا السلف إنما خالفوهم رجاء أن يصلوا الى هذا الرقى والعلم الذى يدعيه ، فكل من رغب عن النصوص واستصغرها بعد علمها لم يحصل على طائل ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾ فلهذا لم يجد هؤلاء الذين رغبوا عنها إلا سرايا وعذابا ، وإلا فلو اقتدوا بهم فى هذه الأمور لكان أهدى لهم وأسلم وأحكم ، فما ذكره من النتيجة باطل قطعاً كما لا يخفى . هذا فى الخاصة فكيف بالعامّة الذين لا يعرف أكثرهم غير الفسوق والدعارة والاخلاق الساقطة فضلا عن أن يعرف أخلاق السلف والاقتداء بهم

ثم أطال في سب هذه الكتب وأنها هي التي أضلت الناس ، ولم يسم واحدا منها باسمه كما أنه لم يبين وجه الانتقاد ولا المعنى الذي أوجب السب ، بل سبها سباً إجمالياً ، وهذا ليس من التحقيق في شيء ، بل هو هذيان لا قيمة له وقد قدمنا ما ذكره الأستاذ محمد أحمد الغمراوي المصري فيما نقله عن هذا المغرور في رأيه في كتب المسلمين ، فلا حاجة إلى إعادته

فصل

ولما كان هذا الملحد قد حرج صدره وعجز عن مقاومة هذه العقيدة الراسخة التي هي من أعظم الحواجز بين الدين والاحاد وبين قبول كتابه وكتب الدين واعتقاد تقديم السلف على هؤلاء الملاحدة الذين يدعون أنهم مجددون وأنهم خير منهم ، ورأى أن هذه العقيدة ثابتة في قلوبهم ثبوت الجبال في أماكنها لا يمكن أن يزحزحها هذا الهذيان وأمثاله فلا تتفق هذه العقيدة وقواعد أغلاله أبداً ، انفجر غيظاً فقال :

« والعائق الأكبر هو أن هؤلاء الذين يراد إصلاحهم يرون الكمال في أولئك القدامى الذين يجدون هذه الأباطيل والخرافات في كتبهم ، فمن المستحيل أن يجمعوا بين الكفر بأباطيلهم وبين اعتقاد الكمال المطلق فيهم . والسبيل التي لا سبيل سواها لإخراج هذه الجماعات المنكودة مما هي فيه أن تعلم الكفر هؤلاء ، والشك فيهم ، وإساءة الظن بهم وبعلمهم ، وأن تعلم أنهم كانوا تحت ظنهم بهم جداً ، وأنهم أبعد عن الكمال من المعاصرين ومن المتأخرين ،

فيقال : ما قصرت في أغلالك هذه من الحث على تعليم الكفر بهم والقبح فيهم ، ولكن الله تعالى أبطل كيدك ، وردّه في نحره ، فذهب كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف . ثم ما هي الأباطيل والخرافات ، لا بد من بيانها ، فإن

مجرد دعوى الأباطيل والخرافات في كل ما يضاد رأيك لا يعجز عن مثله كل انسان يريد أن يرد قول خصمه ، فان كل من هان عليه دينه وعقله أمكنه أن يدعى كهذه الدعوى . ونحن نعلم أن مرادك بالأباطيل هي ما يخالف ما ادعيت في هذه الأغلال من نواميس الطبيعة وغيره ، ولكن الأولى لك في مثل هذه الدعاية أن تبين ذلك بمعناه الواضح ودليله الجلي ، وحيث أنك لم تفعل شيئاً من ذلك فنكتفي في رده بالمنع والمطالبة بالبيان والدليل بالإيضاح والتفصيل

فصل

قال : فجهاالة التقليد من الجهالات ذات الآثار القاتلة ، وأظهر آثارها كما سبق شيثان : التصديق بكل ما يقال ويسمع وينقل ، وغل العقل والفهم ، فيقال أولاً : هذا كلام لا محل له ، فخصومك لا يدعون الى التقليد ، انما يدعون الى اتباع شرع الله ونظامه ، وهذا هو الواجب على كل من آمن بالله ورسوله ، وما خالف هذا هو تقليد بلا ريب ولا يمكن الخروج عنه أبداً كما هو الواقع ، فمن لم يتبع نظام الله فلا بد أن يتبع نظام أعداء الله ، ولهذا لما حاول البعض الخروج عن الشريعة المحمدية بدعوى التجديد اضطروا الى تقليد الجهلاء الكفرة الأولين كما تقدم بيانه .

ويقال ثانياً : اذا كان الأمر كما تدعى فما هو السبب الذي رمى بك في أخضان الملاحدة وتقليدهم هذا التقليد الأعشى في كل ما قالوه حتى في أصل الأصول وحتى في أغصن الأشياء كسأله خلق العالم على التفصيل الذي ذكرته وفي نواميس الطبيعة وغير ذلك ، فقلدتهم وجمدت على كل ما قالوه جهوداً لم تسبق اليه ، فانك تقلدهم وتحتج بأقوالهم وتذم من خالفهم ، وما رأيتك تخالفت واحداً منهم كما أننا ما رأيتك وافقت واحداً من علماء الملة من أولهم الى آخرهم . أما المسلمون فقد علمت أنهم لا يقولون بالتقليد في أصول

الدين ، أما في بعض المسائل التي قد يخفى دليلها عند العامة أو غيرهم فهم قد يقلدون من أجمع المسلمون على هدايته ودرايته ، لأنه من أهل الذكر الذين قال الله فيهم ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾

ويحك يا بلعام زمانه ، أين من قلد الصحابة وأئمة أهل القرون المفضلة - مثل أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وأمثالهم ونظرانهم وأتباعهم كشيخ الاسلام ابن تيمية والامام ابن القيم والحافظ الذهبي ونور الدين الحنفي وأمثال هؤلاء الذين خدموا الاسلام الخدمة الصادقة بكل ما في وسعهم ، أين هؤلاء من ساداتك الذين قلدتهم تقليدا أعشى مثل غوستاف لوبون الذي نقلت عنه أن البشرية لم تستطع أن تخطو خطواتها الصحيحة إلا في عهود الوثنية وعبادة الأصنام ، وأمثال هذا عن لعنة الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ، وقل أن يوجد من هؤلاء أحد الا وكنه هو خدينه ومعبوده ، هؤلاء هم أئمتك ، فان الله تعالى لما مسح نفسك نفس خنزير كنت تكره الطيبات والطيبين وتبفر منها وترى بنفسك على الخبيثات والخبيثين وتكذب بذلك لأنها تلائم نفسك وتستريح بها . ودعواك أن من آثار ذلك التصديق بكل ما يقال ويسمع وينقل فهذا مما ينطبق عليك لأنك هكذا صدقت بكل ما يقوله الملاحدة ويسمع وينقل عنهم ، ولهذا لم تخالفهم في شيء مطلقا ، وأما المسلمون فانهم لا يصدقون إلا بما قام البرهان على صدقه لا بكل ما يقال ويسمع فان هذا كذب ظاهر . وقوله « غل العقل عن الفهم » يقال هو ذا أنت أيضا فانه من أدوائك القديمة العريضة ، وكفى بما نقلته من الهذيان وصدقت به ثم احتجت به في مسألة خلق العالم وغيرها شاهدا على غل عقلك عن الفهم والرشد ومعرفة الصواب

ثم قال « ولا يمكن أن تبلغ أمة من الأمم مبلغا من الحضارة والمدنية ما لم تشك وما لم تفهم ، فالشك والفهم شرطان ضروريان في تحصيل الحضارة والعلم

والقوة . والذي لا يعرف أن يشك لا يعرف أن يفهم ، والذي لا يعرف أنه يفهم لا يعرف أن ينبغ ويمتاز ،

فيقال : هذا ليس بصحيح ، بل هو باطل بهذا الاطلاق . أما أولا فان الحقائق وموضوعاتها مختلفة في الظهور والخفاء وقوة البرهان وضعفه ، فالحكم عليها كلها بالشك فيها باطل بالبداهة ، فان وضوح الدين والرسالة وصدقها ولزوم الخير فيها أمر أوضح من الشمس ، ومن شك في ذلك فهو كافر ، فمن شك في أصول الدين المعروفة من الدين بالضرورة فلا شك في كفره . ولو جاز الشك في كل شيء لوقع الناس في السفسطة ، فانها هي الشك في الحقائق الظاهرة ، فثبت فضيلة الصحابة وصدقهم ونصحهم للامة وسبقهم إلى الفضائل أمر واضح كالشمس ، فمن شك في ذلك فقد شك في الدين وهو كفر . فالحشك في مثل هذه الأمور كما أنه كفر فهو سفسطة ووسواس ، فان الشك في الأمور الضرورية كالشمس والنهار والليل وأمثال ذلك وسواس محريب فيه . ومن العجب أن أعظم الناس شكاً وربياً في أصول الدين هم أقرب الناس تصديقا بالمحالات ، واندفاعا إلى قبول كل ما يقال ويسمع عن ساداتهم وشيوخهم فالعلوم إما قطعية أو ظنية ، فالقطعي كالذي ذكرنا لا يجوز الشك فيه مطلقا ، ومن شك في ذلك فقد شك في الدين ، ولا يمكن أن تثبت حقيقة من الحقائق إلا ويرد عليها أعظم مما يرد على الحقيقة التي يريد إثباتها من التشكيك في الدين . وأما الأمور الظنية فهي مراتب كثيرة فهذه ينظر إلى أدلتها وبراهينها ، فما قام البرهان على صدقه فهو صدق وما قام البرهان على كذبه فهو كذالك ، وما بين ذلك فينظر إلى الدليل والترجيح كما هو مبين في مواضعه

ويقال ثانيا : أنت خالفت هذه الدعوى ، فانك لم تشك فيها ذكرته وكتبته ودعوت إليه بل جعلته حقائق أزلية ، ومعلوم أنه كله مجرد دعاوى ليس عليها أثارة من العلم ، بل البراهين الصادقة قائمة على تكذيبها ، ومع ذلك فلم تدع

للناس الى الشك فيها ، بل دعوتهم الى تصديقها واعتقادها والاخذ بها ، بل علق التهور على التمسك بها ، والسقوط على الاعراض عنها . وكذلك لم تشك فيما ذكره الملاحدة في مسألة خلق العالم وغيره مع أنه شيء بعيد دقيق غامض من عالم الغيب لا دراية لك به ، وقد دلت النصوص على خلافه ، ومع هذا قبلته وصدقت به واحتججت به وسفهت رأى من شك فيه وخالفه ، فأين الشك الذى تدعيه

لأنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك اذا فعلت عظيم
فأذن أنت لا تفهم لأنك لا تعرف أن تشك ، ولا تعلم لعدم وجود
الشرطين اللذين ذكرتهما ، فلا يمكن أن تنبغ أو تمتاز ، وهكذا كان الواقع ،
كما أن هذا الحكم إنما هو على رأسك

ثم إن الملحد أعاد كلامه فى التطور وقد سبق الكلام على ذلك مرارا
كثيرة فلا حاجة الى إعادته ، ولتكن تلك الجملة التى نقلناها عنه فى إنكار
التطور إنكارا باقا كافية فى بطلان كلامه كله فى ذلك

ثم استطرديستدل على أن هذه الدول تعتقد هذا التطور ، وأنها تقدمت
بسبب ذلك ، وبالع فى مدحها على ذلك ، ثم ختم هذا المبحث الخيى بـمسك
ختمه اللاتق به وهو الثناء العظيم على تشرشل وزير بريطانيا ، وأما الذين
حكوا الزعامة الدينية فقد عرف ما قاله فىهم فىما سبق ، فقال فى هذا الختام
اللاتق به :

« ولعل أعجب أسرار هذه المسألة وهذه الفكرة ^(١) إسقاط بريطانيا للرجل
الذى أعطاه النصر وانتزعه لها من لوات الهزيمة ، اذ لا شك أن الانجليز إنما
أسقطوا تشرشل لايمانهم بأن من الممكن أو من المحقق أن من سيخلفه سيجيئهم

بأفضل وأعظم مما يجيئهم به واهب النصر لو أبقوه مكانه . . . ولا ريب أن شعبا يعتقد هذه العقيدة في تشرشل وفي خلفه شعب يؤمن أشد الإيمان بالمستقبل وبالتطور وبأن المستقبل وأهله دائما أفضل وأكمل من الماضي وأهله . . . وإن شعبا ^(١) تقوده هذه الأفكار الجميلة لعسير جدا مباراته وإنزاله عن سلطانه الضخم الواسع . ولو أن رجلا كتشرشل كان لنا معشر المؤمنين بهذه الفكرة وأعطانا هذا الذى أعطى أمته لكان من المستيقن أن نعد من الجنون ومن الخيانة بل ومن الكفر بالله التفكير في إبعاده عن الحكم والقيادة ، ولكن من المستيقن أن هذا التفكير لا يمكن أن يصيب نجاحا لو أريد العمل به ، ولكن من المستيقن أيضا أن نعبده بعد وفاته عبادة تفوق عبادتنا لكل هؤلاء الأموات المتناثرين في أرجاء العالم الاسلامى عن عبدوا مجاننا لأنهم لم يصنعوا شيئا يستحقون عليه العبادة ^(٢) التى يخصهم ويقصدهم بها ملايين المسلمين العاكفين على الأضرحة وعلى الذكريات والأسماء ، بل صنعوا ما يستحقون عليه الرجم والتدمير والكفران الابدى ^(٣) ، انتهى . وهذه الآية من أطول آيات الحقائق الأزلية الابدية ، فهذا رأى هذا الرجل في أسباب تغيير وزارة تشرشل ، وهذا رأيه في أسباب انتصار بريطانيا بأنه بهذا السبب ، وهذا رأيه في كون عزل تشرشل دليلا على صحة عقيدة التطور على النحو الذى ذكره ، وفي صحة عقيدتهم هذه أيضا ، وهذا رأيه في توسع دولتهم وقوة سياستهم ، وهذا رأيه فينا معاشر المسلمين من سوء الظن والسخرية والاحتقار ، وهذا رأيه فينا

(١) لما كان يعلم ان دعايته في أغلاله دعاية بلشفية خبيثة جاء بهذه الجملة لإرضاء للانجليز لئلا يظنوه شيوعيا فيعرفوا مقاصده

(٢) يريد بالعبادة هنا تعظيم السلف والأخذ بأقوالهم ونحو ذلك

(٣) كيف يكون ما صنعه السلف وسائر الأموات من علماء المسلمين إنما هو شيء يستحقون عليه الرجم ؟ ألا قبحك الله وقبح من يفتر بكلامك

بأنه لم يوجد منا من هو مثل تشرشل ، وهذا رأيه فينا بأننا لو كان في أممتنا مثله لكنا نعبده عبادة زائدة عن العبادات فليست مثلها بل تفوق عليها ، فليس في المسلمين من أولهم الى آخرهم من يساويه أو يدانيه ، اذ لو وجد مثله لوجدت العبادة التي علقها على وجوده باليقين ، وتكون عبادة صحيحة لانها ليست مجافا ففعل عدم وجوده من نعم الله علينا لئلا نتخذ إلها آخر ، وهذا رأيه في السلف أو في علماء المسلمين الأموات والحاضرين ، فالأموات لم يفعلوا شيئا مثل فعل تشرشل فيستحقوا عليه العبادة ، بل كل أفعالهم التي فعلوها لا يستحقون عليها سوى الرجم من أجل اختلال شرط العبادة الذي هو فعل تشرشل ، أو التجديد الذي هو فعله هو في أغلاله ، فهم لم يفعلوا شيئا من هذا ولا هذا ، بل كل أفعالهم تلك الأفعال المعروفة المشهورة ليست بشيء ، فلا يستحقون عليها - على رأى هذا الرجل - سوى الرجم والتدمير ، فلا يكفي الرجم وحده بل ولا التدمير معه بل لا بد أن يضاف إلى ذلك الكفران الأبدى

تالله ان الانسان ليحار ويعجب كيف ذهبت الحماسة والشجاعة والغيرة الدينية وأخطأت هذا الملاحد الزنديق ، وكيف راجت هذه الفضائح والخازي المكشوفة على من يشم رائحة الاسلام . ولا نحتاج هنا الى تطويل التعليق على مثل هذه الجمل الخبيثة ، فان القارئ الذي يخفى عليه ما فيها من الخبيث والزندقة وسوء الطوية لا يفيد فيه إفهام ولا إرشاد ، بل لا بد أن يكون ميت القلب فاسد العقل جامد الذهن قد ختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فاني له الرشاد والتوفيق . وما أخلق هذا الملاحد بمن قال الله فيهم ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾

اختتم هذا المغرور هذه المباحث الخبيثة بهذا المبحث المتضمن رفض الدين ومناذره أهله والحث على تقليد الغربيين والانطلاق وراءهم في هذه المبادئ

الخدامة التي اتبعوها وذاقوا وبال أمرها فودوا لو أنهم جهلوا واستراحوا من توقع غوائلها وأخطارها المستهدفة كما صرح بذلك كثير من رؤسائهم وعقلائهم طاش عقل هذا المسكين وذهب به الغرور والزهو الى أقصى حد حينما قيل انه استحصل على شيء من المعرفة والمبادئ العلية ، ودفعه زيادة على ذلك ما سمعه من الإغواء والإغراء بمن غشه أو لم يعرف حقيقة أمره ومزاجه

فقد خيل اليه أنه ابتلع العلم كله بجميع فنونه ونواحيه ولم يبق لا أحد منه شيء ، فأخذ العلوم كلها وترك لغيره الجهالة والبلادة والغباوة كلها - فجئ جنونه * فغضب وهذى وذهب يشتم ويمقت ويتهم ويستهزئ ويعادى كل من خالفه أو أعرض عن قبول قوله ، بل فرض طاعته وتصديقه على الناس أجمعين

ولو كان له أدنى مسكة من عقل لم يذهب مندفعاً في هذه المهامه المهلكة سعياً وراء هذه الاوهام اللامعة والمظاهر الخداعة التي اغتر بها كل سخيف رأى وضعيف عقل ، بل كان من الواجب عليه أن يتبين ويتثبت ويسترشد حتى يعرف حقيقة الأمر كما عرفها العقلاء وكما ادعى معرفتها هو قبل ذلك

وقد تكلم كثير من علماء الشرق والغرب أيضاً وبينوا ما في هذه الحضارة الزائفة المدخولة التي أعجب بها هذا وأمثاله من ضعفاء العقول من القلق والفساد والانحلال المادى والمعنوى ، وكما ظهر بالمشاهدة في كثير من شعوبها الدمار والانهار الفظيع ، وأصبح الباقون في أشد حالة خطرة ، كل ذلك بأسباب هذه المادية التي فتنوا بها وعبدوها كما نقل الاستاذ محمد عبده في (تفسير سورة العصر) عن ما كس نوردو الشهير في كتابه المسمى (الاكاذيب العرفية لتمدننا الحديث) قال الاستاذ : ان ما يرى في بعض الأمم من ظواهر السعادة ليس إلا لمعان السراب ، حتى اذا جاءه وحقق أمره لم يجد شيئا . وقال ما كس نوردو أيضاً في كتابه المذكور ما معناه : ان للناس كلنا ولم يزلوا يطلبون الحلق ، ولم يكونوا في زمن أبعد عنه منهم في هذا الزمان . ثم قال ما ترجمته :

انك لو طرقت أى باب تسأل هل مرت السعادة بهذا البيت ، لا جابك مجيب :
إذا شئت فاطرق بابا آخر ، فإن السعادة لم تمر ببیتنا . وقال جود الانكليزى (١)
رئيس قسم علوم النفس والفلسفة باحدى كليات جامعة لندن : «إن الاوربيين
قد فقدوا تعادل القوى والأخلاق ، والتوازن بين العلم بظاهر من الحياة الدنيا
وبين الدين منذ قرون ، فلم تزل القوة فى أوربا بعد النهضة الجديدة ولم يزل العلم
ينمو على حساب الدين والأخلاق ، ولم يزل ذاك فى ارتفاع وهذان فى
انخفاض وانحطاط ، حتى بعدت النسبة بينهما ، ونشأ جيل كأنه ميزان اصقت
إحدى كفتيه بالأرض ثقلا وهى كفة القوة والعلم ، وخفت الثانية كفة
الأخلاق والدين حتى ارتفعت هذه الثانية جدا ، فبينما يترامى هذا الجيل للناظر
فى خوارقه الصناعية وعجائبه الكونية وتسخيرهِ للمادة والقوة الطبيعية لمصالحه
وأغراضه كأنه فوق البشر ، فإذا هو لا يتميز فى أخلاقه وأعماله وفى شرهه
وطمعه وفى طيشه ونزقه وفى فسوقه وظلمه عن البهائم والوحوش ، ثم أطال فى
ذلك . وتقدم ما قاله شيلر الالماني الشهير : بدأت الجماعات تهوى وتنحل خلقيا ،
والخلق هو رباط المجتمع السليم ، وليس أدل على ذلك من انتشار دور الرقص
والملاهى المبتذلة وتفشى الآراء المتطرفة المادية الخ . وقال السيد المودودى (٢)
ظهرت الحضارة الغربية فى أمة لم يكن عندها معين صاف ولا نبع عذب للحكمة
الالهية ، لقد كان فيها قادة الدين ، ولكن لم يكونوا أصحاب حكمة ولا علم ولا
شريعة إلهية ، لم يكن عندهم إلا خيال دينى لو حاول أن يسير بالنوع الانسانى
على صراط مستقيم فى طرق الفكر والعمل لما استطاع . ثم ذكر أن هذا هو
السبب فى نبذهم الدين . الى أن قال : وجدوا المخلوقات مسخرة فاستخدموها

(١) نقله فى (الشواهد) ص ٦٥

(٢) ذكره فى (الشواهد) ص ٧٢

لاغراضهم ، وجهلوا انهم ليسوا سادتها ومدبريها ، وانما هم خلفاء سيدها الحق ، فلم يروا أنفسهم مسئولين عنها ولا عليهم تبعات وحساب ، فزاع أساس مدينتهم وتهذيبهم ، وانحرفوا عن عبادة الله الى عبادة أنفسهم واتخذوا لهم هواهم ، وفتنتهم عبادة الهوى ، فساروا بهذه العبادة في كل ميدان من ميادين الفكر والعمل على طرق شتى وسبل متفرقة خلاصة رائعة ، ولكن مصيرها الى الهلاك . هذا هو الذى مسخ العلوم الطبيعية فصارت آلة لهلاك الانسان ، ضاعت الاخلاق في قالب الشهوات والرياء والخلاعة والاباحة ، وتسلبت على العيش شيطان الأثرة والشح والفتك بينى الانسان ، ودس في عروق المجتمع وشرابينه سموم عبادة النفس والانانية والإخلاق الى الرفاهية والتنعيم ، ولطخ السياسة بدمرة الجنسية والوطنية وفروق الألوان والأجناس وعبادة القوة وتآليهها والتغنى بها وجعلها هدف الانسانية الاكبر . وبالجملة ان البذرة الخبيثة التى ألقيت فى تربة أوروبا ونهضتها الأخيرة نبتت منها درحة خبيثة أثمرت ثمرات يانعة سامة ، وأزهرت أزهارا بهيجة شائكة : فروع خضراء تنفث غازا ساما لا يرى ، ولكنه يسمم دم النوع البشرى . وغارسو هذه الشجرة الخبيثة من الغرب قد مقتوها وأمسوا يتذمرون منها ، فقد خلفت فى كل ناحية من النواحي مشاكل وعقد عجزوا عن حلها ، وما حلوا عقدة إلا ظهر غيرها ، ولا قطعوا فرعاً إلا نبتت فروع شائكة أخبت منه ، فهم فى معالجة أدوائهم وإصلاح شؤونهم كعلاج الخمار بالخمير ، ومداوى الادمان بالمداومة عليه ، وكناقش الشوكة بالشوكة التى تنكسر مع أختها . عالجوا الرأسمالية الظالمة بالاشتراكية المتطرفة ، حاولوا استئصال الديمقراطية الزائفة فنبتت الدكتاتورية المستبدة الخائفة ، أرادوا أن يحلوا مشاكل الاجتماع فنبتت حركة (تذكير) النساء وحركة منع الولادة ، أرادوا تشريع قوانين الاستئصال المفسد الخلقية فهاجت حركة العصيان والجنايات ، فلا ينتهى شر إلا بولادة شر ، ولا فساد إلا الى فساد أكبر منه ، ولا تزال هذه الشجرة تثمر لهم شرورا ومصائب

حتى صارت الحياة الأوروبية جسدا مقروحا متسما يشكو كل عضو منه
أوجاعا وأوصابا، وأعيا الداء أطبامه، واتسع الخرق على الراقع : الأمم
للغربية تتمثل ألما بقلوب مضطربة وأرواح متعطشة الى ماء الحياة ، ولكنها
لا تعلم أين معين الحياة اه

وكلامهم في هذا كثير جدا ، حتى أن لوبون الخيث الذي يعظمه هذا
الملحد قال في كتابه (حضارة العرب) : « وتعانى مجتمعاتنا تحولا بعيد المدى
في الوقت الحاضر ، وقد قلبت مبتكرات العلوم الصناعية كياننا المادي والأدبي
رأسا على عقب ، ويقاسى الغرب خلافا شديدا في مجتمعه ، ويكابد في سبيل
معالجة الشرور التي نشأت من ذلك الخلاف أزمة عامة تسوقه باطراد الى
تبديل نظمه ، ويتن من عدم الانسجام بين المشاعر والمعتقدات الجديدة ، الخ .
فهذا كلام طاغوته ، وإذا اعترف الخصم فلا حاجة الى الدليل عليه ، فهلا تداوى به
من إلحاده الذي قلده فيه (كما يتداوى شارب الخمر بالخير) . وبما وقع في الغرب
كأمريكا وأوربا وغيرهما من الفساد والدمار يعرف الحكمة في اختصاص الشرق
بأنزال الكتب وإرسال الرسل المشهورين ، لانه أقبل لها ، فلهذا أخذوا بها
وعملوا بها مئات السنين ، وأما هؤلاء فإن الله أنعم عليهم بما به يعرفون الدين
والكتب ودعوة الرسل ، ولكن لم يقبلوا ذلك ولم يكونوا كأهل الشرق ، وقد
قامت عليهم الحجة لئلا يقول قائلهم حينما يرون ما يوعدون ﴿ ربنا لولا
أرسلت إلينا رسولا لفلان فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونغزى ﴾ كما نبهنا على هذا
فيما مضى والله اعلم

الحكام على خلاصة كتابه

عنوانها في أغلاله :

(المشكلة التي لم تحل)

وقد جعل هذه (الخلاصة) هي حاصل ما ذكره في كتابه من أوله إلى آخره ، وقد تبين لك بما سبق أن هذا الرجل افتتح كتابه بمدحه وتعظيمه ، مدعياً أن هذه الأفكار من الحقائق الأزلية الأبدية لا تأخذ به أمة إلا نهضت ولا تتركه أمة إلا هوت وإن يستغنى عنه مسلم . فقد افتتح هذا الكتاب بهذه الدعوى ، واختتمه مدعياً أن خلاصته مشكلة لم يوجد لها حل إلى اليوم ، فكان حاصل الكتاب الوقوع في الشك والريب والحيرة . ولا تنس أن هذا الرجل نفسه افتتح المبحث الثاني الذي هو في الحقيقة أول مباحث الكتاب المقصودة بما نقله عن الزمخشري والرازي وابن أبي الحديد في تلك الآيات ، وتهكم بهم ويعلمهم ، ونسبهم إلى الجهل والضلال ، وسخر منهم غاية السخرية حيث أخبروا بأن غاية ما وصلوا إليه من أمرهم الحيرة وعدم الحصول على الحقيقة . فها هو قد وقع في ما هو أعظم وأدهى وأطم بما وقعوا فيه ، فانه جعل حاصل هذا الكتاب الذي وصفه بما تقدم مشكلة حقيقية كبرى لم يوجد لها حل إلى اليوم : ومن العجائب والعجائب جمة أن يلهج الأعمى بعيب الأعمش قال :

(المشكلة التي لم تحل)

• يتبين للقارئ إذا كان قد قرأ فصول هذا الكتاب كلها ، أن أساس هذه المراتق الفسكورية قائم كله على التدين الباطل ، أو على الفكرة الدينية من حيث هي . فالمشكلة التي ما أظن أحداً درسها دراسة صحيحة وافية هي أن فكرة

المتدين قائمة على الايمان بسبب ترجع اليه جميع الاسباب ، لانه هو خالقها ،
المهيمن عليها ، المتصرف فيها كيف شاء ، وهذا السبب الذى هو سبب الاسباب
- أى الله ، على اختلاف كبير بعيد بين أصناف المتدينين فيه وفى حقيقته (١) -
لا يحتاج هو الى سبب فى وجوده وقيامه بنفسه وفى فعله وصنعه . فاذا وصلوا
الى الايمان بهذا السبب والى الايمان بقدرته الكاملة التى لا يعجزها شيء ولا
ينفذ عن سلطانها وقبضتها أمر ، شكوا فى الاسباب الأخرى التى هى دونه ،
والتي هى من خلقه وصنعه . وإذا ما صاروا الى هذا الشك فى الاسباب تراخوا
فيها وفى الأخذ بها ، وفى العمل على انقائها والتعويل عليها ، وحينئذ تصاب
قواهم كلها بالضعف وبالعجز عن الابداع والتبريز وعن الانتاج والعمل البارع
العظيم . فان الانسان ان يكون سببيا محضا إلا إذا آمن بأن هذا الوجود
مربوط بأسباب آلية طبيعية ، تسير الى نهاياتها ونتائجها سيرا آليا طبيعيا ،
ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها أو أن تتحكم فى نهايتها (٢) . وهو - أى
الانسان - ان ينجح النجاح المرجو إلا إذا كان سببيا محضا . فالإيمان بسبب
الاسباب يمنعه - على حسب ما تصور وبلغ - من أن يكون سببيا ، وعدم
كونه سببيا يمنعه من النجاح . هذا هو كل ما استطاعت مدارك البشر الدينية

(١) ذكر الاختلاف فى صفته هنا - كلام ساقط لا محل له ، لأن الكلام هنا فى
التصرف المطلق وهو مجمع عليه بين أصناف المتدينين له

(٢) تقدم قوله : وهذه الآراء مصدرها كلها هذه الفكرة الباطلة ، وهى فكرة
إنكار الاسباب أو التهورين من شأنها أو الاعتقاد أن الله يفعل بدونها أو يدخل
بينها وبين مسبباتها ويحول بينها وبين نهاياتها . . وتقدم تصريحه أيضا بأن غضب
الله ورضاء وسخطه وحميه وبغضه لا دخل له فى الاسباب مطلقا ، لجحد الله من
النصرف مطلقا ، وجعل النواميس هى التى تدبر أمر العالم باستخدام الانسان لها
بذاته بدون حدود ولا قيود

أن تبلغ وأن تعرف . تلك لعمر الله هي المشكلة الحقيقية الكبرى التي لم يوجد لها حل الى اليوم .

هذا شرحه للدين الباطل والفكرة الدينية من حيث هي التي هي أساس هذه المزالق الفكرية التي ذكرها ، وهو أن الدين الباطل عتسه أو الفكرة الدينية مطلقا — أي من حيث هي كما ذكر — هي أن يؤمن الانسان بالله وبقدرته الكاملة المتصرف في هذا العالم ، فإذا آمن الانسان بهذا كان على دين باطل ولن ينجح ، لأن إيمانه هذا يمنعه أن يكون سببيا والسببي هو الذي لا يؤمن هذا الايمان ، بل يؤمن بأن قدرة الله لا تدخل بين الأسباب ومسبباتها ، ولا يمكن أن تحول بينها وبين نتائجها . فالمصيبة التي أصابها المسلمين أو المتدينين وحاقت بهم — على ما زعم — هو ايمانهم بالله الذي هو سبب الأسباب ، فأن إيمانهم به أوجب لهم الايمان بقدرته الكاملة وأنه المتصرف في الأسباب كلها كيف شاء ، فلا يعجزه شيء ولا يند عن سلطانه أمر ، فلما آمنوا به آمنوا بعموم قدرته ومشيئته فكانوا غير سبيين ، ومن كان غير سببي فأن ينجح ، لأن النجاح إنما يكون للسببي المحض ، والسببي المحض هو المؤمن بأن الوجود كله مربوط بأسباب آلية طبيعية تسير الى نهاياتها وتنتجها سيرا آليا طبيعيا ليس للقوة من القوى أن تقف في سبيلها أو أن تتحكم في نهاياتها . فهذا الايمان يقتضي مع الايمان بالقدرة الكاملة والمشيئة العامة المتصرفه في الاسباب . فالمتدين أقصد على نفسه النجاح حيث كان مؤمنا بكون القدرة والمشيئة لها سلطة على الاسباب بالوقوف بينها وبين مسبباتها والتحكم فيها ، ولهذا صار غير سببي ، فلا بد له من التأخر ، كما ان السببي لا بد له من التقدم . فالانسان الذي يريد النجاح لا بد له من الكفر بقدرة الله وقصره في الاسباب ليكون سببيا محضا ، لأن السببي المحض هو الذي ينجح . هذا حاصل كلامه بل صريحه في هذه الجملة بل في الكتاب كله . وسر المسألة أنه لا بد من طلب النجاح ، وطلب النجاح إنما

يكون حاصل السبب المحض الذي لا يؤمن بالقدرة والمشيئة المتصرف في الأسباب ، بل يؤمن بأن هذا الوجود مربوط بأسباب آلية طبيعية ليس لقوة من القوى أن تقف في سبيلها . فإذا آمن الذي يطلب النجاح هذا الايمان فانه يكون سبباً يمكنه النجاح ، بخلاف ما لو آمن بالقدرة والمشيئة وأنها تقف في سبيل الأسباب أو تتحكم في نهاياتها فان إيمانه هذا الذي تصوره بمنعه من النجاح ، فكان لا بد من الكفر بالقدرة والمشيئة التي تقف في سبيل الأسباب . وكفره بالقدرة والمشيئة مشكلة لا يمكن أن تتفق مع الايمان بالله ، فلا بد أيضاً من الكفر به تعالى ، لأنه صرح فيما يأتي قريباً بأنه لا إله إلا فعل ، وأن الاقرار بأفعاله يوجب الاقرار بالتصرف ، وهذا يوجب للانسان بأن لا يكون سبباً ^(١) كما يأتي ، ولأن الاله الذي لا فعل له ولا يتصرف في مخلوقاته إما معدوم أو عاجز ، وهذا حقيقة كلامه بل صريحه . وهذا القول مع كونه كفراً صريحاً غليظاً أشنع من كفر المشركين واليهود وغيرهم ، فهو تقرير ساقط بالمرة ، وسقوطه ظاهر بالشرع والعقل والحس والضرورة والاستقراء أما كونه كفراً ظاهراً فانه مصادم للشرائع السماوية كلها ، فانها متفقة على عموم قدرته تعالى ومشيتته وتديره خلقه وتصرفه فيهم كيف شاء ، وأنه يبيده ملكوت كل شيء ، وما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، وأنه يعز من يشاء ويذل من يشاء ، ويبسط الرزق لمن يشاء ، ويمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ، وأنه يدبر الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج اليه ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وكل الأسباب خاضعة له جارية تحت إرادته لا يعجزه شيء من جميع ما خاق يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، ولهذا كان كل من أقر بالله تعالى أقر بذلك وأقر بتصرفه ومشيتته العامة وأنه لا يسأل عما يفعل وهم

(١) أي فيكون متأخراً

يسألون . ولكون الايمان بهذا بديها لكل من آمن به تعالى فقد أقر به حقه عبدة الأوثان الذين يتقربون بعبادتها اليه زلفى لوضوح هذا الامر وجلالته .
وأما مخالفته للعقل والضرورة (١) فإنه يمتنع الايمان بالله والكفر بقدرته ومشيتته وتصرفه في الأسباب ، فإن الايمان به على هذه الصفة من جنس الايمان ببعض الأوثان العاجزة ، وكل الناس يعلمون من غير أدنى شك بالعقل والحس والضرورة والاستقراء أن الرسل أعظم ايمانا بالله تعالى ومشيتته العامة وقدرته الكاملة ، وقد نجحوا في كل مطالبهم ، ونصرهم الله على أعدائهم المعتمدين على الأسباب المادية كما قال تعالى ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون ﴾ وهذا نص قاطع على أن الله قد نصر رسله وجنده كلهم ، وأن النصر لا بد أن يكون في جانبهم ، وهكذا كان الواقع . ولا يرد على هذا أن بعض الأنبياء والصالحاء قتل ، فإن وجود قتل بعض منهم لا ينافي نصر الله لهم ، فإن الله ينتقم ممن فعل ذلك بهم سريعا وينصر أعوانهم وأتباعهم ويجعلهم فوقهم وأولئك تحت أقدامهم فيكونوا هم الغالبين كما قال تعالى ﴿ انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ فهذا نص صريح في أنه سبحانه ينصر رسله في الحياة الدنيا وفي الآخرة . ألا ترى أن اليهود عليهم لعائن الله لما قتلوا بعض الأنبياء ظلما وعدوانا اذهم الله وضرب عليهم الذلة والمسكنة آلاف السنين ، وكانوا تحت أقدام أتباع الأنبياء ، مع أنهم بذلوا غاية جهدهم في هذه العصور الطويلة للخلاص مما هم فيه من الازلال والاهانة فما حصلوا على شيء ، وقد

(١) بل كثير من علماء المادة والطبيعة المشاهير اليوم معترفون بأن قانون السببية قد أصبح غير حتمي كما قرره جيمس الانجليزى وشيلر الالماني وغيرهما . فهو كما أنه خالف الأديان كلها فقد خالف أكثر علماء الطبيعة الذين يسبح بحمدهم ويقدمهم ، فكان مذبذبا في كل نظرياته

حاولوا قتل عيسى عليه السلام واهانته وإهانته أتباعه من الخواريين وغيرهم فما حصل لهم غير عكس ما راموا ، كما قال تعالى ﴿ يا عيسى إني متوفيك ورافعك عني ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيمة ﴾ وهكذا كان الواقع . وكذلك لا يقال إن المجوس انتصروا على عمر بن الخطاب لما قتله أبو لؤلؤة حسدا وبغيا وعدوانا ، ولا يقال أن أولئك البغاة الذين قتلوا عثمان رضى الله عنه انتصروا ، فإن الله عاملهم بنقيض قصدهم فاذلهم وبدد شملهم ونصره الله عليهم فانتقم منهم بأبغض شيء إليهم وهم عصبة عثمان ، وقد كان هؤلاء الذين خرجوا عليه وقتلوه إنما قصدوا نقل الخلافة منه لتكونه من بنى أمية إلى علي بغيا وعدوانا لا لغير ذلك ، فعاملهم الله بنقيض قصدهم بأن قديم بالسبب الذي فروا منه ، فولى بنى أمية عليهم وجعلهم تحتهم يستؤمنونهم سوء العذاب حتى هلك ذلك الجيل كله عن آخره فكان هذا الخليفة الراشد منصورا وإن كان مقتولا ، وهكذا كل نبي وصالح . قال شيخ الاسلام ابن تيمية (١) ، فإن قيل : ففي الانبياء من قتل كما أخبر الله تعالى أن بنى اسرائيل يقتلون النبيين بغير حق ، وفي أهل الفجور من يؤتيه الله ملكا وسلطانا ويسلطة على المتدينين كما سلط بخت نصر على بنى اسرائيل ، وكما سلط كفار المشركين وأهل الكتاب أحيانا على المسلمين ، قيل أما من قتل من الانبياء فهم كمن يقتل من المؤمنين في الجهاد شهيدا . قال تعالى ﴿ وكأين من نبي قتل ﴾ معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين . وما كان قولهم الا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن

(١) أى في (الجواب الصحيح في الرد على المضاري) ج ٤ ص ٢٦٦

(٢) كذا نقالة الشيخ ، وهي قراءة مشهورة ، وإن كانت الأشهر ، قائل ، كما في

ثواب الآخرة والله يحب المحسنين) ومعلوم أن من قتل من المؤمنين شهيدا في القتال كان حاله أكمل من حال من يموت خنفاً أنه ، قال تعالى ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ﴾ أي إما النصر والظفر وإما الشهادة والجنة . ثم الدين الذي قاتل عليه الشهداء ينتصر ويظهر فيكون لطائفته السعادة في الدنيا والآخرة ، من قتل منهم كان شهيدا ومن عاش منهم كان منصوراً سعيداً ، وهذا غاية ما يكون من النصر ، اذ كان الموت لا يد منه ، فالموت على الوجه الذي تحصل به سعادة الدنيا والآخرة أكمل بخلاف من هلك هو وطائفته ولا يفوز لا هو ولا هم بمطلوبهم لافي الدنيا ولا في الآخرة . والشهداء من المؤمنين قاتلوا باختيارهم وفعلوا الأسباب التي بها قتلوا كالإمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهم اختاروا هذا الموت ، إما أنهم قصدوا الشهادة وإما أنهم قصدوا ما به يصيرون شهداء ، عالين بأن لهم السعادة في الآخرة وفي الدنيا بانتصار طائفتهم وبقاء لسان الصديق لهم ثناء ودعاء ، بخلاف من هلك من الكفار فأنهم هلكوا بغير اختيارهم هلاكاً لا يرجون معه سعادة الآخرة ، ولم يحصل به لهم ولا لطائفهم شيء من سعادة الدنيا ، بل اتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيمة هم من المقيوحين . وقيل فيهم ﴿ كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين ، فما يكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾ وقد أخبر سبحانه أن كثيراً من الأنبياء قتل معه ربيون كثير أي ألوف كثيرة ، وأنهم ما ضعفوا ولا استكانوا لذلك بل استغفروا من ذنوبهم التي كانت سبب ظهور العبدو ، وأن الله آتاهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة . فاذا كان هذا قتل المؤمنين فما الظن بقتل الأنبياء ، ففيه لهم ولاتباعهم من سعادة الدنيا والآخرة ما هو من أعظم الفلاح ، وظهور الكفار على المؤمنين أحياناً هو بسبب ذنوب المسلمين كيوم أحد ، فإن تابوا وانتصروا على الكفار وكانت العاقبة لهم . كما

قد جرى مثل هذا للمسلمين في عامة ملاحمهم مع الكفار ، وهذا من آيات النبوة وأعلامها ودلائلها ، فإن النبي إذا قاموا بعهوده ووصاياهم نصرهم الله وأظهرهم على المخالفين له ، فإذا ضيعوا عهودهم ظهر أولئك عليهم ، فمدار النصر والظهور مع متابعة النبي وجودا وعدما من غير سبب يزاحم ذلك ، ودوران الحكم مع الوصف وجودا وعدما من غير مزاحمة وصف آخر يوجب العلم بأن المدار علة للدائر . وقولنا من غير مزاحمة وصف آخر ، يزيل النقوض الواردة . فهذا الاستقراء والتتبع يبين أن نصر الله وإظهاره هو سبب اتباع النبي وأنه سبحانه يريد إعلاء كلمته ونصره ونصر أتباعه على من خالفه ، وأن يجعل لهم السعادة وللمن خالفهم الشقاء . وهذا يوجب العلم بنبوته وأن من اتبعه كان سعيدا ومن خالفه كان شقيا . ومن هذا ظهور بخت نصر على بني إسرائيل ، فإنه من دلائل نبوة موسى ، إذ كان ظهور بخت نصر إنما كان لما غيروا عهود موسى وتركوا اتباعه فعوقبوا بذلك ^(١) وكانوا إذ كانوا متبعين لعهود موسى منصورين مؤيدين كما كانوا في زمن داود وسليمان وغيرهما ، قال تعالى ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلمن علوا كبيرا ، فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا ، ثم ردنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا ، إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها ، فإذا جاء وعد الآخرة ليسووا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا ، عسى ربكم أن يرحكم ، وإن عدتم عدنا ﴾ فكان ظهور بني إسرائيل على عدوهم تارة وظهور عدوهم عليهم تارة من دلائل نبوة موسى

(١) كما جرى لهذه الأمة ، فإنها لما كانت مستمسكة بالدين ولا سيما في الأصول كانت على غاية من العزة وضخامة الشأن ، فلما أن تغيرت حالتهم في زمن المأمون وما بعده بدأ الضعف فيهم كما في الحديث « لتتبعن سنن من كان قبلكم »

ﷺ وآياته ، وكذلك ظهور أمة محمد ﷺ على عدوهم تارة وظهور عدوهم تارة هو من دلائل رسالة محمد وأعلام نبوته ، وكان نصر الله لموسى وقومه على عدوهم في حياته وبعد موته كما جرى لهم من يوشع وغيره من دلائل نبوة موسى ، وكذلك انتصار المؤمنين مع محمد ﷺ في حياته وبعد مماته مع خلفائه من أعلام نبوته ودلائلها ، وهذا بخلاف الكفار الذين ينصرون على أهل الكتاب أحيانا ، فإن أولئك لا يقول مطاعهم إنى نبى ولا يقاتلون أتباع الانبياء على دين ولا يطلبون من أولئك أن يتبعوهم على دينهم ، بل قد يصرحون بأننا إنما نصرنا عليكم بذنوبكم ، وأن لو اتبعتم دينكم لم ننصر عليكم . وأيضا فلا عاقبة لهم بل الله يهلك الظالم بالظالم ، ثم يهلك الظالمين جميعا . ولا قتلهم يطلب بقتله سعادة بعد الموت ، ولا يختارون القتل ليسعدوا بعد الموت . فهذا وأمثاله مما يظهر به الفرق بين انتصار الانبياء وأتباعهم وبين ظهور بعض الكفار على المؤمنين وظهور بعضهم على بعض ، انتهى

قلت : وجميع الرسل الذين قص الله علينا ما جرى بينهم وبين قومهم في القرآن العزيز قد نصرهم الله كنوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم . ومن المعلوم الذى لا ريب فيه أن الحضارة والملك منذ آلاف السنين كانت في أيدي المتدينين المقربين بالرسول ، وهى الآن تحت من كان لهم أصل عريق في الديانات ، وإن كان فيهم الآن من ليس متدينا ، فإن الأسباب الأولية التى أهلتهم للمعرفة في هذه الأمور كانت مأخوذة في أزمنة التدين مقتبسة منها . وهذا الملاحظ نفسه قد اعترف اعترافا ظاهرا في نبذته الهوجاء (كيف ذل المسلمون) بأن أوربا لم تأتها هذه الحضارة وتقتبس هذه العلوم التى هى عليها الآن إلا من تعاليم الاسلام ومن المسلمين الذين خالطوهم في أوربا ، ومعلوم أن أولئك المسلمين كلهم مقرون بالقسوة والمثيثة العامة ودخولها في الأسباب والمسببات ، ومع هذا حصل النجاح . بل

هو نفسه ذكر فيما مضى أن المجردين من الدين يبقون على طباعهم الخبيثة من الجهالة والظلم والعدوان المطلق ، فإذا كان المجرد من الدين يبقى كذلك فكيف يحال أن المتدين لا بد أن يكون غير سبي والنجاح إنما يكون للسبي المحض ، وصرح هذا أن الملحد هو الذي يعتقد أن الوجود مربوط بأسباب آلية طبيعية ليس لقوة من القوى أن تقف في سبيلها ، فإن هذا هو اعتقاد الملحد بخلاف المتدين فإنه لا يعتقد هذا أبدا كما اعترف هو بذلك فيما يأتي بأنه لا إله بلا فعل ، وإثبات الفعل يقضى للإنسان بأن لا يكون سبيا ، وقد قدمنا غير مرة أن الإيمان بالأسباب بكونها آلية طبيعية ليس لقوة من القوى أن تقف في سبيلها أكبر مصيبة وأعظم مخذل للقوى ومضعف لها ، ولا يمكن بحال أن ينجح من هذا اعتقاده ، لأن هذا الوهن العظيم والعائق الأكبر لابد أن يضطر صاحبه إلى الإيمان بالمخلوقات العاجزة التي يشاهد عجزها في نفسه وفي غيره فيكون ضميره قلقا حائرا ، فإن هذه الأسباب المحدودة الضئيلة التي هي غير مضبوطة له وهي مشتركة بينه وبين عدوه ، وقد آمن بأن عدوه يقدر على مثل ما يقدر هو عليه لأنه مؤمن بأن جنس الإنسان يعلم كل شيء ويقدر على كل شيء ، وهذا يوجب أحد أمرين : الأول إتلاف النفس في العمل إما اختيارا أو اضطررا ، فالاختيار قل أن يفعل من فيه حياة صحيحة ، ولا سيما إذا كان يرى أن أكبر مصلحة عمله لغيره كرئيس ونحوه ^(١) وأما الاضطرار فلا يخفى ما فيه من الاستعباد وقتل الذهن والجريه والتفكير الصحيح . والامر الثاني يوجب رفض العمل رأسا ، ولا سيما إذا كان في شعب صغير قد استولى عليه شعب أو حكومة أكبر منه ، لأنه قد آمن بأن القوة الكبرى تغلب الصغرى حتما ، وآمن بأن عدوه سيعمل أضعاف ما يعمل هو ، فملا فائدة حيثئذ في

(١) وربما كان أكره الناس إليه ذلك الرئيس أو الرؤساء الذين أجبروه على العمل لمصلحتهم

العمل ، بل قد يختار أن يغتنم حياته في الفرح والمرح واللذات العاجلة ولا يتلف قواه في عمل نفعه لغيره ، وهذا بخلاف الدافع الديني الذي يعتقد صاحبه أن الأسباب مربوطة بنتائجها والوسائل بغاياتها وأن الله يفعل بالأسباب وقد أمر بالإخذ بها والاعتماد عليه تعالى وأنها كلها تحت مشيئته وقدرته فهو القادر على نصره وتأنيده وتوقيفه وإذلال عدوه وقيمه وإفساد أعماله متى نصح الجليل معه ، معتقدا أن عمله لا يذهب سدى : إما السعادة ، وإما الشهادة . فعمله كله خير له وكله طاعة وكله مثاب عليه ، فمن كان هذا هو اعتقاده فانه حقيق أن ينجح وحقيق أن يوفق وحقيق أن يواصل السير في عمله بقوة ونشاط ، ولا بد أن تكون له العاقبة الحيدة

ودعواه أن هذه مشكلة حقيقية كبرى لم يوجد لها حل الى اليوم ، يقال له : من المحال أن تكون هذه الفكرة مشكلة كبرى لم تحل ولا يذكرها أحد من الناس غيرك ، فان من المعلوم الذي لا يستريب فيه من له مسكة من عقل أنها لو كانت مشكلة لذكرها أحد من الناس على اختلاف أصنافهم منذ آلاف السنين ، فمن هو الذي أشكلت عليه غيرك . وهذا برهان ظاهر على أنها من أوضح الواضحات ، وان وضوحها عند الناس أوضح من الشمس ، حتى السوفسطائية الذين يغالطون في الحقائق لم يجعلوها مشكلة كبرى . وكيف تكون مشكلة كبرى ويسكت عنها الملايين وملايين الملايين آلاف السنين وهم سائرون عابها حاكين بها على كثرة أعمالهم ، حتى أن المختلفين في الصفات مقررون بها ، فالناس إما ملحد زنديق منكر لها رأسا ، وإما مقرر بها . أما كونها مشكلة فانما يكون هذا فيمن كانت نظريته مقلوبة في معرفة الحقائق ، وكان مخالفا للناس في كل نظرياتهم مثلك ، فمن كانت هذه حاله فخليق به أن تشكل عليه ، لغاظ حجاب قلبه ، وانطاس بصيرته وقوة ظلمته . ولقد كان من الواجب المفروض عليك أن تستفي فيها اذا كانت مستشكلة عليك . أما كونك تذهب الى مشكلة

حقيقية كبرى عندك فتبنى عليها كتابا طويلا وتدعى أنه حقائق أزلية أبدية وأن النهوض موقوف على الأخذ به والسقوط موقوف على تركه وأنه لن يستغنى عنه مسلم ، فهذا من أخبث ما يفعله الانسان وأشنع ما يضل به غيره ولا غرابة في من سقط على أم رأسه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة أن يذهب الى أوضح شيء في الدنيا كلها بأسرها وهو الايمان بالله تعالى وبقدرته ومشيتته العامة والعمل مع ذلك والنجاح فيه فيدعى أن ذلك مشكلة كبرى لم يوجد لها حل الى اليوم ، فان الاعمى الذى فى غاية الظلمة المحجوب بالحجب الكثيفة لا يرى الشمس صحوا وسط النهار ، وهكذا أعمى البصيرة مظلم القلب المحجوب بحجب الضلالات لا يرى الحقائق السافرة التى هى فى الوضوح والجلال كذلك ، لجميع المسلمين بل وغيرهم من أهل الاديان من عالم وعامى من سائر الأصناف يعمل ويسعى جاهدا جادا فى عمله فى زراعته وصناعته وتجارته وسائر أمور معيشته وأكثرهم ينجح فى عمله ، واذا عدم النجاح عرف أنه من سبب غير هذا الايمان ، فأدنى إنسان من عامة المتدينين يؤمن بالله وقدرته ومشيتته العامة يجد فى عمله ولا يوهن هذا الايمان شيئا من عمله البتة . ولو أن هذا الذى ذكره قد خطر على بال أحد من الناس لسأل عنه ، وكيف يخطر على بال من له عقل أن الايمان بالقدرة والمشيئة يوجب عدم النجاح ، وأن الكفر بذلك يوجب النجاح . وكل عاقل يرى هؤلاء الناس على اختلاف طبقاتهم يسعون سعيا حثيثا فى طلب حاجاتهم سواء أكانت مشروعة أو مباحة أو محرمة موقنين بالنتيجة تحت المشيئة ولا أوهن هذا الايمان عزائمهم ، بل منهم من هلك من شدة اجتهاده وحرصه على العمل مع ايمانه هذا ، ولا يمكن لأحد أن يجد فرقا بين هؤلاء العاملين من أشعرية ومعتزلة وغيرهم فى هذه الاعمال التى يحاولونها مع اختلافهم فى تعلق الاسباب بمسبباتها

وعما يبطل هذه الدعوى من أصلها أن اجتهد الانسان وحرصه في عمله أو تراخيه أو وهنه فيه ليس منشأه الايمان بقدره الله ومشيتته ، بل منشأ ذلك هي العوامل الغريزية بحسب الدواعي من الحب والبغض ونحو ذلك ، فان الانسان اذا كان يحب شيئاً حباً شديداً كان سيره واندفاعه الى تحصيله عظيماً ، كالرجل الذى يريد انقاذ ابنه أو حبيبه من مهلكة ونحو ذلك ، بخلاف ما لو اراد أن ينقذ شيئاً تافهاً أو ليس فى انقاذه أمر كبير فان سعيه فى ذلك يتراخى ، وذلك لأجل الداعى والحافز مع ان اعتقاده فى المشيئة والاسباب هو بحاله ، وكذلك الرجل الذى يريد أن يصنع لابنه أو حبيبه دواء فانه يبذل غاية جهده ويحرص غاية الحرص فى إتقانه ، بخلاف ما لو صنعه لبهيمة تافهة أو لآخر لا علاقة له به أو كان يكرهه مع أن اعتقاده فى القدرة والمشيئة فى هذا الدواء ومفعوله بحاله لم يتغير فى الحالتين فى الحرص والاجتهاد ، فمن ادعى أن الايمان بالقدرة والمشيئة ينافى العمل أو ينافى الاجتهاد فهو مكابر مصاب فى دينه وعقله ، كما أنه كفر ظاهر وخروج عن حظيرة الاسلام بالكلية ، ولا يخفى هذا إلا على من طبع الله على قلبه وكان من الغافلين

وقد تبين من هذا معنى الدين الباطل عنده والفكرة الدينية التى هى أصل هذه المزالق التى حاقت بالمسلمين ، فالدين الباطل - كما ترى من صريح كلامه فى هذه الجملة - أن يؤمن الانسان بالله تعالى الذى هو سبب الأسباب بان له قدرة كاملة ومشيئة عامة فى إمكانها أن تقف فى سبيل الأسباب وتتحكم فى نهاياتها ، فان إيمانه بهذا السبب يمنعه على حسب ما تصور فى تلك القدرة والمشيئة فلا ينجح ، فاذا اعتقد الانسان هذا فهو على دين باطل ، أما إذا كفر بالمشيئة والقدرة التى حصلت من أجل الايمان بهذا السبب وآمن بالأسباب بأنها آلية طبيعية لا يقف فى سبيلها شيء ولا يتحكم فى نهايتها شيء فهو على دين صحيح . فهذا هو الدين الصحيح عنده . ولهذا ذكر فيما بعد أن هذا الدين الصحيح لا

يكاد يوجد ، أو أن الناس عاجزون عن فهمه ، فلاحظ هذا المقام ملاحظة دقيقة ينكشف لك ما وراءها من الخبث الذى ليس وراءه خبث ، ويزول عنك شيء كثير من خداعه الذى خدع به بعض النوكى وضعفاء البصائر وأشباه الأنعام

* * *

ثم قال بعد تلك الجملة : فالتصور الدينى البسيط الأول يدرك بالضرورة أن هذا الاله إما أن يكون له فعل وعمل فى هذا الوجود ، أو لا فعل له ولا عمل له . أما الفرض الأخير فعناه بلا شك نفي الاله ، إذ لا إله بلا عمل وأثر . أما الافتراض الأول - الذى لا بد من الاقتناع به - فانه على حسب الفكرة الدينية - أو على حسب تصور المتدين - يوجب الارتباب والاستهانة بالأسباب وينزع الثقة بها منها . فان تصرف هذا الاله حينئذ وعمله ان يكون إلا دخولا فى الأسباب وتصرفا فيها أو عملا بدونها ، أو إيجادا وخلقاً لها . فهو قد ابتدأ الأمور بدون أسباب ، فلا محالة من افتراض قطع سلسلة الأسباب ومن الأخذ بها ابتداء (١) ، ثم هو اذا فعل وصنع فلا بد أن يكون فعله وصنعه إما وقفا لسبب ، أو إبطلاً ومنعاه من بلوغ غايته ، وإما اعانة له (٢) وإبلاغاً للغرض والنتيجة بدونها ، وأما إيجادا وخلقاً له ، والاحتمالات كلها معناها الشك فى الأسباب والتهوين لشأنها ،

قلت : هذه الجملة هى شرح حقيقة الاشكال الذى ادعاه فى الجملة السابقة ، وذلك أن التصور الدينى يوجب للإنسان بدهاة بان الاله له فعل وأثر فى

(١) هذا ممنوع

(٢) وأى محذور فى هذا

مخلوقاته ، ولا بد أن يكون هذا الفعل وهذا الأثر تصرفاً في الأسباب (١) بقطع أو وصل أو اعانة أو ابطال أو منع ، وكل ذلك - على ما زعم - يوجب للشك في الأسباب والتهوين في شأنها ، فلا يكون الانسان الذي يعتقد لهذا سببياً فلا يمنع . فالإيمان بفعله وأثره ، والإيمان بهذا الفعل والأثر أوجب للشك في الأسباب ، والشك فيها أوجب عدم النجاح . هذا صريح كلامه - كما ترى - فلا بد على هذا من الكفر بالسبب الأول ليزول ما بعده فيحصل النجاح المطلوب . فأى عبارة أصرح في الدعوة الى الاتحاد من هذه ، فصارت المصيبة التي أخرت جميع المتدينين الذين لم يهبوا الحياة شيئاً جديداً كما يقول هو إيمانهم بالله تعالى وأنه يتصرف في الوجود بفعله وأثره كيف شاء ، أما المتحللون من الأديان الذين صنعوا الحياة فهم عكس هؤلاء ، فلم ينجحوا (٢) . ويوجه الاشكال وسره الذي ادعاه وسقط فيه أنه لا بد للناس أو للمتدينين من الافتتاح بوجود الاله ، ولا بد لهم من طلب النجاح ، وطلب النجاح موقوف على اعتماد عدم التصرف في الأسباب والتحكم فيها ، والإيمان بالله يوجب الإيمان بفعله إذ لا إله إلا فعله ، وقسطه لا بد أن يكون تغييراً للأسباب وتصرفاً فيها على كل احتمال ، وهذا يفضي الى عدم النجاح ، وحينئذ لا بد من أحد أمرين : أما أن يقولوا على الإيمان به ويتصرفه وعدم النجاح ، وإما جرده ونفيه والاعتماد على الأسباب ، وهذا يوجب النجاح . وهم لا يفتنون إلا بالأول وهو يفضي الى التأخر ، ومن هنا وقع الاشكال . فهذا يجوز مشكلته التي لم تحل ، وهذا سرها الحديث المذنب ، فانه لما آمن بالأسباب على الذي ادعاه ، وهو أن النجاح منوط بالاعتماد عليها لا على خالقها ، وأنها تفعل

(١) لأن كل ما في الوجود فهو أسباب

(٢) لهذا روح الكتاب - وهو أن الإيمان بالله نكبة على البشر كما نقله عن نفسه

غوستاف المينما الله

بطبعها فعلا آليا طبيعيا لا يمكن لقوة من القوى أن تقف في سبيلها ، أوجب له هذا الايمان الكفر بما يرد على ذلك وهو تصرف الله فيها على كل احتمال ، وهو انكار فعله مطلقا ، وانكار فعله يوجب انكاره كما ادعاه بأن نفى فعله نفى له بلا شك ، فهذا سر مشكلته التي جعلها حقيقة كبرى لم يوجد لها حل الى اليوم ولا شك أن من اعتقد هذا الاعتقاد فلا بد من وقوعه في هذا الاشكال الذي هو صريح الاحاد ، فهو فرض أشياء ومقدمات باطلة وبني عليها ما شاء : وقد بينا أنها لم تشكل على أحد غيره . فاذا عرفت أن هذا محور كلامه ونقطة دائرة إلحاده وأنه وجه إشكاله ، فاعلم أن أدنى متدين عاقل فضلا عن غيره يسهل عليه حلها فيقول : دعواك أن الاقرار بالتصرف يوجب الشك في الأسباب والاستهانة بها على كل احتمال دعوى في غاية السقوط ، فهي مع كونها دعوى مجردة ليس عليها دليل فهي مخالفة للعقل والضرورة والحس والوجدان والاستقراء والواقع ، أما الفعل فانه من المعلوم الذي لا ريب فيه أن الأخذ بالأسباب مع الاعتقاد بأن الله قد أمر بالأخذ بها ووعد من استعان به أن يعينه وأنه القادر على تقويتها وتسديدها وهي تحت قدرته ومشيتته وطوع إرادته يوجب الحث ومواصلة السير في العمل بها والاجتهاد في الأخذ بها ، ولو أن ملكا عظيما أمر عبيده بعمل وأعطاهم أسبابا يعملون بها ووعدهم أن يعينهم هو ويسر لهم هذه الأسباب ويدفع ما يعارضها لكان أخذهم بهذه الأسباب والاجتهاد فيها أعظم وأقوى وأشد من كونهم لا يؤمنون إلا بأسباب قد عرفوا عجزها وضعفها ، وعلموا وجود أمور أخرى مثلها تعارضها وتبطلها . وهذا المالحد جعل جميع الاحتمالات التي ذكر منها الاعانة والوصل في الأسباب بما يوجب الشك والاستهانة بها ، وهذا من أفسد ما يقال . وأما بطلانه بالضرورة والاستقراء والواقع فمكل انسان يرى الناس على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم يأخذون بالأسباب جادين في الأخذ بها ، وكثير منهم قد هلك من شدة الحرص والاعتماد عليها ، وليس وراء الهلاك في الحرص

شيء . واذا وجد في أحد منهم كسل أو وهن لم يكن منشأ ذلك من هذا
الايمن ، بل منشأه إما من اعتياد البطالة أو من أمر آخر ، والبرهان على هذا
أن الكسل والوهن الذي يوجد في النادر مشترك بين سائر الناس ، وغالبه إنما
يوجد في أهل الفساد وأتباع الشهوات والمنافقين ، وقل أن يوجد في
المستمسكين بالدين من هو كذلك . وقد قلنا غير مرة إن الايمان بالله وصفاته
وإعائته ورحمته وتحكمه في الأسباب أعظم حافز يوجد على وجه الأرض ، فانه
يبعث على النشاط ومواصلة العمل ، لكون الله أمر بذلك ووعد بالاجابة لمن
أطاعه وتوعد من خالف أمره بالاهانة والخذلان . فحق علم الانسان أنه محق
وأنه مطيع وأن خصمه ظالم له أوجب له هذا الايمان مواصلة السير والصبر
والثبات والحزم والعزم الذي لا حذله ، أما اذا اعتمد على الأسباب وحدها
وأن العادل والجائر والجاهل والعالم والمسيء والمحسن عند هذه الأسباب سواء
في ناموسها فان اعتقاده هذا فيها وفي أسبابها سيكون هو العائق الأكبر والمخدر
الاعظم الموجب لليأس والقنوط للانسان حينئذ ، ولا سيما اذا كان في أمة
صغيرة وعدوه أمة كبرى فانه يقنط ويضرب بالعمل والاجتهاد عرض الحائط ،
لان القوة الكبرى في ناموس الطبيعة كما يدعى ستغلب الصغرى لا محالة ، واذا
حاول المغالبة والمصاراة والعزيمة فقد علم أن خصمه سيكون كذلك وسيسبقه ،
لانه أكثر منه عددا وأعظم انتاجا ، واذا حاول زيادة القوة فانه يعلم أيضا أن
خصمه كذلك ، فاذا مشى شهرا مشى عدوه باعا أو أكثر ، لان ناموس الطبيعة
كذلك ، وحينئذ يشك ويرتاب ويستهن بالعمل ويترك رأسا إن استطاع .
ويغتنم فرصة لذعة الحياة العاجلة وراحة الضمير ويسلك مع عدوه مسلك المسالمة
أو الخضوع الذي لا بد منه ، ولا حاجة الى المقاومة لانها ضرر أو عبث ،
ولانه ليس هناك عقوبة ولا ثواب وليس معه رأسمال يجي به غير هذا العمر
القصير فكيف ينفقه في مصلحة غيره ممن لا يعلم به ، وربما كان عدوا له .
وهكذا كان كثير من الشعوب التي فشا فيها النفاق والزندقة والاحساد ، فانهم

اضطروا الى جعل العمل إجباريا لفقدان الروح الحية الدافعة الى العمل اختيارا ، وأما المؤمن فانه بخلاف هذا كله ، فانه يعتقد أنه هو عود باحدى الحسنيين إما السيادة أو الشهادة والحصول على الجنة أو النجاة من النار ، وهذا هو الذى لا يبيع فيه ولا خلال ، بخلاف التعصب للقومية والوطن ونحو ذلك فأكثر هذا دعايات فارغة وأصباغ لامعة سرعان ما تزول ، فأكثر الناس لا يبيع حياته التى لا يرى أن لا حياة له غيرها بالوطن ونحوه ، وهذا معروف بالاستقرار فى الشعوب المؤمنة والمنافقة ونحوها كما أوضحنا هذا مرارا كثيرة .

* * *

ثم قال : « وقد يقال بعبارة اخرى - على حسب تصور المتدين - ان المسألة لا بد أن تفهم هكذا : الأسباب إما أن تكون كافية للآخذين بها أو غير كافية ، فان كانت كافية فأين الاله وأفعاله وألطافه ؟ فى اذن غير كافية ، واذا كانت غير كافية فهى اذن غير خليقة بان يعول عليها المؤمن تعويلا صحيحا ، ولا أن يلتفت اليها . ومن هنا يصبح غير سببي ،

قلت : وهذا كالذى قبله فى كونه إلخادا صريحا ، فانه اذا كان يصبح غير سببي فلا ينجح ، وهو خلاف المطلوب ، فعليه اذن أن يعتقد كفايتها ليكون سببيا ، واعتقاد كفايتها يتنافى مع اعتقاد وجود أفعاله وألطافه وهذا لا يمكن نفيه إلا بنفى الاله كما قال فيما سبق ، اذ لا إله بلا فعل ولا أثر ، وان معنى هذا بلا شك نفى الاله فجعله نفيا للاله بلا شك ، وهذا صريح فى التكفر والالحاد ، وهل يشك فى هذا من له عقل يميز به بين الدين والكفر ، ونقض هذه الدعوى فى هذه الجملة يفهم من نقض الجملة التى قبلها ، لأن هناك فرضا ثالثا تجاهله وتركه وهو الحق الواضح ، وهو اعتقاد كفايتها بالله تعالى تحت المشيئة وجودا وعدما وهذا الفرض أوضح من الفرضين الآخرين ، فان أكثر البشرية مقتنعة به وسائرة غلبه ، ولا يلزم من عدم كفايتها لذاتها تركها . ألا ترى أنه

وجود الشفاء من التداوى غير محتوم ، ولم يلزم من ذلك تركه رأسا ، بل ولا
 التهوين من شأنه ، وكذلك الزراعة والتجارة فان حصول نتيجتها والانتفاع بها
 ليس حاصلًا حتمًا ، وذلك لم يمنع من استعمالها والحرص على الأخذ بها والقيام
 والاجتهاد فيهما عند المتدينين كلهم ، والسببيون الملحدون أنفسهم معترفون
 بأن عدم تحتم وجود النتيجة لا يمنع استعمال سببها ولا النهاون فيه ، ولذلك
 يجرؤون التجارب تلو التجارب ، وقد يخسرون أموالا طائلة ولا يحصل لهم
 نتيجة إما مطلقا وإما مكافئة ، وأكثر أعمال الناس في أمورهم وفي معاشهم
 تجرى على الظنون وعلى المخاطرة وعلى التحرى ، وذلك لم يمنعهم من الجسد
 والاجتهاد في استعمال أسبابها ^(١) كما أن عليهم بأن الأكل والشرب واستعمال
 الوقاية من المضار لا يمنع من الموت ومن المرض ، ولم يمنعهم اعتقادهم هذا
 من استعمال هذه الأمور . فما ذكره كلام ساقط كالذى قبله ، وهو دائما يحصل
 الدعوى دليلا على نفسها فيدعى ويستدل معاً ، فيقدر تقديرا مستحيلا أو بعيدا
 أو يبنى عليه ويحكم به بل ويجعله برهانا على غيره ، هذا مع أن تصور المتدين
 في هذه الأمور مختلف اختلافا بعيدا وقد جعلها قضية كلية عامة مع فسادها
 وظهور بطلانها كما هو ظاهر

✱ ✱ ✱

ثم قال : وجهة أخرى تلك هي أن المتدينين عجزوا عن أن يتصوروا إلههم
 تصورا يسمو كثيرا على ما يعرفون ويشاهدون من القادرين الآخرين ، فالتفت
 في تقديرهم وتصويرهم - وان اختلفوا في هذا وتخالفوا كثيرا - لا يعدوان
 يكون - في أفعاله وقضائه وقضاياه وحكمه على الأشياء وعلى الآخرين وعلى

(١) بل قد هلك بعضهم من الحرص عليها والكدح فيها مع اعتقاده بأن النتيجة

سائر عبيده ورعاياه - بشرا مقتدرا كالذين يعرفونهم ويفكرون تفكيرهم، ولهذا
قانه - أى الاله - يغضب عندهم ويرضى ويتنقم ويشيب ويحاذى ويعامل على
مقتضى انفعالاته وعواطفه، ويلجأ الى المحسوية ^(١) والى الاعطاء والمنع على
الشفاعة، ويتحكم فى هذا العالم كله على ما تشير به هذه الانفعالات والتطورات
عنده وعلى مقتضى تطورها وتغيرها لاعلى مقتضى نواميس شاملة ^(٢) ثابتة، فاذا
بلغوا هذا المكان من الايمان هبوا يلتمسون رضا هذا الاله على ما تصوروا،
وهبوا يتملقونه وينافقونه ويصنعون ما يحسبون أنه ينيلهم رضاه وعطفه،
وأرصدوا جل قوام وأوقاتهم وأعمالهم لهذه السبيل، ليدركوا لديه ما يشتهون
ويتنعمون، فشحغلوا بذلك عن سلوك السبيل ^(٣) وعن محاولة القيام بالأعمال
النافعة المجدية، لأن تصورهم للأشياء قد أصيب بالفساد، واذا فسد التصور
فسدت الأعمال لا محالة، وأصبح مثل هؤلاء كمثل أولئك الزعانف المتملقين
المنافقين الكذابين الذين يحدثنا التاريخ كيف كانوا ينالون رضا ملوكهم
وخلفائهم وأمرائهم، وكيف كانوا ينالون ذهبهم وفضتهم وضياعهم وجوارهم
وكل ما يحبون بالملق والكذب والتفادى والعبودية والامتداح وكل تلك المخازى
الخلقية التى أثبتتها لنا كتب الأدب والتاريخ وأسماها مكارم ومكافآت وأدييات
إننا إذا وضعنا أمامنا ملكا أو خليفة من أولئك الملوك والخلفاء وتصورنا
كيف كان الناس يلقون الجزاء والخير والشر عنده، وتصورنا كيف كان يعطى
ويقرب الشعراء والشفعاء وصنوف المتملقين لكبريائه، وكيف كان يحرم

(١) قبحك الله من هو الذى ادعى هذا

(٢) أتريد أن يكون خاضعا لنواميس الطبيعة التى يستخدمها الانسان بزعمك

فيكون الانسان هو المتصرف وهو العاجز

(٣) يوم هذا أنهم إنما تركوا العمل لأجل اشتغالهم بالعبادات والمكوف فيه

المساجد فقط

ويقصى أهل الجد والصدق في القول والعمل ، وكيف كان يتخرق عطاء بدنون^(١) حساب لأنه أراد ذلك ولأنه رضى ولأنه أحب أن يمدح ، وكيف كان يسيل نعمة وعذابا لأنه أراد ذلك ولأنه غضب ولأنه أحب أن يرهب ، ثم تصور كيف كان يتصرف في اقطاعياته وفي عبيده وكيف كان يعطى ويمنع لاجنالا ولا كرما ولا عقلا ولا سفها ولكنها الخطرات والوساوس تلم بالرجال وتصيبهم بالخيال ، وكيف كان ينتقم ويثيب^(٢) لنا اذا تصورنا مثل هذا الخليفة أو الملك ، ثم تصورنا كيف يمكن أن يكون فساد من يعكفون على الطواف بكعبته ومن ينقطعون اليه ويلتمسون رضاه وهباته ويتعرضون لمواقع مجازفاته ، وكيف يصبحون شر الأنام^(٣) وكيف يعجزون أن يفعلوا الخير والصواب^(٤) ثم تصورنا قوما يؤمنون بقوة مطلقة عليا يسمونها ويفهمونها كما يفهمون هذا الملك أو الخليفة - لنا إذا تصورنا ذلك كله لم يعسر علينا أن ندرك كيف عجز المتدينون على اختلاف ديارهم وأزمانهم وأنبياهم وأمزجتهم وأجناسهم عن أن يهبوا الحياة شيئا جديدا ، وأن يكونوا فيها مخلوقات متألفة ،

قلت : فليُنظر المسلم الغيور على دينه الى هذه السلسلة الخبيثة الملعونة وما تضمنته من الكفر الغليظ والفجور الذي لا حد له ، ولولا أن الله تعالى ذكر في كتابه العزيز ما نسبته اليه أعداؤه من الأقاويل الكفرية لم تستطع الأنامل نقله^(٥) . يا مغلولا بهذه الأغلال ، في أى كتاب وجدت أن المتدينين على

-
- (١) هكذا وصف من امثل أمر الله وعمل صالحا ، كما أنه وصف الله جل وعلا بمؤلا الملوك الفسقة أهل الجور والظلم
- (٢) هذا تصريح بأن المتدينين شر البرية
- (٣) تصريح ظاهر بأن المتدينين لم يفعلوا الخير ولا الصواب
- (٤) كما نبهنا على هذا فيما سبق

اختلاف أجناسهم يتصورون إلههم بشرا مقتدرا كالذين يعرفونهم ويفسكرون تفكيرهم الى آخر ما هذيت به . وأدنى عقيدة من عقائد المسلمين تصرح بأن من شبه الله تعالى بالبشر فقد كفر ، ومن أعظم الكفر عندهم أن يشبه الله بخلقه في أى كتاب وجدت أنه جل وعلا يلجأ الى المحسوية وأنه يحكم هذا العالم كالحكم الذى ذكرت . ومعلوم أن ما ذكرته من التطورات والانفعالات انما يلصق بما ذهبت اليه فى الطبيعة ونواميسها ، فانك قررت أنها تتطور وتتفاعل ، ومع ذلك دعوت الى عبادتها ونسبت اليها حكم العالم ، ثم بعد أن اجترأت على المقام الأقدس ذهبت تشبه عباده المؤمنين به . مع أنك تخضع لهم وتضرع اليهم وتعبدهم . بالزعانف المنافقين مع أمراء الجور والخبث والظلم فتبنى ضلالات على كفریات ، ثم لم يكفك هذا الزعاف حتى ذهبت تشبه رب العالمين وأرحم الراحمين وأكرم الأكرمين . الذى له الكمال المطلق الذى لا غاية فوفقه القائم على كل نفس بما كسبت بالقسط والعدل والاحسان . بالملك أو الخليفة الأهوج الذى لا يحسن تدبير مملكته ، وأن هؤلاء المؤمنين بالله كأولئك المنافقين عند أولئك الملوك والخلفاء والسفهاء ، وتدعى أن هذه هى حالة المتدينين ولو اختلفوا وتخلفوا لا تبدو هذا ، ثم تركب على هذا فجورا أقبح منه فتقول « ثم تصورنا قوما يؤمنون بقوة مطلقة عليها يسمونها إلهها ويفهمونها كما يفهمون هذا الملك أو الخليفة ، إلخ . ومعلوم أنك اذا تصورت هذا انما تتصور أوهاما تخيلاتها بنفسك لا حقيقة لها ورميت بها المتدينين ، ثم ذهبت تدعى بأنهم شر البرية ، ثم ركبت على ذلك فجورا فوق كفر متراكم بقولك « اننا اذا تصورنا هذا كله لم يعسر علينا أن ندرك كيف عجز المتدينون على اختلاف ديارهم وأزمانهم وأنيابهم وأمزجتهم وأجناسهم عن أن يهبوا الحياة شيئا جديد أو أن يكونوا فيها مخلوقات متألفة ، ألا قاتلك الله ما أهون الكفر عليك وأخفه على لسانك ، أيا بلعام زمانه اذا تصورنا ما ذكرته فانما نتصور الملاحدة واستخدامهم للطبيعة ونواميسها وعبادتهم لها فان هؤلاء

الملاحدة اعتقدوا في الطبيعة كما اعتقد أولئك المنافقون في أمراء الظلم والجور وسفاهة الرأي ، لأن هؤلاء المنافقين لما عبدوا أن أولئك الأمراء لا عدل ولا رحمة ولا علم ولا حكمة لديهم وإنما أمورهم وأفضالهم تابعة لقوة دهاء من يخدمهم ويعرف كيف يسير مع ناموس طبيعتهم الفاسدة عملوا ما يعمل الملحد مع الطبيعة ونواميسها ، فإن الملحد يعتقد أن الطبيعة مجرد المصادفات التي لا علم ولا حكمة ولا عدل ولا رحمة لديها ، بل من استخدم هذه النواميس نال ما ينبغي كما ادعت ذلك صريحا ، ومن خالفها لم يستحصل شيئا وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ، فكل عمل صالح يبذله فلن ينفعه لأنها لا تعطى على الأعمال الصالحة وإنما تعطى على مقتضى استخدام البشر لها وتصريفها على وفق معرفتهم وملكتهم ، وكل ما يصدر أيضا عنها من نتيجة إنما هي بحسب تطورها وتفاعلها لا على مقتضى مشيئة عادلة شاملة صارمة صادرة عن علم وحكمة ورحمة ، هؤلاء المنافقون مع أولئك الأمراء هم من جنس هؤلاء الملاحدة مع الطبيعة ونواميسها ، بل الملاحدة شر منهم وأضعف آراء لأنهم عبدوا كل مظاهرها من خبيث وغيره وخضعوا له وخدموه واستخدموه ، بخلاف أولئك فأنهم عبدوا مظهرها واحدا حصلوا فيه بعض مقاصدهم كما حصل هؤلاء بعض مقاصدهم واستمتع بعضهم ببعض ، أما المؤمنون بالله تعالى فأنهم بخلاف هؤلاء كلهم ، فأنهم اعتقدوا في الله تعالى الكمال المطلق الذي لا غاية فوقه من جميع الوجوه قوصفوه بما وصف به نفسه في كتابه العزيز وعلى لسان رسوله ﷺ على الوجه اللائق به لا على ما يليق بخلقه ، فكل صفاته تختص به وتليق به ، وقد علموا أنه سبحانه غنى عنهم وعن عبادتهم وأنهم لو لم يعبدوه بل ولم يخلقوا لم يضره شيئا ، وإنما أمرهم بهذه الفروض السهلة اليسيرة رحمة بهم ، فأنهم خلقوا من أصل النقص العدمي من كل وجه فلا بد أن ينحطوا إلى الأصل الذي خلقوا منه ويرجعوا إليه ، ولكن لرحمته ولطفه وإحسانه خلق فيهم فطرة قابلة لمادة الخير المستمد من الكمالات فأرسل إليهم الرسل وأنزل إليهم الكتب ليهدم

على الطريقة الوحيدة التي تفهم وبها يستحصلون على غاية اللذة وغاية الحياة الصحيحة فضلا منه وإحسانا ، فالطريقة التي لا طريقة سواها هي أن يستمدوا بهذه الفطرة المخلوقة فيهم ما يلائمها من مصادر الكمال التي هي الآثار السماوية والاتصال بها ^(١) ، وحيث أن الانسان جاهل بكيفية العمل الذي به يدرك هذا الشرف الرفيع والمجد الذي لا أعظم منه جعل له نظاما سهلا يسيرا مضبوطا يسير عليه ويتمسك به ، فالدعوات والصلوات وغيرها من مظاهر عبادة الخالق هي اتصال مقدس بين العبد وبين مصادر الرحمة والاحسان وسائر صفات الكمال يحصل للنفس بها تطهير وتقديس وتنوير وقوة وروح ولذة وغيره ، وهي تؤثر فيها تأثيرا بليغا يخرج به من حالتها البهيمية الجاهلة الى أن تكون إنسانية ملكية ، ولا يحصل لها ذلك إلا من طريق هذه العبادات المفروضة لأنها هي السبيل الى اكتساب هذا الكمال الوجودي ، فاذا أعرضت عن ذلك وتركته صارت منحدره في ظلماتها ودركانها الاصلية الطبيعية بسبب ما يتعاقب عليها من ظلمات المعاصي ومباشرتها للنقائص ومصادر النقص ، فان تقابل الطبيعة والنظام السماوي كتقابل الوجود والعدم والنقص والكمال ، فكما أبعد الانسان عن النقص حصل له زيادة كمال ونور ، كما أنه اذا أبعد عن مصادر الكمال انغمس في النقص والظلمة ، فالعبادات انما شرعت فضلا من الله وإحسانا الى خلقه ليحصلوا بها سعادتهم ، إذ أن ذلك غير ممكن لهم إلا من هذا الطريق ، فكيف تقاس هذه العبادات الشريفة على تلك الاعمال الخبيثة التي يعملها المنافقون مع الملوك الذين كل منهم مضطر الى منافقة صاحبه ومراعاته وخداعه والكذب عليه ، بل هؤلاء إنما ينطبق عليهم فعل الملاحظة مع تواميس الطبيعة إذ هؤلاء الملوك الظلمة سبب من أسبابها التي تستخدم وتخدم .

(١) أي يقابلون الفطرة الصحيحة بما يلائمها من مصادر الصحة والكمال التي هي الاتصال بالخالق في عبادته وطاعته واتباع أوامره

ولا عجب فالمنافقون هم أعداء النبيين منذ وجدوا كما قال تعالى فيهم ﴿ هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ وقال فيهم ﴿ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾

ثم دعواه على المتدينين على اختلاف أجناسهم أنهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا الخ دهوى عدو على عدوه يمكن أن يقابل بمثلا ، وأن تقام الأدلة على ضدها . فان ما ادعاه قول مجرد عن الدليل ، والبراهين الصادقة قائمة على إبطاله وتقرير ضده ، فان الملاحدة مطلقا لم يهبوا الحياة شيئا جديدا كما علم ذلك بالبراهين القطعية التى لا تحصى والتى لا يمكن معارضتها نذكر منها ثلاثة استيفاء للبحث ، وقد تقدم كثير منها :

البرهان الاول : أنه من المتفق عليه أن كل شيء جديد إنما يخرج بالعلم لا بالجهل ، وإذا كان الأمر كذلك فقد ثبت أن المجرد من كل دين ليس معه علم إلا ما اكتسبه من المتدينين ، وهذا الملحد نفسه مقر بهذا ومعتز به ، وهاك عبارته فى صحيفة ٦٥ من اغلاله وهذا نصها : « ومن المعلوم أن لكل دين من هذه الأديان ^(١) ولأصحابها طريقة فى تعليم الأخلاق والتربية المأخوذة أكثرها من الدين نفسه ، ولو تركوا ^(٢) لم يعلموا شيئا لا يهودية ولا نصرانية ولا مجوسية ولا إسلامية لبقوا على فطرتهم أى مجردين من كل دين ، وفطرتهم هى العدوان المطلق الذى لا يعرف القيد ولا الضبط ، والفطرة حينما تطلق إطلاقا ليست بمدوحة وليست خيرا ، انتهى . فقد اعترف بأن المجرد من كل دين يبقى على فطرته التى ادعى أنها العدوان المطلق الذى لا يعرف القيد ولا الضبط وليست خيرا ، وقرر كما تقدم بأن الانسان بطبيعته حيث ظالم جاهل

(١) أى الاسلامية واليهودية والنصرانية والمجوسية المذكورة فى حديث « كل

ممولود يولد على الفطرة ،

(٢) أى الأطفال

وأنه يبقى كذلك اذا كان مجردا من كل دين ، وبأن للتعليم مأخوذ من الدين نفسه ، وقد تقدم الكلام على هذه العبارات في المبحث الثاني . والمقصود هنا أن العلم النافع مكتسب من الديانات ومأخوذ منها بلا خلاف كما قال تعالى ﴿ اقرا وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ﴾ وكما قال تعالى ﴿ انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور ﴾ الى قوله ﴿ وقفينا بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ﴾ وكذلك ذكر في القرآن أنه هدى ونور ، وكل انسان يعلم أن جميع الحضارة الموجودة انما أخذت من هذه الأديان الثلاثة ولهذا كانت أمريكا قبل أن تتصل بأهل هذه الأديان على غاية من الجهالة والانحطاط ، فلما اتصلت بهم واكتسبت منهم شيئا من آثار هذا الهدى والنور وصلت الى ما وصلت اليه . فالتجديد النافع والحضارة الراقية قد عرف بالضرورة انها قائمة على هذه الآثار السماوية ولا يضر وجود ملاحظة بعد ذلك ، فان هذا أيضا موجود في الدول الاسلامية ، وقد ادعى هذا الملحد أن المسلمين يبلغون أربعمائة مليون ، ومعلوم أن فيهم ملاحظة ومناقضين كما في غيرهم من الدول الكبرى كثيرون ، فاذا احتج بأن أولئك فيهم ملاحظة قد رفضوا أديانهم قيل يوجد في المسلمين من هو كذلك ، فبال هذا التجديد لم يوجد فيهم ، واذا قيل لان فيهم خرافات قيل وفي غيرهم كذلك ، وكل الخرافات التي فيهم إنما أخذوها من الملاحظة وهى من آثار الاتحاد فانها كلها ترجع الى الايمان بالأسباب المادية كما تقدم

البرهان الثانى : أن يقال : اذا كان المراد باعطاء الحياة الشيء الجديد هو إعطاء الانسانية ما ينفعها ويرقيها وينعمها عاجلا وآجلا فقد كان من المعلوم بالاستقراء الذى لا ريب فيه أن الأنبياء وأتباعهم من المتدينين هم الذين أخرجوا الناس من الظلمات الى النور ، فانه قد ثبت ثبوت لا مرية فيه أن نبي اسرائيل كانوا فى رق الفراغة وقد كانوا على أسوأ الحالات فأخرجهم موسى

من هذه الظلمات الى النور حتى صاروا ملوك الدنيا في زمانهم ، ثم لما جاء عيسى بالبينات والهدى والنور وآمن به من آمن من بني إسرائيل وكفر به من كفر منهم أيد الله الذين آمنوا على عدوهم فكانوا ظاهرين عليهم مئات السنين من أجل هذا الهدى والنور الذى جاء به . ثم إنه قد علم بلا أدنى شك ما كانت عليه العرب قبل نزول هذا الهدى والنور الذى جاء به محمد ﷺ من الحالة السيئة ، فأخذوا به فكانوا ملوك الدنيا ، ونشروا النور والعدالة على سائر أقطار الارض ، ووهبوا البشرية الشيء الذى يصح أن يقال إنه جديد ، وقد قال هذا الملحد فى صحيفة ٦٧ من هذه الاغلال : وقد عمل الاسلام أعمالا باهرة لا تكفر لنقل الانسانية من طورها هذا الى ما هو أكمل وأفضل ، فكان له من التأثير فى هذا النضج البشرى الذى نشاهده اليوم ما هو معروف ، انتهى . وقد قال هذا الملحد فيما تقدم ان العلماء هم الذين يخشون الله ومن لم يخش الله فليس بعالم ، هذا كلامه ، ومعلوم بلا شك أن الملحد لا يخشى الله فلا يكون عالما فلا يمكن أن يهب الحياة شيئا جديدا . وقد ذكر هذا أيضا فى مقدمته (كيف ذل المسلمون) أن حضارة أوربا إنما اكتسبت من دين الاسلام ، قال فيها ص ١٢٦ : وقد ظلت أوربا قرونا طويلة مديدة خاضعة لهذه الخرافات مسلمة أعناقها الى أغلالها واضعة رجلها فى أصفادها ، فكانت إذ ذاك فى غاية من الجهل والانهطاط والتأخر والضعف والفقر ، حتى أدركتها رحمة الله المنزلة على العالمين جميعا ، فانبثقت عليها أنوار الاسلام من جهة إسبانيا والقسطنطينية ومن سائر الجهات ، وقبست من هذه الأنوار العربية المحمدية حينما اختلطت بالمسلمين فى الحروب الصليبية وفى الحروب الأخرى ، فزقت هذه الأنوار الشرقية العربية السماوية التى حملها اليهم المسلمون تلك الظلمات الداجية ، فأتبع لهم أن يبصروا بعد العمى الطويل الممل ، وأن يلتمسوا على ضيائه الوهاج أول الطريق الذى سلكوه الى حضارتهم هذه القائمة الحاكمة ، انتهى . وهذه سيجته فى التناقض ، فكيف بعد هذا الاعتراف الصريح ينتكس على رأسه فيدعى

أن المتدينين لم يهبوا الحياة شيئا جديدا أليس هذا كله هراء ووقاحة ظاهرة
البرهان الثالث : أنه من المعلوم الذي لا ريب فيه أن هذه المخترعات كلها
إنما أخرجها هذه الدول المنتسبة الى الأديان العريضة فيها . وإذا كان الأمر
كذلك فمن أين للمدعى أن المخترعات كلها أو بعضها من المتحللين وحدهم دون
غيرهم ، فإن هذا مكابرة ودعوى مجردة عن الدليل ، فهو مطالب بالبرهان
الصادق على أن المتحللين من الأديان مستقلون بإيجادها بدون أى مساعدة من
نظر أو تفكير أو إعانة من الأشياء المأخوذة من الديانات . وقد ذكر هذا في
أغلاله أن المتأخرين لم يأتوا بشيء جديد يساوى الكتابة في النفع ، ومعلوم
أنها من الأمور التي خرجت على أيدي المتدينين القدماء وانتفع بها المتأخرون
وكانوا مضطرين إليها غاية الاضطرار ، ولولاها لم يوجد أكثر هذه الصناعات ،
قال تعالى ﴿ الذي علم بالقلم ﴾ وهذا نص صريح بأنه تعالى علم الكتابة ، ومن
يقول ان الانسان عرفها بطبعه يكذب هذا صريحا بدون حجة ، وهذا الملحد
نفسه مطالب باثبات وجود شيء واحد جديد على أيدي الملاحدة استقلالاً
عن غيرهم ، فإذا كان عاجزا عن ذلك - وهو بلا ريب عاجز ، اذ لو كان قادرا
لذكره أول ما يذكر ، فانه أحرص الناس على إثبات كل ما فيه أدنى علاقة
للحج على الاحاد - فليعلم أن خصمه أن يعكس دعواه هذه بدعوى مثلهـ
سواء (١) وليس قبول قوله بأولى من قبول قول خصمه ، بل خصمه أولى
بالصدق ، فإن البراهين الدينية متضافره على ذلك كما أسلفنا ، والعقل والاستقراء
يشهدان لذلك وهذه الامم البعيدة عن الديانات أجهل الناس بمعرفة هذه

(١) أى فيقول قد عجز الملاحدة على اختلاف أجناسهم عن أن يهبوا الحياة شيئا
جديدا الخ . وكل ما يجيبه من وجود هذا عند بعض الملاحدة يمكن المتدين مقابله
بعدم اختصاصهم بإيجاده وبما ذكرناه من البراهين ، ودعوى الاختصاص فيما ينفع
تحتاج الى برهان

الأمور ومعلوم أنهم أبعد الناس عن الأديان كالزنج ونحوهم ، فكيف يدعى هذه الدعوى العريضة التي تتضمن القدح في الأديان ومن جاء بها ومن دان بها ، إذ حاصلها أن الكتب السماوية والأنبياء كلهم لم يأتوا إلا بالشر ، لأنهم لم ينفعوا البشرية بشيء سوى العذاب بالتعبدات ، ولا شك أن الجملة التي تقدمت ، بل الكتاب كله برمته ، يتضمن الحث على بغض الرب الكريم ومقتة ومقت دينه ومن دان به بمجرد القحة والهراء والتحكم المجرد ، فالله يجازيه بعذله إنه سميع مجيب

وأما دعواه المردولة الأخرى في قوله « وأن يكونوا فيها مخلوقات متألفة ، فهي من المهازيل التي تضحك الثكلى ، فما هو التآلق الذي انفرد به الملاحدة دون المتدينين ، هل هو أكل أو شرب أو نكاح أو ركوب طائرات أو سيارات أو شيء غير ذلك فلا بد من بيانه ، فإن هذه الأمور كلها قد اشترك فيها الملاحدة والمتدينون بل وكثير من البهائم ، ولعله يشير إلى أنهم يركبون الطائرات والسيارات ، فإن كان هذا هو الذي خطر على باله فليعلم أن الكلاب والخنازير قد استحصلت على هذا أيضا فضلا عن سائر أصناف بني آدم على اختلاف مذاهبهم ، وليعلم أيضا أن النسور والغربان وغيرها قد ظفرت بالطيران والتحليق في السماء بدون أدنى كلفة وبدون أدنى خسارة في كل وقت مع أن أكثر ما تعيش به جيف الحمير وأشباهاها من الخبائث والقاذورات ، فإن كان هذا هو التآلق فليحكم على هذه بأنها أفضل من المتدينين بل والملحددين لأن قدرتها على هذه الخصلة ومعرفتها لها وسهولته عليها أعظم من غيرها . وقد سبق الكلام على ما يتعلق بهذه الجملة في مواضع كثيرة تغني عن الإعادة

* * *

ثم قال « وأمر آخر ، ذلك أن المؤمنين يرون دائما أن الله حينما خلق العالم وخلقهم قد ضمن أرزاقهم وكفلها وتعهدهم بحمايتهم ورعايتهم في كل أمورهم

أوجلها ، لأنهم لا يتصورون أن يتخلى الله وهو الكريم القادر عن صنع يديه وعن أوجدتهم اختيارا واقتدارا ^(١) فيصيبهم هذا الاعتقاد بمثل ما يصاب به الطفل المدلل المكفول بين والدين مدللين رحيمين ثريين - أى يصاب بالتواكل والاعتماد على القوى الخارجية ^(٢) وحينئذ لا يصنعون لأنفسهم ما يجب أن يصنع وما لن يظفروا به إلا إذا صنعوه هم ، ولا يمكن أن يكونوا في أفكارهم وأعمالهم مثل أولئك الذين يرون أنهم متروكون موكولون لقواهم ولأنفسهم ، كما أن ذلك الطفل المدلل المكفى لا يمكن أن يكون مثل ذلك الرجل العصاى الذى يعلم بأن الواجب عليه أن يعمل ويناضل ليعيش ولا فلا سبيل له الى البقاء ،

قلت : كل هذا غير صحيح ، فان المؤمنين لا يرون هذا الذى ادعاه على هذه الصفة التى ذكرها ، بل هم يرون أن الله تعالى أمرهم بطاعته والقيام بما شرع لهم من الأمور الدينية والأخذ بالأسباب الدنيوية ، فيجب عليهم أن يعملوا بهذا وهذا . ولم يدعوا أنه ضمن أرزاقهم وتعهد بحمايتهم بدون أسباب أبدا . ثم على فرض النزول مع هذا الملاحد يقال له : هل هم عملوا بهذا الرأى أو تركوه . فان ادعيت أنهم فعلوه واشتغلوا بالطاعة عن فعل الأسباب فقد بالغت فى المسكارة والبهت كما هى عادتك ، وان نفيت هذا بطل كلامك ، فان هذه الدعوى مفروضة فرضا لا حقيقة له ، فان الناس كلهم على اختلاف أصنافهم لم يعملوا بما ادعيت ، ولم يروا أنفسهم كالطفل المدلل المكفى ، بل تقائلوا وتضاربوا وتشاتموا وتشاحنوا وتقاطعوا على هذه الأسباب وعلى هذه الدنيا فى تجارتها وصناعاتها وزراعاتها ورأساتها وفى شئونها كلها ، وكل منهم قد

(١) كل هذا تمكم وسخرية به تعالى

(٢) لا يوجد فرد ولا شعب ولا أمة مهما كانت فى القوة لا تحتاج الى ما هو غير عنها من نفسها أو جنسها اهـ

اتخذ له شغلا وعملا يعيش به من محرم ومباح . فاذا كانت هذه النتيجة - أى التواكل والاعتماد على القوى الخارجية - فلا حاجة الى ذكرها ، واذا كان الناس لم يعملوا بها وأكثرهم اعتمد عكسها فاعتمد على نفسه أى صابر كالرجل الثانى العصاى ومع ذلك لم يصلوا الى ما ادعيته من النجاح ، فان كل عارف يعلم أن كثيرا من الشعوب الاسلامية أقرب الى الرجل الثانى من الأول . ومع ذلك لم ينجحوا ، وقد قدمنا أن الفكرة الدينية الصحيحة توجب اعتبار الأسباب واستعمالها بالاعتماد على الله تعالى ، فهذا هو طريق النجاح ، فلا يقولون بالبطالة وتعطيل الأسباب كما لا يقولون بالاعتماد على الأسباب والتوكل عليها ، فان ذلك شرك صريح . وفى الحديث : احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن ، وقد تقدم . فما ادعاه هنا تجاهل وافتراض موهوم يقصد به التهمك والاستهزاء بأراء المتدينين وتشويه الفكرة الدينية والتفجير عنها كما لا يخفى

ثم قال : ثم ان المؤمن يعتقد عادة بأن الله اذ تفضل عليه بخلقه وأوجده من صميم العدم فمن الواجب عليه أن يشتغل بخدمة ذلك الرب المتفضل وبالاقطاع الى عبادته ، زاهدا فى خدمة نفسه وخدمة شهواته وحاجاته وشئونه الخاصة وأن يصرف إن استطاع كل قواه وأعماله وأوقاته - أو أكثر ذلك - الى القيام بشكر ذلك المنعم الخالق المتفضل ، وإلا فانه عبد سوء ، لا يجزيه الله إلا الحرمان والطرْد (١) . وحينئذ يحىء عاجزا فى تناوله الأمور والحياة ، ويكون دون ذلك الذى صرف جميع قواه وأوقاته فى سبيل الانتصار فى معركة الوجود والبقاء وما من شىء ينجح فيه المرء إلا على قدر انصرافه اليه وإعطائه من نفسه ووجوده ، وهنا يتجلى الفرق بين الرجلين ،

قلت : غرضه من كل هذه الجمل التى ساقها محاولة التفريق بين المتبينين

(١) هذا كالذى قبله فى التهمك والاستهزاء بالله وبمن آمن به

والملحد ، وتصوير حالة كل واحد منهما ومحاولة لإثبات كون نتيجة الملحد خير من نتيجة المتدين ، وأن هذا لا بد أن يتأخر وذلك لا بد أن يتقدم . وكل ذى مسكة من عقل يعرف بداهة أن تصويره في هذه الجمل كلها لحالة كل واحد منهما تصوير باطل لا حقيقة له البتة ، فما بناه عليه من النتيجةين بدهى البطلان وما هي غير دعاوى مجردة لا يعسر على خصمه مقابلته بمثلا . وكيف يمكن أن يصدق ذو عقل أن جنس المتدين يكون مستغرقا وقته بالعبادة متفرغا لها لا يباشر شيئا من الأسباب ، كالطفل المدلل المكفول ، فانه صوره عاكفا في مسجده صائما نهاره قائما يصلى ليله صارقا إن استطاع كل قواه وأعماله في القيام بالشكر والعبادة ، قد رفض الأسباب من أجل اشتغاله بهذه الخدمة ، فهل ذو عقل يصدق بهذا ويكذب عقله وسمعه وبصره وفؤاده بما يراه في الناس المتدينين من خلاف هذا ، بل لا يوجد في الآلف واحد أو اقل هذه صفته ، ثم إنه صور جنس الملحد بأنه الجاد الحازم في العمل الآخذ بالأسباب النافعة مستغرقا أوقاته في ذلك ، وهذا بدهى البطلان ايضا ، بل أكثر البطالين والسرائق وقطاع الطريق وأهل الفسوق والمجون والدعارة من الملاحدة والمنافقين ، وأكثر الذين يعملون الأعمال النافعة القوية اختيارا هم المتدينون وأكثر الأعمال مشتركة بين هؤلاء وهؤلاء ، فما ذكره في هذه الجمل كلها في غاية السقوط . وهذه الجملة كالتى قبلها تقدير لا حقيقة لوقوعه ، بل الواقع خلافة ، ومع ذلك لم تحصل النتيجة على ما يدعى . وكل هذه المغالطات الباطلة فعلها تجاهلا منه ، وإلا فهو يعلم أن المؤمن غير مكلف تكليفا مفروضا بغير الفروض المعروفة التى لا تستغرق غير جزء قليل من وقته ، فدعواه أنه إذا لم يصرف أوقاته كلها في خدمته فلا يستحق الا الطرد والحرمان ، كلام في نهاية السقوط ، فانه لا يستحق الطرد والحرمان الا إذا ترك ما فرض عليه وهو سهل ميسور لا يأخذ معشار أوقات عمره . على أن لنا أن نقول على هذا أن من خدمته استعمال الأسباب المادية والمعنوية على الوجه المشروع كما أشار الى

ذلك النبي ﷺ في حديث « كل سلامى من الناس عليه صدقة ، و « وان الرجل يثاب حتى على ما يجعله في امرأته ، ومن ذلك الصناعات وكل ما فيه نفع للأمة فهو من خدمته بالنية . وحينئذ فالنتيجة اذن صحيحة ولا يرد على هذا في هذه الفكرة الدينية شيء مما ذكره من التأخر ، بل لنا أن نعارض بالملحد المتترف فان عمله بعكس هذا ، وهو كثير موجود في الملاحدة والمنافقين المترفين ، فان أكثرهم يغتم الراحة واللذة العاجلة والانغماس في الفنى والفجور ، ويرى أن من الجنون أن يضيع عمره الذى هو أثمن عنده من الذهب ولا عوض له عنه في الشقاء لنفع غيره ممن قد يكون عدوا له فيتحمل الأسباب الثقيلة النكدية المتواصلة على عاتقه على غير طائل أو كبير أمر ، أما المؤمن فانه ان فعل أعمالا كبيرة فهو موقن بأن عمله هذا لا بد له من ثمرة يستحصل عليها بكل حال إما السعادة وإما الشهادة وكلها حسنات تكتب له ، ويجب في هذه الخدمة من اللذة والفرح والسرور وعزة النفس وراحة الضمير ما لا يحيط به وصف ، فان الانسان يستعذب أموراً كثيرة من التعب والنصب لما يعلم في عواقبها من الثمرات الحميدة التي لا بد من حصولها ، وهذا لا يوجد إلا في اعتقاد المتدين الصادق الناصح ، فظهر من هذا أن استعمال الأسباب النافعة للأمور بها شرعا هي في خدمة ربه الكريم المحسن القادر في سبيل الله وفي سبيل الانتصار في معركة الوجود ، فيكون له النجاح بقدر انصرافه وصدقه وإخلاصه في ذلك كله ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا

• • •

ولما كان هذا الملحد مؤسسا أغلاله على الكفر بالله واليوم الآخر ، فانه اعتقد أن الايمان بالله واليوم الآخر هو سبب التأخر تقليدا لسادته الملاحدة الساعين في هدم الأديان ، فذكر ما ذكر من هذه الجمل وما قبلها دعاية الى الكفر بانه ، ثم انتقل من هذا الى الحث على الكفر بالآخرة فادعى أن الايمان

بالجنة ونعيمها وكون الانسان يعلق بها أمله عامل من عوامل الضعف الموجب للتأخر ، لأن ذلك على ما زعم يشغل عن الأخذ بالأسباب المسادية كما يجب ، فقال بعد كلامه السابق :

• على أن هنالك ما هو أكبر وأظهر في إيجاد الاختلاف بين المتدين وغيره في هذه القضية ، ذلك أن الانسان مهما كان تافها وصغيرا لا يمكن أن يحيا بدون أمل وبدون شيء يرجيه . والعادة أن الانسان يحاول أبدا أن يجعل أمله أحسن الآمال وأفضلها إن استطاع ، وإذا خير بين أملين أو آمال فلا بد أن يختار أكبر هذه الآمال في رأيه وأجملها إلا أن يحول بينه وبين ذلك حائل . وهكذا هو في حياته وفي تصوره آماله وطلبه لها وسعيه وراءها ، ومن هنا اختلفت الآمال واختلفت وتعددت الطرق التي تسلك إليها ، لاختلاف الناس في تصورهم وفي استعدادهم وظروفهم وقواهم وصحتهم وغير ذلك مما يوجه المرء ويسطر على مسالكه ، وقد يصرف الأمل الواحد عن عشرات الآمال التي يطلبها الآخرون ويعملون من أجل الظفر بها ، وإذا وجدت الناس مختلفين فاعلم أن كل واحد منهم مشغول بأمل قد ملا عليه آفاق نفسه ، وأن هذا الانسان لا يعمل كما يعمل الانسان الآخر لأن له أملا آخر ألهاه عن ذلك الذي شغل الآخر ، أو لأنه تصور الطريق تصورا لم يتصوره الآخر ، أو لأمر آخر من هذه الأمور التي تصنع الخلاف والاختلاف بين البشر في أعمالهم وسبلهم ووجهات نظرهم ، على أنه لاخلاف في أن أسمى هذه الآمال وأقواها في الاجتذاب والتوجيه والسلطان هو ذلك الأمل الضخم الأبدى في تلك الحياة الضخمة الأبدية التي ينال فيها المرء الخلود وكل ما يرجى من حاجات الجسم والنفس بدون أن يكدر ذلك شيء من المكدرات المعروفة التي تشوب لذائذ هذه الحياة الأولى القصيرة والتي تملؤها بالخوف والاكتئاب . فإذا ما استطاع انسان أن يتمثل هذا الأمل وأن يغنى ويتغنى به وأن يصرفه

إليه تصويره والتفكير فيه وفي لذة الظفر به والوصول إليه والحصول عليه ، فلا محالة من أن يشغله ذلك عن كل شيء في هذا الوجود ^(١) وقد يطغى عليه وعلى وجوده حتى لا يدع منه لهذه الحياة شيئا ، وقد يدع شيئا قليلا أو كثيرا ، والاختلاف في هذا راجع الى الاختلاف في قوة الاجتذاب وضعفه ، وقد يفنى عن هذه الحياة ويغيب عنها مع أنه فيها ، لأنه ليس من أهلها ، لا ينافس ولا يغاضب ولا يخاصم ولا يطالب ولا يحارب أو يسالم من أجل شيء فيها ، ويصير كذلك الرجل الورع الطيب الذي ضربه ورعه ودينه عن كل ما هنا حتى قال فيه معاوية بن أبي سفيان وهو يضع خطوط الطريق لابنه : أما فلان فقد أعجزه الورع ، فدع له دينه يدع لك دنياك ، يعنى أنه لا يبالى بشيء من أمور الدنيا لأن همه وأمله مصروفان الى الآخرة والى الاستعداد للقائها . فإذا لاحظنا على المتدينين - أفرادا وشعوبا - عجزا عن إيجاد الحياة ^(٢) وعن التحليق بالصناعة والزراعة أو التجارة أو العلوم المادية الانسانية أو عن شيء ما من وسائل الحياة وأسبابها فلنعلم أن أحد أسباب هذا العجز هو هذا التصور لهذا الأمل العظيم والانصراف اليه بأكثر العقل وأكثر العمل وأعظم الاهتمام ^(٣) وإذا عقلنا هذا لم يطل تعجبنا اذا وجدنا على بن أبي طالب وأمثاله وجيوشهم تنهار بلا عناء حينما نازلوا أمثال معاوية وجنودهم ورجالهم ، وإذا ألفينا الرجل التقى الورع المحافظ على فروضه وعباداته ينهزم شر هزيمة ^(٤) في

(١) تأمل تصريحه بأن تصويره للجنة يشغله عن العمل للدنيا فيكون عائقا عن التقدم

(٢) هكذا شهد لنفسه وحكم لها

(٣) هذا صريح في أن اهتمام أهل الآخرة بالآخرة عائق عن التقدم ، وأنه لا ينبغي أن يهتم به جدا

(٤) قبحه الله ما أرخص الكذب عليه

كل عمل يتناوله أمام ذلك الرجل الذى جعل فرضه ودينه وعبادته هو التحليق بتجارته أو صناعته مصيرا ذلك إلهه المطاع المعبود وربه . فالؤمنون اذن يشغلون بأملهم فى الآخرة (١) عن أن يصنعوا لهم فى الدنيا أملا جسيما عظيما ، فيأتون عادة عاجزين عن اللحاق بالآخرين الذى صنعوا لهم هذا الأمل ثم أعطوه كل نشاطهم وإبداعهم فأصبحوا فيها السادة الغالبين ، انتهى

والجواب أن يقال : هذا رأى هذا الرجل فى المؤمنين بالله واليوم الآخر فقد صرح بأن الايمان بنعيم الآخرة والاهتمام له يوجب الاشتغال به ، وأن هذا يشغل عن العمل للدنيا فيكون عاملا من عوامل التأخر ومعوفا عن النجاح ، فجعل الايمان بهذا الركن نسكية على البشر لانه يتعبد به ويصدى عن السعى الى الكمال . وقد بينا لك أن هذا الرجل قصد الى أصول الدين فحمل عليها كل نسكية ومصيبة ، ولهذا جعل أعظم المصائب الايمان بالله واليوم الآخر ، وهذا التقرير الذى ادعاه مع كونه كفرا صريحا فهو ادعاء مجرد ساقط ، والجواب عنه كالجواب عما قبله

فاننا نقول أولا : ان الواقع خلاف ما ادعيته فان صدر هذه الأمة كانوا من أعظم الناس إيمانا بهذا الأمر واهتماما به ، ولم يشغلهم ذلك عن العمل للدنيا بل تقدموا على غيرهم ممن لم يشغلهم هذا الأمل العظيم وثانيا : لا يخفى أن أكثر البشرية من قبل ثلاثمائة عام أو قريبا منها مؤمنون بهذا الأمر ، وقد عمروا الدنيا عمارة أعظم من عمارة الشعوب المنحلة الجاهلة الملحدة ، بل هؤلاء الملاحدة المحض لم يعملوا شيئا يذكر فقد عجزوا شعوبا كما عجزوا أفرادا عن ايجاد شيء كبير منها بأنفسهم ، وكل هذه الحضارات الحاضرة التى فى أيدي هؤلاء الملاحدين المتحللين ونحوهم فى هذه

(١) كلام صريح واضح فى الحث على الكفر بالآخرة

السنين الأخيرة ما هي إلا آثار أولئك المتدينين كما مر تقريره ، وهذا الشيء لا يمكن الماراة فيه ولا يجادل فيه إلا مكابر . وقد قال السيد محمد رشيد رضا في تفسير المنارج ١٠ ص ٣٥٢ : إن نصف الدول الافرنجية خاضعون للدين الكنائسى . وهذا في وقته هو في نحو سنة ١٣٥٠ مع فشو الاتحاد فكيف بما قبله .

ونقول ثالثا : ان هذا الأمل الكبير من أعظم ما يدفع الانسان على العمل فانه اذا كان المؤمن يعلم ان هذه الحياة السعيدة التي لا يشعر فيها بشيء من المكدرات لا تدرك إلا بطاعة الله تعالى ، وأن من أعظم طاعته الجهاد في سبيله بالنفس والمال وما هو وسيلة الى ذلك من صناعة أو زراعة أو علوم دينية أو مادية أو غيرها ، فان كل عمل فيه نفع للامة ونصر للدين - من الاسباب التي توصل الى هذا النعيم الابدى - فلا شك أنه يقوم بالجد والاجتهاد والعمل المتواصل المستمر القوى لتحصيل هذه الوسائل التي توصل الى هذا النعيم وتقيه من عذاب الجحيم ، وعلى هذا فلا بد من أن يحارب ويخاصم ويتناضل ويغاضب ويسلم في سبيل الحق والعدالة وإزالة الظلم والاستعباد والقهر والعسف وكل ما يقف في هذا السبيل الذي هو هذا الأمل الكبير فانه لا ينال إلا بذلك ، فكيف يدعى هذا الملحد أن من يأمل هذا لا يعمل شيئا من هذه الأمور ، فهل هذا إلا من أفسد ما يقال

ويقال رابعا : أنت ذكرت في هذا أنه لا يمكن أن يعيش أحد بلا أمل ، فيكون أمل الملاحدة منحصر في شيء ما من أعراض الدنيا التافهة ، وأكثر ما يوجد هذا الأمل ولا سيما في الكثرة الساحقة هو الاستحصال على الصور البديعة الجميلة والانسجام معها ونبتذ ما يكدر ذلك ويشغل عنه ، وكثير من هؤلاء أيضا يكون غاية أمله الحصول على المادة من أى وجه جاءت من جميع الطرق الكثيرة المختلفة ، وكل هذا يوجب الضعف والوهن عن العمل

والكسل العظيم ، والانصراف الى هذه المطالب النافقة والتمتع بها والاشتغال بها عن الأعمال الكبيرة النافعة وإيجاد وسائل الحياة ، ولهذا تجرد العمل الاختياري الصحيح يكاد أن يكون مفقودا في الشعوب المناقصة والمملحة ، وإنما يدفعون الى هذه الأعمال دفعا قهريا ^(١) ، حينئذ فلا فرق من هذه الوجهة بين متدين ولا غيره اذا كان العمل إجباريا قهريا ، فيبطل الفرق الذي حاوله ، بل ربما يكون المتدين أنجح لثباته وقوة صبره في كل أعماله ، فان المتدين عند جميع العقلاء اهدأ قلبا وأعظم عزيمته من الملحد ، فانه عكسه في هذه الأخلاق كلها

أما ما استشهد به من أن معاوية قال لابنه ، أما فلان فقد أعجزه الورع ، الى آخره فاستشهاد ساقط لا محل له ، فان الكلام في هذه الجملة في الأمل الأخرى ومعاوية بلا ريب عند المسلمين ممن يؤمن بهذا الأمل ويطلبه . ثم هذا القول لو صح ليس فيه ما يتشبث به ، فان معاوية لم يذم هذا الشخص الذي ادعى أنه أعجزه الورع بل مدحه ، وإنما بين لابته أنه أعجزه - أو حجزه كما في القول الآخر - عن الدخول فيما لا يعنيه وما لا فائدة فيه من إثارة الفتن وسفك الدماء بدون فائدة سوى الضرر العام على هذا الشخص وعلى الأمة كلها فان هذا ليس من العجز في شيء ، فان العجز هو القعود عن الشيء النافع المقدور على استحصله ، أما ترك المضارة والفتن والتباعد عنها فليس من العجز في شيء ، بل هذا هو الحزم ونفع الأمة واجتناب ما قد يعود عليها بالضرر العام ، ولهذا لما قام الحسين وهو أفضل من قام في ذلك لم يحصل شيء من النفع

(١) ياليت هذا الملحد المنكود عاش بين أولئك الشعوب المملحة ليعرف كيف الضغط والقهر والاضطهاد السائد فيهم وما يلاقونه من الشدة والانحلال والقيود ، وهذا أمر لا يستريب فيه إلا جاهل أحمق

لاله ولا للأمة ، بل حصل ضرر كبير عام ، فأى فائدة في القيام على هذا الوجه .

وأما قوله : فاذا لاحظنا على المتدينين أفرادا وشعوبا عجزا عن إيجاد الحياة ، الى آخره

يقال : اذا لاحظت ذلك فانما تلاحظ فجورك الذى اخترعته من رأسك لنفسك وبنيت عليه أوهاما لا حقيقة لها ، وإلا فأى عاقل من عقلاء بنى آدم يصدقك ويكذب ما علم بالضرورة والمشاهدة والحس ، فان المتدينين هم الذين نشروا النور وهدوا الناس الى كل حياة صحيحة وما هذه الحضارة القائمة إلا من الآثار المأخوذة عنهم كما اعترفت أنت بذلك قبل أن ترتد وبعد أن ارتددت غفلة منك فى صدر هذا الكتاب حيث ادعيت أن المجرد من كل دين يبقى على العدوان المطلق وعلى طبعه الخبيث والجهل والظلم . ثم إن ما ذكرته هنا مبنى على أن جميع المتدينين يزهدون فى الدنيا وأسبابها كلها وأدنى عاى فضلا عن غيره يكذبك فى هذه الدعوى لأنها خلاف ما ينظره الناس ويشاهدونه

وليس يصح فى الازدهان شيء إذا احتاج النهار الى دليل

فهذا الذى لاحظته إنما لاحظته بعين بصيرتك العمياء فلم تلاحظ شيئا موجودا وإنما تلاحظ ما قام بقلبك ورسخ فيه من الخيالات والأوهام الخبيثة الباطلة ، ولهذا فإنه لا يعلم أن أحدا لا حظه غيرك ، ما لم يكن على شاكلتك فى اعتقادك

وأما ادخالك ما جرى بين على بن أبى طالب ومعاوية فى هذه المسألة فمن الخطأ الفاحش والاختلال الواضح ، فليس للاتيان بها فى هذا المحل أدنى علاقة فانك قلت فى أول هذه الجملة : على أن هنالك ما هو أكبر وأظهر فى إيجاد الاختلاف بين المتدين وغيره فى هذه القضية ، فصريح كلامك فى بيان

الاختلاف بين المتدين وغير المتدين ، ومعلوم عند المسلمين أن عليا ومعاوية رضى الله عنهما من المتدينين فلا معنى للنشيد بمسألتهم والاستشهاد بها على الفرق بين المتدين وغيره . ثم ان مسألة ما جرى بين علي ومعاوية رضى الله عنهما من أبلغ الحجج عليك وعلى أمثالك من الملاحدة والزنادقة الذين يسندون الأمور في التقدم والتأخر الى النواميس الطبيعية والى الأسباب المادية ، فان عليا رضى الله عنه أخرى بالانتصار لو كان ذلك بمجرد الأسباب المادية لأنه أقوى من معاوية ، فان جنده أكثر والدواعى الى نصره والقيام معه أبين وأظهر للأكثر . ولكن هناك أسبابا دينية عارضت هذه الأسباب ، ولا بد أن يكون النصر فى جانبها حتما

ونحن نوضح هذه المسألة بقدر ما يحتمله هذا الموضوع ونبين أنه لا حجة له فيما حاوله منها ، وأنه ليس السبب فى فشل على هو ورعه وتقواه كما زعم هذا وبعض من لا بصيرة له . فنقول : ان الله سبحانه وتعالى قد قضى قضاء لا مرد له وسن سننا لا تبدل لها ولا تحويل . ومن هذه السنن الثابتة العظيمة أنه تعالى ينصر رسله والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد ، فينصرهم على من قصدهم بسوء وحارهم وأذاهم وقاتلهم من الكافرين والمنافقين والظالمين المعتدين ، كما أخبر تعالى بذلك فى غير ما آية من كتابه العزيز . وقد كان من المعلوم عند جميع المسلمين أن الخليفة الراشد عثمان بن عفان من أكابر أولياء الله المتقين والأئمة المهديين وقد أجمع على مبايعته أفضل الخلق بعد الانبياء إجماعا قطعيا كما نص على ذلك الامام أحمد وغيره ، وقد شهد له رسول الله ﷺ بالجنة وقال : ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم ، فقد كان خليفة راشدا تقيا ولما عادلا محسنا مرضيا ، فلما أن منحه الله هذا المقام الشريف فى الخلافة وطال عمره وكثرت الفتوحات فى زمنه وصار المسلمون فى خلافته وخلافة من قبله يدا واحدة على عدوهم - خرجت صدور أعدائهم من الفرس

مواليهود ومن شابههم من المنافقين الذين دخلوا في الاسلام كيداً له وللغرب ،
فقاموا - ورأسهم الزنديق عبد الله بن سبأ اليهودي الذي ادعى الاسلام ،
وسعى في افساده ، وادعى مع ذلك أنه مؤمن بالله وباليوم الآخر ليقتضى غرضه
بذلك - وما زالوا يؤلبون الناس على عثمان ويسعون في إثارة الفتنة عليه في
العراق وفي مصر حيث وجدوا هنالك سماعين لهم حتى دخلت دعايتهم قلوب
كثير من الغوغاء وضعفاء البصائر ممن لم يدخل الايمان الصحيح في قلبه ومن
غلب هواه على عقله ، وقد صاغوا هذه الدعاية الممقوتة في قالب التشيع لأهل
البيت والتظاهر بالمحاماة لهم وأنهم أولى بالخلافة وأن علياً هو الأولي بها -
فقام هؤلاء المنافقون ومن استخفوا به من الجهلاء على هذا الخليفة الراشد
التقى البار بغيا وعدارنا وظلما وحسد له على هذه النعمة التي خلعها الله عليه
محاولين خلعه منها أو قتله ونقل الخلافة الى علي بن أبي طالب بحجة أنه أولى
بها منه ، من أجل ماذا ، من أجل أن علياً من بني هاشم وأن عثمان من بني
أمية ، وان هذا أولى من هذا بملك الله ولو كان أفضل منه ، ومعنى هذا أنهم
اعتمدوا على الأسباب المادية ، فانتصبوا خصوماً لرب العالمين داخلين بينه
وبين عباده في ملكه الذي يتصرف فيه كيف شاء فيؤتي الملك من يشاء وينزع
الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير
ليس لأحد معه في ملكه مثقال أدنى حبة من خردل من شركة ، وقد أخرجهم
طول عمر هذا الخليفة مع أنه أحق بها من غيره ، ولكنهم أبوا إلا أن يسفها
آراء الذين أثنى الله عليهم في كتابه العزيز وأخبر أنهم لا تأخذهم في الله لومة
لأثم في اختيارهم إياه خليفة للمسلمين ، ولهذا فانهم أبوا إلا اتباع أهوائهم
وشهواتهم فرأوا أنه لا بد من انتزاع هذه الولاية من هذا الخليفة وهي في يده
وإعطائها من أرادوه هم ولو أفضى ذلك الى قتل هذا الولي المعصوم الدم ،
وحقيقة هذا محاربة الله ومحاولة تبديل سنته كما قال عليه الصلاة والسلام : من

آخى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة ، الحديث (١) فقام هؤلاء البغاة المعتدون الى هذا الخليفة الذى أجمع المسلمون على بيعته وولايته وتقواه وفضيلته على غيرهم يدون أدنى مشاورة من أكابر الصحابة وأولى الأمر والرأى ، ثم عمدوا اليه متعتين عليه المرة تلو المرة بأنه ظالم وأنه غير عادل ثم تطلبوا منه أشياء لاحق لهم فيها تمردا وعنادا مع وجود من هو أكبر منهم وأولى فى الطلب ، وهو لكرمه وحيائه وورعه وتقواه وشفقته على الدين والمسلمين يتنازل لهم عن ما طلبوه بما هو محتص بحقوقه الشخصية حتى اسكتهم . فلما لم تجد هذه الفئة الباغية طريقا تقضى به غرضها تعتمد الى مكر آخر فتدعى أنها وجدت صورة ختمه بأنه أمر بقتل رجل منهم مع رسوله ، مع أنه من الجائز أن يكون بعض هؤلاء هو الذى صنع الصورة ودسها على الرسول إما عند الحصول عليه أو قبله ، ثم يأتون اليه فيسألون عن ذلك فيحلف لهم بالله أنه لم يعلم بذلك (وليس وراء الله للمرء مطلب) وهو الصادق البار الذى لا يشك فى صدقه إلا كل خيث ضال ، ثم يدعون عليه بأن كاتبه هو الذى فعل ذلك ظنا منهم (ان الظن لا يغنى من الحق شيئا) ثم لو ثبت هذا ماذا يكون ، أوجب هذا قتل رجل معصوم الدم ، فضلا عن خليفة راشد . . . فلما أن عجزت هذه الفئة عن أن تجد سبيلا إلى غرضها وأخرجها الغيظ والبلاء الذى حملته وحملها فى صدورهما عمدت اليه تحصره فى بيته هو وأهله وذريته ، ثم تمنع وصول الماء للبارد اليه ، ثم تقسور عليه فتقتله فى داره وبين أهله وهو جالس يقرأ كتاب الله تعالى وأهله وبنيه عنده فى تلك الساعة الرهيبة بأنفاس متصاعدة تلتهب منها آفاق السماء ، ودموع مرسلة تستنزل غضب الله على الأرض كأن لم يكن هذا الشيخ المقتول وليا لله والله وليه وناصره وكفى به وليا وكفى به نصيرا .

وانه لنعم المولى ونعم النصير ، ثم تذهب هذه الطائفة الخبيثة لتقضى حاجتها وتنفذ أغراضها التي جاءت لها بمبايعة علي بن أبي طالب فتلتف حوله وتدخل في جيشه ، ثم تظن أو تعتقد أن هذا الجيش الذي هي فيه سينتصر ويذهب دم عثمان ولي الله الشهيد المظلوم أدراج الرياح ، هيهات هيهات ، إن الله لا يهدي كيد الخائنين ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً . دار الفلك وجاء القضاء المحتوم الجبار بأن لا يكون الأمر على ما ظنوا ولا على ما زعموا (تلك أمانيتهم) فلقد قتل - بسبب هذا الولي الشهيد الذي اجترأ هؤلاء المعتدون على قتله ، وتساهل من تساهل في نصره - ما يزيد على مائة ألف قتيل ، ثم بعد هذا تكون الفرقة الطاغية الباغية المشردة المبددة وهؤلاء المتقاعدون أو المتساهلون في القيام معه من أجل أنه من بني أمية داخلين قهراً تحت حكم بني أمية عصابة هذا الولي الشهيد ، تحت حكم معاوية بل وابنه يزيد على رغم أنف كل من جزع من ذلك ، ثم تحت حكم بني مروان الذي حسد بكونه كاتباً لعثمان وهو من بني أمية ، هذا مع وجود أبناء علي وفاطمة ، فيبقى هذا الجيل كله تحت حكم عصابة هذا الخليفة المقتول ينظرونهم وهم يحكمون ويتحكمون فيهم ، وكل من قام أو عارض قتل ولم ينل شيئاً حتى فنى هذا الجيل عن آخره ، فلما لم يحجزهم الدين والورع عن قتل هذا الخليفة العادل الولي الذي حجزه عنهم الدين والورع فكفروا بهذه النعمة سلط الله عليهم من لا يحجزه عنهم ورع ولا غيره ، بل يطاردهم ويقاثلهم في الصحارى وغيرها إذا حاولوا القيام والتعنّت عليه ، فالحكم لله العلي الكبير ، فانتصر الله لوليّه أعظم انتصار ، وأجرى سنته الماضية في العالمين ، وانتقم لعبيده التي المظلوم والله ولي المتقين ، فقتل هؤلاء الطغاة البغاة شر قتلة ، ومن بق منهم اذيقوا مرارة الذل والخزي والتشريد والطرده ، وما نالوا مما راموا شيئاً ، بل حطت أعمالهم وحيل بينهم وبين ما يشتهون . أما من لم يدخل مع هؤلاء من أهل الدين والتقوى فلم ينلهم ضرر بالكلية ، وليس في ولاية بني أمية ضرر عليهم .

فانهم لم يتعرضوا للناس في أديانهم وأمورهم الخاصة وانما كانوا نقمة على أهل الشر والظلم والعدوان

ولو أن عليا انتصر على معاوية وهم معه في جيشه لكان في ذلك نصر لهم وتنفيذ لغرضهم وقضاء لمآربهم التي طلبوها بمعاندة الله ومحاربة أوليائه ، وهذا خلاف ما علم من سنة الله في خلقه من نصر أوليائه المتقين وخذلان أعدائهم المعتدين ، فحال أن ينصر الله جيشا مدخولا بالزنادقة والمنافقين على جيش آخر ليس مثله ، وإن كان في هذا الجيش المدخول بررة أتياء كعلي وغيره ، فان الله تعالى يقول ﴿ واتقوا فتنة لا تصيب الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ فينبغي أن الفتنة لا تصيب الذين ظلموا خاصة بل قد تتناول وتشمل من هو معهم أو فيهم أوله علاقة بهم ، وهكذا كان الواقع في كثير من الفتن ، فالفتن الكبرى تعم في الغالب ، فالمطلوب اتقاؤها والتباعد منها ، ولهذا أشار ابن عباس وابن عمر والحسن بن علي رضي الله عنهم بترك القتال أولا ، ولكن عليا رضي الله عنه لم يكن يظن أن الأمر يبلغ ما بلغ كما أخبر بذلك عن نفسه (١)

فتقوى عثمان رضي الله عنه وولايته لله وورعه ذلك الورع العظيم النادر الذي يتضامل دونه كل ورع ، واعتداء هؤلاء الطغاة الظلمة عليه وبعدهم عن التقوى والورع ، من أعظم الأسباب التي كانت عاملا في انهيار جيش علي أمام جيش معاوية . وهذا برهان ظاهر على أن الأسباب المادية لا تقاوم الأسباب الدينية ، وأن المشيئة العليا هي المستقلة بتصريف الأسباب ونتائجها ، وإلا فكل إنسان يعلم بداهة أن أسبابا على المادية أكثر من أسباب معاوية ، وما النصر إلا من عند الله ، ولهذا ترى كثيرا من الناس يتعجب من هذا الانتصار لضعف تصور أسبابه الحقيقية فالنصر إنما أتى من هذه الناحية المشار إليها ، وإلا

فلا شك عند المسلمين بأن عليا نفسه أفضل من معاوية ، بل معاوية معترف بهذا ولم يقاتل مدعيا أنه أفضل من علي أو أنه أحق بالخلافة منه ، وإنما قاتل بطلب دم عثمان وتسليم المجرمين اليه أو الاقتصاص منهم ، حتى قال فيما قال لجيشه : إما أن يكون علي راضيا بقتل عثمان ، أو كارها له ولكنه عاجز عن إقامة الحد على من قتله ، فإن كان عاجزا فكيف يستطيع أن يحميمكم من هؤلاء ، وإن كان راضيا فكيف ندخل في طاعته وقد تقرر لدى الجيش كله أن عثمان قتل مظلوما شهيدا فلا يمكن أن يضيع دمه ، وكان من البلاء أن كثيرا من جيوش الطرفين يتظاهرون بأن عليا كان راضيا بقتله لتبرير كل منهم فعله وقصده ، وكل هذا كذب ظاهر ، بل على من أولياء الله المتقين ، وحاشا أن يرضى بقتل عثمان ، وكان يحلف على ذلك وهو الصادق بلا ريب ، ولكن البلاء المين إنما جاء من الخبث الذى فى جيشه ، فانه مدخول بالمنافقين وهم كثيرون ، لأن دعاية الفرس والزنادقة أثرت فيهم كثيرا . ولهذا كانت الفتن لا تفتأ قائمة بينهم أنفسهم ، وقد قلنا فيما سبق إن التفاف النفوس كالوباء للأبدان متى حل فيها أهلها ، فكان هذا الوباء العظيم من أعظم ما أفسد هذا الجيش الكثير كما هى العادة السائرة المطردة فيه . وإذا كان الوباء المادى يفسد الجيش ويدمره ويحدث فيه الانهيار فكذلك التفاف فانه أعظم فتكا منه ، لأن علاقته بالنفوس لا الأبدان ^(١) ، والنفوس هى الغوامل الحقيقية ، والمواد تبع لها ، ولتكن الآية السابقة على بالك وهى قوله تعالى ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ تعرف بها أن ضرر النفس يتعدى الى غير من ظلموا كما قيل :

وجرم جره سفهاء قوم قل بغير جارمه العذاب

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أخبر عن نبيه ﷺ أنه لو خرج معه

(١) ولكن قد يؤثر فى الأبدان

لنفاقون ما زادوا جيشه إلا خبالا وحصل منهم فساد فيه كما حصل في أحد ، مع أنه أفضل الخلق ، فكيف لا يؤثر النفاق في جيش على ، وقد لاحظ هذا الحسن رضى الله عنه ، فانه لما علم أن هذا الجيش فيه من الفساد ما يمنع الانتفاع به لمن استصحبه تركه وسلم الخلافة لمعاوية ، وما يعلم قط أن جيشا كثر فيه النفاق فانتصر أبدا إلا أن يكون مقاتله مثله أو دونه كما تقدم ، ولهذا قال تعالى فيهم ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولا وضعوا خلالكم يبيغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين ﴾ وهكذا كان حالهم مع على ومع غيره فانهم أوضاعوا خلال جيش على وجيش ابنه الحسن الفتنة وخانوا الحسين فلم يفوا بما وعدوه فكانوا نعمة على أهل البيت ، فلما ماتوا آذوهم بعبادتهم والشرك بهم والكفر بالله عند قبورهم وادعوا أنهم يعظمونهم وهم يؤذونهم ^(١) والمقصود أن انهيار جيش على كان بسبب المنافقين الذين يعتمدون على الأسباب المادية غير مفوضين الأمور الى الله تعالى آخذين بالأسباب التي أرشد اليها ، ولهذا كانوا يحدثون الشغب والضجر والقلق وكثرة التبرم بعضهم من بعض ، فأوضاعوا خلال هذا الجيش الفتنة بالاختلاف والتنافر والتباغض والفوضى ، حتى حصل الانهيار والتفكك في هذا الجيش العظيم ، وقد فطن لهذا على رضى الله عنه أيضا فقال لهم ، وددت لو صرفتكم بأهل الشام صرف الدرهم بالدينار ، وهذا يدل على أنه بعد أن اختبرهم علم عدم الوثوق بهم لما بهم من عدم الثبات والائتلاف الذى هو ثمرة الايمان الصادق والتقوى والورع ، وأما جيش معاوية فليس فيهم من شارك في دم عثمان الشهيد وكانوا معه كسهم واحد متفقين اتفاقا صادقا ، لأنهم جاءوا لقصد

(١) بل هم أعظم الناس إيذاء لهم وسبا وقدحا فيهم ، لأنهم يكفرون بالله عند قبورهم ويكذبون على الله ورسوله بأنه شرع ذلك وينسبونه اليهم وأمثال هذا . وهذه عادة الأحمق يريد أن ينفع فيضر

واحد وان كان كل من هؤلاء وهؤلاء في الجملة مسلمين ، لكن الخصائص
المفسدة كانت مختصة بالدخول في جيش على ، ولهذا بعد أن قتلوا عثمان ولم يتم
الامر لعل انقلب أكثرهم عليه خوارج وغيرهم فقاتلوه فكان عنصر ضعف
الدين فيهم متقدما ، فصار النصر في غير هذه الجهة المدخولة بالنفاق وسوء
التنظيم الديني ، ولو أن الجيش الذي مع على غير مدخول بهذه العناصر الخبيثة
لكان في ذلك نوع شبهة لدعوى هذا الملحد وأمثاله ، هذا مع أن دعواه أيضا
- كما تقدم - في بيان الاختلاف بين المتدين وغيره ، وهؤلاء في الجملة كلهم
متدينون ، أما كون بعض من جيش على توقفوا عن القتال لما رأوا رفع
المصاحف وأن ذلك دليل على الورع والتقوى فليس بصحيح ، بل هو دليل
على ضعف الرأي والحزم المنافي للورع والتقوى ، فانه لو دل على أن ذلك
من الورع والتقوى لكان ذلك قد جافى علما لأنه خالفهم في هذا الرأي فيكون
خلافه عدم ورع وتقوى وقد بين ان ذلك خدعة والمخالف يوافق على أن فعل
على هو الصواب وهو المطلوب ، فبطل كون ذلك منهم ورعا ، ولهذا لما خالفهم
على في كف القتال قالوا له : إن لم تجب فعلنا بك مثل ما فعلنا بابن عفان ،
وهذا غاية الغباء والجهل ، اذ كيف يقتلون الأولياء في بيوتهم وهم يقرأون
في مصاحفهم ويكفون عن أعدائهم المحاربين لهم في الصحراء ^(١) وهذا ليس
من الورع والتقوى في شيء ، وبكل حال فهم مخطئون في نفس الامر
ومخالفون للورع والتقوى . ثم إن علما قد بين لهم وجه الحق في ذلك وهم قد
بايعوه وتابعوه وقاتلوا معه ولا جله فكيف يعصونه في ذلك

وأما احتجاج بعض الناس بأن قتال على مشروع وأن معاوية وأصحابه
بغاة مستحقون للقتال فهذا الاحتجاج ليس بصحيح ، أما آية القتال فلا تنطبق

(١) أي حينما رفعوا المصاحف

على هذا القتال وهي قوله تعالى ﴿ وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا
بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله ﴾
فالقِتال المشروع فيها عند البغي بعد الصلح ، ومعلوم أن عليا بدأ معاوية
بالقتال ، ثم هي تنقض أصل من احتج بها من الشيعة الذين يدعون أن
خصوم علي غير مؤمنين ، ثم إنه لا يجوز قتال المؤمنين ابتداء ، والبغاة هم
الذين يبيعون على الناس ويقاتلونهم بدون حق ، ولهذا ذهب جماهير العلماء من
الأئمة الأربعة وأتباعهم الى أن هذا القتال قتال فتنة ، وأن ترك القتال من
الطائفتين أولى ^(١) ، كما أن كثيرا من أكابر الصحابة لم يقاتلوا مع علي ولا مع
معاوية ، ولو كان ذلك مشروعا وفيه نص لم يخف على جماهير الأمة ، ولو كان
أيضا مشروعا لم يمدح النبي ﷺ الحسن بتركه ، ولو كان أيضا مشروعا لاحتج
على رضى الله عنه على فعله هذا بالدليل على مشروعيته ولم يصرح بأن ذلك
رأى منه كما فى سنن أبى داود وغيره عن قيس بن عباد قال : قلت لعلى :
أخبرنا عن مسيرك هذا عهد عهده اليك رسول الله ﷺ أم رأى رأيته .
فقال : ما عهد الى النبي صلى الله عليه وسلم شيئا . وهذا نص صريح منه بأترافه
بأنه ليس عنده دليل واضح من السنة على مشروعية هذا القتال ، اذ لو كان
عنده نص لاستدل به كما استدل على قتال الخوارج بالنصوص الكثيرة
وانتصر عليهم . وأيضا فالذين خرجوا على عثمان وقتلوه فى داره بين
أهله بدون حجة بغاة باتفاق المسلمين ، فكان يجب أن يقاتلوا ، فانهم قتلوا
وأفسدوا وأثاروا الفتن وشقوا العصا وفرقوا بين المسلمين فقتلهم أولى فى
الدخول فى الأمر بقتال البغاة ، فلو فرض أن أولئك بغاة مختلف فيهم فهؤلاء
بغاة متفق عليهم ، فكانوا أولى بالقتال . وقد طعن بعض أئمة الحديث فى
الرواية التى فيها أنه عليه السلام قال لعبار : تقتلك الفتنة الباغية ، فهذه الرواية

تكلم فيها كثير من العلماء مثل الامام أحمد في رواية عنه ويحيى بن معين وحسين الكرايسى وغيرهم^(١) والقصة أخرجها البخارى بدون هذه الزيادة ، وعلى فرض ثبوتها فليست نصا في مشروعية ابتداء القتال ، فان الباغي المؤمن لا يبدأ بالقتال مطلقا ، ولو فرض أن قتال معاوية مشروع وأنه لا تجوز ولايته لزم الطعن في الحسن بن علي رضي الله عنه لأنه ترك القتال وسلم الأمر لمعاوية ، وقد مدحه النبي صلى الله عليه وسلم على هذا الفعل العظيم كما في الصحيحين أنه عليه السلام قال « إن ابني هذا سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين ، فيكون الحسن على مقتضى زعم المعادين لعثمان وأضرابهم عاصيا بترك هذا القتال ، وعاصيا بتسليم أمر الأمة الاسلامية لهؤلاء البغاة ، ويكون هذا الحديث ذما له لا مدح فيه ، ومعلوم أن هذا من أفسد ما يقال ، بل يكون مخالفا للكتاب والسنة اللذين استدل بهما المعارض ، وبالجملة ففعل الحسن رضي الله عنه الذي اتى عليه النبي صلى الله عليه وسلم به مخالف لفعل أبيه وأخيه وقد مدحه النبي صلى الله عليه وسلم على فعله هذا فلا بد من حمل ما فعله على الاجتهاد ، فان عليا رضي الله عنه ظن أن معاوية سيسلم الأمر وأن في ذلك جمعا لكلمة المسلمين ، ولم يكن يظن أن الأمر سيبلغ ما بلغ ، لأنه بلا ريب أفضل من معاوية وأولى بالحق منه فلما أن وقع ما وقع ندم على ذلك وكان يقول « يا حسن يا حسن ، ما ظن أبوك أن الأمر يبلغ هذا ، لله در مقام قامه سعد بن مالك وعبد الله بن عمر ، إن كان برا إن أجره لعظيم ، وإن كان إثما ان خطره ليسير ، نقل هذا عنه شيخ الاسلام بن تيمية في منهاج السنة ١٨٠ ج ٢ وذكر عنه انه كان يقول :

(١) قال شيخ الاسلام في (منهاج السنة) ج ٢ ص ٩٤ في كلامه على حديث عمار « تقتلك الفئة الباغية ، ما نصه : « وطائفة من العلماء ضعفوا هذا الحديث ، منهم حسين الكرايسى وغيره ، ونقل عن أحد أيضا ،

لقد عجزت عجرة لا أعتذر سوف أكيس بعدها واستمر
واجمع الرأى الثبتت المنتشر

ومن العجيب احتجاج بعضهم بحديث د أهل بيتى كسفينة نوح من ركبها
نجا ومن تخلف عنها غرق ، وهذا الحديث لم يروه أحد من العلماء المعتمدين ،
بل حكموا بأنه حديث باطل (١) ، فانه من المعلوم أن سفينة نوح واحدة
ومذاهب المنتسبين لأهل البيت كثيرة جدا ، وفيهم من يبدع بعضهم بعضا
ويكفر بعضهم بعضا وكل منهم يدعى أن مذهبه هو سفينة نوح ، فكيف
تكون هذه الشيعة المتضادة كسفينة نوح ، ولهذا تجد الغالية تحتج به وتجد
الامامية تحتج به وتجد الاسماعلية والنجارية وغيرهم يحتجون به ، وكل من
هو لاء له نحلة قد ذهب اليها وضلل من خالفها والنبي صلى الله عليه وسلم قد بين
الفرقة الناجية بقوله د من كان مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي ، متفق عليه من
حديث قد تقدم . والمقصود أن ما استدلل به هذا الملحد من انهيار جيش على
وتعليل ذلك بأنهم شغلوا بالتقوى والاهتمام بالجنة وأن هذا الأمل هو الذى
أفسدهم وأن مقابلهم على خلافهم كذب ظاهر يعرفه أدنى عاقل ، بل الأمر
بالعكس فان الانهيار إنما جاء بسبب المنافقين الذين استحبوا الحياة الدنيا على
الآخرة واعتمدوا على الأسباب المادية وقتلوا عثمان ثم قاتلوا طلحة والزبير
وأثاروا الفتنة تلو الفتنة ، ثم آذوا عليا بالاختلاف عليه ، ثم انقلب بعضهم

(١) كما حكم عليه فى (المنهاج) وغيره . والحق أن من اتبع الكتاب والسنة
فهو الذى على الحق ، أما من تعبد الله بشتم الصحابة والقرون المفضلة وعطل صفات
الله وعبد القبور فهذا مضاد للقرآن ، وقد علم أن النبي ﷺ قال لفاطمة رضى الله
عنها سليمان من مالى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئا وقال د لو أن فاطمة بنت محمد
مقرقت لقطعت يدها ، ولكن أعداء الدين لم يدخلوا على أفساد العرب والقام
البغضاء بينهم إلا من هذا الطريق وأمثاله

عليه وقاتله ، فهذا أصل البلاء ^(١) فان المنافقين هم أصل كل فساد في كل الأمم ولولا كثرة وجودهم في هذه الأمة الإسلامية لما أصابها من الضعف والمحن ما أصابها ، فان هؤلاء هم الذين أسسوا تعطيل الصفات وتحريفها عن ظواهرها وأسسوا عبادة القبور والبناء عليها والصلاة عندها ، وهم الذين أسسوا تحكيم الطواغيت بدلا من أحكام الله ، فكيف ينهض المسلمون وهذه العلل متغلغلة في أعصابهم وقواهم ، فلا بد من إزالتها بالأخذ بما جاءهم من الله من النور والكتاب المبين ، ولا يمكن لهم الحصول على هذا إلا بالأخذ بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه في الاخلاق الدينية كما قال الأئمة « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، ولهذا لما نبغت هذه الفرقة الباغية واغترت بدسائس الفرس وأمثالهم حصل ما حصل حتى تعدى ضررهم الى غيرهم وكانوا فتنة لكل زنديق ومنافق

ومما يستدعي النظر والاعتبار أن جميع الذين قاموا في هذه الفتنة في قتل عثمان رضي الله عنه عوقبوا في الدنيا من جنس ما فعلوه في فتنتهم ، فانهم لما تكادوا أن يرجعوا الى بلادهم وتركوا الفتنة رجعوا مجمعين على المكر والخديعة بدعوى الدين وأنهم قائمون بالحق ، وجعلوا مسألة مروان ذريعة لهم ، وعثمان رضي الله عنهم يعلم حقيقة أمرهم وأنهم لا يقصدون إلا نزع الخلافة إما بقتله

(١) ومن الغريب أن بعض الكتاب احتج على تأخر علي بأنه كان ورعا تقيا ، واستدل على ذلك بأنه لم يكن يعطى ولأنه من الأموال إلا قليلا ، وكان يدقق المحاسبة عليهم ، وأن معاوية بخلاف ذلك ، وما شعر هذا الكاتب أن انتصار معاوية لم يأت من ناحية المال وإنما جاء من القتال ، ومعلوم أن أخذ المال وخطره أسهل من خطر القتال والدماء . فهذا الكاتب لم ينظر الى مقدمات الفتنة ، ولم ينظر الى الاسباب التي حصل بسببها التقدم والتأخر ، وإنما نظر الى سبب لم يحصل لعل منه ضرر البتة ، وإنما جاء الضرر من غيره

أو خلعه ، لا يريدون مروان . ولهذا لما قتلوه تركوا مروان ولم يقتلوه مع
 قديرتهم عليه (وحسبوا أن لا تكون فتنة) فلهذا أعطوا جزاءهم في الدنيا
 فضلا عن الآخرة ، فانهم لما كادوا أن يهزموا جيش الشام وأن يحصل لهم
 النصر والظفر أظهر الله لهم من يكيد لهم ويمكر بهم بدعوى القيام بالحق في
 رفع المصاحف ، فكانت النتيجة الفشل النهائي ، كما كانت نتيجة رجوعهم الأول
 بالكيد والمكر حصولهم على الشر والاجرام المنكر في حقهم ، أما في حق
 عثمان فهو الخير ، فانه ظفر بالشهادة الحقيقية التي لا ينالها الا المقربون . ثم
 رؤساء هذه الفتنة - مثل محمد بن أبي بكر والاشتر النخعي وغيرهما - كل منهم
 جوزى من جنس فعله ، فان محمدا كان من أول من شب نار الفتنة لجيفة الدنيا
 فدخل على عثمان وقد منع عنه الماء ففعل ما فعل ، فلذا كانت خاتمته أن وجد
 في خربة من خرائب مصر هاربا في غاية العطش فقتل وهو على تلك الحالة ثم
 شبوا عليه النار في جيفة حمار . وكذلك الاشتر النخعي ، فانه كان قائما في الفتنة
 بدعوى إقامة الحق ، وباطنه الكيد والمكر ، فلذا كانت خاتمته أن سلط الله
 عليه من سقاه سما في عسل حتى مات في ذهابه الى مصر للولاية عليها)) وجيل بينهم
 وبين ما يشتهون)) ، فعاقبة النغي والبغي والعدوان لا بد أن تكون وخيمة ، كما
 أن عاقبة أهل الدين والتقوى هي العاقبة الحميدة ، سنة مطردة لا تبديل لها
 ولا تحويل

وينبغي أن يعلم أن الذي دعانا إلى الافاضة في هذه المسألة يسان الأسباب
 والعوامل الأساسية الدينية والدنيوية في التقدم والتأخر ، وبيان أن النصر
 يكون دائما في جانب التقوى في الجملة لا في التفصيل ، وأن البغي والعدوان
 والتفاق - وهذه الأمور منشأها الاعتماد على الأسباب المادية فقط - لا بد أن
 تكون عاقبة أهلها وخيمة اذا كان مقابلهم أهل دين صحيح ، لا اذا كان مقابلهم
 مثلهم . وقد رأيت كلاما كثيرا لبعض العلماء من الكتب غيرهم من المتدينين

وغيرهم في هذه المسألة فيه أشياء كثيرة من الاخطاء والاغلاط الفاحشة ،
فهذا وجب على الانسان بيان ما يراه في هذه المسألة - ليعلم به تلك الاغلاط
من الطرفين - وإن كان في كلامنا هذا ما لا يرضاه من أصيب بدام الرفض ، فإن
هذا الداء العضال قد وقع فيه من شاء الله ممن لا يعددهم ولا يحصيهم إلا هو
تعالى ، فهو لاء - بلا شك - لا يرضون إلا على من اتبع ملتهم وأهواءهم ،
ولا يقوم لا يرضون عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن جماهير
السلف الذين بذلوا نفوسهم لله تعالى ولدينه كيف يرضون عنا ، هذا من أشد
المحال .

ولقد حسم الله سبحانه بأن أعداء عثمان والراضين بقتله تحت محبيه
وناصريه من ذلك الوقت الى هذا الوقت الحاضر في الجملة ، وهذا من تمام
نصره لوليه ، رضى الله تعالى عنه وعن إخوانه ومن نصرهم وتبع هدام
وختاما نقول ﴿ ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ، ولا
تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾

ثم قال « ومن المعلوم أن أوربا يوم أن كانت مؤمنة بالكنيسة متدينة
كانت في ذلك الهوان والضعف والعجز الذي نعرفه ونقرؤه ، فلما أن مرقت
من ايمانها وتنازلت عن ذلك الأمل الآخروي وجعلت الصناهة والتجارة
والحياة الكبيرة القوية هي آلتها التي وحدتها وأبت الاشرار بها صعدت بالحياة
هذا الصعود الذي أعجز أبصارنا تنوره والنظر اليه . وقد قال أحد فلاسفة
الانجليز المعاصرين المدرسين اليوم في إحدى الجامعات البريطانية - وهو
ملحد كما هو ظاهر - « ان أوربا لم تستطع أن تكون أوربا إلا بعد أن
أعتقت نفسها من رق الايمان بالله واليوم الآخر ،

قلت لما ذكر أن الايمان بالله وباليوم الآخر عاملان من عوامل التأخر

أخذ يستدل بفعل أوربا بقول هذا الانجليزى مع شهادته عليه بأنه ملحد ، وقد نسي بأنه قد اعترف بأن أوربا لم تصعد هذا الصعود الذى أعجز بصره تنوره إلا بعد أن خالطت المسلمين وأخذت حضارتها من تعاليم الاسلام كما تقدم كلامه ، وهنا تناقض فادعى بأنها لم تصعد إلا بالاحاد ، وهو يريد بهذا الاستشهاد بفعلها على ما ادعاه فيما تقدم فى الحث على الاحاد ، ثم إنه لعظم شقائه برهن على هذا الكفر بكفر مثله ، وهو ما ذكره عن هذا الانجليزى المدرس بكون أوربا لم تستطع أن تكون أوربا إلا بعد عتقها من الايمان بالله واليوم الآخر ، ولكنها استرقت للصناعة ونحوها فهى فى الحقيقة لم تعتق من رقا . ثم إنه شهد على هذا المدرس بالاحاد ، واستدل بكلامه على ما يدعى ، وكل ذى عقل يعلم حقيقة العلم أنه لا فرق بين قوله وبين قول هذا الملحد فى هذه الجملة التى ساقها فى قوله « ومن المعلوم الخ » ، فان هذه الجملة التى ادعاها هو كالجملة التى ادعاها هذا الانجليزى سواء بسواء ، فان هذا الملحد صرح بأن أوربا لم تصعد بالحياة إلا بعد أن مرقت من الايمان بالكنيسة والدين ، وتنازلت عن الايمان بالأمل الاخرى ، وجعلت إلهها ومعبودها صناعتها وتجارها . وهذا الكلام إن لم يكن أخبث من كلام سيده الانجليزى الملحد فليس بدونه ، فكيف يرمى من ادعى كدعواه بالاحاد ، ولا يكون هو أيضا ملحدا . ثم إنها دعوى فى نهاية السقوط ، فليس دين المسلمين كدين الكنيسة حتى يصح رفضه ، هذا لو قدر أنها رفضته فى حين تقدم هذه الصناعات ، فان هذا باطل وهو خلاف المشهور المعروف ، فان أكثر من نصف أوربا يدين بدين الكنيسة ، مع أن كثيرا من هذه الشعوب المدعية للاسلام قد رفضت دينها وفعلت كما فعلت أوربا من رفض دين الكنيسة تقليدا لهم ، وما زادهم ذلك إلا خسارا . والمعروف أن أوربا وغيرها إنما رفضت كثيرا من الخرافات المخالفة للعقول فقط ^(١) ، وإلا فكثير من مبادئ الكنيسة موجود

(١) أى لا الايمان بالله واليوم الآخر إجمالا

في كثير من الشعوب الأوربية وغيرها ، أى أنها موجودة في هذا الوقت الذى تطورت فيه الصناعات والحضارة ، وإن كان قد فشا فيها الالحاد في الازمنة الاخيرة بسبب الشيوعية فهذا لا يرد ، لأن الكلام في مسألة اتفاق الحضارة مع الدين ، وقد بينا فيما تقدم أن مرض الالحاد والنفاق للنفوس كمرض الوباء المادى للأبدان ، فكما أن الأبدان العليقة التى ليس فيها قوة تقاوم المرض بل تكون فاسدة المزاج قابلة له يكون المرض أسرع فشوا فيها واستئصلا لها ، فهكذا مرض الالحاد فإن أكثر هذه الشعوب الأوربية وغيرها ليس لهم معرفة بالدين الصحيح الذى يوجب قوة القلب والروح فيدفع ما يرد عليه من أمراض الشكوك والشبهات في الالحاد ، فإن هؤلاء الملحدين إنما تؤثر دعايتهم لعدم وجود أديان صحيحة تقاومها . ويتبين الفرق في هذا بين الهند والصين ، فإن الصين لما كانت أبعد عن معرفة الأديان السماوية ولا سيما الاسلام الصحيح فشا فيها الالحاد ، بخلاف الهند فإن الممانعة فيها أقوى لقوة موجهه من العلوم الدينية الصحيحة ، فضعف الدين يجر الى الخرافات ، وإن لم توجد جر الى النفاق ، وقد تجر الخرافات الى النفاق أيضا ، وكل من الخرافات والنفاق سبيل الى الالحاد ، وقد يضطر الملحد الى النفاق أحيانا لمقاصد أخرى ، فهكذا كان دين الكنيسة ، وكذلك الرفض والتجهم المحض يكون قابلا لتأثير عوامل الالحاد ، ولا ريب أن ذلك من أجل ضعف عنصر المقاومة الدينية في أهلها . ثم كيف تتفق دعواه بأن هذه الحضارة وهذا التطور إنما أخذ عن الاسلام وأن ذلك هو رفض الأمل الآخرى ، وكيف يدعو الى رفض الدين من أجل هذا وهو مأخوذ عن الدين نفسه ، فما أكثر فضوله ورعوناته

ودعواه أنها صعدت بالحياة هذا الصعود إلخ . يقال لكن سقط أكثرها سقوطا مدمرًا ، ولا سيما الذين مروقا تامًا ، بل عادوا الى أسفل سافلين ، وصار سقوطهم بأسباب رقى آلتهم التى ادعيت أنهم وجدوها وأبوا

الإشراك بها وهي صناعتهم وتجارتهم ، فأنزلتهم معبوداتهم ودمرتهم لما تنازلوا
عن الأمل الآخروي ، فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعونها من دون الله من
شيء لما جاء أمر ربك وما زادهم غير تنبيئ ، ومن لم يسقط منهم فهو مهدد
بالسقوط ومصيره لا بد أن يكون للسقوط المحتوم ما دام رفيقا لآلهته

وغرض هذا الملحد من هذا الهراء — كما لا يخفى — أنكم أيها المسلمون
يجب إن تفعلوا كما فعلوا ، فترفضوا دينكم الذي هو كدين الكنيسة لتصعدوا
كما صعد أولئك . وما علم هذا الزائع أن المسلمين على بيئة من ربهم ، يعرفون
الفرق بين دينهم ودين الكنيسة ، كما يعرفون الفرق بينهم وبين اليهود وغيرهم ،
وأنه لا نجاة لهم ولا خلاص ولا حياة الا بالتمسك بدينهم والعض عليه
بالنواجذ ، وأن أولئك لم ينفع أكثرهم ما فعله من المروق ، بل عاد عليه نكبة
عظيمة وخسارة جسيمة في الدنيا والآخرة

* * *

ثم قال « ولقد كانت روسيا القيصرية المسيحية منذ أقل من ثلاثين عاما مثلا
طيبا للفقير والضعف والمسكنة والجهل حينما كانت مسيحية متدينة صالحة ! فلما
أن مرق بها البلاشفة وصنعوا لها أربابا آخرين وعبادة أخرى صارت هي
روسيا اليوم قاهرة ألمانيا التي لم تكن تقهر ، ولعل روسيا هذه قد كفت لهريمتها
وأخرجها من الحرب العالمية الأولى معركة واحدة ربماها بها قائد المانيب
العبقري ، وقد لخص أحد أدباء الروس المخضرمين الذين عاصروا العهدين
القيصري والبلشفي أسباب الفروق بين أولئك الروس وهؤلاء وعوامل التحول
قائلا : لقد شاهدت الزراع والعمال البائسين اليائسين في الزمان القيصري يوم
أن كانوا يشكون يؤسهم وجهلهم وفقيرهم وأمراضهم وسائر فسادهم الاجتماعي
إلى القوى الخفية المجهولة ، فكانوا يومذاك مثلا رائعا في الانحطاط ، ثم شاهدت
هؤلاء أنفسهم وهم يشكون ذلك إلى المصنع والمحراث والمدرسة ، فصاروا هم

الروس الذين نالوا إعجاب العالم ورضاه سنة ١٩٤٤ وما بعدها ،

قلت : هنا طاب له الكلام والمكان ، فأخذ يهذى بما خطر على باله ، ولو كان له عقل ودين لم يحتج على المسلمين بمثل هذه الأمور ويدعى أنه مؤمن بالله واليوم الآخر ، وهذا الذي ادعاه وفرح به من أبلغ الحجج عليه لأمور :

أولا انه قد تقدم قوله في الجملة السابقة قريبا بأن أوربا مرقت من إيمانها وتنازلات عن الأمل الأخرى ، وهذا تصريح بأنها ملحدة ، ومعلوم أن روسيا انما انتصرت على هذه الشعوب المعروفة فيها بل على أقواها التي صرح باسمها فادعى أنها انتصرت بهذا المروق نفسه على هذه المارقة نفسها ، فصار هذا الاستدلال صريحا في أن روسيا الملحدة انتصرت على أوربا الملحدة ، فكان حقيقة الدعوى أن هذا المبدأ الألحادى انتصر على نفسه ودمر أهله الدائنين به ، أى انتصر أحد طرفيه على الآخر فدمره وأنزل به أعظم النكبات والكوارث ، واذن فن الذى قال لك - يا بلعام زمانه - ان الألحاد لا ينتصر على الألحاد وعلى النفاق أيضا وأنه يدمر بعضه بعضا ، بل هذا غل خنقت به نفسك ، فهل كانت روسيا منتصرة على قوم يؤمنون به تعالى إيمانا صادقا خالصا ويعبدونه ويحكمون شرعه ويلجأون اليه فى السراء والضراء ويشقون به ويركنون اليه ، أم كانت منتصرة على من هو مثلها كما تدعى بجاهرة بلا تلمع ، فأى شبهة لك فى هذا ، وكيف تعتمد الى قوم نبذوا أمر الله وراء ظهورهم واحتقروا طاعته وعبادته ورأوها - كما رأيتها - ضمفا وعجزا ، فتسجل عليهم بأنهم مارقون ، ثم تعتمد الى قوم مثلهم فتقرر بأنهم مثلهم قوم مارقون ، ثم تستدل على المسلمين بانتصار هؤلاء على هؤلاء ثم تدعو الى الاقتداء بهم ثم تحتج على هذا بكلام روسى بالشنى مجهول يدعو الى نفسه وجنسه بقول هرام يدعى فيه أن الشكوى الى المحرث خير من الشكوى الى خالقه ، فلو أن قاتلا عكس دعواك وادعى بأن الألحاد عامل هدام بدليل ما أصاب الطرف الثانى المهزوم

لكان أولى بالصحة من قولك ، لأن الذى هدمه هو مبدأه ، فكان متهادما . ولعله ألقى فى روعك أن خصومك يدعون أن مبدأ الاتحاد لا ينتصر على نفسه ، فإن كان هذا هو الذى توهمته وخطر على بالك فليكن لديك معلومة بأن خصومك لا يقولون هذا أبدا ، بل يقولون أن الله تعالى يولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون ، ومعلوم أنه تعالى لا يولى بعضهم بعضا إلا بتقديم بعضهم على بعض كما حكي فى أول سورة الاسراء فى انتصار بختنصر على بنى اسرائيل بسبب إفسادهم فى الأرض ، ففيه برهان على أنه لا مانع من تقدم الكافر على المفسدين الذين اتخذوا دينهم هوا ولعبا وغرهم الحياة الدنيا . أما من استمسك بطاعة الله تعالى واستقام على الدين الصحيح فلا بد أن يعينه الله ويسخر له من الأسباب ما ينتفع به فى الدنيا نفعا صحيحا كما قال تعالى ﴿ ان الله يدافع عن الذين آمنوا ﴾ وكما قال تعالى ﴿ ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون ﴾

الامر الثانى أن دعواه بأن روسيا لم تتقدم إلا بسبب مروقها من دين الكنيسة دعوى غير صحيحة ، بل هى تقدمت بأسباب أخرى كثيرة ككثرة عددها وخصوبة أرضها وغير ذلك من الأمور المعروفة التى لولاها لم تتقدم ، فانه يوجد حكومات أبعد منها عن الاديان ولم يحصل لها أدنى تقدم ، وهذه اليابان تقدمت تقدما عظيما يشبه الطفرة قبل هذه السنوات الاخيرة وهى لم تكن على دين الكنيسة ، كما أن هناك دولا أخرى لم تفعل فعلها فى الكنيسة كأمريكا والانجليز وتقدموا أعظم من تقدمها حتى على كثير ممن رفضوا الكنيسة ومروا من دينها . فبين من هذا أن ليس لرفضهم الكنيسة كبير أثر فى تقدمهم ، بل لو لم يتركوا الكنيسة لكان أحرى لتقدمهم فانهم أرفعوا الشعب بالتشريد والتقتيل والعذاب ونفروا كثيرا منهم بسبب ذلك وكرههم أكثر الناس بسبب هذا ولا سيما فى الشرق ، وكان من الممكن بحاربة بعض

الخرافات المنحطة جدا العائقة عن الأعمال وهي كافية كما فعل غيرهم
الامر الثالث : أن كثيرا من الناس يعارضونه في كون روسيا كلها مرقت
هذا المروق الذي يدعيه ، بل فيها كثيرون جدا ممن يدينون بالكنيسة وبغيرها
وان كان أكثر المظاهر الدينية أزيل ، لكن كونها كلها مرقت غير صحيح ، وقد
تراجعت في السنين الأخيرة قبيل الحرب وكثرت الدعايات الدينية فيها لأنها
عرفت أن ما فعلته في أمر الكنيسة وغيرها قد أصبح ضرره أكبر من نفعه
ولإلم تتراجع بعض التراجع ، وبعض الناس يدعي أنها إنما حاربت الخرافات
المنحطة فقط ، ومعلوم ان الخرافات المنحطة جدا كالتجهم والاتحاد وأمثال
ذلك كالاحاد أو الزندقة أو هن أضر

الامر الرابع : أن دين الكنيسة ليس كدين المسلمين حتى يصح التمثيل ،
بل هذا القياس باطل بالبداهة كما تقدم توضيحه مرارا كثيرة

الامر الخامس : أنه مطالب ببيان كون الفرد في روسيا أحسن حالة عما
كان قبل ذلك ، فانها قبل مروقها كانت مستقلة وكانت على حالة هادئة وحرية
الفرد كانت جيدة جدا بخلاف انقلابها الأخير ، اما ما ذكره من الفقر والشقاء
فليس بصحيح ، بل هي غنية من قديم وان كان حصل لها إثم أعظم مما كان
قبل فذاك لا يقتضى شقاء وفقر قبل ذلك مع أن ما حل بها من الكوارث
والنكبات في السنين الأخيرة ليس بالامر الهين فيها

وهذه الصحف العالمية مملوءة بشرح حالها أولا وأخيرا عما لا حاجة الى
التطويل فيه ، ويكفي أن نقول لهذا الملاحظ : هل مكثت فيها وعرفت أحوالها
أو أحوال أهلها وماذا يجري فيها وعرفت أحوال غيرهم حتى تستدل بهذا
الكلام الذي حقيقته حجة عليك ، وقد بينا فيما سبق أن التقدم أحيانا والكثرة
لا تدل على الحق ، ولا يدعي هذا أحد ممن يقدر الامور ويزنها بالميزان العقلي
الصحيح ، وهو نفسه معترف بهذا أحيانا ، ولو لم يكن له إلا شذوذه في هذه

الأغلال لكفى ، ولكن يريد أن يكون كل شيء حجة له ولو كانت قضايانا متناقضة ، وهذه الجملة هي بيت القصيد هنا ، وما تقدم في أول هذه الخلاصة كالتمهيد لها وما بعدها تقرير لها ولهذا وقف عليها

(وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه)

* * *

ثم قال : « وكذلك القول في تركيا وفي كل الامم الحديثة والقديمة »
فيقال : كل هذا كذب ظاهر ، أما تركيا فكل أحد يعلم أنها لما كانت متدينة كانت متقدمة وعلى جانب عظيم من الاعتبار وسعة الملك والرقى والسيادة ، فلما أن بدأت تغير في دينها ودبت اليها عناصر الإلحاد - كالنجم (١) والغلو في الأموات وطلبهم الحوائج وإدخالها الانظمة المضادة لما في الكتاب العزيز والسنة المطهرة - أخذت في التأخر حتى وصلت الى هذا الحد ، فلما أن قلبت نظامها وصارت لا دينية لم يحصل لها تقدم البتة مع أن أكثر شعبيها متدين ، ولهذا عرفت ضرر الإلحاد وشدة فسادة فتراجعت الى الدين لأنها علمت أنها لا يمكن أن تعيش بغير دين لما أصاب شبابها من الانحطاط وخيب الأخلاق ، فهي أعرف بنفسها من غيرها ، ومن المكابرة والمجاهرة بالفجور ما ذكره في نبذته (كيف ذل المسلمون) من أن تركيا لما كانت متدينة تأخرت ، فلما ألحقت تقدمت ، فهل يخفى هذا الفجور على أدنى عاقل ، فان الناس يعلمون أن تركيا كانت من أكبر الدول لما كانت متدينة فلما أن حرفت دينها وانقلبت على عقبها (٢) تدهورت ثم لما أعلنت بأنها لا دينية لم يحصل لها تقدم ، بل كانت

(١) مثل تحريف الصفات وإنكار العلو والكلام ونحو ذلك

(٢) أى الحكومة ، وإلا فأكثر الشعب متدين

وقت تدينها أعظم وأرقى وأوسع ملكا من بعد أن كانت لا دينية ، وهذا أظهر من أن ينبه عليه

ومن أجز الفجور الذى لا يتكلم به إلا من بلغ فى الاستهتار وعدم الخياء أبلغ حد قوله ، وكذلك الأمم الجديدة والقديمة ، فجعل الأمم الحديثة والقديمة كلها على هذا المنوال . ونحن نتحداه باثبات دولة واحدة من الدول القديمة كانت على مبدأ إلحاد فتقدمت ، أفيظن أن بنى إسرائيل أو العرب وغيرهم لم يتقدموا إلا بالمروق من الدين ، وكذلك الدول الحديثة فقد عرف أمرها . وقد بين سبحانه كيف كان عاقبة الأمم المتقدمة وأنها عكس ما ادعاه ، كما أن البراهين التاريخية دلت على ذلك كما قال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ وقال تعالى ﴿ ثم أرسلنا رسلكم تترى كلما جاء أمة رسولا كذبوه فاتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون ﴾ والآيات فى هذا كثيرة جدا فى الأمم الأولى والآخرى وكلها كانت عاقبتها على هذه السنة والوتر لا تختلف أبدا كما قال تعالى ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين ﴾

• • •

ثم قال : ولعل الفرق يظهر جليا فى دولتين شرقيتين متجاورتين وهما اليابان الفيتية المتوثبة والصين الواهنة الكسول ، فاليابان وإن كان للدين البوذى فيها آثار وبقايا ومعابد وتماثيل ، إلا أنها قد نضت حقيقة هذا الدين فلم تدع على روحها منه شيئا ، وإن أبقت بعض الأشياء على جسمها الخارجى ، والدين الشنتوى الذى تقمضته الروح اليابانية هو الذى يوجهها ويمثلها ، وهو دين الطبقات العليا والأشراف هناك ، وهو دين يقوم على عبادة للطبيعة وعبادة

مظاهر هذا الكون الجميلة المختلفة وعلى عبادة الجمال والقوى المادية ، ولهذا فان اليابان يبالغون جدا في تصور الجمال وفي إدخاله على كل وجوه الحياة حتى على لعب الاطفال وأحذيتهم الخشبية ، وأصغر الامور التي يعملونها ، وهو دين ليست له طقوس ولا فروض ولا عبادات خاصة ولا كتب ذات نصوص يتعبد بها وبتلاوتها وهو لا يؤمن بالآخرة ولا بالحساب والعقاب والجزاء ، وخلاصته أنه دين طبيعي أو أنه دين الطبيعة في أعم معانيها ، ومن ثمة كان أهله من أشد الناس اتصالا بالطبيعة وجمالها ،

فيقال : وهذا أيضا من جنس ما قبله في البطلان ، بل هو حجة عليه ، والغالب على هذا الشعب هو الدين البوذي بلا ريب في جميع الطبقات عند جميع العارفين بهم ، ودعواه عليها بأنها قد نصت هذا الدين أى البوذي كذب ومكابرة مرذولة وأكثر عمال هذه الدولة وأشرافها وقادتها على هذا الدين البوذي وهو الذى يوجهها وهو الشائع فيها مع أن هناك أديانا أخرى فيها خرافات كثيرة لا تنقص عما فى الصين وما حولها ، وهذا يبطل دعواه كلها ويحشها من أصلها حيث ادعى أن الدين الباطل لا يمكن أن تقوم عليه دولة وان الاتحاد لا يمنع الرقى ، وهذا الدين أى البوذي هو الغالب على أكثر الصين والمغول ، فلو كان علة تأخر الصين هو وجود هذا الدين فيها لكان ذلك أيضا فى اليابان فانها سواء فيه بلافرق ، وهذا أمر معروف عند كل من له أدنى إلمام بمعرفة ذلك

ودعواه أن الدين الشنتوى هو الذى تقمصته الروح اليابانية وأنه هو الذى يوجهها فن المكابرة التى يستحى من له عقل أن يجاهر بها ، فان هذا الدين لا يكاد يوجد فيها إلا بالنسبة الضئيلة فى بعض الطبقات القليلة وأكثر الرؤساء والأشراف هنالك على الدين البوذي فهو السائد فيها فى جميع الطبقات ، ومعلوم أن السيطرة إنما تكون للأكثر الأغلب فهو الذى يوجهها . ثم يقال

لهذا الزنديق : على فرض التنزل بأن الدين الشنتوى موجود فيها سواء أكان بقلّة أو كثرة هل هو دين باطل أو دين صحيح ، فانت قد جعلته دينا ، فان كان دينا صحيحا عندك فصرح بذلك ولا حاجة الى ادعاء الاسلام فانه يناقضه ، وقد ذكرت أنه ليس فيه إيمان بالآخرة ، وان كان دينا باطلا بطل كلامك في أن الدين الباطل لا تقوم عليه دولة وأنه عامل تأخر ، فان أهل هذا الدين تقدموا تقدما مدهشا في سنوات قليلة مع كونه دينا باطلا ومشتملا على خرافات كثيرة ، وهذا يأتي على جميع قواعدك من أساسها ولا سيما في التطويح حول تقدم روميا برفض الكنيسة ، فهو مقابل لتقدم هذه الدولة مع كونها على أديان باطلة ولم ترفض كنيسة ولا غيرها

ثم أى مناسبة للأتان بدين اليابان وأدنى رجل من المسلمين يعرف أن دينه ليس هو كدين اليابان ، ومن لم يفرق بين الاسلام والدين البوذى والشنتوى ونحوه من الأديان الباطلة فهو لا يعرف الاسلام ، وهذا المغرور مشى على قاعدته الخبيثة أن دين الاسلام كغيره من سائر الأديان الباطلة ، ولهذا عبر عن ذلك بالمتدينين وبالأمم المتدينة لجعل الناس في الجملة بين متدين وملحد فالمتدين متأخر والملحد متقدم ، وكابر في الحسيات كما كابر في الضروريات وهو يعرف أن أكثر الأمم المنحطة كبعض سكان افريقيا وغيرهم لا يعرفون هن الأديان شيئا ، وهكذا غيرهم من أهل الأديان الثلاثة فان فيهم من الناس من هم أعظم تأخرا ، وكل هذا أعرض عنه وتعلق بهذا الدين الشنتوى فمدحه مع إقراره بأن أصوله تتضمن الكفر باليوم الآخر ، وذم جميع الأديان التي تخالفه لانها أديان سماوية ، ولو كان هذا الملحد من أهل هذا الدين لعلم أن كتابه يتضمن الدعوة اليه والى ما يتضمنه من الاتحاد الصريح

* * *

ثم قال : أما الصينيون فقد رساهم الدين الكنفشيوسى وسواء بما لم

يستطيعوا القيام منه لكثرة ما فيه من الآوهم والخيال ومن التأميل بالمستحيل ، ثم شرع في ذم هذا الدين ، وكل هذا لا حجة له فيه ، فليست هذه الأديان كدين الاسلام ، والمسلمون لم يمنعوها حتى يتكلف ذمها والخط على أهلها ، ومن ساءل بينها وبين الاسلام فهو مصاب في دينه وعقله وهي لا تسمى أديانا إلا مضافة الى أهلها فلا يشملها إطلاق اسم الدين في عرف أهل الأديان السماوية بل هي خرافات فالاديان هي الاسلامية والمسيحية واليهودية وما سوى ذلك فوثنية فان الملاحدة وثنيون فانهم يعبدون الأسباب ويعتمدون عليها ويعلقون عليها أما لهم بل ويعبد بعضهم بعضا ويعبدون أهواءهم ، فكل من اعتمد على غير الله وعلق عليه أمله وتوكل عليه وأطاعه وخضع له فقد عبده ، وليس من شرط عبادة الشيء أن يعمل الانسان مع معبوده كما يعمل مع الله كما اوضحنا ذلك فيما سلف قال تعالى ﴿ أفأريت من اتخذ إلهه هواه ﴾ فجعل من اتبع هواه واختاره على شرع الله عابدا له قال أبو تمام :

وعبادة الأهواء في تطويحها بالدين مثل عبادة الأوثان

كما في حديث أبي واقد الليثي رضى الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ الى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون عندها ويتوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط ، فرزنا بسدرة فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال : الله أكبر إنها السنن ، قلتم — والذي نفسي بيده — كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهة كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون . رواه الترمذي وصححه ، فجعل فعلهم هذا عبادة ، وان لم يطلبوا أن يعملوا عند هذه السدرة كما يعملون لله . ثم انه استطرد فذكر الهند وادعى أن سبب تأخرها عبادة بعض أهلها للبقر ، وكل هذا هذيان لا قيمة له ، وهو مما يدل على أنه لا يرى بين عبادة الله وعبادة الأوثان فرقا ، وإلا فكيف يذكر ويشنع على أهلها وهو يعلم أن المسلمين يرونها وثنية لا ريب فيها .

ثم من أين له أن الهند لم تتأخر إلا بهذا السبب ، وقد تقدمت في سنين طويلة وهي على حالتها هذه ، بل هناك عوامل أخرى غير هذه

* * *

ثم قال : وما أبدعت أمة من الأمم إلا بقدر ما كان لديها من التأميل في هذه الحياة ومن الدوران حولها ، وقد أبدع الاغريق والرومان والمصريون القدماء وغيرهم من الشعوب القديمة لأنهم كانوا يبالغون جدا في حب مظاهر هذه الطبيعة حتى عبدوها وصيروها كل أملهم ورجائهم المنشود ، وهوت جميع الأمم التي انصرفت بآمالها عما ترى وتحسن وتجد الى ما لا تحس ولا تجد ولا ترى . قلت : وهذا من جنس ما قبله في المكابرة والفجور الظاهر ، فان الشعوب القديمة التي هوت كلها انما هوت بسبب هذا التأميل وهذا الاحساد الذي تدعو اليه كالاغريق والرومان والفرعنة الاقدمون وغيرهم ، وما ترقى الأمم التي ورثت هؤلاء وتقدمت ونالت ضخامة الشأن الا بالتدين بالاديان السماوية كبنى اسرائيل والمسيحيين والعرب ، وهؤلاء كلهم يدينون بالعبادات ويؤمنون باليوم الآخر . وهذه حقائق ظاهرة لا جدال فيها ، فما ذكرته معروف البطلان بالبداهة . هذا مع كونه يناقض دعاويك السابقة في ذم القديم والتصريح بأن القدماء لا يبعدون جدا عن طور الحيوانية وقت نزول القرآن فكيف بما قبله ، وانهم لا يعرفون إلا الظواهر وانهم على غاية من الجهالة والغباء ، فكيف تنسبهم الى الجهالة العظيمة والغباء وتذممهم ذلك الدم العظيم ثم تنقلب وتدعى أنهم أبدعوا فيها بسبب حب مظاهر هذه الطبيعة وعبادتها . وهذا مع ان التاريخ ملئ بأنهم على عبادات باطلة كعبادة الأرواح والكواكب وغديرها ، وقد قررت أن الدين الباطل لا يمكن أن يتقدم أهله ، وتذكر أن هؤلاء تقدموا ، أليس هذا كله هذيانا ظاهرا . والعجب من قولك : وهوت جميع الشعوب التي انصرفت بآمالها عما ترى وتحسن وتجد الى ما لا تحس ولا تجد ولا ترى ، أى صرفت آمالها الى الاممباب المحصورة ، ولو قلت كفرت بالله وملائكته واليوم

الآخر كان أروح لضميرك . وهذه الثروة الفارغة لا ينبغي ما فيها من الكذب على عاقل ، فإن الناس يعرفون أن الأمم الحية منذ خمسة آلاف سنة بل أكثر هي التي صرفت آمالها إلى الأديان السماوية ما عدا ملاحظة قليلون لم يقم لهم قائمة قط ، وهؤلاء أهل الكتاب هم أرقى الأمم الموجودة في زمانهم ، ثم جاء بعدهم الاسلام وكان أهله في القرون المفضلة هم أعظم الناس إيماناً بالله وملئكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتقدموا على غيرهم ، وكلما ضعف هذا الأمل ضعف هذا التقدم كما هو معروف بالبراهين اليقينية . ثم إن هذا الملحد استشهد على هذا الفجور بأخبرت شهادة على وجه الأرض وهي ما ذكره بقوله :

« حتى إن رجلاً فيلسوفاً عظيماً هو الدكتور جستاف لوبون ^(١) لما لاحظ هذا قال في كتابه المرسوم بالآراء والمعتقدات « إن الإيمان بالله وحده كان نكبة على البشر ، لأنه — على ما زعم — قد وقف بالحضارة عن التقدم والسير إلى الامام ، قاله ولم تستطع الحضارة البشرية أن تخطو خطواتها الصحيحة القوية إلا في عهود الوثنية وعبادة الأصنام ^(٢) ، انتهى . هكذا ساق هذا الملحد

(١) غوستاف أو جستاف لوبون هذا من أخبرت الملاحظة المعروفين بالمجاهرة بالالحاد وسب الأديان بل صرح بسب النبي ﷺ فسماه متوساحيت قال في كتابه (حضارة العرب) : « حقا إن من عجائب التاريخ أن يلي نداء ذلك المتهموس الشهيد (يعني النبي ﷺ) شعب جامع شديد الشكيمة إلخ ، فلما وصل به إلحاده وخبثه إلى هذا الحد كيف يجوز لمن يدعى الاسلام أن يصفه بالعظمة ويحتج بكلامه ويصفه بالذكاء والفضة ونحو ذلك كما في مقدمته ، ولكن شبهة الشيء منجذب إليه

(٢) علق هنا بأنه يرى من الإلحاد . ومثل هذا سهل يسير على كل من فعل فعلا شنيعا وادعى أنه يرى منه فيقول مثل هذا القول ، فلا يعجز الزاني أن يزني ويقول حال زناه أو بعده أنا أبرأ من الزنا ، ويسرق السارق ويقول حال سرقة أو بعدها أنا أبرأ من السرقة وهكذا ، فهل يروج مثل هذا على من له عقل أو فكر صحيح . ولكن العقل الذي يرى أن عبادة الأوثان والأصنام أولى من عبادة الله قد بلغ الغاية في السقوط والعمى والضلal ، ومثل هذا لا يعد عقلا بمنه الحقيق أي مطلقا

هذه الشهادة مستدلا بها على دعايته في هذا الكتاب)) ستكتب شهادتهم
ويسألون)) وهذا هو اللائق بأغلاله الخبيثة فانه لا يجد لها دليلا إلا مثل هذا
الخبث المناسب لها ، وأغلاله كلها تدور على هذه النقطة الخبيثة فانه كالشرح لما
ذكره جستاف لعنهما الله جميعا وحشره الله تحت قدمه . ولو أن له ادنى مسكة
من عقل وحياء ودين لم يستدل على المسلمين بهذا الكفر الفظيع الساقط ،
ولكن كلب جاع فأنصاع الى جيفة . ومع هذا فلا حجة له فيه فان متبوعه صرح
في زيغه بأن البشرية لم تخط خطواتها القوية إلا في عهود الوثنية وعبادة الأصنام
وهذا مع كونه باطلا بالضرورة يناقض ما ادعاه في الهند والصين وعباداتهم
فانها عبادة للأصنام ووثنية ظاهرة ، ولكن الذي أعجبه هو قوله إن الإيمان
بالله وحده كان نكبة على البشر ولهذا ينسبه الى العظمة ، وأما سهل بن عبد الله
التستري فانه لما ذكره قال عنه « وهو أحد أصنامهم » ، وكذلك قدح في السيوطي
والغزالي وغيرهما وجمل جميع كتب الفقهاء ليس لها قيمة علمية ولا عقلية ولا
دينية ، فهم لا عقول لهم ولا دين ولا علم . أما هذا الملحد المجاهر بالكفر
فيستدل بكلامه على المسلمين ، وليس هذا بغريب في فروخ الملاحدة ومناحيسهم
فشيبه الشيء منجذب اليه ، فان هذا الزنديق لما مسخه الله باطنا خنزيرا خبيثا
صار لا يعجبه ولا يغذى روحه إلا هذه الخبائث المتننة ، فأخذ يتبعمها ويسقط
عليها ، وقوله « لانه » على ما زعم - قد وقف بالحضارة ، فيقال : وعلى ما زعمت
أيضا فانك ادعيت كدعواه بل أخبت ، لانه جاهر بها ولم يخلطها بزندقة ، واما
أنت فزدت عليه بالنفاق وقلب أصول الدين إلى أصول الالحاد ، وإلا فهو
مقربان القرآن لا يتفق مع دعايته أبدا . ثم ما هو الداعي للاستدلال بقوله
وعدم الرد عليه ، وقد قلت في صراعك ص ٢٧ « والسكوت على الخطأ ليس
بما يعذر عليه وليس بما يهون أمره عند الله وعند المتقين ، الى قولك » والمسلم
والعاقل لا يقولان أقوالا تضطرهما الى التأويل والتمحل ، فأين العقل ودين
الاسلام إذن ، وكون الانسان يستدل بالكفر ويقرره ويدعو اليه ويدعى

البؤساء منه من المضحكات والتلاعب الواضح ، فهذا الذى ادعاه متبوعك هذا
الذى تنصره ، ولهذا قلت فى الخطب انها إحدى النكبات لأنها مظهر من مظاهر
الايمان بالله وحده . وكذلك قد زعم المشركون بأن الايمان بالله وحده يقف
بالخضارة كما أسلفنا تقريره فى قوله تعالى عنهم ﴿ ان تتبع الهدى معك تتخطف
من أرضنا ﴾ ومعلوم أنه دعاهم الى الايمان بالله وحده كما قال تعالى ﴿ قد كانت
لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم وما
تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى
تؤمنوا بالله وحده ﴾ وقال تعالى حاكيا عن المشركين ﴿ أجعل الآلهة إلها
واحدا إن هذا لشيء مجاب ﴾ فهذه طريقة الملاحدة والمشركين فى الايمان بالله
وحده ، وقد كان معلوما أن الله سبحانه نصر عليهم المؤمنين به وحده ، ولأنه
لا يمكن بحال أن يستولى الملاحدة على المؤمنين المخلصين له . ولما كان قول هذا
الملاحد جستاف فى عبادة الأصنام فيه ما فيه عند هذا الملاحد ، لأن أهم عبادة
الأصنام عنده هى مظاهر الطبيعة ، أخذ يحرف كلام إمامه وسيده ويحمله مالا
يحتمله بأن المراد من عبادة الأصنام هى عبادة الطبيعة ، وهذا كذب ظاهر
يكذبه التاريخ والدلائل التى لا تحصى ، فانهم كانوا يعبدون الكواكب
والأرواح وكثيراً من الاوثان والأصنام المتعددة ، وما كان ينبغي له أن
يحترى على إمامه فيتصرف فى كلامه بخلاف نصه وظاهره ، فلن هذا خيانة
وتمرد ولكنه مبتلى بالخيانة فى كل شيء ومع كل أحد ، فقال : « وهو طبعاً
يريد بعبود الوثنية تلك العهود التى سادت فيها عبادة الطبيعة وبحالها الجميلة كالذى
كان يصنعه اليونان والرومان والهنود والمصريون ، ويعنى بعبود التوحيد
والايمان - التى زعم أنها وقعت بالانسانية - تلك العهود التى أعلن فيها بالدعوة
الى عبادة الله وحده والى العمل الآخرة وحدها والتأمل فيها دون الدنيا كعبود
بنى اسرائيل وأسباطهم وعبود الكهنة فى القرون الوسطى بالنسبة للمسيحيين

وعهود الغزالي والشعراني وغيرهما وعهود شيوخ الطريق بالنسبة للمسلمين (٢١) فإن هذه العهود - على حسب ما رأى وقال - كانت نكبة على البشر أجمع لأنها لم تستطع أن تصنع لهم شيئاً سوى التأمل في الآخرة ، أما تلك العهود الوثنية فإنها كما يرى ويقول ناهضة على حب ما في هذا الوجود إلى حد العبادة فاستطاعت - يدفعها هذا الحب وهذه العبادة - أن تصنع أساس هذه الحياة (٢٢) التي يتمتع بها انسان هذا العصر السعيد فكأنها قضية مفروغ منها ، تلك هي أن الأمم المتدنية عاجزة عن الصعود بالحياة وب نفسها ،

قلت : فلينظر الانسان العاقل إلى ما في هذا الكلام من الفجور والكفر والمكابرة الظاهرة والغش والخلط الفاحش ، وانظر كيف جعل العهود التي أعلن فيها الدعوة إلى عبادة الله وحده هي عهود الغزالي والشعراني وشيوخ الطريق ، وأبسط انسان من المسلمين فضلاً عن غيره يعلم أن إعلان الدعوة إلى عبادة الله وحده هي بالنسبة إلى المسلمين من ظهر ولجج النبوة على يد نبينا محمد ﷺ وأصحابه ، وقد سادوا ونشروا عناصر الحضارة كلها وقطعوا دابر الذين وقفوا بالانسانية عن التقدم ، أما في وقت الغزالي فقد سادت عبادة الطبيعة ومظاهرها وتدهور المسلمون بسبب ذلك إلى اليوم ، وهكذا عهود بني

(١) ان الذي يقرن بين وثنية الاغريق والرومان والمصريين القدماء وبين تقدمهم ويقرن بين الاسلام وتأخر المسلمين الآن انما هو كذلك الطفل الذي رأى بقرة بيضاء تحلب فظن أن بياض لبنها من بياض جلدها (غ) . اه حاشية من الشواهد

(٢) لاحظ قوله في ما مضى انهم لا يبعدون عن طور الحيوان وانهم كالاطفال ، وهنا يدعى أنهم هم الذين وضعوا أساس هذه الحياة ، أما بنو إسرائيل والمسيحيون وأهل الاسلام فانهم كانوا نكبة على البشر لأنهم من المتدينين الذين لم يهبوا الحياة شيئاً جديداً

لإسرائيل فان موسى وغيره من أنبياء بنى إسرائيل أعلنوا الدعوة الى عبادة الله وحده وسادوا بذلك أهل زمانهم واستولوا على من عبد الأوثان والأصنام ، فلما ضعف فيهم الإيمان بالله وحده وعبدوا الأوثان والأصنام تدهوروا حتى دخل كثير منهم في الديانة الاسلامية واقتبسوا من نورها فتقدموا وانشأوا روح هذه الحضارة على هذا النور السامى ، وهذا أمر ظاهر جلى ، وقد تقدم كلامه بأن الإغريق والرومان ونحوهم من الدول المنكشئة التى ذهبت فى غيرها فكيف يحتج بأفعالها القديمة التى ذهبت فى طوفان الأديان السماوية . ومن أعجب العجب أنه يقرر كلام هذا الحديث تقريراً صريحاً لا شك فيه حتى ختمه بقوله « تلك هى أن الأمم المتدنية عاجزة عن الصعود بالحياة وينفسها » هكذا قال ثم يخالجه الرعب والخوف فى تقريره فيقول « على حسب ما رأى وقال » وهذا عين التلاعب ، ولكنه علم أنه يوجد من قد ختم على قلوبهم يقنعهم مثل هذا الخداع البسيط فلا مانع من الاتيان به ليكون عذراً له عندهم ان احتاج الى ذلك

* * *

ثم قال « ومن الملاحظات الفردية فى هذه القضية أن الأحاد الذين نراهم ينجحون فى التجارة أو الصناعة أو العلوم أو غيرها من الجوانب الانسانية هم دائماً من غير الاتقياء الورعين ^(١) وأنه لا يقدر على المنافسة القاصمة إلا أولئك الذين تركوا الأوامر الدينية وراءهم »

فيقال : هذا ليس بصحيح على هذا الإطلاق ، بل يوجد فى الاتقياء والمتدينين من هم أعظم فى المنافسة القاصمة الصحيحة من أولئك ، وهؤلاء

(١) كان المناسب أن يقول « من غير المتدينين » لأن الكلام فيهم ، فانهم هم الذين تركوا الأوامر الدينية وراء ظهورهم

أكثر من أن يحصى عددهم في كل زمان ومكان ، بل لا يوجد في هذه الامور من له ذكر حسن وأثر كبير عظيم إلا وهو من المتدينين الذين لم يتركوا الاوامر الدينية وراء ظهورهم . ثم لو فرض وجود هذا فليس من الحجة في شيء ، فان هذه حجة فرعون بعينها في قوله تعالى عنه ﴿ ونادى فرعون في قومه فقال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ، أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ، فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقرنيين ^(١) فاستخف قومه فأطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين ، فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين ﴾ وهي حجة جميع الكفار المعادين للرسول كما قال تعالى ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً ﴾ وقال تعالى في قصة نوح ﴿ قال الملائكة الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلاً وما نراك انبئك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي — الى قوله — ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما فى أنفسهم إني إذن من الظالمين ﴾ وقال عن كفار قريش ﴿ وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لو لا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ الى أمثال ذلك من النصوص الكثيرة الدالة على أن الكفار دائماً يحتجون

(١) احتج عليه بعدم وجود المال والجاه ، فالأسورة تدل على الثراء والتجارة ، والملائكة على الجاه ، وهذه هى أكبر حجة عند هذا الملحد القصيضى فانه دائماً يمتنع بقلة المال والجاه ، فاذا كانت هى بعينها حجة فرعون ، وانه استخف قومه بها فأى قيمة لهذا الاحتجاج القديم الباطل الذى لا ينخدع به غير الأطفال والأغبياء وأهل القلوب المظلمة

بالمظاهر الدنيوية على أن الحق فيها ، ولا ينظرون الى الحقيقة ، فيردون الحق بقله أهله أو ضعفهم ويقبلون الباطل لكثرة أهله وقوتهم ، هذا مع أن الله سبحانه قد أعطى كثيرا منهم من سعة الملك والتقدم في الحياة والعلم كما أعطى سليمان وابنه وذا القرنين وطالوت وغيرهم ، وكثير من هذه الامة قد أعطى من الملك والتجارة وسعة الرزق مالا يحصى مع تقوam وتمسكهم بالدين ، ف هؤلاء الخلفاء الاربعة ومعاوية وعمر بن عبد العزيز وهرون الرشيد والمتوكل والمستنصر ومحمود بن سبكتكين ونور الدين الشهيد وصلاح الدين الأيوبي وملوك آل سعود وأمثال هؤلاء كلهم من الاتقياء وقد أعطاهم الله الملك والتقدم الباهر وقد قدروا على منافسة الكفرة في زمانهم ، بل ليس في ملوك المسلمين أو خلفائهم البارزين الذين نفعوا الاسلام ملحد معروف قد ترك الأوامر الدينية وراءه (١) غاية ما في ذلك أن يكون فيهم من هو عاص والعاصي لا يخرج عن أن يكون متدينا . ثم ان أكثر الحكومات الساذجة الوحشية التي لاحظ لها غير الشقاء والفقر والبؤس إنما تكون ملحدة لا تكون متدينة ، فهذه الأمم الموجودة في بعض أنحاء إفريقيا وغيرها من الأمم الوحشية كلها لا تعرف الأديان ، وإلا فلو عرفت لكانت كغيرها من الأمم الراقية الحية ، فمن المحتمل أن تجتمع الهمجية الوحشية والجهل وضعف العقل مع تعاليم الأديان السماوية ، وهذا أمر ظاهر لا يستريب فيه إلا جاهل أو معاند أو مغرور

* * *

ثم قال : حتى إننا إذا حاولنا أن نلتمس في تاريخنا نفسه مكان أولئك الأفاذا القلائل الذين لمعوا في سماء الشعر والأدب الخالد ، أو قاموا بنظريات

(١) وقد علم أن العبيدين من أخيت الملوك وأهل السلطة وهم أشد الناس تأخرا وما نفعوا الاسلام بشيء كفى بويه وأمثالهم

علية لها بقاء وخلود ، أو جاموا بفلسفة ذات شأن معترف به بين الفلاسفة لم نجد لهم إلا بين أولئك الذين وصفوا بالتمرّد والانحلال الديني أمثال المتنبي وأبي العلاء وابن الرومي والجاحظ وابن سينا والرازي والفارابي وابن رشد وجابر بن حيان والحسن بن الهيثم وسواهم ،

قلت : هذا مقدار عقل هذا البجباغ النفاق ، بعد أن كان يمدح الخلفاء الراشدين والصحابة والأئمة وأهل القرون المفضلة ويثنى على مثل ابن تيمية وابن القيم وغيرهما ذلك أثناء العظم حتى قال في نبذته (الثورة الوهابية) ص ٧١ : وابن تيمية وابن القيم لو ادعى مدع بأنه لم يأت في القرون الوسطى كلها من يشبههما في الذكاء وغزارة العلم والصلاح والغيرة على الدين والفضيلة - لما وجد من يقول له ظلمت الحقيقة واقتربت الكذب ، إلا أن يكون ذا ضعف على الرجلين أو جهل بهما ، انتهى ، ثم بعد هذا وأمثاله كثير ارتد على عقبيه فأخذ يثنى على مثل الفارابي وابن الرومي والحسن بن الهيثم وأضرابهم ثم يمدحهم بأنهم كانوا معتزدين موصوفين بالانحلال الديني ، وهذا لو ثبت لكان من أعظم الخزي عليه ، فإن هؤلاء ليس لهم ذكريات حسنة في نصر الملة والقيام في الأمور الإسلامية العظام أبدا ، بل غاية ما في بعض هؤلاء شيء من الشعر الذي فيه ما فيه وقد شاركهم من هو أفضل منهم في ذلك ويوجد لهم أيضا بعض أشياء من الفلسفة المنسوخة المنسوخة القديمة ، فأى فضيلة هؤلاء ، هذا لو قدر أن ما ادعاه صحيح . وإلا فكثير من هؤلاء لم يكونوا معروفين بالانحلال من الدين كالجاحظ والحسن بن الهيثم والرازي وابن رشد ، ثم هم مع هذا في أكثر كلامهم معظمون للسلف مقررون لهم بالسبق في كل فضيلة ، وهذه كتب الجاحظ مملوءة بمدح الخلفاء ثم أهل البيت والثناء عليهم بالتقوى والورع وكانوا من أشد الناس في الخط على الإنسان الذي يكون متطرفا في دينه ولا يوجد لهم كلام في الثناء على رفض الدين بالكلمة ، وأكثر المجاهدين عن

هؤلاء لا يرضون بنسبتهم الى الاتحاد بل يدافعون عنهم لأن ذلك من أعظم العيوب التي سقط بها الانسان سقوطا كبيرا ، ولم نعلم أحدا مدح الاتحاد قبل هذا الزنديق ، ولعله إنما ارتد واعتنق النفاق والاتحاد ليكون مثل هؤلاء وأمثالهم ليكون قرا لامعا في سماء الادب الخالد وكالشمس التي في غير برجها كما يقول فافتدى هؤلاء في هذه العملية التي ادعاها . ويحكى أن فردا رأى رجلا يشق خشبة فأعجبه ذلك جدا ، فذهب الرجل وترك الخشبة بحالها وجعل مكان المنشار عودا ليعود اليها فيكمل عمله فلما ذهب جاء القرد ليفعل فعله فركب فوق الخشبة وادخل المنشار فيها ونزع ذلك العود الذي كان في الشق وكان ذنب القرد قد سقط في الشق فأطبقت عليه الخشبة وعصرته حتى ذهب شعوره واشتغل بنفسه عن العمل فجاءه صاحب الخشبة فجعل يضربه بالسوط وهو مشدود ذنبه بالخشبة حتى غشى عليه فلم يسلم ولم يحصل على ما أعجبه وعشقه (١) وهكذا كان حال هذا المغرور

ثم ذكر أن بعض هذه الدول الاسلامية المتأخرة تولى الوزارة والسفارة ونحوها غير المتدينين ، وهذا مجاهرة بالفجور وقبح ظاهر فيهم ، بل هي تختار من فيه صلاحية وكفاءة للمهمة التي تقصدها ولا يلزم من ذلك أن تختار الآتي بل تختار من له عقل ودين ومعرفة وهو متدين ، ولا نعلم أمة لا ترسل إلا ملحا وهي مسلمة أو تختار الملحد على غيره ، اللهم إلا أن تكون تلك الأمة تنسب نفسها الى الاسلام وليس لها حظ منه . ثم لو قدر أنها قد تختار من فيه نوع انحراف للحاجة اليه فإذا حصلت عليه وماذا وصات اليه وماذا كانت عاقبتها فليس في مثل هذا حجة أصلا بل هو قدح صريح في المسلمين

ثم ذكر أن عمر قال : لو ددت أنى وجدت رجلا تقيا قويا مسلما أستعمله .

وقال مرة أخرى حينما حارب بين الأتقياء والأقوياء : أشكو إلى الله جلد الفاجر وعجز الورع

فيقال : هذا إن سلم فهو حجة عليك ، فإنه يدل على فضيلة التقوى والورع وأن أهلها أولى بالولاية عند القدرة عليه ، وهذا شأن كل نفيس فإنه يندر وجوده ، وإذا وجد فإنه هو الذي ينفع ، وإلا فبحسب ما يوجد من فيه مزية من هذه الخصال ، وقد وجد عمر رضى الله عنه كثيرين أتقياء أقوياء مسلمين فولاهم فحصل النجاح الكامل ، فإنه ولى سعد بن أبي وقاص . وكان أحد العشرة المشهود لهم بالجئنة فولاه قيادة الجيش الذى اكتسح الفرس ، ولهذا نجح هذا الجيش نجاحا يعد معجزة ، فإنه هدّ صرح هذه الدولة الكبيرة فى أيام معدودات ، لأنه هو وقادته كانوا أتقياء ورئيسهم سعد بن أبي وقاص هذا التقى الولي والخليفة عمر ، فلما كانت التقوى منتظمة فى هذا الجيش حصل النصر الباهر الذى لم يسبق له نظير وهو من اظهر الدلائل على أن الولاة الاتقياء الأقوياء هم الذين ينفعون وهم الذين تحصل بهم المطالب غالبا ، بخلاف الملاحدة والمنحرفين فانهم على خلاف ذلك ، ولهذا أثبت التاريخ الصام بأن القواد الذين خانوا أمتهم وقومهم ودمروا أنفسهم وأوطانهم كلهم من أولئك المنحرفين ، لأنهم لضعف الدين فى قلوبهم واعتمادهم على الأسباب المادية وحبيهم للحياة الدنيا يقبلون الرشوة ويحصل بهم من الفساد أضعاف أضعاف ما يحصل بهم من الصلاح ، وأكثر ما ينفع هؤلاء إذا كانوا فى أمم مثلهم يدفعون الى أعمالهم دفعا اضطراريا عالمين ان وراهم عقوبات قاسية صارمة لا هوادة فيها ، ومن هذه حاله فليس هو كمن تدفعه حرارة الإيمان وما فيه من حب الله ودينه وخوفه ورجائه

وكذلك قول عمر : أشكو الى الله جلد الفاجر وعجز الورع ، فإنه يدل على أن ذلك مصيبة ، فان جلد الفاجر لا خير فيه إلا القليل فى بعض الظروف

النادرة وإلا فهو ضرر ، وإن عجز الورع إذا وقع فلا ينبغي بل المطلوب الورع مع القوة ، وهذا لا يوجد إلا في التمسك بالكتاب العزيز والأخذ بالأخلاق السلفية ، وليس الكلام في قلته وكثرته إنما الكلام في أنه هو النافع كما يدل عليه كلام عمر رضي الله عنه

ثم قال : « وحتى لو أردنا أن نطبع هذا الكتاب لم نجد بدا من الذهاب إلى غير الأتقياء ليقوموا لنا بهذه الأمور ،

فيقال : هذه أصدق كلمة قلتها في أغلالك كلها ، فانك إذا أردت أن تطبع هذا الكفر والنفاق والزندقة والالحاد لا تجد ذلك إلا عند غير الأتقياء المتدينين ، إذ من غير الممكن أن يتفق الإيمان في قلب إنسان والإعانة على إظهار الكفر وسب الله تعالى وأديانه وأهلها ، فلا يطبع هذا الكتاب إلا من طبع الله على قلبه فكان من الغافلين ، وإلا فالمرء يأبى طبعه أن يطبعه ، ولهذا لما عرضته على الاستاذ محب الدين الخطيب أبي أن يطبعه على هذه الصورة ، ثم ندمت ندامة الكسبي وأكلت أناملك حسرة أن لو قبلت نصيحته . فما ادعيت هنا شهادة منك على أن هذا الكتاب لا يوافق عليه إلا من ترك أوامر الدين ورأاه وأن الذي طبعه غير تقى بل منحرف عن الدين ^(١) وهذا شأنك في كل من كان له أى علاقة بك لا بد أن تدمه وتقبح فيه في نفس الأمر ، ولهذا فانك مدحت هؤلاء الذين طبعوا كتابك بكونهم منحرفين عن الدين تاركين أوامره ورأاهم ، أما لو كان كتابا دينيا فما أسرع طبعه وإخراجه على أكل الوجوه كما طبعت الكتب الدينية التي لا يحصيها إلا الله وكما طبعت نبذك السابقة على ما فيها من سداجة وهذيان بدون أدنى تكلف منك لها

(١) لأنه ذكر في الجملة السابقة في مقابلة الاتقياء : الذين تركوا الأوامر الدينية

ثم قال : ثم إنه قد علم بالتجربة أن المتدينين يفقدون الميزان الفكري الذي توزن به الأمور في الغالب ، ويصبحون من الناحية النفسية أناسا ظيوين خيرون ، فاقدين لكل مناعة عقلية ، مستعدين استعدادا غريبا للوقوع في حبال المشعوذين والدعاة المضللين ، عيين عن كل الحقائق التي يراها ويستفيد منها الآخرون ، ويرتفع لديهم سعر التهريج والدجل ارتفاعا عجيبا ، وتتفق بينهم سوقيه ، وتنبهت أرواحهم الدعاة الكششرين دينيين وغير دينيين ، ويصيخون لكل ناعق ، ويهيمون بسخاء نادر جيوبهم وقلوبهم وعقائدهم لكل سائل ، لأنهم بعد أن عزلوا العقل وتنازلوا عن تحكيمه عجزوا عن أن يعرفوا الحق من الباطل ، والصادق من الكاذب ، والقائد من الصائد ، فصدقوا المستحيلات والمناقضات ، وآمنوا بأشنع الترهات ، لأن العاصم من ذلك وهو العقل قد أبعد وعزل .

فيقال في جوابه : وهذه أيضا دعوى عدو على عدوه بدون حجة فتقابل بالمنع والرد ، لأن حقيقتها هراء نشأ عن عداوة ومقت وحقد وحسد كامن تكلم بالقول المضلل حاسد وكل كلام الحاسدين هراء

ولا شك أن هذا الزنديق ما ألف هذه الأغلال المملوءة بالخبائث والجنون والخيال إلا لأنه تصور المسلمين في ضعف العقل بهذه المنزلة التي ادعاها ، فلهذا طلب منهم التقديم في كل أمر ، وأن يفردوه بالرغبة والرهبة ، وأنهم لا يبصرون طريق العقل إلا بكتابته ، وأنه لا يستغنى عنه أحد منهم ، ولكن .. ولكن المنافيق لا يعلمون . فلقد عرف نتيجة ما يتمناه في رسالة السراب خليفراها وما احسن ما قيل في مثله :

رأى خيار الورى طرا لجانبهم	كذا يجانب أرباب العلى السفل
وصار يرميهم منه بكل هجا	وما على البدر لو أنزى به طفل
وما على الغنم للفواج من حرج	لن مات من شبه الزبال والجمل
أوهل على الأسد الكرار من ضرر	أن ينهق للغير مربوطا أو البغل

أوهل على الأنجم الخضراء منقصة أن عابها من حصي الغبراء منجدل
فلا وربك لا يزرى بشمس ضحي أعابها الجدى أم قد عابها الخجل
وقد يعيب الفتى ما ليس يدركه إذ كل ضد بذم الضد مشغل
كما تعيب فتاة راق منظرها قبيحة ، ويعيب الصائب الخطل
والزج يحسد لؤما حرص سهره كذاك يهجو الشجاع الباسل الفشل
فلا يضترأولى الفضل الألى سبقوا من كل أهل العلى ، أن ذمهم سفل
مثل الأسنة والاسيف ما برحت بطعن أعدائها والضرب تنصقل

فدعواهم عليهم أنهم عزلوا العقل يقال : نعم هم عزلوا عقلك وعقل كل
زنديق ^(١) لأنها عقول خبيثة قد حكم الله على أهلها بأنهم لا يعقلون ، وأنهم
لا يعلمون ، وأنهم كالأنعام ، فكيف يتابعونهم على هذه العقول المعكوسة ،
ولكنهم لم يعزلوا العقل الصحيح المطابق للفطرة والدين القيم فهم أعظم الخلق
عقولا ، لأن عقولهم نفعتهم في الحياة الدنيا وأسعدتهم في الآخرة بخلاف
العقول التي قصارها أن تنفع صاحبها نفعا معيشيا منكدا كما تنفع البهائم
بمعرفتها في طرق معيشتها ، فكم من بهيمة عاشت طوال حياتها في رغد العيش
والسمن والراحة كما قال تعالى ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل
الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ فالعقل الذي غايته أن يوصل صاحبه إلى رتبة
البهائم فأى فائدة فيه ، فكيف إذا أوصل صاحبه إلى الخسارة السرمدية
وأما دعواهم بأن أراضهم تنبت الكثيرين من متدينين وغير متدينين إلى

(١) في محاربة الأديان ومضادة الشرع ، أما ما يتعلق بالدنيا فهم يرون أن الحق
فيه مقبول من كل من جاء به ، كما في الحديث « الحق ضالة المؤمن أينما وجده أخذته »
وقال بعض السلف « اقبل الحق ولو من كافر » قيل وكيف نعرف أنه حق ، قال « إن
للحق نورا يعرف به » أو كما قال

آخره ، يقال : هذا لا يوجد غالبا إلا في البدع المخرجة عن المسألة من أصيب أهلها بمرض الاتحاد أو النفاق أو الزندقة كالجهمية والرافضة ، أما المتدينون الصادقون فلا يوجد هذا فيهم ، فإذا كان هذا لا يوجد إلا عند بعض المبتدعة المنافقين فلا شك أن أرض الملاحدة تنبت الدعاة الخبيثة كالزنادة والمنافقين وأهل الغش والخبث والقيادة والديانة والزنا واللواط وجميع الفواحش المنكرة كما تنبت السراق واللصوص وأهل الخيانات كلها على اختلاف ضروبها ، لأن العاصم من ذلك هو الدين ، وقد رفض وترك ، فوقع ما يناقض تعاليمه من أخلاق الخبث ، ولا سيما وهذا الملحد نفسه قد اعترف فيما سبق بأن الإنسان مطبوع على الخبث والشر والظلم والعدوان ، وإن المجرم من كل دين ينشأ على هذه الأمور ، فصار الملحد منسلخا من الدين والعقل جميعا ، لأن الدين هو مادة كل الأخلاق الطيبة الصحيحة التي هي مادة تقوية العقل وصحته وثباته ، فحقى صح صحته نتائجه . ودعواهم بأنهم صدقوا بالمستحيلات والمتناقضات ، يقال : ما هي هذه المستحيلات والمتناقضات . لا بد من بيانها . بل الحق الذي لا شك فيه أن هذا الوصف إنما ينطبق على الملاحدة والمنافقين ، وعلى من اغتر بكلامك وصدق بمخادعاتك وأفكارك هذه وما تضمنته من المستحيلات حيث ادعيت أنه من الحقائق الأزلية لا تأخذ به أمة إلا نهضت ولا تتركه أمة إلا هوت ولا يوجد مسلم واحد يستغنى عنه ، وأن البروق والرعود والقواصف تراض كما تراض الوحوش العاتية ، وأنت تعرف رجلا على غاية من الجهل والغباء والسفه والقبح كانت تتركز فيه قوة سحرية لا يستطيع أن ينجو منها إنسان يتبلى بالجلوس بين يديه ، وأنه يتصرف فيمن حوله من البشر كأنهم القطعان أو كأنهم مخلوقات خلقهم هو وصاغهم في القالب الذي يريد وفي المعنى الذي يبلغ منه بلا عسر كل ما يريد كل ذلك بنظراته وأسراره إلى آخر تلك الترهات والبهذيان الذي لا يتكلم به إلا من انسلخ من الدين والعقل ، لا شك أن الذي يصدق بهذيانك هذا وغيره عما تضمنته أغلالك هو الذي يصدق

بالمستحيلات والمتناقضات ، وكل ما تنصوره من المستحيلات في الأمور الدينية التي صحت في النصوص يكفي المتدين أن يقول لك ليس كل ما استحال وقوعه في عقل بعض الناس يكون مستحيل الوقوع في نفس الأمر ، فإن ثبوت صدق الرسول يوجب ثبوت وجود كل ما أخبر به عن الله تعالى وأمر باعتقاده . ونحن نعلم أن كثيرا من هذه الأمور الصناعية المشاهدة الآن لو أن إنسانا أخبر بوقوعها على هذا الصفة الواقعة لسكذبه أكثر الناس ولعدوا وقوع ما أخبر به مستحيلا إن لم يعدوا قوله نوعا من الجنون الذي يستهزأ به ويستخر منه مهما بلغ ذلك الرجل في الصدق والأمانة ما بلغ ، فإذا كان حكم العقل في استحالة وجود هذه الأمور خطأ لو أخبر به من علم بالصدق والأمانة من غير أن يكون نبيا فكيف بالأمور التي أخبر بها أصدق الخلق على الإطلاق بل أخبر بها عن الله وهي ليس فيها شيء يخالف صريح العقل البتة ، بل أكثرها مما دل العقل على صدقه وصحته ، ويكفي أن كثيرا من علماء الكلام ونحوهم ممن بلغوا الغاية في المعقولات بزعمهم وزعم أتباعهم قد أخبروا بأشياء وادعوا أن صريح العقل يقطع بعدم وقوعها ، مثل ما ذكروه في كثير من آيات الصفات ونحوها ، وقد علم أن صريح العقل يقطع بخطأ ما ذكروه فيها ، وكما ذكر علماء الهيئة الأولون في علمهم أشياء وادعوا أن العقل يقطع بوجودها على الصفة التي ذكروها وقد كشف المتأخرون خطأ ما قطعوا بمقولهم بالقول فيه وقطع هؤلاء ببطلان ما ذكره أولئك ، وهذا الملحد نفسه قد ذكر ما ذكر في كتبه السابقة وادعى أن ما ذكره هو مقتضى العقل الذي لا ريب فيه ، ويكفيك شاهدا على هذا ما نقلناه عنه في التطور في إنكاره أولا إنكارا باتا ثم إقراره به أخيرا وإنكار إنكاره إنكارا باتا . ثم إننا نجد هؤلاء الزنادقة من أشد الناس تسرعا إلى التصديق بكل ما يقال ويسمع عن متوهمهم ورؤسائهم وإن كان ذلك في غاية الاستحالة ويعدون من اعترض عليهم بليدا غبيا ، ولا يكتفون من الجهة الأخرى يعدون الذي يهدق بكل ما يقوله الرسول تصديقا مطلقا رجعيًا وإن لم يفهموا معناه ، بل يتصورون شيئا في معنى النص ثم يجزمون به

ثم يكذبون من يصدق به ويستضعفون رأيه لظلمة قلوبهم وفساد أذهانهم. لأنهم لم يفرحوا به ويصدقوا به ويطلبوا الهدى منه ، ولا يمكن للإنسان أن يتفجع بالنصوص الدينية انتفاعا صحيحا حتى يصدق بها تصديقا كاملا لا يخالجه أدنى شك ، ثم يستعمل جهده في معرفة المعنى ويسأل الله بجهد واجتهاد أن يعينه وأن ينفعه به فتى فعل ذلك فلا بد أنه يستنير ذهنه ويعلم حقيقة العلم أن النصوص هي على ظاهرها وأن معانيها في غاية المطابقة للحقيقة ، وأنه لا يمكن أن يرد عليها شيء أبدا ، بل كل ما ورد عليها فهي شبه فاسدة بلاريب . ولكن هؤلاء إنما يستفيدون من النصوص عند الضرورات وعند الحاجة إليها لمقتضى تنفيذ أغراضهم ، لا إلى ابتغاء الحق والعمل به في نفس الأمر ، فهذا كان النص الشرعي عليهم عى وفي آذانهم عنه وقر أولئك ينادون من مكان بعيد

وليس هذا الملحد يبدع في إخوانه الزنادقة والمنافقين في كراهية المتدينين والسخرية والاستهزاء بهم ، فإن هذه الأخلاق الحيثة ملازمة لهم في كل زمان ومكان ، وفي القرآن من الأدلة ما فيه كفاية كما أسلفناه ، ويكفى في ذلك قوله تعالى ﴿ هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ ولقد أصبح من المعتاد الجارى على ألسنة هؤلاء المنافقين المارقين أنهم يرون ويعتقدون أن المتدين وبخاصة من يميل إلى الإصلاح والتقوى ناقص الفكر ضعيف العقل قريب الرأى ، ليس له معرفة بالدهاء والسياسة والحيلة وبعيد الرأى ، بل أنهم هم المنفردون بذلك ، هكذا حكموا لأنفسهم بهذه القسمة الضيزى ، ولهذا نجدهم ولا سيما إذا خلا بعضهم إلى بعض دائما يبتغون الفتنة فيهم ، ويحاولون بكل مالدبيهم من بغى وغواية أن لو قضى عليهم قضاء تاما واستراحوا من رؤيتهم أمامهم وبين أعينهم ، وتجدهم متى خلا بعضهم إلى بعض شرعوا في أكل لحومهم والتنقيب عن عيوبهم ، فإذا ما حضر المتخلق بالدين عيهم ينظرون

إليه نظر المغشى عليه من الموت وضاقوا به ذرعا حتى يفارقهم أو يفارقوه

وأرحم أقواما من النفي والغيباء وأعذر في بغضى لأنهم ضد

ولما كانت هذه حالة المنافقين وأنها هي أسفل سافل في كل غي وسقوط
حكم الله عليهم بالذل في كل مكان وزمان ، كما قال تعالى ﴿ ملعونين أينما
ثقفوا ﴾ ولهذا كان من الجائز أن يتقدم الكافر الصريح برهة وزمنا ، بخلاف
المنافق فإنه لا يمكن بحال أن يتقدم ، بل لا بد أن يضرب بالذل والمسكنة ،
ولا ندرى من أين وجد هؤلاء الخبيثاء أن حملة الشريعة المطهرة وورثة الأنبياء
هم فاقدو الميزان الفكري وأنهم عزلوا العقل وأنهم كانوا عمين عن كل
الحقائق ، وأنهم بالتمرد عن الدين هم الدهاة العقلاء العارفون ، قبح الله تلك
الوجوه ولطمها وضرب عليها الذل والشقاء والبلاء لأنها أهل لذلك

* * *

ثم قال « وقد دللنا هذه الحرب الماضية والإشاعات التي كانت تروج وتنفق
فيها على مبلغ انهار هؤلاء من الناحية العقلية ومبلغ استعدادهم لتصديق ما لا
يجوز على العاقلين ، بدون مقاومة أو إباء ، وقد كنا نعجب من الإذاعات
الأجنبية التي توجه إليهم ، ونتعجب من السخف والكنب الذي يجيء فيها ،
ونقول : كيف يرجو هؤلاء العقلاء — إذ هم عقلاء بدون ريب (١) — أن
يؤمن لهم قومنا بكل هذا أو بشيء منه ! ولكن هؤلاء المذيعين كانوا أعلم منا
بأنفس قومنا وبضعف المناعة العقلية لديهم ، فان هذه الدعايات والإذاعات
كانت تسمع وتصديق أيضا وكانت تنفع ،

(١) ما هي الأسباب في كون الأجانب عقلاء بلا ريب وأن المتدينين قد عزلوا
العقل وأنهم عمون عن كل الحقائق . ما أمرعك في إصدار الحكم لسادتك على
أعدائك من اتباع الرسل

فيقال : هذا كالذى قبله هراء ليس من التحقيق فى شيء ، فهو مطالب ببيان الإشاعات التى تروج ما هى ومن هو الذى راجت عليه ، وبيان الإذاعات التى يسمعها ويصدق بها ومن هو الذى صدق بها حتى تعرف حقيقتها وحقيقة من صدق بها ، والا فالمعروف أن الإذاعات والخداع الباطل لا يصدق به إلا من ابتلوا بالنفاق وضعف الدين فى قلوبهم ، فالذين صدقوا بها فيما نعلم هم الذين صدقوك واغترؤا بخداعك فى هذه الاغلال ، والذى حملك على تأليفها هو أنك رأيت هؤلاء الذين أصيبوا بفساد الذهن والعقل من الملاحدة والمنافقين ورأيت كثيرا منهم يصدقون ببعض الخداع والنفاق ، فسولت لك نفسك وشيطانك أن الناس كلهم مثل هؤلاء ، فنسجت لهم هذه الشبكة الخيثة للوقوع فيها لما عرفت فيهم من فساد الأخلاق والخروج عن العقل والدين ، ولهذا كان أكثر من اغتر بكلامك هم أولئك النوكى والحقى عن عرفوا بالخبت والفواحش والغى وسقوط الأخلاق ، أما عقلاء المتدينين فلا يصدقون إلا بما قام الدليل على صدقه ، فلا يغترون بخداع ونفاق ودجل ومداواة . ثم لو سلم ما ادعيته فلم نسبت نفسك الى المتدينين والتجأت اليهم وتضرعت اليهم وهم على هذه الحالة التى ادعيته ، فاذن أنت منافق مذنب بمقتضى تقريرك الساقط فيكون حجة عليك بكل حال

ثم قال « ومن أجل هذا الضعف فى المقاومة الفكرية لدينا نبغ بيننا الدعاة الكثيرون وأسرفوا من العدوان على صميم الانسانية وعلى أفضل صفات البشر ، فانك لن تلقى فى حياتك ما عشت منظرأ أبشع من أن ترى المجموع من حملة الشهادات العالية فى سائر العلوم التى قاومت الجهل والسخر عند غيرنا وطاردتهم ما يحشدون بكل شكل يزرى بالانسان تحت ركاب رجل هو أقل منهم فى كل شيء مما يتصل بالقيم الانسانية ليسوقهم بدون وعى ولا معارضة منهم ويوجههم حيث تشاء رغبانه ومطامعه ، ثم ليملى عليهم ما يشاء وما تشاء

له أنانيته وكبرياؤه وسعبه القاتل الى المجد الذى حرم آباؤه وأجداده من الفروض والواجبات والقداسات التى يفرضها لشخصه الكريم باعتبارهم الانسان المقدس الطاهر المعصوم الذى يجب أن يطاع طاعة عمياء ، والذى يجب أن لا يخطر على البال بالنسبة لذاته الكريمة توجيه عبارة من عبارات الاستفهام دع الاعتراض وما هو أشد منه ، فترفع من المعاملة القائمة بين هذا الداعى الخير وبين اتباعه الخيرين كلمات « لم » ، « كيف » ، « من اين » ، « الى اين » . وليس لهذا الصنم الأرضى الذى ظفر من عبيده الصالحين الطيبين بكل هذه العبادة المطلقة من قوة خفية أو سحرية سوى كلمات جوفاء فوارغ مبهمة يتمم بها ويطلقها على ضحاياها وعباده كما يفعل مخاطبو العفاريت وضاربو الرمل ومطلقو البخور ،

فيقال : وهذا كالذى قبله طنين ذباب ، بل هو أشبه شيء بنبح الكلاب . وهذا الذى تدعيه هو كل ما تمنى أن تستحصل عليه ، فما طلبت من الناس التقديم فى الأمر وأن تطلب منك الرغبة وحدك ولا يذكر فى الذكاء غديرك وأن الناس لا يبصرون طريق العقل ولا ينجون الا باتباع أفكارك الا من أجل الحصول على ذلك وهيئات

وأتعب خلق الله من زاده وقصر عما تشتهى النفس وجده
لقد عرف العقلاء أن اغلاك هذه هى حل اللغز الذى أشرت اليه فى
قوالك :

ولولا رجائى والرجاء مخادعى لعذت بشر لا يضيق به صدر
فلقد بحث بهذا الشر الذى أكل صدرك لما لم يحصل لك ما ترجوه وتتمناه
كما مهدت له كتبك السابقة والله لا تخفى عليه خافية . وكان كثير من المطلعين
على أحوالك العارفين بأقوالك يتوقعون خروج هذا الشر الذى أشرت اليه
وقد انكشف ما وراء الستار وظهر الشر المكنون ظهور النار ، وفى الحديث

« ما أسر عبد سريرة إلا أظهر الله عليه رداءها علانية ، ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون »

ثم أى فائدة فى هذا الهراء الذى ادعيته هنا ، فمن هم هذا الانسان ومن هم أتباعه وما هى دعايته وكتباته التى ذكرت أنها جوفاء فوارغ ، وحيث انك لم تذكر شيئا من ذلك فلا حاجة الى تطويل الجواب عنه بل نكتفى بما أشرنا اليه فى رده وبالمطالبة ببيان هذه الامور المبهمة ، وكل عاقل يعرف أن أكثر ما يوجد هذا الذى ادعاه على هذه الصفة التى ذكرها فى الملاحظة وأشباههم من الزنادقة الاتحادية ونحوهم ، فان هؤلاء إن كانوا ملاحدة فهم يسوقون عمالهم وأكثر أتباعهم سوقا عنيفا الى رغباتهم وتنفيذ أغراضهم ، وان كانوا زنادقة فكثير منهم إنما يفعل ذلك لأنه يرى أن طاعة متبوعه أمر محتوم عليه كما يوجد ذلك فى أصناف الاتحادية بل وكثير من الشعوب الملاحدة وهذا الملحد نفسه إنما يدعو الى تقليد هؤلاء وأتباعهم واقتفاء آثارهم ، فاذكره فهو حجة عليه

• • •

ثم قال « وليست روح التسليم العقلى عند المتدينين بجديدة ، بل هى ملازمة لهم منذ وجدوا وكيف وجدوا ، حتى لقد وجد الأدباء والشعراء والمتهكمون فى ذلك مجالا لا بأس به للسخرية ، فأرسلوها عليهم لاذعة قاسية ^(١) ! وقد طار فى كل المحافل قول شيخ هؤلاء المتهمكين الساخرين - وهو ابو العلاء ، وقد قسا كثيرا - :

اننان أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له

• • •

(١) لكن نسبت نفسك اليهم اضطرارا على رغم أنك ، فكيف تنعتهم وتنسى أنك منهم . مسكين والله مسكين

مالى أرى كل الأنام لجلسهم بالدين أشباه النعام أو النعم
ولو قال ذنب غضا بعثت بملة من عند ربى قال بعضهم نعم ،

فيقال لهذا الزنديق : لو زدت على استشهادك بقول المعرى هذا أقوال
المنافقين الذين كانوا يسخرون من الذين آمنوا من الصحابة وأفعال الكافرين
أعداء الرسل كلهم من أولهم الى آخرهم لكان أكمل من اقتصارك على قول
المعرى لانه متناقض ومنسب الى المتدينين ومدحه لهم أكثر من ذمه ، ومن
استدل بقول أبى العلاء هذا على نقص عقول المتدينين فالأولى له أن يعالج
عقله ، فان استشهاده برهان على فساد عقله ، ويجب عليه أيضا أن يحرم اللحم
ولا يأكله ولا يذبح حيوانا لأن عقل المعرى الذى جعله برهانا له هو العقل
الذى به حرم ذبح الحيوان وأكله ، بل اتباعه على هذا أولى لانه لم يتناقض فى
هذا الرأى بخلاف ذلك ، فالله تعالى ورسوله والمؤمنون هم أعداء الملاحدة
والمنافقين منذ وجدوا وكيف وجدوا ، قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا
تتخذوا هدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة - الى قوله - إن يثقفوكم
يكونوا لكم أعداء ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفروا ﴾
وقال تعالى ﴿ هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ وقال تعالى ﴿ ان الذين
أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، واذا مروا بهم يتغامزون ﴾ وقال
تعالى ﴿ زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا ﴾ وقال
تعالى ﴿ كذلك ما أنى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون
وتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾ وقال تعالى ﴿ يا حسرة على العباد ما يأتينهم من
رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ الى غير ذلك من الآيات . وهكذا كان اتباع
الرسل مع أعدائهم تارة يسخرون منهم وتارة ينسبونهم الى ضعف العقل والى
عدم الرأى ، فانهم لما عميت بصائرهم فلم يفهموا الدين ولم يعرفوا حقيقته ولم
يدخل نوره قلوبهم ظنوا أن أهله ليسوا على شىء وأنه ليس بشىء كبير معتبر

لأن همتهم صارت مصروفة الى الأسباب الطبيعية المشاهدة فاعتمدوها وتعلقوا عليها وكفروا بما وراءها وحكموا على من خالفهم بضعف العقل مع أنهم يعبدون أوثانا وأصناما وكفاراً منافقين من البشر وينقادون لهم انقيادا أعشى فانهم استكبروا عن عبادة الله وطاعته فابتلوا بعبادة الخبثاء وطاعتهم وذلمهم تحت أقدامهم

ويقال أيضا لهذا الملهد : اذا كانت هذه حالة المتدينين على ما وصف أبو العلاء المعرى فلم انتسبت اليهم وخادعت وراوغت وتصلت بما ادعيت فيه (عار عليك إذا فعلت عظيم) وبما يعزى الى المعرى هذا أنه لما مرض أتي بفروج^(١) في مرضه فقيل له ان شفائك في أكل هذا ، فلبسه بيده فاذا هو ينتفض ويرتعد ، فقال : استضعفوك فوصفوك ، فهلا وصفوا شبل الأسد ، فان صح هذا فيقال لأبي العلاء أما لو أن هذا الفروج لا يعتدى على غيره ولا يستضعف شيئا فرمما يكون لك في ذلك شبهة ، ولكن نلزمك على وجه الجدل مع قطع النظر عن الإباحة الشرعية بأن هذا الفروج قد استضعف حيوانات أخرى كثيرة دونه من خشاش الأرض واعتدى عليها وقتل نفوسا كثيرة منها شر قتلة على أشنع الوجوه ، بل ربما يأكل منها أشياء وهى حية ، فهلا عمد هذا الفروج الى ابن الصقر أو الشاهين فأكله أو اكتفى بالحب ونحوه دون القتل ، فنحن نعامله بما عامل به غيره ، بل ربما تكون معاملتنا له في القتل أحسن من معاملته هو لغيره . ولا يصح أن يقال إنه لا يعلم بالاضرار التي تصيب غيره ، بل يعلم ذلك ، فانه يميز بين النفع والضرر ، ولهذا فانه يفعل بنفسه إذا أراد طرده كما يفعل بهذه الحشرات ، لانه يعلم أن ذلك يضره ، ومن تساطط سلط عليه . فاذا كان هذا مقدار عقل أبي العلاء فكيف يجعل رأيه حجة على الدين

(١) الفروج هو الديك الصغير

وأمله . فان قيل هذا التعليل ينتقض في الحيوانات التي لا تقتل شيئا كهيمة
الأنعام ، قلنا : ليس تعليلنا هذا هو كل وجوه جواز القتل ، بل انه وجه واحد
من وجوه كثيرة منها ما ذكرناه ، ومنها أن هذه الحيوانات المباحة ليس فيها
شيء لا يكون فيه اعتداء على آخر ، وهى وإن كان فيها أنواع لا تقتل من أجل
الآكل لكنها قد يقتل بعضها بعضا كما فى النطيحة ، وقد يضرب بعضها بعضا
ويطرد بعضها بعضا كما هو معروف مشاهد ، ومنها أن ما يحصل لها من اللذة
والراحة والطمأنينة ورغد العيش بسبب خدمة الانسان لها ومدافعتها ومحاماته
عنها بل ربما يقتل دونها أو يهلك فى سبيل منفعتها وقيامه بشئونها كلها وما يلزم
لها — أضعاف أضعاف ما يحصل لها من ألم القتل والموت الذى لا بد لها منه
ولولم تذبح ، بل ربما كان قتلها على هذا الوجه الشرعى أسهل علينا ، فان
وجودها متوقف على ثلاث حالات : إما توجد وهى على هذا الضعف ويحرم
قتلها والاتفاع بها على هذا الوجه ، وهذا يوجب تركها وإهمالها ، فان الانسان
مجبول على الشح فلن يؤدى لها نفعا مجانا بدون معاوضة تكون أكثر مما أدام
فاذا كان لا يرجو منها أكثر مما يؤديه لها تركها فلا يمكن بقاء نوعها وهى على
هذا الضعف وعلى هذه الحالة ، لأنها تكون عرضة لشهوات الحيوانات العادية
الشريرة ، اللهم إلا أن يكون بقاؤها نادرا . والحالة الثانية أن يكون حراما
قتلها لكن يكون فيها قوة تمتنع بها من غيرها من أنواع السباع مطلقا وحينئذ
إما أن تكون كالسباع أو كالظباء ، فان كانت كالسباع صارت زيادة نوع من
أنواع السباع ^(١) ولا يخفى ما فى ذلك من الضرر على كلا التقديرين مع فوات
النعمة الممنون بها المرتبة على وجودها . والحالة الثالثة أن توجد على هذه

(١) وان كانت كالظباء كانت زيادة نوع ظباء فقط ولم يحصل وجودها الذى
لا بد منه لما فيه من الحكم على هذا الوجه

الصفة التي هي عليها الآن ، وهذه الحالة هي أكملها وأحسنها ، فكانت موجودة على أكمل الحالات وأحسنها بالنسبة إليها وإلى الإنسان . فكان ما ينالها من ألم الذبح - مع أنه لا بد لها من الموت - سبباً لما ينالها من الحياة على هذه الصورة ، لأن المقصود الأكبر هو الأكل منها والمنافع الأخرى تابعة لها وزيادة رحمة لها . فإذا عرضت منفعة أهم من الذبح قدمت غالباً ، وكان ما تناله من الانتفاع في مقابل ما ينال منها من تلك المنفعة ، هذا مع ملاحظة أنه لا يجوز ذبحها إلا على وجه خاص في أحوال خاصة ، فلا يجوز ذبحها إلا على الوجه الشرعي للأمور المباحة والمشروعة لا للعب والعيب ولا للإعانة على المعاصي والكفر ووسائل ذلك فإن هذا كله محرم ولا يجوز بحال .

ومن العجب أن هذا الملهد لم يجد ما يستدل به على نقص عقول المتدينين إلا بقول المعري ، وقد نسي هذا الملهد أن الله سبحانه هو الذي حكم على الملاحدة ومن شابههم بأنهم هم الذين لا يعقلون ، بل حكم عليهم بأنهم أضل من الأنعام كما قال تعالى ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الناصة على كل من خالف الدين أنه شر من البهائم العجم كما قال تعالى فيهم ﴿ أولئك هم شر البرية ﴾ فأين من استدل بقول الله تعالى بمن لم يجد ما يستدل به إلا بقول المعري ، مع أنه متناقض في ذلك ، ولكن المضطر يأكل الجيف ، لأنه لا يجد غيرها وهي خبيثة لا تلتئم إلا النفوس الخبيثة المنحطة

* * *

ثم قال : ومن الواجب أن تعرف سبب هذا الاستسلام والضعف الفكري لدى هؤلاء المتدينين ، والذي يظهر لنا كثيراً أن من أسبابه أنهم ينسكرون أن يكون بين أحداث هذا الوجود ترابط وتعليل ثابت ، بل يرونه

أن الوجود كله بما فيه من حوادث وأحداث محكوم بقوة مجنونة أو هي كالمجنونة في أفعالها وتصرفاتها ، فلذا فلا قوانين ولا ضوابط للمعجزات والحوادث ، فكل شيء جائز وكل شيء مستحيل ، فيصابون بالفساد الفكري العام ، وإذا اختلفت الوسيلة فكذلك النتيجة ،

فيقال : إذا كنت ترى أن مستند هذا الضعف الذي تدعيه هو انكار الترابط بين أحداث هذا الوجود فقد بينا بالبراهين الصحيحة أنهم لا ينكرون الترابط المعقول بينها كما أوضحه شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم ونقلاه عن أئمة المسلمين ، لكنهم ينكرون ما تدعيه من نفي المشيئة والارادة العليا وأنها غير مسيطرة على هذا العالم ، والكفر بكونها تغير فيه شيئا . نعم هم ينكرون هذا ، فإذا كان هذا مستندك فقد زال الأساس ، فلا بد من سقوط ما بنى عليه فبطلت الوسيلة فكذلك النتيجة ، لأن جميع المتدينين ليس فيهم من يرى أن هذا العالم محكوم بهذه القوة التي ذكرها ، بل أدنى عامي يكفر من زعم ذلك فكيف يكون هذا رأيهم واعتقادهم ، ولكن نحن إذا بحثنا ودققنا عن أسباب هذا الانهيار الخلق وهذه البلادة المنكرة وهذه الغباوة الظاهرة في هؤلاء الملاحدة والزنادقة بحيث أن أكبر مفكر منهم لا يمكن بحال أن يكون بينه وبين الحيوان الأعجم أدنى فرق إلا بالصورة الظاهرة والنطق ، بل هو أضل في الحقيقة كما قال تعالى فيهم ﴿ أولئك كالانعام بل هم أضل ﴾ أليس من البدهية التي لا ريب فيها أن الحيوان الأعجم غاية ما يسعى إليه الحصول على المتاع الدنيوي في إشباع نهمته وشهوته ، وكذلك الملاحدة . وقد بينا فيما مضى عدم وجود أدنى فرق بين الملاحدة أو الزنديق والطفل أو الحيوان ، وإذا وجد في أحد منهم نوع سيطرة فكذلك يوجد في بعض البهائم سيطرة على جنسها وهذا بخلاف المتدينين فأنهم امتازوا بانسانيتهم بالدين الذي به يعرف العدل والاحسان والرحمة والعلم والحكمة والكرامة وغير ذلك من الخصال الحميدة .

نحن لو بحثنا عن أسباب هذا الفساد الفكرى الذى قذف بالصلاح والزيادة فى هذه الهاوية السحيقة لوجدنا أن السبب الأول فى ذلك أنهم اعتقدوا أن هذا العالم محكوم بالفوضى ، فقد تقدم تصريح هذا الملحد أن هذا العالم محكوم بنواميس الطبيعة ، وبين أن الحاكم له هو الانسان الذى يستخدم النواميس . وهذا صريح واضح فى أنه يرى أنه محكوم بالفوضى لأن الطبيعة ليست شيئا عاقلا عالما حكما رحيا ، وإنما هى مصادقات التفاعل فى أفراد أسبابها ، وقد علم أن الانسان متفاوت فى العلم والمعرفة والقوة والضعف تفاوتاً لا يمكن ضبطه ، فإذا كان هو المستخدم لها وهى تتفاعل باستخدام نفسها وباستخدام بعضها بعضاً فلا شك أن النتيجة ستكون فى غاية الاضطراب والفساد لأنها نتيجة وسائل مختلفة متباينة متضادة غير منتظمة ، ولا فرق بين هذا الحكم وبين حكم المجنون ، فإن المجنون إنما يعمل بمقتضى طبعه ، وبمقتضى استخدام من يستخدمه . وكذلك نواميس الطبيعة إنما تجرى وتحكم بمقتضى طبعها وبمقتضى استخدام من يستخدمها ، فالملحد بلا ريب يرون أن هذا العالم محكوم بقوة كالمجنونة ، ولهذا فانهم لما كانوا كافرين بالله وبنظامه وعدله وإحسانه وحكمته فلم تسع قلوبهم معرفة ذلك وظنوا به ظن السوء حيث أنهم رأوا حكمه تعالى مخالفاً لأرائهم الخبيثة فكفروا به وبنظامه ووقعوا بالايان بالطبيعة ونواميسها على الوجه الذى ذكرنا ، فكانوا أضل من الأنعام . ولهذا لما انكشف فى بعض الامم مضره الاتحاد وعظم تأثيره فى الشباب وأنه مرض قاتل تراجعت عنه كما فعلت تركيا وغيرها ، بالرغم من أن بعض هذم لم تعرف الدين الصحيح ، وإلا فلو عرفته حقيقة المعرفة لكانت شناعة الاتحاد لديها أعظم لمعرفة حسن ضده ، والدين الصحيح هو ما كان عليه السلف الصالح فى الأخلاق الدينية ، تلك الأخلاق العالية السهلة القوية ، وقد تقدم الكلام فى الأسباب وبيان الترابط الذى بينها فلا حاجة الى إعادته

ثم قال : وهذا التعليل صحيح على وجه الإجمال كما يبدو لنا ، كما علل بعض علماء النفس والاجتماع القسوة التي يتصف بها المتدينون غالباً اذا قدروا ، وأخذهم خصومهم أخذاً خالياً من الشفقة والانسانية لكثرة ممارستهم صناعة التخويف والتهويل للعصاة والكافرين وكثرة قراءتهم النصوص التي تصف الأهوال المعدة لأهل الآثام والشهوات ، فقد صاغوا طباعهم وأنفسهم بطابع الغضبية والقسوة والعنف فارتاضوا على ذلك كثيراً حتى أصبحوا وحوشاً تنطق باسم الدين وتفترس على حسابيه ، ومن ثم فأننا نعتقد أن هذه الجماعات المنسوبة الى الدين الناطقة باسمه لو أنها استطاعت الوثوب على الحكم ووضعت السلاح في يدها ^(١) لحكم البشر عهد من الإرهاب يتضام لإزاده كل إرهاب يستنكره العالم اليوم ، وهذا أمر يجب أن يعرفه أولو الرأي والمقدرة وأن يحسبوا له الحساب قبل فوات الأوان ، ولن تجد أقسى قلباً ولا أفنك يدا من إنسان يثب على عنقك ومالك يقتلك ويسلبك معتقداً أنه يتقرب الى الله بذلك ويجاهد في سبيله وينفذ أوامره وشرائعه ، والسوء لمن ناموا على فوهة البركان قائلين : لعله لا ينطلق .

فيقال : الله أكبر ، ياما تضمن هذا الكلام من الخبث والضلال والتحريض على أهل الدين والدعاة الى بقاء المستعمرين في أمكنتهم والتشديد عليهم وإضعافهم والضغط عليهم بكل شدة ، وان الانسان ليحار عند نقل هذه الجمل الملعونة ويتعجب كيف صبر المتدينون من المسلمين والمسيحيين وغيرهم من المنتسبين الى الاديان المؤمنين بالله تعالى واليوم الآخر على كثرتهم وعلى ما فيهم من شهامة وشجاعة وانتصار للحق - عن رجمه ولعنه في كل حال وزمان ،

(١) إذن فالمتدينون لم يلوا الحكم يوماً من الأيام ، وانما الحكم في يد الملاحدة ، وقد مر لك أنه عد الهند والصين ودول الشرق كلها من المتدينين ، فالنظر الى هذه المضحكات والمهازل المتسلسلة

وكيف بق هذا الزنديق في بلد تدعى أنها تدين بدين الاسلام . وأيم الله لقد عاد الاسلام غريبا كما بدأ . ولقد جاء الزمن الذي وصف النبي ﷺ المسلمين فيه بأنهم : غثاء كغثاء السيل ، أى على كثرتهم ليس فيهم حياة إلا ضعيفة

نحن لا نشك كما لا يشك مسلم عارف أن هذا الزنديق لو وجه هذا الخطاب الى شخص واحد من المتدينين أو الى أهل مذهب أو شيعة لكان من المستيقن أن يحاكم على ذلك ولكن لما هجم على الأمم الاسلامية كلها بل على كل الديانات السماوية وشتما وارتكب أكبر ذنب صار ذنبه أخف ، وهذا من أعجب العجب ، انه لما عظم ذنبه صغر حكمه في أعين البعض ، وإلا لحقيقة هذا الكلام وروحه هو الطعن في أديان الله تعالى والدائن بها ، وهو دعاية صريحة في تحريض المستعمرين على الضغن على هذه الامم المتدنية وإضعافهم والمراقبة الشديدة عليهم ، والا فهو يعلم حقيقة العلم أنه قد قرر فيما مضى أن الانسان مطبوع على الشر والخبث والظلم وأن المجرد من كل دين يبقى على الظلم والعدوان المطلق ، وهذا صريح في أن الملاحدة هم أولى بالقسوة وأبعد عن العدل والرحمة ، لأنهم لم يمارسوا نصوص الحث على الرحمة والإحسان والعدل والنهي الاكيد عن تحدى هذه الأمور في مواضعها ، فانه من المعلوم أن جميع الأمم المتوحشة بل الأكلين لحوم البشر هم من أولئك الموصوفين بالألحاد والبعد عن الأديان ، ولهذا كان معروفا لدى الخاص والعام أن أبعد الناس عن الدين أخبثهم خلقا وأنهم لا يرقبون في إنسان إلا ولا ذمة لأنهم لا يرجون ولا يخافون عقوبة ولا إثابة على ذلك ، بخلاف المتدينين فانهم قد علموا أن الله يجب المحسنين ويأمر بالعدل والإحسان وأنه من لا يرحم لا يرحم .

وانظر كيف أثر الدين في العرب ذلك التأثير العظيم لما دخلوا فيه بعد أن كانوا على تلك الحالة الممجية الوحشية ، فصار يضرب باحسانهم ورحمتهم المثل ، كما قرر غير واحد من العارفين بأحوالهم أنه لم يوجد فاتح أرحم من العرب ،

ويكفيك حديث بريدة أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أمر جيشاً أو سرية أوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً وقال : اغزوا باسم الله الى آخر الحديث . وقد اشتمل على وصايا نافعة في العدل والاحسان ، فان الدين كله دائر على العدل وعلى الاحسان بخلاف الإلحاد فانه دائر على الظلم والاستعباد ، وقد دلت جميع الحوادث القديمة والاخيرة على الفرق الواضح بين المتدينين والملاحدة ، فأين سيرة المسلمين في القرون المفضلة من سيرة عدوهم ، وأين سيرتهم في القرون الوسطى من سيرة التتار والباطنية ونحوهم ، وكذلك ما جرى في هذه الأزمان الاخيرة من الفظائع والشراسة والفوضى والهمجية التي ينكرها الدين والعقل ، فليوازن العاقل بين ما فعلته أمم الملاحدة حين ظفروا بغيرهم كإيطاليا وأشباهها بغيرها في شمال افريقية وبين فتوحات المسلمين ليعرف الفروق العظيمة بين المسلمين وغيرهم في الرفق والإحسان والرحمة ، وهذا أمر واضح يعرفه كل من له مسكة من عقل ، وأما من طبع الله على قلبه فلن يتففع فيه شيء ، إنما يستجيب الذي يسمعون ، والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون

* * *

ولما فرغ هذا الملحد من شتم الاديان وأهلها وأفرغ جميع ما في صدره من غل وخبث في بغضها ومقتها ومقت أهلها وظن أنه قد انكشف أمره لفـ ودار ولجأ الى الخداع والنفاق على عادته في الخداع والمنافة والمكر السيئ لأنه علم أن هناك قلوباً مقلدة يروج عليها هذا الهذيان ، وهذه هي طريقة سلفه من المنافقين الذين اتخذوا أيمانهم - أي بالتعلق على الدين - جنة ، فصدوا عن سبيل الله لأنهم ساء ما كانوا يعملون ، فقال :

« ولكن ما معنى هذا ؟ هل معناه أن الدين نفسه مفسد للبشر ، حائل بينهم وبين الكمال ، وأنه بطبعه مناف للروح العملية الانسانية المبدعة ،

فيقال : نعم على صريح كلامك هو هذا معناه ، فهل أيين من تصرحك بهذا

في كل أغلالك ، ولو لم يكن من ذلك إلا دعواك بأن المتحللين من الأديان هم الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها العلوم المبتكرة ، وأن المتدينين على اختلاف أجناسهم ^(١) وديارهم وأنبيائهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ، ولا كانوا فيها مخلوقات متألفة ، فهل هناك بيان أظهر من هذا ، ومن يخفى عليه هذا فهو أجهل من حمار أهله

° ° °

ثم قال : كلا ، ليس هذا هو المراد ، ولا هو الصحيح ، بل الدين بطبعه وروحه لا يعدو أن يكون وثوبا بالعاطفة وبالخلق والعقل والعمل ، وأنه كذلك اذا أخذ وفهم على وجهه ،

فيقال : لكن لم تبين وجه النافع المفيد ، بل صرحت بأن جميع المتدينين على اختلاف أجناسهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ، فأين هذا الدين الذي أخطأ جميع أجناس المتدينين وأنبيائهم ؟ كل هذا خداع ونفاق ومراوغة لا تنطلي إلا على أشباه الأنعام ، وإلا فكل من له عقل ودين يفهم ما فهمه السيد قطب من كلامك في قوله : هذا رجل يريد أن يطعن الطعنة في صميم الدين خاصة ، ثم يتوارى ويتحصن في الدين وينكر ما قد يفهمه القارىء من بعض النصوص ومن روح الكتاب كله وراء النصوص . ثم هذا رجل يسفسط ولا يأتي بشيء (دون كيشوت) جديد يطعن في الهواء ويحارب أفكارا لم يعد لها وجود منذ خمسين عاما على الأقل . ثم هذا رجل يسرق أفكار غيره بالنص وينكر أن يكون قد قرأ شيئا من هذه الأفكار ، الى قوله : هذا رجل تنقصه الجرأة على أن يقول ما يريد أن يقول ، واذن فلا حرية فكر ، ولا خطر على حرية

(١) ليس هناك عبارة أشمل وأصرح من دعواه هذه ، فإن هذا يشمل جميع أجناس المتدينين

الفكر ، انما هي دعوة خبيثة ملتوية ضد الدين وبخاصة الاسلام ، وضد الروح الخلقية في النفس والضمير إلخ .

ويقال أيضا : اذا كان الحال كما تذكر في الدين فلم يقرر وتبينه وتدعو اليه وتنتهي غاية النهي عن ضده والبعد عنه ، وتجعل كل موضوع كتابك معرفته والبحث عنه وعن أهله الآخذين به وبيانهم والثناء عليهم ، وما رأياناك فعلت شيئا من هذا ، بل كل كتابك في عكس هذا الموضوع ، فانك لم تنن عليه ولم تذكر أن أحدا من الناس على هذا الدين ولم تحت على خلق ديني قط ، بل غاية ما ادعيت في كتابك هو فهم الدين الذي هو توفيق لروح الدين والعمل ، فاذا كان فهمك للدين هو ما اشتمل عليه هذا الكتاب من هذه المخازي التي منها مسبة وزارة التكوين المصرية والثناء على تشرشل ذلك الثناء الضخم وأمثال ذلك ، فهذا هو اللائق بعقلك المعكوس وفؤادك الخبيث

* * *

ثم قال : ولكن ههنا شيان : أحدهما أنه اذا أخذ على غير وجهه وقصده جاء ضارا مفسدا لأخلاق الانسان وكل معانيه الطيبة أو التي يجب أن تكون طيبة كما سبق البيان ،

فيقال : أخذ الدين على غير وجهه يشمل أمورا كثيرة كان من الواجب عليك أن تبينها لتجتنب ، أو تبين وجهه الصحيح ليؤخذ به ويترك ما عداه ، وأنت لم تفعل إلا الحث على رفضه وأخذ مضاده ، بل كل كلامك في قلبه والأخذ به مقلوبا ، فان عبادة الطبيعة وأسبابها ضد عبادة الله وحده ، والاعتماد على الأسباب ضد الاعتماد على الله ، والتوجه اليها وتعليق الآمال عليها ضد الوثوق بالله والتوكل عليه وتعليق الامل عليه ، بل لا بد من الاعتماد عليه والأخذ بذلك كما أمر كما تقدم الحديث : احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن . الحديث

ثم قال ، وثانيهما أن البشر عاجزون - فيما يبدو لنا حتى اليوم - عن أخذه وفهمه وتصوره على وجه النافع المفيد ، بل هم إما أن يبقوا غير متدينين أو متدينين تدنياً باطلاً كما أثبت هذا جملة تاريخ الانسان ، ولا بد من استثناء فترات ومضات قليلة خافتة ،

فيقال : نعم لا بد من أن تستثنى ذلك ليكون هذا عذراً لك ، وفاتك أن هذا لا ينفعك إلا ببيان الفترات والومضات ما هي ، ومن أهلها ، بايضاح وتفصيل ، وكيف يكون البشر عاجزين حتى اليوم غير هذه الفترات ، ولم لم يكن أهلها أيضاً عاجزين ، ومن أين اطلعت عليهم وعرفتهم ، وما كيفية عجز أولئك وفهم هؤلاء ، وليس مثل هذه الدعوى العريضة بالأمر الهين الذي يكفي فيه الخداع بالأمور الغامضة المموهة ، فإن دعوى كون البشر عاجزين عن فهم الدين كفر صريح لا يشك فيه إلا كافر أو زنديق ، فإن هذا يتضمن أن الله سبحانه لم يقم على البشر حجة ^(١) ولا أنزل ما فيه هدى وشفاء ونور وبصائر ، وأنه عليه السلام ما تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك ، وقال تعالى ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ كرر ذلك مراراً ايضاحاً لكون الدين ميسراً لمن أراد الاهتداء به ، وليس في الدنيا أظهر ولا أيسر من فهم الدين على وجهه لمن طلب ذلك وأراد ، وأما من أعرض عنه واستكبر عن الاهتداء به فإنه لن يبصر ما فيه من الهداية والبصائر والرحمة .

(١) ان الدعوى بكون البشر عاجزين عن فهم الدين تصرح بأن الله لم يقم عليهم حجة لأنه نسب المصيبة الى الدين لا الى البشر ، فإن هذا يقتضى أنهم لا يمكنهم أن يفهموه لعجزهم ، ومعلوم أن العاجز عن الشيء لا يكلف به ، بل هو تكليف بما لا يطاق ، فهو لم يدع أنه واضح ولكن الناس لا يرويدونه أو أن البشرية قد فسد أكثرها فلا يقبلونه ، بل نسب القصور الى الدين لا الى البشر ، وهذا يصادم حقيقة قيام حجة الله على الناس

ولو أن إنسانا أغمض عينيه عن نور الشمس لم يرها ولم ينتفع بالاستضاءة بها في طريقه ولا غيره ، ومن أين لهذا الملحد أن يحكم على البشر أنهم عاجزون عن أخذه وفهمه وتصوره على وجهه وهو قد ادعى في كتبه السابقة كلها أن السلف الصالح وأتباعهم مثل ابن تيمية وابن القيم وأمثالهم كانوا على الدين الصحيح ، بل ادعى في هذا الكتاب نفسه ص ١٥ أن الناس غير عاجزين عنه حيث قال فيما تقدم « إن أمريكا لم تتفوق علينا بسبب إيمانها بالله أو بسبب أخلاقها الدينية أو الروحية ، الى قوله « وإننا إنما نعجزنا عن اللحاق بها لعجزنا عن اللحاق بأخلاقها هذه ، لا لعجزنا في روحانيتنا أو في إيماننا بالله أو في فضائلنا الدينية » انتهى ، وقد سبق هذا النقل وسبق الكلام عليه ، فانظر كيف تمرغ هذا الملحد كما تتمرغ الدابة ظهرا لبطن ، هناك يدعى أن إيماننا بالله وفضائلنا الدينية غير عاجزة وليس في ذلك عجز ، وهنا يقول إن البشر حتى اليوم عاجزون عن فهم الدين وأخذه وتصوره على وجهه ، وسيأتي انقلابه أيضا مدعيا أن ديننا هذا محرف ، وهكذا هو دائما تراه مستصحبا هذه المراوغات الثعلبية وقصده من ذلك أنه ليس ثم دين بالكلية ، لأن الدين الذي قد ثبت عجز البشر عنه وجوده كعدمه ، ولا ينفع استثناء الفترات التي لم تبين ويبين عملها وما هي عليه ، لأن الاستثناء المجهول لا فائدة فيه ، وجل الله أن ينزل دينا لا يعرف أو لا يعرفه إلا النادر ، فان النادر لا حكم له ، وقال تعالى ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ فأمر بتدبر القرآن وبين أن من لم يتدبره فهو مقفل على قلبه ، ففيه بيان أنه مفهوم ميسر فهمه والآخر به وتصوره ، فان الغامض المعقد لا يستفاد منه ، فأخبرنا أن طريق الاستفادة منه هو تدبره وتذكره ، وأن من لم يفعل ذلك فلا يمكن أن يفهمه ، وذلك لا لأجل غموضه بل لأجل ما في قلب المعرض عنه من الطبع والأقوال ، فالفساد العارض هو من ناحية الإنسان ، والا فهو نور وبصائر وحق على حقيقته ، وكيف ينزل الله علينا دينا ويجعله ختام الأديان مع علمه أن الناس عاجزون

عن فهمه ، فهو إذن لم يقم عليهم الحجة ، وقد قال تعالى ﴿ رسلا مبشرين
ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ ومجرد كون بعض
الأمم والشعوب والأفراد لم تعرفه لا يدل على خفائه لأن منشأ ذلك من
الفساد العارض في من لم يفهمه أو يعرفه لأنه إما معرض أو لم يجتهد في التقصي
والبحث عن ما به يعرفه ويفهمه من مظانه ، وإلا فن طلب الحق بجهد واجتهاد
وصدق وإخلاص وجده بلا شك ، ولذلك لما اجتهد سلمان الفارسي في طلب
الحق وجده وقصته في ذلك مشهورة ، وهما نحن نرى كثيرا من الناس يصبر
على المشاق العظيمة ويخاطر بنفسه في أموره التي يحرص عليها في مصالح نفسه
أو أمته أو وطنه ، وأما دينه فإنه أعجز الناس وأكسلهم في معرفته وفهمه ، ومع
ذلك يحمل عهده على الدين ، والله سبحانه قد أوضح السبيل وأقام الحجة
على خلقه بما أنزله من النور والكتاب المبين ، وأيد ذلك في كل زمان بعلماء
يبينون للناس وجه الحق وإزالة الباطل بيانا واضحا جليا ، كما قال الامام أحمد
في خطبته المشهورة « الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من
أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى ، يحيون
بكتاب الله الموقى ويبصرون بنور الله أهل العمى ، فكم من قتيل لإبليس قد
أحيوه ، وكم من تائه ضال قد هدوه ، فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر
الناس عليهم ، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ،
وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة ، وأطلقوا عنان الفتنة ، فهم
مختلفون في الكتاب ، مختلفون للكتاب ، متفقون على مفارقة الكتاب ،
يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم ، يتكلمون بالمتشابه من الكلام
ويخدعون جهال الناس بما يلبسون عليهم ، فنعوذ بالله من فتن المضلين ، انتهى
ويروى نحو هذه الخطبة عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كما ذكر ذلك
ابن وضاح . وهذه كتب السلف الصالح كلها واضحة الدلالة في بيان الهدى
وفهم الدين على وجهه ، وهذه كتب الإمام شيخ الاسلام ابن تيمية كالذهب

المصنف ، وهى مشتملة على بيان الدين بيانا واضحا كالشمس بحيث لا يبقى للعاقل المنصف الذى قصده الحق أدنى شبهة فى أصل هذا الدين ، فان كتب هذا الامام فتح كبير لهذه الأمة الاسلامية ، ومن أعظم النعم التى رحم الله بها هذه الأمة ولا سيما فى أصول الدين ، فهذه عقيدته (الواسطية) المختصرة والعقيدة (الحوية) كافيتان للمبتدىء . ولقد كان من أعظم المصائب التى حلت بأهل الاسلام بدعة الجهمية ، وأصلها كان مستمدا من الملحدين المنكرين للبارئ فلهذا توسل أهلها بإنكار الصفات ، وإنكار كونه تعالى مابينا للمخلوقات ليس فوقها تدرعا الى نفيه ، فان وجود موجود لا داخل العالم ولا خارجه مما لا تقبله فطرة ولا تأتى به شريعة ولا يمكن أن يقر برب هذا شأنه ، بل هو سبحانه فوق العرش وما تحته فقير اليه ، وهو غنى عن العرش وعمّا تحته ، ولا يلزم من كونه فوقه احتياجه اليه ، فان استواءه عليه استواء يليق به ليس كاستواء المخلوقين ، وكما أنه خالق الخلق كلهم وأمرهم ونهائم وهو غير محتاج اليهم بل هو غنى عن ذلك كله فكذلك علوه المختص به فوق عرشه كما أخبر به عن نفسه وهو أعلم بنفسه وبغيره ، وكل ما وصف الله به نفسه فهو على ظاهره على الوجه اللائق به تعالى ، ولا يسوغ تحريفه ذلك التحريف الذى يسمى تأويلا ، فلو فتح هذا الباب لتطرق التأويل الى نصوص المعاد ونصوص العبادات كلها ، وهذا عين إفساد الدين ، فان الجرأة على تأويل صفات الله تعالى أعظم من الجرأة على تأويل العبادات ، وما أفسد الملة غير هذه التأويلات الباطلة التى صنعها الملحدون باسم التنزيه حتى نزهاوا الله بزعمهم عن كل معانى الربوبية ، فعمدوا الى صفات الأفعال فسموها حوادث وقالوا منزّه عن الحوادث ، وعمدوا الى الحكمة والغايات المطلوبة فسموها أغراضا فقالوا منزّه عن الأغراض ، وعمدوا الى صفاته تعالى كاليد والوجه ونحو ذلك فسموها أبعاضا وقالوا منزّه عن الأبعاض ، بل عمدوا الى كل ما لم يوافق عقولهم فأخترعوا له عبارة قبيحة وتوسلوا بنفي تلك الصفة ، فصار حقيقة قلوبهم

أنه منزه عن كل معاني الربوبية غير صفات قليلة مضطربون فيها اضطرابا لا ينضبط . والمقصود أن شيخ الاسلام عمد الى هذه الأصول فهدمها كلها كما عمد الى البدع الأخرى المسماة توسلا وهي عبادة القبور ودعاء أهلها والاستغاثة بهم في الشدائد والملمات وانزال الفاقات بأعتاب أهلها ، فلقد انتصب هذا الامام للرد على هذه الدسائس الالحادية وفروعها ردا أزاح عن الملة البيضاء كل حجاب وقنام ، حتى أنسفت وظهرت واضحة كالشمس في نحر الظهيرة ، فكان إماما لأهل التوحيد ، ونقمة وعدوا لكل زنديق عنيد ، فانه رضى الله عنه صبر في ذات الله وجاهد في سبيله بيده ولسانه وقلبه جهادا لم يسبق له نظير بعد القرون المفضلة ، ومن طالع كتابه العجيب الفذ الخالد كتاب (بيان موافقة صريح المبعول لصحيح المنقول) وقد يسمى كتاب (العقل والنقل) وهو مطبوع بعضه على هامش كتاب (منهاج السنة) عرف مقدار هذا الإمام وعرف كيف ناضل عن سلامة هذه الشريعة الغراء نضالا خليقا بان يعد أكبر نضال سجل في الدفاع عن الشريعة الاسلامية بعد أن أحاطت بها مكاييد الأعداء من كل جانب ، وقد بين في هذا الكتاب مقدار هذه الشريعة العظيمة وأنها غير محتاجة الى فلسفة المتفلسفين وتأويلات المشككين الظالمين الضالين ، بل الاسلام دين الفطرة الواضح السهل القوى ، وقد جمع هذا الكتاب العظيم جميع الشبه الواردة على الصفات بما لفقه جهلة المتكلمين ومن حذا حذوهم من لا بصيرة له ، وأجاب عن تلك الشبه بما يثلج الصدر بالعقل والنقل ، وسد طرق البدع سدا محكما ، فهو الكتاب الذى جمع فيه بين العقل والنقل ، وبين فيه أن ما جاءت به الرسل هو المطابق للعقول السليمة ، وأنه ليس بين العقل والصريح والنقل الصحيح أدنى مخالفة ، ويكفيك شهادة على عظمة هذا الكتاب ما قاله الامام ابن القيم فيه :

واقرا كتاب العقل والنقل الذى ما فى الوجود له نظير ثانى

وعما يؤسف له أن هذا الكنز النفيس المجهول القدر لما طبع لم يطبع كله ، بل ترك منه نحو مجلد ، ومع ذلك طبع على نسخة كثيرة الغلط ، ولعل الله أن ييسر له من أهل الدين والمجد والشهادة من يعيد طبعه فيطبعه كله ، فانه كتاب الاسلام فيما يختص بابطال كلام الدجالين والمبشرين والمشككين من أهل الكلام ونحوهم من الزنادقة الملحدين والجهمية والاتحادية وأمثالهم ، وهكذا كتب هذا الإلهام كلها من تتبعها وجدها ديننا خالصة (١)

وكذلك كانت كتب تلميذه البار العلامة ابن القيم فإن أكثرها مقتبس من نورها . وقد كنت أعرف شخصا جاء من اليمن الى الرياض وقد قرأ في مذهب الزيدية ، وكان في الأصول معتزليا لا يثبت العلو ولا الكلام ويؤول أكثر الصفات وكان يجادل في ذلك وينظر عليه ، فلما ظفر بمختصر كتاب (الصواعق

(١) من أظهر الأكاذيب الهرلية الخرافية ما وقع في رحلة ابن بطوطة فيما نسبته الى ابن تيمية في النزول ، فقد رده العلماء ببراہین كثيرة فان كتب ابن تيمية كلها صريحة في رد هذه الدسيسة . وقد أثبت التاريخ ان الوقت الذي دخل فيه ابن بطوطة دمشق لم يكن ابن تيمية فيها . ويكفيك أن كتاب شرح النزول للشيخ من أوله الى آخره في هذه المسألة ، وقد صفه الشيخ ابن تيمية وقرر النزول بأنه لا كنزول المخلوقين بل من جنس سائر الصفات اللاتقة بالله تعالى . وقال في رسالته التدمرية ص ٢٧ « وكذلك اذا قيل كيف ينزل ربنا الى سماء الدنيا ، قيل له : كيف هو ، فاذا قال لا أعلم كيفيته ، قيل له : ونحن لا نعلم كيفية نزوله ، اذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف ، وهو فرع له وتابع له ، فكيف تطالبني بالعلم بكيفية سمعه وبصره وتكليمه واستوائه ونزوله وأنت لا تعلم كيفية ذاته ، انتهى كلامه بحروفه . وأمثال هذا كثير . وقال في (منهاج السنة) ص ٢٦٢ ج ١ عن أهل السنة : « وهم متفقون على أن الله ليس كمثل شيء ، وأنه لا يعلم كيف ينزل ولا تمثل صفاته بصفات خلقه . » انتهى كلامه بحروفه

المرسلة على الجهمية والمعتلة) لابن القيم أخذ يطالعه ويتدبره فلم يقرأ نحو نصفه حتى رجع عن مذهبه وقد رأيت مرة وهو يبكي ويقول : لقد كنت قبل أن أطلع على هذا الكتاب على ضلال ويؤسفني والله أنني أعرف كثيرا من الناس على ما كنت عليه من قبل وأعرف أنهم لو اطلعوا على هذا الكتاب لعرفوا الحق الذي لا شك فيه . هذا كلامه ، وقد صدق ، فإن من طالع هذا الكتاب النفيس عرف الحق معرفة كالشمس ، وهذا الكتاب مطبوع وموجود بكثرة وأكثره مستمد من كتاب العقل والنقل الذي تقدم ذكره وهكذا سائر كتب هذين الامامين وأمثالها كالحافظ الذهبي وابن رجب وشارح الطحاوية وأمثال هؤلاء في القرون الوسطى ، ثم أظهر الله شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب فقرّر هذه الأصول التي ذكرها الشيخ ، وبذل جهده في تطهير هذه الاراضي الاسلامية من الشرك وعبادة الأوثان ، وكتبه وكتب أتباعه في ذلك كثيرة شهيرة . وبالجملة فن طلب الدين الصحيح بنية خالصة وعزيمة صادقة فلا بد أن يوفق حتى يفهمه ويعرفه على وجهه ، وأما من أعرض عنه فلا يمكن أن يفهمه ولا يعرفه أبدا ، فإن المنافقين الذين كانوا بين الصحابة والنبي ﷺ حاضر عندهم لم يفقهوه بل كان عليهم عي وفي آذانهم عنه وقر لأنهم لا يريدونه ولا يستطيعون سماعه لبغضه وكراهيته عندهم كما قال تعالى ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبغضهم الله ثم إليه يرجعون ﴾ وقال تعالى ﴿ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزير ﴾ ف هؤلاء الكفرة لم يفقهوا ما يقول لهم هذا الرسول الكريم شعيب عليه السلام مع عظم فصاحته وهو منهم ، وقد كرر عليهم النذر عشرات السنين ، ولكنهم يفقهون ما يقوله رهط شعيب من الحمامة عنه لأنهم اعتمدوا على الأسباب المادية ورهبوها بخلاف الأسباب الدينية التي جاءهم بها شعيب فانها ليست عندهم بشيء ، فأعرضوا عنها ولم يستمعوا لها فلم يفقهوها ، وقال تعالى ﴿ والله يدعو الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم ﴾ ،

ومعلوم أن من أجاب دعوة الله فلا بد أن يهديه الى صراطه المستقيم ومن
أعرض واستكبر وتمرد فان الله لا يهدي القوم الظالمين

وينبغي أن يعلم أن دعواه هذه هي بعينها دعوى كثير من الملاحدة
والكفار الذين كذبوا الرسل من أولهم الى آخرهم ، ولا سيما كفرة هذه
الازمنة فانهم لم ينكروا إمكان وجود الدين الحق ومن نازع منهم الانبياء فانما
نازع في صدق رسالة ذلك النبي الذي يدعوهم الى الإيمان برسالتهم ، كما قال
المشركون للنبي ﷺ لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك ، ولكن اكتب من
محمد بن عبد الله ، فهم لا ينكرون وجود الأديان ، فانهم يقرون برسالة ابراهيم
عليه السلام ويعلمون أنه نبي ، ولم يكونوا معذورين في ذلك ، بل قد قامت
عليهم الحجة . وكذلك الذين كفروا بعيسى عليه السلام لم ينكروا الأديان
كلها ، وهكذا كل من عاند الرسل ولم يعترف برسالة الرسول لم يقولوا له لا
تبعك ولو كنت رسول الله ، ولا أن ما جئت به حق ولكن لا نتبعه ، بل
غالب ما حكى الله عنهم أنهم يكذبونهم في دعوى الرسالة ويحددون بآيات
الله ، وان كانوا يقرون باطنا ، كفرعون مع عظم كفره وتمرده فانه معترف
بالرسالة باطنا كما قال موسى عليه السلام ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب
السموات والارض بصائر واني لأظنك يا فرعون مشورا ﴾ فأقسم موسى عليه
السلام بأن فرعون قد علم أن الله مرسله وأنه رسول الله ، ولكن جحد ذلك
استكبارا وإبقاء على مكانته ، وراوغ في تكذيب موسى تارة بدعوى أنه
ساحر ، وتارة بانه تواطأ مع السحرة ، وتارة بانه فقير ولم يكن عظيما معه
أسورة من ذهب أو معه ملائكة مقتربين ، ولم يعترف بالرسالة ظاهرا ويقول
لا تتبعك ، قال تعالى عن فرعون وقومه ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم
ظُلُمًا وعلوا ﴾ فهذا ظاهر في أنهم كانوا مقربين بوجوده تعالى وبوجود أديانه
باطنا جاحدين ذلك ظاهرا ، فهذا يعرف أن الملاحدة والزنادقة شر منهم

لأنهم ملاحدة باطنا وظاهرا ، ثم هم مع كونهم شرا من فرعون فيهم أهون أمرا من الزنديق الذى هو ملحد باطنا ويلحد أحيانا ظاهرا وأحيانا يتظاهر بالدين لقصد قلب الدين وإفساده وإضلال عباد الله والصد عن سبيله ، كل هذه حقائق لا شك فيها لمن تأمل وأنصف ، وأكثر هذه الأمم التى يذكر عنها محاربة الأديان لا يقولون كلهم انه لا يوجد دين صحيح بالمرة ، بل كثير منهم يقولون هذه خرافات وأديان فاسدة أضرت باهلها فيجب إزالتها ، والدين صحيح قد وجد ولكن لا تعرفه وقد عجزنا عن معرفته ، ولا يمكن أن نبقى على دين فاسد كما يدعى هذا الملحد سواء بسواء ، فدعواهم هى عين دعواهم ، فلا ينفعه هذا الاعتذار البسيط المموء ، كما أنه لم ينفع جميع الكفار الذى ادعوه واعتذروا به ، وسيأتى لهذا البحث بقية

ودعواهم بأنه لا بد من استثناء ومضات خافتة . يقال : هذا مع كونه خداعا لا يغنى شيئا ، فهو عين ما يدعيه الكفار أيضا ، فإنهم لم يقولوا انه لم يوجد ، بل يقول أكثرهم إنه لا يعرف ، فدعوى وجوده غير دعوى معرفته ، فهذا الملحد قد ادعى أنه يوجد فى النادر ، لكن صرح بعدم إمكان معرفته ، لأنه صرح بالعجز فلا حاجة إذن الى وجود النادر الذى تستحيل معرفته ، فإن الشيء الموجود الذى لا طاقة للبشر بمعرفته وأخذه على وجهه لا حاجة الى وجوده ، بل هو ضرر محض ، فانه تكليف بما لا يطاق ، وكيف يكون برهانا ونورا ميثا ورحة وبصائر وهدى وبينات والبشر عاجزون عن معرفته وأخذه على وجهه ، فأين الرحمة وأين الهدى وأين البرهان والنور ، قاتلك الله ما أشد جرأتك على الله ودينه وعباده المؤمنين

* * *

ثم قال ، ويظهر أن المبادئ الانسانية العظيمة تأتى دائما سابقة لاستعداد الجماهير من البشر ، فاذا دعوا اليها أو فرضت عليهم - قبل تمام هذا الاستعداد -

أخذوها أخذاً سيئاً ضاراً بهم وبالمبادئ نفسها ، وذهبوا يعملون بها على غير وجهها وصوابها ، ومن هنا تأتي النسبة ، وكلما تقدم نضج الانسان قرب من الإحسان ومن الفهم الصحيح والتصور الصحيح لهذه المبادئ الجميلة التي تسبق استعدادها (١) ولا شك أن الناس اليوم يتصورون الديمقراطية والعدالة الاجتماعية والنظام العام للسلام ، وكيف يجب أن يكون الحكم والحكومات ، ولغير ذلك من مسائل الانسان العظمى ، تصورا هو أرقى جدا من تصوره لها منذ ألف سنة أو بضعة آلاف من السنين ، كما أن تصوره لهذا الوجود نفسه وفهمهم له يتقدم ويرقى ويصح ويصدق دائما ، وهم أبدا يقومون بعملية تتخل مستمرة عن تصوراتهم وأفهامهم الأولى القديمة لأمور هذا الوجود ، ليحلوا مكانها تصورات وأفهاما أرقى وأفضل (٢) ، والدين هو أحد هذه الأمور الجميلة التي عجز الناس عن تصورها تصورا صحيحا لأنها جاءت قبل استيفاء استعدادهم الموقوت (٣) فراحوا ضحايا هذا التصور الباطل ، وكان من

(١) نسي دعواه أن المجرد من كل دين ينشأ على الظلم والحيف والعدوان المطلق
(٢) قد تبين نتيجة ذلك في هذه الأمم التي تدعى أنها قد بلغت أقصى الحد في فرض السلام وبث العدالة والنظام فيما فعلته مع اليهود إزاء العرب ، وما فعلته مع أندونيسيا إزاء هولاندة ، فهذا عدلهم وذوقهم ورحمتهم بالبشرية والانسانية ، وبهذا المقياس يعرف ما وصل اليه الغربيون الراشدون عند هذا المغرور من النظام وحب العدالة ، وهذا ظاهر لا خفاء به ، ولا يحتاج أن نذكر أنهم حكموا على ليبيا بأنها لم تبلغ رشدها الآن ، وإنما تبلغ رشدها بعد عشر سنين اذا هدبوها هم وارتقت في أحضانهم ، وهكذا طرابلس انما تبلغ رشدها اذا أعيدت لايطاليا أو غيرها وكفلوها كفالة الوصي الرحيم لليتيم ، وأما سائر دول الغرب ولو كانت أصغر شيء فهي رشيدة كاملة بالغة بلا أدنى شك . هذه تصوراتهم وأفهامهم عند (الدو الذي في لجج البحر)
(٣) اى ان الله استعجل بانزال هذا الدين قبل استعداد اهله لفهمه فانزله على اناس عاجزين عن فهمه وتصوره على وجهه

نتائج ذلك أن نهض في الأمم كلها أقوام يحاربون الأديان ويعملون على إبطالها وتدميرها لأنها فيما بدا لهم واقفة متحجرة تسد الطريق ،

قلت : إذا كان الدين من هذه المبادئ التي جاءت قبل استعداد الناس لقبولها فلا شك إذن أن الله قد أخطأ في إنزاله في ذلك الوقت ، بل كان ينبغي أن لا يجيء إلا في الوقت المناسب لقبول الناس له ، لئلا يكون ضارا . وهذا صريح كلام هذا الزنديق كما ترى ، فهو اعترض صريح على الله تعالى في إنزاله هذا الدين في ذلك الوقت الذي يدعى أن الناس لا يبعدون فيه جدا عن طور الحيوان ، ولهذا صرح بأنه جاء ضارا ، لأن الناس عجزوا عن فهمه لعدم استعدادهم لمعرفته ، فلم يكن نورا ولا شفاء ولا هدى ولا بيان ولا رحمة ، ولم يبعث الله في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ، بل أرسل إليهم ما لم يعرفوه فأخذوه أخذًا سيئًا ، فكان ضارا بهم فلم يخرجهم من الظلمات إلى النور ، ولم ينشروا به العدل والحق على وجه البسيطة ، بل ردهم إلى الفوضى والوحشية والهمجية ، لأنه جاء ضارا بهم كما يقول ، فأى كفر أصرح من هذا ، فقبح الله من يخفى عليه ما في كلامه من الكفر الفظيع ، ولهذا ركب على هذا الرأي الخبيث أنه حيث جاء بهذه السرعة صار ضارا ونكبة عليهم ، لأنهم كلفوا بما يعجزون عنه ، فكلفهم الله ما لا يطيقونه ، ولهذا وقعوا في النكبات في تلك القرون المفضلة ، وهذه هي عادته في المباينة والمكابرة ، وقد صرح بدون جمجمة ولا حياء بأن الناس اليوم أحسن تصورا في هذه المبادئ من كانوا قبل ألف سنة ، وأنهم أبدا يقومون بعملية تخل مستمر عن تصوراتهم وأفهامهم الأولى ، وهذا كله بهت ظاهر وهذيان ساقط ، بل التصورات منها ما لا يتغير أبدا ، ومنها ما يتحول ، ومنها ما يتطور ، فالأخلاق الفاسدة والكفر والالحاد والفواحش والكذب والنفاق والحيانة والغش والفجور والظلم والاستعباد

والبغي والقتل والسرقة والمكر والعدوان وأمثال ذلك كله يتطور كما في الحديث
 « لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه » ، والواقع يشهد لذلك ، ولم تتخل
 الانسانية عن شيء من ذلك ، وكلها نتائج لضعف التصور وفساد الفهم وعدم
 الثبات ، وهى كلها أخلاق ، والأمم كما يقال هى الاخلاق ، فاذا كانت هذه كلها
 تزيد فما الفائدة العائدة من تطور التصورات الاخرى كالأموال الصناعية التى لا
 تعادل الاضرار الناشئة عنها ، لان النكبات دائما إنما تأتي من حيث الاخلاق ،
 فاذا فسدت أخلاق أمة حلت بها النكبات ولا بد . ثم لو قدر أنها تعلم قبح الظلم
 والبغي والعدوان ولم تعمل بذلك فلا فائدة فى علمها ، فالعلم اذا لم يصحبه العمل
 فقد يكون ضررا على صاحبه . أما كونها قد عرفت شيئا من أمور هذا الكون
 لم تعرفه الانسانية الاولى فقد بينا السبب فى ذلك وهو تكرار آيات الله وتقلب
 عبده لقيام الحجة على خلقه كما قال تعالى ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ،
 حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ ومن الحكمة فى ذلك بيان أن هذه العلوم لا يعتمد
 عليها وعلى أهلها ، فان الأولين الذين كانوا يرون هذه العلوم التى تبين عدم
 صحتها قد ادعوا أنها حقائق وبراهين قطعية قد دلت عليها العقول ، وأن ما
 خالفها لا يلتفت اليه ، ولهذا شتموا بأنوفهم عن العلوم السماوية والاهتداء بها
 وتمسكوا بتلك العقليات بزعمهم فظهر بطلان تلك النظريات ، وتبين أن تلك
 المعقولات شبهات انخدع بها أهلها ، وأن الحق كان فى ما جاء به الانبياء ، فانه
 على ما هو عليه وانه هو الحق الذى لا ريب فيه ، ولهذا كان كل نظرية خالفت
 القرآن قد تبين بطلانها ولم يأت قط ما يبطل أقل شيء مما أشار اليه القرآن ،
 فكان ذلك من أظهر المعجزات ومن أبلغ الحجج على كل من خالفه

* * *

وقوله « وكان من نتائج ذلك أن نهض فى الأمم كلها أقوام يحاربون الأديان
 ويعملون على إبطالها وتدميرها ، الخ

فيقال : أنت من هؤلاء بلا شك ، بل من أعظمهم ، بل لم نعلم ملجدا أو زنديقا وصل الى ما وصلت اليه من محاولة قلب الدين وتدميره وإفساده ، وكل هذه المجادلات الطويلة والمحاولات الملتوية التي نشرتها في اغلاك هذه كلها مستعارة منهم ، شيء منها بالنص وشيء بالمعنى ، وقد استخدموك في تبليغ هذه الرسالة الخبيثة التي حملت بها نفسك وحملت وزرها على ظهرك فبئسما قدمت لنفسك وجنيت عليها ، فما أخلقك بالدخول فيمن قال الله فيهم ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾

* * *

ثم قال « ولا ريب عندنا في مجيء ذلك اليوم الذي يقدر البشر فيه أن يدركوا من حقائق الأديان ما لم يدركوا ، وأن يفهموها ويفهموا مراميها السامية كما أريد منها وبها ، وحينئذ — حينئذ فقط تبلغ بهم السمو المقدر لها ، فيقال : متى هذا اليوم الذي يدركون فيه حقائق الأديان اذا كانت كل هذه العصور الطويلة قد مرت بهم وهم غير مستعدين لها فلم يدركوا من حقائقها شيئا ، ومعلوم أنها إنما نزلت عليهم ليدركوها ويعملوا بها لا لينقلوها الى غيرهم ممن بعدهم آلاف السنين ، فان هذا ليس فيه رحمة ولا هدى ولا بيان لهم ، بل هو ضرر وعناء وشقاء عليهم فقط ، وقد ذم الله اليهود لما كانوا يحملون التوراة بدون أن ينتفعوا بها بقوله تعالى ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾ بنس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ وقد تواترت الأحاديث بأنه لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه وان الاسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، الى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة الكثيرة المتقدمة الدالة بالنص على ضعف الاسلام وغر بته آخر الزمان . فلهذه الدعوى معاكسة لدلولاتها معاكسة صريحة . نعم نحن نقول

انه سيأتى اليوم الذى يدركون فيه حقائق الأديان ومنافعها وضرر مخالفتها ونبذها ، نعم سياق ذلك اليوم ، يوم لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا ، وقال تعالى ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ يعنى هذا القرآن الذى هو أصل الدين ﴿ يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ نعم هو هذا اليوم الذى يدركون فيه حقائق الأديان ، وحينئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا . ولكن هذا اليوم لا تسمو فيه الأديان إلا بمن أحبها وعمل بها ودعا إليها ، وأما من رفضها وعادها وناق فى الطعن فيها فانها تقذف بهم فى الدركات الجهنمية ولن يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا

* * *

قال «والانسانية — كما تحصل من مجموع تاريخها المعروف — لها ثلاث حالات : إحداها أن تكون بلا دين ، لا باطل ولا صحيح . وثانيها أن تكون على دين باطل ، أى على دين تتصوره على الصورة التى شرحناها فى هذا الكتاب . وثالثها — وهو خير بلا شك عندنا — أن تكون على دين صحيح تدركه إدراكا صحيحا . وهذه الحالات الثلاث هى على ثلاث درجات . ولا شك أن الحالة الثانية هى شر الحالات ، وأن الأمة التى تكون متدينة بهذا الدين تأتى عاجزة عن مقارنة الأمتين الآخرين ،

قلت : قد رأيت أن هذا الملحد صرح بأن المسلمين اليوم شر من الملاحدة ، فانه قرر أنهم على دين محرف واهم ، وأنهم ليسوا على دين صحيح ، وإلا لم ينكر عليهم وهم ليسوا ملاحدة ، بل يدعى أنهم على دين باطل ، وهذه الحالة صرح كما ترى بأنها شر الحالات فجعلها شرا من حالة الاتحاد . فالمسلمون اليوم

شر من الملاحدة بنص كلامه (١) ، ولكن من يسمع ومن يرى

(لقد اسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي)

وهذا التقسيم الذي ادعاه باطل من أصله ، والتفريع عليه ساقط بالضرورة والتاريخ والمشاهدة ، أما فساد التقسيم فانه لا يشك عاقل أن الناس يتفاوتون في الإتيان بهذا الدين ، فمنهم من يكون متمسكا به تمسكا صحيحا جدا كتتمسك الصحابة في القرب الاول في وقت الخلفاء ، ثم ضعف التمسك به شيئا فشيئا ، ومع ذلك فأهله على دين صحيح لا سيما في القرن الأول والثاني ، ثم في الثالث ظهرت بعض البدع المنحرفة ، ثم بعده افرقت الأمة طوائف ، وأكثر الطوائف معها حق وباطل وبعضها أقرب الى الحق من بعض ، ولا يقول ذو عقل إن الأمة من وقت الصحابة الى هذا الوقت على دين باطل ، ومن ادعى هذا فقد كفر الأمة . وعلى هذا الذي ذكرناه تكون الأمة على درجات فكل من كان أقرب الى التمسك كان أقرب الى الدين ، فيكون أقرب الى الحياة والى القوة ، ومن كان عنه أبعد كان أبعد عن الحياة والقوة ، وهذا في الفرق التي لا يطلق عليها اسم الكفر ، وأما الأديان المنحرفة أو الباطلة فهي أيضا درجات : فان الديانة المسيحية أقرب الى الحق من اليهودية وأقرب الى الحياة والقوة ، واليهودية أولى من الوثنية ، وقد قال تعالى ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين

(١) انه لمن العجب أن يخفى كفر هذا الزنديق على من نظر في كلامه كما قال الشيخ العلامة المحقق عمر بن حسن آل الشيخ عندما اطلع على كلامه في الذين مرعوا وجعلوا الصناعة والتجارة آلهة موحدة لا يشركون بها فتقدموا في الحياة الصحيحة : « ما كان يخطر على البال أن يصرح إنسان بمثل هذا الكلام ثم يشك في كفره ، فكفره واضح لا يستريب فيه من له ادنى مسكة من دين » ، وكذا قال الشيخ الفاضل قاضي القصيم عبد الله بن حميد وأمثاله من علماء المسلمين كما تقدم .

آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا
 نصارى ففرق تعالى بين هذه الفرق وأباح الكتانية دون غيرها كما أباح لنا
 أكل ذبيحة الكتابي دون المجوسي والوثني ، فهذا القسم كما قلنا درجات أيضا
 وكل درجة فيها من الحياة والقوة والبصيرة بقدر ما بقي معها من آثار الدين
 السماوي ، ولهذا كانت الحياة في النصراني أكثر منها في اليهودي ، وفي اليهودي
 أكثر منها في الوثني كالملاحدة فان الملاحدة داخلون في الوثنيين لانهم يعبدون
 مظاهر الطبيعة ومظاهر الأسباب وان لم يتخذوها عبادة ولم يقصدوا بها العبادة
 فهي عبادة بنفس الفعل ، كما أن عباد القبور يكونون عابدين لها بنفس أفعالهم
 الشركية التي يؤدونها لها وان لم يقصدوا بها العبادة كما تقدم في حديث أبي واحد
 الليث قال خرجنا مع رسول الله ﷺ الى حنين وكنا حدثاء عهد بكفر
 وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم فقلنا : يا رسول
 الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال : الله أكبر ، انها السنن ،
 قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ،
 قال إنكم قوم تجهلون . لتبعن سنن من كان قبلكم ، رواه الترمذي وصححه .
 وفي حديث عدي بن حاتم أنه لما سمع النبي ﷺ يقرأ ﴿ اتخذوا أحبهم
 وربهانهم أربابا من دون الله ﴾ قال : انهم لم يعبدوه ، فقال ﷺ : أليس انهم
 يحلون لهم الحرام ويحرمون لهم الحلال ، قال : بلى ، قال : تلك عبادتهم ، ومعلوم
 أنهم لم يقصدوا بذلك العبادة فبين أن فعلهم هذا عبادة لان هذا ضرب من
 التعبد ، فان تقديمهم لأرائهم وطاعتهم لهم فيها مع كونها مخالفة للاديان عبادة
 صريحة . وهؤلاء الملحدون أعظم الناس خضوعا لأوامر رؤسائهم وطواغيتهم
 وأسرعهم انقيادا لهم واستسلاما لكل ما يأمرونهم به ولو كان مصادما أعظم
 المصادمة للشرائع ، أما أوامر الله تعالى فانهم يتعنتون في اتباعها وتصديقها
 ويحتقرونها بل وكثير منهم يزونها ضررا محضا ، فهل وراء هذه الوثنية وثنية ،
 ولهذا كان الملاحدة أعظم الخلق رسوخا في الوثنية لانهم يعبدون مطلقا

الأسباب الطبيعية التي يحملهم عليها رؤسائهم كما يعبدون أشياء يعلون قبحها وخبثها ، فالوثنيون والملاحدة قسم واحد ، وهو دركات متفاوتة . وهناك قسم آخر وهم الزنادقة والمنافقون ونعني بالنفاق والزندقة اذا اطلقناها معناهما الشرعى وهو ابطان الكفر واظهار الإيمان أحيانا خداعا ومكرا ، وهذا القسم هو أخبث الأقسام على الإطلاق ، وهو أسفلها في الدنيا كما أن أهله في الدرك الأسفل من النار وقد حكم الله على أهل هذا القسم باللعنة والطرده وعدم النصر مطلقا كما قال تعالى فيهم ﴿ ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ﴾ وهؤلاء هم المذكورون في الآيات من أول البقرة في قوله تعالى ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ الى قوله ﴿ ولو شاء الله لذهب بسبعهم وأبصارهم ان الله على كل شيء قدير ﴾ وهم المذكورون في قوله ﴿ واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا ، فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا ﴾ وهم من أولئك المذكورين في قوله ﴿ ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا ﴾ فتأمل بدقة قوله ﴿ ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا ﴾ تجدد السر العظيم في أن كل من ادعى أن الكافرين أو الملحدين أهدى من الذين آمنوا سبيلا فقدم أفعالهم وآراءهم أو رأيها بعقله وبفكره خيرا من طريق المؤمنين انه ملعون وانه لا ينصر ولا يمكن أن يجد من ينصره أو يعينه ، ولا سيما إذا كان ممن أوتي نصيبا من الكتاب ، أى عرف شيئا من الدين لأن عقوبته تكون أغلظ لأنه اختار الجباث على الطيبات ، فكان خليقا بالطرده والابعاد ، ولن ينفعه قوله ﴿ إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا ﴾ أى بآنى ما أردت إلا أمرا حسنا وهو السياسة والتوفيق بين الدين والحضارة ونحو ذلك ، لأن

حقيقة كلامه أن الدين ليس فيه كفاية ، وحقيقة هذا أنه لم يعرف الدين وهو عبادة الله وحده وتحكيم ما أمر به صريحا مطلقا

والمقصود أن تقسيمه الذى ادعاه باطل بطلانا ظاهرا ، وأن الاتحاد الذى ادعى أنه خير من الدين الباطل ليس بصحيح ، بل شر منه ، فإن أكثر الدول المتقدمة قامت على أديان باطلة كدولة كسرى وقصر وغيرها مئات السنين ، بخلاف الاتحاد فانه لا يعرف أن أمة قامت عليه ما يقارب ستين سنة أى مقدار ما يعيش فيها الانسان غالبا ، بل قد يقوم بعضها سنوات تتخللها الكوارث والنكبات والحن والمصائب ، ثم يحل بها الغضب الماحق ولا بد ، فالأديان الصحيحة والباطلة مثلها كمثل الأمراض والصحة ، فالدين الصحيح كالصحة والأديان الباطلة كالأمراض ، فمنها ما قد يبق مع حياة ونوع من الصحة ، ومنها ما يقتل صاحبه ولا يد كالجذام ، ومنها ما هو دون ذلك ، ولكن الأمراض لا تحل بالجسم إلا إذا ضعفت صحته واختل مزاجه وفقد العوامل التى تكون فيها قوة على مقاومة الأمراض وإزالتها ، وهذا هو التقسيم المعقول الذى تقوم عليه البراهين التاريخية والاستقراء التام والاعتبار الصحيح

إذا تبين هذا فاعلم أن الكتاب مقصود به رفض الدين والدعوة الى الاتحاد وذلك أنه قرر صريحا فى هذه الجملة أن التقدم لا يمكن إلا فى حالتين إما فى الدين الصحيح أو فى الاتحاد الصريح فأما الدين الباطل فقرر أنه عائق عن التقدم . ومعلوم أنه إنما وضع كتابه على ما يزعم فى الحث على التقدم ، وقد ادعى أن الحالة الأولى التى هى العمل بالدين غير معروفة ، وأن الناس غير مستعدين لفهمها فيما سبق ، بل عاجزون عن تصورها إلا فى النادر . وكل ذى مسكة من عقل يعرف أن كتابه ليس فى الحث على الدين وعبادة الله وطاعته ، حتى عند المرتابين فى أمره فانهم معترفون بأن كتابه ليس حثا على الدين ، وغاية من يعتذر عنه أنه حث على العمل فقط ، فإذا كان موضوع كتابه

فليس حشا على الدين بالبداهة وبالانفاق ، تعين أن يكون حشا على الإلحاد لانه لا يمكن أن يكون حشا على الدين الباطل ، فانه قرر أن الدين الباطل عائق عن الرقي فتعين - بلا شك - أن كتابه دعاية الى الإلحاد بضرورة التقسيم ، وهذا أمر لا يستريب فيه من له مسكة من عقل نابذ للعصية والهوى ، قاصد وجه الحقيقة والصواب

وقوله « ولا شك ان الحالة الثانية هي شر الحالات » الخ يقال : بل لا شك في بطلان ما ذكرته ، بل شر الحالات هي الثالثة أى حالة الإلحاد المحض ، فان هذا هو الموت والدمار والهلاك المحتوم والمصيبة العظمى نسأل الله العافية ، وقد سبق بيان كونها شر الحالات قريبا

ثم الدين الباطل لم تبينه تبينا مفصلا غير ما ادعيت من أنه الإقرار بمشيئة الله العامة ، وكونه تعالى يغير الأسباب فيجعلها إن شاء أسبابا وإن شاء غير أسباب ، وإن له الهيمنة عليها والوقوف بينها وبين مسبباتها والتحكم في نتائجها وإن رضى الله وغضبه له دخل في الأسباب وأمثال ذلك ، فهذا هو الذى شرحته وادعيت أنه دين باطل وأنه فكرة دينية وهي أصل المزالقي ، فيكون أهل هذا الدين عندك شرا من أهل الإلحاد ، ويكون أهل توحيد الربوبية الذى أقر به كل من آمن بالله شرا من أهل الإلحاد ، وأهل التوحيد الحق المخلصين فيه شرا من الملحدين بطريق الأولى ، فانهم أعظم في المحافظة على توحيد الربوبية ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات على دعواك هم شر البرية

ثم أنت قررت أن التأخر إما يعود الى سبب واحد وهو الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها ، فيكون الدين الصحيح الذى يوجب النجاح هو معرفة قوى الطبيعة ونواميسها لديك ، والجهل بذلك هو الدين الباطل ، فيكون كل من لم يعرف هذا فهو شر من عرفه سواء أكان ذلك ديننا صحيحا أو إلحادا صريحا ، فالعرب الذين قررت أنهم أجهل من غيرهم في هذه الأمور شر من الملحدة ؟

على المسلمون شر من الملاحدة عندك لانك قررت أنهم عاجزون من كل ناحية من نواحي الأمور الاقتصادية والمادية والتجارية ، وان سبب ذلك هو عدم معرفة قوى الطبيعة ونواميسها فهم شر من الملاحدة (١)

هذا حقيقة كلامك بل صريحه ، وانما طولت الخداع والنفاق والجـدال خوفا من أن تقع فيما وقعت فيه آخرا

• • •

ثم قال : وهنا يجب أن يعلم الغافلون من إخواننا في سائر بقاع الأرض أن سادتنا الغربيين ومنافسينا من الشرقيين لا يؤذيهم أبدا أن نكون متدينين بهذا الدين المحرف ، بل ان ذلك ليعجبهم ويرضيهم ، وانهم لعل استعداد تام لأن يقيدوا لنا المساجد والمعابد ، وأن يطبعوا لنا الكتب الدينية ، وأن يصنعوا لهذا الغرض كل شيء ، وأن يعينونا على أداء كل فريضة من هذه الفرائض ، اذ أى ضرر يصيبهم من ذلك ،

والجواب ان يقال : نعم يجب أن يعلم هذا إخوانك الغافلون من الزنادقة والمتناقضين في سائر بقاع الأرض ، أما المسلمون فانك برىء منهم وهم برآء منك ، وهم يعلمون ان العز كل العز والمجد كل المجد والسعادة كل السعادة في القيام بما أمر الله به والاعتصام بحبله المتين ، وان ذلك هو الوسيلة الوحيدة الى عزهم واستعادة مجدهم ، وأنهم ما فقدوا هذا العز وهذا المجد إلا لما تلوثوا بآراء الملاحدة والزنادقة وتساهلوا بالاعتصام بالدين ، وهم يعلمون أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، فمن كان مؤمنا فلا بد أن ينال العز والمجد والسعادة ، ومن

(١) بل ذكرت حديث تأييد النخل وهو يتضمن أن الرسول وأصحابه الذين تركوا التأييد على دين باطل ، لأنهم ظنوا أن النتيجة غير لازمة لوسيلتها ، وان المسبب غير لازم لمسيبه لزوما حتميا

خرج من الايمان أو تطرف فيه فلا بد أن يصيبه نصيبه من تطرفه ونصيبه من خسارته في الخروج . وهم يعلمون أن هنالك بلاداً تدعى الاسلام وقد عشقت هذه المبادئ الغربية الاخلاكية ورأت أن العز فيها وفي الاحتذاء بأهلها ، وقد أسرفت في ذلك فأنالت إلا عكس ما أرادته ، وسلط عليها عدوها وسامها سوء العذاب ، وكلما ازدادت في البعد ازدادت في البلاء والشقاء والبشر ، وهم يعلمون أيضاً حقيقة العلم أنه لا أضر على هؤلاء الغربيين ولا أشد إيذاء لهم من القيام بالأخلاق الدينية والاعتصام بها ، لما يعلمون من قوة أهلها وشدة جلادهم وقوتهم على العمل والجهاد والكفاح والنضال المتواصل ، ولهذا فانهم يدسون لهم الدسائس الخبيثة في إفساد أخلاقهم ، ويسعون في طبع المقالات المخدرة في الفسوق والاحاد وحب الجديد وأمثال ذلك ، وقد علم الناس أنهم قد اتخذوا جميعات سرية لافساد الاخلاق واستعملوا الوسائل المتنوعة لامانة روحهم المعنوية الدينية ، وبذلوا الأموال الطائلة في ذلك لانهم يعلمون أن أقرب وسيلة لتخدير الناس عنهم هو انغماسهم في الفجور والملاهي والى والغرام ، وهذا بخلاف الاخلاق الدينية التي تبعث على حب الرجولة والكرامة والمجد والعز والاستقلال ، ولذا يقفون دائماً في وجه كل ذى خلق ديني ، ويضعون العرائيل أمامه ، وقد استفاض ما فعلوه من بث الدعايات في التشكيك في الدين وافساد العقائد ، ولا سيما العقائد السلفية ، والطعن في الروايات الصحيحة الواردة في فضل القرون المفضلة ، كما طعنوا في حديث « لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه » وهذا أمر قد عرفه كل الدهاة فيهم وحسبوا له الحساب ، وقد كان هذا الملحد من قبل خروج هذا الكتاب مقراً بذلك ، فانه ادعى على بعض خصومه من يعادونه في سيرته الأولى في تفضيل السلف بأن الملاحدة يستخدمونهم في ذلك ، فدعواه الآن أن هذه الاخلاق الدينية لا تؤذى سادته للغربيين انقلاب الى ضد ما كان يدعيه سابقاً . ثم لو فرض هذا فهل يسوغ في العقل والدين أن تترك ما أمرنا الله به عناداً وحسداً لهم كمن يغضب عبيلى

صاحب سفينة في البحر فيغرقها وهو وماله فيها فيهلك نفسه حسدا لصاحب السفينة ، فالعناد والهوى والأغراض لا تدخل لها في الدين ، ولعل مقصودك من هذا إبعاد التهمة بانك في دعايتك هذه غير مستخدم لهم فيها (ثكلتك أمك ما ظننت غرور)

وادعائه بأن الناس على دين محرف صريح في أنه يرى الناس على دين باطل ، فيكونون شرا من الملاحدة لما تقدم في دعواه أن حال أهل الدين الباطل شر من حال أهل الإلحاد ، وقصده في هذا إيجاب رفضه ، فإنه قرر أنهم على دين محرف وأنه يجب رفضه واعتناق الإلحاد الصريح ، لأن الدين الصحيح قد ثبت أن البشر عاجزون عن فهمه وأخذه عن وجهه ، فيكون بأخذه على غير وجهه ديننا محرفا وهو مضر مفسد الاخلاق ، فيكون شرا من الإلحاد ، وهذا هو هدفه الذي يرمى اليه ، ولم يستثن أحدا من المسلمين بأنهم على دين صحيح فيدعو اليه ، بل عزم الدعوى كما نرى . وهذا كما أنه فجور ظاهر وكفر صريح فهو يناقض دعواه السابقة في صحيفة ١٥ وتصريحه بأنه ليس في إيماننا بالله وفضائلنا الدينية عجز كما تقدمت عبارته

كريشة في مهب الريح ساقطة لا تستقر على حال من القلق

ثم قال : ولكنهم من جانب آخر مستعدون أتم استعداد — إذا لم يمنع من ذلك مانع — أن يهدموا كل مصنع نشيده وكل حياة صحيحة قوية حرة نحياتها ، وانهم يخشون ويحترمون في وقت واحد أمثال مصطفى كمال موجود تركيا الحديثة وبقرون عينا — مع الاحتقار الشديد والفرح البالغ — بأمثال ذلك الرجل الجامد ، ذلك الرجل الذي قتل شعبه بالجهل والفقر والمرض ، والذي أمر رعاياه في العام الماضي بقراءة القرآن والبخارى لرفع الوباء الذي اجتاح بلاده التي ليس فيها وسيلة واحدة من وسائل مقاومة المرض الصحيحة ، هذا الرجل الذي عرضت عليه المساعدات الطبية دولة مجاورة ، لا نقاد بلاده

البائسة الشقية من طاعون وفد إليها منذ سنتين فقط بشدة مرعبة ، فرد هذه المساعدات قائلا : ان الطاعون رحمة يخص الله بها بعض عباده فكيف نعمل على رفع الرحمة ١٩ هذا الرجل الذى يمضى فى بناء السجون فى بلاده ، بينما تمضى كل الأمم فى بناء المدارس والمصانع والمصحات ،

يقال : كل هذا احتجاج بأراء المستعمرين بأنهم يرون هذه الأمور ، ولو ثبت ما ذكره عنهم لم يكن من الحجة الصحيحة فى شيء ، فانه إذا كان يحتاج بأرائهم فهم يرون أيضا الكفر بالله وملئكته وكتبه واليوم الآخر وينكرون رسالة النبي ﷺ ، وملاحدتهم ينكرون الرسالة مطلقا ، فليحتج بذلك أيضا ، وإلا فكل عاقل يعلم أن الحقائق إنما تعرف بدلائلها وبراهينها ، لا تعرف بأراء قوم كافرين مختلفين أعظم اختلاف على وجه الأرض فى آرائهم ونظرياتهم ، وهل يدعى مثل هذه الدعاوى الساقطة من له مسكة من عقل أو دين ، ومن العجب أنه مدح مصطفى كمال وادعى أنه موجد تركيا بمجرد إلحاده وقلبه لنظام تركيا وجعلها حكومة لا دينية بعد أن كان دينها الرسمى الاسلام ، فمدحه على هذه الردة الخبيثة وادعى أنه موجدها ، وهو يعلم انها كانت قبله من مئات السنين أكبر وأعظم وأرقى ، وقد عرفت تركيا نفسها هذا الخطأ الذى فعله هذا الرجل وتحققت ضرره فى شبابها الذى نشأ فى هذه المدة القصيرة فنادت بهذا الخطأ ورجعت تلتصم الدين وتعلمه فى مدارسها ، وهذا برهان منهم ظاهر على خطأ الذى مدحه هذا الملحد عليه ، ثم إنه لم يكتف بذلك حتى ذم الرجل الآخر الذى لم يسمه باسمه ، وبماذا ذمه ، ذمه لأنه أمر بقراءة القرآن وصحيح البخارى واحتج بالحديث النبوى ، وهذه عنده ذنوب لا تغفر ، فكانت ردة مصطفى كمال وكفره بالله ورسله واليوم الآخر أحسن وأشرف وأجل وأعظم من الأمر بقراءة القرآن وصحيح البخارى والاحتجاج بالحديث ، وهذا هو اللائق بمن لعنه الله وجعله كالذى يحب الخبائث ويسقط عليها ، ويكره الطيبات

وينفر منها ، فهذه هي قاعدة هذا الملحد ، فهو دائما يقول للذين ~~كفروا~~ (هؤلاء اهتدوا من الذين آمنوا سبيلا) فما أخلق به أن يكون من الذين
العنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا

وهذا الرجل الذى لم يصرح باسمه لعله يريد به ملك اليمن السابق يحيى ،
لكن لم يبين من الذى عرض عليه هذه المساعدات حتى يعرف كيفية ردها
واعلمها حكومة عدن ، ومعلوم أن قبول الانسان للمساعدات مطلقا من دون
ملاحظة أمر آخر غلط كبير لا ترضاه أكبر دولة على نفسها فهى لا تقبل إلا
إذا كانت النتيجة أولى من الخسارة ، وأيضا فإنه لا يعرف وقوع هذا الطاعون
الذى جاءها فى هذه السنين التى أشار إليها على الصفة التى ذكرها ، بل يوجد
هناك أمراض متنوعة قد تكثر بغض الأحيان فى الأودية العميقة فى المناطق
الحارة . ثم انتقاده الاحتجاج بالحديث هو انتقاد للحديث نفسه ، والحديث
ليس فيه نهى عن التداوى وإنما فيه إخبار بأن مثل هذه المصائب التى منها
الطاعون قد يقع رحمة ، فإن جميع المصائب التى يصاب بها المؤمن إذا صبر
واحتسب فتكون له اجرا ، ومع ذلك فهو مأمور بالتداوى ، كما أن النبى ﷺ
قال فى الجهاد لا تمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم
فاضربوا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ، وكما أن العمى والحرس
وموت الأولاد كل ذلك من المصائب التى يؤجر عليها الانسان ، وليس مأمورا
بالوقوع فيها والجناية على نفسه بها ، بل هو مأمور بتجنبها ومداواتها ما استطاع ،
ولعل هذا الرجل إنما احتج بالحديث لبيان أن أخذ المساعدة بكل حال ليس
بواجب ، لأن هذا رحمة فلا يكون ترك مثل هذا معصية إذا كان قد يجر إلى
ضرر أكبر ، ومعلوم أن مثل حكومة عدن لا تسدى إليه نفعا رخيصا باردا
بدون معاوضة أعظم وأكثر ، وقد عرف ما بينه وبينها من سوء التفاهم ،
ولكن يجب أن يعرف أن هناك ما هو أعظم من هذا الطاعون وما هو شر

منه ، وهو طاعون النفوس ووباؤها المميت القاتل ، ولم نجد أحدا مد يد المساعدة اليه في انقاذ شعبه منه ، وقد كان من الواجب عليه السعى في تحصيل دوائه وقبول ما يأتيه من المساعدة على إزالته ، وهذا الطاعون والوباء القاتل الذي لا يمكن لشعب أن يحيي وأن يظفر بالعافية وهو فيه هو اعتقاد المعتزلة وكثير من أصول الجهمية في الدين ، وذلك أن كثيرا من أهل تلك البلاد على هذه العقائد الباطلة ، وقد سمعنا من أناس منهم بدعوى أن القرآن مخلوق ، وأن الله لا يتكلم ، كما سمعنا منهم من ينكر أن يكون الله تعالى على العرش ، وينكرون كثيرا من الصفات ، وفيهم أيضا بعض عقائد أخرى . فهذه هي العلل القاتلة ولهذا كانوا على هذه الحالة ، فإن أصل مذهب الجهمية والمعتزلة في إنكار العلو والكلام والصفات مأخوذ من الاتحاد المحض ، فإن الذين أصلوا هذه الدعايات التي هي ضد ظواهر النصوص هم جمعيات سرية خبيثة من الفرس واليهود وغيرهم قصدوا بذلك قلب أصول الإسلام وإفساده حسداً للعرب ، واستعملوا في هذه الدعاية من أضله الله من ذوى السلطة وغيرهم لبشاً ونشرها ، وقد قدمنا أن مذهب السلف الصالح في نصوص الصفات هي إجراؤها على ظاهرها على المعنى اللائق بالله تعالى ، وذلك كالاستواء ، فإن استواء الله سبحانه فوق العرش ليس كاستواء المخلوق بل استواؤه كسائر صفاته استواء يليق به ويختص به ، فهو سبحانه خلق العرش كما خلق غيره من سائر المخلوقات ، وهو غنى عنها كلها ، فهو مستو عليه ، وهو غنى عنه ، والعرش وما تحته فقير اليه ، ولا يلزم من استوائه عليه افتقاره اليه ، كما لا يلزم من خلقه له افتقاره الى خلقه ، وليس فوق العرش شيء مخلوق وجودى حتى يكون الله محتاجا اليه ، بل الذى فوقه عدم خالص والعدم ليس بشيء ، فاذا كان الله فوقه فليس هو فى شيء مخلوق موجود ، بل المخلوقات كلها بائنة منه وهو بائن عنها ، ومن أول وحرف الاستواء بأن معنى ذلك « استولى » فقد وقع فيما فر منه ، إذ أنه شبهه باستيلاء المخلوقين كبشر بن مروان الذى استولى على العراق ، واذا قاله ان استيلاء بشر

لا يماثل استيلاء الله قلنا فلا اعتقدت في الاستواء مثل ذلك فقلت : واستواء الله ليس كاستواء المخلوق ، بل هو استواء يليق به ويختص به ، وبذلك تسلم من تحريف كلام الله ، والا فكيف تفهم من الاستواء ما لا تفهم من الاستيلاء وكلاهما يتصف به المخلوق على ما يليق به من النقص ويتصف به الخالق على ما يليق به من الكمال ، فكما أن ذاته كاملة من كل وجه فصفاته كذلك ، ومعلوم بالبداهة أن كل صفة تختص بموصوفها وتليق به من كمال ونقص ، فالعبد لا يبد من وجود النقص فيه طبعاً ، فانه مكون من عناصر كلها ناقصة ومفتقر بعضها الى بعض ، وأما البارئ تعالى فله الكمال المطلق من كل وجه وصفاته من الاستواء والكلام والرضا والغضب والرحمة والحكمة والعلم وغير ذلك كلها كاملة . وليس غرضنا الإفاضة في بسط هذه المسائل فقد أوفينا البحث فيها في كتابنا (كشف البهتان) وفي كتاب (الرد على الحصى) فما ذكره من الانتقاد على هذا الرجل ومدحه لمصطفى كمال هراء مرذول كهادته

• • •

ثم قال : وان هؤلاء الدعاة الدينيين أقرب الى قلوبهم والى رضاها من أولئك الذين يوسمون بالإلحاد والزيغ ، ممن يعملون على إيقاظ الشعور القومي ، وعلى بث الكرامة الوطنية السجينة في النفوس تحت هذه الانقاض المحطمة ،

فيقال : بل الأمر المعروف هو عكس هذا ، فانه من المعلوم أنهم يبشون الدعايات في تشكيك الناس في أديانهم ، ويؤيدون بكل الوسائل أولئك الموصوفين بالإلحاد والزيغ ، لأنهم يعلمون أن هؤلاء هم الذين يميثون فيهم الروح الحية ويصدونهم عن العلم والعمل ، وقد علموا بالتجربة أن أكثر من يصمد في مكائفتهم ونزاعهم هم الدعاة الدينيون أي المتمسكون بالكتاب والسنة ، وهذا الرجل نفسه قد اعترف بهذا في كل كتبه السابقة ، ولكنه لم يسل

نكص على عقبه وصار من الهداهين أخذ لا يألو المسلمين خبالا في إفساد الأخلاق الدينية والقاء العداوة بين أهلها ، وغرضه من هذه الأكاذيب إبعاد التهمة الموجهة اليه بكونه داعية لهم ، وهيئات ذلك

ثم قال : وقد حدثني أحد الرجال المشهورين أنه حاول مرات أن يسافر الى بلاده التي يقبض عليها الاستعمار بقسوة وإحكام ، فلم يستطع أن ينال التصريح الذي يبيح له السفر فاجأ إلى حيلة لطيفة هي أنه تزى بزى رجال الدين الذين يقومون بوظيفة الوعظ والارشاد ، واضعاً على رأسه عمامة تزى بالهرم ، وعلى كتفيه جبة تسع لايواء كل الشياطين ، وتحت لبطيه من كتب التفسير والحديث والفقه والعقائد ما ينوء بحمله أحد مهر الحى ، قال ونجحت هذه الحيلة أعظم نجاح ، فأعطيت جواز السفر والدخول مع الاحترام والتوقير والسرور ،

فيقال : قد مر أن هذا الرجل طعن في روايات في صحيح البخارى ، بل في الصحيحين وغيرهما ، وهو هنا يحتج برواية هذا المجهول الذى أقر على نفسه بالنفاق ، ثم يريد منا أن نصدق ونصدق هذا المجهول ونجعل ذلك برهانا على حسن الاحداد ، مع كون الرواية نفسها رواية منكورة ساقطة مشتملة على نفاق ومجازفة واستهزاء بأمر الدين . ثم هي لو صحت لسكانت حجة عليه لأن غاية ما فيها أن هذا المجهول الحال سمح له لكونهم يرون أن ليس في مثل هذا ضرر ، وفات هذا الزائع أنهم يكونون بهذا مخدوعين لأن حياته انطالت عليهم فخدعهم بها ، فكان معه مكر وخبث ودهاء ، وقد تقدم أن هذا المغرور ادعى أن المكور والخبث والدهاء من الأمور العلية العظيمة ، فإذا كانوا مخدوعين بهذه الحيلة البسيطة فقد يكونون ضالين في هذا الرأى الذى رأوه ، وهو يناقض زعمه أن المتدينين هم الذين يخدعون دائما وأن الملاحدة يخدعونهم ، فصار الأمر هنا بالعكس . ثم هي طعن فيه ، فإن هذه القصة مما يدل على أنه كان يخلو بأمشال

هذا المنافق المستورى ويتحدث معه بهذه الدسائيات في أكل أعراض أهل الدين ، ثم ماذا يضر المسلمين لو كانت هذه المسألة وقعت معها كانت حالتها ، ولكن هذا شأن المضطر يحتاج الى الموقوفة والمتردة والنطيحة وما أشبهها

* * *

ثم قال « وقريب من هذا ما حدث قبيل هذه الحرب في البرلمان الفرنسي ، إذ قام أحد الأعضاء — على أثر حملات تبشيرية مسيحية قام بها رجال الدين الفرنسيون في المغرب العربي — قائلاً : إن فرنسا دولة علمية إلحادية ، فلما وللتبشير ١٩ فنحن نستنكر ما يقوم به رجال الدين هناك . فقام الرئيس فرد عليه رداً ما أعجبه (١) إذ قال : ان هذه — يعنى العلمانية الإلحادية — بضاعة محلية لا تصدر الى الخارج . وقصده من هذا أن الدعوة الى الأديان (٢) يجب أن تبقى مستمرة نشيطة في المستعمرات ، وإن حرمت في فرنسا نفسها ، ويجب أن لا يخفى على أحد أنهم — أى الفرنسيين — لن يصدروا الخير الى الخارج مجاناً ويحرموا بلادهم منه ،

فيقال : وهذا من نط ما قبله في الاستدلال الساقط ، فان حاصله استدلال برأى رجل من فرنسا ، وهوان صح فهو حجة عليه ، لأن هذا الرئيس رد على هذا العضو رداً مسكتاً لم يستطع الجواب عنه ، فبين فساد رأيه في عدم الدعوة الى الأديان فقال ان هذه — يعنى نظرية الإلحاد التى ذكرها العضو — بضاعة محلية لا تصدر الى الخارج ، ومقصوده من هذا أن الإلحاد في نفس فرنسا أو في عاصمتها قد استحکم فبت التبشير فيه لا يفيد ، لأنه قد غلب على أكثرهم

(١) من أخبرك أن هذا الرد ما أعجبه ، وهو قد أسكت به ، فهو رد جيد ولو لم

يذهبك

(٢) هذا تلبيس ، لأن المبشرين لم يدعوا الى الأديان ، بل الى المسيحية فقط

الاحاد وغالبهم يعرف الديانة المسيحية فلا معنى للتبشير هنا ، وأما المستعمرات
فليست كذلك ، فإنه لم يقش فيها الاحاد كغيرها ، وقبول الاديان هناك يمكن
فان الفطر تقبل المدين ولا تقبل الاحاد ، فلا مانع إذن من بث التبشير هناك
لأن الحكومة اذ ذلك مسيحية أى دينها الرسمى ، وهذا يبين فساد دعواه بأنها
لن تصدر الخير الى الخارج وتحرم بلادها منه ، فانهم لو كانوا يرون أن الاديان
ضرر محض لم يخلصوا الدين المسيحى بالتبشير بل لعلوهم الاسلام ، لأنهم
ويروونه أضر إذا كانوا يريدون تصدير الشر الى مستعمراتهم . ثم لو فرض أنها
ترى ما ادعاه فهل يكون رأيها هذا حجة ، فهذا المسكين تارة يحتاج بحكاية مجهول
منافق وتارة برأى رجل من فرنسا قد رده رأى رجل منهم أكبر منه ، وكل
هذا الهذيان مكرر مما قبله ، وقد تقدم الجواب عنه ، فان الغرض المقصود منه
إثارة الشنآن بين الرؤساء والمتدينين ، ومحاولة محاربة من ينسب الى الدين
بوطرده واحتقاره وأنه ليس على شيء من العقل والمعرفة

* * *

ثم قال : هذه قضايا قد آن الأوان لأن تكون معلومة . ولكن ماذا أريد
أن أقول ؟ أقول ان التدين المحرف الواهم نكبة على الجماعات وعلى الأفراد ،

فيقال : هذا الذى تريد أن تقوله من كون هذا الدين الذى عليه المسلمون
محرف واهم ، قد بينا لك أنه قول غير صحيح بل باطل بلا ريب ، فالدين الذى
عليه كثير من المسلمين اليوم خصوصا أهل السنة وأصحاب الحديث ، وهو
ما قرره الامام ابن تيمية وابن القيم وأمثالهما من أكابر المسلمين ، وهو ما ذكره
أئمة السلف الصالح في كتبهم المشهورة ، فهذا الدين ليس بدين محرف ولا واهم ،
بل هو دين صحيح لا غبار عليه والله الحمد ، فاذا كان الله قد أعماك عن فهمه
ومعرفته وتصوره على وجهه فليس لك أن تحكم على المسلمين بالضلال ، وعلى
دينهم بأنه محرف واهم ، فتتكر ما لم تحط به علما ، مع أنك متناقض فأنك في

كتبك السابقة ادعيته ودعوت اليه وقررت أنه دين صحيح لا ريب فيه ،
وذكرت البراهين المتعددة على ذلك . ثم لما انقلبت أخيرا ذهبت تدعى أن
البشر عاجزون عن فهم الدين الصحيح ، وتدعى فيها سبق وفي هذا أن ديننا
محرف واهم ، وتدعى مرة أخرى أن إيماننا بالله وأخلاقنا الدينية ليس فيهما
عجز ، وهذا عين التلاعب . وأيضا اذا كنت في شك من هذا الدين الذى نحن
عليه فعليك أن تذكر هذا الدين المحرف وتبين وجه تحريفه وفساده ، فتذكر
عقيدة أو عقائد من التى نعتمدها كالواسطية أو غيرها من كتب ابن تيمية أو
ابن القيم أو محمد بن عبد الوهاب ونحوهم ثم تجيب عليها وتبين عدم فهمك لها
ووجه فسادها ، أما الهجوم على دين الاسلام الذى عليه المسلمون بأنه دين
محرف هكذا كيلا يجازفة ، فقول لا يجرؤ عليه إلا من انسلخ من الدين والعقل
جميعا ، ونحن والله الحمد على بصيرة من ديننا ونعلم أنه صحيح غير محرف ولا
واهم ، وليس بنكبة على أحد لا على جماعات ولا على أفراد ، بل دين الاسلام
الحنيف هو دين الفطرة ، ونحن مستعدون لمباهلتك على ذلك ، فلو قام
المسلمون كلهم جميعا بهذا الدين وعملوا به وأخلصوا في العمل به لخلصوا أنفسهم
وشعوبهم كلها من عدوهم ، ولتقدموا به كما تقدم من عمل به من أسلافهم
وكانوا على غاية من العز والسيادة وضخامة الشأن

* * *

ثم قال : ولكن هل يصح أن يفهم أحد من هذا أنى أريد الاستثناء عن
الدين . كلا . فالدين حاجة من حاجات الانسان التى لا يمكن أن يستغنى
عنها ^(١) . ولكن ثبت أن البشرية عاجزة — إلا فيما ندر — عن فهمه على

(١) هكذا صنيعه : لف ودار ونقمقر . مسكين والله مسكين من هذا الرعب
والقلق والخوف الشديد

وجهه الصحيح . هذه هي المشكلة التي لم يستطع حلها بعد ،

فيقال : نعم ، قد فهم كل من له عقل أنك تريد رفض الدين بلا شك ، فن تدبر كتابك هذا وأحاط عليها بمغزاه ومرماه لم يتوقف في هذا أبدا ، اللهم إلا أن يكون ممن طبع الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة ، أما ما ذكرته من عجز البشرية عن فهم الدين فقد سبق الكلام عليه ، وكان من الواجب أن تبين لنا بأى وجه ثبت عجزها ، وما وجه الثبوت ، مع كونك قد ادعيت في كتابك السابقة أن ما تدعو إليه دين صحيح كما سبق ، وكذلك ما ذكرته من كون هذه المسألة الكبرى هي المشكلة التي لم تحل ، فقد تقدم الجواب عنها أيضا ، وهي برهان على أنك لم تفهم الدين على وجهه ، وأنت تكلمت فيما لم تحط به علما ، وأنت لم تصل إلى غاية محققة ، وأنت حكمت على المسلمين بأن دينهم واهم بمجرد رأيك ، وضربت بجميع براهينهم عرض الحائط ، لأنك لم تذكرها ثم تجيب عنها وتبين ما يطلها ، بل حكمت عليها بالبطلان بالدعوى المجردة ، فصار الكتاب الذي مدحته ذلك المدح غير موصل إلى حقيقة ويقين بل إلى شك وريب ، وقد بينا أنها إذا كانت هذه المسألة الكبرى مشكلة عليك فن الواجب أن تستفتي فيها وتساءل عنها . أما نحن فهي لم تشكل علينا ، بل هي عندنا أوضح من الشمس في نصف النهار ليس دونها غيم ولا قتر ولا شيء من الأشياء التي تحول بيننا وبينها أبدا . وأما أنت فأنك لما كنت على عكس ما كنا عليه كانت نظرتك إليه عكس نظرنا ، فانه خفي عليك هذا الواضح الجلي ، لأنك في ظلمات بعضها فوق بعض ، مع عمى البصيرة والصمم والبكم والأغلال والختم والطبع والأقفال . وأيضا إذا كان قد ثبت هذا عندك فن أين فهمت هذا الدين الصحيح الذي تمدحه لو أخذ على وجهه ، وما هو ، وما حقيقته ، وكيف كان مشكلا عليك ولم يحل . وأنت ذكرت أنه لو وجد لكان نافعا وكان أولى من الدين الفاسد والاحاد المحض ، وأيضا نقول : إما أن تكون قد فهمته أو لم تفهمه ،

فان كنت فهمته فكيف تدعى أنه مشكلة لم تحل ، بل عليك أن تبينه وتشرحه شرحا واضحا مفصلا ، ولا سيما إذا كنت تعلم أن الناس في أشد حاجة إليه ، وكيف اختصاصت بفهمه دون العالمين والنادر لا حكم له ، وان كنت لم تفهمه فكيف تدعى إنكار شيء لم تفهمه وعدم العلم بالشئ ليس علما بالعدم ، وكيف تحكم على غيرك أنه لم يفهمه مع اعترافك بأنه مشكل عليك ، وأنت لم تنقل عن أحد أنه أشكل عليه مثلك ، فهل هذا إلا عين التلاعب والخذاع الظاهر ، وجل الله وتقديس أن يكلف الله الناس بما لا يطيقون فهمه أو لا يفهمه إلا النادر منهم ، مع دعوة الخلق جميعا الى تدبره وفهمه ، كما قال تعالى ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ فكيف ييسره للذكر ويكون الناس عاجزين عن فهمه ، وقال تعالى ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾ فيبين أن الضرر إنما جاء من الناس لنفورهم لا من حيث غموض في دلالة القرآن ، وقال تعالى ﴿ ولقد صرفناه بينهم ليذكروا ﴾ وقال تعالى ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف الذين أوتوه إلا من بعد ما جاءتهم اليينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه باذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ﴾ فيبين أن سبب الاختلاف هو البغي لا من أجل غموض أو قصور في الدلالة على الحق ، بل بما قام بأكثر الناس من اختيار الباطل على الحق بالبغي ، وهذا المغرور جعل النقص من حيث الدين فانه جعلهم عاجزين عن فهمه ، ومعلوم أنهم لا يكونون عاجزين إلا من أجل غموض دلالاته وقصورها ، وأنهم لو بذلوا طاقتهم عجزوا — ومعلوم أن هذا طعن صريح فيه وفي من أنزله — بل هم الذين أعرضوا عنه ونفروا منه واختاروا العمى على الهدى ، والا فهو أوضح شيء وأظهره ، وليس هذا خاصا بالدين بل كل من أعرض عن شيء فلم يتأمله ويتدبره لم يفهمه ولم يتصوره على وجهه ، وإلا فن ابتغاه بصدق وإخلاص هدام الله إليه

كما قال ﴿ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ﴾ وقال تعالى ﴿ ويهدي إليه من ينيب ﴾ فقد بين تعالى طريق فهمه والهداية به بأسهل شيء وهو الإنابة إليه تعالى والافتقار والتضرع إليه والاخلاص والصدق في معاملته ، فانه أكرم الأكرمين ، وقد بين صريحا أنه يهدي إليه من ينيب ، وأما من لم يرد الهداية فقد بين الله له طريقا آخر ، فاذا سلكه الانسان فان الله لا يهديه ، وهو طريق الظلم والتمرد والفسوق والاعراض ، وحقيقة هذا هو عدم الإنابة إليه ، فقال تعالى ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ ، ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ ، ﴿ إن الله لا يهدي من يضل ﴾ ، ﴿ ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾ ، ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ ، ﴿ وتغاب أقندتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة وتذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ ، ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ فكل من كان في صدره حزازة أو ريب وشك فيما أخبر به الرسول ﷺ أو قدم عليه رأى أحد كائنا من كان أو استصغره أو احتقره أو رأى انه لا يفيد في الدنيا أو انه آلة ضعف أو انه لا يفهم جدا فقد ضل وتعرض للخيبة وانخساف القاب وانطماس البصيرة والهلاك المحتوم . وهؤلاء المساكين - الذين تساهلوا في أمر هذه الأغلال - إنما أتوا من حيث ظنوا أن أمر الدين ليس بالأمر الكبير الذي يجب احترامه جدا والبعد كل البعد عما يقدح فيه ويشوه سمعته ، فانهم لما كانوا ضعفاء الدين محترمين لأمر الدين رأوا أن إطلاق هذه الأمور ليس فيه ضرر كبير لأنهم لا يرون احترام الدين وتعظيمه أكبر شيء في الوجود ، وهل أعظم من احترام نظام الله الذي به أنزل الكتب وأرسل الرسل وأعز من أطاعه وأذل من عصاه بسبه



إذا عرفت هذا فقد بينا لك فيما سبق أن من أعظم قواعد هذا المغرور في كتابه الذي يدور عليها في كل فصل من فصوله ما نقلناه عن السيد قطاب من

لكونه يريد أن يطعن الطعنة في صميم الدين ثم يتواري هنية فيذكر ما تنطق به
النصوص ويتحصن في الدين . فهو هنا لما قال ما قال وسجل ما سجل على
الاديان السماوية وأهلها وآنس من نفسه أنه قد يكون قد انكشف أمره تواري
ثم رجع يذكر ما فهمه القارى من نصوص أغلاله ولجأ الى حصن الدين لانه
خاتمة الكتاب فأراد أن ينسى القارى جميع ما تقدم ، وهيات

أسأت ومن يسي يومًا يسام رويدك فالجزء بها ورام
فيقال : وإلا فكم استطاع الدين أن يهب الانسانية الأمل الحار والوقود
للتفسير في سبيلها الطويل الشاق ، لتبلغ هذه الغاية التي بلغت ، وكم أضاع لها
طريقها يوم أن كان يتعثر في الظلام ، وكم حجب اليها الألم والعذاب في تحويمها
حول أهدافها الكبرى ، وان كل ما نحن فيه ما هو إلا إحدى نتائج هذا
التحويم ،

فيقال : هذا مع كونه منافقة وخداعا لا يخفى على عاقل ، فانك لم تبين من
أخذ بهذا الدين من علماء الامة ، ومن هو الذى سار عليه على كثرتهم ، بل
ادعيت فيما سبق أن هذه الفرق كلها غالطة ، ولم تستثن أحدا منهم ، فأين هذا
الدين ، فان كان موجودا فهو لا يعرف ، وأنت لم تبين غير ما ذكرت أنه ما
تضمنه كتابك ، مع دعواك أنه رأى رأيتة وحدك ، وأنه مشكلة لم تحل ، فما
الفائدة إذن من هذا الدين الغامض المجهول . واذا كانت كل هذه القرون
الطويلة لم يعرف فيها الدين والناس يحومون حوله ولم يقعوا فيه ، فمتى يقعون
ومتى يعرفون هذا الدين ويعملون به

ثم قال : ومن المحقق أنه لولا هذه الهبة السماوية التي هي الدين لتقرر مصير
الانسان على نحو آخر من هذه النهايات ،

فيقال : ما هو تقرر مصير الانسانية الذى تعنيه ، أهو الدمار والهلاك ،
فهذا تناقض صريح منك ، أم هو السعادة والتقدم المستمر ، فبالك إذن لم تبين

هذه الهبة وتشرحها وتفصلها وتدعو إليها ، وكيف ساع لك أن تعادنها . ثم من هو الذى قد ظفر بالأخذ بهذه الهبة وتقرر مصيره على ما تعنيه وتريده ؟ كل هذا خداع مكشوف

° ° °

ثم قال : وما كان مستطاعا أن يستغنى البشر عن الدين إلا إذا كان من المستطاع أن يستغنوا عن الأمل فى حياتهم ، أو يصنعوا لهم أملا آخر ، إذ لا حياة بدون أمل ،

فيقال : هذا مكرر قد تقدم الجواب عن مثله مرارا ، وهو خداع متناقض ثم قال : واذن فهل معنى عجز الانسان عن أن يفهم التدين والدين فهما صحيحا أن الواجب عليه ، أو المستحسن له ، أن يتركه وينأى عنه . كلا ، وإنما الواجب أن ننفق القوى والأوقات على محاولة فهمه وإفهامه ، وهذا عين ما فعلناه فى كتابنا هذا . وقد كانت أعظم رسالات الأنبياء موجهة الى تصحيح التدين وتصحيح الأديان ، وهذا التصحيح هو إحدى رسالات الانسان الكبرى ، هذا آخر كتابه

فنقول : ما فعلته فى كتابك هذا معلوم مشهور مقطوع بمعرفته ، ونحن نباهلك على أنه كفر وضلال ، فلقد عرفناه وعرفه كل مسلم تدبره (وهل يخفى النهار) لا ريب أن كتابك دعاية واضحة الى رفض الأديان ومحاربتها والقسح فيها وأهلها ، وهذا لا يتفق أبدا أن يكون محاولة لفهم الدين ، فمحاولة فهم الدين شيء وكتابك هذا شيء آخر ، فأى مسألة واحدة من مسائل الدين كبيرة كانت أو صغيرة ذكرتها ورغبت فيها ودعوت إليها حتى يسوغ لك أن تدعى هذه الدعوى ، اللهم إلا أن يكون مرادك بالدين هو التوجه الى الطبيعة ونواميسها والاعتماد الكلى عليها ومحاربة دعاء الله وعبادته وذكره والتوجه اليه ، فهذا صحيح على مقتضى موضوع كتابك ، فهو عين ما فعلته فى هذا الكتاب مع أنك أيضا معترف بأن نهاية أمرك فيه إشكال لم يوجد له حل ، فهذه المحاولة

التي ادعيتها لم توصلك الى شيء بكل حال ، ثم اذا كانت أعظم رسالات الانبياء
موجهة الى تصحيح الدين وتصحيح الأديان ولم تكن موجهة الى رفض الأديان
ومعاداتها وأهلها فما الذي حملك على معاكستهم ومعاندتهم بالشدة الحادة
والمضادة الظاهرة ، فإن تصحيح الدين وأين تصحيح الأديان ، فإن تصحيح
الدين بيان الدين الصحيح ببراهينه وبيان أهله ومن قام به بدلائل واضحة
مفصلة ، ثم بيان فساد ما يعارضه ويخالفه بأدلة وبراهين صحيحة جليلة ، هذا هو
المعقول في بيان تصحيح الدين ، أما الهجوم على الأديان وعلى مظاهرها وسبها
وشتمها والتهم بأهلها والاستهزاء بهم مجازفة وقحة فليس هذا من الدين في
شيء ، بل هو محاربة لها ولأهلها ، ومن ادعى أن طريقة هذا الكتاب هو
تصحيح الأديان أو الدين فليعالج عقله وليك على نفسه وليعلم أنه لم يعرف
الدين ، والله سبحانه قد أوضح غاية الايضاح ما دعا اليه الأنبياء في كتابه
العزیز من التوحيد والایمان والعمل الصالح والتقوى والدعاء والالتابة اليه
والتوكل عليه كما قال تعالى ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله
واجتنبوا الطاغوت ﴾ وقال تعالى ﴿ وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن
الله ﴾ الى قوله ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا
يمجدوا في أنفسهم خرجا مما قضيت ويسلبوا تسليما ﴾ وبالجملة فكل أصول الدين
ومظاهر عبادته حاربتها وعاندتها أشد المعاندة ، فأين تصحيح الدين ، هذا مع
إقرارك بأن هذا الذي تدعيه شيء انفردت بمعرفته ولم تذكر أن أحدا من علماء
المسلمين وافقك عليه ، ومعلوم أن الله سبحانه جعل للدين سبيلا وأهلا وأتباعا
وأنصارا ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل
المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾

هذا آخر ما أردنا جمعه ، ونسأل الله أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ، إنه
سميع مجيب . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ، وصلى
الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين

لقد ضل من أغراك بالسب والهجا . . .

ألا أيها الغمر الذي غرّه الكبر - ترديت من عال وناسيك القفس
تميت يا مغرور ما ليس حاصلًا فسامت لك العقبي وصادمك الدهر
أمان مغرور تزايد عجبته فليس له إلا الإهانة واللاحس
فأصبح مدحورا لدى كل عاقل له الطرد والابعاد والذم والهجر
تفكر طويلا يا جهولا ترادفت عليه المخازي فهي في منته أسر
خسرت بهذا البيع أخسر صفقة فما أنتج المسعى ولا أربح الوفير
نبذت نفيس الدر واخترت ضده ومن يكره الياقوت يعجبه البعر
تخسرت عن سبل الرشاد غواية وصدك عن طرق الهدى الكبر والأشر
فأصبحت مصوبا عليك شتائم كما كان مشوبا على قلبك الجمر
ظننت خداع الله في الدين هينا ولن يخرج الله الذي كنه الصدر
جفت بأقوال النفاق مخادعا فقد بان ما تخفيه وانتهك السر
أبى الله إلا أن يعاقب من بغي وأضمر سوءا قصده الكيد والشر
فما نلت مما كنت تبغي ضلة سوى عكس ما ترجو وحل بك الضر

* * *

لقد جاء في (الغل) الذي قد عملته لنفسك قول ليس يخفى به الكفر
تجارب دين الله يا شر ملحد وتلصق آراء به ما لها قدر
وتعرض عما فيه من ساطع الضيا ومن مغل عليا ينال بها الفتح
فكم من شعوب مسها الويل والعنا فجاء لها من نوره المجد والنصر
وكم من شعوب ذاقت الدل والشقا به اعتصمت يوما فطار لها ذكر
فسل من درى التاريخ من كل عارف اذا كنت لا تدري كأمثال من غروا
وسل من له علم صحيح وفكرة لكي تعرف الغرّا فانك مغتر
والا فعز الدين - ويحك - بين كما بان وجه الشمس والضح الظهر

دعوت إلى الإلحاد جهدك معلنا
سوى أنها الأسباب تجري بطبعها
وهذا هو الإلحاد لا شك واضح
وتزعم أن الغرب ما سار وارتقى
وأن نظام الدين آخر أهله
تجاهلت عن كل الشعوب التي هوت
فكل ذوى الجهل الشنيع وشبههم
همو عندك الراقون في العلم والحجى
فأنك عللت التأخر عندنا
وإقرارنا بالتدبير لله كله
بأن فساد الناس ليس له إثر
وليس لرب العرش في سيرها أمر
فكيف يروج المين أو ينفع العنبر
ولا ساد إلا حينما حله الكفر
وليس لأهل الدين عقل ولا فكر
وسيرتها الإلحاد والكفر والنكر
من الأمم السذجى وليس لها حصر
لأن ما لهم في الدين فهم ولا خير
بأسباب هذا الدين لا سيما الذكر
بقدرته من شأنه الحكم والقهر

* * *

أطلت لحاك الله في القدرح في الدعا
نفيت صريحا أن يكون وسيلة
وكررت هذا الكفر في كل موضع
فهل قال هذا القول قبلك مشرك
وفسرت عدل الله في الحكم والقضا
بتفويضه الأسباب تحكم ذا الورى
فكل أسير للطبيعة موثق
فعطلت هذا الكون عن أمر ربه
فلا فرق بين المحسنين وضدهم
وهذا هو الكفر الصريح مؤكدا
وتسفيه من يدعو إذا مسه الضر
وليس له نفع سوى أنه الشر
لعلك أن الدين أشرفه الذكر
سوى الملحد الأشقى ومن قاده الحر
بقرمطة شنعاء بل إنها جبر
بطبع قديم عندها العسر واليسر
وليس يعين الله من ضده عسر
وصيرته طبعاً له الوصل والبتر
فلا تنفع الحسنى ولا يوبق الوزر
ومن شك في هذا فليس له حجر

* * *

وتسلك في أمر الناس مسلك إباحية صلعاء ليس لها ستر

فتزعم أن المسلمين يرونها
فلا العلم أعطوها ولا شيء غيره
خلقت فجورا ثم جثت مدافعا
بأنك تدعوها إلى العلم والنهي
فأسميت ما تنوى من الخبث والحنأ
هو العلم والتحرير والعدل والضيأ
فن أعجب الأشياء أنك تفتري
فتصنع من دعواك في البهت حجة
كبعض متاع البيت أن صانها خدر
سوى القيد والأصفاد قد شدتها الأسر
لتوم أغمارا إلى النقي قد جروا
وتدفع ما أبقي لها الجهل والقسر
كذا الرقص والفحشاء والخمر والسكر
وأما سوى هذا فليس به خير
وتحسب أن الناس بالزور لن يدروا
ومن رد ما تملى هو الجاهل الغر

• • •

مدحت بنى صهيون عظمت شأنهم
(دسائس لا تدرى اليهود بعشرها)
وإلا فما هذى المحاماة دونهم
أضفت لهم كل المعارف والقوى
وجردتنا من كل علم وقوة
وقلت جهارا دون أى تكتم
سوى أن تمسكنا بالحقا حليفنا
فصرحت بالعدوان والخبث ظاهرا
جنت بأمر (النشم) فيما سمعته
فأعماك ما أبصرت في البر والفضأ
فصدقت ما يروى على كل حالة
وأما علوم الدين والنور والهدى
وذا المدح والتعظيم حتما له سر
حداك إليها السوء والخبث والتبر
وتحريف أى الذكر ما ردك الزجر
ونحن جميعا حظنا الجهل والفقر
ومن كل آيات يفيض بها العصر
بأن ضلالا أن يتم لنا أمر
ليدفع عنا إن أريد بنا الغدر
ولكن أعنى القلب أقنعه الهذر
فأسرعت في تصديق من قوله هجر
ومن سفر شتى يمحج بها البحر
وقد طار منك العقل وانتفخ السحر
جميعا فنى أذنيك عن سمعها وقر

• • •

ألا يا نصير الكفر ويلك فاتمد ولا تنطح الصفوان يدمئك الصخر

تلقض من أغراك بالسب والهجا كما زل من أغواك نيته المكر
 أنحسب أن الدين سهلا أساسه ستنزله أقوالك الزور والفجر
 أنحسب أن الدين تخفى ضياءه عجاجتك الهوجا وآثارها السكدر
 أنحسب أن الناس قد غاب عنهم مقاصدك السوءى وأفعالك المر
 أنحسب أن الدين يدرك بالريا بلا فعل إخلاص يصاحبه البر
 فما أنت في دعواك إلا منافق كأصحابك النوكى وهم في الورى كثر
 فأنتم فساد الناس في كل أمة وجرثومة يضى بها الجسم والفكر

• • •

لقد فات ما ترجو وأخضقت دونه فشب على أحشائك (الغل) والحر
 فدعنا من التليس فالحق واضح وإن ظلام الليل يفضحه الفجر
 وإن خداع المرم يعرف ظاهرا وكل رياء سوف يجرى له نشر
 فمن عجب دعواك أنك مصلح وأنك ترجو أن يزداد لك الوقر
 فألميت ما ألميت بالطيش والهوى مقالة مأفون تمادى به السخر
 فتفدح في الأديان جهرا وترتجى بأسباب هذا القدح يوعى لك الذخر
 (كمطعمة الأيتام من كد فرجها) وتزعم في ذا الفعل أن لها أجر
 لحي الله قوما صانعوك غباوة لاهوام نفس نالها الخوف والذعر
 أمشاك يا مأفون يخشى ويتقى لقد هزلت نفس يهولنها الضر
 فما أنت إلا ضفدع مترنم ينق على بعد إذا به القطر
 فلا تجعل العدوان للدين راحة فبعدا ومسحقا عافك العسر والخسر
 فانك لن تشقى من الغيظ والبلا بل ان هذا الوحر يلهبه الوحر
 فمهلا قليلا انك اليوم غافل ستندم في الدنيا ومن بعدها القبر
 ومن بعد ذا يوم عسير حسابه به يعلم الانسان ما أثمر العمر
 وكل يذى الأيام يلتقى جزاءه فليس بها هضم لحق ولا جور
 إبراهيم بن عبد العزيز السويح

فهرس

الجزء الثاني من (بيان الهدى من الضلال)

صفحة	
٣	الكلام على المبحث السادس : نواميس الطبيعة
٦	الرد على قوله : « هل في سنن الله محاباة » ، و الجهل بنواميس الحياة مانع من التقدم ، « كيف يجب أن تفهم قوانين الطبيعة »
٨	زعمه أنه عامل انسانا فوجد معاملته قاسية ، اعتماداً على أن الارزاق بالاقدار والاقضية لا بالاسباب والمعاملات
١٣	زعمه أنه سمع وسمع القراء المثبات والالوف من أمثال الحكاية السابقة
١٧	زعمه أن المسلمين يرون أن العالم في يد الله كلعبة في يد صبي
٢٢	زعمه أن المسلمين يرون أن النصر واجع الى القضاء والقدر لا الى الاسباب
٢٥	زعمه أنهم يريدون ان يدركوا كل شيء بالضرعة والدعاء
٢٨	انكاره على من يرون للمشيئة العليا تدخلا في الوقاية وعدمها
٣١	قوله في الملائكة والشیاطین كقوله في القدر
٣٣	قوله في الاصابة بالعين
٣٧	كلام له في تأثير نظرات بعض الموهوبين ، وتأويلات أخرى للعين
٤٣	زعمه أن المسلمين ظلوا مئات السنين يمتقدون انهم لن يغلبوا
٤٤	تهجينه رأى جماعات يتنادون بالاخذ بالاخلاق الدينية
٤٨	انكاره على خطيب يدعو المسلمين الى ادراك المرغوب بدعاء الله موقنين بالاجابة
٥٥	زعمه أن شيخا من القدماء ذكر أن الاعداء لا يستولون على دمشق
٥٦	نقله قول أحد القواد « اذا احترب فريقان كان الله مع اقوامها »
٦١	تعظيمه أمر اليهود وتحقيره شأن المسلمين
٦٨	لماذا تأخر المسلمون ، وبماذا تقدموا من قبل

صفحة	
٨٠	دعواه أن التقدم لا يلزم أن يكون قائما على الدين والتقوى
٨٣	كلامه على الآيات الواردة في اليهود
٩٩	قوله القرآن لم يقدم لنا صك الضمان من خطر اليهود
١٠٦	تعظيمه أمر اليهود
١٠٩	اجترأه على المقام الاقدس بأنه قد وكل خليفته الى الطبيعة
١١٨	كلامه في النظام المفروض على الكون وأنه لا يتغير
١٢٠	قوله ان الانبياء والمصلحين جاءوا بالنظام والدعوة اليه ، وجوابه بأنه هو الذي يخرج عن النظام الى الدعوة للفوضى
١٢٤	قوله لا محاباة في السنن ولا وساطة ولا شفاعة
١٢٦	كلامه على آية ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾
١٣٣	كلامه على حديث « ان الشمس والقمر آيتان ... »
١٤٠	كلامه على حديث تلقيح النخل
١٤٧	كلامه على آية ﴿ فن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ﴾
١٥٧	ما قاله عن شراء الورق لكتابه بواسطة وزارة التوبين
١٦٨	الكلام على المبحث السابع : القضاء والقدر
١٧٤	زعمه أن عقيدة القدر تولد عقيدة عجز الانسان فيمتنع نجاحه
١٧٥	الايحاء الذاتي في أصول التربية الحديثة
١٧٧	قراءة القرآن ترشد الى الاعتماد على الله والاستعانة به
١٧٩	هل الانسان قادر على كل شيء ؟
١٨٠	جنوح الردود عليه الى كل ما كان يرمى به خصومه
١٨٤	قوله ان ساسة المتحاربين يتبارون في تقوية الايحاء
١٨٦	ما قاله عن ثقة ألمانيا بنفسها لما استعدت لحرب العالم
١٨٨	دعواه على المسلمين في عقيدة القضاء والقدر ، وهل الانسان هو فاعله أفعاله حقيقة
١٩٩	استهزأه بالاشعرية ، و اضافته اليهم ما لم يقولوا

صفحة	
٢٠٣	نسبته الى فقهاء الشافعية ما ليس من مذهبهم
٢٠٦	ادعائه على المسلمين الاعتذار بالقضاء والقدر عن كل نقص
٢١٧	تحريفه معاني القضاء والقدر
٢٢٥	الفرق بين فعل الله ومفعوله ، وخلقه ومخلوقه
٢٣٢	قول شيخ الاسلام ابن تيمية في الايمان بالقدر
٢٣٤	ارادة الله نوعان : قدرية كونية ، وأمرية شرعية
٢٣٨	كلامه في كون الموجودات مقدرة بالكم والكيف خارج عن محل النزاع
٢٤٠	كيف كان السلف يفهمون القدر
٢٤٤	استشهاده على المسلمين بشعر ابن هانيء شاعر العبيديين
٢٤٥	سلوكه في تفسير القضاء مسلكه في تفسير القدر
٢٤٨	الكلام على المباحث الثامن : في التوكل
٢٤٩	قوله : التوكل ، أخطأ الناس فيه ، كيف يجب أن يفهم
٢٥٣	ادعائه أن التوكل على الله هو الاعتماد على الأسباب
٢٥٤	تقوله على الفقهاء واستدلاله بأقوال مجهولة
٢٥٧	زعمه أنهم ذهبوا الى أن التوكل من الوكالة
٢٦١	تشجيعه بأن المسلمين لن يتقدموا مع ما نسب له من اعتقادات
٢٦٤	ضربه المثل بطفل يربي على التعاليم الاتكالية ، وجوابه
٢٦٧	الطفل الذي يربي على العقيدة الاسلامية الصحيحة في التوكل
٢٦٩	استصغاره الوثوق بالله والاستسلام له والتوكل عليه
٢٧٠	تفسير التوكل على الله بالاعتماد على الأسباب
٢٨٥	كلامه على حديث " من استرق أو اكتوى يري من التوكل "
٢٨٨	زعمه أن الله لا يدخل في الأسباب فيجعلها أن شاء أسبابا وأن شاء غيره
	أسباب ، وأن الاعتقاد بأن الله يفعل من غير أسباب هو السفه والفضول
٢٩٢	تفسيره التوكل بما ينافي تدبير الله لما له وتحمكه فيه
٢٩٦	كلامه في حديث " إن الله يلوم على العجز " ،

انكاره ان الله يفعل الخوارق والمعجزات	٣٠٣
كلامه على حديث صاحب الناقة ، اطلاقها وتوكلت ،	٣٠٧
خلاصة هذا المبحث	٣١٧
الاعتماد على النفس دون الله ، والاعتماد على الغير دون الله	٣١٩
الكتاب المردود عليه قام على الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر	٣٢٣
زعمه أن الانسانية هي التي أوجدت الحياة ، وبنت هذا المجتمع ، وسخرت كل هذه الطبيعة بعقولها وكواهلها بلا معين أو شريك	٣٢٩
الكلام على المبحث التاسع : في الاسباب	٣٣٣
النزاع معه ليس في تأثير الاسباب بالقوة المودعة فيها بقدرة الله ، بل في استقلالها بالنتائج بدون مشيئة الله وارادته	٣٣٤
الذي يحيط بالآفات وما تكون به الوفاة هو الله وحده	٣٣٨
ما تقوله على طائفة زعم أنها تنكر الاسباب	٣٤٠
كلامه على طائفة أخرى جردت الاسباب من التأثير	٣٤١
كلام شيخ الاسلام في الاسباب وقدرة العبد	٣٤٣
كلام لابن القيم في مذهب المغالين في القدر من الجبرية والجهمية	٣٤٤
استشهاد المردود عليه ببيت من الخريدة ، وجوابه	٣٤٩
كلامه على آية ذي القرنين (وآتيناه من كل شيء سبيلًا)	٣٥٢
استدلاله بآية (وتقطع بهم الاسباب)	٣٥٣
ما جاء عن الله ورسله في الاسباب	٣٥٤
الايمان بقدرة الله المطلقة والايمان بالاسباب	٣٦٠
تخلف المسييات عن أسبابها	٣٦١
زعمه أن الايمان بقدرة الله مقيد بما طبعت عليه الاسباب	٣٦٦
زعمه أن الاسباب لا تتخلف عن المسييات أبدا	٣٧١
قوله « ولا يفتك من هذا القانون أمر حتى الموت نفسه ،	٣٧٣

صفحة	
٣٧٤	تفسيره حلول الأجل باجتماع الأسباب
٣٧٧	كلامه على آية (أينا تكونوا يدرككم الموت)
٣٨٠	كلامه على آية (قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم)
٣٨٧	احتجاجة على غلوه في الاسباب باعتقاد المخالفين
٣٩١	تهكمه على العامة في مصر لكتابتهم هذين البيتين على متاجرهم :
	ملك الملوك اذا وهب لا تسألن عن السبب
	فانه يعطى من يشاء . فقف على حد الأدب
٣٩٧	ما كتبه الاستاذ الغمراوي في مقدمة (الشواهد) واصفا ما في كتاب (الاغلال) من الضغن على الاسلام والفتوح في أهله
٤٠١	الكلام على المبحث العاشر : في الاخلاق السلفية
٤٠٣	أماننا لا وراءنا
٤٠٨	زعمه أن العالم لا يرجع فيه شيء الى الوراء ، وأنه ينتقل من النقص الى الكمال
٤١٠	كلامه في تاريخ تطور الخليفة وخلق العالم
٤١٥	تمثيله للتطور بوزارة الارض
٤٢٦	اعتذاره عن الشيخوخة والموت في مذهب التطور
٤٢٧	كلامه على الذين قلدوا الزعامة الدينية ، وأهل القرون المفضلة ، وزعمه أن تقديمهم أعظم الاكاذيب العلنية في التاريخ
٤٣١	تذمره من اجماع أهل الملة على هذه الحقيقة
٤٣٤	كلامه على حديث « لا يأتي زمان الا والذي بعده شر منه » وحديث « لا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر »
٤٤١	بحثه عن سبب تقديم السلف على الخلف
٤٤٣	زعمه أن المسلمين يقولون « ما عجز عنه الأوائل لن يستطيعه الأواخر » وأن الأوائل بلغوا كل كمال

- ٤٤٦ زعمه أن جميع مؤلفات المسلمين من ألف سنة نقل ومسوخ لا قيمة لها
- ٤٥٠ الكلام على زعمه اعتقاد المسلمين بأن الاولين بلغوا الكمال المطلق
- ٤٥٢ دعوته الى تعليم الكفر بالسلف والشك فيهم واساءة الظن بعلمهم
- ٤٥٣ كلامه على ما ساء جهالة التقليد
- ٤٥٦ ثناؤه على تشرشل ، وتعليقه لسقوطه بعد انتزاعه النصر لقوميه من طواتر الهزيمة
- ٤٥٧ زعمه أن ما صنعه السلف وسائر الاموات من علماء المسلمين يستحقون عليه الرجم والتدمير والكفران الأبدى
- ٤٦٣ الكلام على خلاصة كتابه : المشكلة التي لم تحل
- ٤٦٥ الدين الباطل عنده أن يؤمن الانسان بالله وبقدرته الكاملة المتصرفه في هذا العالم
- ٤٦٧ الكلام على أن النصر الالهى لرسالات الله ، وأن الله ينتقم لانياته وأوليائه ممن يقتلهم أو يؤذيهم
- ٤٧٦ قوله دلا له بلا عمل وأثر ، وزعمه أن اعتقاد العمل والاثر لله بالمشيئة والتصرف حسب تصور المتدينين يوجب الارتباب بالاسباب . وهذا هي مشكلته التي لم تحل
- ٤٨٠ قوله اذا كانت الاسباب كافية فأين الله وأفعاله ، وإن كانت غير كافية فلا يعول عليها ويكون من يرى ذلك غير سبى
- ٤٨١ قوله ان المتدينين عجزوا عن تصور الهمم تصوراً يسمو على ما يشاهدون من القادرين الآخرين
- ٤٨٣ زعمه أن المتدينين - على اختلاف ديارهم وأزمانهم وأنياساتهم وأمزجتهم وأجناسهم - عجزوا عن أن يهبوا الحياة شيئاً جديداً ، وأن يكونوا فيها مخلوقات متألقة
- ٤٩٩ زعمه أن المؤمنين يرون أن الله ضمن أرزاقهم وتعهد بحمايتهم ورعايتهم في كل أمورهم أو جلها

- ٤٩٣ كلامه فيما يراه المتدين من وجوب العبادة لله وحده عاجزا في تناوله الأمور والحياة
- ٤٩٦ كلامه على أمل المؤمن في الآخرة، وزعمه أن الله يصرفه عن الأمل في الدنيا والعمل لها ، ولذلك يحزن المتدينون - بنظره - عن إجماد الحياة وعن النجاح فيها
- ٤٩٧ خطاه في تطبيق هذه القاعدة الباطلة على علي ومعاوية
- ٥٠٠ الرد على تحريجه في قول معاوية لابنه : أما فلان فقد أعجزه الورع ،
- ٥٠١ إيضاح مسألة علي ومعاوية وعلاقتها بالذين بغوا على عثمان وهو من أولياء الله وخليفة رسوله
- ٥٠٦ لو أن عليا انتصر على معاوية والبغاة على عثمان في جيش على لكان في ذلك نصر لهم ، وهذا خلاف ما علم من سنة الله في نصر أوليائه
- ٥٠٩ في أن معاوية وأصحابه لم يكونوا بغاة مستحقين للقتال ، وإنما كان ذلك القتال قتال فتنة ، وتركه من الطائفتين كان أولى ، ولو كان قتالا مشروعاً لاحتج على بمشروعيته . وعلى كل حال فإن قتلة عثمان هم أولى بأن يقتلهم كل مسلم
- ٥١١ حديث عمار : تقتلك الفئة الباغية ، ضعفه بعض الأئمة وتكلموا فيه
- ٥١٢ حديث : أهل بيتي كسفينة نوح ، حديث باطل
- ٥١٣ جميع القائمين بالفتنة على عثمان عوقبوا من جنس ما فعلوا
- ٥١٥ قوله لما كانت أوربا متدينة كانت في الهوان والعجز فلما مرت من إيمانها وتنازلات عن الأمل الأخرى وجعلت الصناعة والتجارة آلتها صعدت بالحياة
- ٥١٨ قوله لما كانت روسيا متدينة صالحة كانت مثلاً للفقير والضعف فلما مرق هؤلاء بها وصنعوا لها أرباباً آخرين قهرت ألمانيا
- ٥٢٢ قوله : وكذلك القول في تركيا وفي كل الأمم الحديثة والقديمة ،
- ٥٢٣ كلامه على اليابان والصين
- ٥٢٤ قوله وما أبدعت أمة إلا بقدر ما لديها من التأمل في هذه الحياة

- ٥٢٨ نقله قول غوستاف لوبون « الايمان بالله وحده كان نكبة على البشر ، وقوله
« لم تستطع الحضارة أن تخطو الا في عهود الوثنية ،
- ٥٣٤ قوله حتى في تاريخنا فان الذين لمحووا في الشعر والفلسفة عن وصفوا بالتردد
والانحلال الديني
- ٥٣٦ قوله ان بعض الدول الاسلامية تولى الوزارة والسفارة غير المتدينين
- ٥٣٨ قوله حتى لو أردنا أن نطبع هذا الكتاب لم نجد بدأ من الذهاب الى غير
الانقياء.
- ٥٣٩ قوله ان المتدينين يفقدون الميزان الفكري
- ٥٤٤ اتهامهم بتصديق ما لا يجوز على العقاقين
- ٥٤٥ ادعاؤه خضوع حتى حملة الشهادات العالية لدعاة أقل منهم في كل شيء.
- ٥٤٧ زعمه أن روح التسليم العقلي عند المتدينين ملازمة لهم منذ وجدوا وكيفت
وجدوا ، واستشهاد به شعر المعري
- ٥٥١ تحليله ذلك بأنهم ينكرون أن يكون بين أحداث الوجود ترابط
- ٥٥٤ اتهامه المتدينين بالقسوة إذا قدروا
- ٥٥٦ تساؤله : هل معنى ذلك أن الدين نفسه مفسد للبشر ؟
- ٥٥٧-٥٥٩ جوابه : كلا ، لكن اذا اخذ الدين على غير وجهه جاء مضراً ، وأن
البشر عاجزون عن فهمه وتصوره على وجه النافع
- ٥٦٠ الرد عليه بأن الله قد يسر للناس فهم الدين الصحيح النافع ، وبيان أدلة ذلك
من الكتاب والسنة ونصوص الأئمة
- ٥٦٧ زعمه أن المبادئ الانسانية العظيمة تأتي سابقة لاستعدادا بلهاير من البشر
- ٥٧٠ قوله أن من نتائج ذلك نهوض أقوام يحاربون الأديان
- ٥٧٢ تقسيمه الانسانية الى ثلاث حالات : ان تكون بلادين ، أو على دين باطل ،
أو على دين صحيح . ومناقشته في ذلك مع المقارنة بأقواله الأخرى
- ٥٧٦ المقصود من الكتاب المردود عليه رفض الدين والدعوة الى الإلحاد
- ٥٧٨ كلامه على ما يسر المستعمرين ويساعدون عليه من شئون المسلمين الدينية

صفحة	
٥٨٠	ادعاؤه أن الناس على دين محرف أى باطل
٥٨٢	كلامه على ما يسوم المستعمرين من تطور المسلمين في زعمه
٥٨٤	الجواب على تعريضه بملك اليمن السابق
	زعمه أن الدعاة الدينيين أقرب الى قلوب المستعمرين من الذين يوسمونهم
	بالإلحاد والزيغ
٥٨٥	حكايته عن مجهول أنه تظاهر بزي رجال الدين ليسهل له المستعمرون السفر الى بلاده التي تحت استثمارهم
٥٨٦	حكايته ما قال أنه وقع في البرلمان الفرنسي من مناقشة حول اعمال التبشير المسيحي في المغرب وموقف فرنسا اللادينية منه
٥٨٧	عودته الى أن الدين الذي عليه المسلمون محرف واهم وأنه نكبة على الجماعات والأفراد
٥٨٨	زعمه أن البشرية عاجزة عن فهم الدين على وجهه الصحيح ومحاولة تخفيف وقع هذه الأقوال بالتجائه الى النافقاء
	•
٥٩٥	قصيدة المؤلف و لقد ضل من أغراك بالسب والهجاء

تم بحمد الله

للطبعة الثانية - ومكتبتها
٢١ شارع الفتح * بحديقة الروضة (القاهرة)